



2007م

المجلد الخامس والأربعون

مكتبة دار العربية للكتاب

الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

شارع الطيران : الحي السابع - مدينة نصر

تليفون : 2878553 - ص. ب : 2022 - القاهرة

رئيس مجلس الإدارة : محمد رشاد

التصميم والغلاف : محمد حجي

التصحيح والمراجعة : محمد فتحي

التوزيع في مصر

الدار المصرية اللبنانية

16 ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : 23910250

برقياً : دار شادو - ص - ب : 2022 - القاهرة

e-mail info@almasriah.com

www. Almasriah.com

المراسلات والتوزيع الخارجي

أوراق شرقية

بيروت - النويري - شارع العريسي

ص. ب : 11/3031 - هاتف : 630794 - 644422 - برقياً : Distlevan

المدير المسئول : محمد عطوى

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب - 99/9440

الترقيم الدولي : 9-11-5366-977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

1430هـ - 2009م



تُصَدِّرُهَا

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المراسلات - الأستاذ الدكتور / عادل حسن غنيم

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

قطعة 4 بلوك 7 - المنطقة التاسعة - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : 24703903 - 24728294 - 24728296 - فاكس : 24728298

Email: Seehist@Yahoo.com

oboiikan.com



oboi.kan.com

تحيةة وعرفان

فقدت الأمة العربية والدراسات التاريخية صباح يوم الخميس الموافق 26 يونيو علماً من أعلام الفكر والثقافة والتاريخ ، هو المرحوم الأستاذ الدكتور / رءوف عباس حامد ، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ورئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

لقد تولى رءوف عباس حامد رئاسة الجمعية منذ عام 1999 ، فنهض بها نهضة غير مسبوقة ، فقد توافر مكان لائق بالجمعية ، أقامه سمو الشيخ الدكتور / سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة ، وعضو المجلس الأعلى للدولة الإمارات العربية المتحدة، بعد أن تعثرت الحالة المالية للجمعية وأصبحت مهددة بالطرد من مكانها ؛ نتيجة لصدور قانون إيجارات الأماكن غير المخصصة لأغراض السكنى ، الذي ضاعف إيجار المقر إلى ثمانية أضعاف ، مع زيادة سنوية في القيمة الإيجارية ؛ مما دعا الجمعية إلى البحث عن وسائل مختلفة لدعم أنشطتها ، ولقيت الجمعية استجابة مؤقتة من بعض رجال الأعمال ، على رأسهم المرحوم سعد فخري عبد النور ، ومن وزير الثقافة والتعليم العالي والبحث العلمي .

ولكن مجلس الإدارة رأى أن هذه التبرعات والإعانات غير كافية لاستمرار الجمعية في أداء رسالتها ؛ فلجأ إلى بعض رعاة الثقافة في الوطن العربي ، طالباً مساعدته في امتلاك مقر خاص بها .

وبناء على اقتراح من رءوف عباس ، وافق مجلس الإدارة على الكتابة إلى سمو الشيخ الدكتور / سلطان القاسمي ، الذي لقيت الجمعية منه استجابة كريمة ، فأهدى سموه للجمعية المقر الحالي بمدينة نصر ، في حفل أقيم بمقر الجمعية ، مساء الأربعاء 23 مايو 2001م .

ومنذ انتقال الجمعية إلى مبناها الجديد ، أصبحت تفتح أبوابها طوال اليوم للباحثين ، بعد أن كانت تفتح أبوابها فترة مسائية فقط .

وعلى يد رءوف عباس اتسع نشاط الجمعية الثقافي ؛ فإضافة إلى الموسم الثقافي للجمعية وندوتها السنوية ، تبت الجمعية سمنار التاريخ العثماني للباحثين الشبان ، وأصبح هناك سمنارات في التاريخ القديم والتاريخ الوسيط والإسلامي والتاريخ الحديث والمعاصر .

كما اتسع النشاط في مجال النشر ، فإضافة إلى «المجلة التاريخية المصرية» التي تصدر بشكل سنوي ، تم طبع ستة كتب تضمنت بحوث الندوات ، وخمسة كتب أخرى تضمنت أعمال سمنار التاريخ العثماني ، إضافة إلى تبنيه إصدار كتاب «الحملة الفرنسية» ، الذي يتضمن إعادة قراءة لهذا الحدث بنظرة أكثر موضوعية ، اعتماداً على الوثائق الفرنسية والمصرية الأصلية .

وفي عهد قيادة رءوف عباس للجمعية ، تم ربطها بشبكتي الإنترنت والكمبيوتر ، كما تم ميكنة الكتب العربية بالمكتبة ، ويجري في الوقت الراهن ميكنة الكتب الإفرنجية .

وفي تقديرنا أن عهد رءوف عباس بالجمعية يمثل الفترة الذهبية في تاريخ الجمعية ، منذ إنشائها في 30 يوليو 1945 ، والتي تعاقب على رئاستها منذ ذلك التاريخ عدد من أبرز المفكرين والمؤرخين المصريين ، بدءاً من محمد طاهر باشا ، ومروراً بالأستاذ / محمد شفيق غربال و أ.د. أحمد بدوي و أ.د. أحمد عزت عبد الكريم ، و أ.د. إبراهيم نصحي قاسم ، وانتهاءً بالأستاذ الدكتور / رءوف عباس حامد .

تحية تقدير وعرفان للمؤرخ الجليل والمفكر الكبير رءوف عباس حامد ، ودعوات إلى الله أن يدخله فسيح جناته ويلحقه بالصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

**نقوش البطاقات ومدلولاتها في
عصر فجر الأسرات السومري**

د/ رضا محمد سيد أحمد

أستاذ التاريخ القديم المساعد
كلية الآداب – جامعة المنصورة

oboiikan.com

نقوش البطاقات ومدلولاتها في عصر فجر الأسرات السومري

يتناول هذا البحث بالدراسة نقوش البطاقات في عصر فجر الأسرات السومري، وهي بطاقات صغيرة مستطيلة أو مربعة الشكل^(١)، ظهرت في أواسط هذا العصر وشاعت في أواخره، ووجدت في مناطق متفرقة بجنوب العراق مثل: خفاجي وتلو وتل فاره وتل أجرب وتل أسمر وتل العبيد وأور (شكل 1)، وصنعت غالبًا من الحجر ونادرًا من الخشب أو المعدن وأحيطت نقوشها بإطار زخرفي بارز، وكانت أمثالها تثبت في جدران هياكل المعابد عن طريق فجوات أو ثقب مربعة أو مستديرة الشكل تتوسطها، أو تثبت في جدران قاعات القصور لأغراض الزخرفة والزينة باعتبارها مقتنيات تذكارية ثمينة^(٢)، وقد سجلت نقوشها صورًا عديدة من الحياة المدنية والدينية والحربية التي جرت في مجتمعتها وذلك في حدود ما سمح به ضيق مساحاتها.

(*) يفضل العلماء اعتبار هذه القطع بطاقات "Plaques" أفضل من كونها لوحات صغيرة، وذلك لصغر حجمها ووجود ثقب يتوسط أغلبها لتعلق منه، بل وكذلك تكفيت بعضها وبخاصة المصنوعة من الخشب بالنحاس وتشكيل صور نقوشها بالأصداف وبعض الأحجار الكريمة، باعتبارها من المقتنيات الثمينة التي تؤلف قطعًا فاخرة بالقصور.

See . E . g . H . Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient, Penguin Books 1958, 33f, PLS, 36-37 .

(1) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج1 (مصر والعراق)، ط2، القاهرة؛ 1976، 407. وعن أمثال هذه البطاقات في مصر القديمة وبخاصة العصر العتيق وصناعة أغلبها من العاج والخشب، انظر: رضا محمد سيد أحمد، العاج والمصنوعات العاجية في مصر القديمة حتى نهاية العصر العتيق، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار - جامعة القاهرة، 1989، 282 وما بعدها.

ويعرض البحث لنقوش هذه البطاقات ومدلولاتها من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : نبذة عن عصر فجر الأسرات السومري .

المبحث الثاني : الدراسة الوصفية لنقوش البطاقات .

المبحث الثالث : الدراسة التحليلية لنقوش البطاقات .

المبحث الأول

نبذة عن عصر فجر الأسرات السومري

يمثل عصر فجر الأسرات السومري بداية العصور التاريخية في بلاد النهرين ، وذلك في فترة تراوحت تقديرات المؤرخين بشأن بدايتها بين أوائل القرن الثلاثين ق.م والقرن الثامن والعشرين ق.م⁽²⁾ ، ويقسم العلماء هذا العصر إلى ثلاث فترات تاريخية :

- عصر فجر الأسرات السومري الأول 2900 - 2750 ق.م .
- عصر فجر الأسرات السومري الثاني 2750 - 2600 ق.م .
- عصر فجر الأسرات السومري الثالث 2600 - 2334 ق.م⁽³⁾ .

وقد تعددت مراكز التجمع والتحضر في هذا العصر في النصف الجنوبي من سهول النهرين ، والذي عبرت عنه النصوص المسماة باسم (كي إن جي : Ki. En. Gi) أو باسم (كلام أو كلاما) ، ومنذ القرن الخامس والعشرين عبرت النصوص المسماة عنها باسم (سومر أو شومر) وهو الاسم الذي جاءت منه تسمية السومريين ، وقد عرف الساميون من بعدهم هذا الجزء الجنوبي باسم (مات شوميريم) بمعنى "أرض شومير ، وشاع استخدامه بعد ذلك وأصبح ملوك العراق يلقبون أنفسهم بلقب "ملك سومر واكد"⁽⁴⁾ .

وقد تعددت الآراء بشأن الموطن الأصلي للسومريين وانحصرت في افتراضات أربعة وهي :

- 1- أنهم نزلوا إلى العراق من المرتفعات الشمالية والشمالية الشرقية عن طريق أرمينيا وإيران .

(2) هناك من يعتقد أن هذا العصر يمتد من (2850 - 2360 ق.م) .

See . W . L . Langer, An Encyclopedia of World History, Fifth ed ., London, 1971, 29 .

(3) G . Raux, Ancient Iraq, 3rd . Penguin Books, 1992, 112 .

جدير بالذكر أن العلماء العراقيين يفضلون استخدام "سلالة" بدلاً من لفظ "أسرة أو أسرات" .

انظر عن استخدام هذا اللفظ في دراسات هذا المجلد ، نخبة من الباحثين العراقيين ، حضارة العراق ، ج4 ، بغداد ، 1985 .

(4) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 384؛ محمد الشحات شاهين ، تاريخ وحضارة العراق القديم ، القاهرة ، 2001 ، 93 .

2- أنهم بدؤوا مما وراء القوقاز أو مما وراء بحر قزوين اندفعوا إلى غرب إيران في أواخر عصور ما قبل التاريخ في العراق .

3- أنهم هاجروا من منطقة ما بين الهند وأفغانستان وبلوخرستان واستقروا فترة في غرب إيران ثم نزلوا بلاد النهرين عبر الخليج العربي وجزره .

4- أنهم من العراق وسكنوا فيه في عصور ما قبل التاريخ وأن حضارتهم أصلية في العراق⁽⁵⁾ .

ويذكر "عبد العزيز صالح" أن هذه الآراء جميعها بحاجة إلى قرائن جديدة تؤيدها ، وأن الذي لا شك فيه انتفاع السومريين بالحضارات التي سبقتهم في بواكير العصر الكتابي ثم طوروا هذا إلى ما يتفق مع مطالب عصرهم وأذواقه⁽⁶⁾ .

وهذا العصر الذي امتد أكثر من خمسة قرون ، غابت فيه الوحدة السياسية الكاملة عن بلاد النهرين ، واعتمدت الحياة السياسية فيه على ما أصبح يسمى "دويلة المدينة : City-State" ، وتلقب رأس الحكم في المدينة في بداية الأمر بـ "إنسى" ربما بمعنى النائب أو الوكيل ، ثم أصبح بعد فترة يلقب كل منهم بـ "لوجال" بمعنى الرجل

(5) I . M . Diakonoff . "The Rise of the Despotic State in Ancient Mesopotamia" in : Ancient Mesopotamia, Moscow, 1969, 173f.

محمد أبو المحاسن عصفور ، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، الإسكندرية ، 1968 ، 345 ؛ محمد بيومي مهران ، تاريخ العراق القديم ، الإسكندرية ، 1990 ، 94 وما بعدها .
وجمعت الأبحاث الرئيسية حول هذه المشكلة في :

T . Jones . (Ed) : The Sumerian Problem, New York, 1969 .

(6) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 388 .

جدير بالذكر أن "جورج رو" قد توصل بعد جهد شاق إلى أن هذه المناقشات حول أصل السومريين أشبه بسراب قد لا يكون واقعاً ، واقترح أنهم بمثابة خليط من الشعوب وربما من الأجناس كانوا موجودين بالعراق منذ زمن أقدم من حضارة العبيد وأن حضارتهم (مثلنا في الوقت الحاضر) مزيج من العناصر الأجنبية والمحلية الأصلية .

See, G . Raux, Op . Cit, 82ff .

الجليل وبها يرادف لقب ملك ، وقد ترتب على هذا النظام السياسي في سومر أن تعاصرت دويلات وأسر حاكمة كثيرة في مثل مدن أور ولجش وكيش وغيرها من مدن الجنوب العراقي ، وقد زاد هذا الأمر من فرص المشاحنات بين هذه المدن بعضها البعض على الحدود والنفوذ وقلل من فرص الانطلاق الدولي الواسع لديها ، وإن سمح في الوقت نفسه لحكامها بالتفرغ لأحوال دويلاتهم وإمامهم بمشاكلها لانهصار رقعتها ومحاولة النهوض بحضارة مدينتهم محلياً بما يناسب إمكانياتها⁽⁷⁾.

ويعد اختراع الكتابة أبرز ما توصل إليه السومريون في عصر فجر الأسرات ، وغير الصورة عند العراقي القديم من حيث تدوين أفكاره وإحساساته وأساطيره وأخباره وخبراته وقيم نفسه كما يقيم الكون لكل العصور اللاحقة⁽⁸⁾.

وقد ظهرت تباشير الكتابة منذ المراحل الأخيرة لحضارة الوركاء ، وبدأت بالطريقة التصويرية⁽⁹⁾ ، ثم تطورت على أيدي السومريين إلى مرحلة الصوتية ، واختصروا العلامات المسماة المستخدمة في لغتهم حتى وصلت إلى حوالي 500 علامة في بداية

(7) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 398 وما بعدها .

ولمزيد من التفاصيل عن قائمة للملوك السومريين والتي عثر على العديد من نسخها وتسجل أسماء الملوك الذين حكموا في هذه الأسرات قبل الطوفان وبعده وإن أغفلت هذه القائمة بعض الأسرات الحاكمة في مثل مدن لجش وكذا بالغت في عدد سنوات حكم ملوك الأسرات التي حكمت قبل الطوفان .

See . Th . Jacobsen , The Sumerian King - List , University of Chicago Press , 1939 ؛ M . Roaf . Cultural Atlas of Mesopotamia and Ancient Near East , New York , London , 1990 , 83ff ؛ A . Kuhrt , "The Ancient Near East , C , 3000 - 330BC , Vol I , Routledge , London , New York , 1995 , 29f .

طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج 1 ، بغداد ، 1986 ، 290 وما بعدها ؛ محمد الشحات شاهين ، المرجع السابق ، 124 وما بعدها .

(8) فرانكفورت وجون ويلسون ، ما قبل الفلسفة ، ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا ، 1960 ، 149 .

(9) H . Freydkank , Introduction to the Languages of the Ancient Near East (Lectures in M . Roaf , Op . Cit , 69 ؛ Zagazig University) Egypt , 1989 , 15f

فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ، بغداد ، 1972 ، 20 .

الألف الثانية ق. م بعد أن كانت في بداية استخدامها تصل إلى حوالي 1000 علامة مسارية ، وهذه اللغة غير معربة وهي لغة إلصاقية تعتمد على إلصاق كلمة بأخرى لتعطي كلمة جديدة ، وبها ثلاثة حروف علة قصيرة وأخرى طويلة والحروف الصحيحة بها ستة عشر حرفاً⁽¹⁰⁾ .

هذا وقد انتفع السومريون في عصر فجر الأسرات بالحضارات التي سبقتهم في بواكير العصر الكتابي ثم طوروها إلى ما يتفق مع مطالب عصرهم وأذواقه ، وبخاصة في أساليب البناء باللين وأساليب النقش ، وقد ظل من أساليب بنائهم باللين أطلال معابدهم الكبيرة الأكثر بقاءً من غيرها ، وبقي منها معبد في بلدة خفاجي وآخر في العقير وثالث في بلدة العبيد ، وقد احتفظت هذه المعابد بتمائيل لأربابها وحكام مدنها وربما كبار كهنتها ، وكذلك ببعض اللوحات والأواني ، وقد أخذ السومريون كغيرهم من أصحاب الديانات الوضعية القديمة بتعدد الأرباب والربات واشتهر منهم الآلهة الأربعة الخالفة وهم "آن" رب السماء و"إنليل" رب الريح و"إنكى" الإله الموكل بمياه الغمر ، والآلهة الأم "نينخور ساج" ، وإلى جانبهم ثلاثة آلهة سماوية وهم "سين" رب القمر و"أوتو" رب الشمس ، والآلهة "إينانا" التي عرفت عند الساميين باسم "عشتار" سيدة السماء وإلهة كوكب الزهرة⁽¹¹⁾ .

(10) لمزيد من التفاصيل عن هذه اللغة وحروفها وقواعدها :

See, S . A . Pallis, The Antiquity of Iraq, Copenhagen, 1956, 232ff ; Freydanck, Op . Cit, 18ff ; M . L . Thomsen, The Sumerian Language, Copenhagen, 1984, 40ff .

فوزي رشيد ، المرجع السابق ، 24 وما بعدها؛ عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 389 وما بعدها؛ عامر سليمان ، "التراث اللغوي" ، مقال في : مجلد حضارة العراق ، ج1 ، بغداد ، 1985 ، 280 وما بعدها ، محمد الشحات شاهين ، المرجع السابق ، 146 وما بعدها .

وعن المحاولات العديدة لفك رموز هذه الكتابة إلى أن نجح "رولنسن" في فك رموزها انظر : صمويل كرامر ، السومريون ، ترجمة : فيصل الوائلي ، الكويت (د.ت) ، 14 وما بعدها .

(11) صمويل كرامر ، المرجع السابق ، 155 وما بعدها؛ عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 393 وما بعدها .

أما أساليب النقش التي طورها السومريون أيضًا في هذا العصر ، فيعكسه ما بقي من نقوش أختامهم الأسطوانية والمقامع والأواني الحجرية والفخارية والنصب من حيث أساليبها العامة وقطعها الممتازة⁽¹²⁾ ، فضلاً عن نقوش البطاقات (أو اللوحات الصغيرة) التي نعرض لها في هذا البحث .

· طارق عبد الوهاب مظلوم ، "النحت في عصر فجر السلاطات حتى العصر البابلي الحديث" ، مقال

في : مجلد حضارة العراق ، جـ4 ، بغداد ، 1985 ، 25 ، وما بعدها .

عادل ناجي : "الأختام الأسطوانية" ، مقال في : مجلد حضارة العراق ، جـ4 ، بغداد ، 1985 ، 219 ، وما بعدها .

المبحث الثاني الدراسة الوصفية

أولاً : النقوش ذات الطابع الديني :

1- بطاقة من تلو⁽¹³⁾ توجد بمتحف اللوفر ، تمثل أقدم البطاقات الحجرية المنحوتة نحتاً بارزاً في عصر فجر الأسرات السومري ، والبطاقة يحملها نقش لشخص ملتح بلحية كثة تصل إلى أعلى الصدر ، ويقف أمام ثلاثة صوالمج يمسك بأحدها ، وقد صور عاري الصدر ويرتدي تنورة طويلة فضفاضة تمتد إلى ما بعد الركبة ، وظهر على رأسه تاج مكون من ريشتين مثبتتين بعصابة أعلى الجبهة ، والبطاقة عليها كتابة بخط قديم ذكر فيه اسم الإله "نين جرسو"⁽¹⁴⁾ ربا كان هذا الرجل يمثل أحد كهنة هذا الإله

(13) تلو (أولجش - شربولا) موقعها على الضفة الشرقية من شط الحي على نحو من ثلثي امتداده من دجلة إلى الفرات ، وتبعد عن أور بمسافة ثلاثين ميلاً تقريباً ، وقد عثر "دي سارسك" القنصل الفرنسي في البصرة في الفترة من 1877 - 1891م على آثار كثيرة من عصر فجر الأسرات السومري بها وبخاصة مسلة إياناتم الشهيرة .

دورثي مكاي ، مدن العراق القديمة ، ترجمة : يوسف يعقوب مسكوني ، ط 3 ، بغداد ، 1961 ، 92 وما بعدها . ولزبد من التفاصيل عن "تلو" :

See, G . Contenau, Les Fouilles de Tello, Paris, 1938 ; A . Parrot, Tello - Vingt Campagnes de Fouilles (1877 - 1933), Paris, 1948 .

(14) "نين جرسو" يعني اسمه "سيد جرسو" التي تمثل ضاحية مقدسة تجاور لجش وسمي معبده فيها "إنينو" وهو إله العاصفة عند السومريين وزوجته هي "بابا" وله ولدان هما "جال أليم" و"شول شاجا" ، وهذا الإله كان يعمل مع الإله "إيا" إله السحر ويحارب مع ابنه "مردوك" ضد أرواح الشر والسحرة وقوى الشر قاطبة ، وهو على صلة بـ "شمش" ومن ثم فهو يرمز للعدالة ، ثم هو ينفذ أحكام "أنوم" إله السماء وهو حارس سر "إنليل" وقد صورته السومريون بهيئة نسر مهيب بجناحين كبيرين ورأس أسد (أو لبؤة) وكانوا إذا صوروه على هيئة بشرية جعلوا وجه الأسد شعاراً لردائه أو لمقعده عرشه أو لموطئ قدمه ، وقد ظهر الإله على لوحة العقبان للملك "إياناتم" حاكم لجش وهو يزجي الشكر ويصب القرابين في حضرته .

عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 297؛ صمويل كرامر ، المرجع السابق ، 149 وما بعدها ولزبد من التفاصيل عن عقائد السومريين .

See, S . N . Kramer, Sumerian Mythology, 1944 .

ويشترك بتاجه ذي الريشتين والصوالج التي أمامه في أحد الاحتفالات الدينية المرتبطة بعبادة هذا الإله .

هذا ويذكر "طارق عبد الوهاب مظلوم" أن الكتابة الموجودة على هذه البطاقة ذات أهمية خاصة ، حيث تمثل الخط المسماري لفترة الانتقال من بواكير العصر الكتابي إلى عصر فجر الأسرات السومري (أي الانتقال بالكتابة من المرحلة التصويرية إلى المرحلة الصوتية)⁽¹⁵⁾ ، (شكل 2) .

2- بطاقة من تلو من الحجر الجيري توجد بمتحف اللوفر ، يحليها نقش بارز يمثل شخصين أحدهما حليق الرأس والآخر بشعر طويل معقوص ولحية كثة ، وكلاهما يضع يديه معقودتين على الصدر ويرتديان ثوبًا فضفاضًا يمتد إلى ما تحت الركبة وينتهي بشرائط طويلة مدببة الأطراف مرسلة في صف واحد وكتب اسم كل منهما عليه ، وقد بدت ملامح وجه الرجلين بعيون جاحظة وأنف أقنى كبير ، ويغلب على الظن أنهما من ذوي الحيشة وربما كانا يشاركان في أحد الاحتفالات أو الطقوس الدينية ، حيث ارتبط تصوير الأفراد بيدين معقودتين على الصدر في نقوش هذه الفترة بالمشاركة في الاحتفالات الدينية⁽¹⁶⁾ (شكل 3) .

3- بطاقة من الحجر الجيري مربعة الشكل ، يحليها نقش بارز في صفين أفقيين يفصل بينهما خط أفقي بارز ربما يرمز إلى الأرضية التي يقفون عليها أو يحول دون تداخل صور الأشكال في الصفين مع بعضهما البعض ، وقد صور جهة اليمين في الصفين معبود ملامحه غير واضحة ويقف من أمامه في الصف العلوي بعض الأفراد في خشوع وتقوى رافعين أيديهم بالدعاء ، بينما يقدم الأفراد المصورون في الصف السفلي

(15) طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، 33 وما بعدها (لوح 10 د) .

(16) ديلابورت ، بلاد ما بين النهرين ، ترجمة : محرم كمال ، مراجعة : عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة (د. ت) ، 216 ، شكل 17 .

جدير بالذكر أن تصوير الأفراد بيدين معقودتين في نقوش بطاقات عصر فجر الأسرات السومري يشبه إلى حد كبير الهيئة أو الوقفة الأوزيرية في فن النحت والنقش المصري القديم . لمزيد من التفاصيل عن أوزيريس وعبادته والهيئة التي شاع تصويره بها في الفن المصري القديم . انظر : محمد عبد القادر ، الديانة في مصر الفرعونية ، القاهرة ، 1984 ، 176 وما بعدها ؛ إرمان ، ديانة مصر القديمة ، ترجمة : عبد المنعم أبو بكر وأنور شكري ، القاهرة ، 1997 ، 48 وما بعدها .

بعضاً من نذورهم وقرابينهم للمعبود في فرح وسرور لعله يقربهم منه ويشفع لهم عنده⁽¹⁷⁾ (شكل 4) .

4- بطاقة مربعة من الحجر الجيري من خفاجي تُعرض جزء كبير منها للكسر ، والبطاقة يحليها نقش بارز لهيئة شخصين بأيدي معقودة على الصدر ، وصور أحدهما حليق الرأس بينما الآخر يرتدي غطاء للرأس يشبه العمامة (الثربان) التي يرتديها جوديا في تماثيله⁽¹⁸⁾ ، ويرتدي الرجل حليق الرأس تنورة طويلة واسعة تمتد من وسطه وتصل إلى العرقوين وترك صدره عارياً ، بينما يرتدي الرجل ذو العمامة عباءة واسعة كاسية تغطي الكتف اليسرى وجزءاً من ذراعها وتمرت تحت إبط الكتف اليمنى ، ويغلب على الظن أن رداء الرجلين كان من أصواف الأغنام المشطية تمشيطة جيداً ، ويبدو أنها من ذوي الحيشة ومن طريقة وضع أيديهما ربما كانا يشاركان في أحد الاحتفالات الدينية⁽¹⁹⁾ (شكل 5) .

5- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري وجدت بمقصورة معبد الإله "آبو" بتل أسمر ، بها ثقب مستدير بارز في الوسط ، يحليها صورة شخص جالس إلى يسار النقش بشعر كثيف يصل إلى أعلى الكتفين وتنورة طويلة تمتد إلى ما تحت الركبة ، وفي الجانب الأيمن من نقوش البطاقة مجموعة القرايين الموضوعة على مائدة شكلت أرجلها على هيئة رجل الثور ، ويسوقها أحد الخدم ويقدمها لإله المعبد ، والقطعة مكسورة إلى جزئين ونقوشها رديئة⁽²⁰⁾ (شكل 6) .

(17) طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، (لوح 10 ج) .

(18) H . Frankfort, Op . Cit, PLs ., 48 - 49 .

(19) H . Frankfort, Sculpture of the Third Millennium B . C . from Tell Asmar and Khafajah, OIP XLIV, Chicago, 1939, PL, 114, No ., 201 .

عن تماثيل من "ماري" أحدهما لرجل والآخر لامرأة ، كلاهما يرتدي رداءً مشابهاً لرداء هذين الرجلين المصوريين على البطاقة ويعرف باسم "الكوناكيس" .

See, A . Parrot, "Les Fouilles de Mari", in : Syria XVI, 1935, PL ., XXIII, 1-2 .

يعتقد البعض أن الملبوس السومري "الكوناكيس" كان يتخذ من جلد الخروف مع فرائه ويحليه زخرفة على شكل وريقات مدببة مختلفة الحجم .

انظر : وليد الجادر ، "الأزياء والأثاث" ، مقال في : مجلد حضارة العراق ، ج4 ، بغداد ، 1985 ، 325 وما بعدها .

(20) H . Frankfort, Sculpture, 48, PL, 112, No, 199 .

6- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من المعبد المربع للإله "أبو" بتل أسمر ، بها كسر واضح في المنتصف ، عليها نقش في صفين أفقيين لأفراد مصورين بأيدي معقودة على الصدر ويقدمون في خشوع وتقوى قرايئهم لإله المعبد⁽²¹⁾ (شكل 7) .

7- قطعة من الحجر الجيري من المعبد البيضاوي بخفاجي⁽²²⁾ بها كسر في الوسط ، ويحليها نقش بارز لبعض الأفراد وهم يسوقون نذورهم وأنعامهم هدايا للمعبد وإلهة ، وقد ظهر هؤلاء الأفراد بشعور طويلة تمتد إلى أعلى الصدر ويرتدون تنورة طويلة تصل إلى العرقوين⁽²³⁾ (شكل 8) .

8- بطاقة من الحجر الجيري من "تلو" ارتفاعها (40 سم) وتوجد بمتحف اللوفر ، بها ثقب دائري في الوسط ، ويحليها نقش يمثل الملك "أورنانشه" حاكم لجش⁽²⁴⁾ مع أولاده وزوجته ورجال الحاشية⁽²⁵⁾ ، وظهر أورنانشه في مناظر البطاقة في وضعين مختلفين ، الأول منهما في أعلى المنظر ويظهر فيه حاملاً قصعة ملاط على رأسه باعتباره باني المعبد

(21) I bid, PL, 110, No, 194 .

(22) عن هذا المعبد : P . Delougaz, The Temple Oval at Khafaje, 1940 .

(23) H . Frankfort, Op . Cit, PL, 110, No, 195 .

(24) نصب "أورنانشه" نفسه ملكاً في مدينة لجش حوالي (2450 ق . م) وأسس سلالة قدر لها أن تدوم خمسة أجيال ، وخلف وراءه حوالي خمسين نصاً تسجل أخبار المعابد وحفر القنوات ونحت التماثيل الإلهية ، وربما كان من منطقة تعرف باسم "تيد نوم" إلى الغرب من بلاد سومر . انظر : صمويل كرامر ، المرجع السابق ، 71 .

وعن لوح حجري وجد في مدينة "أور" عليه صورة "أورنانشه" واسمه واحتمال أنه حكم هذه المدينة أو أنها كانت خاضعة لنفوذه . انظر : محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، 104 .

وعن انتساب هذا الملك للمعبودة السومرية "نانشه" التي تنتمي إلى مجمع الآلهة في لجش ولها معبد صغير قرب المدينة ، ويعتبرها السومريون ابنة للإله "إنكي" وعرف عنها قدرتها على تفسير الأحلام ومراقبة الموازين والمقاييس ، وأنها لعبت دوراً مهماً في مجال سلوك الإنسان الخلقي والروحي ، وأنها كانت حاكمة للبشر في يوم رأس السنة الجديدة .

راجع : محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، 104؛ صمويل كرامر ، المرجع السابق ، 165 وما بعدها .

Also, J . Black and A . Green, Gods Demons and Symbols of Ancient Mesopotamia, London, 1992, 133 .

(25) يذكر "عبد العزيز صالح" أن الفنان في هذه البطاقة تخلى عن غير قصد عن الخطوط الأفقية التي كانت تصور عليها الأشكال في مثل هذه البطاقات آنذاك . انظر : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 407 .

ورمزًا على اشتراكه الفعلي في وضع أساسه ، أما الوضع الثاني في أسفل المنظر فقد ظهر جالسًا على مقعد صغير ويده قدح محتفلًا مع أولاده وحاشيته بإنجاز بناء المعبد⁽²⁶⁾ ، وصور "أورنانشه" على البطاقة بحجم أكبر من سواء دليل على أهميته ، وهي بادرة جديدة في النحت البارز في هذا العصر واستمرت بعد "أورنانشه"⁽²⁷⁾ ، وقد صوره الفنان حليق الرأس ويرتدي تنورة واسعة فضفاضة - ربما كانت من أصواف الأغنام الطويلة المشطّة تمشيطةً جيدًا - تبدأ بثنية عريضة عند الخصر وتنسدل إلى قرب العرقوين وتكسوها أهداب (من خيوط معقودة) تتعاقب في صفوف يتلو بعضها بعضًا على هيئة جزءة الغنم .

وقد ظهرت زوجة "أورنانشه" في مواجهته في الصف الأعلى من البطاقة بشعر مرسل طويل وثوب كاسٍ واضعة يدها اليمنى على الصدر ، أما أبناء "أورنانشه" ورجال حاشيته فقد ظهروا في صفين أحدهما أعلى المنظر والآخر أسفله وذلك في مواجهة صورة الملك في الخالتين ، وقد مثل كل منهم بيدين معقودتين على الصدر (ربما كان هذا من الأوضاع المحببة عند أهل هذه الفترة عند المشاركة في أحد الاحتفالات الدينية احترامًا لهذه المناسبات) ، وشفع كل منهم أيضًا باسمه على ردائه الذي ينسدل إلى ما تحت الركبة ، وقد ظهر خلف "أورنانشه" أعلى وأسفل البطاقة شخص (ربما أحد الخدم) رافعًا بيده اليمنى إناءً صغيرًا ويقدمه للملك (شكل 9) .

ثانيًا : النقوش التي تهتم بتصوير الحفلات الخاصة والولائم :

1- بطاقة من معبد شارًا بتل أجرب بها ثقب مربع بارز في المنتصف ، والبطاقة فُقدت أجزاء كثيرة منها ، ويحليها نقش بارز من ثلاثة صفوف أفقية ، ويؤرخها "فرانكفورت" ببداية عصر فجر الأسرات السومري ، والبطاقة مصور عليها في

(26) H . Fankfort, The Art and Architecture, 33, PL ., 33b .

ويذكر "فرانكفورت" أن الصور والأشكال المثلثة على هذه البطاقة تبدو مجسمة أكثر من كونها نقشًا بارزًا .

(27) طارق عبد الوهاب مظلوم ، 37 (لوح 12 ج) .

See also, De Sarzec, "Decouvertes en chaldee" in : Encyclopedie Photographique de L, art . I, 1976, PL, 2bis

الصفين العلوي والأوسط بعض أثرياء القوم وهم جالسون على مقاعد وثيرة ويمسك كل منهم بيده اليمنى قدحاً به شراب يقدمه له أحد الخدم، بينما اليد اليسرى لكل منهم بها غصن مورق، وقد ظهر هؤلاء الرجال بشعر كثيف يتدلى إلى أعلى الصدر ويرتدي كل منهم تنورة فضفاضة واسعة تمتد إلى ما تحت الركبة، هذا وقد صور أمام الرجل الجالس إلى اليمين في الصف الأوسط إناء بيضاوي كبير ربما كان به الشراب الذي يتناولونه في الحفلة، وقد ظهر الخادم في الصفين واقفاً مرتدياً تنورة قصيرة تمتد من وسطه وتصل إلى الركبة وتنتهي بشرائط أفقية مدببة الأطراف مرسلة في صف واحد، وبشعر يتدلى منه ضفيرة إلى جانبي وجهه⁽²⁸⁾.

أما الصف السفلي من نقوش هذه البطاقة فقد بقي من نقوشه صورة رأس أسد (أو لبؤة) يهاجم أحد الحيوانات ربما ثوراً أو بقرة لم يبقَ من جسمه إلا الجزء الخلفي، ويقف وراءه أحد الخدم الذي بقي من صورته رأسه الحليق وجزء من قدميه، وربما كان يدفع الأسد عن مهاجمته للثور أو البقرة⁽²⁹⁾ (شكل 10).

2- بطاقة من الحجر الجيري من خفاجي ارتفاعها 33 سم⁽³⁰⁾، بها ثقب مربع في الوسط، يحليها نقش بارز في ثلاثة صفوف أفقية يفصل بين كل صفين فيها خط أفقي بارز، وكرس الصف الأعلى منها لمشهد الوليمة أو الحفلة الخاصة لرجل وزوجته، ويحتل الرجل جهة اليمين من الصف جالساً على مقعد فخم وصوره الفنان بلحية كثة وشعر مرسل طويل على هيئة ضفائر تتدلى إلى أعلى الصدر، ويرتدي الرجل تنورة نصفية فضفاضة تمتد إلى أعلى الركبتين بقليل ويمسك بيده اليسرى غصناً من جريد النخيل

(28) ربما كان مثل هذه الحفلات التي يشارك فيها الرجال فقط مرتبطاً بالاحتفال برأس السنة الجديدة والذي كان يحتفل به لعدة أيام بإقامة الولائم والاحتفالات الخاصة وهو من أهم الأعياد عند السومريين. انظر: صمويل كرامر، المرجع السابق، 187.

(29) H. Frankfort, More Sculpture from the Diyala Region, OIP LX, Chicago, 1943, 13, PL., 63, No., 314.

ويذكر "فرانكفورت" أن هذا المنظر الذي يجسد الدفاع عن القطيع، كان من أقدم الموضوعات الشائع تصويرها على الأختام الأسطوانية بالعراق.

I bid, 14.

(30) L. Woolley, Ur Excavations, The Royal Cemetery I, Oxford, 1934, PL, 181.

(أو غصناً مورقاً) ، بينما يمسك في يده اليمنى قدحاً به شراب قدمه له خادمه المصور أمامه⁽³¹⁾ ، أما الجهة اليسرى من نقوش هذا الصف فيشغلها صورة زوجته الجالسة على كرسي فخم أيضاً ، وترتدي عباءة واسعة فضفاضة تغطي الكتف اليسرى وجزءاً من ذراعها وقمر من تحت إبط الكتف اليمنى ومثلت بشعر طويل يصل إلى أعلى الكتفين وتمسك بإحدى يديها قدحاً به شراب وباليد الأخرى غصناً مورقاً ، ويقف خلفها خادمتها الرئيسية تلوح بمرآة مستديرة في إحدى يديها وتحمل قدحاً من النبيذ في اليد الأخرى ، وفي وسط نقوش هذا الصف يبدو اثنان من المغنين المشتركين في الوليمة يعطيان ظهرهما لبعضهما البعض ، وقد صور المغني الموجود جهة اليمين والذي يعطي وجهه صوب سيده وهو يضرب على الجنك⁽³²⁾ ، بينما صور المغني الآخر والموجود جهة اليسار والذي يعطي وجهه صوب الزوجة وهو يرقص رافعاً ذراعيه وممسكاً ببوق كبير⁽³³⁾ .

(31) عن منظر مشابه وجد في ماري على قطعة من الجبس لهيئة هذا الرجل الشري الجالس على كرسي وثير :

See, A . Parrot, "Les Fouilles de Mari" in : Syria XVI, 1935, 130, fig, 12 .

(32) عن منظر مشابه للرجل الذي يضرب على الجنك أمام سيده وجد على قطعة صغيرة من بطاقة من خفاجي .

See, H . Frankfort, Progress of the Work of the Oriental Institute in Iraq (1934 – 1935), Chicago, 1936, 27f, fig, 21 .

(33) وجدت مناظر شبيهة بهذا المنظر في العديد من مقابر الأشراف بطينية من الأسرة الثامنة عشرة مثل مقبرة باكي (رقم 18) تاتي (رقم 154) نب آمون (رقم 17) وجسر كارع سنب (رقم 38) ونخت (رقم 52) ومنتا (رقم 69) وأمن حتب سائيسه (رقم 75) وحوور محب (رقم 78) ومن خبر (رقم 79) وتحتوت نفر (رقم 80) وأمن ام حات (رقم 82) وأمونح (رقم 84) وأمون ام حب (رقم 85) .

انظر : جيمس بيكي ، الآثار المصرية في وادي النيل ، ج3 ، ترجمة : شفيق فريد ولييب حبشي ، مراجعة : محمد جمال الدين مختار ، القاهرة ، (د .ت) ، 262 وما بعدها . ولزبد من التفاصيل عن حفلات الرقص والغناء والموسيقى كوسيلة للترفيه عند قدماء المصريين .

انظر : محمد جمال الدين مختار ، " وسائل التسلية والترفيه لدى المصريين القدماء " ، مقال في : مجلد تاريخ الحضارة المصرية ، ج1 ، العصر الفرعوني ، القاهرة ، 1962 ، 154 وما بعدها .

وتتضمن نقوش الصف الأوسط جهة اليمين من الثقب هيئة رجل ممسك بثقل (حمل) على رأسه ويسير خلف ضحية استعداداً لنحرها ربما يمثل أحد الثيران (أو الكباش السمينية) ذات القرون المنتصبة والمنفرجة ، وعلى يسار الثقب صورة شخصين يحملان جرة كبيرة كمثرية الشكل معلقة على عمود للتحميل على كتفيهما ، وقد ظهر الرجلان وكذا الرجل المصور على يمين الثقب برؤوس حليقة وثياب نصفية فضفاضة تمتد إلى أعلى الركبة .

ويحلي الصف الأسفل من نقوش هذه البطاقة مشهد تقديم هدية الاحتفال وهي عربة صغيرة بعجلتين مصمتتين إلا من فتحة الدنجل ، تجرها أربعة حيوانات بذيول طويلة تشبه خيول السيسي الصغيرة⁽³⁴⁾ ، خلفها شخصان وأمامها شخص واحد ، جميعهم يرتدون تنورات قصيرة فضفاضة تصل إلى أعلى الركبة ، ويشعر مرسل على هيئة ضفائر تتدلى على الصدر⁽³⁵⁾ (شكل 11) .

3- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من خفاجي ، نقوشها تشبه نقوش النصف الأيمن من البطاقة السابقة مع بعض الاختلافات البسيطة في تمثيل الأشخاص والحيوانات ، وبخاصة في الصف الثاني والذي يختلف فيه الحيوان الممثل عليه ، حيث يشبه هيئة إحدى النعاج السمينية الممثل فوقها هيئة فرع شجرة مورق ، وأيضاً حيوان السيسي الصغير

(34) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 407 وما بعدها .

عن عربة من النحاس من الصنف الخفيف الذي يشبه هذا النوع الممثل في البطاقة وعشر عليها في معبد "شارا" بتل أجرب من هذا العصر (حوالي 2700 ق م) وتوجد بمتحف جامعة بنسلفانيا ، وفيها يقف السائق فوق عارضين على محور ويمسك قطعة خشبية في الوسط مغطاة بالصوف ويسيطر على الحيوانات الأربعة التي تجر العربة بتثبيت حلقات في شفاهها العليا وبسوط فُقد من القطعة .

See, H . Frankfort, The Art and Architecture, PL, 20.

صمويل كرامر ، المرجع السابق ، اللوحة بدون رقم وتقع بين ص 112 - 113 .

H . Frankfort, Op . Cit, 32f, PL , 33A (35)

طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، 36 وما بعدها (لوح 12 أ) . جدير بالذكر أن هذه البطاقة وجدت ناقصة من جهة زاويتها السفلى من اليسار ، وقد أمكن تكملة الموضوع فيها على ضوء كسرة من مشهد مماثل وجدت في أور .

الذي يجر العربة والممثل في الصف السفلي هنا في هذا النقش بأذن قصيرة للخلف، بينما في اللوحة السابقة بأذن قصيرة أيضًا ولكنها منتصبة لأعلى⁽³⁶⁾ (شكل 12).

4- بطاقة من الحجر الجيري من معبد شارا بتل أجرب ، بها ثقب مستدير بارز في وسط البطاقة والتي يحليها نقش من ثلاثة صفوف أفقية تشبه نقوش البطاقتين السابقتين مع بعض الاختلافات البسيطة أيضًا وبخاصة هنا في هيئة شعر الزوجة والخدمة الممثلة أمامها وكذا هيئة شعر الشخصين اللذين يحملان الجرة على كتفيهما ، بينما بقية نقوش البطاقة متشابهة تمامًا مع نقوش البطاقتين السابقتين⁽³⁷⁾ (شكل 13) .

5- قطعة صغيرة من بطاقة من الحجر الجيري من خفاجي ، لم يبق من نقوشها غير منظر لأحد كبار القوم مثل جالسًا على مقعد وثير ومرتديًا تنورة واسعة فضفاضة تمتد إلى ما تحت الركبة وينتهي طرفها بخطوط أفقية في صف واحد ، ويمسك بيده اليسرى غصنًا مورقًا بينما اليد اليمنى بها قرح للشراب تلقاه من أحد الخدم الممثل أمامه ، والرجل كان بشعر طويل يتدلى على جانب وجهه ويصل إلى أعلى صدره ، ويغلب على الظن أن بقية نقوش هذه البطاقة كانت كالبطاقات السابقة ، والتي كان موضوع نقوشها شائعًا في مناظر ونقوش هذه الفترة⁽³⁸⁾ (شكل 14) .

6- بطاقة من خفاجي من معبد الإله "سين" ، من الحجر الجيري وبها ثقب بارز في الوسط ، والبطاقة فقدت جزءًا من الجانب السفلي جهة اليمين ضاع بسببه نصف نقوش الصف السفلي ، إلى جانب وجود كسر كبير بها ممتد في وسط البطاقة والتي يحليها نقش من ثلاثة صفوف أفقية لوليمة أو حفلة خاصة يشبه نقوش البطاقات السابقة من حيث الموضوع العام لها وإن اختلفت مظاهر الاحتفال وعناصره في كل منها ، ففي الصف العلوي من نقوش هذه البطاقة يحليه صورة الرجل وزوجته وقد جلس كل منهما على مقعد وثير^(*) ،

(36) H . Frankfort, Sculpture, PL, 108, No, 188 .

(37) H . Frankfort, More Sculpture, PL, 65, No . 318 .

(38) I bid, PL, 66, No, 320 .

(*) يبدو أن الزوجة كانت قصيرة إلى حد كبير ، فعلى الرغم من أن المقعد الذي تجلس عليه غير مرتفع مقارنة بمقعد الزوج ، إلا أن الفنان وضع تحت موطئ قدميهما مربعًا حتى تثبت القدمين عليه عند الجلوس .

ويشغل الرجل الجهة اليمنى ويقدم له أحد الخدم قدحًا به شراب يمسكه بيده اليمنى بينما يمسك باليد اليسرى غصنًا مورقًا ، ويقف وراء الخادم خادم آخر يحمل على رأسه جرة كبيرة ، أما الزوجة فتشغل الجانب الأيسر من نقوش هذا الصف ويدها إناء واليد الأخرى بها غصن مورق ويقف خلفها خادمة تحمل في يدها قدحًا للشراب ، وقد ارتدى الزوج تنورة تمتد إلى الركبة ومزخرفة بشرائط أفقية في نهايتها وظهر حليق الرأس ، أما زوجته فترتدي رداءً واسعًا فضفاضًا يصل إلى العرقوين وتغطي الكتف اليسرى وجزءًا من ذراعها وتمر من تحت إبط الكتف اليمنى ، وظهرت بصفيرة مرسلّة طويلة تصل إلى أعلى صدرها ، ومن خلفها خادمتها بنفس ملامح الشعر ، أما الخادمان اللذان في وسط نقوش الصف فقد ظهرا برداء قصير يصل إلى أعلى الركبتين من منتصف جسم كل منهما ، وكلاهما يضع يده اليمنى على خصره وصورا حليقي الرأس .

هذا ويشغل الجانب الأيمن للصف الأوسط من نقوش هذه البطاقة ، هيئة رجلين يحملان جرة كبيرة مربوطة بحبل سميك في عمود من الخشب على كتفيهما ويمسك أحدهما بيده ريبًا غصنًا مستدير الشكل ، أما الجانب الأيسر لنقوش هذا الصف الذي يتوسطه الثقب البارز ، فيشغله هيئة ثلاثة رجال ، يحمل الأول منهم ماعزًا صغيرًا ويتبعه الرجل الثاني حاملاً على رأسه ريبًا بعض أرغفة من الخبز المستدير الشكل ، أما الرجل الثالث فيحمل على رأسه قصعة ملاط أو إناء مستدير الشكل ، والرجال الثلاثة حليقو الرؤوس ويرتدون تنورات قصيرة تمتد من منتصف جسم كل منهم وتصل إلى أعلى الركبة .

وبقي من نقوش الصف السفلي ، الذي ضاع معظم الجانب الأيمن منه ، هيئة ثلاثة من الموسيقيين ، يحمل الأول منهم بوقًا طويلًا وصور الثاني وهو يرقص رافعًا يده على الصدر ، بينما يضرب الثالث على الجناك ، وقد ارتدى كل منهم رداء يشبه رداء الرجال المصورين في الصف الثاني ، وظهر اثنان منهم بشعر طويل يصل إلى أعلى الكتفين بينما صور الثالث والذي يحمل البوق حليق الرأس تمامًا⁽³⁹⁾ (شكل 15) .

7- بطاقة من الحجر الجيري من المقصورة الخاصة بمعبد الإله "أبو" بتل أسمر، مكسورة إلى نصفين وبها ثقب كبير بارز في المنتصف، ويحليها نقش من ثلاثة صفوف أفقية، الصف الأعلى منها يشغله نقش لحفلة خاصة صور الزوج فيها جهة اليمين جالساً على مقعد صغير ومرتبياً تنورة تصل إلى ما تحت الركبة ويشعر طويل يتدلى على جانبي وجهه ويصل إلى أعلى صدره، ويمسك بيده اليمنى قدحاً به شراب يقدمه له الخادم الواقف أمامه، بينما يمسك باليد اليسرى غصناً مورقاً، ويشغل الجانب الأيسر للصف صورة الزوجة جالسة هي الأخرى على مقعد صغير وتمسك بيدها اليمنى قدحاً به شراب يقدمه لها الخادم الممثل واقفاً أمامها، والزوجة ترتدي عباءة واسعة فضفاضة تمتد إلى العرقوبين وتغطي الكتف اليسرى وجزءاً من ذراعها وتغر من تحت إبط الكتف اليمنى وبشعر كثيف يصل إلى أعلى الكتفين.

أما نقوش الصنفين الثاني والثالث من هذه البطاقة فيحليها صور لنعاج سمينة (أو بقرات صغيرة) باركة ترفع كل منها ساقها الأمامية وترتكز على حافر ساقها الأخرى استعداداً للنهوض، وقد نجح الفنان كل النجاح في التعبير عن الحركة الطبيعية لهذه الحيوانات التي صورت وكل منها يعطي ظهره للآخر⁽⁴⁰⁾ (شكل 16).

8- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من المعبد البضاوي بخفاجي، بقي من نقوش الصف الأعلى فيها جزء من رداء سميك لشخص جالس، بينما بقي من نقوش الصف الثاني هيئة أحد الصيادين ممسكاً بيده اليسرى بشبكته وباليد اليمنى صيده الثمين الذي يمثل سمكة كبيرة تتدلى من صنارته الطويلة ربما ليقدمها في الوليمة، ويرتدي الصياد تنورة قصيرة تمتد إلى أعلى الركبة، أما الصف الثالث السفلي فيحليها نقش يمثل الزوج جالساً بجانب زوجته وكلاهما يرتدي عباءة واسعة فضفاضة من صوف الغنم المشط تمشيطاً جيداً ويشربان من قدح به شراب⁽⁴¹⁾ (شكل 17).

9- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من خفاجي عليها نقش لأحد الأثرياء جالساً على مقعد وثير ويرتدي عباءة فضفاضة واسعة تصل إلى العرقوبين ويحليها من أسفل شرائط طولية أفقية مرسلة في صف واحد، وأعلى العباءة زخرفة لبعض الخطوط

(40) H. Frankfort, Op. Cit, 43, PL, 106, No. 186, E. De Sarzec, Op. Cit, PL, 43.

(41) I bid, PL, 109, No. 186.

الهندسية ، ويمسك الرجل بيده اليمنى قدحاً به شراب ويده اليسرى غصناً مورقاً ، وظهر الرجل بشعر طويل يتدلى إلى جانب وجهه ويغلب على الظن أن هذا المنظر من بقايا منظر كامل لحفلة أو مأدبة⁽⁴²⁾ (شكل 18) .

ثالثاً : نقوش تهتم بتصوير مناظر أسطورية وخيالية :

1- بطاقة من تلو من زمن "دودو" الكاتب⁽⁴³⁾ ، يلاحظ أن الأطراف في أعلاها قد نحتت بشكل بارز مع انحناء قليل عند الزاويتين من أعلى ، وهذا النمط يغلب على الظن أنه مهد إلى شكل المسلات المنحنية من الأعلى في طور نضوج النحت البارز واكتمال حلقاته في المرحلة الثالثة من عصر فجر الأسرات السومري .

والبطاقة يحليها نقش في ثلاثة صفوف ، صور في الصف الأعلى منها هيئة نسر مهيب (رمز المعبود نين جرسو) يطأ ظهري أسدين ، وهو تصوير معتاد في آثار المعبود "نين جرسو" ولكنه هنا صور الأسدين يتناولان برأسيهما إلى أطراف جناحي النسر لينهشها على خلاف المؤلف في تصوير أمثالها ، وربما بهذا التحوير كفل الفنان الحيوية للوحته على الرغم من خشونة سطحها⁽⁴⁴⁾ .

هذا ويوجد في منتصف الصف الأوسط ثقب بارز صور عن يساره هيئة أسد برأس صقر ، بينما يشغل الجانب الأيمن من الثقب هيئة مبنى بيضاوي الشكل ومزخرف من الخارج بشرائط طولية (ربما يمثل حظيرة أو مأوى لسكنى الأسد) ، أما الصف السفلي من نقوش هذه البطاقة فيحليه زخرفة رائعة من الخطوط الحلزونية المتداخلة مع بعضها البعض والتي تشبه في مجملها هيئة الضفيرة وهي من النقوش الشائعة في بلاد النهرين منذ أقدم العصور⁽⁴⁵⁾ (شكل 19) .

(42) H. Frankfort, More Sculpture, PL, 64, No. 317 .

(43) عاش "دودو" الكاتب حوالي 2500 ق.م في مدينة لجش ، وله تمثال بديع من البازلت الأسود يمثل جالساً على مقعد دون مسند للظهر ومرتبداً تنورة واسعة فضفاضة محلاة بشرائط طولية وواضحاً يديه معقودتين على الصدر العاري ، ومثل بلامح رائعة ومعبرة للوجه وبرأس حليق .

انظر : دروئي مكاي ، المرجع السابق ، 168 .

(44) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 406 .

(45) طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، 37 وما بعدها (لوح 12 ب) .

2- بطاقة من النحاس مستطيلة الشكل من تل العبيد⁽⁴⁶⁾، وتوجد الآن بالمتحف البريطاني، يحليها هيئة الطائر المركب من هيئة نسر قائم مهيب برأس أسد يسط جناحيه فوق وعين يتدبران أمامه في ثقة لا تقل تعبيراً عن تعبير مهايته وتتفرع قرونها على حافتي البطاقة في إتقان ملحوظ⁽⁴⁷⁾ (شكل 20).

3- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من "تل فاره"⁽⁴⁸⁾، يحليها نقش بارز لعراك بين شخصين وحيوانين، وقد أظهر الفنان دراسة هذا العراك وقوته ومدى صعوبة من تعبيرات ملامح الوجوه للإنسان والحيوان⁽⁴⁹⁾ (شكل 21).

(46) "تل العبيد" تقع على مسافة أربعة أميال شمالي غربي "أور" وأول من كشف عن موقعها هو العالم البريطاني "هول" عام 1919م، وهذا التل اشتهر بالعثور فيه على فخار عرف بـ (فخار العبيد) وهو أول ما اهتمت إليه السومريون سكان الجنوب القدماء في صنع الخزف والفخار. انظر: دروئي مكاي، المرجع السابق، 81 وما بعدها.

(47) طارق عبد الوهاب مظلوم، المرجع السابق، 39 (لوح 5 د).

جدير بالذكر أن العراك بين الإنسان والحيوان كان من الموضوعات الشائعة في نقوش الأختام الأسطوانية في بلاد النهرين منذ أقدم العصور وبخاصة العصران الأكدي والبابلي القديم. See, H. Frankfort, The Art and Architecture, PL, 40A.

عادل ناجي، المرجع السابق، 233 وما بعدها، 263 وما بعدها. ولمزيد من التفاصيل عن الأختام الأسطوانية في العراق وموضوعات نقوشها الأسطورية: See, H. Frankfort, Cyl inder Seals, London, 1939؛

صبحي أنور رشيد، تاريخ الفن العراقي، ج1، فن الأختام الأسطوانية، بيروت، 1969.

وعن احتمال ارتباط عراك الإنسان مع الحيوان في مثل هذه النقوش وتقليد البطل الأسطوري "جلجامش". انظر: عادل ناجي، المرجع السابق، 264.

ولمزيد من التفاصيل عن "جلجامش" وملحمته في الأدب العراقي القديم انظر: طه باقر، ملحمة كلكامش، بغداد، 1975؛ محمد خليفة حسن، الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، دراسة في ملحمة جلجامش، ط1، بغداد، 1988؛ سامي سعيد الأحمدي، جلجامش، ط1، بغداد، 1990.

(48) "تل فاره" أو "شورويك" ورد ذكرها في النصوص البابلية أنها نشأت قبل الطوفان، وموطن البطل السومري "أوتنا بشتيم" وتقع على بعد 30 ميلاً من شمالي شرقي الوركاء، وكانت قائمة على ضفة الفرات قبل تغيير مجراه. انظر: دروئي مكاي، المرجع السابق، 69 وما بعدها.

(49) طارق عبد الوهاب مظلوم، المرجع السابق، 37، (لوح 13 ج).

4- بطاقة (لوح) مستطيلة الشكل من أور صنعت من الخشب ، كانت تزين مقدمة صندوق قيثارة ذهبية وتوجد بمتحف فيلادلفيا⁽⁵⁰⁾ ، والبطاقة يزينها أربعة صفوف أفقية من النقوش تعد من أمتع مناظر فنون أور في خفة الظل وجرأة التعبير ، ويفصل بين هذه الصفوف الأربعة خطوط أفقية بارزة من الصدف واللازورد ، ويحلي الصف الأعلى من نقوش هذه البطاقة هيئة البطل الأسطوري يمسك بثورين على جانبيه بقرون مقوسة لأعلى وصورهما الفنان بوجه ورأس بشري تشبه هيئة وجه ورأس البطل الأسطوري ، وإن زاد عليها هيئة القرون المقوسة ، وجسد الفنان حركة الثورين ورفع ساقيهما الأماميتين في إتقان ملحوظ بحيث تبدو إحدى الساقين لكل منهما وقد التفت حول رأس البطل الأسطوري في حيوية وإتقان⁽⁵¹⁾ .

ويشغل نقوش الصف الثاني صورة ذئب قائم يتمنطق بحزام يثبت فيه سكيناً⁽⁵²⁾ ، ويقدم بين يديه مائدة مرتفعة حافلة بأطياب اللحوم وتشمل رأس كبش وفخذاً من لحم

(50) هذه البطاقة (وإن صح التعبير اللوح الخشبي) مطعم بالصدف وحجر اللازورد ، وقد وجدت في المقبرة (رقم 800) والتي ربما كانت للملكة (يو آبي) ، والمقبرة مستطيلة (2.80 × 4.35) وقد وجد بها بقايا عربتين وحلي ذهبية وقيثارتان ذهبيتان تنتهي كل منهما برأس ثور من الذهب .
انظر : محمد الشحات شاهين ، المرجع السابق ، 112 ؛ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات ، 280 وما بعدها .

(51) جدير بالذكر أن هذا المشهد الذي يصور بطلاً أسطورياً بين حيوانين شرسين ، كان من المناظر المحببة للفنان العراقي القديم وبخاصة في نقوش الأختام الأسطوانية في عصر فجر الأسرات والعصر الأكدي ، وهو مشهد يعرض للقوة العظيمة للبطل في مواجهة الحيوانات الشرسة .

See, H . Frankfort, The Art and Architecture, PL, 39A, b ؛ 40b,

عادل ناجي ، المرجع السابق ، 233 وما بعدها .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن هذا المنظر قد وجد في نقوش سكين جبل العركي في مصر من عصر ما قبل التاريخ ، ودارت مناقشات عديدة عن هذا النقش ومدى تأثر الحضارة المصرية آنذاك ببعض عناصر من الفن العراقي القديم . لمزيد من التفاصيل عن هذا السكين ونقوشه والمناقشات التي دارت حوله انظر : رضا محمد سيد أحمد ، المرجع السابق ، 267 وما بعدها ، صورة 286 .

(52) يذكر "فرانكفورت" أن هذه السكينة وجدت أمثالها في مقابر أور وأماكن أخرى مثل تل أسمر ومخطي من يعدها خنجراً لا سكيناً .

H . Frankfort, Oriental Institute Discoveries in Iraq (1932 – 33), in : OIC 7, 37 ff .

الضأن ، ويتبعه أسد مهندم يحمل كأساً وقينة مزخرفة للشراب أو للعطور ، وقد صور الأرجل الأمامية لكل منهما على هيئة أذرع بشرية .

ونشاهد في نقوش الصف الثالث حملاً منهماً في العزف على الكنارة (القيثارة) يقدمها له دب كبير⁽⁵³⁾ ، ويتقدمه نمس أو جربوع مصور جالساً على قدمي الدب ويضرب أو ينقر على دف صغير وطبلة وضعت على حامل أمامه ، ويبرز الصلاصل (أو الشخشيخة آلة الموسيقى الخاصة بالإلهة حتحور في مصر) .

ويجلى نقوش الصف الرابع والسفلي من نقوش هذه البطاقة عناصر فنية غير واضحة ، ويبدو فيها صورة غزالة رشيقة تنتصب على قدميها لتقدم مبخرتين أو كأسين مرميين لمعبود بجسم عقرب يحمل شيئاً غير واضح المعالم ، ربما يرتبط بالإناء الكبير في هذا الصف ، ونفس الشيء غير الواضح المعالم يخرج من فمه ، ربما كانوا لوحات من الطين ، هذا ويظهر خلف الغزالة إناء ضخم أعلاه شيء غير واضح مثل الذي يمسك به المعبود بجسم العقرب⁽⁵⁴⁾ (شكل 22) .

ويذكر "عبد العزيز صالح" أن نقوش هذه البطاقة والتي اختار فنانها شخوصها من عالم الحيوان وخلع عليهم تصرفات الإنسان ، ربما كان لمجرد الفكاهة وإظهار البراعة في التعبير ، أو قصد بها نوعاً من أنواع الكاريكاتير الهادف ، أو اختارها للدلالة على مشاركة الكائنات المختلفة في عيد من أعياد الأرباب⁽⁵⁵⁾ .

رابعاً : نقوش مرتبطة بأمور الحرب وفرحة النصر :

1- بطاقة من المقبرة الملكية بأور ، سطحها مستو ونقوشها عملت التفاصيل فيها بطريقة التحزيز ، أما موادها فهي أحجار فاقعة اللون فوق أرضية من أحجار الشدر ، وهذه البطاقة تعرف بعلم (أو راية) أور ، وقد نقش وجهها ، والموضوع الرئيسي فيها

(53) وجدت أمثال هذه الكنارة (القيثارة) في مقابر أور .

See, H . Frankfort, The Art and Architecture, PL, 27b .

(54) M . Rutten, "Les animaux a attitudes humaines dans L'art de L'ancienne" I bid, 35

PL, 38 Mesopotamie" in : Rec . Et . Semitiques, 1938, 97f .

(55) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 411 وما بعدها .

النصر والاحتفال ، ويضم كل وجه فيها ثلاثة صفوف أفقية يفصل بين كل منها حاشية مطعمة بتزيينات هندسية من اللازورد عملت بطريقة التطعيم أيضًا⁽⁵⁶⁾.

والوجه الأول خصصت صفوفه الثلاثة لموضوع حربي ، حيث يحتل الصف العلوي فيه المنظر الرئيسي لنقوش البطاقة ، ويظهر فيه الملك وهو يتوسط المحاربين وقد ميزه الفنان بحجمه الكبير وقد وقف يتفقد الأسرى الذين تم القبض عليهم ، والهلع والخوف يغطي وجوههم ، والجنود يمسكون بأيديهم من خلف ظهورهم ، وقد مثل الجنود أو المحاربين بشعور قصيرة وعباءة فضفاضة تمتد إلى ما تحت الركبة وتنتهي بشرائط طويلة مدببة الأطراف مرسلة في صف واحد ، وتغطي هذه العباءة الكتف اليسرى وجزءًا من ذراعها وتمر من تحت إبط الكتف اليمنى ، وقد ظهر الأسرى شبه عراة تمامًا وبعضهم جرحى ، ويحتل الجانب الأيسر من نقوش هذا الصف صورة عربية خاصة فخمة بأربع عجالات مصممة ويجرها أربعة من الحيوانات تشبه خيول السيسى الصغيرة .

ويشغل الصف الثاني من نقوش هذا الوجه منظر الجنود وهم يقفون الواحد تلو الآخر حتى وإن كانوا في الحقيقة يسرون في جماعات مختلطة ، وقد ظهر الجنود بشعر قصير ويرتدون معاطف فريدة مزركشة يتصل طرفها بشريط أسفل الرقبة (يشبه هيئة البالطو الثمين في عصرنا الحالي) ، ويضم هذا الصف جهة اليمين صورًا لبعض الأسرى العراة وقد انكفأ أحدهم على الأرض ويهم أحد الجنود بضربه بعصا غليظة .

ويحلي نقوش الصف الثالث في هذا الوجه صور عربات حربية في صف واحد وصورت وهي في حالة الانطلاق وقد سقط الأعداء تحتها ، وتشبه هذه العربات الحربية العربية الخاصة المصورة في الصف العلوي من نقوش هذه البطاقة مع تزويدها

(56) وجدت هذه البطاقة في المقبرة (رقم 799) بأور ومساحتها (12 × 8.5م) وهي من أقدم المقابر بأور ووجدت منهوبة ، وهي تحفة ثمينة مطعمة بالفسيفساء من الصدف واللازورد .
انظر : محمد الشحات شاهين ، المرجع السابق ، 110 (لوحة 9أ) ولزبد من التفاصيل عن الجبنة الملكية بأور :

See, L. Woolly, Ur, The Royal Cemetery, London, 1934 ; id, Ur of The Chaldees, London, 1982, 51ff.

بالأسلحة وجعاب السهام ويركب على كل عربة اثنان من المحاربين ويجرها أربعة من خيول السيسي الصغيرة .

أما الوجه الثاني من هذه البطاقة فيشغله ثلاثة صفوف مصور عليها مناظر الاحتفال بالنصر ، حيث يجلي الصف العلوي منها هيئة الحاكم الجالس جهة اليسار على مقعد فخم مرتدياً تنورة تمتد إلى ما تحت الركبة وترك صدره عاريًا والتنورة تكسوها أهداب (من خطوط معقودة) تتعاقب يتلو بعضها بعضًا ، ويجلس في مواجهته على مقاعد وثيرة رجال حاشيته برعوس حلقة وتنورات فضفاضة واسعة تمتد إلى ما تحت الركبة وتنتهي بشرائط طويلة مدببة الأطراف ، ويحتفلون معه بالنصر ويمسك كل منهم بيده اليمنى بقدح به شراب ، ويقوم على خدمتهم بعض الخدم ، ويقف خلفهم جهة اليمين أحد الموسيقيين حاملاً على كتفه الكنارة (القيثارة) ومن خلفه تقف مغنية أو ربما راقصة .

ويشغل الصف الثاني صور الأفراد وهم يسوقون نذورهم وأنعامهم هدايا لمعابدهم وأهنتهم في هذا الاحتفال ، وتضم كباشًا وأبقارًا وبعض الطيور والماعز الصغير ، أما الصف السفلي من هذا الوجه فقد صور عليه بأسلوب طريف بعض الحمالين يحملون أثقالهم على ظهورهم ويشدون بها بحبال إلى جباههم ، وقد ظهر على ملامح وجوههم التعب والإرهاق من عناء العمل ، ويشغل هذا الصف أيضا صور بعض حيوانات السيسي الصغيرة التي ربما تقدم كنذور أو قربانين في هذا الاحتفال⁽⁵⁷⁾ (شكل 23) .

2- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من خفاجي ، عليها صورة أحد الأشخاص ذي علاقة بالجيش والحرب ، وربما كان يشارك في أحد الاحتفالات المرتبطة بأمور الحرب والانتصار ، حيث ظهر هذا الرجل وهو ممسك بغصن مورق بيده اليمنى ، بينما يحمل في اليد اليسرى رموزًا للحرب تتمثل في مقمعة للقتال وأحد السهام المقوسة ، ويرتدي غطاءً للرأس على هيئة قرون الماعز ، ويذكر "فرانكفورت" أن الشكل

(57) H . Frankfort, The Art and Architecture, 34f, PLs, 36-37 ؛

طارق عبد الوهاب مظلوم ، 40 ، (لوح 11 أ-ب)؛ عبد العزيز صالح ، المرجع السابق 408 .

الخارجي لهذا الغطاء للرأس يشبه العمامة المستديرة المزخرفة الشكل (Knobbed) وعليها قرون الماعز ، وأضاف أن هذا الظهور بهذا الشكل لا نستطيع تحديد إذا كان عن قصد أم أن هناك سبباً معيناً وذلك لوجود كسر وتلف بالقطعة⁽⁵⁸⁾ ، هذا وقد ظهر الرجل جالساً على مقعد وثير ومرتبياً عباءة واسعة فضفاضة تمتد إلى العرقوين وكانت من صوف الغنم الممشط تمشيظاً جيداً ، وتغطي الكتف اليسرى وجزءاً من ذراعها وتمرت تحت إبط الكتف اليمنى له ، والرجل بشعر طويل مرسل يمتد إلى منتصف ظهره ، وله لحية كثة تصل إلى أعلى الصدر⁽⁵⁹⁾ (شكل 24) .

خامساً : نقوش مرتبطة بحياة الريف والزراعة وحيوانات بيتنها :

1- بطاقة من الحجر الجيري من تل العبيد ، يحليها نقش بارز قام الفنان بإظهار الأشكال الممثلة فيه بشيء من التجسيم ، وذلك بالحجر الأبيض وتكفيت هذه الأشكال فوق أرضية مسطحة من حجر بلون غامق ، وربما كانت مثل هذه البطاقات تزين قاعدة الزاقورات الموجودة هناك⁽⁶⁰⁾ . والبطاقة يظهر في الجزء الأعلى منها قطع من البقرات السمان صورها الفنان وهي تتعاقب الواحدة تلو الأخرى وكانت بقرون قصيرة ومقوسة ، أما الجزء الأسفل من البطاقة فنقوشه تصور أعمالاً مختلفة تتعلق بالحياة الريفية ومتطلبات تحضير الطعام ، ففي الجانب الأيمن منه هيئة بقرتين سميتين يقوم بحلب كل منهما أحد الفلاحين ، بينما يقف أمام كل منهما في منظر لطيف رضيعها ، وإلى الشمال من الرجل نشاهد هيئة الزريبة وبجانها مباشرة نشاهد رجلاً يخض اللبن لاستخراج الزبد في وعاء ضخم وضع أمامه ، ونشاهد بعد ذلك ثلاثة رجال يحضرون السمن أو الزبد الصافي⁽⁶¹⁾ (شكل 25) .

2- قطعتان من بطاقتين من الحجر الجيري من معبد "سين" بخفاجى ، صور على القطعة الأولى بقرة تهم بالوقوف بإحدى ساقيها الأماميتين وترتكز على الأخرى ، ومصور

(58) H . Frankfort, More Sculpture, 15 .

(59) I bid, PL ., 64, No ., 315 .

(60) طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، 39 (لوح 10 هـ) .

(61) صمويل كرامر ، المرجع السابق ، الصورة بدون رقم وتقع بين ص 112 - 113 .

أسفلها هيئة شخصين يرفعان أيديهما لأعلى كما لو كانا في موكب رسمي⁽⁶²⁾، أما القطعة الأخرى فيحليها نقش من صفين الأعلى منها عليه صورة بقرة سمينة راقدة على الأرض، بينما الصف السفلي بقي منه الجزء الخلفي من عربة يسير وراءها سائقها الذي يمسك بإحدى يديه بالجلبل أو اللجام الخاص بالحيوان الذي يجز العرب، وفي اليد الأخرى يمسك بعصا غليظة يهيم بضرب الحيوان بها، ومثل الرجل بتنورة قصيرة ذات خطوط أفقية تمتد إلى أعلى الركبة، ويتدل شعر رأسه إلى أعلى الصدر وكان بلحية كثة طويلة⁽⁶³⁾ (شكل 26).

3- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من المعبد البيضاوي بخفاجي، بها كسور عديدة في معظم أجزائها، ويحليها نقش في ثلاثة صفوف أفقية لكباش بقرون متنوعة، ففي الصف العلوي صورت بقرون منتصبه لأعلى، وفي الصف الأوسط بقرون منفرجة، وفي الصف السفلي بقرون مقوسة للخلف، وقد برع الفنان في تمثيل هذه الكباش الصغيرة وحركة سيقانها في حيوية واضحة⁽⁶⁴⁾ (شكل 27).

4- قطع من بطاقات من الحجر الجيري من خفاجي وتل أجرب واحدة عليها نقش يمثل الجزء الأمامي لحيوان (ربما بقرة) وهي تحاول النهوض برفع إحدى ساقيها إلى أعلى، بينما الساق الأخرى ثابتة على الأرض في تجسيد رائع لطبيعة هذا الحيوان، وثانية يحليها هيئة حيوان السيسي الصغير الذي أظهر الفنان ملامحه بدقة متناهية تنم عن معرفته الواضحة بطبيعة وخصائص هذا الحيوان الذي استخدم في جر العربات آنذاك، وثالثة عليها صورة حيوان رأسه غير واضحة ربما ثور، ورابعة عليها رأس كبش بقرون مرتفعة يلتفت برأسه للخلف في رشاقة وحيوية بالغة⁽⁶⁵⁾ (شكل 28).

سادساً : نقوش المصارعة :

1- بطاقة مستطيلة من الحجر الجيري من خفاجي، يحليها نقش بارز لمباراة في المصارعة (إحدى الألعاب التي استلزم أداؤها نصيباً كبيراً من الجهد والمهارة والتمرين)،

(62) H. Frankfort, Sculpture, PL., 109, No., 190.

(63) I bid, PL., 109, No., 192.

(64) I bid, PL., 111, No., 197.

(65) H. Frankfort, More Sculpture, PL., 67, Nos., 325, 326, 327, 328.

والمباراة على البطاقة بين اثنين من المصارعين في ثلاثة أوضاع مختلفة، الوضع الأول منها يبدو يمين نقوش البطاقة حيث يتبارى المصارعان في وضع الوقوف وبأيدي ممدودة للأمام كما لو أنهما يتلمسان قوة كل منهما للآخر في بداية اللقاء ، بينما الوضع الثاني الذي يتوسط نقوش البطاقة يظهر فيه المصارعان في وضع التشابك والالتحام الجاد وسخونة اللقاء ومقاومة كل منهما للآخر ، أما الوضع الثالث الذي يحتل جهة اليسار للبطاقة فقد هم فيه أحد المصارعين بإيقاع غريمه ومنافسه على الأرض ، وذلك برفع ساقه اليمنى إلى أعلى ومحاولة إسقاطه تمامًا على الأرض، وقد ظهر كلا المصارعين عراة (فيما عدا سترة بسيطة تغطي عورتيهما) وأظهر الفنان عضلات الذراعين والساقين والصدر لكل منهما في نقوش البطاقة⁽⁶⁶⁾ (شكل 29) .

2- قطعتان من بطاقتين من الحجر الجيري من معبد "ننتو Nintu" معبودة الأمومة والولادة في بلاد النهرين بخفاجي ، يحليهما نقش بارز متكرر ، ويمثل لاعبين يتباريان مع بعضهما البعض في لعبة المصارعة في ثلاثة أوضاع مختلفة تشبه المنظر المصور على البطاقة السابقة ، وإن ظهر أحد المصارعين في نقوش هاتين القطعتين بشعر طويل

(66) طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، 37 (لوح 13 أ) .

عن مناظر شبيهة للمصارعة ظهرت في نقوش المقابر المصرية منذ عصر الدولة القديمة مثل مقبرة "بتاح حتب" بسقارة وسجلت ستة أوضاع للمصارعة .

انظر : عبد العزيز صالح ، "التربية البدنية" ، مقال في : مجلد تاريخ الحضارة ، ج1 ، العصر الفرعوني ، القاهرة ، 1962 ، 175 وما بعدها .

وفي عصر الدولة الوسطى صورت في مقابرهم في "بني حسن" وبخاصة على الجدار الشرقي لمقبرة "باكت الثالث" أوضاع أخرى وصلت في إحدى اللوحات إلى (220) وضعًا للمصارعة قلما تشابه وضع مع آخر .

See, P . New berry, Beni Hassan I, PL ., XIV – XVI ؛ II, PL ., V, XV, XXXII :

جيمس بيكي ، الآثار المصرية في وادي النيل ، ج2 ، 76 وما بعدها ، شكل 34؛ عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 175 وما بعدها ، شكل 7-8؛ نفس المؤلف ، التربية والتعليم في مصر القديمة ، القاهرة ، 1966 ، 115 وما بعدها ، السيد القباش ، التصوير الجداري في مقابر بني حسن ، القاهرة ، 1994 ، 127 وما بعدها .

مرسل إلى أعلى الكتفين وهو اللاعب الذي حقق الانتصار في المباراة ، والقطعتان فقدتا أجزاء كثيرة منهما ، بجانب تعرض الأجزاء الموجودة منهما للكسر ، ونقوشهما رديئة للغاية⁽⁶⁷⁾ (شكل 30) .

سابعاً : نقوش متنوعة

1- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من خفاجى ، عليها نقش بارز طريف يصور بعض الأفراد وهم يتسلقون الأشجار في حيوية ورشاقة بالغة ، تتم عن مهارة فنية واضحة للفنان الذي صور هذا المنظر ومدى درايته الكبيرة بتصرفات بعض الصبية في إقدامهم وتسابقهم على تسلق الأشجار ، وهي تصرفات لا تزال في قُرانا حتى اليوم⁽⁶⁸⁾ (شكل 31) .

2- قطعة من بطاقة من الحجر الجيري من "تل فاره" يحليها نقش بارز لشخصين يجدفان في قارب صغير ، يبدو من حركة يديهما مشقة وصعوبة التجديف بالقارب الصغير في النهر في هذه العصور البعيدة ، وقد ضاعت للأسف ملامح الوجه والرأس لكل منهما⁽⁶⁹⁾ (شكل 32) .

3- قطعتان من بطاقتين من الحجر الجيري ، إحداها من معبد "سين" بخفاجى عليها نقش بارز يصور الجزء الأمامي من مركب بمقدمة مرتفعة وبعض المجاديف ، والأخرى من المعبد البيضاوي بخفاجى ويحليها صورة مركب بمقدمة قصيرة ومقوسة⁽⁷⁰⁾ (شكل 33) .

(67) H . Frankfort, More Sculpture, PL ., 62, No ., 313 A . b .

(68) I bid, PL ., 64, No ., 316 .

(69) طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، 37 (لوح 13 ب) . جدير بالذكر أن هذا القارب الصغير كان النوع الشائع الاستعمال في بلاد النهرين في العصور القديمة ، ويعرف اليوم في العراق باسم (قَقه) وفي الأزمان القديمة بـ (اللفت) ، وتصنع (القفه) من قصب يغطى بالجلد بعد أن يحاك على شكل سلة .

انظر : صمويل كرامر ، المرجع السابق ، 137 .

(70) PL ., 111, No . 198 . : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 109, No . 191

4- قطعتان من بطاقتين من الحجر الجيري من تل أجرب ، لم يبقَ من نقوشهما غير هيئة التنورة التي يرتديها أحد الأفراد على القطعة الأولى ، والذي صور ممسكاً غصناً مورقاً بإحدى يديه ، والتنورة واسعة فضفاضة تمتد إلى ما تحت الركبة وتنتهي بشرائط طويلة مدببة الأطراف مرسلة في صف واحد ، بينما صور على القطعة الثانية شخصان بعباءة طويلة كاسية خالية من الزخرف فيما عدا شريطاً رأسياً يمتد من أعلى العباءة إلى أسفلها ، وهو نوع نادر من العباءات في نقوش هذه الفترة ، وربما كان هذان الشخصان يشاركان في أحد الاحتفالات الدينية أو الحربية⁽⁷¹⁾ (شكل 34) .

5- قطعتان صغيرتان من بطاقتين من الحجر الجيري من خفاجي ، يحلي أحدهما الجزء الأعلى من جسم أحد الأشخاص بشعر معقوص يتدلى على جانبي الوجه ، ويحمل في يده عصا غليظة مرفوعة لأعلى كما لو كان يسوق أمامه أحد الحيوانات ، أما الثانية فيحليها منطقة الصدر لإحدى السيدات التي ظهرت من رأسها خصلة شعر مجدولة رائعة تتدلى إلى أعلى الصدر ، وقد ظهر الصدر عارياً فيما عدا الثديين اللذين يغطيها غطاء رقيق من القماش المزخرف وذلك في تجسيد رائع للفنان الذي أبدع هذا النقش⁽⁷²⁾ (شكل 35) .

(71) H . Frankfort, More Sculpture, PL, 66 . Nos ., 321, 322 .

(72) I bid, PL ., 67, Nos . 324, 329 .

المبحث الثالث

الدراسة التحليلية

تضمنت نقوش هذه البطاقات موضوعات متنوعة من الحياة الدينية والحربية والريفية والمدنية في المجتمع السومري في عصر فجر الأسرات ، وذلك في حدود ما سمح به ضيق مساحاتها ، فعبرت بصورها عن تقوى الحكام عند قيامهم بتشييد معابدهم وتأهبهم للمشاركة في وضع لبناتها الأولى ، وعبرت عن تقوى الأشخاص عند تقديمهم للقرايين أمام آلهتهم وعند مشاركتهم في أعيادهم أو حين يسوقون نذورهم وأنعامهم هدايا لمعابد آلهتهم .

ورمزت هذه النقوش بصورها أيضًا إلى المحافل الخاصة في هذا العصر وما يجري فيها من شراب وموسيقى ورقص وغناء ورعاية الخدم لأسيادهم من أثرياء القوم ، ورمزت كذلك إلى ما يدور في الاحتفالات والأعياد العامة من مباريات للمصارعة وتسلق للأشجار ، كما أبرزت صورها الحكام عند عودتهم بالعربات الحربية من ساحات المعركة وإشرافهم بأنفسهم على إحصاء قتلاهم الذين تدوسهم العجلات الحربية ، وتصوير أسراهم جرحى منهكين وملقين على الأرض مقيدين أذلاء⁽⁷³⁾ .

وهذه النقوش على الرغم من بساطة خطوطها وخشونة ورداءة أشكالها في بعض الأحيان ، إلا أنها أمدتنا بصورة واضحة عن مجتمعتها وعاداته وتقاليده وأحوال أهله اليومية والدينية والحربية ، وأشعبت بدورها رغبات حكامهم في تسجيل أخبار انتصاراتهم وهزيمتهم للأعداء وتسجيل آيات تقواهم وما يعتزون به من أعمالهم .

وقد ظهرت أغلب نقوش هذه البطاقات محتفظة بمبادئ النقش الشائعة في العالم القديم ، من حيث تصوير عناصرها فوق خطوط أفقية بارزة ربما ترمز إلى الأرض التي تقف عليها بجانب اطمئنانهم إلى استواء صفوفها ، وكذلك تفصل بينها وبين صفوف المناظر التي قد تصور تحتها ، وقد برز من العناصر الفنية العديدة التي شغلت سطوح هذه البطاقات أربعة عناصر رئيسية أبدع الفنان في تصويرها ، ونوع من أسلوبه في تجسيدها ، وأظهرها في صورة بديعة ورائعة ، وهي على النحو التالي :

(73) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 407 .

أولاً : صور الأشخاص :

اتبع الفنان السومري في عصر فجر الأسرات في تمثيل صور الأشخاص على سطوح هذه البطاقات ، المبادئ العامة للنقش التي سادت في نقوش العالم القديم ، من حيث تصوير وجه الإنسان وجذعه الأسفل من جانب ، وتصوير عينه من الأمام وكتفيه باتساعها⁽⁷⁴⁾ ، وتصوير الأفراد وهم يتعاقبون الواحد منهم تلو الآخر حتى وإن كانوا يسرون في حقيقة الأمر في جماعات مختلطة ، ثم تصوير الحكام بأحجام كبيرة تميزهم عن أحجام سواهم من مرؤوسيه وأتباعهم وأولادهم أيضاً (في مثل بطاقة أورنانشه وبطاقة علم (أو راية) أور) ، وقليلاً ما حفلت نقوش هذه البطاقات بإظهار تفاصيل الجسم كعضلات الصدر والساقين والذراعين (في مثل البطاقات التي تصور المصارعين) .

وقد صورت مناظر هذه البطاقات السومريين أقرب إلى الامتلاء مع قصر القامة أو توسطها ، ومعظمهم بأنف أقنى كبير وحليقو الشوارب ، أما شعر الرأس والثياب التي يرتدونها فقد شهدا تنوعاً واضحاً بين أفرادها ، ف شعر الرأس عند الرجال (شكل 36 أ) منه الحليق والقصير والطويل المعقوص والطويل المرسل على هيئة خصلتين على جانبي اللحية بشكل يلامس الصدر⁽⁷⁵⁾ ، والطويل المرسل على هيئة الضفائر الطويلة الكثيفة المرسل على الكتفين أقرب إلى هيئة الشعور المستعارة ، أما عند النساء (شكل 36 ب) فقد

(74) يذكر "محمد عبد القادر" أن الفنان العراقي في هذه العصور السحيقة عندما كان يصور الأشخاص من ناحية الكتف فإنه يبدأ بالعضلة الكتفية ويتصل بالعضلة الثلاثية في تفصيل واضح يخرج من مستوى الكتف مباشرة .

انظر : محمد عبد القادر ، العلاقات المصرية العربية في العصور القديمة ، مقال في مجلد : دراسات تاريخ شبه الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج1 ، الرياض ، 1979 ، 17 .

(75) هذه الطريقة لتصنيف الشعر ظهرت أيضاً في بعض تماثيل تل أسمر من نفس الفترة وفي تل الخويرة بشمال سوريا ، مما يشير إلى سعة انتشار مفاهيم مدرسة النحت المجسم والنقش البارز في عصر فجر الأسرات السومري إلى منطقة بعيدة كشمال سوريا . انظر : طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، 28 ، (لوح 1 أ؛ 16 أ) .

ظهري في صورهن القليلة إما بشعور طويلة مرسلة تمتد إلى أعلى الصدر أو بشعور تصل إلى أعلى الكتفين ، أو ملفوفة على الرأس بهيئة مستديرة أو على هيئة الضفيرة .

واكتفت النقوش السومرية في هذه البطاقات بإظهار الرأس فيها بهذه الشعور المختلفة ، ولم يظهر غطاء الرأس لها إلا في مرتين (شكل 36 ج) ، الأولى كان الغطاء يشبه التُّرْبَان (Turban) تلك القبعة التي يرتديها جوديا في تماثيله ، والثانية ظهر غطاء الرأس بما يشبه القبعة ذات الحاشية المستديرة المزخرفة الشكل "Knobbed" وعليها قرون الماعز .

أما الملابس التي ظهر بها الأفراد في نقوش هذه البطاقات (شكل 37) فهي من غير شك تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الحياة اليومية للإنسان في هذا العصر ، حيث توضح ملابس الأفراد طبقاتهم الاجتماعية ومناصبهم ونوعيات تخصصاتهم .

وتعد التنورة (النقبة) القصيرة التي تغطي وسط الجسم وأعلى الفخذين والتي اختلفت في طولها إلى ما فوق أو تحت الركبة أو حتى تنسدل إلى العرقوبين ، أصبحت الزي المميز كلباس عام للرجل في العراق القديم خلال هذا العصر المبكر ، وهذه التنورة ينتهي بعضها بشرائط طويلة مدببة الأطراف مرسلة في صف واحد⁽⁷⁶⁾ .

وإلى جانب هذه التنورة ظهرت ملابس أو وزرات عرفت باسم "المهدبات" وهي عباءات مصنوعة من القماش تكون في شكلها ومظهرها تقليدًا لصوف أو جزء الغنم ، وهذه العباءات مشدودة شدًا وثيقًا إلى وسط الجسم ، وفي بعض الأحيان كان بعضها ربما يتخذ من أصواف الأغنام الطويلة المشطية تمشيطة جيدًا ، وغالبًا ما يظهر بها الحكام والنساء وذوو الحيشة من السومريين ، وهذه العباءات كانت تغطي الكتف اليسرى وجزءًا من ذراعها وتقر من تحت إبط الكتف اليمنى⁽⁷⁷⁾ .

وإلى جانب هذين النوعين الشائعين في ملابس السومريين في هذا العصر ، ظهر بعض أثرياء القوم بمعاطف فريدة كانت إما مزركشة بشريط أسفل الرقبة ، أو بدون زخرفة فيها

(76) وليد الجادر ، المرجع السابق ، 324 وما بعدها .

(77) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 385 .

عدا شريطاً رأسياً يمتد من أعلى إلى أسفل المعطف ، وكلاهما يشبه هيئة الباطو الصوف الثمين في عصرنا الحالي .

ثانياً : صور الحيوان :

يمثل الحيوان مورداً أساسياً كالزراعة بالنسبة للاقتصاد السومري ، فقد كان بعضها يستخدم في المواصلات ، كما كان بعضها مصدراً للغذاء والكساء ، وعلى النقيض من تصوير الإنسان في نقوش هذه البطاقات في عصر فجر الأسرات السومري ، نجد الفنان قد تخفف بدرجة كبيرة في تصوير حيواناته ، حيث صور وجوهاً كاملة من الأمام ، وصورها أحياناً وهي يتقاطع الواحد منها مع الآخر ، كما صور أدق التفاصيل في أجسامها أحياناً كثيرة ، وبدت صور هذه الحيوانات في نقوش هذه البطاقات أقرب إلى الواقع وأكثر إنقائاً على وجه الإجمال من صور الإنسان .

وبرز من صور هذه الحيوانات الممثلة في نقوش هذه البطاقات الكبش والبقرة والسيسى الصغير، فالكباش (شكل 38 أ) ظهرت بهيئتها العادية ، وأحياناً ظهر منها السمينة وأحياناً أخرى ظهر منها طويلة الصوف ، وقد برع الفنان في تصوير بعضها بقرون أفقية⁽⁷⁸⁾ أو قرون منتصبة منفرجة أو قرون مقوسة للخلف ، وبرع كذلك في تصوير تحركاتها سواء حين سيرها أو وقوفها أو حتى عند التفاتها في دلال أحياناً برأسها للخلف .

أما البقرة (شكل 38 ب) فقد ظهرت في نقوش هذه البطاقات بقرون قصيرة وأجسام سمينة وأوضاع مختلفة ، منها الوضع العادي لها حين سيرها في صفوف منتظمة تتعاقب الواحدة منها تلو الأخرى ، ومنها الوضع اللطيف الذي ظهرت فيه مع رضيعها الواقف بحجمه الصغير أمامها والنظرة الحانية تجاهه ، ومنها كذلك الحركة الطبيعية لبعضهم حين تصويرها باركة ترفع كل منها ساقها الأمامية وترتكز على حافر ساقها الأخرى استعداداً للنهوض .

(78) يذكر "عبد العزيز صالح" أن هذه الكباش ذات القرون الأفقية ، قد وجدت أمثالها في مصر القديمة حتى عصر الدولة الوسطى . انظر : عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 408 .

وظهر حيوان السيسبي الصغير (شكل 38 ج) كثيرًا في نقوش هذه البطاقات وهو يجر العربة ، وهو حيوان صغير يشبه الحمير وتميز عنها بأنه طويل الذيل ، وقد أبدع الفنان في تجسيد تفاصيل جسم هذا الحيوان وصوره أحيانًا بأذنين منتصبين لأعلى أو بأذنين قصيرتين للخلف .

ثالثًا : صور العربات :

ظهر في نقوش هذه البطاقات ثلاثة أنواع من صور العربات المستخدمة في عصر فجر الأسرات السومري ، النوع الأول (شكل 39 أ) منها كان بسيطًا ويمثل عربة صغيرة بعجلتين مصممتين إلا من فتحة الدنجل ، والنوع الثاني (شكل 39 ب) تلك العربة الخاصة الفاخرة التي تتكون من أربع عجلات مصممة ، ويتكون جسم العربة من ثلاثة أجزاء : جزء أمامي ذي جانبيين مرتفعين مفرغين تعلوه مظلة أو مظلتان لوقوف صاحب العربة ، وجزء أوسط مربع وأحيانًا مستطيل الشكل يشبه الصندوق ويخصص للمرافقين لصاحب العربة ، ثم أخيرًا جزء خلفي منخفض مسطح يمتد بمستوى أرضية العربة ويستخدم أغلب الظن أثناء الصعود إلى العربة وأيضًا لوقوف التابع حامل الرمح أو لجلوس السائس ووجهه إلى الخلف ، أما النوع الثالث (شكل 39 ج) فيمثل عربة الحرب التي لا تختلف كثيرًا عن العربة الفاخرة الخاصة إلا في خلو جزئها الأمامي من المظلة مع تزويدها بطبيعة الحال بالأسلحة وجعاب السهام التي تستخدم في الحرب⁽⁷⁹⁾ .

رابعًا : صور أدوات الموسيقى :

تعد الموسيقى وجهًا من أوجه حضارة العراق القديم ، وقد رافقت سكانه من المهد إلى اللحد ويعايشها الإنسان يوميًا في الطقوس والشعائر الدينية ، وفي أعمال الفلاحة وفي الأعياد المختلفة والحفلات الخاصة والولائم ، وفي المعارك والحروب وفي الاحتفال بالانتصار على الأعداء ، وفي بناء وتدشين المعابد ، واستعملت في النصوص المسامرية كلمة زمارو (Zamaru) أو بالتشديد زَمَّارو (Zammaru) كاصطلاح عام للغناء والعزف ، وكان متبعًا في العراق القديم منذ عصر فجر الأسرات السومري تصنيف

(79) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، 408 .

الموسيقيين (المغنين) ، ويأتي على رأسهم بطبيعة الحال الموسيقيين الملكيين ، الذين ظهروا في نقوش هذا العصر وهم يعزفون ويغنون في حضرة الملك على البطاقة المعروفة باسم علم (أو راية) أور⁽⁸⁰⁾ .

وقد ظهر في نقوش هذه البطاقات من أدوات الموسيقى : البوق وهو من آلات النفخ في العراق القديم ، وهو عبارة عن أنبوبة من النحاس ذات شكل أسطواني لمسافة تتجاوز النصف ثم يصبح شكلها مخروطياً وينتهي باتساع يشبه الجرس ، وظهر أيضاً الدف الصغير المستدير الشكل وهو من الآلات الإيقاعية المعروفة التي استخدمت في العراق القديم في مناسبات السلم والحرب ، وكذلك ظهرت الصلاصلا في نقوش هذه البطاقات . وهي آلة معدنية تشبه شوكة الطعام أو الملقط تثبت في سيقانها صنوج معدنية صغيرة متحركة ، وعند اهتزاز الشوكة يخرج الصوت من جراء ارتطام الصنوج⁽⁸¹⁾ .

ويعد الجنك والكنارة (شكل 40 أ - ب) من أبرز أدوات الموسيقى الوترية التي ظهرت بصورة واضحة ومميزة في نقوش هذه البطاقات ، والجنك كلمة فارسية (بفتح الجيم وسكون النون) تستعملها الكتب العربية للدلالة على الآلة الوترية التي تسمى في الإنجليزية (harp) ، وقد ظهر الجنك في نقوش بطاقات فجر عصر الأسرات السومري بشكله القديم المقوس أو المنحني الذي رأى فيه علماء الموسيقى تطوراً عن قوس الرماية ، أما الكنارة (القيثارة) (بكسر الكاف وتشديد النون) فترجع في أصلها إلى الاسم البابلي كناروم (Kinnarum) وانتقلت إلى اللغة المصرية بصيغة "كنر" وإلى العبرية بصيغة "كنور" وتسمى في الإنجليزية (Lyre) وتمتاز الكنارة السومرية التي ظهرت في نقوش

(80) صبحي أنور رشيد ، "الموسيقى" ، مقال في : مجلد حضارة العراق ، ج4 ، بغداد ، 1985 ، 405 وما بعدها .

ولمزيد من التفاصيل عن الموسيقى في بلاد النهرين والآلات الموسيقية بمختلف أنواعها التي استخدموها : انظر : صبحي أنور رشيد ، تاريخ الآلات الموسيقية في العراق القديم ، بيروت ، 1970 .

See also, H . Hartmann, Die Musik der Sumerischen Kultur, Frankfurt, 1960 .

(81) صبحي أنور رشيد ، الموسيقى ، 432 ، 437 ، 441 .

هذه البطاقات بأن صندوقها الصوتي يشبه الحيوان تمامًا أو أنه قريب الشبه به ، وهذا الصندوق شهد المظهر العام لشكله وعدد أوتاره وملأويه وفتحاته تغيرات وتطورات عديدة على امتداد تاريخ العراق القديم⁽⁸²⁾ .

نتائج البحث

أمدتنا هذه الدراسة عن نقوش البطاقات في عصر فجر الأسرات السومري بالحقائق التالية :

أولاً : إن هذه النقوش على الرغم من بساطتها وخشونتها أحياناً أعطتنا صورة واضحة عن هيئات السومريين في هذا العصر المبكر ، وتقاليدهم في الزبي والعبادة ، وما كانوا يستخدمونه في حياتهم اليومية من أدوات لم يبقَ غير القليل منها في أرضهم .

ثانياً : إن عصر فجر الأسرات السومري بما فيه من عادات وتقاليدهم سائدة على الرغم من بساطتها أصبحت أساساً لما يحدث في العصور التي أعقبته في بلاد النهرين .

ثالثاً : إن الفنان السومري في نقوش هذه البطاقات اتبع المبادئ العامة السائدة في النقش في العالم القديم وبخاصة في تمثيل الأشخاص والحيوانات ، مما أعطى انطباعاً قوياً بارتباطه واتصاله بمن حوله من شعوب العالم القديم وما يجري من أساليب فنية فيها .

رابعاً : إن بعض هذه البطاقات استخدم في تزيين الأثاث والأدوات المختلفة علاوة على تزيين جدران الأبنية ، بل كان بعضها من غير شك من المقتنيات الغالية في القصور وتؤلف قطعاً ثمينة من أثاثها الفاخر .

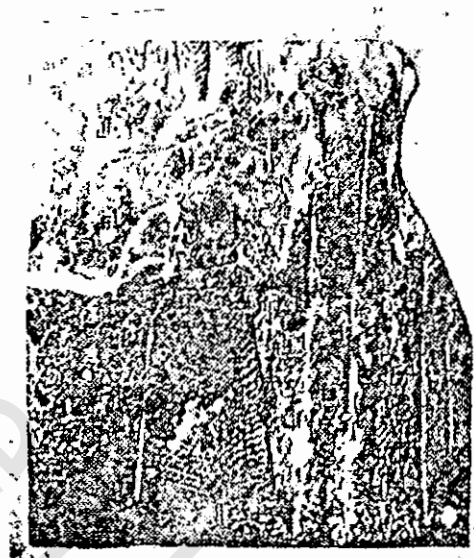
خامساً : إن السومريين منذ أقدم العصور عرفوا العربات البسيطة والفاخرة والخاصة والحربية ، واستخدموها في شئون حياتهم اليومية وأثناء حروبهم ، وربما سبقوا شعوب العالم القديم في هذا الشأن .

سادسًا : إن السومريين ربما سبقوا شعوب العالم القديم أيضًا في معرفتهم لبعض أدوات الموسيقى كالجنك والكنارة (القيثارة) وبرعوا في صناعتها ، ونوعوا في أشكالها وهيئاتها ومواد صناعتها ، واستخدموها على نطاق واسع في أعيادهم واحتفالاتهم الخاصة منها والعامة وفي طقوسهم وشعائرهم الدينية .

سابعًا : إن السومريين اعتمدوا في حياتهم عامة وأعمال الزراعة والحقل خاصة على بعض الحيوانات ، وأبرزها البقرة والكبش والسيبي الصغير الذي يجزى العربات البسيطة والفاخرة .

ثامنًا : إن الحكام وذوي الحيشة من السومريين اهتموا في هذا العصر المبكر بارتداء أفخم الثياب المصنوعة من أصواف الأغنام ، واهتموا كذلك بإقامة الحفلات الخاصة في قصورهم بما يدور فيها من رقص وغناء وموسيقى وشراب .

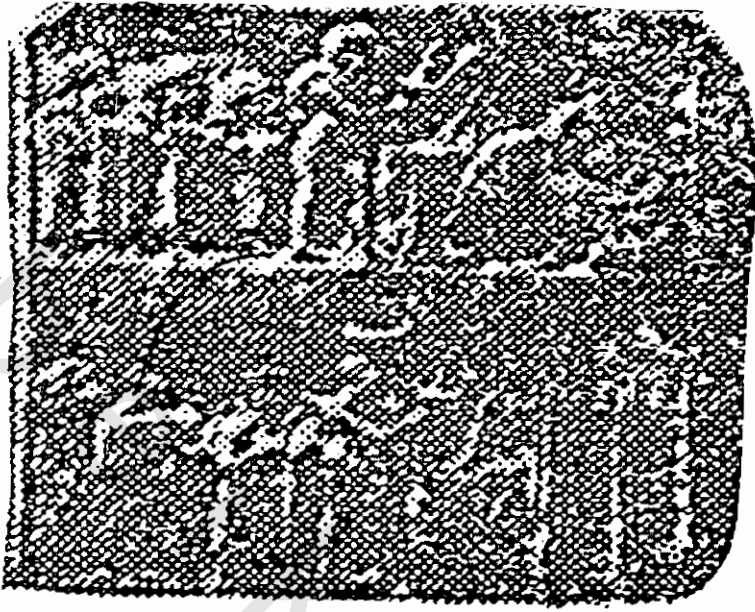
تاسعًا : هناك لقطات مميزة في نقوش هذه البطاقات تعبر عن حس فني مرهف وراق للفنان في العصر السومري المبكر ، وذلك في مثل صور الخماليين على بطاقة علم (أو راية) أور وهم يحملون أثقالهم ويشدون بها بحبال على جباههم ، وصورة البقرة وهي باركة على ساقها الأمامية وترتكز على حافر ساقها الأخرى استعدادًا للنهوض ، وكذلك صورة البقرة وهي تداعب في رقة وحنان رضيعها الصغير الواقف أمامها بينما يقوم أحد الرجال بحلب اللبن منها ، وفي مثل صورة الصبية وهم يسرعون بتسلق الأشجار في منظر يشبه ما يحدث من الصبية في القرى في عصرنا الحالي .



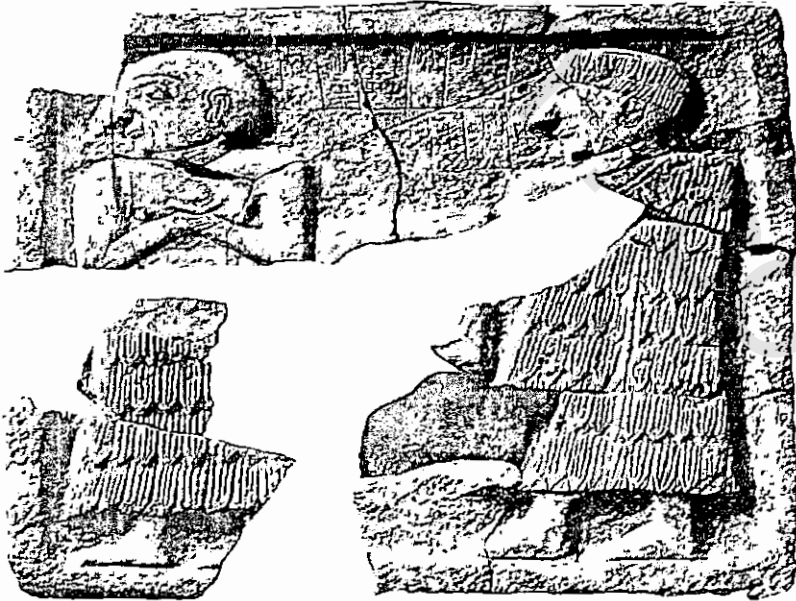
شكل 2: (عن : طارق عبد الوهاب مظلوم ، النحت في عصر فجر السلالات ، لوح 10 د)



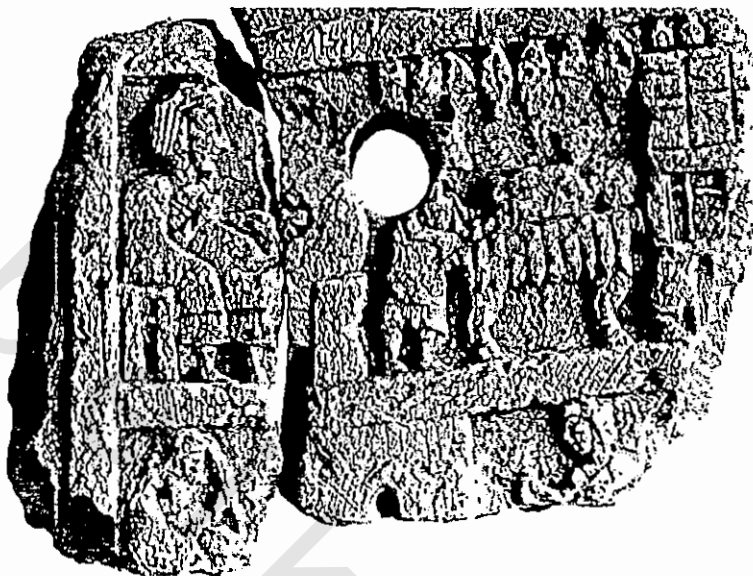
شكل 3: (عن : ديلاپورت ، بلاد ما بين النهرين ، شكل 17)



شكل 4 : (عن : طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، لوح 10 جـ)



شكل 5 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 114, No . 201)



شكل 6 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL . , 112, No . , 199)



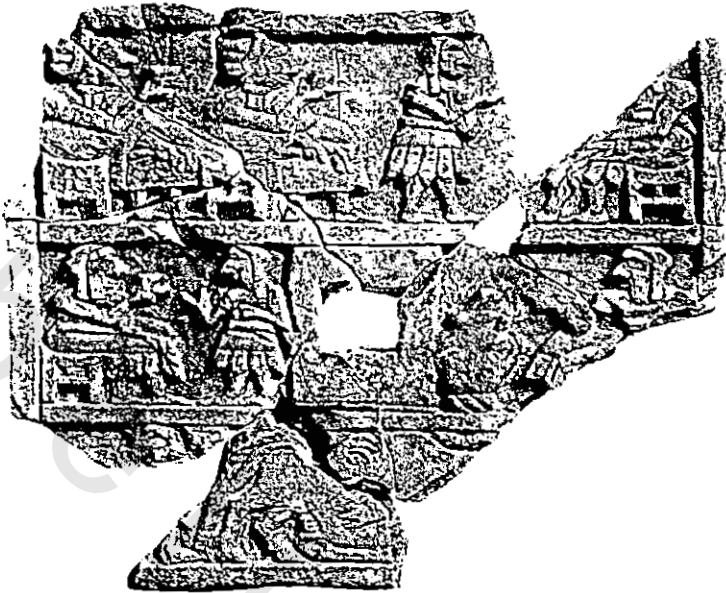
شكل 7 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL . , 110, No . , 194)



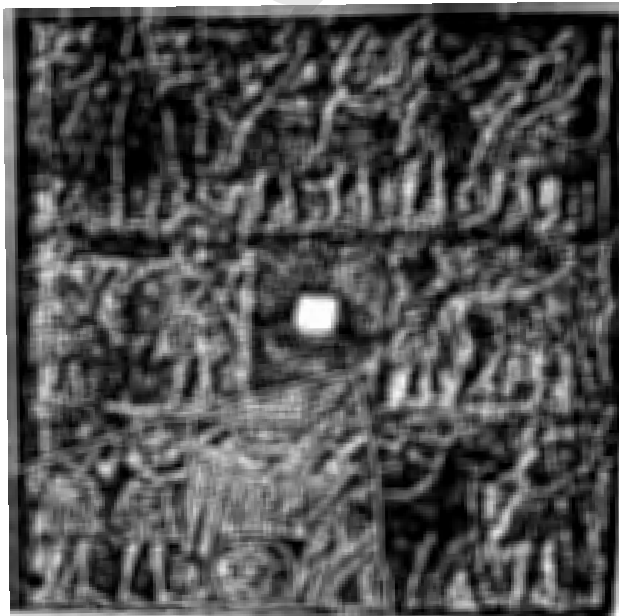
شكل 8 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 110, No ., 195)



شكل 9 : (عن : H . Fankfort, The Art and Architecture ., PL ., 33b)



شكل 10 : (عن : H . Frankfort, More Sculpture, PL ., 63, No ., 314 :

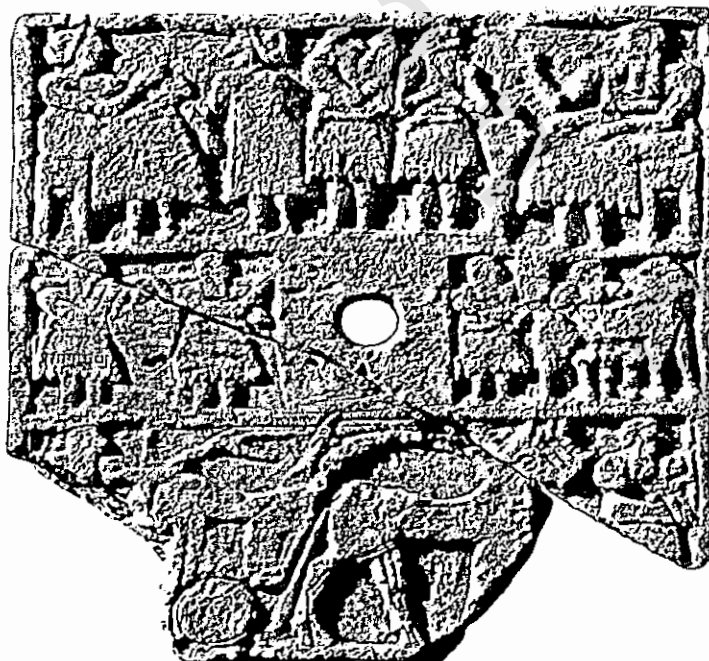


شكل 11 : (عن : H . Frankfort, The Art and Architecture, Pl ., 33A :



شكل 12 : (عن : H . Frankfort, Sculpture ,

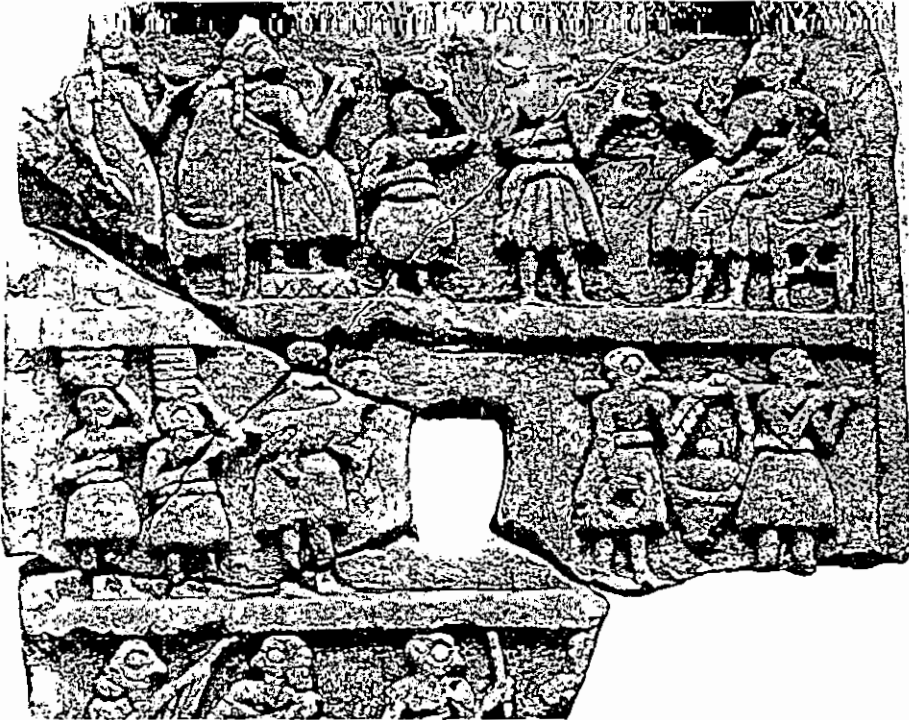
(PL ., 108, No ., 188



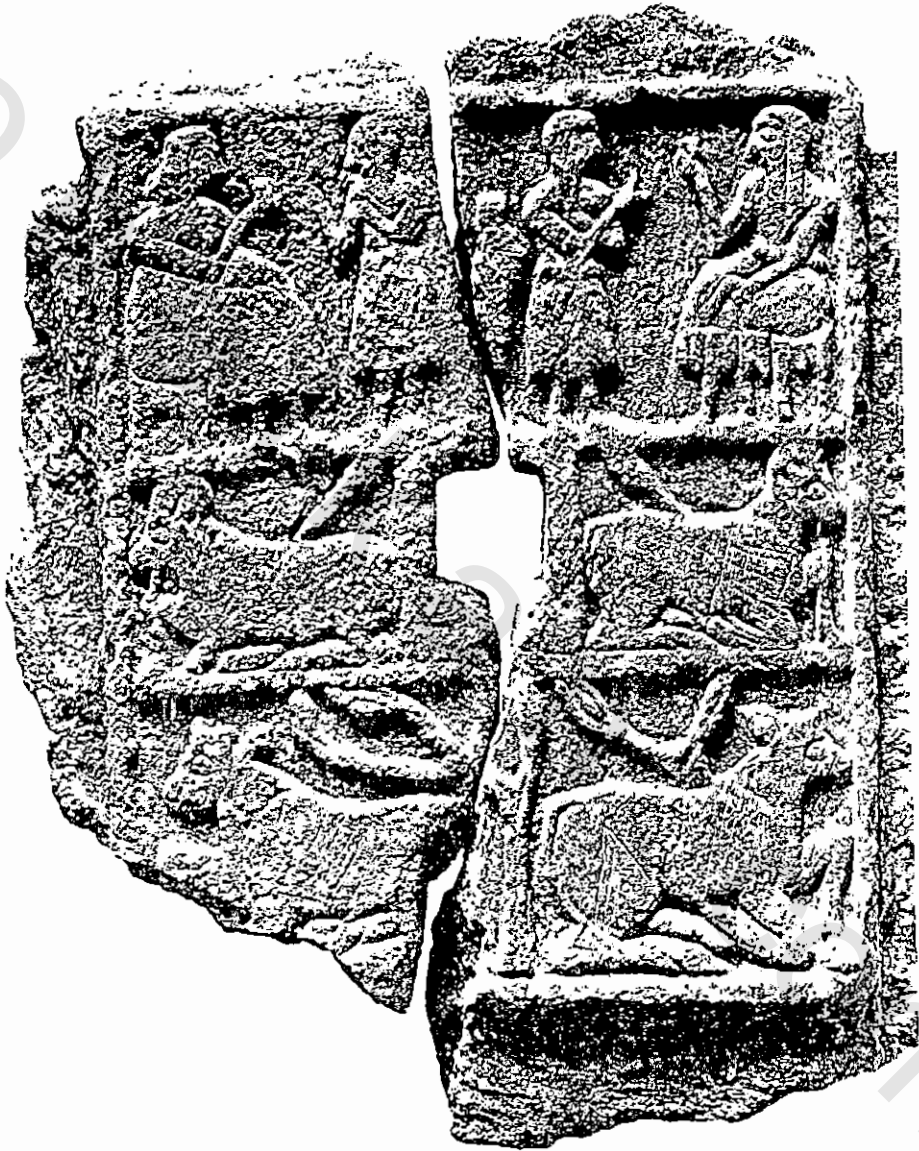
شكل 13 : (عن : H . Frankfort, More Sculpture, PL ., 65, No ., 318



شكل 14 : (عن : H . Frankfort, More :
(Sculpture, PL ., 66, No ., 220



شكل 15 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 105, No ., 185



شكل 16 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 106, No ., 186)



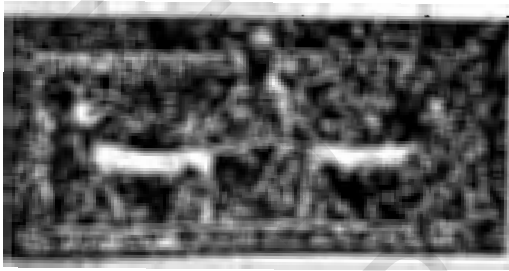
شكل 17 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, :
(PL ., 109, No . 193



شكل 18 : (عن : H . Frankfort, More :
(Sculpture, PL ., 64, No ., 317



شكل 19 : (عن : طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، لوح 12 ب)



شكل 20 : (عن : طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، لوح 5 د)

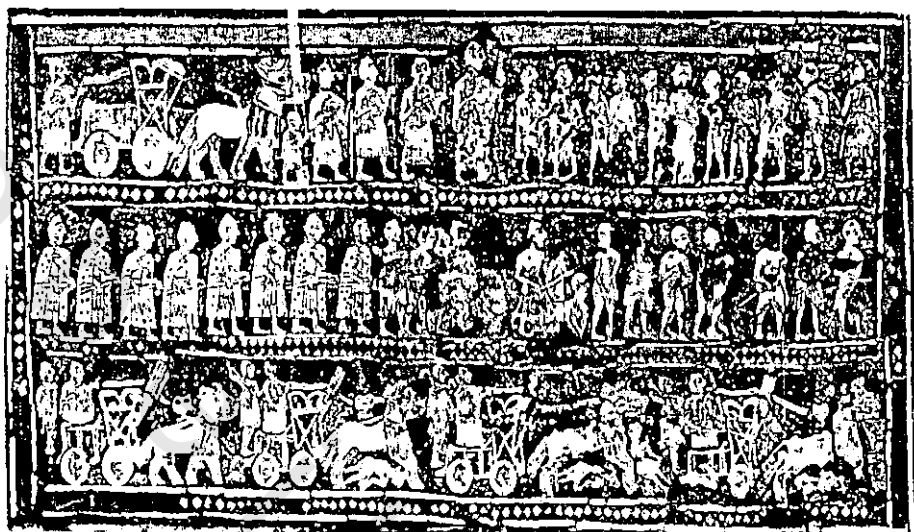


شكل 21 : (عن : طارق عبد الوهاب مظلوم ،
المرجع السابق ، لوح 13 ج)

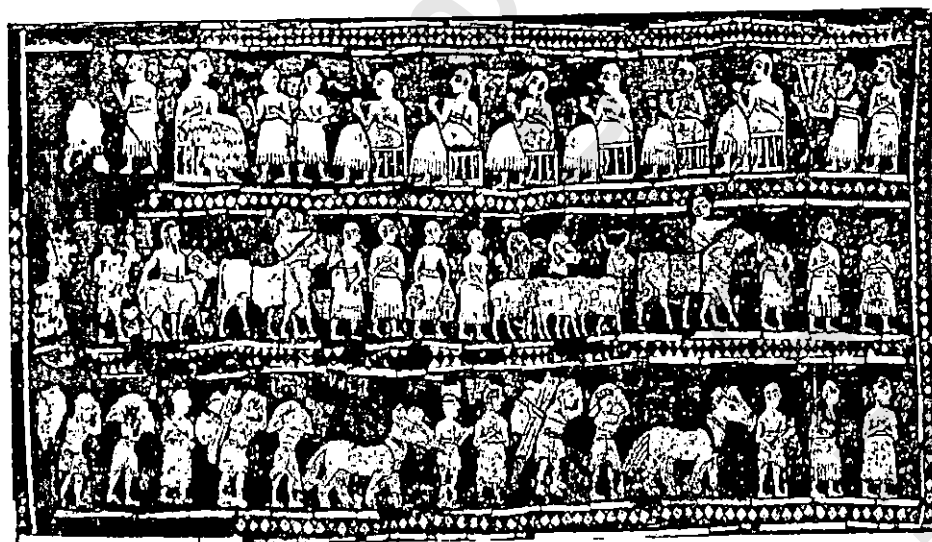


شكل 22 : (عن :

H . Frankfort, The Art and
(Architecture, PL ., 38



الوجه الأول

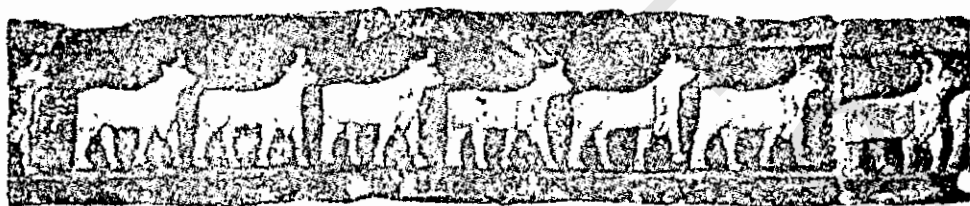


الوجه الثاني

شكل 23 : (عن : H . Frankfort, The Art and Architecture PLs ., 36 - 37 :



شكل 24 : (عن : H . Frankfort, More Sculpture, PL ., 64, No ., 315)



شكل 25 : (عن : صمويل كرامر ، السومريون ، الصورة بدون رقم ونقع بين ص 112 - 113)



(ب)



(ا)

شكل 26 (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 109, Nos ., 190, 192)



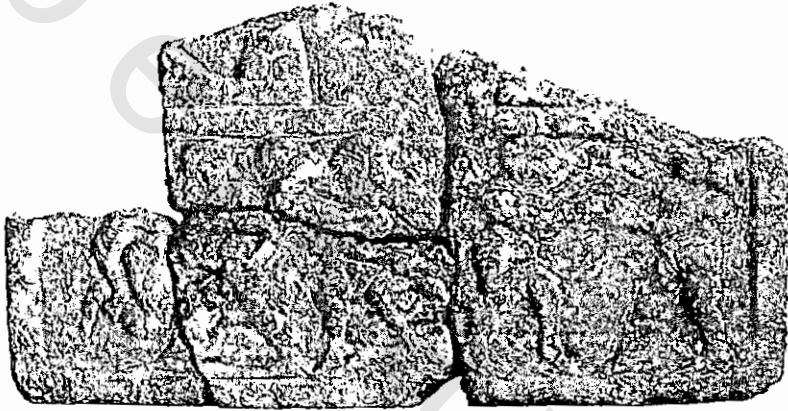
شكل 27 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 111, No ., 197)



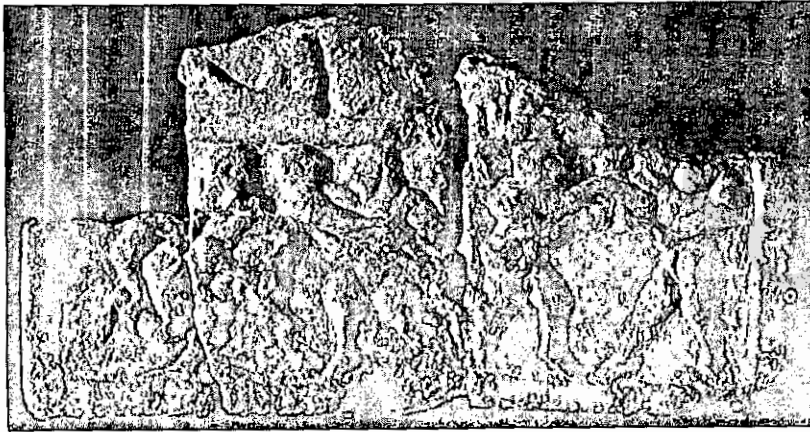
شكل 28 : (عن : H . Frankfort, More Sculpture, PL . ,
 (67, Nos, 325, 326, 327, 328



شكل 29 (عن : طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، لوح 13 أ)



(أ)

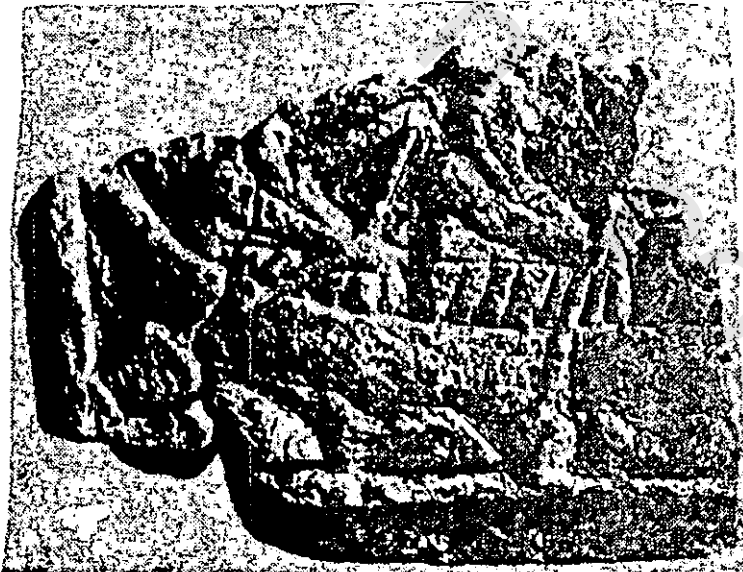


(ب)

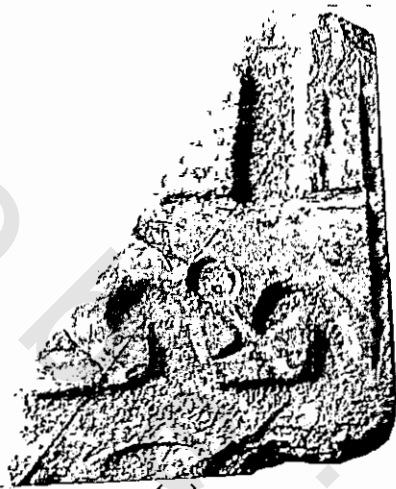
شكل 30 : (عن : H . Frankfort, More Sculpture, PL ., 62, No ., 313 A, B : عن)



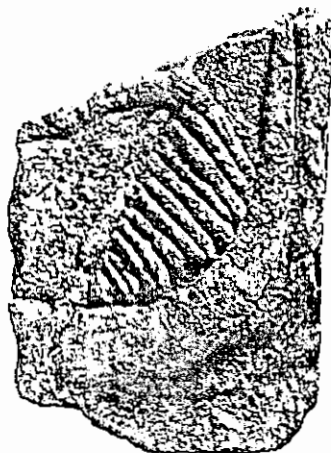
شكل 31 : (عن : H . Frankfort, More Sculpture, Pl ., 64, No ., 316)



شكل 32 : (عن : طارق عبد الوهاب مظلوم ، المرجع السابق ، لوح 13 ب)

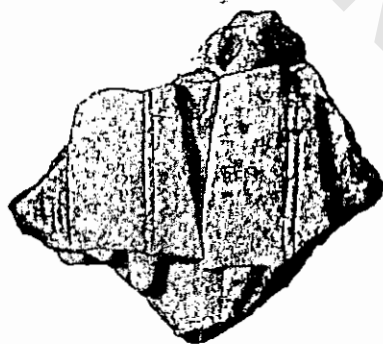


(ب)



(ا)

شكل 33 : (عن : H . Frankfort, Sculpture, PL ., 109, No . 191 ؛ PL . 111, No ., 198 :



(ب)



(ا)

شكل 34 : (عن : H . Frankfort, More Sculpture, Pl ., 66, Nos, 321, 322 :

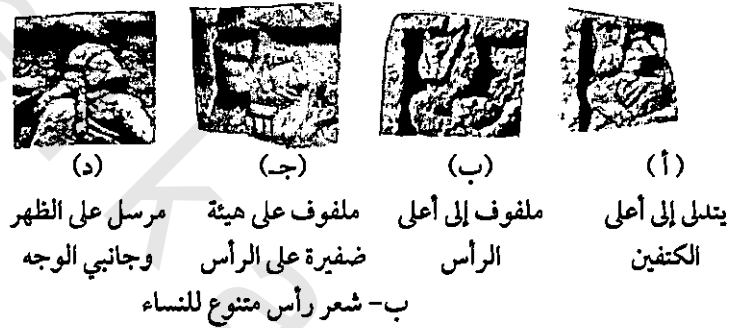
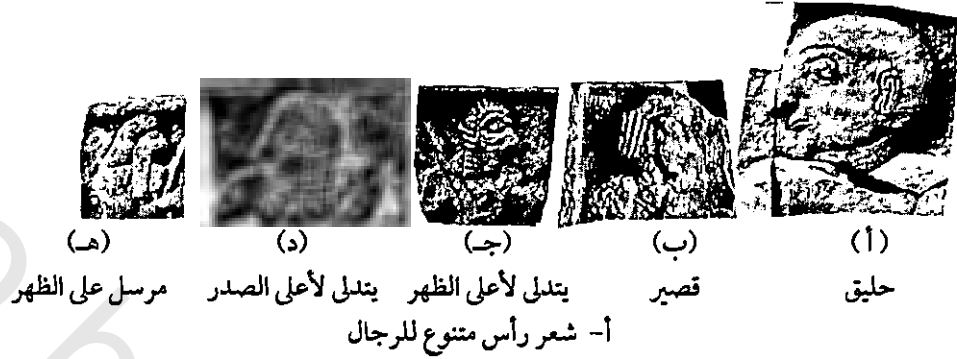


(ب)



(ا)

شكل 35 (عن : H . Frankfort, More Sculpture, PL ., 67, Nos ., 324, 329 :



شكل 36: (أ) - ب : شعر رأس متنوع للرجال والنساء في نقوش بطاقات عصر فجر الأسرات السومري؛ ج- غطاء للرأس متنوع.



(ج)



(ب)



(ا)



(و)



(هـ)



(د)



(ي)



(ط)



(ح)



(ز)

شكل 37: (أ-ط: تنورات (نقبة) قصيرة وعباءات (وزارات) فضفاضة متنوعة الأشكال للرجال في
نقوش بطاقات عصر فجر الأسرات السومري؛ ي: الرداء الشائع للمرأة).



أ- كباش بقرون مختلفة

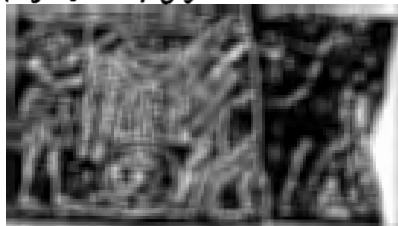


ب- البقرة بقرون قصيرة مقوسة



ج- حيوان السبسي الصغير

شكل 38 : (أبرز أنواع الحيوانات في نقوش بطاقات عصر فجر الأسرات السومري).



أ- عربة خاصة بسيطة



ب- عربة خاصة فاخرة



ج- عربة حربية

شكل 39: (أنواع العربات في نقوش بطاقات عصر فجر الأسرات السومري).



(ب)

الكنارة (القيثارة)



(أ)

الجنك

شكل 40: (أبرز أدوات الموسيقى التي وردت في نقوش بطاقات عصر فجر الأسرات السومري).

**العلاقات بين مدن الشمال السوري ومصر القديمة
في عصر الدولة الحديثة (1550 - 1069 ق. م)**

د. فائزة محمود صقر

أستاذ مساعد تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

فرع دمنهور

oboiikan.com

العلاقات بين مدن الشمال السوري ومصر القديمة في عصر الدولة الحديثة (1550 - 1069 ق.م)

مقدمة⁽¹⁾:

يقع السواد الأعظم من جسم مصر في إفريقيا (94٪ من مساحتها) إلا أن البعد الآسيوي يأتي دائماً مبكراً. كانت مصر القديمة آسيوية أكثر منها إفريقية، والانحدار التاريخي والجاذبية الجغرافية في مصر هي أساساً نحو الشمال الشرقي.

وقد لعبت جغرافية مصر في ذلك الأمر دوراً مهماً، إذ إن النيل في مصر مثلاً لا يجري في منتصف الصحراء ولكنه يجنح بتحيّز واضح نحو الشرق، وكذلك البحر الأحمر فهو بمثابة دهليز طويل يفضي بمصر إلى غرب الجزيرة العربية حتى اليمن. وعن طريق سيناء جاءت كل الغزوات على مصر تقريباً، وعن هذا الطريق أيضاً كانت كل انتصارات مصر عبر تاريخها.

تعنى سوريا الرقعة الواقعة بين الفرات وجبال طوروس شمالاً، ونهاية جبال لبنان جنوباً. ونجدتها تتأثر بحضارات غيرها من الأمم التي تجاورها، ولعب موقعها الجغرافي دوراً في ذلك؛ حيث جعلها تقع بين العراق ومصر (شكل 1) ثم خيتا بعد ذلك.

(1) انظر: جمال حمدان، شخصية مصر (القاهرة، 2000)، 182 وما بعدها؛ نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ج3، دار المعارف (القاهرة، 1966)؛ كوتو، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شقيرة، مركز كتيب الشرق الأوسط (القاهرة، 1948)، 34 وما بعدها؛ سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج3 (في تاريخ الدولة الوسطى ومنبتها)، مكتبة الأسرة (2000)، 221، 222؛ جيمس هنري برستيد، تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الغزو الفارسي، ترجمة حسن كمال، مكتبة الأسرة (1999)؛ ج ستندوف، لوسيل، عندما حكمت مصر الشرق، ترجمة أحمد موسى، مكتبة مدبولي (القاهرة، 1990)، 33.

وتعتبر فينيقيا بمثابة عمر ضيق بين إفريقيا وآسيا؛ لأن صحراء سوريا الكبرى الواقعة جنوب بلاد لبنان إقليم لا يمكن اجتيازه عمليا، وعكس ذلك من ناحية فلسطين في الجنوب؛ إذ تتصل فينيقيا بشبه جزيرة سيناء ومصر. أما عن الشمال فالاتصال ممكن عبر وادي دجلة والفرات، ومن هنا ندرك كيف كانت فينيقيا غير قادرة على أن تبقى محايدة إزاء المنافسات التي تجاذبت كل العالم القديم. ولم يكن أمامها إلا أن تنحاز إلى فريق منها أو تصطلي بها.

وكان ضم منطقة فينيقيا بذلك ضرورة فرضتها الظروف الجغرافية والموارد الطبيعية؛ إذ كان من الضرورة لأي قوة تقوم في المنطقة أن تسيطر على هذه المنطقة لعظم الموارد التي تنتج من تجارتها من ناحية، ومن ناحية أخرى أنها كانت ذات فائدة حربية مهمة بحكم موقعها المفتوح على إفريقيا وآسيا، ومن ناحية ثالثة فهي قاعدة لمن يريد الغزو والتوسع.

تمهيد : العلاقات في الدولة الوسطى :

استعادت مصر وحدتها في عصر الأسرة الحادية عشرة التي أسسها متوحتب الثاني، وبدأت العلاقات بين مصر وسوريا تعود لطبيعتها، فقد كان هؤلاء الأعداء من نوع خاص؛ إذ كان في مقدورهم أن يهددوا الأمن على الحدود، ولكنهم في الوقت نفسه لم يكونوا قادرين على المقاومة. وكان سلطان الملك المصري يمتد إلى داخل بلاد سوريا، حيث كانت البعوث تروح وتجيء بين البلاط المصري وهذه البلاد، كما كانت المحاصيل الآسيوية ترد إلى مصر.

ويشير (خنم حتب الأول) أحد أنصار الفرعون أمنمحات الأول إلى أن الملك خرج في أسطول مكون من عشرين سفينة من خشب الأرز، وهو المجلوب بلا شك من جيبيل (بيبلوس)، وهذا الأمر دليل على قيام علاقات تبادل تجاري بين القطرين. وقد كانت آسيا كذلك ميدانا للحرب، ولكن على أرجح الأحوال فإن هذه الحرب لم تكن تتعدى المناوشات وحملات التأديب التي يخرج بها الملك كي يكبح جماح البدو الذين يطمعون دائما في الاستيلاء على مقدرات البلاد وخيراتهما. ويبدو أن معظم العلاقات بين القطرين

قد تركزت على العلاقات السلمية والدبلوماسية، وهذا ما ستيه الأثار المكتشفة عند الجانبين.



شكل (1) خريطة سوريا القديمة

وتوجد وثيقة خاصة بعصر الدولة الوسطى، وهى مغامرات (سنوهى)، ذلك النيل المصري الذي هرب من مصر عقب وفاة أمنمحات الأول وتولى سنوسرت الأول عرش مصر. وبدون الدخول في سرد أحداث القصة نجد أنها تبين حياة الريف السوري، وسكانه، وخشونة طباع أهل البدو وتعبيرهم الساذج عن أفضلية أهل مصر على الشعوب المجاورة. ولكن المهم في هذه القصة أنها تشير إلى أن اللغة المصرية التي كان يتكلم سنوهى بها كانت معروفة لدى بعض السوريين، وأن الرسل والتجار المصريين كانوا مترددين على لبنان ويمرون بها إلى ما هو أبعد، وأن الحكام السوريين كانوا على اتصال بمجريات الأمور في مصر، وأن سنوهى نفسه قد اشترك على رأس فرقة من أهل الشام في صد الجماعات التي تسمى رؤساؤهم باسم (حقا خاسوت) بمعنى حكام البرارى أو الشعوب الأجنبية.

وتواصلًا للعلاقات السلمية فإنه قد اكتُشِفَت الكثير من التماثيل والأدوات والجعارين والأختام التي نقش عليها أسماء أفراد مصريين ترددوا على مناطق فلسطين وسوريا وفينيقيا. ومن ناحية أخرى فإنه قد ترتب على جهود أمنمحات الأول ورجاله، وجهود سنوسرت الأول ورجاله أن خيم السلم والأمن والرخاء على أحوال مصر الداخلية، وعلى حدودها ومسالك التجارة وعلاقاتها الخارجية، وهو الأمر الذي ظهر بوضوح جلي في عهد كل من أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني.

توالت الهدايا من الملوك المصريين إلى الأمراء الشاميين المواليين لهم، وكان من هذه الهدايا أوان من حجر الأبيسود الأسود اللامع أهديت لأحد أمراء جبيل في عيد توليه العرش. كذلك عثر على آثار دقيقة لأميرات مصريات، يغلب الظن أنهن أهدينها إلى صديقاتهن من الأميرات الشاميات، ومن أشهرها تمثال على هيئة أبو الهول للأميرة (إتا) ابنة الملك أمنمحات الثاني عثر عليه شمالي حمص، وكذلك تمثال صغير آخر لأخت الملك سنوسرت الثاني.



شكل (2) منظر قدوم قوم «العاسو» برئاسة «إيشا»
 في صف واحد على الجدار الشمالي لمقبرة «خنوم - حتب» رقم (3)
 بمنطقة بني حسن (مركز أبو قرقاص - محافظة المنيا)؛ نقلاً عن: LD II, Blatt 133

لم ينجح المصريون في الدولة الوسطى في الحصول على موطن قدم لهم في فلسطين وسوريا فقط، وإنما امتد نفوذهم إلى أبعد من ذلك، فقد تغلغل سنوسرت الثالث حتى (سكم) التي من المحتمل أن تكون (شسيم) المذكورة في العهد القديم. وقد عثر على جعارين عليها أسماء آسيوية بجانب اللقب المصري، وهم أشراف بيبيلوس الذين حكموها بوصفهم أمراء مواطنين. وأهمية هذا الأمر ترجع إلى أن اللقب المصري كان يمنحه الفرعون إلى المقربين له، وهذا الأمر يضع أمامنا الدليل على أن الحكام الآسيويين في بيبيلوس كانوا معضدين في حكمهم بملك مصر، وهذا ما يدل على مقدار الرقابة والسيطرة المصرية.

أما عن الآثار التي وجدت في مصر، فقد نقشت على مقبرة (خنم حتب الثاني) رقم (3) ببني حسن (مركز أبو قرقاص، محافظة المنيا) في عهد الملك سنوسرت الثاني نقش يمثل وصول جماعة من السوريين عددهم سبعة وثلاثون ويتقدم الجماعة حاكم البلاد (شكل 2)، وهذا دليل على تعمق أواصر الصداقة والتعاون بين الطرفين. وفقد عثر في الكرنك على أحجار منقوش عليها أسماء حاملي الهدايا من فلسطين، وكانت هناك راقصات آسيويات كن يرقصن في الأعياد المصرية.

وقد استمرت العلاقات المصرية السورية في عصر الأسرة الثالثة عشرة؛ إذ عثر على نقش يتضمن قيام أمير جبيل بتقديم فروض الولاء والطاعة للملك (نفر حتب الأول) من ملوك الأسرة الثالثة عشرة، وهذا الأثر دليل على استمرار العلاقات بين مصر وجبيل حتى أواخر الدولة الوسطى. وأيضاً وجد مكتوب بالخط المساري على ختم اسطواني أن أمير بيبيلوس قد ذكر أنه موظف ملك مصر (سحتب إيب رع الثاني) في الأسرة الثالثة عشرة.

سجل أحسن بن نخبت على جدران مقبرته بالكاب أنه تابع في حربه ضد الهكسوس حتى (زاهي) وهو اصطلاح جغرافي يستعمل في الدولة الحديثة ليشير إلى سوريا وفلسطين. وقد يشير ذلك إلى أن الملك أحسن الأول - مؤسس الأسرة الثامنة عشرة فاتحة الدولة الحديثة - أخذ في مطاردة الهكسوس حتى بعد شاروهين، ومعنى ذلك إجلاؤهم عن المناطق التي سكنوها، وأنه لم يظهر مصر فقط منهم، وإنما فلسطين وسوريا أيضاً.

وقد أخذت الفترة من أحسن الأول حتى تحتمس الأول شكل فترة تأكيد للنصر، على شكل حملات سريعة على منطقة فلسطين وسوريا ذات نجاح موقوت قادتهم إلى الفرات

وجعلتهم على مقربة من ممالك الشرق الأدنى القديم، ولم يوقف المصريين عن هذه الحملات سوى اضطرابات الجنوب.

تحوتمس الثالث

عندما نتفحص مدى النفوذ المصري في آسيا، نجده إما يتمثل في ارتباط دائم بين الدولة صاحبة السيادة وبين الأقاليم التي تفرض عليها سلطانها. هذه التبعية لا تأتي بالاحتلال الشامل، وإنما خوفاً وفزعا من التسلط العسكري، أو عن طريق الحاميات التي توضع في المدن الكبرى وقد كانت مصر تمد دائرة نفوذها على الأقطار الخاضعة لإرادتها، وكانت كل ما تبتغي من هذه السيطرة هو تحصيل الجزية، وإذا تعرضت هذه الجزية للانقطاع كان لابد للملك المصري أن يتبع سياسة التهديد بالغزو أو الغزو الفعل⁽²⁾.

وصل تحوتمس الثالث في حملته الثامنة إلى أعالي نهر الفرات، وقد سجل انتصاراته على دولة ميتاني في لوحة جبل البرقل التي أقامها في معبد آمون على مقربة من الجندل الرابع والتي تؤرخ في العام الثالث والثلاثين من حكمه:

"...أمرت ببناء سفن من خشب الأرز³ من جبال أرض الإله، على مقربة من إلهة جبيل ووضعت على عربات تجرها الماشية وسافرت أمام جلالتي لكي تعبر النهر العظيم الذي يفصل تلك البلاد الأجنبية عن بلاد النهرين"⁽³⁾.

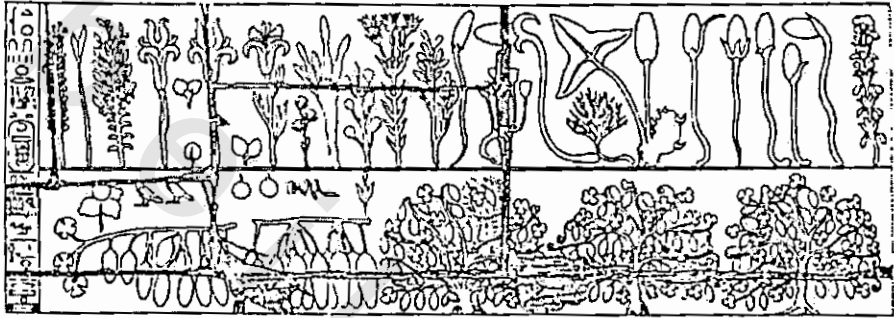
أحكم تحوتمس الثالث قبضته على إقليم شرق البحر المتوسط، ثم إن استخدامه للبحر في حملاته وغزواته المباغثة لدولة ميتاني وطد دعائم سيطرته على المنطقة، ويلاحظ أن عملية تصنيع السفن في جبيل قبل الهجوم أتاحت للملك تنفيذ خطة المبادرة والاستيلاء على ضفتي الفرات⁽⁴⁾.

(2) سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الخامس (القاهرة، 1992)، 177-179.

(3) نييلة عبد الحليم، مصر القديمة تاريخها وحضارتها (الإسكندرية)، 275-276؛ B. Urk. IV, 356; Cumming, EHR, 2.

(4) Anthony J. Spalinger, Aspects of the military Documents of Ancient Egyptians, Yale Near Eastern Researches 9, Yale University Press (New Haven and London, 1982), 52; Donald B. Redford, 'Thutmose III.', in: LÄ VI (Wiesbaden, 1986), 542.

ولقد شهدت السواحل المصرية في عهد تحوتمس الثالث نشاطا ملحوظا، فقد سيطر على قادش في حملته السادسة عام حكمه الثلاثين - ربما كانت أول عملية برية بحرية في التاريخ - وقد ذكر من قبل عن حملته الخامسة أنه أسر مجموعة سفن فينيقية عادت بغنائمه مع الحملة بحرا (شكل 3)، ولعله استفاد من ذلك في حملته السادسة و الثامنة⁽⁵⁾.



شكل (3) منظر بالكرنك لجدار النباتات السورية

وإذا أردنا حدا فاصلا لحدود إمبراطورية تحوتمس الثالث في أقاليم آسيا الشمالية نجده يبدأ من ساحل البحر المتوسط شمالي أرواد، ثم ينحني إلى الجنوب عند انفصال نهر العاصي عن نهر الأردن، ثم يأخذ في التلاشي في الصحراء الشرقية على مسافة قريبة من جنوبي دمشق⁽⁶⁾.

أمنحتب الثالث :

عاشت مصر في عهد أمنحتب الثالث حالة من الاستقرار العسكري رغم تقلده لقب قاهر الآسيويين⁽⁷⁾ وقد نعمت بالثراء والرفاهية. وتمثل ذلك في ازدهار نمط الدبلوماسية المصرية التي تركزت في عقد الزيجات السياسية بين أمنحتب الثالث وأميرات من بابل

(5) أحمد عبد الحميد يوسف، «سواحل مصر الشمالية في العصر الفرعوني»، ندلاوة تاريخ سواحل مصر الشمالية (القاهرة، 2001)، 13؛ انظر:

C. Giacomo, 'The Ancient Military Road between Egypt and Palestine Reconsidered A Reassessment', in: GM 181 (2001), 23-34.

(6) انظر: Urk. IV, passim

(7) K. A. Kitchen, Amenhotep III and Mesopotamia (1997), 7-10; H. Schmidt, in: RdE 44 (1993), 159-160.

وميتاني⁽⁸⁾، في حين كانت الإمبراطورية الحيتية في أوج قوتها العسكرية فيما يعرف بالحملة السورية الكبرى الأولى ثم الثانية وفيها استطاع شوبيلوليوما ضم موكيش ونيانوخا شاش وآلاخ وقطنة وقادش بالإضافة إلى تحالف نيقام الثاني حاكم أوجاريت مع الملك الحيتي وتحليه عن حليفه السابق الملك المصري⁽⁹⁾. وزادت الأحوال سوءاً في ميتاني بعد استيلاء خاتى على الإقليم السوري بالإضافة إلى تهديد الخطر الآشوري لحدودها الشرقية، ثم النزاع داخل البيت المالكي الميتاني مما دفع بحاكمها شاتيوواز للجوء للملك الحيتي، واتخذها شوبيلوليوما فرصة ليغزو عاصمة ميتاني واشواجانى ويقضى على حاكمها المتحالف مع آشور، واقتسمت ميتاني بين آشور وخيتا التي باتت تهدد النفوذ المصري في سوريا وفلسطين خاصة أن قرقيش في أعالي الفرات كانت في حوزة الممتلكات المصرية⁽¹⁰⁾. وتعكس رسائل أرشيف تل العمارنة العلاقات الدولية في عهد كل من أمنحتب الثالث وأمنحتب الرابع.

أمنحتب الرابع :

أضاف أمنحتب الرابع بأفكاره الدينية المتمثلة في الدعوة الآتونية مزيداً من التراخي العسكري وتقلص النفوذ المصري في الإقليم الآسيوي، وترصد رسائل تل العمارنة الأوضاع السياسية بين مصر وخاتى وبابل وقبرص منذ عهد أمنحتب الثالث وحتى العام الرابع من حكم توت عنخ آمون.

قام ربعدي حاكم جيل⁽¹¹⁾ بإرسال عدة رسائل إلى أمنحتب الرابع يصور فيها مظاهر التدخل الحيتي حيث تساقطت المدن السورية الشمالية في يد الحاكم الحيتي، في حين كان

(8) K. A. Kitchen, Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs: A Study in Relative Chronology, Series: Liverpool Monographs in Archaeology and Oriental Studies. General Editor: H. W. Fairman (Liverpool University Press, (Liverpool, 1962), 34-35; W. J. Murnane, The Road to Kadesh. A Historical Interpretation of the Battle Reliefs of King Sety I at Karnak, Studies in Ancient Oriental Civilization 42, The Oriental Institute of the University of Chicago (Chicago, 1985), 178-183.

(9) D. Luckinbill, Arab I (1926), § 58; Donald B. Redford, Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times (Princeton, 1993), 169-177

(10) K. A. Kitchen, Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs, 34-35; W. Murnane, The Road to Kadesh, 178-183.

(11) S. A. B. Mercer, op . cit ., 7, 285; 8, 287; 9, 289; 10, 291.

عبدى شرتا حاكم أمورو يلعب دور العميل المزدوج، كما استمر ابنه عزيزو بن عبدى شرتا في نفس سياسة والده، وتحالف مع شوبيلوليوما وعقد معاهدة استطاع بموجبها السيطرة على المنطقة الساحلية الممتدة من جليل جنوبا إلى أوجاريت شمالا وذلك قرابة 1337 ق.م. وهو العام نفسه الذي توفي فيه أمنحتب الرابع⁽¹²⁾.

وبذلك أظهرت مدن الإقليم الآسيوى أنها ليس لها أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون، وإنما مصالح دائمة تميل فقط نحو الحليف الأقوى. ولم تكن الإدارة المصرية في غيبة عن مجريات الأمور، فقد كانت تحركات عزيزو تحت المراقبة المصرية حيث استُدعى أمام الملك المصري ليفسر موقفه، وربما أراد الملك المصري استخدامه لتنفيذ خطة لحماية النفوذ المصري، وعلى الرغم من كثرة تحذيراته للملك المصري إلا أنه أخيرا انضم للملك القوى وهو ملك خيتا⁽¹³⁾.

يتضح أن الحرب السورية الأولى ربما كانت في عهد أمنحتب الثالث أو أمنحتب الرابع ففي الرسالة رقم (62) و(67) من رسائل تل العمارنة نجد الموظف المصري بإحماناتى قد هجر مقر إقامته في سومور وعاد إلى مصر، مما يشير إلى سقوط تلك المدينة⁽¹⁴⁾.

تولى شوبيلوليوما حكم خيتا قرابة العام الحادي والعشرين من حكم أمنحتب الثالث، أما عن علاقة شوبيلوليوما بمصر قبل الحرب السورية الأولى فكانت تتسم بالدبلوماسية، فقد سادت علاقات ودية فاترة، فقد أرسل شوبيلوليوما الرسالة رقم (41) إلى أمنحتب الرابع يستشف منها استياء الحاكم الخيتي ولكنه يذكر أنه سوف يقوم بإرسال الهدايا الثمينة التي اعتاد الخيتيون على إرسالها إلى الملك المصري ورغم المهادنة التي أبداهما الخيتيون في هذه الرسالة، إلا أنه بعد قرابة ثلاثين عامًا تقريبا يدخل الطرفان في معارك ضارية. كما أرسل الخطاب رقم (42) و(43)⁽¹⁵⁾.

(12) W. Murnane, The Road to Kadesh, 186-192; D. B. Redford, History and Chronology of Eighteenth Dynasty of Egypt (Toronto, 1967), 216-225.

(13) W. Murnane, The Road to Kadesh, 8-9; J. G. Fredrick, 'The Amarna Age, Western Asia', in: JNES (2001), 141; D. B. Redford, History and Chronology of Eighteenth Dynasty of Egypt, 216-225.

(14) S. A. B. Mercer, op. cit., 62-76; W. Murnane, The Road to Kadesh, 7.

(15) EA (41); K. A. Kitchen, Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs, 20; W. Murnane, The Road to Kadesh, 1.

ومن الملاحظ أن شوبيلوليوما قد تجاهل في تقاريره الحربية ما استولى عليه من مدن كانت تدين لمصر بالطاعة، وقد يرجع ذلك إلى أنه كان يعد السلام مازال قائما بين البلدين بصفة رسمية .

كان تولي شوبيلوليوما الأول عرش خيتا قرابة عام 1386 ق.م. (معاصرا للملك الميتاني توشراتا الذي اعتلى عرش ميتاني قرابة 1385 ق.م. والملك المصري أمنحتب الثالث 1405 - 1367) إذانا بالصدام بين ميتاني وخيتا ، ونستنتج من خطاب توشراتا إلى أمنحتب الثالث فشل حملة شوبيلوليوما أو ربما كانت حملته هذه على سبيل الاستطلاع فقط .

استطاع شوبيلوليوما الاستيلاء على أشوا، وكانت قد فقدت من أملاك خيتا، ثم تعاقد مع شوناش شورا ملك كيزوانتا، وعقد معاهدة مع أرتاتاما ملك بلاد حوري. وضمن الملك الخيتي بهذه المعاهدة عدم تدخل الحوريين في حال صراعه مع الميتانيين⁽¹⁶⁾.

وأحكم شوبيلوليوما الحلقة حول ملك ميتاني بزواجه من ابنة الملك البابلي بورنابورياس وبذلك يكون قد أعد العدة لخوض الحرب السورية الثانية⁽¹⁷⁾. والواقع أن سياسة شوبيلوليوما كانت تنتهج أسلوبين: أسلوب الحرب وأسلوب عقد المعاهدات، فنظرا لترامى أطراف إمبراطوريته لجأ إلى تقييد كل هذه الإمارات الصغيرة بمعاهدات بموجبها تهب هذه المدن في وجه أي عدو يناهض مملكة خيتا في مقابل مد يد المساعدة لهؤلاء الأمراء.

ومن المعاهدات التي كبلت بها خيتا مملكة أمورو، تلك التي عقدت بين مورسيل بن شوبيلوليوما وحاكم أمورو ويدعى دوبي تيشوب، وتتفق المعاهدة مع غيرها من معاهدات خيتا مع حلفائها في المقدمة التمهيدية التي تنحصر في ألقاب الملك الخيتي، ثم المقدمة التاريخية التي تشرح الخلفية التاريخية للعلاقات بين الطرفين فتذكر كيف كانت العلاقات بين عزيزو جد دوبي تيشوب وشوبيلوما والد مورسيل، ثم تنتقل المعاهدة

(16) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد (القاهرة، 1967)، 476-480.

(17) K. A. Kitchen, Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs, 23-25; J. G. Macqueen, The Hittites and their contemporaries in Asia Minor (London, 1986), 46.

لتحدد العلاقات المستقبلية بين الطرفين ، بعد ذلك تنتقل إلى بند التحالف العسكري، وجدير بالذكر أن مصر قد ذكرت كإحدى الدول المعادية لحيثا، ويلتزم الجانب الأموري باعتبار أعداء حيثا أعداء له، وكذا الأصدقاء. وتنتهي المعاهدة بذكر عدد من الآلهة يشهدون إبرام المعاهدة⁽¹⁸⁾.

الحرب السورية الثانية :

قام توشراتا ملك ميتاني بتأليب المدن ضد شوبيلوليوما الذي اتخذها ذريعة للانقضاض على مملكة ميتاني واستولى على عاصمتها واشوجاني ثم عبر الفرات شرقا وتوالى سقوط المدن جنوبي حصون قرقيش وهي حلب وموكيش ونياء وأراختو وقطنة ونوخاش وقادش ولم تذكر النصوص قرقيش وأمورو لأنها سبق وعقدت معاهدات مع الحيتيين ، وبذلك انتهت دولة توشراتا في ميتاني⁽¹⁹⁾.

ومما لا شك فيه أن تأثير هذه المعركة في مصر كان عميقا، فالإمبراطورية الميتانية التي استمرت لجيلين متعاقبين قد انتهت، إن مدينة قادش الموالية لمصر سقطت أيضا واقتيد ملكها ومواطنوه إلى الأناضول، كل هذا جعل مصر في وضع متحفز لمواجهة الخطر⁽²⁰⁾.

قام شوبيلوليوما بعزل الحكام المحليين ووضع مكانهم من يثق فيهم ، وبقيت بعض المدن الموالية لمصر تحاول التملص من الغزو الحيتي ؛ فهذا حاكم قطنة يرسل إلى أمنحتب الرابع يخبره أنه وأربعة من الحكام المجاورين وغيرهم من بقايا حكام ميتاني سوف يقفون مع الملك المصري ، ويبدو أن الملك المصري أرسل بعض قواته ربما أثناء أو بعد انتهاء الحرب السورية الثانية⁽²¹⁾.

(18) انظر: A. Goetze, 'Hittite Treaties', ANET, 201-22.

(19) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، 485.

(20) W. Murnane, The Road to Kadesh, 10-11.

(21) A. F. Rainey, El-Amarna Tablets 359-379. Supplement to J. A. Knudtzon, Die El-Amarna-Tafeln, Kevelaer, Verlag Butzon & Bercker/Neukirchen-Vluyn, Neukirchener Verlag des Erziehungsvereins, Alter Orient und Altes Testament 8,; Neukirchen – V, 2nd ed. rev. (Luyn, 1978), 186-187.

ويبدو أن إدارة إخناتون أثرت الانتظار حتى تهدأ العاصفة لترى كيف تتعامل مع القوى الجديدة ، ولكن تعقدت الأمور حين قام ايتاكاما ابن حاكم قادش السابق بإغراء حاكم قطنة اكيزي الذي كان يدين بالولاء لمصر ثم هاجم ايتاكاما بمعاونة الخيئين مدينة قطنة واستولى عليها وتقدم نحو دمشق (أوبى) حيث كان بيراوازا الموظف المصري قائما هناك، وفي أحد خطابات تل العمارنة أرسل ايتاكاما خطابا إلى الملك المصري يشكو بيراوازا لأنه أحرق مدينة قادش⁽²²⁾.

وصلت القوات المصرية وقامت المدن السورية بالاستعداد لاستقبالها⁽²³⁾؛ فهذا أبو ملكي حاكم صور يقرر أن المعونة قد أتت: "وجه الملك وجهه نحو خادمه وأعطاه جندا مصريين ليحمي مدينة الملك".

ويبدو أن هذه القوات أرسلت لمساندة بيراوازا في كفاحه ضد ايتاكاما، ولكن اضطراب الأمور الداخلية في مصر ثم وفاة أمنتب الرابع جعل هذه القوات ليست بالكفاءة المرجوة . فهذا خطاب ربعدي يتساءل: "لماذا أرسل الملك سريات ومركبات للاستيلاء على المدن ولم يكن لديها المقدرة على أخذها؟" وفي خطاب ربعدي رقم (126): "لقد سمعت أن الخيئين أحرقوا الأرض بالناس، لقد كتبت مرارا بهذا الشأن، ولكن لم يصلني رد. إن كل أراضى الملك سيدي قد أستولى عليها. ولم يزل سيدي ممسكا نفسه منهم. وانظر الآن، لقد أحضروا جنودا من أراضى الخيئين ليهاجموا جيبيل"⁽²⁴⁾.

(22) W. Murnane, The Road to Kadesh, 12.

(23) EA, 324.

(24) A. R. Schulman, 'Cankhesenamun, Nofretity and Amka Affair', in: JARCE 15 (1978), 44; W. Murnane, The Road to Kadesh, 177 ff.; H. Verreth, 'The Egyptian Eastern Border Region in Assyrian Sources', JAOS (1999), 234;

توت عنخ آمون :

أخضعت خيتا كل مدن الشمال السوري بما فيها قرقيش التي سقطت في يد شوبيلوليوما، وجعل عليها ابنه بياسيللى حاكما، وأبرمت خيتا معاهدات رسمية تلزم كل حاكم بالمثل أمام الحاكم الخيتي في (خاتو شاش) لإظهار ولائه وتقديم الجزية المفروضة (25).

وتظهر مسألة (الدوخامنسو) وتعني t3 Hmt nsw، وهى في ذلك الوقت عنخ اس ان آمون أرملة الملك توت عنخ آمون التي في الغالب أرسلت طلبا للزواج من ابن الملك الخيتي قرابة عام 1323 ق. م (26)، وهى مسألة ترصد مدى الروح الانهزامية في قبول السيطرة الخيتية.

استعدت خيتا لتوجيه الضربة القاضية لميتانى، وكان ذلك في المعارك التي عاصرت حكم توت عنخ آمون، وهى ما تعرف بالحرب السورية الثانية حيث سقطت واشوجانى عاصمة ميتانى وقتل ملكها توشراتا، ونصب ماتيوآزا ابن توشراتا الذي تزوج من ابنة شوبيلوليوما، وبموالاة ميتانى لخيتا صارت بمثابة دولة حاجزة لدرء خطر آشور الذي كان آخذا في النمو آنذاك (27).

لا شك أن تدهور ميتانى قد سهل إخضاع المدن السورية، فعندما عاد شوبيلوليوما ليتم مهمته، لم يكلفه الأمر أكثر من حصار دام ثمانية أيام لإسقاط حصن قرقيش، وأصبحت سورية من الفرات حتى البحر ولاية خيتية (28). ولا شك أن تحالف قادش وأمورو مع خاتى وتحولهما عن الجانب المصري جعل ميزان القوى يتغير لصالح خاتى في صراعها لضم الممتلكات المصرية في آسيا. وجدير بالذكر أن وقوع قرقيش على نهر الفرات جعلها تتمتع بمركز تجارى ذي شأن، وهذا يفسر تنصيب شوبيلوليوما ابنه

(25) K. A. Kitchen, Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs, 51; W. Murnane, The Road to Kadesh, 195; Donald B. Redford, Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times, 178.

(26) J. G. Macqueen, The Hittites and their contemporaries in Asia Minor, 47-48.

(27) زينب سيد محمد محمود المرجع السابق، 92.

(28) أ.ر. جرنى، الحثيون، مترجم، الألف كتاب الثاني، العدد (257)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1997)، 52.

بباسبلى ملكا على قرقميش⁽²⁹⁾ وفي فقرة من نص توت عنخ آمون في الكرنك⁽³⁰⁾، لخص فيها ما آل إليه حال الممتلكات المصرية في آسيا على أثر استيلاء خيتا عليها، وتخرّج الأحوال في مصر، وفشل السياسة المصرية في المحافظة على هذه الممتلكات :

"كانت البلاد قد انقلبت رأسا على عقب وأدار الآلهة ظهورهم للبلاد وأرسلت الرسل إلى زاهي (سورية) ليمددوا حدود مصر ولم ينجحوا..."⁽³¹⁾.

ونلاحظ أن الحقيقة التاريخية واضحة في تقرير توت عنخ آمون، وخاصة بعد استيلاء شوبيلوليوما على قرقميش وأمورو وبذلك انفصمت عرى الصداقة التي كانت بين مصر وخاتي وأصبحت حالة الحرب علنية.

قام Kitchen بوضع الجدول الزمني التالي الذي يوضح تشابك العلاقات الدولية في مناطق الشرق الأدنى القديم منذ عهد أمنتبب الثالث حتى عهد سيتي الأول:

حوالي ق.م.	أهم الأحداث التاريخية
1392 - 1406	- اعتلاء أمنتبب الثالث العرش (العام الأول) استمر 37 عاما حتى 1355 أو 1369 تقريبا. - قبل العام الثلاثين من حكم أمنتبب الثالث يتوافق مع كاربنداش وكوريجالزو الأول البابليين، - رسائل تل العمارنة (9 : 19 - 30) و (10 : 8 - 10) ثم مع كادشمان - انليل الأول رسائل تل العمارنة من 1-5
1397 - 1383	- منذ العام الرابع من حكم أمنتبب الثالث حتى العام العاشر، عندما تم زواجه من جليوخييا ابنة شوتارنا الثاني ملك ميتاني، أول زيارة لعشتار حاكم نينوى، رسائل تل العمارنة (18 : 20-29) ⁽³²⁾ .

(29) W. Murnane, The Road to Kadesh, 38.

(30) أمر توت عنخ آمون أن تقام اللوحة بالقرب من الصرح الثالث في معبد الكرنك حيث تصوره وهو يقدم القرابين لأمون وموت، سير ألن جاردنر، مصر الفرعونية، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم (القاهرة، 1973)، 263.

(31) سليم حسن، مصر القديمة، ج 5، 286؛ 16-17؛ PM II، 8 ff؛ JEA 25.

(32) Urk. IV, 1738.

- تودخالياش الثالث حاكم خيتا يواجه أزمات داخلية في الأناضول بمساعدة ولي العهد شوبيلوليووم⁽³³⁾.	
- في العام الثامن عشر من حكم أمنتبب الثالث ، وربما قبل ذلك اعتلى توشراتا عرش ميتاني ، بعد وفاة شوتارنا الثاني - العمارنة 17⁽³⁴⁾.	1375 - 1389
- في العام الواحد والعشرين من حكم أمنتبب الثالث ، اعتلاء شوبيلوليووم عرش خاتي ، حيث قضى العشرين عاما الأولى في إعادة الاستقرار داخل خيتا وذلك قبل بدء الحرب السورية الأولى (قراءة العام 12 من حكم إخناتون) .	1372 - 1386
- في العام الثلاثين من حكم أمنتبب الثالث والعام الأول من مشاركة أمنتبب الرابع لوالده في الحكم ، واستمر مشاركا في الحكم لمدة 16 عاما ، من 1361 حتى 1347⁽³⁵⁾.	1393 - 1377
- في العام الثالث والثلاثين من حكم أمنتبب الثالث (العام الرابع من مشاركة أمنتبب الرابع لوالده في الحكم) ، قيام شوبيلوليووم بغزو سورية . - يرسل امي ستامارو الأول حاكم أوجاريت الخطاب رقم (45) للملك المصري . - يهاجم توشراتا ملك ميتاني خاتي ويرسل بعض الغنائم إلى مصر : رسالة العمارنة رقم 17 . - ربما خلال العشرين عاما الأولى من حكمه قام أمنتبب الثالث بزيارة صيدا - العمارنة (35) ، فيما بعد أرسل قوات عسكرية لمعاونة رعبدي حاكم جبيل ضد عبدي شرتا حاكم امورو (العمارنة 108 ، 117) .	1360 - 1374

(33) H. G. Güterbock , 'The Deeds of Suppiluliuma as told by his son Mursili II', in: JCS 10 (1956), 2-14, 15-24.

(34) A. P. Kozloff, op. cit., 48-50; P. Clancier, La Syrie du Nord , entre Hittites et Assyriens, Haluka (Paris, 1999).

(35) See: B. Menu, La Proclamation de L'Empire par Aminophis III, in: Recherches sur L'histoire Juridique , Economique et Sociale de L'Ancienne Egypt II, IFAO (1998), 99-119.

1359 – 1373	- في العام الرابع والثلاثين من حكم أمنحتب الثالث ، يدعى أمنحتب الرابع إخناتون ويرحل إلى تل العمارنة .
1358 – 1372	- في العام الخامس والثلاثين من حكم أمنحتب الثالث ، واعتلاء نيقماد الثاني حكم أوجاريت .
1359 – 1373 1357 – 1371	- ربما العام 34 – 35 من حكم أمنحتب الثالث : مفاوضات الزواج من تودخيا ابنة توشراتا ملك ميتاني ، وقد تم الزواج قرابة العام 36 ، والزيارة الثانية التي يقوم بها عشتار حاكم نينوى لمصر (العمارنة : 49) . - العام 36 من حكم أمنحتب الثالث بداية حرب الأموريين ضد ربعدي - العمارنة (106) . - يتزوج نيقماد الثاني حاكم أوجاريت سيدة مصرية (العمارنة: 49) .
1356 – 1370	- في العام 37 / 8 من حكم أمنحتب الثالث ، يرسل بورنابورياس الثالث ملك بابل خطابا إلى أمنحتب الثالث (العمارنة : 6) .
1355 – 1369	- في العام الثامن والثلاثين من حكم أمنحتب الثالث ، أصبح إخناتون منفردا بالحكم (العام التاسع) تنحصر علاقاته الآسيوية في الآتي : - يرسل توشراتا الملكة تي (العمارنة 26) . - يبقى شوبيلوليوما علاقاته الودية (العمارنة 41) . - يستمر بونابورياس الثالث في علاقاته الودية (العمارنة 7 ، 8) .
1355 – 1369	- قرابة العام التاسع من حكم إخناتون - يعقد شوبيلوليوما معاهدة مع ارتاتاما الثاني . - رد فعل توشراتا المعادي ضد خيتا . - الخطابات الأولى من ربعدي حاكم جيل (العمارنة 68 – 70 ، 72 – 74) .

- قرابة العام العاشر من حكم إخناتون الغزو الثاني لسوريا نكاية في توشراتا ، واجتياح غرب الفرات واخضاع شاروبشى حاكم نوخاش ، وخضوع أسمى من عبدى شرتا حاكم امورو (العمارنة 75) ومد حدوده حتى لبنان . - يتوسع عبدى شرتا بمعاونة خيتا نحو إيركاتا وأممبى وأردانا وشيجاتا (العمارنة 75 - 76) وقد خضعت كل المدن الساحلية لأمورو حتى مدينة صور (العمارنة 78 - 83) .	1354 - 1368
قرابة العام الحادى عشر من حكم إخناتون - يستولى عبدى شرتا على سومور (العمارنة 71 ، 84) . - مهاجمة توشراتا للمدن السورية ردا على اجتياح شوبيلوليوما غرب الفرات . - مهاجمة شوبيلوليوما شاروبشى ويصل سومور (العمارنة 85 ، 95) . - انسحاب توشراتا إلى مقره . - وفاة عبدى شرتا (العمارنة 101) . - استيلاء ربعدي على سومور (العمارنة 102 - 104) . - يواجه عزيزو حاكم امورو ربعدي (العمارنة 105 - 108) .	1353 - 1367
قرابة العام الواحد والعشرين من حكم إخناتون - الحرب السورية الأولى بقيادة شوبيلوليوما :- - يعبر شوبيلوليوما الفرات ويستولى على عدة مدن⁽³⁶⁾ . - انسحاب توشراتا من المعركة⁽³⁷⁾ . - يعود شوبيلوليوما أدراجه عبر الفرات ويستولى على حلب .	1352 - 1366

(36) ANET, 318.

(37) H. G. Güterbock, op. cit., 26; S. Lloyd, Ancient Turkey, 43.

- تحالف شوبيلوليوما ونيقباد الثاني حاكم أوجاريت لمحاصرة المدن الواقعة بين حلب حيث شوبيلوليوما غربا وأوجاريت شرقا حيث الحليف نيقباد الثاني وهي مدن موكيش ونوخاش .

- ادونيرارى حاكم نوخاش يرجو معونة مصر (العمارنة 51)

- عزيرى يرسل في طلب معونة مصر ضد الغزو الخيتى (العمارنة 157).

- استيلاء شوبيلوليوما على موكيش .

- في الاياخ عاصمة موكيش يستقبل شوبيلوليوما حكام المدن الخاضعة ، كما يستقبل حليفه نيقباد الثاني حاكم أوجاريت

- استدعاء عزيرى إلى مصر ولكنه يتحجج بالبقاء في أمور للدفاع عنها (العمارنة 164 - 16).

- شوبيلوليوما يستولى على قطنة وحاكمها اكيلى يشكو إلى الملك المصري (العمارنة 55).

- عزيرى يخضع أسما لشوبيلوليوما ، وفي نفس الوقت يستولى على قطنة .

- استيلاء شوبيلوليوما على نوخاش وأسر ملكها وعائلته .

- استيلاء شوبيلوليوما على قادش وأسر حاكمها شوترنا وابنه ايتاكاما .

- عودة شوبيلوليوما إلى خاتى بعد أن أخضع كل المدن السورية خلال عام واحد.

قراءة العام الثالث عشر من حكم إخناتون

- ايتاكاما حاكم قادش يخضع للخيتيين (العمارنة 149) .

- عزيرى يضم سومور إلى أمور (العمارنة 149، 116، 138) .

- عزيرى وايتاكاما حليفان (العمارنة 151) ، بينما يتعاون ايتاكاما مع القوات الخيتية .

1351 - 1365

- ربعدي يتخوف من القوات الخيتية التي تهدد جبيل (العمارنة 126). - ربعدي يشكو من تخرشات عزيزو العدائية (العمارنة 117 - 118). - وأيضا من ابيملكى وزيمردا في صيدا . - ربعدي يبقى في بيروت لمدة أربعة أشهر (العمارنة 138) .	
قراة العام 14 من حكم إخناتون - بمعاونة عزيزو يُبعد ربعدي عن حكم جبيل ، واستيلاء أخيه على الحكم الذي يقع تحت سيطرة عزيزو ويواجه عداء مدينة صيدا (العمارنة 136 - 138 ، 162) . - يستدعى إخناتون عزيزو للمرة الأخيرة للمشول أمامه ، وعزيزو يعد بالمجيء (العمارنة 168) . - يحل مريت أتن ابنة إخناتون محل نفرتيتي لتكون السيدة الأولى في مصر ، وفي ذلك العام يرسل بونابورياش الثالث الرسالة (العمارنة 10) يذكر مريت آمون كابنة لإخناتون . - ابيملكى حاكم صور يذكر في شكواه اسم الملك ومريت اتن (العمارنة 155) .	1350 - 1364
قراة العام 15 من حكم إخناتون . - العام الأول من مشاركة سمنخ كارع والملكة مريت أتن التي استمرت ستين - إخناتون يتزوج عنخ اس ان با اتن . - بونابورياش يكتب لإخناتون (العمارنة 11) . - اتصال اشور أوبالط حاكم اشور بالملك المصري (العمارنة 15) - وصول عزيزو حاكم امورو إلى مصر ، وابنه يرسل في استعجال عودته خشية التهديدات الخيتية بقيادة لوباكيس (العمارنة 169 - 170) .	1349 - 1363
قراة العام 16 من حكم إخناتون (العام الثاني لسمنخ كارع) - عودة عزيزو إلى امورو ومناوشات مع نيقماد الثاني حاكم أوجاريت.	1348 - 1362

- اشور أبالط الأول حاكم اشور على علاقات طيبة مع مصر (العمارة 16) .	
قراية العام 17 من حكم إخناتون (العام الثالث لسمنخ كارع) - يعقد عزيزو اتفاقا مع نيقماد الثاني . - شوبيلوليوما يخضع عزيزو بعقد معاهدة بينهما ، وبذلك تتحول كل المدن من جيبيل حتى أوجاريت إلى الخضوع لختيا ، وتنتزع السيطرة المصرية (العمارة 98) . - وفاة سمنخ كارع وإخناتون . - العام الأول استمر متوت عنخ آمون مقيما في العمارة فيها ثمانى سنوات (حتى عام 1353 / 1339) . - أول رسالة من بونابورياس إلى توت عنخ آمون لمواجهة العلاقات الطيبة المباشرة بين مصر وأشور .	1347 – 1361
قراية العام الثاني من حكم توت عنخ آمون - يثير بونابورياس قضية العلاقات المصرية الآشورية (العمارة 9) .	1346 – 1360
- قراية العام 3 أو 4 من حكم توت عنخ آمون اتن / آمون - الملك يغادر تل العمارة ونهاية أرشيف تل العمارة .	1345 – 1359
من قراية العام 4 – 8 من حكم توت عنخ آمون . - لا توجد نصوص مصرية تشير إلى أحوال سورية ، رغم أن شوبيلوليوما يتمتع بعهد مزدهر في خيتا .	1344 – 1358
قراية العام 9 من حكم توت عنخ آمون - القوات الخيتية بقيادة الأمير تيلينوس تحتاح أراضى عزيزو وقرقميش ، ثم عودة تيلينوس إلى خيتا . - القوات المصرية تهاجم قادش ، والقوات الميتانية تهاجم مورموريا . - الحرب السورية الثانية	1339 – 1353

- تبدأ وتستمر لمدة ست سنوات ، شوبيلوليو ما يرسل قوات لتحرير مورموريا من الميتانيين وانتزاع قرقميش من المصريين⁽³⁸⁾. - وفاة توت عنخ آمون وبداية العام الأول من حكم آي الذي استمر لمدة ثلاث سنوات (حتى 1350 / 1336)	
- الزوجة الملكية لتوت عنخ آمون لدوخامنسو ترسل في طلب الزواج من أحد أبناء شوبيلوليو ما ليكون ملكا على مصر ، والذي يقوم بدوره بالتحقيق في هذا الطلب ، ويستولى على قرقميش ، ويقوم عليها ابنه ملكا ويعود أدراجه إلى خيتا بسبب حلول الشتاء⁽³⁹⁾. - في الربيع التالي يقوم بإرسال ابنه زانازا إلى مصر ، وفي ذلك الوقت استولى آي على عرش مصر - اغتيال زانازا في مصر ووصول الأخبار إلى شوبيلوليو ما في خيتا⁽⁴⁰⁾.	
قراة العام الثاني من حكم آي ، والعام الثاني أيضا من الحرب السورية الثانية - اغتيال توشراتا حاكم ميتاني . - استيلاء ارتاتاما الثاني وابنه شوترنا الثالث على حكم ميتاني . - ماتوازا ابن توشراتا يفر إلى شوبيلوليو ما ، ويعقد معاهدة بمقتضاها تعاونه خيتا في اعتلاء عرش ميتاني . - يقوم شوبيلوليو ما بإرسال ماتوازا وحاكم قرقميش وقوات خيتية إلى ميتاني لخلع شوترنا الثالث ووضع ماتوازا طبقا للمعاهدة المبرمة . - القوات الخيتية تواجه القوات المصرية وتأسر عديد من الأسرى ، ويُعَقَلُ الأسرى في خاتي حتى اعتلاء مورسيل الثاني العرش⁽⁴¹⁾ هؤلاء الأسرى حملوا معهم وباء الطاعون الذي تفشى هناك⁽⁴²⁾.	1338 – 1352

(38) A. Goetze, Hittite Pryers'', ANET, 395; H. G. Güterbock, op. Cit., 28, 93-94.

(39) S. Lloyd, Early Anatolia (London, 1954), 158.

(40) H. G. Güterbock, op. Cit., 28, 94-96.

(41) A. Goetze, Hittite Pryers'', ANET, 395.

(42) M. Abdul-Qader Muhammed, in: ASAE 59 (1966), 25.

قراة العام الثالث من حكم آى إلى العام الثالث لحور محب وهى نفس الفترة من العام الثالث إلى العام السادس للحرب السورية الثانية. - وفاة آى واعتلاء حور محب العرش (العام الأول له) . - استمرار الصراع بين شوبيلوليوما وماتوازا من جهة وأشور اوبالط الأول وشوترنا الثالث من جهة حول حكم ميثانى . - وقد عاقت الاضطرابات داخل خيتا جهود شوبيلوليوما لإنهاء هذا الصراع . ولكنه استطاع التغلب عليها ، وأقام ملكا جديدا على نوخاش التي تمردت عليه .	1337 - 1351
- في نهاية الحملة السادسة لهذه الحرب توفي شوبيلوليوما واعتلى العرش أرنونداس الثاني الذي أرسل حملة في العام الأول من حكمه للقضاء على المتمردين داخل خيتا ، ولكنه سقط صريعا للمرض ومات ، واعتلى العرش مورسيل الثاني .	1334 - 1348 1333 - 1347
العام الأول لمورسيل الثاني الذي استمر في إرسال الحملات لمدة عشر سنوات .	1332 - 1346
العام السابع لمورسيل الثاني - تمرد في مدينة نوخاشاش ، أخبار عن وصول قوات مصرية ، ولكنه لم تظهر في الأفق⁽⁴³⁾ .	1326 - 1340
- قرقميش تطلب مساعدة نيقماد الثاني حاكم أوجاريت ضد حاكم نوخاشاش .	
العام التاسع من حكم مورسيل الثاني - وفاة حاكم قرقميش ، مورسيل الثاني يضع ولده حاكما عليها . - تمرد نوخاشاش وقرقميش انتهى بمقتل ايتاكاما على يد ولده نيقماد الذي يتحالف مع مورسيل الثاني ليثبتته على حكم قادش .	1324 - 1338

(43) انظر نقش حور محب:

1324 - 1338	العام التاسع / العاشر من حكم مورسيل الثاني النزاع مع الملكة الأرملة تاوان نانش الملكة الأخيرة لشوبيلولوما وهي أصلاً أميرة بابلية ، واتهمت بأنها تسببت في وفاة الزوجة الصغيرة للملك بالسحر الأسود ⁽⁴⁴⁾ .
1323 - 1337	العام العاشر من حكم مورسيل الثاني .
1308 - 1322	وفاة مورسيل الثاني بعد حكم قرابة 25 عاما . اعتلاء موآتالي الذي حكم في الفترة ما بين العام الخامس والعام الرابع عشر من حكم رعمسيس الثاني (1277 - 1286 / 1291 - 1300)
1304 - 1319	رعمسيس الأول ، العام الأول من حكمه ، مؤسس الأسرة 19 .
1304 - 1318 إلى 1304 - 1290	سيتي الأول يستمر 14 عاما في حروبه في سوريا . الحرب في سوريا وعقد معاهدة مع خاتي ⁽⁴⁵⁾ .
1290 - 1304	اعتلاء رعمسيس الثاني العرش (استمر 66 عاما) ⁽⁴⁶⁾ .

رعمسيس الثاني :

تنحصر حملات رعمسيس الثاني على البلاد الآسيوية في :

- 1- الحملة الأولى في العام الرابع من حكمه وقد سجلت على اللوحة الوسطى عند نهر الكلب شمال بيروت.

(44) عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، 497.

(45) انظر: A. Goetze, 'Die Annalen des Mursilis', in: ZÄS (Leipzig, 1933), 69, 76.

(46) K. A. Kitchen, Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs, 39-50; W. G. Murnane, 'Texts from the Amarna Period in Egypt', in: JNES (1999), 58, 310.

2- الحملة الثانية في العام الخامس من حكمه وانتهت بالاشتباك الضاري في معركة قادش.

3- حملة في العام الثامن من حكمه على فلسطين وسوريا والساحل الفينيقي وقد سجلت على أحد صروح معبد الرامسيوم.

4- في العام العاشر من حكمه جاء رعمسيس الثاني على رأس حملة ، وسجلت على اللوحة الجنوبية في نهر الكلب.

5- في العام الثامن عشر سجلت لوحة بيت شان نشاطا عسكريا في المنطقة . ربما كانت هذه الحملة دافعا لعقد معاهدة رعمسيس - خاتوسيل التي أبرمت في العام الواحد والعشرين من حكمه⁽⁴⁷⁾.

وفيما يتعلق بمعركة قادش يرى البعض أن كلا الطرفين قد ادعى النصر على الطرف الآخر ، إلا أن دراسة النصوص المصرية والنصوص الحيثية دراسة منهجية وموضوعية سوف توضح أن أحدا من الطرفين لم يحرز نصرا حاسما، وأن حدود البلدين لم يصعبها أى تغيير ، وأن التعادل يعد النتيجة العادلة للطرفين⁽⁴⁸⁾.

ويذكر النص المصري أن المعركة انتهت بناء على طلب مواتالي للصلح ، وإرساله مبعوثا لرعمسيس وقبول الأخير لذلك بعد أن استشار قاداته الذين مالوا إلى هذا الرأي⁽⁴⁹⁾.

ثم إن النص الحيثي يدعي أيضا انتصارهم في المعركة، فيذكر خاتوسيل الذي شارك في المعركة: "مواتالي حارب ملك مصر مع أمورو، وحينما انتصر على ملك مصر وأمورو، تفهقر ملك مصر إلى أرض آبا (دمشق). وعندما أخضع أخي مواتالي أرض آبا، عاد إلى خيتا. وبقيت أنا في أرض آبا؟"⁽⁵⁰⁾.

(47) K. A. Kitchen, 'Some New Light on the Asiatic War of Ramesses II', in: JEA 50 (1964), 68.

(48) عبد الحليم نور الدين، المرجع السابق، 193؛ J. G. Macqueen, The Hittites and their contemporaries in Asia Minor, 28.

(49) KRI. II, 95-98.

(50) E. Edel, Z. , NF 15 (1949), 212.

ولكن هذه الأحداث اضطرت رعمسيس الثاني للعودة في العام الثامن من حكمه واستولى على مدينة دابور الأمورية، ويبدو أن نتائج هذه الحملة كانت أكثر حسماً من نتائج حملة العام الخامس.

وبهذه الحملة استردت مصر نفوذها في سوريا، ولم يعد لحيثا في سوريا سوى مدينة قرقميش. وقد خلدت انتصاراته هذه على لوحته الثالثة على نهر الكلب⁽⁵¹⁾. ومن المرجح أن رعمسيس الثاني لم يطرد الحثيتين تماماً من شمال سوريا، إلا أنه أفسد خططهم ومنع الهزيمة عن جيشه، وأوقف تقدمهم بعد قادش، وأرهب أعوانهم، ثم عاد إلى مصر ليستجمع قوى دولته ويتحين الفرصة لمعاودة الهجوم⁽⁵²⁾.

العلاقات التجارية بين مصر وسوريا :

تمتعت المدن المتاخمة الواقعة على الحدود بين مصر وخاتي مثل جازر وقادش وأوجاريت بحرية الحركة التجارية؛ إذ كانت هذه المدن ترسل هداياها أو بالأحرى سلعها إلى الخزانة المصرية، ولعبت دور الوسيط التجاري بين مصر وخيتا، فقد ذخرت السوق المصرية بالسلع المتنوعة كالنبذ من أمورو والجرة من كيزوانتا والزيتون المتنوعة من خيتا وميتان وفلسطين، ولعل وفرة الأواني التي تحفظ فيها هذه السلع يفسر كثرة تداولها تجارياً⁽⁵³⁾.

ويلاحظ تعدد الأواني التي تحمل خراطيش ملكية في مدينة أوجاريت، فقد عثر على عدة أوانٍ تحمل أسماء أمنحتب الثاني وأمنحتب الثالث وتى ونفرتيتي وحوور محب ورعمسيس الثاني. فمنذ عهد أمنحتب الثاني حتى عهد رعمسيس الثاني أبدت مصر رغبتها في ضم هذه المدينة نظراً لأهميتها التجارية كحلقة وصل بين الساحل السوري والمناطق الداخلية بالإضافة إلى أهميتها العسكرية؛ حيث ستضمن مصر الحصول على الإمدادات

(51) K. A. Kitchen, in: JEA 50, 47-70.

(52) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، 237.

(53) W. Culican, The First Merchant Ventures , The Ancient Levant in History and Commerce (London, 1966), 42-43; D. B. Redford, Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times, 225; see: D. Zuhdi, 'End of the Egyptian New Kingdom in Syria - Palestine', in: KMT (Winter 2001-2002).

العسكرية التي ترد من البحر ، وكان استيلاء الخيتيين على أوجاريت يعنى انهيار السيطرة العسكرية المصرية على المنطقة . ولكن وجود الآنية ذات النقوش الملكية يعنى استمرار الجهود الدبلوماسية لكسب الإمدادات المحلية، وهذا يعنى أن توقف الاحتكاكات العسكرية بين مصر وخاتي، أفسح المجال لنشاط الجهود الدبلوماسية بينهما⁽⁵⁴⁾.



شكل (4) الكنعانيون في مصر

وجدير بالذكر أن مدينة أوجاريت ، كانت مهددة بالغزو الخيتي في بداية الحرب السورية الأولى، وهذا ما جعل حاكم أوجاريت يرسل إلى الملك المصري يخبره بأن ملك خيتا يدعوه للتحالف معه وهو يخشى من الغزو الخيتي نظرا لولائه لمصر⁽⁵⁵⁾. وفي النهاية انضمت أوجاريت إلى الحلف الخيتي وأبرم نيقداد الثاني حاكمها معاهدة مع خيتا⁽⁵⁶⁾.

(54) R. Sparks, op. cit., 7

(55) S. Mercer, op. cit., 215-217.

(56) K. A. Kitchen, Suppiluliuma, 34; W. Murnane, op. cit., 179-180.

وجدير بالذكر أن الإدارة المصرية اعتادت منذ عهد تحوتمس الثالث - كما سجل في حولياته - إعداد جميع الموانئ السورية بكل ما تحتاج إليه من مؤن وسفن من طرز شتى ذكرت منها السفن الكريتية (كفتيو) والجبيلية (كبت) وغيرها من حاملات الجنود وحاملات الماشية والخيول⁽⁵⁷⁾.

وعن التجارة مع المدن السورية، فقد خصصت الحكومة المصرية، إدارة خاصة تشرف على الشؤون التجارية بين مصر والمدن السورية، واتخذت من السكان المحليين، موظفين لهذه الإدارة⁽⁵⁸⁾.

ترجع قوة الصلات التجارية بين مصر وسوريا⁽⁵⁹⁾ لشراء الإقليم السوري وتعدد منتجاته فقد كان يطلق عليه (بلاد كنعان ذات المنتجات السبع) والصلات التجارية المصرية السورية ترجع إلى عصر الدولة القديمة حيث كانت واردات مصر من الإقليم السوري تتمثل في:

- الخشب؛ حيث استقبل سنفرو حمولة 40 سفينة على سبيل المثال.
- المشغولات النحاسية؛ حيث كان يستخدم تعبير النحاس الآسيوي دلالة على شهرة تلك المشغولات وجودة خاماتها وصنعها.

واستمرت هذه العلاقات الاقتصادية خلال عصر الانتقال الثاني، أما في عصر الهكسوس فكانت لوحة كامس الثانية - وهو حاكم طيبة - أبلغ برهان على استمرار وقوة هذه العلاقات حيث أشارت إلى واردات من جميع منتجات سورية الطيبة حيث وردت مئات السفن المصنوعة من خشب الأرز الممتاز تحمل الذهب والفضة والفيروز والفتوس

(57) أحمد عبد الحميد يوسف، سواحل مصر الشمالية، 13-14.

(58) See: F. Smyth, 'Egypt-Canaan, Quel Commerce?', (in) N. Grimal, et B. Menu, Le Commerce en Egypte Ancienne, IFAO (1998), 5-18.

(59) حسن محمد محي الدين السعدي، 'العلاقات المصرية السورية في الألف الثاني قبل الميلاد'، في: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية رقم 22 (الكويت، 2002)، 71، 75.

البرونزية بلا عدد والزيت العطري والبخور الدهني والعسل وخشب الصبصاف والصناديق الخشبية والعصي من أجود الأنواع.

أما في الدولة الحديثة فقد جلب أمراء سوريا السلع من رنت وأمورو كالفضة. والذهب والأحجار الكريمة والأواني. وقد مُثِّلَتْ مناظر السوريين على مقابر الأسرة الثامنة عشرة (شكل 4) أكثر تمثيلاً من الأجانب والجدول التالي يوضح بعض أمثلة لهذه المقابر:

م	المقبرة	رقم المقبرة	تاريخها
1	نائب الملك في كوش "حوبى"	40	عصر العمارنة
2	النائب العسكري "تيتانى"	74	عهد تحوتمس الرابع
3	الكاهن الأكبر "من خبر رع سنّب"	86	عهد تحوتمس الثالث
4	الوزير رخ-مي-رع	100	عهد تحوتمس الثالث

مقبرة الوزير رخ-مي-رع رقم (100) عهد تحوتمس الثالث - أمّنتب الثاني :

إن مناظر استقبال الوزير رخ-مي-رع لجزى البلاد الأجنبية التي تظهر في مقبرة رقم (100) بالشيخ عبد القرنة تشير إلى علاقة الوزير بالأمور الخارجية وتؤكد السلطة التي منحها الملك لوزيره من خلال تفويضه في استقبال الوفود الأجنبية التي تحمل منتجات بلادها إلى الملك يستقبل الوزير رخ-مي-رع الوفد السوري وأمامه كاتبان بينهما موظف والنص التالي وجد على مقبرة الوزير رخ-مي-رع⁽⁶⁰⁾ (شكل 5)⁽⁶¹⁾:

(60) Urk. IV, 1101: 14-17, 1102: 1-6.

(61) N. de G. Davis, Tomb of Rekh-mi-Re, 27-29, pls. XXI- XXII; J. B. Pritchard, ANET, 248.

وعلى سبيل المثال لا الحصر تمثل النشاط التجاري السوري الوارد إلى مصر في:

- 1- الخشب ؛ حيث كان يستورد أجود الأنواع من خشب الأرز والصنوبر والصفصاف ليوائم التقدم الحضاري والنهضة في عصر الأسرات بمصر ويدخل الخشب في تشييد القصور والمعابد وأيضا لصناعة السفن.
- 2- زيت خشب الأرز والمواد الصمغية للتحنيط والزيوت العطرية والبخور الدهني والعسل وقد عُثِرَ على أواني بها بقايا مواد صمغية من شجر الصنوبر بجبانة الجيزة.
- 3- الصناديق الخشبية والعصي من أجود الأنواع والكحل والأواني الفخارية.
- 4- الأواني المعدنية والفئوس النحاسية المقوسة.
- 5- الذهب والفضة والأحجار الكريمة.
- 6- استخدام الآسيويين للعمل في مناجم ومحاجر سيناء في عهد أمنمحات الثاني حيث استُقدِمَت مجموعة من ستة وخمسين عاملا، ومجموعة أخرى للعمل في إقليم بني حسن يبلغ عددها سبعة وثلاثين شخصا وكان ذلك في عهد سنوسرت الثاني، ووجدت قائمة في عهد الأسرة الثالثة عشرة نصف عددها أسماء آسيوية. وقد امتدت خدمة هؤلاء المستقدمين في أعمال المعابد والتعدين.

وتمثلت واردات الإقليم السوري في:

- 1- الأواني الحجرية والمنتجات المعدنية المصنعة من الذهب والنحاس مثل الأسلحة والأواني وأدوات البناء.
- 2- منتجات التوابل والأبنوس ؛ حيث كانت تستوردها مصر من بلاد النوبة وتعيد تصديرها.
- 3- منتجات زراعية ؛ مثل الفواكه (التين والعنب) والنبذ والشعير والذرة والعسل.
- 4- المواشي ، وهي أهم واردات سوريا من الإقليم المصري.
- 5- وقد كانت الصلات التجارية تتم إما عن طريق البحر أو البر بمحاذاة البحر المتوسط عبر السهل الساحلي لكنعان والوديان الداخلية.

وتمثل النشاط الاقتصادي بكامل طاقته بعد المعاهدة المصرية الخيتية وعلى طول المدن الساحلية السورية من غزة جنوباً إلى أوجاريت شمالاً من نقل سلعي إلى وساطة ونقل عمالة .

وتدأى النشاط الاقتصادي بين البلدين إثر الهزة السياسية التي تعرضت لها خيتا خاصة المدن الشمالية السورية عكس الجنوبية منها التي كانت تابعة لمصر .
أوبي:

يتضح من الدراسة أن مدينة دمشق القديمة كانت تقع في مجاورات مدينة أوبي التي ورد ذكرها في النصوص المصرية باسم :

1- أبوم: في نصوص اللغة ونصوص الدولة الوسطى.

2- أبي: في نصوص الدولة الحديثة وكانت تكتب :

ويذكر جوتيه أن أوبي تقع شمال سوريا في موقع مدينة دمشق الحالية.

وتتفق النصوص ونصوص الدولة الحديثة على تقسيم منطقة دمشق إلى منطقتين شمالية وجنوبية، وبعد عصر الدولة الحديثة تظهر هذه المدينة في نصوص ماري⁽⁶²⁾.

وفي عصر العمارنة يتردد اسم مدينة أوبي خاصة في رسائل حاكمها بيروازا⁽⁶³⁾، وقد كان بيروازا نائبا عن الملك المصري في الإقليم السوري الشمالي الذي يشمل أوبي ومدينة كوميدى (كميد اللوز) التي يتردد ذكرها في نصوص تحوتمس الثالث حيث كان يحكمها ملكها أروانا⁽⁶⁴⁾.

وفي عهد سيتي الأول قام أتيكاما حاكم قادش بالاستيلاء على مدن الشمال السوري التي كانت خاضعة للحكم المصري فهاجم حاكم قطنة : أكيزى واستطاع التوغل حتى مدينة أوبي باسم سيده الجديد الملك الخيتي.

(62) W. Helck, 'Upe', in: LÄ IV, 861-862;

- يرد اسم هذه المدينة في قائمة تحوتمس الثالث (Nr 16) في معبد الكرنك، ؛ انظر:

- LÄ II, 935; H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques VI, IFAO (1929), 18.

(63) EA 58, 24-39, 56-70; 54, 22-37; 56, 14-28.

(64) انظر: LÄ III, 37A, 7 (ku-m-ta); Urk. IV, 781,

وفي نفس الوقت الذي هاجم فيه ايتكاما القوات المصرية في أوبى، قام بإرسال خطاب إلى الملك المصري يشكو فيه بيروازا - الحليف المصري في أوبى - ويتهمة بأنه قام بإحراق مدينة قادش . ويبدو أن الجانب المصري استوعب الموقف وقام بإرسال قوات عسكرية نحو المدن السورية. عندئذ يتحول ربعدي - حاكم بيلوس - إلى عدوه الرئيسى عازيرو مستغلا زحف القوات المصرية ليحاول استعادة مناطق نفوذه . ولكن يبدو أن هذه القوات لم تشبع رغبات ربعدي في تحقيق طموحاته لعدة أسباب:

- 1- وفاة اخناتون وتوالى الاضطرابات الداخلية في مصر
- 2- كانت التحركات المصرية تتجه عبر الأراضي السورية لنجدة بيروازا حاكم أوبى في كفاحه ضد ايتكاما ولم تتجه عبر الساحل لمواجهة أمور⁽⁶⁵⁾.
- اشتعل الصراع بين بيروازا - حاكم أوبى - وايتكاما حاكم قادش في العام السابع عشر من حكم اخناتون حيث تتوالى الأحداث التالية:
- تسلم عازيرو الخطاب رقم EA 162 في ربيع ذلك العام مما يعكس الاضطرابات الداخلية في مصر ويطلبه الخطاب بالمثل أمام الملك المصري.
- وفاة ربعدي حاكم بيلوس الموالى لمصر.
- تمهل عازيرو في الاستجابة للطلب المصري بتنفيذ بنود الخطاب رقم EA 162 - ربما انتظر حتى يوفر له الملك المصري طريقا آمنا بدليل أنه لم يذهب بنفسه وإنما أرسل ابنه بدلا منه.
- استغل الجانب الحيثى الفرصة بالتوغل في مدينة أمكى.
- تشير حوليات الملك الحيثى شوبيلوليوما إلى أنه كان معسكرا بقواته في مدينة قرقميش.
- "أرسل (شوبيلوليوما) قائده لوباكى وتارهونتا - زلما إلى أمكى فهاجمها وعادوا بالغنائم والماشية والأغنام".

(65) W. G. Murnane, The Road to Kadesh, 12; SAOC 24 (Chicago, 1990), 110; EA 189, 5-12; 142, 11-31; see: A. Schulman, 'Cankhesenamum, Nofretity and Amka Afair', in: JARCE 15 (1978)45 -46.

يشير النص إلى أن حملة شوبيلوليوما كانت مجرد حملة تأديبية بغرض الاستيلاء على الأغنام أكثر منها السيطرة على أراضي مصرية سورية.

يتضح مما سبق أن أراضي أوبي وبيلوس عندما أصبحت في دائرة الخطر الحيثي - وذلك بعد سقوط قادش وأمورو في حوزة الحيثيين - كانت مؤشرا لنذير الحرب الذي أدى إلى الصدام العسكري بين الطرف المصري والحيثي في معركة قادش⁽⁶⁶⁾.

- يرد ذكر مدينة دمشق في قضية الأرملة المصرية دوخامنسو t3 - hmt - التي طلبت الزواج من ابن الملك الحيثي شوبيلوليوما ويدعى زنازا ويرد في الأحداث أن الأمير قد اغتيل عند مدينة أمكا من مجاورات مدينة دمشق⁽⁶⁷⁾.

في عهد رعمسيس الثاني توغل الحيثيون في وسط الإقليم السوري وفقد رعمسيس الثاني مدينة أوبي التي كانت تعد مقرا للإدارة المصرية، ولكنه استعادها مرة أخرى في حملاته اللاحقة. وبعد استيلاء شوبيلوليوما على مدينة آبي ترك فيها قوات موالية بقيادة حاكمها أروانا وبهذه الخطوة عاد شوبيلوليوما إلى وطنه مما يشير إلى أن مدينة أوبي كانت آخر مراكز الحكم المصري في الإقليم الشمالي⁽⁶⁸⁾.

وفي عهد مواتالي - الملك الحيثي - ابن مورسيل الثاني (1306-1282 ق. م) توغل رعمسيس الثاني بقواته حتى نهر الكلب، وعلى أثر ذلك تحركت قوات مواتالي واستولت على قادش وهزمت حاكم أمورو الموالي لمصر ويدعى بنتشينا، وهاجم القوات المصرية بغتة عندما عبر نهر العاصي فأدى ذلك إلى انقسام القوات المصرية. وبعد استمرار الاشتباك المسلح لمدة يوم انتهى بتنازل المصريين عن مدينة أوبي وسقوط سوريا في حوزة الحيثيين⁽⁶⁹⁾.

وبعد معركة قادش يقع الطرفان فريسة للحرب الباردة حتى عقدت المعاهدة بين رعمسيس الثاني وخاتوسيل الثالث في العام الواحد والعشرين في حكم رعمسيس الثاني،

(66) W. G. Murnane, The Road to Kadesh, 213, 219, 242; W. Helck, in: LÄ I, 821.

(67) W. Helck, in: LÄ VI, 111.

(68) A. Spalinger, 'Muwatallie', in: LÄ IV, 272, 273; E. Edel, in: ZÄS 49 (1950), 195-212.

(69) W. G. Murnane, The Road to Kadesh, 105, 181-182.

وعندئذ عاد التوازن بين القوتين وتمتعت المدن السورية بفترة لا بأس بها من السلام والعلاقات الودية حتى استعرت الحرب مرة أخرى بهجمة شعوب البحر في عهد رعمسيس الثالث.

أما في عهد مرنبتاح فقد كانت أوبي تسمى "مدينة مرنبتاح" الواقعة ضمن أراضي منطقة أراميرس. وطبقاً لألقاب الموظف حوري يتضح أن أوبي مصدر للعربات التي ترد إلى مصر⁽⁷⁰⁾.

رحلة ون آمون :

تعكس هذه القصة أحوال العلاقات الاقتصادية والإدارية بين مصر والمدن السورية. كان ون آمون موظفاً لدى حريحور (كبير كهنة آمون في طيبة) وكان الملك رعمسيس الحادي عشر متوجاً على عرش مصر، وكانت مصر في ظروف داخلية سيئة حيث عاصمة الشمال تانيس يحكمها نس بانب جد أوسمندس وطيبة يحكمها حريحور، فقام ون آمون بالإبحار إلى المدن الفينيقية وقد سرقت أمواله في أول ميناء نزل به ثم تابعت عليه المحن فلاحقته في صور وبيلوس وقبرص.

والقصة تلقى الضوء على العلاقات بين مصر والمدن السورية في نهاية عصر الدولة الحديثة. فقد كان في مصر ممثلون تجاريون لتسهيل التجارة بين سوريا ومصر؛ إذ يقول : "ألا توجد أكثر من خمسين سفينة هناك تعمل مع واراكاتير... " وهو اسم أحد الفينيقيين الذين كانوا يقيمون في تانيس ويعملون في التجارة وشحن وتفريغ السفن، وكانت توجد سجلات عند حاكم المدينة لتسجيل عمليات الاستيراد.

وقد عدد ون آمون المنتجات المصرية التي تُصدَّرُ إلى المدن السورية ومنها :

الأواني الذهبية والفضة وقطع الكتان الملكي وكتان مصر العليا ولفائف البردى وجلد العجول والحبال والخبوط كالعدس والأسماك المجففة، أما أهم صادرات المدن السورية فكانت الخشب بكل أنواعه ومنتجاته .

كما تشير القصة إلى إتقان بعض السوريين للغة المصرية القديمة :

" أليس بينكم أحد يفهم لغة مصر ؟ " فأجاب أحدهم قائلا : " إنني أفهمها " .

وتوضح القصة أيضا إصرار "ون آمون" على إقناع حاكم بيلوس ليزوده بالأخشاب اللازمة لصناعة قارب آمون رع الفاخر .

ويتضح تقدير الجانب الفينيقي لتفوق الصناعة المصرية في قول حاكم بيلوس :

"لقد أتت منها الصناعة لتصل إلى مكاني ولقد أتت منها الحكمة لتصل إلى مكاني" أي إلى بلادي⁽⁷¹⁾.

وفي نصوص تحوتس الثالث المسجلة على جدران معبد الكرنك، ورد أول ذكر لاسم دمشق: (تا- مس- قو) وتظهر التهجئة نفسها في نصوص أمنحتب الثالث. وفي نصوص تل العمارنة يذكر الاسم نفسه ثلاث مرات⁽⁷²⁾.

(71) W. Helck, 'Upe', in: LÄ IV, 861-862;

(72) عيد مرعي، «دمشق القديمة، تحليل لكتاب لوين بيتارد (دمشق القديمة)»، في: مجلة دراسات تاريخية، العدد 31-32 (دمشق، حزيران 1989)، 129.

تجارة الدواب في نصوص البرديات العربية وأوراق الكاغد في القرون الأولى للهجرة

د . سعيد مغاوري محمد

أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية

رئيس قسم الإرشاد السياحي - كلية السياحة والفنادق

جامعة المنوفية

oboi.kan.com

تجارة الدواب في نصوص البرديات العربية وأوراق الكاغد في القرون الأولى للهجرة

تمهيد :

للدواب أهمية قصوى في حياة الناس اليومية ، وخاصة في القرون الأولى للهجرة ، حيث كانت تعد وسيلة الركوب الرئيسية والأساسية ، هذا بالإضافة إلى كونها الوسيلة المفضلة في حمل الأثقال ، ولقد امتن الله تعالى على خلقه بهذه النعمة فقال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾⁽¹⁾.

وفي موضع آخر يحدثنا القرآن الكريم عن الزينة التي يفتن بها الناس وجعلها من الشهوات فقال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِرِ ﴾⁽²⁾. ولقد استفاد الإنسان كثيراً من هذه الدواب وما زال وسيظل يستفيد منها ، وخاصة في الأماكن الصحراوية والجبلية الوعرة وغير الممهدة ، التي لا تستطيع السيارات السير فيها لو عورتها وطبيعتها الجغرافية القاسية ، أيضاً استخدم الإنسان عبر تاريخه الطويل هذه

(1) القرآن الكريم ، سورة النحل - آية (8) .

(2) القرآن الكريم ، سورة آل عمران - آية (14) .

المخلوقات في التنقل بين المدن والقرى في أسفاره الطويلة والقصيرة ، إما قاصداً التجارة أو الزيارة أو الحرب ، وفي العصر الإسلامي استخدمت الدواب كوسيلة هامة ورئيسية في الذهاب لأداء النسك في الحج والعمرة ، وفي هذا الخصوص يشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٣) ، وإلى جانب التنقل وحمل الأثقال وذبح بعض هذه الأنعام كأضاح من الإبل والبقر والضأن والمعز ، استغل الإنسان أصواف هذه المخلوقات في صنع ملابس صوفية للتدفئة وقت الشتاء ، أيضاً استخدم وبرها وأشعارها عدة استخدامات في حياته اليومية ، ونقرأ في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴾ (٤) ، ويكفي للتدليل على أهمية هذه الدواب في حياة الناس حتى اليوم أن الله تعالى خصص في قرآنه الكريم سوراً تحمل اسم هذه الدواب منها سورة (البقرة) وسورة (العاديات) والمراد بها الخيول التي تستخدم في الحروب وغيرها ، كما لفتنا القرآن الكريم إلى أهمية التدبر والنظر في هذا الخلق العجيب فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٥) . أيضاً حدثنا رسولنا الكريم ﷺ في الحديث الذي روته كتب الصحاح أنه ﷺ قال : « من آوى ضالة فهو ضال ما لم يعرفها » . ومن هذا المنطلق حملت العديد من نصوص البرديات العربية وبعض أوراق الكاغد معلومات هامة عن هذه الدواب من خلال عقود وإيصالات البيع والشراء وغيرها .

(3) القرآن الكريم ، سورة الحج - آية (27 ، 28) .

(4) القرآن الكريم ، سورة النحل - آية (80) .

(5) القرآن الكريم ، سورة الغاشية - آية (17) .

أولاً : تجارة الدواب وارتباطها بصناعات تتعلق بوسائل الركوب :

كما أشرت من قبل فإن الدواب كانت لها أهمية قصوى في المجتمع خلال القرون الأولى للهجرة ، على اعتبار كونها من أبرز وسائل الركوب والتنقل واستخدامها في حمل الأثقال والمتاع ، ونقلها من مكان لآخر وكذلك لاستخدامها في الحروب والقتال وغير ذلك من الاستخدامات ، ومن هذا المنطلق فقد انتشرت أسواق بيع الدواب بشتى أنواعها (خيول ، بغال ، حمير ، ثيران ، هجين ، بقر وغيرها) .

ولقد أشارت بعض المصادر العربية إلى وجود أسواق مخصصة لبيع هذه الدواب وكذلك اشتهاه أسر وعائلات معينة بهذه التجارة ، من أشهرها أسرة (آل مهنا) ، و (آل فضل) ممن وردت أسماؤهم في كتاب (الخطط) للمقريزي زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فقد ذكر المؤرخ " المقريزي " هذه العبارة عندما تحدث عن (نظر الإصطبلات) فقال : (هذه الوظيفة جليلة القدر إلى اليوم - زمن المقريزي في القرن 9هـ / 15م - وموضوعها الحديث في أحوال الإصطبلات والمناخات وعليقها وأرزاق من فيها من المستخدمين وما بها من الاستعمالات والإطلاق وكل ما يحتاج لها أو يحتاج بها ، وأول من استجدها الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو أول من زاد في رتبة " أمير آخور " واعتنى " بالأوجاقية " و " العرب الركابة " وكان أبوه المنصور قلاوون يرغب في خيل برقة أكثر من خيل العرب ولا يعرف عنه أنه اشترى فرساً بأكثر من خمسة آلاف درهم ، وكان يقول : " خيل برقة نافعة وخيل العرب زينة " ، بخلاف الناصر محمد فإنه شغف باستدعاء الخيول من عرب " آل مهنا وآل فضل " وغيرهم ، وبسببها كان يبالغ في إكرام العرب ويرغبهم في أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد في ذلك فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم في طلب خيول من عداهم من " العربان " وتبعوا عتاق الخيل من مظانها وسمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم فتمكن آل مهنا من السلطان وبلغوا في أيامه الرتب العالية⁽⁶⁾ . أيضاً اشتهر العديد

(6) المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي) ت 845هـ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبع دار صادر - بيروت - لبنان (دون تاريخ) ج2 ص224 ، 225.

من مدن وقرى مصر بترية الدواب والخيول للتجار فيها في القرون الأولى للهجرة ، حيث تركّز بها العديد من الأسواق المتعلقة بهذه التجارة ومنها أسواق شهيرة في مدن مثل الأشمونين وأخميم وأهناس وطما وغيرها ، وكان لشهرة هذه القرى بترية المواشي والحيوانات والدواب أثر كبير في ازدهار حركة البيع والشراء ، وكذلك تجارة الصوف والمصنوعات الجلدية ... وغيرها ، جدير بالذكر أيضًا الإشارة إلى اشتها بعض أسواق هذه المدن في صعيد مصر بتجارة أنواع خاصة من الحمير ومنها نوع يطلق عليه (الحمر السملاقية)⁽⁷⁾ .

وربما نجد لقبًا منسوبًا لإحدى قرى الصعيد المرتبطة بهذا الاسم (سملاق) على حد تعبير الرحالة " الإصطخري "⁽⁸⁾ . أما بالنسبة للصناعات المرتبطة بتجارة الدواب فيحدثنا المؤرخ المقرئ في كتابه " الخطط "⁽⁹⁾ بوجود سوق في مدينة الفسطاط كان يطلق عليه اسم (سوق اللجمين)⁽¹⁰⁾ ، كان يباع فيه : " آلات اللجم " ونحوها مما يتخذ من الجلد ، وفي هذا السوق أيضًا عدة وافرة من الطلائين وصناعات الكفت⁽¹¹⁾ برسم اللجم

(7) د. حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب من الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية ،

رسالة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة 1974م ، ص 165 .

(8) الإصطخري (إبراهيم بن محمد الفارسي) توفي في القرن 4هـ / 11م ، المسالك والممالك - تحقيق

محمد جابر بن عبد العال الحيني ، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالقاهرة سنة 1961م ص 42 .

(9) المقرئ : المصدر السابق ج 2 ، ص 98 .

(10) سوق خاص ببيع لجُم الخيول ومنها اللجام وهو ما يجعل في فم الفرس من الحديد من الحكمتين

والعذارين والسير ، ومنها أيضًا لجم الثوب أي خاطه واللجام من يعمل اللجم .

ذكرها أيضًا صاحب "المصباح المنير" بقوله إنها عربية وقيل إنها معربة .

قاموس المنجد في اللغة والأعلام - طبع بيروت - لبنان 1986م اللغة ص 714 .

المقرئ (أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ) : المصباح المنير ، مكتبة لبنان 1987م ص 210 .

(11) الكفت والكفتة : من الخيل : الشديد الوثب فلا يُستمكن منه .

قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 690 " اللغة " .

والركب والمهاميز⁽¹²⁾ ونحو ذلك ، وعدة من صنائع مياتر السروج⁽¹³⁾ وقرابيسها⁽¹⁴⁾ ... " إلى أن قال : " وأدركت السروج وتعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق ومنها ما يعمل من الدبل ومنها ما يعمل سيورًا من الجلد البلغاري⁽¹⁵⁾ الأسود ويركب بهذه السروج. السود القضاة ومشايخ العلم اقتداء بعادة بني العباس في استعمال السواد على ما جدهه بديار مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد زوال الدولة الفاطمية ... " ، وقال أيضًا : " ... وأدركت السروج التي يركب بها الأجناد والكتاب ، يعمل سرج في قربوسة ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية بالذهب ومعربات⁽¹⁶⁾ من فضة ولا يكاد أحد يركب فرسًا بسرج سادج إلا أن يكون من القضاة ... " ⁽¹⁷⁾ . وبالإضافة إلى سوق (اللجميين) يحدثنا أيضًا المؤرخ المقرئ عن (سوق المهامزين) فيذكر هذه العبارة : " ...

(12) المهاميز من المهماز من حمز الفرس بمعنى خث بالمهّماز ليعدو مسرعاً .

المقرئ : المصدر السابق ص 245 .

(13) السروج ومنها السرج بمعنى الرّحل وغلّب استعماله للخيل ومنها أيضًا أسرج الفرس بمعنى شدّ عليه السرج اشتقّ منها السراج وهو صانع السروج وحرقة السراجة " مهنة السراج " .

قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 329 " اللغة " .

المقرئ : المصدر السابق ص 104

(14) القرابيس : جمع قربوس : هو جنو السرج أي قسمه القوس المرتفع من مقدمة المقعد ومن مؤخرته وهما قربوسان ،

قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 617 " اللغة " .

(15) الجلد البلغاري : الجلد البلغاري نسبة لدولة بلغاريا في جنوب شرق أوروبا بشبه جزيرة البلقان ، على البحر الأسود " بين رومانيا ويوغسلافيا وتركيا واليونان ذات سهول وهضاب زراعية خصبة تكثر فيها من الغرب إلى الشرق جبال البلقان الغنية بالمراعي والغابات الواسعة " .

قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 134 " الأعلام " .

(16) معرقات : من عرقب الدابة بمعنى قطع عرقوبها - رفع بعرقوبها لتقوم ومنها أيضًا العرقوب : جمع عراقيب وهي عصب غليظ فوق العقب .

قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 501 " اللغة " .

(17) سادج : ما لا نقش فيه - معرب من سادة بالفارسية .

قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 328 " اللغة " .

هذا السوق مما استجد بعد زوال الدولة الفاطمية وكان بأوله حبس المعونة الذي عمله الملك المنصور قلاوون سوق العنبر ، ويقابله المارستان والوكالة ودار الضرب في الموضع الذي يعرف اليوم بدرب الشمس وما بحذائه من الحوانيت إلى حمام الخراطين ، وما تجاه ذلك ، وهذا السوق معد لبيع المهماز كله قالب وسقطه من الذهب الخالص ومن الفضة الخالصة ولا يترك ذلك إلا من يتورع ويتدين فيتخذ القالب الحديد ويطلبه بالذهب أو الفضة ويتخذ السقط من الفضة ، وقد اضطر الناس إلى ترك هذا فقل من بقي سقط مهمازه فضة ولا يكاد يوجد اليوم مهماز من ذهب وكان يباع بهذا السوق البدلات الفضة التي كانت يرسم لجم الخيل وتعمل تارة من الفضة المجرة بالمينا وتارة بالفضة المطلية بالذهب فيبلغ زنة ما في البدلة من خمسمائة درهم وفضة إلى ما دونها ...⁽¹⁸⁾ ، أيضًا أورد المؤرخ " المقرئزي " معلومات أخرى عن سوق ثالث يتعلق بالدواب وتجهيزها وإعدادها للسفر والتنقل والرحلات الطويلة . فذكر (سوق المرحلين) ولقد أدركه المؤرخ " المقرئزي " وشاهده بنفسه فقال : " .. هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين إلى بحري المدرسة الصيرمية معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقنابها وسائر ما تحتاج إليه من سائر أقاليم مصر خصوصًا في مواسم الحج ، فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل وأكثر في يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار في الحوانيت بهذا السوق "⁽¹⁹⁾ . جميع الأسواق السابق ذكرها هي في الواقع أسواق مكشوفة أي ليست لها سقف ، بل هي أسواق ضخمة مفتوحة يرتادها الناس بشكل مباشر دون أبواب أو جدران وحوائط ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود أسواق أخرى مسقوفة تسمى (قيساريات) ، وهي عبارة عن أسواق مكشوفة تعلو دكاكينها بوائك ، وقد ذكر المؤرخ " ابن عبد الحكم " عددًا منها في مدينة " الفسطاط " وكان بعضها يشتمل على أكثر من باب بل كان لبعضها ستة أبواب موزعة على حسب اتجاهاتها في الجنوب والشرق والغرب ، ويذكر " ابن عبد الحكم " قيسارية العسل التي كانت تقع بجوار

(18) المقرئزي : المصدر السابق ج2 ، ص 98 .

(19) المقرئزي : المصدر السابق ج2 ، ص 95 .

المسجد الجامع ، وكانت تشغل موضع منبره الذي هدمه الوالي الأموي قرّة بن شريك ، وتخصص بعض هذه القيساريات في بيع أنواع معينة من السلع مثل قيسارية " هشام بن عبد الملك " التي كان يباع فيها " البز الفسطاطي " ⁽²⁰⁾ ، كما بُني في عهد " عمر بن عبد العزيز " عدة قيساريات منها " قيسارية البز " التي بناها في خطة (بلى) ⁽²¹⁾ كما بُني أيضًا " قيسارية الجمال " و " قيسارية الكباش " التي تخصصت في بيع وشراء الكباش وغيرها من الحيوانات والدواب ⁽²²⁾ ، وما يعنينا هنا هي القيساريات التي ورد ذكرها مؤخرًا وهي " قيسارية الجمال و قيسارية الكباش " ، وهما عبارة عن سوقين خصصا لتجارة الدواب وفحصها قبل بيعها أو شرائها في أسواق مغلقة مسقفة معدة لذلك . وكما أشرت من قبل فإن هذه الدواب كانت تعتبر وسائل الركوب والانتقال الرئيسية بين أهل السوق عامة وخاصة الناس ، وقد تحدث الرحالة ناصر خسرو عن كيفية الوصول إلى أسواق الفسطاط والعودة منها فذكر هذه العبارة : " ... أن أهل السوق ، وأصحاب الدكاكين يركبون الحمر المسرجة في ذهابهم وإيابهم من البيوت إلى السوق ، وفي كل حي على رأس الشوارع حمر كثيرة ، عليها برادع مزينة يركبها من يريد نظير أجر زهيد ، وقيل إنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى في حين كان ركوب الخيل وفقًا على

(20) البزّ : جمع بُزوز وهي الثياب من الكتان أو القطن .

قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص36 " اللغة " .

(21) خطة " بلى " ذكرها المؤرخ المقرئ في ضمن الخطط التي بناها عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط ، والتي أطلق عليها (خطط الحمّرات الثلاث) فذكر هذه العبارة . إنها قيل الحمرا لتزول الروم بها . وهي خطط بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاة وفهم وعدوان وبعض الأزد) .
المقرئ : الخطط ج1 ص298 .

(22) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) ت 257 هـ / 871 م . فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق شارل توري - طبع ليدن بهولندا سنة 1920م ، تحقيق محمد صبيح ، طبع ونشر دار التعاون بالقاهرة ص136 .

الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) ت سنة 350 هـ ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبع بيروت سنة 1908م ص74 ، ص562 .

الجنود والمتصلين بالجيش"⁽²³⁾، وجدير بالذكر أيضًا أن مصر اشتهرت منذ القدم بحركة البيع والشراء والتجارة بشتى أنواعها - نظرًا لموقعها الجغرافي المتميز - فكانت معبرًا لتجارة المغرب الآتية من الشرق ، أيضًا كان المغرب معبرًا لتجارة مصر القادمة من الغرب ، ولذلك يحدثنا المؤرخ "ابن خردادبه" عن تجارة مصر والمغرب ، ومنها بلا شك تجارة الدواب والمواشي وما ارتبط بها من صناعات وحرف متنوعة بعضها لها ارتباط وثيق بالدواب والمواشي ، فأورد هذه العبارة : " إن التجارة القادمة من الغرب إلى الشرق التي كان يجلبها تجار البحر كانت تسلك طريق موانئ إفريقية ثم الفرما ومنها إلى القلزم ، إذ كانوا يجلبون من الغرب الخدم والجواري والدياج والخز والفراء والسيوف ويتجهون بسفنهم إلى الفرما ويحملون تجارتهم برًا إلى القلزم ، ثم يبحرون في البحر الأحمر إلى السند والهند والصين وفي طريق العودة يسلكون نفس الطريق ... "⁽²⁴⁾ . كذلك أشار الرحالة العربي " ابن الفقيه " إلى استخدام الدواب في أعمال التجارة ونقل التجار مع بضائعهم في العصور الوسطى فقال : " وكان تجار اليهود الذين يفدون من بلاد الفرنجة ويتكلمون العربية والفارسية والفرنسية والصقلية - ساهم المسلمون تجار البحر - ترسو سفنهم عند الفرما ثم يحملون تجارتهم على الدواب إلى القلزم ومنها إلى موانئ البحر الأحمر متجهين شرقًا إلى السند والهند والصين ويحملون في عودتهم السلع الشرقية ... "⁽²⁵⁾ ، وعلى العموم فإن انتشار الأسواق وما تضمنه من سلع وبضائع مختلفة كشفت أسماء وعائلات العديد من التجار والدلالين والسماسرة والباعة .. وغيرهم في العصور الوسطى يشير جميعه إلى استقرار المجتمعات ونمو الجوانب الاقتصادية وانتشار

(23) ناصر خسرو (أبو معين الدين ناصر القبادياني المروزي) ت 481هـ / 1088م ، سفرنامه ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة 1945م ، ص 61 ، 62 .

(24) د. حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب ، ص 214 .

(25) ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني) ت 3هـ / 9م ، كتاب البلدان - طبع ليدن هولندا سنة 1885م ، ص 270 .

حركتي البيع والشراء ، ومنها بالطبع تجارة الدواب والمواشي وسائر الحيوانات ، وهذا الأمر ربما كان الدافع إلى الإشارة المبالغ فيها من قبل (إخوان الصفا) حين ذكروا هذه العبارة في رسائلهم المعروفة : " إن الناس كلهم إما صناع أو تجار.... " ⁽²⁶⁾ . أما عن مواقع أبرز الأسواق وأكثرها انتشارًا وازدهارًا فهي الأسواق القريبة من المساجد الجامعة، حيث يكثر الناس بتواجدهم للصلاة ولسماع دروس العلم وخاصة أيام الجمع وصلاة العيدين ... وغيرها ، وكما أشرت من قبل فإن بعض الأسواق كانت لا تحدها أسوار ، وإنما تركت هكذا مفتوحة مكشوفة للعيان، وقد ذكر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب : أن "الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ من بيعه ... " ⁽²⁷⁾ ، أيضًا تجدر الإشارة إلى أنه من المتوقع والراجح أنه كانت للأسواق في العصور الوسطى خيام تقي الناس والدواب ⁽²⁸⁾ حرارة الشمس في الصيف ، وكذلك المطر والبرد في الشتاء ، ثم بعد ذلك بنيت بالحجارة ، وتم تسقيفها ببناء مستقل له سقف ومدخل وأبواب وأمور تنظيمية أخرى . أما عن نظم الأسواق والتجارة فقد حددت لها قواعد وقوانين تحكم حركتي البيع والشراء ، منها ما ذكره المؤرخ "الكندي" ⁽²⁹⁾ من أن قاضي الفسطاط (ثوبة بن نمير) كان لا يقر (خيار العيب) على أساس أن المشتري كانت له حرية الاختيار قبل الشراء ، فإن لم يكن قد تنبه لعيب فيما اشترى فلا يحل له استرجاع ماله والتحلل من شرائه ، وإن كان من المعروف في الفقه الإسلامي أن هناك ثلاثة خيارات للمشتري وهي : خيار الرؤية وخيار العيب وخيار المذاق . إلا أن (ثوبة

(26) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا - طبع القاهرة سنة 1928م ، (ألفوا رسائلهم في الربع الثالث من القرن الرابع الهجري) .

القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ج1 ص382 .

(27) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) سنة 310 هـ . تاريخ الأمم والملوك ج3 ص149 طبع القاهرة . ابن الأثير (علي بن أبي الكرم) ت سنة 630هـ / 1051م ، الكامل في التاريخ - طبع بولاق بالقاهرة سنة 1290هـ ، ج2 ص412 .

(28) د. حورية عبده سلام : المرجع السابق ص166 .

(29) الكندي : المصدر السابق ص345 .

بن نمير⁽³⁰⁾ لا يقر خيار العيب على أساس أن المشتري يرى ما يشتري ومن ثم فليس من حقه إرجاع ما اشترى بحجة أن به عيباً ، وبالنسبة لتجارة الدواب فإن البائع يعرض دابته أمام المشتري وله الحق في فحصها الفحص الدقيق بل وامتطائها واستئناسها ، وفي عقود وإيصالات وإقرارات البيع والشراء التي سأتناولها في هذه الدراسة نجد أن البائع يضمن للمشتري عدة خصال للدابة ويضمن له سلامتها وعدم وجود عيوب ظاهرة أو باطنة بها، أيضاً ورد ببعض عقود البيع والشراء للدواب تعهد من البائع للمشتري إطعام الدابة وتقديم (علف) لعدة أيام مقبلة . كما نجد وصفاً شاملاً للدابة من حيث شكلها ووصف السيقان والرقبة والعيون والشعر والذقن.... وغيرها . ومن ناحية أخرى فإن المؤرخ "الكندي" قد أورد العديد من مظاهر البيع والشراء في "أسواق الفسطاط" في مصر، وكيفية مراقبة عمل الأسواق من قبل الدولة ورجال الحسبة ، حيث كانت تنفذ أموراً تنظيمية ومتابعات دقيقة لحركتي البيع والشراء في الأسواق ، وكانت توقع عقوبات صارمة على كل من يخالف هذه التنظيمات . وقد وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو تجار مصر بالأمانة ، وقد ساعدته الظروف والتنقل والترحال في العديد من بلاد المسلمين ، وعندما زار مصر شاهد العديد من أسواقها وأماكن التجار وتجمعاتهم ، ولذلك فإن حديثه ينم عن وعي كامل بأحوال البلدان التي زارها والتقاءه بالعديد من أهلها بشتى فئاتهم وطوائفهم ، فقال عن تجار مصر : "... وتجار مصر يصدقون في كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتري فإنه يوضع على جمل ويعطى جرساً بيده ويطوف في المدينة وهو يدق الجرس وينادي قائلاً : لقد كذبت وها أنا أعاقب ... فكل ما يقول الكذب فيجزأؤه العقاب ..."⁽³¹⁾ . مما سبق ذكره من معلومات عن حركتي البيع والشراء في الأسواق يتبين تنظيمها وخاصة أسواق الدواب من خيول وجمال وغيرها حيث كانت لها أهمية قصوى في حياة الناس وترحالهم وانتقالاتهم ... الأمر الذي استلزم وجود العديد من عقود وإيصالات وإقرارات البيع والشراء التي أبرمت بين البائع والمشتري ، بعضها

(30) القاضي ثوبة بن نمير : تولى قضاء مصر من سنة 115هـ حتى سنة 120هـ ، الكندي : المصدر السابق ص 345 .

(31) ناصر خسرو : المصدر السابق ص 61 .

كتب على قطع من ورق البردي والآخر على أجزاء من أوراق الكاغد - تضمنت هذه الوثائق معلومات بالغة الأهمية عن هذه التجارة الرائجة في القرون الأولى للهجرة - وأغلب هذه العقود محفوظة في العديد من المتاحف والمكتبات والجامعات في أوروبا وأمريكا وروسيا ، هذا بالإضافة لمجموعة البرديات العربية بدار الكتب المصرية ... وغيرها .

ثانيا : إيصالات بيع الخيول في نصوص بعض البرديات العربية :

يقتني العديد من المتاحف والجامعات والمعاهد والمكتبات العالمية أعدادا وفيرة من الوثائق والبرديات العربية بعضها عبارة عن عقود بيع وشراء الدواب من خيول وهجين وبغال وحير ... وغيرها . بعض هذه العقود والإيصالات تضمنت تفاصيل دقيقة عن عملية البيع والشراء وربما الإيجار ، وذلك من حيث الوصف الكامل للدابة والتمن المدفوع فيها ، هذا بالإضافة لمعلومات أخرى عن المشتري والبائع ، فكشفت على سبيل المثال اشتهاش أسر معينة بهذه التجارة منها أسرة (بن بلغاق) و(الحلاوني) ، و (الططوني) ، و (ابن بغروط) وغيرها . أيضا تضمنت بعض هذه العقود معلومات تفصيلية عن أسعار بعض الدواب والطعام (العلف) المقدم لها ، وكذلك العديد من أسماء الشهود التي وردت في نهايات بعض هذه العقود ، هذا بالإضافة للأسواق التي اشتهرت بهذه التجارة خلال القرون الأولى للهجرة . ونظرا لتعدد هذه العقود والإيصالات والإقرارات فقد اخترت نأذج منها لدراستها وتحليلها والتعليق عليها .

1- إيصال بيع فرس باثني عشر دينارًا :

هذا الإيصال عبارة عن قطعة من ورق البردي صغيرة نسبيا أطوالها "6×16.5 سم" محفوظة في مجموعة ميخائيليس بجامعة كامبردج برقم سجل (P.Cam.Michaelides.b.95.A)⁽³²⁾ ، والبردية غير مؤرخة وغير معلوم مكان العثور عليها ، تضمنت نصا كتابيا باللغة العربية منفذا بأسلوب "خط التحرير المخفف" أو ما يطلق عليه "الخط اللين" ، قوام الكتابة (16 سطرا) ، ويلاحظ أن الكتابة متداخلة في

(32) Yusuf Ragib : Actes de Vente D'esclaves et D'animaux d'Egypt Medievale - Institute Francais D'archeologie Orientale (1) le Cairo 2002 P.58 -59 .

العديد من كلماتها ، ربما كان السبب في ذلك عجلة الكاتب وسرعة يده ، فطلب منه الأمر الإسراع في إنفاذ وتسجيل العقود ، فجاءت الكتابة بهذه الصورة المتداخلة ، والتي يصعب قراءتها على غير المتخصص .

نص الإيصال : (انظر اللوحة المرفقة - لوحة رقم 1)

1- بسم الله الرحمن الرحيم	2- هذا ما اشترى علي
3- بن بلغاق من محمد	4- بن إبراهيم فرس
5- كميت أغر محجل	6- مخذرف الثمن
7- اثنا عشر ديناراً	8- والجعل وقد برئ
9- إليه (من) ساير قوايمه	10- وضمن له الخمس خصال ومن الشعر
11- مكوك والعهدة من السرقة	12- علي محمد بن أحمد
13- والحسن الدليمي	14- وذلك يوم الأحد لتسع
15- بقين من جمادى	16- الآخر

التعليق على النص :

الملاحظة الأولى على إيصالات بيع وشراء الدواب أنها قصيرة وليست بها تفصيلات كتلك التي يمكن أن نجدها في عقود الزواج والبيع والشراء والإيجار والعمل وذلك من حيث الافتتاحيات وعبارات الثناء ، وتفصيلات أخرى عن البائع والمشتري من حيث أسرته ومحل إقامته وموطنه وربما قبيلته ثم تفصيلات أخرى عن الثمن وطرق تسديد المبالغ وربما تقسيطها على أنجم وأقساط محددة وغيرها من المعلومات كأسماء الشهود مع توقيعاتهم وأسمائهم ، فالعقد هنا بسيط نسبياً ، تضمن معلومات مقتضبة عن اسم المشتري والبائع ، ثم نوع الدابة ووصفها والثمن المدفوع فيها ، ثم ضمان من البائع للمشتري لعدة خصال تميزت بها الدابة ، وربما يذكر ضمان البائع للمشتري بعض العلف والطعام لهذه الدابة المبيعة ، ثم أخيراً ذكر أسماء بعض الشهود دون توقيعات منهم في نهاية نص العقد . والإيصال الذي نحن بصددته بُدئ بالبسملة ثم الدخول في صيغة العقد مباشرة دون أية تقدييات أو إشارات تفيد الثناء أو الدعاء أو غيرها من العبارات التي قد

نصادفها في عقود البيع والشراء والزواج ... وغيرها . فنجد في السطور (4-2) إقرارًا بالشراء من المشتري "علي بن بلغاق" ، وأسرة (ابن بلغاق) من الأسر الشهيرة التي ورد ذكرها بكثرة في العديد من نصوص إيصالات بيع وشراء الدواب كما سنرى لاحقاً، أما البائع فهو شخص يدعى "محمد بن إبراهيم" ولم يذكر لقبه فيها كان أحد عوام الناس ، وربما كان مزارعاً اقتضته الظروف لبيع هذا الفرس الذي ورد وصفه في السطور (6-5) من النص وهو : "فرس كميت أغر محجل - مخدرف ... " .

فالفرس حيوان أهلي أكثر استعماله للركوب ، يقع على الذكر ويقال له أيضاً حصان ، وعلى الأنثى ويقال لها حِجر ، وربما قالوا فيها فرسة⁽³³⁾ ، ثم نقرأ كلمة (كميت) وهي تصغير أكميت ، والكميت من الخيل لونه بين الأسود والأحمر ويفرق بين الكميت والأشقر بالعرف والذنب ، فإن كانا أحمرين فهو أشقر وإن كانا أسودين فهو الكميت⁽³⁴⁾ ، أما كلمة (أغر) فهي تعني الغرة التي في الجبهة وهي بياض فوق الدرهم ، ومنها فرس "أغر" ومُهرة "غراء" مثل أحمر وحراء ، ومنها أيضاً رجل "أغر" بمعنى صبيح الوجه⁽³⁵⁾ . أو ربما سيد في قومه ، وهي في هذا الفرس تفيد حسنةً وجمالةً ، أما كلمة (محجل) وهي تعني جمالاً آخر لهذا الفرس ، فالفرس المحجل هو الذي ابيضت قوائمه وجاوز البياض الأرساغ إلى نصف الوظيف أو نحو ذلك ، وهذا هو موضع التحجيل⁽³⁶⁾ . ومنها أيضاً التحجيل في الوضوء بمعنى غسل بعض العضد وغسل بعض الساق مع غسل اليد والرجل ، أما كلمة (مخدرف) وهي آخر صفة وردت لهذا الفرس فتعني أنه سريع المشي ، فالحذروف جمع خذاريّف ، ومنها كذلك كلمة الحذاريّف وهي القطيع من الإبل المتقطع عنها ، والكلمة هنا في هذا العقد تفيد معنى السرعة في المشي

(33) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 575 " اللغة " .

الرازي (الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي) ، مختار الصحاح - طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة 1345هـ / 1926 ص 496 .

(34) المقرئ : المصدر السابق ص 206 .

(35) المقرئ : المصدر السابق ص 169 .

(36) المقرئ : المصدر السابق ص 47 .

والسير⁽³⁷⁾... وهي صفة محمودة في الدواب عمومًا ، أما الثمن المدفوع في شراء هذا الفرس فهو (12) دينارًا وهو يعتبر مبلغًا ماليًا مرتفعًا ، خاصة إذا ما قورن نفس هذا الثمن مع خيول أخرى بيعت في نفس الفترة الزمنية ، أما كلمة "الجعل" فهي ربما تفيد "السمسرة" أو "الدلالة" من السمسار أو الدلال ، وهو الشخص الذي يتوسط بين البائع والمشتري لتيسير عملية البيع والشراء فيذكر محاسن الدابة ويرغب المشتري فيها ، والعقد يتضمن عبارات تنص على أن المبلغ المدفوع في شراء الفرس يشمل الثمن مع السمسرة ، ثم نقرأ في السطرين (9-8) براءة من البائع للمشتري من سائر عيوب هذا الفرس أي أنه سلمه للمشتري سالمًا معافي في ساقيه ليس به عرج أو أدنى خلل أو عيب أو إعاقة... ، ثم نقرأ في السطرين (10-11) ضمانًا من البائع للمشتري شمل هذا الضمان "خمس خصال" لم يرد لها ذكر في نص العقد ، وأعتقد بأن هذه الخصال الخمس ربما تكون على النحو التالي :

- 1 - الألفة بمعنى أنه غير متوحش .
- 2 - الخلو من العيوب والأمراض الظاهرة والباطنة .
- 3 - القدرة على العمل الشاق .
- 4 - التدريب على الركوب والامتطاء .
- 5 - معرفة مصدره وصاحبه .

ولقد أقر البائع للمشتري ضمانًا آخر وهو "العهد من السرقة" أي ضمن له أنه غير مسروق ، أو في حال عودة الفرس مرة أخرى لبيت صاحبه فسوف يعيده مرة أخرى للمشتري ، كما تعهد أيضًا البائع للمشتري ضمانًا آخر وهو طعام الفرس ومقداره (مكوك شعير) والمكوك : مكيال ثلاث كياليج ، والكيلجة منا وسبعة أثمان منّا ، والمنا رطلان ، والرطل اثنا عشر أوقية ، والأوقية إستار وثلاثا إستار ، والإستار أربعة مئاقيل ونصف ، والمئقال درهم وثلاثة أسباع درهم ، والدراهم ستة دوانيق ، والدانق قيراطان ، والقيراط طسوجان ، والطسوج حبتان ، والحبة سُدُسُ ثمن درهم ، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءًا من درهم ، والجمع (مكاكيك)⁽³⁸⁾ .

(37) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 171 " اللغة " .

(38) الرازي : المصدر السابق ص 630 .

السطران الأخيران في نص الإيصال (12-13) ربما يفيدان أن الشخصين الواردة أسماؤهم كشهود وهما (محمد بن أحمد والحسين الدليمي) ربما كانا الشخصين الضامنين عدم سرقة هذا الفرس ، أو عندما يعود مرة أخرى إلى صاحبه (البائع) وهو الشخص الذي تولى تربيته وتدريبه ، فهما مكلفان بإرجاعه للمشتري مرة أخرى وهي ربما تفيد أيضًا أن المشتري كان مقيمًا بجوار البائع أو في قريته ، وكانت هناك خشية أن يرجع الفرس مرة أخرى لبيت صاحبه الأول .

2 - إيصال بيع فرس "كميت شهيم" بعشرة دنانير :

هذا الإيصال النادر محفوظ في مجموعة ميخاليدس بكامبردج ، كتب على قطعة من ورق البردي أطوالها (11×7سم) ، وهي أصغر نسبيًا من أطوال الإيصال السابق ذكره ، والإيصال بحالة جيدة وكتابه واضحة ، كتب أيضًا بأسلوب "خط التحرير المخفف" الخالي من الإعجام ، إلا أنه يلاحظ وجود بعض التمزقات في الجهة اليمنى من العقد ، الأمر الذي أدى إلى فقدان بعض الحروف من عدد من الكلمات ، أيضًا يلاحظ أن الكلمات متداخلة ومتشابكة بشكل لافت للنظر ، حتى إن حروف البسملة كتبت كأنها كلمة واحدة ، كما هو واضح في اللوحة المرفقة : لوحة رقم (2) .

والبردية تحمل رقم سجل : (P.Cam.Michaelides.inv.B-95-b) (39) .

تضمن العقد كتابة عربية خالصة قوامها (11 سطرًا) ، اختفت منها بعض الحروف نظرًا لحدوث بعض التمزقات في الجهة اليمنى من الورقة كما أشرت من قبل ، والحروف المفقودة تقع في بدايات 4 سطور (3،6،7،10) .

نص الإيصال : (انظر اللوحة المرفقة رقم 2)

1 - بسم الله الرحمن الرحيم

2 - هذا ما اشترى علي بن بلغاق من

3 - ربيع بن أوسامة فرس كميت شهيم

- 4- الثمن عشرة دنانير والجعل قبض الثمن
- 5- وسلم الفرس برئ من جدوة
- 6- و [..] ساير قوايمه وعرنه
- 7- و [ض] من له الخمس خصال ومن الشعير مكوك
- 8- والعهده من السرق على ربيع بن
- 9- أو سامه
- 10- [و] ذلك يوم السبت لسبع ليال خلون
- 11- من ذى القعدة

التعليق على نص الإيصال :

على الرغم من صغر هذا الإيصال ، وقلة عدد سطوره ، إلا أنه تضمن معلومات بالغة الأهمية عن إتمام صفقة بيع هذا الحصان الذي وصف بأنه (فرس كميت شهم) ، ولقد بدئ الإيصال بالبسملة ، وهي كما أشرت من قبل كتبت بشكل متداخل كأنها كلمة واحدة ، وربما كان السبب في ذلك سرعة يد الكاتب في تنفيذ كتابة الإيصال وربما كان مكلفاً بكتابة عدد كبير من الإيصالات المتعلقة بتجارة الدواب في الأسواق ، فاقترضت الضرورة الإسراع في إنجاز تسجيل وتدوين مثل هذه الإيصالات بشكل مقتضب ، والسطر الثاني إقرار من المشتري وهو (علي بن بلغاق) بشراء الفرس وهو نفس الشخص الذي اشترى الفرس السابق ذكره في البردية الأولى من هذه الدراسة ، وهو يكشف عن شهرة أسرته (ابن بلغاق) بالتجارة في الدواب خلال هذه الفترة الزمنية (القرنين 3-2هـ / 9-8 م) ، أما البائع الذي ورد اسمه في السطر الثالث ويدعى (ربيع بن أوسامة) وهو نفسه الضامن وعليه العهدة من السرقة كما ورد النص بذلك في السطر الثامن ، ويلاحظ أن كلمة (أوسامة) كتبت بإضافة (واو) أمام حرف الألف ، وهي المرة الأولى التي أصادف فيها هذه الحالة في كتابة نصوص البرديات العربية ، فكما هو معلوم فإن كلمة (أوسامة) لفظ معرفة يطلق على الأسد⁽⁴⁰⁾ . والاسم يُذكر في المعتل لأن الألف زائدة⁽⁴¹⁾ ،

(40) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 11 " اللغة " .

(41) الرازي : المصدر السابق ص 17 .

كما يلاحظ أن حرف الألف مضموم بوجود تشكيل الضمة فوق هذا الحرف ، أما في كتابة هذا العقد فإن الكاتب أضاف (حرف الواو) عوضاً عن تشكيل (الضمة) فوق حرف الألف ، والفرس المبيع يوصف بأنه (كميت) أي أن لونه بين الأسود والأحمر ، وكما أشرت من قبل فإنه يفرق بين الكميت والأشقر "بالعرف والذنب" ، فإن كانا أحمرين فهو "أشقر" ، وإن كانا أسودين فهو "الكميت" وهو تصغير أكمّت . أما كلمة (شهم) الموصوف بها هذا الفرس فإنها تعني أن الفرس نشيط وقوي وسريع وجمعها "شُهُوم" ⁽⁴²⁾ ، ومنها أيضاً شَهِمَ الفرس شَهِمًا وشُهُومًا بمعنى زجره ، والشهم أيضاً هو الذكي الفؤاد الشجاع ⁽⁴³⁾ . أما الثمن المدفوع في شراء هذا الفرس فهو (عشرة دنانير) مضاف إليه (الجُعل) ، وهو السمسرة أو أجرة الدلالة ، أي المبلغ الذي يتقاضاه السمسار أو الوسيط بين كل من البائع والمشتري ، ولقد أشار نص الإيصال إلى أن البائع قد (قبض الثمن) وهي عبارة لم ترد في نص الإيصال السابق ذكره ، الأمر الذي يؤكد به المشتري أنه قد سلم كامل المبلغ (عشرة دنانير) للبائع ، وقد تسلم الفرس آنذاك . ولقد ورد في نهاية السطر الخامس عبارة تشير إلى براءة البائع من بعض عيوب هذا الفرس والتي وردت في نص السطرين (5،6) بهذه الصيغة : (برئ من جدوعه ولساير قوايمه وعُرْنه) والجُدْع هو قطع الأنف والأذن أيضاً ، ومنها أيضاً قطع الشفة ⁽⁴⁴⁾ ومنها الجُدْعَة وهي ما بقي من العضو بعد قطعه ⁽⁴⁵⁾ . أما عبارة (ولساير قوايمه) الواردة في نهاية السطر السادس من نص البردية فتعني أن البائع برئ للمشتري من سائر عيوب سيقان هذا الفرس ، أما كلمة (عُرْنه) الواردة في نهاية هذه العبارة في السطر السادس فهي تعني أن البائع برئ من الأمراض التي قد تصيب الفرس ، فالعَرَن ومنها العران والعُرْنة داء يأخذ آخر رجل الدابة يُذهِب الشعر أو تشقق في أيديها أو أرجلها ⁽⁴⁶⁾ .

(42) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : ص 407 " اللغة " .

(43) الرازي : المصدر السابق ص 350 .

(44) الرازي : المصدر السابق ص 56 .

(45) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 81-82 " اللغة " .

(46) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 502 " اللغة " .

وبالإضافة إلى ذلك ضمن البائع للمشتري خمس خصال لهذا الفرس المبيع ، ورد ذلك ضمن نصوص السطر السابع من نص البردية بهذه الصيغة : (وضمن له الخمس خصال) ، وهذه الخصال الخمس سبق ذكرها في نص البردية السابقة ، وربما كانت هذه العبارة شائعة في عقود بيع الدواب في هذه الفترة الزمنية التي تنسب للقرنين 2-3هـ / 8-9م . أيضا ضمن البائع للمشتري تسليمه (مَكْوَك) من الشعير طعامًا لهذا الفرس المبيع . والمكوك سبق ذكره أيضا في شرح البردية السابقة ، وهو مكيال لوزن الشعير وهو نبات عشبي زراعي حَبِّي من فصيلة النجيليات مهددة الأصلي قارة آسيا ، يُزرع في جميع البلدان المعتدلة المناخ ، يقدم عَلفًا للدواب ، ويمكن تحويله إلى دقيق ، ولكن الخبز المصنوع منه ليس بجيد ، أيضا يستعمل نبات الشعير في صنع البيرة (الجعة) ⁽⁴⁷⁾ .

والسطران (8-9) من نص هذه البردية يشير إلى أن البائع قد تعهد للمشتري بعدم سرقة هذا الفرس ، والنص مدون بهذه الصيغة : (والعهدة من السرقة على ربيع بن - أوسامة) وهذه العبارة ربما تكشف عن معلومات تتعلق بهروب الفرس وعودته مرة أخرى ربما لصاحبه الذي تولى تربيته ورعايته في حظيرته ، وهو أمر وارد أن يعود الفرس مرة أخرى لبيت صاحبه ، وهي ربما تدل أيضا على أن المشتري كان يقيم بالقرب أو في نفس منطقة سكن البائع (علي بن ربيع بن أوسامة) فخشي المشتري أن يشرد الفرس ويعود مرة أخرى لبيت صاحبه الأصلي ، فتم تدوين هذه العبارة في نص عقد البيع حتى يضمن المشتري عدم سرقة الفرس بانضمامه لقطيع الخيول لدى البائع . أما السطران الأخيران من نص العقد فيشيران إلى تاريخ تحرير عقد البيع وهو يوم "السبت لسبع ليالٍ خلون من شهر ذي القعدة" ، ويلاحظ أن الكاتب لم يدون ولم يحدد السنة التي تم فيها البيع ، واكتفى فقط بتحديد يوم البيع مع تحديد الشهر وهو ذو القعدة ، ومثل هذه الحالة شائعة في العديد من نصوص بيع الدواب ، ولا أدري ما السبب في عدم تسجيل السنة التي تم فيها البيع على وجه التحديد .

(47) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 391 "اللغة".

3- إقرار باستلام ثمن حصان أدهم ستة عشر دينارًا :

هذا الإقرار النادر محفوظ في مكتبة برلين بألمانيا ضمن مجموعة البرديات العربية بهذه المكتبة برقم سجل (P.Berol.inv.Arab.8011) والإقرار كتب على قطعة من ورق الكاغد أطوالها (13.5×22 سم) عُثِرَ عليها بمدينة الفيوم في الصعيد الأدنى بمصر ، والإقرار مؤرخ بيوم الجمعة 26 طوبة من شهور القبط سنة 382هـ / 12 مايو 992م . والبائع الوارد ذكره في نص هذا الإقرار يدعى (عمر بن مهدي) أما المشتري فيدعى (مينا بن جرجة الططوني) وهو من العائلات الشهيرة في مدينة الفيوم بشراء وتربية الخيول في القرون الأولى للهجرة ، فقد ورد اسم أسرة (جرجة الططوني) في العديد من نصوص البرديات العربية وأوراق الكاغد مرتبطة بالخيول وتجارها ومنافسات السباق ، منها ورقة كاغد محفوظة بمعهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا برقم سجل (PSR.inv.Arab.8007) مؤرخة بعام 404هـ أطوالها (18.95×29 سم) موضوعها يتعلق بإقرار باستلام (دية فرس) قتلت أثناء سباق للخيول بمدينة الفيوم . حيث ورد اسم (مينا بن جرجة الططوني) ضمن نصوص السطور " 13،9،2 " ⁽⁴⁸⁾ ويلاحظ أن الإقرار تضمن معلومات عن الدنانير العزيرية ... كما ورد في السطر الرابع من النص بهذه الصيغة : " من العين العزيري ستة عشر دينارًا عزيزية وأبرأتك من ذلك ... " فالعين تعني الدنانير الذهبية ⁽⁴⁹⁾ ، فرها " صاحب قاموس المنجد " في اللغة والأعلام بقوله : " العين هي العتيد من المال (الدينار) وهو الذهب المضروب (خلاف الورق) ⁽⁵⁰⁾ ، أما كلمة (العزيري وستة عشر دينارًا عزيزية) فتعني أن الدنانير ضربت في عهد الخليفة الفاطمي (العزير بالله أبو منصور نزار) ابن الخليفة (المعز لدين الله أبو تميم معد) ، الذي توفي في القاهرة لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة ، وكانت مدة خلافته

(48) هناك أيضا العديد من البرديات العربية المتعلقة " بططون " بالفيوم منها برديات محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة إحداها عقد زواج مؤرخ بشهر محرم سنة 341هـ / يونيو 952م يحمل رقم سجل (1899 تاريخ) أطواله 15.1 × 26.5 سم وردت به عبارة (وهما جميعًا من سكان ططون من كورة الفيوم) .

Grohmann ; A: Arabic Papyri in The Egyptian Library . Vol.I p.168 No . 57 .

(49) الرازي : المصدر السابق ص 466 .

(50) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 542 " اللغة " .

بالمغرب وديار مصر ثلاثاً وعشرين سنة وعشرة أيام ، وهو أول الخلفاء الفاطميين بمصر وإليه تنسب القاهرة المعزية ، أما ابنه العزيز بالله فقد استمرت خلافته على مصر إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً . ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً ، في الثامن والعشرين من رجب سنة ست وثمانين وثلثمائة بمدينة بلييس ، وحمل إلى القاهرة . حسب ما ذكر المؤرخ المقرئ (51) .

نص الإقرار : (انظر اللوحة رقم 3)

- 1- شهد على ذلك بquam بن جريج بما في هذا الكتاب وكتب بخطه في تاريخه
- 2- شهد برهان بجميع ما في هذا الكتاب وكتب عنه بأمره ومحضره
- 3- شهد جلون بن عبد الله بجميع ما في هذا الكتاب وكتب عنه بأمره ومحضره
- 4- بسم الله الرحمن الرحيم
- 5- يقول عمر بن مهدي أني قد قبضت منك يا مينا بن جرجة
- 6- الططوني ثمن الحصان الأدهم الذي ابتعته مني ومبلغه
- 7- من العين العزيزي ستة عشر ديناراً عزيزية وأبرأتك من ذلك
- 8- براءة قبض واستيفاً مما أدرتك خصومة أو تبيعه
- 9- في هذا الحصان كان علي خلاصك من ذلك من خالص
- 10- مالي كايين ما كان أو بالغ ما بلغ وكتب في يوم الجمعة
- 11- خمس بقين من شهر طوبة لسنة اثنين وثمانين وثلثمائة
- 12- ووادي هذه الدنانير في ديوان سيدنا العامل أبي يحيى شنودة
- 13- بن سريام أدام الله عزه على يدي أبي سهل بquam بن جريج
- 14- في نجم طوبة وقد أبرأ عمر بن مهدي مينا بن جرجة الططوني
- 15- في كل علة تحيه من ولده محمد شهد على ذلك
- 16- شهد علي بن يوسف بن مهدي على عمه عمر بن مهدي البايع
- 17- ومينا بن جرجة المشتري بجميع ما في هذا الكتاب وكتب بخطه

التعليق على النص :

احتوى هذا الإقرار على معلومات بالغة الأهمية عن تجارة الدواب في القرون الأولى للهجرة ، خاصة أنه تضمن شهادة أربعة شهود ، كما أن البيع تم بين أحد المسلمين وأحد أهل الذمة ، ونظرًا لأهمية هذا الإقرار فقد تناوله العديد من الباحثين بالنشر ، ولكنهم لم يعلقوا عليه أو يشرحوه ، منهم الباحث يوسف راغب الذي نشره في دراسته التي نشرت بعناية المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة 2002م⁽⁵²⁾ . وسبق هذا النشر نشر البروفيسور الدكتور رثيف جورج خوري⁽⁵³⁾ لهذا الإقرار ضمن دراسته التي نشرت بألمانيا سنة 1993م⁽⁵⁴⁾ . وقد لاحظت أن كلا الدراستين بهما بعض الملاحظات وخاصة في قراءة السطور الثلاثة الأولى من نص الإقرار ، وهي السطور التي تسبق البسملة فالبروفيسور خوري قرأ الكلمة الرابعة في السطر الأول (متا) ونفس الكلمة قرأها الباحث يوسف راغب ، (بقام) وأعتقد أن القراءة الصحيحة لهذه الكلمة هي (بقام) وهي من الأسماء القبطية المعروفة التي وردت كثيرا في نصوص البرديات العربية⁽⁵⁵⁾ ، أما السطر الثاني في نص الإقرار فقد قرأ د. جروهمان والبروفيسور رثيف جورج خوري الكلمة الثانية (رخمان) ونفس الكلمة قرأها الباحث يوسف راغب (ريمان) ونظرًا لحدوث بعض التمزقات في ألياف هذا الجزء من الإقرار ، فإن الحروف المتبقية ربما تشير إلى قراءة مخالفة لكلتا القراءتين السابقتين ، وهيئة الحروف تشير إلى كلمة (برهان) وذلك لأن الحرف الثاني غير كامل ، ولا يشير إلى كونه حرف (ياء) أو (خاء) ولكنه ظهر على شكل حرف (هاء) لذلك فإنني أرجح قراءة الكلمة (برهان) . أما السطر الثالث فقرأ د. خوري الكلمة الثانية منه (حلون) وهي كلمة غير مفهومة في اللغة العربية ، كما قرأها

(52) Yusuf Ragib : Op.cit. PP.81-85.

(53) يشغل منصب أستاذ ورئيس قسم الدراسات الشرقية بمعهد الاستشراق - جامعة هايدلبرج بألمانيا.

(54) دراسته تحمل عنوان :

Raif .G.Khaury ; Chrestomathie De Papyrologie Arabe . Koln 1993. P. 87 .

(55) انظر الدراسة التي أعدها الدكتور أدولف جروهمان عن البرديات العربية بدار الكتب المصرية

المجلدات (1 - 3) ورد فيها اسم (بقام الأجير - بردية رقم 229 السطر 8 ، 20 وبردية رقم 230) ،

كما ورد اسم (بقام بن بقطر القسطل في بردية رقم 185 - السطر 6) واسم (بقام بن شنودة الجهبذ

في بردية رقم 194 السطر 7) انظر د. جروهمان : المرجع السابق ج3 ص 151 .

الباحث يوسف راغب (خلوف) ولكنني أعتقد بأن القراءة الصحيحة أقرب لأن تقرأ (جلون) وهي كلمة عربية من (جلا) بمعنى واضح وكاشف⁽⁵⁶⁾. كما أن الحرف الأخير أقرب لأن يقرأ (نون) وليس (فاء) كما قرأها الباحث يوسف راغب. بعد هذه السطور الثلاثة التي كتبت فوق البسملة وبشكل دقيق (بقلم صغير السن أو ربما بحافة القلم)، وأعتقد بأن الكاتب أضاف هذه السطور الثلاثة بعد فراغه من كتابة نص الإقرار، فلم يجد مساحة لتسجيل أسماء هؤلاء الشهود الثلاثة إلا في الحافة اليسرى من مقدمة الورقة فكتبها بهذا الشكل المضغوط والمتقارب، والمتأمل أيضا في كتابة هذا الجزء من الإقرار يلاحظ أن الكاتب لم يكن دقيقاً في تنفيذ هيئات بعض الحروف، ربما بسبب السرعة التي أراد بها تنفيذ كتابته، فيلاحظ أن الحروف جاءت متداخلة في أغلبها على عكس بقية السطور بعد البسملة، كما يلاحظ أن بعض الحروف اختفت من بعض الكلمات كما في كلمة (الكتاب) في منتصف السطر الأول فإن حرف (التاء) غير موجود كلية، بينما نفس الكلمة وردت في منتصف السطر الثالث ولكن نفس الحرف (التاء) نجده مكتوبا، وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على أن كاتب أو ناسخ الإقرار (فربما كُتِبَ الإقرار من نسختين إحداهما للبائع والأخرى للمشتري) أراد أن ينجز التسجيل بشكل متعجل. بعد ذلك بُدِئَ الإقرار بالبسملة، ويلاحظ وجود بعض التمزقات والثقوب في هذا الجزء، ثم السطر الرابع من النص نقرأ فيه إقرار البائع (محمد بن مهدي) بأنه استلم من المشتري (مينا بن جرجة الططوني) ومن خلال اسمه يتبين لنا أنه أحد الأقباط الساكنين قرية "ططون" بمدينة الفيوم وهي تتبع مركز إطسا بمحافظة الفيوم حالياً، وتعرف أيضا باسم تبتونيس Tebtunis أو (أم البريجات) تقع على الحافة الجنوبية للفيوم على بعد حوالي ستة كيلومترات، كُشِفَ فيها عن معبد كبير من العصر البطلمي⁽⁵⁷⁾ وكذلك عثر بها أيضا على العديد من المكتشفات الأثرية، فعلى بعد 3 كيلومترات تقريباً من جنوب هذه القرية يوجد (دير أم البريجات)، والذي كشفت فيه البعثة الإيطالية آثار لكنيستين أثريتين عثر بهما على كتابات قبطية وعربية نادرة، كما عثر بهذا الموقع أيضا على رسوم بالفرسك لآدم

(56) الرازي: المصدر السابق ص 108.

(57) د. عبد الحليم نور الدين: مواقع الآثار اليونانية الرومانية في مصر، الطبعة الأولى - القاهرة سنة

وحواء يرجع للقرن (5م) محفوظ حاليًا بالمتحف القبطي بالقاهرة⁽⁵⁸⁾. وعلى ذلك يمكن القول إن الوثيقة التي نحن بصدددها تنسب لمدينة عريقة وموقع تاريخي هام يضرب في أعماق التاريخ.

ثم نقرأ في منتصف السطر (6) عبارة (الحصان الأدهم)، والحصان هو الفرس، وقيل إنما سمي حصانًا لأنه ضن ببائه فلم يَنْزُ إلا على كريمة ثم كثر ذلك حتى سَمُوا كل ذَكَر من الخيل حصانًا⁽⁵⁹⁾. أما كلمة (أدهم) فتعني السواد، من الدهمة، يقال فرس أدهم ويعبر أدهم وناقة دهماء، إذا اشتدت وُرقته حتى ذهب بياضه، وشاة دهماء خالصة الحمرة⁽⁶⁰⁾. ثم نقرأ إقرار البائع (عمر بن مهدي) بأنه باع هذا الحصان بمبلغ عشرة دنانير عزيزية، وهي كما أشرت من قبل دنانير ذهبية ضربت زمن الخليفة الفاطمي العزيز بالله 365 - 386 هـ / 975 - 996م ولقد تضمن الإقرار عبارة (وأبرأتك من ذلك براءة قبض واستيفاء)، ثم تعهد منه أيضًا بضمان ملكية هذا الحصان للمشتري (مينا بن جرجة الططوني)، وذلك إذا ما ظهرت خصومة أو حدث التباس أو شك في ملكية الحصان للبائع، فإن ضمان حقوق المشتري يقع على البائع من خالص ماله كائن ما كان أو بالغ ما بلغ، وتم كتابة وتسجيل هذا الإقرار في يوم الجمعة الموافق 25 طوبة وهو من شهور القبط، وربما تعتمد الكاتب تسجيل هذا الشهر على اعتبار أن أحد طرفي عقد البيع قبطي، وكما هو معلوم فإن العديد من نصوص البرديات العربية ورد بها ذكر الشهور القبطية وهي شهور: "أبيب، أمشير، باب، برمها، برمودة، توت، طوبة، كيهك، هتور، بؤونة، مسرى، بشنس"⁽⁶¹⁾. أما السطران التاليان (12 - 13) فيكشفان معلومات هامة عن استخدام أهل الذمة (الأقباط) في أعمال الدولة، وخاصة التسجيل في أعمال الدواوين فكشفت الوثيقة أن المشتري سلم ثمن الحصان إلى (ديوان سيدنا العامل أبي يحيى شنودة

(58) بديع حبيب خوري: الكنائس والأديرة القديمة بالوجه البحري والقاهرة وسيناء، طبع معهد

الدراسات القبطية بالقاهرة 1995م ص 27.

(59) الرازي: المصدر السابق ص 141.

(60) المقرئ: المصدر السابق ص 77.

(61) د. مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي - طبع القاهرة سنة 1968م.

ابن سربام) ثم عبارة الثناء عليه التي كانت عادة تلحق بكبار رجال الدولة من أمراء ورجال دين وقضاة وغيرهم .. وهي عبارة (أدام الله عزه) ، ثم نقرأ عبارة تتعلق بقيام المشتري بتسليم المبلغ لديوان العامل أبي يحيى شنودة بن سربام وذلك على يد شخص يدعى "أبي سهل بquam ابن جريج" ، ويلاحظ أن كلا الاسمين الذميين (أبي يحيى شنودة ابن سربام) و (أبي سهل بquam بن جريج) إنما وردا على غرار ورود الأسماء العربية (بالكنية وكلمة ابن) فالأول كُنِيَ (بأبي يحيى) ثم (شنودة بن سربام) والثاني كُنِيَ (بأبي سهل) ثم (بquam بن جريج) ، ثم نقرأ أيضًا ذكر شهر (طوبة) وهو من الشهور القبطية السابق ذكرها . أيضًا نجد بالوثيقة تعهدًا من البائع للمشتري بتحمل أي ضرر (في كل علة تخبه من ولده محمد) من قبل ولد البائع ويدعى (محمد) ربما بعد وفاة البائع أو في حياته ، حيث إن البائع يقر بأن نجله (محمد) ليس له أي دخل أو حق في بيع هذا الحصان، وربما كان ذلك طلبًا من المشتري خشية عودة الحصان مرة أخرى لأسرة البائع . أخيرًا يلاحظ أن الوثيقة ذكر بها شاهد واحد هو ابن شقيق البائع ويدعى (علي بن يوسف بن مهدي) ، وربما اكتفى المشتري بهذا الشاهد فقط نظرًا لقربه من البائع حيث إنه من نفس الأسرة ، ولا يمكن أن يخالف شهادته على بيع عمه (عمر بن مهدي) . والوثيقة تعتبر بالغة الأهمية لما تضمنته من معلومات هامة عن بيع وشراء الدواب في العصر الإسلامي بين العرب وأهل الذمة.

ثالثًا : إيصالات بيع الهُجُن في عدد من نصوص البرديات العربية :

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من إيصالات بيع الخيول في نصوص بعض البرديات العربية وأوراق الكاغد ، وردت أيضًا معلومات هامة عن بيع الهُجُن⁽⁶²⁾ في بعض نصوص البرديات العربية ، وعلى الرغم من صغر قطعة ورق البردي التي تم تدوين عملية البيع والشراء عليها ، فإنها في الواقع تحمل العديد من المعلومات التي قلما نجدها في مواد أخرى غير هذه البرديات .

(62) الهجين من الخيل الذي ولدته برذونة من حصان عربي ، قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 856 " اللغة " .

1- إيصال بيع هجين أشقر محجل الرجل اليسرى :

كتب هذا الإيصال على قطعة صغيرة من ورق البردي أطوالها (16×4.5 سم) محفوظة في مجموعة ميخاليدس بكامبردج برقم سجل (P.Cam.Michaelides.inv.B-94) كتب النص على الوجه (Recto) ، ويلاحظ أن كاتب الإيصال (الذي لم يرد ذكر لاسمه في النص) تعجل كثيرًا في تدوينه صيغة الإيصال ، فجاءت الكتابة متداخلة ومتلاحقة ، خالية من الإعجام (النقط) ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض النقط في عدد من حروف الكلمات كما في نهاية السطر الرابع ، فجاءت كلمة (الربيع) منقطه بثلاث نقاط من أسفل ، أيضا يلاحظ وجود نقطتين فوق حرف (التاء) في كلمة (تسع) في نهاية السطر السادس ، وخلاف ذلك فالورقة خالية من أي إعجام آخر في النص ، كذلك يلاحظ أن الكاتب ربما تعتمد ضغط بعض الكلمات والحروف في نهاية النص ، ربما عندما فوجئ بصغر مساحة الورقة (16 × 14.5 سم) ولاحظ أن هناك عبارات لم يتم تدوينها ، فعمد إلى تصغير هيئات الحروف ودمجها بهذا الشكل المتداخل ؛ الأمر الذي جعل من قراءتها أمرًا عسيرًا .

أيضا ربما كان من أسباب ظهور النص بهذه الصورة المتواضعة والمتداخلة سرعة يد الكاتب في تنفيذ ما طلب منه تسجيله لكثرة أعداد العقود والإيصالات المكلف بتسجيلها وتدوينها ، ربما كان ذلك راجعًا لنشاط حركة السوق في البيع والشراء . فأراد إنجاز تسجيل هذه الإيصالات بشكل سريع وعاجل ، كما يلاحظ أن معظم العقود والإيصالات التي وصلت إلى أيدينا والمتعلقة ببيع وشراء الهجن كتبت على ورق البردي ، وكما هو معلوم فإن البردي أقدم تاريخيًا من ورق الكاغد ، لذلك فإنني أرجح أن ينسب هذا الإيصال للقرنين 2 - 3هـ / 8 - 9م ، وهي الفترة الزمنية التي شاع فيها وانتشر استخدام ورق البردي في تسجيل العديد من عقود البيع والشراء وسائر المكاتبات في العصر الإسلامي . بينما يلاحظ أن ورق الكاغد قد انتشر في العقود اللاحقة 4 - 6هـ / 10 - 16م . وما تلاها من فترات زمنية أخرى .

نص البردية - انظر اللوحة رقم 4

- 1- بسم الله الرحمن الرحيم
- 2- هذا ما اشترى
- 3- محمد بن بلغاق
- 4- من نصر بن الربيع

5- هجين أشقر أغر	6- أرجل الثمن تسع
7- الدنانير ونصف	8- وقد برئ إليه من
9- عيوب قوايمه	10- وضمن له الخمس خصال ومن
11- الشعير مكوك والعهدة	12- من السرق على
13- نصر بن الربيع	14- وذلك يوم السبت لاثني
15- عشر خلون من	16- شعبان

التعليق على النص :

على الرغم من صغر مساحة هذا الإيصال وكلماته وعباراته المحدودة إلا أنه يكشف لنا معلومات هامة عن طرق بيع وشراء الهُجُن في القرون الثلاثة الأولى للهجرة فبعد البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) نجد إقرار المشتري ويدعى "محمد بن بلغاق" وهو من أسرة اشتهرت بتجارة الدواب ، حيث ورد ذكرها في العديد من العقود والإيصالات المتعلقة ببيع وشراء وتجارة الدواب في العصر الإسلامي ، فقد ورد اسم الأسرة في الوثيقة التي تحمل رقم سجل (P.Cam.Michaelides-inv.B713) بمجموعة ميخاليدس بكامبردج ، والنص كتب على الظهر (Verso) ، وكذلك في الوثيقة رقم (P.Cam.Michaelides.inv.B95-c) كتب على الظهر أيضًا (Verso) ، والوثيقة رقم (P.Cam.Michaelides.inv.B94-c) كتب على الوجه (Recto) ، جميع هذه العقود تتعلق ببيع الهجن ، وبالإضافة إلى ذلك هناك عقود أخرى تتعلق ببيع وشراء الخيول ، كشفت قيام (محمد بن بلغاق) بشراء (فرس) ورد ذلك في بردية عربية محفوظة بنفس المجموعة برقم سجل (P.Cam.Michaelides.inv.B.95-A) ، وعلى العموم فإن ورود اسم هذه الأسرة (ابن بلغاق) في العديد من إيصالات وعقود بيع وشراء الدواب يثبت أنها ربما من الأسر التي اشتهر عنها تجارة هذه الدواب من خيول وهجن وحمير وغيرها . أما البائع الذي ورد اسمه في السطر الرابع ويدعى (نصر بن الربيع) فلم يتكرر اسمه في هذه العقود ، وربما كان رجلاً عادياً أراد أن يبيع دابته لأمر ما ، أما السطور (5،6،7) من نص البردية فقد احتوت على معلومات عن وصف الهجين المبيع وثمانه هكذا : (هجين أشقر أغر - أرجل

الثلث تسع - الدنانير ونصف)، والهجين كما أشرت من قبل هو الحصان الذي ولدته برذونة من حصان عربي، ويشرحها أيضًا صاحب (مختار الصحاح) بقوله: (الهُجْنَةُ) في الناس والخيل إنما تكون من قبل الأم، فإذا كان الأب عتيقًا، أي كريبًا، والأم ليست كذلك، كان الولد هجينًا⁽⁶³⁾. أما وصف هذا الهجين المبيع فبيدئ أولاً بذكر لونه - فهو - (أشقر) أي إن لونه أحمر بحمرة صافية، وأوردها صاحب (المصباح المنير) بقوله: (أشقر) حمرة تعلو بياضًا في الإنسان، وهي أيضًا حمرة صافية في الخيل⁽⁶⁴⁾. أما كلمة (أغر) الواردة في نهاية السطر الخامس، فهي تعني أن هذا الهجين له بياض في سيقانه من (أغر) البياض، ومنها الرجل الأغر أي صبيح الوجه أو السيد في قومه⁽⁶⁵⁾. ويلاحظ أن الكاتب قصد بالغرة هنا "موضع في سيقان وأرجل هذا الهجين" وليست الغرة في جبهته كما هو شائع دائمًا. والدليل على ذلك ورود كلمة أرجل في مطلع السطر (6) من نص البردية، كما يلاحظ أن الكاتب لم يلحق الحرف (الثاني) بالراء لتكون الكلمة (الأرجل) فجاءت الكلمة مفككة كما هو واضح في الصورة المرفقة (لوحة رقم 4)، والقراءة الصحيحة هي (الأرجل) لأنها أيضًا تتمشى مع سياق النص في السطرين (5،6). بعبارة (أغر الأرجل) وليس (أغر الرجل) كما تعتمد قراءتها الباحث يوسف راغب ولم يعلق عليها⁽⁶⁶⁾. أما الثمن الموضوع في شراء هذا الهجين فهو (9.5) دينار، ولعل ورود ذكر نصف الدينار في السطر (7) من نص البردية ربما يشير إلى حدوث فصال ومناقشات بين كل من البائع والمشتري، خاصة أن المشتري من أسرة لها باع طويل وخبرات في تجارة الدواب، فعمد (محمد بن بلغاق) إلى جعل الثمن تسعة دنانير ونصف، ولم يصل الثمن (لعشرة دنانير)، ربما حسب رغبة البائع الذي كان يرغب في بيعه بهذا السعر، ثم نقرأ في السطرين (8،9) براءة البائع للمشتري من العيوب

(63) الرازي: المصدر السابق ص 691.

(64) المقرئ: المصدر السابق ص 121.

(65) المقرئ: المصدر السابق ص 169.

(66) Yusuf Ragib: Actes de Vente D'esclaves et D'animaux d'Egypt Medievale P.P 50-

التي قد تكون ظاهرة في قوائمه (سيقانه) وهو إقرار من البائع بهذه العيوب التي ارتضاها المشتري (محمد بن بلغاق). أما السطور (10، 11، 12) فقد وردت بها معلومات عن ضمان من البائع للمشتري لأمر ثلاثة هامة هي :

1 - الخمس خصال : وهي كما أشرت من قبل تشمل الألفة والخلو من الأمراض والعيوب الظاهرة والباطنة والقدرة على العمل الشاق والتدريب على الركوب والامتطاء ومعرفة مصدره وأصوله ، جميع هذه الأمور الخمسة تكرر ذكرها في العديد من نصوص إيصالات وعقود بيع وشراء الدواب سواء أكانت خيولاً أم هجنًا أم حبرًا أم بغلاً ... أو غيرها .

2 - تأمين طعام مقداره (مكوك) : وهو مكيال لوزن الشعر اللازم كطعام لهذا الهجين ، وربما كان هذا الطعام بهذه الكمية والتنوعية علامة للتأكيد على صحة هذا الحيوان وضمن سلامته وعنفوانه وقدرته على هضم هذه الكمية من الطعام خلال الأيام الثلاثة المنصوص عليها في الإيصال .

3 - العهد من السرقة : أي يضمن البائع (نصر بن الربيع) للمشتري (محمد بن بلغاق) عدم سرقة هذا الهجين ، وربما كان المقصود بهذه العبارة أن البائع يضمن للمشتري تسليم الهجين مرة أخرى إليه في حالة عودته وشروده لصاحبه الأول مرة أخرى ، حيث حظيرته التي اعتاد عليها في منزل صاحبه الأول وتعوده على من قام بتربيته ، وهو يشير إلى أن البائع والمشتري ربما كانا من قرية واحدة أو قريتين متجاورتين ، وفي السطور الأخيرة (14 - 16) نجد عبارات تفيد تاريخ البيع باليوم والشهر ، ولا نجد ذكر للسنة التي تم فيها البيع كما هو شائع في نصوص العديد من العقود والإيصالات المتعلقة بتجارة الدواب .

2 - إيصال بيع هجين أعور بتسعة دنانير :

هذه الوثيقة النادرة محفوظة أيضًا في مجموعة ميخائيليدس بكامبردج برقم (P.Cam.Michaelides.inv-B95-c)⁽⁶⁷⁾ كتبت على الظهر (Verso) ، أطوالها (16.5 × 7

(سم) ، غير معلوم مكان العثور عليها ، مؤرخة بيوم الاثنين أول شهر رجب ، دون ذكر السنة التي تم فيها تدوين الوثيقة ، كما هو شائع في العديد من الوثائق الشبيهة . تحتوي على كتابة عربية قوامها (15 سطرًا) ، وحالتها جيدة ، والكتابة واضحة ، خالية من الإعجام إلا من حرف التاء في كلمة (تسع) في منتصف السطر السادس ، أيضا يلاحظ أن الكاتب لم يضغظ كتابة النص كما حدث في الوثيقة السابق ذكرها ، بل ظهر النص وبه مساحات بين السطور ، على الرغم من صغر مساحة الورقة ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود تداخل في هيئات بعض الحروف وخاصة البسملة في السطر الأول ، فظهرت كلمتا (الرحمن ، الرحيم) كأنهما كلمة واحدة بشكل متداخل ، والكتابة التي دونت بها الوثيقة كسابقتهما من نصوص البرديات العربية فقد كتبت بأسلوب "الخط اللين" أو ما يسمى "بخط التحرير المخفف" وكما أشرت من قبل فالغرض منه تحرير نصوص عديدة في زمن قصير ، وهو خط سريع الإنجاز عادة ما يستخدم في تحرير مثل هذه الأمور في الأسواق أو في الدواوين .

نص الوثيقة : (انظر اللوحة رقم 5)

1- بسم الله الرحمن الرحيم	2- هذا ما اشترى	3- محمد بن بلغاق من
4- محمد بن حامد هجين	5- أشهب مخذرف	6- الثمن تسع الدنانير
7- والجعل وهو أعور	8- وقد برئ إلية من جرزه	
9- وجميع عيوبه	10- وضمن له الخمس خصال	
11- ومن الشعر مكوك	12- والعهدة من السرقة	
13- على عامر وحسن	14- يوم الاثنين أول	15- يوم من رجب

التعليق على النص :

بُذنت الوثيقة كالعادة بالبسملة ، وكما أشرت من قبل فإن الكاتب عمد إلى دمج كلمتي (الرحمن - الرحيم) بشكل متداخل كما هو واضح في الصورة المرفقة (لوحة رقم 5) ، ثم إقرار من المشتري (محمد بن بلغاق) بشراء هذا الهجين من شخص يدعى (محمد بن حامد) ، ولم يتكرر اسمه كثيرًا في نصوص البرديات العربية وخاصة تلك المتعلقة ببيع وشراء الدواب ، وربما كان شخصًا عاديًا أراد بيع هذا الهجين لظروف خاصة به . ثم ورد

في السطر الخامس وصف هذا الهجين في كلمتين فقط (أشهب مخدرف) ، فكلمة أشهب تفيد أن لونه يغلب بياضه على سواده⁽⁶⁸⁾ ، ومنها الشَّهْب والشَّهْبَة بمعنى بياض يتخلله سواد⁽⁶⁹⁾ ، أما كلمة (مخدرف) فتعني السريع المشي ، ومنها كلمة الخدروف من الدواب أي السريعة السير التي ترمي الحصى من سرعتها ، أو تلك التي ترفع رجليها إلى شق بطنها عند السير⁽⁷⁰⁾ .

ثم ورد في السطر السادس ما يفيد ثمن هذا الهجين فقد بيع "بتسعة دنائير" والسطر السابع كشف في بدايته أن هذا الثمن شمل أيضًا قيمة الدلالة أو السمسرة بمعنى (الجُعَل) كما ورد في نص الوثيقة ، ثم أقر البائع للمشتري أن هذا الهجين به عيب وهو (أعور) كما ورد في نهاية السطر السابع ، فالأعور هو ما نقصت أو غارت عيناه ، ومنه قيل كلمة (عوراء) لقبحها ، وقيل أيضًا للسوء (عورة) لقبح النظر إليها . وكل شيء يستره الإنسان أنفة وحياء قيل له عورة⁽⁷¹⁾ . أما السطران (8 ، 9) من النص ففيهما عبارتان تدلان على براءة البائع من عيوب أخرى غير العور ، فهناك أيضًا (الجرز) بمعنى النهم ، أي أكله بسرعة ومنها الجرؤز أي الأكل الذي لا يترك شيئًا على المائدة ، ويقال : (جرز ما على المائدة) ، أي أكله ولم يترك منه شيئًا⁽⁷²⁾ . ثم هناك إقرار من البائع بعيوب أخرى لم يذكرها ، وإنما اكتفى فقط بذكر عبارة (وجميع عيوبه) في سطر كامل وهو السطر التاسع ، ثم نقرأ في السطرين (10، 11) الضمان المعتاد في مثل هذه الوثائق ، وهو "الخمس خصال" السابق ذكرها في الوثيقة السابقة ، وكذلك الطعام المعتاد وهو مكوك بمعنى "مكيال من الشعير" للتأكد من سلامته وقدرته على تناول هذه الكمية من الطعام ، أما السطران (12 ، 13) فيلاحظ أنهما يفيدان ضمان عدم السرقة ، وتكفل بهما شخصان لم يذكر من اسميهما سوى الاسم الأول فقط ، ربما لشهرتهما في حراسة الدواب وهما (عامر وحسن) وهي المرة الأولى التي يرد فيها ذكرهما في نصوص البرديات العربية المتعلقة ببيع وشراء

(68) المقرئ : المصدر السابق ص 124 .

(69) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 406 "اللغة" .

(70) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 171 "اللغة" .

(71) المقرئ : المصدر السابق ص 166 .

(72) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 86 "اللغة" .

الدواب ، أما السطران الأخيران (14 ، 15) من النص فهما يفيدان تاريخ تحرير هذا البيع وهو يوم الاثنين أول يوم من شهر رجب ، وكالعادة التي تكررت في العديد من إيصالات بيع وشراء الدواب ، لم يرد ذكر للسنة التي تم فيها تنفيذ هذه الصفقة، وإنني أرجح أن تكون إحدى السنوات في القرنين 2 - 3هـ / 8 - 9م .

3- إيصال بيع هجين أشهب مخدرف بتسعة دنانير :

هذا الإيصال محفوظ أيضًا في مجموعة ميخاليدس بكامبردج ، وهو من الإيصالات النادرة الخاصة ببيع وشراء الدواب خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، لما تضمنته العبارات الواردة به من معلومات هامة عن أساليب بيع الدواب ، والشهود الواردة ضمن صيغة النص وهو يحمل رقم سجل (P.Cam.Michaelides-inv.B-Q-31)⁽⁷³⁾ والنص مكتوب على ظهر الورقة (Verso) . والإيصال صغير نسبيًا فتبلغ أطواله (6.5×16 سم) حالته جيدة ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض الثقوب في ألياف البردية من الجهة اليسرى ، ربما بسبب سوء الحفظ . والإيصال كتب بنفس الأساليب التي كتبت بها الإيصالات السابق ذكرها وهو أسلوب (خط التحرير المخفف) أو ما يطلق عليه أيضًا (الخط اللين) ، الذي يستخدم عادة في تسجيل العقود والإيصالات بشتى أنواعها ، وهو خط سريع الإنجاز والبردية خالية أيضًا من الإعجام ، إلا في حرف كلمة واحدة وهي كلمة (تسع) في منتصف السطر الخامس ، حيث أعجم حرف (التاء) من الكلمة بوجود نقطتين فوقه .

يلاحظ أيضًا أن الكتابة متداخلة ومفككة بشكل واضح ، خالية من أية دقة أو هيئات زخرفية جمالية ، مما يعكس أن الغرض من الكتابة هو تسجيل عملية البيع والشراء فقط وتدوينها حتى لا يطعن أي من الطرفين في صحة بيع هذا الهجين فيما بعد ، كما يلاحظ أن اسم الكاتب لم يذكر في هذا الإيصال كما هو شائع في سائر الإيصالات السابق ذكرها ، كما لم يذكر أيضًا السنة التي تم فيها تحرير الإيصال وربما كانت إحدى سنوات القرنين 2 - 3هـ / 8 - 9م .

نص الإيصال : (لوحة رقم 6)

- 1 - بسم الله الرحمن الرحيم
 2 - هذا ما اشترى محمد بن
 3 - بلغاق من عاصم
 4 - هجين أشهب مخذرف
 5 - الثمن تسع الدنانير
 6 - والجعل وهو أعور [ر]
 7 - وقد برئ إليه من
 8 - ساير قوايمه
 9 - وزوايده
 10 - وضمن له الخمس خصال ومن الشعر
 11 - مكوك والعهدة من السرقة (على)
 12 - علي بن شبره ؟
 13 - ورخشه ؟ بن عزبه
 14 - وذلك يوم السبت لسبع
 15 - خلون من رجب

التعليق على النص :

بداية يلاحظ أن صيغة هذا الإيصال شبيهة إلى حد كبير بالإيصاليين السابقين ، وذلك من حيث ورود البسملة مع اسم المشتري وهو (محمد بن بلغاق) ، أما البائع فإنه هنا يختلف عن سائر البائعين السابقين ، ولقد أطلق عليه في هذا الإيصال بالاسم الأول منه فقط وهو (عاصم) ، وربما كان شهيرًا لدرجة أنه لم يذكر بقية اسمه كما حدث من قبل في ذكر اسم (نصر بن الربيع) في الإيصال الأول واسم (محمد بن حامد) في الإيصال الثاني ، ربما لشهرته في أسواق الدواب في هذا الوقت من الزمن. والسطر الرابع يتضمن وصف هذا الهجين وهو "أشهب" أي لونه أبيض يتخلله سواد من الشَّهْبَة ، وهو أيضا (مُخْذَرْف) بمعنى أنه سريع المشي والعدو ، بينما تضمن السطر الخامس ثمن هذا الهجين وهو (تسعة دنانير) وكما أشرت من قبل فإن كلمة (تسع) هي الوحيدة المعجمة في الإيصال ، وهي أيضًا مكررة بنفس هذه الهيئة في الإيصال السابق ذكره الذي يحمل رقم سجل (P.Cam.Michaelies.inv.B-95-C) ، وتضمن الثمن أيضًا (العمولة) أو ما يسمى (السمسة) ولقد عبر عنها في الإيصال بكلمة (الجُعْل) وهي أيضا تسمى (الدلالة) ، أي الشخص الذي يتوسط بين البائع والمشتري ، ويلاحظ أن البائع أقر ببعض عيوب هذا الهجين وهي ثلاثة عيوب وردت في السطور (6،7،8،9) بهذه الصيغة : (وهو أعور - وقد برئ إليه من - سائر قوايمه - وزوايده) فالأعور كما ذكرت من قبل هو عيب في الدابة ،

فالعُور هو من "نقصت أو غارت عيناه" وهو قبح في الدابة ، أيضا تبرأ البائع للمشتري من عيوب أخرى في هذا المهجين ، وهي سيقانه وزوايده وربما كان المقصود بها حوافر بالسيقان التي بالقدم وهي التي يعمل لها قطعة حديدية تثبت في الدابة من أسفل بهدف حماية هذا الجزء من الساق ، وهي تعتبر زوائد بالسيقان ، وسميت بالزوايد لأنها تأخذ شكلاً هندسياً كالزاوية ، ومنها زَوَى - الشيء زَوياً نحاه بمعنى منعه⁽⁷⁴⁾ ومنع عنه الشر والأذى ، وهذه القطعة الحديدية تمنع عن حافر الدابة الأذى والألم خاصة عند سيرها على أرض صلبة جبلية أو صخرية وغيرها ، ثم نقرأ في السطرين (10 ، 11) الضمان المعتاد من البائع للمشتري وهو "الخمس خصال" السابق ذكرها في الإيصاليين السابقين ، ثم تأمين طعام مقداره "مكوك من الشعير" لهذا المهجين ، وتأمين آخر من السرقة ، وفي هذا الإيصال اسماً ضامين لهذه السرقة أحدهما يدعى (علي بن شبرة) والآخر يدعى (رخشة بن عزبة) ويلاحظ أن الباحث الأستاذ يوسف راغب قد قرأ الاسم الأول (علي بن شبرة) . ولكن نظراً لعدم وجود إعجام في الإيصال فإن الكلمة يمكن أن تقرأ أيضاً (علي بن شبرة) وذلك لاقتراب الحرف الثالث من شكل حرف (الباء والراء) ، كما أن كلمة (شبرة) ، (شبر) معروفة في اللغة العربية ومنها (الشبر) بالفتح مصدر شَبَر بمعنى الثوب⁽⁷⁵⁾ . أيضاً قرأ الباحث يوسف راغب الاسم الثاني (رخشة بن عرية) واعتقد أن القراءة الصحيحة يمكن أن تكون (رخشة بن عزبة) لأن الإعجام غير وارد في حروف هذه الكلمة ، الأمر الذي يجعلها معرضة لعدة قراءات منها (عزبة) أو (غرنة) أو (غزية) أو (غرثة) أو (غزثة) .. وغيرها . وكلمة (عزبة) واردة في نصوص البرديات العربية عموماً وهي مشتقة من (عزب) بمعنى (بَعُدَ وغاب)⁽⁷⁶⁾ ومنها (العُزَاب) بالضم والتشديد وهم الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء⁽⁷⁷⁾ .

(74) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 312 "اللغة".

الرازي : المصدر السابق ص 279

(75) الرازي : المصدر السابق ص 327 .

(76) المقرئ : المصدر السابق ص 155 .

(77) الرازي : المصدر السابق ص 429 .

أما السطران الأخيران (14 ، 15) فقد تضمنتا تاريخ تحرير الإيصال باليوم والشهر كما هو شائع ، ولم يذكر تاريخ السنة التي تم فيها تحرير الإيصال ، كما لم يذكر اسم الكاتب ، وأعتقد أن كاتب هذه الإيصالات جميعاً ربما كان كاتباً واحداً أو كاتب من أسرة واحدة لها نفس الأسلوب والطريقة في تنفيذ مثل هذه العقود والإيصالات.

رابعاً: إيصالات وعقود بيع حمير وجحوش خلال القرون الأولى للهجرة :

تضمن العديد من نصوص البرديات العربية ، وبعض أوراق الكاغد معلومات هامة عن تجارة الحمير والجحوش ، التي كانت وما زالت تستخدم في التنقل وحمل الأثقال ، ولقد ورد لفظ "الحمير" عدة مرات في كتاب الله تعالى ، منها قوله تعالى: ﴿ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِرَكْبِهَا وَزِينَةٍ وَمَخْلُوقٌ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾⁽⁷⁸⁾ ، فالحمير كما تعرفها قواميس اللغة العربية ، مفردتها حمار وهو عبارة عن حيوان معروف منه ما هو أصلي ، أي مدرب ومستأنس ، ومنه ما هو حمار وحشي وهو جنس من الحُمُر الوحشية أبيض اللون مخطط بخطوط سوداء ، أما الحمار البري فهو حيوان من فصيلة الخيليات هيكله ما بين الحمار والحصان ويعيش في السهول الكبرى المعشبة وفي الجبال أيضاً . والحمار الوحشي حيوان لبون مجتر من فصيلة الأيليات⁽⁷⁹⁾ ، ولا يستخدم في الركوب وسائر الأعمال وحمل الأثقال نظراً لعدم ألفته للآدميين . فهو يعيش هكذا حراً طليقاً في الوديان والصحراء والجبال كقطيع له عاداته وتقاليده وهجراته بين سائر البلدان والقارات . أما الجحوش فهي جمع جَحَش ، والأنثى جَحْشَة ، وهي ولد الحمار أو مهر الفرس تشبه بولد الحمار⁽⁸⁰⁾ ، وعادة تكون صغيرة في السن ، حيث تباع وتشتري لتربيتها وتدريبها على حمل الأثقال والركوب لتحمل فيما بعد مهمة التنقل والسفر . ولقد احتوى العديد من إيصالات وعقود بيع وشراء هذه الدواب العديد من المعلومات والبيانات والإحصاءات المتعلقة بتجاريتها وأوصافها وأثانها وأشهر تجارها وأسواقها وغيرها من

(78) القرآن الكريم ، سورة النحل - آية (8) .

(79) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 153 "اللغة" .

(80) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 80 "اللغة" .

المعلومات التي قلما نجدها في نصوص مواد أخرى غير أوراق البردي والكاغد خلال القرون الأولى للهجرة ، والمتأمل في بعض هذه النصوص يلاحظ أن الكاتب يعطي وصفًا دقيقًا للدابة حمارًا كان أو جحشًا ، وذلك من حيث لون الجلد والعينين والسيقان والرأس والأذنين والكتفين وغيرها ، هذا بالإضافة لصفات أخرى عن الدابة وعيوبها ومميزاتها وجميع الأمور الظاهرة والباطنة دونما غش أو تدليس على المشتري .

1- عقد بيع حمار بعشرة دنانير مؤرخ بسنة 401هـ :

من العقود الهامة والنادرة ، كتب على قطعة من ورق الكاغد أطوالها (14 × 10سم) مؤرخة بيوم الأربعاء 27 رمضان سنة 401هـ الموافق 5 مايو سنة 1011م محفوظة حاليًا في جامعة بروفنس بمرسيليا بفرنسا برقم سجل (P.S.inv-Prove-Ar-5/323) ⁽⁸¹⁾ حالة العقد جيدة ، والكتابات واضحة غير معجمة (منقوطة) ، والكتابة متداخلة في العديد من كلماتها وخاصة في الجزء الأخير من العقد ، والكتابة كما هو شائع في مثل هذه العقود منفذة بأسلوب (خط التحرير المخفف) أو ما يطلق عليه (الخط اللين) وهو كما أشرت من قبل خط سريع الإنجاز ، الغرض منه إنجاز العديد من المكاتبات والمراسلات في زمن يسير ، حيث تختفي منه ملامح الجودة وتنظيم السطور وتساوي المسافات فيما بينها ، كذلك تخلو منه العناصر الفنية والزخرفية في هياكل أبجديات الحروف ، فتظهر الحروف عادة مطموسة ومتداخلة بشكل يصعب معه قراءتها في أغلب الأحيان ، والعقد ورد في بدايته وخاصة في السطر الأول منه كلمة (عقد) بشكل صريح وعبارتها (عقد بيع هذا الحمار) ، وهي عبارة غير مكررة كثيرًا في عقود وإيصالات بيع الدواب عمومًا ، ويلاحظ أن هذه العبارة سبقت البسملة في صيغة العقد ، وربما أضيفت فيما بعد ، نظرًا لأن سُمك الحروف يختلف عن سُمك بقية حروف العقد فيلاحظ أن سُمك السطرين الأولين (قبل البسملة) أدق نسبيًا من سائر حروف كلمات العقد التي جاءت غليظة وسميكة في بعض الأحيان ، الأمر الذي ربما يشير إلى أن الكاتب قد أضافها بعد انتهائه من تسجيل وتدوين عملية البيع . خاصة وأن الحروف على الرغم من صغر حجمها إلا أنها جاءت أيضًا باهتة

(81) Yusuf Ragib : Ibid . PP.61 - 63.

قليلة الخبر نظرًا لاختفاء المداد في القلم بعد انتهائه من تسجيل وتدوين العقد ، فأراد الكاتب أن يضيف هذين السطرين بعد إتمامه صيغة العقد ، فكتبهما في الهامش العلوي للورقة قبل البسملة ، بهذا الشكل المتداخل الذي يصعب قراءته ، يلاحظ أيضًا وجود إعجام في (3) حروف فقط في النص ، حرفان في السطر الثاني بعد البسملة في كلمتي (الحسين ، أزج) حيث أعجم حرفي (النون ، والجيم) في الكلمتين ، أيضًا أعجم حرف (الفاء) في كلمة (الفخوذ) في السطر السادس .

نص العقد : انظر اللوحة رقم (7)

- 1 - كان تثبيت ما في عقد بيع هذا الحمار
- 2 - يوم الأربعاء لثلاث بقي من رمضان سنة إحدى وأربع مائه
- 3 - بسم الله الرحمن الرحيم اشترى بمصر
- 4 - ذكي مولا المكنى بأبي محمد بن أبي الحسين وهو أزج
- 5 - أسمر من حسن بن علي المعروف الصايغ أنزع غاير
- 6 - العينين أختم أصهب اللحية حميله أحمد بن علي بن بغروط ؟ النخاس
- 7 - بالخمير حمار أصحر بشبهة رباع مربع أبيض الخنطم مخطط
- 8 - الأذن والكتفين والفخوذ الثمن ثمانية دنانير وازنه عن ثلث
- 9 - أيام الجعل منها برئ إليه من لين يديه ونعليه ورجليه ومن خيار ثلثه
- 10 - أيام بأكل وشرب وقبض تقابضا وافتراقا عن تراضٍ منهما
- 11 - وذلك في يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر رمضان سنة إحدى وا
- 12 - ربعمائه
- 13 - شهد جعفر بن رزق الله شهد عبيد الله بن حكيم بن عبيد الله على صح
- 14 - على إقرارهم بذلك إقرار البايع والحميل بما
- 15 - فيه
- 16 - شهد محمد بن عبد العلي ؟ البلي على إقرار
- 16 - والحمد لله عزيز حكيم
- 18 - الحمد لله المستعان

التعليق على النص :

بُدئ العقد في السطور الأولى الهامشية بصيغة التوثيق المتعارف عليها ربما في الأسواق، خاصة وأن ختام العقد تضمن شهادة (3) شهود، وكما أشرت من قبل فإن صيغة التثبيت من إنفاذ هذا البيع وردت في سطرين كتباً بشكل متداخل ومتلاصق يصعب قراءته، كما أنها كتبت بحبر باهت ربما لاختفاء المداد بالقلم الأمر الذي يشير إلى أن الكاتب أراد أن يضيف هذه الصيغة بعد الانتهاء من تدوين العقد، وعبرة التثبيت تضمنت ذكر عقد بيع الحمار في يوم الأربعاء الموافق 27 رمضان سنة 401هـ، ثم بعد ذلك وردت صيغة العقد الرئيسية وبُدئت بالبسملة في السطر (3) ألحق بها عبارة (اشترى بمصر)، ومصر المقصود بها هنا ربما كانت (مدينة الفسطاط) وهي المدينة العربية الإسلامية الأولى التي أسسها فاتح مصر عمر ابن العاص سنة 20هـ وأسس بها مسجده الجامع الذي ما زال قائماً حتى اليوم وهو (جامع عمرو بن العاص)، وتذكر العديد من المصادر التاريخية أن هذا الجامع كانت توجد حوله العديد من الأسواق لشتى أنواع وأصناف السلع والحرف والصناعات، وربما كان منها سوق "الدواب والمواشي" فقد أوردت العديد من المصادر التاريخية معلومات وفيرة عن أسواق الفسطاط منها ما أورده المؤرخ ابن عبد الحكم⁽⁸²⁾ فذكر من أسواق الفسطاط (سوق الزياتين)، و(سوق العطارين)، أما (سوق بربر) فقد أشار إليه المؤرخ "الكندي"⁽⁸³⁾ وذكر بأنه سمي بهذا الاسم لنزول قوم من البربر على (كعب بن ضنة) الذي ولي قضاء مصر من قبل الخليفة (عمر بن الخطاب) فنسب هذا الموضع إليهم. وفي هذا إشارة واضحة إلى قدوم العديد من تجار المغرب وشمال أفريقيا للإقامة في الفسطاط خلال القرون الأولى للهجرة⁽⁸⁴⁾. أيضاً من أسواق الفسطاط (سوق وردان) و (سوق الحمام) اللذان كانا يتوسطان دور مسلمة بن مخلد الأنصاري ودور بني وردان، وهما من المنازل المجاورة لجامع عمرو بن

(82) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص 101-103 .

(83) الكندي : الولاية والقضاة ص 561 .

(84) د. حورية عبده سلام : المرجع السابق ص 153 .

العاص بالفسطاط ، كذلك من أشهر أسواق الفسطاط (سوق القناديل) وكان يقع على الجانب الشمالي لجامع عمرو بن العاص ، وظل هذا السوق عامراً مزدهراً وشاهده الرحالة الفارسي ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي⁽⁸⁵⁾ . وسمي بهذا الاسم لأن القناديل كانت توضع على أبواب دور الأشراف التي بالزقاق ، ويذكر ابن دقماق أن سبب تسمية الزقاق بهذا الاسم أنه (كان برسمه قنديل على باب عمرو بن العاص)⁽⁸⁶⁾ . وللتدليل على أن كلمة (مصر) عندما تذكر عادة في بعض نصوص الوثائق التاريخية المبكرة كان يقصد بها (الفسطاط) ما وصل إلينا من قطعة نسيج كتان محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم سجل (3084) نُسِجَتْ على هذه القطعة كتابة عربية باسم الخليفة العباسي الأمين بن هارون الرشيد 194 - 198 هـ / 809 - 813 م ، الكتابة وردت بهذه الصيغة : (بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يد الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين)⁽⁸⁷⁾ ، وورود كلمة "مصر" في هذه العبارة المقصود بها (مدينة الفسطاط) حيث أُنْشِئَتْ بها العديد من مصانع النسيج ومنها "طراز الخاصة" . و"طراز العامة" فطراز الخاصة كان مخصصاً لعلية القوم من أمراء وسلاطين وقادة وأسرهم ، ولقد وصل إلينا من ذلك قطعة نسيج عُثِرَ عليها بالفسطاط ، محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم سجل (7085) أطوالها (18 × 6 سم) عليها كتابة كوفية بسيطة⁽⁸⁸⁾ . نصها : (مما أمر بعمله في طراز الخاصة بمصر سنة أربع وخمسين ومائتين) ، أما "طراز العامة" الذي أشرت إلى قطعة منه باسم الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين ، فالمقصود به مصنع

(85) ناصر خسرو : المصدر السابق ص 60 - 59 .

(86) ابن دقماق (إبراهيم بن محمد المصري) ت 809 هـ / 1406 - 1407 م ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، طبع بولاق 1309 هـ / 1407 م ج 4 ص 13 .

(87) د. زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، طبع بيروت - لبنان سنة 1401 هـ / 1981 ص 184 - 187 .

(88) د. عاصم رزق : مراكز الصناعة في مصر الإسلامية ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة رقم (68) سنة 1989 م ص 35 .

نسيج بالفسطاط كان مخصصاً لصنع أقمشة لعامة الناس . ثم ورد في مطلع السطر الرابع . اسم المشتري ويدعى (ذكي) ولم يرد من اسمه سوى هذا الاسم فقط ثم أُردِفَ الاسم بلقب (مولا) ، وهذا اللقب ورد كثيراً في نصوص البرديات العربية ، إحداها محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة برقم سجل (الطراز رقم 1742) مؤرخة بسنة 249 هـ / 863 - 864 م موضوعها : (إيصال خراج) ورد هذا اللقب ضمن نصوص السطور (9) ، (10) بهذه الصيغة : (بحضرة خليفة محمد بن عيسى مولى أمير المؤمنين)⁽⁸⁹⁾ ، والمولى تستعمل للدلالة على الخليف والجار والتابع والسيد ، واستخدمت كذلك كلقب فخري ، فسرّها صاحب (مختار الصحاح) بقوله : بأنها ضد المعادة ، ومنها الولاية (بالكسر) بمعنى " السلطان " ⁽⁹⁰⁾ ولقد أشار المرحوم الدكتور حسن الباشا إلى أنه كان للموالي شأن في عصبية العرب قبل الإسلام ، ثم عظم شأنهم في الإسلام حتى كانوا سبباً في قلب الممالك ونقل السلطة من دولة إلى دولة⁽⁹¹⁾ ، أيضاً أشار الأستاذ " فيليب متى " إلى أن لفظة الموالى قد استُخدمت في العصرين الأموي ثم العباسي وذلك للدلالة على المسلمين من غير العرب أو الذين لازموا العرب والتجأوا إليهم⁽⁹²⁾ . وكان الموالى يؤلفون طبقة معينة من طبقات المجتمع الإسلامي وأصبح لهم شأن عظيم في تاريخ الإسلام السياسي والحربي والعلمي والديني والأدبي . ولقد أشار السطر الرابع إلى أن المشتري (ذكي) كان مولى لشخص يدعى (أبي محمد بن أبي الحسين) ، وربما لم يرد ذكر اسم المشتري كاملاً وهو (أبي محمد بن أبي الحسين) ، بعد ذلك وردت معلومات عن أوصاف الحمار المبيع فذكر في نهاية السطر الرابع وبداية الخامس أن الحمار (أزج أسمر) . وكلمة (أزج) تعني أن الحمار قد تم نزع وحذف زوائد الشعر ، وأصلها من تزجيج الحواجب مشتقة من زجج الحاجب أي أصلحه وسواه⁽⁹³⁾ . أما لون الحمار فهو (أسمر) ، ثم ورد اسم البائع ويدعى

(89) د. أدولف جروهان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، المجلد (3) ص 145 .

(90) الرازي : المصدر السابق ص 737 - 736 .

(91) د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، طبع مكتبة دار النهضة العربية بالقاهرة سنة 1385 هـ / 1965 م ، ج 3 ص 1170 .

(92) Hitti (F) : History of the Arabs . PP.218 - 232 ..

(93) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 294 " اللغة " .

(حسن بن علي المعروف الصايغ) ، وكلمة (الصايغ) يمكن أن تقرأ أيضًا (الصانع) نظرًا لعدم وجود إعجام في نص العقد ، وكلمة الصائغ كما هو معلوم جمعها (صاغة وصياغ وصواغ) ، وهو الشخص الذي يعالج الفضة والذهب ونحوهما بأن يعمل منهما حلًا وأواني⁽⁹⁴⁾ . وفي نهاية السطر الخامس وبداية السطر السادس ورد وصف آخر لهذا الحمار فهو (أنزع غاير العينين أخشم أصهب اللحية حميلة) ، فكلمة (أنزع) تفيد انحسار الشعر عن جانبي جبهته⁽⁹⁵⁾ . ومنها الرجل أنزع (أي منحسر الشعر بين حاجبيه) ، أما عبارة (غائر العينين) فتعني أن الحمار ليست عيناه جاحظتين أي ليستا بارزتين بل غائرتين في الرأس . وكلمة (أخشم) تفيد أن الحمار ذو أنف عريض أو غليظ ، ومنها (الحُثْمَة) بمعنى عرض الأنف أو غلظته⁽⁹⁶⁾ ، ثم وردت عبارة (أصهب اللحية جميلة) وهي تفيد أن الحمار له شعر أحمر اللون في رأسه ، فالصهوبة تعني احمرار الشعر⁽⁹⁷⁾ . ولقد قرأ الباحث يوسف راغب الكلمة الثالثة في هذه العبارة (حميلة) ونظرًا لعدم الإعجام في الوثيقة فلإنني أرجح قراءتها (جميلة) ، أي أن لحية هذا الحمار وهي "مجموعات الشعر أسفل الذقن"⁽⁹⁸⁾ وهو ما يعبر عنه "باللحية" شكلها أحمر اللون ذات هيئة جميلة ، ثم يلاحظ ورود اسم شخص ثالث لا ندري هل هو مكمل لاسم البائع الذي ورد اسمه في السطر السابق على السطر السادس ويدعى (أحمد بن علي بن بغروط النخاس بالحمير) . وربما كان هو الدلال أو السمسار الذي يتوسط بين البائع والمشتري ، هو الشخص الذي يبيع الدواب وهو أيضًا بائع الرقيق⁽⁹⁹⁾ ، ووروده في النص ربما يشير إلى الشخص المتخصص في بيع وشراء الحمير ، وربما اشتهرت عائلته (ابن بغروط) بهذه الحرفة (النخاسة) . ثم ورد بالسطرين (السابع والثامن) وصف آخر للحمار فهو (أصحر بشبهة رباع مربوع أبيض الخطم مخطط

(94) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 440 " اللغة " .

(95) المقرئ : المصباح المنير ص 229 .

(96) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 169 " اللغة " .

(97) المقرئ : المصباح المنير ص 133 .

(98) الرازي : المصدر السابق ص 595 .

(99) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 796 " اللغة " .

الأذن والكتفين والفخوذ) ، فكلمة (أصحر) تعني أن لونه (أغبر في حمرة)⁽¹⁰⁰⁾ ، وإذا أضيفت إلى هذه الكلمة كلمة (بشَّهبة) أفادت أن لون الحمار به بياض يتخلله سواد ، فكلمة (أشهب)⁽¹⁰¹⁾ وشبهة تفيد البياض الذي يتخلله السواد ، ثم وردت عبارة (رباع مربوع) ، والرباع هو المعدل⁽¹⁰²⁾ والمربوع هو الوسيط القائمة⁽¹⁰³⁾ ، أي إن الحمار معتدل ووسيط القائمة ، ليس به تقوس أو انحناء أو عجز أو عرج ، أما عبارة (أبيض الخطم) فتعني أن مقدم الأنف والفم لونها (أبيض) فالخطم تعني (مقدم الأنف والفم في الدابة)⁽¹⁰⁴⁾ ، والحمار مخطط الأذن والكتفين والفخوذ ، وهو يعطي شكلاً جميلاً بديعاً له ، بالإضافة للوصف السابق ذكره من حيث لون جلده ولحيته ومقدم أنفه وفمه وطوله واستواء ظهره واعتدال قوامه واكتمال هيئته ووردت معلومات في نهاية السطر الثامن تفيد الثمن المدفوع في شراء هذا الحمار ، وهو (ثمانية دنانير) ضربت زمن الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) ذكره المؤرخ القرظي⁽¹⁰⁵⁾ بقوله : "هو الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور كانت مدة خلافته إلى أن فُقد خمساً وعشرين سنة وشهراً وفُقد وعمره ست وثلاثون سنة وسبعة أشهر في ليلة السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة" . ويلاحظ أن الكاتب سجل في السطرين (8،9) عبارة تشير إلى أن (الجُعل) أو الدلالة في شراء هذا الحمار وهي "استخدامه مدة ثلاثة أيام" والعبارة نصها⁽¹⁰⁶⁾ : "عن ثلث أيام الجعل منها" ، ثم في السطرين التاسع والعاشر عبارة البراءة الشهيرة التي ترد دائماً في مثل هذه العقود والإيصالات وهي براءة البائع من بعض العيوب التي قد تطرأ على الدابة ، ونصها : (برئ إليه من لين يديه ونعليه ورجليه ومن خيار ثلاثة أيام بأكل وشرب) ، وهذه العبارة ربما تعني أن البائع غير مسئول أمام المشتري عن نعومة الحوافر الحديدية التي توضع

(100) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 417 " اللغة " .

(101) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 406 " اللغة " .

(102) الرازي : المصدر السابق ص 231 - 230 .

(103) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 246 " اللغة " .

(104) المقرئ : المصباح المنير ص 67 .

(105) القرظي : الخطط - ج 1 ص 354 .

وتثبت في أقدام الحمار، كما توضع أيضًا في حوافر الخيول بغرض حمايتها وتقويتها وتزويدها بشيء حديدي صلب يدعمها ويساعدها على السير في الأماكن الصلبة والصخرية، أيضًا برئ البائع للمشتري من إطعام هذا الحمار لمدة ثلاثة أيام (أكل وشرب) وهي الأيام الثلاثة التي تعهد بها الدلال (السمسار) وهي العبارة التي وردت في السطرين (8،9) ونصها: (عن ثلث أيام الجعل منها) حيث اعتُبر استخدام الحمار لمدة ثلاثة أيام نظير أجرته عن السمسرة أو الدلالة في بيع هذا الحمار، والسطران (8،9) يشير إلى أن كلا البائع والمشتري ارتضيا بنود هذا العقد وتفرقا يوم الأربعاء 27 رمضان سنة 401هـ، ثم يلاحظ وجود أسماء وتوقيعات ثلاثة شهود في ختام النص، وهو شيء لفت للنظر أن يرد أسماء وتوقيعات ثلاثة شهود وردت أسماؤهم على النحو التالي: (جعفر بن رزق الله، وعبيد الله بن حكيم بن عبيد الله، ومحمد بن عبد العلي) وعلى الرغم من تواضع الدابة المبيعة إلا أن ذلك لم يمنع حقيقة من تسجيل كل هذه المعلومات عن البائع والمشتري وتدوين وصف كامل للحمار وتعهد من البائع للمشتري بعدة ضمانات وبرأته من بعض العيوب، ثم تدوين الثمن والشهود وعددهم ثلاثة رجال، كل هذه الأمور تكشف لنا عن مدى دقة حركة البيع والشراء في الأسواق وعناية العرب والمسلمين بهذه الدواب في حياتهم اليومية.

2- إقرار ببيع حمارين بطريق البدل بين مسلم وذمي :

هذا الإقرار النادر كتب على قطعة من ورق (الكاغد) أطوالها 29×19 سم بيضاء اللون، بحالة جيدة. محفوظة في مجموعة جون رايلاندز بمدينة مانشستر في إنجلترا برقم سجل (P.Rylands.inv.Arb.b.1.1) مؤرخة بشهر ذي القعدة سنة 432هـ / أكتوبر 1031م. ترجع أهمية هذا الإقرار إلى أنه يحمل في مضمونه معلومات هامة عن كيفية إجراء البدل في الأسواق، وخاصة من ناحية بيع وشراء الدواب، فطرفا العقد شخصان أحدهما مسلم ويدعى (ذا النون بن عبد الله الحلاوني)، والشخص الآخر ذمي ويدعى (يحنس بن أفراهم) ارتبط اسمه في نص الإقرار باسم خاله ويدعى (إصطفن الراهب)، ربما لشهرة هذا الراهب حيث وردت العبارة بهذه الصيغة "يحنس بن أفراهم ابن أخت

إصطفن الراهب" ، يلاحظ أيضًا أن كلا البائع والمشتري تبادلًا حمارين ، ورد بالإقرار صفة كل حمار على حدة ، فحمار يحنس بن أفراهام (أسود أبروق وعلى رقبته شامة بيضاء) ، وفي عبارة أخرى وردت بالسطر السابع من الإقرار وصف آخر لهذا الحمار ونصها (حمار أسود قارح وعلى رقبته شامة بيضاء) ، أما حمار ذي النون بن عبد الله فجاء وصفه موجزًا فهو (حمار أشهب) ويلاحظ أن الثمن المدفوع في كلا الحمارين (خمسة دنائير حاكمية) ويبدو أن يحنس بن أفراهام هو البادئ في شراء حمار "ذو النون" ، نظرًا للتعهد الذي سجله على نفسه "ذو النون بن عبد الله" ، حيث نقرأ في السطر العاشر من الإقرار ضمائمًا من "ذو النون" ليحنس بعدم التعرض للحمار الذي اشتراه منه "يحنس" كما لا يحق لأحد من أبناء ذي النون استرداده مرة أخرى ، أيضًا يلاحظ وجود ذكر لشهادة ثلاثة شهود في نهاية نص الإقرار ، أما بالنسبة للخط الذي كتب به الإقرار فهو من نوع "الخط اللين" أو ما يسمى (بخط التحرير المخفف) ، وهو كما أشرت من قبل خط سريع الإنجاز ، الهدف منه تسجيل وتدوين العقود في الدواوين والأسواق ، وهو خط خالٍ من الإعجام ، كتابته متلاحقة ومتداخلة يصعب قراءتها على غير المتخصص حتى إن بعض العبارات تظهر كأنها كلمة واحدة ، كما هو وارد في السطور الأخيرة من نص هذا العقد ، وعلى العموم فإن نصوص هذا الإيصال النادر تكشف لنا معلومات هامة عن علاقات حسن الجوار وتبادل المنفعة بين العرب وأهل الذمة خلال القرون الأولى للهجرة .

نص الإقرار : (انظر اللوحة رقم 8)

- 1- بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله
- 2- أقر ذي النون بن عبد الله الحلواني ويحنس بن أفراهام ابن أخت إصطفن الراهب ومعهما حماران
- 3- أحدهما أسود أبروق وعلى رقبته شامة بيضاء ويبد ذي النون حمار أشهب
- 4- ذكر ذي النون بن عبد الله أنه باع ليحنس بن أفراهام ابن أخت إصطفن الراهب الحمار
- 5- المتنوع فيه بخمسة دنائير حاكمية وقبضها منه وأبرأ يحنس بن أفراهام
- 6- من ذلك ومن نقده ووزنه فتسلم منه الحمار المذكور فيه وأحضر يحنس بن أفراهام

- 7- حمارًا أسود قارح وعلى رقبته شامة بيضاء ذكر ذي النون بن عبد الله
- 8- ابتاعه من يحنس بن أفراهام بخمسة دنانير حاكمية وسلم ذلك إليه وأفترقا
- 9- عن تراض منهما ولم يبق بين ذي النون هذا وبين يحنس هذا دعوى ولا طلبه
- 10- ولا قول ولا حجة وضمن ذو النون بن عبد الله ليحنس بن أفراهام الدرك في هذا .
- 11- الحمار ذكر متى ادعى ولده عليه بدعوى كان على ذي النون خلاص يحنس هذا منه
- 12- وليس لواحد منهما على صاحبه في هذين الحمارين خيار وبذلك أشهدا
- 13- على أنفسهما في سلخ ذي القعدة من سنة اثنين وثلثين وأربع ماية شهد على ذلك
- 14- شهد الحسين بن أحمد بن منير على إقرار المقرين بما نسب إلى كل واحد منهما فيه في تاريخه

15- شهد ربيعة بن علي بن سعيد بن حنظلة شهد محمد بن الحسين بن عمر علي

16- على إقرارهما بما فيه في تاريخه إقرار المقرين بما نسب إلى كل واحد

17- منهما فيه وكتب بيده في تاريخه .

التعليق على النص :

كما هو وارد في نص الإقرار بُدئ بالبسملة ، ثم ألحقت بها عبارة (توكلت على الله) وهي تشير إلى الاستعانة بالله العظيم في إنفاذ هذا الإقرار ، ثم السطر الثاني وردت فيه عبارة الإقرار من كلا الرجلين (ذي النون بن عبد الله الحلاوي ويحنس بن أفراهام ابن أخت إصطفن الراهب) ، ويلاحظ إلحاق الدابتين (الحمارين) باسم الرجلين في نهاية السطر الثاني ، أما السطر الثالث فقد وردت به معلومات وافية عن وصف الحمارين ، فالحمار الأول وهو الخاص بيحنس بن أفراهام لونه (أسود أبروق) بمعنى اجتماع اللونين الأسود والأبيض فهو (أبروق)⁽¹⁰⁷⁾ ، وبقية الوصف يتضمن عبارة (وعلى رقبته شامة بيضاء) بمعنى وجود علامة بيضاء على رقبته ، فالشامة هي العلامة المميزة⁽¹⁰⁸⁾ ، ولقد ورد في نهاية هذا السطر عبارة قصيرة تصف حمار ذي النون بأنه (حمار أشهب) ، والحمار

(107) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 35 " اللغة " .

(108) الرازي : غنار الصحاح ص 326 .

الأشهب هو الذي يغلب لونه الأبيض اللون الأسود⁽¹⁰⁹⁾ ، والسطر الرابع وردت به إشارة تفيد قيام البائع (ذي النون بن عبد الله) ببيع حماره للمشتري (يحنس بن أفراهم) الذي ارتبط اسمه بذكر اسم خاله (إصطفن الراهب) ربما لشهرته بين الناس فرغب في إلحاق اسمه بذكر اسم خاله (إصطفن الراهب) ، وبالسطر الخامس وردت إشارة لثمن هذا الحمار وهو (خمسة دنانير حاكمية) وهي ربما تنسب لعهد الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) الذي استمرت فترة حكمه (25 سنة وشهراً) ، وهذا التاريخ الوارد في نص الإيصال يعاصر زمن الخليفة الفاطمي (المستنصر بالله) الذي بويغ بالخلافة في النصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره يومئذ سبع سنين فأقام ستين سنة وأشهرًا في الخلافة⁽¹¹⁰⁾ . وارتباط الدنانير في هذه العبارة باسم (الدنانير الحاكمية) على الرغم من أن الإيصال منسوب لزمن الخليفة الفاطمي (المستنصر بالله) ربما يشير إلى أن الدنانير التي ضربت زمن الخليفة الحاكم بأمر الله ظل استخدامها حتى عهد الخليفة المستنصر بالله ، ولقد ورد بنفس السطرين (الخامس والسادس) عبارة تشير إلى استلام البائع الثمن كاملاً، وتمت براءة المشتري (يحنس بن أفراهم) من هذه الصفقة ، حيث تسلم البائع المبلغ كاملاً صحيحاً من ناحية الوزن والعيار ، حيث وردت عبارة (ومن نقده ووزنه) ، ثم إقرار باستلام المشتري الحمار ، أيضاً هناك إشارة أخرى بإحضار المشتري (يحنس بن أفراهم) حماراً آخر خاصاً به تم بيعه "لذي النون بن عبد الله" وهذا الحمار كما أشارت إليه السطور الأولى من الإقرار وصفه تكرر مرة ثانية في السطر السابع بأنه (حمار أسود قارح وعلى رقبته شامة بيضاء) ، ونفس هذا الوصف تم ذكره في السطر الثالث مع اختلاف في كلمة (قارح) فقد وردت في السطر الثالث بأنه (أسود أبروق) ، بينما في السطر السابع ورد وصفه بأنه (أسود قارح) ، وكلمة (قارح) تعني "غرة بيضاء في جبهة الحمار" وهي بيضاء بقدر الدرهم أو دونه ومنها كلمة (الأقرح) والمقصود بها الصبح لأنه بياض في سواد⁽¹¹¹⁾ . أشار أيضاً النص إلى أن "ذا النون بن عبد الله" اشترى حصان يحنس بن

(109) المقرئ : المصباح المنير ص 124 .

(110) المقرئ : الخطط ج 1 ص 355 .

(111) قاموس المنجد في اللغة والأعلام : المرجع السابق ص 618 " اللغة " .

أفراهام (بخمسة دنائير حاكمية) عن تراضٍ منهما واتفاق، ثم ورد في السطر العاشر من النص تعهد وضمان من البائع الرئيسي وهو "ذي النون ابن عبد الله" وربما كان هو البادئ في إتمام هذه الصفقة، فقد أفاد السطر الرابع ذلك بوضوح بهذا النص (ذكر ذي النون بن عبد الله أنه باع ليحنس بن افراهام) ، ونظرًا لكونه البائع الرئيسي في هذه الصفقة فقد تعهد ذو النون ليحنس بعدم التعرض لهذا البيع أو التشكيك فيه والطعن في توثيقه، أيضًا هناك تعهد من ذي النون بعدم اعتراض أحد من أبنائه على هذه الصفقة، والعبارة نصها هكذا: "متى ادعى ولده عليه بدعوى كان على ذي النون خلاص يحنس هذا منه" أما السطران الثاني عشر والثالث عشر، فقد وردت بهما عبارات تشير إلى إنفاذ الصفقة نهائيًا وليس لأحد على الآخر (طرفي الصفقة) من حجة أو رغبة في استرداد ما تم الاتفاق عليه، وتم إشهادهما على أنفسهما، ثم بعد ذلك تم ذكر تاريخ تحرير هذا الإقرار، وهو سلخ ذي القعدة سنة 432 هـ / أكتوبر 1031 م .

أما بقية السطور وهي ختام الإيصال وهي من (14 - 17) فقد وردت بها أسماء الشهود الثلاثة الذين حضروا تنفيذ هذا الاتفاق، ويلاحظ أن تدوين أسمائهم جاء بشكل متداخل ومتلاحق تصعب قراءته، وربما وقع بعض هؤلاء الشهود بأنفسهم في ختام ذكر أسمائهم وهم: "الحسين بن أحمد بن منير، وربيعه بن علي بن سعيد بن حنظلة، ومحمد بن الحسين بن عمر"، ولعل الدليل على توقيع الشهود بأنفسهم في ختام الإقرار، ما ورد في السطر الأخير منه حيث وردت هذه العبارة: (وكتب بيده في تاريخه) بمعنى أن الشاهد دَوَّن توقيعَه للتأكيد على إثبات حضوره هذه الصفقة .

وفي واقع الأمر فإن مثل هذه العقود والإقرارات تكشف لنا معلومات بالغة الأهمية عن صفقات بيع وشراء الدواب زمن القرون الأولى للهجرة وخاصة إذا كانت بين عرب وأهل ذمة، حيث حظيت هذه التجارة بعناية خاصة من قبل التجار والسياسة، كما وردت بها معلومات عن أوصاف الدواب وأسعارها وأشهر تجارها وغيرها من المعلومات .



لوحة رقم (4) :

إيصال بيع هجين أشقر محجل الرجل اليسرى



لوحة رقم (6) :

إيصال بيع هجين أشهب مخدرف بتسعة دنانير



لوحة رقم (5) :

إيصال بيع هجين أعور بتسعة دنانير

**العلاقة بين الثقافتين العربية والهندية في عهد الخليفة المنصور
(136 : 158 هـ / 754 : 775 م)**

دكتور / محمد عبد الستار البنا

oboiikan.com

العلاقة بين الثقافتين العربية والهندية في عهد الخليفة المنصور

(136 : 158هـ / 754 : 775م)

وسائل الاتصال بين الثقافتين العربية والهندية :

أتيح للمسلمين أن يتصلوا بالهند منذ أن فتحوها أيام الخليفة الوليد عبد الملك في سنة 89 هـ / 708 م على يد محمد بن أبي القاسم الثقفي⁽¹⁾، وزادت معرفتهم بها في العصر العباسي، فنشطت الحركتان التجارية والثقافية بين بلاد الهند والعرب. وهناك الكثير من الأسباب التي قوت الاتصال الثقافي بينهما مثل حركات النزوح والهجرة المتبادلة بين الطرفين، والزواج والمصاهرة، حتى إن كثيرا من كبار المؤلفين والشعراء يتصل نسبهم بالهند، وكثرت الجاليات الهندية في البصرة بالعراق واستعان العرب بخبرتهم الواسعة في مجال الحساب والصيرفة⁽²⁾.

وقد حدث امتزاج ثقافي عربي هندي إذ تعانقت هاتان الحضارتان من خلال طريقتين: الأولى مباشرة؛ وذلك باتصال المسلمين أنفسهم بالهند عن طريقي التجارة والفتح العربي الذي بدأ في العصر الأموي واستكمل في العصر العباسي؛ إذ صارت بلاد السند جزءاً من بلاد الإسلام تخضع لنظامها، وتجري عليها أحكامها، وينتقل المسلمون إليها، كما ينتقل

(1) ابن الأثير (علي بن أبي الكرم) : الكامل في التاريخ ج 5 ص 250 حققه محمد يوسف الدقاق ، ط 1 دار الكتب العلمية بيروت ، 1987 م .

(2) الكتبي (محمد بن شاكر) : فوات الوفيات م 1 ص 201 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، 1973 م ، أبو المعاطي اطهر المهاركجوري : رجال السند والهند إلى القرن السابع الهجري ج 1 / 138 ، 180 - 181 ، 271 ، 275 ، ط 1 ، دار الأنصار 1398 هـ ، حسين الحاج حسن : حضارة العرب في العصر العباسي ص 45 ، ط 1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1994 م .

الهند إلى أنحاء العالم الإسلامي المختلفة . وكل من هؤلاء هؤلاء يحملون ثقافتهم ويتبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السلع ، أما الثانية ؛ وهي الطريقة غير المباشرة فتتمثل في نقل الثقافة الهندية بواسطة الفرس الذين اتصلوا بالهند اتصالاً وثيقاً ، وأثروا فيهم وتأثروا بهم . وأخذوا كثيراً من الثقافة الهندية ، وأدجموها في ثقافتهم ، فلما نقلت الثقافة الفارسية إلى العربية ، وكان معني هذا نقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها⁽³⁾ .

ففي نقل كليلة ودمنة هندية الأصل إلى العربية إشارة إلى ما كان في الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلتهم . وتعتبر مدينة بلخ أهم مركز إيراني امتزجت فيه الثقافتان الفارسية والهندية وكان بها معبد النوبهار البوذي الشهير الذي بناه منوشهر وسرى أن قوماً من مستعربي الهند شاركوا في هذا النقل⁽⁴⁾ .

عراقة الثقافة الهندية واهتمام الخليفة المنصور بالحركة العلمية :

الحقيقة أن الثقافة الهندية تعتبر من الثقافات العريقة من حيث قدم اتصال العرب بها وقد بلغت هذه الثقافة قمة مجدها في القرنين السابع والثامن الميلاديين وهذا ما أشاد به المؤرخون العرب أنفسهم مثل القاضي ابن صاعد الأندلسي⁽⁵⁾ . والجاحظ⁽⁶⁾ . والقفطي⁽⁷⁾ ، وغيرهم ؛ إذ أثنوا على الهند وما بها من نهضة في مجال الحساب وعلم النجوم وأسرار الطب ، وأنها تحتل المرتبة الأولى في مجالات الحكمة والمعرفة وتمتاز بذلك على كل الأمم السابقة .

وإذا كنا لا نستطيع أن ننكر الازدهار الثقافي الذي كانت تعيشه بلاد الهند في تلك الفترة - موضوع البحث - ؛ أي : في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، فإنه على الجانب الآخر نجد أن الدولة العربية الإسلامية قد عظم سلطانها ، واستقرت الأمور بها .

(3) أحمد أمين : ضحى الإسلام 1/ 261 ، الهيئة المصرية للكتاب 1997 ، تقي الدين عارف الدوري : تأثيرات العراق الحضارية ص 525 مقال بكتاب حضارة العراق الجزء الثامن ، بغداد 1985 م .

(4) المسعودي (على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر 1/ 462 ، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ، 1966 ، شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) 3 / 110 ط 9 ، دار المعارف ، 1966 م .

(5) طبقات الأمم ص 9 ، 15 ، 16 ، مصر بدون تاريخ .

(6) رسائل الجاحظ ص 73 ، تحقيق كراوس .

(7) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص 174 مكتبة المتنبي .

ومن ثم بدأ النشاط الثقافي الحقيقي يدب في أوصالها خاصة مع تولي رجل مثل أبي جعفر المنصور أمور الخلافة 136 - 158 هـ ، الذي شيد بغداد سنة 145 هـ / 762 م وجعلها قبلة أنظار الدنيا في ذلك الوقت ، وبذل جهودا جبارة في سبيل إحياء الحركة العلمية وتنشيطها سواء بالترجمة أو غير ذلك من الوسائل الأخرى ، وهذا ما دلَّ على عقليته الواسعة وحبه الشديد للعلم وإيمانه بالدور الخطير الذي يلعبه في حياة الأمة وفي تثبيت دعائم الملك والعمران⁽⁸⁾ .

ومما يثير الانتباه اهتمام الخليفة المنصور بالناحية العلمية ؛ إذ لم يكن من المتوقع أبداً أن يتصرف رجل مثل المنصور شغل أيامه بمحاربة الفتن والمؤمرات ، ومد سلطته إلى أقطار المشرق والمغرب معا وأنكبَّ على إنجاز مشروعه الكبير وهو بناء بغداد ، أن ينصرف في الوقت ذاته إلى رعاية العلوم والآداب ، وأن يفتح بكليته على العلوم التي لم تكن مالوفة لدى العرب كثيراً كالطب والفلك والرياضيات والفلسفة ، فيبعث الرسل لجلب الكتب التي تتحدث عن هذه المواضيع من الأقطار البعيدة ، ويستقدم الأطباء والمهندسين والفلكيين وغيرهم إلى العاصمة لكي ينشر العلوم في ربوع دولته⁽⁹⁾ .

وليس غريباً أن يهتم المنصور بالعلم مع كثرة مشاغله - كما يعتقد البعض - لأنه ينحدر من بيت اشتهر بالعلم ، كما كان هو ممن يميلون إلى العلم وأهله ، ومصدق ذلك تلك الإشارات المتناثرة في المصادر التاريخية التي تشير إلى براعة الخليفة في بعض العلوم الدينية كالفقه ، وسفره في الآفاق لسماع الحديث قبل أن يتولَّى الخلافة ، وحينما تولاها أشارت المصادر إلى ولعه بعلم النجوم وإلمامه بعلم الهندسة⁽¹⁰⁾ . وبذلك لم يكن المنصور

(8) البغدادي (أحمد بن علي) : تاريخ بغداد 1/ 66 - 67 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(9) أبيي سعادة : حركة الترجمة والتعريب في العصرين الأموي والعباسي ص 22 مقال بصحيفة الحياة العدد رقم 11903 ، 1995 م .

(10) الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك 4/ 523 ط 2 دار الكتب العلمية ، بيروت 1988 م ، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : تاريخ الخلفاء ص 213 ، مراجعة وتعليق جمال مصطفى ، القاهرة 1999 م ، العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي) : شذرات الذهب 1/ 244 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ؛ ابن ظافر الأزدي (علي بن أبي منصور) : أخبار الدول المنقطعة ص 106 ، تحقيق محمد بن مسفر ، المدينة المنورة 1988 م .

كغيره من الخلفاء أسيرًا لجمال النساء ، أو مدمنا للخمر ، أو مولعا بالغناء ، ولكنه كان يناصر الآداب والعلوم والفنون⁽¹¹⁾ . أو كما وصفه صاحب الفخري بأنه من عظماء الملوك وعقلائهم وعلمائهم وذوي الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة⁽¹²⁾ .

الاتصال الثقافي بين العرب والهند :

(أ) في مجال الفلك :

الواقع أن الخليفة المنصور أول الخلفاء عناية بالعلوم بصفة عامة ويعلم الهند خاصة ، فقد ترتب على فتح السند والهند حدوث اتصال ثقافي بين شبه القارة الهندية وبلاد الشرق الأوسط والأدنى ، وقد جنى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسبا عظيما للثقافة الإسلامية التي أفادت من تقدم نظيرتها الهندية في شتى مجالات المعرفة من فلك وطب ورياضيات والتي بلغت شأوا بعيدا ، ومن هنا آمن البعض أن المسلمين مدينون للهنداكة أولا لا لليونان بها وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة في فجر حياتهم سواء في الفلسفة أو الرياضيات أو الفلك أو الطب ، ثم طلبوها بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم حبة العلوم واشتد شغفهم بها⁽¹³⁾ .

ومما يؤيد الرأي السابق أن الهند احتلت المرتبة الأولى لا الثانية⁽¹⁴⁾ لدى العرب في مجال العلوم وأن حملة العلم وطلابه أخذوا يقبلون على بغداد من شتى الأقطار ليعرضوا فيها ما يتقنونه من علوم ومعارف . وكان من جراء ذلك أن وفد على الخليفة المنصور جماعة من الهند معهم كتاب في الفلك والرياضيات حملوه إلى بلاط الخلافة فأمر بترجمته إلى العربية ليستفيد مما فيه ، وبذا عرف العرب بعض المعلومات الفلكية والرياضية من الهنود

(11) ول ديورانت : قصة الحضارة م 7 / 89 ترجمة محمد بدران ، الهيئة العامة للكتاب .

(12) محمد ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص 159 دار صادر بيروت .

(13) ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) : المنتظم 8 / 70 تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا ط 1 ،

دار الكتب العلمية بيروت ، 1992 م ، أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية

1 / 71 - 72 ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمايز ، محمد الخضري الدولة العباسية ص 71 تحقيق

وتعليق إبراهيم أمين ، المكتبة التوفيقية .

(14) ديورانت : المصدر السابق 7 / 180 .

قبل أن تصل أيديهم إلى المؤلفات اليونانية مثل كتاب المجسطي الذي وضعه بطليموس في الفلك ، وعلوم الرياضة البحتة التي برزَّ في أغلبها اليونان والهنداكة وغيرهم⁽¹⁵⁾ .

وقد صادف قدوم الوفد الهندي المذكور قبولا لدى المنصور الذي كان شغوفا بعلم التنجيم شأنه في ذلك شأن من سبقه وتلاه من الحكام حيث اهتم اهتماماً زائداً بأحكام النجوم ، وأحب الاطلاع على الكتب التي تحوى هذا الفن ولا غرو في تفضيل علم النجوم على علم الفلك على الرغم من عدم تفرقة الناس بينهم في ذلك الوقت ، فالتنجيم لم ينفصل تماماً عن الفلك إلا في القرن التاسع عشر ؛ لأن الناس بسليقتهم مولعون بالحكايات العجيبة ومعرفة الحوادث المستقبلية وكشف ما يظنونونه سرّاً غريباً مكتوماً⁽¹⁶⁾ .

ومما ساعد على هذه النهضة شغف الخليفة المنصور بهذه النوعية من العلوم وهو ما اتضح في تقريره للمنجمين ذوي الأصول الفارسية واستشارتهم في مختلف أموره⁽¹⁷⁾ .

ولم تقتصر جهود المنصور على مجرد أحكام النجوم وما يتعلق بها ، بل بادر أيضاً إلى العناية بعلم الهيئة أو الفلك المحض مستسقياً موارد الهند ، والذي دعاه إلى ذلك أن رجلاً هندياً يسمى كنكة وقيل لم يعرف اسمه جاء بغداد سنة 154 هـ / 771 م كما قال البيروني⁽¹⁸⁾ ، وقيل سنة 156 هـ / 773 م حسبما جاء لدى ابن القفطي⁽¹⁹⁾ في جملة وفد

(15) دي بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 13-14 ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة 1938 .

(16) كرولونينو : علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى ص 142 - 143 طبع بروما 1911 م .

(17) البغدادي : تاريخ بغداد 10 / 54 - 55 ، ابن كثير (إسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية 10 / 106 تحقيق أحمد فتيح ، ط 5 ، دار الحديث ، القاهرة 1998 م ، ابن العربي (جمال الدين بن هارون) : تاريخ مختصر الدول ص 125 ، حققه أنطوان اليسوعي ، ط 3 ، دار المشرق ، بيروت 1992 ، تاريخ الطبري م 4 / 429 ، ابن الساعي (علي بن انجب) تاريخ الخلفاء العباسيين ص 28 ، مكتبة الآداب ، القاهرة 1993 ، ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم) عيون الأنباء في طبقات الأطباء 2 / 62 - 63 تحقيق عامر النجار ، الهيئة العامة للكتاب ، 2001 م ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص 386 ترجمة عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين ، 1961 م .

(18) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص 208 طبعة لندن 1887 م .

(19) أخبار العلماء ص 270 .

السُّنْد على المنصور واتسم بمهارته في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصا على مذهب كتاب باللغة الهندية أو السنسكريتية اسمه براهمسپهتسند هانت ألفه سنة 6 أو 7 هـ / 628 م الفلكي والرياضي الشهير برهمبكت للملك فيغر ، وقد فسر بعض المؤرخين العرب اسم هذا الكتاب على أنه يعني الدهر الداهر⁽²⁰⁾ . أو الخلود كما ورد عند هونكة⁽²¹⁾ . أو كما يفسره البيروني بأن سدهاند أي المستقيم الذي لا يعوج ولا يتغير ويقع هذا الاسم على كل ما علت رتبته عندهم - أي عند الهند - من علم حساب النجوم وإن كان قاصرا عن زيجاتنا⁽²²⁾ . كذلك خلط المسعودي بين برهمن وهو أحد آلهة الهند وبرهمبكت مؤلف الكتاب⁽²³⁾ ، ثم عكس الترتيب التاريخي الحقيقي للكتب التي ذكرها ؛ لأن ترتيبها الصحيح من وجهة نظر نلينو هو المجسطي ثم الأرجهر يليه السندهند فالأركند وسبب ظنهم هذا هو استعمال أدوار سنين لحساب حركات الكواكب في كتاب السند هند⁽²⁴⁾ .

على أن هناك من لم يوافق نلينو على رأيه ؛ حيث يرى أن السند هند هو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق فقد ألف عام 425 ق . م ووصل إلى قصر الخليفة ثم كتاب كهند كهادكا المعروف باسم أركند ، ثم كتاب آريه بهت المعروف باسم أرجهر ومن أول هذه الكتب يظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسائية والنظام العشري . وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام . وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد في منتصف القرن الثاني الهجري بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال إبراهيم بن حبيب الفزاري ، وأبي الحسن الأهوازي ، ويعقوب بن طارق . عرف العرب هذا كله عند

(20) ابن صاعد : طبقات الأمم ص 78 .

(21) شمس العرب تسطع على الغرب ص 73 ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ط 9 ، دار الآفاق الجديدة ، 1991 م .

(22) تحقيق ما للهند ص 73 .

(23) مروج الذهب ومعادن الجوهر 1 / 57 ، نلينو : علم الفلك ص 150 - 151 .

(24) علم الفلك ص 151 .

الهنادكة قبل أن تصل أيديهم إلى المؤلفات اليونانية الفلكية والرياضية البحتة التي تفوق فيها الإغريق على الهنود وغيرهم⁽²⁵⁾.

هذا وقد حذف العرب ثلثي كلمة براهمسبهد هانت واكتفوا بالثلث الأخير منها وهو سد هانت ثم حَرَفوه قليلاً لملهم إلى المزوجة والإتباع في الكلام وضبطوه على وزن أسماء البلاد التي نقل منها الكتاب فقالوا: السند هند وسماه بعض المتأخرين السند هند الكبير للفرقة بينه وبين كتاب السند هند الذي وضعه الخوارزمي 164-232 هـ / 780-847 م رئيس خزانة بيت الحكمة في عهد المأمون العباسي⁽²⁶⁾، والذي قيل إنه طلب منه تعريب السند هند، والواقع أن المعرَّب الحقيقي هو الفزاري، وأما الخوارزمي فقد قام بتصحيحه فقط⁽²⁷⁾.

وما يهنا هنا هو أن نؤكد أن الهنود هم أصحاب الفضل في وصول رسالة فلكية رياضية قيمة إلى الخليفة العربي المسلم أو أبي جعفر عبد الله المنصور وبفضل استنارته كلف ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه يعتمد عليه العرب في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال واستعان في هذا السبيل بالعالم الفزاري الذي عمل منه زيجاً أي جدولاً فلكياً عرف باسم السند هند ذاعت شهرته بين العلماء العرب حتى بقي معمولاً به إلى أيام المأمون فاختصره له الخوارزمي وعمل منه زيجاً المشهور ببلاد الإسلام وعول فيه على أوساط السند هند وخالفه في التعاديل والميل فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وميل الشمس فيه على مذهب بطليموس⁽²⁸⁾.

(25) دي بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 13-1، الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص 72.

(26) ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب): الفهرست ص 333 تحقيق رضا تجدد بن علي بن زين العابدين، ط 3 دار المسيرة، 8198 م، نلينو: المرجع السابق ص 151.

(27) مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص 130، دار العلم للملايين، بيروت 1987 م، فليب طرازي: خزائن الكتب العربية في الخافقين م 1 ص 50، ط دار الكتب الوطنية بيروت.

(28) ابن صاعد: طبقات الأمم ص 78-79.

وهناك ملاحظة أبداهما نلينو فيما يتعلق بالفزاري معرب السند هند اكتشفها نتيجة الالتباس الذي وقع فيه المؤرخون العرب عند كتابة اسمه ومؤلفاته فهناك فريق من المؤرخين ذكروه باسم أبي اسحق إبراهيم بن حبيب الفزاري مثل ابن النديم⁽²⁹⁾ ، والقفطي⁽³⁰⁾ ، وحاجي خليفة⁽³¹⁾ ، بيد أن الأول والثاني لم يذكر كتاب السند هند ضمن مؤلفاته ، ثم عاد القفطي في موضع آخر من كتابه وذكره في حرف الميم فهو محمد بن إبراهيم الفزاري الذي عمل كتابا على مذهب السند هند وذلك نقلا عن زيج ابن الآدمي المتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري⁽³²⁾ .

وثمة فريق آخر أشاروا إليه على أنه محمد بن إبراهيم الفزاري من أمثال ياقوت الحموي وابن النديم وحاجي خليفة . ويلاحظ أن ياقوت الذي ينقل عن البيروني يدلنا على أن زيج الفزاري لم يكن على أقوال الهند ومذهبهم فقط ، وأن صاحبه قد اقتبس أيضا من أقوال أو كتب غير السند هند⁽³³⁾ . أما ابن النديم فد ذكر بأنه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم عالم صحيح الخط ، وفي موضع آخر قال : إن محمدا واسحق ابني إبراهيم الفزاري من الشعراء الممالك وأنها مقلان⁽³⁴⁾ . أما حاجي خليفة فيذكر : " قصيدة في النحو لابن حبيب محمد بن إبراهيم النحوي "⁽³⁵⁾ . ولعل المقصود هنا مؤلفه قصيدة في علم النجوم وجده حاجي خليفة في أحد مصادره وحفظه واستنبط منه نسبة النحوي للفزاري⁽³⁶⁾ .

ويتهيئ نلينو إلى أنه ليس هناك إلا فزاري واحد اسمه على الأرجح إبراهيم بن حبيب الفزاري وليس محمد بن إبراهيم ، وأن هذا الاسم الأخير إنما نشأ عن خلط الفزاري

(29) الفهرست ص 332 .

(30) أخبار العلماء ص 57 .

(31) كشف الظنون 2 / 17 ، مكتبة المتنبي ، بغداد 1994 م .

(32) أخبار العلماء ص 174 - 175 .

(33) معجم البلدان 1 / 26 طبعة مصر .

(34) الفهرست ص 118 ، 233 - 234 ، المطبعة الرعانية 1348 هـ .

(35) كشف الظنون 2 / 307 .

(36) نلينو : علم الفلك ص 160 - 161 .

الفلكي بالمحدث المعاصر له والمسمى أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ابن الحرث الفزاري المتوفى سنة 188 هـ / 804 م الذي ورد ذكره في الكثير من المصادر التاريخية⁽³⁷⁾. ومن المحتمل أن بعض الباحثين سموا الفزاري الفلكي بأسماء نظيرة للمحدث سهواً، الذي اعتنى بأحكام النجوم والفلك في عصر الخليفة المنصور.

وكعادة ابن القفطي الذي اغتر باختلاف مصادره فجعل من رجل واحد رجلين مثلاً تكرر منه ذلك في المنجم أبي سهل بن نوبخت الذي ذكره في حرف الفاء على أنه أبو الفضل سهل بن نوبخت ثم عاد وأشار إليه في باب الكنى تحت عنوان أبي سهل بن نوبخت⁽³⁸⁾. وفاته أنها رجل واحد⁽³⁹⁾.

هذا وقد ترك لنا الفزاري العديد من المؤلفات مثل كتاب القصيدة في علم النجوم، كتاب المقياس للزوال، كتاب العمل بالأسطرلاب وهو ذات الحلق. كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح. كتاب الزيج على سني العرب⁽⁴⁰⁾. والكتاب الأخير يعني أن الفزاري قد علم في زيج تحويل سني كلب أو مهايك إلى سني هلالية وحساب أوساط الكواكب بالتاريخ العربي؛ وذلك لأن سني الأديوار الهندية سنون نجومية، والسنة النجومية التي وردت في كتاب برهمكيت كان مقدارها 365 يوماً و6 ساعات و12 دقيقة و9 ثوان. ومثل هذا السبب أيضاً جعل الذين اتخذوا مذهب السند هند بعد الفزاري في أزياجهم الأوساط على سني الفرس من تاريخ يزدجرد حيث إن سني الفرس سنون شمسية بسيطة تشتمل على 365 يوماً بدون كسر أو كبس. وأول تاريخ يزدجرد اليوم السادس عشر من شهر يونيه سنة 632 م وهذا ما فعله الخوارزمي، أو على سني العرب وهذا ما فعله مسلمة المجريطي. وفي زيج الفزاري وسائر أزياج أصحاب مذهب السند هند حسبت أوساط الكواكب لدائرة نصف النهار المارة بأزين التي زعموا أن موقعها في

(37) ابن كثير: البداية والنهاية. 1 / 216، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 229.

(38) أخبار العلماء ص 168، 266.

(39) نلينو: المرجع السابق ص 61.

(40) ابن النديم: الفهرست ص 332.

منتصف المعمور من الأرض أي تسعين درجة عن شرقي دائرة نصف نهار الجزائر الخالدات التي قد جعلها بطليموس مبدأ تعدد الأطوال الجغرافية ⁽⁴¹⁾.

ومن العلماء الذين عاصروا المنصور وعُثوا بكتاب السند هند وعملوا على نشر تعاليمه يعقوب بن طارق المنجم الذي لا تضع بعض النصوص التاريخية أيدينا على العصر الذي عاش فيه مثل ابن القفطي مثلاً ⁽⁴²⁾، في الوقت الذي يحل هذا اللغز ما ورد عنه لدى البيروني ⁽⁴³⁾. إذ ذكر أن يعقوب استفاد من الحكيم الهندي نفسه الذي نقل عنه الفزاري أيضاً ولكن هناك خلاف بين السنين التي أوردتها الفزاري ويعقوب وبين ما عليه الهند ربما يكون سبب هذا الخلاف من نقل الرجلين أو من إملاء الهندي أو غير ذلك.

وبعد أن يزيع البيروني اللثام عن العصر الذي عاش فيه يعقوب ويوضح استفادته مما ورد في السندهند، فثمة رواية أخرى أوردتها البيروني يلوح منها أن يعقوب المذكور قد سمع عن ذلك الهندي أو ربما هندي ثان وذلك في سنة 161 هـ وهو ما يتضح في قوله: "والذي كان وقع إلينا من أخبارهم (أي من أخبار الهند) عن أبعاد الكواكب هو ما ذكر يعقوب بن طارق في كتابه (في تركيب الأفلاك) وقد استفاده عن الهندي في سنة 161 هـ" ⁽⁴⁴⁾.

وإذا كان نلينو لم يستبعد وقوع خطأ أو سهو من قبل البيروني في ذكره عام 161 هـ وأن المقصود هو عام 154 هـ الذي وصل فيه الوفد الهندي لأول مرة إلا أنه اعتمد على ما ورد لدى البيروني في مواضع أخرى من كتابه قاده إلى تصديق الرواية الثانية الخاصة بوصول هندي ثان سنة 161 هـ حيث وجد أن الكثير مما نقله البيروني من كتاب يعقوب يدل على وجود أشياء وآراء هندية فيه غير موجودة في كتاب الفزاري وكأن يعقوب أوسع منه معرفة بكتب الهند وأكثر اطلاعا على أخبارهم. ثم إن يعقوب استفاد أيضاً من كتاب هندي غير السندهند هو كتاب الأركند الذي روى عنه عرض مدينة أزين ومقدار نصف

(41) نلينو : علم الفلك ص 164 .

(42) أخبار العلماء ص 247 .

(43) تحقيق ما للهند ص 208 .

(44) تحقيق ما للهند ص 233 .

قطر الأرض ؛ ولذلك لم ير نلينو ما يستوجب الشك في التأريخ الثاني الذي لا يبعد أن البيروني وجده في كتاب يعقوب نفسه المسمى تركيب الأفلاك⁽⁴⁵⁾ . هذا وقد ترك لنا يعقوب بن طارق عدة مصنفات جيدة فيما يتعلق بعلم الفلك منها كتاب " تقطيع كرجيات الجيب"⁽⁴⁶⁾ ، ومعناه :

حساب جيوب القسي وإثباتها في الجداول . فكلمة كرجية لفظ دخيل أصله الهندي كرجيا أي الوتر المستوي . ولفظ جب مشتق من الاصطلاح الهندي السنسكريتي جيف jiva فأخذه العرب وكتبوه جيب ثم زعموا أنه اللفظ العربي المعروف نفسه فنطقوا جيبا مع عدم العلاقة بين جيب الثياب وذلك الخط المساحي . ومن مؤلفاته أيضا كتاب " ما ارتفع من قوس نصف النهار " ، ويعتقد أن موضوعه معرفة ارتفاع الشمس أو الكواكب الأخرى عن الأفق من قبل ما مضى من ساعات النهار أو الليل ، وكان ذلك من أهم المسائل الفلكية . ومعنى كتابه " الزيج محلول من السندهند درجة درجة وهو كتابان : الأول علم الفلك والثاني في علم الدول " أن زيجه مستخرج من السندهند وأكثر جداوله المتعلقة بعلم حساب المثلثات مثل جداول الجيوب والميل والارتفاعات وما أشبه ذلك كانت محسوبة لكل درجة من درجات الدائرة . أما عبارة " والثاني في علم الدول " فلا يظن أن معناها جداول تاريخية للملوك والخلفاء على غرار ما يوجد في المجسطي لبطليموس وأكثر أزياج العرب لأن مثل هذه الجداول لم تُسمَّ على الدول أبدا ، ولأنها لا نظير لها في التصانيف الهندية التي جرى يعقوب مجراها في زيجه . ولذلك فالمحتمل أن الدول هي أدوار السنين العظيمة الهندية مثل كلب ومهايك ، وبما أنه تتعلق بتلك الأدوار أمور وأعمال كثيرة مثل تحويل الأدوار إلى الأيام الشمسية والقمرية وغير ذلك من تقدير الزمان وتعيين التواريخ فلا غرابة في تخصيص أحد قسمي الكتاب بمسائل الأدوار لما تستوجه من البيان الطويل والشرح المستقصى . ويظهر ذلك بوضوح لمن اطلع على كتب الهند الفلكية أو على كتاب البيروني تحقيق ما للهند⁽⁴⁷⁾ .

(45) علم الفلك ص 166 - 167 .

(46) القفطي : أخبار العلماء ص 247 .

(47) نلينو : علم الفلك ص 171 - 172 .

ومن المحتمل أن يعقوب بن طارق قد استفاد أيضا من تأليف هندي غير السند هند سواه العرب الأركند وهو مذهب هندي في علم النجوم ويخالف السند هند والأرجبهر من حيث حركات الكواكب ومدة العالم⁽⁴⁸⁾. ولكن لا يعرف أكانت بين يديه ترجمة عربية لذلك الكتاب أو أخذ يعقوب فوائده عن معلمه الهندي سماعا فقط. ويرجح نلينو الرأي الأول؛ لأنه قد ورد في كتاب بخط اليد محفوظ بمكتبة ليدن يشتمل على رسالة البيروني في فهرست الكتب التي ألفها قال فيها "وهذبت زيج الأركند وجعلته بألفاظه إذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها لحالها متروكة"⁽⁴⁹⁾. وكذلك قال البيروني: "وهذا العمل هو الذي في زيج الأركند بنقل فاسد"⁽⁵⁰⁾. وأورد شيئا منه في تحويل بعض التواريخ إلى بعض. وهذا برهان قاطع على وجود ترجمة الأركند قبل القرن الخامس للهجرة. وسكوت المؤلفين الآخر فيها ورداءتها وما يعرف من عدم نقل كتب فلكية هندية بعد انتشار كتاب المجسطي لبطليموس بين العرب تدل على أن الأركند كان من تصانيف الهند المنقولة في العصر العباسي القديم فأمكن وجود ترجمته بين يدي يعقوب⁽⁵¹⁾.

وربما عرف العرب زمن المنصور كتاب الفلك الهندي الذي وضعه عالمهم آريه بهت أو آر يهط الرياضي والفلكي الهندي الشهير الذي ظهر في أواخر القرن الخامس الميلادي والمعروف باسم الأرجبهر⁽⁵²⁾. فقد ذكر البيروني أن شخصا يسمي أبا الحسن الأهوازي قد أورد حركات الكواكب في سني الأرجبهر وأنه قام بإثباتها في جداول بيد أنه ساوره الشك في كونها من إملاء الهندي⁽⁵³⁾.

وناقش نلينو ما ورد لدى البيروني فقال: "وإذا كان البيروني أراد بلفظ ذاك الهندي الذي سمع عنه إبراهيم الفزاري ويعقوب بن طارق فيُستشف من كلامه أن الأهوازي

(48) ابن صاعد: المصدر السابق ص 20، البيروني: تحقيق ما للهند ص 206.

(49) الآثار الباقية عن القرون الخالية، المقدمة، نشره سخو، ط لبيسك 1876 - 1878 م.

(50) تحقيق ما للهند ص 226.

(51) علم الفلك ص 12 - 173.

(52) ابن صاعد: المصدر السابق ص 18-19، الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص 71-

72.

(53) تحقيق ما للهند ص 211 - 212.

المذكور معاصر لها ، غير أن نلينو عثر على ما شككه في هذا لأنه وجد في فهرست كتب البيروني المذكور سابقا ما نصه : "وعثرت لأبي الحسن الأهوازي على كتاب في هذا الباب - أي في الأعمال الفلكية الموضحة من دون البراهين الهندسية في زيغ الخوارزمي على مذهب السند هند - ظلم فيه الخوارزمي فاضطرت إلى عمل كتاب الوساطة بينهما" ونحن نعلم أن الخوارزمي ألف زيجه في عصر المأمون فليس من المحتمل أن الأهوازي هذا تلقى علم الهيئة عن الحكيم الهندي الذي أتى بغداد سنة 154 هـ ، ولعل البيروني أخطأ في ظنه أنه أخذ عن إملاء الهندي ⁽⁵⁴⁾ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن كتابي الأركند والأرجهر لم ينالا الشهرة نفسها التي حظي بها كتاب السندهند ولم يعمل بهما علماء الفلك العرب على الرغم من أنه مجرد من البراهين ومع صعوبة الحساب على قواعده لم يزل أساسا لأزياج العرب إلى ابتداء خلافة المأمون ، واتبع مذهبه جملة من الناس وعُتوا بإصلاحه وتهذيبه وإكماله حتى بعد انتشار الرياضيات اليونانية بين المسلمين وتقدمهم ونموغهم في هذه العلوم واشتغالهم بالأرصاد . ففي عهد المأمون وضع محمد بن موسى الخوارزمي جداوله الفلكية محاكيا في وضعها جداول السندهند وخالفه في التعاديل - أي ما يزداد على الأوساط أو ينقص منها لتحويلها إلى المواضع الحقيقية - والميل فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وميل الشمس فيه على مذهب بطليموس فاستحسنه أهل ذلك الزمان من أصحاب السندهند وطاروا به في الآفاق ومازال نافعا عند أهل العناية بالتعديل إلى زمن ابن صاعد ⁽⁵⁵⁾ .

وتوالى ظهور العلماء الذين استفادوا مما ورد في السندهند في عمل أزياجهم ، منهم على سبيل المثال لا الحصر الحسن بن مصباح أو الصباح ⁽⁵⁶⁾ . الذي أثبت في زيجه أوساط الكواكب على مذهب السندهند وتعاديلها على مذهب بطليموس وميل الشمس على ما

(54) علم الفلك ص 173 .

(55) طبقات الأمم ص 78 - 79 ، القفطي : أخبار العلماء ص 270 - 271 ، المباركوري : رجال السند .

والهند 1 / 292 و 2 / 86 ، بول غليونجي وآخرون : موسوعة العلوم الإسلامية م 86 12 ، دار

ومطابع المستقبل .

(56) القفطي : المصدر السابق ص 113 ، ابن النديم : الفهرست ص 386 .

أدى إليه الرصد في زمانه ، وكذلك الحسن بن الخصيب من منجمي القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجري الذي ذكر في كتابه في تحويل المواليده حساب الأوساط بالسندهند وبعض الفلكيين الماهرين في العلوم اليونانية وضعوا أزياجا على مذهب السندهند وأزياجا على مذهب بطليموس والأرصاد الجديدة منهم الفضل بن حاتم النيريزي ، وأحمد بن عبد الله البغدادى المعروف بحبش وكان في زمان المأمون والمعتصم وله ثلاثة أزياج ، أولها المؤلف على مذهب السندهند خالف فيه الفزارى والخوارزمي في عامة الأعمال واستعماله لحركة إقبال البروج وإدباره على رأي ثاؤن السكندري ، واتضح له بها مواضع الكواكب في الطول ⁽⁵⁷⁾ . هذا بالإضافة إلى الحسين بن حميد المعروف بابن الآدمي صاحب الزيج الكبير الذي أتمه بعد وفاته تلميذه القاسم بن محمد بن هشام المدائني المعروف بالعلوي وسماه نظم كتاب العقد أو تعديل العقد وشهره في سنة 308 هـ وقيل 338 هـ وهو كتاب جامع لصناعة التعديل يشتمل على أصول علم هيئة الأفلاك وحساب حركات النجوم على هنا مذهب السندهند وذكر فيه من حركة إقبال الفلك وإدباره ما لم يذكره أحد قبله وقد كان يسمع قبل ظهور هذا الكتاب من هذه الحركة ما لا يعقل ولا ينضم إلى قانون حتى وقع هذا الكتاب وفهم منه صورة هذه الحركة الغريبة وكان ذلك سبب التفرد بها ⁽⁵⁸⁾ .

وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كتب أبو نصر منصور بن عراق رسالة إلى البيروني في علة تنصيف التعديل عند أصحاب السندهند ، وعمل البيروني كتابا في السندهند سماه "جوامع الموجود لخواطر الهند في حساب التنجيم" ومن عُنِي أيضا بتصحيح السندهند محمد بن إسحق بن أستاذ بنداد السرخسي ذكر البيروني تصويباته في أماكن متفرقة من كتاب تحقيق ما للهند ⁽⁵⁹⁾ . وكان من علماء القرن الثالث أو الرابع كما يبدو مما حكاه البيروني في كتاب الآثار الباقية ⁽⁶⁰⁾ ، من معرفته بالمجسطي والأرصاد الجديدة ⁽⁶¹⁾ .

(57) ابن صاعد : المصدر السابق ص 86 ، نلينو : المرجع السابق ص 174 - 175 .

(58) القفطي : نفسه ص 185 .

(59) ص 208 ، 209 ، 210 .

(60) ص 25 .

(61) نلينو : علم الفلك ص 175 .

وظل مذهب السندهند يستعمل في المشرق الإسلامي حتى أوائل القرن الخامس الهجري وكان قد دخل الأندلس أو المغرب الإسلامي بعد منتصف القرن الرابع الهجري بعد ما اختصر مسلمة بن أحمد المجريطي المتوفي سنة 398 / 1008 م زيج الخوارزمي ونقله إلى الحساب العربي ، ووضع أواسط الكواكب لأول تاريخ الهجرة⁽⁶²⁾.

ومن علماء الأندلس الذين عنوا بالسندهند أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمع المهدى ، وكان متحققا بعلم العدد والهندسة متقدما في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم ، وألف زيجا على مذهب السندهند وهو كتاب كبير عبارة عن جزئين أحدهما في الجداول والآخر في رسائل الجداول . وتوفي بغرناطة ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة 426هـ / 1035 م⁽⁶³⁾.

وفي قرطبة نشأ عالم الفلك أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر الغافقي المعروف بابن الصفار وتلمذ لمسلمة المجريطي ثم انتقل إلى مدينة دانية بشرق الأندلس واستقر هناك وقد وضع زيجا مختصرا على مذهب السند سماه مختصر الزيج وللعالم عبد الله بن أحمد السرقسطي كتاب يذكر فيه مذهب السندهند في حركات الكواكب وتعديلها بيد أنه قد وقع في عدة أخطاء تكفل بالرد عليها القاضي ابن صاعد في كتابه الذي ألفه في إصلاح حركات الكواكب والتنبيه على خطأ المنجمين ، وتوفي عبد الله هذا في مدينة بلنسية عام 448هـ⁽⁶⁴⁾ . كذلك أبو إسحاق إبراهيم الزرقاني في غير موضع من كتابه في الأسطرلاب المسمى الصحيفة الزرقالية حساب الأوساط والتعاديل على مذاهب شتى منها مذهب السندهند⁽⁶⁵⁾.

جهود العرب في تطور علم الفلك :

وقبل أن ننتهي من حديثنا عن علم الفلك وكيف انتقل من الهند إلى العرب فلا بد أن نشير إلى التطور الذي أدخله العرب في هذا العلم ويتمثل ذلك فيما شيدوه من مراصد

(62) حسين الحاج حسن : حضارة العرب في العصر العباسي ص 97.

(63) ابن صاعد : المصدر السابق ص 108.

(64) طبقات الأمم ص 109 ، 112 - 113 ، موسوعة العلوم الإسلامية 3 / 123.

(65) نلينو : علم الفلك ص 175 - 176.

اهتمت بها الدولة منذ عهد الأمويين ، وقد أسهمت هذه المراصد في الوصول إلى حقائق علمية جديدة من ذلك ما قاموا به في عهد المنصور بقياس الدرجة الأرضية وكان غرضهم من ذلك تحديد حجم الأرض ومحيطها على أساس أن الأرض مدورة . واهتم المسلمون بأدوات الرصد ومنها الأسطرلاب وهي كلمة يونانية الأصل معناها قياس النجوم ، وأول من طوره عند العرب هو إبراهيم الفزاري الذي لم يكتف هو ويعقوب بن طارق بترجمة السندهند الذي صار نبراسا يسير على هديه علماء الفلك العرب على مدى يزيد على نصف القرن . بل أضاف مترجما جديدا للعلم وذلك حينما تمكن الفزاري من صنع أول جهاز يستعمل في رصد الأجرام السماوية على طريقة الإغريق ، سماه الأسطرلاب⁽⁶⁶⁾ . وهو من مخترعات الإغريق الذين عرفوه هم والسوريون قبل العرب في أبسط صورة إلا أن العرب أتقنوا صنعة هذه الآلة ، وأدخلوا عليها التحسينات وتوسعوا في استعمالها ، وذلك يؤكد وجود روح التجديد والاختراع عندهم . فكانت هذه الآلة لا تقتصر على رصد الكواكب النجوم فقط ولكن استخدمت كذلك في تحديد أوقات الصلاة وتعيين اتجاه القبلة ، وتعيين المواقع واستخراج الارتفاعات وعمق الآبار ، وارتفاع الكواكب ، وفي إيجاد محيط الكرة الأرضية ومعرفة درجات الطول والعرض وحتى حساب الشهور والتواريخ ، وبالإجمال فإنه يقوم بعمليات فلكية تتجاوز الثلاثمائة مسألة يفك لغزها ويحل مشاكلها دون اللجوء إلى القلم والورق إلا ما قل من الأحوال رغم صغر الحجم وسهولة الحمل⁽⁶⁷⁾ .

هذا وقد أدت معرفة العرب بالأسطرلاب إلى الإسهام في تقدم علم الفلك نتيجة للتجربة التي جاءتهم من الملاحظة بإنشاء المراصد في كل مكان واستخدام هذه الآلة وهذا

(66) ابن النديم : الفهرست ص 332 ، عبد الحميد العبادي وآخرون : الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها ص 59 دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الزركلي : الأعلام 4 / 117 ط 10 دار العلم للملايين ، لبنان 1992 م ، عبد التواب يوسف : الحضارة الإسلامية بأفلام غربية وعربية ص 91 ، ط 1 الدار المصرية اللبنانية ، 1994 م .

(67) صبري فارس الهيتي : الفكر الجغرافي ص 213 - 214 مبحث بكتاب حضارة العراق الجزء الثامن ، دار الحرية للطباعة ، بغداد 1985 م ، حسن جبر : أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها ص 329 - 331 ، ط 1 ، دار الكتاب الحديث ، الكويت 1998 م .

ما أدى إلى وضع الأزياج الدقيقة مثل زيغ الفزاري والخوارزمي وغيرهما ، والأسطرلاب أنواع يهمنها منها النوع المسطح أو (ذو الصفائح) وأول ما صنع منه على يد الفزاري⁽⁶⁸⁾ . ولكن لا نعلم هل استخدم في ذلك كتباً سريانية أو يونانية أو كليهما إذ أخذت كتابه أيدي الضياع فلم تنلق إلا اسمه وهو كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح ، أي المستنبط من تسطيح الكرة السماوية مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة عليها . وهذا التسطيح وهو قسم مما يسموه الحديثون علم الظل والمنظور . والحديثون لتقليدهم اصطلاحات الإفرنج بغير ضرورة ولجهلهم علوم العرب تركوا الاصطلاح القديم الصحيح فسموا التسطيح مسقطاً وإسقاطاً⁽⁶⁹⁾ . وألف الفزاري أيضاً رسالة مسماة "كتاب العمل بالأسطرلابات ذوات الحلق"⁽⁷⁰⁾ . وذات الحلق اسم آلة سميت Opravov في كتاب المجسطي لبطليموس وفي كتاب برقلس اليوناني من علماء القرن الخامس الميلادي وهي تشتمل على سبع حلق معدنية متحركة مركبة في بعضها يقاس بها كل ما يقاس بالأسطرلاب المسطح . ومن ألف أيضاً الكتب في الأسطرلاب المسطح وفي ذات الحلق من منجمي المنصور العالم اليهودي الأصل الذي اعتنق الإسلام على يد الخليفة ما شاء الله بن أثري أو أبري⁽⁷¹⁾ ، وقيل إن أقدم ذكر للأسطرلاب عند العلماء المسلمين يعود إلى ما شاء الله المذكور⁽⁷²⁾ . ولكن ضاع أصل كتابه العربي ولم ينج من التلف إلا ترجمة لاتينية لكتاب الأسطرلابات والعمل بها وقد طبعت في أوربا ثلاث مرات في القرن السادس عشر الميلادي⁽⁷³⁾ . وبذلك بلغ صيته أوربا كما سبقه إلى ذلك الفزاري⁽⁷⁴⁾ .

(68) ابن النديم : الفهرست ص 332.

(69) نلينو : علم الفلك ص 147 .

(70) القفطي : أخبار العلماء ص 57 .

(71) العبري : تاريخ مختصر الدول ص 136 ، عصام الدين الفقي : الدولة العباسية ص 180 ، مكتبة نهضة الشر 1987 م .

(72) موسوعة العوم الإسلامية 1 / 30 .

(73) نلينو : المرجع السابق ، ص 147 - 148 .

(74) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص 235 - 238 ، ط 5 ، مكتبة الأنجلو المصرية 1986 م .

ومما سبق يبدو بوضوح شدة تأثير كتب الهند في أوائل نمو علم الفلك عند العرب الذين أخذوا فيما بعد طرقا مهمة كثيرة النفع مجهولة لليونان في حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية . ويتضح أن تأثير علماء الهند في نشأة ميل العرب إلى ذلك العلم الجليل سبق تأثير اليونان ولو بزمان قليل ، ولكن ما كانت العرب لتنال من التقانة والكمال والشهرة في ذلك الفن لو قصرُوا عنايتهم على نقل الكتب الموصوفة إلى الآن لأنها مصنفات عملية مقتصرة على منطق القواعد وشرح استعمال الجداول ، خالية عن البراهين وبيان العلل⁽⁷⁵⁾ .

ومن هنا يبرز دور العرب في الأخذ بيد علم الفلك إلى الأمام وهو ما يتضح في أقوال العلماء العرب والأوربيين على حد سواء فيقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد : " ولكن العرب لم يكتفوا بالنقل أو الترجمة ، وإنما عملوا على تقدم علم الهيئة بما أضافوا عليه من معلومات جديدة ؛ حيث إن علم الهيئة يعتبر العلم العربي الذي ظل يتداول حتى وقت ظهور الطباعة ، بل ما زالت إضافات العرب في هذا العلم تثير الاندهاش في وقتنا الحاضر "⁽⁷⁶⁾ . وتضيف الألمانية " زيغريد هونكه ما نصه " والواقع أنه لا الرومان ولا الهنود الذين ساهموا في تطوير هذا العلم ، وإنما كان من دواعي فخر العرب أن يفعلوا ذلك وحدهم ، وكان لعلم الفلك أن خلص إلى ربيع ساحر " ثم استطردت قائلة في موضع آخر " لا جرم أن علم التنجيم قد وصل بفضل التفات العرب إليه ، إلى عصره الذهبي في وقت كان فيه علم الفلك يحبو كالطفل على الأرض ، أو ينحط خطواته الأولى . وكما كانت الحال في علم الفلك ، كذلك كانت الحال أيضا في علم التنجيم "⁽⁷⁷⁾ .

(ب) في مجال الرياضيات :

مما لا شك فيه أن الهنود يعتبرون أصحاب الفضل أيضا على العرب بل والعالم فيما يتعلق بمسألة الأعداد الحسائية فقد اطلع المسلمون على الأرقام الهندية ومنهم نقلها الأوربيون إلى بلادهم .

(75) نليتو : نفسه ص 180 ، 214 ، أحمد أمين : ضحى الإسلام 1 / 261 .

(76) تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص 235 .

(77) شمس العرب ص 130 ، 169 .

وقبل أن يعرف العرب الأرقام الهندية كانوا قد اقتبسوا عدة طرق حسابية عن أهالي البلاد التي استولوا عليها من أبرزها استخدام الحروف في العد ، تلك الطريقة التي عرفت بحساب الجمل ، أي الترتيب النبطي للحروف العربية . أبجد ، هوز ، حطي إلخ ، بالإضافة إلى الروادف الناقصة تخذ ، ضغط . وهو على النحو التالي أبجد : أ = 1 ، ب = 2 ، ج = 3 ، د = 4 ... وهكذا . وما زلنا نلجأ إلى هذه الطريقة عند تقسيم الموضوعات والفقرات في الكتب والمقالات المؤلفة بالعربية . وكانوا يرمزون للأعداد التي تزيد على الألف بضم الحروف بعضها إلى بعض في نظام تجميعي ضربي على النحو التالي : بخ = 2000 ، أي 2 × ألف ، وطغ = 9000 أي 9 × ألف وهكذا⁽⁷⁸⁾ . كذلك استخدموا كتابة الأرقام بالحروف على النحو الذي نراه في كتابة القرآن الكريم : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾⁽⁷⁹⁾ .

إلا أن هذا النظام لم يعد له قيمة فقد تركه العرب واستعاضوا عنه بالنظام الهندي في الترقيم ، القائم على القيم الوضعية للأرقام أو ما يسمونه بالنظام العشري الذي تستخدم فيه الأرقام التسع المعروفة اليوم ، بالإضافة إلى الصفر كرقم عاشر ، بفضل زيارة الفلكي الهندي لبلاط الخليفة المنصور ومعه كتاب سدھانتا لبراهما جوبتا الذي استخدم فيه الأرقام التسعة والصفر فعربه الفزاري بأمر المنصور إلى العربية⁽⁸⁰⁾ . ويرى البعض الآخر أن الهندي المشار إليه كان معه غير السندهند المذكور رسالة رياضية ساعد الفزاري في ترجمتها للعربية ، فكانت فيما يقال حجر الأساس في الأبحاث الرياضية التي قام بها

(78) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص 21 ، ط 1 ، هدية المقتطف السنوية 1941 م .

(79) سورة يوسف آية 4 ، حسن جبر : أسس الحضارة العربية ص 323 .

(80) ابن النديم : الفهرست ص 333 ، أحمد عبد الرازق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص 44-45 ، ط 2 ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1997 م .

العرب الذين عرفوا من خلالها استعمال الصفر والأرقام الهندية⁽⁸¹⁾. غير أن الشائع معرفة العرب للأرقام عن طريق السندهند فهناك شبه إجماع على أن الكتاب السالف لم يفد العرب منه غير الأرقام⁽⁸²⁾. ويقول آخر: "ومن السندهند يظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسائية والنظام العشري. وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة أشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام"⁽⁸³⁾. ويقول ثالث: "كان قدوم الوفد الهندي إلى بغداد في عهد المنصور حاملا معه كتابا لعالم الفلك الهندي برهمكبت يمثل حدثا عظيما؛ إذ انطلقت من خلاله دراسات عظيمة في مجالي علم الفلك والرياضيات، ومن هذا الكتاب القيم عرف العرب نظام الأرقام والأعداد الهندية"⁽⁸⁴⁾.

وإذا كان الفزاري هو الذي وضع أيدي العرب على الأرقام الهندية فإن علماء القرن الثالث الهجري خاصة الخوارزمي اطلعوا على ما لدى الهنود من أشكال عديدة للأرقام وهذبوا بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية وتستعمل في معظم الأقطار الإسلامية والعربية، وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية وذلك لأن الهنود كانوا يأخذون غبارا لطيفا ويسطونه على لوح من خشب أو غيره ويرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في عملياتهم الحسائية ومعاملاتهم التجارية، وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والأندلس⁽⁸⁵⁾. وقد أشار المؤرخون إلى النوع الأخير ومميزاته وجهود الخوارزمي فقالوا: ومما وصل إلينا من علومهم (أي الهند) في العدد حساب الغبار الذي بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي وهو أوجز حساب وأخصره،

(81) شارف: مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية ص 5 ترجمة أحمد شلبي، ط 8، مكتبة النهضة المصرية، 1986 م، أحمد شلبي: الخلافة العباسية 3 / 241، ط 11، مكتبة النهضة المصرية، 1996 م.

(82) إسماعيل مظهر: نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ص 50 مقالات لمجموعة من الباحثين نشرها زكي محمد حسن، طبعة المقتطف مصر، مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية ص 131.

(83) بول ديرانت: الهند وجيرلنها ص 236-237.

(84) هونكه: شمس العرب ص 74.

(85) محمد جمال وإمام إبراهيم أحمد: البيروني أعلام العرب ص 50-51، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر 1968، طوقان: المرجع السابق ص 21-22.

وأقربه تناولا ، وأسهله مأخذا ، وأبدعه تركيبا ، يشهد للسند بذكاء ، وحسن التوليد وبراعة الاختراع⁽⁸⁶⁾ . والخوارزمي هو صاحب الفضل في تناول تلك الأرقام عن طريق مؤلفاته وكتبه في الحساب فقد أوضحها وبين فوائدها ومزاياها وهذا ما سهل على رجال المال والتجار والموظفين عملهم . وقدم العديد من الأمثلة لتقسيم الميراث بين مستحقيه ، وقد نص على ذلك القرآن ، بطريقة مبسطة بدلا من تلك العمليات الحسابية المعقدة التي كانت شائعة . فالخوارزمي قام بنشر تلك الأرقام بين عامة الناس ، وأخرج بمؤلفاته تلك الأرقام من محيط العلم والعلماء إلى حيز الاستعمال اليومي في المعاملات⁽⁸⁷⁾ .

ومن أجل هذا ينسب الغربيون هذه الأرقام إلى الخوارزمي ؛ لأنه أول من ألف رسالة عربية في علمي الحساب والجبر واستعمل فيها هذه الأرقام ، وعن طريق هذه الرسالة وصلت الثقافة الرياضية إلى الغرب فرأى الأوروبيون الأرقام لأول مرة وأطلقوا عليها اسم الخوارزمي نسبة إلى مؤلف الرسالة التي تعد أساسا لعلم الحساب الحالي⁽⁸⁸⁾ .

(ج) أثر الاتصال الثقافي العربي الهندي في الحضارة الأوروبية :

تقول عالمة الألمانية المنصفة هونكة مشيدة بالفضل الذي أسداه العرب لعلم الفلك : " لقد تناول العلماء العرب علم النجوم ، بعد أن صمت صوت الإغريق إلى الأبد ، فوهبه حياة وهيئوا له وثبة هائلة ودفعوه ليملا الفراغ الثقافي في أوروبا فأحدثوا بذلك أثرا بعيد المدى " ⁽⁸⁹⁾ .

لقد كان علم الفلك من العلوم التي وضع أسسها المسلمون فمكن ذلك للأوروبيين من أن يشيدوا على هذه الأسس الدراسات الأوروبية الحديثة . فقد مر بنا أن الفزاري الذي ترجم السند هند وعمل الأسطرلاب يعد أول فلكي في الإسلام . وبعده جاء الفزاري الخوارزمي فرسم جداول فلكية خاصة به ، وانتفع فيها بما قدمه العلامة

(86) ابن صاعد : طبقات الأمم ص 21 ، القفطي : المصدر السابق ص 175 .

(87) هونكة : شمس العرب ص 87 .

(88) شارف : مآثر المسلمين ص 5 .

(89) شمس العرب ص 126 .

الفزاري من جهد في هذه المادة ، وقد قام الخوارزمي أيضا بدراسة النظام الفلكي الهندي واليوناني ووضع زيجاً سماه السندهند الصغير وهو مختصر من كتاب السندهند الكبير غير أنه خالفه في بعض المسائل . وزيج الخوارزمي جعله من نسختين كبيرى وصغرى . وقد فقدت الجداول الكبيرى وعدل مسلمة المجريطي الجداول الصغرى وفقاً لخط زوال قرطبة . وهي المعروفة أحياناً باسم السندهند الصغير ثم ترجمها يوحنا الأشبيلي وأديلارد أوف باث ، وكان قد تعلم العربية ودرس بمدارس غرناطة وقرطبة واشبيلية - في سنة 1126 م إلى اللاتينية ، فكان أول كتاب من نوعه يترجم إلى هذه اللغة وذاعت شهرته في أوروبا⁽⁹⁰⁾ .

كذلك يذكر أن العالم ما شاء الله الذي عاصر المنصور اتسم بنشاطه في جمع المصادر المختلفة المتعلقة بعلم التنجيم القديم ، من هندية وغيرها ونقلها إلى قصر الخلافة ، وقد وجدت آراؤه في بلاد الغرب فيما بعد آذاناً صاغية ، وكان له أيضاً تلامذة بررة ومريدون كثيرون . وقد ترجمت أعماله إلى اللاتينية . في عام 675 هـ / 1276 م وانتشرت معلوماته في أوروبا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي⁽⁹¹⁾ .

وبالجملة فإن للعرب فضلاً كبيراً على الفلك ؛ لأنهم نقلوا الكتب الفلكية عند الهنود وغيرهم من الأمم المتقدمة وصححوا بعض أغلاطها وتوسعوا فيها ، وهذا عمل جليل لا سيما إذا عرفنا أن أصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في العربية ، وهذا طبعاً ما جعل الأوربيين يأخذون هذا العلم عن العرب فكانوا ، أي العرب ، بذلك أساتذة العالم فيه . وأضاف العلماء العرب واكتشفوا ما أدى إلى تقدم علم الفلك شوطاً بعيداً كذلك جعلوا علم الفلك استقرائياً ولم يقفوا فيه عند حد النظريات كما فعل اليونان . بالإضافة إلى أنهم حرصوا على تطهير هذا العلم من أدران التنجيم⁽⁹²⁾ .

(90) شارف : مآثر المسلمين ص 70 - 73 ، جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي ص

361 دار مصر للطباعة ، موسوعة العلوم الإسلامية 2 / 86 .

(91) هونكه : شمس العرب ص 169 ، موسوعة العلوم الإسلامية 1 / 30 .

(92) طوقان : تراث العرب العلمي ص 68 .

أما فيما يتعلق بالحساب فقد برع العرب في العلوم الرياضية وأجادوا فيها وأضافوا إليها إضافات مهمة أثارت الإعجاب والدهشة لدى علماء الغرب فاعترفوا بفضل العرب وأثرهم الكبير في تقدم العلم والعمران⁽⁹³⁾.

وتعتبر الرسائل الفلكية الرياضية الهندية التي عكف الفزاري على ترجمتها للعربية هي الوسيلة التي أدخلت الأرقام الهندية إلى العالم الإسلامي، بحيث ما كاد يستهل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حتى شاع استعمالها في أقطار المسلمين وعرفوها باسم راشيكات الهند. وعن طريق المسلمين انتقل نظام الأرقام الجديد إلى الغرب الأوربي، فأخذ يحل محل الأرقام الرومانية التي لم يعرف العالم الأوربي غيرها حتى القرن الثالث عشر للميلاد. ويتصف النظام العددي الروماني بالتعقيد الشديد والصعوبة البالغة في إجراء العمليات الحسابية، بحيث كان لا يمكن في ظله أن يرتقي علم الحساب ذلك أن قيمة الرقم في هذا النظام لا يمكن أن تتغير بنقله من منزل أو خانة أخرى، كما هو الحال في نظام الأعداد الهندية، فالخمس في الترقيم الروماني لا تعني سوى خمسة، ولا يمكن نقلها إلى خانة أخرى لتعني خمسين أو خمسمائة أو خمسة آلاف، هذا بالإضافة إلى أن الأرقام الرومانية محدودة العدد تنحصر فيما يلي $500 = C$ $50 = L$ $10 = X$ $5 = V$ $1 = I$ $1000 = M$ فإذا أردنا أن نكتب 383 بالروماني، فإنها تكتب على هذا النحو CCC L نجري بتلك الأرقام عملية حسابية معقدة، فيها من الضرب والقسمة والجذور والكسور بعض الشيء؛ لذلك كان من المتعذر أن يرتقي علم الحساب في ظل هذا النظام. أما نظام الأعداد الهندي الذي استوعبه المسلمون وأوصلوه إلى الغرب الأوربي، فمن الممكن أن تتغير فيه قيمة الرقم حسب وضعه في خانة العشرات أو ما يليها من الخانات الأخرى⁽⁹⁴⁾.

(93) طوقان: المرجع السابق، ص 21.

(94) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحياة الفكرية والعلمية في الإسلام ص 102-104 مقال بكتاب دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، دار المعرفة الجامعية 1999 م، عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص 82، ط 2، دار المعارف، 1987 م، توفيق يوسف الواعي: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص 434-435، ط 1، دار الوفاء للطباعة والنشر 1988 م.

إذن فالفزاري هو الذي أطلعنا على الأعداد الهندية ومع ذلك ينسبها الأوريون إلى الخوارزمي ؛ لأنه استخدمها في تأليفه التي وصلت إليهم ، فقد استورد الأوريون الأرقام الغبارية من المغرب العربي والتي تظهر فيها ملامح الفكر العربي عن الأرقام الهندية وتختلف عنها اختلافا طفيفا مع انحدارها من الهند . وقام بنقل الأرقام الغبارية للأوريين شخص يسمى جربرت تلقى ثقافته في أسبانيا قبل أن يشغل كرسي البابوية باسم سلفستر الثاني 999 - 1003 م فهو أول رجل في الغرب تعلم الأرقام الغبارية ونقلها إلى الغربيين ، ولا تزال الأرقام الأوربية المستعملة الآن أقرب شيها بأرقام الغبار منها بالأرقام الهندية⁽⁹⁵⁾ . ولكن بعض الأوريين لم يعجبهم ذلك الرأي وحاولوا إيهام الناس أنهم عرفوا الأرقام الهندية واستخدموها في القرن الخامس الميلادي وذلك من خلال عشورهم على كتاب وضعه بوتيوس الذي عاش في هذا القرن وعرف تلك الأرقام واستخدمها في عملياته الحسابية وهذا يعني أن الغرب كان على علم بتلك الأرقام قبل أن يسمع عنها العرب بزمان طويل . وظل هذا الادعاء سائدا ثمانية قرون ، ثم جاء من ادعى أن تلك الأرقام وصلت إلى الشرق والغرب في وقت واحد غير أن هذه التخمينات أثبتت خطأها ، فقد ثبت زيف كتاب هندسة بوتيوس ، وأنه ينتمي إلى القرن الحادي عشر فقد أخذ مؤلفه عن عدة مراجع دون أن يذكرها ، من أهمها مخطوطات جربرت الذي أخذ عنها قواعد الجمع والأرقام العربية . إذن فجربرت هو أول من تعلم وعلم الأرقام العربية في الغرب ، ثم إن أول من تعلمها وعلمها في الشرق هو ساويروس مدير المدرسة والدير على الفرات في سنة 622 م . وكلاهما لم يكتب له النجاح في نشرها ؛ لأنهما عرفا الأرقام التسعة فقط ولم يسمعا بوجود الصفر على الرغم من أهميته الكبيرة حيث ترجم كتاب برهما جوبتا بأرقامه العشرة إلى العربية عام 776 م أي بعد ساويروس بفترة كبيرة ، وفي الغرب ترجم كتاب الخوارزمي إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي فعرف الغرب لأول مرة الأرقام العشرة بها فيها الصفر بعد رحيل جربرت⁽⁹⁶⁾ . ولم يستعملوها قبل منتصف القرن الثالث عشر حينما خرجت من الأديرة إلى الحياة العامة بعد صراع مرير ، وكان استعمالها على يد

(95) شارف : مآثر المسلمين ، ص 76 ، ولیم دیورانت : قصة الحضارة 7 / 180 .

(96) هونكه : شمس العرب ص 87 .

لنوردو فيبا نوس الذي تلقى دراسته أيضا على يد مدرس مسلم ، وغدت مؤلفاته حجر الأساس في الرياضة عند الأوروبيين ⁽⁹⁷⁾ .

بالإضافة إلى جربرت قام عالم آخر بدور كبير في نقل نظام الترقيم الهندي إلى أوروبا ونعني به أدلار البائي الذي نقل مؤلف الخوارزمي الذي وضعه في الحساب إلى اللاتينية تحت عنوان الغورتمى ، وهو أول كتاب دخل أوروبا وقد بقي زمنا طويلا مرجع العلماء والتجار والحاسبين والمصدر الذي يعتمدون عليه في بحوثهم الحسابية وبقي الحساب عدة قرون معروفا باسم الغورتمى نسبة إلى الخوارزمي الذي عرفهم الأرقام الهندية ، ووضع بحوث الحساب بشكل علمي لم يسبق إليه . وحلق في سماء الرياضيات وكان نجما متألقا فيها اهتدى بنوره علماء العرب وأوروبا ، فكلهم مدين له ، بل المدنية الحديثة مدينة له بما أضاف من كنوز جديدة إلى كنوز المعرفة الثمينة ⁽⁹⁸⁾ .

وأشادت هونكه بالخوارزمي ومصنفاته في العلوم الرياضية وترجمتها إلى أوروبا فقالت: " وُكِّت للخوارزمي الخلود بتأليفه كتابين مهمين في الرياضيات عرف الأول باسم (حساب الجبر والمقابلة) يضم مجموعة ممتعة من المشاكل الرياضية التي يعيننا أمرها في الحياة العملية . وحينما ترجم إلى اللاتينية في العصور الوسطى حمل معه اسمه العربي لتصبح كلمة الجبر عالمية تخلد اسم صاحبها . وكان كتابه الثاني كتابا تعليميا ، صغير الحجم في علم الحساب ، شرح فيه استخدام نظام الأعداد والأرقام الهندية ، كما شرح طرق الجمع والطرح والقسمة والضرب وحساب الكسور . ونقل هذا الكتيب إلى أسبانية وترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر ، وقد حمل الكتاب المترجم إلى الأراضى الألمانية . وترجع أول نسخة منه إلى عام 1143م وهي مكتوبة بخط اليد وموجودة في مكتبة البلاط بفيينا . ووجدت النسخة الثانية منه في دير سالم وهي محفوظة الآن بها يدلبرج ولم يلبث الألمان أن جعلوا من الخوارزمي شيئا يسهل عليهم نطقه فأسموه algorizmus ونظموا الأشعار باللاتينية تعليقا على نظرياته " ⁽⁹⁹⁾ .

(97) شارف : المرجع السابق ص 79 .

(98) طوقان : تراث العرب العلمي ص 86 - 87 .

(99) شمس العرب ص 75 .

وأود أن أشير إلى مثال آخر يبدو فيه بوضوح تأثير الأوربيين بجهود العرب العلمية في مجال الرياضيات التي دفعت أحد العلماء وهو ليوناردو البيزي المولود سنة 1180م الذي تلقى تعليمه على أيدي أحد المعلمين العرب ، أن يشرع في تعليم الغرب تلك الأرقام بما فيها تلك العلامة " 0 " التي يسميها العرب صفرا . وأخذ عن العرب طريقتهم في كتابة الأرقام من اليمين إلى اليسار ونوه إلى أن تلك الأرقام ساعدتهم على كتابة أي رقم مهما كان ، وأخذ عنهم كلمة الصفر وكتبه باللاتينية Cephirum . وفي إيطاليا تحولت كلمة ليوناردو هذه إلى Zefro ثم إلى Zero وفي فرنسا قال الناس عنه Chiffre بمعنى الرقم الغريب ، وتحورت الكلمة في إنجلترا إلى Zero ، وفي ألمانيا نطقها الناس Ziffer فالغرب استعار من العرب كلمة الصفر عندما استعاروه منهم مع باقي الأرقام الهندية ⁽¹⁰⁰⁾ والثابت أن الغرب لم يعرف الصفر قبل القرن الثاني عشر الميلادي في الوقت الذي تُحدّثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه في القرن الثامن ، وكانوا يرسمونه حلقة . وقد جاء ذلك على لسان شاعرهم مشيرا إلى استخدام الحلقة للدلالة على عدم وجوده :

لتعترضن اسمي لدى العرض حلقة وذلك إن كان الإياب يسير ⁽¹⁰¹⁾

والصفر يعتبر من أخطر النظريات التي اهتدى إليها العقل البشري في الرياضيات ، وفضل العرب فيه عظيم ، كما يتضح من قول أحد الغربيين " إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون إلى غرب أوروبا " ⁽¹⁰²⁾ .

والواقع أن علامة الصفر خطوة عظيمة الأهمية جدا في تصحيح الحساب ، وقد استعملها العرب للدلالة على لا شيء كما يبدو من بيت الشعر التالي :

ترى أن ما أهلكك لم يك ضرني وإن يدي مما بخلت به صفر ⁽¹⁰³⁾

(100) هونكه : المرجع السابق ص 92 - 93 ، شارف : مآثر المسلمين ص 76 ، ديورانت : قصة الحضارة

(101) أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص 360 ط 9 ، مكتبة وهبة 1998م .

(102) جورج يعقوب : أثر الشرق في الغرب ص 22 - 24 ، مطبعة مصر 1365 هـ .

(103) أبو زيد شلبي : المرجع السابق ، ص 360 .

لقد دخلت الأرقام الهندية إلى أوروبا عن طريق الأندلس ، وبوساطة المعاملات التجارية والرحلات التي قام بها بعض علماء العرب والسفارات التي كانت بين الخلفاء وملوك بعض البلاد الأوربية ، وليس المهم هنا تهذيب العرب للأرقام وتوفيقيهم في اختيار هاتين السلسلتين أو إدخالهما إلى أوروبا ، بل المهم إيجاد طريقة جديدة لها - طريقة الإحصاء العشري - واستعمال الصفر للغاية نفسها التي نستعملها الآن⁽¹⁰⁴⁾.

والواقع أن هناك الكثير من الكتاب الأوربيين الذين أنصفوا العرب وأشادوا بدورهم في إثراء الحياة الرياضية العالمية نخص بالذكر منهم الألمانية هونكه التي لخصت فضل العرب على العالم في هذا المجال بقولها : " لقد كان شارلمان ينطق العدد 153 قائلا مائة وخمسين وثلاثة وانقسم الناس بعد ذلك فريقين بعضهم ينطق الآحاد قبل العشرات وبعضهم ينطق العشرات قبل الآحاد ، إلى أن كان القرن الثاني عشر الميلادي حيث استخدم الناس الأعداد العربية ، وبدأوا جميعا ينطقون الآحاد قبل العشرات فيقولون مثلا مائة وثلاثة وخمسين وهكذا اتبع الألمان نظام قراءة الأعداد عند العرب . ولسنا نحن الألمان الناس الوحيدين في هذا ، فكل الأمم المتحضرة اليوم تستخدم الأرقام التي تعلمها الجميع من العرب ، ولولا تلك الأرقام لما وُجدَ اليوم دليل تليفونات أو قائمة أسعار أو تقرير للبورصة ، ولما وجد هذا الصرح الشامخ من علوم الرياضة والطبيعة والفلك . لقد كرمنا هذا الشعب الذي مَنَّ علينا بذلك الفضل الذي لا يقدر عليه ، حين أطلقنا على أرقام الأعداد عندنا اسم الأرقام العربية ، ولكن العرب أنفسهم يؤكدون أنهم قد أخذوا أرقامهم عن الهنود ، وهم يسمونها بالأرقام الهندية " ⁽¹⁰⁵⁾.

(104) طوقان : تراث العرب العلمي ص 22 .

(105) شمس العرب ص 78 ، شارف : مآثر المسلمين ص 75 .

الخاتمة

مما سبق يتبين بجلاء أن الهند أمة ذات حضارة عريقة عرفها العرب قبل الإسلام، ولما وطئت أقدامهم أرضها فاتحين في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي زادت معرفتهم بها وأصبحت جزءاً من بلاد الإسلام وهذا ما أتاح أمام الهنود والمسلمين فرصة الحركة وحرية الانطلاق في بلاد بعضهما البعض مما انعكس أثره على الناحية العلمية التي كان للهنود فيها باع طويل خاصة في الفترة من قبل ظهور الإسلام وحتى القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بخاصة في مجال العلوم والأفكار الفلسفية .

هذا وقد انتقلت الثقافة الهندية للعالم الإسلامي بوسيلتين : مباشرة وغير مباشرة وقد تجلت الطريقة الأولى في ترجمة العلوم الفلكية والرياضية الهندية منها مباشرة إلى اللغة العربية على يد بعض العلماء العرب في الوقت الذي ظهرت فيه الطريقة الثانية في ترجمة التراث الهندي الأدبي من الفارسية التي نقل إليها نتيجة لصلة الجوار بين فارس والهند إلى العربية بواسطة علماء غير عرب ذوي أصول فارسية .

وإذا كان الهنادكة قد تفوقوا على أنفسهم في العصور القديمة ، فإن العرب كانوا من أفضل الأمم في ظل الإسلام وأكثر حرصاً على التقدم العلمي والأخذ بأسبابه وأسعدوا خدمات جليلة إلى الهنود والأوربيين على حد سواء وخاصة بعد اعتلاء خليفة مستنير مثل المنصور كرسي الخلافة فاستكمل فتح السند والهند ، وأفسح صدره للعلم والعلماء مما جذبهم إلى بلاطه ، ولم يشته عن ذلك أن معظم عمره شغله بالقضاء على ما هدد استقرار دولته من فتن ومؤامرات . وكانت النتيجة وصول وفد هندي معه رسائل فلكية وأخرى رياضية في سنة 154 هـ أو 156 هـ إلى قصر الخلافة فأمر العلماء العرب من أمثال إبراهيم الفزاري ويعقوب بن طارق وغيرهما بتعريبها ليستفيد الناس مما ورد بها فكان لهم الفضل في إدخال مذاهب السند هند والأركند والأرجهر الهندية في علم النجوم إلى العربية .

لقد كانت الدراسات التي قام بها العلماء الذين عاصروا المنصور هي النواة الحقيقية لعلم الفلك وتطوره عند العرب فقد وضع الفزاري جدولا فلكيا عرف باسم السند هند الكبير ظل يعمل به حتى عصر المأمون فاستُعيض عنه بزيج الخوارزمي الذي اعتمد فيه على ما ورد بالسند هند غير أنه خالفه في بعض المسائل . كما تلا ذلك وضع العديد من الجداول الفلكية بواسطة العلماء المشاركة والمغاربة معتمدين في ذلك على ما جاء بالسند هند فيما تلا ذلك من عصور . ونقل يوحنا الأشبيلي واديلارد أوف باث جداول الخوارزمي الصغرى التي عدّها مسلمة المجريطي إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي .

ويعود الفضل إلى عالم عربي مثل : الفزاري في صنع أول أسطرلاب عربي على النموذج اليوناني ولم يكتف بهذا بل طوره وحسنه وتوسع في استعماله واستخدامه في أغراض جديدة . وقد ترجمت كتابات العالم ما شاء الله في هذه الآلة إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي وهو ما يعني أن العرب قد أضافوا جديدا للعلم وتقدموا بعلم الفلك وخلصوه من شوائب وأدران التنجيم في وقت كان فيه يحبو كالطفل عند الأمم والشعوب الأخرى ، ونستطيع القول إنه لولا عالم مثل الفزاري ما عرف العالم المتمدّن الأرقام الهندية التي قيل إنها انتقلت للعربية من خلال ترجمته إحدى الرسائل الرياضية التي كانت بصحبة ذلك العالم الذي وفد على الخليفة المنصور ، وإن كان الغرب قد عرف تلك الأرقام من خلال مؤلفات وكتابات الخوارزمي في الحساب حينما ترجموها في القرن الثاني عشر الميلادي إلى اللغات واستخدموها في العمليات الحسابية المختلفة فحلت محل الأرقام الرومانية التي اتسمت بتعقيدها وصعوبة التعامل بها . وقد حفظ الغرب للعرب هذا الجميل فأطلقوا على هذه الأرقام اسم الأرقام العربية في حين وجدنا العرب ينسبون هذا الفضل لأصحابه فسموها الأرقام الهندية . وثمة فريق من الأوروبيين أنكروا هذا الفضل ورأوا أن الحضارة اليونانية لا الهندية هي الأساس في الحضارة العالمية وأنهم عرفوا تلك الأرقام قبل أن يعرفها العرب أنفسهم بفترة طويلة .

بقي أن أشير إلى أن نقل العرب للتراث الهندي لا يقلل بأي حال من الأحوال من شأن العرب ؛ فحسبهم شرف المحاولة ووضع النواة الحقيقية لبذور الحضارة حتى جاء الغربيون ونقلوا هذا التراث من العربية إلى لغتهم وقاموا بدراسات مستفيضة لاستكمال مسيرة النهضة التي بدأها العرب. ولهذا فإنني أضرم صوتي إلى من ينادون بأن الحضارات والأمم يكمل بعضها البعض وليست في صراع للقضاء على بعضها كما يتشدد بعض الغربيين ويحاولون ترويجه الآن .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر

- ابن الأثير (علي بن أبي الكرم ، ت 630هـ) : الكامل في التاريخ ج 5 حققه محمد يوسف الدقاق ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1987 م .
- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم ، ت 688هـ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، حققه عامر النجار ، الهيئة العامة للكتاب 2001 م .
- البغدادي (أحمد بن علي ، ت 463هـ) : تاريخ بغداد ج 1 و 10 ، مكتبة الخانجي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- البيروني (محمد بن أحمد ت 440هـ) :
- الآثار الباقية عن القرون الخالية ، نشره سخو ، طبعة ليبسك 1876 - 1878 م .
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ، طبعة لندن 1887 م .
- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي ، ت 597هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج 8 ، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1992 .
- الجهشيارى (محمد بن عبدوس ، ت 331 هـ) : الوزراء والكتاب ، حققه مصطفى السقا وآخرون ، ط 2 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي 1980 م .
- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله ، ت 1067 هـ) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مكتبة المتنبى بغداد .
- ابن خلكان (أحمد بن محمد ، ت 681 هـ) : وفيات الأعيان ج 2 تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت .
- الذهبي (محمد بن أحمد ، ت 748هـ 1 : تاريخ الإسلام ج 4 ، ط 1 ، دار الغد العربي 1996 م .
- ابن الساعي (علي بن انجب ، ت 674هـ) : تاريخ الخلفاء العباسيين ، مكتبة الآداب القاهرة 1993 م .
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ، ت 900هـ) : تاريخ الخلفاء ، راجعه وعلق عليه جمال مصطفى ، ط 1 ، دار الفجر للتراث ، القاهرة 1999 م .

- ابن صاعد (أبو القاسم صاعد بن أحمد ، ت 462هـ) : طبقات الأمم ، طبع على نفقة عبد الرؤوف الدباغ بمصر .
- ابن طباطبا (محمد بن علي ، ت 709هـ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر بيروت .
- الطبري (محمد بن جرير ، ت 310هـ) : تاريخ الأمم والملوك م 4 ، ط 2 ، بيروت 1988م .
- ابن ظافر الأُردي (علي بن أبي منصور ، ت 613هـ) : أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق محمد ابن مسفر ، مطبعة المدني ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، 1988م .
- ابن العبري (جمال الدين بن هارون ، ت 685هـ) : تاريخ مختصر الدول ، حققه أنطوان اليسوعي ، ط 3 ، دار المشرق ، بيروت 1992م .
- العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي ، ت 1089هـ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .
- ابن القفطي (علي بن يوسف ت 646هـ) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء مكتبة المثنى ببغداد ، ومؤسسة الخانجي بمصر ، كما رجعت إلى طبعة مكتبة المتنبى .
- الكتبي (محمد بن شاعر ، ت بعد سنة 764هـ) : فوات الوفيات والذيل عليها م 1 ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت 1973م .
- ابن كثير (إسماعيل بن عمر ، ت 774هـ) : البداية والنهاية ، ج 10 ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتّيح ، ط 5 ، دار الحديث ، القاهرة 1998م .
- المسعودي (علي بن الحسين ، ت 346هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط 4 ، مطبعة السعادة 1964م ، كما رجعت لطبعة الدار الإفريقية العربية ، ط 2 ، الشركة العالمية للكتاب ، 1990م .
- ابن النديم (محمد بن إسحاق ، ت 438هـ) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد بن علي ، ط 3 ، دار المسيرة 1988م ، كما رجعت إلى طبعة المطبعة الرحمانية سنة 1348هـ .
- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ، ت 626هـ) : معجم البلدان ج 1 ، طبعة مصر .
- اليعقوبي (أحمد بن أبي إسحاق ، ت بعد 292هـ) : تاريخ اليعقوبي م 2 ، دار صادر بيروت .

ثانيا : المراجع العربية والأجنبية العربية والأجنبية :

- إبراهيم أيوب (الدكتور) : التاريخ العباسي السياسي والحضاري ، ط 1 ، الشركة العالمية للكتاب 1989 م .
- أبو زيد شلبي (الدكتور) : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، ط 9 ، مكتبة وهبه ، 1998 م .
- أحمد أمين : ضحى الإسلام / الهيئة العامة للكتاب ، 1997 م .
- أحمد شلبي (الدكتور) : موسوعة التاريخ الإسلامي (الخلافة العباسية مع اهتمامات خاصة بالعصر العباسي الأول / مطبعة الإسرائ ، ط 11 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1996 م .
- أحمد رمضان أحمد (الدكتور) : حضارة الدولة العباسية ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، 1978 م .
- أحمد عبد الرازق أحمد (الدكتور) : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (العلوم العقلية) ، ط 2 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1997 م .
- أحمد محمود السادتي (الدكتور) : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم من الفتح العربي إلى قيام الدولة المغولية 89 - 932 هـ ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمايز المطبعة النموذجية .
- إسماعيل مظهر : نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية مقالات لمجموعة من الباحثين ، نشرها زكي محمد حسن ، طبعة المقتطف ، مصر .
- إيلي سعادة : حركة الترجمة والتعريب في العصرين الأموي والعباسي مقال بصحيفة الحياة العدد رقم 11903 ، 1995 م .
- بطرس البستاني : دائرة المعارف الإسلامية م 11 ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .
- تقي الدين عارف الدوري (الدكتور) : تأثيرات العراق الحضارية مقال بكتاب حضارة العراق تأليف نخبة من الباحثين ج 8 ، دار الحرية للطباعة ، بغداد 1985 م .
- توفيق يوسف الواعي (الدكتور) : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ، ط 1 ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع 1988 م .
- جابر سلامة المصري (الدكتور) : حركة الترجمة إلى العربية في صدر الدولة الإسلامية مقال بمجلة كلية التربية ، العدد الثاني ، الإسكندرية 1989 م .
- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج 3 ، تعليق حسين نصار ، دار الهلال .
- جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي ، دار مصر للطباعة ، الناشر مكتبة الخانجي .

- جورج يعقوب : أثر الشرق في الغرب ، مطبعة مصر ، 1365هـ .
- حسن إبراهيم حسن (الدكتور) : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج2 ، العصر العباسي الأول ، ط8 ، مكتبة النهضة المصرية .
- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف (الدكتوران) : العالم الإسلامي في العصر العباسي ط5 ، دار الفكر العربي .
- حسن جبر (الدكتور) : أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها ، ط1 ، دار الكتاب الحديث ، 1998م .
- حسين الحاج حسن (الدكتور) : حضارة العرب في العصر العباسي ، ط1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1994م .
- خير الدين الزركلي : الأعلام ، ط10 ، دار العلم للملايين ، لبنان 1992م .
- دي بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة 1938م .
- زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، ط9 ، دار الآفاق الجديدة ، 1991م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون (الدكتور) : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، 1999م .
- سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب : ترجمة عفيف البعلبكي ، ط1 ، دار العلم للملايين 1961م .
- سيديو : خلاصة تاريخ العرب ، دار الآثار ، بيروت للنشر والتوزيع .
- شارف : مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية ، ترجمة وتعليق أحمد شلبي ، ط ، مكتبة النهضة المصرية .
- شوقي ضيف (الدكتور) : تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، ط9 ، دار المعارف 1966م .
- صبري فارسي الهيتمي (الدكتور) : الفكر الجغرافي مبحث بكتاب حضارة العراق الجزء الثامن ، دار الحرية للطباعة ، بغداد 1985م .
- عامر النجار (الدكتور) : في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ، ط2 ، دار المعارف 1987م .
- عبد التواب يوسف : الحضارة الإسلامية بأقلام غربية وعربية ، ط1 ، الدار المصرية اللبنانية 1994م .
- عبد الحفيظ أظهر المباركوري : رجال السند والهند إلى القرن السابع الهجري ، ط1 ، مطبعة التقدم ، دار الأنصار بالقاهرة ، 1398 هـ .

- عبد الحميد العبادي وآخرون (الدكتور) : الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .
- عبد السلام الترماني (الدكتور) : أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين ، الجزء الأول في مجلدين ، مطبعة العجلوني ، ط2 ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، 1988 م .
- عبد المنعم ماجد (الدكتور) : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ط5 ، مطبعة حسان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1986 م .
- عصام عبد الرؤوف الفقي (الدكتور) :
 - الدولة العباسية ، الناشر مكتبة نهضة الشرق ، 1987 م .
 - الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ، دار الفكر العربي 1999 م .
- غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعير ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- فتحية النبراوي (الدكتورة) : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، ط9 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1999 م .
- قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ط1 ، هدية المقتطف السنوية ، 1941 م .
- كرولنيلنو : علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، طبع بروما 1911 م .
- محمد جمال الفندي ، إمام إبراهيم أحمد (الدكتوران) : البيروني ، سلسلة أعلام العرب 77 ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، 1968 م .
- محمد الخضري : الدولة العباسية ، تحقيق وتعليق إبراهيم أمين محمد ، دار التوفيقية للطباعة .
- محمد رضوان الداية (الدكتور) : أعلام الأدب العباسي ، ط2 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت 1980 م .
- مصطفى الشكعة (الدكتور) : معالم الحضارة الإسلامية ، ط5 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1987 م .
- نخبة من العلماء . موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ، حققها وراجعها بول غليونجي وآخرون ، دار ومطابع المستقبل .
- ول ديورانت : قصة الحضارة المجلد الرابع ، ترجمة محمد بدران ، مطابع الدعوى ، كما رجعت إلى المجلد السابع ، طباعة نهضة مصر للطباعة والنشر .

oboi.kan.com

**أضواء على الأوقاف بإفريقية
خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة**

أ . د . حسين سيد عبد الله مراد
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
معهد البحوث والدراسات الإفريقية
جامعة القاهرة

oboiikan.com

أضواء على الأوقاف بإفريقية خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة

المقدمة :

الحمد لله الذي أمر بالعدل والإحسان ، سبحانه وتعالى رفع من أنفق في سبيل الله إلى الدرجات العلا ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

لا يخفى على أحد ما كان يمثلُه الوقف في حياة المجتمعات الإسلامية فهو نبض الحياة في تلك المجتمعات لما له من دور هام في رقيها وتطورها . فالوقف عمل خيري يخصص ريعه لأعمال البر والتقوى ، وقد أخذ المسلمون بهذا النظام منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا ، فالوقف سُنَّة متبعة منذ أيام الرسول وإلى الآن . وأصبح ملاذًا للفقراء وملجأً للمحتاجين ، وأهم موارد التعليم الإسلامي وإليه يرجع الفضل في بقائه واستمراره . كما كفل تشييد بيوت الله وتعميرها بالإضافة إلى تقديم كافة الخدمات الاجتماعية مثل توفير مياه الشرب والرعاية الصحية . وفي إفريقية خلال الفترة الزمنية للدراسة كفل الوقف الأمن والطمأنينة للسكان وبث روح الجهاد والمرابطة في سبيل الله .

لذلك كانت دهشتي كبيرة حين قرأت في دراسة بعنوان "الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" ⁽¹⁾ أن الحكومة التونسية منعت الحبس أي الوقف بعد الاستقلال عام 1956 . كيف يمنع الحبس وهو يعد المؤسسة التنموية التي أعانت أمتنا الإسلامية علي أن تنهض في كافة مجالات الحياة ؟ لقد كان هذا الخبر دافعاً لي للبحث عن

(1) أحمد قاسم : الوقف في تونس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بحث منشور في كتاب الوقف في العالم الإسلامي أداة سلطة اجتماعية وسياسية ، تقديم أندريه ريمون ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، 1995 .

الوقف في تلك البلاد خاصة في الفترة المبكرة من تاريخها الإسلامي وبالتحديد خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ، والبحث في دوره الهام في تلبية العديد من حاجات المجتمع التونسي الدينية والاجتماعية والثقافية والأمنية . وقد أقدمت على هذه الدراسة بالرغم من صعوبتها لانعدام الوثائق الخاصة بالوقف في فترة البحث ، كما أن الإشارات الخاصة بالوقف كانت قليلة ومبعثرة في ثنايا المصادر المتاحة حالياً وهي مصادر تاريخية وجغرافية ورحلات ، وكتب طبقات وتراجم ، وكتب فقه ونوازل . وبالنسبة للتحديد المكاني للدراسة وهو إفريقية فإنني أقصد بها البلاد التونسية الحالية ، ولا أقصد التحديد القديم الوارد عند الجغرافيين العرب والذي يشمل منطقة أوسع وهي المنطقة الممتدة من طرابلس غرباً إلى بجاية شرقاً .

وختاماً أسأل الله أن يغفر لنا أخطائنا في اجتهادنا ، إنه نعم الموفق والمعين .

الحبس والوقف واحد وهما كالمترادفين ، والحبس غالب استعمال المالكية ، ويقال حبست فرنسا في سبيل الله فهو محبس وحبس . والحبس بالضم ما تم وقفه في أعمال البر ، ويطلق عليه أيضاً لفظ الصدقة ⁽²⁾ . أما الوقف مصدر وقف فيقال وقف الشيء أي وقفه وحبسه وسبّله ، ويسمى وقفاً لأن العين موقوفة ⁽³⁾ . أما كلمة أوقف فلغة رديئة لأنها تعني الوقوف ⁽⁴⁾ .

ويعرف ابن سحنون الوقف بمنع صاحب الوقف من الانتفاع بوقفه ، ومنعه من التصرف في العين الموقوفة بالإتلاف أو الانتقال إلى الغير ، ونقلها إلى الموقوف عليه ، أما ملك العين الموقوفة فهو باقٍ للواقف ⁽⁵⁾ . ويعني هذا التعريف منع الواقف من الانتفاع

(2) البرزلي : جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 2002 ، جـ 5 ، ص 316 .

(3) أبو الفتح الحنبلي : المطلاع على أبواب المقنع ، تحقيق محمد بشير ، المكتب الإسلامي ، بيروت 1981 ، جـ 1 ، ص 285 .

(4) ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، مادة وقف ، جـ 9 ، ص 359 .

(5) الونشريسي : المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1981 ، جـ 7 ، ص 296 .

بوقفه ومن التصرف فيه ، فثمرة الوقف تسبّل أيتصرف لمن وقفت عليه ، وأن الوقف لا يورث ولا يباع ولا يوهب .

أحكام الوقف في إفريقية خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة :

أدت كثرة الأوقاف في تلك البلاد وفي الفترة الزمنية للدراسة ⁽⁶⁾ ال ظهور أحكام الوقف ، وهي أحكام اجتهادية . ويعود الفضل إلى الإمام سحنون بن سعيد في تدوين بعض قواعد الوقف وأحكامه في المدونة الكبرى التي رواها عن الإمام المصري عبد الرحمن بن القاسم المتوفى عام 191هـ / 807م عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس المتوفى 179هـ / 795م ⁽⁷⁾ . كما أسهم في تدوين تلك الأحكام بعض فقهاء ذلك العصر وبالتحديد خلال القرن الثالث الهجري منهم الإمام الفقيه محمد بن سحنون المتوفى عام 256هـ / 869م والذي أفرد باباً للأحباش في كتابه "الأجوبة" .

وسوف نعتمد في كتابة أحكام الوقف على ما جاء في مدونة سحنون وأجوبة ابنه محمد، بالإضافة إلى فتاواهما التي وردت في بعض الكتابات النوازلية مثل كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني ، وفتاوى البرزلي ، ومعيان النشرسي .

وأول هذه الأحكام التي نعرض لها متى ينعقد الوقف ؟ فالإمام سحنون يذكر أن الوقف ينعقد بذكر ألفاظه الصريحة مثل الوقف والحبس والتسييل ، ولا بد من التصريح بالحبس لكي ينعقد ويكون وقفاً في سبيل الله ⁽⁸⁾ . وقال أيضاً إذ قال الواقف حبس صدقة

(6) مما يدل على كثرة الأوقاف في إفريقية وخصوصاً في عصر دولة الأغالبة قيام الفاطميين بعد أن قضوا على هذه الدولة بالاستيلاء على أموال الأحباس ، وهذا يعني أنها أحباس ضخمة ووفيرة . انظر المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ج2 ، ص 56 .

(7) سحنون بن سعيد : المدونة الكبرى ، مطبعة السعادة ، مصر 1323هـ / 1905م ، ج15 ، ص 98-

أو حبس لا يباع فإنه حبس مؤبد⁽⁹⁾. وقد استخدمت في الفترة الزمنية للدراسة كلمة الصدقة على المساكين بمعنى الوقف، فقد سأل محمد ابن سحنون عما تصدق بشجر على الفقراء والمساكين هل يجوز بيعها ويتصدق بثمنها على المساكين أم لا؟ فقال: "لا يباع أصلها إنما يباع ثمرها ويفرق على المساكين أو تفرق الثمرة عليهم"⁽¹⁰⁾. وتعني هذه الإجابة أنه اعتبر كلمة الصدقة مرادفة لكلمة الوقف. كما أن والي إفريقية والمغرب إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي المتوفى عام 122هـ / 740م والذي سكن القيروان وفقه أهلها في الدين، تصدق بكل شيء تركه بعد موته⁽¹¹⁾. أي وقفها على أعمال البر والتقوى، ويعمل المالك المتوفى في أواخر القرن الخامس الهجري ما قام به هذا الوالي فيقول: "بأنه وقفه خوفاً أن يوضع ما تركه في غير موضعه"⁽¹²⁾.

أما ما يجوز وقفه لأعمال البر والتقوى فهو الثابت كالدار، والخوانيت، والحمامات، والأفران، والأراضي الزراعية، بالإضافة إلى المنقول؛ فقد أجاز فقهاء المالكية وقف المنقول استناداً إلى رأي إمامهم مالك الذي يرى جواز وقف الفرس أو المتاع في سبيل الله⁽¹³⁾. لذلك كان من رأي الإمام سحنون أنه لا بأس من وقف الرقيق في سبيل الله، أو حبس الثياب على قوم بأعينهم أو على المساكين أو في سبيل الله. كما قال أيضاً: "لم نسمع من مالك في حبس المنقول شيئاً، ولا أرى بأساً أن يحبس الرجل الثياب والسروج"⁽¹⁴⁾.

(9) ابن أبي زيد القيرواني: النواذر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق أحمد الخطابي ومحمد عبد العزيز الدباغ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1999، ج2، ص 14.

(10) محمد بن سحنون: كتاب الأجوبة، تحقيق حامد العلوي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 2000، ص 321.

(11) الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2005، ج1، ص 184.

(12) رياض النفوس، ج1، ص 184.

(13) سحنون: مصدر سابق، ج15، ص 98.

(14) المصدر السابق والجزء، ص 99.

كما أكد فقهاء تلك الفترة في أحكامهم الوقفية على ضرورة عدم تغيير الموقوف . ففي نازلة أن حصناً وقفت عليه أرض تنبت الحلفا ، ثم حولت الأرض إلى الزراعة ، فكانت الإجابة : إن تحبب هذه الأرض أنها تنتج الحلفا فلا ينبغي تغييرها وتبقى على ما حبست عليه⁽¹⁵⁾ .

كما أكد الفقهاء أيضاً على ضرورة تنفيذ شروط الواقف . فإذا تلف أو ضاع كتاب الوقف ولم يعرف ما فيه من شروط فليحمل على ما جرى عليه أمر الناظر على الوقف⁽¹⁶⁾ . وقد قال محمد بن سحنون إن غلة الوقف تقسم على حسب شروط الواقف ، وإن لم تكن هناك شروط تم التقسيم على قدر الاجتهاد⁽¹⁷⁾ . وإذا كان الوقف على الذرية وانقرض من وقفت عليه ، يستمر الوقف لكن يوزع عائده على الفقراء والمساكين⁽¹⁸⁾ .

أما بخصوص بيع الوقف فالمشهور من مذهب الإمام مالك أن الحبس لا يباع⁽¹⁹⁾ . وعلى هذا الأساس إذا جهل أنه وقف وتم بيعه ، فيفسخ هذا البيع ليعود الموقوف وفقاً⁽²⁰⁾ . وقد أكد الإمام سحنون على هذا الحكم وقال : " لم يجز أصحابنا بيع الحبس بحال " . وهناك استثناء من هذا الحكم هو أن يكون الوقف داراً بجوار مسجد ، واحتاج المسجد إلى الدار ليوسع بها . وقد أجاز سحنون ومن جاء بعده من فقهاء المالكية هذا الأمر على أن يشتري بتمنها داراً تكون وفقاً⁽²¹⁾ .

وإذا تعرضت العين الموقوفة للخراب وجب إصلاحها ، لكي يستمر الوقف في تأدية رسالته في الإنفاق على جهة البر التي عليها الوقف ، ويكون الإصلاح هنا من فضل الكراء⁽²²⁾ .

(15) الونشريسي : مصدر سابق ، ج 7 ، ص 33 ، 37 .

(16) المصدر السابق والجزء ، ص 387 .

(17) ابن أبي زيد القيرواني : مصدر سابق ، ج 12 ، ص 44 .

(18) المصدر السابق والجزء ، ص 10 .

(19) الونشريسي : مصدر سابق ج 7 ، ص 185 .

(20) ابن أبي زيد القيرواني : مصدر سابق ج 12 ، ص 89 .

(21) المصدر السابق والجزء ، ص 83 ، 84 .

(22) المصدر السابق والجزء ، ص 95 .

ومن الأحكام الهامة والخاصة بالوقف في تلك الفترة الزمنية عدم جواز تعويض الوقف أي إبداله ببيع العين الموقوفة لشراء عين أخرى تكون وقفًا حتى لو خيف من ضياعه . وقد أكد الإمام مالك على هذا الأمر ، فحين سئل عن نخل موقوفة تولى عليها الإهمال ، وخيف أن تأكلها الرمال ، وأراد السائل معاوضتها أي إبدالها فقال : دعها تأكلها الرمال⁽²³⁾ . والجدير بالإشارة أن فقهاء المالكية في القرون التالية أجازوا بيع الموقوف وإبداله لانعدام منفعته نهائياً⁽²⁴⁾ . وبعد عرض هذه الأحكام الوقفية فقد جاء الدور لنتناول الولاية على الوقف . أي التعرف على المسئول عن إدارة شئون الوقف وحفظ أعيانه ، بعمارتها وصيانتها ، بالإضافة إلى صرف ريع الوقف لمستحقه طبقاً لشروط الواقف⁽²⁵⁾ .

وقد اتفق الفقهاء على حق القاضي في الولاية على الوقف ، وهذا الحق نابع من حقه في الولاية العامة⁽²⁶⁾ . ونرجح أن الأوقاف في تلك البلاد وخلال الفترة الزمنية للدراسة كانت تحت نظر القاضي مثلما كان عليه الوضع في مصر في عصر الولاة . فأول من تولى إدارة الأوقاف في مصر القاضي توبة بن نمر الحضرمي حتى استعفى عام 121هـ / 739م زمن خلافة هشام بن عبد الملك (105-125 هـ / 724-743م)⁽²⁷⁾ .

(23) الونشريسي : مصدر سابق ، ج 7 ، ص 86 .

(24) أجمع مالكية فاس في العصر المريني 668-869هـ أن تغيير الوقف لا يكون إلا على ثلاثة أوجه وهي ممنوع وواجب ومختلف فيه . والممنوع ما يكون في بقاءه منفعة ، ولا ضرر من بقاءه فلا يجوز بيعه . والواجب ما في بقاءه ضرر ، ولا يرجى أن تعود منفعته . والمختلف فيه فليس فيه منفعة في الحال وترجى منفعته فيما بعد ، فهناك من أجاز بيعه لأن قصد الواقف الانتفاع به ، ومن العلماء من منع البيع .

حسين ، 36 اد : الأوقاف مصدرا للدراسة مجتمع فاس في العصر المريني ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، القاهرة 2002 . ص 35 ، 36 .

(25) الطرابلسي : الإسعاف في أحكام الأوقاف ، المطبعة الكبرى ، مصر 1292هـ ، ص 47 .

(26) الكيسسي : أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية ، مطبعة الإرشاد ، بغداد 1977 ، ج 2 ، ص 145 ، 146 .

(27) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، وضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1997 ، ج 2 ، ص 133 ، محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1980 ، ص 48 .

وكان يعاون القاضي في إدارة الوقف ناظر الوقف ويطلق عليه متولي الأحباس فنعشر في كتاب رياض النفوس على وظيفة متولي أحباس سوسة وكان يشترط في متولي هذه الوظيفة أن يكون من أهل الفضل والدين والعلم⁽²⁸⁾ وكان يطلق عليه أيضًا لقب الأمين، فقد كان المشرف على أوقاف رباط المنستير يسمى بأمين المنستير⁽²⁹⁾ ويعاون الأخير من يقوم بجمع كراء الأوقاف⁽³⁰⁾.

بعد هذا العرض عن أحكام الوقف وقواعده في إفريقية خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة لا بد من إبراز موقف أمراء تلك البلاد من الوقف.

السلطة والأوقاف:

يتضح من المادة العلمية التي توفرت لنا - بالرغم من قلتها - أن الأملاك الوقفية في إفريقية كانت وفيرة ومتنوعة، ساهم فيها خاصة المجتمع من الحكام بالإضافة إلى أبنائه الموسرين. وقد بدأت هذه الأوقاف في عصر الولاة مع نشأة المساجد وبداية ظهور الأربطة عام 180هـ / 796م⁽³¹⁾. واستمرت الأوقاف خلال عصر الأغالبة مع إنشاء العديد من المؤسسات الدينية والدفاعية كالمساجد والأربطة التي استلزمت العديد من الأوقاف لتؤدي وظيفتها، بالإضافة إلى الأوقاف التي تم رصدها لتوفير الخدمات الاجتماعية في تلك البلاد، وقد شارك في إثراء الأوقاف العديد من أمراء تلك البلاد.

ومن شارك في إثراء الأوقاف في عصر الولاة الوالي إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر القرشي المتوفى عام 122هـ / 740م الذي استعمله الخليفة عمر بن عبد العزيز علي تلك البلاد، وقد أوصى أن يتصدق عنه بكل شيء تركه بعد موته⁽³²⁾. أي جعل أملاكه

(28) رياض النفوس، ج2، ص 396.

(29) المصدر السابق والجزء، ص 437، وقد استمرت وظيفة أمين المنستير فيما بعد لفترة طويلة، فقد

عثر في مقبرة المنستير على شاهد قبر أمين المنستير المتوفى عام 419هـ / 1028م انظر: Zbiss, s, m; Corpus des inscription Arabes de Tunisie, 1960, tome 2, pp29-30. (30) المالكي: مصدر سابق، ج2، ص 397.

(31) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1990، ص 168.

(32) المالكي: مصدر سابق، ج1، ص 117، الدباغ: مصدر سابق، ج1، ص 184.

صدقة جارية في أوجه البر المتعددة . وقد أقدم هذا الوالي على وقف أملاكه لأنه خاف أن توضع في غير موضعها⁽³³⁾ .

كما ساهم الوالي هرثمة بن أعين (179 - 181 هـ / 795 - 797 م) في الوقف فقد أنشأ رباط المنستير⁽³⁴⁾ ورصد له الأوقاف التي تعين على أداء هذا الرباط لرسالته من خلال إيواء المرباطين في سبيل الله ، لحماية سواحل تلك البلاد .

كما كان لبعض أمراء الأغالبة مساهمة في مجال الأوقاف ، فزيادة الله بن الأغلب (201 - 223 هـ / 816 - 838 م) الحاكم الثالث لدولة الأغالبة اهتم بالعمران ، فبالإضافة إلى تجديده لمسجد عقبة بن نافع في القيروان وجعله على الهيئة التي هو عليها اليوم ، أنشأ رباط سوسة عام 206 هـ / 821 م⁽³⁵⁾ . ولكي تؤدي هذه المنشآت الدينية والدفاعية دورها الذي أنشئت من أجله كان لا بد من وقف الأوقاف عليها . كما قام الحاكم الثامن لتلك الدولة محمد بن أحمد بن الأغلب (250 - 261 هـ / 864 - 875 م) بتعمير الحصون والمحارس على ساحل البحر وإصلاحها⁽³⁶⁾ ، ووقف عليها الأوقاف لهذا الغرض . أما خليفته في الحكم وهو أخوه إبراهيم بن الأغلب (261 - 289 هـ / 875 - 902 م) فقد سار على نهج أخيه في تعمير الحصون والأربطة على سواحل البحر ، وتصدق بجميع ما يملك⁽³⁷⁾ أي وقف كل أملاكه⁽³⁸⁾ والراجح أنه وقفها على تلك الأربطة بالإضافة إلى المساجد وغيرها من أوقاف الخدمات الاجتماعية .

(33) المالكي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 117 .

(34) الرقيق القيرواني : مصدر سابق ، ص 168 .

(35) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية بدون تاريخ ، ص 364 .

(36) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1987 ، ج 6 ، ص 67 .

(37) المصدر السابق والجزء ، ص 256 ، 257 ، ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، بيروت ، الطبعة الثالثة 1993 ، ص 66 .

(38) ابن الأثير : مصدر سابق ، ج 6 ، ص 257 .

ولا شك أن ما قام به هؤلاء الأمراء يبين وعيهم الواضح بأهمية الأوقاف في تنمية المجتمع وتطوره في كافة مجالات الحياة ومنها الحياة الاجتماعية .

الأوقاف والخدمات الاجتماعية :

شرعت الأوقاف في الإسلام ليكون ريعها صدقة جارية ، لذلك اقترنت كلمة الصدقة بالأوقاف . ومن الطبيعي أن تخصص الصدقة للفقراء والمحتاجين ، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن الأوقاف باعتبارها صدقة جارية قامت بدور هام في مجال الرعاية الاجتماعية . وزاد من هذا الدور أن السلطات الحاكمة عبر تاريخنا الإسلامي لم تكن لها سياسة محددة وواضحة تجاه مسائل الرعاية الاجتماعية فاكففت بما حددته الشريعة الإسلامية بهذا الخصوص من فرض الزكاة على القادرين⁽³⁹⁾ . أما مشاركة الحكام في مجال الوقف فيأتي بصفتهم أفراداً مسلمين يسعون إلى الثواب والمغفرة وليس بصفتهم حكاماً . على أية حال فقد شارك الموسرون من أبناء مجتمع إفريقية في الوقف على الفقراء والمساكين الذين تواجدوا بصورة واضحة داخل هذا المجتمع⁽⁴⁰⁾ . إذ كانوا يسرون في الطرقات ويطرقون الأبواب⁽⁴¹⁾ ، وكانت حالتهم تزداد سوءاً مع القحط والجفاف الذي كان يضرب البلاد ويستمر لفترات طويلة كانت تصل أحياناً إلى سبع سنوات⁽⁴²⁾ .

وقد تنوعت الأوقاف الخاصة بالفقراء والمساكين وشملت دوراً وحوانيت وبساتين ، وتسمح الإشارات المبعثرة . في ثنايا المصادر بالكاد بتحديد دور الوقف في هذا المجال ، ومنها ما قام به أبو عبد الله محمد بن مسروق الذي كان حياً خلال الربع الثالث من القرن الثاني الهجري والذي اشتهر بالزهد ، وورث أملاً كثيراً عن أبيه شملت قرى ودياراً وأموالاً ، فتصدق بكل ذلك مما تركه له أبوه على الفقراء والمساكين

(39) محمد محمد أمين : مرجع سابق ، ص 132 ، 133 .

(40) المالكي : مصدر سابق ج 2 ، ص 149 ، ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،

تصحيح دوزي ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج 1 ، ص 147 .

(41) المالكي : مصدر سابق : ج 1 ، ص 122 .

(42) القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك ، المطبعة الملكية ،

الرباط 1968 ، ج 3 ، ص 320 .

ولم يلمس لنفسه منه شيئاً⁽⁴³⁾. وكان من ضمن هذه الأملاك بستان قريب من القيروان على طريق سوسة⁽⁴⁴⁾ سمي ببخيرة المسروقين⁽⁴⁵⁾.

كما يذكر ابن أبي زيد القيرواني نقلاً عن أجوبة ابن سحنون أن أحد سكان القيروان ويدعى أبا خالد الأصبهاني قد وقف حوانيت على المساكين، وكان القاضي يقسم غلة هذه الحوانيت على المساكين في كل سنة⁽⁴⁶⁾.

وتتعدد أوجه الوقف على الفقراء والمساكين فهناك من وقف منزلاً عليهم⁽⁴⁷⁾، والبعض وقف بستانه⁽⁴⁸⁾، والبعض الآخر حبس شجرة معينة من جنانه على الفقراء والمساكين. وقد سأل ابن سحنون عن هذا الشجر ما هو الوضع إذا لم يوجد في البلد من يأكلها من الفقراء؟ فأجاب قائلاً: أصلها لا يباع إنما يباع ثمرها ويفرق ثمنها على الفقراء أو تفرق الثمرة عليهم⁽⁴⁹⁾.

وجدير بالذكر أن الوقف على الذرية كان يؤول في النهاية إلى جهة بر، وهي في الغالب حسب ما جاء في الوقفيات على الفقراء والمساكين. ففي وقفية لرجل على ولديه وأعقابهم، جاء فيها إذا انقضوا ينفق ريع الوقف في سبيل الخير⁽⁵⁰⁾، أي على الضعفاء من الفقراء والمساكين. بدليل ما قاله الإمام سحنون: إذا انقض من حبست عليه يكون الحبس للفقراء⁽⁵¹⁾.

(43) المالكي: مصدر سابق، ج1، ص 193، 194.

(44) مدينة سوسة مدينة يحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق، المسافة بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلاً، سورها صغير حصين منيع. في هذه المدينة عدد من الأربطة. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص 282، 283.

(45) الرقيق القيرواني: مصدر سابق، ص 107.

(46) النوادر والزيارات، ج12، ص 122.

(47) المصدر السابق والجزء، ص 89، 90.

(48) الإمام سحنون: مصدر سابق، ج15، ص 107.

(49) ابن سحنون: الأجوبة، ص 321.

(50) ابن أبي زيد القيرواني: مصدر سابق، ج12، ص 122.

(51) المصدر السابق والجزء، ص 10.

ومن المسائل التي أثرت في تلك الفترة الزمنية للدراسة أن رجلاً وقف وقفاً على الفقراء والمساكين هل لورثته أو لأهل بيته أن يكونوا ضمن الموقوف عليهم ولهم نصيب من ريع هذا الوقف ؟ فقال ابن سحنون يستبعد من تلزمه نفقته ، ومن لا تلزمه نفقته لا بأس أن يدخل ضمن الموقوف عليهم⁽⁵²⁾ .

والجدير بالإشارة أن مدينة القيروان ضمت منشأة خيرية ترعى الفقراء والمساكين من خلال توزيع ريع الوقف عليهم ، كما كانت هذه المنشأة تأويهم . يؤكد ذلك أن المالكي وهو يترجم للقاضي أحمد بن أبي محرز⁽⁵³⁾ المتوفى عام 221 هـ / 836 م يذكر أن بالقيروان مكاناً كان يعرف بسقيفة المساكين بالسباط الأعظم⁽⁵⁴⁾ . إذا كان الواقفون حاولوا علاج مشكلة الفقر في مجتمع إفريقية على هذا النحو ، فقد حاولوا أيضاً حل مشكلة قلة المياه في تلك البلاد .

الأوقاف وتوفير مياه الشرب :

عانت إفريقية من مشكلة قلة المياه ، فالبلاد ليس بها أنهار أو عيون جارية ، لذلك كان توفير مياه الشرب قضية شغلت بال حكام تلك البلاد الذين عملوا على حلها بإنشاء المواجهل (خزانات المياه) وحفر الآبار . وقد شغلت هذه المشكلة أيضاً بأهل الخير من أبناء المجتمع الذين سعوا من خلال الوقف إلى توفير مياه الشرب لعامة الناس .

وقد بدأ الاهتمام بإنشاء المنشآت المائية في تلك البلاد مع الفتح الإسلامي للتغلب على مشكلة المياه حين حفر معاوية بن حديج⁽⁵⁵⁾ - قبل بناء القيروان - عددًا من الآبار

(52) ابن سحنون : مصدر سابق ، ص 428 .

(53) أحمد بن أبي محرز كان ورعاً تولى قضاء القيروان لزيادة الله بن الأغلب . استمر في القضاء تسعة أشهر ثم توفي عام 221 هـ / 836 م . عنه انظر المالكي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 395-401 .

(54) رياض النفوس ، ج 1 ، ص 396 .

(55) معاوية بن حديج من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاء معاوية بن أبي سفيان على إفريقية وغزاها عام 45 هـ / 665 م هزم الروم وفتح جلولا ثم عاد بجيشه . انظر : المالكي مصدر سابق ، ج 1 ، ص 28 ، 29 . السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، ص 88-99 .

سميت أبار حديج وهي خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز⁽⁵⁶⁾. وتواصل الاهتمام بتوفير الماء خلال عصر الولاة وكذلك في عصر الأغالبة، وأسست العديد من المنشآت المائية كالمواجل. مما دفع ابن خرداذبة أن يقول في منتصف القرن الثالث الهجري إن القيروان مدينة المواجل⁽⁵⁷⁾. ويتفق هذا مع ما أورده البكري المتوفى 487هـ/ 1094م إذ ذكر أنه يوجد خارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لأهلها منها ما هو من بناء هشام بن عبد الملك وغيره من الحكام، وأعظمها شأنًا وأضخمها ماجل أبي إبراهيم أحمد بن الأغلب (242-249هـ/ 856-863م) الذي يقع بباب تونس⁽⁵⁸⁾.

أما جهود أهل البر في هذا المجال فتتضح فيما قام به أبو العباس عبد الله بن طالب التميمي المتوفى عام 275هـ/ 888م والذي حفر بئرًا للمسلمين في أحد أزقة مدينة القيروان⁽⁵⁹⁾. كما كان لأبي يحيى حشيش بن محمد المتوفى عام 334هـ/ 956م - أي أنه كان حيًا في أواخر عهد الأغالبة - جهود في هذا المجال خاصة أنه كان كثير المال، مشهورًا بالبذل والعطاء، وكانت له أبار مسبلة لوجه الله عز وجل بسلقطة⁽⁶⁰⁾ على ساحل البحر⁽⁶¹⁾.

وكانت مياه مواجل السبيل تتعرض أحيانًا للتلوث بسبب سوء الاستخدام. وفي هذا سئل ابن أبي زيد القيرواني في مواجل للسبيل ولها وقف يفسدها قيام النساء بغسل الغزل

(56) الدباغ: مصدر سابق، ج1، ص 143.

(57) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، لندن، إبريل 1967، ص 87.

(58) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة بدون تاريخ، ص 26.

(59) القاضي عياض: مصدر سابق، ج4، ص 320.

(60) سلطنة: ورد هذا الاسم عند البكري في جملة مراسي إفريقية وذكر أن به قصرًا "رباطًا". البكري مصدر سابق، ص 85.

كما ذكر الإدريسي قصر سلطنة وقال بينه وبين المهدي ستة أميال وبينه وبين قمونية ثلاثة عشر ميلا. الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ، ج1، ص 303.

(61) المالكي: مصدر سابق، ج2، ص 320.

فيها ، بالإضافة إلى أن بعض ساكني القرية جعلوا أندر الزرع بقربها وهو مضر بئائها فقال: يمنع المفسد من إفساده من إنزال الغزل ونحوه ويؤدب من عاد إلى ذلك⁽⁶²⁾. ويتضح من هذه النازلة الحرص على إنشاء مواجل مسبلة ، وضرورة الحفاظ على نظافة المياه المسبلة للشرب .

الأوقاف والرعاية الصحية :

لقيت الرعاية الصحية في عهد الأغلبية الاهتمام ، فقد بنيت في كل مدينة في القطر دمنه أي مستشفى لعلاج المصابين بالأمراض المعضلة التي يطول علاجها كالجذام والتي يخشى منها تسرب العدوى إلى السكان . وأول منشأة للرعاية الصحية أنشئت في القيروان في ناحية من أطرافها⁽⁶³⁾ تسمى دمنه القيروان⁽⁶⁴⁾ كما أنشئت دمنه أخرى في مدينة سوسة⁽⁶⁵⁾ ويرجع تأسيس دمتي القيروان وسوسة إلى الأمير الأغلبي زيادة الله الأول ما بين سنتي 210-220 هـ / 825 - 835 م⁽⁶⁶⁾ . وتستقبل الدمنه للإقامة بها بالإضافة إلى الجذماء ، المرضى وفاقدي البصر⁽⁶⁷⁾ والعجزة الذين فقدوا أقدامهم ويقفون على ركبته⁽⁶⁸⁾ .

والدمنه بداية مربعة الشكل أو مربع مستطيل ، يدخل الناس إليها من باب واحد كبير يفتح على دهليز ، ويحف بجانبه الدهليز غرفتان صغيرتان يسكنهما حراس

(62) البرزلي : مصدر سابق ، ج 5 ، ص 407 ، 408 .

(63) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، مكتبة المنار ، تونس ، الطبعة الثانية 1972 ، ج 1 ، ص 273 ، 274 .

(64) ورد في كتاب رياض النفوس للمالكي اسم دمنه القيروان انظر الجزء الأول صفحات 411 ، 412 ، 413 الجزء الثاني ، صفحات 137 ، 139 ، 142 ، 144 ، 147 .

(65) كما ورد في كتاب رياض النفوس للمالكي أيضًا اسم دمنه سوسة في الجزء الثاني ، صفحات 9 ، 231 ، 275 .

(66) حسن حسني عبد الوهاب : مرجع سابق ، ج 1 ، ص 285 .

(67) المالكي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 411 ، ج 2 ، ص 142 .

(68) المصدر السابق ، ج 2 ، ص 142 .

الدمنة . وفي آخر الدهليز باب ثانٍ أصغر يفضى إلى صحن متسع غير مسقوف . ويحيط بجوانب الصحن ثلاثة أروقة أو أربعة ، ومن ورائها عدة حجرات صغيرة بسيطة معدة لإيواء المرضى ، وفي وسط الرواق المواجه للمدخل مسجد صغير كما أن بها ماجلا وحامًا⁽⁶⁹⁾ .

واعتمدت الدمنة في أداء رسالتها على الأوقاف ، يتضح ذلك في نازلة جاء فيها أن دمنة بنيت للمرضى بالجلذام ليكونوا بعيدًا عن الناس ، وعليها أوقاف للمرضى الساكنين فيها⁽⁷⁰⁾ ، وأحيانًا كان الأصحاء يزاحمون المرضى في سكنى الدمنة للاستفادة من ريع الوقف . ولهذا السبب كانت الفتوى لصالح المرضى ، فإذا ضاق المكان بتزلائه فالمرضى أحق⁽⁷¹⁾ .

بالإضافة إلى الأوقاف التي تم وقفها للتخفيف عن المرضى فإن أهل الخير من أبناء المجتمع سعوا للتخفيف عنهم . فكانت الصدقات تأتي إليهم في ليلتي النصف من شعبان والنصف من رمضان⁽⁷²⁾ . كما حظي المرضى بزيارة بعض أبناء المجتمع الذين كانوا يقومون بالاعتناء بهم وإطعامهم ، وتنظيفهم ، وتقليم أظافرهم⁽⁷³⁾ . وهناك من كان يذهب إلى دمنة سوسة ليهون على المرضى ما هم فيه من الضر والبلاء⁽⁷⁴⁾ .

هكذا لعبت الأوقاف دورًا هامًا في مجال تقديم الخدمات الاجتماعية من خلال رعاية الفقراء والمساكين ، وفي توفير مياه الشرب للتغلب على مشكلة نقص المياه في تلك البلاد ، وأخيرًا في الإسهام في توفير الرعاية الصحية للمرضى . وكذلك فقد امتد دور الأوقاف لدعم الحياة الدينية في مجتمع إفريقية ببناء المساجد والجوامع الموقوفة .

(69) حسن حسني عبد الوهاب : مرجع سابق ، ج1 ، ص 275 ، 276 .

(70) الونشريسي : مصدر سابق ، ج7 ، ص 38 ، 39 .

(71) المصدر السابق والجزء ، ص 39 .

(72) المالكي : مصدر سابق ، ج1 ، ص 411 .

(73) المصدر السابق ، ج2 ، ص 147 .

(74) المصدر السابق والجزء ، ص 275 .

الأوقاف والحياة الدينية :

اهتم الواقفون ببيوت الله من جوامع ومساجد ، فوقفوا عليها الأوقاف المغلة لعبادتها ، وللقائمين عليها من أئمة ومؤذنين وخدام وغيرهم . ويتبين الحرص على بناء المساجد في ذلك العهد من أن القرية الواحدة من الممكن أن يبنى بها مسجدان . وقد سئل الإمام سحنون عن القرية يكون فيها المسجد ، فيريد قوم أن يبنوا فيها مسجدًا آخر فقال : "إن كانت القرية تحتاج إلى مسجدين لكثرة أهلها فلا بأس به ، وإن كان أهلها قليلاً ويخاف أن يعطل المسجد الأول فليس لهم ذلك لأن البناء يضر بالمسجد الأول" (75) .

ويعد مسجد عقبة بن نافع الذي اختط في القيروان (76) من أشهر هذه المساجد ، وقد بذل كثير من الولاة والأمراء جهودًا ضخمة لتعميره وتحسينه . ويقدم لنا البكري معلومات عن التطور المعماري لهذا المسجد مع ذكر من قام بعمارته وتاريخها (77) . كما ضمت القيروان عددًا من المساجد الأخرى بناها بعض التابعين الذين سكنوا تلك المدينة خلال عصر الولاة منها مسجد حنش الصنعاني المتوفى عام 100هـ / 718م ويقع في ناحية باب الريح (78) . ومسجد الزيتونة الذي بني عام 107هـ / 725م ، وهو مسجد كبير في وسطه ماجل مستطيل (79) ، وإلى جوار هذا المسجد يوجد سوق يسمى بسوق إسماعيل (80) ، ومن المحتمل أن إسماعيل أسس هذا السوق كوقف لعمارة مسجده ، يدل على ذلك أن الرباع المحيطة بهذا المسجد كانت وقفًا عليه (81) .

(75) الوشرسي : مصدر سابق ، جـ 7 ، ص 483 .

(76) عن الوصف المعماري للمسجد الجامع بالقيروان انظر : السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، 336-348 .

(77) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص 22-24 .

(78) المالكي : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 121 .

(79) الدباغ : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 58 .

(80) المالكي : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 107 .

(81) الدباغ : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 60 .

كما أختط التابعي أبو عبد الله علي بن رباح اللخمي والمتوفي عام 114هـ / 732م مسجداً عند باب نافع على يمين الخارج قبل أن يخرج⁽⁸²⁾. أما التابعي أبو عبد الرحمن الحلي فقد بنى مسجداً عام 100هـ / 718م في درب أزهر قرب باب تونس . وظل هذا المسجد عامراً في القرون التالية⁽⁸³⁾ بفضل الأوقاف التي مكنته من أداء رسالته . كما شيد التابعي زياد بن أنعم الشيباني مسجداً في القيروان⁽⁸⁴⁾ وكان للبهلول بن راشد المتوفي عام 183هـ / 799م مسجد في هذه المدينة⁽⁸⁵⁾.

بالإضافة إلى مساجد القيروان التي بنيت في عصر الولاة وكان لها أحباس للإنفاق عليها فقد ضمت مدينة تونس العديد من المساجد التي من أشهرها جامع الزيتونة الذي بنى عام 114هـ / 732م على يد والي المغرب عبيد الله بن الحبحاب (114-123هـ / 732-741م)⁽⁸⁶⁾. بالإضافة إلى مساجد أخرى بنيت في أنحاء متفرقة من هذه المدينة .

وقد ظلت هذه المساجد وأوقافها تؤدي رسالتها في عهد الأغالبة بالإضافة إلى ما تم تشييده في عهدهم على يد بعض أمراء تلك الدولة أو بعض أبناء المجتمع . منها مسجد أبو قتادة الذي بناه الأمير أبو عقاب الأغلب بن إبراهيم (223-226هـ / 837-841م)⁽⁸⁷⁾ ، والمسجد الجامع بسوسة والذي شيده الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (226-242هـ / 840-856م)⁽⁸⁸⁾.

(82) المالكي : مصدر سابق ، ج1 ، ص 119 .

(83) الدباغ مصدر سابق ، ج1 ، ص 61 .

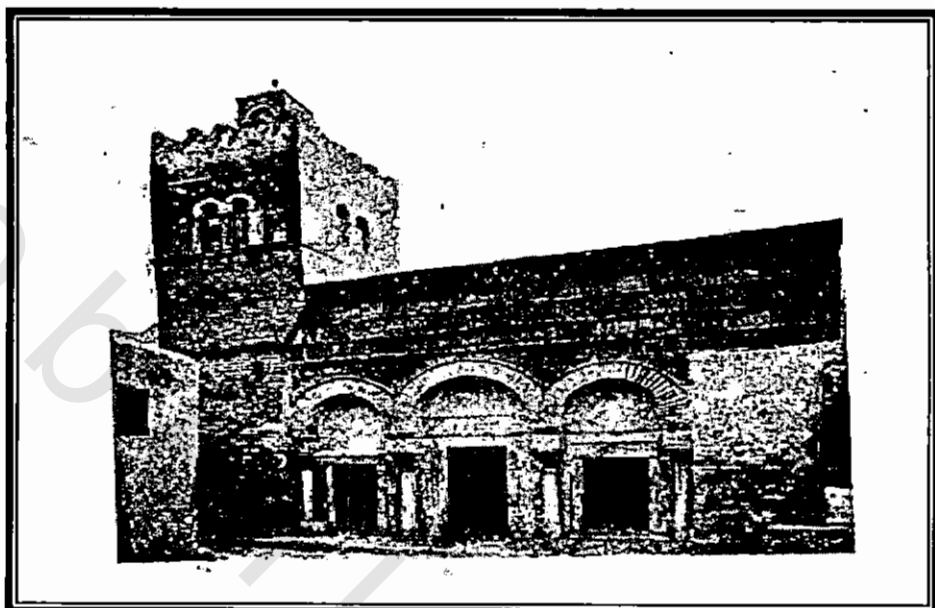
(84) المصدر السابق والجزء ، ص 193 .

(85) أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية وتونس ، تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن ، الدار التونسية للنشر ، الطبعة الثانية 1985 ، ص 137 .

(86) عن مسجد الزيتونة بتونس اظر : السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، ص 350-357 .

(87) كريزويل : الآثار الإسلامية الأولى ، ترجمة عبد الهادي عبلة ، دار قتيبة ، دمشق ، الطبعة الأولى 1984 ، ص 353 .

(88) المرجع السابق ، ص 359 .



مسجد الأبواب الثلاثة عن كرزويل

كما بني في هذا العهد جامع الثلاثة أبواب الذي بناه ابن خيرون المعافري المتوفى 301هـ/ 913م وتذكر الكتابة الكوفية الموجودة في واجهة هذا الجامع أن بناءه كان سنة 232هـ/ 847م⁽⁸⁹⁾. أما مسجد الخميس فقد شيده أبو إسحاق إبراهيم الزاهد المتوفى عام 278هـ/ 891م 91م وهو من أصحاب سحنون⁽⁹⁰⁾. كما كان لأبي حشيش بن يحيى المتوفى عام 301هـ/ 913م مساجد وقفية كثيرة في القيروان⁽⁹¹⁾.

أما مدينة صفاقس⁽⁹²⁾ فقد بني فيها العديد من المساجد منها مسجد كبير ضم نحو عشرين سارية عظاماً بناه أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي المتوفى عام 210هـ/ 825م⁽⁹³⁾.

(89) الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 124.

(90) الدباغ: مصدر سابق، ج2، ص 92.

(91) المالكي: مصدر سابق، ج2، ص 320.

(92) مدينة صفاقس مدينة تقع على ساحل البحر مسورة ولها أسواق كثيرة ومساجد وجوامع، بها حصون ورباطات على البحر، انظر البكري: مصدر سابق، ص 19-20.

(93) القاضي عياض: مصدر سابق، ج3، 319.

وتبدأ أوقاف المسجد بوقف الأرض المخصصة لبنائه⁽⁹⁴⁾، وبعد البناء يتم وقف الحوانيت وغير ذلك من الأوقاف لكي يقوم المسجد بدوره الديني والثقافي⁽⁹⁵⁾. كما يستخدم ريع الأوقاف في توفير احتياجات المسجد من الحصر والزيت اللازم للإضاءة، وإذا كان زيت المسجد المخصص للإضاءة كثيرًا ويفيض عن حاجة المسجد، فقد رأى الإمام سحنون استخدام هذا الزيت في إضاءة مسجد آخر⁽⁹⁶⁾.

وكانت الأوقاف تقوم بترميم المسجد إذا كان في حاجة إلى ترميم، وإذا تم إصلاح المسجد المحبس وبقي ما قد استغنى عنه هذا المسجد من الخشب وغيره، لم يوافق سحنون على استخدامه لإصلاح مسجد آخر لأنه حبس على هذا المسجد⁽⁹⁷⁾. وفيما بعد وافق فقهاء المالكية على هذا الأمر على أساس أن ما كان لله يجوز أن يصرف بعضه في بعض⁽⁹⁸⁾. كما حظيت المساجد والجوامع الموقوفة بوقف المصاحف والكتب الدينية عليها، وعلى وجه الخصوص جامع القيروان⁽⁹⁹⁾. وتبدو ظاهرة وقف المصاحف والكتب الدينية منتشرة، يؤكد ذلك بعض النوازل الخاصة بحبس الكتب وقد سئل عنها ابن أبي زيد القيرواني⁽¹⁰⁰⁾.

وتكشف بعض المصادر النوازلية العديد من الممارسات التي كانت تتم في المساجد الوقفية، والتي أنكرها فقهاء ذلك العهد، منها أن بعض المساجد إذا جاء شهر رمضان كانت توقد نار في ناحية منها لصنع الطعام للمساكين والأيتام⁽¹⁰¹⁾. كما أنكروا أيضًا إدخال أي شيء في المسجد من حوائج الدنيا من آلة الحرث وغيرها، أو أن يخزن فيه

(94) ابن سحنون: مصدر سابق، ص 317.

(95) الونشريسي: مصدر سابق، ج 7، ص 40.

(96) البرزلي: مصدر سابق، ج 5، ص 395.

(97) ابن سحنون: مصدر سابق، ص 323.

(98) المصدر السابق والصفحة.

(99) أماري: المكتبة العربية الصقلية، ليسك 1857، ص 185، 186.

(100) البرزلي: مصدر سابق، ج 5، 377، 378، الونشريسي: مصدر سابق، ج 7، ص 337، 338.

(101) ابن سحنون: مصدر سابق، ص 317.

الزراع وغيره⁽¹⁰²⁾، أو أن يخاط فيه ثوب⁽¹⁰³⁾. ومن الممارسات التي نهى عنها الفقهاء في تلك الفترة الزمنية أيضاً تعليم الصبيان في المسجد⁽¹⁰⁴⁾ أو في صحنه سواء كان عامراً أو خرباً إذ إن خراب المسجد لا يسقط عنه حرمة⁽¹⁰⁵⁾. وقد أوضح ابن سحنون سبب النهي عن تلك الممارسات حين قال إن المساجد أنشئت للصلاة والذكر وقراءة القرآن ومذاكرة العلم مع خفض الصوت، وما سوى ذلك فهو بدعة يجب إنكارها والنهي عنها⁽¹⁰⁶⁾.

وإذا كان للأوقاف هذا الدور العظيم في تعمير بيوت الله، فإن دورها في تعمير ساحل تلك البلاد من سوسة شمالاً إلى صفاقس جنوباً بسلسلة من الأربطة والحصون المتصلة كان عظيماً أيضاً ولا شك فيه. فقد وفرت هذه الأربطة والحصون الحماية لهذه البلاد من الغارات الرومية.

الأوقاف وتأمين سواحل البلاد :

شكلت منطقة الساحل وحدة جغرافية متميزة، وقد سُمي هذا الساحل في العهد الأغلي بساحل القيروان لامتداد الملكية العقارية لأهل القيروان إلى هذا الساحل، وكان ظهور خط متصل من الأربطة والحصون من شمال سوسة إلى صفاقس جنوباً كان بمثابة

(102) المصدر السابق، ص 320.

(103) ويؤكد على ممارسة حرفة الخياطة في المسجد ما جاء في ترجمة إسماعيل بن رباح الجزري المتوفى عام 212هـ/ 827م فقد دخل مسجداً معروفاً في القيروان بمسجد ابن أبي نصر، فوجد خياطاً يعمل في المسجد، فقال له إسماعيل بن رباح بكم أكرت هذا الخانوت فقال له: ليس هذا خانوتاً إنما هو مسجد، فقال له: المساجد لم تبَنَ للصناع إنما بنيت للمصلين. أبو العرب تميم: مصدر سابق، ص 146، 147.

(104) في هذا العصر تزايد الاهتمام بتعليم الصبيان مما أدى إلى ظهور بعض المؤلفات الخاصة بآداب تعليم الصبيان منها رسالة ابن سحنون في آداب المعلمين. انظر: محمد بن سحنون: آداب المعلمين، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1972.

(105) ابن سحنون: مصدر سابق، ص 323، 324، الوئشيسي: مصدر سابق، ج7، ص 83.

(106) ابن سحنون: مصدر سابق ص 320.

الدرع الحامي لهذه المدينة⁽¹⁰⁷⁾ . ومن المؤكد أن الأربطة والحصون شيدت على الشاطئ لوجود خطر حقيقي ، ولذلك كانت عامرة بالمجاهدين والمرابطين ، وبها أبراج للحراسة تراقب البحر وتنبه هؤلاء المرابطين إذا ظهر الخطر⁽¹⁰⁸⁾ .

وقد أعان على ظهور الأربطة وتلك الحصون ما جاء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من حث على الرابطة في سبيل الله وفضلها ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِمُ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾⁽¹⁰⁹⁾ . ومن الأحاديث النبوية الشريفة قوله ﷺ فيما معناه : رباط يوم وليلة في سبيل الله كصيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى له أجر الرباط إلى أن يبعث⁽¹¹⁰⁾ . بل نسبت أحاديث للنبي ﷺ في فضل الرباط بالمنستير ومدى ما يحصل عليه المرابطون فيه من ثواب وأجر من ذلك قوله عن أنس بن مالك من رباط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة⁽¹¹¹⁾ .

ويعد رباط المنستير من أشهر الأربطة الموجودة على ساحل تلك البلاد ، ويقع هذا الرباط بين المهديّة⁽¹¹²⁾ وسوسة ، بينه وبين كل مدينة منها مرحلة⁽¹¹³⁾ . والذي بناه هو

(107) محمد حسن : الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت الطبعة الأولى 2004 ، ص 123 .

(108) محمد الطالبي : الدولة الأغلبية - التاريخ السياسي ، ترجمة المنجي الصيادي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1985 ، ص 431 .

(109) سورة الأنفال ، الآية 60 .

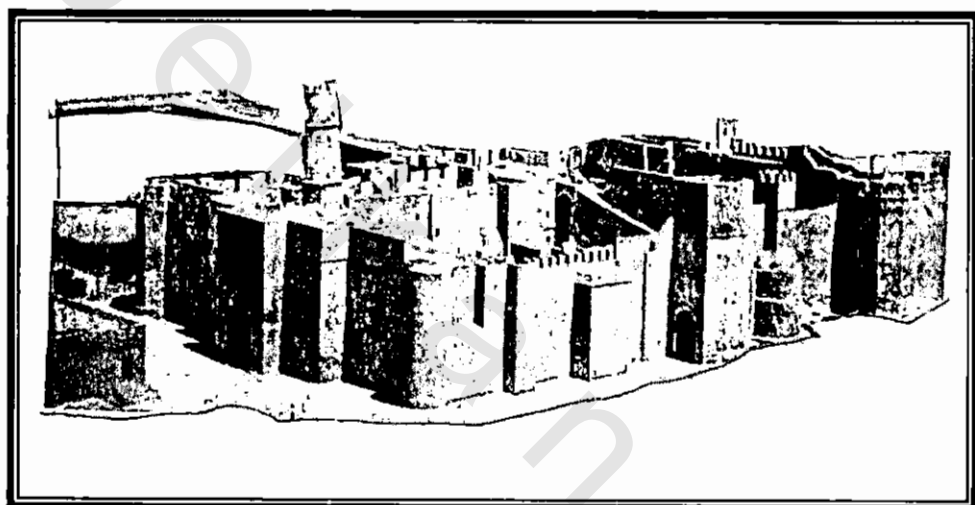
(110) حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب القرن الثالث الهجري ، دار النشر للطباعة ، القاهرة 1985 ، ص 87 .

(111) أبو العرب تميم : مصدر سابق ، ص 48 ، 51-52 ، التجاني : رحلة التجاني ، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب تونس ، 1981 ، ص 30 ، 31 .

(112) المهديّة مدينة على ساحل إفريقية محط للسفن بناها عبيد الله المهدي الشيعي عام 300هـ / 912م ، بين المهديّة والقروان ستون ميلا ، يحيط بها البحر من جهاتها الثلاثة . انظر : الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د . إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية 1980 ، ص 561 .

(113) ياقوت : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1957 ، ج 5 ، ص 209 .

والي إفريقية هرثمة بن أعين (179-181هـ / 795-797م) عام 180هـ / 796م⁽¹¹⁴⁾. وقد شهد هذا الرباط توسعات خلال عصر الأغالبة، أدت إلى أن يسكنه جمع غفير من المرابطين على مر الأيام، كما كان يقصده أهل إفريقية لوقت من السنة فيقيمون فيه أيامًا معلومة⁽¹¹⁵⁾. وقد أعانت الأوقاف الكثيرة التي وقفت على هذا الرباط في مدن إفريقية المختلفة على أن يؤدي دوره في تأمين سواحل تلك البلاد، ساعد على ذلك أيضًا الصدقات التي كانت تأتيه من كل مدن إفريقية⁽¹¹⁶⁾.



رباط المنستير

عن محمد حسن: الجغرافية التاريخية لإفريقية

(114) الرقيق القيرواني: مصدر سابق، ص 168، البكري: مصدر سابق، ص 36، ابن الأثير: مصدر سابق، ج 5، ص 300، ابن عذاري: مصدر سابق، ج 1، ص 110، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1984، ص 246.

(115) ابن حوقل: صورة الأرض، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية مصورة عن طبعة ليدن 1938، ص 73.

(116) المصدر السابق والصفحة.

وينقل البكري عن المؤرخ الوراق⁽¹¹⁷⁾ (292-362هـ/ 904-973م) أن هذا الرباط قصر كبير عالٍ داخل ربض واسع ، وفي وسط الربض حصن ثانٍ كبير كثير المساكن والمساجد والقباب العالية ، وبه جامع متقن البناء وهامات كثيرة⁽¹¹⁸⁾ . والعناصر الأساسية لهذا الرباط سور محاط بأبراج مستديرة ، ويحيط بالصحن من جهاته الثلاثة الشمالية والغربية والشرقية طابقان أو ثلاثة بها غرف تأوي المرابطين والمجاهدين في سبيل الله⁽¹¹⁹⁾ .

كما شيد على الساحل أيضًا رباط سوسة الذي يقع على خليج قابس وهو معروف بقصر الرباط ، وقد بني هذا الرباط في عصر الأغالبة على يد الأمير زيادة الله بن الأغلب (201-223هـ/ 816-838م) في عام 206هـ/ 821م . وتاريخ تأسيسه مسجل على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار مكتوب عليها : "مما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم على يد مسرور الخادم مولاه سنة ست ومائتين"⁽¹²⁰⁾ . لكن المالكي يذكر أن زيادة الله أمر عبد الرحيم بن عبد ربه المتوفى سنة 247هـ/ 861م ببناء هذا الرباط فقام ببنائه وإصلاحه سنة 212هـ/ 827م⁽¹²¹⁾ . ويمكن التوفيق بين النص التأسيسي الذي جاء على اللوحة الرخامية والذي جاء فيه أن البناء عام 206هـ/ 821م ، وبين ما ذكره المالكي من أن البناء كان في عام 212هـ/ 827م ، بأن هذا البناء كان في عام 206هـ/ 821م ثم دعت الحاجة إلى إجراء توسعات وإصلاحات في هذا الرباط تسمح بإقامة أعداد كبيرة من المرابطين للاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية والدفاع عن شواطئ البلاد ، فكان البناء الثاني الذي تم عام 212هـ/ 827م ، يدعم ما ذهبنا إليه أن المالكي ذكر أن ما

(117) المؤرخ محمد بن يوسف الوراق قيرواني هاجر إلى قرطبة خدّم الخليفة الأندلسي المستنصر ، وألف له تاريخاً ضخماً في ممالك إفريقية ومسالكها عنه انظر : الضبني : بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس ، مدريد 1882 ، ص 131 .

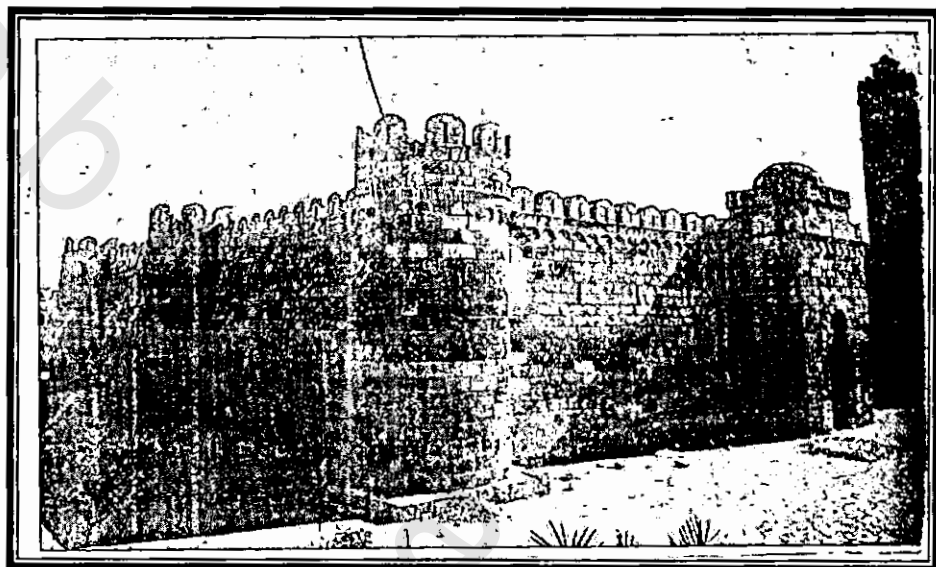
(118) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص 36 .

(119) السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، ص 367 . (6)

(120) كريزول : مرجع سابق ، ص 309 ، السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، ص 364 .

(121) رياض النفوس : ج 1 ، ص 422 ، أماري : مرجع سابق ، ص 186 .

قام به عبد الرحيم هو بناء الرباط وإصلاحه⁽¹²²⁾. وبعد البناء الجديد أصبح هذا الرباط حصناً عظيماً كالمدينة مسوراً بسور متقن، وعرف بمحرس الرباط⁽¹²³⁾. وقد ساءت أحوال هذا الرباط بعد استيلاء الفاطميين على إفريقية عام 297هـ / 909م⁽¹²⁴⁾.



رباط سوسة السور الخارجي وباب الدخول الوحيد
موسوعة تاريخ أفريقيا العام المجلد 3

يضاف إلى ذلك قيام عدد من أبناء البيت الأغلبي ببناء بعض الأربطة الأخرى على ساحل البلاد، منها قصر دويد الذي جاء في النقش الخاص به أنه من بناء دويد بن إبراهيم ابن الأغلب على يد مولاة مسرور سنة 240هـ / 854م⁽¹²⁵⁾، ورباط حبش الذي يقع على

(122) المالكي : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 422 .

(123) البكري : مصدر سابق ، ص 35 .

(124) المالكي : مصدر سابق ، جـ 2 ، ص 222 .

بعد استيلاء الفاطميين على البلاد أدخل الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي 297-322هـ /

99-934م هذا الرباط من سكانه المرابطين وجعله مخزناً . المالكي : مصدر سابق ، جـ 2 ، ص 222 .

ويبدو أنه عاد إلى وضعه الطبيعي بعد انتقال الفاطميين إلى مصر يشهد على ذلك أن البكري يذكر في منتصف القرن الخامس الهجري أنه مأوى للأخيار والصالحين . البكري : مصدر سابق ، ص 35 .

(125) محمد حسن : مرجع سابق ، ص 150 .

البحر بسوسة⁽¹²⁶⁾ نسبة إلى الأمير حبش بن عمر بن عبد الله ابن الأغلب الذي غزا مالطة سنة 256هـ/ 869م واستعمل الرخام الذي جلبه من تلك الجزيرة في بناء هذا الرباط⁽¹²⁷⁾. وهناك رباط آخر يدعى رباط المدفون ويقع على خليج الحمامات على بعد كيلو ونصف الكيلومتر شمال هرقل⁽¹²⁸⁾، فهو كما يذكر التجاني من بناء ابن الأغلب⁽¹²⁹⁾، لكنه لم يحدد اسم أي أمير من الأمراء الأغالبة قام ببنائه.

ولم يقتصر تشييد الأربطة على الأمراء الأغالبة، فقد شيد بعض أثرياء المجتمع الإفريقي عدداً من الأربطة الأخرى منها الرباط المعروف بقصر الطوب والذي يقع على بعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب من سوسة محاذياً للبحر⁽¹³⁰⁾، ولا نعثر في المصادر على اسم مؤسسه. وكان الفقيه القيرواني محمد بن سحنون المتوفى عام 256هـ/ 869م يخرج إلى هذا الرباط للعبادة والحراسة على المسلمين. وقد استطاع هذا الفقيه والمرابطون في هذا الرباط التصدي لقراصنة الروم الذين نزلوا على ساحل إفريقية وهزموهم وأجبروهم على الفرار⁽¹³¹⁾.

ومن رباطات الساحل القصر الجديد المعروف بقصر سهل الرباط، وهو الذي يقع على البحر بسوسة قبالة قصر الطوب. وقد بناه سهل بن عبد الله بن سهل القبرياني المتوفى عام 282هـ/ 895م، وهو من الفقهاء ومن أهل الخير⁽¹³²⁾، وكان كثير المال وأنفق في بناء هذا الرباط نحو ألف مثقال⁽¹³³⁾. وهناك على الساحل أيضاً رباط ابن الجعد الذي يقع على بعد خمسمائة متر من رباط المنستير⁽¹³⁴⁾، وكان القيم على بنائه أبا عبد الله محمد بن

(126) المالكي: مصدر سابق، ج2، ص 135.

(127) محمد حسن: مرجع سابق، ص 148.

(128) المرجع السابق والصفحة.

(129) رحلة التجاني: ص 24.

(130) محمد حسن: مرجع سابق، ص 149.

(131) المالكي: مصدر سابق، ج1، ص 446، 447.

(132) القاضي عياض: مصدر سابق، ج4، ص 401، الدباغ: مصدر سابق، ج2، ص 104.

(133) القاضي عياض: مصدر سابق، ج4، ص 401.

(134) محمد حسن: مرجع سابق، ص 149.

عبادة السوسي المتوفى عام 303هـ/ 915م ، أي إنه بني تقريباً في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، وكان عامراً بالمرابطين⁽¹³⁵⁾ . يضاف إلى ذلك رباطان ينتميان إلى العهد الأغلب لا نعرف مؤسسيهما ، الأول هو رباط هرقل الذي سكنه أبو زكريا الهرقلي والذي كان حياً في منتصف القرن الثالث الهجري⁽¹³⁶⁾ . والرباط الثاني رباط جمة وينسب هذا الاسم إلى شبه جزيرة جمة التي أقيم فوقها مدينة المهديّة ، ويعرف هذا الرباط بقصر المرباط⁽¹³⁷⁾ .

كما شيد في مدينة صفاقس عدد من الحصون للرباط بها يؤكد على ذلك إن أبا خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي المتوفى عام 210هـ/ 825م ، كان مقيماً برباط جهة صفاقس⁽¹³⁸⁾ . كما في المسافة الواقعة بين صفاقس وبنزرت⁽¹³⁹⁾ حصون متقاربة ينزلها المرباطون والعباد⁽¹⁴⁰⁾ .

والجدير بالذكر أن هذه الأربطة والحصون التي انتشرت على طول سواحل البلاد قد وجدت الرعاية والاهتمام من أمراء الأغالبة ، فبالإضافة إلى قيام بعضهم ببنائها ، فإن البعض الآخر منهم قام بالحفاظ على عمارتها وإصلاحها منهم الأمير أبو إبراهيم أحمد الأغلب (242-249هـ/ 856-863م) الذي قام بترميم وإصلاح بعض هذه الأربطة⁽¹⁴¹⁾ . كما سلك نفس المسلك الأمير محمد بن أحمد بن الأغلب (250-261هـ/ 864-875م)⁽¹⁴²⁾ . أما الأمير إبراهيم بن أحمد (261-289هـ/ 875-902م) فبالإضافة

(135) المالكي : مصدر سابق ، ج2 ، ص 116 .

(136) المصدر السابق ، ج1 ، ص 415 .

(137) المصدر السابق ، ج1 ، ص 431 .

(138) القاضي عياض : مصدر سابق ، ج3 ، ص 317 .

(139) بنزرت مدينة بإفريقية من عمل صنفورة ، متصلة بالبحر ، وهي مدينة صغيرة عامرة بمرافقها وعليها سور قديم حصين . انظر : الحميري : مصدر سابق ، ص 104 .

(140) اليعقوبي : مصدر سابق ، ص 189 .

(141) ابن الأثير : مصدر سابق ، ج6 ، ص 66 .

(142) المصدر السابق والجزء ، ص 67 .

إلى بناء الحصون والمدارس على سواحل البحر ، فقد بني سورًا حول مدينة سوسة لتأمين المدينة من التهديدات الخارجية⁽¹⁴³⁾ .

وقد تمتعت الأربطة بالكثير من الأوقاف المحبسة عليها ، والتي وقفها الذين شيدوها ، بالإضافة إلى الأوقاف التي وقفها أهل البر لكي تؤدي هذه الأربطة رسالتها في الدفاع عن سواحل تلك البلاد ضد قراصنة الروم . فقد كان لرباط المنستير بسوسة ، ورباط شقائنص القريب من المهدية أوقاف كثيرة بمدن إفريقية⁽¹⁴⁴⁾ . كما كان لهذا الرباط أوقاف كثيرة لصالح المرابطين ، منها جميع الأراضي المتصلة بهذا الرباط التي كانت تستخدم كمرعى للدواب والزراعة . كما كان هناك بساتين موقوفة على رباط سوسة⁽¹⁴⁵⁾ . وبالإضافة إلى وقف الدور والخوانيت على تلك الأربطة⁽¹⁴⁶⁾ فقد تم وقف بعض الحمامات ، فحمام الجزارين بالقيروان كان وقفًا على قصر سهل القبرياني أي رباط القصر الجديد⁽¹⁴⁷⁾ . كما شمل الوقف على هذه الأربطة السلاح والفرس⁽¹⁴⁸⁾ .

وبالرغم من قلة المادة العلمية التي توضح الأعيان الموقوفة على الأربطة ، فإن الباحث يرى أنها كانت تتميز بخصامتها ، يؤكد هذا الاستنتاج قيام عبيد الله المهدي (297-322هـ/ 909-934م) بعد أن تولى أمر إفريقية بعد القضاء على دولة الأغالبة بالاستيلاء على أموال أحباس الأربطة والحصون⁽¹⁴⁹⁾ ، وقد شجعه على اتخاذ هذا القرار ضخامة أوقاف هذه الأربطة والحصون .

(143) المصدر السابق والجزء ، ص 256 ، 257 .

(144) ابن حوقل : مصدر سابق ، ص 73 .

(145) محمد بن مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، دار الفكر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج2 ، ص 193 .

(146) ابن أبي زيد القيرواني : مصدر سابق ، ج2 ، ص 123 .

(147) المالكي : مصدر سابق ، ج2 ، ص 483 .

(148) البرزلي : مصدر سابق ، ج5 ، ص 415 .

(149) المالكي : مصدر سابق ، ج2 ، ص 56 .

وفي ظل غياب الوثائق الوقفية التي تبين شروط الواقفين على الأربطة ، نستطيع أن نعثر على بعضها في ثنايا كتب النوازل ، منها لا يسكن الحصون والأربطة إلا من فيه من القوة والقدرة على الحراسة والقتال ، وألا يعمل المرباطون بحرفة التجارة لأنها ليست من شأن المرباطين⁽¹⁵⁰⁾ . عدم تغيير ما تم وقفه على الأربطة ، فإذا تم وقف أرض تنبت بها الحلفا لا ينبغي تغييرها بأن تحول إلى الزراعة⁽¹⁵¹⁾ . وألا يشرب من ماء مواجل الحصون إلا المرباطون بها⁽¹⁵²⁾ . وإذا احتاج الرباط إلى إصلاح فيصلح من غلة الوقف⁽¹⁵³⁾ .

أما بالنسبة للسلاح الذي كان يتم وقفه على الأربطة لدفع الروم إذا هاجموا سواحل البلاد⁽¹⁵⁴⁾ فيشمل السيوف والرماح والدروع ، وكان المجاهدون يستخدمون الدواب كالفرس والبغال⁽¹⁵⁵⁾ ، وكانت الأربطة المتجاورة تتعاون مع بعضها البعض فيما يخص السلاح ، فكان أهل الرباط يستعيرون السلاح من الرباط المجاور لهم إذا كانت هناك حاجة ثم يردوه بعد استخدامه . وفي ذلك سئل الإمام سحنون هل يجوز هذا ؟ فقال : "أهل كل رباط أولى بما جعل فيه من سلاح إلا أن يكون أمراً قد عرفوه إذا جعل السلاح في رباط انتفع به الرباط المجاور ، فالأوقاف كلها إذا كانت لله انتفع بعضها في بعض"⁽¹⁵⁶⁾ .

وكانت إدارة الرباط في يد أمين الرباط ، فقد كان هناك أمين على رباط المنستير⁽¹⁵⁷⁾ ، وكان هذا الأمين يتولى تسيير شئون الحياة داخل الرباط والسهر على حراسته التي يؤمنها

(150) الونشريسي : مصدر سابق ، جـ 7 ، 236 ، 237 .

(151) المصدر السابق والجزء ، ص 37 ، 38 .

(152) المصدر السابق والجزء ، ص 38 .

(153) البرزلي : مصدر سابق ، جـ 5 ، ص 403 .

(154) ابن أبي زيد القيرواني : مصدر سابق ، جـ 12 ، ص 123 .

(155) المالكي : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 446 .

(156) ابن أبي زيد القيرواني : مصدر سابق ، جـ 12 ، ص 123 ، البرزلي : مصدر سابق ، جـ 5 ، ص 392 ،

393 .

(157) المالكي : مصدر سابق ، جـ 2 ، ص 437 .

عشرة أشخاص على الأقل ، ويتأكد أن البواب يغلق باب الرباط في المساء ، كما يهتم بترميم وإصلاح الرباط إذا احتاج إلى ذلك⁽¹⁵⁸⁾ .

على أية حال فقد كانت الوظيفة العسكرية للأربطة هي العامل الرئيس في ظهورها ، يؤكد ذلك العناصر المعمارية لتلك الأربطة مثل السور وأبراج الزوايا والمنارة المستعملة للمراقبة والباب الوحيد . بالإضافة إلى معطيات عديدة تبين لنا هذه الوظيفة ، منها التناسق في المسافة الفاصلة بين هذه الأربطة والتي كانت لا تزيد عن ستة أو سبعة كيلومترات في المعدل ، بطريقة تجعل الاتصال سهلاً بين رباط وآخر⁽¹⁵⁹⁾ ، ومنها أيضاً شحن هذه الأربطة بالسلاح والدواب المستخدم للجهاد .

هكذا نشأت الأربطة للدفاع أساساً عن سواحل البلاد ، وكما تطور الأسطول الإفريقي في عهد الأغلبة تطورت وظيفتها من الدفاع إلى الهجوم ، فمن مدينة سوسة حيث تنتشر الأربطة ركب أسد بين الفرات⁽¹⁶⁰⁾ البحر غازياً إلى صقلية سنة 212هـ / 827م⁽¹⁶¹⁾ وفتح صقلية زادت الهيمنة الأغلبية على الحوض الغربي للبحر المتوسط⁽¹⁶²⁾ .

والجدير بالذكر أن فتح صقلية لم يقض نهائياً على نشاط قراصنة الروم على السواحل . فقد شارك الإمام محمد بن سحنون أثناء إقامته في الرباط المسمى بقصر الطوب من أجل العبادة والحراسة في التصدي لهؤلاء القراصنة الذين نزلوا بساحل البحر ، فتقلد سيفه وأخذ رمحاً واجتمع مع المرابطين ، واتجه بهم إلى الروم فوجدتهم قد اشرفوا على نهب الأموال وسبي النساء ، فقاتلهم وهزمهم حتى دخلوا إلى البحر هارين⁽¹⁶³⁾ .

(158) محمد حسن : مرجع سابق ، ص 158 .

(159) المرجع السابق ، ص 145 .

(160) أسد بن الفرات (145-212هـ / 762-827م) أصله من نيسابور ، له رحلة للمشرق سمع من مالك الموطأ ودرس الحديث ، كان ثقة ، مات في صقلية قبل استكمال فتحها . انظر : أبو العرب تميم : مصدر سابق ، ص 163-166 .

(161) المالكي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 271 ، 272 ، التجاني : مصدر سابق ، ص 26 .

(162) محمد حسن : مرجع سابق ، ص 145 .

(163) المالكي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 446 ، 447 .

وقد اضطلع الرباط بالإضافة إلى دوره العسكري بأدوار أخرى ، فقد كان مكاناً للزهاد والصوفية الذين انعزلوا فيه للعبادة وكرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم⁽¹⁶⁴⁾. وتقدم لنا بعض كتب الطبقات العديد من تراجم الزهاد والصوفية الذين استقروا في هذه الأربطة⁽¹⁶⁵⁾، وكان لذلك أثره الكبير في تطور الزهد والتصوف في تلك البلاد .

وكان للرباط أيضًا دوره العلمي والثقافي ، وقد أعان على ذلك وقف المصاحف والكتب الدينية عليه . فقد قام محمد بن عبد الرحيم بن عبد ربه الزاهد والمتوفى عام 247هـ / 861م بحبس كتب كثيرة بخطه وضبطه على رباط زياد⁽¹⁶⁶⁾ . وإذا كنا لا نملك إلا إشارة واحدة بخصوص وقف الكتب على الأربطة فإننا نعتقد أن وقف الكتب عليها يمثل ظاهرة . كما كان يسكن هذه الأربطة العديد من فقهاء المالكية بصفة دائمة أو مؤقتة ، فالإمام سحنون صام بقصر الرباط أي رباط سوسة خمسة عشر رمضان . كما أن محمدًا ابنه كان لا يكاد ينقطع عن الإقامة فيه⁽¹⁶⁷⁾ . كما كان في هذا الرباط أيضًا أربعة عشر فقيهاً من أصحاب الإمام سحنون ، ولكثرة فقهاء المالكية في هذا الرباط فقد سُمي بدار مالك لكثرة من كان به من أهل العلم في ذلك الزمان⁽¹⁶⁸⁾ .

وأخيرًا تأتي شهادة المالكي عن مدينة سوسة لتبين أثر انتشار الأربطة على هذه المدينة فيقول عنها إنه لا يوجد بها شيء من المنكر أو اللهو ، وكان أهلها مشغولين بالحرب والحراسة على المسلمين ، وقيام الليل وصيام النهار⁽¹⁶⁹⁾ .

(164) السيد عبد العزيز سالم : مرجع سابق ، ص 300 .

(165) المالكي : مصدر سابق ، الجزء الأول أنظر تراجم رقم 126 ، 128 ، 142 ، 143 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147 ، 157 ، 158 ، 159 ، الجزء الثاني تراجم رقم 166 ، 169 ، 179 ، 180 ، 238 ، 241 ، 246 ، 262 .

(166) المالكي : مصدر سابق ، ج1 ، ص 421 ، أماري : مرجع سابق ، ص 186 .

(167) ابن مقديش : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1988 ، ج2 ، ص 451 .

(168) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(169) رياض النفوس ، ج1 ، ص 487 .

وإذا كانت الأوقاف في إفريقية خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة أوقافاً عامة ، أسهمت في تقديم الخدمات الاجتماعية لأبناء المجتمع ، بالإضافة إلى تعمير بيوت الله ، وتأمين سواحل البلاد من الأخطار الخارجية ، فقد عرفت تلك البلاد وتلك الفترة الزمنية أيضاً الأوقاف الخاصة على الذرية .

الوقف على الذرية :

لجأ بعض أرباب الأسر إلى الوقف على ذريته كوسيلة للحفاظ عليهم وعلى أملاكهم ، وضمان حد أدنى من أسباب الحياة لهم . وكان هذا الوقف يمنع بعض أفراد الأسرة من سوء التصرف في الممتلكات التي تركها الأب .

وتتنوع الأعيان الموقوفة على الذرية يتبين ذلك حين وقف أحد الأفراد على ذريته أراضي زراعية زرعت بالحبوب وأصناف الشجر والفاكهة ، وسئل الإمام سحنون عن كيفية تقسيم هذه الأوقاف على الموقوف عليهم ؟ فأجاب أن غلة هذه الأراضي تقسم حسب شروط الواقف إن كان فيه شروط ، وإن لم يكن له شروط قسمت على قدر الاجتهاد على أن تحفظ الأصول وتقسم الغلة⁽¹⁷⁰⁾ .

ويسأل أيضاً سحنون عمن وقف داره على ولده وولد ولده⁽¹⁷¹⁾ ، ومن وقف فندقاً على أبنائه وأعقابهم⁽¹⁷²⁾ . وفي السؤال الأخير نص الواقف في وقفه إذا انقرض الأعقاب فالوقف في سبيل الخير⁽¹⁷³⁾ ، بمعنى أن يتحول الحبس الذري إلى حبس عام عند انقطاع الأعقاب .

(170) ابن أبي زيد القيرواني : مصدر سابق ، ج2 ، ص44 .

(171) المصدر السابق والجزء ، ص96 ، 97 .

(172) المصدر السابق والجزء ، ص122 .

(173) المصدر السابق والجزء والصفحة .

وفي تلك الفترة تم تحديد ما المقصود بالحبس على الأعقاب ، فقد قال الإمام مالك :
 "إن العقب الولد من ذكر وأنثى وإن أبناء ذكور الولد عقب لأبائهم ، وليس ابن البنت
 عقباً ذكراً كان أو أنثى" (174). وقد أكد على ذلك الإمام سحنون حين سئل عمن وقف
 على ابنته وعلى ولدها قال : " يدخل في ذلك ذكور ولدها وإنائهم ، فإذا ماتوا كان ذلك
 لولد الذكور إنائهم وذكورهم ولا شيء لأولاد بناتها من ذكر وأنثى " (175). هكذا كفل
 الوقف تماسك الأسرة وضمان العيش الكريم لها .

(174) المصدر السابق والجزء ، ص 25 .

(175) ابن أبي زيد القيرواني : مصر سابق ، ج 12 ، ص 26 ، البرزلي : مصدر سابق ، ج 5 ، ص 329 .

الخاتمة

وهكذا فقد عرضت هذه الدراسة للأوقاف في إفريقية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وقد تمخضت هذه الدراسة عن عدد من النتائج منها :

أنها أوضحت في ظل غياب الوثائق الوقفية أحكام الوقف وقواعده خلال الفترة الزمنية للدراسة اعتماداً على فتاوى الإمام سحنون وابنه محمد ، وأن هذه الأحكام أسهمت في الحفاظ على الأوقاف لكي تؤدي وظيفتها في رقي المجتمع الإفريقي وتطوره خاصة الحكم بعدم جواز بيع الوقف ، وعدم جواز تعويضه .

وأبرزت هذه الدراسة أيضاً كثرة الأوقاف وتنوعها ما بين الثابت كالأراضي والعقارات والدور والخوانيت والحمامات ، والمنقول كالثياب والمتاع والفرس والرقيق والسلاح . وقد أدت هذه الكثرة إلى وجود إدارة تدير الأوقاف كانت في يد القاضي الذي يعاونه الناظر أو الأمين ، والأخير كان يعاونه من يقوم بتحصيل كراء هذه الأوقاف .

وقد أكدت هذه الدراسة على الدور الجلي للأوقاف في مجال تقديم الخدمات الاجتماعية ، فأشارت إلى تعدد وجوه البر والإحسان بفضل هذه الأوقاف فكانت هناك أوقاف على الفقراء والمساكين ، تخفف عنهم وطأة ظروف الحياة ، وأوقاف تم وقفها لعلاج مشكلة قلة المياه في تلك البلاد من خلال إنشاء المواجهل والآبار المسبلة . وامتدت الخدمات الاجتماعية إلى مجال توفير الرعاية الصحية . وبذلك أصبحت الأوقاف العمود الفقري في مجال الخدمات الاجتماعية بصفة عامة .

وبينت الدراسة أيضاً الدور الهام للأوقاف في ازدهار الحياة الدينية وذلك من خلال تشييد المساجد والجوامع في كافة أنحاء مدن إفريقية ، وقد شارك في بنائها الحكام وأثرياء المجتمع من الصالحين الأخيار . كما كان للأوقاف دورها في ترتيب وإنشاء الوظائف الخاصة بإقامة الشعائر الدينية .

وأبرزت الدراسة الدور الهام الذي قامت به الأوقاف في تأمين سواحل البلاد من سوسة شمالاً إلى صفاقس جنوباً ، من خلال سلسلة من الأربطة التي كانت عامرة

بالمجاهدين والمرابطين الذين كانوا يراقبون البحر ويتصدون لأية أخطار حقيقية تهدد البلاد . وقد شارك في بناء تلك الأربطة والحصون حكام البلاد وأهل البر والتقوى من أبناء المجتمع . كما حرص بعض أمراء الأغالبة على ترميم وإصلاح تلك الحصون والأربطة حفاظاً على عمارتها وتحقيق الهدف من نشأتها .

إذا كانت الأربطة ظهرت كمؤسسة عسكرية لمواجهة الأخطار الخارجية فإن هذا لم يمنع اضطلاعها بأدوار أخرى ، إذ كانت مكاناً لاعتكاف الزهاد والصوفية ، ومقرّاً لتدريس العلم الديني بفضل من سكنها من العلماء والفقهاء ، وما تم وقفه عليها من مصاحف وكتب دينية ، كل ذلك دون أن تفقد هذه الأربطة دورها الأساسي كخط دفاع حصين عن البلاد بفضل الأوقاف التي رصدت لها .

وأخيراً عرفت هذه البلاد في الفترة الزمنية للدراسة الأوقاف على الذرية وقد حافظت هذه الأوقاف على تماسك الأسرة ، ووفرت لها حياة كريمة .

oboi.kan.com

**انتفاضة ريف قرطبة الجنوبي سنة 202هـ / 818م
وعلاقتها بفتح جزيرة إقريطش**

يحيى زكريا سـرور
باحث في تاريخ الحضارة الإسلامية

oboi.kan.com

انتفاضة ريبض قرطبة الجنوبي سنة 202هـ / 818م وعلاقتها بفتح جزيرة إقريطش

تعد انتفاضة الريبض القبلي لمدينة قرطبة المعروف باسم "ريبض شقندة - Secunda"⁽¹⁾ الحدث الأبرز بين أحداث عهد الأمير "الحكم بن هشام" [180-206هـ / 796-822م] ثالث أمراء بني أمية بالأندلس ، حتى أن ذكره في كتب التاريخ ارتبط بها فُعرف بـ "الحكم الربضي" نسبة إلى هذه الحادثة ؛ وقد استرعت هذه الثورة الشعبية انتباه المؤرخين ولفتت أنظارهم ، فاكثفت معظمهم عند ذكره لأحداث هذه الفترة من تاريخ الأندلس بالإشارة إلى هذه الانتفاضة وحدها من بين أحداث هذا العهد الكثيرة والهامة ، والتي كان لبعضها آثارٌ عميقة في مصير الأندلس⁽²⁾.

(1) الريبض: هو ضاحية المدينة أو الحي المشرف عليها، ويقع "ريبض شقندة" جنوبي قرطبة على الضفة الجنوبية من نهر الوادي الكبير في مقابل قصر الإمارة ، وتصل بين الريبض وقرطبة "القنطرة الرومانية" الشهيرة، والتي كان هشام بن عبد الرحمن الداخل قد أعاد بناءها ، فعمرت الجهة المقابلة لها وعرفت بالريبض.

(2) انظر على سبيل المثال ما كتبه كل من :

- ابن حزم: أبو محمد علي بن سعيد . ت 456هـ : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليثي بروفنسال . القاهرة 1948م ، ص 87 .

- الحُمَيْدِي: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي . ت 488هـ : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1952 ، ص 11 .

وتكمن خطورة هذه الثورة في كونها عملاً شعبياً محضاً هدد مباشرة رأس السلطة في الأندلس، وحاول النيل من شخصه ، وبالتالي كانت هذه الثورة مغايرة لما عرفته قرطبة من ثورات قام بها الخارجون على السلطة أو الطامعون فيها .

وعلى عكس ما قاله البعض من أن انتفاضة سكان الربض كانت « أشراً ويطراً، وملاً للعافية وطبعاً جافياً، وعقلاً غيبياً، وسعيًا في هلاك أنفسهم، إذ لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف مال، ولا انتهاك حرمة، ولا تعسف في ملكة »⁽³⁾ فإن أحداث عصر الأمير الحكم بن هشام تدل على ما يخالف هذا الرأي.

ولذا لا بد من التعرف على أسباب هذه الثورة، وأحداثها حتى نتتمكن من فحص نتائجها وتحليلها .

عندما توفي هشام الأول في صفر 180 هـ / إبريل 796 م وهو في الأربعين من عمره⁽⁴⁾، ترك على عرش الأندلس ابنه " الحكم " الذي استبشر الناس بمقدمه خيرًا، ورأوا فيه شابًا عاقلًا، وحاكمًا متمرسًا بشئون الحكم والإدارة في أيام أبيه، لكن الأحداث أتت بعكس ما يرجوه الناس من خير وطمأنينة ؛ فما إن تولى " الحكم " مقاليد السلطة في قرطبة، حتى عصفت بالأندلس رياح الثورة العاتية، وخرجت عليه مدن الشمال الأندلسي الواحدة تلو الأخرى ، فما تسكن ربح الثورة في بلد حتى تهب من بلد آخر ، فهذه

= - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق د. محمد زينهم عزب ، القاهرة 1994 م ، ص 30 .

- المقرئ: أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى التلمساني ، ت 1041 هـ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت 1969 م ج 1 ص 338 .
ستجد أن هذه المصادر التاريخية الأندلسية ركزت اهتمامها على حادثة الربض وحدها ولم تكتب الكثير عن بقية أحداث عصر الحكم.

(3) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق جورج كولان ، ليفي بروفنسال، ج 2 ص 71.

(4) ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن مزاحم ، ، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإياري، طبعة دار الكتاب المصري اللبناني، القاهرة وبيروت 1980 م ، ص 66 ؛ وابن عذاري المراكشي : البيان المغرب، ج 2 ص 68 .

"طليطلة" دار الخلاف على الأئمة على حد قول ابن حيان⁽⁵⁾ تخرج عن طاعة الأمير الحكم ، ومن بعدها "سرقسطة - Zaragoza" التي كانت صداداً مزمناً في رأس أمراء بني أمية بالأندلس تنور هي الأخرى ، ومن بعدها يأتي الدور على "ماردة - Mérida" ومن ورائها "وشقة - Huseca" .

ومن قبل هذه الفتن والثورات كان خروج "سليمان وعبد الله"⁽⁶⁾ عمي الحكم عليه وصراعهما معه ، فشقي بهما وشقيت الأندلس فلم تعرف طعاماً للسكينة والهدوء طيلة مدة صراعه معها⁽⁷⁾ ؛ واستغل الفرنجة هذا الصراع الداخلي بين الحكم وعميه فقاموا بغزو شمال البلاد والاستيلاء على مدينة برشلونة البحرية الهامة سنة 185هـ / 801 م « وانتقلت إليها يومئذ رابطة الإفرنج عن مدينة جرنندة فعظمت بذلك على أهل الإسلام الحسرة »⁽⁸⁾ .

ولما تمكن الحكم من القضاء على عمه "سليمان" سنة 184هـ / 800 م ، وتصلح مع عمه "عبد الله المعروف بالبلنسي" سنة 187هـ / 803 م بدأت في تاريخ الأندلس مرحلة جديدة .

(5) ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف القرطبي . ت 469هـ : السفر الثاني من كتاب المقتبس ، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي ، مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية ، الرياض 2004 ، ص 164 .

(6) "سليمان وعبد الله" هما ابنا الأمير عبد الرحمن الداخل ، وكانا على خلاف مع أخيهما هشام بعد توليه حكم الأندلس حيث نازعاه سلطانه وثارا عليه ، واستمر نزاعهما مع ابنه الحكم صدر إمارته .

(7) عن عصر الأمير الحكم وأهم أحداثه انظر: ابن حيان القرطبي : المقتبس ، ص 93 وما يليها ؛ وابن عذاري المراكشي ج 2 ص 68 وما بعدها ؛ وانظر كذلك ليثي بروفسال : تاريخ إسبانيا المسلمة ، الجزء الأول ، الترجمة العربية لفريق من أساتذة اللغة الإسبانية ، بإشراف صلاح فضل ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 2000م ، ص 135 وما بعدها ؛ محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 2000م ، ج 1 ص 230 وما بعدها ؛ وانظر كذلك عبد المجيد نعنعي : الدولة الأموية بالأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1989م ، ص 183 وما بعدها .

(8) ابن حيان: المقتبس ، ص 107 ؛ وللمزيد حول سقوط برشلونة راجع شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا ، طبعة الحلبي - القاهرة 1933م ، ص ص 130 - 133 .

حيث « صفا الملك بالأندلس للأمير الحكم وأشدت سلطانه، فعتا وتجبى، واعتسف الرعية »⁽⁹⁾ وأظهر أبهة الملك بالأندلس، وأسرف في تأييد هيئته، وجدد عهد أجداده في المشرق ببذخه وروعته، واستكثر من الممالك والبطانة⁽¹⁰⁾.

وأصرَّ الحكم على الانفراد بالسلطة ومباشرة الأمور - كل الأمور - بنفسه ؛ لكن طبقة الفقهاء والتي كان أبوه هشام قد قربها من مواقع السلطة والنفوذ، وسمح لها بالتدخل في أمور الدولة وشئون الحكم والإدارة باسم المحافظة على أحكام الإسلام، وجدت في سياسة الحكم الجديدة ضياعاً لهيئتها ونفوذها وتصدعاً لمركزها، فرفضت بصورة علنية وقاطعة سياسة الحكم هذه، وسعت في الدعاية ضده والتشهير به، وإثارة الناس عليه، وأخذوا يستغلون المنابر والمساجد للتنديد به والتعريض بسياسته، التي كانت ضربة قاضية لأمانهم وأحلامهم في أن يحكموا الأمة من وراء ستار، وأن تكون لهم الكلمة العليا في طول البلاد وعرضها .

ولاقى دعاية الفقهاء رواجاً بين طبقات المولدين والبربر الذين كانوا ينقسمون على العرب كبرياءهم واستشارتهم بالمناصب والنفوذ، وأحسن هؤلاء الفقهاء استغلال التكوين العنصري للشعب الأندلسي في رفع درجة الاستعداد للتمرد والثورة على الأمير بين مختلف طبقات أهل الأندلس⁽¹¹⁾ ؛ وكان الحكم بإسرافه في اللهو والبذخ يُسبغ على حملات هؤلاء الفقهاء ضده مصداقية أمام العامة ؛ إذ كان شخصاً مرحاً محباً للحياة ميالاً للمتعة يهوى الصيد والقنص، ويشارك في مجالس الأنس والطرب، ويخالط الشعراء الماجنين، والندماء والمغنين ؛ وعلى هذا فإن المواجهة بين الأمير الأموي والفقهاء بدت منذ مطلع عهده قدراً لا مفر منه ولا مهرب من لقائه .

وعندما شعر الفقهاء بأن معارضة الناس في قرطبة وغيرها من المدن بلغت حدّاً يسمح لهم بالعمل على الإطاحة بالأمير وأن يستبدلوا به من يُمكنهم من أغراضهم، صمموا على إقصائه عن إدارة أمور البلاد، وكان ذلك في جمادى الآخرة 189 هـ/

(9) ابن حيان: المقتبس، ص 119.

(10) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج 1 ص 230.

(11) د. سامية مصطفى مسعد: التكوين العنصري للشعب الأندلسي وأثره على سقوط الأندلس، القاهرة 2004م ص 58 وما بعدها.

مايو 805 م حيث عرضوا على أحد الأمويين من أبناء عمومته وهو "محمد بن القاسم"⁽¹²⁾ أن يخلف الحكم في إمارة الأندلس، فأظهر الاستجابة لهم، لكنه أفسى سرهم، وخذلهم. وتقرّب إلى الحكم بدمائهم، وقدم له قائمة بأسمائهم « فلم يقلهم العثار، وبطش بهم بطش الجبارين، وجمع لهم ما بين سفك الدماء وفظاعة التمثيل »⁽¹³⁾ « فأعدم اثنين وسبعين رجلاً من بياض أهل قرطبة »⁽¹⁴⁾، كان منهم عدد من الفقهاء المعروفين مثل يحيى بن مضر القيسي صاحب مالك، وعيسى بن عبد البر، ومالك بن يزيد التجيبي، وصاحب السوق موسى بن سالم الخولاني⁽¹⁵⁾، وأمر الحكم بنصب الجذوع لهم على شاطئ النهر عند الساحل المقابل لقصر الإمارة المسمى "بالرصيف" وصلبهم على مرأى ومسمع من الناس.

ويمكن تصور حالة الناس في قرطبة ووقع هذا الإجراء الدموي عليهم، ومدى كراهيتهم للأمير الحكم بعد هذه المذبحة، يصف ابن حيان المشهد بقوله: « فُدْعِرَ منه أهل الأندلس طرّاً، وسارت الرُّكبان بحديث سطوته الشنعاء، وتشزّر من لدن هذا الوقت لرعيته فقلب لهم مجنّ جوره، ومد إليهم برثن وحشته وأخذ أهبته وحذره »⁽¹⁶⁾ « فمرج الناس بعد الحادثة على هؤلاء الوجوه فيهم، وثبتت عداوتهم لسلطانهم فكانوا يجتمعون في المساجد والمحافل يخوضون في شأنهم ويكبرون ما جرى لهم ويتصل ذلك بالأمير الحكم فيتوقع ثورتهم، ويتأهب لانتكاستهم »⁽¹⁷⁾.

(12) ابن حيان: المقتبس، ص 121؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج 2 ص 71.

- هو محمد بن القاسم بن عبد الملك بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، كان الأمير الحكم عم أبيه القاسم، وليس ابن عمه كما ذكرت المصادر. راجع ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 94.

(13) ابن حيان: المقتبس، ص 121؛ ليثي بروفنسال: تاريخ إسبانيا المسلمة، ص 142؛ محمد عبد الله عنان ج 1 ص 230.

(14) ابن حيان: المقتبس، ص 121؛ ابن عذاري: ج 2 ص 72؛ وبياض أهل البلد: أهل الشهرة والمكانة فيه.

(15) المقتبس، ص 121.

(16) السابق، ص 122.

(17) السابق، ص 125.

وكرر فعل لهذه المذبحة ثار أهل الربض في رمضان من نفس السنة / أغسطس 805م، لكن الحكم استطاع السيطرة على الأمر، وقبض على زعيم الثوار، وسحق الهياج دون رافة فهدأت قرطبة، ولكن إلى حين⁽¹⁸⁾.

وكانت طليطلة مركزاً دائماً للثورات في شمال البلاد حتى أن ابن حيان يسميها "دار الخلاف على الأئمة" لكثرة ثورات أهلها، ففي عام 181هـ / 797م قام أحد الخارجين ويدعى "عبدة بن حميد" بالثورة على الأمير الحكم في هذه المدينة، فأرسل إليه الحكم جيشاً بقيادة "عمروس بن يوسف المولد"⁽¹⁹⁾ الذي استطاع إخماد هذه الثورة.

وتخلص "عمروس" من هذا الناصر بسلاح الاغتيال⁽²⁰⁾، فأذعن هذه المدينة الثائرة بعض الوقت لسلطان الحكم، لكن هذا الهدوء المؤقت ما لبث أن تلاشى وعادت طليطلة إلى الثورة من جديد؛ لم يجد الحكم وسيلة لتهدئة هذه المدينة وإخضاعها سوى أن يقوم بتعيين "عمروس" حاكماً لها، ويمنحه كافة الصلاحيات التي تعينه على القضاء على التمرد الطليطلي الدائم.

وفعلاً نجح "عمروس" في كسب ثقة أهل طليطلة، حيث تظاهر بکراهيته للعرب ولبنی أمية، واستمال إليه الناس برأيه فيهم؛ ثم عمد إلى إنشاء حصن في شمال المدينة

(18) ابن حيان: المقتبس، ص 125، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ج 1 ص 37؛ ليقي بروفنسال: إسبانيا المسلمة، ص 142.

(19) عمروس بن يوسف المولد، أصله من وشقة، كان وصيفاً لمطروح بن سليمان الأعرابي الناصر في سرقسطة على الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، ثم اشترك عمروس مع خلف بن راشد في اغتيال مطروح بن سليمان سنة 175هـ، وقدم على الأمير الحكم فولاه "طلبيرة" وأصبح من كبار قادة الدولة. عنه راجع: العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1965، ص ص 26 - 27.

(20) ابن حيان: المقتبس، ص 125؛ محمد عبد الله عنان ج 1 ص 238؛ عبد المجيد نعنعي: الدولة الأموية في الأندلس، ص 188.

ليكون مأوى للجنود والموظفين الذين يضيّقون على أهل طليطلة ويسببون المشكلات لهم - في زعمه - وبعدها أتم بناء الحصن الجديد، انتقل إليه هو وجنده وعمال الإمارة، ثم أرسل إلى الحكم يُعلمه بانتهاء البناء⁽²¹⁾.

فأسرع الحكم بإرسال جيش تظاهر بأنه ذاهب لقتال نصارى الشمال تحت قيادة ابنه عبد الرحمن، وعندما وصل الجيش على مقربة من طليطلة خرج "عمروس" وأعيان البلد للقاء ولي العهد، وطلبوا إليه تشریفهم بزيارة مدينتهم، فقبل ولي العهد دعوتهم بعد إلحاحهم عليه، وعندئذ وجّه "عمروس" الدعوة إلى وجهاء المدينة لحضور حفل عشاء كبير أعده في الحصن تكريماً لولي العهد.

وعندما أقبل أعيان المدينة رتب دخولهم من باب وخروجهم من باب آخر، وجعل الخدم يقتادون المدعوين عشرة بعشرة إلى مجلس الطعام، كلما دخلت زمرة منهم أفضت إلى سيفين معدين على شفا حفرة يضربون أعناقهم، وأصوات المزامير والأبواق تحول دون سماع استغاثاتهم⁽²²⁾، فقتل في هذه المذبحة عدد كبير من أعيان هذه المدينة يزعم بعض المؤرخين أنهم خمسة آلاف⁽²³⁾، بينما يجعلهم البعض الآخر سبعمائة رجل، وهو رقم كبير في كل الأحوال⁽²⁴⁾ وكانت هذه المذبحة في عام 191هـ/708م أي بعد عامين من مذبحة الفقهاء.

من السهولة تخيل وقع هذه المذبحة على من بقي حيّاً في طليطلة، وعلى بقية أهل الأندلس، حيث رفعت هذه المذبحة المروعة رصيد الكراهية على الأمير الحكم في نفوس الناس إلى أقصى الدرجات، وكانت سبباً في حالة من السخط الشديد والغضب الأعمى.

(21) ابن عذاري: البيان المغرب ج2 ص69، محمد عبد الله عنان ج1 ص39، ليفي بروفنسال: السابق، ص139.

(22) رواية عيسى بن أحمد الرازي - ابن حيان: المقتبس، ص107.

(23) رواية الحسن بن مفرّج - ابن حيان: المقتبس، ص114.

(24) ابن حيان: المقتبس، ص113؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2 ص70؛ ليفي بروفنسال: إسبانيا المسلمة، ص140.

ولم يكتفِ الحكم بذلك بل أضاف إلى رصيده من الكراهية في قلوب الأندلسيين إضافات أخرى وذلك بما فرضه عليهم من الضرائب المهرقة؛ حيث فرض على الأطعمة ضرائب تعرف بالعشور « ألزمهم إياها وظيفاً مؤدي للسنين من غير خرص غلة ولا على حدود شرعية »⁽²⁵⁾، وقبيل انتفاضة الربض بوقت يسير فرض عليهم نوعاً آخر من الضرائب الاستثنائية يعرف بالمغارم وعهد بتحصيلها إلى « ربيع القومس - متولي المعاهددين النصاري بالأندلس - وقائد الحرس الخاص من الغلمان المعروفين بالحُرس »⁽²⁶⁾ فأضاف إلى استنكار الناس لهذه الضرائب، نفورهم من أن يتولى جبايتها منهم نصرائي⁽²⁷⁾.

ولنا أن نتخيل مستوى السخط والاستنكار الذي كان يملأ صدور أهل قرطبة على الأمير الحكم إذا ما علمنا بقاء الفقهاء على حالهم من إثارة العامة والنفخ في نيران حقدهم الملتهية لتصبح جحيماً يكاد أن يأكل الأخضر واليابس؛ وهكذا فإن الناس في قرطبة كانوا على أهبة الاستعداد للتمرد، وتكفي مجرد شرارة بسيطة لإشعال النار في الهشيم.

وتمثلت هذه الشرارة في حادث صغير وقع في الربض الجنوبي لقرطبة يوم الأربعاء 13 رمضان 202 هـ / 24 مارس 818م حيث ذهب أحد الجنود من حرس الأمير إلى حداد في الربض ليصلح له سيفه، وعندما تباطأ الحداد فقد الجندي صبره فقتله⁽²⁸⁾ « فثار الهيج لوقته، كأنما الناس كانوا يرتقبون فتداعوا إلى السلاح، وهتفوا بالخلعان، وبرز للكفاح أهل الربض القبلي بعدوة النهر القصوى قبالة القصر »⁽²⁹⁾، واتجهت جموع الشائرين إلى

(25) ابن حيان: المقتبس، ص 163، وخرص الغلة: أي تقديرها ظناً وتخميناً بغير يقين.

(26) القومس ربيع بن تدلف أو الكونت تيدلفو راهب إسباني كان رئيس نصاري الأندلس - عامل أهل الذمة - وكان أثيراً عند الأمير الحكم بن هشام حتى ولاه العديد من المناصب الهامة كقيادة الحرس الخاص به، وجباية الضرائب، وقد أساء معاملة المسلمين (يسومهم الخسف، ويُحدث فيهم المنكر، فكثرت شكايتهم منه لسوء آثاره وفرط أذاه) على حد قول ابن حيان، فكان أول ما قام به عبد الرحمن بن الحكم حين تولى إمارة الأندلس أن صلب ربيع القومس فضج الناس بالشكر لله تعالى على رفع فتنته. راجع ابن حيان: المقتبس، ص 184.

(27) ليفي بروفنسال: إسبانيا المسلمة، ص 143.

(28) ابن حيان: المقتبس، ص 147 [رواية عن عيسى بن أحمد الرازي، ويقول إن الجندي هو القاتل وليس القتيل].

(29) السابق، ص 148؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج 2 ص 76.

القصر مباشرة فأحاطت به من كل جانب، فجمع حاجب الحكم "عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث" وكاتبه "فطيس بن سليمان" ما استطاعا جمعه من قوات حاولا بها صد طوفان الثائرين الذي كان يتضخم دون هوادة، لكن قواتها عجزت عن وقف حركة هؤلاء الثوار الذين تمكنت جموعهم من اختراق صفوف الجند.

لم يتخذ الموقف إلا ما قام به "عبيد الله بن عبد الله" - صاحب الصوائف - و"إسحاق ابن المنذر" - المرواني - من جمع عدد من الفرسان النظاميين المنتشرين في قرطبة وتسلبوا بهم عبر "الباب الجديد" إلى مخاضة "الرملة - Rambla" ثم عبروا النهر واستتروا بمرتفع صغير يسمى "دمنة الخشابين" حتى وصلوا إلى بيوت حي الربض⁽³⁰⁾، وهناك أضرهم هؤلاء الرجال النار في بيوت الربضيين، وأباحها القائدان لجنودهما فنهبوا، «وتعالت ألسنة اللهب، وصرخ النساء والولدان على من كان يقاتل منهم بحومة القنطرة، فنكصوا نحو دورهم ييغون إغاثة أهليهم»⁽³¹⁾، فأحاط بهم الجند من كل جانب، وحوصر الثوار بين القوات التي انطلقت من الربض، ومن قصر الإمارة، وفي هذه اللحظة أصيب التمرد بالشلل وبدأت المذبحة الجماعية، وأرعى الحكم - الذي نجا بأعجوبة من غضب العامة - لجنوده العنان في إمعان القتل والتخريب.

وفي اليوم الثالث استجاب الحكم لتوسلات وزيره وحاجبه "عبد الكريم بن مغيث" بوقف المذبحة، التي راح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف شخص⁽³²⁾، فأصدر الحكم أوامره بإعدام وصلب ثلاثمائة من كبار المتمردين «صفوا من إزاء باب القنطرة إلى آخر المصارة من ضفة النهر، لم يُرَ فيما سبق مصلوبون أكثر منهم عددًا، ولا أهول منظرًا» وأمر بتسوية حي الربض بالأرض فقام "ربيع القومس" بهذه المهمة فغادر الحي قاعًا صفصفاً، «وأمر بأن يرحل من بقي منهم على قيد الحياة عن قرطبة فلا أمان عنده لمن تخلف منهم بحضرته»⁽³³⁾.

(30) انظر الخريطة المرفقة، موضح عليها تحركات جند الإمارة، وتحركات ثوار الربض. ص 732.

(31) ابن حيان: السابق، ص 149؛ ابن عذاري: السابق ج 2 ص 76.

(32) لسان الدين بن الخطيب. ت 766هـ، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي تحقيق ليثي بروفنسال، بيروت 1968م، ص 16.

(33) ابن حيان: المقتبس، ص 142.

هذه هي أسباب ثورة الريف ، وهذه هي أحداثها، ولكن يبقى السؤال الذي لا مفر من الإجابة عنه : أين ذهب الناجون من المذبحة بعد خروجهم من قرطبة؟؟!

تجيب المصادر التاريخية عن هذا السؤال على النحو التالي « خرج أهل الريف من الأندلس، وتفرقوا في البلاد، فنزل فريق منهم ساحل العدو المغربية وأقاموا بمدينة فاس⁽³⁴⁾، وركب معظمهم البحر متجهًا إلى الإسكندرية، وكان عددهم نحو الخمسة عشر ألفًا فأقاموا بها مدة ثم تركوها ورحلوا إلى جزيرة إقريطش - كريت - ففتحوها وملكوها⁽³⁵⁾. هذه هي الرواية التاريخية المتعارف عليها والمشهورة بين المؤرخين القدامى والمحدثين على حد سواء⁽³⁶⁾، وإلى وقت قريب جدًا لم تكن هناك رواية تاريخية حول هؤلاء الريفيين إلا هذه الرواية الشائعة التي يعرفها جل المشتغلين بالدراسات الأندلسية .

(34) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص 70 ؛ ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ج 2 ص 77 ، ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ، ت 658هـ : الحلة السيرة ، تحقيق د. حسين مؤنس ج 1 ص 45 ؛ المقرئ التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 1 ص 338 .

(35) من هذه المصادر على سبيل المثال :

- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص 70 ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ج 2 ص 77 ؛ ابن الأبار : الحلة السيرة ج 1 ص 45 ؛ عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص 30 - 31 . المقرئ التلمساني : نفح الطيب ، ج 1 ص 338 .

(36) على سبيل المثال نجد هذه الرواية عند :

- حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، طبعة دار الرشاد ، القاهرة 2001م ، ص 321 .
- سيدة إسحاق كاشف : مصر في فجر الإسلام ، طبعة دار الرائد العربي ، طبعة ثانية ، بيروت 1972م ، ص 163 .

- إبراهيم العدوي : الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، طبعة دار النهضة المصرية ، القاهرة 1957م ، ص 98 .

- محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ج 1 ص 245 ؛ عبد المجيد نعنعي : الدولة الأموية في الأندلس ، ص 195 .

وباستثناء نفر من الأساتذة النابيين شككوا في صحة هذه الرواية ، ودحضوا ما جاء فيها بما توافر لديهم من أدلة⁽³⁷⁾، كان الجميع يتناقلها على أنها حقيقة ثابتة لا تقبل النفي أو التغير ، إلى أن ظهر للنور السفر الثاني من كتاب "المقتبس" لعميد مؤرخي الأندلس أبي مروان حيان بن خلف القرطبي [377 - 469هـ / 987 - 1076م]⁽³⁸⁾ وفي هذا الكتاب جمع ابن حيان روايات المؤرخين الأندلسيين الذين سبقوه، وقام بترتيبها وفق منهج خاص ، ويعالج السفر الثاني من كتاب المقتبس بتفاصيل مسهبة أحداث عهد الحكم بن هشام، و معظم عهد ابنه عبد الرحمن الثاني؛ وكان من الطبيعي أن تنال حادثة الربض حظها من العناية والتوثيق والاستقصاء، باعتبارها « الواقعة العظمى التي وقعت لأهل قرطبة »⁽³⁹⁾.

قام ابن حيان بتطبيق منهج المحدثين على الروايات التاريخية حول هذه الواقعة حيث قسّمها إلى قسمين : قسم صحيح موثق متماسك ، وقسم ضعيف يشوبه الخلط والاضطراب ؛ ولا مناص هنا من التوقف عند هذه الروايات وقراءتها بعناية شديدة . حتى نخرج من هذا الخطأ التاريخي الكبير الذي وقع فيه عدد غير قليل من كبار أساتذة التاريخ ، وكبار المستشرقين، وهذه القراءة المتأنيّة ضرورية لتصحيح هذا الخطأ الشائع الذي درج الجميع على ترديده.

(37) كان الأستاذ الدكتور / سعد زغلول عبد الحميد أول من تنبه إلى عدم دقة هذه الرواية و تابعه

الدكتور / السيد عبد العزيز سالم وأيدّ وجهة نظره بأدلة أخرى. انظر :

- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الإسكندرية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي ، منشور ضمن كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، الصادر عن محافظة الإسكندرية سنة 1963م ، ص 267.

- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة 1969م ، ص 131 ، وأيضاً كتابه تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي ، الإسكندرية 1987م ، ص 72 .

(38) ظهر مقتبس ابن حيان في بداية عام 2004م طبعة مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية بتحقيق محمود علي مكي .

(39) ابن حيان : المقتبس ، ص 140 .

أولاً : الروايات المضطربة والمختلطة :

روايات نقلها ابن حيان في مقتبسه عن مؤرخ أندلسي معاصر له هو "الحسن بن محمد بن مفرج" صاحب كتاب "الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال"⁽⁴⁰⁾ الذي نقلها بدوره عن ثلاثة من المؤرخين الأندلسيين هم :

سكن بن إبراهيم التاريخي⁽⁴¹⁾ ، محمد بن حفص فرج⁽⁴²⁾ ، أبو بكر بن القوطية⁽⁴³⁾ .

وعند قراءة هذه الروايات نجد أنها خلطت بين أحداث ثورة الربض الأولى رمضان 189هـ إثر مذبحة الفقهاء ، وثورة الربض الثانية - رمضان 202هـ - ووضعتهما معاً في سياق متصل يخلط بالأحداث بالنتائج، وكأنهما حدث واحد وقع في سنة واحدة .

(40) هو أبو بكر الحسن بن محمد بن حماد بن الحسين بن مفرج المعافري - المعروف بالقبشي - ولد سنة 348هـ / 959م، في قرطبة ، كان محدثاً ومؤرخاً، له كتاب «الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال» وهو كتاب في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء، وتوفي بعد سنة 430هـ / 1039م انظر ترجمته الكاملة في : ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك ، ت 578هـ / 1182م كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدباهم ، بعناية عزت العطار الحسيني ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة 1955م . ص 136، الترجمة رقم : 318.

(41) هو سكن بن إبراهيم الكاتب التاريخي ، أديب إخباري من أهل الأندلس له كتاب في طبقات الكتّاب بالأندلس ، انظر ترجمته في :

الحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، ص 219 ، ترجمة رقم 493.

(42) لم أعثر له على ترجمة ، والراجح أنه من طبقة ابن القوطية ، أي من مؤرخي الأندلس في القرن الرابع الهجري .

(43) هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم المعروف "بأبن القوطية" إشبيلي الأصل ، كان جده الأعلى مولى لعمر بن عبد العزيز، ويرجع لقبه الذي عرف به إلى أنه من ذرية "سارة القوطية" حفيدة ملك القوط ، وهو من علماء اللغة والمؤرخين المشهورين بالأندلس ، انظر ترجمته الكاملة في :

- ابن الفرزي : أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي . ت 403هـ : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1954م ، ج 2 ص 78 . ترجمة رقم 1318 ؛ الحميدي : جذوة المقتبس ، ص 72 .

وقد يكون سبب هذا الاختلاط أن كلا الثورتين وقعتا في مكان واحد هو "ربض قرطبة القبلي" وكانتا من نتاج التحريض المستمر للفقهاء، وأنهما ضد الرجل نفسه - الحكم بن هشام - وأن كليهما وقعتا في نفس الشهر - شهر رمضان - ولنفس الأسباب مثل أنفة الحكم وإسرافه في تأييد هيئته، وإطلاق يد ربيع بن تديلف في تحصيل الضرائب وجمع المغارم إلخ، وأهم ما يعيننا في هذه الروايات هو قصة خروج أهل الربض التي وردت عندهم على النحو التالي :

1- رواية سكن بن إبراهيم :

« وتفرق فكلهم عند موج حربهم أيادي سبأ إلى كل جهة من الأندلس والعدوة »⁽⁴⁴⁾.

2- رواية محمد بن حفص بن فرج :

« فأخذ الحكم برأي من أشار عليه بالعفو، إلا أنه لم يُفصح لهم في المقام بقرطبة البتة، وأعطاهم الأمان على الخروج منها، والضرب إلى كل ناحية، فارتحلوا على الطية، فلجأ خلق منهم إلى طليطلة، إذ كان أهلها يومئذ على انتزاع على الأمير الحكم، ومثل ذلك لأنفسهم، فأجاروهم عليه، وآووههم، وابتغوا القوة بهم، ومضى جمهورهم نحو الساحل القبلي، فعبروا إلى أرض العدوة، وتفرقوا في سواحل بلاد البربر، ونزل خلق منهم مدينة فاس، فإن محلتهم بها هي المنسوبة إليهم إلى اليوم، وصاعد كثير منهم البحر الرومي إلى جزيرة إقريطش من جزائره، فسكنوا وعمرها فكثروا بها وعزوا، واستقروا بها إلى اليوم »⁽⁴⁵⁾.

3- رواية أبي بكر بن القوطية :

« خرج أكثر فل الربضيين بعد خبر حربهم عن بلد الأندلس فلحقوا بسواحل بلاد البربر بعدوة البحر، فتفرقوا فيها ونازلوا أهلها، وأصعدت منهم طائفة عظيمة نحو الخمسة عشر ألفاً في البحر نحو المشرق، حتى انتهوا إلى الإسكندرية، وغزاهم أهلها. فسطوا بهم سطوة منكرا هزموهم غبها - بعدها - وبذلوا السيف فيهم، فقتلوا خلقاً

(44) ابن حيان: المقتبس، ص 163، وكما هو واضح فإنه لا يشير إلى رحيل الأندلسيين إلى الإسكندرية.

(45) السابق، ص 164، ولاحظ إشارته للجوء هؤلاء الربضيين إلى طليطلة وبقائهم فيها.

وملكوها...، وكان سبب ثورتهم بالإسكندرانيين، أن جزارًا منهم ضرب وجه رجل من هؤلاء الأندلسيين بكرش ملوثة فنأدى أصحابه فامتعضوا له، وقاموا على أهل البلد فغلبوهم، وأقاموا بها إلى أن صالحهم عامل بني العباس على مصر على الخروج سلمًا عنه، وخيرهم في الحلول بحيث يختارونه من جزائر البحر، يعانون على حلولهم بها، فاخترأوا جزيرة إقريطش من البحر الرومي، وكانت يومئذ خالية من الروم، فاحتملوا بكليتهم إليها، ونزلوها واعتمروا، وجاءهم الناس من كل مكان فهم بها مقيمون إلى اليوم»⁽⁴⁶⁾.

وينقل ابن حيان رواية أخرى عن أبي بكر بن القوطية - لم يضعها مع الروايات الضعيفة - إلا أنها لا تختلف كثيرًا عن الرواية السابقة إلا في ذكر اسم الوالي العباسي "عبد الله بن طاهر"، وتعيين زمان نزول أهل الريف إلى الإسكندرية في أول خلافة "المأمون" ولا تذكر هذه الرواية الثانية رقم الخمسة عشر ألفًا الذين نزلوا الإسكندرية، ولم تحدد عددهم، ولم ترد فيها قصة القصاب السكندري التي يزعم ابن القوطية أنها كانت سببًا للقتال بين الأندلسيين والسكندريين⁽⁴⁷⁾.

ويلاحظ على هذه الروايات ما يلي:

■ وضع ابن حيان هذه الروايات فيما يسميه "روايات شأبها الخلط والاضطراب" وهو ما يعني أن التعامل معها ينبغي أن يكون بحذر شديد، ولا يصح التعويل عليها واعتمادها كمصدر تاريخي إلا إذا دعت الضرورة لذلك.

■ لم يصلنا من هذه الروايات سوى رواية أبي بكر بن القوطية التي قدّر لها أن تضيع وتنتشر ويتناقلها المؤرخون فتصبح لكثرة تكرارها ووجودها في أكثر من مصدر هي الرواية الثابتة المعروفة التي لا يتطرق إليها الشك، ولذا نجد مؤرخًا مصريًا كبيرًا هو

(46) السابق، ص 164.

(47) يرى أستاذنا الدكتور محمود علي مكي أن الروايات التي قدمها ابن حيان نقلًا عن ابن القوطية تؤكد أن النسخة المطبوعة من كتاب ابن القوطية ما هي إلا نسخة شديدة الاختصار والتحريف، وأن كتاب ابن القوطية الأصلي كان أكبر حجمًا وأغزر مادة من الكتاب الذي بين أيدينا الآن.

المقريزي ينقل رواية ابن القوطية هذه حرفاً بحرف ويضعها بين أحداث تاريخ الإسكندرية⁽⁴⁸⁾.

- نجد أن سكن بن إبراهيم لا يشير إلى رحيل ثوار الرض إلى الإسكندرية على عكس ما فعل محمد بن فرج ، وابن القوطية .
- نجد أن محمد بن فرج يشير إلى لجوء الرضيين إلى " طليطلة " ، وهو ما أغفله أبو بكر بن القوطية ، فلم يذكر شيئاً عن طليطلة على الإطلاق .
- أشار محمد بن فرج إلى لجوء فريق من أهل الرض إلى مدينة " فاس " وهو أمر مشهور يعرفه كل مؤرخي الأندلس ، ورغم ذلك لم يشر إليه ابن القوطية مطلقاً .
- انفرد ابن القوطية في روايته الضعيفة برقم الخمسة عشر ألفاً الذين نزلوا الإسكندرية ، وهو الرقم الذي لم نسمع به عند غيره من المؤرخين المعاصرين له ، بل نقله المتأخرون عنه ، وكذلك انفرد بقصة القصاب السكندري التي نقلها عنه المقريزي ، كما أن ابن القوطية هو الوحيد الذي ذكر في روايته طرفاً من أحداث الإسكندرية .

ثانياً : الروايات الصحيحة :

1- رواية أحمد بن محمد بن موسى الرازي :

شيخ مؤرخي الأندلس وأول من صنف كتاباً في تاريخ ملوك الأندلس وكتابهم وخدمتهم⁽⁴⁹⁾ ، وهي أول رواية قدمها ابن حيان ، وتتضمن المنشور الذي أصدره الحكم

(48) نقل المقريزي رواية ابن القوطية عند حديثه عن الإسكندرية ، انظر : المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ، ت 845 هـ / 1441 م . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، طبعة مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، لندن 2002 م ، ج 1 ص 467 .

(49) أحمد بن محمد بن موسى الرازي التاريخي ، كان نحوياً لغوياً و كاتباً بليغاً غزير الرواية حافظاً للأخبار ، له كتاب في أخبار أهل الأندلس وتواريخ دول الملوك فيها بلغ فيه الغاية من الاستيعاب والتقصي ، توفي 344 هـ / 955 م . ترجمته كاملة في :

- الزبيدي : أبو بكر محمد بن الحسن الإشبيلي . ت 379 هـ : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ؛ القاهرة 1963 م ، ص 327 ؛ الحميدي : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، ص 97 ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1993 م . ج 1 ص 472 .

إلى عماله في أنحاء الأندلس، يبين لهم فيه ما كان من أمر هذه الواقعة وكيف تم له الانتصار على الثائرين⁽⁵⁰⁾. وهذه الرواية كبيرة بلغت نحو ثمان صفحات من القطع الكبير في كتاب المقتبس، ويهمنها منها خبر خروج الربضيين من قرطبة، يقول أحمد بن محمد الرازي:

«ونادى في فلهم بالترحال عن قرطبة، والتفرق في البلاد النائية، فلا أمان عنده لمن تخلف منهم بحضرته؛ فأجفلوا بالهرب عن قرطبة، وتفرقوا شذرا مذر، ولجئوا إلى أطراف الثغور، وأقاصي الكور، وركب خلق منهم البحر فصاروا بأرض العدو؛ وكان رحيل جمهور الناس المقيمين عن قرطبة إثر خبر حجز الحرب عنهم، وبذل الأمان لهم يوم الأربعاء لعشر بقين من رمضان من سنة اثنتين في انسلاخ شهر مارس الشمسي الكائن في هذه السنة»⁽⁵¹⁾.

ويقول في موضع آخر:

«وتفرق فل قرطبة عند إزعاجهم، فلحق جُل من تردد منهم بالأندلس بطليطة - دار الخلاف على الأئمة - وكاتبوا مهاجر بن القتيل شهاب الفتنة⁽⁵²⁾، وقد كان لحق بدار الحرب في سنة ثمان وتسعين ومائة بعياله ومن تبعه من أسبابه، لائذاً بالمشركين من سلطان الجماعة عند مخافته على نفسه....، ومكث مهاجر بن القتيل بجليقية إلى أن استقدمه الربضيون فل أهل قرطبة، فاستجاب لهم وقدم عليهم فولوه أمرهم، وسعوا

(50) يوجد نص هذا البيان في كتاب دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ج 1 ص 245، وانظر ما كتبه عنان تعليقاً على روايات المؤرخين حول حادثة الرض ج 1 ص 244 - 246.

(51) ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، ص 142.

(52) أشار ابن سعيد المغربي في كتابه المغرب إلى قصة مهاجر بن القتيل وعلاقته بأهل الرض، ويبدو أنه حاول التوفيق بين الرواية التي قالت إن عدد من خرج من قرطبة كان خمسة عشر ألفاً ومن قال إن جمهورهم نزل طليطة فقال إن عدد من رحل منهم إلى طليطة كان خمسة عشر، مع ملاحظة أن ابن سعيد ذكر أنهم خرجوا من طليطة بعد مدة متوجهين إلى الإسكندرية بقيادة مهاجر ابن القتيل، وهذا يضع رواية ابن سعيد في مصاف الروايات الضعيفة والمختلطة لأن مهاجر بن القتيل مات في سجنه بقرطبة ولم يرح الأندلس. انظر: ابن سعيد: أبا الحسن موسى بن سعيد المغربي. 685 هـ: المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف - القاهرة 1953م، ج 1 ص 42.

للفتنة وجأهروا بالمعصية ، فخالفهم مهاجر بن عتبة ، ودعا إلى الأمير الحكم وملك قصبة طليطلة ، فجرت بينهم في هذه السنة خطوب طويلة⁽⁵³⁾ .

وقال في موضع ثالث :

« وبذل الأمير الحكم الأمان لمن استقر بقرطبة بعد سكون الحادثة ، وتحمل الجالية ، فظهر من استخفى منهم وتراجعوا ، فجدد بيعته عليهم مغلظة ، فاطمأنوا إليها ، وسكنت روعهم وثابت حالهم فاستقروا بوطنهم⁽⁵³⁾ .

2- رواية عيسى بن أحمد الرازي⁽⁵⁴⁾ :

والتي تصيف تفاصيل أخرى حول هذه الانتفاضة ونتائجها ، حيث يقول :

« وأمر الأمير الحكم برفع القتل والإقصار عن طلب المستخفين وكتب لهم كتاب أمان شيع فيهم ، وهتف عليهم بالأمان على أن يخرجوا عن حضرة قرطبة ، فظهروا ، وانشمروا ظاعنين عن قرطبة على الصعب والذلول في يوم الأربعاء لعشر بقين من رمضان المؤرخ ، لانسلاخ شهر آذار "مارس" الكائن فيه⁽⁵⁵⁾ .

وقال في موضع آخر :

« وأجفل أهل قرطبة في الهرب الذي علقوا الأمان عليه ، ففروا عنها إلى كل جهة متفرقين في أقاصي الكور ، وأطرف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة ، واعتاموها لخلاف أهلها على الخليفة الحكم ، فاستقروا فيها ، وكاتبوا منها مهاجر بن القتيل ، الذي كان بدار الحرب هارياً من بأس الأمير الحكم أيام خالفه فيها ، فقدم عليهم ، وولوه أمرهم ، وأكدوا به معصيتهم فجرت لهم بها خطوب طويلة⁽⁵⁶⁾ .

(53) ابن حيان : المقتبس ، ص 146 .

(54) عيسى بن أحمد الرازي ، مؤرخ أندلسي مشهور ، ورث عن أبيه صناعة الأدب والتاريخ وله كتاب "الحجّاب للخلفاء بالأندلس" لم أظفر له بترجمة كاملة ، غير أنه توفي سنة 379هـ / 989م . انظر :

ابن الأبار : الحلة السيرة . ج 1 ص 138 .

(55) ابن حيان : المقتبس ، ص 151 .

(56) ابن حيان : المقتبس ، ص 153 .

ويلاحظ على هذه الروايات ما يلي :

- هذه الروايات لاثنتين من المؤرخين الأندلسيين قريبي العهد من الأحداث من نفس طبقة ابن القوطية بل منهما من يتقدم عليه وهو أحمد بن محمد بن موسى الرازي، من ثم فهي أقرب إلى التصديق والقبول ، ولذا ذكرها ابن حيان أولاً.
- تؤكد هذه الروايات أن أهل الريف تم إقصاؤهم عن " قرطبة " وحدها ، ولم تطلب منهم السلطات مغادرة الأندلس كلها ، كما زعمت الروايات المتأخرة ، وأن من خرج من الأندلس لم يذهب لأبعد من سواحل العدو المغربية.
- تتفق هذه الروايات على أن "جمهور الربضيين" خرجوا من "قرطبة" متجهين إلى "طليطلة" وأن أهلها آوهم ، وأنهم اتصلوا بأحد زعماء الخارجين وهو "مهاجر بن القتيل" الذي استجاب لهم وقدم عليهم فتولى أمرهم ، وقاد ثورتهم على الأمير الحكم وعلى أيديهم عادت "طليطلة" من جديد مركزاً للتمرد والثورة ، وهو ما أكدته الحوادث بعد ذلك ⁽⁵⁷⁾.
- لم يرد في هذه الروايات أي ذكر أو إشارة إلى اتجاه هؤلاء الربضيين إلى مدينة الإسكندرية ، وهو ما يثبت أن هؤلاء الربضيين ليس لهم أي علاقة بما حدث في الإسكندرية ومن ثم بفتح جزيرة إقريطش على الإطلاق ، على عكس ما هو شائع.
- لا يوجد في هذه الروايات أي إحصاء عددي لمن نجا من مذبحة الريف - خصوصاً رقم الخمسة عشر ألفاً الذي انفرد به " ابن القوطية " دون سواه من المؤرخين.

(57) استمرت "طليطلة" بعد وقعة الريف ولجؤ المهاجرين من قرطبة إليها مركزاً للثورات والفتن طيلة السنوات الباقية من عهد الحكم بن هشام ، وهي [203 ، 204 ، 205 ، 206هـ] ، ولا أدل على ذلك مما ذكره ابن حيان من الغزوات التي قام بها الأمير "الحكم" أو حاجبه "عبد الكريم بن مغيث" إلى "طليطلة" خلال هذه الفترة ، وذلك بعد أن (نكث أهل طليطلة بمن صار عندهم من فل قرطبة ، واستعادوا مهاجر بن القتيل مغويهم فولوه أمرهم) على حد قول ابن حيان ، ويبدو أن خطر "مهاجر بن القتيل" كان كبيراً جداً حتى أنه استلزم إرسال أربع حملات انتهت آخرها وهي التي وقعت في سنة 206هـ / 822م بالقبض عليه بواسطة الحاجب "عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث" وسجنه في سجن المُطِيق بقرطبة ، ابن حيان : المقتبس ، ص 179 - 181 .

■ تقدم رواية أحمد بن موسى الرازي إضافة هامة جداً، عن كتاب الأمان الذي بذله الأمير الحكيم لمن كان مستخفياً في قرطبة وأنه جدد بيعته عليهم مغلظة الأيمان، فاطمأنوا إليها، وسكنت روعهم، وثابت حالهم فاستقروا بوطنهم، وهو ما يعني أن فريقاً من الثوار لم يغادر قرطبة أصلاً، وإنما استخفى فيها حتى شمله كتاب الأمان الذي بذله لهم الحكيم، حين جدد عليهم البيعة، ولم يطالبهم بالخروج من قرطبة، وإنما تركهم فيها بعد سكون الحادثة.

■ تشير هذه الروايات إلى أن الربضيين تفرقوا في جهات الأندلس المختلفة، وأن طليطلة كانت هي محط رحال جمهورهم - أي غالبيتهم -.

وبالإضافة إلى هذه الروايات الجديدة التي تظهر لأول مرة حول ثورة أهل الربض، فإنه قبل قبول الرأي القائل بأن فاتحي إقريطش هم ثوار الربض، علينا أن نجيب على عدد من الأسئلة الصعبة منها:

لماذا يفكر جماعة من أهل الأندلس يبحثون عن مأوى لهم في مدينة بعيدة عنهم مثل الإسكندرية سيضطرون إلى قطع آلاف الأميال البحرية حتى يصلوا إليها؟ وكيف حصل هؤلاء النازحون عن بلدهم على مراكب تكفي عددهم الكبير دفعة واحدة في مثل هذه الظروف؟ وكيف لمجموعة من سكان مدينة غير ساحلية مثل قرطبة - يعمل معظمهم بالحرف البسيطة أو التجارة، وبعضهم من طلبة العلم - أن يتحولوا بين عشية وضحاها إلى بحارة مهرة يركبون ثبج البحر ويغازون أهله؟! ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد بل يهزمون أعتى قوة بحرية في البحر المتوسط في مرحلة تالية؟! من أين لهم بمثل هذه المهارة القتالية التي تحتاج إلى سنوات لاكتسابها؟! ثم كيف لمن خرج من بلده مطروداً وقد فقد أهله وماله أن تكون به طاقة لقتال أو رغبة في المغامرة؟!.

إن مسألة نزول أهل الربض مدينة الإسكندرية مجرد رواية سقيمة وجدت في القديم رواجاً بين المؤرخين بسبب شهرة صاحبها - أبي بكر بن القوطية - كواحد من أوائل المؤرخين في الأندلس، وذلك بالرغم من أنه كان «غير ضابطٍ للرواية وليس له أصول يرجع إليها» كما يصفه ابن الفرضي⁽⁵⁸⁾.

وكان لهذه الرواية حظ عظيم من الذبوع والانتشار في العصر الحديث حيث كان كتاب ابن القوطية من أوائل الكتب التي تم إخراجها على عجالات المطابع منذ عام 1868م عندما قام المستشرقان "بسكوال دي جاينجوس، وإدواردو سايدرا"⁽⁵⁹⁾ بنشره ، ولذا لاقت هذه الرواية رواجاً واسعاً في الدراسات الحديثة ؛ وقبلها الجميع على أنها حقيقة ثابتة. مع أن الأمر لا يزيد عن رواية واهية أضفى عليها مرور السنين وكثرة التكرار مصداقية زائفة جعلتها في نظر الكثيرين واقعاً لا يقبل الجدل .

نخلص من العرض السابق إلى النتائج التالية :

- * أولاً: ليس هناك أي علاقة بين ثوار الربض وفتح جزيرة إقريطش .
 - * ثانياً: تفرق ثوار الربض في أرجاء الأندلس ونزل معظمهم في طليطلة .
 - * ثالثاً: بقي بعض أهل الربض في مدينة قرطبة ولم يبرحها .
 - * رابعاً: من غادر الأندلس من الثوار لم يذهب لأبعد من سواحل المغرب .
- هذه هي إجابة السؤال عن مكان الناجين من أهل الربض ؛ وهي إجابة يقبلها العقل وتدل عليها الأحداث، وتدعمها الشواهد التاريخية والروايات الموثقة .

(59) "بسكوال دي جاينجوس" مستشرق إسباني وهو أول أستاذ للغة العربية بجامعة مدريد، وقد انتخب عضواً في مجمع التاريخ، انظر ترجمته الكاملة في: نجيب العقيلي: المستشرقون، الطبعة الرابعة الموسعة، دار المعارف، القاهرة 1981م ج 2 ص 182؛ و"إدواردو سايدرا" كان من أساتذة العربية في جامعة مدريد، وقد انتخب عضواً في المجمع اللغوي الإسباني، وجمع العلوم في "برشلونة"، انظر ترجمته الكاملة في "المستشرقون" ج 2 ص 186، ولقد تعاون كلاهما في نشر كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية سنة 1868م. من نسخة سباعية لأحد تلاميذ ابن القوطية، ويرى محمود مكي أنها شديدة الاضطراب والاختصار، ولا تمثل حقيقة كتاب ابن القوطية على الإطلاق .

oboiikan.com

بيوع ابن سهل الأندلسي

د. نوريان عبد الكريم أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الآداب - جامعة المنوفية

oboiikan.com

بيوع ابن سهل الأندلسي

يمثل الجانب الاقتصادي أحد المحاور المهمة التي تفسر التاريخ؛ لذا اهتمت الدراسات الحديثة ببحثه وأولته عناية خاصة، لكنها ما زالت تفتقر إلى مادة علمية دقيقة تعبر عن الواقع المعاش الذي يرسم صورة أكثر وضوحاً، وتحاول هذه الدراسة تناول أحد الاتجاهات المعنية بدراسة النوازل خلال العقود الثلاثة الأخيرة⁽¹⁾، وهو الاهتمام ببحث أحد الموضوعات التي تتضمنها هذه الكتب بشكل دقيق لاستخلاص مادتها التاريخية وكشف الجوانب الغامضة من التاريخ الاقتصادي من خلال بيوع ابن سهل الأندلسي. وترجع أهمية هذا الموضوع إلى أنه يرتبط بممارسات اقتصادية عبرت بصدق عن طبيعة الفترة التي شملتها النوازل، ناهيك عن ارتباطها بالرعية واحتوائها ضمنياً على أحوال البلاد بصفة عامة، وكذا ما تتضمنه من معلومات عن شكل المجتمع، ومدى تأثيره بكل ما يرتبط بهذه الفترة من أحداث، خصوصاً أن هذه النوازل وقعت في فترة اتسمت في الغالب الأعم بالاضطراب.

(1) من هذه الاتجاهات، التعريف بهذا الفن وإبراز خصوصياته ومكانته من التراث الديني العام، والتعريف بالفقهاء والمفتين مع إبراز القيمة العلمية والأدبية، واختارت فئة ثالثة من دارسي الفتاوى الأندلسية توجيه عنايتها لتحقيق مصنفات النوازل وتخرج مجاميع الأجوبة والأحكام التي أفتى فيها كبار الفقهاء والمفتين. انظر، أحمد اليوسفي شعيب، أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية، نوازل ابن الحاج القرطبي نموذجاً، تطوان - المغرب 1993، صفحات 4-5.

كما ترجع أهمية اختيار هذه النوازل إلى صاحبها، وهو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي، ويذكر المؤرخون⁽²⁾ أنه جيان الأصل، سكن قرطبة. وتدرج في الوظائف فتمرس في البداية على الكتابة بين أيدي القضاة، فكتب للقاضي أبي يزيد الحشابطليطة⁽³⁾، ثم للقاضي أبي بكر بن منظور بقرطبة⁽⁴⁾، كما عمل بالشورى⁽⁵⁾ فيها أيضاً، وبعدها ولي قضاء طنجة ومكناسة وغرناطة⁽⁶⁾، وتولى قضاء بياسة، والشمتان وكشطر وأعمالها⁽⁷⁾ كما يذكر في نوازله⁽⁸⁾، وأتاح له تنقله في وظائف مختلفة الفرصة للتعرف على أحوال المجتمع الأندلسي آنئذ.

- (2) ابن بشكوال، الصلة، القاهرة 1994، رقم 942؛ النباهي، تاريخ قضاء الأندلس، بيروت 1983، ص 96-97؛ ابن فرحون، الديباج المذهب لمعرفة أعيان المذهب، القاهرة 2002 ج2، ص 70-71.
- (3) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عيسى، قرطبي ولي قضاء طرطوشة ثم طليطلة إلى أن عزله المأمون بجيى ابن ذي النون، توفي عام 470هـ / 1077م، انظر، القاضي عياض ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، بيروت - طرابلس 1965، ج4، ص 817.
- (4) هو محمد بن عيسى من أهل إشبيلية، استقصاه المعتمد بن عباد بقرطبة، وكان حسن السيرة في قضاؤه، عدلاً في أحكامه، توفي عام 464هـ / 1171م، انظر ابن بشكوال، الصلة، رقم 1197.
- (5) وهي خطة انفرد بها المغرب والأندلس عن بقية العالم الإسلامي ابتدعها فقهاء المالكية في محاولتهم اتباع آثار مالك، فكانوا يرفضون تولي القضاء مكتفين بالانصراف إلى التدريس وإفتاء الناس، وكانت من الخطط المكتملة لهيئة القضاء في الأندلس ويختار من يشغلها من بين الفقهاء المشهورين بالرأي وسعة العلم من قبل الأمير أو الخليفة أو ملوك الطوائف فيما بعد، انظر، محمد عبد الوهاب خلاف، القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي القاهرة 1992، ص 321؛ حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة 2004، ص 330.
- (6) ابن بشكوال، الصلة، رقم 942.
- (7) وبين بياسة وجيان عشرون ميلاً، وتطل على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، انظر، الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار، القاهرة 1973، ص 57؛ محمد عبده حاتم، موسوعة الديار الأندلسية، عمان - الأردن 1999، الجزء الأول، ص 330. والشمتان من عمل المرية وهي حصن أو منطقة فيها مائة حصن من ناحية جيان، أما طشكر، فوردت عند ياقوت باسم، طشكر وهي حصن حصين في كورة جيان لا يرتقى إليها إلا بالسلام، انظر معجم البلدان، بيروت 1996، ج4، ص 354، ج3، ص 364.
- (8) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، النوازل والأعلام، تحقيق رشيد النعيمي، الرياض 1997، الجزء الأول، صفحات 613-614.

كذلك كان لتلمذ ابن سهل لكثير من شيوخ العصر⁽⁹⁾ أثر فيما وصف به من أنه "كان ذاكرا للمسائل عالما بالنوازل بصيرا بالأحكام"، وساعده ذلك على جمعها في كتاب أسماه "ديوان الأحكام الكبرى"، وتتميز هذه النوازل بإبراز خصوصية الغرب الإسلامي، فهي تختلف عن الفتاوى العادية التي تتضمن أجوبة المفتي عن الأسئلة التي يتلقاها، لكنها تنتمي إلى صنف آخر من النوازل يدعى "نوازل الأحكام"، خاص بكبار شيوخ الفقه والفتوى والمشاورين؛ لأن القضاء كان مبنيا على خطة الشورى⁽¹⁰⁾؛ لذا فنوازل الأحكام ذات صبغة قضائية بخلاف الأولى، فهي أقرب إلى ما يسمى الآن مجموعات الاجتهاد القضائي⁽¹¹⁾.

اهتم بعض الباحثين بدراسة نوازل ابن سهل، سواء من المستشرقين أو العرب، ولعل ذلك يرجع إلى أهميتها السابقة، فضلا عن كونها أشهر النوازل التي ألفت في عصر الطوائف، وشملت فترات سابقة، فاعتمد بروفنسال⁽¹²⁾ في كتابه "تاريخ أسبانيا المسلمة" على كثير من هذه النوازل في تأكيد أو إضافة لما جاء عند المؤرخين، فيما يخص أحوال المسلمين في الأندلس، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية وغيرها.

كما تضمنت الدراسات التي قدمها محمد عبد الوهاب خلاف⁽¹³⁾ عدة محاور دقيقة ومتنوعة، وحسبه أنه قام ببحثها والكتاب لا يزال مخطوطا، ونبه الدارسين إلى أهمية هذا الكتاب. واعتمد في عرضه لهذه الوثائق في الغالب على ثلاثة فصول، الأول: تقديم النوازل بأسلوب أدنى إلى الفهم عما اصطلاح عليه في عصر ابن سهل، ثم التعليق عليها، والثاني: عرض للسمات العامة للوثائق، والثالث: عرض لنصوص الوثائق محققة عن

(9) روى عن أبي محمد مكي بن أبي طالب وأبي عبيد الله بن عثمان وابن عتاب وابن القطان وأبي مروان ابن مالك وابن شهاخ وغيرهم، انظر، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 96.

(10) محمد حجي، نظرات في النوازل الفقهية، المغرب 1999، ص 33.

(11) مسائل ابن رشد، بيروت 1978، ص 111.

(12) انظر: Levi - Provençal, Histoire de L' Espagne Musulmane Leiden, 1950.

(13) منها: وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس، القاهرة 1980، ثلاثة وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس، دراسة وتحقيق، القاهرة 1981، وثائق في شئون العمران في الأندلس المساجد والدور، دراسة وتحقيق، القاهرة 1983، وثائق في شئون الحسبة في الأندلس، القاهرة 1985.

الأصول المخطوطة . لكن التركيز في كل دراسة على الموضوع الخاص بها فقط، أبعد عن الاستفادة عما تحويه الوثائق من أهمية تاريخية تتعلق بالجوانب الأخرى .

والاهتمام بالدراسات السابقة لا يقتصر فقط على ما ارتبط بابن سهل، بل يتعداه إلى الدراسات التي شملت البيوع أو اختصت بها لفقهاء آخرين، فقدم بعض الدارسين⁽¹⁴⁾ عدة دراسات، بعضها قدمت النوازل وعلقت عليها، والبعض الآخر قام باستخراج كل ما يخص الجوانب التاريخية، وهذا أحسبه كافيًا عند دراسة مثل هذه النوازل؛ حيث إن المؤرخ يفحص بكل دقة ما تشتمل عليه النوازل من معلومات تاريخية تعبر عن الفترة محل الدراسة، ومع ذلك تفتقر هذه الدراسات إلى الاقتراب من الفترة الزمنية ومحاولة التعرف على حركة المجتمع من خلال تعامله مع أهم وسيلة من وسائل المعاملات المرتبطة بالمال القادرة على كشف المجتمع بصورة أدق، ولفهم هذه المعاملات، وخصوصا البيوع، فلا بد من معرفة الأساس الفقهي الذي بنيت عليه، وهذا من شأنه أن يعمل على زيادة ملكات المؤرخ وقدراته في كشف الواقع والاقتراب من المجتمع محل الدراسة . علاوة على ذلك فلا بد من تقييم النوازل التي بين أيدينا من حيث الشكل والمحتوى حتى يتسنى لنا الاستفادة منها بقدر المستطاع .

ومن حيث الشكل، فبرغم أن هذه النوازل تقدم باسم "النوازل والأعلام" كما يتضح من عنوانها؛ فإنها تذكر النوازل تحت عنوان "مسألة"، ولعل ذلك يرجع إلى أن النوازل والمسائل والفتاوى والأحكام تعرف كلها بهذا المعنى⁽¹⁵⁾ .

وتأتي المسألة أحيانا في صورة عقد⁽¹⁶⁾، أو تشير إلى كيفية كتابته، وأخرى⁽¹⁷⁾ يذكر فيها أسماء المتعاقدين، وفي ثالثة⁽¹⁸⁾ يقدم صورة مختصرة للعقد من خلال الإجابة عنها،

(14) منها، أحمد اليوسفي شعيب، المرجع السابق؛ مصطفى بنسباع، ابن الحاج التجيبي القرطبي . ومسائل بيوعه في معيار النشرسي، تطوان - المغرب 1993 ؛ عبد الواحد ذنون طه، كتب الفتاوى مصدرا للتاريخ الأندلسي، المجلة العربية الثقافية، جامعة الدول العربية، العدد 27، 1994 .

(15) محمد بنشرقة، نوازل غرناطية لابن عاصم الابن، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، عدد خاص بالتراث بين أسبانيا والمغرب، غرناطة 1992، ص 216 .

(16) النوازل، ص 578 .

(17) ص 581 .

(18) ص 596 .

وأحيانا عند عدم ذكر العقد أو الوثيقة، لا نعدم ذكرا لبعض شروطها ومحتوياتها⁽¹⁹⁾، كما نتبين مضمون الوثيقة وسبب التنازع، وتزخر في بعض الأحيان بكل المعلومات الخاصة بها من الأسماء والأماكن أو يذكر جزءا منها⁽²⁰⁾.

ومن الملاحظ أنه يتم انتساخ العقد ليرفق بالنازلة عند المشاورة؛ ليساعد على فهمها وتقييم العقد، وتأتي عبارات تفيد بذلك⁽²¹⁾، ويتكرر ذكر العقد في النازلة وكذلك السجل أو الوثيقة⁽²²⁾، ولا نجد صورة كاملة له، إلا في عقد قراض دفع إلى رجلين⁽²³⁾.

ومن حيث دراسة محتوى هذه النوازل، فلا بد من تصنيفها مع حصرها ونقدها للوقوف على ما تحويه من معلومات تاريخية متنوعة.

وفيا لمخصص تصنيف النوازل، فهناك التصنيف الزمني والمكاني والنوعي، والمقصود بالأول، هو تحديد الفترة الزمنية التي ترتبط بها النوازل، وكذا بالنسبة إلى التصنيف المكاني، أما الثالث، فهو ما اشتملت عليه هذه النوازل من حيث طريقة البيع، لاسيما أن ابن سهل استهل نوازله، بذكر أنواعها⁽²⁴⁾ وكذا ما اشتملت عليه هذه البيوع.

ويمكن تحديد الفترة الزمنية لهذه النوازل عن طريقين، الأول: ما يذكر في النازلة من تاريخ محدد، وإن كان هذا الأمر صعب التحقق؛ لأن كثيرا من هذه النوازل لا تشتمل على تواريخ؛ أما الطريق الثاني: فهو من خلال القضية الذين ارتبطت بأسمائهم النوازل، أو المشاورين الذين أفتوا فيها اعتمادا على التراجم الخاصة بهم.

(19) ومنها: "وأن كتبت في العقد إنها ابتاعها ليهدها وينقضها، وأنه يعرف المونة في قلعها ونقضها" ص 602.

(20) صفحات 606، 607، 610، 613.

(21) منها: "تصفحت جميع السجل المنتسخ في بطن هذا الكتاب والسؤال الذي على ظهري، فرأيت أن السجل المذكور عقده صحيح"، وفي نازلة أخرى ذكر أن العقد صحيح، انظر النوازل، صفحات 615، 628.

(22) صفحات 584، 609 وغيرها.

(23) ص 628.

(24) ص 573.

فذكرت النوازل بعض التواريخ ، منها: نازلة تؤرخ بعام 400هـ / 1009م ، وأخرى عام 443 هـ / 1051م ، وثالثة عام 454 هـ / 1062م⁽²⁵⁾ ، وبرغم أنها شملت نصف قرن ، لكنها لا تكشف عن الفترة الزمنية للنوازل بشكل كاف ، ولا يمكن الجزم باقتصارها على هذه الفترة فقط .

لذا فمن خلال تتبع أسماء القضاة والمشاورين ، نجد أن هناك نوازل خاصة بالقاضي ابن زياد⁽²⁶⁾ وشوور فيها كل من ابن لبابة وأيوب بن سليمان ومحمد بن وليد وغيرهم⁽²⁷⁾ ممن ارتبطوا بأواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ، ثم تأتي النوازل التي أجاب عنها ابن الفخار وابن الشقاق وابن دحون⁽²⁸⁾ في نهاية القرن الرابع وحتى الثلث الأول من القرن الخامس الهجري / العاشر والحادي عشر الميلاديين ، وتلك النوازل التي ارتبطت بالقاضي ابن زرب⁽²⁹⁾ وغيره ، تلتها الفترة التي ظهر فيها عدد

(25) صفحات 576 ، 614 ، 593 .

(26) هو الحبيب أحمد بن محمد بن زياد اللخمي ، تولى القضاء في عهد الأمير عبد الله بن محمد عام 291هـ / 903م ، ولم يزل في القضاء إلى أن توفي الأمير ، ثم أقره عبد الرحمن الثالث على القضاء لمدة يسيرة ، ثم عزل 300هـ / 912م / وأعيد إلى القضاء مرة أخرى إلى أن توفي عام 312هـ / 924م ، انظر الخشني ، قضاة قرطبة ، القاهرة - بيروت 1989 ، صفحات 204 - 218 ؛ ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، بيروت 1989 ، رقم 81 .

(27) محمد بن عمر بن لبابة يكنى بأبي عبد الله ، من أهل قرطبة ، توفي عام 314هـ / 936م ، أما أيوب بن سليمان ، فهو أيضا من أهل قرطبة ، كانت الفتيا دائرة عليه في وقته وعلى ابن لبابة ولي السوق في أيام الأمير عبد الله ، ثم عزله وتوفي عام 302هـ / 914م ، انظر ابن الفرضي ، المصدر نفسه ، رقم 265 . وابن غالب المعروف بابن الصفار ، يكنى بأبي عبد الله ، وكانت الفتيا دائرة عليه وعلى أصحابه ، توفي 295هـ / 906م ، المصدر نفسه ، رقم 1148 .

(28) هو أبو عبد الله بن عمر ، أحد أئمة المالكية بقرطبة ، وأوثقهم على اختلاف العلماء توفي ببلنسية عام 409هـ / 1018م ، أما ابن الشقاق ، فهو عبد الله بن سعيد ، قرطبي ، شيخ المفتين في وقته ، عمل بالقضاء بعهد الجماعة ببعض الجهات ، توفي 426هـ / 1034م ، وابن دحون أبو محمد عبد الله ، أحد جلة شيوخ المفتين بقرطبة توفي عام 431هـ / 1039م انظر القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، جـ 4 ، صفحات 724 ، 729 - 730 .

(29) وهو أبو بكر محمد بن يقي ، قاضي الجماعة في أوائل الدولة العامية ، توفي عام 381هـ / 991م . انظر ، ابن الفرضي ، رقم 1363 .

آخر من المشاورين منهم ابن عتاب وابن القطان وابن مالك⁽³⁰⁾، وهؤلاء كانوا معاصرين لابن سهل وأجابوا عن النوازل التي قدمت إليه أو لغيره أثناء توليه القضاء .

بناءً على ذلك، فالنوازل التي بين أيدينا تمتد من أواخر القرن الثالث إلى ما بعد منتصف القرن الخامس الهجري/ من نهاية القرن التاسع إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وبذلك شملت أخريات عصر الإمارة حتى مجيء المرابطين، وتقع خلال عهد الأمير عبد الله بن محمد ثم عصر دويلات الطوائف الأولى 275-300هـ/ 888-912م، ثم إمارة عبد الرحمن الثالث حتى إعلانه الخلافة، وهذه الفترة محكومة بتولي ابن زياد القضاء أما الفترة الثانية فترتبط بالدولة العامية وما تلاها من اضطرابات ثم عصر ملوك الطوائف، لاسيما أن ابن سهل صرف عن قضاء غرناطة عند دخول المرابطين⁽³¹⁾ 483هـ/ 1090م .

وبذلك شملت نوازله فترة طويلة ؛ حيث إنها لم تقتصر على فترة توليه القضاء، لكنه عرض لأحكام قضاة سابقين، واحتوت على ما تعلمه على يد شيوخه، فجاءت مسائل بيوعه شاملة لفترات مختلفة .

أما التصنيف المكاني، فتطالعنا النوازل ببعض الأماكن التي تعلق بها، خصوصاً مدينة قرطبة التي ذكرت في غالبية النوازل سواء أفصح عنها أم لا ؛ لأن ذكر بعض أسماء القضاة الذين تولوا قضاءها يزيل الشك عن وقوع النازلة في أي مكان آخر، إلا إذا ذكر

(30) هو محمد بن عتاب بن محسن، من أهل قرطبة وكبير المفتين بها، كان عالماً بالوثائق، وشيخ أهل الشورى في زمانه، وعليه مدار الفتوى في وقته، توفي عام 462هـ/ 1069م، انظر، ابن بشكوال، الصلة، رقم 1202. وابن القطان، هو أحمد بن محمد بن عيسى بن علل، يكنى أبا عمر، من أهل قرطبة وزعيم المفتين بها، برَّ أهل زمانه بالأندلس علماً وحفظاً واستنباطاً، توفي عام 460هـ/ 1067م، انظر، عياض، المصدر السابق، ج4، ص 913. وابن مالك، هو أبو مروان بن مالك، قرطبي كان عالماً بوجوه الاختلاف بين فقهاء الأمصار والمذهب، توفي 460هـ/ 1067م، انظر، ابن بشكوال، المصدر السابق، رقم 670.

(31) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 97.

تحديدا . ومنها ما تشير إلى رجل من تآكرنه⁽³²⁾، مع أنها وقعت في قرطبة⁽³³⁾، أو ما تشير إليه النوازل ضمنيا من خلال إجابات الفقهاء . كما تذكر مدينة قرطبة بشكل مباشر مثل: "اشترى دارا بحاضرة قرطبة"⁽³⁴⁾، وغيرها أو أن يأتي ذكر المكان تفصيلا، مثل: "قرية دوس الجبل في إقليم الجنطان من عمل قرطبة"⁽³⁵⁾ .

إلى جانب ذلك، فهناك إشارات أخرى لنوازل ذكرت فيها بطليوس والمرية وإشبيلية وغرناطة وبياسة⁽³⁶⁾، أو أن لا يحدد مكان النازلة، ويكتفي فقط بعبارة "كتبت إلى شيوخنا بقرطبة دون أن يذكر اسم المدينة"⁽³⁷⁾، وربما تكون من المدن التي تولى قضاءها في الأندلس والمغرب ، برغم أن النوازل الخاصة به لم تشتمل على نازلة مغربية .

ومن حيث التصنيف النوعي، نجد ابن سهل يستهل بيوعه بعرض لأنواعها، وهي أربعة⁽³⁸⁾: بيع حاضر مرئي، وبيع غائب موصوف أو معروف العين برؤية تقدمت لها فيه، وثالث بيع غائب موصوف في الذمة، وهو السَّلَم إلى أجل معلوم في صفقة معلومة من طعام أو غيره بحضور المقدار بعدد أو كيل أو وزن ويعجل فيه رأس المال، والآخر هو بيع السلفة، وهو في بعض أوجهه كالسَّلَم .

ويتضح مما سبق أن الأصل في البيع أن يكون الشيء موجودا، إلا في حالة استثنائها الشريعة الإسلامية، وهي بيع السَّلَم، وهو بيع أجل بعاجل، فالمبيع غير موجود كالمزارع

(32) وهي مدينة بالأندلس بالقرب من إستجة وإليها تنسب ؛ حيث إنها مضافة إليها . انظر، الحميري، صفة جزيرة الأندلس ، ص 62، وذكر المقرئ أنها من نظر قرطبة انظر ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب بيروت 1988 ، ج2، ص 7 - 6 .

(33) النوازل ، ص 574 .

(34) صفحات 579 ، 606 ، 619 .

(35) ص 616 .

(36) صفحات ، 627 ، 637 ، 641 .

(37) ص 593 .

(38) النوازل ، ص 573 .

الذي يبيع محصول أرضه ولم يئذر البذر، والسَّلم عقد غرر جَوَّزَ للحاجة؛ لأنه يبيع الإنسان ما ليس عنده⁽³⁹⁾.

وإذا كان ابن سهل يعرض لهذه الأنواع من حيث التصنيف الفقهي، فهل ما ذكره اتفق مع ما كان شائعاً في بلاد الأندلس فيما يذكره من نوازل أم أنه أراد أن يضع القواعد الفقهية ليؤسس عليها ما تم فعلاً؟ لذا لا بد من تبيان ذلك ومعرفة ما كان منتشرًا آنشد، وإلى أي حد كان مرتبطاً بما ذكره ابن سهل.

والنوازل لا تذكر في الغالب نوع البيع؛ لأنها تركز على المشكلة التي أدت إلى تقديم النازلة؛ لذا فبعض النوازل تعلقت ببعض الجزئيات الفقهية⁽⁴⁰⁾. لكن يندرج بيع الأراضي والدور في النوع الأول والثاني وهي كثيرة. أما السلم، فلدينا نازلتان فقط تشيران إليه، الأولى بعنوان "من يعين على غلة معروفة سلماً أو قرضاً"⁽⁴¹⁾؛ وبرغم التصريح بأنها سلم، إلا أنها ذكرت بأنها معينة ومعروفة، وهي تندرج في النوع الثاني كما أنه لم يحدد نوع البيع فهو سلم أو قرض، وهذا يبين أنه جمع ثلاثة أنواع من البيوع في حالة واحدة. ونازلة أخرى تتعلق بـ "البيع بثمن محل في شهر كذا"⁽⁴²⁾. أما بيع السلفة، فيظهر في عدة نوازل، منها: من ابتاع نصف كرم بثمن مؤجل ومن باع نصف غنمة بثمن منجم أوعواماً⁽⁴³⁾.

ولأن ابن سهل لم يوضح بعض دقائق البيوع، واكتفى بذكر الأنواع الرئيسة بها، جاءت بعض النوازل لتفصح عن أنواع أخرى، ومنها الإجارة التي هي بيع من البيوع،

(39) نزيه حماد، عقد السلم في الشريعة الإسلامية - عرض منهجي مقارنة، دمشق - بيروت 1993، صفحات 12-13.

(40) منها "من ابتاع أرضاً فيها شجر قد أبرت ثمرته ولم يشترط المبتاع الثمرة، والسلم وشبيهه من الدار لمن يكن، وثالثة، من باع أملاكه وللبائع في القرية أرحاء، ومن ابتاع داراً يتصل بها حانوت أو جنة. انظر، النوازل، صفحات 576، 579، 591، 592، 596.

(41) ص 574.

(42) ص 597.

(43) النوازل صفحات 581، 606.

كما يذكر سحنون⁽⁴⁴⁾، لكنها بيع منفعة⁽⁴⁵⁾. كما أشارت النوازل إلى نوع آخر، وهو بيع المساومة⁽⁴⁶⁾، وكذلك بيع الثنينا⁽⁴⁷⁾، وثمة نوع آخر يقال له قراض أو مقارضة، يحصل فيه المستثمر على حق تملك الشيء المقدم، ومن ثم يلتزم بإعادة كمية المناظرة للشيء نفسه بدون فوائد⁽⁴⁸⁾، لاسيما أن البيع مبادلة عين بنقد أو عين بعين أو مبادلة نقد بنقود⁽⁴⁹⁾.

وفيا يخص نوع المبيع، فنجد أنها اشتملت على الأراضي والدور وبعض المحاصيل والأغنام والجواري وغيرها.

ولخصر النوازل، فلا بد من ربطها بالفترات الزمنية التي أشرنا إليها من قبل ونصيب كل فترة منها. بداية تشتمل النوازل التي بين أيدينا على أربع وثلاثين نازلة اختصت الفترة الأولى بعشر نوازل، والثانية والثالثة كل منهما خمس والرابعة أربع عشرة نازلة.

ومن الملاحظات الخاصة بنقد هذه النوازل، فنجد ابن سهل يعرض لمسألة داخل مسألة⁽⁵⁰⁾ كنوع من الاستشهاد أو التأكيد، وتأتي أحيانا النازلة الملحقه لابن سهل نفسه. وفي حالة التشابه في المسائل يأتي بمسألتين في واحدة، منها من باع دارا فيها مطاحن ثم يضاف في الإجابة وكذلك السلم⁽⁵¹⁾، أو من ابتاع دارا يتصل بها حانوت أو جنة⁽⁵²⁾ أو يورد مسألتين غير متشابهتين في مسألة واحدة، مثل: اشترى وطاع بالثنينا أو باع وتبرأ من

(44) المدونة الكبرى، بيروت 1994، ج3، ص115.

(45) عبد الحكيم المغربي، المعاملات في الفقه الإسلامي، القاهرة 1982، ج2، ص52.

(46) النوازل، صفحات 619، 621. وهو أن يكون البائع اشترى شيئا بثمان معين فيبيعه لآخر بالثمان نفسه دون ربح، وهو من البيوع الجائزة. انظر، عبد الجواد خلف، المعاملات في الفقه الإسلامي، البيوع وبعض خياراته، القاهرة 2001، ص24.

(47) النوازل، ص604 هو بيع شيء مع استثناء بعضه دون تعيين هذا البعض، وهو بيع أبطله الإسلام، ما دام النقص المستثنى مجهولا، فإذا علم صح البيع. انظر، عبد الجواد خلف، المرجع نفسه، ص70.

(48) محمد عبد المنعم الجمال، الأخلاق والمعاملات في الإسلام، القاهرة 1975، ص30.

(49) عبد الحكيم المغربي، المرجع السابق، ج1، ص57.

(50) النوازل، ص577.

(51) ص591.

(52) ص593.

وظيف الملك المبيع⁽⁵³⁾ " كما أنه في حالة المسائل المتشابهة بعد أن يعرض للمسألة ، يأتي بمسألة مشابهة ، ويقول : "مسألة أخرى من هذا المعنى" ⁽⁵⁴⁾ .

ولعل ذلك يرجع إلى أن الفترة التي عرض لها ابن سهل في نوازلها كانت طويلة كما بينا، وكان من المنتظر أن تتكرر المسائل فيما بينها، خصوصا أنها ترتبط بالحكم مما يتطلب مقارنة أحكام القضاة في هذه وتلك . لكن أحيانا تخرج النوازل عن البيوع لتعرض لبعض المشاكل مثل استرداد حيازة الأرض⁽⁵⁵⁾ أو أن تأتي النازلة مركبة وشاملة موضوعات مختلفة⁽⁵⁶⁾ .

لكن مثل هذه الملاحظات تخفي وراءها معلومات تاريخية متنوعة خلال الفترة التي عرضت لها، سواء كانت خاصة بالوظائف المتعلقة بالنظام القضائي، أم ما ارتبط بالجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

فذكرت النوازل بين ثناياها بعض الوظائف في معرض الحديث عن رفع المسألة للإفتاء فيها، منها قيام الفقهاء المشهورين بكتابة عقود البيع⁽⁵⁷⁾، من هؤلاء ابن الشقاق وابن دحون اللذان انفردا برئاسة العلم بقرطبة خلال الثلث الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي⁽⁵⁸⁾ .

ويتكرر ذكر صاحب السوق، الذي رفعت إليه بعض النوازل للمشاورة⁽⁵⁹⁾، ولعل ذلك يرتبط بأحد اختصاصاته، أو لأن ابن ذكوان⁽⁶⁰⁾ الذي ذكر في نازلتين تولى الحسبة ثم

(53) ص 604 .

(54) ص 609 . وكذلك : " ويقرب من هذا المعنى " ، " ومما يشكل هذا المعنى " صفحات 613 ، 616 .

(55) صفحات 608 ، 609 ، 613 ، 616 .

(56) اشتملت إحدى النوازل على توكيل وييع وخلع ، والتنازع في ذلك واليمين بقرب الابتاع أو على بعد منه . انظر ، ص 622 .

(57) صفحات 579 ، 581 . ذكرت المصادر أن ابن الشقاق كان أعرف أهل عصره بعقد الوثائق ، انظر ، ابن بشكوال ، الصلة ، رقم 286 .

(58) القاضي عياض ، ترتيب المعارك ، ج4 ، ص 729 .

(59) النوازل ، صفحات 579 ، 582 .

(60) هو أبو علي حسن ، تولى الحسبة بقرطبة في الفتنة ، ثم أحكام القضاء ، حيث استقضاه الوليد محمد بن جمهور بقرطبة ورقاه إليها من أحكام الشرطة والسوق ثم صرفه عن القضاء لأشياء ظهرت فيه ، توفي عام 451هـ / 1059 انظر ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج4 ، ص 677 ، ابن بشكوال ، الصلة ، رقم 312 .

القضاء، أو أن اشتراك صاحب السوق في نظر بعض القضايا يرجع أيضا إلى أنه كما يذكر ابن عبدون⁽⁶¹⁾ أنه: "لسان حال القاضي وصاحبه ويكفي القاضي أمورا كثيرة".

كذلك يذكر صاحب المظالم الذي عين أيضا بالاسم في أكثر من نازلة⁽⁶²⁾. ولما كان النظر في المظالم يحاكم كبار رجال الدولة من الولاة والعمال إذا اعتدوا على حقوق الناس، وأن هذا النظام يحقق ما عجز القضاء العادي عن تحقيقه؛ لذا كان من يتولى المظالم يتمتع بسلطات أوسع من سلطات القاضي العادي.

وإذا كانت النوازل التي بين أيدينا تفيد بوجود هذه الوظائف، فهل ارتبط وجودها بالإطار النظري الذي عرضناه؟. أخبرتنا النوازل بأن البائع تقدم إلى صاحب السوق فشاور فيه⁽⁶³⁾، وذكر أيضا صاحب المظالم بقرطبة، وأن المتظلمين أثبتا عنده عقد استرعاء بملك أبيهما⁽⁶⁴⁾ صحيح أن هذه النازلة تبين تعدي أحد كبار رجال الدولة على أملاك الرعية بما يؤكد ما أسلفناه، فهل تقدم هؤلاء المتظلمون أو البائع إلى هاتين الجهتين لعلمهم بما يجب أن يتم في مثل هذه الأحوال، أو أنه تم توجيههم من قبل القاضي لكن شيئا من ذلك لم يذكر.

ولعل ورود عبارة: "فقام عليه عند صاحب السوق"، المقصود بها أن المشتري أراد أن يحول ما اشتراه من الدار إلى مكان تمارس فيه إحدى الصناعات هي طحن الغلال، وخالف الشرط الذي اتفقا عليه في العقد بعدم إقامة طاحونة⁽⁶⁵⁾، ومن هنا كان لابد من الرجوع إلى صاحب السوق باعتبار أن ذلك يدخل في اختصاصاته أو أن ولاية الحسبة في الأندلس في تلك الحقبة، وهي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كانت ولاية عامة لها

(61) رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، فصله من كتاب ثلاث رسائل أندلسية، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة 1955، ص 20.

(62) صفحات 574، 616.

(63) صفحات 579، 582.

(64) هو الشهادة التي يشهد فيها الشاهد بما في علمه، ويقابلها الشهادة الأصلية التي يملئها المشهود عليه على الشاهد. أحمد اليوسفي شعيب، المرجع السابق، ص 19، حاشية رقم 75، النوازل، ص 616.

(65) ص 579.

اختصاص يشابه اختصاص قاضي الجماعة في قرطبة؛ بسبب الظروف السياسية التي سادت الأندلس في هذا القرن، وما تلاه من تغير اقتصادي واجتماعي سريع⁽⁶⁶⁾.

كما وردت وظيفة صاحب الأحباس والموارث، كأحد الأطراف المشتركة في بيع أرض، ولعل اشتراكه هنا؛ لأن صاحبة الأرض كانت دون سن الرشد، لاسيما أن ما تم بيعه سجل في بيت مال المسلمين كما ذكر في النازلة⁽⁶⁷⁾.

وتتعدد أوجه الإفادة أيضا من هذه النوازل فيما يخص الجانب السياسي، فبرغم أنها تختص بجزئية اقتصادية؛ فإنها قادرة على تقديم بعض ملامح هذه الفترة اعتمادا على بعض الإشارات التي تفصح عن الأحداث السياسية التي عاشتها الأندلس آنئذ، فهناك نازلة⁽⁶⁸⁾ أشارت بشكل ضمني إلى حالة الاضطراب السياسي بقرطبة الذي حال بين أحد الأشخاص وبين ماله بتاكرنة، وبرغم أنه لم يذكر تاريخ هذه النازلة، فإنه أفتى فيها القاضي عبد الرحمن بن بشر⁽⁶⁹⁾، وهو القاضي المنوط بالقضاء بقرطبة آنئذ، فتذكر المصادر: "أنه تم اختياره من قبل ابن ذكوان⁽⁷⁰⁾ للقضاء في الفتنة أيام الحمدوية⁽⁷¹⁾، فعمل

(66) محمد عبد الوهاب خلاف، وثائق في شئون الحسبة في الأندلس، المقدمة ص 13.

(67) صفحات 613 - 614.

(68) ص 574.

(69) يكنى بأبي المطرف، كان من أجل علماء وقته، توفي عام 422هـ/ 1030م. انظر القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج4، ص 736.

(70) هو أبو العباس، تولى قضاء الجماعة بقرطبة عام 392هـ/ 1002م أيام الدولة العامرية، جمعت له الوزارة والقضاء، وبقي إلى ذلك إلى أن انقضت دولتهم بقيام المهدي بن عبد الجبار أول خلفاء الفتنة البربرية 399هـ/ 1008م، ولما كان ابن ذكوان سندا للبيت العامري في حكم الأندلس، فنفاه المهدي وأهل بيته حتى توفي عام 413هـ/ 1052م، انظر، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 86.

(71) بعد انهزام محمد بن سليمان، دخل على بن حمود قرطبة عام 407هـ/ 1016م، وتلقب بالناصر وقبض على زمام الأمور، واشتد في معاملة القرطبيين، لكن سرعان ما تغيرت الأحوال، وذلك؛ لأن خيران العامري الذي دخل قرطبة مع ابن حمود أعلن الدعوة لأحد أبناء البيت الأموي، ولقبه بالمرتضي، ولما ترامى إلى ابن حمود ميل أهل قرطبة إلى الخليفة الأموي اعتقل كثيرا من أعيانهم وصادر أموالهم وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع، انظر، ابن عذارى، البيان، بيروت 1983، ج3، ص 125؛ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 409.

مدتهم وبعدهم إلى قيام المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية ، وكانت مدة قضائه اثني عشر عاما". ومعلوم أن الصراع كان دائرا بين أهل قرطبة والبربر آنذاك، وانتهى بقيام البربر بمحاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها، واستمر الحصار خمسين يوما والمعارك تتجدد في كل يوم، حتى خرج أهل قرطبة، واشتركوا في معركة حاسمة هزم فيها البربر⁽⁷²⁾. وما يؤكد أيضا أن هذه النازلة وقعت خلال هذه الفتنة أن ابن عبد الرؤوف⁽⁷³⁾، الذي ذكر في النازلة، بأنه صاحب المظالم، تولى هذه الوظيفة في قرطبة من الحموديين .

كما تشير نازلة أخرى⁽⁷⁴⁾ إلى الفترة التي حكم فيها عبد الملك بن جهور 457 - 463هـ / 1064 - 1070م ، تبين من خلالها تسلطه على الرعية واغتصاب أملاكهم، خصوصا أن المصادر⁽⁷⁵⁾ ذكرت: أنه كان لعبد الملك بطانة سوء من السفال وسقاط الناس ، فكان لهم تسلط على الناس بالأذى لهم في كل واد"، كذلك تذكر نازلة ثالثة⁽⁷⁶⁾ أن المحكوم لهما بحيازة الأرض التي ببياسة غابا إلى شرقي الأندلس، وتشير أيضا إلى أن بياسة كانت تابعة لابن صمادح صاحب المرية عام 443هـ / 1051م . وأن الفتنة كانت بسبب باديس من حبوس، كما تبين أنها استمرت فترة طويلة بحيث إن أحد الأخوين عاد بعد عشرين عاما حين صارت بياسة إلى ابن ذي النون⁽⁷⁷⁾.

(72) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1994، ص 55؛ المصدر نفسه، صفحات 134 - 135 .

(73) هو محمد بن علي بن هشام، كان واسع العلم حاذقا في الفتوى، حاكم قرطبة زمن الحموديين وبعدهم، توفي عام 424هـ / 1033م . انظر، القاضي عياض المصدر السابق، ج4 ص 736، الصلة، رقم 698 .

(74) ص 616 .

(75) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 258 .

(76) ص 613 .

(77) ص 614 .

ويشير أحد الدارسين⁽⁷⁸⁾ إلى أن الحكام كانوا يأمرّون بطرد المناوئين لهم من كورهم عند الإشارة إلى هذه النازلة، لكن المصادر التاريخية⁽⁷⁹⁾ تبين عن الصراع بين باديس بن حبوس صاحب غرناطة وابن صمّاح، وأن ابن حبوس استولى على بياسة وظلت تحت حكمه إلى أن توفي عام 465هـ / 1073" وأن ابن صمّاح استغاث بالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، لكن سرعان ما انقلب عليه واستولى على قرطبة. ولما كانت بياسة قريبة من قرطبة، فلا بد أنها تأثرت بما جرى فيها، خصوصاً أن أحواز قرطبة في الشرق تختلط بأحواز بياسة⁽⁸⁰⁾.

كما تتضح الاستفادة من هذه النوازل في الأحوال الاقتصادية، خصوصاً أن الدراسة تعالج إحدى جزئياتها، فظهرت فيها الملكيات الكبيرة؛ حيث ذكرت إحداها⁽⁸¹⁾ تملك أحد الأشخاص للدور والدمن⁽⁸²⁾ والأفنية والزيتون والكروم والأرحاء، كما أن ورود عبارة: "جميع أملاكه"، توحي بالكثرة، بالإضافة إلى ما ذكر عن بيع الأراضي أو الدور الملحق بها الجنات⁽⁸³⁾، كما تعددت الملكية لشخصيات معينة، منها ابن عبدوس⁽⁸⁴⁾ الذي تكرر ذكره في النوازل؛ حيث اشترى أراضي ودوراً وغيره، وكذا من اشترى من فلان جميع ما احتوته أملاكه في الأرض والشجر⁽⁸⁵⁾.

(78) محمد عبد الوهاب خلاف، القضاء في الأندلس، ص 133.

(79) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 1، ص 157.

(80) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 158، قام ذو النون بغزو قرطبة في آخريات عصر الجهاروة عام 462هـ / 1069م، انظر ابن عذاري، المصدر نفسه، ص 258. كما أن دولة الجهاروة كانت تشمل من المدن عدا قرطبة جيان وأبد وبياسة وارجونة وأندوجر، انظر، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة 1960، ص 21.

(81) النوازل، ص 596.

(82) ولعلها الزرائب، فذكر ابن منظور: الدمن هو البعر، والدمنة آثار الناس وما سودوا من آثار البعر، ودمنت الماشية المكان بعرت فيه وبالت 0 انظر، لسان العرب، بيروت 1988، ج 4، ص 411.

(83) ص 592.

(84) صفحات 608، 620، 622 وارتبط ورود اسمه بأحكام القاضي ابن زياد.

(85) ص 576.

ولعل ظاهرة بيع الأراضي، لاسيما في الممتلكات الكبيرة لا تدل فقط على أساس الملكية آنئذ، لكن أيضا على أنه تم تكوينها في فترات سابقة، ولعل الحاجة لبيعها تزامن مع الفترة التي عانت فيها البلاد الاضطرابات؛ حيث إنها وقعت خلال الفترة التي عاش فيها ابن سهل. كما ظهرت أيضا أراضي الأحياس في أكثر من نازلة⁽⁸⁶⁾.

وتعكس إحدى النوازل⁽⁸⁷⁾ التي أشرنا إليها سلفا التعسف والجور في عهد عبد الملك بن جهور؛ حيث اغتصب قطعة أرض تعرف بالسهلة من أملاك الرعية وأقام سورا حولها ليضمها إلى أملاكه، وتضيف النازلة: "ولم يقدرنا على التكلم في ذلك - يقصد صاحبي الأرض - لتملكه قرطبة"، وتأكدت عدم قدرتها في أنها بعد وفاة أبيهما وانفرادهما بالكرم لم يينا في تسجيل أرضهما حد الأرض المغصوبة، ثم تقدما بعد ذلك، وأثبتنا ما يفيد ملكيتهما وسألا الإنزال فيها.

من خلال ذلك يتضح لنا أن الشكوى لم تقدم إلا بعد زوال حكم الجهاروة، خصوصا أن ابن أدهم⁽⁸⁸⁾ صاحب المظالم الذي قدم إليه الاسترعاء، كان يشغل هذه الوظيفة قبل أن يلي القضاء للمعتمد بن عباد عام 468هـ/1075م، معنى ذلك أنه كان متوليا للمظالم في الفترة التي أعقبت سقوط ملك بني جهور صحيح أن النازلة لم يذكر فيها التاريخ لكن إصدار الحكم لصالح المتظلمين؛ حيث أيد القاضي ابن بقي⁽⁸⁹⁾ رأي المشاور محمد بن فرج مولي الطلاع⁽⁹⁰⁾، بإنزالهما فيما غصب منهما، وأمر بنفاذ الحكم، لكنه لم ير حاجة لما أشار إليه ابن فرج من الإنزال بصحبة شاهدين، ما دام لم يمنع المتظلمين مانع، مما يؤكد ما افترضناه.

(86) صفحات 599، 601.

(87) ص 616 وما بعدها.

(88) وهو عبد الله بن محمد، من أهل قرطبة، نظر في أحكام المظالم وشور في الأحكام فيها، توفي عام 486هـ/1093م. انظر، ابن بشكوال، الصلة، رقم 672.

(89) هو محمد بن أحمد بن مخلد عبد الرحمن، يكنى بأبي عبد الله، من أهل قرطبة وقاضيا، تولى المرة الأولى بتقديم محمد بن جهور، والثانية بتقديم يحيى بن ذي النون، توفي في إشبيلية عام 470هـ/1077م. انظر، ابن بشكوال، نفس المصدر رقم 1121.

(90) هو فقيه قرطبي مشهور، مقدم في الفتوى، وله كتاب في الشروط، توفي عام 497هـ/1103. انظر الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، بيروت 1997، رقم 256.

وأشارت النوازل أيضاً إلى بعض المحاصيل مثل القمح والشعير أو تأتي باسم الغلة، وكذا ذكرت الأشجار والنخيل والكروم والزيتون وغيره، فضلاً عن ذكر بعض العمليات الزراعية المرتبطة بالكروم⁽⁹¹⁾، كما ربطت إحداها ضمنياً بين تملك نصف كرم بعد سداد الثمن خلال ثلاث سنوات⁽⁹²⁾ وبين اعتمار الكرم وهي الفترة التي تستغرقها هذه الزراعة .

كما ذكرت الأغنام والبغال المكتراة⁽⁹³⁾، فضلاً عن بعض الصناعات، لاسيما التحويلية مثل طحن الغلال؛ حيث كثر ذكر الطواحين والأرحاء⁽⁹⁴⁾ . إلى جانب صناعة القرافين أو الصرافين⁽⁹⁵⁾ ولم تذكر الأسواق إلا في نازلة واحدة ذكر منها سوق قرطبة⁽⁹⁶⁾ . وفيما يخص العملة، نجد ذكراً للمثقال أو الدينار⁽⁹⁷⁾ أحياناً والدرهم وغيرهما من التعبيرات الدالة على استخدام عملات ارتبطت قيمتها بفترات القوة والضعف، فذكرت بعض النوازل⁽⁹⁸⁾ خمسة عشر مثقالاً عيوناً ذهبية، أو أربع مائة مثقال ذهباً نصفية . كما لوحظ في النوازل⁽⁹⁹⁾ أثر ما يحدث من تغيرات في العملة بفعل الأحداث السياسية، ومنها ما حدث في المرية خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ حيث كانت السكة الحديثة أحسن من التي وقع العقد بها، ولعل ذلك يرجع إلى أن الفترة التي حكم فيها أبو يحيى محمد بن صهاح 443 - 484 هـ / 1051 - 1091 م تميزت بالاهتمام بشئون الرعية وتحسن أحوالهم⁽¹⁰⁰⁾ .

(91) النوازل، ص 581 . مثل قطع الشعراء من الكرم ، ثم حفرة .

(92) نفسه .

(93) صفحات 606 ، 627 ، 632 .

(94) صفحات 579 ، 591 ، 596 ، 609 .

(95) ص 628 .

(96) ص 629 .

(97) النوازل ص 629 .

(98) صفحات 581 ، 628 ، وهاتان النازلتان تقعان خلال النصف الأول . من القرن الخامس الهجري/

الحادي عشر الميلادي .

(99) صفحات 637 - 638 .

(100) ابن عذاري ، البيان ، ج3 ، ص 168 .

كما حوت النوازل ذكرا لبعض الأسعار، منها أن ثمن نصف كرم وصل إلى خمسة عشرة مثقالا، و ثمن الدار بقرطبة وصل إلى ستين دينارا⁽¹⁰¹⁾، وأخرى وصلت إلى عشرين دينارا⁽¹⁰²⁾ ولعل هذا الاختلاف في سعر الدارين يرجع ربما إلى اختلاف سعة كل دار، مع العلم أن الأولى تقع في بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، والثانية خلال الثلث الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

ومن الأسعار التي يعرضها ابن سهل عند تصنيفه للبيع، يعطي مؤشرا لما شاع في عصره من خلال الأمثلة التي يضر بها . منها أن تدفع إلى صاحب الرطب دينارا في ربيعين أو ثلاثة، أو أن تشتري ثلاثين قرصا من خبز قمح حسن العمل والطبخ، كل قرص من رطل دقيق مقابل ربع أو نصف دينار، وكذلك أن تدفع إلى لبان عشرين درهما وتأخذ من لبن البقر أو الغنم كل يوم ما تتفقان عليه⁽¹⁰³⁾ كذلك ما يدفع من أجره للعمال الزراعيين لتهيئة الأرض لزراعة الكروم منها مثقالان في قطع الشعراء وحفره ثمانية مثاقيل⁽¹⁰⁴⁾ .

ويتضح من بعض النوازل ارتفاع قيمة كراء الدور، فوصل كراء دار لعام أو لعدة أشهر عشرة دنائير برغم أن ثمنها الذي يبعث به وصل إلى ضعف قيمة الكراء⁽¹⁰⁵⁾ . ولعل ذلك يرجع إلى أن الفترة التي وقعت فيها النازلة تعود إلى حكم أبي الحزم بن جهور 422 - 435 هـ / 1031 - 1044 م ؛ حيث صاحب الرخاء في عصره إقبال الناس على مدينة قرطبة، مما أدى إلى ارتفاع الدور وتحرك الأسواق كما يذكر ابن عذارى⁽¹⁰⁶⁾ .

كذلك تذكر النوازل أن الكراء كان مشاهرة أو مساهمة أو لعدة أشهر أو سنوات⁽¹⁰⁷⁾،

(101) ص 619 .

(102) ص 632 .

(103) صفحات 573 - 574 .

(104) ص 581 .

(105) ص 632 .

(106) المصدر السابق ، ج3 ، ص 187 .

(107) النوازل ، صفحات 635 ، 637 .

وكان أحيانا يدفع مقدما⁽¹⁰⁸⁾، كما أن الأرض المحبسة كان يتم اكتراؤها أيضا⁽¹⁰⁹⁾، وأن عقد الكراء يحدد بمدة معينة كما نتبينه في أكثر من نازلة⁽¹¹⁰⁾.

فضلا عن ذلك، فهناك إشارات إلى بعض المقاييس، مثل مساحة الأرض التي وصلت إلى خمسة أمداء⁽¹¹¹⁾. فضلا عن بعض المكاييل مثل سبعة أقفزة وربيع وربعين، وكذا الأوزان مثل الرطل⁽¹¹²⁾ وغيره.

كما أظهرت النوازل بعض المعاملات المالية المرتبطة بالبيع مثل الرهن والشفعة والوكالة، إلى جانب قيام البعض باستثمار ما يملكه من مال أو ذهب أو أنعام، ودفعه لمن يقوم بالتجار فيه مع اشتراط حصة في الربح⁽¹¹³⁾.

وأفصحت النوازل عما اعتاد عليه الناس وتعارفوا عليه في البيع مثل البيع بالثني أو الثنيا الذي أشرنا إليه سلفا، أي أن الارتهان يأخذ شكل البيع مع استثناء جزء من المبيع حتى لا تسقط الحيازة، ويتم البيع ويلتزم المشتري في عقد البيع بأنه إذا أتى البائع بالثمن في مدة تحدد في العقد يرد المبيع إلى البائع، وصرح بذلك في النازلة⁽¹¹⁴⁾ وعندما لم يوف البائع بالشرط، أراد المشتري تملك الأرض، فقال له البائع: "إنما كان ارتهانا، وعقدناه ثنيا تحيلا في إسقاط الحيازة التي لا يتم الرهن إلا بها". وأجاب ابن زرب بأن المتعارف بين الناس أن يتحايلوا في الارتهان بالثنيا.

(108) صفحات، 630، 635.

(109) ص 636.

(110) صفحات 630، 632، 637.

(111) جاءت في النازلة هكذا، وكما تبدو في النازلة أنها من المساحات، بسبب ورود عدة عبارات تبين ذلك أولا العنوان "ابتاع أرضا وسأل الانزال فيها" وكذلك "فإن حيزت وثبت عنده الحيازة" وغيرها. ص 608، لكن هذه الكلمة قريبة من المئد، وهو مكيال يساوي رطل وثلاث عند أهل الحجاز والشافعي ورتلان عند أهل العراق، انظر ابن منظور لسان العرب، جـ 13، ص 53. وهذا التحديد أو ذاك ربما يغير نوع البيع، فإذا اعتبرناه مساحة كان بيعا حاضرا أو معينا، أما إذا كان كيلا دخل في بيع السلم.

(112) صفحات 633، 573.

(113) صفحات 627 - 629.

(114) ص 605.

كما أن المشتري لا يبتاع أرضاً حتى يعرف ما عليها من ضرائب⁽¹¹⁵⁾، فضلاً عن اختلاف العرف في الإجارة، لاسيما في الأراضي الزراعية⁽¹¹⁶⁾، وكذا ما كان يشترط عند بيع الدار أو جزء منها، بالألا يجعل فيها طاحونة⁽¹¹⁷⁾ كذلك أشار ابن سهل إلى ما اعتاد عليه الناس في قرطبة وعملها من بيع نصف الغنم مؤجلاً أعواماً⁽¹¹⁸⁾، وعند اكتراء الحيوانات كان يشترط ألا تزيد حولتها على ما يحدد للمكثري⁽¹¹⁹⁾.

وأفادت النوازل أيضاً في ظهور بعض الطبقات الاجتماعية، لاسيما الطبقة العليا الممثلة في الحكام وكبار رجال الدولة، كأطراف في بعض النوازل كما بينا، فضلاً عن أصحاب الملكيات الكبيرة. أما الطبقة الوسطى فشملتها كثيراً من النوازل ممن ملكوا الأراضي والدور إلى جانب الطبقة الدنيا الممثلة في الجوّاري⁽¹²⁰⁾.

ومن المظاهر الاجتماعية، لبس الرجال الثياب والعمائم الحريرية⁽¹²¹⁾، وشكل المنازل التي وصفت أحياناً واتصلت بالجنات ووجود الشجر في بعضها وبناء الطواحين بها أو إلحاق بعض الدور بالخوانيت⁽¹²²⁾.

وظهرت المرأة في النوازل بشكل لافت للنظر؛ حيث احتلت مساحة قاربت الثلث قامت فيها بدور البائع أو المشتري للأراضي والدور، مما يعكس في الغالب انتقال هذه الملكية عن طريق الميراث أو غيره. ومن الملاحظ أن غالبية النوازل الخاصة بها كانت في أخريات القرن الثالث وبداية الرابع الهجري/ التاسع والعاشر الميلاديين⁽¹²³⁾.

(115) نفسه.

(116) ص 587.

(117) ص 579.

(118) ص 606.

(119) ص 633.

(120) ص 641.

(121) ص 578.

(122) ص 579، 592.

(123) صفحات 608، 609، 613، 618، 619، 620، 622، 626.

علاوة على ذلك، تقدم النوازل لإحدى زوايا الناحية الثقافية آنذ، لاسيما التي تتعلق بالمذهب المالكي المؤسسة عليه أجوبة القضاة والمشاورين. نستطيع أن نتلمسها من خلال أمرين، الأول: أجوبة الفقهاء في المسائل المقدمة إليهم، والثاني: إجابة ابن سهل وتعليقه على أجوبتهم. وفي عرضنا لآراء الفقهاء من حيث الاتفاق والاختلاف، لابد أن نضع في الاعتبار نشاط المذهب المالكي، خصوصا أن النوازل تقع في الفترة التي أغلق فيها باب الاجتهاد أو أوشك وتبعه التقليد⁽¹²⁴⁾.

يتضح من خلال ما بين أيدينا من نوازل البيوع أن لدينا أربعة مستويات لتلك الإجابات المقدمة، الأول: ابن لبابة وجماعته كما بينا⁽¹²⁵⁾، ونادرا ما تأتي بسوابق فقهية⁽¹²⁶⁾، ولعل ذلك يرجع إلى أن ابن سهل لم يكتبها، لكن هذا الأمر مستبعد؛ لأنه أورد آراء الفقهاء الآخرين كاملة، كما أن القاضي ابن زياد لم يقبل الرأي ممن شاوره حتى يقيده على نفسه بخط يده، فكان أول قاض ضم المشير عليه في أقضيته إلى ضبط فتياهم، ثم قام بعد ذلك بجمع هذه الأقضية فيما عرف بـ "أحكام ابن زياد"⁽¹²⁷⁾، فضلا عن أن ابن لبابة وأيوب بن سليمان وصفا بالرسوخ الكامل في مذاهب الرأي وطرق الفتيا⁽¹²⁸⁾.

(124) تتزامن هذه النوازل مع الدور الرابع من أدوار الفقه الذي يبدأ من أوائل القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع الهجري؛ حيث ازدهر الفقه بظهور المذاهب وتشتمل على جزء من الدور الخامس الذي يبدأ من منتصف القرن الرابع الهجري إلى سقوط بغداد عام 656هـ/1258م، وهو دور الركود، وخلالها اعتري الفقه الضعف، وجنح الفقهاء إلى التقليد والتزام مذاهب معينة، لا يجيدون عنها، فنشأ التقليد فيما بينهم إلا القليل النادر. انظر، عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية الإسكندرية 1969، صفحات 146 - 147، محمد حجي، نظرات في النوازل الفقهية، ص 28.

(125) وذكرت كذلك في النوازل؛ لأن أجوبتهم كانت دائما مجموعة في رأي واحد.

(126) أشار ابن لبابة إلى قول مالك. انظر، النوازل ص 642. كما ذكرت المصادر أنه كان يعتمد على كتاب الله وسنة رسوله، أما الرأي فمرة يصيب ومرة كالذي يتكاهن. الضبي، بغية الملتمس، ص 52. أما أيوب بن سليمان فكان إماما في رأي مالك: "انظر، ابن الفرزي، تاريخ علماء الأندلس، رقم 265.

(127) الخشني، قضاة قرطبة، ص 206.

(128) نفس المصدر.

أما المستوى الثاني فيرتبط بالفترة التي أفتى فيها ابن الفخار وابن الشقاق وابن دحون وغيرهم، تلك التي ظهر فيها التقليد، لكن في حدود ضيقة أيضا اعتمادا على روايات أشهب وابن نافع وابن القاسم⁽¹²⁹⁾، وذكر عن ابن الفخار أنه كان حافظا للروايات⁽¹³⁰⁾. ثم تأتي فتاوى ابن عتاب وابن القطان وابن مالك، وإذا كان هؤلاء الثلاثة عاشوا في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ومالوا إلى التقليد، فابن عتاب فاقهم جميعا، نتبين ذلك من اعتماده على أمهات كتب المذهب المالكي⁽¹³¹⁾. ويتضح من إجاباته عن النوازل أحيانا إصراره على البحث عن الرواية التي اعتمد غيره عليها في بعض الإجابات⁽¹³²⁾.

وأخيرا يأتي ابن سهل في المستوى الرابع ليصل من خلال أجوبته المقدمة في عصره أو التي عقب فيها على أجوبة السابقين إلى قمة التقليد؛ حيث اعتمد على السوابق بشكل ملحوظ، لا سيما أنه يذكر في بداية كتابه أنه كان يحفظ المدونة والمستخرجة الحفظ المتقن، كما يرى أن حسب المجتهد إتباع السلف وأن من مضى أعلم بمن بقي⁽¹³³⁾. ونستخلص مما سبق أن الفترة الممتدة من أواخر القرن الثالث إلى أواخر الخامس الهجري/التاسع - الحادي عشر الميلادي. تراوحت بين البعد عن الاجتهاد والقرب من التقليد، وليس معنى إغلاق باب الاجتهاد أن الفقهاء قفروا فجأة إلى التقليد لكن ظلت

(129) النوازل، ص 574.

(130) ص 577.

(131) تمثل هذه الكتب الأساس الذي اعتمد عليه فقهاء المذهب المالكي، وقد ألّفت بداية من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، فبعد مدونة سحنون التي رواها عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك، جمع العتبي، وهو قرطبي المسائل الغربية في العتبية أو المستخرجة، وتوفي عام 254هـ/868م، أما الموازية فألفها محمد بن رباح الإسكندراني وهي أجل كتاب وأصحها وأبسطها مسائل ألفه قداماء المالكيين، توفي عام 269هـ/822م، والواضحة التي لم يؤلف مثلها لعبد الملك بن حبيب، الذي ألف كتب كثيرة في الفقه أيضا، توفي عام 291هـ/903م انظر، القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج3، صفحات 144، 72، 31.

(132) ص 577. ويتضح حرص ابن عتاب على التقليد في عدة عبارات وردت في إحدى إجاباته: "ولم أزل أطلب ذلك أن كان عن رواية، ولم أزل أطلبها وأواصل البحث عنها وأذكر أهل الحفظ بها، إلى أن ظفرت بها".

(133) انظر مقدمة النوازل.

بصيات الاجتهاد واضحة حتى تم الانتقال المرحلي إلى التقليد، ولعل ذلك يتضح في الفترة السابقة على ابن سهل؛ حيث غلبت الواقعية من جهة والاستشهاد بالقرآن والسنة من جهة ثانية، كما دخل الترجيح بين الروايات بناءً على أصول المذهب⁽¹³⁴⁾.

ولعل ما ذكرناه يتوافق مع ما ذهب إليه أحد الدارسين⁽¹³⁵⁾ من أن تطور فقه النوازل يرتبط بزيادة نسبة الواقعية بواسطة السوابق في القضاء وسجلات المشورة في الأندلس، صحبه طغيان وفقدان الحرية في الترجيح ممثلاً لدى ابن سهل.

أما عن مظاهر الاتفاق بين الفقهاء، فوضحت في إجابة ابن لبابة وجماعته؛ حيث جاءت واحدة لخمسة أو ستة فقهاء أحياناً مما يعكس الاتفاق وكذا في إجابة أحد الفقهاء، فقال: "قولي على قول ابن دحون، فله سابقة ورسوخ، وما ذكره ابن الشقاق: "لم يحضرني في هذا جواب ارتضيه، وقد جابوب الفقيه أبو محمد بما تراه"⁽¹³⁶⁾.

لكن الاختلاف بين الفقهاء يبدو كثيراً، وربما يرجع إلى المصدر المعتمد عليه في الفتوى أو بسبب الترجيح بين الأقوال المنقولة عن الإمام، فقد يكون الناقل لقوله اعتمد على قول رجع عنه، ولم يعلم برجوعه، ويكون بين القولين المختلفين فرق دقيق، وهو سبب اختلاف القولين، كما توجد في المذهب أقوال مختلفة لفقهاء المذهب فيما بينهم أو مختلفة عن قول الإمام مالك⁽¹³⁷⁾ أو أن يكون الاختلاف بسبب المنافسة والمزاحمة، التي لا تفصح عنها النصوص وتتضح في كتب التراجم⁽¹³⁸⁾.

أما الأمر الآخر المتعلق بتعقيب ابن سهل على إجابات الفقهاء في النوازل السابقة عليه، فمن الملاحظ أنه كان يقوم بنقد الإجابة أحياناً، ويحدد مواطن الضعف والقصور،

(134) محمد عبد الوهاب خلان، تاريخ القضاء في الأندلس، ص 245.

(135) مقدمة مسائل ابن رشد، صفحات 9-10.

(136) النوازل، ص 574.

(137) عبد الكريم زيدان، المرجع السابق، ص 149. مثال ذلك ما ذكر ابن سهل تعقياً على إجابات الفقهاء في إحدى النوازل: "وهذا الجواب يوافق ما في سماع أصبح في كتاب الصدقة، ويخالف قول

ابن القاسم، انظر النوازل، ص 596.

(138) الخشن، قضاة قرطبة، ص 207.

ولعلها كانت سمة عامة في هذه النوازل ؛ حيث علق تعليقات وافية ومهمة ⁽¹³⁹⁾، أشار فيها إلى خلو بعضها من الروايات والاعتماد على السوابق، كما لا تخلو تعقيباته أحيانا من إظهار مكانة الفقهاء السابقين والمعاصرين، أو تأتي مطولة أو مختصرة، ويوضح ذلك بعبارات دالة على ما يريد ⁽¹⁴⁰⁾ وهذه التعقيبات التي أوردها ابن سهل بمثابة تقييم لهؤلاء الفقهاء من منظوره الخاص المرتبط بتكوينه الفقهي والفترة التي عاش فيها .

علاوة على ذلك، فهناك جانب آخر يتضح من الإجابات المقدمة، وهو التحايل في أحكامهم، مثل: ما جاء في جواز بيع أنقاض الحوانيت المبنية في الأرض المحبسة بشرط القلع ⁽¹⁴¹⁾. وهذا ما أشار إليه ابن سهل صراحة ، وما ناقشه ابن دحون مع القاضي ابن زرب: وقال: "وإذا اشترط على المبتاع قلعه ، فقال له: هذه حيلة لو سمعها الناس لعملوا بها" ⁽¹⁴²⁾.

كذلك برغم اعتماد الفقهاء في أحكامهم على ما جاء في كتب الفقه، يشير ابن سهل في النازلة السابقة نفسها إلى أن ما تضمنته المدونة لم يجبره عمل ولا أفتى به المتأخرون ⁽¹⁴³⁾ ويعلق هنا على هذه المسألة بالذات التي كان لها ما يشابهها فيما سبق، بدليل ما عرضه من مسائل ابن زرب ووثائق ابن العطار وغيره ⁽¹⁴⁴⁾.

فضلا عن ذلك ، فبرغم التجزئة السياسية خلال عصر الطوائف ، فإن العلاقة بين الفقهاء ظلت موجودة ، تمثلت في المراجعات الفقهية، التي يقصد بها الأسئلة التي توجه إلى الفقهاء، من قضاة المدن المختلفة، ويتضح ذلك من ورود بعض العبارات الدالة على

(139) ومنها : "وكذلك في تهذيب أجوبتهم كلام طويل واعتراضات فيها ، واختلال في بعض معانيها" والعجب في هذه القضية من أحكام ابن زياد التي ذكرناها ومن ضعف قضائته فيها وأجوبة الشيوخ عليها وسكوت الفريقين عن بائع الصبية وهو الأول في الخطأ قبل مبتهاها " صفحات 589 ، 644 .

(140) منها : " ولهذا بسط وبيان تركته كراهة التطويل " ، أو " تركت كثيرا من هذه المسألة اختصارا " صفحات 589 ، 595 .

(141) ص 603 .

(142) ص 601 .

(143) ص 601 .

(144) وهو محمد بن أحمد بن عبد الله ، قرطبي كان حاذقا في الشروط ، وكان فريد فقهاء وقته مع توافرهم . انظر ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج4 ، ص 650 .

ذلك، منها: "وكتب إلى من المرية بهذه المسألة في عدة سؤالات" (145)، "وكتبت إلى شيوخنا بقرطبة سنة أربع وخمسين وأربعمائة" (146)، فضلاً عن العلاقة بين العدوتين (147).

أخيراً أسفرت دراسة البيوع عن كشف نواح أخرى في المجتمع الأندلسي، وأوضحت العلاقة الجدلية بين الجانب الاقتصادي وغيره من الجوانب الأخرى. وأن دراسة الفقه أفادت في فهم تلك الممارسات وبعض الدقائق الواردة في النوازل فيما يخص المعاملات المالية، كما تبين الفارق بين المثال والتطبيق أحياناً. كذلك فإن تناول نوازل الناس وقضاياهم تعد من الاتجاهات المهمة لدراسة التاريخ لقدرتها على الاقتراب من الواقع التاريخي المعاش.

(145) ص 637.

(146) ص 593. وكذلك: "خواف فقهيه طليطلة" ص 615.

(147) ص 630 "وكتب إلى أبي بكر عبد الرحمن وإلى أبي عمران الفاسي اللذين كانا بالقيروان" والأخير، هو موسى بن عيسى بن أبي حاج، من عفجوم من وفاته، استوطن القيروان وحصلت له فيها رئاسة العلم، توفي عام 430 هـ / 1038 م. انظر، القاضي عياض المصدر السابق، ج4، ص 702.

ملحق رقم (1)

مسألة كانت جرت بين يدي وحكمت فيها، وهي: مسألة الحسن وصلتان ابني تمام ابن صلتان، مع ابني ليدو (محمد بن منتيل) المعروف بابن الأرملة .

ابتاع الحسن وصلتان من ذونة ابنه [أبي حميد بن أبي عيسى] ومن خلف بن وزير صاحب الأحباس والموارث ببياسة وعملها، بتقديم قاضيها إسماعيل بن محمد بن الفخار إياه على ذلك، أملاكًا بقرية [محاطش] من قرى بياسة، بثمن قبضه [المتبايعان] ذونة [وخلف] بن وزير منهما، واعتمر الأملاك نحو أحد عشر عامًا بعد ابتياعها، بحضرة أحمد وحزم ابني [ينيدو]، وبحضرة [أحمد] بن منتيل، لا يغيرون عليها في هذه المدة شيئًا .

ثم تسوروا عليها فيها ومنعوها منها وقاما بذلك عندي، وكنت حينئذ حاكم بياسة والشمتان [وكشطر] وأعمالها، بتقديم ابن صمادح صاحب (ب - 76) المرية [وثبت] عندي عقد استرعاء بابتياعها للأملاك من ذونة وصاحب الموارث وقبضها يضمن، وإيراد صاحب الموارث خط بيت مال المسلمين [منه] حيث وجب إيراده وبتحديد الأملاك شيئًا شيئًا وموضعًا، واعتمارها لها بحضرة المذكورين المدة المسماة، وتسورهم [عليها] بعد هذه المدة، وأنها لم يفوتا شيئًا منهما في علم شهداء ذلك إلى حين التسور، وحيزت الأملاك، وثبت عندي [حيازتها]، وأعدرت إلى أحمد وحزم ومحمد، وأجلت لهم في المدفع الذي أدعوه، فلم يأتوا بشيء، فحكمت لهما وسجلت بذلك ويقطع حجة المتسورين المذكورين، وتاريخ السجل عقب ذي الحجة من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة .

ثم غاب المحكوم لهما . (عين) أبناء صلتان [عن] بياسة إلى شرق الأندلس؛ للفتنة التي صارت فيها بياسة إلى باديس بن حبوس، وبقيها عنها نحوًا من عشرين عامًا، ورجع المحكوم عليهم في الأملاك في غيبتهم، ومات صلتان منهما، ورجع الحسن، إذ صارت بياسة إلى ابن ذي النون - وطلب الأملاك، واستظهر بالسجل، وأثبتته - عند حكمها - عبد بن يحيى بن [أبي] رجا وكلفه حيازة الأملاك، فحازها من لم يزل عنده من الشهود، وكان الحواز المذكورون في السجل قد ماتوا، وزعم المحكوم عليهم أنهم لم يعذر إليهم، ولا شهور في حكمهم، وجرحوا [حواز] السجل عند المحكم المذكور، واستفتي في ذلك الفقهاء .

ملحق رقم (2)

مسألة عبد الرحمن وفطيس ابني عيسى بن عبد الرحمن ابن فطيس، أثبتا عند صاحب المظالم بقرطبة أبي بكر بن أدهم [رحمة الله] عقد استرعاء بملك أبيهما عيسى [الأرض] بقرية [دوس] الجبل في إقليم [الجنطان] من عمل قرطبة حداها كذا، وأنه اغترسها كرمًا ولم يفوت شيئًا من ذلك في علم شهدائه إلى أن توفي، وأنها تملكاه بعده ولم يفوتاه، وأن [عبد الملك] ابن جهور تسور عليهما في قطعة منه تعرف بالسهلة ولم [يقدم] على [التكلم] في ذلك لتملكه على قرطبة، وأثبتا عنده موت أبيهما وورائته وانفرادهما بالكرم وحيز الكرم والقطيع وثبتت حيازتهما عنده، وأشهد بذلك كله، ولم يبين في تقييده حد القطيع المغصوب .

ثم قام بما قيد ابن أدهم لهما وأثبتاه عند القاضي محمد بن [إبراهيم] بن بقى وسألاه إنزالهما في ذلك .

ملحق رقم (3)

قراض دفع إلى رجلين وانعقد بينهما وبين رب المال فيه عقد نسخته

دفع عبد الله بن أحمد إلى أحمد ومغيث أربع مائة مثقال ذهباً نصفه لیتاجرا بها في صناعة [القرافين] بسوق قرطبة على سبيل القراض وسننه [ويتصرفا بها] في الصناعة المذكورة خاصة، وقبض أحمد العدد المذكور وصار بيده، وبيده يكون مدة تجرهما به على القراض المذكور، فما أفاء الله به كان [بينهما] أثلاثاً : لعبد الله ثلث الربح بعد قبضه لرأس المال ولأحمد الثلث ولمغيث الثلث، ويكون تجر أحمد ومغيث وتصرفهما في المال على السواء وعليهما الاجتهاد في ذلك ما بلغ طاقتهما، ليس لهما أن يصرفا المال المذكور في غير التجرة الموصوف بالصناعة الموصوفة، ولا أن يسافرا به ولا بشيء منه، ورضي مغيث بأن يكون المال المذكور على يد أحمد، وعلى هذا الشرط دفع عبد الله [بن] أحمد المال، وعليه العقد القراض بينهم [شهد] .

المصادر

- ابن بشكوال الصلة ، القاهرة 1994 .
- الحميري صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار ، القاهرة 1967 .
- ابن حيان المقتبس ، بيروت 1673 .
- الخشنى قضاة قرطبة ، بيروت 1989 .
- ابن رشد مسائل ابن رشد ، تحقيق محمد الحبيب التكجاني ، بيروت ، 1978 .
- سحنون المدونة الكبرى ، بيروت 1994 .
- ابن سهل ديوان الأحكام الكبرى " النوازل والأعلام ، تحقيق رشيد النعيمي الرياض 1997 .
- الضبي بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، بيروت 1997 .
- ابن عبدون رسالة في القضاء والحسبة ، فصله من كتاب ثلاث رسائل أندلسية ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة 1955 .
- عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة 1994 .
- ابن عذاري البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، بيروت 1983 .
- القاضي عياض ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بيروت - طرابلس 1965 .
- ابن فرحون الديباح المذهب لمعرفة أعيان المذهب ، القاهرة 2002 .
- ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ، بيروت 1989 .
- المقري نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، بيروت 1988 .
- ابن منظور لسان العرب ، بيروت 1998 .
- النباهي تاريخ قضاة الأندلس ، بيروت 1983 .
- ياقوت الحموي معجم البلدان ، بيروت 1996 .

المراجع العربية

- أحمد اليوسفي شعيب
أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية ، نوازل ابن الحاج القرطبي نموذجاً ، تطوان - المغرب 1993 .
- حسين مؤنس
معالم تاريخ المغرب والأندلس ، مكتبة الأسرة 2004 .
- عبد الجواد خلف
المعاملات في الفقه الإسلامي ، البيوع وبعض خياراته القاهرة 2001 .
- عبد الحكيم المغربي
المعاملات في الفقه الإسلامي ، القاهرة 1982 .
- عبد الكريم زيدان
المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ، الإسكندرية 1969 .
- عبد الواحد ذنون طه
كتب الفتاوى مصدراً للتاريخ الأندلسي ، المجلة العربية الثقافية ، جامعة الدول العربية ، العدد 27 1994 .
- محمد حججي
نظرات في النوازل الفقهية ، المغرب 1999 .
- محمد عبده حتملة
موسوعة الديار الأندلسية ، عمان - الأردن 1999 .
- محمد بنشريف
نوازل غرناطية لابن عاصم الابن . مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، عدد خاص بالتراث بين أسبانيا والمغرب ، غرناطة 1992 .
- محمد عبد الله عنان
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، القاهرة 1960 .
- محمد عبد المنعم الجمال
الأخلاق والمعاملات في الإسلام ، القاهرة 1975 .
- محمد عبد الوهاب خلاف
وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس ، القاهرة 1980 .
- ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبذع في الأندلس ، دراسة وتحقيق ، القاهرة ، 1981 .
- وثائق في شئون العمران في الأندلس ، المساجد والدور ، دراسة وتحقيق ، القاهرة 1983 .
- وثائق في شؤون الحسبة في الأندلس ، القاهرة 1985 .
- تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، القاهرة 1992 .

مصطفى بنسباع ابن الحاج التجيبي القرطبي ومسائل بيعه في معيار الوشريسي ،
تطوان - المغرب 1993 .

نزيه حماد عقد السّلم في الشريعة الإسلامية، عرض منهجي مقارن، دمشق -
بيروت 1993 .

المراجع الأجنبية :

Provensal ,Levi, Histoire de l'Espagne Musulmane , Leiden, 1950 .

oboiikan.com

الحياة السياسية في بخارى في عهد الدولة الخانية
(389 : 607 هـ / 999 : 1210 م)

عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم
مدرس بكلية الآداب - جامعة أسيوط

oboiikan.com

الحياة السياسية في بخارى في عهد الدولة الخانية

(389 : 607 هـ / 999 : 1210م)

(*) اكتنف تاريخ هذه الدولة كثير من الغموض مما سبب حيرة لدى كثير من المؤرخين ، فقد ذكر العروضي السمرقندي: چهار مقالة ، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط الأولى ، 1949 ، ص 141 : أن تاريخ هذه الطائفة غير واضح «وما ذكر عنهم في كتب التاريخ ضعيف وناقص ومتناقض ولا يتفق فيه اثنان ، وابتداء ظهورهم ليس محققاً» . في حين أن جوزجاني : طبقات ناصري ، انجمن تاريخ أفغانستان ، كابل ، حجاب دوم 1342 لم يذكر شيئاً عن الدولة الخانية .

وذكر ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، د . ت ، المجلد الرابع ، ص 395 أنه استقى أخبار الدولة الخانية من كتاب ابن الأثير وهي «ليست جلية ولا متضحة» . وقال أيضاً : «إني لم أوفها حقها من الترتيب لعدم وضوحها» .

وذكر بوزورث : الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة حسين علي اللبودي ، مؤسسة الشراع العربي ، الكويت ، ط 2 ، 1995 ، ص 164 : «إن مهمة التوصل إلى نسبهم وتسلسل حكاهم... مهمة بالغة الصعوبة» .

وذكر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة زكي محمد حسن ، حسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، 1951 ، ص 312 : إنها «الدولة الكبيرة التي ما زالت وحدها غامضة النسب» .

وذكر ستانلي لين بول : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف ، مصر ، 1972 ، ص 280 : «المعلومات الموجودة عن آل افراسياب ، أي «الإيلك خانات» سطحية جداً ، ومن الصعب تعيين حدود البلاد التي كانت تحت حكمهم أو بيان إماراتهم» . بل إن التواريخ الخاصة بهم غير معينة أيضاً .

وذكر محمد عاطف : تاريخ كاشغر ، مطبعة سي باب عالي ، استانبول 1300 ، ص 63 : «المعلومات عن خانات كاشغر غير دقيقة والروايات متناقضة» .

والواقع أن هذا الغموض أدى بكثير من المؤرخين إلى الإحجام عن ذكر هذه الدولة للصعوبات الشديدة التي تقابلهم في جمع المادة العلمية لهذه الدولة .

وقد قمنا بالاطلاع على كثير من المصادر العربية والفارسية والمراجع العربية والأجنبية ، حتى يتم إخراج الموضوع بشكل متكامل يلقي الضوء على جانب من تاريخ هذه الدولة .

موقع بُخَارَى⁽¹⁾:

بخارى من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها. وهي مدينة قديمة ، نزهة بلاد ما وراء النهر ، ليس في الإسلام بلد أحسن خارجاً منها ، لأنك إذا علوت قهندزها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء⁽²⁾.

وهي مدينة على أرض مستوية وبنائها خشب مشبك ، ويحيط بهذا البناء من القصور والبساتين والمحالّ والسكك المفترشة والقرى المتصلة سور طوله اثنا عشر فرسخاً في مثله، يجمع هذه القصور والأبنية والقرى والقصبة⁽³⁾. وليس بما وراء النهر

(1) بخارى: بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة ثم ألف وراء مهملة مفتوحة من قواعد ما وراء النهر. السمعاني: دار الجنان بيروت، لبنان، ط الأولى 1408 هـ - 1988 م، ج1، ص 293. أبو الفدا: تقويم البلدان، طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية 1840 م، ص 488. وبخارى كلمة بهلوية بمعنى مجمع العلماء وكانت مجمعاً لعلماء الديانة الزرادشتية قبل الإسلام [بخ: الله، را: للملكية].

أمين مدني: الثقافة الإسلامية وحواضرها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980 م، ص 186. محمد علاء الدين منصور: تأصيل بعض الألفاظ الأعجمية الواردة بمصادر تاريخ المشرق الإسلامي، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، العدد الأول، يناير 2000، ص 412. وقد ذكر الثعالبي أنها كانت في القرن الرابع الهجري «مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر». الثعالبي: يتيمة الدهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى 1403 هـ / 1983 م، ج4، ص 115.

وتقع الآن في جمهورية أوزبكستان. طه عبد العليم رضوان: في جغرافية العالم الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الرابعة 1409 هـ / 1989 م، ص 216.

يسري الجوهري: آسيا الإسلامية، دار المعارف، 1980 م، ص 198، 199. الموسوعة العربية العالمية، المجلد الرابع (مادة بخارى) مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط الثانية 1419 هـ / 1999 م، ص 239.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندبي، دار إحياء الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى 1410 هـ / 1990 م، ج1، ص 419، 420.

القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص 509.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض، ليدن، 1938، ص 482.

وخراسان⁽⁴⁾ بلد أحسن قيامًا بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى ولا أكثر عددًا على قدرها في المساحة⁽⁵⁾.

وتحتوي بخارى على عدد من المدن داخل سورها وخارجها، فأما المدن داخل السور فهي الطواويس، ونومجكت، وزندنه، ومغكان، خجادة، وخارج السور بيكنند، وفربور، وكرمينية، وخديمنكن، وخرغانكث، ومذيا مجكت⁽⁶⁾.

وتضم بخارى عددًا من الرساتيق⁽⁷⁾ منها الذر وفرغيدد وسخر، والطواويس وبورق، وخرغانة السفلي وبومة، ونجار جفر، وكاخشتوان، وانديار كندمان، وساجمن مادون، وساجمن ما وراء، وفراور العليا داخل السور. وخارج السور رساتيق جزرة، شابخش، ويسير، وكرمينية، وخزغانة العليا ورامند وبيكنند وفربور⁽⁸⁾.

(4) خراسان: تعني بلاد الشمس المشرقة وهي مركبة من (خر) بمعنى الشمس وآسان بمعنى مشرقة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، مؤسسة ناصر للثقافة، ط الثانية 1980، ص 214. تقع خراسان في شرق الدولة الإسلامية، يحدها شرقًا سجستان والهند، وغربًا صحراء الغز وجرجان، وشمالًا بلاد ما وراء النهر، وجنوبًا صحراء فارس وقومس. الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، مراجعة محمد شفيق غريال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2004، ص 145. وتقع الآن في الحدود الشمالية لأفغانستان والشمالية الشرقية لإيران وجمهورية تركمنستان، طه عبد العليم رضوان: المرجع السابق، خريطة ص 212. ويطلق اسم خراسان الآن على محافظة شمال شرق إيران.

George N. Curzon Persia, London 1892, Vol 1, pp 177, 178.

(5) الإصطخري: المصدر السابق، ص 165.

(6) الإصطخري: المصدر السابق، ص 175.

لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة ببغداد 1954م، ص 505، 506.

(7) الرستاق: مجموعة من القرى، وكل موضع فيه مزارع وقرى.

حمود شيت خطاب: قادة فتح بلاد فارس، دار الفتح، بيروت، ط الأولى 1385هـ/ 1965م، ص 226، 345.

(8) الإصطخري: المصدر السابق، ص 173. ابن حوقل: المصدر السابق، ص 485.

ذكر الإصطخري أسماء بعض المدن في الرسائل أيضًا مثل الطواويس وكرمينية وبيكند وفير، من المحتمل أن اسم الرستاق أطلق على المدينة على أساس أن الرستاق يحتوي على عدد من القرى. أو يكون قد اختلط الأمر عليه على أساس أن المدينة أيضًا تحتوي على عدد من القرى.

وقد ذكر المقدسي أن لبخارى « ستة عشر ألف قرية »⁽⁹⁾ وهذا الرقم مبالغ فيه لا يتناسب مع مساحة بخارى، وربما يرجع هذا الخطأ لأن المقدسي قد أضاف لبخارى كش ونسف والصغانيان ومدنها.

الدولة الخانية :

دولة تركية حكمت منطقة التركستان الشرقية (كاشغر)⁽¹⁰⁾ والتركستان الغربية (ما وراء النهر) من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حتى مستهل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي⁽¹¹⁾.

وتنسب هذه الدولة إلى أسرة تركية⁽¹²⁾ تنحدر من قبيلة

(9) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن 1906، ص 268.

(10) كاشغر: هي مدينة وقرى ورساتيق، وهي في وسط بلاد الترك. ياقوت: المصدر السابق، ج7،

ص 114. وهي قاعدة تركستان وتسمى أردوكند. أبو الفدا: المصدر السابق، ص 505.

(11) دائرة المعارف الإسلامية، (مادة الايلكخانية)، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الششتاوي

وعبد الحميد يونس، دار الشعب، القاهرة 1933، ج5، ص 399.

(12) ذكر الكاشغري أن الترك في الأصل عشرون قبيلة، فأول القبائل قرب الروم، بجنك، ثم قفجاق، ثم اغز، ثم ياك، ثم بشغرت، ثم بسل، ثم قاي، ثم يياقو، ثم تثار، ثم قرقر، وهذه قرب الصين. هذه القبائل كلها بحذا بحر الروم ممتدة إلى الشرق، ثم جكل، ثم نخسى، ثم يغما، ثم اغراق، ثم جرق، ثم جعل، ثم ايغر، ثم تنكث، ثم ختاي، هي الصين، ثم تغاج وهي ماصين، وهذه القبائل متوسطة بين الجنوب والشمال.

محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري: ديوان لغات الترك، نسخة عن ميكروفيلم - مركز

الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة، ص 20، 21.

القارلوق⁽¹³⁾ إحدى قبائل الأويغور⁽¹⁴⁾.

ويذكر بعض المؤرخين أن ديار القارلوق من الأتراك الشرقيين تعرضت لغزو قبيلة اليغما إحدى قبائل الأويغور. وأن اليغما كانت ديارهم تشمل كاشغر وشرطرا من البلاد الواقعة بين الحوض الأدنى لنهر إيلي الذي يصب في بحيرة ولخش والمجرى الأدنى لنهر شو الذي يصب في بحيرة أسيك كول⁽¹⁵⁾.

(13) أكد ذلك كثير من المؤرخين مثل:

بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ص 94.

نفس المؤلف: تاريخ إيران درقرون نخستين اسلامي، ترجمة جواد فلاطوري، شركت انتشارات علمي وفرهنكي، چاپ سوم 1349، جلد أول، ص 190، 201.

عبد الرفيع حقيقت: تاريخ نهضتهاي ملي ايران، مجموعة تاريخ وفرهنك ايران، د. ت، ص 200.

- Bosworth and Clauson, Al- xwarazmi on the peoples of central Asia, Journal of the Royal Asiatic society, 1965, p.5.

- Bosworth, The Heritage of Rulership in early Islamic Iran and the search for Dynastic connections with the past, Iranian Studies, Vol, XI, 1978, p 27.

- Bosworth, The medieval History of Iran, Afghanistan and central Asia, London, 1977, XIII, p 240.

- Grousset, Histoire del'Asie, Paris, 1921, p 155.

دائرة المعارف الإسلامية مادة «الايلكخانية» ج5، ص 400.

- The Cambridge History of Islam, Vol 1, The central Islamic lands, Cambridge, 1970, p146.

- The New Encyclopaedia Britannica, Vol 9, «Qarakhanid» Chicago, p 832.

(14) Sykes, A History of Afghanistan, London, 1940, Vol 1, p 184.

وقد ذكر انتسابهم إلى الأويغور:

- إبراهيم فنگ جين يوان: الإسلام في الصين، ترجمة محمود يوسف لي هواين، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين، ط الأولى 1991، ص 23: 25.

- طه ندا: التورانيون والإيرانيون، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، مجلد 23 سنة 1969، ص 14.

(15) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار الفكر العربي، 1968، ص 152.

- Barthold, Four Studies on the History of Central Asia, Leiden, 1962, Vol 1, p 92.

ولكن محمود الكاشغري⁽¹⁶⁾ لم يشر إلى انتهاء الخانيين إلى ياغما. ولا يذكر ياغما إلا بوصفهم قوما كانوا يعيشون في أيامه شمالاً في وادي نهر أيله⁽¹⁷⁾.

وذكر نظام الملك أنهم من الجككليين⁽¹⁸⁾ وشعب جيكييل كان يسكن على الساحل الشمالي لبحيرة ايصيغ، وفي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كان اسم جيكييل يطلق على عدة أقوام تركية بعد أن كان قد نسي. وفي عهد ملكشاه السلجوقي (465: 485 هـ / 1072: 1092 م) كان هذا الاسم يطلق حسب بعض الروايات على جيش الخانيين إبان غزو هذا السلطان لبلاد ما وراء النهر.

وذكر الكاشغري أن الغز يطلقون كلمة جيكييل على أقوام الترك المنتشرة من نهر جيحون إلى الصين، ورغم ذلك لم يثبت انتهاء الخانيين إليهم⁽¹⁹⁾.

وقد ذكر الكاشغري أن جيكييل وياغما نقلوا مساكنهم نحو الشمال، ولم يقل مثل ذلك عن القارلوق⁽²⁰⁾ لذلك نستبعد أن تكون أسرة الخانيين من جيكييل وياغما، ومن الثابت أنه تم الاستعانة بهم في الجيش أو سكنوا بجوارهم في بعض الأحيان؛ لذا نرجح انتهاء الأسرة الخانية إلى قبيلة القارلوق.

(16) محمود الكاشغري: محمود بن حسين بن محمد الكاشغري (400: 499 هـ / 1008: 1105 م) من موالي قرية آرك بناحية أوبار التابعة لكاشغر عاصمة الخانيين، تعلم في مدارس كاشغر علم التوحيد والأحكام الشرعية والتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلك والطب واللغة. وعندما قتل والده في انقلاب عام (450 هـ / 1058 م) غادر بلده وتنقل في بلاد الترك حتى وصل إلى بغداد مركز الحضارة الإسلامية عام (466 هـ / 1072 م)، وفي تلك الفترة التي امتدت 14 عامًا قام باستقصاء مفصل لمزايا اللغة التركية بين مختلف القبائل، كما اطلع على حضارة الأتراك. وفي بغداد ركز جهوده على تعلم اللغتين العربية والفارسية. وبفضل تعمقه في اللغة التركية وسعة اطلاعه قام بتأليف قاموس اللغة التركية «ديوان لغات الترك» وقدمه إلى الخليفة العباسي المقتدر عام (470 هـ / 1076 م).

إبراهيم فنغ جين يوان: المرجع السابق، ص 200، 201.

(17) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 91.

(18) نظام الملك: سياست نامه، ترجمة يوسف حسين بكار، دار الثقافة، الدوحة - قطر، ط الثانية 1407 هـ / 1987 م، ص 136.

(19) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 92.

(20) بارتولد: المرجع السابق، ص 93.

وذكر بوزورث: أن القارلوق كانوا داخلين في حلف الترك الأرخونية أو التتوجوية، ثم أصبحوا بعد عام 126هـ/ 742م جزءاً من الحلف الثلاثي الذي ضم القارلوق والأويغور والباسمل، وهو الحلف الذي خلف التتوجوية في منغوليا⁽²¹⁾. لذلك من المحتمل أن هذا الحلف ضم بعض قبائل الأويغور الأخرى أو أعاد القارلوق إلى القبيلة الرئيسية الأويغور.

كان القارلوق يشغلون المنطقة الواقعة بين الغز والتغزغز⁽²²⁾ وترجع نشأة حكم القارلوق في منطقة سميريتشي «يتي صو» «بلاد الأنهار السبعة» إلى عام (143هـ/ 760م) في الجزء الغربي من تركستان الصينية⁽²³⁾.

ويذكر بارتولد: أن القارلوق «يسميه المؤلفون الفرس خلخ وهم قوم يعيشون على حدود البلاد الإسلامية قريباً من طراز من ناحية الشرق. وكانت بعض مدن تركستان الصينية تابعة لهم، ومن بين هذه المدن مدينة بنجول المسماة بالصينية «وين - صو»⁽²⁴⁾.

وقد تأثر القارلوق بالفرس أكثر مما تأثر بهم الغز وكانوا إلى أن قبلوا الإسلام أكثر اتصالاً بالمدينة الإسلامية من غيرهم من الترك⁽²⁵⁾.

وصفوة القول أن الدولة الخانية انحدرت من قبيلة القارلوق إحدى قبائل الأويغور. وكانت هذه القبيلة تعيش على حدود البلاد الإسلامية قريباً من طراز، ثم سيطرت على منطقة التركستان الشرقية والغربية. وقد انضمت إلى قبيلة القارلوق قبائل تركية أخرى مجاورة لها مثل الجيكييل والياغما والباسمل والأويغور فيما يشبه الاتحاد تحت زعامة القارلوق.

(21) دائرة المعارف الإسلامية (مادة الأيلكخانية) ج5، ص 400.

(22) بارتولد: تاريخ الترك، ص 90.

(23) نفس المرجع السابق، ص 68.

(24) نفس المرجع السابق، ص 92، 93.

(25) نفس المرجع السابق، ص 93.

وقد ذكرت الدولة الخانية في التاريخ بعدة أسماء منها آل خاقان «الملوك»⁽²⁶⁾ والخانية، والايك خانية «ملك القبيلة»⁽²⁷⁾ والقراخانية «الملك الرئيس»⁽²⁸⁾ وأطلق عليهم آل أفراسياب، نتيجة لتأثرهم بالملاحم الفارسية ونعلم من محمود الكاشغري أن أفراسياب هو بعينه البطل التركي «ألب أرثونگا»⁽²⁹⁾.

(26) خاقان: خفت خان: ملك. محمد علاء الدين منصور: المقال السابق، ص 412.

(27) آيل: قبيلة - مملكة.

ش سامى: قاموس تركى، دار سعادت اقدم مطبعة سي باب عالي جاده سنده، دائرة مخصوصة سنده: 1317. ص 246.

ايك: أول - مقدم.

محمد على الأنسي: الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، قاموس اللغة العثمانية، د.ت، ص 91. ايك خان: ملك القبيلة. محمد علاء الدين منصور: المقال السابق، ص 411، 412.

(28) قرا: أسود. الصفصافي أحمد المرسى: معجم صفصافي، القاهرة، 1979، ص 222.

قرا: قرية. سامى: القاموس السابق، ص 1059.

وذكر بوزورث: قره: استعملت للدلالة على نقطة الشمال الأولى في البوصلة، ومن ثم انصرف معناها إلى الرئيسى أو الرأس.

ويرجع اسم القراخانية إلى المستشرقين وعلماء المسكوكات في القرن التاسع عشر الميلادي.

دائرة المعارف الإسلامية (مادة الايلكخانية) ج5، ص 399، 400.

(29) العروضي السمرقندي: المصدر السابق، ص 141.

بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 103.

بارتولد: تاريخ إيران درقرون نخستين اسلامى، جلد أول، ص 190.

فراى: بخارا دستاورد قرون وسطى، ترجمة محمود محمودى، شركت انتشارات علمي وفرهنكى، چاپ دوم، 1365، ص 164.

- Bosworth, The Medieval History of Iran, VII, p 62.

- Howorth, The Northern frontiers of China, Journal the Royal Asiatic Society, 1898, p 467.

دائرة المعارف الإسلامية، «الايكخانية» ج5، ص 400.

وقد ذكر بوزورث أن المصادر الإسلامية المعاصرة كثيرًا ما تشير إلى الأسرة بأنها الأسرة الخانية⁽³⁰⁾.

وبذلك يتضح لنا تعدد الأسماء التي أطلقت على الدولة الخانية مثل آل خاقان، والايك خانية، والقراخانية، وآل أفراسياب.

انتشار الإسلام في الدولة الخانية:

ساعد على انتشار الإسلام في الدولة الخانية عدة عوامل منها:

1 - النشاط العظيم في ميدان الدعوة إلى الإسلام:

قامت مدارس ما وراء النهر وخاصة مدارس بخارى وسمرقند بجهود كبير في الدعوة إلى الإسلام بين الترك في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

وقد اضطلع بهذه الدعوة المسلمون من الأتراك الغربيين، وهم أكثر فهمًا لأوضاع الترك وأعرف بلسانهم. وقام الخراسانيون بالدعوة إلى الإسلام بين الأتراك الشرقيين.

(30) دائرة المعارف الإسلامية «الايكخانبة» ج5، ص 400.

ومن المصادر التي ذكرت هذا الاسم:

العيني: تاريخ اليميني، القاهرة، 1286هـ، ج2، ص 128.

هلال الصابي: كتاب التاريخ، ج8، ذيل تجارب الأمم، بتصحيح هـ. ف آمدوز القاهرة 1919م، ج4، ص 372.

البيهقي: تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب، وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت 1982، ص 571.

العروضي السمرقندي: المصدر السابق، ص 141.

الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ص 190.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979، المجلد الثاني عشر، ص 259.

التويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ج26، ص 52.

ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني 1983، المجلد الخامس، ص 19.

وهذا هو السبب في اختيار هذا الاسم كعنوان للبحث.

ومن الجهود التي بُذلت في هذا السبيل جهود الفقيه أبي الحسن محمد بن سفيان الكلماقي النيسابوري (ت 350هـ / 961م) الذي غادر نيسابور⁽³¹⁾ سنة 340هـ / 951م، وأقام ببخارى بعض الوقت ، ثم رحل إلى ديار الأتراك الشرقيين ، والتحق بخدمة كبير خاناتهم، وقام بدور كبير في دعوة الترك إلى الإسلام، وأسلم على يديه عدد كبير من الترك⁽³²⁾.

وقد ذكر هوارث أن الفضل في نشر الإسلام بين الترك يرجع إلى أبي نصر الساماني⁽³³⁾ (ت 350هـ / 961م) الذي خرج في سنة 320هـ / 932م في قافلة تضم 300 تاجر إلى كاشغر وقام بهداية سبعة آلاف كافر إلى الإسلام، وقام بتعليم سبعين منهم ليصبحوا علماء وليكملوا الدعوة بين الترك⁽³⁴⁾.

وقد استطاع أبو نصر الساماني إقناع أحد أمراء الدولة الخانية بالحكمة والموعظة الحسنة مما جعله يسلم عن رضى وقناعة؛ وعندما اعتلى العرش لقب نفسه ساتوق بغراخان (ت 344هـ / 955م) واتخذ لنفسه اسمًا إسلاميًا هو عبد الكريم، وبإسلام هذا الخان أسلم رعاياه مقتدين به ، وفي الوقت نفسه نشبت سلسلة من المعارك بينه وبين

(31) نيسابور: تقع نيسابور في غرب خراسان، وهي أحد أرباع خراسان العظمى.
عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم: الحياة الثقافية والعلمية في نيسابور منذ بداية القرن الثالث حتى أوائل القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة 2000م، ص 2.

معناها: مدينة شابور (نه، في البهلوية بمعنى الأساس أو المدينة)

محمد علاء الدين منصور: المقال السابق، ص 423.

(32) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، ط الأولى، 1401هـ / 1981م، ص 391.

حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 147.

- Frye, The Golden Age of Persia, London, p 203.

دائرة المعارف الإسلامية (الإليكخانية) ج5، ص 401.

- Cambridge History of Iran, Vol 4 (The Samanids), p 155.

(33) أبو نصر الساماني: هو نصر بن نوح بن نصر من المحتمل أنه الأمير الساماني الذي فر إلى بلاد الترك في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. بارتولد: تركستان، ص 391، 392.

(34) Howorth, Loc. Cit, p 469.

خصومه ومنهم عمه المشرك، وانتهى الأمر بقتل عمه، وأحرز الإسلام أول انتصار له في مملكة الخانيين⁽³⁵⁾.

نضيف إلى ذلك جهود الفقيه أبي الحسن سعيد بن حاتم الأسبانيكي، الذي رحل إلى بلاد الترك قبل سنة 380هـ/ 990م وأخذ يدعو إلى الإسلام حتى وفاته هناك⁽³⁶⁾.

وقد شهد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نشاطاً كبيراً للصوفية الذين نزلوا إلى ميدان التبشير الذي احتكره الفقهاء من قبل، وشهد هذا القرن التوفيق بين التصوف والفقه؛ الأمر الذي همى الصوفية من عدوان الفقهاء، وأطلق يدهم في الميدان الديني، وقد دخل الصوفية ميدان الدعوة إلى الإسلام في بلاد التركستان في عهد السامانيين⁽³⁷⁾ وتغلغل نفوذهم بين الأتراك الغربيين أولاً ثم انطلقوا إلى الأتراك الشرقيين، وحققوا نجاحاً كبيراً في الدعوة إلى الإسلام في آسيا الوسطى⁽³⁸⁾.

2- حملات السامانيين على بلاد الترك:

قام السامانيون بحملات متلاحقة على مناطق البدو المحيطة بهم مثل حملة نوح ابن أسد على أسفيجياب⁽³⁹⁾. وحملة إسماعيل بن أحمد على طراز⁽⁴⁰⁾ سنة 280هـ/ 893م،

(35) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، د. ت، المجلد الرابع، ص 389.

إبراهيم فنج: المرجع السابق، ص 24. بوزورث: المرجع السابق، ص 163. ستانلي لين بول: المرجع السابق، ص 279. محمد عاطف: المرجع السابق، ص 52.

(36) بارتولد: تركستان، ص 392. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 147.

(37) السامانيون: ينسب السامانيون إلى إحدى أسر الفرس العريقة، وهم ينسبون أنفسهم إلى ملوك الفرس، وكان جد هذه الأسرة هو سامان خداة من أبناء الملك بهرام جويين وأمير قرية سامان من أعمال بلخ. أقاموا دولة لهم في بلاد ما وراء النهر 261: 389هـ/ 874: 999م وضموا إقليم خراسان إلى دولتهم وسيطروا على طبرستان وسجستان في بعض الأحيان. عبد الناصر إبراهيم: المرجع السابق، ص 21: 41.

(38) بارتولد: تركستان، ص 391. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 147، 148.

- The Cambridge History of Islam, Vol 1 The Central Islamic Lands, p 146

(39) أسفيجياب: اسم بلدة كبيرة من بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان.

ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 147.

(40) طراز: مدينة على حد بلاد الترك تجاور أسفيجياب. أبو الفدا: المصدر السابق، ص 497.

واستطاع إسماعيل بن أحمد سنة 292هـ / 904م أن يطرد الغزاة الترك بمعونة المطوعة الذين وفدوا إليه من أرجاء العالم الإسلامي.

وفي النصف الأخير من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وصلت هذه السياسة الهجومية إلى أقصى مدى لها إذ قام السامانيون بحملة كبيرة على بلاساغون⁽⁴¹⁾ ووقع ابن خاقان الترك أسيرًا في أيديهم. وقد فرض السامانيون سلطانهم على مناطق الأتراك الشرقيين بصورة لم تشهدا البلاد من قبل ، وكان السامانيون في حروبهم يطبقون سياسة الجهاد الحق، السيف من ناحية، والتبشير السلمي من ناحية أخرى⁽⁴²⁾ وقد ذكر فراي: «أن دور المبشرين داخل الأراضي التركية كان أعظم من دور العسكريين في تحول الترك إلى الإسلام»⁽⁴³⁾.

3- الهجرة:

تحلى السامانيون عن سياسة بناء الأسوار في وادي سيحون، وكان لهذا التطور أثره على علاقة أتراك التركستان بالإسلام، إذ عبر كثير من سكان ما وراء النهر في جماعات متتابعة إلى مناطق المراعي وإلى داخل المناطق الصحراوية، حيث أنشأوا مدنًا صغيرة في شكل مستعمرات سكانية استقروا بها، وبدأوا منها نشاطهم الاقتصادي، وصاحب هذا النشاط الاقتصادي، نشاط ملحوظ في الدعوة إلى الإسلام، قام بالدور الرئيسي فيه الصوفية، والمدارس التي أنشأها السامانيون لهذه الغاية، مما كان له أثره في تعرف الأتراك على الإسلام والدخول فيه⁽⁴⁴⁾.

(41) بلاساغون: بلدة من ثغور الترك وراء نهر سيحون قرية من كاشغر.

السمعاني: المصدر السابق، ج1، ص 424.

(42) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 146، 147.

(43) Cambridge History of Iran Vol 4,, (The Samanids) p 155.

(44) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الأولى، 1989، ص 309.

4- النشاط التجاري :

لعبت التجارة دورًا بارزًا في انتشار الإسلام بين الأتراك الشرقيين نتيجة للعلاقات التجارية الوثيقة التي ربطت بلاد ما وراء النهر ببلاد الأتراك الشرقيين⁽⁴⁵⁾. من المعروف أن الاحتكاك التجاري بين مناطق البدو وأماكن الاستقرار احتكاك طبيعي ، فالبدو الترك كانوا ينظرون إلى البلاد المستقرة المزدهرة نظرة إكبار وهي مورد لهم الطبيعي للمنسوجات وغيرها من المصنوعات التي لا تتوافر في البيئات البدوية.

أعجب خانات الترك الشرقيين أول الأمر بأحوال المسلمين وحاصلاتهم وصناعاتهم وأتبعوا ذلك بالإعجاب بدينهم. ويبدو أن التجار المسلمين استغلوا هذه الصلات المتبادلة وقاموا بدور المبشرين ، وكان التجار المسلمون من الأتراك يحملون المنتجات الإسلامية إلى اتجاهات متعددة داخل بلاد الأتراك الشرقيين وبلاد الصين ومنغوليا. وكانت هذه المناطق خارج نفوذ السامانيين، ولكن المهاجرة أقاموا بها المراكز الصناعية وكان بعض هؤلاء المهاجرة من خوارزم.

وقد استطاع هؤلاء بذلك أن يرفعوا المستوى الحضاري لدى الأتراك الشرقيين وأثاروا إعجابهم بالعقيدة الإسلامية ، ومن ثم الدخول في الإسلام⁽⁴⁶⁾.

كل هذه العوامل ساعدت على انتشار الإسلام في الدولة الخانية بشكل كبير، يؤيد ذلك ما ذكره كل من مسكويه، وابن الأثير في أحداث سنة 349هـ/ 960م «وفيها أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خرگاه»⁽⁴⁷⁾ «خيمة»⁽⁴⁸⁾ أي ما يقرب من مليون نسمة دخلوا

(45) بارتولد: تركستان، ص 391.

- Bosworth, Al- Xwarazmi on The peoples of central Asia, p 5

(46) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 96. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 148: 150.

(47) مسكويه: تجارب الأمم، اعتنى به هـ. ف آمدروز، شركة التمدن الصناعية، مصر 1333هـ/

1915م، ج2، ص 181. ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد الثامن، ص 191.

وانظر أيضًا بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 89.

- Barthold, Op. Cit., p 99.

(48) خرگاه: الخيمة العظيمة. محمد علي الأنسي: القاموس السابق، ص 237.

الإسلام في عام واحد. ومما لاشك فيه أن إسلام هذا العدد الكبير، قد سبقه إسلام الخانات أنفسهم، وأن الشعب أخذ يدخل في دين ملوكه. ولا بد أن إسلام الخانيين كان قبل عام 344هـ/ 955م وهو العام الذي توفي فيه أول ملوك الدولة الخانية إسلاماً وهو ساتوق بغراخان عبد الكريم، معنى هذا أنه أسلم قبل وفاته أو في أواخر أيامه⁽⁴⁹⁾ واستطاع أن يحمل ألوفاً من البوذيين و النصاري على الدخول في الإسلام⁽⁵⁰⁾ ويؤكد هذه الحقيقة أن كاشغر عاصمة الخانيين، كانت مدينة إسلامية في السنة التي أسلم فيها ساتوق بغراخان⁽⁵¹⁾.

وصفة القول فإن العالم الإسلامي يدين بالفضل للسامانيين في تحول الأتراك الشرقيين للإسلام⁽⁵²⁾ إذ ما كاد القرن الرابع الهجري ينتصف حتى كان غالبية الأتراك الشرقيين قد أسلموا وأسلم خاناتهم⁽⁵³⁾.

استيلاء الأيلىك خان على بخارى:

ساهم كثير من العوامل في سقوط الدولة السامانية ووقوع بخارى في أيدي الخانيين، من هذه العوامل:

1 - ضعف الأمراء السامانيين الأواخر :

فقد ذكر الغرديزي أنه عندما تولى نوح الثاني ابن منصور (365: 387هـ/ 976: 997م) «لم يكن قد بلغ الحلم بعد .. وأسلم أعماله إلى فائق

(49) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 154.

(50) فامبرى: المرجع السابق، ص 120.

(51) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 154.

(52) The Cambridge History of Islam, Vol 1, The central Islamic lands, p 147.

(53) حافظ أحمد هدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، 1420هـ/ 2000م، ص 20.

بارتولد: تاريخ إيران درقرون نخستين اسلامى، جلد أول، ص 190.

طه ندا: المقال السابق، ص 110، 114.

الخاصة⁽⁵⁴⁾ وتاش الحاجب⁽⁵⁵⁾»⁽⁵⁶⁾ ونتيجة لصغر سن الأمير حدث نزاع بين الوزير أبي الحسين العتبي ووالي خراسان أبي الحسن بن سيمجور ونتيجة لهذا النزاع اتفق فائق مع أبي الحسن بن سيمجور والي خراسان على التخلص من الوزير ، وأعطى فائق بعض الغلمان مالا ليقتلوه، وقتلوه، واضطربت الأمور في بخارى.

وأثار فائق وأبو الحسن بن سيمجور وابنه أبو علي بن سيمجور، الناس للتخلص من تاش وقبض أبو علي على عمال تاش وسجنوا أبا الحسين المزني الوزير الذي تولى بعد مقتل أبي الحسين العتبي، وأسندوا الوزارة إلى أبي محمد عبد الرحمن بن أحمد الفارسي ، وازدادت قوة أبي علي وفائق وعزلا الوزير عبد الرحمن الفارسي عن كرسي الوزارة⁽⁵⁷⁾.

وتولى الوزارة عبد الله بن عزيز وهو من الوزراء المتهورين كان شديد العداء لآل العتبي وأنكر تدابيرهم وصنائعهم، وعزل في بداية وزارته تاش الذي كان صنيعاً للوزير العتبي وريبياً ، وأسند إمارة الجيش وولاية خراسان مرة ثانية إلى أبي الحسن بن سيمجور فهرب تاش وذهب إلى جرجان⁽⁵⁸⁾ إلى علي بن الحسن بن بويه⁽⁵⁹⁾.

(54) فائق الخاص: هو عميد الدولة مولى الأمير نوح بن منصور ، سمي بالخاص لأنه اختص برعاية الأمير نوح، شارك الوزير أبا الحسين العتبي في الوصاية على الأمير نوح بن منصور. المنيني: شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي ، القاهرة 1286هـ ، ج1، ص 96.

(55) تاش : كان أبو العباس تاش من جملة فتیان أبي جعفر العتبي اهتم به الوزير أبو الحسين العتبي لأنه كان من غلمان والده. عمل حاجباً للأمير نوح ثم أسند الأمير نوح إليه قيادة جيوش خراسان ولقبه بحسام الدولة. الكرديزي: زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1982، ص 266.

(56) الكرديزي: المصدر السابق، ص 264.

(57) الكرديزي: المصدر السابق، ص 265: 268.

(58) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

ياقوت: المصدر السابق، ج3، ص 42.

(59) كرماني: نسائم الأسحار من لطائف الأخبار در تاريخ وزراء بتصحیح ومقدمة مير جلال الدين

حسين جابخانه دانشگاه تهران، ص 37، 38.

تولى الأمير منصور الثاني ابن نوح 387: 389هـ / 997: 999م) وقد ذكر الغريزي أنه تولى الحكم «ولم يكن قد بلغ بعد» وكان وزيره أبو المظفر محمد بن إبراهيم البرغشي، وتحكم فائق في الوزارة وكانت مقاليد الأمور بيده، فطلب الوزير إعفاءه من منصبه ثم اتفق فائق وبكتوزون قائد جيوش خراسان على خلع الأمير منصور الثاني ابن نوح وسملوا عينيه وولوا أخاه عبد الملك الثاني ابن نوح⁽⁶⁰⁾.

كل هذه الاضطرابات جاءت نتيجة لصغر سن الأمراء السامانيين وعجزهم عن تدبير شئون الدولة، والنزاع بين كبار رجال الدولة من وزراء وقادة وولاة أفقد الدولة هيبتها وزاد من الفتن والثورات داخل الدولة مما عجل بسقوطها؛ وقد ذكرنا كيف خلع فائق وبكتوزون الأمير منصور الثاني ابن نوح وولياً أخاه عبد الملك، معنى ذلك أن تحكم قادة الدولة وصل إلى خلع أمير وتولية آخر، فهل تستطيع دولة بتلك الظروف أن تقاوم أي غزو؟

2- خيانة أبي علي وفائق للأمير الساماني :

عندما توفي أبو الحسن بن سيمجور، أسند نوح بن منصور قيادة الجيوش إلى أبي علي ابن سيمجور ولقبه عماد الدولة⁽⁶¹⁾. وتولى فائق هراة⁽⁶²⁾ وحدث نزاع بين أبي علي وفائق وهزم فائق، وتوجه إلى بخارى دون أن يحصل على إذن من الأمير نوح بن منصور، فأرسل الأمير نوح- إينانج وبكتوزون لصدّه، وهُزم فائق فتوجه إلى بلخ ثم ترمذ⁽⁶³⁾ وأرسل إلى بغراخان وحرّضه على غزو الدولة السامانية⁽⁶⁴⁾.

(60) الغريزي: المصدر السابق، ص 276: 278.

(61) الغريزي: المصدر السابق، ص 270.

(62) هراة: مدينة عظيمة من أمهات مدن خراسان. ياقوت: المصدر السابق، ج8، ص 471.

(63) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن على نهر جيحون من جانبه الشرقي متصلة بالصغانيان.

ياقوت: المصدر السابق، ج2، ص 440، 441.

(64) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 98، 99. النويري: المصدر السابق، ج25، ص 362.

ميرخوند: روضة الصفا، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب، ط الأولى،

1988م، المجلد الرابع، ص 101.

- Sykes, A History of Afghanistan, p 184.

- The Cambridge History of Iran, Vol 4 (Samanids), p 157.

راسل أبو علي بن سيمجور بغراخان أيضًا يطمعه في بلاد الدولة السامانية ، ويذكر ميرخوند أن السبب في ذلك أن الأمير نوح بن منصور طلب منه أن يترك بعض ممالك خراسان لعماله الخواص فرد عليه : «إن خلقًا كثيرين من المجندين مجتمعون هنا وأموال هذه الولاية لا تفي لمرتباتهم، وربما أضفت ممالك أخرى من الممالك المحروسة»⁽⁶⁵⁾ وخاف عاقبة المنع، فكتب إلى بغراخان يدعوه إلى قصد بخارى ، واستقر الأمر بينهما على أن يكون لبغراخان ما وراء النهر ولأبي علي خراسان⁽⁶⁶⁾.

وهكذا فقد ثبت على فائق وأبي علي تهمة الخيانة والعمل ضد مصلحة الدولة السامانية وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة ، فقد راسل فائق بغراخان عندما فقد هراة وأصبح بدون ولاية. أما أبو علي فقد رغب في تولي الملك والاستقلال عن السامانيين⁽⁶⁷⁾ وقد أيد الغرديزي ذلك عندما ذكر أنه بالغ في الاستهانة بالأمير الساماني، ولقب نفسه: «أمير الأمراء المؤيد من السماء»⁽⁶⁸⁾.

= وقد أيد العتبي هذا الرأي من خلال ما نستشفه من ثنايا سطور كتابه فقد ذكر «ودخل بغراخان بخارى فاستقبله فائق مختصًا به ومنخرطًا في سلكه ملقيا إليه لين قياده، كأنها كانا على ميعاد، وتلاقيا على سابق صحبة واتحاد. ولما استقرت الدار به قرارها استأذنه فائق في النهوض إلى بلخ لاستضافتها إلى ولايته» وهنا نجد تلميحات كثيرة واتهامات لفائق . العتبي: المصدر السابق، ج1، ص 169.

(65) ميرخوند: المصدر السابق، والمجلد، ص 102.

(66) العتبي: المصدر السابق، ص 163. ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 98.

حمد الله المستوفي قزويني: تاريخ غزیده، بسعي واهتمام إدوارد برون، دار السلطنة لندن، 1328هـ/ 1910م، جلد أول، ص 387.

وانظر أيضًا حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 155، 156. فراي: المرجع السابق، ص 198، 199.

- Howorth, Loc. Cit, p 470.

(67) القزويني: المصدر السابق، ص 387.

(68) الغرديزي: المصدر السابق، ص 270.

3- دعوة دهاقين⁽⁶⁹⁾ ما وراء النهر لبغراخان:

أغرى دهاقين ما وراء النهر بغراخان، لأنهم أخذوا على السامانيين اتجاهاتهم الشعبية، وهم الذين استدعوا الأتراك الشرقيين ويسروا مهمتهم وأطلعوهم على عورات البلاد⁽⁷⁰⁾.

ذكر بارتولد: أن هؤلاء الدهاقين كانوا يحتفظون في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بمميزات اقتصادية، لكن لم يكن لهم أهمية سياسية، وقد شوهدت عملة مسكوكة في عهد الخانيين باسم دهقان إيلاق⁽⁷¹⁾ وذلك يدل على أن حقوقهم السياسية قد بعثت⁽⁷²⁾ وقد جنى الدهاقين الفائدة مضاعفة بعد سيطرة الخانيين على البلاد، فقد احتفظوا بحاضرهم القديمة كاشغر، وأصبحت ما وراء النهر تابعة لهم تطلق فيها أيدي الدهاقين⁽⁷³⁾.

ونستخلص من ذلك أيضًا خيانة الدهاقين للدولة السامانية وأن الأحوال كانت في صالح الدولة الخانية.

4- تزيين أبي محمد الوثاقي لبغراخان الاستيلاء على ما وراء النهر :

خرج أبو محمد عبد الله بن عثمان الوثاقي من أولاد الخليفة الوثاقي بأهله إلى بخارى راجيًا أن يتولى عمل البريد أو المظالم ببعض الكور، ولم يستطع الحصول على معاش أو عمل يقيم به أوده فذهب إلى بلاد الترك ونال درجة عالية من النفوذ لدى خانهم.

وذكر الثعالبي أنه «ما زال يعمل لطائف حيله ودقائق خدعه، حتى استمكن منه واختص به وزين له ما كان في نفسه من إزالة الدولة السامانية والاستيلاء على المملكة»

(69) دهقان: ودهخان: عمدة - قاضي القرية.

إبراهيم الدسوقي شتا: المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992، ص 1266، 1267.

(70) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 156.

(71) إيلاق: مدينة من بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك. ياقوت: المصدر السابق، ج1، ص 232.

(72) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 101.

(73) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 156.

«وكان الواثقي سببا لخرق الهيبة وكشف لثام الحشمة، وإزالة الدولة فعلا في بخارى وعظم شأنه، وبنى التدبير على أن يبايع بالخلافة ويتقلد التركي أعمال خراسان وما وراء النهر من يده»⁽⁷⁴⁾.

ونستخلص من ذلك أن الواثقي عندما لم يجد عند السامانيين الود الذي كان يطمح فيه والعمل الذي كان يريجه، اتصل بالأتراك وزين لهم الاستيلاء على الدولة السامانية ظناً منه أنه بذلك يرفع من مكانته وأن هذا الأمر سوف يؤدي به إلى الوصول إلى منصب الخلافة.

5- تدهور الأحوال المالية للسامانيين :

كان السامانيون في ضائقة مالية منذ أيام نوح بن نصر، فقد اضطروا إلى زيادة الضرائب على رعاياهم، ووجدنا أنهم استحدثوا ضريبة جديدة أثارت سخطاً شديداً بين الرعية وهي ضريبة التراكات، التي تقضي بأنه في حالة وفاة عامل من عمال الديوان فلن جزءاً من أملاكه يذهب إلى بيت المال. ثم صدر قانون ينص على أنه في حالة وفاة مواطن ما لم يخلف أبناء فإن جانباً من أملاكه يحتجز من أجل بيت المال وذلك بصرف النظر عن وجود ورثة آخرين، ثم طبق على أملاك من تركوا ورثة مباشرين⁽⁷⁵⁾.

وهكذا كان لتدهور الأحوال المالية في بعض الفترات في عهد السامانيين، أثر في ضعف الدولة السامانية واستيلاء الخانيين على بخارى.

6- موقف الفقهاء من غزو الخان لبخارى

حاول الأمير الساماني إثارة الرعية ضد الغزاة لكنه فشل؛ لأن الرعية لم تعد تستمع إلى السامانيين في بخارى⁽⁷⁶⁾ والسبب في ذلك إعلان بعض فقهاء بخارى أن الحرب

(74) الثعالبي: المصدر السابق، ج4، ص 179، 180. وانظر أيضاً بارتولد: تركستان، ص 394، 395.

فراي: المرجع السابق، ص 199.

(75) بارتولد: تركستان، ص 395، 396.

(76) الصابي: المصدر السابق، ص 372.

لا تكون فرضاً إلا إذا أراد الكفار الاستيلاء على بلد إسلامي، وكانوا يقولون من العبث الظن بأن أحوال الرعية ستكون تحت حكم الخانيين وهم مسلمون أسوأ منها تحت حكم السامانيين، ولذلك فلا داعي لأن يريق المسلمون دماءهم⁽⁷⁷⁾. وأفتوا بألا يحمل السلاح في وجه الغزاة لأنهم مسلمون⁽⁷⁸⁾.

وقد ذكر حسن أحمد محمود أن الفقهاء ظنوا «أن في تغيير الحكم فائدة لهم» وأنهم نالوا من الامتيازات في عهد الخانيين أضعاف ما حصلوا عليه في عهد السامانيين⁽⁷⁹⁾.

في حين ذكر بارتولد أن الفقهاء كانوا «ينتظرون ظهور الفاتحين المسلمين السنيين في الشرق ليجهزوا على حكم البويهيين الشيعة الذين استبدوا بكل الأمور في بغداد»⁽⁸⁰⁾.

ولذلك لم يجد السامانيون أي مساندة من الرعية بعد أن تأثر الرعية بفتوى الفقهاء بعدم حمل السلاح في وجه الخانيين المسلمين مما سهل على الخانيين دخول بخارى. وهكذا فقد ساهمت كل هذه العوامل في استيلاء الخانيين على بخارى بسهولة.

ففي سنة 382هـ / 992م سار شهاب الدولة وظهر الدعوة هارون بن سليمان أيلك المعروف ببغراخان إلى بلاد الدولة السامانية⁽⁸¹⁾ فأرسل إليه الأمير نوح جيشاً كبيراً بقيادة أنج الحاجب، فهزم أنج وأسر وجماعة من قواده وزادت هذه الهزيمة من ضعف السامانيين وطمع بغراخان في بلادهم⁽⁸²⁾. واضطر الأمير نوح إلى استدعاء فائق وعينه حاكماً على سمرقند وأعطاه قيادة الجيش ليتصدي لبغراخان⁽⁸³⁾ غير أن فائق

(77) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 100.

- Siddiqi, Caliphate and Kingship in Medieval Persia, Philadelphia, p 61.

(78) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 156.

(79) حسن أحمد محمود: المرجع السابق والصفحة.

(80) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 102.

(81) العتبي: المصدر السابق، ص 163.

البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المتنبّي، د. ت، ص 134.

ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 98. النويري: المصدر السابق والجزء، ص 361.

(82) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 99. النويري: المصدر السابق والجزء، ص 362.

(83) ميرخوند: المصدر السابق، والمجلد، ص 102. وانظر أيضاً: فراي: المرجع السابق، ص 199.

اتفق مع بغراخان سرًا، ورجع من سمرقند منهزمًا، وجاء بغراخان في أعقابهِ إلى بخارى⁽⁸⁴⁾.

وقد ذكر العتبي: «ودخل بغراخان بخارى فاستقبله فائق مختصًا ومنخرطًا في سلكه... وملقيًا إليه لين قياد كأنها كانا على ميعاد. وتلاقيا على سابق صحبة واتحاد»⁽⁸⁵⁾. وقد ذكر ابن الأثير والنويري أنه عندما سار بغراخان نحو بخارى «فلقيه فائق، واختص به، وصار في جملة ونازلوا بخارى»⁽⁸⁶⁾ مما يؤيد أنه كان هناك اتفاق مسبق بين فائق وبغراخان وأنه أطمعه في الاستيلاء على بلاد الدولة السامانية.

واضطّر الأمير نوح إلى ترك الحكم وهرب إلى آمل الشط على نهر جيحون وأقام بها، ولحق به أصحابه، فاجتمع عنده جمع كثير⁽⁸⁷⁾. وكتب نوح رسالة إلى أبي علي ابن سيمجور وفيها: «أقدم فقد أتى الخان» ولم يفكر أبو علي في هذه الرسالة، وطلب نوح منه جيشًا، فلم يرسل أيضًا⁽⁸⁸⁾ مما يؤيد الاتفاق المسبق بين أبي علي وبغراخان وطمع أبي علي في الاستقلال بحكم خراسان، لذلك رفض أن يمد يد المساعدة للأمير الساماني والتصدي للقوات التركية المغيرة على الدولة السامانية.

وقد نزل بغراخان في قصر السامانيين على شاطئ نهر موليان⁽⁸⁹⁾ وذكر البيهقي أن بغراخان عندما دخل بخارى استولى على «الخزائن العظيمة والذخائر النفيسة التي كانت للسامانيين»⁽⁹⁰⁾.

(84) القزويني: المصدر السابق، والمجلد، ص 387. ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 102، Howorth, Loc. Cit., p 470.

(85) العتبي: المصدر السابق، ص 169.

(86) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 99. النويري: المصدر السابق والجزء، ص 362، 363.

(87) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 99. ابن خلدون: المصدر السابق والمجلد، ص 355. وانظر أيضًا: بارتولد: تاريخ إيران، ص 191. محمد عاطف: المرجع السابق، ص 55.

- Frye: Op. Cit., p 205.

(88) الجرديزي: المصدر السابق، ص 271. ابن خلدون: المصدر السابق والمجلد، ص 355.

(89) الجرديزي: المصدر السابق، ص 271.

(90) البيهقي: المصدر السابق، ص 214.

وذكر العتبي : « لما استقرت الدار به قرارها استأذنه فائق في النهوض إلى بلخ لاستضافتها إلى ولايته... وإثارة أموالها لخزائنه. فأذن له وسار إلى ترمذ وبعث بعثاً إلى بلخ فاحتاط عليها ونصب بها من يجبي الأموال ويدبر الأعمال »⁽⁹¹⁾.

وهكذا فقد اعتقد بغراخان أن خراسان أصبحت تابعة له أيضاً بدليل موافقته على أن يذهب فائق إلى بلخ ليجبي مالها ويخطب للأمر في هذه الولاية.

وقد ذكر القزويني أن أبا علي « لم يحصل على مراده، ولم يظفر بأكثر من لقب قائد الجيش »⁽⁹²⁾ أي إن بغراخان كان يعتبر أبا علي تابعا له وبالتالي إقليس خراسان أيضاً من ضمن ممتلكاته.

وقد ذكر ابن الأثير أن بغراخان « كان ديناً، خيراً، عادلاً، حسن السيرة، محباً للعلماء وأهل الدين، مكرماً لهم، وكان يحب أن يكتب عنه : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم »⁽⁹³⁾.

ومرض بغراخان بالبواسير⁽⁹⁴⁾، وعزم على العودة إلى كاشغر، وأعطى الولاية لعبد العزيز بن نوح بن نصر وأعطاه الخلع الجميلة وقال له : « لقد أخذنا هذه الولاية من نوح وسلمناها لك »⁽⁹⁵⁾.

(91) العتبي: المصدر السابق، ص 169.

(92) القزويني: المصدر السابق، ص 388.

(93) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 100.

(94) الكرديزي: المصدر السابق، ص 271 البيهقي: المصدر السابق، ص 214، Howorth, Loc. Cit., p 470.

وقد ذكر أنه « مست بغراخان علة استوبل بها المقام ببخارى ».

العتبي: المصدر السابق، ص 175.

وذكر أنه عندما نزل بخارى « استوخمها فلحقه مرض ثقیل ».

ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 100. النويري: المصدر السابق والجزء، ص 363.

وذكر أن بغراخان « تأذى من هواء بخارى وأصيب بمرض عضال لا علاج له إلا باستنشاق هواء

تركستان ». ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 103.

. Howorth, Loc. Cit., p 470

(95) الكرديزي: المصدر السابق، ص 271،

وذكر البيهقي أن بغراخان قال لعبد العزيز: «سمعت أنهم اغتصبوا ولايتك، وها أنذا أعيدها إليك لما أعهده فيك من الشجاعة والعدالة وحسن السيرة، فتلكن على ثقة بأنني سأكون عوناً لك كلما دعت الحاجة إلى العون والمساعدة»⁽⁹⁶⁾.

وهكذا فقد أعطى بغراخان عبد العزيز بن نوح بن نصر إمارة الدولة السامانية، ولكن إذا كان هدفه نبيلاً كما ذكرت المصادر لماذا لم يدعم حكم عبد العزيز ويقف بجواره ويسانده ببعض القوات؟ وإلا فإننا نستطيع أن نستنتج أنه أراد بذلك زيادة الفرقة والنزاع بين أبناء الأسرة السامانية حتى يتمكن من العودة ثانية والاستيلاء على ممتلكات هذه الدولة.

ترك بغراخان بخارى فثار أهلها بساقة عسكره فقتلوا منهم وغنموا أموالهم واشترك الأتراك الغزية معهم في قتل وسلب ونهب جيش بغراخان⁽⁹⁷⁾ وتوفي بغراخان في الطريق في مكان يدعى قجقار باشى⁽⁹⁸⁾.

لما سمع الأمير نوح بخروج بغراخان من بخارى، قدم إليها مع أصحابه وعاد إلى عاصمة ملكه وفرح أهلها به وتباشروا بقدومه⁽⁹⁹⁾ وقد ذكر ميرخوند: «وأسرع البخاريون جميعاً لاستقباله وسعدوا كسعادة الصائم برؤية الهلال والظمان بالشراب الزلال»⁽¹⁰⁰⁾.

وهكذا فقد أحسن البخاريون استقبال الأمير نوح، لكننا نلمس تناقضاً في تصرفاتهم فعندما طلب منهم المحاربة مع السامانيين، لم يحاربوا وعندما دخل الخانيون بخارى لم نسمع عن أي ثورات قاموا بها، إلا عندما خرج الخانيون من بخارى، فبدأت عمليات

(96) البيهقي: المصدر السابق، ص 214.

(97) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 100.

النويري: المصدر السابق والجزء، ص 363. ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 103.

(98) الگردیزی: المصدر السابق، ص 271.

وقد ذكرت مترجمة الكتاب هامش (2) أن هذا المكان في التركستان يعرف بقاشقار.

(99) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 100. ابن خلدون: المصدر السابق والمجلد، ص 355.

(100) ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 103.

السلب والنهب والقتل لجنود بغراخان لذلك من المحتمل أنهم تركوا أمر الدفاع عن الدولة للحكام والجيوش الذين يستفيدون من هذه الولايات وأنهم مع من يحكم لأنهم لا قبل لهم بالحرب وماذا يجنون من ورائها؟

وعندما عاد الأمير نوح إلى بخارى قبض على عمه عبد العزيز واعتقله وملاً عينيه بالكافور حتى أعماه⁽¹⁰¹⁾ وبدأ يعيد سيطرته على الأمور ببخارى .

وجد فائق نفسه بلا حليف إلا أن هذا لم يمنعه من القيام بمحاولة الاستيلاء على بخارى، لكنه هزم وانسحب إلى مرو⁽¹⁰²⁾ ومن هناك عرض على عدوه السابق أبي علي أن يتعاونوا معاً ويبدو أن قوات فائق كانت ما تزال في وضع لا يستهان به لأن أبا علي قبل عرضه عن طيب خاطر⁽¹⁰³⁾.

في ذلك الوقت كتب الأمير نوح إلى سبكتكين⁽¹⁰⁴⁾ يشكو من أبي علي ابن سيمجور وأرسل سبكتكين رسائل إلى أبي علي ليرده إلى الطاعة. وأصر أبو علي على العصيان وعدم الطاعة. فحاربه الأمير نوح وسبكتكين في هراة سنة 384هـ / 994م وهُزم

(101) البيهقي: المصدر السابق، ص 214، 215.

(102) مرو الشاهجان: مرو العظمى أشهر مدن خراسان.

ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج8، ص253.

. Frye: Op. Cit., p 205

(103) بارتولد: تركستان، ص 397 ،

(104) سبكتكين: غلام وصهر البتكين، سحب مولاه إلى غزنة، وقدم له ولحفائذه خدمات جليلة، أعلن أميراً على غزنة سنة 366هـ / 976م، حكم غزنة وگرديز وبروان وكابل وبست وحقق انتصارات باهرة في أفغانستان والهند.

الگرديزي: المصدر السابق، ص 271. وانظر أيضًا بارتولد: تركستان، ص 398.

عبد الله رازی: تاريخ كامل إيران، جا بخانه اقبال، تهران، 1372هـ ص 190.

أبو علي وهزم مرة أخرى في قرية اندرخ من أعمال طوس⁽¹⁰⁵⁾ سنة 385هـ/ 995م⁽¹⁰⁶⁾ فذهب إلى الري⁽¹⁰⁷⁾.

وأرسل أبو علي وفائق سفارة إلى الأمير نوح للاعتذار ولاسترضائه، فرد فائق وقبل عذر أبي علي وأمر أبا علي بالذهاب إلى جرجانية⁽¹⁰⁸⁾ ليحكمها. وطلب منه فائق أن يرافقه إلى أيلك خان فرفض أبو علي، وتوجه إلى جرجانية⁽¹⁰⁹⁾.

ودعاه الأمير نوح فذهب إلى بخارى، وحينما دخل أبو علي قصر نوح قبضوا عليه مع ثمانية عشر من الإخوة والقواد. سنة (386هـ/ 996م) وحينما علم سبكتكين بخبر أبي علي طلبه من الأمير نوح فأرسله إليه، فسجن في قلعة گرديز⁽¹¹⁰⁾ الحصينة وقتل سنة 389هـ/ 999م⁽¹¹¹⁾.

لجأ فائق الخاص إلى نصر خان وحرص الخان ضد الأمير نوح، واتفقا على أن يهاجما وراء النهر، وصمم نصر خان بتحريض فائق على التوجه إلى هذه الناحية واضطرب الأمير نوح عند سماع الخبر، ولم يجد بُدًّا من طلب المساعدة من الأمير سبكتكين، ثم تم الصلح بين سبكتكين ونصر خان، وتقرر فيه أن تكون ولاية سمرقند لفائق⁽¹¹²⁾.

(105) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ.

ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج6، ص 272.

(106) الكرديزي: المصدر السابق، ص 271: 274، البيهقي: المصدر السابق، ص 215.

- Sykes, History of Persia, London, 1921, p 22.

(107) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وهي قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا.

ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 457.

(108) الجرجانية: هي كركانج وهي قصبة بلاد خوارزم ومدينتها العظمى.

ياقوت: المصدر السابق، ج7، ص 131.

(109) ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 107.

(110) گرديز: ولاية بين غزنة والهند. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج7، ص 130.

(111) الكرديزي: المصدر السابق، ص 275.

(112) القزويني: المصدر السابق، ص 390. ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 108، 109.

وانظر أيضًا فراي: المرجع السابق، ص 202.

وفي سنة 387هـ/ 997م توفي الأمير نوح وتولى بعده ابنه منصور وكان شاباً صغير السن فوقعت خلافات بينه وبين مستشاريه فقام بعضهم بدعوة نصر خان للتدخل في شئون بخارى فقدم الخان إلى سمرقند وأرسل حليفه فائق إلى بخارى، فترك منصور بخارى وعبر جيحون، ودخل فائق المدينة وأبدي أنه جاء لنصرة ومعاونة منصور ليرعى حقوق أسلافه وأرسل أكابر بخارى ومشائخها إلى منصور ليأمنوه من جانب فائق وعاد منصور إلى بخارى لكن مقاليد الأمور كانت بيد فائق. وولي بكتوزون إمرة الجيش بخراسان⁽¹¹³⁾.

وفي سنة 389هـ/ 999م قبض بكتوزون وفائق على الأمير منصور وسملا عينيه ووليا أخاه الصغير عبد الملك بن نوح⁽¹¹⁴⁾ وملك محمود الغزنوي⁽¹¹⁵⁾ خراسان ولم يبق في أيدي السامانيين سوى بلاد ما وراء النهر. واجتمع الأمير عبد الملك وفائق وبكتوزون وكثير من الأمراء وشرعوا في إعداد الجيش لاسترداد خراسان وتوفي فائق في شعبان سنة 389هـ/ 999م فضعفت نفوسهم بموته⁽¹¹⁶⁾.

في ذلك الوقت تحرك أرسلان أيلك خان وهو أبو نصر أحمد بن علي الملقب شمس الدولة، صوب بخارى، وأظهر لعبد الملك المودة والموالة والحمية له فظنوا صدقه فلم يجترسوا منه⁽¹¹⁷⁾.

(113) ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 109. وانظر أيضًا فراي: المرجع السابق، ص 202، 203. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط العاشرة 1982م، ج3، ص 87.

(114) لمزيد من التفاصيل راجع الكرديزي: المصدر السابق، ص 277، 278.

وانظر أيضًا فامبري: المرجع السابق، ص 122، 123.

(115) محمود الغزنوي: هو محمود بن سبكتكين استولى على الحكم في غزنة من أخيه إسماعيل عقب وفاة والده واستولى على خراسان 389هـ/ 999م وامتد نفوذه أحياناً إلى بلاد ما وراء النهر. قام بالعديد

من الفتوحات في بلاد الهند وتوفي 421هـ/ 1030م. الكرديزي: المصدر السابق، ص 281، 314.

ابن خلكان: وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت، المجلد الخامس، ص 176، 177.

(116) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 148، 149. النويري: المصدر السابق والجزء، ص 368، 369.

أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، دار المعارف، د.ت، ج2، ص 141.

ابن خلدون: المصدر السابق والمجلد، ص 358.

(117) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 149. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج2، ص 141.

وانظر أيضًا بارتولد: تاريخ إيران، ص 195.

وقد ذكر العتبي: «انحدر أيلك خان إلى باب بخارى يظهر لعبد الملك وسائر أجناده وأنجاده موالاة خداع واحتيال ومالأة استدراج واغتيال وهم يظنون استظهاراً على ما عراهم واحتياطاً لما يشد عراهم مغرورين عن واجب الاستبصار والاحتراس»⁽¹¹⁸⁾.

عندما أعلن أبو نصر أحمد بن علي أنه جاء لمساعدة عبد الملك، خرج لاستقباله بكتوزون وبنالتكين الفائقي وسائر قواد عبد الملك، فلما حضروا عنده قبض عليهم. وعندما سمع عبد الملك ذلك كان في قلة من الجند، فاخفى⁽¹¹⁹⁾. ودخل الأيلك خان بخارى دون مقاومة في العاشر من ذي القعدة 389هـ/ 23 أكتوبر 999م ونزل دار الإمارة، وبث العيون على عبد الملك فظفر به وأودعه السجن في أوزكند⁽¹²⁰⁾ فمات به وحبس معه أخاه أبا الحارث منصور الأمير المخلوع وإخوته الآخرين أبا إبراهيم إسماعيل، وأبا يعقوب وأعمامه أبا زكريا وأبا سليمان وأبا صالح الغازي وغيرهم من بني سامان⁽¹²¹⁾ واستولى على أموالهم. ويسقط بخارى سقط آخر معقل للدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر⁽¹²²⁾ ودخلت بخارى تحت سيطرة الدولة الخانية.

وصفوة القول فقد تضافرت عوامل كثيرة، ساهمت في سقوط الدولة السامانية في ما وراء النهر وساعدت الدولة الخانية في سهولة الاستيلاء على هذه البلاد ومنها بخارى عاصمة الدولة السامانية. وأصبح نهر جيحون فاصلاً بين أملاك الخانيين في الشمال وأملاك الغزنويين في الجنوب⁽¹²³⁾ وأعلن الخانيون أنهم موالي أمير المؤمنين وحكام بلاد ما

(118) العتبي: المصدر السابق، ج1، القسم الثاني، ص 319.

(119) العتبي: المصدر السابق، ج1، ص 319. البيهقي: المصدر السابق، ص 709.

جوزجاني: المصدر السابق، ص 216.

النويري: المصدر السابق والجزء، ص 369 ، Howorth, Loc. Cit., p 477 .

(120) أوزكند: بلد ما وراء النهر من نواحي فرغانة. ياقوت: المصدر السابق، ج1، ص 223.

(121) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 149. ابن خلدون: المصدر السابق والمجلد، ص 358.

القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج4، ص 447.

وانظر أيضاً: بارتولد: تاريخ إيران، ص 196.

محمد حسن عبد الكريم: خراسان في العصر الغزنوي، مؤسسة حمادة، أربد، الأردن، 1997، ص 40، 41.

(122) الغريزي: المصدر السابق، ص 279.

(123) بوزورث: المرجع السابق، ص 163.

وراء النهر ومن ثم بدأت أسرهم تسك النقود باسم الخليفة القادر بالله وعليها اسم الأيلىك خان نصر الذي لقب ناصر الحق. وأرسل السلطان محمود سفيرين إلى أوزكند للاعتراف بالدولة الخانية وحدودها فيما وراء النهر، وقد استقبل الأيلىك نصر هذين السفيرين بالترحاب وأرسل معهما هدايا ثمينة إلى السلطان محمود⁽¹²⁴⁾.

في سنة 390 هـ / 1000 م هرب أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح الساماني (الملقب بالمنتصر) من حبسه في ملابس جارية كانت تخدمه وتوارى في منزل عجوز من عجائز بخارى ثم فر إلى خوارزم، وأخذ يستعد للانتقام من أيلىك خان وجمع جيشاً كبيراً وهجم أرسلان بالو حاجبه على بخارى وأسر جعفر تگين وسبعة عشر من أمرائه وأرسلهم إلى جرجانية وذهب أرسلان بالو إلى سمرقند وحارب والي سمرقند تكين خان وهزمه واستولى على غنائم كثيرة. وعاد المنتصر إلى بخارى وسر الأهالي لقدمه. وعندما علم أيلىك خان بهذا الأمر جمع جيشاً كبيراً وتوجه إلى المنتصر الذي عبر جيحون إلى آمل⁽¹²⁵⁾. وانضم إلى جيش المنتصر - الغز⁽¹²⁶⁾ فقوي بهم وطمع في الاستيلاء على ما وراء النهر وأعد أيلىك خان جيشاً كبيراً وتقابلا على حدود سمرقند وهجم الغز على أيلىك خان ليلاً وأسروا جماعة من قواده وقتلوه سنة 393 هـ / 1003 م.

وعاد الغز إلى بلادهم ولم يسلموا الأسرى لمنتصر وقالوا إنهم ندموا لمقاتلتهم أيلىك خان وسيطلقون الأسرى اعتذاراً له. فترك المنتصر جيش الغز واختار سبعائة من خواصه وعبر جيحون إلى آمل ثم عبر جيحون وحارب والي بخارى ودار قتال شديد بين الطرفين وهرب منتصر وتوجه والي بخارى إلى سغد⁽¹²⁷⁾ وأغار عليه منتصر⁽¹²⁸⁾ وعلم قائد

(124) محمد حسن عبد الكريم: المرجع السابق، ص 43، 44.

(125) العتيبي: المصدر السابق، ص 320. ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 112.

وانظر أيضاً بارتولد: تركستان، ص 407، 477، Howorth, Loc. Cit.

(126) الغز: مخفف التركيب التركي طوقوز أوغوز التي خففت أيضاً التغزغز. أوغوز: اسم قبيلة تركية والمعنى الشعب التسع للأوغوز. محمد علاء الدين منصور: المقال السابق، ص 419.

(127) السغد: ناحية بين بخارى وسمرقند وقصبها سمرقند. ياقوت: المصدر السابق، ج5، ص 47، 48.

(128) ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 114، 115.

جيوش سمرقند بانتصار منتصر، فالتحق به بثلاثة آلاف رجل، وأرسل أعيان سمرقند ثلاثمائة غلام تركي ومالاً وفيراً إليه، والتحق به جمع غفير، وعندما علم أيلك خان بانتظام أحوال منتصر، توجه لمحاربته على حدود سمرقند، وهُزم الخان سنة 394هـ/ 1004م⁽¹²⁹⁾.

وعندما عاد أيلك خان إلى ولايته، وجمع الجيش المتفرق وأسرع إلى منتصر، كان جيش الغز قد تفرق، وعادوا إلى أوطانهم وانشغلوا بتقسيم الغنائم، وعندما دار القتال بينهما غدر أبو الحسين طاق وكان معه خمسة آلاف رجل بمنتصر والتحق بأيلك خان وهُزم منتصر على شاطئ النهر وعبر جيحون.

وذهب بعض الخونة إلى سليمان وصافي حاجبي أيلك خان وأخبروهما بمكان المنتصر وسوء حاله. فالتفوا حول خيمته، وفر منتصر وقبضوا على إخوته وأرسلوهم إلى أوزكند⁽¹³⁰⁾. وذهب منتصر إلى حلة ابن بهيج في صحراء مرو فحرض حاكمها ماه روي جماعة من أجلاف العرب على قتله 395هـ/ 1005م⁽¹³¹⁾.

وهكذا كان لتفرق الغز وانشغالهم بتقسيم الغنائم وخيانة أبي الحسين طاق أثر في هزيمة أبي إبراهيم المنتصر، وغدر ماه روي وحرض على قتله وسقطت الدولة السامانية عام 395هـ/ 1005م بعد عدة محاولات فاشلة لاستعادة ممتلكات الدولة⁽¹³²⁾.

بخارى تحت سيطرة الدولة الخانية :

لم يقيم الخانيون مع استيلائهم على بلاد ما وراء النهر في العواصم القديمة لتلك البلاد ولا في بخارى عاصمة السامانيين ولا في سمرقند، ولكن اتخذوا من أوزكند وهي إحدى مدن الحدود القليلة الأهمية الواقعة إلى الشرق من فرغانة، مركزاً لهم. من الواضح أنهم

(129) الكرديزي: المصدر السابق، ص 283، 284. النوري: المصدر السابق والجزء، ص 372.

ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 115.

(130) ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 115، 116.

(131) الكرديزي: المصدر السابق، ص 284. وانظر أيضاً فامبري: المرجع السابق، ص 124.

(132) Barthold, Op. Cit, p 22.

كانوا يعتبرون هذه المدينة المتاخمة لحدود بلادهم القديمة أكثر أمناً وأقل خطراً من المدن الداخلية في بلاد ما وراء النهر⁽¹³³⁾.

في مستهل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي برز فرعان متميزان في الأسرة الخانية أولهما يقوم على من انحدر من صلب علي حفيد ساتوق بغراخان «العلوية» ومن هؤلاء خرج الخانات العظام من الخانية الغربية بعد الانشقاق الذي حدث داخل الأسرة. أما الفرع الثاني فيقوم على من انحدروا من صلب هارون «حسن» بغراخان «الحسنية» الحفيد الآخر لساتوق بغراخان، ومن هؤلاء خرج الخانات العظام من الخانية الشرقية. وهذا النظام كان يحكم بمقتضاه أعضاء الأسرة على اختلافهم في وقت واحد أجزاء متباينة من أملاك الخانيين. أدى بالضرورة إلى الخلافات والمنافسات .

كان الفرع الغربي يضم ما وراء النهر وفرغانة الغربية حتى خجندة وأوزكند أولاً ثم سمرقند بوصفها قصبته وكان الفرع الشرقي يضم أقاليم الخانية الأصلية في سميريجه وفرغانة الشرقية وكاشغر وبلاساغون القصبة، وكاشغر بوصفها مركزاً ثقافياً له شأنه⁽¹³⁴⁾.

أكسب الخانيون حكمهم طابعه الشرعي، فقد اتخذوا لقب والي أمير المؤمنين ونقش اللقب على سكتهم، وضربوا العملة باسم الخليفة القادر ودعوا له على منابرهم واتخذ أيلك خان نصر لقب ناصر الحق⁽¹³⁵⁾.

وقد ذكر ابن الأثير: «أن سلطان سمرقند وبخارى، يلقب خان خانان، يعني سلطان السلاطين وهو من أولاد الخانية، عريق النسب في الإسلام والملك»⁽¹³⁶⁾.

(133) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 101.

(134) دائرة المعارف الإسلامية مادة «الايلكخانية» المجلد الخامس، ص 401، 402.

(135) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 158.

(136) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 259.

وكان حاكم الجناح الغربي لمملكة الخانيين، شقيق الخان وهو نصر بن علي الذي يشتهر بأرسلان أيلك، وقد حكم في أوزكند، وعين من جانبه نائباً في بخارى يدعى جعفرًا (جغري) جغرا تگين⁽¹³⁷⁾.

وقد وجدت بعض العملات التي ضربت في بخارى من (405: 407هـ / 1014: 1016م) عليها اسم سيف الدولة شغرا وهي تخص جعفرًا أو جغرا تگين⁽¹³⁸⁾.

وقد حكم نصر بن علي بخارى وبلاد ما وراء النهر حتى وفاته (403هـ / 1013م) وبعد وفاته واصل عمله أخوه منصور بن علي الذي استطاع أن يصل إلى منصب الخاقان الأعظم 406هـ / 1015م واتخذ لقب أرسلان خان.⁽¹³⁹⁾ وفي ذلك التاريخ أيضًا ذكر اسم حسين بن منصور في حكم بخارى، من المحتمل أنه ابن منصور بن علي وكان تحت وصاية عمه محمود بن علي.

(137) وذكر العتبي: المصدر السابق، ج2، ص79. وابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص188.

وابن خلدون: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص391.

وذكر هوارث: Howorth, Loc. Cit, p 481 :

«أن جغرا تگين أخو أيلك خان نصر بن علي وهذا هو الأصوب، في حين ذكر زامباور: المرجع السابق، ص312 أن جعفر تگين: هو أبو علي الحسين بن بغراخان الثاني.

(138) Howorth, Loc. Cit, pp 481, 482.

(139) فراي: المرجع السابق، ص224: 226. بوزورث: المرجع السابق، ص161.

في حين ذكر بارتولد: تركستان، ص422، أن محمد بن علي أخا أيلك نصر وطغان خان، كان نائباً في حياة أخيه على ما وراء النهر إلى مدينة طراز وبعد وفاة أخيه، اتخذ لقب أرسلان خان وحكم حتى عام 415هـ / 1024م. وقد ذكر بوزورث: المرجع السابق ص161 أن منصور بن علي اتخذ لقب أرسلان خان أيضًا لذلك من المحتمل أن منصور هو محمد لأنه حكم نفس الفترة واتخذ نفس اللقب.

وقد توصل زامباور: المرجع السابق، ص312 إلى صيغة توفيقية حيث ذكر الاسم الملك المنصور محمد بن علي أي أنه ذكر المنصور على أنه لقب.

وقد ذكر ابن الأثير: المصدر السابق المجلد التاسع، ص298 «لما مات طغان خان ملك بعده أخوه أبو المظفر أرسلان خان ولقبه شرف الدولة».

وظهر أمير آخر على الساحة السياسية في بخارى يدعى علي تگين وهو «علي بن حسن (هارون) ابن سليمان المعروف ببغراخان»⁽¹⁴⁰⁾.

كان علي تگين في حبس أرسلان خان، واستطاع الهرب، واستولى على بخارى وعقد حلفاً مع أرسلان بن سلجوق⁽¹⁴¹⁾ فزحف إليه أيلك أخو أرسلان خان، ولكنه هُزم فظل علي تگين في بخارى⁽¹⁴²⁾ واستطاع أن يثبت سلطانه في مدينتي بخارى وسمرقند الغنيتين⁽¹⁴³⁾ ووجد اسمه على عملات ضربت في بخارى من (411 : 415هـ / 1021 : 1025م) بها اسم بهاء الدولة ياكاف تگين، وهي تخص فيما يبدو علي تگين⁽¹⁴⁴⁾.

وقد ذكر الگردیزی أنه «ارتكب كثيرًا من المظالم، وجعل الناس في ألم وجور منه، وألحق الأذى بالرعية وأهل الصلاح»⁽¹⁴⁵⁾ وفي سنة 415هـ / 1025م ذهب كثير من

(140) فراي: المرجع السابق، ص 226.

ذكر بارتولد: تركستان، ص 422، 423 أنه كان هناك أخ لعلي تگين يحمل لقب طغان خان ويحكم منطقة يدي صو من المحتمل أنه كان طغان الثاني هذا وعلي تگين ابنين لطان الأول، الذي ربما حمل بوصفه مسلمًا اسم حسن.

وذكر بوزورث: دائرة المعارف الإسلامية مادة (الايلكخانية) المجلد الخامس، ص 402 «أن علي تگين أخو يوسف قدر خان بن هارون بغراخان صاحب ختن وكاشغر والقصة أوزكند». وذكر هوارث: Howorth, Loc. Cit, p 483.

أنه ابن أخي يوسف قدر خان بن هارون بغراخان بدليل تحالف قدر خان مع محمود الغزنوي ضد علي تگين... وهذا الرأي هو الأرجح.

(141) أرسلان بن سلجوق: يطلق عليه أيضا اسم إسرائيل وهو أكبر أبناء سلجوق وأكثرهم علمًا وأرجحهم عقلًا، مات في حبس السلطان محمود الغزنوي.

الراوندي: المصدر السابق، ص 145. النويري: المصدر السابق 26 ص 270.

(142) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 475.

وانظر أيضًا بارتولد: تركستان، ص 420.

(143) دائرة المعارف الإسلامية: مادة (الايلكخانية) المجلد الخامس، ص 402.

(144) فراي: المرجع السابق، ص 227، 228.

(145) الگردیزی: المصدر السابق، ص 301.

الهروي: المسلمون في الهند، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ج1، ص 32.

المتظلمين من علي تگين إلى السلطان محمود الغزنوي في بلخ فصمم السلطان محمود على أن يخلص المسلمين من هذا البلاء⁽¹⁴⁶⁾.

وفي ذات الوقت صار قدر خان هو الخاقان الأعظم، ولم يعترف به علي تگين، وأخوه أحمد بن حسن، وطالب أحمد بن حسن بهذا المنصب، واستولى على بلاساغون وأوزكند فلجأ قدر خان إلى محمود الغزنوي⁽¹⁴⁷⁾ لذلك قام السلطان محمود الغزنوي بعبور نهر جيحون إلى بلاد ما وراء النهر، وعندما سمع علي تگين بعبور السلطان محمود الغزنوي هرب إلى الصحراء ووقعت زوجته وبناته وخزائنه في يد السلطان محمود⁽¹⁴⁸⁾ ثم تراجع السلطان محمود إلى غزنة، وعاد علي تگين إلى ولايته⁽¹⁴⁹⁾.

وهكذا فقد عبر السلطان محمود الغزنوي نهر جيحون إلى بلاد ما وراء النهر لمحاربة علي تگين استجابة للمتظلمين من علي تگين ورغبة في مساعدة قدر خان ضد علي تگين وهزم قدر خان، أحمد شقيق علي تگين، ودخل أحمد في طاعته، ورفض علي تگين.

قام علي تگين بتغيير الجزء التركي من اسمه إلى أرسلان أيلك وهذا دليل على زيادة قدره وقد حكم في ذلك الوقت بخارى وسمرقند وبعض بلاد ما وراء النهر⁽¹⁵⁰⁾.

عندما توفي محمود الغزنوي 421هـ / 1030م فكر علي تگين في غزو خراسان، وعندما استقر السلطان مسعود بن محمود على العرش أمر التوتناش⁽¹⁵¹⁾ بغزو بلاد ما وراء النهر فاستولى على بخارى 423هـ / 1032م وأجبر علي تگين على التراجع إلى سمرقند ثم تداعى الطرفان إلى الصلح⁽¹⁵²⁾.

(146) الگردیزی: المصدر السابق، ص 301. الهروي: المصدر السابق، والجزء، ص 32.

(147) فراي: المرجع السابق، ص 228، 483، p. Loc. Cit. Howorth.

(148) الگردیزی: المصدر السابق، ص 301: 306. وانظر أيضًا فراي: المرجع السابق، ص 228.

(149) Howorth, Loc. Cit, p 484.

(150) فراي: المرجع السابق، ص 228.

(151) ألتوتناش: كبير حجاب السلطان محمود، عينه السلطان محمود على خوارزم وأعطاه خوارزم وگركانج، وظل حاكمًا على خوارزم حتى آخر عهده وكان في طاعة وخدمة الأمير محمود وأسرته. الگردیزی: المصدر السابق، ص 194.

(152) البيهقي: المصدر السابق، ص 263.

وانظر أيضًا: بارتولد: تركستان، ص 439، 485، p. Loc. Cit. Howorth.

الغالب على الظن أن حملة مسعود (التونناش) دفعت علي تكين إلى التقارب مع أهل بيته والاعتراف بسيادتهم عليه. ففي بخارى وسمرقند بدأت النقود تسك باسم أرسلان خان وبغراخان ووجد علي تكين لنفسه بعد عامين حليفًا جديدًا في شخص حاكم خوارزم⁽¹⁵³⁾ لكنه توفي سنة 425 هـ / 1034 م⁽¹⁵⁴⁾.

يذكر الوزير الغزنوي أحمد بن حسن الميمندي أن علي تكين «قد مضى عليه ثلاثون عامًا هناك». يقصد أنه كان واليًا على بلاد ما وراء النهر لمدة ثلاثين عامًا⁽¹⁵⁵⁾.

يذكر هوارث أنه قد حكم بخارى حوالي 31 عامًا قبل سنة 423 هـ / 1032 م⁽¹⁵⁶⁾ والحقيقة أن هذا الرأي قد جانبه الصواب لأن كلاً من البيهقي وبارتولد وهوارث لم يوضح لنا بداية حكم علي تكين لبلاد ما وراء النهر، ثانياً سبق أن تحدثنا عن بدايات ظهور علي تكين في بداية العقد الثاني من القرن الخامس. وقد ذكر ابن الأثير أنه كان في حبس أرسلان خان ثم هرب واستولى على بخارى مع العلم أن أرسلان خان تولى ما وراء النهر من قبل أخيه نصر بن علي ثم وصل إلى منصب الخاقان الأعظم سنة 406 هـ / 1015 م بعد وفاة طغان خان الخاقان الأعظم، وبالتالي لا تصل فترة حكم علي تكين إلى الفترة المشار إليها. إلا إذا كان المقصود أنه تولى ولاية صغيرة في بداية حكم نصر بن علي ثم بدأ نفوذه يزداد حتى قبض عليه أرسلان خان ثم هرب واستولى على بخارى. وهذا الأمر لا يستند إلى دليل.

بعد وفاة علي تكين اعتلى ابنه الأكبر العرش. وقد أعطى شرف الدولة⁽¹⁵⁷⁾ صاحب بلاساغون وبلاد الترك، ابن علي تكين بخارى وسمرقند⁽¹⁵⁸⁾.

(153) بارتولد: تركستان، ص 440.

(154) دائرة المعارف الإسلامية مادة (الايلكخانية) المجلد الخامس، ص 402.

(155) البيهقي: المصدر السابق، ص 358، وانظر أيضًا بارتولد: تركستان، ص 423.

(156) Howorth, Loc. Cit, p 485.

(157) شرف الدولة: أبو شجاع أرسلان خان بن يوسف قدر خان.

ستانلي لين بول: المرجع السابق، ص 281.

(158) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 520، 521.

وعلى الأرجح أن اسمه يوسف فقد نقش اسم يوسف بن علي على سكة هذا العصر بعد أعوام من وفاة علي تگين والأرجح أن هذا الاسم قد حملة ابن علي تگين⁽¹⁵⁹⁾.

وقد أرسل السلطان مسعود الغزنوي يعزي في وفاة علي تگين ويهنئ الأيلىك الشاب وقد خاطبه «بالأمير الفاضل الولد» في الوقت الذي شرع فيه يوسف علي تگين في تنفيذ اتفاقه مع هارون⁽¹⁶⁰⁾ بأن يغير مع إخوته على صغانيان⁽¹⁶¹⁾ وترمز وقتل هارون ورجع أولاد علي تگين إلى بلاد ما وراء النهر⁽¹⁶²⁾. ولم يستطع أولاد علي تگين أن يحتفظوا طويلاً بإمارة أبيهم فيما وراء النهر.

ففي سنة 430هـ / 1038م نجح بوري تگين (أبو إسحق إبراهيم بن الأيلىك نصر) في الهرب من السجن، الذي زجه فيه ابن علي تگين وذهب إلى أخيه محمد عين الدولة بأوزكند. وفي سنة 431هـ / 1039م تمكن بوري تگين من هزيمة أولاد علي تگين وأشرف على انتزاع ما وراء النهر منهم⁽¹⁶³⁾.

في سنة 433هـ / 1042م غزا الأخوان محمد عين الدولة وبورتگين بلاد ما وراء النهر ونادى محمد بنفسه خاتماً أكبر وأصبح بوري تگين الخان المشارك.

وأصبح إبراهيم طمغاج خان بن الأيلىك نصر (البوري تگين) الخاقان الأعظم حوالي 444: 460هـ / 1052: 1068م وكان مثلاً للحاكم العادل التقي⁽¹⁶⁴⁾ وقد حمل ألقاب عز الأمة، وكهف المسلمين، ومؤيد العدل⁽¹⁶⁵⁾، وعماد الدولة⁽¹⁶⁶⁾. وجعل إبراهيم طمغاج خان،

(159) بارتولد: تركستان، ص 423.

(160) هارون: ابن خوارزمشاه ألتونشاش. البيهقي: المصدر السابق، ص 599.

(161) صغانيان: ولاية عظيمة بها وراء النهر متصلة الأعمال بترمذ.

ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 190.

(162) البيهقي: المصدر السابق، ص 496، 497. وانظر أيضاً بارتولد: تركستان، ص 442، 443.

(163) بارتولد: تركستان، ص 445، 447.

(164) دائرة المعارف الإسلامية (مادة الايلىكخانية)، المجلد الخامس، ص 402، 403.

(165) بارتولد: تركستان، ص 462.

(166) النويري: المصدر السابق، ج26، ص 55.

الملك في ولده شمس الملك نصر بن إبراهيم فملك من 460 : 472 هـ / 1068 : 1080 م⁽¹⁶⁷⁾ وتولى بعد شمس الملك أخوه خضر خان من 472 : 473 هـ / 1080 : 1081 م ثم تولى أحمد خان بن خضر خان 473 : 488 هـ / 1081 : 1095 م.

كان أحمد خان قبيح الصورة والفعل، كثير المصادرات، ففقر الرعية منه وكتبوا السلطان ملكشاه⁽¹⁶⁸⁾، واستغاثوا به وطلبوا منه القدوم ليملك بلادهم فعبّر ما وراء النهر في سنة 482 هـ / 1089 م وملك بخارى، وما جاورها، ثم سار إلى سمرقند فملكها، وهرب أحمد خان، ثم قبض عليه السلطان. ثم أعاده إلى ولايته. بعد فشل الوالي الذي عينه في السيطرة على الأمور في بلاد ما وراء النهر⁽¹⁶⁹⁾.

(167) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 300، التويري المصدر السابق، ج 26، ص 55 وانظر أيضًا بوزورث: المرجع السابق، ص 161.

(168) ملكشاه: جلال الدولة ملكشاه بن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن جغري بك داود ابن ميكائيل بن سلجوق، وهو الثالث من ملوك الدولة السلجوقية. حكم من 465 : 485 هـ / 1073 : 1092 م.

عماد الدين الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي البنداري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الثالثة، 1980 م، ص 30.

الراوندي: المصدر السابق، ص 143. التويري: المصدر السابق، ج 26، ص 303.

(169) التويري: المصدر السابق، ج 26، ص 56، 328.

ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الرابع، ص 393، 394.

وانظر أيضًا: بارتولد: تركستان، ص 465، 466.

عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1990 م، ص 252.

محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، 2003 م، ص 93.

تولى بعد أحمد خان ابن عمه مسعود خان وفي سنة 490هـ / 1097م خضعت البلاد لبركياروق⁽¹⁷⁰⁾ الذي عين على التوالي سليمان تگين ، فمحمود تگين ، فهارون تگين حكامًا للبلاد⁽¹⁷¹⁾.

وفي سنة 497هـ / 1102م ولى السلطان سنجر⁽¹⁷²⁾ محمد تگين بن سليمان بن داود بن بغراخان ولقب أرسلان خان وأمه أخت السلطان سنجر، وبلغ السلطان سوء سيرته مع الرعية وإهماله أوامر السلطان فسار إليه سنة 507هـ / 1113م فاعتذر محمد وهدأت الأمور، وظل في الحكم حتى عام 524هـ / 1130م⁽¹⁷³⁾.

وعين السلطان سنجر، أبا المعالي حسين تگين طغفاج وهو ابن عبد المؤمن ابن علي، أي أنه حفيد علي تگين⁽¹⁷⁴⁾.

(170) بركياروق: السلطان ركن الدنيا والدين أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه، برهان أمير المؤمنين ويمين أمير المؤمنين وهو الرابع من ملوك الدولة السلجوقية. حكم 486: 498هـ / 1093: 1105م. العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 81، الراوندي: المصدر السابق، ص 143. التويري: المصدر السابق، ج2، ص 335.

(171) بارتولد: تركستان، ص 467.

(172) سنجر: السلطان المعظم، معز الدين عماد آل سلجوق أبو الحارث سنجر شاه برهان أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه. قيل له سنجر لأنه ولد بمدينة سنجار. عماد الدين الأصفهاني: المصدر السابق، ص 120، الراوندي: المصدر السابق، ص 143. التويري: المصدر السابق، ج2، ص 372، 373.

(173) ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الرابع، ص 394، 395.

وانظر أيضًا: بارتولد: تركستان، ص 467.

وذكر هوارث أنه ابن طغان تگين، Howorth, Loc. Cit, p 492.

وذكر بوزورث في دائرة المعارف الإسلامية «مادة الأيلكخانية» المجلد الخامس، ص 404 أنه ابن أخي السلطان سنجر وزوج ابنته.

ورأي ابن خلدون أصوب ، والدليل اسمه الذي ذكره ابن خلدون واختلف فيه هوارث وبوزورث.

Howorth, Loc. Cit, p 496. (174)

وذكر ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الرابع، ص 396. أنه أبو المعالي الحسن بن علي المعروف

بحسين تگين كان من أعيان بيت الخانية.

ثم عين السلطان سنجر، محمود خان بن أرسلان خان خاناً أكبر من سنة 526هـ : 536هـ / 1131 : 1141م وهرب محمود إلى خراسان تاركاً الكورخان القرا خطاي⁽¹⁷⁵⁾

يستولي على ما وراء النهر. وأقام الكورخان أمراء خانية شتى بوصفهم من صناعته. ولو أن السلطان الحقيقي في بخارى في ذلك الوقت كان بين أيدي شيوخ السنة أو صدور أسرة برهان، الذين كانوا يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع القرا خطاي الوثنيين المتسامحين⁽¹⁷⁶⁾.

وصفوة القول فقد كان الخاقان الأعظم يتولى حكم بلاد ما وراء النهر، ومقره في أوزكند ثم تحول عنه إلى سمرقند بعد ذلك، وكان يعين نائباً عنه في بخارى، يطلق عليه أحياناً الخان المشارك وهو في الغالب من الأسرة الحاكمة.

اتبع الخانيون نظام اللامركزية في الإدارة وفتتوا السلطة فيما وراء النهر⁽¹⁷⁷⁾ واعتمدوا على الجهاز الإداري الفارسي لإدارة مدنها وضواحيهم، ولم يتعدوا كثيراً عن حياتهم الصحراوية، فعلى سبيل المثال كان علي تگين يعيش في أحد المعسكرات القريبة، من بخارى وهو معسكر (خرلخ أردو) وكان الأمراء الخانيون الآخرون يتجنبون المدن أيضاً، ويعتبرون الحياة الصحراوية أفضل وأنسب لهم من حياة المدن، لذلك قاموا بتعيين نواب لهم لإدارة المدن⁽¹⁷⁸⁾.

وقد نال شمس الملك بن طمغاج خان إبراهيم الشهرة كحاكم عادل شأنه شأن أبيه، وظل يعيش في البادية كبقية الرحل، فيما عدا فصل الشتاء وكان يمضيه مع جيشه قرب

(175) القرا خطاي: أقاموا دولة في شمال الصين، ونحت تأثير الصراع القبلي طردهم أسرة كين ولجأوا إلى تركستان واستولوا على بلاد ما وراء النهر بعد هزيمة السلطان سنجر 536هـ / 1141م ولقب ملكهم كورخان أي خان الخانات أي ملك الملوك، وقد عين الكورخان والياً من قبله على بخارى.

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، دار الفكر العربي، 1999، ص 99. (176) ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الرابع، ص 396، 397.

وانظر أيضاً بوزورث: المرجع السابق، ص 162، زامباور: المرجع السابق، ص 313. ستانلي لين بول: المرجع السابق، ص 282.

دائرة المعارف الإسلامية مادة «الايلكخانية» المجلد الخامس، ص 404.

(177) دائرة المعارف الإسلامية مادة «الايلكخانية» المجلد الخامس، ص 407.

(178) فراي: المرجع السابق، ص 240، 241.

بخارى مشرطاً على جنده ألا يغادروا خيامهم وألا يمدوا أيديهم بسوء نحو الأهالي⁽¹⁷⁹⁾.
 مما يؤيد اتباعهم لنظام اللامركزية في الإدارة وتمسكهم بالحياة الصحراوية .

وقد اتجهت عناية طمغاج خان إبراهيم منذ البداية إلى تثبيت قواعد النظام والأمن بأراضيه فكان أدنى اعتداء على أملاك الغير يلقي جزاءً صارماً. ولم يكتفِ الخان بحماية مصالح الشعب الكادح ضد السرقة والاعتداء على الممتلكات فحسب، بل وضد جشع التجار الذين كانوا يريدون رفع الأسعار وكان يقول : «لا يجوز أن أبيع رعيتي»⁽¹⁸⁰⁾.

وقد عرف عن طمغاج خان إبراهيم التدين وأنه «لا يأخذ مالاً حتى يستفتي العلماء»⁽¹⁸¹⁾. أي أنه كان لا يأخذ أي مال أو يفرض أي ضرائب جديدة حتى يأخذ رأي العلماء.

وقد خففت الضرائب في كل مكان في عهد الدولة الخانية ومن الراجح أن الدهاقين، وهم أصحاب الأراضي من أهل البلاد، جنوا فائدة كبيرة عندما سيطر الخانيون على بخارى وما وراء النهر، واستردوا جزءاً كبيراً من سلطانهم، وأطلقت أيديهم في بخارى وما وراء النهر⁽¹⁸²⁾.

(179) بارتولد: تركستان، ص 463.

(180) بارتولد: المرجع السابق، ص 459، 460، 461.

وذكر بارتولد أنه: ذات مرة شكى إليه القصابون من أن أسعار اللحم ضئيلة بدرجة لا يربحون معها شيئاً والتمسوا منه رفعها عارضين في مقابل ذلك دفع ألف دينار إلى الخزينة فقبل الخان وأحضر القصابون المال إلى الخزينة. ورفعوا أسعار اللحم، ومنع السلطان الناس من شراء اللحم مهدداً إياهم بعقوبة الموت. فتعرض القصابون لخسائر فادحة، وفي كل حي من أحياء المدينة اشترك خمسة أو ستة من الرجال في شراء رأس من الضأن فاقسموا لحمه بينهم وانتهى الأمر بأن اضطر القصابون مرة أخرى إلى دفع مبلغ من المال لإرجاع الأسعار إلى ما كانت عليه.

(181) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 300. النويري: المصدر السابق، ج26، ص 55.

(182) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 156، 158، 159.

دائرة المعارف الإسلامية مادة «الايكخانية» المجلد الخامس، ص 407.

وكان الخانيون يتمتعون بحب الناس، وعملوا على الاتصال الدائم بعامة الشعب والتيسير عليهم، وعدم فرض القوة⁽¹⁸³⁾ وهذا لا يمنع من وجود بعض الفترات تعرض فيها الرعية للظلم والجور كما سبق أن تحدثنا.

وبالرغم من أسلوب حياتهم الرعوي فإن الخانيين قد اضطلوعوا بواجبهم كملوك، الأمر الذي يتضح من تزيينهم المدن بالعمارات العالية الجميلة وإقامة الرباطات على الطرق الكبرى.

وقام شمس الملك بجهد كبير في إقامة الكثير من العماثر العامة، وقد بنى خانيين مشهورين لتزول القوافل وسمى كلاً منهما «رباط ملك» وبنى المسجد الجامع ببخارى وشيّد قصر شمس آباد⁽¹⁸⁴⁾ وأنشأ جامع قرية اسكجكت⁽¹⁸⁵⁾ والعديد من دور الضيافة والحمامات والمدارس وغيرها من المنشآت العامة التي ظلت قائمة بعده لعدة قرون⁽¹⁸⁶⁾.

واشتهر أرسلان خان أكثر من غيره من الخانيين بعمارته العديدة منها إعادة بناء قلعة بخارى وترميم أسوار المدينة وفي سنة 513 هـ / 1119 م قام بتشييد موضع لصلاة العيد مكان أطلال مدينة شمس آباد وفي سنة 515 هـ / 1121 م قام ببناء مسجد بخارى الجامع. وقام بتشييد قصرين أصبح أحدهما مدرسة فيما بعد، ونقل منارة المسجد الجامع القريب من القلعة إلى الشهرستان وأعيد ترميمها بصورة أفضل من ذي قبل ثم قرر إعادة بناء المنارة. بأكملها على نفقته 521 هـ / 1127 م⁽¹⁸⁷⁾، وقام بإنشاء الحمامات وكذلك معظم مباني مدينة بيكند الواقعة في نهاية الحد الجنوبي لبخارى⁽¹⁸⁸⁾.

(183) Bosworth, OP. Cit., XXIII, p 12.

(184) بارتولد: تركستان، ص 463، 464. دائرة المعارف الإسلامية (الايلكخانية) المجلد الخامس، ص 405.

(185) فراي: المرجع السابق، ص 240.

(186) فامبري: المرجع السابق، ص 140.

(187) بارتولد: تركستان، ص 468. فراي: المرجع السابق، ص 246.

(188) فراي: المرجع السابق، ص 246.

اعتنق الخانات المذهب الحنفي في غيرة وحماسة وأصبحت بخارى وبلاد ما وراء النهر معقلاً لهذا المذهب وكان الخانات يشجعون حلقات العلماء ورجال الأدب في بلاطهم⁽¹⁸⁹⁾. وكان أبو شجاع أرسلان خان ولقبه شرف الدولة ديناً مكرماً للعلماء وأهل الدين، فقصدوه من كل ناحية فوصلهم وأحسن إليهم.⁽¹⁹⁰⁾ وأعطى شمس الملك جزءاً من أملاكه لعلماء الدين حتى ينفقوا على أنفسهم من إيراداتها⁽¹⁹¹⁾.

لم يثق الخانيون في علماء السنة لأنهم وضعوا أنفسهم في مكانة كبيرة. واعتمد الخانيون على الكتاب والإداريين بدلاً من العلماء، وبناء على هذا فقد دخلوا في صراع ونزاع دائم معهم⁽¹⁹²⁾.

وظاهرة العداء بين السلطة الزمنية ورجال الدين يكتنفها بعض الغموض لأن المصادر لا تلقي الضوء على أسباب هذا العداء. فالخانات الترك الأوائل غلبت عليهم روح التدين الشديد واهتموا بالزهاد وأهل التصوف أكثر من اهتمامهم بالفقهاء من أهل المذاهب⁽¹⁹³⁾.

وقد ظلت الخصومة بين الحكومة ورجال الدين مستمرة في عهد شمس الملك طمغاج خان إبراهيم بن نصر، ففي بداية حكمه في سنة 461هـ / 1069م أعدم الإمام أبا إبراهيم بن إسماعيل بن أبي نصر الصفار ببخارى. وكان إماماً فاضلاً لا يخاف في الله لومة لائم فقتله الخاقان صبراً⁽¹⁹⁴⁾ لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر⁽¹⁹⁵⁾. وقد ذكر بوزورث أن سبب قتله «أنه حاول التدخل في شئون الحكم وتوجيه الخان»⁽¹⁹⁶⁾ إذن فإن شمس الملك لم يقتل الإمام أبا إبراهيم بن إسماعيل بدون ذنب، من المحتمل أنه أراد فرض رأيه بأسلوب لا يليق مما أغضب الخان وجعله يصبر على قتله؛ لأنه من المعروف عن شمس

(189) دائرة المعارف الإسلامية (الايكخانية) المجلد الخامس، ص 406.

(190) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 299.

(191) فراي: المرجع السابق، ص 240.

(192) فراي: المرجع السابق، ص 241.

(193) بارتولد: تركستان، ص 458.

(194) قتله صبراً: حبسه حتى مات. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، 1990م، ص 359.

(195) بارتولد: تركستان، ص 464.

الملك طمغاج خان إبراهيم بن نصر أنه كان متدينا لدرجة أنه كان «لا يأخذ مالاً حتى يستفتي العلماء»⁽¹⁹⁷⁾ وقد بلغ من توقيره لرجال الدين أنه لما قال له الخطيب أبو شجاع أحد سلاله العلويين: «إنك لا تصلح للملك» أغلق الخان أبواب قصره وعزم على التنازل عن العرش، ولكن الأهالي نجحوا في إقناعه بأن الخطيب أخطأ وأن ألفاظه تتعارض مع ما يبذله الخان من جهد من أجل رعيته⁽¹⁹⁸⁾.

وفي عهد أحمد خان بن خضر خان أدى العداء بين الخان ورجال الدين إلى تدخل السلاجقة، ففي أول عهد أحمد أعدم الوزير أبو أحمد نصر بن سليمان، قاضي القضاة في عهد خضر خان. وكان هذا الحاكم ظالماً فالتمس الفقيه الشافعي أبو طاهر بن أيلك العون من ملكشاه باسم المظلومين، فاستولى ملكشاه على بخارى سنة 482 هـ / 1089 م وعزل أحمد وبعد فشل الوالي الذي عينه على بخارى أعاد أحمد ولم يدم حكمه طويلاً فقد قتل في بداية سنة 488 هـ / 1095 م نتيجة نزاعه مع رجال الدين فعملوا على خلعه وإعدامه بتهمة اعتناق مذهب الإسماعيلية⁽¹⁹⁹⁾.

وكان أرسلان خان يرتبط بعلاقة شخصية مع الزاهد الحسن بن يوسف البخاري، الذي حمل لقب «نمدبوش» «صاحب الصوف» وقد عاش الشيخ ثلاثين عاماً في زاويته ببخارى يقتات على الخُضْر فقط، وكان أرسلان خان يدعو «نمدبوش» «أباه» وقد استطاع بمعاونة هذا الزاهد أن يطهر بخارى من أهل الإباحة والبدع. وقد قتل الشيخ سنة 509 هـ / 1116 م من سهم رماه به أحد أهل الإباحة.

وبالرغم من هذا فإن النزاع مع رجال الدين لم يتوقف طيلة مدة حكمه هو أيضاً، فقد كان للإمام الصفار الذي قتل في عهد شمس الملك ابن اسمه أبو إسحق إبراهيم بن

(197) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 300.

(198) بارتولد: تركستان، ص 459.

(199) بارتولد: المرجع السابق، ص 465.

دائرة المعارف الإسلامية (الايلكخانية) المجلد الخامس، ص 404.

وقد ذكر ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الرابع، ص 394 أنه عندما أسره ملكشاه وكل به جماعة من الديلم فلحق عنهم معتقدات الإباحة والزندقة فلما ولي أظهر الانحلال فاعتزم جنده على قتله. فقبضوا عليه وقتلوه بالزندقة.

إسماعيل، خرج كآبئه في اجتناب المداھنة وقمع السلاطين وقهر الملوك، حتى أخذه السلطان سنجر معه إلى مرو، وأسكنه فيها حتى يعم الهدوء في بخارى⁽²⁰⁰⁾.

وقد ذكر بوزورث «أن الهيئة الدينية كانت تكره أي امتداد لسلطان الحكومة المركزي وكانت مستعدة لأن تتحد مع الجيش على العرش»⁽²⁰¹⁾.

وصفوة القول أن هذا الصراع بين رجال الدين والحكومة لم يكن بالصورة التي نتحدث عنها المصادر والمراجع التاريخية فإننا لم نلمس سوى حالتين فقط من الصراع مع الإمام أبي إبراهيم بن إسماعيل الذي حاول التدخل في شئون الحكم وابنه إسحق الذي أراد أن يثير الشعب ضد أرسلان خان فأخذه السلطان سنجر إلى مرو.

أما حالة أحمد خان بن نصر خان فإن الرعية والعلماء لم يرضوا عن حكمه لأنه كان ظالماً واتهم بالزندقة واعتناق مذهب الإسماعيلية لذلك تخلصوا منه. ولم نجد أمثلة غير ذلك في حين نجد اهتمام الخانات بالعلماء والإنفاق عليهم وإقامة حلقات العلم وإنشاء المدارس والعطف على الصوفية والاسترشاد بأرائهم فقد استطاع أرسلان خان أن يطهر بخارى من أهل البدع والإباحة بمساعدة الزاهد الحسن بن يوسف البخاري.

اهتم الخانيون بالأدب الإسلامي الذي انتعش تحت حكمهم، وقد تعتمد الخانيون تقليد السامانيين في رعايتهم للغتين من لغات الأدب، اللغة التركية الخاصة بهم، واللغة الفارسية التي يتحدث بها عامة الناس في بخارى⁽²⁰²⁾.

ذكر النظامي العروضي السمرقندي ثلاثة عشر شاعراً مجدوا «آل خاقان» كما يسميهم⁽²⁰³⁾ وهو يمتدح بخاصة خضر خان إبراهيم ويقول إنه راع جواد كريم وظهر في عهده عمق البخاري أمير الشعراء⁽²⁰⁴⁾ وقد مدح عمق خضر خان وزوجته كما مدح

(200) بارتولد: تركستان، ص 469.

(201) دائرة المعارف الإسلامية، «الايلكخانية»، المجلد الخامس، ص 408.

(202) Frye, Islamic Iran and Central Asia (7th- 12th centuries) London 1979, XXIII, pp 69,73, 74.

(203) العروضي السمرقندي: المصدر السابق، ص 36.

(204) دائرة المعارف الإسلامية، «الايلكخانية» المجلد الخامس، ص 406.

الشاعر رشيد السمرقندي وأقر بفضلته حتى ارتفع شأن رشيد وأصبح سيداً للشعراء⁽²⁰⁵⁾.

احتفظ الخانيون بتركيتهم القوية، وكان عصرهم عصرًا له شأنه العظيم في خلق وعي ثقافي تركي وخلق أول أدب إسلامي تركي، ورغم ذلك كانت الثقافة الفارسية لها الصدارة في بخارى وبلاد ما وراء النهر⁽²⁰⁶⁾.

وصفوة القول فقد اهتم الخانيون ببخارى ونظم الإدارة بها وتخفيف الضرائب على الرعية والتقرب منهم، وزيادة سلطات الدهاقين واهتموا بإقامة العديد من المنشآت العامة في بخارى وحرصوا على وجود علاقة متوازنة مع العلماء في كثير من الأحيان وشجعوا حلقات العلم وأغدقوا الأموال على العلماء وأقاموا المدارس، وازدهر الأدب التركي في عهدهم إلى جانب الأدب الفارسي وكانوا أكثر تحضرًا من السلاجقة⁽²⁰⁷⁾ لأنهم وقعوا تحت تأثير الحضارة الصينية⁽²⁰⁸⁾.

(205) عفاف السيد زيدان: مدينة سمرقند ودورها في الحضارة الإسلامية، المؤتمر الدولي للدراسات الإسلامية عند غير العرب. رابطة العالم الإسلامي - جامعة الأزهر، 20: 22 مايو 1997م، ص 42.

(206) دائرة المعارف الإسلامية، «الايكخانية»، المجلد الخامس، ص 406.

(207) السلاجقة: أو السلجقية نسبة إلى سلجق. بعض المؤرخين أثبتوا في اسمه وأوا، فقالوا سلجوق وهذا خطأ. والده يقاق وقيل دقاق بمعنى القوس الحديد، اعتنق الإسلام وكان مقدم طائفته من الأتراك، وعندما توفي يقاق ظهر ابنه سلجق فقربه ملك الترك، ثم ترك ملك الترك ونزح وقومه من تركستان إلى ما وراء النهر فكانت منازلهم في الشتاء في نور بخارى وفي الصيف في سُغد سمرقند وكان لرئيسهم سلجوق أربعة أبناء هم إسرائيل (أرسلان ييغو) وميكائيل ويونس، وموسى ييغو.

العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 7، الراوندي: المصدر السابق، ص 145، 146. التنويري: المصدر السابق، ج 26، ص 269، 270. وانظر أيضًا:

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، 1987، ص 93.

(208) بارقولد: تركستان، ص 459.

العلاقات الخارجية لبخارى في عهد الدولة الخانية:

1- علاقة الخانيين بالغزنويين :

عندما استقر محمود الغزنوي في خراسان، وملك أيلك خان نصر بن علي بخارى وما وراء النهر راسله محمود ووافق⁽²⁰⁹⁾ ودخل أيلك خان في صداقة مع محمود الغزنوي ليحافظ على البلاد التي أصبحت من نصيبه بعد تقسيم أملاك السامانيين، وجعل نهر جيحون هو الخط الحدودي الفاصل بين الدولتين⁽²¹⁰⁾.

وقد ذكر العتبي أن أيلك خان راسل «السلطان يمين الدولة مهنتاً له بإذخر الله له من خالصة الملك وصافية الملك وظاهر إليه من ظاهر العز وباطنه.... وتردد السفراء بينهما.... وتؤكد أسباب المودة والوصال وتحمي حريم الثقة في الجانبين وترفع ستر الحشمة في ذات البين وتؤدي رتبة الاختلاط إلى الامتزاج، فتصير النفوس واحدة والسواعد على وجوه مصالحها متساعدة»⁽²¹¹⁾.

ولتوثيق الصداقة بين السلطان محمود الغزنوي وأيلك خان، أرسل السلطان محمود، أبا الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي⁽²¹²⁾ إمام أهل الحديث وطغنا نجق والي سرخس⁽²¹³⁾ رسولين إلى أيلك خان لخطبة كريمته، وأرسل السلطان محمود معها كثيراً

(209) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 188. النويري: المصدر السابق، ج26، ص 41.
(210) نصرت الله حكيم: دوره تاريخ براي سال چهارم دبير ستانها، كتا بفروشي وچاپخانه دانش، چاپ سوم، ص 51.

(211) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 27، 28.

(212) أبو الطيب بن سليمان الصعلوكي: كان والده من علماء وفضلاء العالم الإسلامي في عصره. وصار أبو الطيب إمام الحديث ومن كبار فقهاء الشافعية في عصره. أرسله السلطان محمود في سفارة إلى خان التركستان ليطلب ابنته ونجح في مهمته وأحضرها إلى غزنة.
استاد خليلي: سلطنت غزنويان، انجمن تاريخ أفغانستان، ص 307.
سيد علي مؤيد ثابتي: تاريخ نيشابور، سلسلة انتشارات انجمن آثار ملي 125، در سال 1353 شاهنشاهی، ص 134.

(213) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة واسعة، وهي بين نيسابور ومرو.
ياقوت: المصدر السابق، ج5، ص 37.

من الهدايا. وقبل أيلك خان نصر بن علي هذا الزواج وأحسن استقبال الرسولين، وأقاما بأوزكند إلى أن فرغ أمر الزفاف وعادا بالعروس مصحوبة بالعديد من الهدايا للسلطان محمود⁽²¹⁴⁾.

وقد ذكر العتبي أنه نتيجة لهذه المصاهرة «اتحدت الحال بين السلطان وبين أيلك خان اتحاداً اشترك فيه المراتع والنعم واستهم فيه الصنائع والخدم»⁽²¹⁵⁾.

وظلت حالة الوثام والصداقة والمودة قائمة بين السلطان محمود وأيلك خان حتى سنة 396 هـ / 1006 م⁽²¹⁶⁾ فقد ذكر كثير من المؤرخين أن أيلك خان نقض عهد الصداقة مع محمود وأظهر أطماعه في بلدان الدولة الغزنوية⁽²¹⁷⁾. وذكر العتبي أنه «دبت عقارب الفساد في ذات البين واضطراب الحبل الساكن واشتعل الجمر الهامد»⁽²¹⁸⁾ وذكر بعض المؤرخين أن السعاة أفسدوا ما بينهما⁽²¹⁹⁾ وقيل إن خلف بن أحمد والي سجستان⁽²²⁰⁾ عصي السلطان محمود، وخوفاً من بطشه التجأ إلى أيلك خان⁽²²¹⁾ لذلك من المحتمل أنه بذور الشقاق بينهما وشجعه على الاستيلاء على خراسان.

(214) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 28، 30، 31.

خواندمير: حبيب السير، أذ انتشارات كتابخانه خيام، جابخانه حيدري 1333 شمسي، جلد دوم، ص 377. وانظر أيضًا بارتولد: تركستان، ص 411. عباس إقبال: المرجع السابق، ص 174.

(215) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 31.

(216) ميرخوند: المصدر السابق، والمجلد، ص 137.

(217) خواندمير: المصدر السابق، والمجلد، ص 377.

وانظر أيضًا بارتولد: تركستان، ص 411. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص 105.

نصرت الله حكيم: المرجع السابق، ص 52.

(218) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 76.

(219) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 188. النويري: المصدر السابق، ج26، ص 41.

(220) سجستان: إقليم عظيم يقع بين خراسان وبين مكران والسند وبين كرمان.

أبو الفدا: تقويم البلدان، ص 340.

(221) حمد الله المستوفي القزويني: المصدر السابق، جلد أول، ص 396.

إذن فقد اضطربت العلاقة بين السلطان محمود وأيلك خان، واستغل أيلك خان غياب السلطان محمود في الهند ونقض عهد الصداقة وأظهر أطماعه في الاستيلاء على خراسان.

أرسل أيلك خان فرقتين من جيشه إلى خراسان، الفرقة الأولى بقيادة سباشي تگين قائد جيشه في معظم الجيش إلى خراسان. والفرقة الثانية بقيادة أخيه جعفر تگين وعدد من القواد إلى بلخ. وكان والي طوس أرسلان الجاذب مقيمًا في هراة، وأمر إذا ظهر عليه مخالف أن يتجه إلى غزنة، وأمر الوزير أبو العباس الفضل ابن أحمد بالاحتياط على الطرق بين غزنة وحدود باميان وبنجهير وسدّها بالرجال الأكفء، وأرسل البريد إلى السلطان يخبره بها حدث⁽²²²⁾.

واستغل سباشي تگين الفرصة واستولى على هراة وأرسل أحد قواده وهو الحسين بن نصر للاستيلاء على نيسابور، واستولى على أموال نيسابور. وسلك جماعة من أعيان خراسان طريق مصادقة وموالة الأعداء بسبب امتداد غيبة السلطان⁽²²³⁾.

وصلت الأخبار إلى السلطان محمود وهو بالهند، فرجع إلى غزنة «لا يلوي على دار ولا يركن إلى فرار» وأعطى السلطان العطاء لعساكره، وقام بتقوية الجيش وإصلاحه، واستمد الأتراك الخلجية، فأمدوه بجيش كبير، فسار بهم نحو بلخ، وبها جعفر تگين أخو أيلك خان، ففر إلى ترمذ. ونزل السلطان ببلخ.

سير السلطان، أرسلان الجاذب في عشرة آلاف جندي نحو سباشي تگين في هراة، فذهب سباشي تگين إلى مرو ثم توجه إلى سرخس، وقاتله محسن بن طارق رئيس الأتراك الغزية، فانتصر سباشي تگين، وقتل كثير من الجانبين، وتعبه أرسلان الجاذب في كل مرحلة رحلها. فسار إلى أبيورد ومنها إلى نسا «وساقه الخوف من الطلب إلى جرجان» ثم عاد إلى نسا واتجه نحو مرو، وكان السلطان محمود قد انحدر إلى طوس، فلما بلغه اتجاه

(222) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 76، 77.

ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 188. ميرخوند: المصدر السابق، والمجلد، ص 138.

خواندمير: المصدر السابق والمجلد، ص 377، Howorth, Loc. Cit, p 478.

(223) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 77، الغرديزي: المصدر السابق، ص 287.

البیهقي: المصدر السابق، ص 601. ميرخوند: المصدر السابق، والمجلد، ص 138،

- Howorth, Loc. Cit, p 478.

سباشي تگين إلى مرو سار ليلاً على طريق مرو معارضاً له، فوصل إليه، وأرسل السلطان أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي زعيم العرب وسائر قواده، ونشب القتال بين الطرفين، وأسر أخو سباشي تگين وسبعائة من جنوده، ونجا سباشي تگين في عدد قليل من جنوده وعبر جيحون إلى أيلك خان⁽²²⁴⁾.

وقد أراد أيلك خان تخفيف الضغط على سباشي تگين فسير أخاه جعفر تگين في ستة آلاف جندي إلى بلخ ثانية . وعمل على إخراج سباشي تگين من خراسان، فلما أخرجه منها، عاد إلى بلخ، وهزمهم السلطان محمود، وتبعهم قائد الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتگين على ساحل جيحون⁽²²⁵⁾.

وهكذا استطاع السلطان محمود أن يرد جيوش أيلك خان عن خراسان بعد هزيمة سباشي تگين وجعفر تگين وفرارهما إلى ما وراء النهر.

وأراد الأيلك خان الثأر لهزيمة جيوشه، فراسل قدر خان بن بغراخان ملك الختن لقراءة بينهما، واستعان به واستنصره، واستنفر الترك من أقاصي بلادها واستنفر دهاقين ما وراء النهر في جيوش كبيرة وسار في خمسين ألفاً حتى عبر جيحون.

وبلغ الخبر السلطان محمود الغزنوي، وهو بطخارستان، فسار وسبقهما إلى بلخ واستعد للحرب، وخرج السلطان، ومعه الأتراك الغزية والخلج، والهند، والأفغانية والغزنوية⁽²²⁶⁾ وأقام السلطان محمود معسكره على بعد أربعة فراسخ من بلخ، عند قنطرة جرخيان. وزحف أيلك خان بمحاذاته.

(224) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 78 : 82. الگردیزی: المصدر السابق، ص 287.

ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 188، 189. النويري: المصدر السابق، ج26، ص 41، 42.

وانظر أيضًا: بارتولد: تاريخ إيران در قرون نخستین اسلامي، ج1، ص 201.

عبد الرفيع حقيقت: المرجع السابق، ص 200، 201، Grousset, OP. Cit., p 156.

(225) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 82. ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 189.

(226) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 83، 84. الگردیزی: المصدر السابق، ص 288.

ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 191. ميرخوند: المصدر السابق، والمجلد، ص 139.

وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 174، 175.

يذكر العتبي أن السلطان رتب «رجالَه صفوفًا كالجبال الراسيات.... ورتب في القلب أخاه نصرًا صاحب الجيش ووالي الجوزجان أبا نصر أحمد بن محمد الفرغاني، وأبا عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي في كِماء الأكراد والعرب وسائر جماهير الهنود، ورتب في الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد ألتونتاش وندب للميسرة أرسلان الجاذب فيمن تحت قيادته من نجوم الأبطال. وحصن الصفوف بزهاء خمسمائة من فيلته» في حين نظم أيلك خان قواته «فشحن قلبه بخواص غلمانِه وأعلام فرسانه وولى قدر خان ميمته في أترك الختن، وشحن بجعفر تگين ميسرته، واستنزل أيلك عن صهوات الخيول إلى صعيد الأرض زهاء ألف غلام يفلقون الشعور أنصافًا»⁽²²⁷⁾.

اتجه السلطان محمود إلى ربوة، فوضع الله جده وعفر شعره تواضعًا لله تعالى، وسأله النصر الظفر، ودعا الله أن يحرس ملكه، ثم اتجه إلى ساحة القتال وأمر بأن يحركوا الفيلة جميعًا ويهجموا على قلب أيلك خان، فأزاله عن مكانه، وهزم الترك، وأسر عسكر السلطان محمود الكثير منهم وقتلوه، وأما الذين هربوا فقد غرقوا في النهر، واستولى السلطان محمود على خيولهم وأسلمحتهم. وكان هذا النصر يوم الأحد 22 ربيع الثاني 398هـ/ 4 يناير 1008م⁽²²⁸⁾.

وصفوة القول أن السلطان محمودًا الغزنوي دخل هذه المعركة بكل قوته لأن هزيمته تعرض دولته للخطر، وقد منَّ الله عليه بالنصر، وزادت هذه المعركة من هيبة السلطان

(227) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 84، 85. ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 139.

خواندمير: المصدر السابق والمجلد، ص 377.

(228) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 86.

الگردیزی: المصدر السابق، ص 288، 289. حمد الله المستوفي القزويني: المصدر السابق، جلد أول،

ص 396. النويري: المصدر السابق، ج26، ص 43، 44.

ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتحي، دار الحديث، القاهرة، ط الخامسة،

1998م، المجلد السادس، ج11، ص 362.

وانظر أيضًا بارتولد: تاريخ إيران، ص 202، فراي: المرجع السابق، ص 225،

نصرت الله حكيم: المرجع السابق، ص 52، 478، Howorth, Loc. Cit.

محمود في الشرق. وأنهت هزيمة الأيلىك خان نفوذهم في خراسان، وأدت هذه المعركة إلى حدوث نزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة. بين أيلىك خان وأخيه الأكبر طغان خان، الذي كان يرتبط بعلاقة حسنة مع السلطان محمود، وأرسل إلى السلطان محمود يعتذر عما فعله أيلىك خان. ويقول: إنني ما رضيت ذلك منه، ويلزم أخاه وحده الذنب، وتبرأ منه⁽²²⁹⁾.

ورأى أيلىك خان أن يقضي على أخيه فجمع جيش ما وراء النهر واتجه إلى ولاية طغان خان واضطر للعودة لأن الثلوج سدت الطريق عليه. وأرسل السلطان محمود إلى أيلىك خان وطغان خان رسالة يقول فيها : «إن المحبة الأخوية تقتضي أن تغمدنا سيف الانتقام في غمده وتقنعا بما قدره الله القادر ذو الجلال لكما من الملك والمال ، وينبغي أن تسلكا بعد ذلك طريق المحبة والود، وتغلقا أبواب النزاع والجدال»⁽²³⁰⁾.

وفي سنة 403 هـ / 1012 م توفي أيلىك خان وهو يستعد للعودة إلى خراسان، وتولى بعده أخوه طغان خان، فراسل السلطان محمود الغزنوي وصالحه وقال له: «المصلحة للإسلام والمسلمين أن تشتغل أنت بغزو الهند وأشتغل أنا بغزو الترك وأن يترك بعضنا بعضا» فأجابه إلى ذلك وزال الخلاف واشتغل بغزو الكفار⁽²³¹⁾.

وفي سنة 408 هـ / 1017 م توفي طغان خان، وتولى بعده أخوه أبو المظفر أرسلان خان ولقبه شرف الدولة (أبو منصور الأصب)⁽²³²⁾. استمر مثل أخيه طغان خان على علاقة

(229) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 128. ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 222.

وانظر أيضًا فراي: المرجع السابق، ص 226.

(230) ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 143، 144.

وانظر أيضًا عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص 106.

(231) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 240. - Howorth, Loc. Cit, p 479.

(232) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 298.

ابن كثير: المصدر السابق، المجلد السادس، ج12، ص 7.

طبية مع السلطان محمود الغزنوي ، وقد ذكر العتبي أن السلطان محمود «استشعاراً للمواخاة وإيثاراً للاشتراك.... خطب السلطان إليه وإلى أخيه أيلك كريمة له على ولده الأمير الجليل أبي سعيد مسعود ابن يمين الدولة فأحسننا الإجابة» أي أن السلطان محمود أراد تدعيم العلاقة بين الخانيين والغزنويين برباط المصاهرة بأن يخاطب ابنه أرسلان خان على الأمير مسعود بن محمود، وقبول الطلب بالموافقة. وتردد السفراء بينهما بالهدايا، وتم عقد القران وأرسل السلطان من اختارهم من ثقاته لنقل العروس وتجهيز ما يلزم للرحلة، ونقلت إلى بلخ وصحبها فقهاء الدولة وأعيان رجالها من أئمة المشرق⁽²³³⁾. وقد زينت بلخ لاستقبال العروس، استقبلاً يليق بزوجة الأمير مسعود بن محمود وتم الزفاف في سنة 408هـ/ 1017م⁽²³⁴⁾.

وفي سنة 415هـ/ 1024م ذهب السلطان محمود إلى بلخ ليقضي الشتاء فيها و«كان يأتي طوال الوقت المتظلمون من علي تگين من بلاد ما وراء النهر، فقد ارتكب كثيراً من المظالم وجعل الناس في ألم وجور منه، وألحق الأذى بالرعية وأهل الصلاح، وحينما عم الظلم صمم محمود على أن يخلص المسلمين من هذا البلاء وهذه الآلام» وقد رغب في أن يعبر جيحون ويستطلع بلاد ما وراء النهر. مما يدل على أنه لم يذهب إلى هذه البلاد من قبل⁽²³⁵⁾.

وقال : «لو نعبر بالسفن فمن الممكن أن يتسرب الخلل إليها» ومكث في بلخ حتى اتخذ التدابير اللازمة للعبور، وأمر بصنع سلاسل غليظة تتكون من زوجين، كل واحد منها مقدار ذراع أو ثلاث أذرع، وأخذ هذه السلاسل كلها في جلد بقرة، وأحضروا السفن، وربطوا كل سفينة بالأخرى بهذه السلاسل المزدوجة، ثم ركبوها على قرائنها التي كانت في السفن، وأحضروا أليافاً قوية من سيستان إلى حد أن كل جمل كان يحمل ليقاً، وربطوا السفن بهذه الألياف أيضاً، وملاؤا تجاويف السفن بالحشو حتى يستطيع

(233) العتبي: المصدر السابق، ج2، ص 229 : 231.

(234) Howorth, Loc. Cit, p 841.

(235) الجرديزي: المصدر السابق، ص 301. الهروي: المصدر السابق، ج1، ص 32.

الفارس والمرتجل والجمال والبغل والحمار أن يعبر بسهولة عليها، وعبر الجيش فوق هذا الجسر وعبر السلطان محمود أيضاً⁽²³⁶⁾.

وعندما وصل خبر عبور السلطان محمود إلى بلاد ما وراء النهر، ارتجف أهل هذه البلاد وقدم بعض الأمراء فروض الطاعة والولاء للسلطان محمود ومنهم أمير صغانيان، وهو أول من جاء لخدمته مع كامل جيشه، ثم قدم خوارزم شاه ألتونشاه الحاجب بجيشه، وأمر السلطان بتعبئة الجيش ونظم الميمنة والميسرة والقلب والجناحين، وأمر أن تكون أماكن صناعة الأسلحة في خلف الجيش، وأوقف الفيلة بدروعها وسروجها في المقدمة، ثم أمر فقرعوا الطبول والأبواق والدبذبات دفعة واحدة، فأصموا الأذان من الأصوات.

وعندما علم قدر خان، خان التركستان العظيم بعبور السلطان محمود نهر جيحون رحل عن كاشغر ليلتقي بالسلطان محمود ويحدد له العهد، فقدم سمرقند ومن هناك ذهب إلى السلطان محمود، وعلم السلطان محمود بخبر حضور قدر خان واشتياقه لرؤيته، فحدد مكاناً يلتقيان فيه وقدم كل من السلطان محمود وقدر خان مع عدد من فرسانهم، وترجل كل منهما حينها رأى الآخر. والتقيا على طريق المحبة والصدقة، وسر السلطان لحضوره،

(236) الگردیزی: المصدر السابق، ص 301.

ويذكر ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 298، النويري: المصدر السابق، ج 26، ص 53. Howorth, Loc. Cit, p 482.

رواية أخرى وقعت أحداثها سنة 408 هـ / 1017 م وهي أن قدر خان استعان بالسلطان محمود على إرسال خان، فذهب السلطان إلى بلاد ما وراء النهر وأعانه على إرسال خان، ثم عاد السلطان إلى بلاده، فاصططح قدر خان وإرسال خان على قصد بلاد السلطان محمود واقتسامها، فهزمهما السلطان. نحن نشكك في هذه الرواية على أساس أنها لم ترد عند العتبي والگردیزی وقد ذكر الگردیزی في سنة 415 هـ / 1024 م «أن السلطان محمود رغب في عبور جيحون ليستطلع هذه البلاد، مما يدل على أنه لم يذهب إلى هذه البلاد من قبل.

وبعد عبور السلطان نهر جيحون حضر إليه قدر خان واحتفل السلطان محمود به وأقام له الولائم. فهل يتم ذلك إذا كان قدر خان تحالف مع إرسال خان لقصد بلاد السلطان محمود. إذن فرواية الگردیزی هي أصدق الروايات في هذا الشأن.

وقدم كل منهما إلى الآخر الهدايا وقدم السلطان من نفائس الهندوستان الجواهر القيمة والأفيال الضخمة، قدم قدر خان نفائس الجواهر للسلطان. ونظم السلطان احتفالاً كبيراً ومأدبة ضخمة تكريمًا لضيفه⁽²³⁷⁾.

ترتب على هذا الاجتماع اتفاق السلطان محمود وقدر خان على توحيد قواتهما لانتزاع ما وراء النهر من يد علي تگين وإعطائها لبغا تگين بن قدر خان على أن يتزوج بغا تگين من زينب كريمة محمود وأن يتزوج محمد بن محمود من كريمة قدر خان⁽²³⁸⁾.

وعندما علم علي تگين بعبور السلطان محمود إلى بلاد ما وراء النهر، هرب إلى الصحراء، وعلم السلطان أن إسرائيل بن سلجوق قد أخفاه، فاستطاع السلطان بالحيلة أن يقبض على إسرائيل بن سلجوق وأرسله إلى الهندوستان. وعلم السلطان أن بنات علي تگين وزوجته سوف يلحقن به في الصحراء فأرسل حاجبه بلكا تگين فتمكن من أسر زوجة وبنات علي تگين واستولى على خزائنه وأحضرهن للسلطان محمود سنة 416هـ/ 1025م⁽²³⁹⁾.

ورغم الانتصارات التي حققها السلطان محمود رجع السلطان إلى بلخ دون أن يتخذ الإجراءات التي تؤمن مصالح حلفائه. من الواضح أنه لم يكن في نيته القضاء على أحد الفرعين الرئيسيين للخانيين، حتى لا يصبح قدر خان الحاكم المطلق لكل تركستان ولا يجد السلطان سوي ترمذ وقواذيان وصغانيان وختل وهي الولايات المتاخمة لبلخ وكانت خاضعة له⁽²⁴⁰⁾.

(237) الغرديزي: المصدر السابق، ص 301: 305. الهروي: المصدر السابق، ج1، ص 32.

وانظر أيضًا: بارتولد: تركستان، ص 423، 424.

(238) البيهقي: المصدر السابق، ص 211. وانظر أيضًا: بارتولد: المرجع السابق، ص 425، 426.

عباس إقبال: المرجع السابق، ص 194، 199. Barthold, Op. Cit, p 95.

(239) الغرديزي: المصدر السابق، ص 306، الهروي: المصدر السابق، ج1، ص 32.

وانظر أيضًا بارتولد: تركستان، ص 426، عباس إقبال: المرجع السابق، ص 194.

فراي: المرجع السابق، ص 228.

(240) بارتولد: تركستان، ص 426.

ووضح ذلك من معاملة السلطان محمود لبغراخان (بغاتكين) عندما جاء إلى بلخ ليذهب منها إلى غزنة لإتمام زواجه من زينب كريمة السلطان محمود وليلطلب معاونة السلطان في الاستيلاء على بخارى وسمرقند من علي تكين ، فأجابه السلطان بأنه «ينبغي أن تعود وتعمل على جمع الكلمة فإننا قاصدون سومنات، فحين نفرغ من أمرها وتكون قد استوليت على خانية تركستان فإننا ندبر أمر ما نطلب».

وأدرك بغاتكين المغزى الحقيقي لهذه الإجابة، وغادر بلخ وفي نفسه شيء من الوحشة، ولم يتيسر بعد ذلك إرسال زينب بنت محمود الغزنوي، لوفاة السلطان محمود 421هـ / 1030م، واعتلى السلطان مسعود العرش، وتوفي قدر خان في العام التالي، وخلفه أرسلان خان على تركستان، فمنح أخاه بغراخان ولاية طراز وأسييجاب ونواحيها وكانت الصلة بينهما حسنة في الظاهر سيئة في الباطن⁽²⁴¹⁾.

وقد ذكر البيهقي أن الخانيين «عقدوا للأمير محمد على ابنة قدر خان... فلما قبض على الأمير محمد، ولم يتيسر الإتيان بتلك الفتاة تقرر الإقدام على عقد نكاح جديد عليها للسلطان مسعود»⁽²⁴²⁾.

أرسل السلطان مسعود رسولين هما أبو القاسم الحصري وهو من ندماء السلطان والقاضي أبو طاهر التباني⁽²⁴³⁾ في سفارة إلى أرسلان خان وبغراخان لتجديد العهد والميثاق، ولعقد قران السلطان مسعود على بنت قدر خان. ومكث الرسولان في تركستان ثلاثة أعوام، وعادا ظافرين ومعهما الخاتون بنت قدر خان، وخاتون أخرى هي بنت أرسلان خان، وكانت مخطوبة للأمير مودود، وقد ماتت في الطريق، ومات القاضي التباني في بروان على مقربة من غزنة وجاء أبو القاسم الحصري بالعروس إلى غزنة، واحتفل

(241) البيهقي: المصدر السابق، ص 571.

(242) البيهقي: المصدر السابق، ص 211.

(243) أبو طاهر التباني: كان من أعظم التبانين في الفضل والعلم والورع والخط الجميل والإنشاء الأنيق. تولى منصب قاضي قضاة نيسابور وطوس ونسا وتولى قاضي ختلان قبل ذلك. البيهقي: المصدر السابق، ص 212. وانظر أيضًا ثابتي: المرجع السابق، ص 137.

بزواج السلطان من عروسه،⁽²⁴⁴⁾ احتفالات لم ير الناس مثلها ، فقد أراد السلطان بذلك أن يرى الترك من المباهج ما لم يروه من قبل⁽²⁴⁵⁾.

وبعث بغراخان، حاجبه وأحد العلماء في سفارة إلى السلطان مسعود، طالبًا عقد قرانه على أخته زينب، وأرسل أرسلان خان يطلب عقد هذا الزواج. وعزم السلطان مسعود إرسال العروس ولكن بلغ إلى مسامع السلطان أن بغراخان تحدث حديثًا لا يليق في أمر الميراث المستحق لزينب من السلطان محمود ، «فغضب غضبًا شديدًا وأعاد الرسول بخفي حنين مع وعود معسولة وأجل لم يسم» وأرسل إلى أرسلان خان يشكو هذا الطمع. وعاتب أرسلان خان أخاه على ذلك، فغضب بغراخان وأصبح عدوا لأخيه وللسلطان مسعود ، وأغرى السلاجقة سرًا وقوى عزائمهم على مهاجمة خراسان. وعندما دخل السلاجقة خراسان وهزموا بكتغدي، أظهر بغراخان الشجاعة والفرح⁽²⁴⁶⁾.

أرسل السلطان مسعود أبا صادق التباني من أقارب أبي طاهر التباني رسولاً إلى أرسلان خان وبغراخان بحيث يستعين بأرسلان خان لمنع بغراخان من تدبير أي شيء ضد السلطان ، ووعد السلطان أبا صادق أنه إن نجح في سفارته سوف يعطيه قضاء نيسابور. فذهب أبو صادق في سفارته سنة 428هـ / 1037م وبذل جهدًا كبيرًا في هذه المهمة حتى قال عنه بغراخان «إنه يذكرنا بمناظرات وجدل أبي حنيفة» وقد أقروا جميعًا أنهم لم يروا مثله أحدًا في الصدق والأمانة. ونجح بعد مفاوضات طويلة في إبرام العهد مع أرسلان خان وبغراخان وأقنعهما بوجوب إثارة الود مع السلطان. وعاد إلى غزنة سنة 430هـ / 1039م⁽²⁴⁷⁾.

(244) البيهقي: المصدر السابق، ص 572، 571، 572.

(245) بارتولد: تركستان، ص 438.

(246) البيهقي: المصدر السابق، ص 572.

(247) البيهقي: المصدر السابق، ص 573، 574.

وهكذا فقد حرص السلطان مسعود على علاقة الود مع أرسلان خان وبغراخان حتى ينعم كلا الطرفين بالهدوء وحتى لا يجمع السلطان مسعود بين عداوة الخانيين. والسلاجقة في وقت واحد.

أما علاقة علي تگين بالسلطان مسعود، فترجع إلى وفاة السلطان محمود، فقد بعث مسعود إلى علي تگين يطلب منه العون على أخيه محمد، ووعده في مقابل ذلك بأن يتنازل له عن الختل⁽²⁴⁸⁾ إلا أنه عندما حلت مشكلة وراثة العرش لصالحه دون إراقة دماء، بسبب خيانة أنصار محمد، لم يجد مسعود ما يحمله على البر بوعده، مما أثار عليه حنق علي تگين⁽²⁴⁹⁾.

وقد ذكر البيهقي أن علي تگين لن يهدأ له بال وهو يطلق لسانه، ويعد الجيوش لأن «السلطان كان قد أمّله قبل استقرار الأمر له، إذا أمده بالجيوش مع أحد أولاده، بأن ينعم عليه بالإمارة. فلما استقامت له الأمور بغير حرب أو كرب، واستقر له الملك، وأصبح لا منازع له في الدولة، فكر في أن ينتهز الفرصة ويبادر بالعدوان»⁽²⁵⁰⁾.

وقال السلطان مسعود: «إن علي تگين خصم لدود، وإنه ليطمع في المُحال، والأصلح أن نستأصل شأفته من بلاد ما وراء النهر» وأراد السلطان مسعود مساعدة بغاتگين في الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وإتمام زواجه من أخته زينب وفكر السلطان في حل آخر وهو أن يرسل إلى خوارزمشاه التوتناش وأن يتوجه إلى ما وراء النهر بجيش قوي.

وعرض السلطان الأمر على مستشاريه، وقد وافقوا على الحل الثاني⁽²⁵¹⁾.

وأرسل السلطان مسعود إلى خوارزم شاه أميرك البيهقي صاحب بريد بلخ، وعبدوس كتخدا العسكر، برسالة لمهاجمة علي تگين والقضاء عليه. وأعد خوارزمشاه

(248) الختل: كورة واسعة كثيرة المدن في بلاد ما وراء النهر. ياقوت: المصدر السابق، ج3، ص 215.

(249) بارتولد: تركستان، ص 438، 439. عباس إقبال: المرجع السابق، ص 194.

- Barthold, Op. Cit., p 96.

(250) البيهقي: المصدر السابق، ص 357.

(251) البيهقي: المصدر السابق، ص 358. وانظر أيضًا: بارتولد: تركستان، ص 439.

العدة لتنفيذ أوامر السلطان، ووصل خوارزمشاه إلى حدود بلخ وأرسل السلطان مسعود إليه خمسة عشر ألفاً بقيادة بكتكين چوكاني وبيري قائد الإسطبلات المسعودية وأمرهم السلطان بأن يؤدوا واجبهم خير أداء، وأن يأتمروا بأمر خوارزمشاه التونتاش ولا يخالفوه.

وعبر خوارزمشاه نهر جيحون، وتوجه إلى بخارى، فوجد علي تگين قد سلم المدينة إلى غزاة ما وراء النهر وحمل معه الخزانة إلى دبوسي⁽²⁵²⁾ ليحارب عندها. وأمر مائة وخمسين غلاماً بأن يحموا قلاعهم، وعندما علم خوارزمشاه أرسل عشرة من السرهنكية إلى بخارى ليتأكدوا من الخبر، وقام بتعبئة الجيش ووصل إلى بخارى وهربت جنود علي تگين، وقدم غزاة ما وراء النهر وأهل بخارى الطاعة⁽²⁵³⁾.

توجه التونتاش إلى سمرقند ووصل إلى دبوسي، وقام بتعبئة الجيش ووقف خوارزمشاه في القلب وعين في الجناح مما يلي القلب أقوى رجال الجيش حتى يستطيع أن يمد الميمنة أو الميسرة بالإمداد عند الحاجة.

وأمر بكتكين الجوكاني وبيري ليكونا على الميمنة، وجعل قائده تاش ماهروي على الميسرة. وأمر بخمسة من القادة العظماء مع المبارزين أن يشطروا نصفين كل من يفر من المعركة.

زحف خوارزمشاه مع جند القلب نحو علي تگين ولحق به بكتكين وبيري، واقتحم علي تگين الميدان مع قلب جيشه وميسرته، وتقدم خوارزمشاه الصفوف، فلما أبصر الجيشان شارته التحما، وقتل كثير من الجانبين، وثبت الجيشان لهذه الحرب التي لا هوادة فيها حتى المساء، وأصيب خوارزمشاه بسهم في نفس الجزء من قدمه اليسرى التي كان قد أصابه بها حجر من حصن في الهند⁽²⁵⁴⁾ واستدعى خوارزمشاه أمراء الجيش وأخبرهم بجرحه، وبعد المشورة أرسل الأمراء إلى علي تگين لحثه على الصلح، ولما كان قد قتل

(252) دبوسية: بليد من أعمال الصغد من ما وراء النهر. ياقوت: المصدر السابق، ج4، ص 287.

(253) البيهقي: المصدر السابق، ص 358، 362، 363. ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 161، 162. - Howorth, Loc. Cit, p 485.

(254) البيهقي: المصدر السابق، ص 367، 368. ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 162.

وانظر أيضاً: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 194.

وجرح كثير من جيشه، انتهى الأمراء بأن يعود الجيشان كل إلى وطنه في نفس الليلة، وتوفي ألتونتاش في اليوم التالي⁽²⁵⁵⁾.

وهكذا فشل أي من الجيشين في تحقيق النصر على الآخر وانتهت المعركة بالصلح وأن يعود كل جيش إلى وطنه وكانت تلك المعركة سنة 423 هـ / 1032 م.

وفي عام 425 هـ / 1034 م أرسل علي تگين رسولا يدعى البتگين ويصحبه خطيب بخارى عبد الله الفارسي إلى السلطان مسعود، وأحسن استقبالهما وقدم الرسولان إلى السلطان مسعود «فقال لهما السلطان : كيف تركتما أخانا أيلك خان؟ قالوا : لقد تركناه ببركة حياة السلطان الأعظم محاطاً بكل متعة وراحة ، وما دامت رعاية الجانب العالي في ازدياد فإنه يزداد يوماً بعد يوم عزاً...» ، ولقد أرسلنا لتقوية أواصر الألفة والمودة» وسلمنا الرسالة للسلطان.

وجاء في رسالة علي تگين : «إننا لا ندرى كيف نعتذر عما صدر منا من السهو، مع تلك الرعاية التي أفاضها السلطان علينا، وإذ بلغت صلتنا بالسلطان إلى هذا الحد من الألفة والصداقة، فإن لنا مقاصد ثلاثة.... أولها أن يرفع السلطان قدرنا بتزويج أحدنا إحدى كريمات الأسرة. والثاني أن يكرمنا بتزويج أحد أبنائه من إحدى بناتنا، والثالث أن تتوثق بيننا وبين أرسلان خان صاحب تركستان وأميرها العهود والمواثيق بواسطة السلطان، ليثبت لديه أن لا خلاف بيننا وأن البيوت قد أصبحت بيتاً واحداً، فتقطع بذلك كل أسباب الخصام والعداء».

ووافق السلطان مسعود على المقاصد الثلاثة، وتقرر أن تخطب إحدى أخوات أيلك للأمير سعيد نجل السلطان، وأن تزف إحدى بنات الأمير نصر قائد الجيش إلى أيلك... وعاد الرسولان ظافرين بالأمان⁽²⁵⁶⁾.

وصفوة القول أن علي تگين أراد تدعيم أواصر الصداقة والألفة بالمصاهرة بين الطرفين بالإضافة إلى العهود والمواثيق مع أرسلان خان خان التركستان، وقد وافق السلطان مسعود على هذه المقاصد حتى يعم السلام وينتشر الأمن وحتى يتفرغ لنشر

(255) ميرخوند: المصدر السابق والمجلد، ص 162. وانظر أيضاً: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 194.

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص 108.

(256) البيهقي: المصدر السابق، ص 548 : 551.

الإسلام في الهند، وأيضًا لأن علي تگين كان يمتلك عددًا كبيرًا من الجند من الممكن أن يثيروا قلقًا وفتنًا، وقد رأينا كيف دخل معركة كبيرة مع خوارزمشاه ولم يحقق خوارزمشاه انتصارًا عليه وانتهت بالصلح بين الطرفين.

وتوفي علي تگين عام 425هـ/ 1034م وأرسل السلطان مسعود كتب التعزية في علي تگين والتهنئة لابن علي تگين في بخارى وخاطب ابن علي تگين «بالأمير الفاضل الولد» لكن هذه الرسالة لم تؤثر في ابن علي تگين واغتنم فرصة موت أبيه وبعد السلطان عن خراسان واضطراب الأحوال فيها لتحقيق أغراضه. فتحالف ابن علي تگين مع هارون ابن التونتاش⁽²⁵⁷⁾ على أن يغير هارون على مرو، ويغير أبناء علي تگين على صغانيان. وترمذ، فاجتاح أبناء علي تگين صغانيان وفشلوا في الاستيلاء على قلعة ترمذ، وقتل هارون بن التونتاش. فرجع أبناء علي تگين⁽²⁵⁸⁾.

وتجهز السلطان مسعود للثأر من ابن علي تگين لغزو أراضيه، غير أنه وصل رسول من قبل ابن علي تگين لتقديم الاعتذار باسم أميرهم، وقد قبل الاعتذار، ولكن السلطان مسعود أبي أن يقابل الرسول علامة على سخطة⁽²⁵⁹⁾.

وهكذا فقد تذبذبت العلاقة بين الغزنويين والخانيين بين الود والصداقة والمصاهرة لتدعيم أواصر الصداقة ومعاملة الند للند كما رأينا في استقبال محمود الغزنوي لقدر خان، وأيضًا في سؤال مسعود عن أحوال علي تگين، وبين الفساد والحروب بين الطرفين.

وقد قال السلطان محمود: «إن الترك يتقربون منا بحكم الضرورة وإنهم كلما أوتوا القوة لا يبقون علينا ولا يجاملون»⁽²⁶⁰⁾.

(257) سبب عصيان هارون بن التونتاش أن السلطان مسعود حد من سلطاته، فقد منح لقب خوارزم شاه لسعيد ابنه هو وقرر أن يحكم خوارزم هارون بن التونتاش بالإنيابة عن الأمير، كما أن الخلة التي تسلمها هارون من السلطان كانت نصف خلعة أبيه. وقتل السلطان مسعود أخاه. بارتولد: تركستان، ص 441.

(258) البيهقي: المصدر السابق، ص 497: 499.

وانظر أيضًا: عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص 108، 109.

(259) بارتولد: تركستان، ص 443. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: المرجع السابق، ص 109.

(260) البيهقي: المصدر السابق، ص 573.

وقد نشبت حروب كثيرة بين الطرفين لكنها لم تحقق شيئاً ولم تأتِ بنتيجة حاسمة. وكانت أغلب هذه الحروب بهدف التوسع لدى كل طرف على حساب الآخر.

2. علاقة الخانيين بالسلاجقة:

اضطر السلاجقة بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم إلى الهجرة من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر حوالي سنة 375 هـ / 985 م وكانت منازلهم في الشتاء في نور بخارى وفي الصيف في سغد سمرقند⁽²⁶¹⁾. وقد ذكر الراوندي أن «جيوشهم كثيرة وجنودهم وفيرة وعددهم خارج عن الحصر والعد»⁽²⁶²⁾. وذكر الأصفهاني أنهم «ما زالوا في أنضر شيعة وأنضر عيشة، والسلاطين يرعونهم للملمات، ولا يروعونهم، ويدعونهم للمهمات»⁽²⁶³⁾. شارك السلاجقة في الصراع بين الخانيين والسامانيين حول السيادة على ما وراء النهر، وانضموا إلى جانب السامانيين، وساعدوا المنتصر في حربه ضد أيلك خان. وتمكن سلجوق بن دقاق خلال هذا الصراع من الاستيلاء على منطقة واسعة من أخصب بقاع بلاد ما وراء النهر وصار أحد أمراء بلاد ما وراء النهر المستقلين⁽²⁶⁴⁾.

وعندما هرب علي تگين من حبس أرسلان خان، واستولى على بخارى، تحالف مع أرسلان بن سلجوق، فقصدهما أيلك أخو أرسلان خان فهزمه وبقيا في بخارى⁽²⁶⁵⁾ وعندما قام السلطان محمود الغزنوي بحملة على بلاد ما وراء النهر ضد علي تگين سنة 416 هـ / 1025 م ساعد أرسلان بن سلجوق، علي تگين على الاختفاء. وقام السلطان محمود بالقبض على أرسلان خان بالحيلة وأرسله إلى الهند⁽²⁶⁶⁾.

(261) الراوندي: المصدر السابق، ص 145. وانظر أيضاً: عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص 152، 153.

(262) الراوندي: المصدر السابق، ص 147.

(263) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 7.

(264) عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص 152.

فامبري: المرجع السابق، ص 128، 129.

(265) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 475.

(266) الكرديزي: المصدر السابق، ص 306.

وحاول علي تگين أن يفرق بين السلاجقة، ويضرب بعضهم ببعض، فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق، وهو ابن عم طغرل بك محمد، وجغرى بك داود، ووعدته بالإحسان إليه، وطلب منه الحضور، وفوض إليه رئاسة جميع الأتراك في ولايته وأقطعه العديد من الإقطاعات ولقبه بالأمير اينانج بيغو. وأراد علي تگين أن يستعين به وبعشيرته على طغرل بك وداود ابني عمه، فلم يطعه يوسف، فأمر علي تگين بقتله، فقتله أحد أمراء علي تگين ويدعى ألب قرا. فقام طغرل بك وأخوه داود بالشار ومحاربة علي تگين والانتصار عليه⁽²⁶⁷⁾.

وفي سنة 421هـ / 1030م قصد طغرل بك وداود، ألب قرا الذي قتل يوسف، فقتلاه وقتلا نحو ألف من جنود علي تگين، فقام علي تگين بمحاربتهم، وهزمها وقتل كثيرًا من جنود السلاجقة وأخذ أموالهم وأولادهم وسبى كثيرًا من نسائهم⁽²⁶⁸⁾. ثم بدأت العلاقة تعود إلى سابق عهدها، وبدأ علي تگين يعاملهم بود وصداقة، فلما توفي علي تگين سنة 425هـ / 1034م هاجم ابنه وقائد جيشه قونش السلاجقة، وطردهم مما وراء النهر⁽²⁶⁹⁾.

أراد السلاجقة توطيد العلاقة مع الخانيين فتزوج السلطان ألب أرسلان⁽²⁷⁰⁾ من ابنة قدر خان، وكانت قبله عند مسعود بن محمود الغزنوي، وتزوج شمس الملك نصر بن إبراهيم من ابنة ألب أرسلان، وزوج بنت عمه عيسى خان من ملكشاه، وهي خاتون الجلالية، أم الملك محمود الذي ولي السلطنة بعد أبيه⁽²⁷¹⁾.

(267) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 476.

وانظر أيضًا: فاميري: المرجع السابق، والمجلد ص 130، 131.

(268) ابن الأثير: المصدر السابق، ص 477.

(269) البيهقي: المصدر السابق، ص 503. وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 195.

(270) ألب أرسلان: هو السلطان عضد الدولة ألب أرسلان، أبو شجاع محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، حكم من 455: 465هـ / 1063: 1073م.

الراوندي: المصدر السابق، ص 143. التويري: المصدر السابق، ج 26، ص 303.

- Howorth, Loc. Cit, P489

(271) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 301.

وقد ذكر الراوندي أن «تركان خاتون بنت طمغاج خان زوجة السلطان ملكشاه»⁽²⁷²⁾ والحقيقة أن زوجة ملكشاه هي ابنة طمغاج خان إبراهيم، أي أنها أخت شمس الملك، ويدل على ذلك ما ذكره كثير من المؤرخين من أنها عمه أحمد خان بن خضر خان بن طمغاج خان⁽²⁷³⁾ وبهذا ارتبطت الأسرة السلجوقية بالأسرة الخانية برباط النسب.

وفي سنة 457 هـ / 1065 م قام ألب أرسلان بحملة على بلاد ما وراء النهر ووصل إلى جند قرب بخارى وأطاعه أميرها⁽²⁷⁴⁾. من المحتمل أنه قام بهذه الحملة لوجود خلاف بينه وبين طمغاج خان إبراهيم ولم توضح المصادر سبب هذا الخلاف.

وفي سنة 465 هـ / 1073 م خرج شمس الملك على طاعة السلاجقة، فخرج ألب أرسلان في مائتي ألف جندي لتأديب شمس الملك. وقتل ألب أرسلان على يد أحد المتمردين⁽²⁷⁵⁾.

وفي سنة 482 هـ / 1089 م كاتب الرعية السلطان ملكشاه واستغاثوا به، أن يقدم عليهم ليخلصهم من أحمد خان ابن خضر خان، لأنه كان حاكماً سيئ السيرة، وقبيح الصورة والفعل وكثير المصادرات⁽²⁷⁶⁾.

(272) الراوندي: المصدر السابق، ص 207. وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 245. فاميري: المرجع السابق، ص 137.

(273) النويري: المصدر السابق، ج 26، ص 56. ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الخامس، ص 20. وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 253.

(774) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد العاشر، ص 49. وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 245.

(275) الراوندي: المصدر السابق، ص 190، 191. وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 248.

- Howorth, Loc. Cit, pp 489, 490.

(276) النويري: المصدر السابق، ج 26، ص 56، 327. ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الخامس، ص 20. وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 252. محمد عبد العظيم أبو النصر: المرجع السابق، ص 93.

وأعد السلطان ملكشاه العدة وعبر نهر جيحون واستولى على بخارى وما جاورها ثم سمرقند وقبض على أحمد خان وأرسله إلى أصفهان، وعين على سمرقند الأمير أبا طاهر عميد خوارزم، وثار الأهالي ضده فهرب إلى خوارزم وكاتب مقدم الجكلية عز الدولة يعقوب تگين أخا ملك كاشغر ليتولى الأمر. فعاد السلطان ملكشاه، ووصل إلى بخارى فهرب يعقوب وعين السلطان الأمير أتمز، لكن الأمور لم تستقر معه فأعاد السلطان أحمد خان سنة 485هـ / 1092م وأقيمت الخطبة لملكشاه وضربت السكة باسمه⁽²⁷⁷⁾.

لم تعرف الأسباب التي أدت بملكشاه أن يعيد أحمد خان إلى الحكم مرة ثانية. وفي سنة 490هـ / 1097م خضعت بلاد ما وراء النهر لبركياروق بن ملكشاه، وأصبح في يده تعيين حكام بلاد ما وراء النهر فعين سليمان تگين ثم محمود تگين ثم هارون تگين⁽²⁷⁸⁾. وقد اعترفوا بسلطنة بركياروق.

وفي سنة 495هـ / 1102م أراد قدر خان جبريل أن يستولي على خراسان، فتصدى له سنجر، وفي أثناء خروجه للصيد طلب سنجر من قائده يرغش أن يقوم بأسر قدر خان، فأسره وأحضره إلى سنجر الذي قام بضرب عنقه⁽²⁷⁹⁾.

وفي سنة 497هـ / 1102م عين السلطان سنجر، ابن اخته، محمد تگين، ولقب أرسلان خان، وصارت ما وراء النهر تحت طاعة سنجر المباشرة، وقد أمد سنجر أرسلان خان أكثر من مرة للقضاء على معارضييه.

وظل أرسلان خان يحكم بلاد ما وراء النهر بسلام نحو سبعة وعشرين عامًا وكان سنجر هادئ البال من هذه الناحية إلا في عام 507هـ / 1113م عندما علم أن أرسلان

(277) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 57، 58. ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 301.

التويري: المصدر السابق، ج 26، ص 327، 328. ابن خلدون: المصدر السابق، المجلد الخامس، ص 20، 21. القلقشندي: المصدر السابق، ج 4، ص 447. وانظر أيضًا: حافظ أحمد حمدي: المرجع السابق، ص 33.

(278) بارتولد: تركستان، ص 467.

(279) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 241. وانظر أيضًا: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 277.

خان يظلم رعيته، وقد عصاه، فذهب سنجر بالجيش، فاعتذر أرسلان خان وقبل الأرض بين يديه فعفا عنه سنجر وأعادته إلى إمارته، وظل يحكم حتى عام 524 هـ / 1130 م⁽²⁸⁰⁾.

وعين السلطان سنجر، أبا المعالي حسين تگين بن عبد المؤمن بن علي حفيد علي تگين، ثم عين محمود خان ابن أرسلان خان، خانا أكبر على بلاد ما وراء النهر سنة 526 : 536 هـ / 1131 : 1141 م⁽²⁸¹⁾.

وطوال تلك الفترة حوالي 46 عامًا كان سلاطين السلاجقة يعينون حكام بلاد ما وراء النهر وتقام الخطبة وتسك العملة لهم. وقد اعترف الخانيون في بخارى وبلاد ما وراء النهر بسيادة السلاجقة عليهم طوال تلك الفترة⁽²⁸²⁾.

وفي سنة 536 هـ / 1141 م حدثت معركة قطوان⁽²⁸³⁾ بين السلطان سنجر وكورخان القراخطاي، وترجع أسباب هذه المعركة إلى:

1- أن السلطان سنجر قتل ابنًا لخوارزمشاه أئمز بن محمد، فبعث خوارزمشاه إلى الخطا وهم بما وراء النهر يطعمهم في البلاد، ويحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر.

2- أن اشتكى محمود خان بن محمد خان من الجنود القاراغلية، فقصد السلطان سنجر فلجأوا إلى كورخان، فكتب كورخان كتابًا إلى السلطان سنجر يطلب العفو عن الأتراك القاراغلية. فلم يقبل السلطان شفاعته. وكتب يدعو إلى الإسلام ويتهدده إن لم يجيب إليه⁽²⁸⁴⁾.

3- أن بعض فرسان قرلق هزموا ونكبوا عدة مرات، فخافوا عقاب السلطان سنجر. فأرسلوا شخصًا منهم يستدعي الخطا⁽²⁸⁵⁾.

(280) بارتولد: تركستان، ص 467. عباس إقبال: المرجع السابق، ص 277، 278.

(281) بوزورث: المرجع السابق، ص 162، ستانلي لين بول: المرجع السابق، ص 282.

- Howorth, Loc. Cit, p 496.

(282) فامبري: المرجع السابق، ص 142، فراي: المرجع السابق، ص 246.

(283) قطوان: قرية من قرى سمرقند على خمسة فراسخ منها. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج7، ص71.

(284) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد الحادي عشر، ص 81، 85.

(285) الراوندي: المصدر السابق، ص 261.

4- أن انتشرت في سمرقند خيول ومواشي القرلق وأراد القرلق الدخول في خدمة السلطان وحمايته فأرسلوا إلى السلطان سنجر خمسة آلاف جمل وخمسة آلاف فرس وخمسين ألف رأس من الغنم، فلم يقبل هذا منهم. فدخلوا بلاد الترك قاصدين كورخان صاحب الخطا⁽²⁸⁶⁾.

واستعد كورخان للحرب وعنده جنود الترك والصين والخطا، وسار في ثلاثمائة ألف فارس، وقصد السلطان سنجر والتقى الطرفان في قطوان واقتتلوا أشد قتال، وانهمز سنجر وقتل من جيشه ثلاثون ألف قتيل منهم الحسام عمر بن عبد العزيز ابن مازة البخاري الفقيه الحنفي. وأسرت زوجة السلطان سنجر وتوجه السلطان إلى ترمذ⁽²⁸⁷⁾.

وبهذه الهزيمة انتهت شهرة سنجر العسكرية وضاع معها كل نفوذ السلاجقة ببلاد ما وراء النهر.

3- علاقة الخانيين بالخطا :

استولى الخطا على بلاد ما وراء النهر وسمرقند بعد معركة قطوان ، فكان أمراء هذه الناحية وسلاطينهم يدفعون إلى الكورخان الخراج بانتظام، وكانوا يحكمون تحت تبعيتهم بلقب السلطان والأمير، وكان السلطان الحقيقي في بخارى في يد أسرة من العلماء أطلق عليها اسم صدر جهان، وتعاونوا تعاوتًا وثيقًا مع الخطا⁽²⁸⁸⁾.

واستقرت دولة الخطا بما وراء النهر وبقي كورخان حتى سنة 537هـ/ 1142م وكانت له هبة عظيمة ولم يسلط أميرًا على إقطاع، بل كان يعطيهم من عنده ويقول: متى أخذ الإقطاع ظلّموا. وكان لا يقدم أميرًا على أكثر من مائة فارس ، حتى لا يقدر على

(286) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 253.

(287) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 253، 254. الراوندي: المصدر السابق، ص 262.

ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد الحادي عشر، ص 81، 85، 86.

القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص 447. وانظر أيضًا: فامبري: المرجع السابق، ص 143،

144.

- Howorth, Loc. Cit, pp 497, 498.

(288) عباس إقبال: المرجع السابق، ص 334.

العصيان عليه ، وكان ينهى أصحابه عن الظلم، وينهى عن السكر ويعاقب عليه، ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه.

وقد ذكر العماد الأصفهاني أن الكورخان عندما استولى على بلاد ما وراء النهر «حصل المسلمون معه تحت القهر»⁽²⁸⁹⁾ لأن عادات المسلمين وتقاليدهم تختلف عن عادات الوثنيين وتقاليدهم، وبالتالي فقد وقع قهر كبير على المسلمين.

وبعد وفاة الكورخان تولت ابنته فلم تطل مدتها وتوفيت، فتولت أمها زوجة كورخان وابنة عمه، وبقي ما وراء النهر بيد الخطأ إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزمشاه سنة 606هـ / 1209م⁽²⁹⁰⁾.

ولم يتفق كل من زامباور وبوزورث وستانلي لين بول وهوارث على أسماء الحكام الذين تولوا الحكم تحت حكم الخطأ سواء في بخارى أو في بلاد ما وراء النهر عامة.

وقد اتفق كل من بوزورث وستانلي لين بول وهوارث على اثنين من حكام بخارى؛ الأول ركن الدين قلعج إبراهيم تغاج خان بن محمد أرسلان خان (ت 551هـ / 1156م). والثاني جلال الدين علي غور خان بن حسن تگين (ت 556هـ / 1161م)⁽²⁹¹⁾.

سقوط بخارى في أيدي الخوارزميين :

بعث أهل بلاد ما وراء النهر بوفد من أهلها عام 553هـ / 1158م إلى أيل أرسلان⁽²⁹²⁾. أمير خوارزم تستنجد به من مظالم أمير سمرقند، وأسرع أيل أرسلان إلى هناك في قوة كبيرة، وفتحت له بخارى أبوابها سلمًا ، إلا أنه لم يستطع أن يواجه الجيش الذي حشد له بظاهر سمرقند. فعاد إلى بلاده دون أن يحقق شيئًا مما خرج له⁽²⁹³⁾.

(289) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 254.

(290) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد الحادي عشر، ص 86.

(291) بوزورث: المرجع السابق، ص 162. ستانلي لين بول: المرجع السابق، ص 282.

- Howorth, Loc. Cit, p 499.

واتفق زامباور: المرجع السابق، ص 313 على الحاكم الأول فقط ولم يتفق على اسم الحاكم الثاني.

(292) أيل أرسلان: ابن أئسر، تولى حكم خوارزم 551: 558هـ / 1156: 1163م.

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، ص 160.

(293) فامبري: المرجع السابق، ص 149.

وفي سنة 594هـ / 1198م حاصر كورخان الخطا خوارزم، وقتل خوارزمشاه تكش⁽²⁹⁴⁾ منهم خلقًا كثيرًا، ورفع الحصار ورجع جيش الخطا، ورحل تكش في إثرهم، وقصد مدينة بخارى، فقاتله أهلها مع الخطا، ثم استولى تكش عليها عنوة وعفا عن أهلها وأحسن إليهم وفرق فيهم ما لا كثيرًا، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى خوارزم⁽²⁹⁵⁾.

وأخذ أهل ما وراء النهر يشكون إلى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه⁽²⁹⁶⁾ ما حل بهم من ظلم وجور، وكان السلطان نفسه في ضيق شديد لأدائه الخراج السنوي للخطا، فعزم الاستيلاء على ما وراء النهر⁽²⁹⁷⁾.

وقد ذكر ابن الأثير: «أن الخطا كانوا قد طالت أيامهم ببلاد تركستان وما وراء النهر، وثقلت وطأتهم على أهلها ولهم في كل مدينة نائب يجبي إليهم الأموال»⁽²⁹⁸⁾.

ضجر وأنف خان سمرقند وبخارى من تحكم الكفار في المسلمين فأرسل إلى خوارزمشاه يقول: «إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الأموال، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة».

فأجاب خوارزمشاه: «أخاف أنكم لا تفون لي» فأرسل خان سمرقند وبخارى وجوه أهل بخارى وسمرقند، بعد أن حلفوا للخان على الوفاء بما وعد وأعطوا خوارزمشاه رهائن⁽²⁹⁹⁾.

(294) تكش: ابن أيل أرسلان، استولى على خوارزم من أخيه سلطان شاه، توفي سنة 596هـ / 1200م.

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: المرجع السابق، ص 161.

(295) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد الثاني عشر، ص 137، 138.

التويري: المصدر السابق، ج 27، ص 204.

(296) علاء الدين محمد خوارزمشاه: تولى حكم الدولة الخوارزمية 596: 617هـ / 1200: 1221م.

عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: المرجع السابق، ص 162.

(297) عباس إقبال: المرجع السابق، ص 334، 335.

(298) ابن الأثير: المصدر السابق، المجلد الثاني عشر، ص 259.

(299) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 259، 260.

وقد ذكر عطا ملك الجويني السبب الذي دعا عثمان خان لمخاطبة خوارزمشاه فقال: «كان لكورخان ابنة صبيحة تشبه القمر في طلعته، فعشق سلطان السلاطين جمالها... فخطبها سلطان السلاطين، لكن كورخان لم يعجباً بطلبه بسبب تباين المقامين... فتأثر السلطان عثمان وتألم. وزاد في ذلك فظاظة الجباه والشحنة والكورخانين»⁽³⁰⁰⁾.

استقبل أهل بخارى خوارزمشاه باحترام بالغ، وعندما وصل إلى سمرقند، قدم خاقانها نصره الدين عثمان خان إلى خدمة خوارزمشاه. وتوجه خوارزمشاه لمحاربة الخطا سنة 606 هـ / 1209 م فعبّر نهر سيحون، وهزم الخطا هزيمة منكرة، وقتل وأسر الكثير منهم ووقع طابئكه قائد الجيش أسيراً.

واستولى خوارزمشاه على بلاد ما وراء النهر مدينة مدينة، وعين نوابه على كل المدن، وعاد إلى خوارزم ومعه خان بخارى وسمرقند وزوجه ابنته، وردّه إلى سمرقند، وصحبته فرقة من الجنود الخوارزميين⁽³⁰¹⁾.

وبعد عودة عثمان خان إلى سمرقند بعام، تألم لظلم الجنود الخوارزميين وجورهم واعتدائهم على الرعية، فأخذ يسيء إلى بنت خوارزمشاه. وندم على مفارقة الخطا، وأرسل إلى كورخان الخطا ليسلمه سمرقند، ويعود إلى طاعته. وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية، وأراد قتل بنت خوارزمشاه، فأغلقت أبواب القلعة عليها⁽³⁰²⁾.

ووصل إلى خوارزمشاه رسول من ابنته يعلمه نشوء الخلاف مع السلطان عثمان، وشروع الصداقة مع كورخان، ووضعها في مقام الاستهزاء في مجلس الأنس، وزواجه من ابنة كورخان. وعلم أيضاً أن السلطان عثمان قتل مرافقي الأميرة⁽³⁰³⁾.

(300) عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاي (فاتح العالم)، ترجمة محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، ط الأولى، 1985م، ج2، ص 31، 32.

(301) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 267. وانظر أيضاً: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 335. فاميري: المرجع السابق، ص 153، 154.

(302) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 268. وانظر أيضاً: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 336. Howorth, Loc. Cit, p 501.

(303) عطا ملك الجويني: المصدر السابق، ص 33.

وذكر ابن الأثير أن خوارزمشاه عندما علم بهذه الأخبار «قامت قيامته»⁽³⁰⁴⁾ وأمر أن يسجنوا أخاه أوتكين في خوارزم، وقد كان يرعاه وعينه على بعض الأقاليم، وذهب بقواته إلى بلاد ما وراء النهر واستولى على سمرقند، وأباح لرجاله نهب وقتل أهل سمرقند، واستمر النهب والقتل ثلاثة أيام وقتل ما يقرب من عشرة آلاف مسلم، فحمل الصالحون والأئمة والعلماء المصاحف فوق أيديهم وقدموا إليه يتشفعون، فأوقف القتل⁽³⁰⁵⁾.

وقبض على عثمان خان وقتله صبرا، وقتل معه جماعة من أقاربه، «ولم يترك أحداً ممن ينسب إلى الخانية» وعين نوابه على جميع المدن «ولم يبقَ لأحد معه في البلاد حكم»⁽³⁰⁶⁾.

وصفوة القول أن خوارزمشاه قدم خدمات جليلة لأهل بلاد ما وراء النهر بانتصاره على الخطا وطردهم من بلاد ما وراء النهر. لكن جنوده أساءوا إلى الرعية وقابل عثمان خان هذه الإساءة بإساءة أكبر بأن استدعى الخطا، وقتل الخوارزميين وأراد قتل ابنة خوارزمشاه، فما كان من خوارزمشاه إلا أن انتقم من عثمان خان وقتله جوعاً وعطشاً. لكن يؤخذ على خوارزمشاه إباحته قتل أهل سمرقند وقتل منهم عشرة آلاف بدون ذنب. وهكذا تخلص خوارزمشاه من كل من ينسب إلى الدولة الخانية وسقطت الدولة الخانية سنة 607هـ / 1210م.

النتائج:

أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

- 1- الاسم الصحيح لهذه الدولة هو الدولة الخانية وهو الاسم الذي أطلق عليها في المصادر التاريخية المعاصرة.
- 2- انحدرت هذه الدولة من قبائل القارلوق إحدى قبائل الأويغور، وانضمت إلى هذه القبيلة قبائل أخرى مثل الجيكل والياغما والباسمل فيما يشبه الاتحاد تحت زعامة القارلوق.

(304) ابن الأثير: المصدر السابق، والمجلد، ص 268.

(305) عطا ملك الجويني: المصدر السابق، ص 33.

(306) ابن الأثير: المصدر السابق والمجلد، ص 268. عطا ملك الجويني: المصدر السابق، ص 33.

وانظر أيضاً: عباس إقبال: المرجع السابق، ص 336، 501، Howorth, Loc. Cit.

3- انتشر الإسلام في هذه الدولة نتيجة لعدة عوامل منها نشاط الأتراك الغربيين في الدعوة إلى الإسلام ونتيجة لحمولات السامانيين على بلاد الترك ونتيجة لهجرة كثير من سكان ما وراء النهر إلى بلاد الترك ، وللعلاقات التجارية الوثيقة التي ربطت بلاد ما وراء النهر ببلاد الأتراك الشرقيين ، وكان لاعتناق الخانيين الإسلام أثر على انتشار الإسلام بين الأتراك الشرقيين.

4- ساهمت كثير من العوامل في استيلاء الخانيين على بخارى منها ضعف الأمراء السامانيين الأواخر وخيانة أبي علي وفائق للأمير الساماني، ودعوة دهاقين ما وراء النهر لبغراخان، وتزيين الوثاقي لبغراخان الاستيلاء على ما وراء النهر وتدهور الأحوال المالية للسامانيين ، بالإضافة لموقف الفقهاء المسلمين من غزو الخان لبخارى.

5- اتخذ الخانيين أوزكند - إحدى المدن الواقعة شرق فرغانة - مقرًا لخان بلاد ما وراء النهر لأنها أكثر أمنًا وأقل خطرًا من المدن الداخلية ثم تحولوا بعد ذلك إلى سمرقند لتكون مقرًا للخان.

6- قام الخان بتعيين نائب له في بخارى وكان في أغلب الأحيان من الأسرة الحاكمة، وكان يطلق عليه الخان المشارك.

7- اتبع الخانيون نظام اللامركزية في الإدارة وفتتوا السلطة فيما وراء النهر واعتمدوا على الجهاز الإداري الفارسي لإدارة مدنها ولم يبتعدوا عن حياتهم الصحراوية.

8- عمل الخانيون على نشر الأمن ومنع الاعتداء على الممتلكات والمحافظة على الأسعار وتخفيف الضرائب مما جعلهم يتمتعون بحب الناس.

9- اهتموا بإقامة العديد من المنشآت العامة من مساجد ومدارس ودور ضيافة ورباطات وحمامات ، بالإضافة إلى القصور وقد ظلت هذه المنشآت قائمة لعدة قرون.

10- تقرب الخانيون من العلماء وخاصة الصوفية. كما اهتموا بالأدب وشجعوا الأدباء.

11- حرص الخانيون على إقامة علاقات وطيدة مع الغزنويين عن طريق المصاهرة والتحالف ، إلا أنه قد شاب هذه العلاقات أحيانًا بعض التوتر مما حدا بالسلطين الغزنويين إلى مهاجمة بلاد ما وراء النهر.

12- فرض السلاجقة نفوذهم على بلاد ما وراء النهر في عهد ملكشاه ثم بركياروق ثم سنجر ونعمت البلاد بالهدوء إلى حد ما.

13- في سنة 536هـ / 1141م هزم الخطا السلطان سنجر ووقعت بخارى وبلاد ما وراء النهر تحت سيطرة الأتراك الوثنيين. وسار تعيين حكام بلاد ما وراء النهر بيد كورخان الخطا.

14- استطاع علاء الدين محمد خوارزمشاه تخلص بلاد ما وراء النهر من الخطا سنة 606هـ / 1209م وقضى على ما بقي من الأسرة الخانية سنة 607هـ / 1210م.

وبذلك سقطت الدولة الخانية التي استمرت في بخارى وبلاد ما وراء النهر ما يقرب من 218 سنة.

وفي الختام أتمنى أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على جانب من تاريخ هذه الدولة.



oboiikan.com

الصلات العلمية بين الحجاز واليمن
(400 - 700 هـ / 1009 - 1300 م)

د. عامر جاد الله أبو جيلة
قسم التاريخ - جامعة مؤتة
الأردن

oboi.kan.com

الصلات العلمية بين الحجاز واليمن (400-700هـ/1009-1300م)

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى إبراز جوانب الحركة العلمية خلال فترة الدراسة ، من خلال الصلات العلمية بين حواضر الحجاز وحواضر اليمن ، ورحلة العلماء وطلبة العلم بين هاتين المنطقتين، وتبادل المعارف والعلوم بين العلماء ، خاصة في مجالات : علوم القرآن ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، وغيرها من العلوم الأخرى ذات الأهمية وذات الصلة .. وكل ما من شأنه إبراز جوانب الحياة العلمية في هذا الجزء المهم من الجزيرة العربية .

كما يبين البحث دوافع تلك الرحلة في طلب العلم ، وأسبابها وتمويل التعليم ، سواء للعلماء ، أو لطلبة العلم ، أو أماكنه ، فيما يعرف بالأوقاف على التعليم ، فضلاً عن الإشارة إلى أماكن التعليم ، كالمسجد الحرام في مكة ، والمسجد النبوي في المدينة، إضافة إلى المساجد العديدة في مدن اليمن ، والتي كان فيها حلقات لعلوم متعددة ، ولعلماء مشهورين آنذاك ، ثم هناك المدارس ، والربط ، والزوايا ، وبيوت العلماء التي ساهمت في تلك الصلات العلمية بين الحجاز واليمن من خلال رحلة العلماء والطلبة إلى مثل هذه الأماكن الخاصة بالتعليم .

واستعرض البحث عناوين بعض التصانيف والمؤلفات التي تم تأليفها خلال هذه الفترة نتيجة لتلك الصلات العلمية وتبادل العلوم والخبرات .. هذا فضلاً عن إشارات قليلة إلى تعليم المرأة في فترة الدراسة .

وفي نهاية البحث هناك خلاصة تضمنت النتائج التي استخلصت من هذه الدراسة .

د. عامر جاد الله أبو جبلة

قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة مؤتة - الأردن

Abstract

"Scholarly contacts between Hijaz and Yemen during the period 400-700 A.H /1009-1300 A.D " .

The main of this research is to show the aspects of the scholarly movement during the period of study through the scholarly contacts between urban settlements of Hijaz and those of Yemen and through the journey of both scholars and students who traveled between those regions to acquire knowledge and other kinds of learning such as studies relating to the : Qur'an ,Hadith ,Fiqh ,Arabic language and whatever is necessary to shed light on different aspects of the scholarly life in this important part of the Arabian peninsula .

This research has also thrown light on the drives standing behind these journeys , i.e. the reasons ,the financing of education whether concerning the scholars ,or the students as well as the places of learning .in other words ,they so called the Awqaf of learning and the places of education such as the holy mosque at Mecca ,the prophet mosque in medina along side with the many other mosque distributed in the Yemeni cities .in those mosques different circles of learning conducted by well known scholars ,in addition to Schools ,Ribats ,Zawaya as well as the scholars houses which contributed to the scholarly contacts between Hijaz and Yemen.

As a result of such contacts and exchange of experiences ,this research has displayed some titles of some works which were written during this period in addition to the very little hints pointed out to the woman s education during the period of study .

At the end of this research ,a summary of the results which this study has inferred is mentioned .

Dr. Amer Jadallah abu- Jabalah
Dept .of History
Faculty of Social Sciences
Mu'tah University
Jordan

استمرت الرحلة والصلوات العلمية بين الحجاز واليمن، ولم تتوقف، في الفترة التي يعالجها هذا البحث (400 - 700هـ / 1009 - 1300م)، وقد ساعد على ذلك بعض الأمراء الذين سهلوا وهياؤوا الطريق للرحلة والصلوات العلمية والحج، ما بين اليمن والحجاز، مثل أمير تهامة الحسين بن سلامة النوبي، "الذي أنشأ الجوامع الكبار والمنائر الطوال من حضرموت إلى مكة"⁽¹⁾.

فمن الذين رحلوا إلى مكة الشيخ أبو الخير أيوب بن كديس (ت 410هـ / 1019م) الذي كان يسكن سوق ظبا من أرض اليمن، وكان ينادى له في الحرم المكي كل عام: "من أراد الورق والسماع العالي، فعليه بأيوب بن محمد بن كديس في ظبا من أرض اليمن" وقد سمع من أبي ذر عبد بن أحمد بن محمد المهروي الحافظ في المسجد الحرام سنة (407هـ / 1016م)⁽²⁾. وكان أيوب بن كديس ذا إسناد عالٍ، ومحسناً إلى الطلبة، يقرئ العلم، ويقرئ الطعام⁽³⁾.

وشد الرحال إلى مكة أحمد بن عبد الله الصنعاني، فلقي فيها كثيرًا من العلماء، ونقل عن قسم منهم كالحافظ عطية بن سعيد بن عبد الله الأندلسي، وكان ذلك في سنة 406هـ، وآخرين غيره، ففي مكة كان يلتقي علماء الفقه، والتاريخ، والعربية، وغيرها من العلوم، إذ إن مكة تمثل مركز النشاط الثقافي العام، من خلال العلماء الذين يفدون إليها من كل الأنحاء⁽⁴⁾.

ورحل إلى مكة وجاور فيها الفقيه أبو الفتح يحيى بن عيسى بن ملامس (ت 420هـ / 1029م) من مخلاف جعفر باليمن، كان قد تفقه بمحمد بن يحيى بن سراقه، والحسين بن جعفر المراغي، ثم حج وأقام بمكة أربع سنين، وقام بشرح مختصر المزني في الفقه، أثناء إقامته في مكة، ويذكر أنه شرحه بالاستناد إلى كتب علماء مكة مثل: كتب

(1) الديبع، قرة العيون، ص 232، الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 238.

(2) ابن سمرة الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ص 97 - 98.

(3) الجندي، السلوك، ج 1، ص 237، والأهدل، تحفة الزمن، ص 186.

(4) هادي عطية، نشأة الدراسات النحوية، ص 29 - 30.

القاضي أبي علي بن أبي هريرة، وكتب أبي إسحق المروزي، وكتب أبي علي الطبري، فأصبح شرحه لمختصر المزني مشهوراً في اليمن، كما انتشر على يديه المذهب الشافعي في اليمن⁽⁵⁾.

وكان أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن (ت 426 هـ / 1034 م) من أئمة اليمن، انتقل إلى مكة، ثم عاد من الحجاز إلى ناعط باليمن سنة (418 هـ / 1027 م)، ومعه ابنه حمزة وعلي، واتفق عليه علماء مذهبه، وكان إماماً جامعاً للشرط⁽⁶⁾.

ومن علماء وفقهاء الشافعية الذين رحلوا من اليمن إلى مكة ثم عادوا إليه، الفقيه القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي السهفني المتوفى في سَهْفَنَة من اليمن سنة (437 هـ / 1045 م)، الذي كان قد أخذ فقهه وعلمه عن علماء المائة الرابعة، حيث كان مذهب الشافعي قد بدأ في الاستقرار في اليمن وجذب إليه كثيراً من الأنصار، وكان قد رحل من سَهْفَنَة إلى زبيد، ثم إلى مكة حيث لقي فيها بعض أئمة الشافعية، وكان قد رافقه إلى مكة الفقيه أحمد الصعبي، وهناك التقيا الفقيه الحسين بن جعفر المراغي، حيث طلبا منه أن يرافقهما إلى اليمن، وأجابهما إلى ذلك، وأخذ عنه في سَهْفَنَة جماعة من الفقهاء، وانتفعوا به فكان متضلعا بالفقه والأصول، وله كتاب في الفقه سماه "الحروف السبعة" ضمنه الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل البدع، وله أيضاً كتاب "التكليف" في الفقه⁽⁷⁾.

ورحل من مخلاف جعفر باليمن إلى مكة الفقيه أبو سعيد خير ابن الفقيه يحيى ابن ملامس (ت 480 هـ / 1087)، كان قد تفقه بأبيه في اليمن، وحج إلى مكة، فلقي الحافظ أبا ذر عبد بن أحمد الهروي، وأخذ عنه صحيح البخاري، كما لقي بها أبا بكر محمد بن منصور السهرزوري، أحد شراح "المختصر" فأخذ عنه شيئاً من الفقه، وسنن أبي داود، كما أخذ

(5) ابن سمره الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ص 91، الجندي، السلوك، ج 1، ص 230، وأيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، ص 61.

(6) عبد الواسع اليامي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ص 190، حسين العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام، ص 36، الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 194.

(7) الجندي، السلوك، ج 1، ص 230-232، والأهدل، تحفة الزمن، ص 190، أيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية، ص 59-60.

عن أحمد بن محمد البزار المكي كتاب "الشريعة" للأجري، ثم عاد إلى بلده في اليمن، فأخذ عنه بها جمع كثير منهم ولداه زيد وعمرو، وكانت وفاته ببدة عزلة القرنات من مشرق أحاطة⁽⁸⁾. ويذكر أن الفقيه أبا الغارات علي بن محمد بن العباس التباعي الحميري كان قد رافق الفقيه أبا سعيد خير في رحلته إلى مكة وتحصل على العلوم نفسها التي تحصل عليها صاحبه⁽⁹⁾.

وكان الفقيه أبو الوليد عبد الملك بن أبي ميسرة اليافعي (ت 493هـ/1099م) يسكن جبل الصلوة من اليمن، وكان فقيهاً عالماً نقالاً للمذهب، ثبتاً في النقل، رحالاً في طلب العلم، عارفاً بطرق الحديث وروايته، حتى أنه كان يُعرف بالشيخ الحافظ، حج إلى مكة سنة (451هـ/1059م)، فأدرك بها الشيخ سعد الريحاني، فأخذ عنه وعن أبي عبد الله محمد بن الوليد المالكي المكي، ثم عاد إلى اليمن، ودخل عدن فلقي أبا بكر بن أحمد بن محمد البردي، فأخذ عنه الرسالة الجديدة للإمام الشافعي، كما روى عن أيوب بن محمد بن كديس كتاب "الرقائق" لابن المبارك، وكان له بكل مدينة مر بها أو أقام فيها أصحاب وشيوخ، مثل بلده، والحوطة، والجند، وعدن، وكان أكثر مقامه بمدينة الحوطة، فأخذ عنه بجامعها عدة كتب، فضلاً عن أن الطلبة كانوا يقصدونه عندما كان في هذه المدينة يأخذون عنه العلم⁽¹⁰⁾.

ومن العلماء الجوالين الذين مروا بمكة واليمن، هبة الله بن عبد الوارث بن علي أبو القاسم الشيرازي، مؤرخ من ثقات الحفاظ للحديث، نعتة الذهبي بالحافظ المفيد الجوال، وقال: "سمع بخراسان والعراق والحرمين واليمن، صنف تاريخ شيراز، وخرج أحاديث"⁽¹¹⁾.

(8) ابن سمر الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ص 101، والجندي، السلوك، ج 1، ص 243، والأهدل، تحفة الزمن، ص 190.

(9) ابن سمر الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ص 101، الجندي، السلوك، ج 1، ص 191، 244.

(10) ابن سمر الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، ص 98، والجندي، السلوك، ج 1، ص 240-241.

(11) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 4، ص 14، الزركلي، الأعلام، ج 8، ص 73.

ورحل من مكة إلى اليمن الفقيه أبو نصر محمد بن هبة الله بن ثابت البندنجي (ت 495هـ / 1101م) وهو فقيه من كبار فقهاء الشافعية كان يعرف بفقيه الحرم لمجاورته بمكة نحو أربعين سنة ، كان ضريراً ومولده ببندنج قرب بغداد ، انتقل إلى اليمن ، وتوفي بذى الذنبتين باليمن ، بينها وبين تعز مسيرة يومين ، وله كتاب "المعتمد" في الفقه جزآن ضخمان ، وهذا الكتاب مشهور في الحجاز واليمن ، وانتشاره قليل في غيرها آنذاك⁽¹²⁾.

ومن الذين أدركوا البندنجي في مكة من أهل اليمن وأخذوا عنه ، من زبيد أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم بن حسن المعروف بابن الأبار ، الذي تفقه بآب بن عبدويه الذي إليه انتهت رئاسة التدريس والفتوى بزبيد ، وبه تفقه جمع كثير من زبيد وغيرها ، حج إلى مكة وأدرك بها البندنجي ، فأخذ عنه وذكره عمارة في مفيدة وأثنى عليه ، وذكر أنه تفقه على ابن الأبار ، وقال: كان معظماً عند الناس ، وبه تفقه جمع كثير منهم عبد الله بن عيسى الهرمي⁽¹³⁾.

كما رحل إلى مكة وأخذ عن البندنجي الفقيه يحيى بن عبد الله المليكي نسبة إلى الأملاك من مذحج ، كان يسكن قرية وقر من الشوافي في اليمن ، تفقه بداية في اليمن ، وعندما حج والتقى الفقيه البندنجي أخذ عنه "التبصرة" في علم الكلام وغيرها ، ولما عاد إلى اليمن أخذها عنه الفقيه سيف السنة أحمد بن محمد البريبي ، وكان الفقيه يحيى المليكي يدرس في مدرسة وقر ، وكان فقيهاً فاضلاً⁽¹⁴⁾.

ومن الأدباء الذين قدموا من مكة إلى اليمن المبارك بن الفاخر بن محمد بن يعقوب النحوي أبو المكارم البغدادي (ت 500هـ / 1106م) ، كان إماماً في النحو واللغة ، سافر إلى الحجاز أولاً ثم دخل اليمن ، ونقل عنه اليمانيون علماً كثيراً ، وصنف لهم كتباً مثل : "شرح مقدمة أدب الكاتب" و "نحو العرف" و "شرح الألف واللام" للمازني ، وقد أجاد فيه⁽¹⁵⁾.

(12) الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج 1 ، ص 100 .

(13) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 326-327 ، والأهدل ، تحفة الزمن ، ص 274.

(14) الأهدل ، تحفة الزمن ، ص 233.

(15) أبو غرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ق 2 ، ص 221 ، وهادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص 224-

ومن القراء اليمنيين عبد الله بن عمر بن العرجاء (توفي في حدود 500هـ/1106م)، كان مقرئاً حاذقاً رحالاً ثقة، رحل فقرأ على أحمد بن نفيس وعبد الباقي بن الحسن، وأبي معشر الطبري، وأقام بمكة مجاوراً زماناً يؤم بالمقام، وقرأ عليه ولده الشيخ أبو علي الحسن، وعبد الله بن خلف البياسي، ومحمد بن إبراهيم الحضرمي، فيما يقع في أسانيد أهل اليمن، وعبد الرحمن بن أبي رجاء بمكة⁽¹⁶⁾.

ومن الشعراء من مكة، الشاعر محمد بن إبراهيم الأسدي (ت 510هـ/1116م) كان قد لقي أبا الحسن التهامي في صباه، وتصدى لمعارضته، وسافر من مكة إلى اليمن، ثم إلى العراق⁽¹⁷⁾.

ومن يفاعه - قرية بالمعافر من اليمن - الفقيه أبو أسامة زيد بن عبد الله ابن جعفر بن إبراهيم اليفاعي (ت 515هـ/1121م) من أعيان عيون العلماء في اليمن، تفقه في بدايته بآب جعفر، وإسحق الصردفي.... وارتحل إلى مكة، فأخذ بها عن الشيخين الإمامين الحسين بن علي الطبري، وأبي نصر البندنجي مصنفات الشيخ أبي إسحق الشيرازي، ثم مصنفاتها، وكان من أصحاب أبي إسحق... ثم عاد اليفاعي إلى الجند، فاجتمع الناس إليه من نواح شتى فقرأوا عليه، وكانت مدرسة الفقيه اليفاعي إلى يمين المنبر، وربما اتكأ وقت التدريس على المنبر، وكان أصحابه فوق ثلاثمائة متفقه في غالب الأيام، يقوم بإعالتهم قوتاً وكسوة.

ثم إن هذا الفقيه لما طالت عليه المشقة، ارتحل إلى مكة سنة (500هـ/1106م) حسماً لذلك الوضع... وهي الرحلة الثانية إلى مكة، فلبث بها اثنتي عشرة سنة، مات في أثنائها شيخه الإمامان في مكة وهما الطبري، والبندنجي، فتولى الفقيه زيد اليفاعي مكانهما في الفتوى والتدريس، إذ لم يكن بعدهما أكبر قدرًا منه في علمه وعمله... فكان حافظًا نقالاً، وكان أثناء إقامته بمكة يأتيه فضل أرضه من اليمن، فيقتات ببعضها، ويتعامل بها تبقى، حتى يحصل له مال جزيل، وكان مجلدًا معظمًا عند المكيين وغيرهم، حتى حصلت فتنة بين

(16) الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ص 438.

(17) ابن الجوزي، المنتظم، ج 9، ص 153،، والزركلي، الأعلام، ج 5، ص 295.

متقدمي مكة ، بسبب القضاء والفتوى ، فاتخذ قراره بالعودة إلى الجند في اليمن ، وكان ذلك سنة (512هـ / 1118م) ، وعندما سمع الناس بقدوم الفقيه زيد اليفاعي إلى الجند توافدوا عليه من جميع أنحاء اليمن ، واشتغلوا بالقراءة عليه ، حيث توافد عليه طلبة العلم من عدن وأبين ولحج وأنحاءها ، ثم من تهامة وحضرموت والسحول والشام وغيرها ، ويذكر أنه ما من بلد من هذه البلدان إلا وله فيها أصحاب عرفوا بالأخذ عنه ، ومنهم اليفاعي والزبراني وغيرهم ، وكان متنزهًا عن صحبة الملوك وقبول جوائزهم⁽¹⁸⁾.

كما تم عن طريق الفقيه زيد اليفاعي دخول مصنفات الإمام الغزالي ، وذلك بعد استطارتها بين الفقهاء ، وإقبال الناس عليها⁽¹⁹⁾.

ويذكر أن الفقيه زيد اليفاعي كان قد تفقه من كتب أساتذته أثناء إقامته في مكة ، مثل: "المهذب" لأبي إسحق الشيرازي ، و"العدة" للحسين الطبري ، و"المعتمد" و"التبصرة" لأبي نصر البندنجي ، كما يشار إلى طريقته في التدريس فكان على خلاف بعض العلماء في عصره يقرئ كل من طلب القراءة ، ولا يسأل عن نسبه وحسبه ومنصبه⁽²⁰⁾. ووصفه صاحب تحفة الزمن بقوله: "كان من أعيان اليمن وأفراد شيوخ الزمن ، أستاذ الأستاذين وشيخ المصنفين"⁽²¹⁾.

وارتحل من مكة إلى الجند في اليمن الفقيه ثبت بن عبد الله الذي وفد على الفقيه زيد اليفاعي في مدرسته في الجند ، حيث كان يجتمع الفقهاء والعلماء⁽²²⁾.

ومن العلماء الذين رحلوا إلى الشرق من إشبيلية ثم رحلوا إلى اليمن سنة (515هـ / 1121م) ، محمد بن عبد الملك الشنتريني ، المعروف بابن السراج ، كان قد أخذ العربية عن أبي العافية ، وابن الأخضر وغيرهما ، ومن تصانيفه : "تنبيه الألباب على

(18) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 262 ، 263 ، 266 ، 267 ، وابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 120-121 ، 152-153 ، والإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج 2 ، ص 317-318 ، ومحمد الحجري ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، م 2 ، ج 4 ، ص 784-785.

(19) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 269 ، الشرجي ، طبقات الخوارج ، ص 138.

(20) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 119.

(21) الأهدل ، تحفة الزمن ، ص 207-213.

(22) ابن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 150.

فضائل الإعراب" و "العروض والقوافي" ، و "اختصار العمدة" لابن رشيق و " تنبيه على أغلاطه" وغير ذلك⁽²³⁾.

ورحل إلى مكة من اليمن الفقيه زيد بن الحسن بن محمد الفائشي (ت 528هـ/ 1133م)، كان رجلاً عارفاً بعلوم شتى منها علم القراءات بطريقة أبي معشر في مكة ، أخذها عنه بمكة ، وأخذ عن الفقيه البندنجي " التبصرة" في علم الكلام ، وكان يقرؤها في مدرسته ، كما أخذ عن أبي مخلد الطبري ، وإمام المقام عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي بمكة ، ومن العلوم التي عرفها: التفسير ، والحديث ، واللغة ، والنحو ، والفقه ، والخلاف ، وأصول الفقه ، وعلم الكلام في التوحيد ، والحساب ، وغيرها ، وكان كثير الحج ، وربما جاور فأخذ علومه بمكة والمدينة فكان يرتحل إلى العلماء في أماكنهم ، فيأخذ عنهم ، إذ كان يتنقل في رحلاته ما بين الحجاز واليمن بين مناطق المشيرف وسير والظرافة وتهامة ومكة والمدينة وذو أشرق والسحول ونخا وأحاطة ، كما تفقه بهذا الفقيه جماعة من الناس والفقهاء منهم أبو الطيب طاهر بن يحيى بن أبي الخير اليمني .

ويذكر أن الفقيه زيد الفائشي نتيجة لكثرة علومه ورحلاته واهتماماته ، قد تحصلت له مكتبة جمعت من الكتب ما يزيد على خمسمائة كتاب ، وقد صنف مختصراً في مذهب الشافعي سماه كتاب: " التهذيب"⁽²⁴⁾.

وفي سنة (540هـ/ 1145م) قدم إلى اليمن الفقيه زيد بن علي بن الحسين الخراساني الزيدي البيهقي ، كان له علم بالفقه في الأصول والفروع ، ويذكر أن عالم مكة الشريف علي بن عيسى بن حمزة السليماني ، كان قد بعث كتاباً إلى الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان يخبره بقدوم الفقيه زيد البيهقي ، فوصل إليه ومعه: " كتب غريبة وعلوم حسنة عجيبة" فأحسن المتوكل على الله استقباله والاحتفاء به⁽²⁵⁾.

(23) الفيروزآبادي ، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ، ص 203.

(24) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 155- 158 ، الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 285 ، الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج 2 ، ص 131 ، وهادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص 29 ، 235.

(25) حميد المحلي ، الحداثك الوردية ، ج 2 ، ص 106- 108 ، وأيمن فؤاد سيد ، تاريخ المذاهب الدينية ،

وكان الفقيه والشاعر اليمني عمار بن علي بن زيدان اليمني قد رحل إلى مكة في حدود سنة (550هـ/1155م) ثم إلى مصر ثم إلى مكة ثم إلى زبيد فاشتغل في بعض مدارسها مدة أربع سنين ، ويذكر أنه كان فقيهاً بارعاً ونحوياً وله اشتغال بالأدب والشعر، وله عدد من المصنفات⁽²⁶⁾.

ومن حكام اليمن المتصوفة الذين قدموا مكة علي بن مهدي بن محمد الحميري الرعيني (ت 554هـ/1159م) ، من قرية باليمن يقال لها "العنبرة" من سواحل مدينة زبيد، ويذكر أن أباه كان رجلاً صالحاً سليم القلب ، حيث نشأ علي بن مهدي على طريقة أبيه في العزلة والتمسك بالصلاح ، كما أنه حج وزار فلقي حجاج العراق وعلماءه ووعاظه ، وتضلع في معارفهم ، وعاد إلى اليمن فاعتزل وأظهر الوعظ والتفسير وطريقة الصوفية ، ولم يزل يعظ الناس في البوادي منذ سنة (531 - 536هـ/1136 - 1141م) ، وفي الموسم كان يخرج حاجاً إلى مكة⁽²⁷⁾.

وكان الفقيه محمد بن سعيد بن محمد الملقب بسفيان ، قد توفي سنة (555هـ/1160م) ، عندما كان قافلاً من مكة في راحة بني شريف ، وكان قد تفقه بالفقيه يحيى بن أبي الخير ، وسكن قرية المعدن في نعيمة باليمن⁽²⁸⁾.

وكان أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم (ت 558هـ/1162م) من قرية سير من اليمن ، قد تنقل بين بلدة سير وأحاطة وذي السفال ، وأخذ عن علمائها: التنبية وكافي الفرائض والمهذب واللمع وكافي الصردفي ، وتعليقة الشيخ أبي إسحق في الأصول والملخص وغريب أبي عبيد وكافي الصفار والجمل في النحو ، وغير ذلك من مسائل الدور والخلاف.

(26) انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 1 ، ص 376 ، وأبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج 1 ، ص 225 - 227 ، والخبلي ، شذرات الذهب ، ج 4 ، ص 234 ، والقلقشندي ، صبح الأعشى ، ج 3 ، ص 533 ، وجميل حرب ، الحجاز واليمن ، ص 27.

(27) عبد الباقي البياي ، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن ، ص 70 - 71 ، والجندي ، السلوك ، ج 2 ، ص 515 - 516.

(28) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 218.

ويذكر أن الفقيه يحى قد تعلم القرآن وأكمل حفظه غيباً ، وقرأ المذهب والتنبيه والفرائض ولم يبلغ من العمر غير ثلاث عشرة سنة.

ولما قدم الفقيه اليفاعي من مكة إلى الجند أخذ الفقيه يحى عنه المذهب ثم النكت، وبعد أن توفي اليفاعي توجه الفقيه يحى بن أبي الخير إلى سهفنة ، حيث أخذ بها عن القاضي مسلم بن أبي بكر كتاب الحروف السبعة في علم الكلام تأليف المراغي ثم انتقل إلى ذي أشرق سنة (517هـ / 1123م) وأخذ عنه سالم الأصغر جامع الترمذي⁽²⁹⁾.

وفي ذي أشرق ابتدأ الفقيه يحى بمطالعة الشروح وجمع منها ما يزيد على "المذهب" كتاباً سماه "الزوائد" ، وكان كل ذلك قبل أن يتوجه إلى مكة ، ثم بعد سنة (524هـ / 1129م) ، حج وزار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم واجتمع في مكة بالفقيه الواعظ المعروف بالعثماني ، وجرت بينهما مناظرات في شيء من الفقه والأصول ، وكان الفقيه العثماني على مذهب الأشعري في المعتقد ، وكان الشيخ يحى يحفظ "التبصرة" غيباً ، أخذها عن شيخه اليفاعي والفائشي ، وذكر أنهما (الفقيه العثماني والفقيه يحى) كانا يتناظران في المطاف بمكة ، ثم لما عاد الفقيه يحى إلى اليمن وألف كتاب "البيان" أورد فيه عدة مسائل عن العثماني ، حيث كان قد بدأ بتأليف كتابه "البيان" سنة (528هـ / 1133م) ، ورتبه على ترتيب محفوظه "المذهب"⁽³⁰⁾.

وكان الفقيه يحى بن أبي الخير يكره الخوض في علم الكلام⁽³¹⁾ ، ثم صنف كتاب "الانتصار في الرد على القدريّة الأشرار" وقد بالغ في الرد على المعتزلة بكتابه المذكور وعلى

(29) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 294 ، والأهدل ، تحفة الزمن ، ص 237 - 238.

(30) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 295 ، والإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج 1 ، ص 104 ، الأهدل ، تحفة الزمن ، ص 238 - 239.

(31) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 296.

الأشعرية ، ثم صنف غرائب الوسيط ، واختصر إحياء علوم الدين⁽³²⁾ . ويذكر أن كتابه "البيان" في الفقه قد وصل إلى علماء بغداد حيث تداولوه⁽³³⁾ .

ويذكر أن الفقيه يحيى بن أبي الخير، كانت لديه مكتبة يخشى على ما فيها من مصنفات، ذلك أنه نقلها معه من بلده سير إلى ذي السفال بعد فتنه حدثت في بلده ، إذ بعث إلى فقيه ذي السفال الفقيه صالح بن عمر يطلب منه رجالاً بأسيا فهم ليحموه ويحموا كتبه إذ قال: "فمعي كتب وأخشى عليها فتنه الحرب" ففعل الفقيه صالح ابن عمر فقيه ذي السفال ذلك ، وهذا يشعر بمدى الاهتمام بالمكتبات آنذاك وأهمية الكتب التي يتداولونها⁽³⁴⁾ .

قال عنه ابن سمرة: "الذي انتشر عنه الفقه في البلدان وجاوز علمه البحر مع السودان ، وسارت بتصانيفه الركبان في اليمن والشام"⁽³⁵⁾ .

ومن المتصوفة في اليمن أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الحداد ، كان قد حج إلى مكة سنة (561 هـ / 1165 م) ، فلقى الشيخ عبد القادر الجيلاني فأخذ عنه طريقة التصوف ، ثم أخذ عنه الناس ، مثل الشيخ عبد الله الأسدي ، وكان له زاوية في موضع يقال له شذهب في اليمن⁽³⁶⁾ .

ومن فقهاء اليمن في المائة السادسة ، من أبين ثم من الطرية القاضي عمر بن عبد العزيز بن أبي قره ، الذي كان قد حج إلى مكة ، والتقى بعلمائها ، وتحصل على علومه الفقهية وعلى بعض الكتب كالمهذب وتصانيف الشيخ أبي إسحق ، فكان عارفاً في أصول الفقه ، وتفقه به آخرون⁽³⁷⁾ .

(32) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 177 - 180 ، والجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 297 .

(33) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 298 .

(34) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 297 - 298 .

(35) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 174 - 177 .

(36) الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج 2 ، ص 320 - 321 . الشرجي ، طبقات الخواص ، ص 204 .

(37) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 149 - 222 ، والأهدل ، تحفة الزمن ، ص 273 .

ومن أهل الصلوة من اليمن الفقيه أسعد بن محمد وقد كان فقيهاً أديباً ، رحل إلى مكة ، وكان بارعاً في العربية ، وكانت وفاته سنة (576هـ / 1180م) ⁽³⁸⁾.

وكان الفقيه أبو عبد الله محمد بن حميد بن أبي الحسين بن نمر (ت 577هـ / 1181م) من قوم يعرفون بالزواقر من اليمن ، تفقه بزيد اليفاعي والفائشي ، ورحل إلى مكة في موسم الحج ، فأخذ عن أحمد المكي ، وعن المقرئ الحبري ، وكان فقيهاً زاهداً ⁽³⁹⁾.

ومن القضاة اليمنيين الذين قدموا مكة القاضي علي بن حسين البشري (579هـ / 1183م) ، الذي ولي قضاء زبيد ، وكان قد توفي بقرية المصيري بمخلاف الساعد قافلاً من مكة ، ويشار إليه بأنه كان عالماً مجوداً ورعاً نظيف العلم تفقه على شيوخ زبيد ، وأجمع على تفضيله ومدحه وتبجيله المؤلف والمخالف ⁽⁴⁰⁾.

وكان الفقيه أبو بكر بن يحيى بن إسحق (كان حياً 581هـ / 1185م) قد تفقه بشيخ ابن سمرة علي بن أبي بكر بن سالم ، ثم دخل زبيد قافلاً من مكة ، روى عن الفقيه عياش بن أحمد المخزومي سنة (581هـ / 1185م) ، وكان يتردد على مكة ⁽⁴¹⁾. كما توفي الفقيه اليمني محمد بن منصور سنة (581هـ / 1185م) قافلاً من مكة ، وفي هذه السنة توفي الفقيه علي بن أحمد بن إبراهيم الجعدي في مكة مجاوراً ⁽⁴²⁾.

وكان الفقيه القاضي أبو إسحق إبراهيم بن أبي الأنمر (كان حياً 582هـ / 1186م) قد ارتحل إلى الحجاز سنة (581هـ / 1185م) ، بعد أن كان قد قدم اليمن مصاحباً السلطان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة (589هـ / 1193م) ، وولي القضاء في المعافر سنة (580هـ / 1184م) ، وكان قد تفقه على فقهاء عدن ، وبعد إقامته في مكة ، ذهب إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة سنة (582هـ / 1186م) ⁽⁴³⁾.

(38) هادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص 44.

(39) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 292-294 ، والأهدل ، تحفة الزمن ، ص 237.

(40) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 242.

(41) المصدر نفسه ، ص 232.

(42) المصدر نفسه ، ص 261.

(43) المصدر نفسه ، ص 230.

وكان القاضي محمد بن زيد بن عبد الله بن حسان (كان حيًّا 584 هـ / 1188 م) قد جاور في مكة عشر سنين (574-584 هـ)، كما كان قد سكن الجند، ويذكر ابن سمره صاحب كتاب طبقات فقهاء اليمن، أنه لازم مجلسه ثلاث سنين، فأخذ عنه العربية، وشيئًا من الفقه، وانتفع به⁽⁴⁴⁾.

ومن فقهاء اليمن المشهورين الفقيه سيف السنة زين الحنابلة، أحمد بن محمد بن عبد الله ابن مسعود بن سالم البريبي، (ت 586 هـ / 1190 م) الذي كان يسكن إب في اليمن وقد توفي بها، أفضت إليه الرئاسة في الفقه فيها، وجمع بين الزهد والورع والعلم والحديث، وكان قد ارتحل إلى مكة، وسمع فيها صحيح مسلم سنة (580 هـ / 1184 م)، ثم رجع إلى مدينة إب في اليمن، ثم نزل الجند واجتمع إليه الأصحاب من ظبا وذو أشرق والشعبانية وأعمال الجند وغير ذلك، فأسمعهم صحيح مسلم سنة (581 هـ / 1185 م) في مدينة الجند، ولذلك تفقه به جماعة من الفقهاء⁽⁴⁵⁾.

وعندما كان الفقيه سيف السنة في الحرم المكي، كان قد أخذ عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين الهروي، إمام الحنابلة، والشيخ عبد الله بن عمر الوراق، وأجازوا له. ويذكر أن الفقيه سيف السنة، قد أفضت إليه رئاسة الفقه والحديث بعد الفقيه يحيى ابن أبي الخير، ويوصف بالزهد والورع، وعرف علومًا مثل النحو واللغة وأصول الدين، وله كتب عدة يرد بها على المعتزلة والأشعرية، وكان على الرغم من اشتغاله بالتدريس ينسخ كل عام نسخة من "البيان" ومن "المهذب" و"كافي الصردفي" أو "التنبيه" ويأمر بها إلى مكة لتباع ويشتري بأثمانها ورقًا مصريًا أو بغداديًا، وينسخ في ذلك الورق الكتب ويوقفها حتى أنه أوقف أكثر من مائة كتاب في مدينة إب، وقد نقل بعضها إلى الجند، وفقد بعضها، وهي في فنون كثيرة من الحديث والأصول والفروع والتفسير والفرائض والنحو واللغة، وشرط في وقفه لها أنها على أهل السنة دون المبتدعة من الأشعرية وغيرهم⁽⁴⁶⁾.

(44) المصدر نفسه، ص 233.

(45) المصدر نفسه، ص 190.

(46) الأهدل، تحفة الزمن، ص 267-270، وانظر: الجندي، السلوك، ج 1، ص 318-321.

كما أجاز الفقيه سيف السنة ، بإجازة من الشيخ عبد الله بن عمر بن أحمد الوراق في مكة ، قال فيها: " استخرت الله العظيم وأجزت الشيخ الإمام الأجل السيد الفقيه ناصر السنة أبا العباس أحمد بن محمد ولأولاده الكرام يحيى ، وعيسى ، وإسماعيل ، ومحمد على أن يرووا عني مسموعاتي وإجازاتي "(47).

ومن القضاة اليمنيين الذين رحلوا إلى مكة وجاوروا بها أبو الطيب طاهر ابن يحيى بن أبي الخير (ت 587هـ / 1191م) ، كان قد تفقه بأبيه الفقيه يحيى الذي مر ذكره ، وخلفه في حلقة ومجلسه ، وأجاب على المشكلات في حياة والده الفقيه ، وكان قد جالس العلماء وروى عنهم ، وأخذ عن غير واحد ، وعندما رحل إلى مكة كان قد هاجر إليها بأولاده بسبب الفتن في بلاده وقتل العلماء ، فأقام في مكة سبع سنين ، وروى عن كبار المحدثين في الحرم كالشيخ الإمام أبي علي الحسين بن علي بن الحسن الأنصاري ، والشيخ الإمام الميانسي والعسقلاني ، ومقرئ الحرمين الشريفين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي مشيرج الحضرمي ، ثم عاد إلى اليمن سنة (566هـ / 1170م) (48).

ومن كتب ومصنفات الفقيه طاهر بن يحيى "مقاصد اللمع في أصول الفقه وحد الفكر" و"كسر قنات القدرة" وتصنيف في "مناقب الإمامين أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، وأحمد بن حنبل" و"معونة الطلاب في معاني كلام الشهاب" مجمع بين علم القراءات والحديث والفقه (49). وقد تضرع في العلوم تضلعاً جيداً حتى أنه كان يقول: "أنا ابن ثمانية عشر علماً" وقد وصلته الإجازات من الشيوخ في البلدان (50).

(47) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 319.

(48) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 187 ، 218 ، والإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج 1 ، ص 104-105 ، وإسماعيل الأكوخ ، "مدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقله في اليمن" ، التربية العربية الإسلامية "المؤسسات والممارسات" ، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، عمان ، ج 3 ، ص 1022 ، وهادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص 43 ، مصادر الفكر اليمني ، ص 99 .

(49) ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ، ص 187-188 ، الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 338 ، والأهدل ، تحفة الزمن ، ص 293.

(50) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 337.

فكان فقيه الشافعية⁽⁵¹⁾، عالماً فصيحاً شاعراً⁽⁵²⁾، وكان قد تولى القضاء في ذي جبلة وإب وأعمالها، من قبل عبد النبي بن مهدي في الفترة ما بين (558 - 569هـ / 1172 - 1173م)⁽⁵³⁾، وتفقّه به جماعة⁽⁵⁴⁾.

وكان الأمير عثمان بن علي الزنجبيلي (ت 588هـ / 1192م) قد أقام مسجد الزنجبيلي بعدن، خلال ولايته بها، وكان ذلك في بداية العصر الأيوبي، ووقف عليه خان البز للصرف عليه، وما زاد عن حاجته كان يرسل للإنفاق على الحرم المكي، ووقف عقاراً ودوراً ودكاكين كثيرة بعدن على الحرم المكي⁽⁵⁵⁾.

كما أوقف الأمير عثمان الزنجبيلي "مدرسة الزنجبيلي" إضافة إلى رباط بمكة على الحنفيين فقط وذلك سنة (579هـ / 1183م)، وكان ينفق عليها من الأوقاف التي خصصها لها وللحرم في عدن⁽⁵⁶⁾.

ومن علماء النحو ارتحل الحسن بن إسحق بن أبي عباد (ت 590هـ / 1193م) من اليمن إلى مكة، وصنف مختصراً في النحو فيها، وكان إماماً في النحو في القطر اليمني في عصره، ويعرف بأبي عباد وهي كنية أبيه⁽⁵⁷⁾.

(51) الأهدل، تحفة الزمن، ص 292.

(52) الإسنوي، طبقات الشافعية، ج 2، ص 213، وعبد الله الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص 99، وهادي عطية، نشأة الدراسات النحوية، ص 237.

(53) الجندي، السلوك، ج 1، ص 337، والأهدل، تحفة الزمن، ص 292، وأيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية، ص 71.

(54) الجندي، السلوك، ج 1، ص 338، وأبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ق 2، ص 220 - 221.

(55) ابن الديبع، قرة العيون، ص 273، وأبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ق 20، ص 131، وجميل حرب، الحجاز واليمن، ص 221.

(56) أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ق 2، ص 131، 193، والفاسي، شفاء الغرام، ج 1، ص 529، والديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، ص 82، وجميل حرب، الحجاز واليمن، ص 197.

(57) السيوطي، بغية الوعاة، ج 1، ص 500، وهادي عطية، نشأة الدراسات النحوية، ص 234.

ولقد أشار الجندي إليه وإلى ابن أخيه، إذ قال: "ومنهم من أهل ذي أشرق الأديان الفاضلان الحسن بن أبي عباد، وابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أبي عباد، إماما النحو في بلاد اليمن في عصرهما، وإليهما كان أهل النحو يرتحلون من الأنحاء، وكانا فاضلين صالحين مختصرهما يدل عليهما وعلى فضلهما... ذلك أن غالب فقهاء اليمن وأنحائها كل منهم لا يستفتح الاشتغال بصناعة النحو إلا به مع تساهل ألفاظه واقتراب عباراته... ألفه في الحرم تجاه الكعبة... ولابن أخيه إبراهيم مصنفات غير المختصر منها "تلقين المتعلم" وهو كتاب مختصر ومفيد، ذكر أنه اختصره من كتاب سيبويه"⁽⁵⁸⁾.

وكان الشيخ علي بن محمد بن غليس العريقي (ت 596هـ/1199م) من فقهاء اليمن، يتردد على مكة، وارتحل إلى الشام والعراق، وجاور في المساجد الثلاثة، وكان له اهتمام بنشر العلم في اليمن، والإنفاق عليه، إذ ابتنى في وصاب ثلاث مدارس، وأوقف عليها درراً من ماله ومال أخيه عمر، كما أحضر لها كتباً كثيرة وقام بوقفها وأوقف المدارس على: "متعلم القرآن ودارس الفقه"⁽⁵⁹⁾.

وكان الفقيه محمد بن مفلح بن أحمد العجيبى (ت آخر المائة السادسة) قد ارتحل من قريته أبين في اليمن إلى مكة، وأقام بمكة يدرس ويفتي مدة من الزمن حتى أصبح يعرف بمفتي الحرم، أخذ عنه الفقه فقهاء مثل عمرو التباعي"⁽⁶⁰⁾.

وكان الفقيه عمرو بن حمير التباعي السحولي المخادري (ت آخر المائة السادسة) في مكة، يمتنياً من أعيان الفقهاء وعبادهم وزهادهم كثير الحج إلى مكة وربما جاور فأخذ عن محمد بن مفلح العجيبى كتب الغزالي كالوسيط والوجيز، وقد ذكر الجندي أن عمرو التباعي أخذ ما كتبه الغزالي في الفروع وكره أن يأخذ كتب الغزالي في الأصول، ويعلل الجندي ذلك بسبب أن عمرو التباعي هذا كان حنبلياً غالباً"⁽⁶¹⁾.

(58) الجندي، السلوك، ج1، ص 248.

(59) الأهدل، تحفة الزمن، ص 298، وإسماعيل الأكوخ، المدارس الإسلامية في اليمن، ص 17.

(60) الأهدل، تحفة الزمن، ص 329، الجندي، السلوك، ج1، ص 370-409.

(61) الجندي، السلوك، ج1، ص 341.

ومن علماء العربية بمصر ومقرئها ، ابن أبي نوح المصري (ت 600هـ / 1203م) كان شيخ العربية في مصر ، ضاق به العيش فرحل عن مصر إلى مكة حاجاً سنة (585هـ / 1189م) ، وبعد أدائه الحج ، رحل إلى اليمن وأقام بزبيد ، وتصدر بها للإقراء وأفاد منه اليمنيون ، ثم رحل عن زبيد ونزل الجبل بذى جبلة⁽⁶²⁾.

ورحل من زبيد في اليمن إلى مكة الفقيه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف سنة (609هـ / 1212م) حيث سكن مكة ، ونشر بها العلم هناك ، وله عدة مصنفات في الحديث والرقائق ، وانتفع به الناس كثيراً ، له كتاب "الميمون" جمع فيه الأحاديث الواردة في فضائل اليمن ، وكان كثير التردد بين الحرمين الشريفين ، وكان يقال له شيخ الحرمين ، أخذ العلم عن جماعة من أهل مكة ومن القادمين إليها ، وكان عالي الإسناد فأخذ عنه جماعة كثيرون من أهل مكة وغيرهم ، ولم يزل بمكة حتى توفي سنة (617هـ / 1220م)⁽⁶³⁾.

ويعتبر الفقيه ابن أبي الصيف فقيهاً شافعيًا ، له علم بالحديث ، ومن كتبه الأخرى: "الأربعون حديثاً" وكتاب سماه "زيارة الطائف" ذكره العبدري⁽⁶⁴⁾. قال عنه الفاسي: "اليمني الشافعي نزيل مكة ومفتيها..."⁽⁶⁵⁾ وذكره الجندي ، إذ قال: "سكن مكة ، وانتهت إليه رئاسة الفقه بها ، بعد محمد بن مفلح الأيبي ، وهو أحد الحفاظ المكثرين ، لقي عدة من الفقهاء والمحدثين ، وعاصر جمعاً منهم كالحافظ السلفي ، وابن الجوزي وغيرهما ، فانتتهت إجازته إلى مكة"⁽⁶⁶⁾.

ويذكر أن مكة أصابها قحط سنة (618هـ / 1221م) ، مما أدى إلى هجرة بعض المجاورين فيها إلى اليمن مثل الشيخ المقرئ المحدث أبي الفتوح برهان الدين نصر بن

(62) الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج2 ، ص48 ، القفطي ، إنباء الرواة ، ج2 ، ص185 - 186 ، وهادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص217.

(63) الشرجي ، طبقات الخواص ، ص314 ، الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج2 ، ص48.

(64) الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج2 ، ص19 ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ص141.

(65) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج1 ، ص139.

(66) الجندي ، السلوك ، ج1 ، ص409.

محمد بن أبي الفرج وأحمد بن الحصري الهمداني البغدادي الحنبلي حيث انتقلا إلى "المهجم" باليمن⁽⁶⁷⁾.

وفي سنة (619هـ/1222م)، يذكر أن الملك المسعود صاحب اليمن كان قد عمر مسجد الهليلجة في مكة⁽⁶⁸⁾.

ورحل إلى مكة من اليمن أبو محمد عبد الله بن علي الأسدي (ت 620هـ/1223م) وهو من بلاد ناحية جازان، انتقل إلى مدينة زيد وصحب الشيخ الصياد وعلي الحداد، ولما ظهر الشيخ عبد القادر الجيلاني واشتهر ذكره باليمن، وصل الخبر بأنه حجّ في تلك السنة، فخرج الشيخ عبد الله الأسدي حاجًا قاصدًا مواجهة الشيخ الجيلاني ومقابلته، فالتقاء بعرفات، وأخذ عنه اليد "الطريقة الصوفية" وسمع عليه شيئًا من الحديث النبوي، ثم رجع إلى اليمن، واستوطن موضعًا يقال له الحدية، وكان الشيخ عبد الله الأسدي يتردد على مكة، وكان يحج بالناس من اليمن إلى مكة⁽⁶⁹⁾.

وكان الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن جديد (ت 620هـ/1223م) قد انتقل إلى مكة، وكان يعرف عند أهل اليمن بالشريف أبي الحديد، أصله من حضرموت، قدم عدن وأدرك بها القاضي إبراهيم بن أحمد القريظي فأخذ عنه "المستصفى" ثم سكن بذي هزيم، ثم أقام بالجبلية وصار له فيها ذكر شائع وقصده الطلبة من أنحاء اليمن للأخذ عنه، فأخذ عنه القاضي محمد بن مسعود السفاني وأبو بكر بن ناصر الحميري، ومحمد بن إبراهيم الفشلي وغيرهم.

وسافر إلى الديبل ثم ظفار ثم اليمن ثم تهامة، وأقام بزييد مدة، ثم أقام بقرية يقال لها المزحف من أعمال سرحد، فدرس زمانًا في مسجدتها، ثم سافر إلى مكة المشرفة⁽⁷⁰⁾.

وفي سنة (623هـ/1226م) أمر الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول المالكي المسعود، بعمارة دار في مكة تضم مسجدًا باسم دار أبي بكر الصديق، وذلك طلبًا لثواب الله تعالى⁽⁷¹⁾.

(67) الحنبلي، شذرات الذهب، ج 5، ص 83، وجبل حرب، الحجاز واليمن، ص 134.

(68) الفاسي، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، ج 1، ص 430.

(69) الشرجي، طبقات الخواص، ص 179.

(70) أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج 2، ص 157-158.

(71) الفاسي، شفاء الغرام، ج 1، ص 438، وانظر: ص 436.

ورحل إلى مكة من الجند باليمن الفقيه أبو بكر بن يحيى بن إسحق العياني (ت 628هـ / 1230م) ، تفقه بجماعة وتفقه به آخرون ، حج سنة (580هـ / 1184م) ، وكان قد تنقل بين الجند وزبيد ومكة ، وكان أهل العلم يقولون: رُئي الفقيه أبو بكر بن يحيى وهو يطوف بالبيت وحوله ثلاثمائة فقيه ، يطوفون بطوافه ويمشون بمشيه... ويذكر أن والده الشيخ يحيى بن إسحق كان من أعيان اليمن في سعة المال وفعل المعروف في بلده وفي مكة المشرفة ، ومواساة الفقراء والمنقطعين ، وطلبة العلم ، بحيث إنه قد يجتمع عندهم نحو المائة من الطلبة وغيرهم فيقومون بكفاية الجميع من الطعام ، ويقصده الطلبة من أنحاء اليمن رغبة في علمه وإنسانيته ، ذكر ابن سمرة صاحب طبقات فقهاء اليمن أنه تفقه عليه ، وكانت وفاة الفقيه أبو بكر يحيى في السكاسك من اليمن⁽⁷²⁾.

ومن العلماء الذين رحلوا إلى مكة ثم اليمن الفقيه أبو عبد الله بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي القلعي (ت نحو 630هـ / 1232م) نسبة إلى قلعة حلب المعروف بالشام على الأرجح ، كان فقيهاً كبيراً ، وله مصنفات عدة انتفع الناس بها ، منها "قواعد المذهب" و"مستغرب ألفاظه" و"إيضاح الغوامض من علم الفرائض" وله مصنفات أخرى كثيرة وهي توجد بظفار وحضر موت ونواحيها ، وعنه انتشر الفقه بتلك الجهة.... ويذكر أنه قدم من الحج إلى مرباط في اليمن في مركب للتجارة ، وكان الفقه بمرباط قليلاً ، فلما سمع قاضيها بقدمه قصده وسأله عدة مسائل فأجاب عنها ، فأعجب القاضي بعلمه وحسن خلقه ، وسأله أن يقيم عندهم ، على أن لا يتركوه يحتاج إلى شيء ، فقبل... فأقبل على التدريس ونشر العلم ، فتسامع الناس به إلى حضر موت ونواحيها فقصدوه ، وأخذوا عنه الفقه وغيره ، ومن تفقه به أحمد ابن محمد بن صمع ، ويشار إلى أنه كان قد حج من مرباط ، فأخذوا عنه بمكة وزبيد وغيرهما من البلاد التي مر بها ، وعاد إلى مرباط فكانت وفاته فيها⁽⁷³⁾.

ومن رحل إلى مكة من اليمن الفقيه أبو محمد عبد الله بن أحمد الزيايدي المعروف بأبي قفل (ت 631هـ / 1233م) كان فقيهاً حافظاً يروي عن الحافظ السلفي وأخذ عن محمد بن

(72) الشرجي ، طبقات الخواص ، ص 396 ، والأهدل ، تحفة الزمن ، ص 345-346 ، الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 387.

(73) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 454-455.

طاهر بن الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني سيرة ابن هشام ، تفقه وكتب الكثير بخطه وكان رجلاً صالحاً ، وقف كتبه بمكة⁽⁷⁴⁾.

ورحل إلى مكة من اليمن الفقيه محمد بن أحمد بن سليمان بن بطال (ت 633هـ/1235م) تفقه بإبراهيم بن حديق ، وكان كثير التردد بين بلده (ذي يعمد) وعدن وجباً فأخذ بجباً عن محمد بن أبي القاسم الجبائي شارح المقامات.

وأخذ بعدن عن القاضي أحمد القريظي ، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بها 14 سنة ، لم يترك أحداً من الواردين إليها أو المقيمين بها لديه فضل إلا أخذ عنه ، وأخذ عن أبي الصيف ولازم صحبته ، قال الجندي: " رأيت إجازته له سنة 601هـ/1204م " وكان عالماً إماماً فاضلاً عارفاً بالقراءات والتفسير والأصول والفقه والنحو واللغة ، وبه تخرج جماعة من الفقهاء وأخذ عنه جمع من الفضلاء منهم جمهور بن علي بن جمهور صاحب المذاكرة العربية في النحو وأبو الخير بن منصور الشماخي وغيرهما ، وابتنى ببلده مدرسة عرفت باسم مدرسة ابن بطال وكان يدرس بها ويقوم بالمنقطع من الطلبة ، وله مصنفات مفيدة منها: " المستغرب " المتضمن شرح غريب ألفاظ المذهب ، وكان قد أوقف كتبه وجملة من أرضه على المدرسة وتوفي ببلده (ذي يعمد)⁽⁷⁵⁾.

وكان نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي ملك اليمن بعد المسعود قد حج سنة 631هـ/1233م على النجب ، وكان كثير الصدقات في الحرم ، كما كان يرسل قناديل الذهب والفضة هدايا للكعبة ، كما حج سنة 639هـ/1241م ، وأبطل المكوس والجبايات بمكة ، وكتب ذلك في مربعة علقها تجاه الحجر الأسود⁽⁷⁶⁾ ، وفي سنة 641هـ/1243م قام بتعمير المدرسة المنصورية بمكة ، وكان يتصدق على أهل مكة والمجاورين لها كل سنة بصدقة جلييلة⁽⁷⁷⁾.

(74) أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ق2 ، ص 108-109.

(75) أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ق2 ، ص 200 ، وانظر: هادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص 31 ، 243-244 ، الأعلام ، ج5 ، ص 320 ، وإسماعيل الأكرع ، المدارس الإسلامية ، ص 117-118.

(76) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج1 ، ص 192 ، وجيل حرب ، الحجاز واليمن ، ص 21.

(77) الديبع ، قرّة العيون ، ص 308-312.

وكانت تلك المدرسة قد تم وقفها في مكة من قبل ملك اليمن المذكور على الفقهاء الشافعية ، ويبدو أنها كانت مدرسة عظيمة وقف عليها الأوقاف الجليلة في اليمن، قال عنها الخزرجي: "بحيث يغبطه عليها سائر الملوك" وقد رتب فيها مدرسا وطلابا وإماما ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن ، ووقف على الجميع أوقافا للإنفاق عليهم وسد متطلباتهم وقد درس بهذه المدرسة إمام المالكيين بالحرم أبو البركات القسطلاني الحديث لأنها كانت مدرسة شافعية والفقهاء فيها شافعي⁽⁷⁸⁾.

ومن الذين رحلوا وترددوا إلى مكة وإلى اليمن الفقيه أبو الفضل الحسن ابن محمد ابن الحسن الصغاني (توفي 640هـ / 1242م أو 650هـ / 1252م) والصغاني نسبة إلى قرية من قرى سمرقند ، تنقل بين مكة واليمن وبغداد ، كان إماما كبيرا متضلعا بعلوم شتى منها النحو واللغة والحديث والفقه وفقه مذهب أبي حنيفة ، قدم اليمن مرارا وأقام في عدن وصحبه ولد الفقيه بطلال ، ثم أقام "بذي يعمد" فقصده جمع من الفقهاء إلى هناك ، وأخذوا عنه ، وكانت مدرسته بمدينة عدن ، بجانب المسجد الذي يعرف بابن البصري ، ولذلك انتشر عنه العلم انتشارا واسعا ثم قدم تعز فأخذ عنه الشيخ أحمد بن علي السرددي كتاب مقامات الحريري ، وفي آخر عمره سكن الفقيه الصغاني مكة ، وأقام بها مجاورا فكان يسمى بـ "الملتجي إلى حرم الله" حتى أنه طلب أن يدفن في مكة ، ويوصف بأنه كان حنفيا وحامل لواء اللغة في زمانه وله من التصانيف "مجمع البحرين" في اللغة و "التكملة على الصحاح" و "العباب الزاخر" و "اللباب الفاخر" فكان إماما في اللغة والحديث والفقه⁽⁷⁹⁾.

وفي سنة (645هـ / 1247م) ، أمر الملك قطب الدين أبو بكر ابن الملك المنصور عمر ابن علي صاحب اليمن بتجديد عمارة مسجد بمنى عند الدار المعروفة بدار النحر بين

(78) أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج 2 ، ص 179 ، والديبع ، قرة العيون ، ص 308 ، وجميل حرب ، الحجاز واليمن ، ص 198 ، وإسماعيل الأكوخ ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص 39.

(79) الجندي ، السلوك ، ج 2 ، ص 401-402 ، 403. والفيروزآبادي ، البلغة ، ص 87 ، والسلامي ، تاريخ علماء بغداد ، ص 39 ، والقنوجي ، أبجد العلوم ، ج 3 ، ص 216-217 ، وهادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص 221.

الجمرة الأولى والوسطى ، على يمين الصاعد إلى عرفة ، ويقال: "إن هذا المسجد ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم"⁽⁸⁰⁾.

وفي سنة (647هـ/1249م) ، سار الملك المنصور نور الدين عمر بن علي ابن رسول إلى مكة ودخلها في عساكره معتمراً محرماً ملبياً ، وفرق فيها أموالاً عظيمة ، وله بمكة مدرسة معظمة ، أوقف عليها ما يقوم بكفائتها⁽⁸¹⁾. وكان له من الآبار في مكة البئر المعروفة باسمه عند سيبله وتعرف بالزكاة⁽⁸²⁾.

والسيد الشريف العيسى (ت 651هـ/1253م) أصله من دمشق ، وقدم اليمن بقصد الاجتماع بالشيخ أبي الغيث والفقهاء سفيان الأيبي ، واجتمع بهما وانتفع بصحبتهم ، وسكن اليمن مدة ثم رجع إلى بلده ثم عاد إلى اليمن مرة أخرى ونقل عياله وسكن مدينة عدن ، ثم انتقل هو وعياله إلى مكة المشرفة ، وبقي فيها حتى توفي⁽⁸³⁾.

ويذكر أن للملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن كسوة للكعبة وكان أول من كسا الكعبة من الملوك ، بعد انقضاء دولة بني العباس من بغداد ، وكان ذلك سنة (659هـ/1260م)⁽⁸⁴⁾ ، وكذلك في سنة (661هـ/1262م) أمر بكسوة الكعبة والحجر الشريفة النبوية صلى الله عليه وسلم⁽⁸⁵⁾ ، واستمر بكسوتها عدة سنين مع ملوك مصر ، وانفرد بكسوتها في بعض السنين وكان المستولي لذلك غالباً⁽⁸⁶⁾ ، كما أقام موضعاً جعله علامة للموقع الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في سنة (666هـ/1267م)⁽⁸⁷⁾.

(80) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج 1 ، ص 421.

(81) الديبع ، الفضل المزي ، ص 89-90 ، والفاسي ، شفاء الغرام ، ج 1 ، ص 104.

(82) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج 1 ، ص 552.

(83) الشرجي ، طبقات الخواص ، ص 411.

(84) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج 1 ، ص 201.

(85) الديبع ، قرة العيون ، ص 327.

(86) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج 1 ، ص 201.

(87) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 433.

وفي سنة (674هـ / 1275م) كان الملك المظفر صاحب اليمن قد عمر ما تشعث من مسجد الخيف ، كما أمر بإنشاء المنارة في هذا المسجد ، ويذكر أن اسمه مكتوب في لوح في المنارة إلى زمن الفاسي صاحب كتاب "شفاء الغرام"⁽⁸⁸⁾. كما قام الملك المظفر بعمل باب للكعبة كان عليه صفائح فضة زنتها ستون رطلاً فحلا بابها كما حلاها من بعده حفيده الملك المجاهد صاحب اليمن⁽⁸⁹⁾ ، ويذكر أن الملك المظفر صاحب اليمن كان قد أنشأ مدرسة على مقربة من باب العمرة في مكة وقام بمصالح الحرم وأهله⁽⁹⁰⁾ ، كما أمر سنة (680هـ / 1281م) بتجديد رخام الكعبة⁽⁹¹⁾.

وكان الملك المظفر صاحب اليمن يحل العلماء والصالحين وكان لا يفتقر عن القراءة على الفقيه محمد بن إبراهيم الحضرمي وغيره في الفقه ، وقرأ الحديث على الفقيه محمد بن إبراهيم الفشلي وعلى محب الدين الطبري ، وكان له اشتغال في فنون شتى من العلم ، قال الفقيه محمد الحضرمي معلم المظفر : كان مولانا المظفر يكتب كل يوم مائة آية من كتاب الله تعالى ويكتب تفسيرها ويحفظها مع تفسيرها ويدرسها عن ظهر غيب⁽⁹²⁾.

ورحل من اليمن إلى مكة الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن المعروف بالفشلي (ت 661هـ / 1262م) كان قد أخذ عن جماعة من الأكابر كالشريف أبي حديد ، وابن حرويه الموصللي وغيرهما ، وارتحل إلى مكة والمدينة وأخذ عن أعيانها كابن أبي الصيف وعمر بن عبد المجيد الفرسى وغيرهما : وأخذ عنه كثيرون من أهل اليمن وغلب عليه علم الحديث فكان إماماً فيه ، ومن أخذوا عنه الفقيه أحمد بن علي السرددي ، شيخ الجندي صاحب كتاب السلوك ، وكانت للفشلي مكانة عند الملك المنصور صاحب اليمن ثم عند ولده المظفر الذي سمع عليه عدة من كتب الحديث مع جمع كثير⁽⁹³⁾.

(88) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 428.

(89) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 168 ، 188 ، 189.

(90) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ص 96 ؛ إسماعيل الأكوخ ، المدارس الإسلامية ، ص 106 - 107.

(91) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج 1 ، ص 164.

(92) الديبع ، قرّة العيون ، ص 335 ، والجندي ، السلوك ، ج 2 ، ص 279.

(93) الجندي ، السلوك ، ج 2 ، ص 29.

ومن الواردين على عدن الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر حسين بن علي التيمي (ت 676هـ / 1277م) فارسي بلدًا ، ونسبهم يرجع إلى أبي بكر الصديق . قدم والده من بلد فارس إلى مكة فجاور بها 16 سنة ثم قدم إلى عدن ، فولد محمد هذا في عدن ، ونشأ فقرأ على البيلقاني الفقه والمنطق والأصول ، وأخذ عن الصغاني اللغة وأخذ عن الشريف الطب والمنطق والموسيقى وعلم الفلك وبه اشتهر وله فيه مصنفات عديدة ، وله أيضًا في الموسيقى كتاب: "دائرة الطرب" ورسالة فيه ، وعلم الفلك⁽⁹⁴⁾.

ومن الذين سافروا في البلدان ومنها مكة وعدن، الفقيه الزكي بن الحسن أبو طاهر شمس الدين البيلقاني بلدًا الأنصاري نسبًا الشافعي مذهبًا (ت 676هـ / 1277م) خرج هو وابن عمه من بلدهما للقراءة على الإمام فخر الدين الرازي فأخذوا عن الرازي ما أخذوا ثم عادا إلى بلدهما ، ثم سافرا إلى بلد المعبر فأقاما بها مدة ثم سافرا إلى عدن بأولادهما ثم إلى مكة ثم إلى الإسكندرية فأقبل الناس على ابن عمه وشهر بالعلم والزهد فعين للقضاء ، فانتقل الزكي البيلقاني إلى عدن فلما صار بعدن كتب محمد بن الفارسي إلى المظفر صاحب اليمن يعلمه بقدمه وأنه من أكابر علماء العجم، ثم إن المظفر رتبته مدرسًا في مدرسة أبيه بعدن ، ورتب ابنه معيدًا معه ، وكان فاضلًا في علم المواريث والحساب ، وعنه أخذ الأصول والمنطق جماعة مثل أحمد ابن محمد الحرازي.

وتفقه البيلقاني بجماعة منهم فخر الدين محمد بن أبي بكر النوقاني ، قرأ عليه كتاب الوجيز وتفنن في العلوم بالعلامة قطب الدين إبراهيم بن علي الأندلسي المصري ، وتفقه به جماعة ورووا عنه وانتفعوا به ، ومن أخذوا عنه الإمام أبو الخير بن منصور الشماخي والفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي⁽⁹⁵⁾.

ورحل إلى مكة الفقيه أبو الخير بن منصور بن أبي الخير الشماخي (ت 680هـ / 1281م) من حضر موت ، قدم زبيد فأقام بها مدة يطلب العلم ثم سافر إلى مكة ، فأخذ عن جمع من

(94) الجندي، السلوك، ج2، ص 429، وانظر: أبو غرمة: تاريخ ثغر عدن، ق2، ص51.

(95) أبو غرمة، تاريخ ثغر عدن، ق2، ص80-81.

العلماء ثم رجع إلى زبيد وقد تفضلع من العلوم ، وكان المظفر صاحب اليمن قد رغبه في الإقامة باليمن لينتفع الناس بعلمه وسامحه في أملاكه ، وكان الفقيه الشماخي إمامًا في الفقه والنحو واللغة والحديث والتفسير والفرائض وله تصانيف جيدة ، وأدرك أصحاب الحافظ السلفي بمكة كابن الحميري ، ثم دخل عدن وقصد الفقيه علي بن محمد بن حجر ، وجمعت خزائنه من الكتب ما لم يجمعه غيره ممن هو نظير له ، فقليل إن فيها مائة أم سوى المختصرات⁽⁹⁶⁾ . وذكر أنه : "لم يكن له في آخر عمره نظير بجودة العلم وضبط الكتب بحيث لا يوجد لكتبه نظير في الضبط " ، وكان مداومًا على النظر في الكتب وعنده محبرة وأقلام يصلح بها ما وجد في الكتاب الذي ينظر فيه ، وكانت وفاته بمدينة زبيد⁽⁹⁷⁾ .

ومن علماء وفقهاء المائة السابعة أحمد بن عمر أبو العباس القزويني ، الذي ولد سنة (639 هـ / 1241 م) ، وأقام مع والده بمكة المشرفة ، سنين عديدة أدرك بها جماعة من الفضلاء وأخذ عنهم كعبد الصمد بن عساكر وابن خليل وعز الدين الفاروئي والدلاصي ، ثم دخل عدن واستوطنها وانتفع به الناس انتفاعًا عظيمًا فقل من يدخل لطلب الحديث أو التفسير ويرشد إلى غيره ، وهو شيخ الجندي صاحب السلوك ، أخذ عنه منظومة الحاجبية ووسيط الواحدي في التفسير ، وإجازة عامة ، وكان صبورًا على الإقراء موافقًا للطلبة ، وكان يدرس في مسجد السماع بعدن وكان إمامًا فيه⁽⁹⁸⁾ .

ومن المتصوفة الذين تنقلوا بين القدس ومكة واليمن ، ابن الخطاب عمر بن عبد الرحمن بن حسان القدسي (ت 688 هـ / 1289 م) قدم من القدس إلى مكة حاجًا ثم انتقل إلى اليمن لينشر فيه الخرقه ، واجتمع في اليمن بالفقيه عمر بن سعيد العقيبي ، فأقام عنده بذي عقيب أيامًا وذلك سنة (649 هـ / 1251 م) ، فشهروه الفقيه عمر وبجلة ثم أسكنه موضعًا على قرب منه يعرف بالمشعب ، ثم انتقل منه إلى أماكن بنى له بها ربطًا ، حتى كان آخر رباط سكنه الذهوب تحت مدينة إب ، فلم يزل به حتى توفي بهذا الرباط بعد أن انتشرت عنه الخرقه

(96) أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ق2 ، ص71 ، الجندي ، السلوك ، ج2 ، ص30 .

(97) الجندي ، السلوك ، ج2 ، ص30 ، والجزري ، العقود اللؤلؤية ، ج1 ، ص219 .

(98) أبو مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ق2 ، ص11-12 ، والجندي ، السلوك ، ج2 ، ص428 .

الرفاعية ، لا سيما بجهة المخلاف. ويذكر أنه لم يعقب غير ابنة تزوجها خليفته الشيخ عيسى بن محمد بن عمران الصوفي ، وهي من أخيار النساء ، حاذقة عفيفة ، قارية كاتبة⁽⁹⁹⁾.

ومن علماء المائة السابعة وفقهائها الذين كانوا يترددون على مكة من اليمن ، الفقيه أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن سفيان ، كان مولده بعد (660هـ / 1261م) من عدن ، كان فقيهاً فاضلاً تفقه بآب الأديب وابن الحرازي ، وغيرهما من الواردين على عدن ، كالزنجاني والقلهاني ، وكان كثير الحج إلى مكة وفي فترة إقامته في عدن كان يدرس في بيته ، وبه تفقه جماعة من أهل عدن⁽¹⁰⁰⁾.

ورحل إلى مكة من اليمن الفقيه أبو محمد عبيد بن أحمد بن مسعود بن عبد الله ابن مسعود الترخي (ت 694هـ / 1294م) ، درس في مدرسة المسانيف ، وهي في الغرب الشمالي من ذي جبلة ، تلك المدرسة التي بناها فاتن بن عبد الله المعزي ، وكان الفقيه الترخي فقيهاً نبياً عارفاً محققاً ، تفقه بجماعة منهم أبو بكر بن ناصر وعلي بن الحسن الوصابي ، ورحل إلى زبيد فتفقه بها وأخذ عن بعض علمائها ، ولما حج أخذ بمكة عن أبي النعمان بشير بن أبي بكر التبريزي ، وقد تفقه به جماعة من بلده وغيره ، وسأله جماعة من الفقهاء أن يقف لهم في مدرسة المسانيف ليسمعوا عليه "البيان" فسمعه عليه جماعة من الفقهاء ، وارتحل الترخي إلى زبيد فأخذ بها "الفرائض" عن سعيد بن معاوية و"التنبيه" عن القاسم وسمع "البيان" على عبد الله بن يحيى⁽¹⁰¹⁾.

ومن الفقهاء الكبار الذين قدموا من مكة الفقيه محب الدين الطبري أحمد بن محمد بن عبد الله (ت 694هـ / 1294م) قدم من مكة إلى تعز باستدعاء من الملك المظفر صاحب اليمن ، فأقام بها وسمع الفقهاء عليه عدة كتب ، وقرأ عليه المظفر سماعاً كتباً من الحديث والفقه وغيرها⁽¹⁰²⁾. ووصف بأنه شيخ الحجاز واليمن وشيخ الشافعية ومحدث الحجاز ، كان له مكانة عظيمة عند الملك المظفر⁽¹⁰³⁾.

(99) الجندي ، السلوك ، ج2 ، ص 60 ، والجزري ، العقود اللؤلؤية ، ج1 ، ص 251.

(100) أبو خزيمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج2 ، ص 120.

(101) الجندي ، السلوك ، ج2 ، ص 222 - 223 ، إسماعيل الأكوخ ، المدارس الإسلامية في اليمن ، ص 16.

(102) الجندي ، السلوك ، ج2 ، ص 79.

(103) الديبع ، قرة العيون ، ص 335 (الهامش) ، الإسنوي ، طبقات الشافعية ، ج2 ، ص 72.

ومن الشعراء شاعر المخلاف السليماني في عصره الشاعر القاسم بن علي بن هتيمل الحزاعي (ت 696هـ / 1296م) كان كثير التنقل بين اليمن والحجاز⁽¹⁰⁴⁾.

وكان المقرئ عبيد بن محمد (ت 696هـ / 1296م) وهو من جباً باليمن ، قد أخذ علم القراءات عن علماء مكة في القراءة مثل ابن الحذاء وغيره ، حتى برع فيه ، وهو من أهل بيت يحفظون القرآن ، وكان قد حج وتنقل بين مكة والمدينة المنورة⁽¹⁰⁵⁾.

ورحل إلى مكة الفقيه يوسف من بني عبد الملك ثم من بني ضباس في اليمن من الجبال (ت آخر المائة السابعة) كان فقيهاً متفنناً بالفقه والنحو واللغة ، تفقه في بدايته ببعض أهله وأخذ النحو عن محمد بن سعيد الحميري ، وحج مكة فأدرك ابن حسن فأخذ عنه ، وعمن وجد بمكة⁽¹⁰⁶⁾.

ورحل إلى مكة الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي الكاشغري (ت 705هـ / 1305م) وصنف بمكة أثناء إقامته بها كتاباً سماه "مجمع الغرائب ومنبع العجائب" في أربعة مجلدات. أقام في مكة 14 عاماً ، كان حنفي المذهب ، فانتقل إلى مذهب الشافعية وابتنى رباطاً في أماكن متفرقة ، وقرأ مذهب الشافعية على الفقيه يحيى بن إبراهيم في إب ، أما النحو واللغة فوصل إلى بلده وهو عارف بهما ، وفي كتب التفسير والوعظ وغالب مصنفات ابن الجوزي ، وترك النظائر بالتصوف ، ومال إلى طريقة الفقه ، فرتبه القاضي بهاء الدين مدرساً بالمدرسة المظفرية سنة (690هـ / 1291م) ، في أعلى مغربة تعز ، كان له رباط بقرية البيهاقر ، ورباط في ساحل موزع وغرس هناك نخلاً كثيراً وكان يختلف إليه في أيام ثمرته ويعود إلى مدينة تعز عند فراغه ، وكانت وفاته بموزع⁽¹⁰⁷⁾.

(104) الخرجي ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، ج 1 ، ص 111 ، 158 ، 195 ، الزركلي ، الأعلام ، ج 5 ، ص 178.

(105) الأهدل ، تحفة الزمن ، ص 352.

(106) الجندي ، السلوك ، ج 1 ، ص 382-383.

(107) الجندي ، السلوك ، ج 2 ، ص 143 ، وإسماعيل الأكوع ، المدارس الإسلامية في اليمن ،

ص 110 ، وهادي عطية ، نشأة الدراسات النحوية ، ص 246.

الخلاصة:

تناول هذا البحث الصلات العلمية بين الحجاز واليمن في الفترة بين (400-700هـ/1009-1300م)، وقد خلص البحث إلى ما يلي:

- لم تتوقف الرحلة والصلات العلمية بين الحجاز واليمن، خلال فترة الدراسة، وقد ساعد على ذلك موسم الحج السنوي، وقدوم العلماء وطلبة العلم، ليشهدوا هذا الموسم، ويلتقوا بالعلماء من شتى أرجاء وبقاع الأرض.

- تبين أن هناك علماء رحلوا من الحجاز إلى بلاد اليمن، طلباً للعلم أو الإقامة في ربوعها والمساهمة في نشر العلم في مراكزها الحضارية المعروفة، وربما كانت بعض الظروف مثل "القحط" سبباً في هجرة بعض الشيوخ المجاورين في مكة لينتقلوا إلى اليمن مثل: الشيخ المقرئ المحدث أبي الفتوح برهان الدين نصر بن محمد ابن أبي الفرج والشيخ أحمد بن الحصري الهمداني البغدادي الحنبلي حيث انتقلا إلى "المهجم" باليمن، بسبب القحط الذي أصاب مكة سنة (618هـ/1221م).

وهناك حالات هاجر فيها العلماء من اليمن إلى مكة بسبب الفتن التي حدثت في اليمن مثل: هجرة القاضي أبي الطيب طاهر بن يحيى بن أبي الخير (ت 587هـ/1191م)، إلى مكة، إذ هاجر إليها بأولاده بسبب الفتن في بلاده وقتل العلماء، فأقام في مكة سبع سنين، وعاد إلى اليمن سنة (566هـ/1170م).

- كان بعض الأمراء والحكام قد سهلوا الطريق بين اليمن والحجاز أمام المتنقلين بين ربوعها مثل: أمير تهامة الحسين بن سلامة النوبي، الذي يشار إليه بأنه "أنشأ الجوامع الكبار والمنابر الطوال من حضر موت إلى مكة"، وهذا سهّل الحركة والتواصل والرحلة في طلب العلم بين هذين المكانين الهامين في الجزيرة العربية.

- ظهر أن العلوم التي كانت متداولة والتي أُشير إليها في المصادر هي: القراءات، والحديث، والفقه، والتاريخ، والعربية، والنحو، والشعر، والتفسير، وعلم الكلام، والوعظ، والمنطق، والطب، وهناك إشارات إلى الموسيقى وعلم الفلك.

- تبين حدوث بعض المناظرات العلمية في المطاف في مكة بين علماء من اليمن وعلماء من مكة ، مثل: أبي الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم (ت 558هـ / 1162م) ، من قرية سير من اليمن حيث حج بعد سنة 524هـ ، واجتمع في مكة بالفقيه الراعظ المعروف بالعثماني وجرت بينهما مناظرات في شيء من الفقه والأصول.

- ظهر أن بعض العلماء كان قد تصدّى للرد على بعض الفرق مثل: الفقيه يحيى بن أبي الخير (ت 558هـ / 1162) ، الذي صنف كتاباً بعنوان "الانتصار في الرد على القدرية الأشرار" ، كما كان للفقيه سيف السنة أحمد بن محمد البريبي من إب وأقام في مكة (ت 586هـ / 1190م) عدّة كتب يرد بها على المعتزلة والأشعرية ، وكذلك مصنفات طاهر بن يحيى (ت 587هـ / 1191م) ، وهو من إب من اليمن ، له كتاب "كسر قنّة القدرية".

- هناك إشارات للصوفية في اليمن ، ولشيوخها ورحلة بعضهم إلى مكة ، وأخذ الطريقة من شيوخ الصوفية الذين كانوا يحجون إلى مكة ، ثم يعودون إلى اليمن لنشر طرقهم الصوفية ، وهناك إشارات من القرنين السادس والسابع الهجريين ، فيذكر أن الصوفية كانت في "العنبرة" من سواحل زبيد على يد علي بن مهدي بن محمد الحميري الرعيني (ت 554هـ / 1159م) ، فضلاً عن أنه كان يقوم بوعظ الناس في البوادي من سنة (513-536هـ / 1119-1141م).

وهناك المتصوف أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الحداد من اليمن الذي كان قد حج إلى مكة سنة (561هـ / 1165م). ولقي الشيخ عبد القادر الجيلاني فأخذ عنه طريقة التصوف ، وكانت له زاوية في موضع يقال له شذهب في اليمن.

كما يذكر أن الشيخ عبد القادر الجيلاني حج إلى مكة فقابلته في عرفات أبو محمد عبد الله ابن علي الأسدي (ت 620هـ / 1223م) وأخذ عنه اليد "الطريقة الصوفية" وسمع عليه شيئاً من الحديث النبوي ، ثم رجع إلى اليمن في موضع الحُدّة.

وكان عمر بن عبد الرحمن بن حسان القدسي (ت 688هـ / 1289م) من الصوفية قد تنقل بين القدس ومكة واليمن ، وعندما انتقل إلى اليمن نشر فيها الخرقّة الرفاعية في ربط عدّة ، وكان آخر رباط سكنه الذهوب تحت مدينة إب في اليمن.

- تبين أن بعض علماء اليمن كانت لهم مكانة عالية ورفيعة في مكة والحرم المكي مثل: الفقيه أبي أسامة زيد بن عبد الله بن جعفر بن إبراهيم اليفاعي (ت 515هـ / 1121م)، إذ لبث في مكة اثنتي عشرة سنة، جلس خلالها للفتوى والتدريس، ويذكر أنه أثناء إقامته بمكة كان يأتيه فضل من أرضه من اليمن، فيقتات ببعضها، ويتعامل بما تبقى حتى يحصل له مال جزيل، وكان متنزهًا عن صحبة الملوك وجوائزهم. ويشار إلى طريقته في التدريس التي كانت على خلاف بعض العلماء في عصره، إذ كان يقرئ كل من طلب القراءة ولا يسأل عن نسبه وحسبه ومنصبه.

وكذلك الفقيه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف (ت 609هـ / 1212م) من زيد في اليمن، سكن مكة ونشر بها العلم، وكان يقال له: "شيخ الحرمين"، وانتهت إليه رئاسة الفقه بمكة.

- هناك إشارات إلى مكتبات خاصة بالعلماء خلال فترة الدراسة منها مكتبة الفقيه زيد الفائشي (ت 528هـ / 1133م) التي حصلها نتيجة لكثرة علومه ورحلاته واهتماماته، فيذكر أنها جمعت من الكتب ما يزيد على خمسمائة كتاب.

ومن الذين قدموا إلى اليمن من مكة سنة (540هـ / 1145م) الفقيه زيد بن علي ابن الحسين الخراساني الزيدي البيهقي، كان عالم مكة، وعندما وصل إلى اليمن، يذكر أنه كان معه "كتب غريبة، وعلوم حسنة عجيبة".

أما الفقيه يحيى بن أبي الخير من اليمن (ت 558هـ / 1162م) فكانت له مكتبة يخشى على ما فيها من مصنفات حيث كان ينقل ما فيها من كتب معه كلما تنقل من بلد لآخر، قال عنه ابن سمر: "سارت بتصانيفه الركبان في اليمن والشام".

كذلك الفقيه سيف السنة أحمد بن محمد البرهسي من إب في اليمن (ت 586هـ / 1190م)، الذي أقام في مكة، كان ينسخ بعض الكتب الهامة في الفقه، ويأمر بها إلى مكة لتباع فيشتري بأثمانها ورقًا مصريًا أو بغداديًا، وينسخ في ذلك الكتب، ويوقفها حتى أنه أوقف مائة كتاب في مدينة إب، وقد نقل بعضها إلى الجند، وفقد بعضها.

ويذكر أن الفقيه أبا محمد عبد الله الزيايدي المعروف بأبي قفل (ت 631هـ / 1233م) من اليمن، كان قد "وقف كتبه بمكة".

وكان الفقيه محمد بن أحمد المعروف بابن بطلال (ت نحو 633هـ / 1235م) من اليمن قد أوقف كتبه على المدرسة المعروفة باسم مدرسة ابن بطلال. ويُشار إلى الفقيه أبي الخير الشماخي (ت 680هـ / 1281م) من حضرموت، رحل إلى مكة، وانتهى به المطاف في زيد حيث وافته المنية هناك، جمعت خزانته من الكتب ما لم يجمعه غيره ممن هو نظير له فقليل: "إن فيها مائة أم سوى المختصرات" وهي في فنون كثيرة من الحديث، والأصول والفروع، والتفسير، والفرائض، والنحو واللغة، شرط في وقفه لها أنها على أهل السنة دون المبتدعة من الأشعرية وغيرهم، وهناك مؤلفات عديدة أشير إليها في البحث ألفها هؤلاء العلماء الذين رحلوا بين الحجاز واليمن في مختلف صنوف العلوم المتداولة في ذلك الوقت.

- كان العلماء يمنحون تلاميذهم الإجازات العلمية، ومثال ذلك: أجاز الفقيه سيف السنة أحمد بن محمد البريبي (ت 586هـ / 1190م) من إب من اليمن، بإجازة من الشيخ عبد الله بن عمر بن أحمد الوراق في مكة هذا نصها: "استخرت الله العظيم وأجزت الشيخ الإمام الأجل السيد الفقيه ناصر السنة أبا العباس أحمد بن محمد وأولاده الكرام يحيى، وعيسى، وإسماعيل، ومحمد، على أن يرووا عني مسموعاتي وإجازاتي".

وكان الفقيه محمد بن أحمد بن سليمان بن بطلال (ت نحو 633هـ / 1235م) قد رحل من اليمن إلى مكة وجاور فيها أربع عشرة سنة، وأخذ عن ابن أبي الصيف، ولازم صحبته، قال الجندي: رأيت إجازته له سنة (601هـ / 1204م).

- أما الأماكن والمدن التي ورد ذكرها أثناء تنقل العلماء والطلبة فهي ما بين الحجاز واليمن: مكة، المدينة في الحجاز، ومن اليمن: صنعاء، والمشيرف، وسير، والظرافة، وتامة، وذو أشرق السحول، ومخا، وأحاطة، وسهفنة، وزبيد، والجند، وأبين، والدليل، ومرباط، وعدن، وذو يعمد، وجبأ، وتعز، وإب، والذهب، وشذهب، والعنبرة، وحضرموت، وغيرها.

- هناك إشارات إلى مدارس خلال فترة الدراسة في كل من اليمن والحجاز مثل مدرسة وقير في قرية وقير من الشوافي في اليمن، ومدرسة الفقيه اليفاعي، وثلاث مدارس في وصاب، ومدرسة ابن بطلال في ذي يعمد، ومدرسة الصغاني بعدن، ومدرسة "أبو المظفر" بعدن، ومدرسة المسانيف في الغرب الشامي من ذي جبلة درس فيها

الفقيه الترخي (ت 694هـ / 1294م) ، ومن المدارس في مكة: مدرسة الزنجبيلي أوقفها الأمير عثمان الزنجبيلي سنة (579هـ / 1183م) ، والمدرسة المنصورية بمكة ، أنشأها الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول سنة (641هـ / 1243م).

هذا فضلاً عن بعض الزوايا والربط والمساجد التي كانت أماكن تعليم أيضاً يتردد عليها طلبة العلم ، ويتصدر فيها الشيوخ والعلماء للتعليم ، وهناك إشارات للتعليم في بيوت العلماء ، مثل: بيت الفقيه أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (كان مولده سنة 660هـ / 1261م). كان في فترة إقامته في عدن ، يدرّس في بيته ، وبه تفقه جماعة من أهل عدن.

- هناك إشارة واحدة للمرأة في هذا الموضوع ، وهي ابنة المتصوف عمر بن عبد الرحمن بن حسان القدسي ، حيث تزوجها بعد وفاة والدها (سنة 688هـ / 1289م) خليفته الشيخ عيسى بن محمد بن عمران الصوفي ، ويشار إليها بأنها: "من أخيار النساء ، حاذقة ، عفيفة ، قارية ، كاتبة". وفي هذا إشارة إلى تحصيلها العلمي ومكانتها المعروفة آنذاك.

- أما الأوقاف على التعليم ، وتمويل التعليم ، فيذكر أن الأمير عثمان بن علي الزنجبيلي (ت 588هـ / 1192م) ، كان قد أقام مسجد الزنجبيلي بعدن خلال ولايته عليها ، وكان ذلك في بداية العصر الأيوبي ، ووقف عليه خان البز للصرف عليه ، وما زاد عن حاجته كان يرسل للإنفاق على الحرم المكي ، ووقف أيضاً عقاراً ودوراً ودكاكين كثيرة ، بعدن على الحرم المكي.

كما أوقف الأمير عثمان الزنجبيلي مدرسة الزنجبيلي ، إضافة إلى رباط بمكة على الحنفيين فقط وذلك سنة (579هـ / 1183م) ، وكان ينفق عليها من الأوقاف التي خصصها لها وللحرم في عدن.

وكان الشيخ علي بن محمد بن غليس العريقي (ت 596هـ / 1199م) ، من فقهاء اليمن يتردد على مكة ، كان له اهتمام بنشر العلم في اليمن والإنفاق من ماله ، ومال أخيه عمر ، كما أحضر لها كتباً كثيرة وقام بوقفها وأوقف المدارس على "متعلم القرآن ودارس الفقه".

وفي سنة (619هـ / 1222) ، كان الملك المسعود صاحب اليمن قد عمّر مسجد الهليلجة في مكة ، وفي سنة (623هـ / 1226م) أمر الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول المالكي المسعود بعمارة دار بمكة تضم مسجداً باسم دار أبي بكر الصديق.

وكان الشيخ يحيى بن إسحق والد أبي بكر العياني (ت 628هـ / 1230م) من أعيان اليمن ، في سعة من المال وفعل المعروف في بلده الجند وفي مكة المشرفة ، ومواساة الفقراء ، والمنقطعين ، وطلبة العلم ، بحيث إنه يجتمع عندهم نحو المائة من الطلبة وغيرهم ، فيقومون بكفاية الجميع من الطعام.

وكان الفقيه محمد بن أحمد بن بطلال (ت نحو 633هـ / 1235م) ، قد ابتنى في بلده ذي يعمد باليمن مدرسته المعروفة بمدرسة ابن بطلال ، وكان يدرس بها ، ويقوم بالمنقطع من الطلبة ، وكان أوقف كتبه وجملة من أرضه على المدرسة.

وكان الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي ملك اليمن بعد المسعود قد حج سنة (631هـ / 1233م) ، وكان كثير الصدقات في الحرم ، كما كان يرسل قناديل الذهب والفضة هدايا للكعبة ، كما حج سنة (639هـ / 1241م) ، وأبطل المكوس والجبايات بمكة ، وفي سنة (641هـ / 1243م) ، قام بتعمير المدرسة المنصورية بمكة وأوقفها على الفقهاء الشافعية ، وكان يتصدق على أهل مكة والمجاورين لها كل سنة بصدقة جلييلة "حيث يغبطه عليها سائر الملوك" ، وقد رتب فيها مدرسا وطلابا وإماما ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن ، ووقف على الجميع أوقافا للإنفاق عليهم وسدّ متطلباتهم.

وفي سنة (645هـ / 1247م) أمر الملك قطب الدين أبو بكر ابن الملك المنصور عمر ابن علي صاحب اليمن ، بتجديد عمارة مسجد بمنى عند الدار المعروفة بدار النحر بين الجمرة الأولى والوسطى على يمين الصاعد إلى عرفة . ويقال إن هذا المسجد ينسب إلى النبي (ﷺ).

وفي سنة (647هـ / 1249م) سار الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول من اليمن إلى مكة ودخلها في عساكره معتمرا ، وفرّق فيها أموالا عظيمة ، وكان له من الآبار في مكة البئر المعروفة باسمه وتعرف بالزاكية.

ويشار إلى أن الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول قد كسا الكعبة ، فكان أول من كساها من الملوك بعد انقضاء دولة بني العباس في بغداد ، فكانت كسوته لها سنة (659هـ / 1260م) ، وكذلك في سنة (661هـ / 1262م) ، واستمر بكسوتها عدة سنين مع ملوك مصر ، وانفرد بكسوتها بعض السنين ، وقام بعمل باب للكعبة ، وجدد رخامها ، وأنشأ مدرسة على مقربة من باب العمرة بمكة.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- 1 - الإسني ، جمال الدين عبد الرحيم (ت 772هـ / 1370م) : طبقات الشافعية ، باعتناء كمال يوسف الحوت ، ج 2 ، مركز الخدمات الثقافية ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت ، 1987م .
- 2 - الأهدل ، بدر الدين أبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن (ت 855هـ / 1451م) : تحفة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط 1 ، بيروت ، 1986 .
- 3 - ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله الطنجي (ت 779هـ / 1377م) : تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، (د.ت) .
- 4 - الجزري ، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت 833هـ / 1429م) : غاية النهاية في طبقات القراء ، ج 2 ، باعتناء ج. برجستراسر ، ط 3 ، 1982م .
- 5 - الجندي ، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يعقوب (ت 732هـ / 1331م) : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، ج 2 ، تحقيق محمد بن علي الأكوخ ، ج 1 : ط 1 ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، 1993 ، ج 2 : ط 1 ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، 1989م .
- 6 - ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ / 1200م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (ج 6 : ج 5 - ج 10) ، ط 1 ، دار دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، 1357 - 1359هـ .
- 7 - حميد المحلي ، حميد بن أحمد : الحداثق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية ، ج 2 ، نشر دار أسامة ، دمشق ، 1985م .
- 8 - الحنبلي ، ابن العماد (ت 1089هـ / 1678م) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج 8 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) .
- 9 - الخزرجي ، علي بن الحسن (ت 812هـ / 1409م) : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، باعتناء محمد بسيوني عسل ، ج 2 ، مطبعة الهلال بالفجالة ، مصر ، 1911 - 1914م .
- 10 - ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ / 1282م) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، ج 8 ، دار صادر ، دار الثقافة ، بيروت ، 1968 - 1978م .
- 11 - الديبع ، عبد الرحمن بن علي (ت 944هـ / 1537م) : بغية المستفيد في أخبار مدينة زيد ، تحقيق يوسف شلحد ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، دار العودة ، بيروت ، 1983م .

- 12 - المؤلف نفسه :
- قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، ط2 ، 1988م.
- 13 - الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت748هـ / 1347م) :
تذكرة الحفاظ ، 4ج ، ط3 ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، 1957م.
- 14 - ابن سمرة الجعدي ، عمر بن علي (ت بعد 586هـ / 1190م) :
طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1981م.
- 15 - السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن (ت911هـ) :
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، 2ج ، دار الفكر ، بيروت ، 1979م.
- 16 - أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن إسماعيل (ت665هـ / 1266م) :
الروضتين في أخبار الدولتين ، دار الجليل ، بيروت ، 1989م.
- 17 - الشرجي ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (ت893هـ / 1487م) :
طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص ، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ط1 ، صنعاء ، 1986م.
- 18 - عبد الباقي البياني ، تاج الدين (ت743هـ / 1342م) :
تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي ، دار العودة ، 1985م.
- 19 - الفاسي ، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي المكي (ت832هـ / 1428م) :
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط2 ، بيروت ، 1985م.
- 20 - الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ / 1414م) :
البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ، تحقيق محمد المصري ، ط1 ، جمعية إحياء التراث الإسلامي ، مركز المخطوطات والتراث ، الكويت ، 1987م.
- 21 - القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت624هـ / 1226م) :
إنباه الرواة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، 3ج ، مطبعة دار الكتب المصرية ، 1952م.
- 22 - القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ / 1418م) :
صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، 14ج ، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، 1963م.
- 23 - القنوجي ، صديق بن حسين (ت1307هـ / 1889م) :
أبجد العلوم ، باعتهاء عبد الجبار زكار ، 3ج ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1978م.
- 24 - أبو مخرمة ، عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت947هـ / 1540م) :
تاريخ نغر عدن ، مجلد (في جزأين) ، ليدن ، (1936م) ، منشورات المدينة ، ط2 ، شركة دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، 1986م.

ثانيًا : المراجع :

- 25- إسماعيل بن علي الأكوع :
المدارس الإسلامية في اليمن ، ط 2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ومكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، 1986.
- 26- المؤلف نفسه :
"مدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقله في اليمن" التربية العربية الإسلامية ، "المؤسسات والممارسات" ج 3 ، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ، عمان ، 1990 ، ص 977-1043.
- 27- أيمن فؤاد سيد :
تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن ، ط 1 ، الدار المصرية اللبنانية ، 1988م.
- 28- جميل حرب :
الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، ط 1 ، جدة ، 1985م.
- 29- حسين بن أحمد العرشي :
بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك أو إمام ، باعتناء الأب أنستانس ماري الكرمل ، دار إحياء التراث العربي .
- 30- خير الدين الزركلي :
الأعلام ، ج 9 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، (د.ت).
- 31- عبد الله الحبشي :
مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، 1980م.
- 32- عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني :
تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ط 2 ، مكتبة اليمن الكبرى ، 1990-1991م .
- 33- محمد بن أحمد الحجري اليماني :
مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، مجلدان 4 ج ، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع ، ط 1 ، وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء ، 1984م.
- 34- هادي عطية :
نشأة الدراسات النحوية واللغوية في اليمن وتطورها . منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، دار آفاق عربية للصحافة والنشر ، مطبعة جامعة البصرة ، بغداد ، 1984.

oboi.kan.com

الحياة الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي
(432 - 552هـ / 1040 - 1157م)

د/ يهنى رضوان

مدرس التاريخ الإسلامي

جامعة الفيوم - كلية الآداب - قسم التاريخ

oboiikan.com

الحياة الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي

(432 - 552هـ / 1040 - 1157م)

مقدمة :

تقع مدينة بلخ⁽¹⁾ Balkh على الضفة الغربية لنهر جيحون⁽²⁾ على رافده دهس⁽³⁾، وتبعد عن نهر جيحون⁽⁴⁾ بستة وأربعين

(1) يفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفي آخرها خاء معجمة . انظر ابن رسته ، أحمد بن عمر : الأعلام النفيسة ، ليدن ، 1891م ، مج 7 ، ص 287 ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، بيروت ، 1990 ، ج 1 ، ص 568 ؛ ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد : تحفة النظاري غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى ، القاهرة ، 1937م ، ص 317 .

(2) ابن رسته : المصدر السابق ، 291 ؛ حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1949م ، ص 171 .

(3) الإصطخري ، إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي ، "كتاب مسالك الممالك" ، ليدن ، مطبعة بريل ، 1927م ، ص 278 ، أبو الفدا ، إسماعيل بن علي : تقويم البلدان ، باريس ، 1840م ، ص 461 . إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الششتاوي وعبد الحميد يونس : دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ، د . ت ، مج 7 ، ص 550 .

(4) يبدأ نهر جيحون من بلخ من عيون كثيرة هناك ، وينجلب إليها أنهار عظام ، ويخرج نهر جيحون من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم ثم يصب في بحيرة خوارزم ، ويفصل نهر جيحون بين خوارزم وبلاد خراسان غرباً وبلاد بخارى وسمرقند وترمد شرقاً ، وعرف نهر جيحون بنهر بلخ ، ونهر أموي ، ونهر أوكسيوس Oxus River ، أما حالياً فيعرف بنهر أمو دريا Amu Darya . انظر : ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد : وفيات الأعيان وأنباء =

ميلاً⁽⁵⁾، وقد وردت عدة مسميات لبلخ على مر العصور، ففي الكتب اليونانية وردت تحت اسم باكترا Baktra، وكانت تسمى بالفارسية القديمة باختريش أو باخترا⁽⁶⁾، فقد وردت في النقوش الهخمانشية⁽⁷⁾ تحت اسم باختري، وكلمة "باختر" تعني أساساً في البهلوية الشمال لأن هذه المدينة كانت تقع في شمال خراسان. وفي الافستا⁽⁸⁾ وردت بخذي، أما في بوندهش⁽⁹⁾ البهلوي، فقد وردت باسم بلخ⁽¹⁰⁾، كما وردت في الفهلوية باخل أو بهل⁽¹¹⁾، وكانت تسمى في القديم الإسكندرية نسبة إلى الإسكندر الأكبر⁽¹²⁾، ثم سميت

= أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968م، مج 5، ص 68؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م، ج 1، ص 349، 371، ماركبولو: رحلات ماركبولو، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدان، وترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ج 3، ص 249.

(5) www.balkh.com p. 1.

(6) دهخدا، علي أكبر: لغة نامه، تهران، مؤسسة انتشارات وجاب دانشگاه، 1372 هـ ش، مج 3، ص 4296؛ خورشيد: المرجع السابق، ص 550.

(7) نسبة إلى الدولة الهخمانشية التي أقامها الملك كورش والد قمبيز، وقد حكمت بلاد فارس بعد الدولة الآشورية والبابلية، وقد استطاع الإسكندر المقدوني أن يهزم دارا الثالث آخر ملوك الأسرة الهخمانشية، أحمد محمود الساداتي: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، القاهرة، 1979م، ص 127.

(8) "الافستا" وبالغربية الأبستاق هو كتاب الدين الزرادشتي، وزرادشت هو نبي الفرس، وقد ظهر في القرن السادس ق. م؛ نفسه، ص 133:128.

(9) أبواب وفصول ضمن الافستا.

(10) ابن واعظ البلخي، عبد الله بن عمر بن محمد بن داود: فضائل بلخ، ترجمة فارسي عبد الله محمد ابن محمد بن حسين بلخي، تصحيح عبد الحفي حبيب، إيران، 1350 هـ ش، ص 428، 429.

(11) خورشيد: المرجع السابق، مج 7، ص 552.

(12) فهناك رواية تشير إلى أن الإسكندر الأكبر هو الذي بناها، ومن المحتمل أن يكون الإسكندر هو الذي أعاد بناءها. انظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 1، ص 568؛ دهخدا: المرجع السابق، مج 3، ص 4296؛ خورشيد: المرجع السابق، ص 550.

كوش⁽¹³⁾، وتسمى بلخ باسم نوبهار⁽¹⁴⁾ - ونوبهار⁽¹⁵⁾ هي إحدى الصوامع البوذية في بلخ - ⁽¹⁶⁾. ولقبت بلخ بألقاب عديدة تشير إلى منزلتها بين الدول، منها لقب "أم البلاد" لأنها أقدم المدن الكبرى في حوض أمودريا⁽¹⁷⁾، ولقب الحسنة الذي أطلقه عليها الملك "لهراسب بن كيوكي بن كيكاس" أحد ملوك خراسان من الأكاسرة⁽¹⁸⁾ كما كان يطلق عليها "قبة"⁽¹⁹⁾ الإسلام⁽²⁰⁾، وعرفت بلخ في المصنفات الفارسية بأكثر من لقب، فمن ألقابها "شاهواران" وتعني بالفارسية⁽²¹⁾ المدينة الملكية الصغيرة⁽²²⁾

(13) ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد الهمداني: "كتاب البلدان"، تحقيق يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، 1416 هـ / 1996 م، ص 616، 617.

(14) مؤلف مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق يوسف الهادي، القاهرة، 1999 م، ص 78.
(15) وتفسير النوبهار: الجديد. لأن سنة البرامكة كانت إذا بنوا بناءً حسناً أن يكملوه بالريحان، يتوخون بذلك أول ريحان يطلع في ذلك الوقت. فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما ظهر من الريحان - وكان البهار - فسمي نوبهار. ابن الفقيه: المصدر السابق ص 617.

(16) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت، 1968 م، ص 186.

(17) بارتولد، فاسيلي فلاديمير: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1974 م، ص 161.

(18) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، "الكامل في التاريخ"، بيروت، دار الكتاب العربي، 1983 م، ج 1، ص 145.

(19) ربما ترجع هذه التسمية إلى القبة التي بناها البرامكة فوق النوبهار وكانت مائة ذراع في مثلها، وارتفاعها فوق المائة ذراع، ابن الفقيه: المصدر السابق، ص 616.

(20) خواندمير، غياث الدين بن همام الدين الحسيني: تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر، د. م، 1333 هـ ش، مج 1، ص 484، 651؛ دهخدا: المرجع السابق، مج 3، ص 4296، ربما ترجع هذه التسمية إلى كثرة من بها من المسلمين، فيقول الإصطخري في المصدر السابق ص 278: "ومسجدها معمور بالناس على دوام الأيام كلها"، كما يقول أبو الفداء في المصدر السابق ص 461: "وخرج من بلخ عالم لا يحصى من الأئمة والعلماء والصلحاء".

(21) وكانت لغة أهل بلخ هي اللغة الفارسية، وهي مستمرة حتى الآن بجانب لغات الأوزبك والتركيان والباشتو، انظر: دهخدا: المرجع السابق، مج 3، ص 4296؛ محمد عبد الرحمن الشرنوبي ومحمد كمال لطفي: الموسوعة المبسطة لدول العالم، القاهرة، 1997 م، ص 148.

(22) خورشيد: المرجع السابق، مج 7، ص 550.

تعد بلخ من أشهر وأجل مدن خراسان⁽²³⁾ حتى أن أحد أرباع خراسان⁽²⁴⁾ سُمي باسمها، فهي إحدى حواضر خراسان الأربع⁽²⁵⁾. كما أن نهر جيحون عرف بنهر بلخ⁽²⁶⁾ وبلخ مدينة تاريخية عريقة، لها شأن عظيم منذ القدم، فقد كانت مقرًا لحكم خراسان سواء قبل الإسلام أو بعده⁽²⁷⁾، فقد كانت مقرًا لبعض حكام خراسان من الأكاسرة⁽²⁸⁾، وكانت بلخ عاصمة إمبراطورية باكتريا Bactria القديمة التي أصبحت ولاية باختر لعهد الهخامنشيين، وكانت تضم في عهد داريوش⁽²⁹⁾ العديد من المدن التي من ضمنها ولاية مرغيانا (مرو)، ثم أصبحت بلخ بعد فتوحات الإسكندر عاصمة لدولة باكتريا اليونانية، وبذلك نجد أنه في العهد الذي كانت فيه منطقة آسيا الوسطى كلها تخضع لحاكم واحد كانت بلخ هي عاصمة تلك المنطقة كلها⁽³⁰⁾. وكان البرامكة⁽³¹⁾ - قبل اعتناقهم الإسلام⁽³²⁾ - يقيمون في بلخ⁽³³⁾.

- (23) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 568؛ البغدادي، صفى الدين عبد المؤمن عبد الحق: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، بيروت، 1992 م، مج 1، ص 3172.
- (24) يضم ربع بلخ عدة مدن هي: بلخ - الترمذ - الجوزجان - الصغانيان - الفارياب - القوازيان، قحطان عبد الستار الحديثي: أرباع خراسان، البصرة، 1990 م، ص 388: 444.
- (25) حواضر خراسان الأربع هي: بلخ - مرو - هراة - نيسابور. الإصطخري: المصدر السابق، ص 253، 254؛ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة، 1976 م، ص 85.
- (26) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص 619؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 568.
- (27) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 47، 52.
- (28) أمثال الملك لهراسب بن كيوكخي بن كيكاس، ثم ابنه بشتاسب الذي تنازل له والده عن حكم خراسان لانشغاله بالعبادة. ابن الأثير: الكامل، ج 1، ص 145، 154، 155.
- (29) "داريوش" أحد ملوك فارس من سلالة الأخمينيين، اغتصب الإسكندر الأكبر مملكته بعد انتصاره عليه أكثر من مرة، لويس معلوف "المنجد في اللغة"، بيروت، الطبعة الخامسة، ص 186.
- (30) بارتولد: المرجع السابق، ص 161.
- (31) كان لبرمك سادن النوبهار - بيت النار - يبلخ المكانة العليا أيام الفتح العربي. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، 1980، ج 2، ص 53، 54؛ خورشيد: المرجع السابق، مج 7، ص 551.
- (32) بدأ أهل بلخ يدنون بالإسلام على المذهب السني منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان نظرًا لمجهودات القائد قتيبة بن مسلم الذي قضى على الوثنية الإيرانية وغرس تعاليم الإسلام. انظر، ابن الفقيه: المصدر السابق، ص 617، 618.
- (33) دهخدا: المرجع السابق، ص 4296.

استمرت بلخ مقرًا لولاية خراسان بعد فتحها ، فأقام فيها الأحنف بن قيس⁽³⁴⁾ زمن الخليفة عثمان بن عفان ، وفي العصر الأموي ، اتخذها أسد بن عبد الله القسري (117 - 120 هـ / 735 - 738 م) سنة 118 هـ (736 م) حاضرة له ونقل إليها الدواوين واستمر بها حتى توفي فيها سنة 120 هـ (738 م)⁽³⁵⁾ ، وفي سنة 389 هـ (998 م) اتخذ محمود بن سبكتكين الغزنوي مدينة بلخ دار ملك له وذلك عند استيلائه على خراسان⁽³⁶⁾ . ومما يؤكد أهمية بلخ أيضًا أن صاحب بريد بلخ الغزنوي عندما شن السلاجقة هجومًا على بلخ أرسل إلى السلطان مسعود الغزنوي (421 هـ - 432 هـ / 1030 - 1040 م)⁽³⁷⁾ سنة 431 هـ (1039 م) يطلب منه إرسال قائد محنك من "غزنة"⁽³⁸⁾ على رأس جيش

(34) تمكن المسلمون بزعامه "الأحنف بن قيس" من فتح "بلخ" صلحًا سنة 22 هـ وقيل سنة 18 هـ وذلك زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، لم يستمر أهل بلخ على ولائهم للمسلمين ، لهذا أرسل الخليفة عثمان بن عفان إليهم حاكم البصرة عبد الله بن كرز وأرسل على مقدمته الأحنف بن قيس وذلك سنة 31 هـ ، وما إن وصل الأحنف بن قيس إلى بلخ حتى صالحه أهلها ، فاستقر بها ، إلا أن أوضاع بلخ اضطربت في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، فأرسل إليها عبد الرحمن بن سمرة الذي تمكن من فتحها وكورها ، إلا أن الفتح الحقيقي لمدينة بلخ تم سنة 86 هـ / 705 م في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي حرص على تثبيت نفوذ العرب في هذه المنطقة ، فأرسل إليها العديد من القوات العسكرية تحت قيادة "قتيبة بن مسلم الباهلي" ، الذي ظفر بفيروز بن كسري يزدجرد حيث افتتح خراسان . انظر: ابن رسته : المصدر السابق ، ص 287 ؛ ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 417 ؛ ابن الأثير : الكامل ج 3 ص 13 : 17 ، ص 49 ، 50 ؛ حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي 21 - 447 هـ ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1968 م ، ص 124 ، 125 .

(35) البلاذري ، أبو الحسن : فتوح البلدان ، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1403 هـ / 1983 م ، ص 417 ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج 4 ، ص 225 ، 234 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، 311 ، 312 .

(36) كانت خراسان وبلاد ما وراء النهر ضمن ممتلكات السلطان محمود الغزنوي ، أقوى حكام المشرق الإسلامي في ذلك العصر . عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : "الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي" ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1999 م ، ص 139 . (37) ابن الأثير : الكامل ، ج 7 ، 196 .

(38) "غزنة" بفتح الغين وسكون الزاي المعجمتين وفتح النون ، ولاية من أعمال الباميان والمسافة بينهما نحو ثمان مراحل ، وتقع مدينة غزنة في طرف خراسان وأول بلاد الهند ، وهي كالخلد بين خراسان والهند ، أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 466 ، 467 .

لحماية "بلخ" من السلاجقة ، ومن العبارات التي جاءت في الرسالة تؤكد مكانة بلخ "أن خراسان كلها مرتبطة بها . . . ولو أن الأعداء استحوذوا عليها لذهبت ريجنا إلى الأبد"⁽³⁹⁾.

ونظرًا لمكانة بلخ وموقعها الاقتصادي ، فقد حرص السلاجقة⁽⁴⁰⁾ على بسط سيطرتهم عليها ، لهذا قاد جُغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق (ت 451 هـ / 1059 م) جيشًا كبيرًا إليها ، وطلب من أهلها تسليم مدينتهم إلا أنهم رفضوا وتصدوا له بمساعدة العيارين⁽⁴¹⁾ الذين استقدموهم من الريف ، كما أرسل صاحب بريد بلخ أميرك البيهقي إلى السلطان مسعود الغزنوي يطلب منه أن يرسل إليهم قائدًا محنكًا على رأس جيش من غزنة للحفاظ على بلخ ، فأسرع السلطان مسعود بإرسال التونتاش الحاجب على رأس ألف فارس إلا أن داود بن ميكائيل تصدى له وهزمه قبل أن يصل إلى "بلخ" وذلك سنة 432 هـ / 1040 م⁽⁴²⁾ ، وعاد داود السلجوقي مرة ثانية إلى بلخ في نفس السنة وتمكن من الاستيلاء عليها ، في أيام مودود⁽⁴³⁾ بن مسعود الغزنوي⁽⁴⁴⁾.

(39) البيهقي ، أبو الفضل محمد بن حسين : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب ، صادق نشأت ، القاهرة ، 1956 م ، ص 710 .

(40) كان "السلاجقة" يقيمون في مدينة جند بالقرب من بخارى وكانوا يتميزون بالقوة وكثرة العدد ، فخشيتهم الملك محمود بن سبكتكين وألقى القبض على أرسلان بن سلجوق ثم أمر السلاجقة بعبور نهر جيحون وفرقهم في نواحي خراسان . ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ، ص 22 .

(41) "العيارين" طائفة من الرجال الأشداء ظهرت في بغداد في أواخر القرن 2 هـ ، ثم انتشرت في بلاد المشرق ومهمتها حراسة الطرق وأخذ الأتاوى من القوافل العابرة مقابل توصيلها سالمة ، محمود عرفة محمود : الحركات المناوئة للدولة الصفارية وأهمية النقود التي ضربها زعماء هذه الحركات في تحقيق بعض النواحي التاريخية لهذه الدولة . بحث منشور في مجلة كلية الآداب ، العدد 56 ، جامعة القاهرة 1992 م . ص 194 .

(42) البيهقي : المصدر السابق ، ص 695 ، 709 ، 711 ، 717 .

(43) لما لقي السلطان مسعود بن محمود (421 - 432 هـ / 1030 - 1040 م) مصرعه ، استقر الحكم من بعده لابنه مودود (432 - 441 هـ / 1040 - 1049 م) ، رشيد عبد الله الجميلي : دراسات في تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ، 1984 ، ص 208 ، 209 .

(44) بطرس البستاني : كتاب دائرة المعارف ، بيروت ، دارالمعرفة ، 1876 . مج 5 ، ص 552 .

لم يهنا السلاجقة بالاستقرار في بلخ، فما إن آل حكم بلخ إلى إياز بن ألب أرسلان⁽⁴⁵⁾ حتى أسرع خاقان التكين صاحب سمرقند بتجهيز جيش كبير للاستيلاء على "بلخ". وذلك في شتاء 465 هـ / 1072 م منتهزاً فرصة وفاة السلطان ألب أرسلان، وخروج حاكمها "إياز بن ألب أرسلان" إلى الجوزجان⁽⁴⁶⁾، ولما علم أهل بلخ بذلك أرسلوا إلى خاقان التكين يطلبون منه الأمان فأمنهم فخطبوا له فيها، إلا أن "إياز" عندما سمع بما حدث أسرع بالعودة من الجوزجان إلى بلخ فوصلها غرة جمادى الأولى سنة 466 هـ / 1073 م وما إن وصلها حتى أطاعه أهلها⁽⁴⁷⁾

وخلال عهد السلطان سنجر⁽⁴⁸⁾ (ت 552 هـ / 1157 م) - آخر السلاجقة الكبار - حرص السلطان "أتسز بن قطب الدين محمد بن نوشتكين"⁽⁴⁹⁾ خوارزم شاه على بسط سيطرته على أملاك السلاجقة، ولتحقيق هذا الهدف استعان بقبائل

(45) لما قتل السلطان ألب أرسلان محمد بن جفري بك داود سنة 465 هـ / 1072 م، آل الحكم إلى ابنه ملكشاه، فأُسند إلى أخيه إياز أرسلان بن ألب أرسلان حكم بلخ، فاستمر يحكمها حتى توفي سنة 466 هـ / 1073 م. ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص: 112، 119.

(46) "الجوزجان" مدينة بخراسان مما يلي بلخ يقال لها جوزجانان، والنسبة إليها جوزجاني. ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ضبطه وحققه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000 م. ج 1، ص 209.

(47) ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 113: 119.

(48) ولد سنجر في مدينة سنجار 479 هـ / 1086 م وحكم مدة 61 سنة منها عشرون سنة ملك خراسان وحدها، ثم إحدى وأربعون سنة كان ملكاً على العالم، وكانت مدة حياته اثنتان وسبعون عاماً؛ الراوندي: راحة الصدور ص 278، 279.

(49) تنسب الدولة الخوارزمية (470 - 628 هـ / 1077 - 1231 م) إلى نوشتكين أحد الأتراك الذي كان عبداً لأحد أمراء السلاجقة، وقد أرسله هذا الأمير إلى بلاط السلطان ملكشاه، فشغل وظيفة الساقى ثم أخذ يترقى في سلك الوظائف لمهارته، وقد حرص نوشتكين على إعداد ابنه محمد ليتولى المناصب المهمة في الدولة السلجوقية المتداعية، وبالفعل أسند إليه أحد قادة السلطان السلجوقي بركياروق حكم إقليم خوارزم ولقبه خوارزم شاه وذلك سنة 490 هـ / 1096 م، من هذا نرى أن محمد بن نوشتكين هو المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمية. عصام الدين: المرجع السابق، ص 159؛ حافظ أحمد حمدي: المرجع السابق، ص 25، 317.

الخطا⁽⁵⁰⁾ التي اندفعت في سنة 536 هـ / 1141 م إلى بلاد ما وراء النهر واستطاعوا أن يوقعوا بالسلطان سنجر وجنوده هزيمة منكرة⁽⁵¹⁾، ثم جاءت نهاية السلاجقة في بلخ على يد الأتراك الغز الذين دخلوا بلخ ونهبوها وقتلوا الفقهاء والكثير من أهلها⁽⁵²⁾ وعلى رأسهم "قماج" حاكم مدينة بلخ وابنه، وتمكنوا من أسر السلطان سنجر وأرسلوه إلى العاصمة "مرو" وفرضوا عليه حراسة مشددة منهم، واستمر السلطان سنجر لدى الغز لمدة عامين، ثم نقل إلى مدينة "بلخ" ومنها استطاع الهرب والتف حوله رجاله وحاشيته وجيش خراسان، فقاده وسار نحو مدينة مرو عاصمة ملكه ودخلها⁽⁵³⁾ إلا أنه لم يلبث أن توفي سنة 552 هـ / 1157 م⁽⁵⁴⁾. وبوفاة السلطان سنجر استطاعت الدولة الخوارزمية⁽⁵⁵⁾، بسط سيطرتها على جميع ممتلكات الدولة السلجوقية في خراسان وأنهبوا حكمهم في تلك البلاد⁽⁵⁶⁾.

(50) "الخطا" قبائل وثنية كانت تقيم في الصين، وقد تمكن علاء الدين محمد خوارزم شاه (596 -

617 / 1199 - 1219 م) من القضاء على الدولة القراخانية سنة 601 هـ / 1204 م عصام الدين :

المرجع السابق، ص 164؛ رشيد الجميلي : المرجع السابق ص 239 .

(51) حافظ أحمد حمدي : المرجع السابق، ص 64، 65 .

(52) الذهبي، الحافظ شمس الدين الذهبي، "كتاب دول الإسلام" تحقيق فهد محمد شلتوت ومحمد

مصطفى إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ج 2، ص 63 .

(53) الراوندي، محمد بن علي بن سليمان : "راحة الصدور وآية السرور"، نقله من الفارسية إلى العربية

إبراهيم أمين الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1960 م، ص

270، 278 .

(54) اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة السلطان سنجر فمنهم من قال إن الوفاة حدثت سنة 552 هـ مثل

ابن الأثير : الكامل، ج 9، ص 55؛ الذهبي : المصدر السابق، ج 2، ص 69؛ والمقريزي، تقي

الدين أحمد بن علي "النقود الإسلامية" المسمى بـ "شذور العقود في ذكر النقود"، تحقيق وإضافات

محمد السيد علي بحر العلوم، النجف، المكتبة الحيدرية، 1387 هـ / 1967 م، ص 274؛ ومنهم من

قال إن الوفاة كانت سنة 551 هـ مثل الراوندي : المصدر السابق، ص 270، 278؛ وخواندмир :

المصدر السابق، ص 513 .

(55) يعد أيل أرسلان بن أتنز (551 - 568 هـ / 1156 - 1172 م) أول سلاطين الدولة الخوارزمية

المستقلين . حافظ أحمد حمدي : المرجع السابق، ص 64 .

(56) الراوندي : المصدر السابق، ص 270، 278؛ رشيد الجميلي : المرجع السابق، ص 240 .

تتميز فترة حكم السلاجقة عن غيرها من الفترات السابقة ، نظرًا للمستحدثات التي استحدثها السلاجقة في خراسان ، فعلى سبيل المثال ألغى السلاجقة الأوائل فكرة الحاكم الواحد صاحب السلطة المطلقة ، وكانوا يرون أن الإمبراطورية ملك لجميع أفراد الأسرة الحاكمة ، فترى أن الخطبة كانت تلقى في آن واحد باسم طغرل في بعض مدن خراسان وباسم أخيه داود في البعض الآخر منها مثل بلخ ، وقد كان هذا النظام أحد العوامل التي ساعدت على نمو بلخ اقتصاديًا ، نظرًا للتنافس الحضاري بين بلخ وبين مدن السلاجقة الأخرى .

الأحوال الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي :

ازدهرت الأحوال الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي في شتى المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ، ومما يؤكد هذا أن أهالي مدينة "بلخ" من جميع الطبقات والفئات - سواء من العسكريين أو الحرفيين - كانوا يعيشون بلا عناء أو مشقة⁽⁵⁷⁾ ، وهذا إن دل على شيء فإنها يدل على رخاء العيش .

وهناك عوامل عديدة أدت إلى ازدهار الأحوال الاقتصادية في مدينة بلخ ، من أبرزها حرص السلاجقة على استقرار أحوال مدينة بلخ السياسية ، ووفرة إنتاج هذا الإقليم ، ومهارة سكانه في استغلال ما لديهم من ثروات طبيعية .

الزراعة:

وجدت في بلخ مقومات عديدة أدت إلى انتعاش الزراعة منها كثرة الأنهار⁽⁵⁸⁾ المستخدمة في ري الأراضي ، فمن أنهار "بلخ" التي تجري في ربضها⁽⁵⁹⁾ نهر يسمى

(57) البلخي : المصدر السابق ، ص 49 : 51 .

(58) ومما يدل على كثرة الأنهار في بلخ ، أن الأنهار المحفوفة بالأشجار كانت تتخلل الشوارع ، المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله البشاري "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، 1411 هـ / 1991 م ، ص 301 ، 302 .

(59) ربض المدينة : وجمعها أرباض ، ولها عدة معانٍ منها الناحية أو القسم أو الضاحية من المدينة أو ما حولها أو في وسطها . ولكن الجغرافيين الاجتماعيين والمهتمين بتخطيط المدن يطلقون هذا الاصطلاح للدلالة على جزء معين من المدينة له اختصاصاته المتميزة ، كالمنطقة التجارية خاصة تلك التي لا يخترقها شارع رئيسي ، وإنما يلتف حولها - أو حول جزء منها - الطريق العام ، فلا =

دهاس⁽⁶⁰⁾ وهو نهر مياهه وفيرة يدير عشرة أرحية⁽⁶¹⁾ وبعد أن يديرها يمر على أحد أبواب مدينة بلخ وهو باب النوبهار⁽⁶²⁾ ويسقي رساتيقها⁽⁶³⁾ إلى "سياه جرد"⁽⁶⁴⁾ في طريق "ترمز"⁽⁶⁵⁾. وفي أرض بلخ نهر عظيم ينبع من العيون الحلوة والأحجار النظيفة⁽⁶⁶⁾، فهو يخرج من حدود "الباميان"⁽⁶⁷⁾ ثم يتفرع قرب بلخ إلى اثني عشر فرعاً، ويدخل

= يسهل الوصول إليها إلا سيراً على الأقدام. يوسف توني: معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة، دار الفكر العربي، 1964 م، ص 236؛ ويُعرف "معلوف" الرض في كتابه المنجد، ص 245، بأنه ما حول المدينة من بيوت ومساكن.

(60) أحد روافد نهر جيحون، خورشيد: المرجع السابق، مج 7، ص 55.

(61) أبو الفداء، المصدر السابق، ص 461؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد: "كتاب صيغ الأعشى في صناعة الإنشا"، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. ت، ج 4، ص 395. و"الرحاء" هي الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قُطب (ج) أرحاء وأرحية. المعجم الوجيز، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1991م، ص 259.

(62) "باب النوبهار" هو أحد أبواب السور الذي كان يحيط بربض بلخ، وعرف هذا الباب بهذا الاسم نسبة إلى منازل البرامكة التي كانت توجد في ربض بلخ والتي كانت تعرف باسم نوبهار، كما كان يوجد معبد النوبهار الذي كان الفرس والترك يحجون إليه وسدائنه للبرامكة، انظر: ابن رسته: المصدر السابق، مج 7، ص 288. المقدسي: المصدر السابق، ص 302؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 568.

(63) رستاق معرب كلمة روستا، وهي كلمة فارسية، وتنطق روستاك - رسداق - رزداق ومعناها قرية، ج رساتيق، وتستخدم حالياً بمعنى بلوك والبلوك هو مجموعة قرى وتطلق على بعض القرى والبلدان. دهخدا: المرجع السابق، مج 25، ص 395.

(64) سياه كرد قرية في منتصف الطريق بين ترمذ وبلخ. بارتولد: المرجع السابق، ص 161.

(65) كي لسترنج: "بلدان الخلافة الشرقية"، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985 م، ص 463.

(66) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 49.

(67) مدينة "الباميان" هي إحدى مدن بلخ وتقع على جبل بين بلخ وغزنة، وللباميان بلاد منها كابل وجرأ وفراون وغزنة وبنجهير، وتبعد الباميان عن بلخ مسافة عشر مراحل. انظر: ابن رسته: المصدر السابق، ص 289؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ص 466، 467.

بلخ⁽⁶⁸⁾، ومما ساعد على خروج هذه الأنهار من جبل الباميان ارتفاع هذا الجبل⁽⁶⁹⁾ ومجرى الماء في كل مكان نظيف ولا يختلط بالكبريت والأملاح المعدنية والملح العادي⁽⁷⁰⁾، لهذا كانت بلخ تستعمل مياه النهر وفروعه الاثني عشر في سقي مزارعها وبساتينها⁽⁷¹⁾

فكانت معظم المدن المضافة إلى بلخ تروي أراضيها من الأنهار التي تمر بها، فعلى سبيل المثال امتازت مدن "الباميان" بكثرة ما بها من أنهار، وكانت مدينة بدخشان⁽⁷²⁾ - الواقعة على نهر "جرباب" من غربيه - تروي أراضيها منه ومن الأنهار التي بها، أيضًا كانت مدينة "طخارستان"⁽⁷³⁾ - وهي من الكور التابعة لبلخ - تروي أراضيها من مياه النهر الذي يمر بها، أما مدينة "بنجهير"⁽⁷⁴⁾ فكانت تستخدم مياه النهرين اللذين يمران بها وهما نهر اندراب و نهر كاسان في ري أراضيها⁽⁷⁵⁾.

لم تقتصر طرق الري على الأنهار، فالقرى والمدن التي لا توجد فيها أنهار أو الأنهار بعيدة عنها، كانت تستفيد من مياه العيون في ري مزارعها وبساتينها، وأحيانًا كان

(68) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 78.

(69) ابن رُسته: المصدر السابق، ص 289.

(70) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 49.

(71) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 78؛ دهخدا: المرجع السابق، مج 3، ص 4296.

(72) "بدخشان" مدينة مشهورة تقع في أعلى إقليم طخارستان، ومن بدخشان إلى بلخ نحو ثلاث عشرة مرحلة، المقدسي: المصدر السابق، ص 303؛ أبو الفدا: المصدر السابق 471.

(73) "طخارستان" بضم الطاء المهملة وفتح الحاء المعجمة وألف وضم الراء وسكون السين المهملتين وفتح المثناة من فوق وألف ونون وهو إقليم يقع وراء نهر بلخ وهو نهر جيحون ويضم العديد من المدن، وإقليم طخارستان من مضافات بلخ أي من المدن التي تضاف إلى بلخ وبلخ من خراسان، أبو الفداء المصدر السابق، ص 471. أما الإصطخري فيتحدث في ص 254 عن طخارستان فيقول: "وأفردنا طخارستان عن بلخ وإن كانت مجموعة إليها لأنها مفردة في الذكر والدواوين، فيقال بلخ وطخارستان وليس في تفريقنا هذه الكور وجعلها درك أكبر من استيعابها ومعرفة كل شيء منها في صورة خراسان". الإصطخري: نفس المصدر، ص 254.

(74) "بنجهير" بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم وكسر الهاء وسكون المثناة من تحت وفي آخرها راء مهملة، مدينة من نواحي بلخ، تقع على جبل، وهي من أعمال "الباميان"، أبو الفدا: المصدر السابق، ص 468، 469.

(75) الإصطخري: المصدر السابق، ص 279.

الفلاحون يستخدمون مياه الأنهار والعيون معاً في ري الأراضي ، فعلى سبيل المثال كانت أراضي مدينة "الحُتْل" ⁽⁷⁶⁾ الواقعة بين نهر وخشاب ونهر بذخشان ويسمى جرياب ⁽⁷⁷⁾ ، والتي كانت تضم أكثر من ألف عين ماء ⁽⁷⁸⁾ ، كانت تستخدم الأنهار والعيون في ري أراضيها ، وفي مدينة "الباميان" توجد عيون ماء تخرج من جبل "الباميان" كما يخرج الكثير من الأنهار إلى بلخ ، فيمر منها أكثر من وإد ⁽⁷⁹⁾ فكانت مدينة "الباميان" أيضاً تستخدم مياه الأنهار والعيون في ري أراضيها.

ووصف المقدسي بلخ وأنهارها فقال : "انظر إلى بهاء بلخ . . . وكثرة أنهارها والتفاف شجرها وصفاء مائها . . . وكثرة الخضر واختراق الأنهار المحفوفة بالشجر في المحال والمنازل وقرب الجبال والأودية ومرافقها" ⁽⁸⁰⁾ .

ومما ساعد على ازدهار الزراعة في "بلخ" أنها مدينة مستوية ⁽⁸¹⁾ الأرض ⁽⁸²⁾ ، كما أنها تتميز بخصوبة التربة ، ويتضح لنا ذلك من سرعة نمو المحاصيل ، فيقول ابن واعظ

(76) "الحُتْل" بضم الخاء والتاء مشددة، وذكرت في بعض المصادر باسم ختلان، وهي من أعمال بلخ، ومن مدن الحتل هلاورد - لاوكند وهما مدينتا الوحش، كربنك - تمليات - هلبك - سكندرة - منك، وتعد منك أكبر مدن الحتل، انظر: الإصطخري: المصدر السابق، ص 276 : 279؛ ابن الأثير: اللباب، ج 1، ص 284؛ أبو الفدا: المصدر السابق، ص 461.

(77) الإصطخري: المصدر السابق، ص 276 : 279.

(78) قططان عبد الستار الحديثي: "دراسات في التنظيمات الاقتصادية لخراسان في القرن الرابع للهجرة" مجلة الخليج العربي، البصرة، 1987م، مج 19، العدد 3، ص 69، 70.

(79) ابن رُسته: المصدر السابق، ص 189.

(80) المقدسي: المصدر السابق، ص 301، 302.

(81) تعني خلو الأرض من الظواهرات التضاريسية الكبرى، فيقال أرض مستوية وإقليم مستوي وما إلى ذلك. يوسف توني: المرجع السابق ص 467.

(82) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة، د. ت، ص 483.

البلخي: "إذا زرعت أي شجرة أو نباتاً تجده ينمو ويثمر سريعاً" (83)، وتتميز جميع أراضي مدن الحثل بأنها مستوية وعلى غاية الخصب (84).

لهذا كله كانت تعد من أكثر مدن خراسان خيرًا وأوسعها غلة (85)

ومما ساعد على زيادة الرقعة الزراعية في بلخ حرص السلاجقة على استصلاح أراضي "بلخ"، فأقطعوا (86) الأراضي التي لا مالك لها لأقاربهم وجنودهم وكبار رجال دولتهم، فعلى سبيل المثال، أقطع السلطان ألب أرسلان "بلخ" لأخيه "سليمان بن جُغري بك داود" وذلك سنة 458هـ / 1065 م، وفي سنة 466هـ / 1073 م أقطع السلطان ملكشاه "بلخ" و"طخارستان" لأخيه "شهاب الدين تكش" (87)، كما انتشر في عهد السلاجقة نظام "الإقطاع العسكري" ويعني توزيع كثير من الأراضي على الجنود بدلا من المرتبات أو كجزء منها، ونلاحظ أن هذا النظام لم يكن منتشرًا في النصف الشرقي من العالم الإسلامي قبل الغزو التركي، لقد وقعت قبل ذلك بعض الحالات الاستثنائية لبعض المتميزين في الخدمة العسكرية، وهذه الحالات تكاد تكون نادرة للغاية، وقد دفع ذلك الوزير "نظام الملك" إلى القول: "إن الملوك السابقين لم يوزعوا أقطاعات البتة بل كانوا يدفعون أرزاق جنودهم نقدًا

(83) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 48، 49.

(84) الإصطخري: المصدر السابق، ص 279؛ أبو الفدا: المصدر السابق، ص 461.

(85) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 568.

(86) لم يكن نظام الإقطاع مقصورًا على إقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة بل أحيانًا يشمل ولاية بأكملها. وقسم فقهاء المسلمين الإقطاع إلى قسمين: القسم الأول: إقطاع تمليك وفيه تتنازل الدولة عن جزء من الأراضي التابعة لها إلى بعض الأفراد، وتكون هذه الأرض إما عامرة أو موات، وتعني الأراضي البور وأراضي المستنقعات غير المزروعة، والهدف من ذلك تشجيع الناس على استصلاح الأراضي البور، وزيادة الرقعة الزراعية باستصلاح الأرض الموات، أما القسم الثاني فهو إقطاع استغلال، وفيه تمنح الدولة بعض الأراضي إلى الأفراد سواء أمراء أو وزراء أو أجناد أو غيرهم مقابل أن يدفع المقطع مبلغًا معينًا، والهدف أن يعمل المقطعون على المزيد من عمارة الأرض لأنهم أقدر على ذلك من الدولة. انظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج 13، ص 104، 115؛ حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1939 م، ص 270، 273؛ راشد البراوي: في الاقتصاد الإسلامي، مصر، دار الحرية، 1986، ص 19؛ 21، 118.

(87) ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 103، 119.

وحسب " . وكان هذا النظام الأخير لا يزال متبعًا على أيامه في دولة الغزنويين ، أما في دولة السلاجقة فإن منح الأقطاع كان أمرًا مألوفًا ولكنه لم يؤدَّ إلى قيام نظام رقيق الأرض ، ويُذكر "نظام الملك" أصحاب الأقطاع بأن ما سمح لهم به هو جزء من ربع الأرض وأن حقهم لا يمتد وراء ذلك إلى أرواح الأهالي أو أموالهم أو نسائهم أو أولادهم⁽⁸⁸⁾ . وربما أدى نظام الإقطاع هذا إلى ازدهار الزراعة لحرص هؤلاء المقطعين على ازدهار إقطاعاتهم .

أدى توزيع الأقطاع إلى زيادة أهمية ونفوذ أصحاب الضياع بخراسان الذين عرفوا باسم الدهاقنة ، فقد أطلق اسم الدهاقنة على من تسلموا أقطاعًا من بين الأتراك ، وقد أطلق هذا اللقب (الدهقان)⁽⁸⁹⁾ على "جُغري بك داود" - قبل أن يلي حكم بلخ⁽⁹⁰⁾ - عندما منحه الملك "مسعود بن محمود بن سبكتكين" ولاية "دهستان"⁽⁹¹⁾

(88) بارتولد : المرجع السابق ، ص 453 ، 454 .

(89) يبدو أن اصطلاح دهقان قد ساد في آخر أيام الدولة الساسانية وأنه بقي في العصور الإسلامية ، ولفظ دهقان يعني رئيس القرية ، وجمعه دهاقين وهم الرؤساء وملوك الأراضي والقرى ، "وقد كانت وظيفة الدهاقين الأصلية أن يتسلموا الضرائب ، وإليهم يعود الفضل خاصة في أن الدولة القليلة الخصب قد استطاعت بوجه عام أن تتحمل النفقات التي اقتضتها المعيشة المترفة في بلاط الملك ، وأن تقدر على الحروب التي تتطلب تكاليف باهظة من غير أن ينوء بها هذا العبء" . أرثر كريستنسن : إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، مراجعة د. عبد الوهاب عزام ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، 1998 م ، ص 99 ، 100 ، 546 .

(90) سبب هذا الإقطاع أن السلاجقة انتصروا على الغزنويين سنة 432 هـ / 1040 م فأرسل إليهم الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين الغزنوي يتوعدهم فيه وأمرهم بالرحيل إلى مدينة أمل الشطا الواقعة على نهر جيحون ، وأغراهم بالخلع النفيسة والإقطاعات فأقطع مدينة دهستان لداود ومدينة نسا لطغرل بك ، ومدينة فراوة لبيغو ولقب كل واحد منهم بالدهقان . ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ، ص 23 ، 24 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، ص 455 .

(91) "دهستان" : بكسر الدال المهملة والهاء وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون ، مدينة مشهورة عند مازندران . ابن الأثير ، اللباب ، ج 1 ، 349 .

وقد تميزت بلخ بكثرة المحاصيل الزراعية⁽⁹²⁾ وتنوعها ، فيقول ابن الفقيه : "وبلخ لا تخلو أرضها من الثمار الكثيرة والزروع العميمة"⁽⁹³⁾ ، ومما يزرع في بلخ من المحاصيل ذات الأهمية الغذائية الأترج⁽⁹⁴⁾ والنانج⁽⁹⁵⁾ ، وهما فاكهتان من الفواكه الغالية لندرتهما في ذلك الوقت ، لهذا كانتا ضمن الفواكه التي تقدم للناس في الاحتفالات⁽⁹⁶⁾

ومن المحاصيل التي اشتهرت بلخ بزراعتها قصب السكر⁽⁹⁷⁾ ، والعنب الطيب الذي كان يزرع بوفرة فكان الكروم يحيط بجميع جوانب بلخ⁽⁹⁸⁾ ، فقد اشتهر العديد من المدن التابعة لبلخ بزراعة الكروم مثل طخيرستان وبذخشان⁽⁹⁹⁾ ، كما اشتهرت بلخ بزراعة السمسم والأرز والجوز واللوز⁽¹⁰⁰⁾ ، والكرم⁽¹⁰¹⁾ ، وسائر التوابل ، والتين والرمال والبرتقال وسائر الحمضيات ، وكافة أنواع الخضروات⁽¹⁰²⁾ . وامتازت

(92) المقدسي : المصدر السابق ، ص 301 .

(93) ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 603 .

(94) الأترج والنانج : بضم الهمزة وسكون التاء وضم الراء وتشديد الجيم ، ويقال له ترنج ، بضم التاء والراء وسكون النون ، هو ثمرة من جنس الليمون وشجره قصير ، وورقه أكثر استطالة واستدارة لدى قمته من ورق الليمون . معلوف : المرجع السابق ، ص 2 ؛ إبراهيم محمد نجا ، فقه اللغة العربية ، القاهرة ، دار النيل للطباعة ، 1957 م ، ص 91 .

(95) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص 78 ؛ دهخدا : المرجع السابق ، ص 4296 .

(96) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2003 م ، ج 2 ، ص 223 .

(97) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص 78 ؛ دهخدا : المرجع السابق ، ص 4296 .

(98) الإدريسي : المصدر السابق ، ص 483 .

(99) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 .

(100) المقدسي : المصدر السابق ، ص 323 .

(101) كي لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 .

(102) الحديشي : أرباع خراسان ، ص 391 .

مدينة الطايقان⁽¹⁰³⁾ بزراعة القمح والفواكه⁽¹⁰⁴⁾، وفي مدينة سمنجان⁽¹⁰⁵⁾ تكثر الثمار⁽¹⁰⁶⁾.

أما عن أهم المحاصيل التي تستخدم في الصناعة في بلخ فهي عديدة منها نبات النيلوفر⁽¹⁰⁷⁾، والنيلوفر نبات زهوره بيضاء وزرقاء وصفراء، فهو نبات مائي ينمو في برك المناطق المعتدلة وله زهور صفراء وتعم أوراقه على سطح الماء، وكانت زهوره تستخدم كدواء في بعض الأحيان⁽¹⁰⁸⁾. كما اهتم أهل بلخ بزراعة الكثير من الأعشاب الطبية التي بلغ من كثرتها أن شبه ابن واعظ البلخي "بلخ" بأنها كانت تبدو كأنها دكان للعطارة⁽¹⁰⁹⁾. وأيضًا من المحاصيل المستخدمة في الصناعة قصب السكر والعنب والسمنسم⁽¹¹⁰⁾، ويستخرج من السمنسم زيت السيرج⁽¹¹¹⁾. ونظرًا لكثرة المحاصيل فقد أدى هذا إلى رخص الأسعار⁽¹¹²⁾.

(103) "الطايقان" بفتح الطاء المهملة وسكون الألف وبالياء آخر الحروف وفتح القاف وفي آخرها نون بعد الألف وهي بليدة بناوحي مدينة بلخ من كور طخارستان، أبو الفدا: المصدر السابق، ص 472، 473.

(104) الإصطخري: المصدر السابق، ص 279.

(105) "سمنجان" بكسر السين المهملة والميم وسكون النون وفتح الجيم وألف ونون مدينة من طخارستان بناوحي بلخ. أبو الفدا: المصدر السابق، ص 472، 473.

(106) المقدسي: المصدر السابق، ص 303.

(107) الإصطخري: المصدر السابق، ص 280.

(108) حسن أنوري: فرهنك فشرده، طهران، انتشارات سخن، 1382 هـ ش، مج 2، ص 2519، 2520.

(109) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 50.

(110) مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 78؛ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري: "التبصر بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة" تصحيح وتعليق حسن حبشي عبد الوهاب التونسي، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1994 م، ص 29.

(111) البراوي: المرجع السابق، ص 33.

(112) المقدسي: المصدر السابق، ص 301.

أما عن البساتين ، فنجد أنها كانت تحيط بكل جوانب "بلخ" ⁽¹¹³⁾ ، فيقول المقدسي في وصف بلخ : "انظر إلى بهاء بلخ . . . والتفاف شجرها" ⁽¹¹⁴⁾ ، ويصفها أبو الفدا فيقول : "والبساتين في جميع جهات بلخ تحف بها" ⁽¹¹⁵⁾ وهناك مدن عديدة مضافة إلى "بلخ" تنتشر بها البساتين ، فعلى سبيل المثال طخارستان العليا وطخارستان السفلى ⁽¹¹⁶⁾ يقول عنهما الهمداني إنها تعدان من جائزة البلاد لكثرة ما بهما من أشجار وأنهار ⁽¹¹⁷⁾ ، وامتازت مدينة الطايقان ⁽¹¹⁸⁾ بأن بها أشجاراً في غاية الخصب ⁽¹¹⁹⁾ ، أيضاً امتازت مدينة قباذيان ⁽¹²⁰⁾ ، ومدينة فارياب ⁽¹²¹⁾ بكثرة بساتينها ⁽¹²²⁾ ويقول المقدسي عن مدينة خست ⁽¹²³⁾ . "وخست

(113) الإصطخري: المصدر السابق ، ص 278 ؛ القلقشندي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 395 .

(114) المقدسي : المصدر السابق ، ص 302 .

(115) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 461 .

(116) يوجد في "طخارستان العليا" العديد من البلاد مثل الختل ويسمى الختلان ومدينة منك و هي قصبة الختلان ، ومن المدن التي بها أيضاً أشجار وهي قصبة البدخشان وهنك والباميان ، أما مدن طخارستان السفلى فهي سمنجان وبغلان وخلم ورداليز واسكلكند . الهمداني ، شمس الدين . أبو عبد الله محمد بن أبي طالب ، "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" ، د . م . ، 1923 ، ص 224 .

(117) الهمداني : المصدر السابق ، ص 224 .

(118) "الطايقان" أو طالقان طخارستان مدينة ما زالت قائمة ، وينبغي أن لا يلبس اسمها مع طالقان الجوزجان . لسترنج : المرجع السابق ، ص 470 .

(119) نفسه .

(120) "قباذيان" بضم القاف وفتح الباء الموحدة واللف وذال معجمة مكسورة وفتح المثناة التحتية واللف ونون ناحية من نواحي بلخ ويقال لها أيضاً قواذيان وبالذال المهملة أيضاً . أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 445 .

(121) "الفارياب" بفتح الفاء وسكون الألف وفتح الراء المهملة والياء المثناة من تحتها وسكون الألف الثانية وفي آخرها خاء معجمة ، مدينة صغيرة بنواحي بلخ . أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 460 ، 461 .

(122) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 445 ، 461 .

(123) "خوست" بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو والسين المهملة وفي آخرها تاء ، من أعمال بلخ ويقال لها خست أيضاً ، وهي بليدة صغيرة بين أندرابة وطخارستان ، نفسه ، ص 453 .

نزهة مشجرة خصبة" كما يقول عن مدينة أندرابة⁽¹²⁴⁾ : "وأندرابة لها أودية مشجرة"⁽¹²⁵⁾.

أما الإصطخري فيقول إن كل المدن الموجودة بنواحي الباميان "ذوات أنهار وأشجار وثمار" وامتازت مدن الختل بأنها كلها ذوات أشجار وهي في غاية الخصب اتسمت أيضًا مدينة "بنجهير" بكثرة البساتين⁽¹²⁶⁾.

يرتبط بالإنتاج الزراعي الإنتاج الحيواني ، فتميز بلخ بتوافر الثروة الحيوانية ، فمن عناصر الثروة الحيوانية المهمة في القسم الشرقي من العالم الإسلامي البقر والجاموس والغنم والماعز والإبل والحيل والبغال⁽¹²⁷⁾ . فاشتهرت بلخ بأنفس الدواب وبالبقر والغنم ، حتى إن الإصطخري يقول : "وأكثر السوائم⁽¹²⁸⁾ بخراسان من الإبل بناحية بلخ" ، ثم يقول : "أنفس الدواب ما يرتفع من نواحي بلخ"⁽¹²⁹⁾ ، كما كانت بلخ تشتهر بالجمال ذات السنامين وكان يقال لها الجمال البخت وهي أفضل من كل ما عداها⁽¹³⁰⁾ نظرًا لسرعة عدوها⁽¹³¹⁾ ووجدت ماشية كثيرة في "سمنجان"⁽¹³²⁾ ، أما "غزنة" فاشتهرت بجودة لحوم أغنامها ، فيقول الإصطخري : "وخير لحمان الغنم ما يجلب من بلاد الغزية"⁽¹³³⁾ ، وهذا يرجع لغنى مراعي "بلخ" .

(124) "أندراب" بفتح الهمزة وسكون النون ثم الدال وراء مهملتين وألف وفي الآخر باء موحدة من نواحي بلخ، من كور طخارستان وتقع بين غزنة وبلخ . ويقال لها أندرابة. الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 ؛ أبو الفدا : المصدر السابق، ص 462 ، 463 .

(125) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(126) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 ، 280 .

(127) البراوي : المرجع السابق ، 37 .

(128) "السائمة" والسوام (ج) سوائم هي الماشية والإبل الراعية ، معلوف : المرجع السابق ، ص 376 .

(129) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(130) نفسه ، ص 280 ؛ البراوي : المرجع السابق ، ص 39 ؛ آدم متز : المرجع السابق ، ج 2 ص 255 .

(131) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 265 .

(132) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(133) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 282 .

وقد انفردت "بذخشان" بالشهرة دون غيرها من جميع مقاطعات المجرى الأعلى لنهر بلخ بمراعيها الجيدة وكثرة الدواب الموجودة على جبالها وخاصة الخيل والبغال⁽¹³⁴⁾ أما "طخارستان" فتشتهر بالبرذون⁽¹³⁵⁾ الطخاري المشهور والبغال⁽¹³⁶⁾، كما اشتهرت "الختل" بالخيول⁽¹³⁷⁾، والبغال ويكثر الدواب حتى أنها كانت تصدر منها إلى المدن الأخرى، ومدينة "الختل" هي أصل البراذين الختلية⁽¹³⁸⁾.

كان للثروة الحيوانية أثر بليغ على الجانب السياسي خلال العصر السلجوقي، وذلك عندما كان الحشم الغز⁽¹³⁹⁾ - الذين كان مقام معظمهم ومرعاهم بولاية ختلان من أعمال بلخ - يسلمون لرئيس الطباخين في "مرو" خراجاً قدره أربعة وعشرون ألف رأس من الأغنام سنوياً من أجل ولائم السلطان سنجر صاحب خراسان، غير أنهم امتنعوا ذات مرة - وذلك في أواخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة - (1153م) عن إرسال الأغنام⁽¹⁴⁰⁾، ولما

(134) بارتولد: المرجع السابق، ص 147؛ محمد عبد العظيم يوسف أبو النصر: "مراكز التجارة في آسيا الوسطى" منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 2000م، ص 351.

(135) البرذون دابة الحمل الثقيلة، التركي من الخيل، مفرد برذونة والجمع براذين، معلوف: المرجع السابق، ص 30.

(136) الحديثي: دراسات في التنظيمات الاقتصادية، ص 91.

(137) معلوف: المرجع السابق، ص 173.

(138) الإصطخري: المصدر السابق، ص 279؛ الحديثي: دراسات في التنظيمات الاقتصادية، ص 91، 92.

(139) كان الغز فرسان من التركمان دخلوا البلاد مع السلطان ولم تكن لديهم رغبة في أن يدللوا أسلوب معيشتهم الرعوية ليصبحوا حضراً، وكان عمال الدولة الإيرانيون يريدون ضم وحدات الرعاة إلى "حشم" السلطان وإخضاعهم لنفس النظام الذي سار عليه من قبل حرس السلاطين السابقين. المؤلف من المالك والمرزقة، وكانت وحدات التركمان العسكرية مصدراً من مصادر الاضطراب الدائم للدولة، إلا أن الدولة لم تتخذ ضدهم إجراءات مشددة، لخدمتهم لها ولرابطة الرحم التي تجمعهم مع أهل البيت المالك. بارتولد: المرجع السابق، ص 456؛ الراوندي: المصدر السابق، ص 268.

(140) يرجع سبب امتناعهم إلى سوء معاملة مبعوث رئيس الطباخين لهم ومجادلته لهم في الغن والسمن من الأغنام فقتلوه.

قدم والي بلخ الأمير قماج إلى "مرو" وعلم بما حدث من الغز وازدياد نفوذهم ، طلب من السلطان سنجر - سلطان العالم - أن يسند إليه مهمة رئاستهم ومباشرتهم نظراً لسيطرتهم وازدياد نفوذهم ، فوافق السلطان ، ولما عاد الأمير قماج إلى بلخ أرسل شخصاً إلى الحشم الغز وطلب الأغنام الباقية ، فرفضوا⁽¹⁴¹⁾ وطردها رسول "قماج" ، فغضب والي بلخ الأمير قماج وتوجه لمحاربتهم إلا أن النصر كان حليفهم ، وقتلوه هو وابنه "ملك الشرف" ، فاتجه إليهم السلطان سنجر بن ملكشاه ، وحاربهم فانتصر الغز وتعقبوا السلطان حتى ألقوا القبض عليه في مرو ونكلوا بالأعيان والأشراف في كل مدينة من مدن خراسان⁽¹⁴²⁾ .

التعدين والصناعة :

يرجع ازدهار الصناعة في بلخ إلى مقومات عديدة منها وفرة الثروة المعدنية اللازمة لمختلف الصناعات ، والأيدي العاملة التي تتميز بالمهارة ، فقد كانت أرض بلخ زاخرة بالخيرات والمنافع والثروات المعدنية ، ففيها مناجم الذهب الخالص الصافي والفضة ، بعضه من الجبل والبعض الآخر من النهر ومن إحدى نواحي بدخشان التي لها شهرة عالمية⁽¹⁴³⁾ .

(أ) الذهب :

يوجد على نهر بلخ أجود أنواع الذهب⁽¹⁴⁴⁾ . ومن المدن التي اشتهرت باستخراج الذهب مدينة الختل ، فعلى نهر "وخاب" توجد مكانس الذهب الذي يستخرج من النهر على هيئة قطع صغار أشبه برؤوس الإبر ، ومن سيول الأودية القادمة من وخان⁽¹⁴⁵⁾ ، وكان

(141) وسبب رفضهم أنهم كانوا يرون أنهم عبيد السلطان شخصياً ، ولن يقبلوا غيره حاكماً عليهم .

(142) خواندمير : المرجع السابق ، مج 2 ؛ ص 511 ، 512 ؛ الراوندي : المصدر السابق ، ص 268 .

(143) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48 .

(144) ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 619 .

(145) "وخان" تقع في شرق بدخشان في أعلى جيحون في طريق التبت ، بينها وبين التبت مسافة قرية تبلغ ثمانية عشر يوماً . محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 352 .

معاش أهالي بعض القرى مقصوراً على انتظار الأمطار الربيعية ، فإذا جاءت كونت سيولاً تجرف معها الرمال التي تحتوي على الذهب⁽¹⁴⁶⁾ . أيضاً اشتهرت "بنجهير"⁽¹⁴⁷⁾ و "بذخشان" بتوافر معدن الذهب بهما⁽¹⁴⁸⁾ .

(ب) الفضة :

يوجد معدن الفضة بوفرة في مدينة بنجهير - بنواحي بلخ - حيث عرف جبل بنجهير بجبل الفضة ، ويتحدث الإصطخري عن جبل بنجهير فيقول : "وفي هذا الجبل من أوله إلى آخره معادن الفضة والذهب"⁽¹⁴⁹⁾ ، ويقول المقدسي : "وبنجهير هي جبل الفضة"⁽¹⁵⁰⁾ ويقول أبو الفدا : "جبل الفضة وهو بنجهير" وكان أهل بنجهير حريصين دائماً على البحث عن الفضة ، فكان هذا هو شغلهم الشاغل حتى إنهم "جعلوا السوق كالغربال لكثرة الحفر" ويصف لنا أبو الفدا طريقة بحث الأهالي عن الفضة فيقول : "ولإننا يتبعون عروقاً يجدونها تفضي إلى الفضة وهم إذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً إلى أن يصيروا إلى الفضة فينشق الرجل منهم الأموال الكثيرة في الحفر ، فربما خرج له من الفضة ما يستغني هو وعقبه ، وربما خاب عمله لغلبة الماء وغير ذلك ، وربما وقف الرجل على العرق ووقف آخر عليه بعينه في موضع آخر فيأخذان جميعاً في الحفر ، والعادة عندهم أن أي من سبق فاعترض على صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي إليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملاً لا يعمله الشياطين ، وإذا سبق أحد الرجلين بقي الآخر وقد ذهبت نفقته هدرًا ... فنرى الرجل يصبح وهو صاحب ألف ألف ويمسي ولا شيء عنده ، ويصبح وهو فقير ويمسي وقد ملك ما لا يضبط حسابه"⁽¹⁵¹⁾ . ولا تزال بنجهير مشهورة

(146) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 119 .

(147) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 281 .

(148) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48؛ عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 267 .

(149) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 281 .

(150) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(151) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 464 .

حتى الآن بمعادن الفضة ، وتعتبر بنجهير لعهدا بها أغنى معادن الفضة بالقسم الشرقي من العالم الإسلامي⁽¹⁵²⁾ .

وقد أدى وجود جبل الفضة في "بنجهير" إلى كثرة الدراهم الفضية حتى أصبحت لا حصر لها وكان أهلها "لا يشترون ولو باقة بأقل من درهم"⁽¹⁵³⁾ . ويقول المقدسي : "والدراهم بها واسعة أقل ما توجد المقطعة"⁽¹⁵⁴⁾ .

ومن المدن الأخرى التي وجد بها معدن الفضة مدينة جارباية⁽¹⁵⁵⁾ - وهي من رساتيق بلخ - حتى إن أهل جارباية كان مقامهم على تلك المعادن⁽¹⁵⁶⁾ ، ووجد معدن الفضة في مدينة أندرابة - وهي من نواحي بلخ - وتقع مدينة أندرابة في شعب جبال وبها تجمع الفضة التي تقع من جارباية⁽¹⁵⁷⁾ ، كما وجد معدن الفضة في الجبال الممتدة من بنجهير إلى أندرابة وبذخشان والصاعدة إلى التبت مارة بوخان وبروان وشجلي⁽¹⁵⁸⁾ . أيضًا وجد هذا المعدن الثمين في أودية مدينة بغلان⁽¹⁵⁹⁾ ، وكانت هذه الأودية في سفوح جبل بنجهير الشمالية⁽¹⁶⁰⁾ .

(152) آدم متر : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 236 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، ص 149 .

(153) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 469 .

(154) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 .

(155) وتقع "جارباية" على نهر "بنجهير" حيث يشق النهر وسط جارباية . محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 350 ، 351 .

(156) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 ؛ الحديدي : أرباع خراسان ، ص 404 .

(157) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 .

(158) الحديدي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 115 .

(159) بغلان بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وفي آخرها نون ، وهي بلدة بنواحي بلخ . ابن الأثير : اللباب ، ج 1 ، ص 114 ؛ أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 447 .

(160) لسترنج : المرجع السابق ، ص 469 .

(ج) اللازورد⁽¹⁶¹⁾ :

وجد هذا المعدن في العديد من المدن مثل : بنجهير وجارباية⁽¹⁶²⁾ ، وفي مدينة الباميان من رساتيق بلخ⁽¹⁶³⁾ ، كما يجلب اللازورد من جبال بَذَخْشان⁽¹⁶⁴⁾ ، وكان أهل بلخ يستخدمون اللازورد في نقوش مبانيهم نظرًا لكثرة⁽¹⁶⁵⁾ .

معادن أخرى :

وهناك العديد من المعادن التي اشتهرت بها "بلخ" مثل اللعل وهو صنف من أصناف الياقوت⁽¹⁶⁶⁾ ، ويسمى (بيجاذيا)⁽¹⁶⁷⁾ ، ووجد حجر البجاذي في كور الباميان كما وجد في "بذخشان"⁽¹⁶⁸⁾ . كما وجدت معادن كثيرة في "بلخ" وفي جبل الباميان ، مثل النحاس والرصاص⁽¹⁶⁹⁾ ، والزئبق⁽¹⁷⁰⁾ ومن المعادن التي اشتهرت بها "بلخ" أيضًا الكبريت والملح والخشب⁽¹⁷¹⁾ ، والزرنينج⁽¹⁷²⁾ أما القار⁽¹⁷³⁾ فوجد في أودية الختل⁽¹⁷⁴⁾ .

(161) اللازورد : معدن مشهور يتولد بجبال أرمينية وفارس وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة أو خضرة وله منافع في الطب . معلوف : المرجع السابق ، ص 753 ، 754 .

(162) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 117 .

(163) الدمشقي : المصدر السابق ، ص 224 .

(164) المقدسي : المصدر السابق ، ص 303 ؛ بارتولد : المرجع السابق ، ص 147 ؛ عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 267 .

(165) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 317 .

(166) الحديثي : أرباع خراسان ، ص 391 .

(167) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 117 .

(168) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 279 ؛ الدمشقي : المصدر السابق ، ص 224 .

(169) ابن رُسته : المصدر السابق ، ص 289 ؛ ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48 .

(170) ابن رُسته : المصدر السابق ، ص 289 .

(171) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 48 .

(172) لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 .

(173) "القار" و "القير" : مادة سوداء تغطي بها السفن والإبل وغيرها وقيل هو الزيت ، معلوف : المرجع السابق ، ص 308 ، 705 .

(174) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 116 .

اشتهرت بذخشان بمعادن أخرى عديدة مثل البلور و حجر البازهر و حجر الفتيلة، وهو يوضع في مادة دهنية فيضيء كما تضيء الفتيلة ولا ينقص⁽¹⁷⁵⁾، وقد سمي حجر الفتيلة لأنه كان يستعمل في إضاءة المنازل أي: فتيلة للمصابيح⁽¹⁷⁶⁾.

وكان يوجد في بلخ عمال مَهرة في استخراج المعادن وصقلها وصناعتها، ويعرف هؤلاء العمال باسم المحصلين، وربما كان هذا الاسم نسبة إلى استحصالهم المعادن من أحجارها، ولم تقتصر مهمة المحصلين على ذلك فقط وإنما كان فيهم من له خبرة بالمواد الكيماوية لتنقية المعادن ومعرفة أصولها⁽¹⁷⁷⁾. ولم تقتصر مهارة أهل بلخ على هذا المجال وإنما كان لديهم مهارة في كافة الصناعات⁽¹⁷⁸⁾.

ازدهرت الصناعة في مدن بلخ العديدة، فكانت هناك صناعات مختلفة مثل الصناعات المعدنية والجلدية وصناعة المنسوجات، فمن الصناعات المعدنية التي اشتهرت بها بلخ صناعة الفصوص والخواتم من الأحجار الكريمة وصناعة صياغة الجواهر، وذلك نظرًا لغنى الدولة بالمعادن الثمينة كالذهب والفضة⁽¹⁷⁹⁾، ومن المدن التي اشتهرت بها هذه الصناعة "بذخشان"⁽¹⁸⁰⁾. وهناك صناعات معدنية أخرى مثل صقل مصنوعات الحديدية كالسيوف والدروع⁽¹⁸¹⁾.

أما عن صناعة المنسوجات فاشتهرت بلخ بصناعاتها⁽¹⁸²⁾ وخاصة المنسوجات المرصعة بالجواهر⁽¹⁸³⁾ وذلك لتوافر معدني الذهب والفضة بها، أما فيما يتعلق

(175) المقدسي: المصدر السابق، ص 303؛ عصام الدين الفقي: المرجع السابق، ص 267.

(176) آدم متز: المرجع السابق، ج 2، ص 238.

(177) الحديثي: دراسات في التنظيمات الاقتصادية، ص 119.

(178) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 52.

(179) عبد النعيم محمد حسنين: دولة السلاجقة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م، ص 168؛

محمد عبد العظيم: المرجع السابق، ص 351.

(180) محمد عبد العظيم: المرجع السابق، ص 351.

(181) الحديثي: أرباع خراسان، ص 392.

(182) لسترنج: المرجع السابق، ص 472.

(183) ذكر ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار، ص 317، 318 أن زوجة أمير بلخ داود بن علي باعت ثوبًا مرصعًا بالجواهر من ثيابها لبناء مسجد وزاوية ورباط، وقيل إنه تبقى بعد ذلك مقدار ثلث ثمنه.

بالصناعات الجلدية ، فقد اشتهرت بلخ بدباغة وصناعة الجلود ، وذلك لتوافر ما لديهم من ثروة حيوانية أشرنا إليها من قبل ، ومن الصناعات الأخرى صناعة الزيوت ومشتقاتها ، فقد تضمنت صناعات بلخ صناعة زيت السيرج⁽¹⁸⁴⁾ ، وصناعة الصابون والطيوب والأدهان⁽¹⁸⁵⁾ ، ووجدت صناعات أخرى عديدة في بلخ مثل صناعة الزبيب وصناعة السمن والعسل المصنوع من العنب والتين ولب الرمان⁽¹⁸⁶⁾ والصناعات الكيماوية مثل الأبخرة والأدوية والعقاقير والمصل ، والصناعات الخشبية⁽¹⁸⁷⁾ ، وقد تنوعت الصناعات الخشبية من أدوات منزلية وأثاث منزلي نظرًا لكثرة الأشجار⁽¹⁸⁸⁾ . ووجدت أيضًا صناعة الروائح العطرية وذلك نظرًا لتوافر نبات النيلوفر والزهور⁽¹⁸⁹⁾ .

التجارة :

(أ) التجارة الداخلية:

كانت التجارة تمثل إحدى الدعائم الاقتصادية المهمة في "بلخ" والتي ازدهرت بفضل وفرة منتجاتها الزراعية والصناعية علاوة على الثروة الحيوانية . ولقد راجت حركة التجارة الداخلية في أسواق "بلخ" التي وجدت بوسط المدينة⁽¹⁹⁰⁾ ، حول المسجد الجامع⁽¹⁹¹⁾ ، كما وجدت أسواق على مداخل "بلخ" حول أبوابها الرئيسية . وكانت تلك الأسواق عامرة بكافة أنواع السلع ، وارتبطت بأحياء "بلخ" المختلفة⁽¹⁹²⁾ .

(184) البراوي : المرجع السابق ، ص 33 .

(185) "الدهن" مادة في الحيوان والنبات دسمة جامدة في درجة الحرارة العادية ، وإذا سالت كانت زيتًا .

(ج) أدهان ودهان ، المعجم الوجيز ، ص 236 .

(186) المقدسي : المصدر السابق ، ص 323 ؛ لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 .

(187) الحديثي : دراسات في التنظيمات الاقتصادية ، ص 128 ، 132 ، 133 .

(188) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 268 .

(189) ي. هل : الحضارة العربية ، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي ، القاهرة ، كتاب الهلال ، 1979م ، ص 107 .

(190) لسترنج : المرجع السابق ، ص 462 .

(191) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 278 .

(192) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 50 ، 53 .

وحفلت مدن "بلخ" بالأسواق العامرة التي وجدت في "هلاورد" و"منك"، ومدينة "لاوكند" - وهي من أكبر مدن الختل - ⁽¹⁹³⁾، كما انتشرت الأسواق في مدينة شومان من مدن الوخش ⁽¹⁹⁴⁾ - والوخش ⁽¹⁹⁵⁾ بلدة بنواحي بلخ - والطاقان، وأندرابة ⁽¹⁹⁶⁾، وبنجهير ⁽¹⁹⁷⁾. وكثرة الأسواق ⁽¹⁹⁸⁾ تبرهن على كثرة الإنتاج الزراعي والنشاط الصناعي في "بلخ".

ومما ساعد على انتعاش التجارة الداخلية في بلخ اتساع طرقها ⁽¹⁹⁹⁾، وسهولة الانتقال بين مدنها المختلفة، مما ساعد على نقل البضائع في سهولة ويسر، ومن الطرق التي ربطت بلخ بمدنها المختلفة :

- طريق يربط "بلخ" بمدينة "خلم" ⁽²⁰⁰⁾.
- طريق يربط "بلخ" بمدينة "بغلان".
- طريق يربط "بلخ" بمدينة "مذر".
- طريق يربط "بلخ" بمدينة "أشبورقان" ⁽²⁰¹⁾.

-
- (193) الإصطخري : المصدر السابق، ص 276، 279.
- (194) محمد عبد العظيم : المرجع السابق، ص 350، 351.
- (195) "الوخش" بفتح الواو وسكون الحاء وبعدها شين وهي بلدة بنواحي بلخ من ختلان. ابن الأثير: اللباب، ج2، ص 427.
- (196) المقدسي : المصدر السابق، ص 303.
- (197) أبو الفدا : المصدر السابق، ص 469.
- (198) لم تذكر لنا المصادر التاريخية أو الجغرافية المتاحة بعض المعلومات المهمة مثل أنواع تلك الأسواق وموعد انعقادها.
- (199) المقدسي : المصدر السابق، ص 302.
- (200) "خلم" بضم الخاء المعجمة وسكون اللام وبالميم بلد من بلاد بلخ، وخلم على عشرة فراسخ من بلخ. أبو الفدا، المصدر السابق، ص 447.
- (201) المسافة من بلخ إلى "خلم" يومان، ومن بلخ إلى "بغلان" ستة أيام، ومن بلخ إلى "مذر" ستة أيام أيضًا، ومن بلخ إلى "أشبورقان" ثلاثة أيام. الإصطخري : المصدر السابق، ص 283، 286.

هذا بالإضافة إلى الطرق التي كانت تربط مدن "بلخ" بعضها ببعض⁽²⁰²⁾.

(ب) التجارة الخارجية :

أصبحت بلخ بموقعها المتميز مركزاً تجارياً هاماً لوقوعها على الطرق والممرات البرية والنهرية حيث تلتقي عندها التجارات العالمية والمنتجات المختلفة .

وقد ارتبطت بلخ بالعديد من الطرق العالمية ، فمنها ما يمر داخل أراضي خراسان ومنها ما يمر بالطرق الخارجية ، أما عن الطرق التي تربط بلخ بالمدن المختلفة بخراسان ، فقد وجد طريق يربط بين بلخ ومرو⁽²⁰³⁾ ، كما ارتبطت بلخ من خلال موقعها في وسط خراسان بمدن المشرق الهامة كفرغانة⁽²⁰⁴⁾ ، والري ، وسجستان ، وقشмир ، وخوارزم ، والمثلثان ، وكرمان ، وكابل ، وقندهار⁽²⁰⁵⁾ . فهي تقع على أبعاد متساوية من كافة الحدود الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية لمنطقة خراسان⁽²⁰⁶⁾ ، مما ساعد على شهرة بلخ التجارية .

أما عن الطرق التجارية العالمية ، فقد ارتبطت بلخ بالعديد منها ، فمثلاً ارتبطت بلخ ببلاد الهند بصلات تجارية قوية ، وأصبحت بلخ مركزاً لتجميع بضائع الهند⁽²⁰⁷⁾ حيث ساعدت سهولة الانتقال بينهما على هذا الازدهار التجاري ، ويقول المقدسي عن بلخ : "إنها متجر السند" وإن بها "تجارات مفيدة"⁽²⁰⁸⁾ ، أما ابن واعظ البلخي ، فيقول عن بلخ : "إن من شأئلهما أنها كانت مجمع الخلائق ومركز القوافل وهو ما لا تشهده أي مدينة فيما عدا مكة في موسم الحج"⁽²⁰⁹⁾ .

(202) نفسه ، ص 283 ، 286 .

(203) المسافة من مرو إلى بلخ 126 فرسخاً ، ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص 616 .

(204) "فرغانة" بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الغين المعجمة وبعد الألف نون ، وهي ولاية وراء

الشاش وراء جيحون وسيحون . ابن الأثير : اللباب ، ج 2 ص 171 .

(205) المسافة من بلخ إلى كل مدينة من المدن المذكورة أعلاه في المتن ثلاثون مرحلة . ابن رُسته ، المصدر

السابق ص 287 ، 288 .

(206) بارتولد : المرجع السابق ، ص 161 .

(207) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص 78 ؛ البستاني : المرجع السابق ، ص 551 .

(208) المقدسي : المصدر السابق ، ص 302 .

(209) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 47 ، 48 .

كانت بلخ مركزاً ووسيطاً تجارياً عالمياً بين بلاد ما وراء النهر والهند ، عن طريق المجاري العليا لنهر السند ومنه إلى بلاد التبت ⁽²¹⁰⁾ ، وقد وصف لسترنج هذه الطرق التي ربطت بينها بقوله : "عبر جبال البامير التي كانت بداية الطريق الهندي العظيم للتجارة ، أو ما يسمى طريق التوابل حيث كانت بلخ تتوسط طريق الحرير ، وتعتبر في الوقت نفسه رأس جسر للطريق المؤدي إلى داخل الهند ، وأنطاكية ، ودمشق ، وروما " ثم يتابع سيره إلى مدينة القوافل "مرو" ⁽²¹¹⁾ . ومن مراكز التجارة أيضاً "بذخشان" إذ كانت القوافل التجارية تخرج من آسيا الوسطى إلى الهند عن طريق بذخشان لأنها تقع على طريق التجارة القادم من التبت في المجرى الأعلى لنهر جيحون ، كما كانت بذخشان تتصل ببلاد القنوج من الهند ⁽²¹²⁾ .

وهناك مدن عديدة تميزت بالتجارة منها "غزنة" و"كابل" ، ويقول الإصطخري عن غزنة : "وليس في هذه المدن التي في نواحي بلخ أكثر مالا وتجارة من غزنة فإنها فرضة ⁽²¹³⁾ الهند" ، كما يقول عن مدينة كابل - وهي من عمل الباميان - : "وهي فرضة الهند أيضاً" ⁽²¹⁴⁾ .

وكانت بلخ من المدن الهامة التي تقع على طريق الحرير العظيم ⁽²¹⁵⁾ ، وقد أدى

(210) "تبت" بضم التاء وفتح الباء ، بلاد متاخمة للصين من إحدى جهاته وللهند من أخرى . انظر :

القزويني : المصدر السابق ، ص 79 ؛ محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 351 .

(211) لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 ، 474 ، محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 354 .

(212) محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 351 ، 354 .

(213) فرضة النهر بضم الفاء ثلثته التي يستقي منها وفرضة البحر أيضاً محط السفن ، محمد بن أبي بكر

ابن عبد القادر الرازي : مختار الصحاح ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، 1328 هـ / 1910 م ، ص 524 .

(214) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(215) يعد طريق الحرير العظيم طريق التجارة العالمي في العصور الوسطى ، وهو الممتد من الصين إلى

البحر المتوسط حيث مدن أوروبا . ومن البضائع النفيسة التي تُحمل في هذا الطريق الحرير الذي

انفردت الصين بإنتاجه . ولم تكن مهمة هذا الطريق التبادل التجاري فقط بل كان طريقاً لانتقال

الحضارات ، فقد انتقل من خلاله استعمال الخيول والجمال ذات السنامين من المشرق إلى العالم .

عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 270 ، 271 . محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 330 .

موقعها هذا إلى ازدهارها وانتعاشها نظراً لانتظام الحركة في طريق الحرير⁽²¹⁶⁾ مما سهل عملية الرواج التجاري بها ، بل جعلها مقراً لالتقاء التجار من كل صوب ، ويقول لسترنج إن هذا الطريق أقدم خط تجاري يربط بين آسيا الوسطى ومدن أوروبا⁽²¹⁷⁾ .

ويبدأ طريق الحرير من المدائن على نهر دجلة ويمر بعد المدائن ببجبال زغروس إلى همدان ومرو وبكترا (بلخ) وسمرقند وكشغر ثم تعبر بلاد تركستان حيث سوق الحرير وتتجه جنوباً إلى الشرق حتى تصل إلى "هسيان - فو" وهي بلاد الحرير⁽²¹⁸⁾ وهناك طريق يخترق خراسان إلى بلخ ثم يعبر نهر جيحون إلى ترمذ⁽²¹⁹⁾ وبالإضافة إلى سهولة الطرق البرية والنهرية بين بلخ وغيرها من البلاد - كما رأينا - توافرت لديها وسائل عديدة لنقل البضائع منها الجمال البلخية ذات السنامين⁽²²⁰⁾ التي كانت ضمن دواب مطايا تجار طريق الحرير⁽²²¹⁾ ، وكانت هذه الوسيلة لا تقل أهمية عن السفن النهرية .

فقد كان يتم نقل البضائع أيضاً عن طريق السفن النهرية عبر نهر جيحون ، فكانت السفن تقوم بنقل آلاف الأغنام عن طريق نهر جيحون⁽²²²⁾ ، وكان نهر جيحون يستخدم كوسيلة نهرية لنقل البضائع طوال السنة عدا ثلاثة شهور كان يستخدم خلالها كوسيلة برية وذلك لأنه يجمد في فصل الشتاء لمدة ثلاثة أشهر ، فتعبر عليه القوافل بدوابها وأثقالها⁽²²³⁾ . ويصف لنا ابن فضلان نهر جيحون فيقول : "وجمَد نهر جيحون من أوله إلى

(216) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 271 .

(217) محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 330 ، 331 ، 335 .

(218) نقولا زيادة : "معجم المصطلحات الجغرافية" ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، 1964 م ، ص 220 .

(219) لسترنج : المرجع السابق ، ص 472 ، 474 ، محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 354 .

(220) وكان هذا النوع من الجمال - الذي اشتهرت به بلخ - يعرف بالجمال البخت ، وكانت النوق البخاتي الموجودة في بلخ مقدمة على سائر البخت . انظر : عصام الدين الفقي : المرجع السابق ،

ص 265 ، 270 ؛ البراوي : المرجع السابق ، ص 39 .

(221) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(222) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 50 .

(223) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 68 .

آخره وكان سمك الجَمَد سبعة عشر شبرًا ، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق ، وهو ثابت لا يتخلخل فأقام على ذلك ثلاثة أشهر⁽²²⁴⁾ .

وكان يوجد ببلخ العديد من الحمامات لخدمة التجار الأجانب الوافدين على بلخ⁽²²⁵⁾ ، وكان هؤلاء التجار يصلون إلى بلخ من كافة الأنحاء ، ومعهم الكثير من البضائع ، ويروج البيع والشراء ويحقق التجار أرباحًا كثيرة ، فكانت هناك قوافل تجارية تصل إلى بلخ بصفة دورية كل سنة من الهند محملة بالعقاقير الطبية ، والعطور مثل العود والكافور وغيرها ، والخلوى الشهية مثل السكر والسكر الأبيض ، والأقمشة النفيسة من جميع الأشكال والأنواع ، والجواري الجميلات ، والغلمان ممشوقي القوام ، الذين كان التجار يحضرونهم من ناحية التركستان ، لما لديهم من مواصفات تؤهلهم للعمل في الجندية منها الشجاعة والقوة الجسدية والخشونة والغلظة⁽²²⁶⁾ كما كانت بلخ تستورد الأحجار الكريمة والمجوهرات الثمينة ، والحرير الفرغاني⁽²²⁷⁾ وتعد الحرائر من أهم السلع التي يتاجر فيها أهل بلخ بصورة واسعة⁽²²⁸⁾ .

وكانت بلخ تستورد من "كابل" الإهليلج⁽²²⁹⁾ الكابلي الكبار⁽²³⁰⁾ كما كانت تستورد

(224) ابن فضلان ، أحمد بن العباس بن راشد بن حماد : رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309 هـ - 921 م ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، 2006 م ، ص 33 ، 34 .

(225) حافظ أحمد حمدي : المرجع السابق ، ص 172 .

(226) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 276 .

(227) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 51 .

(228) البستاني : المرجع السابق ، ص 551 .

(229) الإهليلج : شجر ينبت في الهند وكابل والصين ، ثمرة على هيئة حب الصنوبر الكبار ، المعجم الوجيز ، ص 29 .

(230) ابن رسته : المصدر السابق ، ص 291 .

السّمك الصغير المملّح - المعروف باسم الطّريخ - من بحيرة "وان" بأرمينية⁽²³¹⁾ وكان مدخل القوافل إلى بلخ من مدينة "أندراب" الواقعة بين "بلخ" و"غزنة"⁽²³²⁾

أما من حيث الصادرات ، فكانت بلخ تزخر بالمنتجات النباتية وبالموارد المعدنية المختلفة مما شجع التبادل التجاري بين بلخ وغيرها من المدن ، فنظرًا لكثرة غلة بلخ نجد أنها كانت تصدرها إلى جميع مدن خراسان وخوارزم⁽²³³⁾ ، ومن أهم صادرات بلخ الأترج (التارنج) والنيلوفر وقصب السكر⁽²³⁴⁾ والعنب⁽²³⁵⁾ نظرًا لما لديها من فائض . كما كانت بلخ تصدر اللوز والجوز والسّمسم والزبيب والسمن وعسل الشمسي من العنب والتين ولب الرمان والكبريت والرصاص والزرنينخ والصابون والجلود⁽²³⁶⁾ ، واشتهرت مدينة "بذخشان" بتصدير حجر البجاذي واللازورد ، ولم تقتصر صادرات بلخ على المحاصيل الزراعية والمعادن فقط وإنما اشتهرت بلخ أيضًا بتصدير النوق البخاتي⁽²³⁷⁾ - الجمال ذات السنامين -⁽²³⁸⁾ وذلك نظرًا لسرعتها واستخدامها في الكثير من الأعمال وعلى رأسها نقل البريد وحركة النقل السريع بين المدن⁽²³⁹⁾ ويقول الإصطخري : "أنفس الدواب ما يرتفع من نواحي بلخ"⁽²⁴⁰⁾ ، وتشتهر "الخُتل" بتصدير الدواب إلى سائر البلاد نظرًا لكثرتها لديها⁽²⁴¹⁾ .

(231) آدم متر : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 229 .

(232) أبو الفدا : المصدر السابق ، ص 463 .

(233) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 568 .

(234) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(235) الجاحظ : المصدر السابق ص 29 .

(236) المقدسي : المصدر السابق ، ص 323 .

(237) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 280 .

(238) البراوي : المرجع السابق ، ص 39 .

(239) عصام الدين الفقي : المرجع السابق ، ص 265 .

(240) الإصطخري : المصدر السابق ، ص 282 .

(241) محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص 350 .

التجار:

من الجدير بالذكر أن تجار بلخ حظوا بمكانة رفيعة ، وكان لهم دور كبير في الحفاظ عليها أثناء التطورات السياسية التي عصفت بالمدينة ، فعلى سبيل المثال دفع التجار مقداراً من المال لشمس الملك بن طمغاج خان ليمنع رجاله من القراخانيين⁽²⁴²⁾ من إحراق مدينة "بلخ" ، وقد كان ذلك خلال الصراع بين السلاجقة والقراخانيين ، فقد انتهز "شمس الملك بن طمغاج خان" فرصة خروج "إياز بن ألب أرسلان" حاكم بلخ منها ودخلها مع جيشه سنة 465 هـ / 1072 م، فانتهم بعض الأهالي فرصة خروجه من "بلخ" وهجموا على إحدى فرق جنده الأتراك، فأمر رجاله بإحراق بلخ إلا أن تجار بلخ كان لهم دور فعال في إنقاذها⁽²⁴³⁾

ووصل بعض التجار إلى أعلى مناصب الدولة خلال العصر السلجوقي نظير خدماتهم للدولة ، فعلى سبيل المثال أسند السلطان سنجر (ت 552 هـ / 1157 م) إدارة ولاية بلخ وتحصيل أموالها إلى "تغار بيك محمد بن سليمان الكاشغري"⁽²⁴⁴⁾ ، ثم ولي منصب الوزارة في بلخ ، وقد كان يعمل بالتجارة في بداية حياته⁽²⁴⁵⁾ .

التنظيمات المالية :

اهتم السلاجقة اهتماماً كبيراً بزيادة موارد بلخ ، وقد نجحوا في تحقيق ذلك ، فازدهرت وانتعشت الحالة الاقتصادية في عهد السلاجقة ، فكان مزارعو بلخ يحصلون

(242) القراخانيون كانوا في سمرقند وترمد وهم أول أسرة تركية تحكم بلاد ما وراء النهر بأجمعها حكماً مباشراً ، بارتولد : المرجع السابق ، ص 451 .

(243) نفسه ، ص 462 ، 463 .

(244) عمل تغار بيك محمد بن سليمان الكاشغري بالتجارة في بداية حياته في بلاد التركستان ، وأثناء ذلك تقرب من الخواتين ورفع علم الوزارة وانشغل بهذا المنصب فترة قصيرة وعزل بسبب عدم القبول ، وذهب من التركستان إلى مرو شاهجان ودخل في زمرة ملازمي البلاط السنجري ، وعينه السلطان لإدارة ولاية بلخ وتحصيل أموالها ، وفي تلك الأثناء قدم خدمات جليلة للأمير قباچ والي بلخ فدفع الأمير قباچ مليون دينار للسلطان حتى فوض منصب الوزارة لمحمد بن سليمان الكاشغري ، ولبس محمد بن سليمان الكاشغري خلعة الوزارة. خواندمير : المرجع السابق، ص 513 .

(245) خواندمير : المرجع السابق ، ص 513 .

على دخل كبير ويبيعون للفلاحين بسعر مناسب⁽²⁴⁶⁾، وكانت العملات وخاصة الدراهم الفضية في "بنجهير" كثيرة لا حصر لها⁽²⁴⁷⁾، ونظرًا لازدهار الحالة الاقتصادية كانت بلخ ترسل سنويًا أموالاً من غلاتها إلى خزانة السلطان وذلك لأن العائد من الزراعة كان أكثر مما يحتاج إليه الأهالي، فيقول المقدسي: "ويحمل من غلاتها في كل سنة مال عظيم إلى خزانة السلطان زائدًا عما يحتاج إليه"⁽²⁴⁸⁾.

ومما يؤكد رخاء العيش في عهد السلاجقة أن السلطان ألب أرسلان (455 - 465 هـ / 1063 - 1072 م) لم يفرض شيئاً من المكوس⁽²⁴⁹⁾ على رعاياه واكتفى بالخراج الأصلي الذي كان "يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم"⁽²⁵⁰⁾، كما أن ابنه السلطان ملكشاه (465 - 485 هـ / 1072 - 1092 م) ألغى كل المكوس ورسوم الطرق والجسور والرسوم الأخرى من جميع البلاد⁽²⁵¹⁾، أيضاً أعلن السلطان غياث الدين أبو شجاع محمد (498 - 511 هـ / 1104 - 1117 م) في سنة 502 هـ / 1108 م إلغاء المكوس والرسوم في كل أنحاء مملكته⁽²⁵²⁾.

ولقد وصلت الحال من الرخاء والثراء ورفاهية العيش في عهد السلطان السلجوقي "عضد الدولة ألب أرسلان" إلى أن ما نثر على الحاضرين يوم عقد قران ابنته "سفري خاتون" على ولي العهد "المقتدي بأمر الله" ابن الخليفة العباسي القائم بأمر الله سنة 464 هـ / 1071 م، كان من الجوهر⁽²⁵³⁾.

(246) ابن واعظ البلخي: المصدر السابق، ص 51.

(247) أبو الفدا: المصدر السابق، ص 469.

(248) المقدسي: المصدر السابق، ص 301، 302.

(249) المكوس من موارد بيت المال غير الثابتة، وهي ضرائب غير شرعية لأن القرآن لم ينص عليها.

(250) ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 113، 163.

(251) ابن الأثير: الكامل، ج 8، ص 113، آ. أشتور: "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى"، ترجمة عبد الهادي عبلة، مراجعة أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، د. ت.

(252) أشتور: المرجع السابق، ص 279.

(253) النويري، شهاب الدين أحمد عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد فوزي العتيل، ومراجعة محمد طه الحاجري، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1405 هـ / 1985 م، ج 26، ص 317.

وتنوعت وجوه النفقات ويأتي على رأسها رواتب الجنود خاصة الجنود المسؤولين عن حراسة الحدود ، فكان الحكام يقومون بتوصيلها لهم سنوياً⁽²⁵⁴⁾ . ولم تكن رواتب الجنود نقوداً بصفة دائمة ، فقد كان السلاجقة يمنحون الإقطاعات العسكرية أحياناً للجنود بدلاً من الرواتب أو كجزء منها⁽²⁵⁵⁾

أما عن العملة المتداولة ، فكان التعامل بالعملات المختلفة ، فعلى سبيل المثال كانت مرتبات الجنود في عهد السلطان ملكشاه بالدينار⁽²⁵⁶⁾ ، وقد ضرب السلطان ملكشاه نقوداً عليها اسم "شمس الملة جعفر بن نصر" أحد ولاته ، أما السلطان سنجر ف ضرب نقوداً منقوشاً عليها اسمه مع بعض الأتابك مثل الايكيز ، وقزل أرسلان⁽²⁵⁷⁾ . ونظراً لكثرة معدن الفضة المستخرج من مناجم مدينة بنجهير ومناجم مدينة جاربایة وغيرها ، فقد أمدت بلخ دور الضرب في الخلافة بكميات كبيرة من السبائك الفضية⁽²⁵⁸⁾ . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ازدهار الحالة الاقتصادية لبلخ في العصر السلجوقي .

ومما سبق يتبين لنا أن موقع بلخ الجغرافي المميز ، ووقوعها في الطريق التجاري العالمي وخصوصاً طريق الحرير ، ووفرة الثروات ، دفع السلاجقة إلى بسط سيطرتهم عليها والاهتمام بتنمية اقتصادها حيث كانت مصدراً للثراء والغنى الذي ساد العصر السلجوقي .

(254) ابن واعظ البلخي : المصدر السابق ، ص 50 .

(255) بارتولد : المرجع السابق ، ص 455 .

(256) ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ، ص 113 .

(257) المقرئزي : المصدر السابق ، ص 208؛ أنستاس الكرملی : رسائل في النقود العربية والإسلامية

وعلم النميات ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1987 م ، ص 58 .

(258) آشور : المرجع السابق ، ص 100 .

صفي الدين عبد الله بن علي
المعروف بابن شكر الوزير الأيوبي
(548 - 622هـ / 1153 - 1225م)

د / سامية علي مصيلحي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
قسم التاريخ - كلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر - فرع البنات
القاهرة

oboiikan.com

صفي الدين عبد الله بن علي المعروف بابن شكر الوزير الأيوبي

(548 - 622هـ / 1153 - 1225م)

لعب المصريون دورًا مُميّزًا في النظام الإداري والمالي في العصر الأيوبي ، فتولى بعضهم الوظائف الرئيسية والمهمة بالدولة ، ومُنِحُوا حرية التصرف في الأمور التي يباشرونها، ومن هؤلاء صفي الدين ابن شكر .

نشأته :

هو عبد الله بن علي بن الحسين بن الحسن بن منصور بن إبراهيم بن عمار ابن منصور بن علي صفي الدين أبو محمد ابن القاضي أبي الحسن الشيباني الدِّمِيرِي المالكي، المعروف بابن شكر .

ولد بناحية دَمِيرَة إحدى قرى مصر⁽¹⁾ ، في تاسع صفر سنة 548هـ / 1153م . ولم يكن من بني شكر وإنما عرف بابن شكر لأنه كان ابن عم

(1) دميرة : بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحت ساكنة وراء مهملة ، قرية كبيرة قرب دمياط ، وهما دميرتان إحداهما تقابل الأخرى على شاطئ النيل في طريق مديرية دمياط ، والمقصود هنا دميرة القبلية وهي التي تعرف اليوم باسم كفر دميرة القديم ، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان 5 أجزاء ، طبعة بيروت 1990 ، ج2 ، ص 472 .

ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ، طبعة بيروت 1980م ، ج 1 ، ص 509 .

محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القاهرة ، 1958 ، ص 6 ، 86 ، 87 .

كمال الدين أحمد بن جلال الدين شكر⁽²⁾ لأُمّه ، فلما رياه عرف به وقيل له ابن شكر⁽³⁾ .

وكان ابن شكر كما وصفه الموفق عبد اللطيف : "رجل طوال تام القصب فعمها دُري اللون مشرب بحمرة له طلاقة محيا وحلاوة لسان وحُسن هيئة وصحة بنية"⁽⁴⁾ .

ولا شك أن وسامته وحسن هيئته كانت مسار إعجاب شعراء عصره ومادة خصبة استفادوا منها في نظم قصائد مدحه ، فقد قال عنه ابن سناء الملك :

يا ذهبي اللون أذهبْتَنِي ويا فريد الحسن دمعي فريد⁽⁵⁾
ويقول له في موضع آخر :

وقلت له أدُّ الزكاة لأهلها فوجهك مُثَرِّ من لجين وعَسجد⁽⁶⁾
ويقول ابن الساعاتي :

ووجه الضحى طلق الأسرة ضاحك كوجه صفى الدين يوم سلامة⁽⁷⁾

(2) كمال الدين أبو السعادات أحمد ابن القاضي جلال الدين شكر ، تولى نظر الدواوين في الأيام الناصرية والعزيرية ، توفي بشعر الإسكندرية عام 601 هـ .

انظر النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق د. محمد ضياء الدين الرئيس ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة 1992 ، جـ 29 ، ص 39 .

(3) المقرئزي : المقفى الكبير ، تحقيق محمد البعلاري ، ط بيروت 1991 ، جـ 4 ، ص 595 ، المقرئزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط القاهرة 1987 ، جـ 2 ، ص 371 ، وذكر العمري أنه كان يدعي نسبه إلى قريش بينما ذكر بعض نسله أنهم من العرب وليسوا من قريش ، انظر : العمري : مسالك الأبصار ، جـ 13 ص 305 ، ص 306 .

(4) الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ط بيروت ، 2000م ، جـ 17 ، ص 176 ، المقرئزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ص 599 .

(5) ديوان ابن سناء الملك جزآن ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ط القاهرة 1969 ، جـ 2 ، ص 65 .

(6) لجين : فضة . العسجد : الذهب ، انظر : نفسه ص 81 .

(7) ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق أنيس المقدس ، بيروت 1938م ، ص 240 .

أما ابن النبيه المصري فيتغزل في حُمره خديه قائلاً:

حذار من جمره خديه فقد تجاسر الخال عليه فاحترق⁽⁸⁾

نشأ ابن شكر نشأة صالحة، فتفقه في القاهرة⁽⁹⁾ على مذهب الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه، على يد الفقيه أبي بكر عتيق البجائي وبه تخرج⁽¹⁰⁾، ثم رحل إلى الإسكندرية⁽¹¹⁾، وتفقه بها على يد الإمام شمس الإسلام أبي القاسم مخلوف ابن علي ابن جارة، وسمع منه ومن الإمام أبي الطاهر إسماعيل بن مكّي بن عوف الزهري وأبي الطيب عبد المنعم بن يحيى الحميدي وأبي الحسين محمد بن أحمد ابن أبي نوح النحوي وسمع من الحافظ السلفي إنشاداً⁽¹²⁾.

وأجاز له من الشاميين الحسين أحمد بن حمزة بن علي السلمي وأبو عبد الله محمد ابن علي بن صدقة الحراني وأبو محمد عبد الرحمان بن علي بن المسلم اللخمي وأبو الفضل إسماعيل بن علي بن إبراهيم الحنزوي وغيرهم⁽¹³⁾.

(8) ديوان ابن النبيه المصري، تحقيق عمر محمد الأسعد، ط أولى، القاهرة 1969، ص 420، 419.

(9) الزركلي: الأعلام، ط ثانية، القاهرة 1959م، ج 4، ص 243.

(10) المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق د. بشار عواد معروف، ط بيروت 1988، مجلد 3، ص 157 ترجمة رقم 2061، الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد معروف، ط بيروت 2003م، مجلد 13، ص 706 ترجمة رقم 96، الصفدي: المصدر السابق، ص 176. ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، ط أولى، القاهرة 1351هـ، ص 143.

(11) ساد مذهب الإمام مالك بالإسكندرية طوال العصر الأيوبي لكثرة الوافدين إليها من المغاربة المعتنقين المذهب المالكي لطلب العلم أو الحج أو التجارة، انظر: شليبي إبراهيم الجعيد، طبقة العامة في العصر الأيوبي، الهيئة العامة للكتاب، 2003 م، ص 170.

(12) ابن فرحون: المصدر السابق ص 143، المقرئ: المقفى الكبير ج 4، ص 595. المنذري: التكملة ج 3، ص 157.

(13) المقرئ: المصدر السابق ج 4، ص 595، المنذري: المصدر السابق ج 3، ص 157.

وأجاز له من المصريين أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار النحوي وأبو القاسم هبة الله بن علي بن سعود الأنصاري وأبو عبد الله محمد بن حمد بن حامد الأرتاحي⁽¹⁴⁾.

وحضر الدروس وناظر الفقهاء وأفتى⁽¹⁵⁾، وبرع في الفقه المالكي وصنف فيه كتاباً سماه "البصائر نور فيه على الأوائل والأواخر"⁽¹⁶⁾، وجعل لمن يحفظه مائة دينار فتسابق الكثيرون لحفظه لينالوا من إنعامه وكرمه "فعرضه عليه زيادة على مائتي نفر" فأعطاهم وأجزل لهم⁽¹⁷⁾، وكان ذلك في مدة وزارته، وحدث بدمشق والقاهرة وغيرهما⁽¹⁸⁾، وله:

مهما تهاون في أمري امرؤ وغدا مبلغاً لا أرى إلا مبجله
وإن أساء مسيء فوق طاقته أحسنت مجتهداً حتى أخجله⁽¹⁹⁾

غير أن البيئة الصالحة التي احتضنته في صغره ودراسته للعلوم الشرعية واتصاله بالعلماء، كل هذا لم يؤثر فيه إلا ظاهرياً، فقد وُصف ابن شكر بأنه: "كثير الدهاء مع هوج وخبت في طيش ورعونة مفردة، وحقد لا تحبو ناره، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم، فيعود ينتقم، لا ينأى عن عدوه، ولا يقبل معذرة أحد ولا إنابة، ويجعل الرؤساء كلهم أعداءه، ولا يرضيه من عدوه إلا إهلاكه، وقطع أثره، وإذا انتقم لا يرحم أحداً، ولا يبالي بعاقبة"⁽²⁰⁾.

(14) المنذري: نفسه، ابن فرحون: المصدر السابق، ص 143.

(15) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، الإمارات سنة 2004م، ج 11، ص 305، ترجمة رقم 106.

(16) النعمي: الدارس في تاريخ المدارس، جزآن، نشره جعفر الحسني، ط دمشق، 1948، 1951م، ج 2، ص 334.

(17) العمري: المصدر السابق، ج 13، ص 306.

(18) المنذري: التكملة، ج 3، ص 157، الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد 13، ص 706.

الصفدي: الوافي بالوفيات، ج 17، ص 176.

(19) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 143.

(20) المقرئ: المقفى الكبير ج 4، ص 599، الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم، ط بيروت 1413هـ، ج 22، ص 294، الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق علي محمد ابن يعوض الله وعادل أحمد عبد الموجود، ط بيروت 2000م، ج 1، ص 549 / الصفدي: المصدر السابق ج 17، ص 176.

ووصفه القفطي بأنه كان : "أحق قليل التدبير حاسداً لكل ذي فضيلة"⁽²¹⁾ . أما العُمري فقال إنه كان يجب التقدم لدى الملوك : "لا يبالي بما يحتمل ولا يعبأ بسحاب الدم ولو احتفل"⁽²²⁾ . وكان ابن شكر يظهر لأعدائه غير ما يبطن حتى إذا آمن له عدوه لا يلبث أن ينقض عليه دون رحمة أو هوادة وينتقم منه انتقاماً شديداً⁽²³⁾

ترقيته في مناصب الدولة :

عمل صفى الدين ابن شكر في مباشرة الدواوين وظل يترقى في المباشرات حتى ولي نظر الدواوين على عهد السلطان صلاح الدين⁽²⁴⁾ ففي 10 صفر من عام 580هـ/ 1184م عُقد مجلس لأصحاب الدواوين للمفاضلة بين ابن شكر وابن عثمان فاز فيها في البداية ابن عثمان بعد أن قدم عرضاً بزيادة خمسة عشر ألف دينار على الارتفاع ، إلا أنه صرف بعد ثلاثة أيام بابن شكر ، وهكذا أصبح ابن شكر ناظرًا للدواوين⁽²⁵⁾ .

ومنذ ذلك الحين "شرع في قطع الأرزاق وإحداث المطالبة"⁽²⁶⁾ فتصدى له القاضي الفاضل⁽²⁷⁾ وكان : "يمقته مقت المريض الدواء ، ويغضه بغض الكلاب الماء ، وكان يقصد تقييد قلمه ، وتقليل كلمه" فعمل على عزله ووصفه بالظلم والقسوة .

(21) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، 1986 ، ج1 ، ص 267 .

(22) العمري : المصدر السابق ، ص 305 .

(23) محمود الحويري : العادل الأيوبي ، القاهرة 1979م ، ص 17 .

(24) العمري : المصدر السابق ج1 ، ص 305 ، ص 306 .

(25) المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة 1939 ، ج1 ، قسم 1 ، ص 88 .

(26) العمري : المصدر السابق ، ص 306 .

(27) القاضي الفاضل : عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيسانى ، ولد في 15 جمادى الآخرة عام 529 هـ وعمل بكتابة الإنشاء في الدولة الصلاحية ووزر لصلاح الدين فكان مستشاراً له ، وكان كاتباً سديداً بليغاً وله أوقاف كثيرة على أعمال الخير . توفي ليلة الأربعاء 7 من ربيع الآخر عام 596 هـ . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ط بيروت ، د . ت ، ج13 ، ص 24 ، 25 . النويري : نهاية الأرب ج29 ، ص 13 ، ص 18 .

ولكن على الرغم من مكانة القاضي الفاضل في دولة السلطان صلاح الدين إلا أنه لم يستطع إزاحته من منصبه وذلك "لأن الملك العادل"⁽²⁸⁾ كان ظهيرًا لابن شكر وممشيًا لأمره"⁽²⁹⁾.

وقد قال عنه القاضي الفاضل ذات مرة :

وأما ابن شكر هذا الذي لا يشكر

وإذا ذكرت الأشياء فهو الشيء الذي لا يذكر

ف قيل له : ما هو الشيء الذي لا يذكر ؟ قال : الشيء الذي لا يذكر⁽³⁰⁾.

أما ابن شكر فلم يدخر جهدًا في إنجاز أعماله لينال رضى السلطان عنه فكان : "كافيا في عمله يسد الأعمال ويثمر الأموال وينهض بتكاليف الكلفة وأعباء المهات وكان يعجب السلطان منه كفايته ويلبسه على علاقته"⁽³¹⁾.

زاد التقارب بين العادل وابن شكر في سنة 587هـ / 1191م عندما عين السلطان صلاح الدين أخاه العادل رئيسًا عامًا لديوان الأسطول⁽³²⁾. وكانت مهمة هذا الديوان

(28) الملك العادل : محمد بن أيوب بن شادي أبو بكر الملقب بالملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولد عام 540هـ وكان ينوب عنه بمصر أثناء غيابه في الشام ، تنتقل في الولايات إلى أن استقل بملك مصر سنة 596هـ / 1199م وضم إليها الديار الشامية ثم ملك أرمينيا سنة 604هـ / 1207م وبلاد اليمن عام 612هـ / 1215م . مات في 7 جمادى الآخرة عام 615هـ / 1218م ودفن في مدرسته العادلية . انظر : الموسوعة العربية الميسرة جـ 24 ، ط 2 ، الرياض 1999م ، ص 118 .

(29) العمري : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص 305 ، 306 .

(30) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 177 ، الكتبي : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 550 ، 551 .

(31) العمري : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص 306 .

(32) أدرك صلاح الدين أهمية الأسطول في حروبه ضد الصليبيين ، ولهذا أولى الأسطول عناية فائقة فأفرد له ديوانًا عرف بديوان الأسطول "وأفرد له من الأبواب الديوانية الزكاة بديار مصر وكانت تبلغ في السنة شيئًا كبيرًا بحيث إنها ضمنت بخمسين ألف دينار مصرية وأفرد له الخبس الجيوش بالبرين الشرقي والغربي ، وكان في هذا الخبس عدة نواح بالجيزة وضواحي القاهرة ، منها سبط ونهيا والأميرية وغير ذلك وأفرد له النظرون والخراج وما معه من ثمن القَرَظ ، وساحل السنط والمراكب الديوانية وناحيتي أسني وطنبذى " . انظر المقرئزي : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 596 ، الخطط ، جـ 2 ، ص 194 .

الإففاق على العاملين بالأسطول⁽³³⁾، والإففاق على دور صناعة السفن وإمدادها بكل ما تحتاج إليه من أخشاب⁽³⁴⁾. فاستناب العادل "في مباشرته وعمالته" صفى الدين ابن شكر⁽³⁵⁾.

ومنذ ذلك الحين "اشتهر ذكره" ولازم العادل وتقرب منه⁽³⁶⁾. وساعدته الظروف بوفاة ابن النحال النصراني⁽³⁷⁾ كاتب الملك العادل فتقدم وأخذ مكانه، وتمكن ابن شكر "من العادل تمكناً لا مزيد عليه"⁽³⁸⁾ لما رآه من شهامته وصرامته وإقدامه⁽³⁹⁾. وصحبه في طريقه إلى مصر طلباً للأفضل ابن صلاح الدين⁽⁴⁰⁾ - بعد رجوع الأخير عن حصار دمشق وعودته إلى مصر⁽⁴¹⁾ - وفي طريقهما إليها استحلف ابن شكر الملك العادل ببيت المقدس "إنه إن قدر الله تعالى له بملك الديار المصرية يمكنه من المصريين"

(33) المقرئزي: الخطط، ج2، ص194.

(34) السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ط1، الإسكندرية 1993م، ص273.

(35) المقرئزي: الخطط ج2، ص194، المقرئزي: السلوك، ج1، قسم 1، ص108.

(36) المقرئزي: المقفى الكبير، ج2، ص596.

(37) ابن النحال النصراني: أبو سعيد بن أبي اليمن النحال، كان نصرانياً فأسلم على يد الملك العادل بعد عوده مع الأفضل علي بن صلاح الدين إلى مصر سنة 582هـ، انظر المقرئزي: السلوك، ج1، قسم 1، ص192.

(38) الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت 1984، ج5، ص90.

(39) النويري: نهاية الأرب، ج29، ص55، ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص22.

(40) الأفضل نور الدين علي أكبر أبناء صلاح الدين، أوصى له أبوه بالسلطنة بعده، لكنه كان مستهتراً نجح عمه العادل في أخذ دمشق منه، ثم بعد وفاة العزيز عثمان واستيلاء الأفضل على مصر نجح أيضاً عمه في انتزاعها منه، ولم يعد له سوى حاني وجبل جور من ديار بكر. توفي في صفر عام 622هـ في قلعة سمسيات عن 57 عاماً، انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط دار الكتب، القاهرة 1935 - 1956، ج6، ص120، 262، سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة 1993، ص75 - 81.

(41) عن الصراع بين العادل والأفضل انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تصحيح د. محمد يوسف الدقاق، بيروت 1987، ج1، حوادث: 589هـ، 592هـ، 595هـ، 596هـ، 622هـ.

فحلف له العادل على ذلك ، فلما ولي السلطنة استوزره ومكّنه⁽⁴²⁾ .

وزارة ابن شكر الأولى (596 - 609 هـ / 1200 - 1212م) :

في يوم الجمعة 16 ربيع الآخر من سنة 596 هـ / 4 فبراير 1200م دخل العادل القاهرة في صحبة وزيره صفى الدين ابن شكر⁽⁴³⁾ "فاستشعر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفى الدين ابن شكر الظاهرة" وأنزله العادل بالحجرة الفاضلية بالدار السلطانية⁽⁴⁴⁾ ولقبه بالصاحب⁽⁴⁵⁾ .

تمتع الوزير صفى الدين ابن شكر بنفوذ كبير في دولة السلطان العادل الذي سلم له شئون الدولتين المصرية والشامية فنهض فيها مستفيداً من خبرته "بصناعة الكتابة وجمع الأموال من وجوهها والحديث على الحسابات والنظر في ترجية الارتفاعات" فاستقل بإدارتهما حتى صار يستخدم المستخدمين ويصرف الأمور ويأمر وينهي ولا يعمل في الدولة شيء صغير أو كبير إلا بعلمه ويثبت خطه حتى الملك العادل لم يكن يفرد عنه بشيء ولا يطلق ولا يمنع ولا يوقع على شيء إلا بعلمه ورأيه⁽⁴⁶⁾ .

(42) التويري : نهاية الأرب ، جـ 29 ، ص 11 ، ص 12 ، ص 55 .

هكذا كان المصريون أول من فكر ابن شكر في معاقبتهم لأنهم كما ذكر العيني "كانوا يتقصونه" عندما كان كاتباً للملك العادل ، انظر : عقد الجبان في تواريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 1584 ، جـ 19 ورقة 243 .

(43) ساويرس بن المقفع : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ، مجلد 3 مطبوعات جمعية الآثار القبطية مجلد 3 جـ 2 ، نشر د. أنطون خاطر وأرولد بورمستر ، القاهرة 1970م ، ص 105 .

(44) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق إبراهيم الزبيق ، ط بيروت 1997 ، جـ 4 ، ص 457 ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ 6 ، ص 151 .

(45) الصاحب : من ألقاب الوزراء وهو مختص بأرباب الأقلام ، أول من لقب به من الوزراء كافي الكفاة إسماعيل بن عباد لأنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد فكانوا يقولون صاحب ابن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتى قيل له الصاحب مجرداً ، ثم أطلق هذا اللقب في العصر الأيوبي على صفى الدين ابن شكر وكذلك كل من تولى الوزارة بعده ، انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ 1 ، ص 475 ، جـ 6 ، ص 17 ، ص 18 ، المقرئ ، الخطط ، جـ 2 ، ص 223 .

(46) ابن المقفع : المصدر السابق ، مجلد 3 ، قسم 2 ، ص 106 .

وكان صفى الدين يظهر أمانة مفرطة فلا يأخذ من مال السلطان فلساً⁽⁴⁷⁾ واحداً "إذا لاح له مال عظيم احتجته" وعملت له "قبسة العجلان" (كتاب مختصر في النحو) فأمر كاتبه أن يكتبها ويردها وقال : "لا نستحل أن نأخذ منك ورقاً"⁽⁴⁸⁾.

وكان يسافر مع السلطان فلا يخرج إلا بغلة واحدة ، "تجنب معه ويركب هو على جمال الثقل توطأ له على بعض الحمول ليركب" ولا يصطحب معه غلاماً ولا طباًخاً بل تخدمه غلمان السلطان وكانت تنصب له الخيمة ويأتيه الطعام والشراب من مطبخ السلطان ومن شربخاناته⁽⁴⁹⁾ فلا يأخذ منها إلا بقدر ضئيل فيكتفي "بالزبدية الواحدة ولا يزيد عليها"⁽⁵⁰⁾.

المصادر والمؤامرات ضد رجال الدولة والعامة :

لم يتمكن صاحب صفى الدين من مصادرة المصريين فور دخوله مصر بسبب المجاعة⁽⁵¹⁾ والوباء والزلازل⁽⁵²⁾ التي حلت بالبلاد عام 596هـ / 1200م ، فضلاً عن ملازمته العادل في بلاد الشام⁽⁵³⁾.

(47) فلساً : الفلس وجمعه فلوس عملة صغيرة وكانت في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع ، وكان النصف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالعتق ، انظر : د. سعيد عاشور. العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ، 1994 ، ص 44 .

(48) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 707 ، ص 708 . الكتبي : فوات الوفيات ، ج1 ، ص 549 .

(49) الشربخاناته : بيت الشراب ويحوي مختلف أنواع الأشربة التي يحتاج إليها السلطان فضلاً عن الأواني النفيسة المصنوعة من الصيني الفاخر ، انظر : د. سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص 434 .

(50) العمري : مسالك الأمصار ، ج1 ، ص 306 .

(51) عن المجاعة والوباء انظر : عبد اللطيف البغدادي ، رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998م ، ص 132 - 146 - 151 ، المقرئ : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، 1940م ، ص 29 - 32 ، النويري : نهاية الأرب ، ج2 ، ص 29 ، ص 12 ، ص 13 ، ابن الفرات : تاريخه ، نشر حسن محمد الشاع ، البصرة ، 1967م ، ج4 ، قسم 2 ، ص 207 - 209 .

(52) عن الزلازل انظر : سامية علي مصيلحي : الزلازل وآثارها في مصر الإسلامية ، بحث ألقى في مؤتمر الدراسات الإنسانية والقضايا المعاصرة ، القاهرة 2003م ، ص 18 - 20 .

(53) النويري : المصدر السابق ، ج2 ، ص 55 .

وكان أول ما قام به هو قطع الصدقات التي رتبها حكام مصر من قبل "لأهل الفاقات والرواتب للأقارب والأجانب مما تساوى فيه في أيام دولتهم الفقراء والأقوياء والأغنياء والضعفاء لأنه معروفهم وخيرهم ، كان واصلاً إلى كافة الناس أعدائهم وأولياهم فأشار هذا الوزير بقطع ذلك جميعه فقطع"⁽⁵⁴⁾.

ثم اتجه في عام 602 هـ / 1205 - 1206 م إلى أكابر المصريين فأوقع بهم وصادرهم⁽⁵⁵⁾ ، كما صادر أصحاب الدواوين وموظفي الدولة والمتعنين "وأهانهم لما كان في باطنه منهم" واستصفى أموالهم⁽⁵⁶⁾ ، وشدد على كل هؤلاء في العقوبة ونكل بهم أشد تنكيل "وفعل بهم ما أوجب حقد الناس عليه"⁽⁵⁷⁾.

وكان هدفه من ذلك إبادة أرباب البيوتات ومحو آثارهم وهدم ديارهم⁽⁵⁸⁾ ، واستخدم الوزير في ذلك كل ما في يده من قوة للفتك بأعدائه حتى يطمئن على منصبه منهم .

حرص ابن شكر - منذ اليوم الأول لوزارته - على ألا يكون له منافس في شئون الدولة، فسعى لدى العادل للنيل من رجال الدولة الذين شعر بتهديدهم لمركزه .

وكان العادل - لما أراد الانفراد بالحكم - قد أحضر الناس للحلف له فأبى الفقيه ضياء الدين بن الوراق أن يحلف له وقال : "ما هذا الحلف ؟ بالأمس حلفتكم للمنصور"⁽⁵⁹⁾ ، فإن

(54) ابن المقفع : المصدر السابق ، مجلد 3 ، ج 2 ، ص 106 .

(55) ابن الفرات: المصدر السابق، ج 5، قسم 1، ص 176 ، المقرئ: السلوك، ج 1، قسم 1، ص 192 .
(56) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، القاهرة ، د.ت ، ص 9 ، النويري : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 39 .
(57) النويري : نفسه ، ص 55 ، وذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 167 ، أن المصريين كرهوا العادل لمبالغة وزيره في الظلم ، فلم يكن محبباً إلى الرعية .

(58) المقرئ: الخطط ، ج 2 ، ص 372 ، 373 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 707 ، وصف ابن شكر بأنه "كان مغرى بقلع البيوت الأصيلة في التقدم" ، انظر : ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل ذكار ، ج 6 ص 2951 .

(59) الملك المنصور : ناصر الدين محمد بن عبد العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وكان في العاشرة من عمره عند وفاة أبيه عام 595 هـ / 1198 م ، انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 146 .

كانت تلك باطلة فهذه باطلة ، وإن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة" ، فقال الصاحب صفى الدين ابن شكر للعدل إن هذا الفقيه أفسد عليه الأمور ، وأراد ابن شكر بذلك أن ينتقم من ابن الوراق لأنه لم يكن في استقباله عندما جاء إلى مصر ولم يسلم عليه . فأمر العدل بالحوطة على جميع ممتلكاته واعتقاله بالرصد⁽⁶⁰⁾ .

ولم يكتفِ ابن شكر بمصادرة رجال الدولة ، بل تعرض لأوقاف المدارس فأرسل " يطلب معرفة ريعها ويتحدث فيه " فتصدى له الشيخ شهاب الدين أبو الفتح محمد بن محمود بن محمد الخراساني الطوسي⁽⁶¹⁾ وأمر بضرب من حضر من جهة الوزير ، ثم توجه إلى القلعة ثائراً " ورسم للوزير أن لا يتعرض لشيء يتعلق به وخرج الوزير بحجته فلم يَلْتَفِتْ إليه ولا سَلَّمَ عليه " ودفع عن نفسه وعن الناس شر الوزير وثبت أمامه⁽⁶²⁾ .

وفي عام 602 هـ / 1205 - 1206 م قبض على الأمير عبد الكريم أخي القاضي الفاضل " وأخذ خطه بعشرين ألف دينار فأداها " . كذلك أخذ من شرف الدين إبراهيم بن عبد الرحمن ابن قريش - وكان من الأثرياء - خمسة آلاف دينار⁽⁶³⁾ ، كما صادر بني حمدان وبني الجباب وبني الجليس وأعيان الكتاب المستوفين⁽⁶⁴⁾ ، وأكابر النصارى منهم⁽⁶⁵⁾

(60) ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية ، القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط أولى ، القاهرة ، 1996 م ، ص 91 ، 92 ، المقريري : الخطط ، ج 2 ، ص 373 ، 374 .

(61) من علماء الشافعية ، ولد عام 522 هـ ، ووعظ ببغداد ودخل مصر وبني له الملك تقي الدين عمر بن شاهنشاه المدرسة المعروفة بمنازل العز ، وكان يأتيه الفقهاء والطلبة . مات بمصر عام 596 هـ / 1200 م ، انظر : ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، تحقيق الحافظ عبد العليم خان ، بيروت ، 1407 هـ ، ج 2 ، ص 43 ، 44 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 21 ، ص 387 ، 389 .

(62) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج 2 ، 44 ، وما فعله ابن شكر مع الفقيه ورغبته في مصادرة الأوقاف يدل على أنه لم يوقر العلماء ولم يستفد بعلمه ودراسته الدينية .

(63) المقريري : السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 165 ، 166 ، لم يفرق ابن شكر في مصادراته بين أصحاب الديانات حيث لاقى أهل الذمة على يديه ما لاقاه المسلمون .

(64) المستوفين : جمع مستوف ، وهو من كتاب الأموال بالدواوين وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه من مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . انظر : المقريري : السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 192 ، حاشية 2 .

(65) ابن العميد : المصدر السابق ، ص 9 .

ومن الذين تعرضوا لإهانات الصاحب ابن شكر القاضي عماد الدين الكاتب⁽⁶⁶⁾ وكان فريد عصره في النظم والنثر ، ومع هذا تغيرت أحواله بعد وفاة صلاح الدين ، قال عنه ابن خلكان : "وقد رأيته في مجلس ابن شكر مزحومًا في أخريات الناس" . هكذا كان يفعل ابن شكر مع العلماء يبعدهم حسدًا لهم "وتوفي عماد الدين الكاتب في أول رمضان عام 597هـ / 1201م بعدما قاسى مهانات ابن شكر"⁽⁶⁷⁾

ومن الفقهاء الذين تعرضوا لإهانة الوزير الصاحب صفى الدين ابن شكر ، الفقيه نصر فقد ضربه الوزير "في وجهه بالدواة فأدماه"⁽⁶⁸⁾ . وتدخل ابن شكر لنفي وعزل بعض رجال الدولة لأمر في نفسه ، فنفى الحافظ عبد الغني المقدسي⁽⁶⁹⁾ إلى المغرب وكان عالمًا بالحديث ، وله تصانيف شهيرة فمات قبل أن يصله كتاب النفي في 23 ربيع الأول من عام 600هـ / 1203م⁽⁷⁰⁾ .

وكان ممن حسدهم ابن شكر أيضًا القاضي شمس الدين بن التبرني وكان السلطان العادل قد أحبه وقربه إليه بعد أن تبين له إخلاصه في أثناء حصاره بدمشق عندما اقترض

(66) القاضي عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد الكاتب ، ولد عام 519هـ بأصبهان وكان جامعًا لفنون كثيرة من الأدب والفقه والتاريخ ، وله نظم بديع وكتب لنور الدين وصلاح الدين ونال عندهما مكانة كبيرة ، وله "البرق الشامي" و"فريدة القصر" و"الفتح القسي في الفتح القدسي" وغير ذلك ، توفي 597هـ / 1201 م . انظر : أبو شامة : ذيل الروضين ، عَرَفَهُ : محمد زاهد بن الحسن الكوثري وراجع السيد عزت العطار الحسيني ، ط دار الكتب ، القاهرة 1947 ، ص 152 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 2 ، ص 347 ، 348 ، ترجمة رقم 180 . (67) الذهبي : نفسه .

(68) المقرئزي : السلوك ، ج 1 قسم 1 ، ص 166 حوادث عام 602هـ .

(69) الحافظ عبد الغني المقدسي : ولد عام 541هـ ، تنقل بين الأمصار طلبًا للعلم ، وكان دائم الخلاف مع العلماء ، ثم استقر بالقاهرة وحدث بها فثار عليه الفقهاء بمصر وكتبوا إلى الوزير صفى الدين فأمر بنفيه إلى المغرب ، ومن مصنفاته : كتاب الكمال في أسماء الرجال ، والأحكام الكبرى والصغرى وغير ذلك ، انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج 13 ، ص 38 ، 39 .

(70) ابن كثير : نفسه .

له أموالاً من التجار وضمنها، فعمل الوزير على إبعاده عن السلطان فما زال به حتى أخرجه من مصر⁽⁷¹⁾.

وعزل علم الدين إسماعيل بن أبي الحجاج، وكان متولياً ديوان الجيش⁽⁷²⁾ الناصري منذ عام 583هـ / 1187م خلفاً لأبيه، وظل به حتى "أذاه وعزله" في عام 602هـ / 1205 - 1206م، فغادر مصر إلى حلب ودخل في خدمة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين إلى أن مات بها⁽⁷³⁾.

وتدخل الوزير أيضاً لعزل قاضي العسكر البدر بن الأبيض في عام 603هـ / 1206 - 1207م، وعين بدلاً منه نجم الدين خليل بن المصمودي الحموي⁽⁷⁴⁾.

وعزل خطيب جامع مصر أبا محمد عبد الحكم عن الخطابة⁽⁷⁵⁾، فكتب إليه يشكو بؤس حاله ويقول:

مِتْ جوعاً وأنت حي كريم وبلاء كما علمت عظيم
وديون جلت عليّ مع الفقر وهذا هو العذاب الأليم

وكتب تحتها: "وقد عز الأمر وضاق الخناق وجاءت من الفقر أمور لا تطاق"

(71) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط الهند، 1952، ج 8، قسم 2، ص 564.
(72) ديوان الجيش: يقوم بتوزيع الإقطاعات، والصرف على الجيش والتعبئة والأسلحة والمؤن والحاميات والحصون والقلاع، وتقيد فيه أسماء الجنود وأرزاقهم، انظر: حسنين ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ط 1، القاهرة 1964م، ص 62.

(73) ابن العديم: بغية الطلب، ج 4، ص 1670، المقرئ: المصدر السابق، ج 1، قسم 1، ص 192، ابن الفرات: المصدر السابق، ج 5، قسم 1، ص 176.

(74) المقرئ: المصدر السابق، ج 1، قسم 1، ص 166، ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، تحقيق أبو العبد دودو، دمشق 1981، ج 1، ص 54.

(75) عرف بابن العراقي، ولي نيابة الحكم بالفسطاط والخطابة بالجامع العتيق، توفي سنة 613هـ.
انظر ابن سعيد: المُعزَّب في حلى المعزَّب، ج 1، قسم خاص بمصر، تحقيق زكي محمد حسن وآخرين، القاهرة 1953م، ص 257.

فلأي باب غير بابك أرجع وبأي جود غير جودك أطمع
سدت عليّ مسالكى ومذاهبي إلا إليك فُذلني ما أصنع
فكانها الأبواب بابك وحده وكأنما أنت الخليفة أجمع

ولم يعيش خطيب جامع مصر بعد هذه الشكوى طويلاً فمات بعد أربعة أشهر في شعبان من عام 613 هـ / 1216 م⁽⁷⁶⁾.

ويبدو أن كثيراً من رجال الدولة ممن خافوا بأسه وسطوته فضلوا الخروج من مصر والاختفاء عن أعين وزيرها، من هؤلاء ابن قاضي دارا⁽⁷⁷⁾ وزير الملك الكامل الأيوبي⁽⁷⁸⁾.

وكان الوزير صاحب "يكرهه ويضاده" فظل يغري الملك العادل به حتى نقم عليه وطلبه فخاف عليه الكامل ابن العادل وأخرجه من مصر ومعه ولداه والقليل من المال فقصد حلب حيث أكرمه صاحبها الملك الظاهر.

ثم إن الكامل أرسل يستدعيه مرة أخرى إلى مصر، فخرج مسرعاً ونزل بعين المباركة بظاهر حلب، استعداداً للسفر إلى مصر، ففوجئ في ليلة الرابع والعشرين من ذي القعدة من عام 601 هـ / 1205 م بنحو خمسين فارساً، أحاطوا به أثناء الليل، وأيقظوه ثم قتلوه وسط غلمايه وقالوا لهم: "احفظوا أموالكم فما كان لنا غرض سواه"، ووصل الخبر إلى الملك الظاهر صاحب حلب فارتاع له وجد في طلب قاتليه، فلم يصل لهم "فكانت هذه القضية من أعجب ما سمع"⁽⁷⁹⁾.

(76) نفسه، ص 257، 258، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968 م، ج 1، ص ص 35، 36.

(77) الوزير أبو محمد مختار بن أبي محمد بن مختار المعروف بابن قاضي دارا، ودارا بلدة بين نصيبين وماردين، كان وزيراً ومستشاراً للملك الكامل ابن العادل الأيوبي، قتل عام 601 هـ بظاهر حلب. انظر: ابن الفرات: المصدر السابق، ج 5، قسم 1، ص ص 31، 32.

(78) كان الملك العادل قد قسم دولته بين أولاده فأعطى الملك الكامل مصر فقام بأعمال السلطنة بها في حياة أبيه، ولما مات الملك العادل تفرد الكامل بالخطبة في ديار مصر وأعمالها واستقل بأمورها وتبدير أحوالها، انظر: ابن تغري بردي: النجوم، ج 6، ص 163، ص 227.

(79) المقرئ: السلوك، ج 1، قسم 1، ص ص 164، 165، ابن الفرات: المصدر السابق، ج 5، قسم 1، ص ص 31، 32، لا يشك القارئ أن الوزير ابن شكر وراء قتله.

وهناك الأسعد بن مماتي⁽⁸⁰⁾ صاحب الدواوين بمصر ، وكان بينه وبين الوزير عداء قديم ، بسبب إهانة وَقَعَت من الأسعد بن مماتي في حق ابن شكر أيام رئاسته للديوان - بينما كان ابن شكر موظفًا صغيرًا به⁽⁸¹⁾ - "فحقدها عليه" إلى أن تمكن منه . فلما تولى الوزارة بمصر أحضر ابن مماتي وقربه منه "وفوض إليه جميع الدواوين التي كانت باسمه قديمًا"

وظل الأمر على ذلك سنة كاملة ثم دبر له المؤامرات⁽⁸²⁾ "ووضع عليه المحالات وأكثر فيه التأويلات ولم يلتفت إلى أعذاره ولا أعاره طرفًا لاعتذاره فنكبه نكبة قبيحة" ، وادعى عليه أموالًا كثيرة وطالبه بها فلم يستطع دفعها لأنه كان عفيفًا "فأحال عليه الأجناد" فطالبوه بالأموال وآذوه ثم اشتكوه لابن شكر "فحكمهم فيه" وحكى ابن مماتي ما وقع عليه من هؤلاء الأجناد من إهانة فقال : "عُلِّقْتُ في المطالبة على باب داري بمصر على ظهر الطريق في يوم واحد إحدى عشر مرة" فلما لم يجدوا لديه مالاً اتفقوا معه على تقسيط الأموال المطلوبة منه فطلب منهم أن يطلقوه ليستجدي من الناس ، وعندما تركوه اختفى في القرافة في مقبرة الماذرائيين⁽⁸³⁾ ، وأقام بها سنة ، فلما ضاق به الحال قرر الهروب إلى الشام واجتهد حتى لا يعلم بخبره أحد ، فلحقه في الطريق فارس وسلم إليه كتابًا . فإذا هو من ابن شكر يقول فيه : "لا تحسب أن اختفاءك خفي علي فكانت أخبارك تأتيني كل يوم وإنك كنت في قبور الماذرائيين بالقرافة منذ يوم كذا ، وإنني اجتزت هناك فرأيتك بعيني ، ولما هربت الآن علمت خبرك ولو أردت ردك لفعلت ، ولو علمت أنك قد بقي لك مال ، أو حال لما تركتك ، ولم يكن ذنبك عندي مما يبلغ أن أتلغ معه نفسك ، وإنما كان مقصدي أن أدعك تعيش خائفًا فقيرًا غريبًا مهججًا (طريدًا) في البلاد فلا تظن أنك

(80) ابن مماتي : الأسعد أبو المكارم ابن الخطير أبي سعيد مذهب بن منشأ الكاتب المعروف بالقاضي الأسعد ، كان نصرانيًا ثم أسلم ، نظر في ديوان الجيش الصلاحي ثم ولي نظر الدواوين ، وله مصنفات عديدة ، توفي عام 606هـ ، انظر : النويري : نهاية الأرب ، ج 29 ، ص 51 ، ص 52 .

(81) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، القاهرة ، 1967 ، ص 334 .

(82) انظر : ص 4 في حيله في الانقضاض على أعدائه .

(83) الماذرائيين : أسرة فارسية الأصل تنسب إلى ماذرايا وهي قرية من أعمال البصرة نزح كثير من أفرادها إلى مصر وتولوا العديد من المناصب الرئيسية في الدولة في العصر الطولوني والإخشيدي حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة ، انظر : سيدة الكاشف : مصر في عصر الإخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة 1989 ، ص 37 وما يليها .

هَرَبْتُ مِنِّي بِمَكِيدَةِ صَحْتِ لَكَ عَلَيَّ فَاذْهَبْ إِلَى غَيْرِ دَعَاةِ اللَّهِ" ثُمَّ تَرَكَهُ وَانْصَرَفَ فَوَاصِلَ ابْنِ مَمَاتِي طَرِيقَهُ إِلَى حَلَبٍ حَتَّى وَصَلَهَا سَنَةَ 604 هـ / 1207 - 1208 م ، وَظَلَّ بِهَا مَكْرَمًا عِنْدَ صَاحِبِهَا الظَّاهِرِ غَازِي حَتَّى مَاتَ عَامَ 606 هـ / 1209 - 1210 م⁽⁸⁴⁾ .

وَفَرَّ مِنْهُ الْقَاضِي الْأَشْرَفُ بَهَاءُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الْقَاضِي الْفَاضِلِ (ت 643 هـ) إِلَى بَغْدَادٍ وَاسْتَشْفَعَ بِالْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ (ت 622 هـ) وَأَحْضَرَ كِتَابَ شَفَاعَتِهِ إِلَى السُّلْطَانِ الْعَادِلِ⁽⁸⁵⁾ .

وَكَانَ الْقَاضِي الْأَشْرَفُ بَهَاءُ الدِّينِ مُحِبًّا لِلْعِلْمِ وَكَانَ الْمُلُوكُ يَحْفَظُونَ فِيهِ مَكَانَةً أَيْبَهُ⁽⁸⁶⁾ ، لَكِنْ صَفِي الدِّينِ لَمْ يَنْسَ عِدَاوَتَهُ لِأَيْبِهِ وَشَاءَتْ الْأَقْدَارُ أَنْ يَمُوتَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ قَبْلَ دُخُولِ ابْنِ شُكْرٍ إِلَى مِصْرَ ، وَقِيلَ إِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ بَوَازَرَةَ ابْنِ شُكْرٍ حَزَنَ وَهُمَّ ، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ لَا يُجِيبَهُ إِلَى هَذِهِ الدَّوْلَةِ خَشِيَةَ أَنْ يَسْتَدْعِيَهُ صَفِي الدِّينُ ابْنَ شُكْرٍ ، وَيُجِيبَهُ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمَا ، فَقَامَ يَبْكِي وَيَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ وَيُصَلِّي ، وَكَانَ كَثِيرَ الْقِيَامِ بِاللَّيْلِ . "فَمَاتَ وَلَمْ يَنْلَهُ أَحَدٌ بِضِيمٍ"⁽⁸⁷⁾ ، وَاتَّفَقَ خُرُوجَ جَنَازَتِهِ مِنْ بَابِ زَوِيلَةَ مَعَ دُخُولِ الْعَادِلِ وَوَزِيرِهِ مِنْ بَابِ النُّصْرِ⁽⁸⁸⁾ .

وَلَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَفَاتِهِ فَإِنْ كَرَاهِيَةَ ابْنِ شُكْرٍ لَهُ لَمْ تَنْقَطِعْ ، فَكَانَ دَائِمًا يَبْدِي الْأَسْفَ لَأَنَّهُ لَمْ يَنْلِ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ فَكَانَ يَقُولُ : "لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِي حَسْرَةٌ إِلَّا كَوْنُ ابْنِ الْبَيْسَانِيِّ لَمْ يَمْرُغْ شَيْبَتَهُ عَلَى عَتَبَاتِي"⁽⁸⁹⁾

(84) ياقوت الحموي : معجم الأديباء ، تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت 1993 م ، ج 2 ، ص 635 إلى ص 640 ، الصفدي : المصدر السابق ج 9 ، ص 14 - 16 .

(85) ابن الفرات : المصدر السابق ج 5 من ص 176 ، المقرئ : المقفى الكبير ج 4 ص 596 ، 597 .

(86) أحمد أحمد بدوي : القاضي الفاضل ، القاهرة ، 1959 م ، ص 34 .

(87) أبو شامة : الروضتين ج 4 ، ص 482 ، 483 ، ابن كثير : المصدر السابق ج 13 ، ص 24 ، 25 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 21 ، ص 341 .

(88) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج 8 قسم 2 ، ص 272 ، 273 ، العيني : عقد الجمان : مخطوط ج 19 ، ورقة 251 ، ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 157 .

(89) المقرئ : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 599 .

ولهذا درج على سب القاضي الفاضل حتى أمام ابنه ، الذي كان يغض الطرف عن إساءة الوزير ابن شكر لوالده "ولا يَظْهَرُ منه أي تَغَيَّرَ وذَاَرَاهُ أَحْسَنُ مُدَارَاةً وبِذَلْ لَهُ أَمْوَالًا جَمَّةً فِي السَّرِّ"⁽⁹⁰⁾.

وهناك أسرة القفطي ، وكان القاضي الأشرف أبو الفضائل الشيباني القفطي قد تولى ولاية بيت المقدس ، فلما دخلت في حوزة الملك العادل ، خاف من وزيره ابن شكر ، فخرج منها ليلاً ونزل بحران⁽⁹¹⁾ ، ودخل في خدمة الظاهر صاحب حلب⁽⁹²⁾.

كل ذلك والسلطان العادل لا يعارضه في شيء⁽⁹³⁾ ، حتى قيل إن ذلك كله كان برضاه وإرادته⁽⁹⁴⁾. فقد استولى عليه الوزير "ظاهراً وباطناً" ولم يَمَكَّنْ أحداً من الاتصال به أو الاقتراب منه حتى الطبيب والحاجب والفراش عليهم عيون له فلا يتكلم أحد منهم بكلمة خوفاً منه⁽⁹⁵⁾.

وكان لابن شكر قول يردده هو وأهله كل يوم عدة مرات "ويعملون به كما يعمل بالأقوال الإلهية" وهو "إذا كنت دقيقاً"⁽⁹⁶⁾ فلا تكن وتدأ"⁽⁹⁷⁾.

وكان كثيراً ما ينشد :

إذا وترت امرأ فاحذر عداوته
من يزرع الشر لا يحصد به عبثاً

(90) الصفدي : المصدر السابق ، ج 17 ، ص 177 ، الكتبي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 550 ، الذهبي : تاريخ الإسلام مجلد 13 ، ص 708 .

(91) حران : بتشديد الراء ، مدينة عظيمة على طريق الموصل والشام وهي قصبة ديار مضر ، فتحت أيام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم ، انظر : معجم البلدان ، ج 2 ، ص 235 .

(92) إنباه القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، ج 1 ، ص 10 - 13 ، الصفدي : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 34 ، 35 ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 2 ، ص 107 .

(93) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج 5 قسم 1 ، ص 176 ، المقرئ : السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 192 .

(94) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 9 .

(95) المقرئ : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 600 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 707 .

الصفدي : المصدر السابق ، ج 17 ، ص 176 ، الكتبي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 549 .

(96) الدقاق : المطرقة ، انظر : المقرئ : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 600 ، حاشية 1 .

(97) المقرئ : نفسه ، المقرئ : الخطط ، ج 2 ، ص 372 .

وينشد كذلك :

تَوَدُّ عِدْوِي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِي صَدِيقُكَ إِنِّ الرَّأْيَ عَنْكَ لِعَازِبٌ⁽⁹⁸⁾

وكثر بطش صفى الدين بالناس حتى أقام لنفسه "حرمة عظيمة زادت على حرمة السلطان وعظم أمره"⁽⁹⁹⁾.

وكان أولاد الملك العادل يأتون إلى داره ويجلسون على بابه حتى يؤذن لهم بالدخول فغضب لذلك أمراء الدولة وتكلموا مع السلطان في أمره "وهو لا يسمع فيه كلام متكلم"⁽¹⁰⁰⁾.

وكان عند عودته من الشام يخرج للقاءه كبار رجال الدولة عند بلدة الخشبي⁽¹⁰¹⁾ المجاورة للعباسية ، وحدث أن تخلف الشاعر الضير موفى الدين ابن جماعة المصري (ت 623هـ) بسبب المرض فكتب له معتذراً عن عدم حضوره فقال :

قالوا إلى الخشبي سرنا على عجل نلقى الوزير جوعاً من ذوي الرتب
ولم تَسِرْ أيها الأعمى فقلت لهم لم أخش من تعب ألقى ولا نصب
وإنما النار في قلبي لوحشته فَخِفتُ أجمع بين النار والخشب⁽¹⁰²⁾

نستطيع أن نلمس مكانة الوزير صاحب صفى الدين ابن شكر في دولة السلطان الملك العادل من تقدير الخلافة العباسية له . فكان للوزير نصيب من خلع الخليفة التي كان يرسلها إلى السلطان العادل وأولاده ، مثلما حدث في عام 604هـ / 1207 -

(98) المقرئى : المقفى ، جـ 4 ، ص 601 ، العيني : المصدر السابق ، مخطوط ورقة 243 .

(99) النويرى : المصدر السابق جـ 29 ، ص 55 .

(100) نفسه ، ص 56 .

(101) الخشبي : بلدة بينها وبين القسطنطين ثلاث مراحل وهي أولى الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحية الشام ، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ 2 ، ص 373 .

(102) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ 5 ص 213 ، 214 ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، 2000م ، ص 349 . يدل هذا على شدة الخوف من الوزير .

1208م⁽¹⁰³⁾ عندما أرسل الخليفة رسوله الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد السُّهْرَوْرْدِي⁽¹⁰⁴⁾ ومعه التَّشْرِيف والتَّقْلِيد والخَلْع للخليفة وأولاده الثلاثة وللوزير صاحب ابن شكر . وكانت خَلْعُ الوزير عبارة عن عمامة سوداء وثوب أسود واسع الكُم⁽¹⁰⁵⁾ .

وفي هذا يقول ابن سناء الملك :

خِلْعَةٌ إِثْرُ خِلْعَةٍ مِثْلُ مَا يَتَبَعُ فِي نَظْمِهَا الْفَرِيدُ
خِلْعٌ كَالسَّحَابِ لَوْنًا وَكَالْغَيْثِ سَبَبُهَا لِأَنَّهُ السَّحَابُ يَجُودُ⁽¹⁰⁶⁾

وفي الوقت الذي عمل فيه على الإيقاع برؤساء مصر وأرباب السيوت بها وإذلالهم وسلب ثرواتهم ومحو آثارهم⁽¹⁰⁷⁾ ، نجده يقرب الأراذل وشرار الفقهاء أمثال الجبال المصري⁽¹⁰⁸⁾ الذي جعله قاضي دمشق وابن كسا البليسي والمجد البهنسي الذي وزر للأشرف واتخذ من هؤلاء بطانة له فصاروا يوهمون به بأنه "أَكْتَبَ من القاضي الفاضل بل ومن ابن العميد والصابي وفي الفقه أفضل من مالك وفي الشعر أكمل من المتنبي وأبي تمام ويحلفون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان"⁽¹⁰⁹⁾

(103) كان الملك العادل قد أرسل إلى الخليفة بعد فتح أرمينية عام 604هـ / 1207 - 1208م - يطلب التَّشْرِيف والتَّقْلِيد بمصر والشَّام وخلاط وبلاد الجزيرة حتى يضيفي على دولته الشرعية ، انظر : المقرئزي : السلوك ، ج 1 ، ص 1 ، ص 167 ، 168 ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 165 ، 166 .

(104) السهروردي : نسبة إلى سهرورد وهو بلد بأرض الجبال جنوبي السلطنة على الطريق بين همدان وزنجان . وهو صوفي شافعي المذهب وكان إمام وقته ، تقدم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله حتى جعله مقدماً على شيوخ بغداد وأرسله في الرسائل العظيمة ، انظر : السلوك ج 1 قسم 1 ص 167 ، حاشية 3 .

(105) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج 5 ، قسم 1 ، ص 63 - 65 ، ابن كثير : المصدر السابق ، ج 13 ، ص 49 ، المقرئزي : المصدر السابق ، ص 167 ، 168 .

(106) ديوانه : ص 83 .

(107) المقرئزي : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 599 .

(108) سيرد ذكره مفصلاً .

(109) الذهبي : تاريخ الإسلام مجلد 13 ، ص 707 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 22 ، ص 295 .
يلاحظ أن المستبدن لا يستصنعون إلا الأراذل ولا يميلون لغير المتملقين والمتنافقين حتى يحصلوا منهم على التأييد والتشجيع فيما يقومون به من استبداد .

الوحشة بين الملك العادل وابن شكر 606 هـ / 1209 م :

كان ابن شكر يفعل ما يفعل في دولة السلطان العادل دون أن يراجعه أو يعترض عليه، ومع ذلك كان يُكثر الإدلال والغضب عليه ويسخط أولاده وخواصه، فيحتمله العادل ولا يؤاخذه، ويرضاه بشتى الوسائل⁽¹¹⁰⁾.

وبينما كان السلطان في عام 606 هـ / 1209 م في طريقه من سنجار⁽¹¹¹⁾ إلى حران⁽¹¹²⁾، وقعت بينه وبين وزيره صفي الدين ابن شكر منافرة فغضب ابن شكر على عادته وترك مجلس السلطان بصورة مهينة أخرجت العادل أمام حاضريه وتكلموا في الوزير، ولكن العادل كان : "من أثبت الناس وأحلمهم وأقلهم بطشاً وصفي الدين بخلاف ذلك"⁽¹¹³⁾، فسافر في البرية فتبعه الملك المنصور صاحب حماة، والأمير فخر الدين جهار كرس صاحب بانياس، "وكان المنصور كثير العناية به وهو أول من مشى إليه من الملوك" فلحقاه في رأس عين وقدماه به على الملك العادل⁽¹¹⁴⁾، فرضي عنه، ولكن بقيت هذه الحادثة كامنة في نفس السلطان⁽¹¹⁵⁾. "ومن هذه النوبة انحطت منزلته عند السلطان"⁽¹¹⁶⁾.

(110) الصفدي : المصدر السابق جـ 17 ، ص 176 ، المقرئ : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 597 .

ذكر النعمي : من صفات العادل أنه كان "يعرف حق المحبة والصحبة ولا يتغير على أصحابه ولا يضجر منهم وهم عنده في حظوة" انظر : الدارس في تاريخ المدارس ، نشره جعفر الحسيني ، دمشق ، 1951 م جـ 2 ص 263 ، 264 .

(111) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ 5 ، ص 147 ، حاشية 4 .

(112) كان الملك الأوحـد نجم الدين أيوب قد استغاث بأبيه على الكرج لتهديدهم الأعمال الخلاطية فسافر العادل من دمشق إلى البلاد الشرقية . انظر : ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ 5 ، قسم 1 ، ص 95 .

(113) النوري : المصدر السابق جـ 29 ، ص 56 .

(114) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصورى ، جـ 1 ، ص 59 ، 60 .

المقرئ : المقفى الكبير ، جـ 4 ، ص 597 ، ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ 5 ، قسم 1 ، ص 951 ، 952 ، المقرئ : السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 171 .

(115) النوري : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص 56 .

(116) ابن نظيف : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 60 ، ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ 5 ، قسم 1 ، ص 96 .

وكان القاضي الأعز بن شكر ناظر الدواوين في خدمة الملك الكامل فحسده
الصاحب ابن شكر ، وخاف على مركزه منه ، وعمل على الإيقاع به ، فأرسل يستدعيه
للحضور أمامه ، فخاف القاضي الأعز على نفسه ولجأ إلى الملك الكامل واحتمى به ،
فغضب ابن شكر وأرسل إليه ليسلمه القاضي فرفض .

فاجتمع صفي الدين بالعدل وادعى أن القاضي الأعز "لزمه حساب" ، وأن الكامل
يحميه ، وألح في طلبه فتحدث العدل مع ابنه فقال الملك الكامل : "يصلح بينهما" وأراد
بذلك تهدئة نفس الصاحب من القاضي الأعز ، فلم يزد ذلك إلا حنقا عليه .

ثم إن الكامل اصطحب معه الأعز إلى دار الوزارة ، وأصلح بينهما ، ولكن الصاحب
كان يضمخ خلاف ما يظهر فأراد أن يقبض على الأعز ، بمجرد انصرافه إلى داره ، إلا أنه لزم
الخدمة الكاملية بالقلعة ، فازداد غضب الصاحب عليه وتحدث مع العدل أن يعزله عن
نظر الدواوين فلم يستجب له ، "فامتنع الصاحب من الكتابة على المناشير والتواقيع" ،
وأقسم أن لا يباشر عمله طالما الأعز يكتب معه⁽¹¹⁷⁾ فتعطلت أحوال الناس واشتكوا
إلى السلطان ، فأرسل إليه يرضيه - كعادته - "وهو لا يزداد إلا غضباً وإساءة في.
الجواب" حتى غضب السلطان وأمر الكامل أن يسلمه للصاحب ابن شكر ، فلما علم
بذلك الأعز ، ذكر للملك الكامل أن ابن شكر كان يريد صرف الكامل عن مصر ، وأن
يجعل الأشرف موسى بدلاً منه ، وأعطاه كتباً بذلك من ابن شكر تضمنت سبه وشتمه .

فعرض الكامل الكتب على أبيه فقرر على الفور عزله عن الوزارة⁽¹¹⁸⁾ ، وعين بدلاً
منه القاضي الأعز مقدام بن شكر⁽¹¹⁹⁾ .

(117) النويري : المصدر السابق جـ 29 ، ص ص 56 ، 57 ، وذكر كل من ابن نظيف الحموي : المصدر
السابق جـ 1 ، ص 65 ، وابن الفرات : المصدر السابق ، جـ 5 ، قسم 1 ، ص 109 ، والمقرئزي :
السلوك ، جـ 1 ، قسم 1 ، ص 171 ، في حوادث 607 هـ "أن الوزير صفي الدين ابن شكر
كفت يده عن العمل" .

(118) النويري : نهاية الأرب ، جـ 29 ، ص 58 .

(119) المقرئزي : السلوك ، جـ 1 ، ص ص 176 ، 177 ، ابن الفرات : المصدر السابق ، جـ 5 ، قسم 1 ،

أما الصاحب صفى الدين فخرج من مجلس الوزارة ولازم داره⁽¹²⁰⁾ ثم خرج بعد ذلك من القاهرة بجميع أمواله وحرمة وغلماؤه فكان ثقله على ثلاثين جملاً وزين أعداؤه للسلطان أن يصادر أمواله فرفض ولم يعارضه في شيء⁽¹²¹⁾.

على الرغم من عزل صفى الدين عن الوزارة في عام 609 هـ / 1212 م ، إلا أنه لم يكن بعيداً عن شئون الدولة سواء في الشام أو في مصر ، ففي الشام كانت له مجالسه العلمية وأعماله المعمارية ، أما في مصر فقد زين صفى الدين للملك الكامل أخذ اليمن⁽¹²²⁾ بدلا من أخيه الفائز ، فاستأذن السلطان في فتحها . ثم جهز حملة كبيرة بقيادة ابنه الملك المسعود يوسف استولت على اليمن في 612 هـ / 1215 م وسبق صاحبها معتقلاً إلى مصر⁽¹²³⁾.

ثم إن السلطان العادل غضب على وزيره الصاحب الأعز من أمور أنكرها عليه⁽¹²⁴⁾ ، ولهذا قبض عليه في 17 جمادى الآخرة عام 613 هـ / 1216 م وضربه وقيده واعتقله في قلعة بصرى⁽¹²⁵⁾.

(120) النويري : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 59 .

(121) المقرئ : المصدر السابق ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 193 ، المقرئ : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 597 ، ابن الفرات : المصدر السابق ، ج 5 ، قسم 1 ، ص 176 ، 177 ، وذكر ابن العميد أن حمله بلغ مقدار ثمانين جملاً . انظر : أخبار الأيوبيين ، ص 9 ، 10 .

(122) كانت بلاد اليمن تحت حكم الملك سليمان شاه ابن سعد الدين شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن نجم الدين أيوب ، وقد ملأها ظمًا وجورًا ، فقرر العادل إرسال حملة بقيادة ابنه الفائز للاستيلاء على اليمن . انظر : أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ، د . ت ، ج 3 ، ص 116 .

(123) العيني : عقد الجمان ، مخطوط ورقة 347 ، المقرئ : السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 181 ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 211 .

(124) لما قرئ على الملك العادل ما أنفقه وزيره القاضي الأعز على حملة الملك المسعود إلى اليمن استكرهه وأنكره ، انظر : المقرئ : المصدر السابق ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 181 ، كما أنكر عليه ما أنفق على قبة الإمام الشافعي من مال الديوان لأنه كان تقرر الصرف عليها من مال الديوان الكامل . انظر النويري : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 71 .

(125) النويري : نفسه ، المقرئ : المصدر السابق ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 181 ، 193 .

ولم يستوزر العادل بعده أحدًا ، وإنما ولي القاضي الأشرف أحمد ابن القاضي الفاضل ، شئون الأموال ، وعين القاضي عماد الدين بن جبريل ، على ديوان الدولة ، وشمس الدين أبا القاسم التبني وزيرًا للصحة⁽¹²⁶⁾ .

أما صفى الدين ابن شكر فإنه ظن أن السلطان سيعيده إلى الوزارة « فصار يركب في المراكب ويستعرض للقاء السلطان ثم فتح بابه و صار الناس يدخلون إليه »⁽¹²⁷⁾ . وكثر كلامه وظهر منه فساد⁽¹²⁸⁾ .

فبلغ الملك الكامل ذلك فمر بدار الصاحب " فوجد الخيل على بابه فقال لمن معه من الأمراء : ما هذا إلا أحق ! يفتح بابه ويأمر الناس أن يدخلوا إليه ويمد السباط والسلطان غير راضٍ عنه " فلما علم بذلك السلطان غضب وقال : " ما يكفي ابن شكر أنه أخذ مالي حتى أطرح جانبي يفتح بابه ؟ " ⁽¹²⁹⁾ .

خشي صفى الدين غضب السلطان فلجأ إلى الملك الكامل وناشده أن يتشفع له عند أبيه ليعيده للوزارة أو يتركه يرحل ، فرفض الكامل أن يتدخل له . " فعاد خجلًا " . ومضى إلى دار والده الملك المعز مجير الدين يعقوب ابن السلطان العادل " وتعلق بذيل ستر الباب " ، وصادف وجود السلطان العادل عندها في ذلك الوقت " فعظم ذلك عليه لكونه قصد زوجته " ⁽¹³⁰⁾ . حتى هم بقتله ثم تراجع ⁽¹³¹⁾ .

(126) النويري : نهاية الأرب ، ج 29 ، ص 72 . وزير الصحة : يكون صاحب هذه الوظيفة وزيرًا متتلاً يرافق السلطان في أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف الشئون ؛ وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله ، انظر : المقرئزي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 627 ، حاشية 2 .

(127) النويري : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 76 .

(128) الصفدي : المصدر السابق ، ج 17 ، ص 176 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 .

(129) النويري : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 76 .

(130) ذكر ابن تغري بردي في النجوم الزهرة ، ج 6 ، ص 167 ، أن العادل كان غيورًا لا يدخل في داره خصي إلا دون البلوغ .

(131) النويري : المصدر السابق ، ص 76 .

ولهذا أمر السلطان العادل ، ابنه الكامل ، بمطالبة صفى الدين بمبلغ ستمائة ألف دينار كان اقترضها منه وهو على سنجار ، فأحضره الكامل ووبخه وأمر بمصادرة أملاكه ، حتى يوفي المبلغ ، وتكلم في حقه - إلى الملك الكامل - جماعة من أهانهم ابن شكر وصادروهم من قبل ، فقالوا : إنه ابتدأ حياته قَطَّانًا ، فمن أين له هذا المال . وشهد عليه ابن التنبني وقال : "أنا صانعة عن نفسي بما تتي ألف دينار ، وصانعه شهاب الدين الفاضل بثلاثمائة ألف دينار" ، فلما علم العادل بما كان يأخذه من المصانعات أمر بنفيه⁽¹³²⁾ .

فاستأذن السلطان أن يبيع ممتلكاته فأذن له ، فلما تم له ذلك أمره السلطان بالخروج إلى "بلد لا تقام له فيه خطبة" ، فخرج من القاهرة يوم الخميس 25 جمادى الآخرة في عام 613 هـ / 9 أكتوبر 1216م حتى وصل بلبيس وهناك أمر باعتقاله في دار الجاولي وأخذ أموالا منه ، ثم بعد أيام أطلق⁽¹³³⁾ ، فسار إلى الكسوة⁽¹³⁴⁾ ومنها بات ببلدة من الغوطة⁽¹³⁵⁾ ثم رحل عنها إلى القصير⁽¹³⁶⁾ ثم إلى جهة الفرات عن طريق البرية وخرج إليه جماعة من أعيان البلد سرًا وجهرًا إلى الكسوة وإلى القصير ولما قطع الفرات لم يمكنه الأشرف من المقام ببلاده فلجأ إلى صاحب حماة فأواه وأحسن إليه ، فغضب عليه السلطان وأمره بإبعاده وتولى قاضي العسكر تنفيذ ذلك ، فعاد وقطع الفرات قاصدًا آمد⁽¹³⁷⁾ ، فلما

(132) نفسه ، ص ص 76 ، 77 . وقد تبين أن له في كل بلد من بلاد السلطان ضيعة أو أكثر في مصر والشام إلى خلاط وقد بلغ مقدار ما يغله أزيد من مئة وعشرين ألف دينار . انظر : الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 22 ، ص 295 .

(133) أبو شامة : الذيل ، ص 115 ، النويري : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 77 .

(134) الكسوة : قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر أنظر ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج 4 ، ص 461 .

(135) الغوطة : بالضم ثم السكون ، هي الكورة التي منها دمشق يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ولا سيما من شمالها والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة : انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 219 .

(136) القصير : ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق . انظر ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 165 ، حاشية 3 .

(137) أبو شامة : الذيل ص 115 . آمد : من أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا ، وهو بلد قديم حصين ودجلة محيطة بأكثره وفيها بساتين . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 1 ، ص 66 .

وصلها استقبله صاحبها الملك الصالح ابن ارتق⁽¹³⁸⁾ بنفسه وأحسن إليه وبالع في إكرامه وظل مقيماً عنده إلى أن مات الملك العادل فعاد إلى مصر⁽¹³⁹⁾.

ولما عزل صفى الدين ابن شكر عن الوزارة دخل الطبيب والوكيل وغيرهما فاتصلوا بالسلطان العادل وحكوا وضحكوا معه ، بعد أن حرج ابن شكر عليهم الاتصال به "فأعجب السلطان بذلك وقال ما منعكم أن تفعلوا هذا فيما مضى ؟ قالوا : خوفاً من ابن شكر ، قال : فإذا قد كنت في حبس وأنا لا أشعر"⁽¹⁴⁰⁾.

وعما قيل فيه وقد عزل :

أين غلمانك المطيفون بالبغ لة والرافعون فضل الثياب
ردك العزل كالنداء على الما ء بلا حاجب ولا بواب⁽¹⁴¹⁾

رعايته للعلم والعلماء :

وجه الصاحب صفى الدين ابن شكر عناية كبيرة للعلماء والفقهاء والأدباء ، فقد روى عنه الزكي المنذري والشهاب القوصي ، أنه كان "مؤثراً للعلماء والصالحين كثير البر بهم والتفقد لهم لا يشغله ما هو فيه من كثرة الأشغال عن مجالسهم ومباحثهم"⁽¹⁴²⁾.

(138) الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن ارتق صاحب آمد وحسن كيفاً ، مات بالقولنج عام 618 هـ ، تولى ابنه الملك المسعود من بعده وهو الذي انتزع منه الملك الكامل آمد وكان الصالح قبيح السيرة . انظر : ابن الوردي : تاريخه ، ط بولاق ، د.ت ، ج2 ، ص 143 - أبو الفدا : المختصر ج3 ، ص 130 .

(139) الصفدي : المصدر السابق ، ج17 ، ص 176 .

الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 ، الكتبي : المصدر السابق ، ج1 ، ص 550 .

(140) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 707 .

(141) قاله مظفر الأعمى . انظر : الصفدي : المصدر السابق ، ج17 ، ص 177 . المقرئزي : المقفى الكبير ، ج4 ، ص 602 .

(142) المنذري : التكملة ، ج3 ، ص 157 ، 158 ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 706 .

ابن فرحون : المصدر السابق ، ص 143 ، الصفدي : المصدر السابق ، ج17 ، ص 176 .

وكان يبالي في إقامة النواميس مع التواضع للعلماء وكان كثير الصدقات والصلوات⁽¹⁴³⁾. فكان يعمر أوقافهم ويثمرها ويوسع لهم في الجامكية⁽¹⁴⁴⁾.

وعمرت المدارس في عهده وكثرت الأوقاف عليها لشدة عنايته بالعلماء⁽¹⁴⁵⁾.

ولم تقتصر رعايته للعلماء والفقهاء على مصر وحدها، فقد أمضى صفى الدين فترة بدمشق، فأعجبته وطاب له المقام فيها ووصفها في كتابه "البصائر" فقال: دمشق نزهة الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار ومغرس الأشجار، ومعرس الأسفار، ومعبد الأبرار المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب وعيها المسلوب، ومحاسنها المجموعة وفصائلها المروية المسموعة ودرجتها المرفوعة وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها السلسيل⁽¹⁴⁶⁾.

ووصف أهل دمشق بأن "قلوبهم عند ذكر الله حاضرة ونفوسهم بالخير دون الشر آمرة"، وأشاد الصاحب صفى الدين بعلماء دمشق فكانوا عنده محل احترام وتقدير، ووصفهم بأنهم "سادة أدباء وعلماء نجباء" ووصف جلساتهم العلمية فقال: "رأيهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح حده ويفسرونه عن علم واستبصار ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار ويتبعون ما وردت به ثقة الآثار"⁽¹⁴⁷⁾.

ووصف الصاحب صفى الدين الحركة العلمية التي كانت تعج بها حلقات المسجد الأموي وأروقته فقال: ".... مضيت إلى جامعها الجامع وشفعت بإدراك البصر منه إدراك السامع فلما وصلت إليه وحللت الحبا لديه رأيت مرأى صغر الرواية، ورونقاً حصل من الحسن على النهاية ونوراً يجلو الأبصار وجمعاً يفضل على جموع الأبصار وعبادة موصولة على الاستمرار وقرآناً يتلى في آناء الليل وأطراف النهار ومنقطعين إليه قد اتفقوا في الاعتكاف به

(143) الذهبي: العبر في خبر من غير، ج5، ص 90، الذهبي: شذرات الذهب، ج5، ص 100.

(144) العيني: المصدر السابق، ورقة 381.

(145) ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، قسم 2، ص 677.

(146) أبو شامة: الروضتين، ج3، ص 219.

(147) أبو شامة: الروضتين، ج2، قسم 1، ص 193.

نفائس الأعمار . والبركات تحف بجوانبه والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى والمصاحف بين أيدي التالين تنشر ولا تطوى والخلق منقسمون إلى خلق قد نبذ أهلها ما وراءهم من العلق والإسلام فيه فاش والجهل متلاش وهو بيت المتقين وسوق المتصدقين ، ليله للمتجهدين ونهاره للعلماء المجتهدين⁽¹⁴⁸⁾ .

وكانت تعقد مجالس علمية بحضرة الوزير صفي الدين ابن شكر ، ومنها ذلك المجلس⁽¹⁴⁹⁾ الذي اجتمع فيه التاج الكندي⁽¹⁵⁰⁾ (ت 613هـ / 1216م) والحافظ أبو الخطاب ابن دحية الكلبي⁽¹⁵¹⁾ (ت 633 هـ / 1235 م) .

ومن علماء الشام الذين اتصلوا بصفي الدين ابن شكر ، الجبال المصري⁽¹⁵²⁾ فولاه التدريس بالمدرسة الأمينية⁽¹⁵³⁾ ثم ولاه وكالة بيت المال بدمشق كما أرسله إلى الملوك والخلفاء نيابة عن صاحب دمشق "وكان معتنياً بأمره"⁽¹⁵⁴⁾ .

(148) نفسه ، ج2 ، قسم 1 ، ص 194 .

(149) كان ذلك عام 605 هـ عنه ، انظر : أبو شامة : الذيل ص 65 ، ابن كثير : المصدر السابق ، ج13 ، ص 51 .
(150) التاج الكندي : زيد بن الحسن بن زيد أبو اليمن الكندي ، مهر في النحو ، اتصل في دمشق بالمعظم عيسى ثم سكن حلب مدة ثم عاد إلى دمشق وخدم بها فرخشاها بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي واستوزره وكان حسن الخلق ، توفي عام 613 هـ / 1216 م ، انظر : ابن العديم : المصدر السابق ج9 ، ص 4012 .

(151) الحافظ ابن دحية أبو خطاب الكلبي : اهتم بالحديث وجال في مدن الأندلس وسمع بمصر والعراق وغيرها واستقر بمصر وجعله الكامل شيخ دار الحديث بالقاهرة ، ثم غضب عليه وعزله ، توفي 633هـ / 1235م . انظر : الذهبي : شذرات الذهب ، ج5 ، ص ص 160 ، 161 .
(152) الجبال المصري يونس بن بدران بن فيروز جمال الدين المصري ، اختصر كتاب الأم للإمام الشافعي وله كتاب الفرائض ، ولاه المعظم عيسى القضاء بدمشق ، انظر : ابن كثير : المصدر السابق ، ج13 ص ص 114 ، 115 .

(153) المدرسة الأمينية "تقع بالقرب من الجامع الأموي و قيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أمين الدولة أتابك العسكر بدمشق حوالي سنة 530 هـ . انظر : النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج1 ، ص ص 177 ، 178 .

(154) ابن كثير : المصدر السابق ، ج13 ، ص ص 14 ، 15 .

واتصل به أيضًا تقي الدين أبو طاهر الأنطاقي (ت 619 هـ / 1222 م) وكان مالكي المذهب فقرر له "معلومًا على المصالح" بدمشق⁽¹⁵⁵⁾.

ومن علماء دمشق الذين أشادوا بالصاحب صفى الدين ابن شكر الشيخ الفقيه إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن القوسي⁽¹⁵⁶⁾. فقد نال منزلة عالية لدى الوزير صاحب وسيره رسولاً عن الملك العادل إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين في حلب وإلى سنجار والموصل وخلاط وتولى وكالة بيت المال⁽¹⁵⁷⁾.

ويشيد القوسي بإنعامات الوزير صفى الدين فيقول: "هو الذي كان السبب فيما وليته وأوليته في الدولة الأيوبية من الإنعام وهو الذي أنشاني وأنساني الأوطان ولقد أحسن إلى الفقهاء والعلماء مدة ولايته"⁽¹⁵⁸⁾.

أما علماء الشام من الأطباء الذين اتصلوا بخدمة صفى الدين ابن شكر، فمنهم الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار، شيخ الأطباء ورئيسهم بدمشق (ت 628 هـ)، وكان دائم الخدمة والتردد على صاحب صفى الدين ابن شكر "وعرف الصاحب منزلته في صناعة الطب وعلمه وفضله" فقرر له جامكية⁽¹⁵⁹⁾ على الطب ثم إنه رشحه للسلطان العادل برسم خدمة العسكر والتردد إليهم في أمراضهم،

(155) ابن العديم: المصدر السابق، ج 4، ص 1668.

(156) القوسي: ولد سنة 574 هـ بقوص وقدم القاهرة ثم رحل إلى دمشق فاستوطنها وسمع الكثير ببلاد متعددة، وكان أديبًا إخباريًا فصيحًا تقدم عند الملوك، درس بحلقته بجامع دمشق. توفي عام 653 هـ بدمشق ودفن بداره التي وقفها دار حديث، انظر: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج 2، ص 103، ابن العديم: المصدر السابق، ج 2، ص 1632.

(157) الصفدي: المصدر السابق، ج 9، ص 65، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 23، ص 288، 289، ترجمة رقم 195، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج 2، ص 103.

(158) الذهبي: تاريخ الإسلام، مجلد 13، ص 706.

(159) جامكية: وجعها جوامك، الراتب المربوط لشهر أو أكثر، انظر: سعيد عاشور: العصر المالكي، ص 411.

ووصفه له بأنه حكيم فاضل في صناعة الطب ، فأمره باستخدامه⁽¹⁶⁰⁾ . وهناك رضي الدين يوسف بن حيدرة الرحبي (ت 631 هـ) الحكيم البارع بدمشق ، كان مبعجلاً عند الملوك عالي الهمة ، اتصل بخدمة صاحب صفي الدين ابن شكر ، وكان الوزير يلزم أكل الدجاج فشحب لونه ووصف له الأطباء كثيراً من الأشربة دون فائدة ، فلما شكوا إلى الرحبي نصحه بملازمة أكل اللحم الضأن فاستمر على ذلك فترة ، حتى صلح لونه واعتدل مزاجه⁽¹⁶¹⁾ .

ومن أطباء دمشق الذين اتصلوا بخدمة ابن شكر مهذب الدين يوسف ابن أبي سعيد السامري (ت 624 هـ) ، تميز في صناعة الطب واشتهر بحسن العلاج والمداواة ، وكان صاحب ابن شكر قد عرض له ألم في ظهره بسبب برد أصابه فوصف له الأطباء وصفات لم تغده ، أما السامري فاستبدل ما وصفوه له بدواء آخر انتفع به ابن شكر⁽¹⁶²⁾ .

اهتمامه بالعمارة :

اهتم صفي الدين بالعمارة في كل من مصر والشام ، ففي مصر أنشأ صاحب صفي الدين المدرسة الصاحبية أمام بيته في القاهرة⁽¹⁶³⁾ . ويقال إن موضع هذه المدرسة قديماً كان دار يعقوب بن كلثوم أول وزير للدولة الفاطمية في مصر ، وتقع هذه المدرسة في مكان يعرف بسويقة الصاحب نسبة إليه⁽¹⁶⁴⁾ .

(160) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، صححه امرؤ القيس بن الطحان ، ط القاهرة ، 1882م ، ج 2 ، ص ص 239 ، 240 .

(161) نفسه ، ج 2 ، ص ص 194 ، 195 ، الصفدي : المصدر السابق ، ج 29 ، ص 84 ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج 22 ، ص 372 .

(162) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص 233 ، 234 .

(163) ابن فرحون : المصدر السابق ، ص 143 . وقال عنها ابن النبية المصري :

فكم بنيت من قبلها من مدارس
ولكنهم ما أسوها على التقوى

(164) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 7 ، ص 30 ، القلقشندي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 402 .

ذكر المقرئ أن هذه السويقة يسلك إليها من خط البندقيين ومن باب الخوخة وغير ذلك ، عرفت في العصر الفاطمي بسويقة الوزير ابن كلثوم ، فلما أنشأ الوزير مدرسته الصاحبية عرفت هذه السويقة بسويقة الصاحب نسبة إليه ، انظر : المقرئ : الخطط ج 2 ، ص 104 .

وقد اختصت هذه المدرسة بالطائفة المالكية⁽¹⁶⁵⁾. حيث جعلها الوزير وقفاً عليها، وبها درس نحو وخزانة كتب وظلت في يد أولاده بعد وفاته⁽¹⁶⁶⁾.

وبجوار المدرسة أنشأ رباطاً وأوقف عليها المرتبات⁽¹⁶⁷⁾ كذلك أنشأ ابن شكر حماماً بسويقة الصاحب عرف بحمام الصاحب⁽¹⁶⁸⁾. وبني الفسقية التي بوسط جامع الحاكم بأمر الله وأجرى إليها الماء⁽¹⁶⁹⁾.

أما عن اهتمامه بالعمارة في الشام فقد أولى صفى الدين ابن شكر الجامع الأموي عناية فائقة، فقام في شعبان من سنة 602 هـ / 1206 م بهدم القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي ونشر حجارتها ليلط بها الجامع الأموي وكمل تبليطه في سنة 604 هـ / 1207 - 1208 م⁽¹⁷⁰⁾. وفي 11 من شوال عام 607 هـ / 1211 م أعيد تجديد أبوابه - من جهة باب البريد - بالنحاس الأصفر وركبت في أماكنها⁽¹⁷¹⁾.

ثم أعيد تبليط رواقات الجامع الداخلية في المحرم من عام 611 هـ / 1214 م وابتدئ بالحجر الشرقية وذلك لأن رخام أرضية المسجد تكسر وصار "حفرًا وجورًا"⁽¹⁷²⁾، وكان ذلك بإشراف الوزير صفى الدين ابن شكر.

(165) العمري: المصدر السابق جـ 11 ص 271.

(166) المقرئ: الخطط جـ 2، ص 371. ومن أشهر من درس بها علي بن الأنجب بن المفضل اللخمي المقدسي ت 611 هـ، انظر: العمري: مسالك الأبصار، جـ 6، ص 197، 199. ابن خلكان: المصدر السابق، جـ 3، ص 291، 292.

يوسف بن عبد الله بن علي صفى الدين شكر، ت 632 هـ انظر: الصفدي: المصدر السابق جـ 29، ص 103، أبو أحمد بن أبي بكر بن مسافر المالكي الشهير بابن زيتون قاضي الجماعة بتونس. انظر: ابن فرحون: المصدر السابق، ص 99.

(167) ابن فرحون: المصدر السابق، ص 143.

(168) المقرئ: الخطط، جـ 2، ص 81.

(169) نفسه، جـ 2، ص 278.

(170) النعمي: المصدر السابق، جـ 2، ص 296، ابن كثير: المصدر السابق، جـ 13، ص 14.

(171) العيني: المصدر السابق، جـ 19، ورقة 329، ابن كثير: المصدر السابق، جـ 13، ص 57.

(172) أبو شامة: الذيل، ص 86، المقرئ: السلوك، جـ 1، قسم 1، ص 180.

ولم يقتصر اهتمام الوزير على الجامع الأموي فقد شرع في شوال من عام 607هـ / 1211م، في عمارة المصلى بظاهر دمشق، وجعل له أبواباً صوناً له، وجعل في قبلته محراباً ومنبراً من حجارة وبني فوق ذلك قبة ثم عمل به في عام 613 هـ / 1216 م رواقين وعمل له منبراً من خشب، ورتب له خطيباً وإماماً راتبين⁽¹⁷³⁾. وكان أول من باشر الخطبة هو الصدر معيد الفلكية، وكل ذلك برعاية الصاحب صفي الدين ابن شكر⁽¹⁷⁴⁾.

وفي نفس الشهر بدئ في إصلاح الفوارة والشاذروان⁽¹⁷⁵⁾ والبركة عند جيرون، وعمل عندها مسجداً، وعين له صفي الدين إماماً راتباً، وهو الشيخ نفيس الدين المصري الملقب ببوق الجامع لقوة صوته⁽¹⁷⁶⁾. كما عمر ابن شكر جامع حَرَسْتا وجامع الوِزَّة بدمشق⁽¹⁷⁷⁾. وبالجملة فقد أثنى عليه كثير من العلماء "بالبر والإيثار والتفقد للعلماء والصلحاء"⁽¹⁷⁸⁾.

وقد أشاد بعمارته للمساجد في دمشق الشاعر ابن نبيه المصري فقال :

لا تقنطن إذا ما حَالَةٌ عَسَرَتْ وكن بصلاحها مستوثق الأمل
كانت بجيرون أوساخ فحين شكت أغاثها ربها بالصاحب ابن علي⁽¹⁷⁹⁾

(173) راتبان : دائمان .

(174) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص 57 ، النويري : نهاية الأرب ، جـ 29 ، ص 52 .

الدمشقي : المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 323 .

(175) الشاذروان : حوض ينساب إليه الماء من صنوبر ويقام لتزيين الحدائق والقصور وفي المساجد

للوضوء، انظر : أحمد عيسى ، معجم مصطلحات الفن الإسلامي، اسطنبول ، 1988 ، ص 65 .

(176) النويري : المصدر السابق ، جـ 29 ، ص 52 ، 53 .

الدمشقي : المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 323 .

(177) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 17 ، ص 176 ، الدمشقي : المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 337 .

العيني : المصدر السابق ، جـ 20 ، ورقة 22 .

(178) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ 22 ، ص 294 .

بينما يلوم ابن جبير على صفي الدين ابن شكر عنايته بمصر والشام وأخذ المكوس من الناس في الحجاز فقال في الشكوى منه :

وما نال الحجاز بكم صلاحاً ولكن نالته مصر والشام

انظر : الرحلة ، ليدن : 1907 ، ص 14 .

(179) ديوانه ، ص 426 .

وزارة ابن شكر الثانية : 615 - 622 هـ / 1218 - 1225م :

تولى الكامل سلطنة مصر - بعد وفاة الملك العادل - في ظروف حرجية . فقد كان يواجه الحملة الصليبية الخامسة⁽¹⁸⁰⁾ على دمياط ، وأمام المشكلات التي واجهته⁽¹⁸¹⁾ كتب إلى صفى الدين ابن شكر يستدعيه إلى مصر⁽¹⁸²⁾ .

خرج ابن شكر من آمد فقدم دمشق في عام 615هـ / 1218م⁽¹⁸³⁾ "ونزل بظاهرها بيت دانس في دار المؤيد العقرباني" فأقام بها أيامًا ثم توجه إلى مصر ، وأثناء إقامته ببيت دانس قرأ بهاء الدين ابن أبي اليسر بين يديه مقامة جليلة في مدحه من إنشاء الشيخ أبي الحسن البخاري سماها "محاورة الفقهاء ومحاضرة العلماء في أوحـد الكبراء وسيد الوزراء"⁽¹⁸⁴⁾ .

تلقى الملك الكامل صفى الدين ابن شكر بالترحيب والإكرام فقد خرج إلى لقائه بنفسه بالمنزلة العادلية⁽¹⁸⁵⁾ . وشرح الكامل لابن شكر ما أهمه من محاربة الفرنج وتآمر

(180) حملة حنا دي برين على دمياط عام 615هـ / 1218م . عن هذه الحملة انظر : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ط 3 ، القاهرة ، 1976م ، ج 2 ، ص 923 - 941 .

(181) واجه الملك الكامل مؤامرة دبرها الأمير الكردي عماد الدين بن المشطوب لخلعه واستبداله بأخيه الأصغر "الفائز" حتى يتسنى له - معه - السيطرة على الحكم لصغر سنه وقد عمل ابن المشطوب على استمالة أمراء الملك الكامل إلى أخيه الفائز . كما واجه الملك الكامل أيضًا تمرد العربان وإغارتهم على القرى ونهبها ، انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج 6 ، ص 230 ، 231 .

(182) المقرئزي : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 597 ، وذكر أن الضرورة هي التي دفعت الكامل إلى ذلك بعدما كان يعاديه في أيام أبيه ، انظر : نفسه ص 598 .

(183) اختلف في عام قدومه من المشرق ف قيل 615 هـ ، وقيل كان بعد عام 615 هـ ، انظر : أبو شامة : الذيل ، ص 114 ، وذكره البعض في عام 617 هـ ، انظر : ابن العميد : المصدر السابق ، ص 11 ، 12 .

(184) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص 114 ، ابن الجوزي : مرآة الزمان ج 8 قسم 2 ص 598 .

(185) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 11 ، المقرئزي : المقفى ج 4 ، ص 598 .

المنزلة العادلية : العادلية من القرى القديمة أسسها الملك العادل أبو بكر بن أيوب عام 614 هـ ليتخذها قاعدة يواجه منها الفرنج عندما نزلوا دمياط في هذه السنة ، وهي في التقسيم الإداري الحالي تابعة لمحافظة دمياط ، انظر : الخطط ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط لندن ، 2002م ، ج 1 ، ص ص 586 ، 587 ، حاشية 3 .

الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب⁽¹⁸⁶⁾ عليه فضلاً عن ثورات العربان "فثبته وقوى قلبه". ثم فوض إليه السلطان الكامل الوزارة في ذي القعدة من نفس العام⁽¹⁸⁷⁾، فتكفل له الوزير بتحصيل الأموال وتبدير الأمور⁽¹⁸⁸⁾.

بدأ الصاحب صفى الدين في مصادرة أرباب الأموال من الكتاب والتجار والأكابر وقرر على الأملاك أموالاً⁽¹⁸⁹⁾، وأخذ من الناس إيجار شهرين على أملاكهم⁽¹⁹⁰⁾، وقرر التبرع على الأملاك وهو مال جُبي من الناس⁽¹⁹¹⁾، وفرض الضرائب على دواب الركوب والحمل "والصوانع والمغانى ومعلمي المكاتب وغيرهم"⁽¹⁹²⁾ وقبض جوالي أهل الذمة لسنة قادمة قبل أن يأتي مواعدها⁽¹⁹³⁾. وشدد ابن شكر العقوبات على جماعة من الكتاب مسلمين ونصارى ويهود وطالبهم بالأموال وامتلات الحبوس بهم حتى تلفت أعضاء بعضهم من شدة العقوبة.

ويُطلّ العمل بالوكالات والفنادق ورسم أن لا يباع شيء إلا بدار وكالة السلطان التي بدار الملك وتكون السمسرة للسلطان⁽¹⁹⁴⁾.

وأتت هذه الإجراءات بالثمرة المرجوة منها، وجمع الوزير أموالاً جمة أرسلها إلى السلطان⁽¹⁹⁵⁾.

(186) عماد الدين أحمد بن المشطوب: الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب كان من أجَلّ الأمراء الأكابر عرف بعلو الهمة والحرمة الوافرة، لما مات أبوه أقطعه السلطان صلاح الدين ثلثي نابلس وكانت أقطاعاً لأبيه، انظر: المقرئزي: السلوك، جـ، قسم 1، ص 196.

(187) المقرئزي: المقفى، جـ 4، ص 598.

(188) ابن العميد: المصدر السابق، ص 11، المقرئزي: السلوك، جـ 1، قسم 1، ص 196.

(189) المقرئزي: المقفى جـ 4، ص 598، النويري: المصدر السابق، جـ 29، ص 92.

(190) الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ 7، الدرر المطلوب في ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة، 1972، ص 207. ابن المقفع جـ 4 قسم 1 ص 153، 154، 182.

(191) المقرئزي: السلوك جـ 1 قسم 1 ص 205، العيني: المصدر السابق، ورقة 380.

(192) النويري: المصدر السابق جـ 29، ص 92.

(193) ابن المقفع: المصدر السابق، جـ 4، قسم 1، ص 155.

(194) نفسه، ص 181 - 183.

(195) المقرئزي: السلوك، جـ 1، قسم 1، ص 205، المقرئزي: المقفى، جـ 4، ص 598.

واستشار السلطان وزيره في الأمراء الذين ساندوا ابن المشطوب "فاتفق الرأي على نفي الأمراء المذكورين من البلاد"⁽¹⁹⁶⁾.

وتولى الوزير صاحب مهمة تبادل الأسرى مع الفرنج في سنة 618 هـ / 1221 م فدخل في البحر وأطلق من كان بمصر من أسرى الفرنج بينما أطلق الفرنج أسرى المسلمين من بلادهم⁽¹⁹⁷⁾.

وتمكن ابن شكر من السلطان الملك الكامل وعظمت مكانته حتى أن السلطان كان ينزل من قلعة الجبل ويجلس معه بمنظرته على الخليج ليشاوره في مهمات الدولة⁽¹⁹⁸⁾.
وبعث السلطان الكامل ابنه إلى داره ليزوره في يوم العيد "فقاما على رأسه وهو جالس" فأنشده الزكي القوصي :

لو لم تقم في الله حق قيامه ما كنت تقعد والملوك قيام⁽¹⁹⁹⁾

وملأت مهابة صفي الدين في وزارته الثانية الصدور "وانقاد له على الرغم والرضا الجمهور"⁽²⁰⁰⁾.

واتسمت وزارة صفي الدين الثانية بالقسوة والعنف رغم ما مر به من أحداث ، كانت كافية لتغييره ، منها موت أخيه ، و وفاة أولاده ، وضعف بصره⁽²⁰¹⁾ ، إلا أنه أظهر جلدًا عظيمًا فكان لا يستكين للنوائب ولا يخضع للنكبات⁽²⁰²⁾.

(196) ابن العميد : المصدر السابق ، ص 12 ، المقرئ : السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 212 .

(197) المقرئ : نفسه ، ج 1 ، ص 209 .

(198) المقرئ : المقرئ ، ج 4 ، ص 598 ، السلوك ، ج 1 ، قسم 1 ، ص 212 . ابن العميد : المصدر السابق ، ص 12 .

عبر صاحب تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية عن زيادة تمكنه في دولة الكامل فقال : "كان الأمر كله في يديه" وفي موضع آخر ذكر أن صاحب ابن شكر كان هو الحاكم "في الأمور مستقلاً" . انظر ص 223 ، 224 .

(199) المقرئ : الخطط ، ج 2 ، ص 272 .

(200) المقرئ : المقرئ ، ج 4 ، ص 598 .

(201) الصفدي : المصدر السابق ، ج 17 ، ص 176 .

(202) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 .

وقطع في وزارته الأرزاق وكانت جملتها أربعمئة ألف دينار في السنة⁽²⁰³⁾. وأوقع بكبار المصريين وأرباب البيوت حتى استأصلهم "وأذل عزيزهم وأفقر غنيهم ومحا آثارهم"⁽²⁰⁴⁾.

وتسارع إلى بابه أصحاب الحاجات والمطامع وكل من خشي بطشه فكانوا يقفون ببابه وتمتلي بهم الطرقات فلا يعبا بهم الوزير بل كان يهينهم "ولا يحفل بشيخ منهم ولا عالم"⁽²⁰⁵⁾.

وباشر الوزارة بسطوة وجبروت وكان قويًا على نفسه فقد عرض له إسهال (دوسنطاريا) وتمكن المرض منه ، حتى يئس الأطباء من شفائه وأشرف على الموت ، وعندئذ استدعى عشرة من وجوه الكتاب - كانوا في حبسه - وقال لهم : "أنتم في راحة وأنا في الألم كلا والله لا يكون ذلك!" ، وأمر بهم فعُصروا⁽²⁰⁶⁾ ونوع عليهم العذاب فصاروا يصرخون طول الليل من شدة العقوبة بينما هو يصرخ مما به من مرض حتى الصباح ، فلم يمض غير ثلاثة أيام حتى زال ما به من مرض وعاد أقوى مما كان⁽²⁰⁷⁾.

(203) المقرزي : الخطط ، ج 2 ، قسم 1 ، ص 273 .

(204) المقرزي : المقفى ، ج 4 ص 599 ، المقرزي : السلوك ج 1 قسم 1 ، ص 219 .

(205) المقرزي : الخطط ، ج 2 ، ص 372 ، المقرزي : المقفى ، ج 4 ، ص 599 .

يقول عنه أبو شامة إنه "كان خليفًا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله وكان متواضعًا يحب الفقراء يسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب ويكرم الفقهاء ويحترمهم" ، انظر : ذيل الروشتين ص 115 ، ابن كثير : المصدر السابق ج 13 ص 81 . ولا نلمس مما سبق أنه كان متواضعًا ، وما ذكره أبو شامة غير دقيق ويتنافى الحقيقة .

(206) عقوبة العصر : من وسائل التعذيب وتكون بألة تسمى المعصرة ، وهي تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما يوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ثم تشد الخشبتيان شدًا وثيقًا حتى يؤدي ذلك - في كثير من الأحيان - إلى كسر العظم المعصور بين الخشبتيين . انظر : السلوك ، ج 1 ، ص 740 ، حاشية 3 .

(207) الصفدي : المصدر السابق ، ج 17 ، ص 177 . المقرزي : المقفى ، ج 4 ، ص 599 ، المقرزي : الخطط ، ج 2 ، ص 373 .

هكذا يستمد ابن شكر قوته من تعذيب أعدائه بلا جريرة سوى أنه لا يريد أن يتألم وحده وهو ما يعكس قبح شخصيته .

وأصيب بحمى قوية فصار يرتعد وهو جالس في مجلس السلطان ينفذ الأشغال ولم يتأثر "ولا ألقى جنبه إلى الأرض" واستمر في عمله⁽²⁰⁸⁾.

وفي مرضه بالحمى كتب له ابن النبيه المصري فقال :

تَبَا لِحِمَاكَ الَّتِي كَسَتْ فُؤَادِي وَهَهَا
هَل سَأَلْتُكَ حَاجَةً فَأَنْتَ تَهْتَزُّ لَهَا⁽²⁰⁹⁾

فكانت جائزة هذين البيتين استخدامه على ديوان أوقاف الجامع المعمور بدمشق بجرابة وافرة⁽²¹⁰⁾.

وزادت هيبة ابن شكر ، حتى كان رؤساء الناس يقفون على بابه من نصف الليل إلى الصبح ومعهم المشاعل والشموع ، فإذا جاء الصبح خرج ابن شكر وتعمد ألا يراهم ولا يرونه لأنه كان إما أن يرفع رأسه إلى السماء وإما إن يعرج إلى طريق غير طريقهم التي هم بها ، أو أن يأمر جنداريته⁽²¹¹⁾ بضرب الناس وطردهم من طريقه غير مكترث بمكانة من يقفون على بابه⁽²¹²⁾ ، وكان بعضهم يضطر إلى معاودة الوقوف مرة أخرى "خوفاً من الهلاك وسلب المال واستئصال الأهل والأولاد"⁽²¹³⁾.

وغضب الشاعر شرف الدين ابن عنين من سوء معاملة ابن شكر للناس فقال :

ضَاعَ شِعْرِي وَقَلَّ فِي النَّاسِ قَدْرِي مِنْ وَقُوفِي بِبَابِ اللَّئِيمِ ابْنَ شُكْرٍ

(208) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 ، المقرئ : المقفى ، ص 601 . الصفدي : المصدر السابق ، ج 17 ، ص 176 . الكتبي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 550 .
(209) ديوانه ص 418 .

(210) الصفدي : المصدر السابق ج 1 ، ص 286 ، قال عنه المقرئ : كان "إذا لحظ إنساناً لا يقنع له إلا بكثرة الغنى ونهاية الرفعة" انظر : المقفى الكبير ج 4 ، ص 601 .

(211) الجنادرية : جمع جنادر وهو حارس السلطان : انظر : المقرئ : المقفى ، ج 4 ، ص 601 حاشية 4 .

(212) الذهبي : تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 .

(213) المقرئ : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 601 ، المقرئ : الخطط ، ج 2 ، ص 373 .

وقال فيه أيضًا :

ونعمة جاءت إلى سفلة أبطره الإثراء لما ثرا
فالناس من بغضٍ له كلما مرّ عليهم لعنوا شاورا
تبا مصر ولها دولة ما رفعت في الناس إلا خرا⁽²¹⁴⁾

أما أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة (الملقب بمجد الملك) فتمنى أن يأتي اليوم الذي تنطلق فيه الألسنة في ابن شكر بلا خوف ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

مدحتك ألسنة الأنعام مخافة وتشاهدت لك بالشئ الأحسن
أترى الزمان مؤخرًا في مدتي حتى أعيش إلى انطلاق الألسن⁽²¹⁵⁾

وكان للوزير ابن شكر بواب اسمه سالم استغل عمله لدى الوزير وأخذ من الناس أموالاً كثيرة ليصرف لهم أمورهم لدى الوزير ، ومع ذلك كان يهينهم إهانة بالغة وكان عليه للمصاحب في كل يوم خمسة دنانير "ديناران برسم الفقاع وثلاثة دنانير برسم الحلوى فضلاً عن كسوة غلمانه ونفقاته" وقد جمع هذا الرجل ثروة كبيرة حتى أنه اقتنى عقاراً وضياعاً وأملاكاً⁽²¹⁶⁾.

ومن رجال الدولة الذين تعرضوا لإيذاء ابن شكر في وزارته الثانية الأشرف حمزة بن علي بن عثمان المخزومي من كتاب الدواوين⁽²¹⁷⁾ ، فلقد خشي منه الوزير ابن شكر على وزارته فناصره العداوة وأهانته وآذاه ففر منه إلى حلب حيث أكرمه الظاهر غازي "ورتب له معلوماً".

(214) ديوانه ، ص 241 .

(215) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 362 ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ص 177 .

(216) المقرئزي : الخطط ، ج 2 ، ص 373 ، المقرئزي : المقفى الكبير ، ج 4 ، ص 602 . الذهبي :

تاريخ الإسلام ، مجلد 13 ، ص 708 .

(217) لبني عثمان شهرة في كتابة الدواوين السلطانية ، تولى حمزة الديوان أيام صلاح الدين وكان كاتباً

سديداً بليغاً ، انظر : الصفدي : المصدر السابق ، ج 13 ، ص 110 ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص 291 .

ثم عاد بعد ذلك إلى مصر في وزارته الثانية فأكرمه ابن شكر "وزال ما كان في نفسه منه" ثم إنه حضر مجلساً للوزير صفى الدين فوق نزاع وكلام فصاح عليه ابن شكر فمات فجأة في ذي الحجة عام 615 هـ / 1219م وأشهد الوزير جماعة من الناس على موته خوفاً من أن ينسب إليه أنه تسبب في ذلك⁽²¹⁸⁾.

وهناك الحسن بن أحمد بن أبي الحسن الديباجي الكاتب⁽²¹⁹⁾، وكان الملك الكامل يعتمد عليه في مهمات الأمور لسداد رأيه وعقله ونباهته فحسده الوزير ابن شكر على مكانته ودس له من سقاه السم فمات بدمشق عام 617 هـ / 1220م⁽²²⁰⁾.

ابن شكر في كتابات شعراء عصره :

كان صفى الدين ابن شكر مجزلاً في جوائز الشعراء⁽²²¹⁾، ولهذا أقبل عليه شعراء عصره ونظموا القصائد البديعة في مدحه ، من هؤلاء ابن الساعاتي ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه المصري ، وابن عنين وغيرهم.

وقد صورته هؤلاء الشعراء عظيمًا في دينه :

قال ابن سناء الملك :

وإفاك شهر الصوم يا أوفى الورى أجراً بأيمن طائر وبأسعد

(218) ابن العديم : بغية الطلب جـ 6 ص 2948 - ص 2951 ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة ص 291 وذكر أن وفاته عام 616 هـ ، الصفدي : المصدر السابق جـ 13 ص 110 .

كرر ابن شكر معه ما فعله مع ابن ممتي فأظهر له غير ما يبطن حتى إذا أمن له أظهر له العداء ولهذا لا نشك في أن ابن شكر كان وراء موته.

(219) اشتغل بالأدب والكتابة والشعر وكتب في ديوان الإنشاء للملك الكامل الأيوبي وحظي عنده واعتمد عليه في أمر دولته وكان ذا رأي ونباهة ، وتوجه رسولاً إلى الشرق . مات بدمشق عام 617 هـ ، انظر : ابن العديم : المصدر السابق ، جـ 5 ، ص 2289 .

(220) نفسه جـ 5 ، ص 2288 ، 2289 .

(221) العمري : المصدر السابق ، جـ 11 ، ص 306 .

وفاك مُشتاقًا لما عَوَّدَتْهُ
من قُرْبَةٍ وتلاوة وتهجُّدٍ
ما زلت فيه وفي سواه صائِيًا
وقال ابن النبيه المصري :

هو الإمام الذي لولا هدايته
تخبر الناس في قول وفي عمل⁽²²³⁾
وقال ابن عنين :

فما رأينا إمامًا قبل رؤيته
يرى القوافل فرضًا فِعْلُهَا يَجِبُ⁽²²⁴⁾

يدبر الدولة بسديد رأيه :

قال ابن سناء الملك :

الوزير الذي به نهض الملك

وبآرائه احتمت فهو إما

وقال :

شُدَّتْ عُرَى الملك بآرائه
وزيد منه قوَّةٌ في قُوَاهِ

وقال ابن عنين :

فاستقرت قواعدُ الملكِ وازدا

وغدا رأيه أحدُ سلاح

قوة بأسه وعظيم سطوته :

قال ابن سناء الملك :

أنت الذي قهر المما

لك كلها بأسًا وحزمًا⁽²²⁷⁾

(222) ديوانه ص 79 .

(223) ديوانه ص 426 .

(224) ديوانه ص 47 .

(225) ديوانه ص 170 .

(226) ديوانه ص 51 .

(227) ديوانه ص 301 .

وقال ابن النبيه :

قل لرائيه قل أعود برب النداس هذا الوزير رب الناس⁽²²⁸⁾

جوده وكرمه :

قال ابن سناء الملك :

أكرم الخلق لا يرى أندى من يمين الغمام إلا يساره⁽²²⁹⁾

وقال ابن النبيه :

بلدة حلها الوزير فمرعاها خصيب والناس في أعراس⁽²³⁰⁾

وقال ابن عنين :

له أياد مقيمات مسافرة لم يخل من برها عجم ولا عرب⁽²³¹⁾

وقال شرف الدين بن أرسلان :

صفى بصفى الدين كل مكدر من العيش والأيام ضاحكة زهر⁽²³²⁾

ولهذا إذا سافر يشتاق إليه :

قال ابن سناء الملك :

أشكو إليك الشوق فهو الذي لناره بين ضلوعي وقيد⁽²³³⁾

وقال ابن النبيه :

ولي عهد البدر إن غاب فإني منتظر⁽²³⁴⁾

(228) ديوانه ص 404 .

(229) ديوانه ص 171 .

(230) ديوانه ص 406 .

(231) ديوانه ص 46 .

(232) الصفدي : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص 295 .

(233) ديوانه ، ص 67 .

(234) ديوانه ، ص 423 .

وقال العماد بن السلمي :

سقى الله ساعات أخذنا اجتماعنا بها من يد الأيام أخذ سارق
وحي دياراً إن تزرها تجد بها طبيباً لأسقام وطيباً لعاشق⁽²³⁵⁾

وقال ابن الساعاتي :

لدعتني نار الفراق ونار الـ سحب والبين ما لها من خمود⁽²³⁶⁾

وقال :

وقل له إن الفراق موقف لولا صفى الدين ما شاق وشق⁽²³⁷⁾

وليس له نظير في عظمته ومجده :

قال ابن سناء الملك :

مجلس عبد الله ذاك الذي ترى ملوك الأرض فيه عبيد⁽²³⁸⁾

وقال :

جاورته الملوك تلمس العزَّ لَمَّا رَأَوْهُ قَدْ عَزَّ جَارُهُ⁽²³⁹⁾

وقال :

إذا ما ادعى الأقوام مجداً فمجده ورائته عن سيد بعد سيد⁽²⁴⁰⁾

وقال ابن النبيه :

هَيْبَةُ تَمَلُّ الْقُلُوبَ وَشَخْصُ تَمْتَلِي مِنْهُ أَعْيُنُ الْجُلَاسِ⁽²⁴¹⁾

وقال ابن عنين :

دعيت في الدولة الغراء صاحبها حقاً وظن جهولاً أنه لقب

(235) ابن سعيد : النجوم الزاهرة ، ص 294.

(236) ، (237) ديوان ابن الساعاتي ، ص 245 ، 244.

(238) ديوانه ، ص 65.

(239) ، (240) ديوانه ، ص 170 ، 82.

(241) ديوانه ص 407 .

ألبستها مجدك الضافي فبات لها ذيل على منكب الجوزاء ينسحب⁽²⁴²⁾

وقال شرف الدين ابن أرسلان :

علوت فأصحاب العمائم كلهم نجوم وأنت الشمس والقمر والبدر⁽²⁴³⁾

منصور على أعدائه :

قال ابن سناء الملك :

ومظفر العزمات منصور على الأعداء مقدم الجنان مؤيد⁽²⁴⁴⁾

وقال :

فالمعادي له يهان ويهوي وعلى وجهه يكب ويكبو⁽²⁴⁵⁾

وقال ابن عنين :

لئن العطف للموالي ويلقى منه أهل العناد خصماً الداء
فهو مثل الحسام في حالته لئن صفحة وقاس حداً⁽²⁴⁶⁾

وفاته عام 622 هـ / 1225 م :

ولم يزل ابن شكر على عليائه وارتفاع مكانته، وكان قد كف بصره "فأظهر جلدًا عظيمًا وعدم استكانة"⁽²⁴⁷⁾.

(242) ديوانه ص 48 .

(243) الصفيدي : المصدر السابق ، جـ 13 ، ص 295 ، النعيمي : المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 620 .

(244) ، (245) ديوانه ، ص 79 ، 42 .

(246) ديوانه ص 51 .

(247) المقرئزي : المقفى ، جـ 4 ، ص 600 . وصفه العمري بأنه أقوى من الصخرة وأشد من الحديد

وأن قلبه حديد وبأسه من بؤسه شديد ، انظر : المصدر السابق ، جـ 11 ، ص 305 .

فكان يحضر مجالس السلطان ويباشر الديوان "بحيث لم يظهر عليه العمى"⁽²⁴⁸⁾. وإذا حضر إليه الأمراء والأعيان وجلسوا على خِوانه⁽²⁴⁹⁾ يقول: "قدموا اللون الفلاني للأمير فلان واللون الفلاني للصدر فلان ولون كذا للقاضي فلان ويبنى أموره في معرفة مكان المشار إليه برموز ومقدمات فيمشي هذا منه على الناس ولا يفتن بعماء"⁽²⁵⁰⁾.

إلا أن بعضهم نبه السلطان لعماء وتجلده حباً لدوام الرئاسة فاندesh الملك الكامل لأنه لم يتغير من حاله شيء فطلبوا منه أن يختبره ليتحقق من عماء، فغير السلطان مقعده الذي اعتاد أن يجلس به ثم طلبه، فأتى على عادته وجلس في مكانه الذي كان يجلس فيه بين يدي السلطان فقال له السلطان: "ما أنا هناك قم إلى فقام لا يعرف كيف يمشي حتى أخذ بيده من حضر" ثم طلب منه السلطان أن يكتب له بعض الأشياء وكانت مطولة فلم يستطع فتحقق السلطان مما قيل عنه وسأله: "ما حملك على ما صابرت نفسك عليه؟ فقال: حباً لقرب السلطان"⁽²⁵¹⁾.

ظل ابن شكر على هيئته ومكانته حتى مات يوم الجمعة 8 شعبان عام 622هـ / 1225م ودفن برباطه الذي أنشأه بالقاهرة بالقرب من مدرسته⁽²⁵²⁾، وكانت جنازته عظيمة شهدها كل من حضر من المدينتين القاهرة ومصر، وسير السلطان أولاده وأقاربه ليصلوا عليه.

وبعد وفاته بعام قبض السلطان الملك الكامل على أولاد الصاحب وغلماؤه وعاقبهم بالتعذيب والعصر وطلبهم بالأموال⁽²⁵³⁾، واعتقل تاج الدين وعز الدين ولديه في قاعة

(248) العمري: نفسه، ص 306.

(249) خوانه: الخوان ما يؤكل عليه والجمع أخونة، انظر: المعجم الوجيز، ص 215.

(250) المقرئ: المصدر السابق، ج 4، ص 600.

(251) العمري: المصدر السابق، ص 306، 307.

(252) ابن المقفع: المصدر السابق، ص 231.

(253) نفسه، ص 233، 234.

سهم الدين بدرب الأسواني بالقاهرة⁽²⁵⁴⁾، حتى اضطروا إلى أن يبيعوا أملاكهم ويوردوها للسلطان⁽²⁵⁵⁾، واستخرج منهم الكامل: "ما كان أكله أبوهم ... ووجدوا بعض ما عملوا"⁽²⁵⁶⁾.

وقد كتب زكي الدين القوسي قصيدة في الصاحب تاج الدين يوسف ابن الصاحب صفى الدين لما نكب بعد موت أبيه جاء فيها:

أسفي وهل يُجدي عليك تأسفي حكم الزمان عليك حكم تعسفي

وقال:

فلا جرين على ربوعك أدمعي ولأضر منَّ عليك نار تلهفي
فأنا الوفي لدى زمان غادر لا ذاق برد أمانة من لا يفي
شاركت يوسف في اسمه وبلائه ستنال بعد السجن رتبة يوسف⁽²⁵⁷⁾

وفي نفس العام بعث الخليفة الظاهر بالله العباسي الخلع والتقليد إلى السلطان الكامل وأولاده وخلعة للوزير صفى الدين ابن شكر، فأمر السلطان أن يلبسها القاضي فخر الدين سليمان بن محمود الدمشقي كاتب الإنشاء⁽²⁵⁸⁾.

ثم أنعم السلطان في عام 626 هـ / 1229م بجميع أملاك ورباع وحمم صفى الدين ابن شكر إلى الأمير عز الدين أيدير المعظمي⁽²⁵⁹⁾.

هكذا انتهت حياة هذا الوزير الذي ولي فملاً الأرض جوراً وظلماً، ومارس الاستبداد والقسوة على الرعية، فقتل ونفى وعاقب وصادر، حسب ما أملاه عليه هواه.

(254) ابن العميد: المصدر السابق، ص 13.

(255) ابن المقفع: المصدر السابق، ص 236، المقرئ: السلوك جـ 1، ص 220.

(256) ابن نظيف الحموي: المصدر السابق، جـ 1، ص 114.

(257) الصفدي: المصدر السابق، جـ 18، ص ص 184، 185.

(258) ابن العميد: المصدر السابق، ص ص 13، 14، المقرئ: السلوك جـ 1، ص ص 219، 220.

يدل ذلك على استمرار مكانته في بلاط الخلافة العباسية.

(259) ابن العميد: المصدر السابق، ص 16، المقرئ: المصدر السابق، ص 243.

وعلى الرغم من نشأته الصالحة وتفقهه في الدين وتحصيله للعلم ، إلا أنه "لم يسمع بوزير من المتعممين (الفقهاء والعلماء) كان أظلم منه" (260).

وما لجعل الولاة ليزلوا الناس أو يأخذوا أموالهم غصباً ولكن ليسوسوهم بالعدل وبما أنزل الله (261).

ولا نستطيع أن نفهم الظروف التي مكنت هذا الوزير من الاقتراب من السلطان إلى حد السيطرة عليه ، حتى صار يتصرف في دولته من تلقاء نفسه ، دون محاسبة ، ولا نجد إلا براعته في الحصول على الأموال من الرعية ، وتديرها للسلطان متى احتاج إليها دون النظر إلى الوسائل البشعة التي انتهجها الوزير لا بتزاز رعيته .

لقد لقي ابن شكر نفس الجزاء فصادره السلطان بعد وفاته وعاقب أولاده ونسي له كل ما فعله من أجل توفير الأموال لخزائنه ، فما فعله مع الناس عاقبه الله به ، قال تعالى :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (262).

(260) النويري : المصدر السابق جـ 29 ، ص 130 .

(261) إبراهيم الإياري : قيام دولة ، القاهرة 1977 م ، ص 63 .

(262) سورة إبراهيم : الآية 51 .

ملحق رقم (1)

كتاب من الصاحب صفى الدين ابن شكر إلى الملك المنصور
صاحب حماة أثناء حصاره لقلعة بعرين سنة 599 هـ

كن كيف شئت من العباد فأنت من قلبي قريب

عرض المملوك كتاب المولى على السلطان - خلد الله ملكه - وقد كتب إلى الملك
الظاهر والملك الأمجد والملك المجاهد - عز نصرهم - بتسيير عساكرهم إليه وورودها
عليه وإعانتته على جهاده ومرابطته والانقياد إلى آرائه وطاعته ، فجزاه الله عن الإسلام ما
جزاه ، فقد أوتي من الفضل ، ما لم يؤت أحد سواه وقد قام بأمر الجهاد لما قعد عنه عداه ،
وقد اقتنى الأجرين وحاز الشكرين ، وقام بالحقين وأدى ما يجب عليه من الغرضين
فشكره مخلص في صحائف الإمام ، وحمده تنطق به ألسنة الأقلام وقد أهل له في الآخرة عن
هذا السعي المشكور دار السلام⁽²⁶³⁾.

(263) ابن الفرات : المصدر السابق ، ج4 ، قسم 2 ، ص 251 .

ملحق رقم (2)

خطاب من صفى الدين إلى الملك المنصور صاحب حماة
يهنئه بولادة الملك المظفر تقي الدين عام 599 هـ

"نهني مولانا بالولد السعيد الميمونة غرته المبارك طلعتة ، العظيمة موهبته المشكورة
من الله منته ، الطاهرة عترته ، ولد يتحلى به أجياد الزمان وتهدى بقدومه والأعيان
فتشرف الآفاق بمقدمه كما تشرف الدهر بفضل والده وكريم شيمه وكل مولود عقيقته ،
وهذا المولود يعتق عنه الرقاب المسترقات" (264).

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المخطوطات :

العيني : بدر الدين محمود العيني (ت 855 هـ) :

- 1- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، جـ 19 ، جـ 20 مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 1584 تاريخ.

ثانياً - المصادر المطبوعة :

- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين بن العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس (ت 668 هـ).
- 1- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، صححه امرؤ القيس الطحان ، المطبعة الوهية 1882 م.
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت 874 هـ).
- 2- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ 6 ، دار الكتب المصرية القاهرة 1935 - 1956 م.
- ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغي الشهير بسبط بن الجوزي (ت 654 هـ).
- 3- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، جـ 8 ، قسم 2 ، ط 1 الهند 1952.
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت 681 هـ).
- 4- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، 8 أجزاء ، تحقيق إحسان عباس ، ط بيروت ، 1968 م.
- ابن الساعاتي : بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم بن هردوز الخراساني (ت 604 هـ).
- 5- ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق أنيس المقدسي ، بيروت 1938 .
- ابن سعيد : علي بن موسى (ت 673 هـ) .
- 6- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، تحقيق حسين نصار ، ط دار الكتب القاهرة 2000 م.
- 7- المغرب في حلى المغرب ، تحقيق زكي محمد حسن وآخرين ، جـ 1 من القسم الخاص بمصر ، القاهرة 1953 م.
- ابن سناء الملك : هبة الله بن جعفر (ت 680 هـ).
- 8- ديوان ابن سناء الملك جـ 2 ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، القاهرة 1969 م.
- ابن عبد الظاهر : محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر المصري (ت 692 هـ).

9- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ط أولى، القاهرة ، 1996م.

ابن العديم : كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جراد (ت 660 هـ).

10- بغية الطلب في تاريخ حلب 12 جزءاً ، تحقيق سهيل زكار .

ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي (ت 1089 هـ).

11- شذرات الذهب في أخبار من ذهب 10 أجزاء ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق ، 1406 هـ.

ابن العميد : المكين جرجس ابن العميد (ت 672 هـ).

12- أخبار الأيوبيين ، القاهرة ، د . ت .

ابن عنين : شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر الدمشقي (630 هـ).

13- ديوان ابن عنين ، نشر خليل مردم بك ، دمشق 1946م.

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت 807 هـ).

14- تاريخ ابن الفرات / المجلد الرابع ج 2 ، المجلد الخامس ط 1 ، نشر حسن محمد الشجاع ، البصرة ، 1967 م - 1970 م.

ابن فرحون : برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون المالكي .

15- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، ط أولى ، القاهرة 1351 هـ.

ابن قاضي شعبة : أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شعبة (851 هـ).

16- طبقات الشافعية ، تحقيق الحافظ عبد العليم خان ، بيروت 1407 هـ.

ابن كثير : إسماعيل بن كثير القرشي أبو الفدا (ت 774 هـ) .

17- البداية والنهاية ، ج 13 ، ط بيروت ، د . ت .

ابن المقفع : ساويرس بن المقفع أسقف الأشموين .

18- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة ، المجلد الثالث ج 2 ، نشره أنطون خاطر و د. أزولد بورمستر ، القاهرة 1970م.

وأيضاً : تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين ج 3 مجلد 2 و ج 4 مجلد 1 ، تحقيق عبد العزيز جمال الدين ، القاهرة ، 2006م.

ابن النبيه المصري : كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت 619 هـ).

19- ديوان ابن النبيه المصري ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، القاهرة ، ط أولى ، 1969م.

ابن نظيف الحموي : أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي .

- 20- التاريخ المنصوري ، تحقيق أبو العبد دودو ، دمشق ، 1981م.
- أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة (ت 665هـ).
- 21- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزآن ، تحقيق : إبراهيم الزبيق ، بيروت 1997 م.
- 22- ذيل الروضتين تعريف محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1947م.
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ).
- 23- العبر في خبر من غير ، 5 أجزاء ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجد ، الكويت ، 1984م.
- 24- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، مجلد 13 ، تحقيق بشار عواد معروف ، بيروت 2003 م.
- 25- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، بيروت 1413هـ.
- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ).
- 26- الوافي بالوفيات ، 29 جزءاً ، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى ، ط بيروت ، 2000م.
- العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749هـ).
- 27- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج 11 الوزراء والكتاب ، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين ، الإمارات ، 2004م.
- القفطي : الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت 624هـ).
- 28- إنباه الرواة على أنباه النحاة ، ج 1 ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1986م.
- الكتبي : محمد بن شاكر أحمد الكتبي (ت 764هـ).
- 29- فوات الوفيات ، جزآن ، تحقيق : علي محمد بن يعوض الله ، عادل أحمد عبد الموجود ، بيروت ، 2000م.
- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت 845هـ).
- 30- كتاب المقفى الكبير ج 4 ، تحقيق محمد اليعلاوي ، ط بيروت 1991م.
- 31- السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج 1 قسم 1 ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، 1939م.
- 32- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزآن ، ط 1 القاهرة 1987م.
- المنذري : زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (656هـ).

- 33- التكملة لوفيات النقلة ، مجلد 3 تحقيق د . بشار عواد معروف ، ط بيروت 1988م .
 النعمي : عبد القادر بن محمد النعمي الدمشقي (ت 927هـ).
 34- الدارس في تاريخ المدارس ، نشره جعفر الحسني جـ 1 ، جـ 2 ، دمشق 1948 م - 1951م .
 النوري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النوري (ت 733هـ) .
 35- نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : د . محمد ضياء الدين الريس ، جـ 29 ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1992 .
 ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ).
 36- معجم البلدان 5 أجزاء ، بيروت 1990م .
 37- معجم الأدباء ، تحقيق د . إحسان عباس ، جـ 2 بيروت 1993 .

ثالثاً - المراجع :

- 1- خير الدين الزركلي ، الأعلام ، جـ 4 ط ثانية ، القاهرة ، 1959م .
 2- محمود محمد الحويري : العادل الأيوبي ، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ، القاهرة : 1979م .

oboiikan.com

مراسم الدفن والعزاء عند سلاطين الماليك
(في الفترة 684 - 923هـ / 1250 - 1517م)

د/ صرفت عثمان حسن

مدرس بكلية التربية - جامعة عين شمس

oboiikan.com

مراسم الدفن والعزاء عند سلاطين المماليك

(في الفترة 684 - 923هـ / 1250 - 1517م)

توطئة :

يعد عصر سلاطين المماليك من أزهى عصور تاريخنا القومي، وما زالت آثاره المادية - إن لم تكن الروحية - شاخصة بين أعيننا إلى اليوم ؛ فالدولة المملوكية التي عاشت قرابة قرنين من الزمان (648-923هـ / 1250-1517م) تعد من أغنى الدول بسلاطينها وحكامها الأقوياء أمثال بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وغيرهم، فقد لعبت تلك الدولة دورًا مهمًا في التاريخ بوجه عام وفي التاريخ الإسلامي بوجه خاص ؛ وذلك لأعمالهم الجليلة الرائعة التي تشهد مكانتهم الخالدة إلى الآن.

ومع كل هذا نجد أن المكتبة العربية ما زالت تخلو من المؤلفات الحديثة التي تبحث عن كيفية موت هؤلاء السلاطين ومراسم دفنهم وعزائهم، وذلك على الرغم مما امتاز به هذا العصر من كثرة المصادر والمراجع التي تبحث في كل شيء.

وعلى الرغم من تلك المكانة الرائعة لسلاطين دولة المماليك إلا أننا نجد على الجانب الآخر أن هناك من مات بعد أن قتل بوحشية، ومن مات بعد أن مرض مرضًا شديدًا ، ومما هو جدير بالملاحظة أن عادات ومراسم الدفن اختلفت من سلطان لآخر على حسب الموقف الذي يعيش فيه السلطان والوقت الذي يقضيه في الحكم ثم يقتل أو يموت بعد أن يصاب بمرض قوى، ونظرًا لظروف دولة المماليك التي كان المبدأ السائد

بها أن الحكم للأقوى ولمن غلب، فنجد الكثير ممن قُتِلَ من هؤلاء السلاطين، ولم يكن لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء، وسوف نجد العديد من الأمثلة على ذلك في الصفحات القادمة.

فقد يأتي الموت الذي قدره الله - تعالى - على العباد⁽¹⁾ فجأة دون أن تكون له أي مقدمات ، وقد تكون له مقدمات منها المرض العضال الذي يُتَأَلَّمُ منه تألماً شديداً، وكان هناك من يموت دون أن يصاب بالمرض فالقتل هو المصير المحتوم بالنسبة إلى السلاطين. هذا وسوف يقسم هذا البحث إلى قسمين ؛ قسم يتضمن سلاطين المماليك الذين قُتِلُوا ولم يُقَمْ لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء، وقسم يتضمن سلاطين المماليك الذين مرضوا وماتوا وأقيمت مراسم لدفنه وعزائهم.

أولاً: سلاطين المماليك الذين قُتِلُوا :

إذا تتبعنا من قُتِلَ من عصر دولة المماليك من السلاطين ولم تُقَمْ لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء فسوف نجدهم الكثير والكثير وذلك في العصرين المملوكي البحري والجركسي ، ففي عهد دولة المماليك البحرية والجركسية نجد أنه قتل عدد كبير من سلاطين المماليك ومعظمهم - إن لم يكن جميعهم - عومل معاملة قاسية عند القتل فكان السلطان يترك بدون تغسيل أو تكفين بعد مرور أكثر من ثلاثة أيام مثلما حدث مع السلطان قطز الذي اغتيل في بداية عهد دولة المماليك البحرية وهو صاحب العزيمة الفاضلة والصادقة والذي له الفضل الأول في تدعيم الدولة المملوكية، وإرساء قواعدها سواء في النواحي الداخلية أو الخارجية⁽²⁾ وقد قتل السلطان المملوكي

(1) سعيد سيد أحمد أبو زيد، عادات المسلمين الأندلسيين، حولة التاريخ الإسلامي الوسيط، المجلد الرابع ، القاهرة سنة 2004-2005م، مصر ، ص 51.

(2) د. أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، القاهرة 1988م الجامعة سنة 1988م، ص 172.

المظفر قطز⁽³⁾ حين رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أزرق روحه⁽⁴⁾ وعندما قتل السلطان ظل مُلقًى في الخلاء بالقرب من القصير⁽⁵⁾ وهو المنزلة التي بالقرب من

(3) السيوطي: الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان السيوطي ت 97هـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه: خليل المنصور، مج 2، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص 60، عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، ط 3، الرياض، سنة 1410هـ/ سنة 1989م، ص 37، نور الدين خليل، سيف الدين قطز قاهر المغول (الماليك المفترى عليهم)، ص 156، نور الدين خليل، الظاهر بيبرس رعب الصليبيين (الماليك المفترى عليهم)، ص 60، محمد أحمد موسي هياجنه، محاضرات في تاريخ المغول، الماليك، مكتبة الحرمين، بدون تاريخ، إربد، ص 78، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين الماليك التاريخ السياسي، الاجتماعي، ط 1، القاهرة، سنة 1998م، ص 78، قاسم عبد قاسم، علي السيد علي، الأيوبيون والماليك، ط 2 القاهرة، سنة 1996م، ص 148، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المالكي في مصر والشام، ص 39، السير وليم موير، تاريخ دولة الماليك في مصر والشام، ط 1، دار العربية، القاهرة سنة 1965م، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، ط 1 سنة 1995م، ص 45 ط 1.

M.M ziada, The Mameluk sultans to 1293, pp746:747 Dr: Syeda satima sadeque M. A, PhD., Baybars I of Egypt, oxford university press, Pakistan, first Edition 1956, p16. William Muir, the Mamluk or slave Dynasty of Egypt, Amsterdam, oriental press, 1968, p11.

(4) قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والماليك، القاهرة، 2003م، ص 208.

(5) القلقشندي: أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: د. يوسف علي طويل، جد 3، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق سنة 1987م، ص 498، القصير: هو بلد بمصر بطريق الرمل، بينه وبين الصالحية مرحلة، راجع: المقرئ: تقي الدين أحمد بن المقرئ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، جد 1، ق 2، مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة 1943م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة 1914م، ص 371، أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ط 1 بالمطبعة الحسينية المصرية سنة 1325م، ص 144، اليوناني: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليوناني، ذيل مرآة الزمان، مج 2، ط 1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن، الهند سنة 1375هـ/ 1955م، ص 1، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ الماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، ط 3، سنة 1967، ص 45.

الصالحية⁽⁶⁾ وعندما عثر عليه بعض خدامه مُلقًى في العراء أخذه ودفنه في المكان الذي قُتل فيه «القصير»⁽⁷⁾.

هذا وتتوالى الأحداث لنجد أن السلطان الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ظل مُلقًى بالعراء هو الآخر دون أن يدفن لمدة يومين أو ثلاثة أيام وتفاصيل ذلك⁽⁸⁾ أنه قد قُتل عام 693هـ / 1293م، بالبلد المعروف

(6) ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأنابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة 1355هـ / 1936م، جـ7، ص86، المقرئ تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ3، ص387، مكتبة الآداب، الصنفدي: الحسن بن أبي محمد، عبد الله الهاشمي العباسي، نزهة المالك والملوك في مختصر من ولي مصر من الملوك، مخطوطة المتحف البريطاني رقم 23662، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط1 سنة 1434هـ / سنة 2003م، ص150، العسقلاني المصري، كتاب الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص80.

(7) ذكر ابن إياس أن السلطان قطز قتل عام ثمان وخمسين وستة ودفن بالقرب من القرين، راجع: ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى، جـ1، ق1، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1 ببولاق سنة 1311هـ، ص308، هذا وقد ذكر ابن تغري بردي في مقتل قطز: "بقي بالعراء، فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير وكان قبره يقصد للزيارة دائماً... راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص86، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، مكتبة النهضة المصرية، ص45، هذا وقد قيل إن قطز نُحِل بعد ذلك إلى القاهرة فُدُن بالقرب من زاوية الشيخ التقي قبل أن تعمّر، نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة، ودفن قريباً من زاوية ابن عبود، راجع: النجوم الزاهرة، جـ7، ص ص 85-86.

(8) العماد الحنبلي: المؤرخ الفقيه الأديب عبد الحي العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ3، عنت بنشره مكتبة القدس سنة 1350م، ص422، حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، تقديم د. محمد مصطفى زيادة، الدار القومية للطباعة والنشر سنة 1966م، ص14، بدر الدين العيني، السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة من خلال مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: إيمان عمر شكري، ط1، القاهرة سنة 2002م، ص29. www.coptichistory.org.

بتروجه⁽⁹⁾ من جهة البحيرة من الديار المصرية، وقيل إنه قُتل غدراً وهو يصطاد⁽¹⁰⁾ قتله أمراء المماليك⁽¹¹⁾ بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بمصر⁽¹²⁾ ولاجين نائب دمشق، وقراسنقر نائب حلب⁽¹³⁾ وتركوه على الأرض⁽¹⁴⁾ وبقي الأشرف ملقى في المكان الذي قتل به يومين في الفضاء على ظهره⁽¹⁵⁾ وحيداً ثم ذهبوا وتركوه، وللمصادفة رآه الأمير عز

(9) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص375، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص21، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص77، www.coptichistory.org، تروجه من البلاد المصرية القديمة المتدثرة، ومكانها اليوم كوم تروجه بأراضي ناحية زاوية صقر بمرکز أبو المطامير بمحافظة البحيرة، راجع: محمد رمزي، القاموس الجغرافي، القسم الأول، ص190، ابن الجيعان: يحمي ابن شاكر بن الجيعان، كتابه التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، تحقيق: برنهارد مورتيس، القاهرة سنة 1898م، الطبعة الأهلية سنة 1992م، ص124، أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص29.

(10) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص273، الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ص169. (11) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، صص43-44، المقرئ، الخطط، ج3، ص388، مكتبة الآداب، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص127.

(12) اليافعي: الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن سليمان اليافعي اليميني المكي سنة 768هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، دون تاريخ، ج4، ص166.

(13) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ج3 (547 إلى 700هـ)، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص378، ابن كثير: الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي سنة 774هـ البداية والنهاية في التاريخ، ج13، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة 1358هـ، ص140.

(14) ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبى في أيام المنصور وبنه، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، راجعه وقدم له د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ج1، مطبعة دار الكتب سنة 1976، ص167، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص374، ابن أبي الفضائل (مفضل): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص568.

Text Arabe Publiee et traduit en francais par E. blochet. Patrologia Orientalis t.xiv. fasc. 3, paris, 1911, 1930.

(15) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص30، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص374، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص106.

الدين أيدمر الفخري والي تروجه، عرياناً بادي العورة⁽¹⁶⁾ فأخذه وحمله على جمل إلى دار الولاية بالقاهرة، وغسله في الحمام وكفنه⁽¹⁷⁾ ثم صلوا عليه بعد ذلك⁽¹⁸⁾ وجعله في بيت المال بدار الولاية، إلى أن حضر الأمير سعد الدين كوجيا الناصري فأخذه وحمله في تابوته الذي كان فيه، ودفنه في تربته

(16) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج2، القاهرة، سنة 1966م، ص182.
(17) تكفين الميت فرض كفاية على من حضره من المسلمين وفرضيته ثابتة بالسنة وإجماع الأمة، فقد أمر النبي (ﷺ) به وفعله الصحابة والتابعون من بعدهم ويكون التكفين بعد الغسل مباشرة ويُكفنه أقرب الناس إليه وأحفظهم لستره، والحكمة في تكفين الميت ستره عن الأعين وتكريمه ميتاً مثلما يكون ستره وتكريمه حياً، لمزيد من التفاصيل عن تكفين الميت: راجع: ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، ج3، ص241، ص246، محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، ج1، ص386.

www.imadislam.com & www.saaaid.net, www.janazh.com &
www.ibntaimiah.alislam.com.

(18) الصلاة على الجنازة وأركانها وسننها: فشروطها سبعة وهي طهارة الحدث وطهارة الخبث وستر العورة واستقبال القبلة وترك الكلام وترك الأفعال الكثيرة والنية، وأركانها أربعة تكبيرات والدعاء والتسليم والقيام والقدر، وسننها ستة، الأولى رفع اليدين في التكبير الأولى، والثانية الحمد والثناء على الله تعالى والصلاة على النبي (ﷺ) والثالثة الدعاء للمؤمنين والمؤمنات، والرابعة التيامن بالسلام وإخفاؤه، الخامسة أن تكون في جماعة، السادسة أن يوضع الميت بين يدي المصلي ورأسه إلى جهة المغرب وموضع قيام المصلي وسط الرجل والمرأة عند منكبيها على مذهب مالك رحمه الله تعالى، راجع: ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، ج3، ص252، وقد كانت صلاة الجنازة على السلاطين تتم في القلعة أو عند باب القلعة بها ثم ينزلون من سلم باب المدرج وتتوجه الجنازة بعد ذلك إلى التربة المعدة لدفن كل سلطان سواء بالقرافة أم بالقاهرة نفسها. راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص105، ج15، ص453، ج16، ص157، ص222، ص306، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص175-176، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص188-192-300-303-367، ج3، ص334.

بالقربة⁽¹⁹⁾ بالقرب من المشهد النفيسي بمصر⁽²⁰⁾، هذا والشيء الذي يجب الانتباه إليه هنا هو أن الأشرف خليل بن قلاوون من السلاطين الذين لم تُقَمَّ لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء⁽²¹⁾.

ومن مظاهر الحزن على قتل السلطان الأشرف خليل أن جواري الملك الأشرف وأولاده وحواشيه كانوا قد لبسوا ملابس الحداد السوداء، هذا إلى جانب ما ذكره المقرئزي عنهن قائلاً: "وتذرعن السخام"⁽²²⁾ وطفن في الشوارع يبيكين ومعهن النواحات⁽²³⁾ يقمن المآتم، فلم يُرَ بمصر أشنع من تلك

(19) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص790، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، صص 24-25، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط1، دار النهضة العربية القاهرة سنة 1965م، ص103 هذا ونوضح أن لفظ التربة إنما يقصد به المقبرة أو المدفن ذو القبة وذلك خلال العصر الأيوبي وبداية عصر المماليك، ولم يكن هذا المعنى قاصراً على مصر وحدودها في تلك الفترة وإنما عرف أيضاً في العمارة الأيوبية في سوريا، راجع: عادل نجم عبود، التربي في العمارة الأيوبية في سوريا، مجلة سومر، ج1، ج2، مج30 سنة 1973، صص 273-280.

(20) في بدائع الزهور وخطط المقرئزي، الانتصار أن دفنه كان بمدرسته (المدرسة الأشرفية) بالقاهرة بالقرب من مزار السيدة نفيسة، وقبره لا يزال موجوداً تحت قبة المدرسة المذكورة والمعروفة إلى اليوم. راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص21، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص375. (21) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص103، هذا يتنافى مع ما ذكره صاحب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، ج1، ط2، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد - الهند، سنة 1972م، ص412.

(22) السخام هو الفحم الأسود، فيكون المعنى أن الجواري قد أكثرن من تلطيخ أذرعهن بتلك المادة السوداء، وفي لسان العرب تزرع الشخص الكلام أو السخام أكثر منه وأفرط فيه والأسد المذرع على ذراعيه دم فريسته، راجع: المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص796.

(23) الميت يتأذى بنوح أهله عليه مطلقاً قال ذلك طائفة من العلماء وما يبيح المصيبة من إنشاء الشعر والوعظ فمن النائحة، راجع ابن تيمية، مجموع من الفتاوى الكبرى للإمام ابن تيمية مرتباً على الأبواب الفقهية ومخرج الأحاديث على مسند الإمام أحمد، إعداد: سعيد محمد اللحام، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر سنة 1993م، ص84 وقال - رَحِمَهُ اللهُ - النائحة ومن حولها في النار، راجع: ابن الأخوة، كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1976، ص106.

الأيام"⁽²⁴⁾، ويتضح لنا من كلام المقرئ أن ملابس الحداد كان لونها أسوداً إلى جانب البكاء والنواح، بالإضافة إلى دهان أجسامهم بل تلطيخها بالسخام، ويبدو أن هذا هو الشائع عند كل ماتم.

يا لها من فترة تاريخية حرجة توحى بضرورة التوقف للتبصر وإمعان النظر فيما يحدث فيها من كثرة القتل والموت الذي كان يحدث، فعندما تتتابع الأحداث وتتوالى نجد العديد ممن قُتل من السلاطين الذين تركوا في العراء دون غُسل أو دفن لمدة ثلاثة أيام أو أكثر فقد قُتل السلطان الناصر أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي وجد مقتولاً بالكرك⁽²⁵⁾ وقيل إن الذي قتله هم المماليك الأشرفية، قتلوه وتركوه ميتاً وغلقوا الأبواب عليه وتركوه ومضوا⁽²⁶⁾ وعندما انتشر خبر وفاة السلطان الناصر أحمد بدأوا في تجهيزه وفي عمل مراسم الدفن⁽²⁷⁾ من تغسيل وتكفين، وبالفعل جُهِز السلطان فغُسل وكُفن وصلوا عليه صلاة الجنازة ونزلوا به من باب الدرفيل ودفن بالقرافة

(24) المقرئ، السلوك، ج1، ق3، ص796.

(25) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص398-399، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، صص 71-93، أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسين بن حمزة الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ، تحقيق: حسام الدين القدسي، ج1 دار الكتب العلمية، بيروت، ص290، إن فكرة ذبح المغول لسكان المدن التي تقاومهم وسلب جميع أموالهم هذه تقاليد القبائل البربرية الرحل التي لا مقر لها ولا مسكن يؤويها.

-Blochet: Introduction a l'histoire des Mongols de fadlallah Rashid Ed- Din, pp216-217. حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي آثاره السياسية والدينية، والاقتصادية)، دار الفكر العربي القاهرة سنة 1949م، ص220.

(26) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، صص 398-399.

(27) الدفن هو الستر والموارة، دفنه دفناً وأدفنه فاندفن وتدفن فهو مدفون ودفين، والدفن والدفين: المدفون والجمع أدفان ودفناء، والدفن جمع دفين وهو الشيء المدفون وأرض دفن مدفونة، والجمع أيضاً دفن. راجع: ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ج13، دار صادر، بيروت سنة 1985م، ص155.

الصغرى⁽²⁸⁾ والواقع أنه لم يُقَمَّ له عزاء⁽²⁹⁾، وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك من قُتل من السلاطين ورمي على المذبلة مثلما حدث مع كلٍّ من السلطان المنصور حسام الدين لاجين المنصوري والسلطان الناصر فرج بن برقوق، فتتوالى أحداث العنف والقتل في العصر المملوكي لنجد ما حدث في عام (698هـ/ 1298) عندما قُتل السلطان الملك

(28) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص ص398-399.

(29) شمس الدين الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية بربارة شيفر، ج2، ق1، النص العربى يُطلب من دار النشر فراتر شتاير- فيسبادن سنة 1978م، ص274، العزاء في اللغة الصبر، والتعزية: التصبير والتسلية والمواساة بالكلام الحكيم والمواظ على البليغة وهي مستحبة لما فيها من التعاون والتراحم والثواب العظيم والتعزية تكون لجميع أهل الميت صغاراً وكباراً ذكوراً وإناثاً ولو كانوا من أهل الذمة (اليهود والنصارى)، وتؤدى بأي لفظ مناسب للمقام فالحكيم من عرف مواطن الكلام، والبليغ من يراعى مقتضى الأحوال والطبيب الماهر هو الذي يشخص الداء ويعرف الدواء، فالكلام الذي يقال للكبير ربما لا يصح أن يقال للصغير، والمهم في التعزية أن تخفف هول المصائب وتجعله يرجع إلى الله ويسلم أمره إليه، ويحتسب أجره عليه: راجع: محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح ج1، ص435، ومن أمثلة ما يقال في التعزية أيضاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وإن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودرجاً من كل ما فات فبالله فتقوا وإياه فارجو فإن المصاب من حرم الثواب. راجع: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، ج2، ط1، دار الجبل، بيروت سنة 1992م، ص ص313-314-316، الزهري: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الذهبي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ج1، ص363، ج2، ص ص259-275-289، ط1، دار صادر، بيروت، ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت سنة 1992م، ص38، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ج7، ط1، سنة 1988، ص3285.

المنصور حسام الدين لاجين المنصوري⁽³⁰⁾ قتله كرجي⁽³¹⁾ بالاتفاق مع طغجي⁽³²⁾ وقيل إنه عندما قتل رموه على مزبلة⁽³³⁾ ولم تذكر المصادر والمراجع شيئاً عن تجهيزه من غسل

(30) بيبرس المنصوري، كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهرسه د.

عبد الحميد صالح حمدان، ط1، القاهرة سنة 1987، الدار المصرية اللبنانية، ص154، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص53، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص289، العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيهان شكري، ص34، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص115.

William Muir, the Mameluk or Slave Dynasty, pp51-52.

(31) كرجي: عبد الله الأمير سيف الدين مقدم المماليك البرجية، وهو الذي قتل حسام الدين لاجين

فقتله أعوان المنصور لاجين، راجع: ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1956، وهناك محقق آخر وهو د. محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب سنة 1993م، العيني: بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه:

د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة 1990م، حوادث سنة 698هـ ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبیه في أيام المنصور وبنیه، حققه د. محمد محمد أمين، راجعه وقدم له د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة 1976م، ص212، ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص3، ابن أبي الفضائل، السنج السديد، ص612، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص39، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص19.

(32) طغجي أو طغجي: عبد الله الأشرفي الأمير سيف الدين، كان أميراً في دولة العادل كتبغا، ووافق

على قتل السلطان حسام الدين لاجين ثم تولى نيابة السلطنة أربعة أيام ثم قتله أعوان المنصور لاجين. راجع: ابن حبيب، تذكرة النبیه، ج1، ص212، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص3، بيبرس المنصوري، كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص154.

(33) المقرئزي، السلوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، منشورات بيبزون، ص306، حوادث سنة

698هـ وقتل لاجين بينما كان يتأهب لصلاة العشاء، وقد أسهب مفضل بن أبي الفضائل، السنج السديد، ص612، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص101-102، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص137-138 في وصف مقتل السلطان لاجين ومنه يتضح أنه قتل بواسطة النمنجة وهي عبارة عن خنجر قوس يشبه السيف الصغير، المقرئزي السلوك، ج1، ص857، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص78.

وتكفين، فدفن بترتبه بالقرافة بجانب تربة العادل كتبغا، ومن الطريف ما ذكر عن أولاد كتبغا عندما كانوا يأتون إلى قبره ويضربونه بالنعال ويسبونونه، وظلوا على ذلك مدة حتى ينتقموا لأنفسهم بذلك⁽³⁴⁾.

والشيء الواضح والمفهوم مما سبق أنه من المحتمل أن السلطان المنصور لاجين لم يُقَمَّ له عزاء لأنه كان مكروهاً ولا أحد يحبه بدليل ما فعله أولاد كتبغا كما سبق أن ذكرنا، هذا وقد ذهب لقتال الناصر فرج رجلان من المشاعلية فعندما رأهم الناصر فرج قام إليهم فرحاً وعرف فيم جاءوا ودافع عن نفسه وضرب أحد الرجلين بالدورة بسرعة ثم قام الرجل هو ورفيقه ومشيا إليه وبأيديهم السكاكين وما زالا يضربانه بالسكاكين المذكورة وهو يعاركهما وليس عنده ما يدفع عن نفسه به حتى صرعاه بعدما أثخنا جراحه في خمس مواضع من بدنه وتقدم إليه بعض صبيان المشاعلية فخنقه وقام عليه فتحرك الملك الناصر فعاد إليه وخنقه ثانياً حتى قوي عنده أنه مات فتحرك فعاد إليه ثالثاً وخنقه وسلب ما عليه من ثياب ثم سحب برجليه حتى ألقي على مزبلة مرتفعة من الأرض تحت السماء وهو عاري البدن تستر سراويله عورته وبعض فخذه وعيناه مفتوحتان والناس تمر به ما بين أمير وفقير ومملوك وحر وقد صرف الله قلوبهم عن دفنه ومواراته وبقيت العامة والعبيد والأوباش تعبت بلحيته وبدنه واستمر على المزبلة المذكورة طوال نهار السبت المذكور، فلما كان الليل من ليلة الأحد حمله بعض أهل دمشق وغسله وكفنه ودفنه بمقبرة باب الفرديس احتساباً لله تعالى بموضع يعرف بمرج الدحداح ولم تكن جنازته مشهودة ولا عرف من تولى غسله وقد كانت وفاة الناصر فرج بن برقوق⁽³⁵⁾ (815هـ/ 1412م) بشعة بل شنيعة⁽³⁶⁾ وذكر في موضع آخر عن قتله أيضاً أنه عندما سجن بالبرج بقلعة

(34) المقرئزي، السلوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، منشورات بوضون، ص 306، مفضل ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص 612، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 1، ص ص 101-102، ابن اياس، بدائع الزهور، ج 1، ص ص 137-138.

(35) ابن تغري بردي، مورد الطاقة، ج 2، ص 131.

(36) إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة 1960م، ص 30، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 162.

دمشق، أخذ الناس يتحدثون في ذلك، وخشي (خاف) جماعة كبيرة من (حاشية) أخصاء الملك الناصر منه، ومن هؤلاء الذين خشوا منه بكتمر جلق، ومنهم فتح الله كاتب السر وقاضي قضاة الحنفية ابن العديم، فتأمروا وسعوا في قتله بسرعة، فأرسلوا له أربعة من الفداوية⁽³⁷⁾ فقتلوه بالخنجر وهو في البرج بقلعة دمشق فأصبح الناس يتحدثون بذلك، ولكن هناك جماعة من الناس كانت تشك في قتله، والذي حدث أن الناس أخرجوه من البرج، ورموه على مزبلة خارج المدينة وهو عريان مكشوف⁽³⁸⁾ الرأس وليس عليه غير اللباس في وسطه، وعندما وجده الناس كذلك صاروا يأتون إليه أفواجا ينظرون إليه ويعبثون بلحيته⁽³⁹⁾ فأقام على ذلك ثلاثة أيام لم يدفن، ولو أتيت الفرصة للماليك أبيه أن يحرقوه بالنار لفعلوا ذلك مما قاسوا وعانوا منه... وظل الناصر فرج بن برقوق ملقى فوق المزبلة⁽⁴⁰⁾ ثلاثة أيام لم يدفن، ولكن نجد أن بعض الناس (الصالحين) أتوا إليه في الليل وحملوه إلى مكان حتى غسلوه وكفنوه ودفنوه بمقبرة مرج الدحداح بباب الفراديس⁽⁴¹⁾.

وسبب ما حدث للناصر فرج بن برقوق أنه كان سلطاناً مكروهاً وغير محبوب فلم نر أو نسمع أو نشهد له مراسم للعزاء أو للدفن⁽⁴²⁾ أي أن جنازته - كما ذكر صاحب النجوم الزاهرة - لم تكن مشهودة ولا عرف من تولى غسله ومواراته⁽⁴³⁾ وأيا كانت الروايات

(37) وقيل إنه قتل على يد جماعة من المشاعلية وهم الذين يحملون مشعلاً يقاد بالنار بين يدي الأمراء ليلاً. راجع: ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، هامش 12، ص131، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص148.

(38) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص148.

(39) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص148.

(40) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص148، إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص30، راسم رشدي، مصر والشراكسة، ص61.

(41) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص148، إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص30.

(42) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص819.

(43) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص148.

فيمكن التعليق على ما حدث للناصر فرج بن برقوق من طريقة قتله وإلقائه فوق المزیلة أنه يدل على عدم مراعاة حرمة السلطان (الملك) حتى إنهم لم يراعوا حقوق تولية الملك الظاهر برقوق عليهم حتى لو أن الناصر فرج قد أساء التصرف مع الممالك، ونحن نعلم أن إكرام الميت دفنه وكان من الأفضل بعد قتل الناصر فرج ستر جسده ومواراته وما يتطلب من تجهيز الميت من تغسيل وتكفين كما تم مع من سبقه من الملوك والسلاطين، ولم تراعى له حرمة أو أنه كان في يوم ما من السلاطين والملوك وأنه ابن سلطان أحسن إلى رعيته، هذا وكان يجب مراعاة السلطنة وناموس الملك مطلوب من كل واحد والملوك لهم غيرة على الملوك ولو كان بينهم العداوة والخصومة، هكذا كانت تنتهي حياة الملوك بكل سهولة ولم تراعى لها حرمة، ومن المثير للدهشة أن الأخ يأمر بقتل أخيه وهذا حدث عندما قبض على الملك الكامل زين الدين شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون (747هـ/ 1346-1347م) وحُبس في الدهيشة ثلاثة أيام، وعندما تسلطن المظفر حاجي أمر بخنق أخيه الملك شعبان فَخُيَّقَ بالليل، وعندما مات لم تذكر المصادر والمراجع شيئاً عن غسله وتكفينه ولا عزائه، وإنما ذكرت فقط أنه لما مات دُفِنَ على والده أي بتربة والده الناصر محمد بن قلاوون داخل القبة التي بين القصرين⁽⁴⁴⁾، ومن العجيب أنه في عام (748هـ/ 1348م)، قبض الأمير بيبغاوروس على السلطان المظفر حاجي وتوجه به وهو سائر إلى تربة عند الباب المحروق فخنقه⁽⁴⁵⁾ في تلك التربة ودفنه ولم يشعر به أحد من الناس وانتهى أمره، وكان قد أمضى في السلطنة سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً⁽⁴⁶⁾ هكذا قتل الملك المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون⁽⁴⁷⁾.

والشيء الجدير بالذكر هنا هو أن المصادر والمراجع التاريخية لم تذكر لنا شيئاً عن مراسم الدفن والعزاء للسلاطين السابق ذكرهم، فقد ماتوا بطريقة بشعة سواء من مات مقتولاً أم مخنوقاً.

(44) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص512.

(45) ذكر المقرئ في خطه أنه دُبح، راجع: المقرئ، الخطط، ج3، ص39 مكتبة الآداب.

(46) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص518، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص174.

(47) ذيل تذكرة الحفاظ، ج1، ص38.

ومن الأحداث السابقة نجد أنه بعد قتل الأخ لأخيه خنقاً يموت القاتل بنفس الطريقة التي قتل بها أخاه ، وهذا من أعظم العبر والمواعظ التي يجب أن يعيها الإنسان.

ومن السلاطين الذين قتلوا ولم يعثر لهم على جثة ولا قبر السلطان الناصر حسن فتذكر المصادر التاريخية أنه في عام (762هـ/1360م)⁽⁴⁸⁾ قبض بليغ على السلطان الناصر حسن وحبسه ثم خنقه وقتله⁽⁴⁹⁾ ورمى جثته في البحر⁽⁵⁰⁾ وقيل إن بليغاً عاقبه أشد العقوبة حتى مات تحت العقوبة، ودفنه في مصطبة التي كان يركب عليها بداره التي بالكبش، وقيل في موضع آخر إنه دفن في بعض الكيمان بمصر وأخفى قبره عن الناس⁽⁵¹⁾ حتى أنه لم يدفن في مدرسته التي أنشأها بسوق الخيل⁽⁵²⁾.

ويتضح مما سبق أن السلطان الناصر حسن لم يُغسل أو يُكفن ولم يُقم له عزاء أو حتى جنازة⁽⁵³⁾ كسلطان عظيم وكبير من سلاطين المماليك البحرية، وقد قُتل قِلة بشعة لا تليق

(48) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص502.

(49) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص ص93-94، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص128، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص32.

(50) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص112.

(51) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص112.

(52) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص577.

(53) جن ز: الجنازة بالكسر واحدة الجنائز والعمامة تفتحها، ومعناه الميت على السرير، فإذا لم يكن عليه الميت فهو سرير ونعش، قلت: هذا مناقض لما ذكره من تفسير النعش في نعش، راجع: محمد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، ج1، بيروت سنة 1415هـ/سنة1995م، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة جديدة، ص48، وجنازة الميت تتم بعد أن يجهر من حيث غسله وتكفينه والصلاة عليه، تبدأ جنازته في طريقها إلى المقابر لدفن جثثانه، وكان هذا الجنان يحمل في نعش كما تسميه المصادر العربية، وكان هذا النعش يصنع من الخشب، راجع: المقرئ، نفح الطيب، ج4، ص334، قيل سميت جنازة لأن الثياب تجمع والرجل على السرير وجنوزوا أي جمعوا، راجع: ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي (ت458هـ/1065م)، المخصص ج6، ط1، بولاق، القاهرة سنة 1900م، ص132، ابن منظور: =

به كسلطان له هيئته بين سلاطين المماليك ، من المرجح أن هذه القسوة والوحشية تأثر بها المماليك من المغول، فمن يدرس تاريخهم ويقرأ ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء ليرى بحق أنهم بعيدون كل البعد عن الشهامة والإنسانية⁽⁵⁴⁾، فحكم المغول يمثل مرحلة مهمة من مراحل التاريخ خاصة مرحلة تاريخ أبناء هولاكو، فقد ارتبطت هذه الفترة ارتباطاً وثيقاً بأحداث الشرق الإسلامي، فبالرغم من فترة حافلة بحوادث الفرع والعرب والدسائس والمؤامرات والخسنة والدناءة والغدر والخيانة، فقد ذكر أنه لما خرب المشرق والعراق بهجوم عساكر التتر منذ عهد جنكيز خان إلى مقتل المستعصم ببغداد سنة 656هـ كثر قدوم المشاركة إلى مصر فقد كانت الفرصة مهيأة لأن تظهر مؤثرات مغولية على المماليك أثناء علاقاتهم الحربية العدائية.⁽⁵⁵⁾

= جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ت711هـ/ 1311، لسان العرب، ج7، سلسلة تراثنا، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، ص189، ابن مفتاح: أبو الحسن عبد الله (ت877هـ/ 1472م)، شرح الأزهاري، ج1، القاهرة سنة 1938م، ص399، إبراهيم بن يوسف البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، مخطوطة بدار الكتب القومية، تحت رقم 1172، فقه حنفي ميكرو فيلم 38286، ص2.

-www.al-zad.net, www.alzaidyah.hasanonline.com.

(54) فؤاد عبد المعطي الصياد والشرق الإسلامي في عهد الأيلخانين (أسرة هولاكو خان)، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية جامعة قطر، سنة 1407هـ سنة 1987م، ص15، موضوع العلاقات بين المماليك والمغول موضوع واسع ومتشعب وشائك في آن واحد، جرى التعرض له من المصادر القديمة سواء أكانت عربية أم فارسية بلغتها الأصلية أم المعربة، مثلاً: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: د. عبد العزيز الخويطر، الرياض سنة 1396 هـ/ سنة 1976م، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. مراد كامل، القاهرة سنة 1961م، ابن حبيب: تذكرة النبي في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: د. محمد أمين، القاهرة 1976، 1982، 1986، المقريزي، الخطوط، طبعة بولاق، ج2، صص 220-221.

-Bar Hebraeus, the chronography, trans. from. v.riac by wallis Budge, London, 1932.

- The Wafidiya in the mamluk kingdom, no ii in studies on the mamluks of Egypt 1250-1517. London, 1977

صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية (658-783هـ/ 1260-1381م)، منشأة المعارف بالإسكندرية.

(55) فؤاد عبد المعطي الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الأيلخانين، ص15.

لقد تأثر المجتمع المصري المملوكي بالعادات والتقاليد التي حملها هؤلاء بل وتأثر أيضًا بالنظم العسكرية والسياسية والقوانين التي حملوها معهم في نزوحهم إلى مصر أو جلبهم إليها في شكل رقيق من بلاد القرم⁽⁵⁶⁾، هذا وقد غصت أرض مصر والشام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم⁽⁵⁷⁾، فقد كان للمغول تأثير كبير على أمراء المماليك في طريقة قتل السلاطين، فنجد مثلاً السلطان الأشرف زين الدين أبا المعالي شعبان بن الأمد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون⁽⁵⁸⁾ الذي قُتل بطريقة غريبة ووحشية عام (778هـ / 1377م) فقد قبض عليه أمراء المماليك⁽⁵⁹⁾ وألبسوه سلاحاً ثم ستروا وجهه

(56) لا شك أن نشاط حركة جلب الرقيق من هؤلاء المغول بخاصة من بلاد القبجاق إلى مصر سواء بشكل فردي أم جماعي وانخرط هؤلاء منذ عهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي أكثر من شراء هؤلاء المماليك بعد أن تبين له فساد الخوارزمية، وذلك تمكيناً لنفسه في ولاية العهد وجعلهم بطائفة والمحيطه بدهليزه وسباهم البحرية، وهي تسمية سابقة على عصره، راجع: محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، كلية الآداب، الجامعة المصرية، مجلد رقم 4 عدد رقم 1 القاهرة سنة 1936م، ص 72، صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها، ص 3.

(57) إن سلاطين المماليك وعلى رأسهم بيبرس الأول البندقداري بوصفهم عنصرًا دخيلاً على رعاياهم في مصر والشام حرصوا أشد الحرص على الروابط التي كانت تربطهم بأصولهم العرقية من ناحية وبعضهم البعض من ناحية أخرى، وبذلك قامت دولة المماليك الأولى على أساس دعامه من عنصر المغول القبجاق أو العناصر التي عاشت في أرض القبجاق، ومن هذا العنصر نفسه كان السلاطين المؤسسون لتلك الدولة، وهؤلاء كانوا بارعين في أساليب القتال والفروسية، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 458، المقرئ، الخطط، ج 2، ص 221، صلاح الدين نوار، الطوائف المغولية في مصر، ص ص 22-23، وامتد التأثير إلى هيكل الدولة المملوكية، وتم انتشار ظاهرة الزواج من قبل مغوليات سواء كن أميرات أم جاريات من أبناء القادة أم الجند المغول من قبل السلاطين أو الأمراء.

Bertold spuler, History of the Mongols based on eastern and western accounts of the thirteenth and fourteenth centuries.

(58) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج 2، ص 106، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 145.

(59) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص 114.

بمندیل وخرجوا به من باب سعادة وصعدوا به إلى القلعة⁽⁶⁰⁾ وقتله جركس من مماليك الأتابكي ألباي اليوسفي، فأحضره بين يديه وخنقه بوتر حتى مات بعد عذاب أليم، والشيء الغريب بل والعجيب في هذه الوفاة أن جركس بعد أن قتله وضعه في قفة، وأثنى ظهره نصفين حتى كسره وخط القفة ونزل من القلعة في الليل على حمار ورماء في بئر عند باب الزغلة، وعندما رمى السلطان في البئر ظل في هذه البئر فترة طويلة فظهرت له رائحة نتنه بل كريهة⁽⁶¹⁾ ومن شدة هذه الرائحة أخرجه بعض جيران تلك الناحية ودفنوه بالكيمان التي بجانب مشهد السيدة نفيسة⁽⁶²⁾ وعندما علم أحد خدام أم السلطان خونذ بركة أحضر له تابوتًا في الليل ووضعته ثم حمله فيه، وأخذه وذهب به إلى مدرسة أمه في التبانة، وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ وَصُلِّيَ عليه، ثم حملوا نعشه⁽⁶³⁾، وَدُفِنَ في القبة التي تجاه المدرسة بجوار بيت الأمير قرقماس، والشيء الملاحظ والجدير بالانتباه هو القسوة والوحشية التي تأثر بها المماليك وأخذوها عن المغول، ومن المرجح أن طريقة قصف الظهر نصفين تأثر بها المماليك وأخذوها عن المغول والدليل على ذلك أنه عندما قبض المغول على السلطان أحمد تكوادر وحملوه إلى خصمه أرغون خان⁽⁶⁴⁾ بطريقة بعيدة عن الشهامة والنبل فقبضوا عليه (683هـ/ 1284م)⁽⁶⁵⁾ وقتلوه وقصفوا ظهره نصفين.

(60) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص ص 233-234.

(61) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص 76.

(62) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص ص 180-181، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص 76.

(63) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص 76، ن ع ش نعشه الله رفعه وبابه قطع ولا يقال أنعشه الله، وانتعش العاشر نهض من عثرته والنعش سرير الميت سمي بذلك لارتفاعه وإذا لم يكن عليه ميت فهو سرير وهذا مناهض لما سبق في تفسير الجنائز وميت منعش أي محمول على النعش، راجع: الرازي، مختار الصحاح، ج1، ص 278.

(64) Howorth, History of the Mongols, part 111, the Mongols of Persia London, 1888, Micheal prawdin, the Mongol empire, its and legacy, London, 1967.

صلاح الدين نوار، الطوائف المغولية في مصر، ص 77، ولمزيد من التفاصيل عن المغول وطريقة قتلهم، راجع: برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية الأستاذ، خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، فؤاد عبد المعطي الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ص 127-132، فؤاد عبد المعطي الصياد، =

ومن الغريب أن بعض السلاطين قتل ولم يجدوا أحدًا يصلي عليه بل إنهم اضطروا إلى أن يمسكوا بعض الفقهاء ليصلي عليه وتفاصيل ذلك:

عندما قُتل الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد عام (904هـ/ 1498م)، قتله بعض الأمراء من مماليك أبيه⁽⁶⁶⁾ وهذا السلطان مات ميتة غريبة حقًا، فهو من السلاطين الذين لم يجدوا من يصلي عليهم، عندما قتل ظلت جثته مرمية على الأرض، فعندما دخل الليل حملوه جماعة شيخ الطالبيين وأدخلوه في مسجد هناك وألقوه على حصير، فظل ليلة كاملة على تلك الحالة، وعندما جاءت الأخبار إلى القاهرة بما حدث للناصر أبو السعادات من قتله فاضطربت أحوال المدينة واضطرب أهلها، ولبس العسكر ملابس الحرب وباتوا تلك الليلة في اضطراب وخوف، وقد قُتل مع السلطان الملك الناصر أولاد عمه جانم وأخوه، وعندما علم خال السلطان قانصوة بذلك بعث ثلاثة نعوش إلى الطالبية⁽⁶⁷⁾.

فأحضروا جثة السلطان وأولاد عمه جانم وأخيه، وذهبوا بهم إلى بيت الأشرف قايتباي الذي أنشأه بالقرب من حمام الفارقاني، فغسلوا السلطان وأولاد عمه هناك، وخرجت النعوش الثلاثة ولم يكن معهم غير الحمالين فقط فأتوا بهم إلى باب الوزير فلم يجدوا من يصلي عليهم حتى إنهم أخذوا بل أمسكوا بعض الفقهاء ليصلي عليهم ثم توجهوا به إلى تربة الأشرف قايتباي، فدفنوا الملك الناصر مع أبيه داخل القبة وأولاد عمه بالقرب من السلطان⁽⁶⁸⁾.

= مؤرخ المغول الكبير (رشيد الدين فضل الله الهمذاني)، ط 1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة 1967م، ص 60-61، د. محمد أحمد موسى هياجنة، المغول والمماليك، مكتبة الحرمين والعلوم والتكنولوجيا، إربد، ص 57، فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط 1، جروس برس سنة 1995م، ص 67.

(65) فؤاد عبد المعطي الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص 127-132.

(66) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج 2، ص 142.

(67) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 2، ص 402.

(68) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 2، ص 403.

ومن الواضح أن هذا السلطان لم يقيم له عزاء بدليل أننا لم نجد أحدًا يصلي عليه إلا بصعوبة بالغة، على الرغم من أنه سلطان وله هيئته ومكانته بين الناس إلا أننا لا نجد مراسم لا للدفن ولا للعزاء، وإن فرض أن أقيم له عزاء فنحن نرجح أن لا أحد من الناس حضر هذا العزاء بدليل أننا لم نجد أحدًا صلى عليه.

أما عن الملك الأشرف أبي النصر جنبلط ، فقد بعث العادل الأشرف قانصوة الغوري من يخنقه وهو في البرج فخنق ودفن بالإسكندرية⁽⁶⁹⁾ ولم نسمع بمراسم دفن أو مراسم عزاء أقيمت له.

ومن السلاطين الذين قُتلوا ولم يُعرف أين ذهبت جثثهم وأين هو قبرهم وكأن الأرض ابتلعت جثته هو السلطان قانصوة الغوري فقد قتل في موقعة مرج دابق عام (922هـ/ 1516م) وقد قتل بطريقة غريبة ومهينة ففي تلك الموقعة عندما رأى الهزيمة تحل به هو وجيشه، أراد أن يرجع إلى حلب فلما أخذ فرسه ليهرب وينجو بنفسه أخذ يرتعش ويرتجف وأغمي عليه فسقط من على ظهر فرسه وارتدى ووقع على الأرض ففاضت روحه إلى السماء فمات في تلك الساعة وهو ملقى على الأرض، والشيء المثير للغربة أنه لم تُعرف له جثة ولم يُر له جثة ولا رأس، حتى القبر لم يُعرف له مكان، فكأنما ابتلعت الأرض جثته، ومن الغريب أنه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها قرابة مائة ألف دينار، فصار ملقى في البراري وقد تناهشته الذئاب والنمور⁽⁷⁰⁾ هذا وقد قيل إنه قتل تحت سنانك الخيل⁽⁷¹⁾.

وهناك من السلاطين من قتل شتقًا أمام جميع البشر مثلما حدث مع الملك الأشرف أبي النصر طومان باي ، فقد كانت ميته أمام جمع غفير من البشر، فقد شنع على باب

(69) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص87، حوادث سنة 922هـ.

(70) محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج2، ص55، راسم رشدي، مصر والشراسة، ص96.

(71) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص87، الشوكاني، البدر الطالع، ج2، ص55.

زويلة⁽⁷²⁾ (922هـ - 923هـ / 1516 - 1517م)، فلما شتى وصعدت روحه صرخ عليه الناس صرخة كبيرة وشديدة للغاية، وكثر عليه الحزن والأسف⁽⁷³⁾.

وظل الأشرف طومان باي مُعلّقاً على باب زويلة ثلاثة أيام حتى جافت (فاحت) رائحته، وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتاً ووضعوه فيه، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغوري عمه⁽⁷⁴⁾، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرسة⁽⁷⁵⁾.

هكذا نجد أن الكثير والكثير بل معظم سلاطين المماليك قُتلوا، وكانوا هم الذين يقتلون بعضهم البعض نظراً لأن كل شخص كان يرى في نفسه أنه الأقدر والأقوى على أن يكون هو السلطان، فكان القتل هو مصير السلطان دائماً خاصة عندما يكون ضعيفاً، بل نجد الأكثر والأصعب من ذلك أنه عندما يقتل السلطان نجد أنه لم تُعطَ له هيئة أو حُرمة أو على الأقل يُكرم وتُقام له مراسم للدفن وللعزاء، فمراسم الدفن تتم حينها يُجهز السلطان من غسل وتكفين ودفن ثم مراسم العزاء وهي أن يؤخذ عزاء السلطان، وقراءة القرآن ومد الأسمطة....، ولكن نجد أن مصير السلطان قاسٍ ومؤلم للغاية وتكون نهايته نهاية حزينة ومؤلمة.

وقد سطر التاريخ هذه النهاية الحزينة، حتى إننا جميعاً نعلم أن إكرام الميت دفنه ومواراته وستر جسده، فلم تُراعَ حُرمة السلاطين السابق الحديث عنهم عندما قُتلوا، فقد كان يجب مراعاة أنه سلطان وناموس المُلْك مطلوب من كل واحد من الملوك حتى لو كان بينهم عداوة وخصومة فإنهم لهم غيرة على الملوك فإكرام الميت حتى ولو كان فقيراً أو غنياً أو مسلماً أو كافراً أو حتى لم يكن له ملة فإكرام أي ميت أيّاً كانت جنسيته وديانته دفنه، وهذا ما لم نجده في السطور السابقة.

(72) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 176.

(73) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص 176، حوادث عام 923هـ.

(74) عبد المنعم ماجد، طومان باي، ص 176.

(75) ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص 176، حوادث سنة 923هـ.

وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك من السلاطين من قتل ومات وأقيمت له مراسم للدفن والعزاء كسلطان ابن سلطان فهذا الوحيد الذي حفظت له حرمة وهيئته وعميل معاملة السلاطين فعندما مات الملك السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس بالكرك⁽⁷⁶⁾ وقيل إن سبب موته أنه كان يركب فرسه في الميدان⁽⁷⁷⁾ فوقع من على فرسه وهو يلعب بالكرة فضرع وحُم أيامًا ومات⁽⁷⁸⁾ هذا وقد قيل إنه سُم⁽⁷⁹⁾ وقد بدأت مراسم الدفن والعزاء تأخذ مجراها الطبيعى والعادي، فقبل أن يبدأ السلطان المنصور قلاوون العزاء بدأ في تجهيزه وتغسيله⁽⁸⁰⁾ وتكفينه.

ومن مظاهر مراسم العزاء أن عمل له السلطان المنصور قلاوون مراسم للعزاء وذلك بالإيوان من قلعة الجبل، وجلس حزينًا يلبس البياض⁽⁸¹⁾، وقد حضر العلماء والقضاة والأمراء والوعاظ والأعيان في العزاء، فكان يوم عزائه يومًا مشهودًا وظل القراء شهرًا يقرأون القرآن، وصدرت المراسيم لمصر والشام بأن يصلى عليه صلاة الغائب⁽⁸²⁾. هذا

(76) الدواداري: أبي بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ج8، القاهرة، سنة 1972م، ص15، محيي الدين بن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص296، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج5، ص321.
(77) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص346، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص296.

(78) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص669، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص296.
(79) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص296، المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص669.
(80) قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه، بلغنا عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: "أيما امرئ مسلم غسل أخاه المسلم فلم يقدره ولم ينظر إلى عورته ولم يذكر منه سوءًا ثم شيعة وصلى عليه، ثم جلس حتى يدلى في قبره خرج عطلا من ذنوبه"، راجع يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام (245-298) الأحكام في الحلال والحرام، جمعه: علي بن أبي حريصة، ج1، ط3، منشورات مكتبة التراث الإسلامي سنة 2003م، ص150، وقد قيل عن غسل الميت في موضع آخر: إذا مات المسلم وجب تغسيله على من حضره بإجماع المسلمين، راجع: د. محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، ج1، ط2، دار المنار سنة 1997م، ص77.

(81) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص669.

(82) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص297.

وقد أقيم عزاء السعيد بركة خان في جميع أنحاء البلاد، ومن مظاهر العزاء أيضًا أن قُدِّمَتْ فيه الأطعمة الفاخرة والحلوى، وقد أكل كل من حضر للعزاء في الملك السعيد بركة خان. ومن مظاهر الحزن على الملك السعيد بركة خان أن خرجت الخوندات⁽⁸³⁾ حاسرات معهن الجواري يلطمن بالملاهي والدفوف أيامًا عديدة⁽⁸⁴⁾ هذا بالإضافة إلى حزن زوجته على موته حزنًا شديدًا لفراقه وفقدته، ومن مظاهر حزنها عليه أنها بكّت عليه بكاءً شديدًا ولم تتزوج بعده لشدة حزنها عليه وعلى فراقه إلى أن ماتت بعده بفترة قليلة⁽⁸⁵⁾.

أما القسم الثاني من البحث فيتضمن السلاطين الذين ماتوا ميتة طبيعية وسوف يأتي الحديث في هذا الجزء عن مرض السلاطين ثم وصيتهم التي أوصوا بها قبل الوفاة ثم وفاتهم، ثم نتطرق إلى مراسم دفنهم وعزائهم التي اختلفت من سلطان لآخر.

(83) الخوندات، الخوند معناه السيدة ومنها الخوند وهي لفظ أعجمي، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص78، ربما يكون المقصود بها الخوندات السلطانية وزوجات السلطان، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص182.

(84) قال (رحمته الله): ليس منا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية، راجع: ابن الحاج، المدخل، ج3، ص232، البخاري، صحيح البخاري، ج2، القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط3، سنة 1416هـ / 1996م، ص375، وورد في السنن الكبرى للبيهقي في الجزء الرابع، ص63، جزء من حديث ابن عمر والحديث بتمامه: "أن رسول الله (ﷺ) لعن النائحة والمستمعة والحالقة والسالقة والواشمة والمستوشمة، وقال: (ليس للنساء في اتباع الجنائز أجر)". راجع: عبد القادر أحمد عبد القادر، إسبال الكساء على عورات النساء، دار الوثائق للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق سنة 2006م، ص91، راجع: يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام، (245-298هـ)، كتاب الأحكام في الحلال والحرام، جمعه: علي بن أحمد بن حريصة، ج1، ط3، منشورات مكتبة التراث الإسلامي، ص150، الميت يتأذى بنوح أهله عليه مطلقًا، راجع: ابن تيمية، مجموع الفتاوى الكبرى للإمام ابن تيمية مرتبًا على الأبواب الفقهية ومخرج الأحاديث على مسند الإمام أحمد، إعداد: سعيد محمد اللحام، ج1، دار الفكر العربي للطباعة والنشر سنة 1993م، ص83.

(85) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص218، أحداث سنة 675هـ، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص297.

هذا ومن الملاحظ أن جميع السلاطين الذين ماتوا ميتة طبيعية كانوا قد أصيبوا بمرض البطن والإسهال الدموي ، فمن السلاطين الذين ماتوا بمرض البطن والإسهال الدموي الظاهر بيبرس ، ففي عام (676هـ / 1276م) جلس الملك الظاهر بيبرس بالجوسق الأبلق⁽⁸⁶⁾ بميدان دمشق⁽⁸⁷⁾ ليشرب القمز⁽⁸⁸⁾ وفي اليوم التالي وجد في نفسه مرضاً وتوعكاً شديداً، ومن شدة المرض أخذ يشكو إلى الأمير شمس الدين سنقر الأفي السلحدار، فأشار عليه بالقيء، فحاول أن يتقيأ ولكن استعصى عليه، وقيل إنه خرج وركب بعد صلاة الجمعة من الجوسق إلى الميدان كما تعود والألم يتزايد عليه باستمرار، وزادت عليه شدة الألم في بطنه⁽⁸⁹⁾ فصنع له بعض خواصه دواء وهذا الدواء لم يكن بنصيحة طبيب بل هو مجرد وصفة، وعندما حضر الأطباء أنكروا استخدامه لهذا الدواء وذكروا أنه ليس صحيحاً، واجتمع رأيهم أن يأخذ دواء مسهلاً⁽⁹⁰⁾.

ولكن السلطان أخذ الدواء ولم يحدث أي نتيجة، وأعطوا له دواءً آخر كان سبباً في أن تتضاعف عليه الحمى التي أصيب بها إلى أن ضعفت قواه وتزايد عليه

(86) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ج5، ط2 مصورة، مطبعة حكومة الكويت سنة 1948م، ص307، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص175.

(87) المقرئزي، الخطط، ج3، ص387، مكتبة الآداب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص175 ومحمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، ج1، دار النقاش، بيروت سنة 1403هـ.

(88) ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فرانز شتاينز بفيسبادن سنة 1403هـ/ 1983م، ص222، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص175.

القمز: نبذ يعمل من لبن الخيل، واللفظ تترى الأصل، وقد كان السلطان شغفاً بهذا النوع من الشراب، راجع: المقرئزي، السلوك، حاشية (2) ص67.

(89) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص222، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص175.

(90) راجع الدواداري، كثر الدرر، ج8، صص 210-211، المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص636، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص338، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص175.

المرض وكان مرض الحمى سبباً في موته وقضاء نحبه⁽⁹¹⁾، بعد أن تجاوز الخمسين عاماً⁽⁹²⁾.

ومن السلاطين الذين مرضوا بالإسهال الدموي والبطن السلطان الصالح علي ابن المنصور سيف الدين قلاوون وذلك عام (687هـ / 1288م) وأحداث ذلك عندما خرج السلطان المنصور سيف الدين قلاوون من القاهرة في طريقه لبلاد الشام اصطحب معه ابنه الملك الصالح، فحضر السباط ثم عاد الصالح علي بن المنصور سيف الدين قلاوون إلى قلعة الجبل، وقد بدأ مرض الصالح عندما عاد إلى قلعة الجبل فأحس بألم شديد في قلبه وبطنه وكثر إسهاله الدموي⁽⁹³⁾ فزاره السلطان ولم يشفَ على العلاج الذي أخذه، وعندما عاد السلطان إلى الدهليز جاءه الخبر بشدة مرض الملك الصالح فعاد إلى القلعة، ومات الصالح علي وكان سبب وفاته هو مرضه بدوسنطاريا كبدية⁽⁹⁴⁾ وقيل إن الملك الأشرف خليل سمه⁽⁹⁵⁾. وهذا وقد أصيب أيضاً الناصر محمد بن قلاوون بالإسهال الدموي⁽⁹⁶⁾ ومرض مرضاً شديداً وتضاعفت عنده الحمى حتى أن قوته نقصت بدرجة كبيرة، وكان يغمى عليه ويغيب عن الوعي⁽⁹⁷⁾.

(91) ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، ج1، ص253، المقرئزي، السلوك، ج1، ق1، ص641، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص222-223، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص175.

J. Sauvaget, la poste aux chevaux Dans (sempire Des Mamelauks, pairs (vI) 1941, pp29-30).

(92) عبد الحميد صالح حمدان، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى عام 702هـ، تأليف: بييرس المنصوري، الدار المصرية اللبنانية، ص61.

(93) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص288.

(94) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص288.

(56) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص744، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص288.

(96) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص162.

(97) شمس الدين الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية بربارة شيفر، ج2، ق1، فرانز شتاينر فيسبادن سنة 1978م، ص101.

وقد كان مرض البطن والحمى سبباً في وفاة السلطان الظاهر برقوق، فقد بدأ مرض الظاهر برقوق حينها ذهب للعب الكرة كعادته في الميدان بالقلعة، وكان اليوم الذي مرض فيه السلطان قد تناول فيه أطعمة مختلفة ومختلطة في أنواعها فكان خلطاً رديئاً وسيئاً⁽⁹⁸⁾ في يوم شديد الحر، وظل السلطان في الفراش مدة طويلة نتيجة لحمى أصابته⁽⁹⁹⁾ في جسده حتى إن المرض اشتد عليه، أيضاً كان مرض البطن والإسهال المفرط⁽¹⁰⁰⁾ وعسر البول ووجع المفاصل⁽¹⁰¹⁾ سبباً في وفاة السلطان المؤيد شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري، وظهرت عليه علامات الاحتضار⁽¹⁰²⁾ نتيجة الإسهال المفرط⁽¹⁰³⁾، ومن شدة المرض عند السلطان الأشرف برسبائي الذي أصيب بمرض القولنج لزم الفراش وأخذ المرض يتزايد عليه حتى أنه ضعف جداً وعجز عن القيام ومنعوا الأمراء من الدخول عليه من شدة مرضه⁽¹⁰⁴⁾ وقد مرض السلطان الظاهر سيف الدين أبي سعيد محمد جقمق العلاي الظاهري وانحسر عنه البول ولكنه كان يصبر⁽¹⁰⁵⁾ ويتحمل آلام المرض، وازداد المرض على السلطان⁽¹⁰⁶⁾ عام 857هـ/ 1453م واستمر في الفراش⁽¹⁰⁷⁾ وانقطع عن ظهوره

(89) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص524، ابن تغري بردي، النجوم الزاهر، ج2، ص102.
(99) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيهان عمر شكري، ص491.

(100) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص106، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص59.

(101) العيني: بدر الدين العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، حققه وقدم له: فهم محمد شلتوت، راجعه: د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب للطباعة والنشر سنة 1966- سنة 1967م، ص ث، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص106.

(102) المحتضر على صيغه اسم المفعول، وذكر في النهاية: فلان محتضر أي قريب من الموت، واحتضر مات أيضاً لأن الوفاة حضرته أو ملائكة الموت، راجع: إبراهيم البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، ص5.

(103) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص106، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص59.

(104) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص9، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1، ص509.

(105) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج2، ص351.

(106) راسم رشدي، مصر والشراكسة، ص73.

(107) ابن إياس، الأيام الأخيرة من حكم السلطان الملك الظاهر محمد أبي سعيد جقمق سنة 1951م، ص1، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص74.

للناس وأصبح مزاجه حاداً للغاية، واستمر على ذلك حتى اشتد مرضه للغاية وظهرت عليه علامات الموت⁽¹⁰⁸⁾ وقد كان الألم شديداً في جسده والإجهاد والتعب ملازمين له وأغمي عليه باستمرار وكان يظهر أنه بخير⁽¹⁰⁹⁾ ولكن الموت كان قريباً منه⁽¹¹⁰⁾. ومن السلاطين الذين حدث لهم ثمى في جسدهم السلطان الملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي 872هـ / 1467م فلزم الفراش⁽¹¹¹⁾. وقد كانت هناك عادة تحدث عندما يمرض السلطان وهي أن ينزل السلطان بفرس من الإصطبل السلطاني ويعرض الفرس للبيع على جماعة من الأمراء، فاشتره أحد الأمراء بـ 500 دينار، وقيل اشتراه بألف دينار، ولكن السلطان تصدق بها في مرضه، فبعد أن يشتريه الأمير يتصدق السلطان بثمنه على الفقراء، وقد فعل هذا الملك الظاهر برقوق، والسلطان الأشرف برسباي، وكان ينزل أمير أخور من باب السلسلة وهو راكب على الفرس فيبدأ بأمر كبير أولاً ثم بقية الأمراء فيشتريه من هو أقرب إلى السلطان من الأمراء⁽¹¹²⁾ وقد مرض السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري بمرض الإسهال الدموي وأصيب بحُمى في جسده ولزم الفراش وثقل عليه المرض وأخذ الألم يتزايد عليه وكثر الإسهال المفرط حتى أنه عجز عن الحركة⁽¹¹³⁾ وزاد عليه مرض البطن⁽¹¹⁴⁾ وامتنع عن الطعام مدة إلى أن مات.

(108) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 299-300، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص 452، قيل إنه ركبت ريمه وضعف عن الحركة، راجع: بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، ج1، الهيئة المصرية للكتاب، ص 9.

(109) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص 74.

(110) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 298.

(111) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص 175، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص 304.

(112) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 453.

(113) ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص 323.

(114) الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج2، ص 56.

ونحن نرجح أن مرض معظم سلاطين العصر المملوكي بمرض البطن والإسهال الدموي حدث نتيجة تناول الأطعمة المختلفة؛ إذ إن السهاط كان يُمد وبه أشهى وأفخم المأكولات وبه الطعام الحلو والطعام المالح والطعام الدسم وغير ذلك من أطعمة مختلفة وكان السلاطين يلتهمون مختلف الأطعمة في وقت واحد ودون إراحة لمعدتهم من الطعام فمن المحتمل أن يكون مرض البطن والإسهال الدموي نتيجة الخلط السيئ والرديء في الطعام بأنواعه.

وهناك من السلاطين من مات من شدة الخوف والرعب مثل السلطان الصالح إسماعيل 746هـ/ سنة 1345م، فقد مات من الرُّعب وشدة الخوف⁽¹¹⁵⁾؛ فبعد قتل أخيه أحمد في الكرك جاء الأمير منجك ومعه رأس الأمير أحمد من الكرك بعد قتله فلما رأى ذلك السلطان الصالح إسماعيل فرغ⁽¹¹⁶⁾ وخاف خوفاً شديداً وتغير لونه، حتى قيل إنه كان يحلم ويراه في نومه، ثم بدأ يرى الأحلام المفزعة، وطال مرضه، وكثرت رعشته وزادت أفزاعه حتى أصيب بالقولنج ومات⁽¹¹⁷⁾ بعد صراع شديد مع المرض⁽¹¹⁸⁾.

ومن السلاطين الذين ماتوا واشتد عليهم المرض المؤيد شيخ المحمودي الظاهري، والسلطان الظاهر سيف الدين ططر الذي اشتد عليه المرض⁽¹¹⁹⁾ إلى جانب الملك الأشرف أبي النصر سيف الدين إينال العلوي الظاهري برقوق الناصري فرج الذي صار ألم المرض يتزايد عليه حتى أشيع أنه مات⁽¹²⁰⁾ من كثرة آلام المرض، وقد مرض هذا السلطان ومات بآلم الحاشم⁽¹²¹⁾.

(115) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص 78.

(116) المقرئزي، الخطط، ج3، ص 390، مكتبة الآداب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص 93.

(117) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص 98.

(118) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الممالك البحرية، ص 108.

(119) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص 7، المقرئزي، الخطط، ج3، ص 396.

(120) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص 156، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 366.

(121) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 367.

الوصية واختلافها من سلطان لآخر :

أما بالنسبة إلى الوصايا التي أوصى بها السلاطين قبل وفاتهم فقد اختلفت من سلطان لآخر حسب الموقف الذي كان قد توفي فيه ، ولكن نجد أن جميع السلاطين بل معظمهم كان قد أوصى بولاية العهد إلى ابنه أثناء مرضه ، مثلما فعل السلطان الظاهر بيبرس فقد أوصى بولاية العهد لابنه السعيد بركة خان وأرسل له رسالة فيها أنه يجب أن يتتبع في المعاملة مع أكابر الأمراء لأنهم ينظرون إليه بعين الصبي الصغير الذي لا يستطيع أن يتحكم في زمام الأمور وقد ذكر في ذلك : "فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحقق ذلك عنه، فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحداً في هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك"⁽¹²²⁾ ، ويتضح من هذا أن السلطان يوصي ابنه بأن يقضي على الأمراء الذين يثيرون المشاكل، وكذلك أوصى السلطان الناصر محمد بن قلاوون بولاية العهد من بعده لابنه أبي بكر⁽¹²³⁾ فعندما رأى الأمراء خطورة مرض السلطان بدأوا في تدبير الأمور وحاولوا الدخول إلى السلطان وبالفعل دخلوا إليه، وبدأوا في الحديث معه على أن يعهد لأحد أبنائه بالحكم من بعده فاستجاب لطلبهم وعهد بالحكم إلى ابنه أبي بكر كما سبق أن ذكرنا، وبدأ يوصيه بالأمراء وأوصى الأمراء به، وعهد إليهم أن لا يخرجوا ابنه أحمد من الكرك وتضمنت وصيته أن يكون كل من قوصون وبشتاك أوصياء على ابنه أبي بكر وتدير المملكة وبعد أن ذكر لهم ما يجب فعله أخذ يُخلفها وقد حلف السلطان الأمراء والخاصكية، وشدد على ولده في الوصية بالأمراء، وأفرج عن الأمراء المسجونين بالشام⁽¹²⁴⁾ .

(122) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، هامش (2) ص224، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ص440.

(123) ابن الوردي: زيد الدين عمر، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص382، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، ط2، مكتبة النهضة المصرية سنة 1948م، ص91، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص103، الشجاعى، تاريخ الناصر محمد بن قلاوون، ج2، ق1، ص105.

(124) المقرئ، السلوك، ج2، ق2، ص513.

وقد أوصى أيضًا السلطان برقوق بولاية العهد من بعده لابنه الأمير فرج فقد قيل إنه عندما كان مريضًا وأفاق من غيبوبته استدعى الخليفة المتوكل على الله أبا عبد الله محمدًا، وكبار الرجال مثل شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وقضاة القضاء الأربعة⁽¹²⁵⁾ وسائر الأمراء الأكابر والأصاغر، وجميع أرباب الدولة إلى حضرة السلطان، وبعد أن اجتمع الجميع بدأ الحديث معهم بولاية العهد لأولاده من بعده، وبدأ بالحلف للأمير فرج ابن السلطان⁽¹²⁶⁾ على أن يكون هو السلطان بعد وفاة أبيه، وبعد ذلك حلف القضاء والأمراء وتولى تحليفهم كاتب السر فتح الله وكان ملازمًا للسلطان أثناء مرضه؛ وذلك لأن السلطان كان يثق به⁽¹²⁷⁾، هذا وقد تضمنت وصية السلطان أيضًا أن يكون الأمير أيتمش البجاسي⁽¹²⁸⁾ هو الوصي على دولة ابنه فرج بالإضافة إلى أنه الوصي على تركته والقائم بتدبير الأمور وأن يكون معه الأمير تغري بردي أمير سلاح والأمير بيرس الدوادار والأمير يشبك الخازندار وفتح الدين فتح الله كاتب السر والأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوي وسعد الدين إبراهيم بن غراب وغيرهم من الأمراء وجعل الخليفة ناظرًا على الجميع⁽¹²⁹⁾ وتم الحلف لفرج بن برقوق⁽¹³⁰⁾، هذا وقد أوصى أيضًا السلطان المؤيد شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري لابنه الرضيع أحمد بولاية العهد من بعده عندما اشتد المرض عليه فبعث السلطان إلى الخليفة والقضاة الأربعة وأخبرهم بأن السلطة من بعده لولده أحمد - وكان طفلًا رضيعًا - وجعل الطنبغا القرمشي هو المستول عن المملكة إلى أن يحضر الأتابكي الطنبغا من حلب، وحلف الأمراء على ذلك وحلف

(125) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص102، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص160.

(126) الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: د. حسن حبشي، مطبعة دار الكتب سنة 1970م، ص494، العسقلاني، أنباء الغمر، ج2، ص51، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص102.

(127) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص525.

(128) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص160.

(129) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص525.

(130) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص525.

المماليك أيضًا⁽¹³¹⁾ وقد كانت هذه آخر أيامه، فقد اشتد عليه المرض فظهرت عليه علامات الاحتضار⁽¹³²⁾ بالإضافة إلى وصية الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد ططر الظاهري الجركسي بعد أن اشتد عليه المرض⁽¹³³⁾ ولزم الفراش⁽¹³⁴⁾ والتي تضمنت ولاية العهد إلى ولده محمد من بعده⁽¹³⁵⁾ في وجود الخليفة والقضاة الأربعة وقد حلف الأمراء والعسكر، وقد أوكل تدبير أمر المملكة لجاني بك الصوفي وبرسباي الدقماقي⁽¹³⁶⁾، هذا وعندما مرض السلطان الأشرف برسباي رأى الأمراء حالة السلطان في تدهور مستمر وأنه يجب أن يتحدثوا معه في أمور السلطنة وولاية العهد، فتحدث معه في هذا الأمر القاضي عبد الباسط وكان من كبار رجال الدولة والأمير جوهر اللالا، لكي يعهد بأمور الحكم والسلطنة إلى ابنه يوسف⁽¹³⁷⁾ فطلب منهم أن يحضروا الخليفة والقضاة الأربعة⁽¹³⁸⁾، بالإضافة إلى أنه طلب الأتابكي جقمق العلاي وسائر الأمراء، وعهد إلى ولده المقر الجمالي يوسف بالسلطنة من بعده⁽¹³⁹⁾، وقد كان القائم بكتابة هذه الوصية القاضي شرف الدين ابن العجمي نائب كاتب السر، وقرأ على السلطان الوصية والعهد وأمضى السلطان هذه الوصية، وشهد الخليفة والقضاة الأربعة عليه بالإمضاء، وقد حلف جميع الأمراء المماليك وغيرهم وأنفق عليهم الأموال ووصاهم بأن يكونوا عصبة واحدة

(131) العسقلاني، أنباء الغمر، ج3، ص237، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص57.

(132) المحتضر على صيغة اسم المفعول، وذكر في النهاية: فلان محتضر أي قريب من الموت، واحتضرات أيضاً لأن الوفاة حضرته أو ملائكة الموت، راجع: إبراهيم البولوي، رسالة أحكام الجنائز، ص5.

(133) المقرئزي، الخطط، ج3، ص396، السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص7.

(134) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص7.

(135) العسقلاني، أنباء الغمر، ج3، ص250، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص206، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1، ص509، الدمشقي، شذرات الذهب، ج4، ص166.

(136) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1، ص509، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص71، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص206.

(137) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص9، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1، ص509.

(138) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص102.

(139) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص187، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص102.

بعضهم البعض وأوصاهم بعدم حدوث فتنة، مع بعضهم البعض⁽¹⁴⁰⁾ وقد جعل السلطان برسباي الأتابكي جقمق الوصي على ولده من بعده⁽¹⁴¹⁾ وجعله هو نظام الملك والمتصرف في أمور المملكة، وبعد ذلك أخلع على الخليفة والقضاة وانفض المجلس، وبعد الوصية توفي السلطان⁽¹⁴²⁾.

ومن السلاطين من مات دون أن تكون له وصية مثل السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الذي مات دون أن يوصي بأي وصية ودون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل، لأنه كان يعلم أنه مكروه من الأمراء لاستهانتهم بهم⁽¹⁴³⁾.

ومن لم يكن له وصية أيضًا من السلاطين الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي فقبل وفاته لم يوصي بأي وصية، والدليل على ذلك أن الأمراء عندما أدرکوا موت السلطان اجتمعوا في المقعد عند باب السلسلة عند المقر الشهابي⁽¹⁴⁴⁾ أحمد بن العيني أمير أخور كبير وغيرهم من كبار الأمراء فتشاوروا فيما بينهم فيمن يلي أمر السلطنة إذا مات السلطان، وكان رأيهم أن أمير كبير يلبي أحق بالسلطنة⁽¹⁴⁵⁾.

هذا ولم يكن للسلطان الأشرف أبي النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري وصية والدليل على ذلك أنه عندما كان في آخر أيامه تحدث الأمراء مع السلطان في أمور الدولة وقالوا له إن أحوال الدولة قد فسدت ومن الأفضل أن يعهد بالحكم إلى ابنه ولكن السلطان لم يرد عليهم، فأخذ الأتابكي تراز بن السلطان الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ونزل به إلى باب السلسلة، وأرسلوا إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي العز عبد العزيز فحضر، وحضر القضاة الأربعة، وحضر الأمراء والعساكر، وعندما اكتمل المجلس تكلموا في خلع الأشرف قايتباي بحكم أنه لا يدري بمن حوله وهو في

(140) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص187.

(141) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص9.

(142) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص187، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص102.

(143) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص73.

(144) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص454.

(145) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص306.

سكرات الموت فبايع الخليفة ابن السلطان قايتباي عوضاً عن أبيه الأشرف قايتباي وكان شاهداً على ذلك القضاة⁽¹⁴⁶⁾ كل هذا والسلطان لم يشعر بشيء يحدث حوله ولا يدري بما يجري أو يحدث⁽¹⁴⁷⁾ وقد قيل إن السلطان الأشرف قايتباي لو كان واعياً بما يحدث لما أمكن الأمراء بأن يسلطوا ابنه ولم يكن هذا غرضه قط⁽¹⁴⁸⁾.

وتضمنت وصايا السلاطين أن يعهد الأخ لأخيه بالحكم وليس لابنه مثلما حدث مع السلطان الصالح إسماعيل عندما أوصى قبل وفاته بتولية أخيه شعبان⁽¹⁴⁹⁾ الحكم. ونلاحظ مما سبق أن الصالح إسماعيل أوصى لأخيه بالحكم وقد يكون هذا لأنه لم يكن لديه أبناء يعهد إليهم بالحكم كما حدث مع معظم سلاطين المماليك، أو ربما كان لديه أبناء ذكور ولكنه خشي عليهم من دسائس ومؤامرات الأمراء مع بعضهم البعض فخاف على أبنائه من ذلك، لأننا نعلم أنه مات من شدة الخوف بعد أن رأى رأس أخيه المقتول - كما سبق أن ذكرنا -.

وهناك من السلاطين من خلع نفسه من الملك وأوصى لابنه بالحكم من بعده وهو حي مثلما فعل السلطان جقمق الذي أحس بدنو أجله وزيادة حدة المرض فبدأ يتكلم مع بعض المقربين منه من خواصه بأن يخلع نفسه من الملك⁽¹⁵⁰⁾ وأن يعهد لولده عثمان⁽¹⁵¹⁾.

(146) ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص324.

(147) ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص333، عبد الرحمن محمود عبد التواب، قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1978م، صص 17-18.

(148) ذكر الدكتور سعيد عاشور أن السلطان الأشرف قايتباي تنازل عن السلطنة لابنه بعكس ما ذكرته المصادر الأخرى أنه لم يتنازل ولكن الأمراء هم الذين سلطوا ابنه، راجع: سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص176.

(149) المقرئ، السلوك، ج2، ق3، ص680.

(150) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص160، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص452، المقرئ، الخطط، ج3، ص399.

(151) ابن إياس، الأيام الأخيرة من حكم السلطان الملك الظاهر جقمق، ص1، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص172، وهو الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان ابن الملك الظاهر جقمق محمد العلوي، راجع: المقرئ، الخطط، ج1، ص452، طبعة بولاق.

وهو حي على وجه الأرض، فبعث السلطان إلى الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر الله حمزة، والقضاة الأربعة والأتابكي إينال الأجرود، أرباب الدولة من أهل الحل والعقد، وعندما اكتمل المجلس بدأ أمير المؤمنين حمزة وقال إن السلطان عهد في حياته بولاية العهد إلى ابنه عثمان، وأحضره حتى قبل المبايعة، وتولى السلطنة في حياة والده، في الوقت الذي استمر فيه الظاهر جقمق في الفراش بعد أن عهد إلى ولده حتى مات (152).

ومن خلع نفسه أيضاً من السلطنة وولى ابنه الحكم وهو حي على وجه الأرض السلطان برقوق الناصري فرج، فعندما ظهرت على السلطان علامات الموت تحدث معه جماعة من خواصه بأن يخلع نفسه من الملك (153) ويولي السلطنة لابنه أحمد (154) فأمر السلطان المريض بحضور الخليفة والقضاة الأربعة، وكبار رجال الدولة وعندما اجتمعوا كان السلطان في نهاية حياته وبداية الموت، فخلع السلطان نفسه من السلطنة وشهد الحاضرون على ذلك، وبايع الخليفة ابنه بالسلطنة وأحضر إليه شعار السلطنة، وعاش السلطان بعد ذلك يوماً واحداً (155) بعد أن ولي ابنه السلطنة.

أما عن وصايا السلاطين الأخرى والتي أوصوا بها قبل موتهم فهناك من أوصى بأن يُدفن في مكان معين يحبه السلطان مثلما أوصى السلطان الظاهر بيبرس بأنه إذا مات يُدفن على الطريق السالكة (156) قريباً من داريا (157) وأن يبنى

-
- (152) السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نظم العقبان في أعيان الأعيان، حرره: د. فيليب متى، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك سنة 1927م، ص 103، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص ص 299-300، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص 74.
- (153) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج3، ص 558، المقرئزي، الخطط، ج3، ص 396، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص 156.
- (154) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص 156.
- (155) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج3، ص 558.
- (156) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 176.
- (157) داريا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة: راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 111.

عليه هناك⁽¹⁵⁸⁾ بناء يبقى أثره على الزمن ويستوهب له من مر عليه من الله العفو والأمان⁽¹⁵⁹⁾.

وقد أوصى السلطان الظاهر برقوق بأن تُبنى له تربة تحت الجبل بجوار تربة الأمير يونس الدوادار⁽¹⁶⁰⁾ خارج باب النصر بـ 180 ألف دينار ويشترى بالمتبقي من العمارة عقار ليوقف عليها وأن يُدفن بها في لحد تحت أرجل الفقراء الذين بحوش الخليلي⁽¹⁶¹⁾ وقد اختار السلطان أن يدفن بجوار الصالحين وأن يدفن دفن السنة في اللحد بخلاف الدفن في الفساقى⁽¹⁶²⁾، وأوصى السلطان أيضًا أن يعمل في هذه التربة جماعة من الصوفية ويرتب لهم طعام وخبز وزيت وصابون وحلوى⁽¹⁶³⁾ وتضمنت وصية السلطان أيضًا شيئًا غريبًا لم نره في وصايا السلاطين جميعهم، وهو أنه أوصى لزوجاته وسراريه وخدامه بمائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار⁽¹⁶⁴⁾، هذا وقد تصدق السلطان وهو في مرضه على الفقراء والعلماء بأربعة عشر ألف دينار وستة وتسعين دينارًا⁽¹⁶⁵⁾ خارجًا عما أنعم به على العجائز والأرامل والأيتام⁽¹⁶⁶⁾ وقيل إن ما تصدق به السلطان في يوم واحد خمسة عشر ألف إفرنتي⁽¹⁶⁷⁾.

(158) المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص461، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص175.

(159) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، صص225-226.

(160) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ص494، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص104، العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص491.

(161) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص525.

(162) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص493.

(163) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ص495.

(164) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص102.

(165) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص104.

(166) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص526.

(167) الإفرنتي عمله نقدية وهي إفلوري عند الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص493، وقد كانت قيمة كل إفرنتي في ذلك اليوم ثلاثين درهماً. راجع: العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص492.

ومن السلاطين من ألغى رسومًا كانت مقررة على التجار مثلما فعل السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهري الجركسي الذي أرسل مع أمير الحج مرسومًا بإبطال ما كان مقرراً على أمير مكة المشرفة وأعيان التجار من التقادم للأمراء إذا حجوا أعيان الدولة فأبطل ذلك جميعه⁽¹⁶⁸⁾ فدعا له أهل مكة.

مراسم الدفن والعزاء عند سلاطين المماليك:

لا شك أن مراسم الدفن والعزاء في عصر سلاطين المماليك اختلفت من سلطان لآخر وتمثلت في تجهيز السلطان وجنازته ومراسم عزائه (تجهيز السلاطين) وقد اختلف تجهيز السلاطين من سلطان لآخر، فعندما مات السلطان الظاهر بيبرس بدمشق⁽¹⁶⁹⁾ أخفى الأمراء خبر وفاته⁽¹⁷⁰⁾ وحملوه إلى القلعة حتى لا يشعر عامة الناس بوفاته، ومنعوا من هو داخلها من المماليك من الخروج ومن هو خارجها من الدخول، وقد بدأت مراسم تجهيز السلطان للغسل، فقد تولى غسله وتحنيطه⁽¹⁷¹⁾ وتصبيره وتكفينه رجل يُدعى مهتار⁽¹⁷²⁾

(168) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص75.

(169) الصفدي، نزهة المالك والمملوك، تحقيق: د. عمر عبد السلام، ص157.

(170) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج5، ص307، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص223، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج4، ص132، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص265.

(171) التحنيط: هو حفظ الجسد سليماً بعد الموت ومن الأمور المهمة لسعادة الميت في حياته الآخرة كما رأى قدماء المصريين، لذلك أصبح واحداً من أهم أهداف الإجراءات الجنزية منذ فترة مفرقة في القدم، وتستغرق هذه العملية كلها لتجهيز الجثة للدفن فترة تقدر بسبعين يوماً من يوم الوفاة إلى يوم الدفن، ويستغرق تحفيف الجسد أكثر من نصف هذه المدة.

لمزيد من التفاصيل: راجع: (ت. ج. هـ. جيمز) كنوز الفراعنة، ترجمة: د. أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماهر طه، ص ص159-160، وقد حنطت جثة الظاهر بيبرس ودفنت بدمشق، راجع: السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص60.

(172) المهتار: لقب فارسي يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت (مهتار الشراب خاناه، ومهتار الركاب خاناه....) وهي كلمة مركبة من مه أي الكبير وتار وهي لصيغة أفعال التفضيل وتعني الأكبر: راجع القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص470، وقد قيل في موضع آخر إن المهتار هو ناظر الخاص، راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص176.

الشجاع عنبر والفقير كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المنبجي، والأمير عز الدين الأفرم ثم وضعوه في تابوت وعلق في بيت من بيوت البحرية بقلعة دمشق⁽¹⁷³⁾ ودفن بها⁽¹⁷⁴⁾ وقد اتفقوا على موضع دفنه، ثم كتب الأمير بدر الدين يلبك الخازندار إلى ابن الظاهر بيبرس الملك السعيد كتاب (مطالعة) بيده وبعثها إلى مصر على يد بدر الدين بكتوت⁽¹⁷⁵⁾ الجوكنداري الحموي، وعلاء الدين أيدغمش⁽¹⁷⁶⁾ الحكيمي الجاشنكير، وعندما وصلا وأعطاهما المطالعة أعطى كل واحد منهما خمسين ألف درهم، على أن ذلك بشارة (بشرى) برجوع السلطان إلى مصر، ثم ركب الأمراء إلى سوق الخيل بدمشق كعادتهم ولم يظهروا شيئاً من زي الحزن⁽¹⁷⁷⁾.

وعن تجهيز الملك الصالح فقد بدأ السلطان المنصور قلاوون في تجهيز ابنه علي فغسله وكفنه وحضر الناس للصلاة عليه، فصلوا عليه عند باب الستارة⁽¹⁷⁸⁾ وكان يتقدم المصلين قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي إماماً والسلطان خلفه وبقية الأمراء والملك الأشرف خليل⁽¹⁷⁹⁾ وعند تجهيز السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عندما مات حضر الأمراء كالعادة ولم يستطيعوا الدخول على السلطان، ثم أرسلت

(173) العسقلاني: شافع بن علي الكاتب العسقلاني المصري، كتاب الفصل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط 1، سنة 1418هـ / سنة 1998م، ص 36، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 224، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 266، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 67.

(174) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص 51.

(175) كان نائباً للأمير بدر الدين يلبك الخازنداري الظاهري بالشام، توفي في وقعة حمص سنة 680هـ / 1281م، راجع: اليونيني، ج 4، ص 16.

(176) أيدغمش بن عبد الله الحكيمي التركي، كان أحد أمراء الملك الظاهر وابنه السعيد، قتل في بيسان من فلسطين سنة 680هـ / 1282م، راجع: ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج 7، ص 176.

(177) المقرئزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص 641، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 176.

(178) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ق 1، ص 358.

(179) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 289.

خزائن المال وجميع ما كان مع السلطان برسم السفر إلى القلعة⁽¹⁸⁰⁾ وبعث الأمير طرنطاي لابن السلطان الأشرف خليل يخبره بأن والده توفاه الله⁽¹⁸¹⁾ وأشار عليه ألا ينزل من القلعة ووكّل به مقدم الممالك⁽¹⁸²⁾ وبدأت مراسم الدفن تأخذ مجراها الطبيعي، فقد بدأ تجهيز السلطان لثوائه الأخير فحمّله الأمير طرنطاي وهو ميت من محفه وطلع به إلى القلعة⁽¹⁸³⁾ بعد المغرب⁽¹⁸⁴⁾ فغسله وكفنه⁽¹⁸⁵⁾، وبعد أن مات⁽¹⁸⁶⁾ السلطان الناصر محمد بن قلاوون والتحق بربه⁽¹⁸⁷⁾ وقد كان عمره سبعاً وخمسين سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام⁽¹⁸⁸⁾ بدأت مراسم الدفن تأخذ مجراها الطبيعي بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون⁽¹⁸⁹⁾ وغلقت الحوانيت بين القصرين، ومنعوا الناس من الوقوف والنظر إليه⁽¹⁹⁰⁾ وحل في محفه⁽¹⁹¹⁾ وأخرجوه من القلعة، ومروا به من وراء السور إلى باب النصر ومعه

(180) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ 13، ص 316، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ 1، ق 1، ص 361.

(181) www.islamonline.net .

(182) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ 1، ق 1، ص 361.

(183) العسقلاني المصري، كتاب الفصل المأثور من سيرة الملك المنصور، ص 175.

(184) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ 1، ق 1، ص 361.

(185) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 7، ص 276، ابن عبد الظاهر: محيي الدين عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه: د. مراد كامل، راجعه: د. محمد علي النجار، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص 369، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ 2، ص 40.

(186) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ 2، ص 66.

William Muir, The Mameluk Or Slave Dynasty, P85

(187) الدواداري، كنز الدرر، جـ 8، ص 307-308.

(188) المقرئزي، السلوك، جـ 2، ق 2، ص 546، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 9، ص 164.

(189) محمد عبد الغني الأشقر، الملحمة المصرية عصر سلاطين الممالك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباي، ط 1، مكتبة مدبولي، ص 22.

(190) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ الممالك البحرية، ص 92.

(191) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص 109.

الأمراء بشتاك وملكتمر الحجازي وأيدغمش⁽¹⁹²⁾ وعدد من الأمراء الخاصكية، ثم خرجوا به من باب النصر إلى المدرسة المنصورية، وأمامه بعض الحراس تمسك بمسرجة زيت حار⁽¹⁹³⁾ تضيء عليه الطريق، ثم فانوس آخر فقط، ذهبوا به إلى المدرسة المنصورية، وحمل إلى القبة، وغُسل بها⁽¹⁹⁴⁾ وعُهد إلى ابن أبي الظاهر الغاسل بغسله فقال لهم: "هذا ملك البسيطة وأنا لا أقدر أن أقرب منه، ولا أغسله إلا إذا قام إليه أحد منكم وجرده على الدكة، فإني أخشى أن يقال كان معه فص أو خاتم وفي رقبة خرزة تروح روح الملوك"⁽¹⁹⁵⁾ فقام من الأمراء المماليك من جرده من لباسه مع الغاسل، وغُسل⁽¹⁹⁶⁾ وكُفِّن من المارستان المنصوري⁽¹⁹⁷⁾ ووضع في تابوت خشب⁽¹⁹⁸⁾ وبعد ذلك صلى عليه القضاة والفقهاء وجموع الحاضرين، ونزلوا به إلى تربة أبيه حيث دفن معه⁽¹⁹⁹⁾.

ومن السلاطين الذين جهزوا بعد تولي أبنائهم أمور السلطنة السلطان الظاهر بريقوق⁽²⁰⁰⁾ فبعد أن توفي عام 801هـ / 1398م وهو على فراشه⁽²⁰¹⁾ وقبل أن يُجهزَ

(192) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص126.

(193) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص109، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص92.

(194) المقرئى، السلوك ج2 ق2، ص546، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص105، المقرئى، الخطط ج3، ص389 مكتبة الآداب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص165.

(195) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، ص109-110.

(196) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص110.

(197) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص165، الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص110.

(198) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص165، الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص110.

(199) المقرئى، السلوك، ج2، ق2، ص546، القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص501، المقرئى، الخطط، ج3، ص389 مكتبة الآداب.

(200) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص119.

- William Muir, the Mamoluk or Slave Dynasty, p114-115.

(201) راسم رشدي، مصر والشراسة صفحات من تاريخ مصر الحديث بحث وتحقيق، القاهرة سنة 1948م، ص57.

للدفن، تولى ابنه الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر أبي سعيد برقوق بن أنص العثماني أمور السلطنة، وبعد أن ألبسه الخليفة التشريف وبعد جلوسه على سرير الملك، بدأت مراسم الدفن وتجهيز الملك الظاهر فغسلوه⁽²⁰²⁾ أمام باب الزردخانه السلطانية⁽²⁰³⁾ وكفن وأخرجوه قبل صلاة الجمعة⁽²⁰⁴⁾ وصلوا عليه بالقلعة في رحبة باب القلعة⁽²⁰⁵⁾ صلى عليه قاضي القضاة صدر الدين المناوي⁽²⁰⁶⁾ الشافعي⁽²⁰⁷⁾.

ومن السلاطين من وُجدَ أن تجهيزه غريب بل عجيب جداً فبعد أن توفي السلطان الملك المؤيد⁽²⁰⁸⁾ إلى رحمة الله تعالى عام (823هـ/ 1420م) بدأوا في تجهيزه للدفن وأول ما فعلوه هو تغسيل السلطان⁽²⁰⁹⁾ والشيء الغريب في تجهيزه أنه عند غسله لم يجدوا له إناء صغيراً ليصبوا به الماء عليه، ولا وجدوا منشفة له لينشفوا بها لحيته⁽²¹⁰⁾ حتى أخذوا منديل بعض من حضر غسله، ولا وجدوا له مئزرًا ليستروا به عورته، حتى أخذوا مئزر بعض

(202) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1 ق2، ص ص535-536، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص105

(203) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج2، ص495.

(204) الصيرفي، نزهة النفوس، ج2، ص495.

(205) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص105، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص ص535-536، الصيرفي، نزهة النفوس، ج2، ص495.

(206) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص105، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص536.

(207) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص493.

(208) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، ط1، مطبعة السعادة، مصر، سنة 1357م/ 1952م، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص138.

(209) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص109، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص308، عبد الحلي بن أحمد العسكري الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، ص165.

(210) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص109، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص308، الدمشقي، شذرات الذهب، ج4، ص165.

الجواري النائحات، وكان مئزرًا أسود صعيديًا خشنًا، فسبحان من يعز ويذل⁽²¹¹⁾ وبعد أن غُسل السلطان وكُفن صلوا عليه بالقلعة⁽²¹²⁾ أما عن مراسم تجهيز السلطان الأشرف برسبائي، فعندما توفي السلطان الأشرف برسبائي بات في القلعة ولم يخرج الأمراء إلا في اليوم التالي، وبدأوا في تجهيزه من تغسيل وتكفين، فتولى أمر ذلك الأمير إينال الأحمدي الفقيه⁽²¹³⁾ الظاهري برقوق بوصية السلطان له وهو الذي أخرج عليه كلفة تجهيزه وخرجه من مال كان الأشرف دفعه إليه في حياته وأوصاه أن يحضر غسله وتكفينه ودفنه⁽²¹⁴⁾ وعندما انتهى أمر تجهيز الملك الأشرف هُمل في نعش⁽²¹⁵⁾ من الدور السلطانية إلى أن صلي عليه بباب القلعة من قلعة الجبل، وتقدم للصلاة عليه قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر⁽²¹⁶⁾، وتمثلت مراسم تجهيز الملك الأشرف أبي النصر إينال العلوي الظاهري برقوق في الغسل والتكفين ثم الصلاة عليه بباب القلعة من قلعة الجبل⁽²¹⁷⁾.

وعندما مات الملك الظاهر أبو سعيد خشقدم⁽²¹⁸⁾ (872هـ/1467م) وعندما أشيع خبر وفاته اضطربت القاهرة، وأسرع الأمراء بالصعود إلى القلعة وصعد الأتابكي يلباي وهو ييكي⁽²¹⁹⁾ وعندما اجتمع الأمراء أخذوا في تجهيز السلطان⁽²²⁰⁾ فغسلوه وكفونه⁽²²¹⁾ والملفت للنظر تجهيز السلطان من تغسيل وتكفين والصلاة عليه كل ذلك قبل أن يبايع

(211) الدمشقي، شذرات الذهب، ج4، ص165، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص60.

(212) العيني، السيف المهند، ص ث، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص59.

(213) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص191، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص106.

(214) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص107.

(215) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص191.

(216) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص107.

(217) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص157.

(218) السيوطي، نظم العقبان في أعيان الأعيان، ص109، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص175.

(219) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص454.

(220) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص306.

(221) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص454، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص306.

العساكر يلباي المذكور بالسلطنة وهو الذي حدث من تجهيز السلطان وإخراجه قبل أن يتسلطن سلطان غيره ثم يأخذوا بعد ذلك في تجهيزه.⁽²²²⁾

وعندما مات السلطان الأشرف قايتباي بدأ النداء عليه بالقاهرة حتى يجتمع الناس للصلاة عليه وهم يقولون: "نصلي غداً باكر النهار على العبد الفقير إلى الله - تعالى - الأشرف قايتباي"، وبدأ الأمر في تجهيز السلطان بتغسيله وتكفينه وإخراجه فُغسل في المكان الذي مات به، وخرج بنعشه أمام الدكة التي بالحوش السلطاني فصلوا عليه هناك ونزلوا من سلم المدرج⁽²²³⁾.

جنازة السلاطين:

لا شك أن جميع السلاطين الذين توفاهم الله وفاة طبيعية كان لهم جنازة، ولكن هناك من كانت جنازته غير مشهودة وبها أعداد قليلة من الناس ومنهم من كانت جنازته مشهودة ولم يكن لها مثيل، وتفاصيل ذلك:

أولاً: من كانت جنازته غير مشهودة من السلاطين وحضرها عدد قليل من الناس فالسلطان الظاهر بيبرس كانت جنازته قاصرة على الأمراء وكبار خواصه وصلوا عليه وبعد أن حمل نعشه من القلعة إلى التربة ليلاً على أعناق الرجال⁽²²⁴⁾ وضعوه وصلوا عليه، وبعد الصلاة أخذه الأمراء ودفنوه بالقبة من المدرسة التي بنيت له، وذلك بحضور

(222) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 16، ص 306.

(223) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ 3، ص 334، عبد الرحمن عبد التواب، قايتباي المحمودي، ص ص 87-88.

(224) كنتم نعي الظاهر بيبرس عن الجمهور مدة شهر، وقد حملت محفة خالية إلى القاهرة، وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض، لذلك لم يعتل عرش السلطنة ابنه السعيد إلا في الثلاثين من شهر يولية. راجع: السير وليم موبر، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص 60، وقد قيل إن الظاهر بيبرس دخل مع الجيش وأعلن موته وأقيم له العزاء وحلفت الأمراء للملك السعيد ابنه، راجع: الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ 5، ص 307، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ 4، ص 132.

نائب الشام، وكان قد ألحده قاضي القضاة عز الدين محمد ابن عبد القادر بن عبد الخالق ابن مقلد أبو المفاخر المعروف بابن الصائغ⁽²²⁵⁾.

وقد قيل إن جنازة الناصر محمد بن قلاوون كانت جنازة مشهودة⁽²²⁶⁾ وتخالف المصادر والمراجع هذا الرأي، فتصف جنازة الناصر محمد بن قلاوون بما يخالف رأي ابن إياس صاحب بدائع الزهور، الذي وصف لنا جنازة الناصر محمد وصفاً مؤثراً وذكر ذلك أيضاً النويري، فذكر المقرئ⁽²²⁷⁾ عن جنازته أنها وقعت بالليل ولم يمش وراءها سوى عدد قليل من أمراء مصر⁽²²⁸⁾ وبذلك لم يشترك الشعب في توديع سلطانه الذي جباه بعطفه ومحبه، ولم ترأع في تكفينه ومواراته التراب مراسم الاحترام والإجلال اللائقين بسلطان عظيم كالناصر محمد بن قلاوون الذي تمتع الشعب والبلاد في عهده بكل أنواع الطمأنينة، ومن المرجح أن هذا العمل كان من تدبير بعض الأمراء الذين كانوا يكرهون الناصر محمد لشدة عليهم وقمعه لفتنهم المستمرة التي هددت عرش سلاطين المماليك لدرجه أنها هددت عرش الناصر محمد نفسه⁽²²⁹⁾.

أما النقد الشديد الذي وجه لجنازة الناصر محمد فهو الذي ذكره النويري حينما قال: "إن المعاملة السيئة لجثمان سلطان من أعظم سلاطين المماليك لم تعقد لسان الشعراء من صفوف الشعب عن تأيينه والإشادة بذكره بدليل ما ورد في كتاب الإمام للنويري الذي ذكر فيه "نعود إلى ذكر محاسن السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، كان رحمه الله عادلاً في رعيته، محسناً في قصبه، أبطل المظالم وكف أيدي كل ظالم" وقد قيل فيه:

فَقَدْ الْوُجُودَ بَلِ الْوُجُودُ لِفَقْدِهِ مُتَحَسِّرٌ أَضْحَى شَبِيهَ الْحَاثِرِ

(225) المقرئ، السلوك، ج1، ق2، ص646.

(226) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص482.

(227) المقرئ، الخطط، ج2، ص304 - 305.

(228) ذكر ابن كثير أن ولي عهد السلطنة وابن السلطان الناصر محمد لم يحضر دفنه، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، مج7، ج14، ص179.

(229) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، ط2، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1948م، ص92.

يَكِي عَلَيْكَ بِأَدْمَعٍ كَيَاقِبِ
تُحْمِرُ وَلَوْ لَوْ بَعْضُهَا كَجَوَاهِرِ
زَار الثَّرَى فَأَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ
وَأَجَابَهُ أَهْلًا بِنِعَمِ الزَّائِرِ⁽²³⁰⁾

وذكر في أحد المراجع عن جنازة الناصر محمد أنه دُفن في قبة والده من غير احتفاء إذ لم يحضر جنازته أحد من أسرته.⁽²³¹⁾

تلك كانت جنازة الناصر محمد الذي حكم قرابة ثلاثة وأربعين عامًا وقد سطر التاريخ العديد من منجزاته سواء التاريخية أم الاقتصادية أم السياسة أم الحضارية أم المعمارية، وكان عصره من أزهى عصور دولة المماليك بشقيها البحري والجركي، واستمر الحكم في ذريته من بعده فترة لا بأس بها، حتى استنكر معظم المؤرخين ما حدث في جنازته لدرجة أن أسرته لم يحضر أحد منهم هذه الجنازة، والشيء الغريب في ذلك ما ذكر عن وفاة وجنازة الناصر محمد "فسبحان من لا يحول ولا يزول، ملك البسيطة توفي غريبًا وغُسل طريحًا ودفن وحيدًا، عبرة لأولي الأبصار"⁽²³²⁾.

ومن الغريب أيضًا أن جنازة الملك المؤيد شيخ حضرها عدد قليل من الأمراء⁽²³³⁾ وفي الجنازة أمطرت السماء عند السير بجنازته مطرًا غزيرًا حتى مشى الناس في الوحل إلى المدرسة⁽²³⁴⁾ وكانت جنازة السلطان الظاهر سيف الدين أبي سعيد ططر الظاهري الجركسي 824هـ/ 1421م قليلة العدد ولم يحضرها إلا قرابة عشرين رجلًا لشغل الناس

(230) النويري، كتاب الإمام، مخطوط برلين ورقة 233 ب- 234أ، وقد أمدنا بهذه الفقرة المستشرق السويسري المسيو كومب مدير مكتبة جامعة فاروق الأول والأستاذ الزائر بكلية الآداب بالإسكندرية.

(231) السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص 102

(232) المقرئ، الخطط، ج2، ص 304-305، الشجاع، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص 110.

(233) بدر الدين العيني، السيف المهند، ص 3، العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص 231.

(234) العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص 237، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص 59، العيني، السيف المهند،

ص 3، الدمشقي، شذرات الذهب، ج4، ص 165، السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص 308.

بسلطنة ولده وساروا به حتى دفن بالقرافة من يومه بجوار الإمام الليث بن سعد - رضي الله عنه - (235).

هذا وقد كانت هناك جنازات مشهودة لبعض سلاطين المماليك مثل جنازة الملك الصالح علي بن السلطان المنصور قلاوون، فقد أقيمت له جنازة⁽²³⁶⁾ وكانت جنازة كبيرة وعظيمة بل مشهودة لم يسمع بمثلها على الإطلاق، فقد مشى جميع الناس في جنازته الأمراء والقضاة وغير ذلك، وقد صلى عليه مرة أخرى قاضي القضاة معز الدين نعمان بن الحسين يوسف الخطيبي الحنفي خارج القلعة، ودفن في تربة والدته⁽²³⁷⁾ خوند خاتون التي بجوار المدرسة الأشرفية بطريق السيدة نفيسة⁽²³⁸⁾، وكانت جنازة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون جنازة مشهودة أيضاً، فبعد أن وضعه الأمراء في تابوت نزلوا به بعد العشاء⁽²³⁹⁾

(235) العيني: العلامة محمود بن أحمد المعروف باليدري العيني، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر قطن، تحقيق: د/ هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية سنة 1962م، ص2، السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص7، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص206، راسم رشدي، مصر والشراسة، ص66.

(236) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص744، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص358، إبراهيم ابن يوسف البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، مخطوط بدار الكتب، ص2، هذه الجنازة تذكرنا بجنازة خارويه بن أحمد بن طولون، فقد قيل إنه حمل في تابوت إلى مصر، وكان لدخول تابوته يوم عظيم واستقبله جواربه وجواري غلمان، ونساء قواده ونساء القطنع بالصياح وما يصنع في المآتم، وخرج الغلمان، وقد حلوا أقيمتهم، وفيهم من سود ثيابه وشققها، وكانت في البلد ضجة عظيمة وصرخة تُسمع القلوب حتى دفن، راجع: هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1994م، ص109.

(237) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص289.

(238) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص744، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص358.

(239) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص276، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص369، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج2، ص40.

ومشى الأمراء وكبار رجال الدولة أمامه في جنازة عظيمة إلى أن وصلوا به إلى البيمارستان⁽²⁴⁰⁾.
ثم صلوا عليه هناك ودفن داخل القبة تجاه مدرسة الظاهر بيبرس⁽²⁴¹⁾ بين القصرين⁽²⁴²⁾
من القاهرة⁽²⁴³⁾، وقد كانت جنازة السلطان الظاهر برقوق جنازة كبيرة ومهولة وقد نُحِل
نعشه على الأعناق⁽²⁴⁴⁾ ومشى به من قلعة الجبل إلى التربة قبل صلاة الجمعة ومشى في
جنازته جميع الأمراء⁽²⁴⁵⁾ والعساكر والأعيان والرعايا⁽²⁴⁶⁾ وقد دفن الظاهر برقوق بالنهار
ولم يحدث هذا لأحد من ملوك مصر أن دفن بالنهار غيره⁽²⁴⁷⁾ وانشغل الناس بمواراته
وإهالة التراب عليه⁽²⁴⁸⁾ وقد دفن السلطان الظاهر برقوق حسب وصيته تحت أقدام

(240) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص276، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور،
ص369.

(241) المقرئزي، السلوك، جـ1، ق1، ص361، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص361.

(242) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص40، العباس الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ص165،
الذهبي، العبر في خبر من خبر، جـ5، ص363، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص276،
القلقشندي، صبح الأعشى، جـ3، ص499.

(243) المعروف أن القبة المنصورية كانت تجاه المدرسة المنصورية، وهما جميعًا من داخل باب المارستان
المنصوري، وبها قبر الملك المنصور قلاوون وابنه الملك الناصر محمد والملك الصالح عماد الدين
إسماعيل محمد بن قلاوون، راجع: المقرئزي، الخطط، جـ2، ص379، ابن تغري بردي، مورد
اللطافة، جـ2، هامش (5)، ص40.

(244) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105.

(245) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ2، ص496، العسقلاني، أنباء الغمر، جـ2، ص52.

(246) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص536-537.

(247) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص496،

العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيهان شكري، ص494.

(248) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ2، ص496.

الفقراء⁽²⁴⁹⁾ وفي لحد كما أوصى أيضًا ولم يدفن في الفساق⁽²⁵⁰⁾، وقد كانت جنازة السلطان الأشرف برسبائي هي الأخرى جنازة كبيرة ومشهودة، فقد حمل على أعناق الخاصكية وصغار الأمراء، ثم ذهب إلى القبر في جنازة يحضرها كبار رجال الدولة والأمراء، ودفن بترتبه التي أنشأها خارج القاهرة⁽²⁵¹⁾ في الصحراء، وكانت جنازته جنازة مشهودة وكبيرة، ولم يحدث في يوم موته اضطراب ولا فتنة ودفن قبيل المغرب⁽²⁵²⁾، بالإضافة إلى أن جنازة السلطان الظاهر جقمق جنازة كبيرة وعظيمة أيضًا فبعد أن حمل نعشه⁽²⁵³⁾ بدأت الجنازة التي كان يتقدمها أمام النعش ابنه السلطان الملك المنصور عثمان، بالإضافة إلى الأمراء والقضاة وجميع أعيان المملكة، وكانوا يمشون بسكون ووقار إلى أن صُلِّي عليه⁽²⁵⁴⁾ بمصلاة باب القلة من قلعة الجبل⁽²⁵⁵⁾ وصلى عليه الخليفة القائم بأمر الله

(249) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص 494، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 12، ص 105.

(250) منع النبي (ﷺ) الدفن في الفسقية لأن هذا مخالف للسنة المطهرة من حيث ترك الدفن فالذي في الفسقية كمن في بيت مغلق عليه، ومثل هذا لا يطلق عليه أنه مدفون، فقد تركوا الدفن وهو شعيرة من شعائر المسلمين، ونعمة امتن الله تعالى بها علينا.

راجع: ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، ج 3، ص 268، ولمزيد من التفاصيل راجع: ص 268 إلى ص 272.

(251) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج 2، ص 154، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 15، ص 107.

(252) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 2، ص 191، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 15، ص 107، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ج 2، ص 154.

(353) ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش (5) ص 3-4.

(254) العيني، عقد الجمان، ج 1، ص 9، السخاوي، الضوء اللامع، ج 3، ص 74، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 15، ص 453.

(255) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج 2، حررها وليام بير سنة 1930م، ص 349.

أبو البقاء حمزة⁽²⁵⁶⁾ وخلفه السلطان والقضاة وجميع الأمراء والعساكر ثم حمل بعد انقضاء الصلاة عليه وأنزلوه من القلعة⁽²⁵⁷⁾، حتى دفنوه بتربة أخيه الأمير جاركس القاسمي المصارع التي جددتها مملوكه قاني بك الجركسي بالقرب من دار الضيافة⁽²⁵⁸⁾ تجاه سور القلعة، وكانت جنازته كبيرة وكان يومه يوماً مشهوداً وعظيماً وقيل إنه لم تر جنازة للملك كجنازته⁽²⁵⁹⁾، وجلس الناس في الطرقات لمشاهدة جنازته الكبيرة العظيمة⁽²⁶⁰⁾.

وقد كانت جنازة السلطان الأشرف أبي النصر سيف الدين إينال العلالي الظاهري برقوق كبيرة ومشهودة، فبعد أن صلوا عليه بباب القلعة من قلعة الجبل⁽²⁶¹⁾ ونزلوا به من سلم المدرج جلس الناس لرؤيته وأقيمت له جنازة كبيرة، ودُفن في التربة التي أنشأها الجهمالي يوسف ناظر الخاص في الصحراء⁽²⁶²⁾ خارج القاهرة⁽²⁶³⁾.

أما السلطان الظاهر أبو سعيد خشقدم فعندما صلوا عليه بباب القلعة ومُحِل نعشه كان على نعشه مرقعة الفقراء، فساروا به إلى أن أنزلوه من باب المدرج ولم يكن معه جمع كبير من الناس بل إن جميع من كان معه أمام نعشه وحوله وخلفه من الأمراء والخاصكية كانوا دون العشرين نفرًا وكان معظمهم من الأجناد فإنه لم ينزل معه أحد من أمراء الألوفا كما

(256) ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش (2) ص2، ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج2، ص349.

(257) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص454.

(258) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص73، ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش (5)، ص3، يمكن أن نبرر أمر دفن الظاهر جقمق في تربة قاني باني الجركسي بأنه أراد أن يدفن إلى جوار أخيه جاركس القاسمي، راجع: ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش (5)، ص ص3-4.

(259) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص74.

(260) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص454.

(261) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص157.

(262) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص367.

(263) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، ج3، ص558.

هي العادة ولا أحد من المباشرين، المهم أن عوام الناس اجتمعوا حول نعشه إلى أن أوصلوه إلى تربته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من باب النصر ودُفن بها⁽²⁶⁴⁾.

وكانت جنازة الملك الأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي جنازة كبيرة وبها أعداد كبيرة من البشر، ومشى في الجنازة أمام نعش السلطان الأمراء والعسكر وتوجهوا به إلى تربته التي بناها في الصحراء شرقي القاهرة⁽²⁶⁵⁾.

مظاهر الحزن

حزن الناس حزناً شديداً على معظم سلاطين المماليك الذين ماتوا، فمن السلاطين الذين حزن الناس عليهم حزناً بالغاً السلطان الظاهر بيبرس، والملك الصالح علي، فقد حدث للملك المنصور قلاوون من الألم ما لا مزيد عليه⁽²⁶⁶⁾، هذا وقد ذكر ابن إياس أنه عندما مات الملك الصالح علي بن الملك المنصور قلاوون حزن عليه والده السلطان حزناً شديداً⁽²⁶⁷⁾ ويستمر ابن إياس في الوصف ذاكراً حال السلطان المنصور قلاوون عندما دخل عليه الأمراء فيقول: "وكان الأمراء جلوساً على باب الستارة ينتظرون ما يكون من أمره، فلما وقع الصراخ في دور الحرم، دخل الأمير طرنتاي نائب السلطنة فوجد السلطان مكشوف الرأس وشاشة على الأرض وهو يبكي ويصيح فلما رآه الأمير طرنتاي على هذه الحالة فالتقى الآخر شاشة عن رأسه، ثم إن بقية الأمراء دخلوا على السلطان، ورموا كلواتهم عن رؤوسهم، فأقاموا على ذلك ساعة"⁽²⁶⁸⁾، هذا يدل على أن السلطان قلاوون أظهر لموت ابنه جزعاً بالغاً وحزناً شديداً⁽²⁶⁹⁾ وتضمنت مظاهر الحزن الصراخ والعويل

(264) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص454.

(265) عبد الرحمن عبد التواب، قايتباي المحمودي، ص ص87-88، ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص334.

(266) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص289.

(267) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص289، المقرئ، السلوك، ج1، ق3، ص744.

(268) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص358.

(269) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص57.

والنحيب على السلطان بالإضافة إلى البكاء الشديد الذي بكاه السلطان على ابنه الملك الصالح، هذا إلى جانب مشاركة الأمراء للسلطان في أحزانه عندما دخلوا وهو يبكي ابنه الصالح عليًا وحزن الناس على الناصر محمد بن قلاوون بشدة أيضًا⁽²⁷⁰⁾.

وعندما مات السلطان الصالح إسماعيل حزنت الناس عليه أشد الحزن وتأسفت عليه غاية الأسف⁽²⁷¹⁾ ودارت الجوارى بالملاهي يضربن بالدفوف والمخدرات حواسر يبكين ويلطمئن⁽²⁷²⁾ وزاد حزن الناس عليه ووجدوا عليه وجدًا عظيمًا⁽²⁷³⁾، وقد كان الصراخ والعويل من مظاهر الحزن على وفاة السلطان الظاهر برقوق فكان الرعايا يبكون ويصرخون ويضعجون⁽²⁷⁴⁾ وقد امتلأت طرق الصحراء بالجوارى والنساء الثيبات الحاسرات منشرات الشعور من حرم ممالكه وحواشيه وهم يصرخون

(270) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص482.

(271) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص ص504-454.

(272) كان للنساء بعض العوائد القبيحة المكروهة في الموت مثل الندب والنياحة وزيارة القبور، فكان المحتسب يمنعهن من فعل ذلك لأنه لا يجوز في الإسلام، ومن خالفت هذه الأوامر عوقبت، ففي عام 910هـ/ 1504م أمر السلطان الغوري بالآل يقام عزاء بندابات وعهد إلى المحتسب بتنفيذ ذلك فقبض على نائحة أقامت عزاء بطارات وشهر بها على حمار والطار معلق في عنقها ووجهها ملطخ بالسواد، راجع: سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1986م، ص151. هذا وقد قيل إنه إذا سمع المحتسب وهو يتفقد المآتم والمقابر نادية أو نائحة عزَّرها ومنعها، قال (رحمته): "النائحة ومن حولها في النار"، ومنع المحتسب النساء من زيارة القبور لقول النبي (ﷺ): "لعن الله زوارات القبور" ومنعهن من كشف وجوههن ورؤوسهن خلف الميت، ومنعهن من تشييع الجنازة. راجع: الشيرزي: عبد الرحمن بن نصر الشيرزي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشرة: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1365هـ/ 1946م، ص110.

(273) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص98.

(274) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص ص536-537.

ويكون⁽²⁷⁵⁾ بشدة فقد كان هذا اليوم عبءاً لمن اعتبر، وقد حزن الناس أيضاً على السلطان جقمق حزناً شديداً⁽²⁷⁶⁾ إلى جانب حزنهم أيضاً على وفاة الناصر إينال العلاوي الظاهري برقوق الناصري فرج وازداد الحزن والأسف والبكاء على السلطان⁽²⁷⁷⁾ وقد حزن الناس أيضاً لفقد السلطان قايتباي المحمودي⁽²⁷⁸⁾.

أما عن السلاطين الذين حزن الناس عليهم بعد موتهم بمدة فالسلطان خشقدم لم يحزن الناس عليه يوم موته، ولكن حزنوا عليه بعد ذلك حزناً شديداً لما تسلطن بعده الأتابك يلبي، بل إن الناس أحسوا بفقده بعد أن تسلطن يلبي⁽²⁷⁹⁾.

مراسم عزاء السلاطين:

لا شك أن مراسم العزاء كانت واحدة في عصر معظم سلاطين المماليك، وقد أسهب المؤرخون في وصفها إسهاباً بالغاً، إلا بعض السلاطين الذين لم يذكر المؤرخون عن مراسم عزائهم إلا القليل.

ومن السلاطين الذين أسهب المؤرخون في وصف مراسم عزائهم السلطان الظاهر بيبرس على اعتبار أن بيبرس يعتبر أسطورة عصر سلاطين المماليك بما فعله من أعمال شهد بها هذا العصر.

(275) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص105، ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق2، ص536-537، الصيرفي، نزهة النفوس، ج2، ص496، ذكر ابن الحاج قاتلاً: فليحذر من نشر الشعور للنساء والدعاء بالويل والثبور وهو دعوى الجاهلية، وما يفعله بعض النساء من خرق قعور القدور السود وجعلها في حلوقهم وسكب التراب على الرؤوس وتلطix البيوت بالسواد، راجع: ابن الحاج والمدخل إلى الشرع الشريف، ج3، ص233.

(276) العيني، عقد الجمان، ج1، ص9، ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص303.

(277) ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص367.

(278) راسم رشدي، مصر والشراسة، ص86.

(279) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص307.

وتمثلت مراسم عزاء الظاهر بيبرس بعد دفنه بأن بدئ في إقامة عزائه في مصر والشام⁽²⁸⁰⁾ وجلس القراء لقراءة القرآن من ثاني يوم⁽²⁸¹⁾ وعندما انتهت سنة (676هـ/1227م)، اهتم صاحب بهاء الدين بعزاء السلطان الملك الظاهر وذلك على حسب ما جرت به العادة من سنة الملوك من القيام في أعزيتهم بما ينفع الغني والفقير⁽²⁸²⁾.

فقد تمثلت مراسم عزاء الظاهر بيبرس في مد الأسمطة في الخيام للقراء الذين يقرأون القرآن وللفقهاء أيضاً⁽²⁸³⁾ وتقرر أن يكون عزاء السلطان أحد عشر يوماً في أحد عشر موضعاً، نصبت فيها الخيمة العظمى السلطانية، وفرشت بالبسط الجليلة وصنعت بها الأطعمة⁽²⁸⁴⁾ والأشربة الشهية، واجتمع على الموائد جميع العوام والخواص، وأخذوا منها ووزعوا على الربط والزوايا، وقد كانت كل ليلة من ليالي العزاء يحضرها الأمراء والقضاة والشهود والفقهاء والصوفية⁽²⁸⁵⁾ إلى جانب حضور القراء والوعاظ⁽²⁸⁶⁾ أما عن المواضع (الأماكن) التي أقيم فيها العزاء فكان يعرف بالبقعة⁽²⁸⁷⁾ المعروفة بالنقعة بجوار مسجد يعرف بالأندلس، والثاني بالحوش السلطاني الملكي الظاهري، والثالث بالمدرسة المجاورة

(280) المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص641، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص177.

(281) المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص647.

(282) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص230.

(283) المقرئزي، السلوك ج1، ق2، ص648-649.

(284) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص266.

(285) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص230.

(286) كان القرآن الكريم يُقرأ، وكذلك بعض المواعظ لأهل الميت سواء في المنزل أو عند المقابر، ترحماً على المتوفي ولبعث الصبر في نفوس أهل الميت حتى يخفف عنهم وقع مصيبة الموت التي نزلت بهم فكان من التعاليم المرعية، راجع: ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة (من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة سنة 1995م، ص27، سعيد سيد أحمد، عادات المسلمين الأندلسيين عند الموت، ص56.

(287) في هذا المكان مسجد بناه الأمير أبو منصور صافي الأفضل، يعرف بمسجد البقعة، راجع:

المقرئزي، الخطط، ج2، ص447، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص231.

لقبة الشافعي رضي الله عنه ، والرابع بجامع مصر ، والخامس بجامع ابن طولون ، والسادس بالجامع الظاهري بظاهر القاهرة بدار الحديث الكاملية ، والعاشر بالخانقاة (برجة العيد) والحادي عشر بالجامع الأنور الحاكمي⁽²⁸⁸⁾ وعمل التكاثر⁽²⁸⁹⁾ وقد أقيم للفقراء خوان حضره كثير من أهل الخير.⁽²⁹⁰⁾

وتمثلت مراسم عزاء الملك الصالح علي بن المنصور سيف الدين قلاوون في نزول السلطان في اليوم التالي لزيارة قبر ولده، وجلسه هناك، وحضر جميع القراء، وقد استمر العزاء والمأتم سبعة أيام مستمرة⁽²⁹¹⁾ وقد أخذ السلطان عزاء ابنه وأرسلت كتب العزاء إلى جميع النواب بالممالك ورسم فيها بألا يقطع أحد شعراً ولا يلبس ثوب حداد ولا يغير زيه⁽²⁹²⁾، معنى هذا أنه عندما كان يموت الميت كان أهله يلبسون ملابس الحداد عليه وذلك بتغيير زيهم المعتاد لبسه، ولولا كتاب السلطان إلى جميع الممالك بتلك الوصية لبسوا ملابس الحداد وغيروا زيهم الأصلي.

وعلى الرغم مما فعله الناصر محمد بن قلاوون وسطر التاريخ أعماله ومنجزاته الرائعة إلا أن المصادر والمراجع لم تذكر عن مراسم عزائه إلا القليل ، كل ما ذكرته المصادر أنه في ثاني ليلة دُفن فيها السلطان الناصر محمد ختمت له ختمة في المدرسة وكان بها بعض الأمراء⁽²⁹³⁾ ودامت قراءة القرآن على قبره أياماً⁽²⁹⁴⁾ ولم نجد مد أسمطة أو تلقي

(288) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 231.

(289) التكاثر: هم أهل بلاد التكرور، وهي أحد الأقاليم الإفريقية الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية من مصر وقاعدتها مدينة تكرور، وأهلها أشبه بالزنوج. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 861، الفلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص ص 286-287.

(290) المقرئزي، السلوك، ج1، ق2، ص ص 648-649.

(291) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ق1، ص 358.

(292) المقرئزي، السلوك، ج1، ق3، ص 744، ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص 289.

(293) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص 110.

(294) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص 165.

العزاء في الخيام كما حدث في عزاء الظاهر بيبرس، والظاهر برقوق، فعندما مات الظاهر برقوق بدأ النداء في القاهرة ومصر بأن يترحم الناس على الملك الظاهر برقوق وأن يدعو الناس للملك الناصر ولي عهده وبدأ تطمين الناس وأمنهم، وضربت خيمة مدورة على قبره وقرئ القرآن على قبره ثمانى ليال متوالية⁽²⁹⁵⁾ ومُدت لهم الأسمطة العامة الفخمة والعظيمة، وقد تردد عليه أكابر الدول في كل ليلة إلى قبره لزيارته⁽²⁹⁶⁾.

ومن المرجح أن جميع سلاطين المماليك أقيم لهم عزاء ومدت لهم أسمطة وقرئ عليهم القرآن في خيام مثل السلطان الأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والظاهر أبي النصر سيف الدين العلاي الظاهري برقوق الناصري فرج، والظاهر سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي، والدليل على أن هؤلاء السلاطين أقيم لهم عزاء مشهود هو جنازتهم التي كانت مشهودة وحضرها جميع الناس من كبار رجال الدولة إلى صغارها بالإضافة إلى أن حزن الناس على هؤلاء السلاطين وأساهم عليهم وبكاءهم ونواحهم يعطي انطباعاً عن أن عزاءهم كان مشهوداً، باستثناء بعض السلاطين الذين نرجح أيضاً أنهم لم يقيم لهم مراسم عزاء مثل السلطان المؤيد شيخ الذي كانت جنازته غير مشهودة بدليل أن مشى بها عدد قليل من الأمراء، هذا إلى جانب السلطان سيف الدين أبي سعيد ططر الظاهري الجركسي (824هـ/ 1421م) الذي يرجح أن مشى بها عدد قليل من الرجال بدليل أنه عندما غُسل وكُفن لم يخرج معه إلا عشرون رجلاً، فمن المحتمل أن يكون هم الذين مشوا في جنازته، والسلطان الملك الظاهر أبي سعيد خشقدم الذي لم يمش في جنازته إلا الأمراء والخاصكية دون العشرين نفرًا وكان معظمهم من الأجناد.

النتائج التي أسفرت عنها الدراسة:

- قتل عدد كبير من سلاطين المماليك ومعظمهم عومل معاملة قاسية عند القتل، فكان السلطان يُترك بدون تغسيل أو تكفين بعد مرور أكثر من ثلاثة أيام مثل السلطان قطز.

(295) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص494، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص105.

(296) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص105، العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص52.

الذي ظل مُلقًى بالعزاء فترة طويلة، والسلطان الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذي قُتل وظل مُلقًى في العزاء لمدة يومين دون أن يُغسله أحد أو يُكفنه أو يدفنه، وقتل الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري الذي رموه على المذبة بمنتهى الإهانة، ومن المرجح أنهم لم يقيم لهم عزاء أو مراسم للدفن والعزاء وذلك لأن المصادر والمراجع لم تذكر شيئاً عن مراسم العزاء، وكل ما ذكر هو مراسم الدفن فقط من تغسيل وتكفين ودفن ولكن بعد مرور فترة ليست بالقليلة، إلى جانب الناصر أحمد بن الناصر محمد الذي قُتل بالكرك وترك مقتولاً لفترة وعندما وجدوه وأُشيع خبر وفاته بدأوا في تجهيزه للدفن.

- الشيء الواضح والملفت للنظر هو قتل الأخ لأخيه عندما أمر المظفر حاجي بقتل أخيه الملك الكامل زين الدين شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون.

- قتل الملك ودفنه دون تغسيل أو تكفين مثلما حدث مع السلطان المظفر حاجي عندما قتله الأمير ببيغاروس وتوجه به إلى تربة عند باب المحروق ودفنه دون أن يشعر به أحد بدون تغسيله أو حتى تكفينه فإنه مات ميتة بشعة ودفن دفنة بشعة أيضاً.

- لم يُغسل أو يُكفن أيضاً السلطان الناصر حسن فقد قبض عليه يلغاً وخنقه وقتله، وتعددت الآراء فهناك من ذكر أن جثته رميت في البحر، وقيل إن يلغاً عاقبه عقاباً شديداً ودفنه في مصطبه دون أن تراعى له حرمة أو مكانة في أنه كان سلطاناً أو أن إكرام الميت تجهيزه من تغسيل وتكفين ودفن، ولكن للأسف لم يحدث هذا مع معظم سلاطين المماليك الذين قتلوا وعوقبوا أشد عقوبة حتى القتل.

- الشيء الغريب أيضاً قتل السلطان الأشرف زين الدين أبي المعالي شعبان بن حسين، قيل إنه قتل ببشاعة فبعد أن قتل وضع في قفة ورمي في بئر لمدة كبيرة حتى إن رائحته قد ظهرت، أليس هذا منتهى الإهانة لأحد سلاطين المماليك الذين سطر التاريخ ذكراهم، ولم يُجهز مثل باقي البشر (العوام من الناس) فلم يُغسل ويُكفن ولم تقم له مراسم للعزاء، إلى جانب ما حدث للناصر فرج بن برقوق الذي قتل ورمي فوق المذبة ولم نسمع له عن

مراسم للدفن ولا للعزاء ، إلى جانب السلطان قنصوة الغوري الذي قُتل ولم يعرف له جثة ولا رأس إلى الآن وكأنها ابتلعت الأرض جثته ، والسلطان الأشرف أبي النصر طومان باي الذي شنع أمام جمع غفير من البشر وظل معلقاً على باب زويلة ثلاثة أيام حتى فاحت رائحته.

- من الملاحظ في طريقة قتل الأمراء المماليك لسلطينهم وقسوتهم الوحشية التي قتلوا بها وتركهم في العراء ، أنها لم تأت من فراغ ولكن تأثر فيها المماليك بالمغول الذين جاءوا إلى مصر وانتشرت عاداتهم وتقاليدهم فقد تفننوا في وسائل القتل والتعذيب ، فتاريخهم حافل بحوادث الفرع والرعب والدسائس والمؤامرات والخسة والدناءة ، كل هذا حمله المغول معهم من بلادهم ونقلوه إلى المجتمع المصري وتأثر به الأمراء المماليك ، فالذبح وقصف الظهر نصفين ووسائل القتل الأخرى تأثر فيها المماليك بالمغول.

- إن ما حدث هو عدم مراعاة حرمة سلاطين المماليك حتى لو أن سلاطين المماليك قد أساءوا التصرف مع أمرائهم أو رعيتهم ، ونحن نعلم أن إكرام الميت دفنه فكان من الأفضل بعد قتل سلاطين المماليك ستر أجسادهم ومواراتهم وما يتطلب ذلك من تجهيز الميت لتغسيله وتكفينه فلم تُراع لهم حرمة أو أن بعضهم كان في يوم ما سلطاناً ابن سلطان كان قد أحسن إلى رعيته ، وكان يجب مراعاة السلطنة وناموس الملك ، والملوك لهم غيرة على الملوك ولو كان بينهم العداوة والخصومة ، وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك من السلاطين من قتل ومات وأقيمت له مراسم للدفن والعزاء كالسلطان ابن السلطان الذي حفظت له حرمة وهيئته وعُومل معاملة السلاطين وهو السلطان الملك السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس ، فهو من السلاطين الذين قتلوا وروعت حرمة كسلطان ابن سلطان.

- أما عن السلاطين الذين ماتوا ميتة طبيعية فقد كان السلطان يصيبه المرض ثم عندما يحس بدنو أجله يبعث ليحضر الأمراء والقضاة والخليفة ليولي العهد إلى ابنه الكبير ، ثم يحلفون على تلك الوصية وبعد ذلك يتوقف السلطان ، وقبل أن يجهز للدفن كانت تتم مراسم تنصيب ولي العهد للسلطنة باستثناء ما حدث مع السلطان خشقدم الذي لم تكن

له وصية قبل وفاته، والسلطان الأشرف أبي النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري الذي لم يرد على الأمراء عندما طلبوا منه أن يعهد بولاية العهد لابنه، وتوفي دون أن يوصي لأحد بوصية أو يعهد بالحكم إلى أحد أبنائه.

- معظم سلاطين المماليك ماتوا بمرض البطن أو الإسهال الدموي مثل السلطان الظاهر بيبرس، والسلطان الصالح علي بن المنصور سيف الدين قلاوون الذي مرض بالإسهال الدموي بعد حضوره للسمات (المائدة)، أيضًا الناصر محمد بن قلاوون، والسلطان الظاهر برقوق الذي مرض بعد أن تناول أطعمة مختلفة وخلط في الطعام وأصيب بمرض الحمى، والسلطان المؤيد شيخ عبد الله المحمودي، الذي اشتد عليه مرض الإسهال المفرط، والأشرف برسباي الذي مات بمرض القولنج، فمن المرجح أنه مع كثرة وجود الطعام مختلف الأشكال والألوان وتناولهم الطعام باردًا ثم ساخناً ثم حلواً ثم مالحة، فطعامهم هذا هو أساس مرضهم بمرض البطن والإسهال الدموي، كالذي حدث أيضًا للسلطان أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي، والأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي الظاهري.

- هناك من السلاطين من مات بمرض الخوف وشدة الرعب مثل السلطان الصالح إسماعيل (سنة 746 هـ / 1345 م).

- من السلاطين من مات دون أن تكون له وصية مثل السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، والملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي.

- عندما كانت تخرج الجنازة كان يتقدمها الخليفة وكبار الأمراء وولي العهد الجديد السلطان ابن السلطان المتوفى وتستمر الجنازة في سيرها إلى أن تصل إلى موضع الدفن.

- من العادات المتبعة بعد دفن الملوك أن يُحضروا المقرئين لتلاوة القرآن على القبر وذلك لمدة سبع ليال أو أكثر قد تصل إلى الشهر، ومن العادات المتبعة للملوك بعد الدفن مد الأسمة للأغنياء والفقراء وتفريق الأطعمة على أهل الزوايا وجموع الناس المحتشدة إلى جانب إضاءة وإشعال الشموع.

- من الملوك والسلاطين الذين لم يقيم لهم عزاء أو جنازة كما يجب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث إن جنازته لم يسر وراءها سوى عدد قليل من أمراء مصر، ولم يشترك الشعب في توديع سلطان عظيم كهذا .
- اتفقت وصايا السلاطين قبل وفاتهم على تولية أحد أبنائهم لولاية العهد ولكن هناك من كان يوصي بدفنه في أحد الأماكن مثل السلطان الظاهر بيبرس الذي أوصى أن يدفن بالطريق السالكة بدمشق، وأوصى ابنه أيضًا أن يتبّه إلى أمرائه ويتحاشى غدرهم، وهذه اختلفت عن وصية السلطان الظاهر برقوق الذي أوصى أن يدفن تحت أرجل الفقراء والصالحين وأن يدفن دفن السُّنة في اللحد بخلاف الدفن في الفساقى، وأوصى بالمال إلى زوجاته.
- من السلاطين من مات دون أن تكون له وصية مثل المنصور سيف الدين قلاوون والملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي.
- اختلفت مراسم الدفن وتجهيز السلاطين الماليك ، ولكن الشيء الملاحظ واللافت للانتباه هو تحنيط جثة السلطان الظاهر بيبرس، ومن المحتمل أن تكون جثة الظاهر بيبرس قد حُظت لأنه يعتبر بحق أسطورة سطر التاريخ أحداثها، فيبرس يعد من أعظم سلاطين الماليك ؛ إذ اجتمع فيه من الصفات ما يجعله يحوز إعجاب المؤرخين جميعًا في الشرق والغرب، وأحاط بيبرس عرشه وعرش من جاء بعده من سلاطين الماليك بسياج من القداسة والتبجيل.
- جميع سلاطين الماليك دفنوا في الفساقى إلا السلطان الظاهر برقوق دُفن في لحد على طريقة السُّنة وليس في الفساقى.
- اختلفت جنازة السلاطين الماليك من سلطان لآخر فقد كانت هناك جنازة مشهودة وجنازة غير مشهودة أو كبيرة، فالجنازات المشهودة والكبيرة لسلاطين الماليك مثل جنازة الملك الصالح علي ابن السلطان المنصور قلاوون، وجنازة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، والسلطان الظاهر برقوق، والسلطان الأشرف برسباي،

والظاهر جقمق والأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي ، أما عن جنازة السلاطين غير المشهودة فجنازة السلطان الظاهر بيبرس القاصرة على الأمراء ، وجنازة الناصر محمد ابن قلاوون ، وجنازة الملك المؤيد شيخ ، والسلطان الظاهر سيف الدين أبي ططر الظاهري الجركسي .

- كانت ملابس الحداد في تلك الفترة هي لبس السواد، ولكن نجد أن السلطان المنصور قلاوون قد لبس البياض على الملك السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس عندما كان جالسًا يتلقى العزاء، ولا نعلم إن كان لبس البياض للرجال وأن لبس السواد كان للسيدات ، أو أنه كان سلطانًا لذا فقد كان يلبس البياض .

- من مظاهر الحزن عند الوفاة لبس السواد، وتلطيف الأجسام بالسحام والطين، إلى جانب الطواف في الشوارع الذي كان يقوم به الندابات والنواحات والصياح على الميت وشق الأثواب كما حدث في جنازة السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، ففي مأتمه خرجت الندابات اللاتي يضربن بالطارات والدفوف وأقيمت المغاني بالنواح، كما كُنَّ يلطمن وجوههن ، وجرت العادة أنه في اللحظة التي يخرج فيها نعش الميت لتشيع جنازته يصيح الرجال والنساء معًا صيحة واحدة عالية يعتبرونها وداعًا للميت ، كما كانت العادة لطم الخدود مع الصياح، وهناك جماعات عرفوا في ذلك العصر وأطلق عليهم الفقراء الذاكرون . يحضرهم أهل الميت ليزكروا أمام الجنازة وينوحوا ويبكوا إلخ. تمثلت مراسم عزاء السلاطين في قراءة القرآن ومد الأسمطة للأغنياء والفقراء في الخيام التي كانوا يتلقون فيها العزاء لمعظم سلاطين العصر المملوكي .

قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي وردت في البحث :

أولاً: المصادر العربية:

- 1 - إبراهيم بن يوسف البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، مخطوط بدار الكتب القومية، تحت رقم 1172، فقه حنفي، ميكرو فيلم 38286.
- 2 - ابن أبي الفضائل (مفضل)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .
- 3 - ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة سنة 1976م.
- 4 - ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1992م.
- 5 - ابن الجيعان: يحيى بن شاكر بن الجيعان، كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، تحقيق: برنهارد مورتيس، القاهرة سنة 1898م، المطبعة الأهلية سنة 1992م
- 6 - ابن الحاج: الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، دار الفكر للطباعة والنشر.
- 7 - ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، حققه : د. قسطنطين رزيق، د. نجلا عز الدين، الجامعة الأمريكية في بيروت، المجلد الثامن، سنة 1939م.
- 8 - ابن الوردي: زيد الدين عمر، تاريخ ابن الوردي ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ، سنة 1389هـ / 1969م.
- 9 - ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب المقدمة: محمد مصطفى، ج1، ق1، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة بولاق سنة 1311هـ.
- 10 - ابن إياس: الأيام الأخيرة من حكم السلطان الملك الظاهر محمد أبي سعيد جقمق ، سنة 1951م.
- 11 - ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، حررها : وليام بير سنة 1930م.

- 12 - ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، القاهرة دار الكتب المصرية سنة 1956، وهناك تحقيق آخر: د. محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، سنة 1993م.
- 13 - ابن تيمية، مجموع من الفتاوى الكبرى، مرتباً على الأبواب الفقهية ومخرج الأحاديث على مسند الإمام أحمد، إعداد: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر سنة 1993م.
- 14 - ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه ووضع حواشيه، د. محمد محمد أمين، راجعه وقدم له د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب سنة 1976م.
- 15 - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، القاهرة سنة 1966م.
- 16 - ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي، المخصص، ط1، بولاق سنة 1900م.
- 17 - ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء / أحمد حطيط، فرائز شتاتير بقيسبادن سنة 1403هـ / 1983م.
- 18 - ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، سنة 1396هـ / سنة 1976م.
- 19 - ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. مراد كامل، القاهرة سنة 1961م.
- 20 - ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة (من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة سنة 1995م.
- 21 - ابن كثير: الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر. سنة 1358هـ.
- 22 - ابن مفتاح: أبو الحسن بن عبد الله، شرح الأزهار، القاهرة سنة 1938م.
- 23 - ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار صادر، بيروت سنة 1985م.

- 24 - ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، خمسة أجزاء، مطبعة جامعة فؤاد الأول سنة 1953 م.
- 25 - أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، ط1 بالمطبعة الحسينية المصرية سنة 1325 م.
- 26 - أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسين بن حمزة الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ، تحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 27 - أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: د. محمد بن المعيد خان، ط2، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد - الهند، سنة 1972 م.
- 28 - البخاري، صحيح البخاري، القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط3، سنة 1416 هـ / 1996 م.
- 29 - الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غير، حققه وضبطه على مخطوطين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 30 - الدمشقي: عبد الحلي بن أحمد العكري الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 31 - الدواداري: أبو بكر بن عبد الله بن أيك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة سنة 1972 م.
- 32 - الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العبر في خبر من غير، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط2 مصورة، مطبعة حكومة الكويت سنة 1948 م.
- 33 - الزهري: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الذهبي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ط1، دار صادر، بيروت.
- 34 - السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 12 جزءاً، القاهرة، 1353-1355 هـ / 1934-1936 م.
- 35 - السيوطي: الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نظم العقبان في أعيان الأعيان، حرره: د. فيليب حتى، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك سنة 1927 م.
- 36 - السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، مطبعة السعادة، مصر سنة 1357 هـ / 1952 م.

37 - السيوطي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان السيوطي، (ت 97هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه: خليل المنصور، مج2، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

38 - الشيزري: عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشرة: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1365هـ/ 1946م.

39 - الصفدي: الحسن بن أبي محمد عبد الله الهاشمي العباسي، نزهة المالك والمملوك في مختصر من ولي مصر من الملوك، مخطوطة المتحف البريطاني رقم 23662، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط1، سنة 1434هـ/ سنة 2003م.

40 - الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: د. حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة 1970م.

41 - العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط1، دار الجبل، بيروت سنة 1992م.

42 - العماد الحنبلي: المؤرخ الفقيه الأديب عبد الحي العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عنيت بنشره مكتبة القدس، القاهرة سنة 1350هـ.

43 - العيني: العلامة محمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق: د. هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية سنة 1962م.

44 - العيني: بدر الدين العيني، السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة من خلال مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: إيمان شكري، ط1، القاهرة سنة 2002م.

45 - العيني: بدر الدين العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ الحمودي، حققه وقدم له: فهميم محمد شلتوت، راجعه: د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب للطباعة والنشر، القاهرة سنة 1966 - سنة 1967م.

46 - العيني: بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه: د. محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة سنة 1990م.

47 - القلقشندي: أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف علي طويل، ج3، ط1، دار الفكر، دمشق سنة 1987م.

48 - المقرئ: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة 1968م.

49 - المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة العربية سنة 1270هـ، وهناك طبعة أخرى 4 أجزاء، مكتبة الأدب.

50 - المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، ج1، ق2، مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة 1943م، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1914م.

51 - النويري: كتاب الإمام، مخطوط برلين عن المستشرق السويسري المسيو كومب مدير مكتبة جامعة فاروق الأول والأستاذ الزائر بكلية الآداب بالإسكندرية.

52 - اليافعي: الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن سليمان اليافعي اليمني المكّي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.

53 - اليونيني: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج2، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن، الهند سنة 1375هـ/ سنة 1995م.

54 - ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1355هـ/ سنة 1936م.

55 - بيبرس المنصوري، كتاب التحفة الملوكة في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهرسه د. عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية القاهرة سنة 1987م.

56 - شمس الدين الشجاع، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالح وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية بربارة شيفر، النص العربي، يطلب من دار النشر فرانز شتاينر - فيسبادن سنة 1978م.

57 - كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ط1، سنة 1988م.

58 - محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

59 - يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام: (245-298)هـ الأحكام في الحلال والحرام، جمعه: علي بن أحمد بن أبي حريصة، ط3، منشورات مكتبة التراث الإسلامي، سنة 2003م.

ثانيًا: المراجع العربية:

- 1 - أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة القاهرة سنة 1988.
- 2 - السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، ط1، القاهرة سنة 1995م.
- 3 - برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية الأستاذ: خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له: د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر.
- 4 - ت.ج.هـ. جيمز، كنوز الفراعنة، ترجمة: د/ أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماهر طه.
- 5 - حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، تقديم: د. محمد مصطفى زيادة، الدار اليومية للطباعة والنشر القاهرة سنة 1996م.
- 6 - راسم رشدي: مصر والشراكسة صفحات من تاريخ مصر الحديث بحث وتحقيق، القاهرة سنة 1948م.
- 7 - سعيد سيد أحمد أبو زيد، عادات المسلمين الأندلسيين، حولة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الرابع، مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة سنة 2004، 2005م، ص51.
- 8 - سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط1، دار النهضة العربية القاهرة سنة 1965م.
- 9 - سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة 1986م.
- 10 - صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية، منشأة المعارف بالإسكندرية.
- 11 - عبد الحميد صالح حمدان، مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى عام 702هـ) تأليف: بيارس المنصوري، الدار المصرية اللبنانية.
- 12 - عبد الرحمن محمود عبد التواب، قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة 1978.

- 13 - عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، ط3، الرياض سنة 1410هـ/ سنة 1989م.
- 14 - عبد القادر أحمد عبد القادر: إسهال الكساء على عورات النساء، دار الوثائق للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق سنة 2006م.
- 15 - علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ الممالك البحرية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة 1967م.
- 16 - فؤاد عبد المعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان)، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، سنة 1407هـ/ سنة 1987م.
- 17 - فؤاد عبد المعطي الصياد، مؤرخ المغول الكبير (رشيد الدين فضل الله الهمزاني)، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة 1967هـ.
- 18 - فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1، جروس برس سنة 1995م.
- 19 - قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين الممالك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، القاهرة سنة 1998م.
- 20 - قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، الأيوبيون والممالك، ط2، عين للدراسات والبحوث القاهرة سنة 1996م.
- 21 - قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والممالك، عين للدراسات والبحوث القاهرة سنة 2003م.
- 22 - محمد أحمد موسى هياجنة، محاضرات في تاريخ المغول والممالك، مكتبة الحرمين، إربد.
- 23 - محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، ط2، دار المنار سنة 1417هـ/ سنة 1997م.
- 24 - محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، طبعة جديدة، بيروت، سنة 1415هـ سنة 1995م.
- 25 - محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م، القسم الأول، البلاد المدرسة، مطبعة دار الكتب المصرية سنة 1953م - 1954م.
- 26 - محمد عبد الغني الأشقر: الملحمة المصرية عصر الممالك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباي، ط1، مكتبة مدبولي.

27 - محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، ط2، دار النقاش، بيروت 1403هـ.

28 - محمد مصطفى زيادة، بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، كلية الآداب، الجامعة المصرية، مجلد رقم (4) عدد رقم (1) سنة 1936م.

29 - نور الدين خليل، سيف الدين قطز قاهر المغول (المماليك المفترى عليهم)، بدون تاريخ.

30 - هويدا عبد العظيم رمضان: المجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1994م.

المراجع والمواقع الأجنبية:

- 1- Bar hebraeus, the chronography, trans. From. Vriac. By Wallis budge, London, 1932.
- 2- Bertold spuler, History of the Mongols based on eastern and western accounts of the thirteenth and fourteenth centuries.
- 3- Howorth, History of the Mongols, part I, the Mongols of Persia, London, 1888.
- 4- J. Sauvaget, la poste aux chevaux Dans l'empire Des Mamlouks, Paris (VI) 1941.
- 5- M.M. Ziada, the mameluk sultans to 1293.
- 6- Micheal prawdin, the Mongole empire, its and legacy, London 1967.
- 7- Syeda Satima sdequ M. a.ph.D, bay bars I of Egypt, oxford university press, Pakistan, first Edition 1956.
- 8- Text Arabe publice et traduit en Francis par. E .blochet patrologia orientalis, t.xlv. fasc,3 Paris, 1911, 1930.
- 9- The wafidiya in the Mameluk kingdom, no II in studies on the Mameluks of Egypt 1250- 1517, London 1977.
- 10- William muir, the mameluk are slave dynasty of Egypt, Amsterdam, oriental press, 1968.
- www.islamonline.net.
- www.wikipedia.org.
- www.coptic history. org.
- www.imadislam. com.
- www.janazh.com.
- www.ibntaimiah.al-islame.com.
- www.saaid.net.
- www.al-zad.net.
- www.alzaidyah.hasanonline.com.

لودولف السوكيمي ورحلته إلى مصر وبلاد الشام

1336 - 1341م

د . حسن أحمد عبد الجليل البطاوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة أسيوط

oboiikan.com

لودولف السوكيمي ورحلته إلى مصر وبلاد الشام

1336 - 1341م

إن رحلات الحجاج الأوربيين إلى بلاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى تقدم مادة تاريخية هامة ؛ وذلك لتنوع وطرافة موضوعاتها ، ولأن معظم الرحالة سجلوا ما لفت أنظارهم ، وما لا يفطن إليه المقيمون في ذات البلدان . وتختلف قيمة الرحلة حسب الفترة الزمنية التي وقعت فيها ، فما جرى تدوينه خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في ظل الوجود الصليبي في بلاد الشام ، تختلف قيمته عما دُوِّنَ بعد انهيار هذا الكيان . وتوافر لدى هؤلاء الرحالة الفرصة للتعرف على حياة المسلمين أكثر من ذي قبل، والتعرف على معتقداتهم ومقدساتهم⁽¹⁾ .

ورحلة لودولف السوكيمي من أهم الرحلات التي دونت في القرن الرابع عشر الميلادي ، وبعد سقوط الكيان الصليبي في بلاد الشام⁽²⁾ . فقد زار بلادًا عديدة ، أهمها مصر وبلاد الشام وبغداد والقسطنطينية وقبرص ورودس وصقلية وغيرها ، وكتب تقريرًا عن هذه الرحلة . وإن توقيت الرحلة له دلالات هامة ، سوف تقوم هذه الدراسة بإبرازها ، حيث ألقى الضوء على الرحالة ورحلته ، ثم أتحدث عن أهمية التقرير الذي دونه عن رحلته ، ومنهجه في التدوين ، وأشير إلى الأخطاء التي وقع فيها في هذا التقرير .

(1) Henry L. Savage, Pilgrimages and Pilgrim shrines in Palestine and Syria after 1095, in Setton, A History of the Crusades, Wisconsin, 1977, vol. 4, p. 64.

(2) Ludolph von Suchem's Description of the Holy Land, and of the way thither, translated by Aubrey Stewart, M. A., in Palestine Pilgrims Text Society, vol. XII, London, 1895, pp. 1-142.

لودولف ورحلته :

بداية ، فإن حظنا من المعلومات عن لودولف قليلة ، كغيره من الرحالة الأوروبيين في فترة العصور الوسطى . والمعلومات التي جُمعت عنه جاءت في ثنايا رحلته التي سجلها بقلمه . ولودولف هذا ألماني ، وكان قسيسًا لكنيسة سوكيم Suchem or Sudheim ، التابعة لأبرشية بادربورن Paderborn . وقد توثقت علاقته ببديلون ستينفورت Baldwin of Steinfurt أسقف هذه الأبرشية في الفترة من عام 1340 إلى 1361م . وذكر ستيوارت مترجم الرحلة أنه ربما كان بلديون هذا قد ساعد لودولف في كتابة رحلته ، وأنه أيضًا كان مصاحبًا له ⁽³⁾ . وهذان الاحتمالان ضعيفان ؛ لأن لودولف نفسه ذكر في مقدمة رحلته أنه لم ينس بلديون ، وهذا يعني أنه لم يصاحبه في الرحلة ، كما ذكر في أكثر من موضع أنه بعد عودته إلى وطنه احتفظ بفكرة الكتابة في ذهنه ، وأنه سيشرع في كتابة تقريره ⁽⁴⁾ . والأقرب إلى الصواب أن لودولف قام برحلته بناء على نصيحة أو تكليف من سيده بلديون ⁽⁵⁾ .

وقد بدأ لودولف رحلته إلى الشرق عام 1336م ، وكان برفقته على نفس المركب التي أقلته عدد من الفرسان الفرنسيين . والتقى أيضًا برحالة ألماني آخر ، هو فلهم بولدنسيل (بولنسيل) Wilhelm von Boldinsel ⁽⁶⁾ . واستمرت إقامة لودولف في الشرق خمس سنوات ، تنقل خلالها بين أقاليم ومدن وقرى وأماكن مختلفة عديدة . وإذا صدق لودولف فيما ذكره في رحلته ، فإنه التقى شخصيات بارزة عديدة ؛ ملوكًا وأمراء ونبلاء وأثرياء ، مما يدل على أنه لم يكن شخصًا عاديًا ، أو حاجًا ككل الحجاج الذين يفدون إلى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة ، بل كان شخصًا مرموقًا ⁽⁷⁾ .

(3) Ludolph, preface's Stewart, p., III.

(4) Ludolph, op. cit., pp., 1, 2, 136.

(5) Ludolph, op. cit., p., 136.

(6) Ludolph, op. cit., pp., 2, 41, 93.

وفلهم هذا راهب دومنيكاني ، أرسل في بعثة دبلوماسية إلى الأراضي المقدسة ، ورافقه فيها مجموعة من الحرس ، وكتب تقريرًا عن رحلته التي تزامنت في بعض سنواتها مع رحلة لودولف .

Ludolph, op. cit., p., IV.

(7) Ludolph, op. cit., pp., 1, 2, 43, 61, 71.

وفي عام 1341م استقل لودولف سفينته عائداً إلى وطنه ، ومثلما كانت رحلته إلى الشرق مليئة بالمخاطر ، كانت رحلة عودته كذلك . فقد تعرضت سفينته للتدمير أكثر من مرة ، من جراء الرياح الشديدة والأمواج العاتية في البحر المتوسط⁽⁸⁾ .

وعندما وصل إلى وطنه ، رأى أنه من الضروري أن يكتب تقريراً عن رحلته ؛ احتراماً وتقديراً لسيده بلدوين الذي ربما يكون قد كلفه بهذه الرحلة ، ولكنه انشغل عن الكتابة فترة من الزمن ، ومن الراجح أنه كتب رحلته بعد عودته بعدة سنوات ؛ لأنه سجل حوادث جرت في ألمانيا بين عامي 1348 - 1349م⁽⁹⁾ .

أهمية الرحلة :

والتقرير الذي كتبه لودولف عن رحلته من أهم ما كتبه الرحالة الأوروبيون عن بلدان حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى . وتتمثل أهمية هذا التقرير في عدة جوانب ؛ أولها الرحالة نفسه ، ثم توقيت الرحلة ومدتها واتساع نطاقها ، وثالثاً ما تضمنته الرحلة من معلومات نادرة وقيمة .

فأما عن الرحالة وما امتلكه من صفات ، فإننا نجد أنفسنا أمام رجل امتلك من الصفات ما جعله يبرز أقرانه ، فهو رجل دين ، والحقيقة الجلية التي قد تبدو غريبة على رجل الدين في الغرب الأوروبي آنذاك ، هي أن لودولف كان واسع الثقافة . وقد تركزت ثقافته على الجانب الديني أكثر من سواه ، فكان يعلق ويأسهب على الأماكن المقدسة التي زارها ، ويستشهد بالكتاب المقدس .

ولم تكن ثقافته قاصرة على الجانب الديني فحسب ، بل كان ملماً ببعض اللغات الأجنبية ، والدليل على ذلك ما ذكره من أنه قضى خمس سنوات في رحلته ، وتحدث مع رجال بلغات بشرية مختلفة . وكان على معرفة بنص مكتوب على الأهرامات في مصر . ثم إنه كان قارئاً وباحثاً مدققاً ، فقد ذكر أنه طالع كتب تاريخ متعددة ؛ منها كتب تتحدث عن الغزو الصليبي لبلاد الشام ، وعن اجتياح المغول للعالم الإسلامي ، وغير ذلك من كتب التاريخ⁽¹⁰⁾ .

(8) Ludolph, op. cit., pp., 13, 22.

(9) Ludolph, op. cit., pp., 2, 13, 23, 24, 130, 136.

(10) Ludolph, op. cit., pp., 24, 26, 48, 65, 71, 72, 74-76, 80, 81, 96, 98, 104, 110.

وكان لودولف باحثاً نشيطاً ، وساعده نشاطه ودأبه على مشاهدة مواقع كثيرة ، والتنقل بين بلدان متنوعة ، والتعرف على شخصيات عديدة ، ذات مستويات سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة . ولا شك أن نشاطه وحيويته ودأبه قد ساعده أيضاً على تعدد وتنوع مصادر معلوماته ، مما جعل لكتاباته قيمة بالغة من حيث درجة المصداقية ، وتنوع الموضوعات .

وأما عن الشخصيات التي التقاها أثناء رحلته ، فذكر أنه أمضى فترة إقامته في الشرق ، يتحاور ليل نهار مع كل رجل يتحدث أي لغة بشرية . فالتقى ملوكاً وأمراء ورؤساء ونبلاء وسادة . وعلى خلاف ما ذكر ، فإنه لم يلتق أحداً من الملوك ؛ لأنه لم يذكر ذلك صراحة ، ولو أنه التقى ملكاً لكان من البديهي أن يذكر لقاءه به . والواقع أنه التقى عدداً من أمراء الصليبيين الذين تناثروا في جزر البحر المتوسط مثل قبرص ورودس ، بعد اكتساح الممالك لمستعمراتهم على الساحل الشامي ، على يد الأشرف خليل بن قلاوون عام 1291م . كما التقى صليبيين من مستويات أقل من ذلك ، فكان منهم الفرسان ، وبعض الذين فضلوا البقاء في الشرق تحت حكم المسلمين وبعض الواقعيين في الأسر⁽¹¹⁾ . هذا فضلاً عن التقاهم من الشرق . وقد مثل كل فرد من هؤلاء رافداً لمعلوماته ، فكانت رحلته مصدراً خصباً ومتنوعاً لجملة كبيرة من الموضوعات الهامة .

ومن البديهي أن لودولف كان يمثل وجهة نظر الغرب الأوروبي عموماً ، وألمانيا على وجه الخصوص ، فقد ظهرت ألمانيته واضحة جلية في ثنايا التقرير ، فكثيراً ما كان يجد المناسبة للربط بين ما يراه في الشرق وما يشابهه في ألمانيا . فذكر نهر الراين عندما رأى نهر النيل ، وشبه نبع ماء في طرابلس بمثله في بادربورن ، وكنيسة بمثلها ، وهكذا . ونوه إلى جماعة التيوتون الألمانية ، وبعض نبلاء وأسرى ألمان في أكثر من موضع⁽¹²⁾ .

(11) Ludolph, op. cit., pp., 1,30, 43, 49, 54, 56, 58, 61, 64, 72, 83, 92,116, 123, 126, 128.

(12) Ludolph, op. cit., pp., 27, 29, 40, 44, 47, 57, 70, 76, 92, 103, 125.

والتيوتون إحدى جماعات الفرسان الرهبان الذين يتمون إلى ألمانيا . تأسست جماعتهم في عكا عام 1190م/ 586هـ . حسن عبد الوهاب ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د. ت ، ص 83 وما بعدها ؛

Sterns, J., the Teutonic Knights in the Crusader States, in Setton, A History of the Crusades, Wisconsin, 1985, vol., 5, p. 320.

وكانت ميول لودولف الكنسية واضحة في تقريره ، فقد اعتنى بالآثار والأخبار المسيحية ، ووضع هذه الأماكن في ظل الحكم الإسلامي ، وخاصة بعد زوال السيطرة الصليبية . وظهر تعصبه للجانب المسيحي ضد الإسلامي ، ولم يكن متعصباً على الدوام ، بل كان منصفاً أحياناً ، كما ظهرت ميوله الكاثوليكية عند إشارته إلى بعض الطوائف المسيحية الشرقية ، فلم ينس أن يصفهم بالمنشقين ، وخاصة الإغريق ، وقال إن هرطقتهم كانت سبب ضياع الأراضي المسيحية في آسيا الصغرى⁽¹³⁾ .

وكان طبعياً أن تظهر ميوله الغربية واضحة في كتاباته ، وذلك عندما تحسر على الأيام الخوالي ؛ التي شهدت صولات وجولات بني جلدته من الغرب الأوروبي ، الذين انتزعوا أراضي شرقية ، وأقاموا عليها مستعمراتهم الصليبية . وتحدث بمرارة عن أسباب سقوط عكا ، وكتب يتحرق شوقاً إلى عودة الصليبيين إلى الأراضي المقدسة ، وأن التخلص من الذنوب هو السبيل إلى ذلك ، ونقل اشتياق بعض الأوروبيين إلى هذه العودة ، كما أن بعض المسيحيين الشرقيين يتمنون عودتهم . وساقته أمانيه إلى الحديث عن الأمل المعقود في عودة الأراضي المقدسة⁽¹⁴⁾ .

ثانياً : توقيت الرحلة ومدتها واتساع نطاقها :

لقد كان توقيت الرحلة بالغ الأهمية ، إذ جاءت في مرحلة حاسمة من تاريخ العصور الوسطى . فقد بدأها بعد خمسة وأربعين عاماً تقريباً من سقوط عكا ، ومعنى ذلك أن ما كتبه يعد تقريراً هاماً من وجهة نظر أوربية عن الأوضاع في حوض البحر المتوسط ، وفي بلاد الشام ومصر ، بعد المعركة الأخيرة في الصراع الصليبي الإسلامي . وهذا التوقيت أتاح له اللقاء أناس كانوا في ساحات القتال . فكانوا مصدراً ثرياً للمعلومات عن الأوضاع الأخيرة في المستعمرات الصليبية ، وعن أحداث القتال والمقاومة المستميتة للصليبيين .

(13) Ludolph, op. cit., pp., 6, 7, 71, 98, 114, 120, 124, 125, 129, 130, 134.

(14) Ludolph, op. cit., pp., 3, 48, 53, 54, 83, 84, 123, 135.

والحقيقة أن لودولف لم يكن وحده الذي زار بلاد الشام بعد سقوط عكا ، فقد زارها الرحالة البندقي مارينو سانوتو Marino Sanuto⁽¹⁵⁾ ، قبل عام 1321م ، وكتب تقريراً مستفيضاً وقدمه للبابا يوحنا الثاني والعشرين (1316- 1334 JohnXXIIم) . وكان عبارة عن خطة لاستعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وزارها بولدنسيل السابق ذكره . وجاءت رحلة لودولف إلى بلاد الشام تحديداً بعد زوال الحكم الصليبي عنها ، وخضوعها لحكم المسلمين ، فكان عليه أن يتعامل مع الواقع الجديد ، من سيطرة وحراسة وإشراف المسلمين على هذه الأماكن ، والتحرك بين المواقع بالحصول على التصريح اللازم لذلك ، ومرافقة الأدلاء المسلمين في بعض المواقع . ولذلك كانت رحلته مختلفة عن الرحلات التي جاءت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في ظل وجود السيطرة الصليبية على معظم أماكن زياراتهم .

وأما عن مدة الرحلة ، فإن لودولف أقام في الشرق خمس سنوات ، وقد أتاحت له هذه المدة فرصة كافية للتنقل بين مدن وأقاليم بلدان الشرق الإسلامي ، وما جاورها . واستفاد من طول هذه المدة في التعرف على عادات وتقاليد سكان هذه البلاد ، والوصول إلى مصادر ثقة للمعلومات التي أوردتها .

وقد أخذت رحلته نطاقاً جغرافياً واسعاً ، أتاح له فرصة مشاهدة بلدان عديدة ، والاطلاع على أخبارها ، فتحدث عن البلاد التي تطل على حوض البحر المتوسط ، بداية من الممالك الإسلامية والمسيحية في الأندلس ، ثم بلاد المغرب وشمال إفريقيا ، ثم جزر هذا البحر وبلدانه الأوربية ، حتى القسطنطينية وآسيا الصغرى ، ثم مصر وبلاد الشام ثم بغداد . ولا شك أن هذا النطاق الجغرافي الواسع للرحلة أعطى تقريره قيمة بالغة ، حيث تعددت موضوعاته وتنوعت تبعاً للمواقع التي زارها .

(15) محمد مؤنس عوض ، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى ، ط 1 ، دار عين بالقاهرة ، 2004م ، ص 103 ، 104 ؛ ورحلة سانوتو منشورة في :

Sanuto, M., secrets for the crusaders to help them to recover the Holy Land, trans.

Stewart, A., in P.P.T.S., London, 1896, vol., XII, PP. 1-73.

وترجمه إلى العربية سليم رزق الله بعنوان «كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها» ، ط 1 ، دار الريحاني ، 1991م .

ثالثاً : مضمون التقرير :

لقد ذكر لودولف أنه كتب تقريراً عن البلاد التي زارها ، ثم عاد فذكر أنه سيكتب تاريخاً مختصراً⁽¹⁶⁾ . وعلى كل حال ، فإن ما كتبه بالغ الأهمية ، وذلك لأنه كشف النقاب عن قضايا شائكة ، وزودنا بمعلومات نادرة في موضوعات شتى ؛ سياسية وحربية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وأثرية ، وجغرافية ، علاوة على إشارات متناثرة عن عجائب و نوادر أخرى .

ففي البداية تحدث عن الطرق المؤدية إلى الأراضي المقدسة ، وقال إن على المسافر أن يذهب براً عن طريق المجر وبلغاريا ، وهو طريق مرهق وممل ، ولكنه أكثر أماناً . ثم يصل إلى القسطنطينية ومنها إلى الأراضي المقدسة ؛ إما بحراً ، وسوف يمر على قبرص ، أو براً . وأشار إلى طريق بري آخر عبر الأندلس ، ثم مضيق جبل طارق ، ثم بلاد المغرب . وأضاف قائلاً إنه طريق مليء بالعقبات ، والمسلمون يستخدمونه في حجهم . ثم فصل حديثه عن طريق البحر المتوسط ، فنصح المسافر بأخذ كمية كبيرة من الطعام ، تكفيه خمسين يوماً في رحلته من الغرب إلى الشرق . وأما في عودته فإن مدة الرحلة تصل إلى مائة يوم . وذكر مواعيد قيام رحلات السفن سواء من الشرق أو الغرب ، وتحدث عن مخاطر هذا الطريق ، الممثلة في الرياح والعواصف ، والمياه الضحلة ، والأسماك الضخمة ، والشعب المرجانية . وتحدث عن أنواع السفن قائلاً إن هناك نوعاً من السفن يقطع البحر دون توقف ، ومراكب أخرى ترسو ليلاً وتسير نهاراً ، من ميناء إلى آخر ، ثم وصف هذه المراكب وطريقة قيادتها⁽¹⁷⁾ .

وأما عن الأوضاع السياسية والحربية ، فقد اهتم بأخبار الحركة الصليبية ، فأورد إشارات متناثرة عن حوادثها ، فأشار إلى جهود جودفري البويوني Godfrey of

(16) Ludolph, op. cit., p., 2.

(17) Ludolph, op. cit., pp., 4, 7, 8, 11, 12-20.

Bouillon وأخيه بلدوين Baldwin في انتزاع الأراضي المقدسة . وذكر بعض الأمراء الآخرين ، الذين نجحوا في انتزاع مدن أخرى من أيدي المسلمين⁽¹⁸⁾ .

وعند حديثه عن دمياط ، ذكر المحاولة الفاشلة للويس التاسع ملك فرنسا لغزو مصر عن طريق هذه المدينة ، وقال إن المصريين أسروا لويس ، واستردوا المدينة فداء لأسره⁽¹⁹⁾ .

ثم انتقل إلى الحديث المسهب عن المشهد الأخير للصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام ، الذي جرت أحداثه في عكا . فعند حديثه عن هذه المدينة تحركت عواطفه على ماضي أسيف ، وأجهش بالبكاء على حالها ، وندب حظ هذه المدينة العريقة التي كانت في يوم من الأيام حاضرة الصليبيين في الشرق . فكان ملك بيت المقدس يقيم بها ، إلى جانب سادة ونبلاء الصليبيين في المملكة ، ولكل منهم قصره أو قلعته ، فضلاً عن جماعات الفرسان الرهبان ؛ الإيستارية Hospitallers والداوية Templars والتوتون Teutonic وجماعتا توماس كانتربري St. Thomas of Canterbury والغازر St. Lazarus ، وجاليات التجار الإيطاليين من أبناء مدن بيزا وجنوا واللمباردين⁽²⁰⁾ .

(18) Ludolph, op. cit., pp., 47, 48, 50, 103-104.

وجودفري دوق اللورين شارك في الحملة الصليبية الأولى . وانتخب حاكماً على بيت المقدس في 22 يوليو 1099م . وأما بلدوين فهو الذي نجح في تأسيس إمارة الرها ، ثم انتقل ملكاً على بيت المقدس في ديسمبر عام 1100م ، خلفاً لأخيه جودفري ، وظل ملكاً حتى توفي في مارس 1118م . المؤرخ المجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ت حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د. ت ، ص 120 .

Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, 1095-1127, trans. Rita Ryan, Tennessee, 1969, pp. 72, 124, 147, 221.

(19) Ludolph, op. cit., p., 81.

(20) Ludolph, op. cit. pp., 50-54.

والإيستارية جماعة رهبانية تأسست في بيت المقدس قبل الغزو الصليبي ، وتحولت إلى النشاط العسكري بعد ذلك . وبعد سقوط المستعمرات الصليبية في بلاد الشام انتقل الإيستارية إلى رودس .

Luttrell, A., the Hospitallers at Rhodes, 1306-1421, in Setton, vol., 3, pp. 278, 280.

وأما الداوية ، فقد تأسست في بيت المقدس 1118م ، وكان لها نشاط بارز في قتال المسلمين ، وانتقل نشاطهم إلى جزر البحر المتوسط وأوروبا بعد ضياع ممتلكاتهم في بلاد الشام . وفي عام 1307م قبض فيليب الرابع ملك فرنسا عليهم ، وانتهى أمرهم . ولليم السوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، 4 أجزاء ، =

وفي إشارة باللغة الأهمية ، تحدث عن الأسباب التي أدت إلى سقوط عكا في أيدي القوات المملوكية . وتناول هذه القضية برؤية عميقة ، تدل على إدراكه للمادة التي جمعها من شهود عيان ، مع إلمامه بمجريات الحوادث التي كانت تجري في أوروبا آنذاك . واعتبر أن أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط هذا المعقل الحصين ، هو الصراع الذي اشتعل في أوروبا بين الجولفيين Guelfs والجليليين Ghibellines⁽²¹⁾ ، وانتقال هذا الصراع إلى الشرق اللاتيني . ثم أضاف في أسى وحسرة ، أن اشتعال الصراع بين الفرق الصليبية في عكا ، أدى إلى لجوء بعضهم إلى المسلمين ، فعقدوا معهم المعاهدات ، حتى يتسنى لهم الحرب ضد بعضهم البعض داخل عكا⁽²²⁾ .

وأضاف أن المساعدات الحربية التي أرسلتها البابوية إلى الصليبيين في الشرق ، لم يتجاوز عددهم اثني عشر ألفاً . وهؤلاء الرجال عندما وصلوا إلى عكا لم يفعلوا شيئاً بل انشغلوا في لهوهم وملذاتهم ، وانطلقوا إلى الحانات والأماكن سيئة السمعة ، وسلبوا ونهبوا الحجاج في الشوارع العامة ، وارتكبوا آثاماً كثيرة ، ونقضوا المعاهدات⁽²³⁾ .

= القاهرة، 1991 - 1995 م، ج2، ص 345؛ رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ت السيد الباز العريني، ط3، بيروت، 1993 م، ج3، ص 732.

وجاعة القديس توماس من كانتربري، هيئة دينية وحرية أيضاً. أسسها راهب إنجليزي في عكا أواخر القرن الثاني عشر. وبعد سقوط عكا نقلوا نشاطهم إلى قبرص، وظلت الجماعة تمارس نشاطها حتى نهاية القرن الرابع عشر. محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، القاهرة، 1979 م، ص 72 - 73.

وأما جماعة القديس لازار، فقد تأسست في بيت المقدس لرعاية المرضى، ومع اشتعال الصراع الصليبي الإسلامي تحولت إلى جماعة عسكرية مثل الجماعات السابقة. الحويري، المرجع السابق، ص 73.

(21) بغض النظر عن نشأة الاصطلاحين، فإن اسم الجولفيين كان علماً في العصور الوسطى على دوقات سكسونيا في ألمانيا، ثم صار مرادفاً لأنصار البابوية في صراعها مع الإمبراطورية. وأما الجليليين فكان علماً على دوقات أسرة هونشتاوفن حكام سوابيا، ثم صار مرادفاً لأنصار الإمبراطورية. وبعد انتهاء الصراع بين البابوية والإمبراطورية، بقي الاسمان في إيطاليا في القرن الرابع عشر الميلادي للتدليل على الحروب الداخلية بين المدن الإيطالية. فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ت محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، ق1، القاهرة، د.ت، ص 196، ح1.

(22) Ludolph, op. cit. p., 45.

(23) Ludolph, op. cit. p., 55.

ثم انتقل إلى الحديث عن الأشرف خليل بن قلاوون في مصر ، وأنه غضب من نقض الصليبيين للمعاهدات ، وأن هذا الأمر يضر به وبرعيته . ثم تناول بالتفصيل أخبار الحملة المملوكية على عكا ، والمعارك التي دارت هناك . وبدأ حديثه بذكر الحصار المضروب حولها ، وتكلم عن محاولة رئيس جماعة الداوية للوصول إلى اتفاق مع الأشرف . وعندما نجح في ذلك عاد إلى جموع الصليبيين ، وطرح عليهم شروط السلطان لعقد الاتفاقية ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وباءت محاولته بالفشل⁽²⁴⁾ .

وتحدث بعد ذلك عن تطور الحوادث في ساحة القتال ، فذكر أعداد الجيوش ، وشرح خطط القتال التي اتخذها الأشرف ، وذكر بعض الأسلحة المستخدمة في القتال من آلات للحصار ، وقاذفات للنيران والأحجار ، وسهام ، ورماح . وأما الصليبيون فقد دافعوا عن المدينة باستماتة ، فتحصنوا خلف الأسوار ، وقاتلوا في الأبراج . ولم ينس لودولف أن يمتدح شجاعتهم في القتال ، وأن سقوط المدينة كان بسبب الأنانية ، وانشغال كل جماعة بالدفاع عن ممتلكاتهم الخاصة ، وكل سيد بالدفاع عن قصره أو قلعته بدون مساعدة رفاقه . وأخيرًا اقترب وقت تكفير الذنوب ، على حد تعبيره ، وسقطت المدينة⁽²⁵⁾ .

ونعلم مدى ما أصابه من كرب على سقوط مدينة عكا ، عندما نجده يتوسع في وصف المشهد المأسوي الأخير لسقوط هذه المدينة الأثيرة لديه ، ونلاحظ أيضًا أن هذا المشهد أخذ من لودولف مزيدًا من البحث ، سواء بالسماع الشفهي والتحري ، أو بالقراءة والاطلاع . وبعد تمحيص وتدقيق ، استخرج لودولف أربعة عناصر كانت تساعد المسلمين في القتال ؛ العنصر الأول هو الجو ، ويقصد بالجو ظلمته وكثافة غيومه ، حتى كانت القلعة أو القصر يسقط في أيدي المسلمين ولا يستطيع الصليبيون الرؤية لإنقاذ هذا المكان ، ومن تعرض للهجوم داخل بعض الأمكنة لم يستطع رؤية المهاجمين ، إلا عندما يباغتونهم ، ولا يقدر على صدهم . والعنصر الثاني هو النار التي أحرقت المدينة . وأما الثالث فهو الأرض التي شربت دماءهم . والعنصر الرابع هو مياه البحر التي هاجت في شهر مايو على غير عاداتها ، لتبتلع آلافًا مؤلفة من الذين حاولوا الفرار من أيدي المسلمين ،

(24) Ludolph, op. cit. p., 56.

(25) Ludolph, op. cit., pp. 56 - 57.

ولم ترحم هذه المياه شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، وكأنها تعاقبهم على آثامهم التي غرقوا فيها إلى آذانهم⁽²⁶⁾.

ثم انتقل لودولف إلى ميناء المدينة، وتحدث عن ضحايا المشهد الأخير، ووصفه وكأنه واحد من الجالسين على أرصفة الميناء، أو واحد من عمال المراكب المتأرجحة على أسنمة الأمواج الهائجة في مواجهة الميناء. وقد ساعده على ذلك رواة الذين نجوا من هول هذا اليوم، وامتد بهم العمر حتى التقاهم. فقد ذكر أن أهل عكا لم يجدوا أمامهم من ملجأ يومئذ سوى الميناء، ولكن البحر رفض أن يحمل هؤلاء الآثمين، وفشلت السفن في الاقتراب من الأرصفة. ومن غرائب ما نقله لودولف عن رواة أن ما يزيد عن خمسمائة سيدة وفتاة من بنات الملوك والأمراء أردن أن ينجون بأنفسهن في مقابل أن يعطين ما يملكن في أنفسهن، ومن حليهن. وقد وجدت هؤلاء النسوة بحاراً يحملهن إلى قبرص، ويبدو أنه كان مخادعاً، فذهب بهن، ولم يعرف أحد عنه شيئاً بعد ذلك⁽²⁷⁾.

وعاد لودولف إلى عرض الموقف في المدينة، وتحدث عن الساعات الأخيرة للمقاومة الصليبية. فذكر أن الصليبيين قاوموا ببسالة حتى تهاوت قلاع المدينة، ولم يبق صامداً سوى قلعة الداوية، وبعض الأبراج الأخرى. وذكر أن الداوية سيطروا ملحمة بطولية في المقاومة ضد المسلمين، ولم يجد المسلمون أمام هذه المقاومة سوى سلاح الخداع، حسب روايته، فذكر أن فشل المسلمين في الاستيلاء على قلعة الداوية جعلهم يعقدون هدنة مع المحاصرين. وبعد استسلام الصليبيين لهم، أخذوهم بين قتل وأسير⁽²⁸⁾.

ثم اختتم لودولف حديثه عن سقوط عكا بإحصاءات عن أعداد القتلى والأسرى الفارين من الجانب الصليبي، وأعداد قتلى المسلمين. وعن مدة الحصار، ومدة القتال داخل المدينة، ومدة حصار قلعة الداوية. ثم ذكر أن مسيحيي الشرق ما زالوا ينشدون ترانيم الحسرة على سقوط عكا، وأنهم لا زالوا يحذون حزناً على ضياعها. وعلى الرغم من أنه ذكر أن المسلمين

(26) Ludolph, op. cit., p. 58.

(27) Ludolph, op. cit. pp. 58-59.

(28) Ludolph, op. cit. pp. 59-60.

هدموا أسوار وأبراج وقلاع وقصور المدينة، لكنه عاد واستثنى من الهدم كل الكنائس والأسوار والأبراج، والعديد من القلاع والقصور⁽²⁹⁾.

وقد حرص لودولف أثناء حديثه عن جزائر البحر المتوسط، ومدنها الكبرى، على أن يذكر شيئاً من أخبار الصليبيين الذين فروا من عكا بعد سقوطها. فعند حديثه عن جزيرة قبرص ذكر أنها كانت ملكاً للدواية، ثم ابتاعها ملك بيت المقدس، وانتقل إليها الأمراء والنبلاء والبارونات، وأصبحت قبرص مملكة لهم. وعند حديثه عن مدينة ليماسول Limasol في قبرص، ذكر القارئ بما قاله من قبل، وأضاف قائلاً إن الدواية والإستبارية كانوا ممن فروا إلى هذه الجزيرة أيضًا، وأن أماكنهم وقلاعهم قائمة في المدينة حتى وقت زيارته. وقال إنه يقيم في ليماسول أيضًا مجموعة من التيوتون، وأخرى من جماعة القديس توماس كانتبري⁽³⁰⁾.

وأما نيقوسيا Nicosia، فقد ذكرها لودولف على أنها عاصمة قبرص، وأنها أصبحت مقر إقامة الملك والأساقفة والقساوسة، والغالبية العظمى من الأمراء والكونتات والبارونات والفرسان. وتحدث عن ثراء أهل المدينة، وأنه تعرف على كثير من النبلاء والفرسان الأثرياء هناك⁽³¹⁾.

وفي إطار حديثه عن الجوانب السياسية لم يغفل دور جماعات الفرسان الرهبان. وقد رأينا اهتمامه بإبراز دور الدواية في الدفاع عن مدينة عكا. وإلى جانب ذلك فقد أشار إلى بعض ممتلكاتهم السابقة عند مروره عليها⁽³²⁾.

(29) Ludolph, op. cit. pp. 60-61.

وكان سقوط عكا في جمادى الآخرة 690هـ / مايو 1291م. انظر، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم ويحيى سيد، دار المعارف بالقاهرة، د. ت، ج 3، ص 233؛ بيرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة عطا، دار عين بالقاهرة، د. ت، ص 294-297؛

Runciman, S., the Crusader Stated. 1243-1291, in Setton, vol., 2, pp. 617-618.

(30) Ludolph, op. cit., pp. 38-40.

(31) Ludolph, op. cit., pp. 42-43.

(32) Ludolph, op. cit., pp. 40, 49, 64, 65.

وأما جماعة الإسمبترية فقد حظيت باهتمامه ، ففي وقت رحلته كان الإسمبترية قد استقروا في جزيرة رودس⁽³³⁾ . فتحدث عن الجزيرة وتعجب من حصانتها . ثم تحدث عن تاريخ الإسمبترية هناك ، وفرارهم من بلاد الشام بعد سقوط عكا ، ثم انتزاعهم هذه الجزيرة من البيزنطيين عن طريق رشوة بعض سكانها . ثم ذكر أن هذه الجزيرة أصبحت مركزاً لتلك الجماعة القوية ، التي نجحت في تثبيت أقدامها هناك بين قوى كبرى ؛ كالبيزنطيين والأتراك والماليك . وأشار إلى امتداد نفوذهم إلى بعض الجزر المجاورة التي أصبحت بمثابة خطوط دفاع أولى ، ومراكز إنذار . وقال إنهم يستخدمون الدخان كوسيلة إنذار نهاراً ، والمشاعل ليلاً ، وبطريقة ما يعرفون عدد السفن المهاجمة فيستعدون لقتالهم⁽³⁴⁾ .

وفي إشارة بالغة الأهمية ، تحدث عن الصراع بين الإسمبترية والأتراك في آسيا الصغرى . فذكر أن الأتراك أرادوا أن يرغموا الجماعة على دفع جزية ، مقابل عقد معاهدة سلام . ولكن الإسمبترية استخدموا الحيلة مع الأتراك ، وقاموا بهجوم مفاجئ على مجموعة منهم وذبحوهم جميعاً بدون تفريق بين رجل وامرأة ، صغيراً كان أو كبيراً . ثم ختم حديثه قائلاً إن أحداً من الأتراك أو التتار منذ ذلك الحين لم يجروا على طلب الجزية من الإسمبترية⁽³⁵⁾ .

وأشار إلى جماعة التيوتون ودورهم في الدفاع عن عكا ، وعقب قائلهم أنهم قتلوا جميعاً في المعارك . ثم ذكر بعضهم ممن يقيمون في جزائر متناثرة في حوض البحر المتوسط ، فقال إن جماعة منهم يقطنون لياسول في قبرص ، ومجموعة أخرى تقيم في بعض الجزر اليونانية ، ولهم قلاع قوية هناك⁽³⁶⁾ .

(33) احتل الإسمبترية أرض رودس عام 1306م ، وسقطت المدينة عام 1308م . رنسيان ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 730 .

Luttrell, op. cit., pp. 283 - 285.

(34) Ludolph, op. cit., pp. 34-35.

(35) Ludolph, op. cit., pp. 36-37.

(36) Ludolph, op. cit., pp. 29, 40, 53, 57.

ولم يغفل لودولف في تقريره الإشارة إلى المدن الإيطالية ، والملاحظ أنه لم يتحدث عنها بما يوازي دورها الإيجابي للصليبيين في صراعهم مع المسلمين . فقد رأيناه من قبل يرد سقوط عكا إلى الصراع والتناحر الذي اشتعل بين البيازنة والجنوية واللمبارديين داخل المدينة . ثم ذكر عرضاً أن أخوين من الجنوية اغتصبا إحدى جزر الإمبراطورية البيزنطية ، ثم تنازل الأول عن نصيبه سرّاً للإمبراطور ووقع الثاني أسيراً ، ولم يلبث الإمبراطور أن فك قيد الأسير ، وجعله قائداً لجيشه . ثم ذكر نجاح الجنوية في اغتصاب إحدى الجزر من الأتراك⁽³⁷⁾ .

ولم يذكر شيئاً ذا قيمة عن البنادقة ، سوى أنهم استولوا على جزيرة كريت Crete بالقوة من الإمبراطورية البيزنطية⁽³⁸⁾ .

ثم تحدث عن سياسة البابوية في إدارة الحركة الصليبية . فذكر أن البابوية تبنت سياسة الحصار الاقتصادي على بلاد الشرق الإسلامي ، أو دولة سلاطين المماليك في مصر والشام تحديداً . فقال إن البابوية أصدرت مرسوماً بالحرمان الكنسي على كل من يسافر إلى الأراضي المقدسة بدون إذن البابا ؛ وذلك لأن المسلمين سوف يحصلون من هؤلاء المسيحيين على جزية ، ويتنفعون بها في انتهاك المقدسات المسيحية ، وحرب الصليبيين . وأنه إذا كان من الضروري للبعض أن يسافر إلى الأراضي المقدسة ، فإنه يحرم عليه كنسياً أن يتاجر مع المسلمين⁽³⁹⁾ .

ثم ذكر أن هناك بعض الحالات التي يمكن للرجل أن يسافر فيها إلى الشرق دون الحصول على إذن البابا ؛ وهي : إذا كان المسافر رجل دين ، أي يقوم بالتبشير بالمذهب الكاثوليكي . وإذا كان للمسافر هناك مريض قريب كأبيه أو أمه أو صديقه ، أو أن أحدهم وقع أسيراً في أيدي المسلمين ، فعليه الذهاب إلى الشرق لرعايته أو افتدائه . ثم إذا سافر رجل للقيام بأغراض سلمية ، أو ترتيب أو استرداد أي شيء له قيمة ، وربما يقصد بذلك السفارات الدبلوماسية⁽⁴⁰⁾ .

(37) Ludolph, op. cit., pp. 29, 32-33, 53, 54.

(38) Ludolph, op. cit., pp. 20, 28, 33.

(39) Ludolph, op. cit., pp. 3-4.

(40) Ludolph, op. cit., p. 4.

وأشار لودولف إلى الإمبراطورية البيزنطية وعلاقتها ببعض القوى الموجودة آنذاك . فلا شك أنه نظر إلى الإمبراطور وعاصمته وآثارها نظرة إجلال ، ولكنه وقع تحت تأثير كاثوليكيته ، فقد نسب ضياع آسيا الصغرى من هذه الإمبراطورية إلى الانشقاق الديني الذي حدث بين كنيسة روما وبيزنطة ، ولم يجد وصفاً يستحقه البيزنطي الذي يقع أسيراً في أيدي الأعداء سوى أنه كالمأشية . وأعطى لودولف الحق لأي لاتيني في الاستيلاء على أراضي بيزنطية ، فهي لا شك سوف تعود - حسب قوله - إلى كنيسة روما⁽⁴¹⁾ .

وفي إشارة هامة ذكر لودولف أن القطلونيين خدموا الإمبراطورية البيزنطية أثناء إقامته في القسطنطينية ، وأن الإمبراطور أعطاهم أجورهم⁽⁴²⁾ ، ومنحهم هدايا وآثارا دينية نفيسة . وفي موضوع آخر ذكر اعتداء القطلونيين على أراضي الإمبراطورية ، وانتزاعهم أراضي المورة⁽⁴³⁾ . كما أشار إلى الصراع البيزنطي التركي حول آسيا الصغرى⁽⁴⁴⁾ .

وأشار لودولف إلى سلطان المماليك في إشارات عديدة ، وكان هذا السلطان وقت زيارته هو الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة 1309 - 1341 م . والواقع أنه لم يذكره باسمه ، ولكن ذكره دائماً بلفظ «السلطان» . والطريف أن هذه الإشارات تدل دلالة قاطعة على تقدير لودولف للناصر ، فقد أشار إلى مواقف عديدة للسلطان تجاه المسيحيين ، سواء كانوا رعاياه ، أو من بقايا الصليبيين الذين تحلفوا في الشرق بعد طردهم من بلاد الشام ، أو من أسراهم الذين يعملون في خدمة دولته .

فذكر أن السلطان يجزل العطايا والصدقات على رهبان دير سانت كاترين ، وأنه يرعى رهبان وراهبات أحد الأديرة القريبة من دمشق ، وقال إنه أثناء زيارته وجد

(41) Ludolph, op. cit., pp. 6-7.

(42) كان إمبراطور بيزنطة آنذاك هو أندرونيقوس الثالث باليولوغوس Andronicus III Palaeologus نيكول ، د. أ. ، معجم التراجم البيزنطية ، ت حسن حبشي ، القاهرة ، 2003 م ، ص 83 .

(43) Ludolph, op. cit., pp. 6-28.

وعن القطلونيين وبيزنطة انظر Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trnsns. From the German by Hussey, New Brunswick, New Jersey, 1957, pp. 415, 438-39, 441, 488.

(44) Ludolph, op. cit., p. 29.

السلطان يحميهم كوالد لهم ، هذا فضلاً عن أن السلطان كان قد منح امتيازات لكهنة الضريح المقدس ، علاوة على بنائه كنيسة للنوبيين المقيمين في بيت لحم ، ولم يكن لهم كنيسة خاصة بهم⁽⁴⁵⁾ .

وذكر أن السلطان كان يكفل حمايته لرعاياه المسيحيين ، فعندما وقع الاعتداء على الطريق المؤدي إلى صومعة مجموعة من الرهبان عند صحراء أريحا ، وعلم السلطان بذلك أمر بإصلاح الطريق ، ومنح الرهبان إذناً بالإقامة هناك للأبد . وفي أثناء الفتنة التي وقعت في دمشق عام 1341م ، وقتل فيها مسيحيون كثيرون على يد ملك دمشق والغوغاء ، تدخل السلطان وأوقف هذا الاضطهاد ، وانتقم للمسيحيين ، على حد تعبيره⁽⁴⁶⁾ .

وأشار إلى معاملة السلطان للذين تخلفوا من الصليبيين في الشرق ، فقال إنه ينظر إليهم دائماً بعين الرعاية ، ومنهم ممرضة كانت تخدم في مستشفى الإسبتارية ببيت المقدس⁽⁴⁷⁾ . وربما تحمل هذه الإشارة احتمالاً أن السلطان كان يرعى المستشفى كاملة ، وليست الممرضة فقط .

وذكر تقدير السلطان للأسرى الصليبيين ، وأنه يخصصهم بالخدمة في المواقع الهامة ، فجعل عدداً منهم ممن أسروا في معركة عكا الأخيرة حراساً على حديقة البلسم . وذكر أنه قرب أحدهم ، وجعله حارس حجرة نومه . وقال إن هؤلاء الأسرى يحتفلون بأعيادهم الدينية في ظل رعاية السلطان لهم . كما أنعم على كثير منهم بزوجاتهم وأطفالهم ، فأعتقهم ، وأعادهم إلى أوروبا⁽⁴⁸⁾ .

وتحدث لودولف عن بعض الجوانب الحربية لدولة سلاطين المماليك في إشارات متناثرة ، فذكر أن السلطان يجند الفرسان الحسان ، وأنه وأمراءه يستخدمون الحمام كوسيلة سريعة لنقل الأخبار ، ولذلك فهم يمنعون صيده هناك⁽⁴⁹⁾ .

(45) Ludolph, op. cit., pp. 86, 95, 107, 134.

(46) Ludolph, op. cit., pp. 115, 130.

ويقصد بملك دمشق نائبها ، وكان النائب آنذاك هو الأمير تنكز ، الذي تولى نيابة الشام من 712هـ حتى قبض عليه الناصر وقتله في أوائل 741م . ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تحقيق محمد أمين ، القاهرة ، 1986 ، ج 4 ، ص 156 وما بعدها .

(47) Ludolph, op. cit., p. 107.

(48) Ludolph, op. cit., pp. 70, 71, 116.

(49) Ludolph, op. cit., pp. 80, 92.

وذكر أنه في سبيل مواجهة السلطان للأخطار الخارجية ، فإنه اعتنى بحراسة الإسكندرية ومينائها ، وقلعة البحر الأحمر التي تشرف على حركة الملاحة من وإلى الهند ، وذكر أنه اعتقل بها أسرى . ولما كان الخطر الصليبي لا يزال قائماً ، فإن السلطان عطل ميناء يافا قبل قدوم لودولف بوقت قصير⁽⁵⁰⁾ .

وذكر اهتمام السلطان بتحصينات قلعتي الشوبك والكرك ، وأنه دائماً يحتفظ في الكرك بكنوزه ، وابنه وولي عهده ، وأنه يلجأ إليها وقت الحاجة⁽⁵¹⁾ . وأشار إلى حصانة قلعة دمشق ، وصرامة الحراسة على قلعة جبل صهيون⁽⁵²⁾ .

وأشار إلى بعض الأمور الداخلية الخاصة بمصر وسلطانها ، والتي تدل على رفاهة السلطان ورعايته لشئون دولته ؛ كمحاولته اكتشاف منابع النيل ، ورعايته لحديقة البلسم . وأشار إلى ثراء السلطان ، وحرصه على اقتناء الأحجار الكريمة ، ذات الأثمان الباهظة⁽⁵³⁾ .

وتحدث لودولف عن الخلفية العباسي في بغداد ، وانتقل إلى الحديث عن التحالف الأرمني المغولي ضد المسلمين ، ونجاح هذا التحالف في تدمير بغداد ، وقتل الخليفة . وبغض النظر عن الأخطاء التي وقع فيه لودولف ، فإنه روى أن ملك أرمينيا طلب من إمبراطور المغول عدة مطالب⁽⁵⁴⁾ ؛ أولها : أن يتحول المغول إلى المسيحية . ثانياً : أن يحل

(50) Ludolph, op. cit., pp. 46, 49, 80, 83, 92.

(51) Ludolph, op. cit., p. 119.

ويشير لودولف إلى الأحداث التي جرت في عصر الناصر ، عندما اضطر تحت حجر الأميرين سلاز ويبرس الجاشنكير إلى التنازل عن السلطنة والفرار إلى الكرك في شوال 708هـ / 1308م وعاد إليها في 709هـ / 1309م . ثم يبدو أن لودولف كان لديه معلومات عن إقامة بعض أولاد الناصر في الكرك ، وإبعاده لابنه أحمد هناك . انظر المقرئزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق زيادة وعاشور ، القاهرة ، 1936 - 1973 ، ج 2 ، ص 44 ، 515 .

(52) Ludolph, op. cit., pp. 91, 102, 119, 130.

(53) Ludolph, op. cit., pp. 41, 68, 77.

(54) كان إمبراطور المغول آنذاك منكوك خان ، وملك أرمينيا هيثوم . ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ترجمه عن السريانية إسحق أرملة . بيروت ، 1986 ، ص 297 - 309 ؛ أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 233.

السلام بين التتار والأرمن . ثالثًا : أن يحطم المغول مساجد محمد (ﷺ) . رابعًا : أن يساعده على استرداد الأراضي المقدسة . خامسًا : أن يدمر بغداد⁽⁵⁵⁾ .

وقال إن المغول حققوا هذه المطالب سوى المطلب الرابع . ثم تحدث عن أحداث الحصار ، وما جرى على بغداد من هؤلاء الغزاة ، وقتل الخليفة ، وثناء المغول جلاء نهب هذه المدينة⁽⁵⁶⁾ .

ونلاحظ أنه تناول قضية تحويل التتار إلى المسيحية ، وهي القضية التي شغلت البابوية منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . وتحدث أيضًا عن التحالف المسيحي المغولي ضد المسلمين ، الذي لو تحقق لنجحوا في توجيه ضربة قوية للمسلمين ، وقد تداخلت الحقائق بالأمنيات في حديثه هذا .

وتناول لودولف بعض الجوانب الاقتصادية ، فقد أولى مصادر المياه والزراعة اهتمامًا كبيرًا ، فخص مصر بحديث طويل عن نهرها وأرضها وزراعتها ، فوصف النيل ومياهه ومجره ، وتحدث عن محاولات السلطان اكتشاف منابعه ، وذكر الحيوانات التي تعيش فيه ، وخاصة التماسيح⁽⁵⁷⁾ .

وتحدث عن أرض مصر ؛ فذكر حدودها ، ووصفها بالجزيرة وسط الصحراء ، وأنها أرض خصبة تنبت بها الأشجار والفاكهة والأعشاب والمراعي أكثر من أي بلد في العالم . ثم تحدث عن مناخها وأنه شديد الحرارة ، ولا تسقط عليها الأمطار . وتحدث عن وسائل الري ، وطرق ضبط المصريين لمياه النهر ، فقال إن المصريين أقاموا عمودين من نحاس في مجرى النهر عليهما علامات ، ويعني بهما مقياسي النيل ؛ الأول عند بابلون ، والثاني بالقرب من الإسكندرية ، وذلك لمعرفة مقادير مياه النهر . وتحدث عن ابتهاج المصريين بقدوم الفيضان ، والفوائد التي يجنونها من وراء قدومه⁽⁵⁸⁾ .

(55) Ludolph, op. cit., pp. 48, 73 - 74.

(56) انظر عن هذا الموضوع جوانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ، ت حسن حبشي ، ط 1 ، القاهرة ، 1968م ، ص 84 ؛ محمود سعيد عمران ، المغول وأوروبا ، الإسكندرية ، 1996م ، ص 206 وما بعدها .

(57) Ludolph, op. cit., pp. 76-77.

(58) Ludolph, op. cit., pp. 78-79.

وقد أسهب في حديثه عن حديقة البلسم الواقعة في المطرية شمالي القاهرة⁽⁵⁹⁾. وذكر أنها تخضع لرعاية السلطان مباشرة ، وأن البلسم الذي ينتج لا يذهب إلى أحد سواه . وتحدث عن طريقة استخراجها من أشجارها ، وعن فوائده العديدة ، وأنه أنفس ما يقدمه السلطان للملوك والأمراء الأجانب⁽⁶⁰⁾.

ونوّه إلى جفاف الصحراء الشرقية وندرة النباتات بها ، وذكر أنها لا تخلو من الينابيع العذبة ، والتي تنبت حولها الأعشاب والحشائش . كما ذكر ندرة المياه في صحراء سيناء ، وسرعة امتصاص الرمال للمياه ، إن وجدت يوماً ما⁽⁶¹⁾.

وتحدث عن افتقار بيت المقدس للمياه ، وأنها تأتيها في قنوات من الخليل . وذكر نهر الأردن واتساعه وعمقه ، ووصف مجراه من المنبع إلى المصب ، وأن منبعه الأساسيين هما جور Jor ودان Dan ، وأنها يلتقيان عند الجليل ، فيسمى المجرى الواحد باسم الأردن ، وأنه يصب بعد ذلك في البحر الميت⁽⁶²⁾. وذكر عدة ينابيع في مناطق متعددة من بلاد الشام ، في جبلي الكرمل ولبنان . وذكر نبعا آخر بالقرب من طرابلس ، فجعلها جنة خضراء بزراعتها وأشجارها وفاكهتها ومراعيها ، وعيون مياه عند الشوبك ، يزرع عليها القمح والكروم⁽⁶³⁾.

وتحدث عن حدائق دمشق وبساتينها ، والتي تحيط بالمدينة لمسافة ميلين ، والأنهار والجداول والعيون التي ترويه ، والتي أعدت بمهارة لرفاهة البشر . وأن بها الطواحين التي تدار على هذه الأنهار ، وأن زهورها وورودها مزدهرة طوال العام ، وأنها تزخر بالفاكهة الطازجة⁽⁶⁴⁾.

(59) تحدث طافور عن هذه الحديقة في رحلته ، ترجمها حسن حبشي بعنوان : رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ، 1968م ، ص 70 .

(60) Ludolph, op. cit., pp. 68-71.

(61) Ludolph, op. cit., pp. 82, 90.

(62) Ludolph, op. cit., pp. 97, 119-120, 127.

(63) Ludolph, op. cit., pp. 47, 64, 116.

(64) Ludolph, op. cit., pp. 129, 130-131.

وذكر حديثاً مفصلاً عن مزرعة إنجادي في بافوس بجزيرة قبرص ، وقال إنه ليس لها مثيل في العالم . فوصف عناقيد العنب وحباته وأن هذه المزرعة ملك للدواوية الذين يسخرون أسرى المسلمين في رعايته⁽⁶⁵⁾ .

وضمنت رحلة لودولف إشارات قليلة عن الحرف والصناعات ، فتحدث عن معامل التفرخ في مصر ، والطريقة التي يستخدمها المصريون لفقس البيض ، ثم رعايتهم للأفراخ ، وأن هناك أعداداً كبيرة من النساء العجائز اللواتي يعتبرن هذا العمل مصدر رزقهن . وأشار إلى بعض الحرف اليدوية الأخرى⁽⁶⁶⁾ .

وتعجب من مهارة صناع دمشق ، وتسابقهم في إتقان الصنعة ، وبراعتهم في عرض منتجاتهم ، وذكر أنهم يبيعون منتجاتهم اليدوية بأسعار باهظة . ولكنه لم يذكر أنواع هذه المنتجات⁽⁶⁷⁾ .

وتحدث عن صيد الأسماك في بعض المدن الساحلية التي مر عليها ، مثل دمياط وبعض قرى ومدن بحيرة طبرية . وقال إن أسواق القسطنطينية تزخر بالأسماك ، وأنهم بارعون في تمليحها وتصديرها إلى كل بقاع آسيا⁽⁶⁸⁾ .

وذكر حرفة انتشال الشعب المرجانية ذات الرائحة الكريهة ، فشاهد محترفها المهرة على ساحل بلاد المغرب يقومون بانتشال كميات كبيرة منها ، بعد أن تلقي الأمواج بها على الشاطئ ، ثم ينظفونها ويلمعونها ، ويقدمونها للبيع . ورأى المصريين يستخدمون شباكاً ذات خيوط جلدية لاستخراج هذه الشعب من البحر الأحمر . ففي البداية ، يضعون الشباك في البحر ، حيث تنمو الشعب عليها ، وبعد مرور ستة أشهر ، يسحبون الشباك وقد امتلأت بأعداد لا حصر لها من الشعب ، فيبيعونها ويربحون منها أموالاً طائلة⁽⁶⁹⁾ .

(65) Ludolph, op. cit., pp. 39-40.

(66) Ludolph, op. cit., pp. 46, 67, 129.

(67) Ludolph, op. cit., p. 129.

(68) Ludolph, op. cit., pp. 6, 81, 127.

(69) Ludolph, op. cit., pp. 14-15, 84.

وأما عن التجارة ، فقد أشار لودولف إلى جانب من حركة التجارة الداخلية في البلدان التي زارها. ففي مصر، ذكر حركة الأسواق الداخلية التي تعقد كل أسبوع، وتعرض فيها السلع المختلفة التي يأتي بها الفلاحون من مزارعهم وبيوتهم، وعلى رأس هذه السلع الطيور والبيض والظبية والماعز⁽⁷⁰⁾.

وذكر أن أسواق دمشق غنية بكل أنواع السلع ، وعدّد هذه السلع كالتوابل والأحجار الكريمة والحريز ، وأن سوق الأطعمة وحده يشهد إقبالاً كبيراً من الناس يومياً ، وأن به كل أنواع الأطعمة التي تصورها ، وأنها مطهية بطريقة متقنة ، وأنهم يستخدمون الميزان في بيعها ، وأشد بالآمن داخل هذه الأسواق ، وقال إنه على الرغم من كثرة البضائع إلا أنها تترك بلا حراسة ، ونادراً ما تتعرض الأسواق للسرقة ، ولم يذكر أحد أن هذه المدينة قد وقع فيها حادث قتل ، ثم ذكر أن بغداد تفوق غيرها في حجم السلع وأنواعها المتوفرة بها⁽⁷¹⁾.

وقدم لودولف معلومات وافية عن حركة التجارة العالمية ، فأشار إلى طريق التجارة في البحر المتوسط ، والمحطات الرئيسية على هذا الطريق . وكذلك الطرق التي تعبر البر فتصل إلى البحر الأحمر أو التي تمر على دمشق وبغداد . وأشار إلى أن البحر المتوسط مليء بالسفن التجارية التي تجوبه ذهاباً وإياباً ، وأن قبرص هي إحدى الجزر المحورية في حركة التجارة العالمية ، حيث يوجد بها ميناء فاماغوستا Famagusta الذي يعد ملتقى التجار والحجاج ، وأن السفن صغيرها وكبيرها تأتي إليها محملة بالبضائع من مختلف الأقطار . ثم تحدث باستفاضة عن ثراء سكانها نتيجة للحركة التجارية التي تلعبها هذه الجزيرة ، وشبهها بالشرق الأقصى للبلاد الأوربية⁽⁷²⁾.

وتحدث عن طريق البحر الأحمر ، الذي يعد همزة الوصل بين الغرب والشرق آنذاك ، وأن السلع والبضائع تأتي من الهند إلى البحر الأحمر ، ثم تنقل إلى نهر النيل ومنه إلى البحر المتوسط ثم أوربا⁽⁷³⁾ . وذكر دور بعض مواني بلاد الشام كمحطات تجارية هامة ، ومنها

(70) Ludolph, op. cit., pp. 67, 79-80.

(71) Ludolph, op. cit., pp. 73, 129-130.

(72) Ludolph, op. cit., pp. 38, 41, 42, 43-44.

(73) Ludolph, op. cit., p. 84.

عكا ، التي كانت تأتيتها البضائع من كل بقاع العالم منذ شروق الشمس إلى غروبها ، وقال إن هذه الموانئ فقدت أهميتها وقت زيارته⁽⁷⁴⁾ .

وأما عن الأوضاع الاجتماعية ، فقد أخذت جانباً كبيراً من رحلة لودولف ، إذ ترك العنان لقلمه فدون ما حفظته ذاكرته عن الأوضاع الاجتماعية التي لفتت انتباهه في البلاد التي زارها . فكتب عما يعني الرجل الأوربي الذي يأتي إلى الأراضي المقدسة ، فذكر جانباً من أوضاع الصليبيين قبل سقوط عكا ، والرفاهة التي كانوا يعيشون فيها ، علاوة على أوضاع التجار والحرفيين . وتحدث عن نظافة مدينة عكا وشوارعها ومنازلها ، فالشوارع مغطاة بأقمشة حريرية أو مظلات ، والمنازل مزينة بالزجاج والصور ، ومحلاة بالطلاء والرسوم⁽⁷⁵⁾ .

وأشار إلى حياة الصليبيين في قبرص ، فقال إن هذه الجزيرة أصبحت مملكة لهم بدلاً عن تلك التي سقطت في بلاد الشام . وذكر أن أوضاعهم فيها اختلفت عما كانوا عليه في بلاد الشام ، وأن التجارة وموارد الجزيرة الوفيرة درت عليهم ثروات طائلة ، جعلتهم يعيشون في ثراء فاحش ، وذكر عناصر سكانية أخرى في الجزيرة كالبيزنطيين والمسلمين⁽⁷⁶⁾ .

ثم تحدث عن الرفاهة التي يعيش فيها الصليبيون هناك ، وضرب مثلاً بحلي عروس كانت ترتديها على رأسها ، وقيل إنها كانت أفضل من مجوهرات ملك فرنسا . وقال إن الأمراء هناك يقضون أوقاتهم في المسابقات والصيد ، وينفقون أموالاً باهظة على رياضة الصيد ، فيستعينون بالكلاب والصفور ، وإن أحدهم كان يملك خمسمائة كلب صيد ، وحسبها جرت به العادة هناك ، فإن كل زوج من الكلاب له خادم خاص⁽⁷⁷⁾ .

وأشار إلى جماعات دينية تبشيرية ، فذكر أن أسقف جزيرة سيبو Syo⁽⁷⁸⁾ وقت زيارته كان من جماعة الدومنيكان⁽⁷⁹⁾ . وذكر محاولة جماعة أخرى منهم أيضاً لشراء قطعة أرض

(74) Ludolph, op. cit., pp. 49, 53, 60, 63, 65.

(75) Ludolph, op. cit., pp. 51, 52, 53.

(76) Ludolph, op. cit., pp. 25, 45.

(77) Ludolph, op. cit., pp. 41-43.

(78) حدد لودولف موقع هذه الجزيرة ، فقال إنها جزيرة إغريقية قبالة ساحل آسيا الصغرى ، ومشهورة بأشجار الصمغ على أرضها⁽⁷⁹⁾ . Ludolph, op. cit., p. 29.

(79) وجماعة الدومنيكان أسسها القديس دومنيك St. Dominic ، وهم جماعة دينية تبشيرية . كولتون ، عالم العصور الوسطى ، ت جوزيف نسيم يوسف ، الإسكندرية ، 1983م ، ص 174 ، حاشية 2.

في فلسطين ، وغادر الشرق بدون أن يعرف إن كانت الصفقة قد تمت لصالحهم أم لا . ورأى عددًا من أديرة السسترشيان على جبل فقوعة الواقع بين غور الأردن وفلسطين⁽⁸⁰⁾ ، والتقى بعض الرهبان الفرنسيسكان⁽⁸¹⁾ .

وعند حديثه عن مستشفى الإستبارية في بيت المقدس ، ذكر الخدمات التي يلقاها المرضى من الحجاج ، وأنها تتسع لإقامة ألف نزيل بسهولة ، وتوفر للنزيل احتياجاته مقابل دفع ثمنها ، ويدفع النزيل فلسطينيين فقط لإقامته ، حتى لو امتدت إقامته عامًا كاملاً⁽⁸²⁾ .

والتقى بعض الصليبيين الذين تخلفوا في الشرق ، ومنهم ممرضة أقامت على خدمة المرضى في مستشفى الإستبارية ، وأرملة فضلت البقاء حيث مات زوجها ، والتقى بعض الأسرى الآخرين ، وذكر أن أناسًا منهم سألوه عما إذا كان في ألمانيا أناس يتحدثون عن أقارب لهم في الشرق⁽⁸³⁾ .

وأشار إلى بعض الأسرى الصليبيين الذين رأهم في مصر أو في بلاد الشام ، وذكر شيئًا من أخبارهم ، والأعمال التي يقومون بها ، والمعاملة الطيبة التي يعاملون بها ، وآمالهم في افتتاح أسرهم كبعض بني جلدتهم⁽⁸⁴⁾ .

وأشار إلى أن بعض الجاليات من المسيحيين المحليين في دمشق وما حولها ، وفي جبل لبنان ، وأن الآخرين يتبعون مذهب الكنيسة اللاتينية ، وأنهم يتحرقون شوقًا إلى قدوم الصليبيين ، واسترداد الأراضي المقدسة⁽⁸⁵⁾ .

(80) Ludolph, op. cit., pp. 29, 112, 124.

والسسترشيان جماعة دينية أسسها راهب فرنسي يدعى روبرت عام 1098 تقريبًا ، وأبرز أعلامها القديس برنارد من كليرفو ، وإليه ينسبون في بعض الأحيان . كولتون ، المرجع السابق ، ص 173 ، ج 1.

(81) Ludolph, op. cit., pp. 23, 24, 38, 102.

والفرنسيسكان جماعة دينية تبشيرية ، أسسها القديس فرنسيس (ت 1226 م) . ويسمون أيضًا بالكورديليون Cordeliers ، إشارة إلى الزنار الذي يشدون به أوساطهم . فيشر ، المرجع السابق ، ص 234-236 ؛ ماستنك ، السلام الصليبي ، ت بشير السباعي ، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ، 2003 م ، ص 264 وما بعدها .

(82) Ludolph, op. cit., pp. 106- 107.

(83) Ludolph, op. cit., pp. 30, 64, 107, 126.

(84) Ludolph, op. cit., pp. 70-71, 83, 92, 116, 123.

(85) Ludolph, op. cit., pp. 48, 130, 134, 135.

وتحدث عن جوانب اجتماعية في مصر ، فذكر ابتهاج المصريين بفيضان النيل ، وما يجلبه إليهم من خيرات . وذكر شيئاً من حياة الفلاح ، وعلاقته الحميمة بطيوره وحيواناته المتنوعة ، التي يقوم بتربيتها ، وتنتشر في الشوارع هنا وهناك⁽⁸⁶⁾ .

وتحدث عن الإسكندرية ونظافتها وسكانها ، وعن عمال النظافة بها ، وأنهم يمنعون أي شخص من إلقاء القاذورات في الشوارع ، فالمدينة تأخذ اللون الأبيض ، وتزين بالنافورات ، وتحدث عن سكان دمياط ، وامتهانهم صيد الأسماك⁽⁸⁷⁾ .

وضمت الرحلة حديثاً عن بدو سيناء ، فوصف لودولف أجسامهم وأشكالهم ، وزبيهم وحياتهم في الصحراء . وذكر بعض عاداتهم في المأكل والمشرب ، ومصادر رزقهم ، وبراعتهم في معرفة الصحراء ، وعلاقتهم بالسلطان⁽⁸⁸⁾ .

كما تحدث عن سكان مدينة جاث Gath الفلسطينية ، أو اسكنداليوم Scandalium⁽⁸⁹⁾ . ووصفهم بأنهم رجال أقوياء ، ويعرفون طرق المنطقة جيداً ، وهم يتجولون دائماً ، ووصفهم بالقسوة والهمجية ، وأنهم يعتدون على جيرانهم باستمرار⁽⁹⁰⁾ .

وتحدث عن سكان دمشق ؛ فمنهم النبلاء والحرفيون والعمال والتجار ، وأن كل أصحاب مهنة يقيمون في شارع واحد ، وعن أغنياء المدينة ومنازلهم ، وطيور الزينة التي يقتنونها ، وتحدث عن المدينة وشوارعها ومنازلها المزينة ، ووسائل الترفيه بها⁽⁹¹⁾ .

هذا فضلاً عن بعض الإشارات الأخرى ، كوصفه سكان مدينة بوجيا أو بجاية Pugia ، الواقعة على ساحل الجزائر ، وأنهم يربون القردة ، ويتكسبون من بيع صغارها⁽⁹²⁾ .

(86) Ludolph, op. cit., pp. 78- 80, 81.

(87) Ludolph, op. cit., pp. 46, 81.

(88) Ludolph, op. cit. pp., 90-91.

(89) حدد بورشارد من دير جبل صهيون موقع هذه المدينة ، بأنها على بعد أربعة فراسخ من يافا .

وصف الأرض المقدسة ، ت سعيد البشاوي ، مراجعة مصطفى الحيارى ، ط 1 ، عمان 1995م ،

ص 163 .

(90) Ludolph, op. cit., p. 62.

(91) Ludolph, op. cit., pp. 129- 130.

(92) Ludolph, op. cit., p. 9.

وتناول لودولف في تقريره موضوعات أثرية هامة ، منها ما كان ذا طابع حربي وثقافي وديني . فعن الجانب الحربي ، وصف أسوار مدن وقلاع وحصون ، وذكر ما هو قائم بالفعل ، وما تهدم جراء الحروب ونتائجها . فمر على مدن ذكر أنها حصينة ، وأسوارها عالية ، ولم يفصل الحديث عنها أكثر من ذلك ، كالقسطنطينية والإسكندرية ، ومصر والقاهرة ، وبيت المقدس . وأما عندما تحدث عن عكا ، فقد فصل وصفه عن أبنية المدينة ، وأسوارها الضخمة ، وتحصيناتها الخارجية . وكذا تحدث عن أسوار مدينة الشوبك⁽⁹³⁾ .

وأشار إلى أهرامات الجيزة في مصر ، وأن عليها نقوشاً عديدة باللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والكلدانية ، ونقل جزءاً من النص اللاتيني . وفضلاً عن ذلك ، فقد أشار إلى سرقة البنادقة لآثار مدينة طروادة Troy اليونانية القديمة ، وأنه لا يوجد عمود حجري ، ولا قطعة حجرية واحدة في البندقية لم تجلب من طروادة ، وكذلك فعل الجنوبية مع آثار أثينا القديمة⁽⁹⁴⁾ .

وأما عن الآثار الدينية فقد احتلت جانباً كبيراً من رحلة لودولف ، فتحدث بإسهاب عن الكنائس والأديرة التي مر عليها ، وخاصة في مصر وبلاد الشام . ولا ننسى أن زيارة هذه الأماكن كانت هدف رحلته ، ولذلك فقد أفاض في الحديث عن أديرة وقلايات مصر ، ودير سانت كاترين ، ثم كنائس بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والخليل وإقليم الجليل وما حوله .

وكان بديهيّاً أيضاً أن يهتم بالأخبار الدينية ، حتى إننا نادرًا ما نجد صفحة من تقريره خالية من هذه الأخبار . وساعدته ثقافته الدينية ، واستعانت بالكتاب المقدس على تفصيل الأخبار الدينية . وبالفعل سيجد القارئ صعوبة في مطالعة رحلته ، إلا إذا كان ملماً بما ورد في الكتاب المقدس من أخبار عن شخصياته ، وأماكنه المقدسة .

وفي إشارات متناثرة وعديدة ، ذكر لودولف كثيراً من البلدان والمواقع والجزر والبحار والأنهار التي مر عليها ، بداية من الممالك المسيحية والإسلامية في بلاد الأندلس ،

(93) Ludolph, op. cit., pp. 5, 29, 46, 50-51, 97, 116, 126.

(94) Ludolph, op. cit., pp. 20, 28, 72.

ثم في شمال إفريقيا . وأشار إلى الطرق الداخلية التي يسلكها الزائر من بلد إلى آخر ،
ووسائل النقل ، والصعوبات التي واجهته أثناء رحلته .

وتحدث عن أمور رآها مثيرة للعجب ؛ مثل البراكين في صقلية ، والمخاطر التي
واجهها في رحلته ، سواء من الرياح والعواصف ، أو من الأسماك الشرسة ، أو من المياه
الضحلة والشعب المرجانية . وتحدث عن هجرة الطيور وأنواعها ، ومعاناتها أثناء
ترحالها . هذا فضلاً عن العديد من الطرائف الأخرى التي ذكرها ذكرًا عابراً .

منهج لودولف في تدوين رحلته :

والحقيقة أن لودولف اتبع منهجاً دقيقاً في تدوين تقريره ، فقد اعتمد على مصادر
متنوعة ، كانت محل ثقته . وذكر أن أحداً لا يستطيع أن يطعن في تقريره ، أو لا يقدره ،
لأنه يملك الدليل على ما رآه أو سمعه من الرجال الثقة⁽⁹⁵⁾ . ثم إنه كان ناقدًا ، فتعامل مع
كثير من هذه المصادر بالنقد والتحقيق ، ولم يأخذ أخباره على علاتها ، فتوقف أحياناً عند
بعض الأخبار ، وانتقد مصدرها وروايتها ، وأعلن رأيه فيما رواه صراحة .

وقد تنوعت المصادر التي اعتمد عليها ، وأهم هذه المصادر هي الرؤية أو المشاهدة .
وتعد المعلومات التي سجلها كشاهد عيان هي أهم ما دون في رحلته ، لأنه رآها بعينه ،
وحفظتها ذاكرته حتى سجلها ، ثم لأنها حوادث كانت جارية وقت زيارته ، ولا نجدها
في المدونات التاريخية الأخرى .

وجاءت روايته للموضوعات التي رآها في إطار سردي تنابعي ، بمعنى أنه تحدث عما
يراه ، وكان ينهي حديثه أو يقطعه بذكر خبر آخر متعلق بما يرويّه ، ويعود إلى موضوعه
الأصلي في سرد ما يراه ثانية . وأثناء سرده لا يذكر أنه يدون ما يراه ، وإنما يترك للقارئ
فهم ذلك ، مع الإشارة إلى ما يوحي أنه كان حاضراً حال حدوث ما يذكره . فنجد في
مثل هذه الحالات يقول : «وأثناء زيارتي» ، و«وأثناء إقامتي هناك» ، و«سمعت في هذه
البلاد» ، و«حالياً» ، و«ولكنه الآن» ، و«وحتى اليوم» ، و«ويمكن رؤية» ، وما شابه
هذه العبارات⁽⁹⁶⁾ .

(95) Ludolph, op. cit., p. 136.

(96) Ludolph, op. cit., pp. 6, 76, 77, 95, 107, 108.

وأما المصدر الذي يحتل المرتبة الثانية ، فهو اعتماده على السماع . وعرفنا سلفاً أنه كان دءوباً في البحث عن المعلومة التي يريد بها . فسمع ممن عرفهم ، وسأل آخرين غيرهم عما يريد معرفته ، وأسند رواياته التي سمعها إلى رواتها . والواقع أنه لم يذكر أسماء رواته ، واكتفى بقوله : «أخبرني أحد رهبان هذا الدير» ، و«وقد سمعت من بعض التجار» ، و«وقد سمعت من بعض المسلمين المرتدين» ، و«وكما سمعت» ، إلى آخر هذه العبارات⁽⁹⁷⁾ .

وإذا اعتمد على مصدر لا يثق في خبره ، فإنه يتخذ الحذر تجاهه ويشير إلى ذلك ، فيقول في مثل هذه الحالة : «والبعض يقول ...» ، ثم يعقب على الخبر قائلاً : «ولكنني لا أعلم يقيناً أي شيء عن هذا الموضوع»⁽⁹⁸⁾ .

وأما إذا كان مصدره محل ثقة ، فإنه يشير إلى ذلك بمثل هذه العبارات : «كما سمعت من رجال ثقة» ، و«وسمعت من أحد الفرسان الموقرين» ، و«وسمعت من سيد مبجل» ، ومن بعض الرجال الصادقين الآخرين» ، و«وسمعت من الرجال الثقة والتجار» ، و«وسمعت من ذوي المعرفة» ، و«وأخبرني بحار مشهور»⁽⁹⁹⁾ . فهنا نجد داءً واقعاً من مصادره ، ويريد أن ينقل هذه الثقة للقارئ ، فينعت الراوي بالموثق أو المبجل أو الصادق أو ذي المعرفة أو المشهور .

وأما القراءة ، فكانت المصدر الثالث الذي اعتمد عليه لودولف في كتابة تقريره . وقد لوحظ أن المادة المتعلقة بالأمور الدينية هي التي أخذها من مصادر مكتوبة ، وهي عبارة عن قصص وأخبار أنبياء بني إسرائيل ، والمسيح وتلاميذه والقديسين ، وغيرها من الأمور الدينية .

وكان لودولف أميناً بدرجة كبيرة ، فذكر المصدر الذي نقل عنه في معظم الحالات . فقد اعتمد على الكتاب المقدس ، وأحال القارئ إليه ، كأن يقول : «ونخبرنا الكتاب المقدس» ، و«ونقرأ في الكتاب المقدس» ، و«ويروي الكتاب المقدس» ، وما شابه هذه العبارات⁽¹⁰⁰⁾ .

(97) Ludolph, op. cit., pp. 25, 67, 76, 87, 98.

(98) Ludolph, op. cit., p. 92.

(99) Ludolph, op. cit., pp. 4, 15, 16, 17, 18, 54, 56, 58, 63, 72.

(100) Ludolph, op. cit., pp. 40, 67, 88, 98, 115, 123, 125, 126, 127, 128.

وأشار أيضًا إلى كتب رجع إليها ، ونقل عنها ، وحددها صراحة ، وفي أحيان أخرى لم يحددها . وإذا حدد يقول على سبيل المثال : «عرفت ذلك من كتاب حياة الآباء» . وأشار إلى كتب لها صفة العمومية بدون تحديدها ، فقال : «ونقرأ في تاريخ ملوك الشرق» ، و«ونقرأ في تاريخ طروادة» ، و«طبقًا لما قرأته في كتب التواريخ ، وتاريخ ملوك أرمينيا»⁽¹⁰¹⁾ .

ولكنه أشار في حالات أخرى إلى استعانته ببعض القراءات ، وترك إشارات مبهمة دون تحديد أي نوع من القراءات التي رجع إليها ، فيقول مثلاً : «ويمكن قراءة عجائب كثيرة عن هذه المدينة» ، و«ونقرأ عن هذا البحر ...» ، و«ونقرأ أنه ...» ، و«ونقرأ عن ...» . و«وقرأنا عنه»⁽¹⁰²⁾ . وهو في مثل هذه الحالات حاول أن يضع الثقة فيما يرويها ، وأوحى للقارئ أن هذه المعلومات ، والمزيد منها ، موجود في كتب معروفة ، وليس في حاجة إلى تحديدها .

ولم يكن لودولف ناقلًا عن مصادره نقلًا بدون إدراك ، بل كان ناقدًا في أحيان كثيرة . فذكر بعض الروايات التي اعترض على صحتها ، وروايات أخرى فسرهما ، وأضاف إليها من فهمه وإدراكه . وعلى سبيل المثال ، قال إنه سمع وقرأ في بغداد عن أكاذيب كثيرة ، وضرب مثلاً على هذه الأكاذيب وفندها . ونفى قول البعض إن جبال فقوعة (جليوع) هي موطن الطيور التي تأتي مصر مع فيضان النيل . ونفى خطأ آخر ، وهو أن هذه الطيور لا تتحمل المياه ، وأتى بأدلة ليثبت عكس ذلك . وتوقف عند نقاط أخرى مشابهة ، ففحص الرواية ونقدها ، ولم يقبل بها إذا ثبت لديه ضعفها ، وأضاف إليها رأيه إذا كانت في حاجة إلى توضيح⁽¹⁰³⁾ .

ويبدو أن لودولف أفاد من رحلات السابقين عليه ، فوجد بعض العبارات عنده تشابهت مع مثيلاتها عند مارينو سانوتو وبولدنسيل ، والملاحظ أن هذه العبارات خاصة بموضوعات دينية . ولم يشر إلى أنه نقل عن أحد منهم ، سوى ذكره عبارة توحى بهذا

(101) Ludolph, op. cit., pp. 24, 34, 74, 80, 96, 104, 110.

(102) Ludolph, op. cit., pp. 10, 26, 47, 62, 81, 132, 134.

(103) Ludolph, op. cit., pp. 71, 79, 120, 123.

المعنى ، قال فيها : «وقبل زيارتي لهذا المكان...» ، ثم روى قصة ورد مثلها عند سانوتو⁽¹⁰⁴⁾ .

وقد أفاد بعض الرحالة الأوربيين اللاحقين على لودولف من تقريره هذا ، ونقلوا عنه بعض العبارات ، ومنهم يوحنا هلدشيم John of Hildesheim الذي نقل عنه أكثر من عبارة⁽¹⁰⁵⁾ ، وأما فيليكس فابري Felix Fabri فقد ذكره لودولف صراحة في رحلته ، ونقل عنه عبارات عديدة في موضوعات متعلقة بالبحر ومخاطره وجزره⁽¹⁰⁶⁾ .

ولا شك أن تقرير لودولف به أخطاء ، وقد لا يعاب عليه إسهابه في الحديث عن الأماكن والموضوعات الدينية ، ولكن ما يؤخذ عليه هو دمج قصص عديدة إلى هذه الموضوعات ، وإعطاؤها الطابع الإعجازي . وقد بالغ في هذا الأمر ، حتى جاءت العديد من أقاصيصه كالأسطورة ، ومن الصعب أن يقبلها العقل⁽¹⁰⁷⁾ .

ووقع في بعض الأخطاء التاريخية كقوله بأن ملوك بيت المقدس الصليبيين يرتدون تاجًا من شوك منذ عهد جودفري وحتى وقت زيارته ، وكذا قال إن كونت تولوز امتلك طرابلس ، وإن هولاء كونهب مصر وسوريا ، وأخطأ في تحديد سقوط عكا في يد الأشرف خليل . ووقع أيضًا في أخطاء جغرافية كقوله إن الإسكندرية تطل على النيل ، وإن دمياط كانت تسمى قديمًا باسم إديسا Edissa⁽¹⁰⁸⁾ .

وفي مواضع قليلة وقع لودولف ضحية سذاجة عقلية العصور الوسطى ، ووضح هذا الأمر جليًا عند حديثه عن براكين صقلية ، فذكر أنها تثور حتى تصل عنان السماء إذا قامت معركة في أي مكان . ولم يترك هذا الموضوع بدون أن يؤكد للقارئ صدق روايته . وعلى نفس المنوال بالغ في أعداد جيوش الأشرف عند حصاره عكا ، وبالغ أيضًا في أعداد

(104) Ludolph, op. cit., pp. 72, 90, 93, 94, 95, 107, 109, 110.

(105) Ludolph, op. cit., pp. 94, 111, 112.

(106) Fabri, F., the Book of Wanderings of Brother Felix Fabri, trans. A. Stewart, in P.P.T.S., vols., VII-X, London, 1893-1896, part I, 115, 289, 391, 395; II, 27, 56, 376, 469, 746; III, 2, 67.

(107) Ludolph, op. cit., pp. 21, 22, 23, 24, 26, 27, 28, 29, 63, 65, 70, 73, 81, 87, 94, 95, 113, 133, 134.

(108) Ludolph, op. cit., pp., 45, 47, 81, 104, 134.

القتلى الذين سقطوا في المعارك من كلا الجانبين . وهو في ذلك يشبه مؤرخي عصره في المبالغة في الأعداد عمومًا⁽¹⁰⁹⁾ .

وإضافة إلى ما سبق ، فإن لودولف تناول موضوعات تاريخية متعددة ، منها موضوعات جرت أحداثها أثناء رحلته ، وموضوعات أخرى كانت سابقة عليها . وفي كل الموضوعات التاريخية لم يحدد التاريخ الذي وقعت فيه الحادثة . ويبدو أنه اكتفى بتعريف القارئ بموعد قيام رحلته ، وموعد عودته إلى ألمانيا ، وترك القارئ حائرًا في التحديد الدقيق لتاريخ هذا الموضوع أو ذاك .

وبعد ، فإن هذه الأخطاء التي ذكرت ، لا تقلل من قيمة تقرير لودولف عن رحلته . وسيظل ما كتبه بالغ القيمة لدارسي تاريخ العصور الوسطى عمومًا ، ودارسي الحركة الصليبية على وجه الخصوص ، وتواريخ بلدان مصر وبلاد الشام والعراق والدولة البيزنطية أيضًا .

**الأسس الثقافية والاجتماعية لتشريعات
العقوبات عند محمد علي
دراسة وثائقية تاريخية**

د. يحيى محمد محمود

جامعة الإمارات العربية المتحدة

oboiikan.com

الأسس الثقافية والاجتماعية لتشريعات العقوبات عند محمد علي دراسة وثائقية تاريخية

لم تكن تجربة محمد علي النهضة لتتم دون تشريعات جديدة تمكنه من إدارة الدولة، فقد كان هناك من المستحدثات ما لا يمكن للقوانين والنظم القديمة أن تستوعبها، ولذلك كان على محمد علي إصدار مجموعة جديدة من التشريعات تمكنه من إدارة الدولة. ومن جانب آخر لم يعتد المصريون في بداية القرن التاسع عشر على تدخل الدولة في شؤونهم أو شؤون الإنتاج، فطوال العصر العثماني اختفى دور الدولة تماما، ولم تتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد، واكتفت بدور الدولة الجابية، بينما تركت الأهالي يتدبرون أمور حياتهم بوسائلهم التقليدية والمعتادة، وقد اختلف هذا الأمر بمجيء محمد علي حيث حدد للفلاح الحاصلات التي تجب زراعتها، واحتكر بعض الحاصلات والسلع سواء في إنتاجها أم تسويقها، وحدد كيفية تعامل المشايخ مع الفلاحين، وعلاقات الجهاز الإداري المتعاضم بالأهالي، وكان يتقاضى نسبة كبيرة من دخل البلاد⁽¹⁾، ونتج عن تلك السياسة تعاضم الإنتاج الذي بلغ سقفا غير مسبوق من قبل⁽²⁾، ومكنت تلك الإيرادات محمد علي من تمويل مشروعه النهضوي.

(1) محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن التاسع عشر (1801 - 1821)، مطبعة جامعة القاهرة، 1958، ص 283.

(2) حسن الضيقة، دولة محمد علي والغرب، الاستحواذ والاستقلال، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 191.

ورغم أن التشريع لم يكن مصدرا من مصادر الشريعة الإسلامية لأنها شريعة منزلة⁽³⁾، إلا أن الحاكم كان له اختيار مذهب دون الآخر، بل إن الحكام كانوا يتنقلون في أحكامهم بين المذاهب وفقا لما يمليه ظرف كل موقف، فقد اجتهد بعض الفقهاء لحل بعض المستجدات وبهذا أصبحت اجتهاداتهم جزءا من قانون الدولة، ومثال ذلك أخذ الدولة العثمانية بأحكام المذهب الحنفي، وتمكن أبو السعود العمادي من صوغ قانونها بالصيغة الإسلامية، من خلال صياغة قانونها الأساسي في 23 بندا ليستخدمها القضاة الأحناف في الحكم، وهو ما أصدره السلطان سليمان القانوني فيما عرف باسم قانونامة⁽⁴⁾.

ونظرا للمستجدات التي استحدثها محمد علي فقد أصدر مجموعة من التشريعات من أهمها: قانون الفلاح سنة 1830، وقانون عمليات الجسور، والعديد من اللوائح والقوانين التي كان أهمها سياستامة سنة 1837م⁽⁵⁾، والذي جاء بمثابة تنظيم عام للإدارة والدولة، ومع ذلك تعرض محمد علي لهجوم العديد من الغربيين المعاصرين له، فوصفوه بالسفاح الدموي، وأنه لم يكن يحكم البلاد وفق قانون⁽⁶⁾ بينما تحدث البعض الآخر عن عقوبات بشعة مثل القتل بالخازوق، وحق المشايخ ومديري الجفالك في عقاب الفلاح كيفما شاؤوا⁽⁷⁾.

وعلى هذا فإن هذه الورقة تهدف لدراسة الأسس القانونية لتشريعات العقوبات عند محمد علي باشا، وكيف تمكن من تنظيم إدارة البلاد بشكل يتفق مع مشروعه النهضوي، ثم ستدرس جانب العقوبات في تشريعاته وممارسته من خلال دراسة التعزيز بوصفه حقا للحاكم المسلم في تلك الفترة، وهو ما لم يدركه الأوروبيون المهاجمون له لأسباب شخصية.

(3) د. هاشم الحافظ، تاريخ القانون، بغداد، 1972، ص 84.

(4) أبو السعود العمادي (1545-1574) مفتي السلطنة العثمانية، أنظر: N.J. Coulson, London, A history of Islamic Law, Islamic Surveys, 1946, p202.

(5) د. شفيق شحاتة، التاريخ العام للقانون، القاهرة، 1958، ص 321.

(6) Mme Olympe Audouard, Les Mysteres, L'Egypte Devoiles, E. Denttu, Librairie-Editeur, Paris, 1865, p213

(7) P. N. Hamont, L'Egypte sous Mehemet - Ali, Leautey et Lecointe, Paris, 1845, p445.

وستستند الدراسة بالدرجة الأولى على أوامر محمد علي الصادرة منه لجهات الإدارة المختلفة، وهي مجموعة كبيرة باللغة التركية، وتوجد ترجمة ملخصة لها في محافظ ملخصات الأوامر، وقد قام فريق من الباحثين بتحقيق ونشر جزء منها بدعم من دار الوثائق القومية، وستستعين الدراسة إلى جوارها بما كتبه معاصرو محمد علي ومجموعة المصادر والمراجع المتعلقة بعصر محمد علي . ويعالج البحث الموضوع من خلال الأسس الآتية:

أولاً: المؤسسات التشريعية :

مع بداية حكم محمد علي باشا بدأت أولى محاولاته للتشريع في البلاد، فشكل أول دواوينه وهو ديوان الوالي سنة 1220هـ / 1805م ؛ أي مع بداية حكمه مباشرة مما يعني أن هناك برنامجاً محددًا في ذهنه، وقد عين فيه عالماً من كل مذهب من المذاهب الأربعة، وهو ما يعني أيضاً أن هذا المجلس سيعمل وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، ووفقاً لإجماع المذاهب دون التحيز للمذهب الرسمي للدولة العثمانية، وقد كان هذا الديوان متعدد الاختصاصات، وكان من أهم مهامه وضع النظم الجديدة اللازمة للبلاد ؛ أي وضع اللوائح والقوانين اللازمة للبلاد إلى جوار المهام الإدارية والتنفيذية الأخرى، وقد تغير اسم الديوان عدة مرات، فسمي بالديوان الخديوي، وكان يرأسه كتخدا الباشا، وقد تم تغيير اسمه للمرة الثانية سنة 1253هـ / 1837م حين سمي بمجلس شورى المعاونة، وأخيراً سمي بالمعية السنية عام 1258هـ / 1842م⁽⁸⁾، ولكنه واصل المهام نفسها تحت كل مسمى.

وقد سن الديوان العديد من اللوائح والقوانين، ومن أمثلة تلك اللوائح لائحة صيارف البلاد الصادرة سنة 1835م⁽⁹⁾، وقد قام المجلس بوضع اللائحة بناء على طلب مفتش الأقاليم الوسطى والصعيدية، الذي لاحظ نقصاً في كتابة صيارف القرى ومخالفاتها

(8) أحمد فتحي زغلول، المحاماة، القاهرة، 1904، ص 160.

(9) أمر صادر في غرة جمادى الأولى سنة 1251هـ / 26 أغسطس سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

للأصول، وتم استدعاء نظار الأقسام وعمد ومشايخ القرى وشرح اللائحة لهم، وبعد أن أقرأوا ما بها من قواعد صدرت اللائحة لتصبح أساس الحسابات في الريف وضبط الأموال الأميرية⁽¹⁰⁾.

ويلاحظ أن ديوان المعاونة واصل عمله في وضع اللوائح في الوقت نفسه الذي كان فيه الديوان العالي يقوم بالمهمة نفسها؛ أي إن الديوانين مارسا المهمة التشريعية نفسها في الوقت ذاته، ومثال ذلك إعداد الديوان لائحة الجفالك⁽¹¹⁾ سنة 1836م⁽¹²⁾، وقد حددت تلك اللائحة نصيب المزارعين من المحصول في الجفالك، لعلاج ظاهرة سرقة المحاصيل، ويوضح وضع تلك اللائحة أسلوب محمد علي التشريعي؛ حيث يرصد موظفوه الظاهرة فيحيلها لأحد المجالس ويطلب منه الحل بتشريع لائحة أو قانون يعالج الظاهرة، ثم يقوم الباشا بإصدار اللائحة أو القانون لتعميم النفع بها؛ حيث إن مهمة المجالس استشارية بالنسبة إليه ولكن المسؤولية تقع على عاتقه في النهاية⁽¹³⁾، وقد أعد المجلس العديد من القوانين بهذا الأسلوب مثل قانون تقديم الكشوف والحسابات في مواعيد محددة لديوان شورى المعاونة الصادر سنة 1839م⁽¹⁴⁾.

ولم تقتصر تشريعات ديوان خديوي على اللوائح الإدارية فقط، ولكنه واصل التشريع مع وجود المجالس الأخرى في أمور تحتاج للاجتهاد القانوني والفقهية، ومثال

(10) المصدر نفسه.

(11) الجفالك كلمة تركية تعني المزرعة التي يزرعها محراث يجره ثوران، وهي تعني في المعنى التركي المزرعة النموذجية، وقد استحدث محمد علي تلك المزارع النموذجية له ولأولاده كوسيلة من وسائله لتطوير الإنتاج وكشكل من أشكال الاحتكار الذي مارسه.

(12) أمر من محمد علي باشا لمدير الجفالك في 4 رجب سنة 1252هـ/ 15 أكتوبر سنة 1838م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(13) الحاكم في القواعد الشرعية إنما يستشير في أمور من اختصاصه وحده، له فيها السلطة الكاملة، وعليه فيها المسؤولية الكاملة وفقا للمنظور الإسلامي الشرعي. انظر: د. مصطفى فهمي أبو زيد، فن الحكم في الإسلام، المكتب المصري الحديث، القاهرة، د. ت، ص 246.

(14) أمر من محمد علي باشا إلى ديوان الإيرادات في 7 جمادى الآخرة سنة 1255هـ/ 17 أغسطس سنة 1839م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

ذلك قيام المجلس بوضع تشريع جديد للمجالس الحسبية - مجالس الوصاية على القصر - سنة 1837م⁽¹⁵⁾، وقد طلب الباشا من المجلس تصدير القانون بالشرح اللازم للقائمين على تنفيذه مستقبلا حتى يضمن تنفيذه بالشكل الصحيح.

أما ثاني المجالس التشريعية التي أنشأها محمد علي فقد كان المجلس العالي الملكي، الذي أسسه في 5 ربيع آخر سنة 1240هـ / 26 نوفمبر 1824م، وقد قام هذا المجلس بسنّ بعض القوانين واللوائح اللازمة للبلاد، مثل لائحة مشتريات الحكومة التي وضعها المجلس من سبعة بنود سنة 1836م، وأمر محمد علي بطباعتها على شكل كتاب لتكون متاحة للجميع، وتداولها بجميع المصالح الحكومية⁽¹⁶⁾.

ومن أمثلة التشريعات المالية التي سنّها المجلس لائحة تنظيم المسكوكات التي وضعها عام 1839م، وقد جاءت اللائحة للتغلب على تنقيص وزن العملة، وتحديد أسعار العملات الواردة من الخارج، وتنظيم خروج العملة من مصر⁽¹⁷⁾.

ويلاحظ أن مؤسسات محمد علي باشا لم تكن تعمل كل في واد، ولكن كان هناك تناغم بين جميع مؤسسات الدولة، فقد تعاونت جميع المؤسسات التي أنشئت تباعا لتأدية جميع مهام الحكومة ككل، ولم تعش في جزر منعزلة⁽¹⁸⁾.

كذلك كانت هناك مراجعة للقوانين، فقد طلب محمد علي في أحيان كثيرة من ديوان الشورى دراسة تأثير بعض القوانين إذا لمس أن قانونا لم يحقق النتائج المطلوبة منه، ومثال ذلك طلبه سنة 1844م من ديوان الشورى مراجعة قوانين منع التسحب من الأرض

(15) أمر من محمد علي باشا إلى مأمور الديوان الخديوي في 7 محرم سنة 1253هـ / 13 أبريل سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(16) أمر من محمد علي إلى رئيس المجلس في 20 جمادى الآخرة سنة 1252هـ / 1 أكتوبر سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(17) أمر من محمد علي باشا إلى وكيل الجهادية في 22 جمادى الأولى سنة 1255هـ / 29 مايو سنة 1839م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(18) يحيى محمد محمود، ديوان التجارة والأمور الإفرنجية، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد 57، أبريل سنة 1997.

الزراعية وتركها دون زراعة، فقد وجد أنه رغم صدور قوانين قاسية في معاملة المتسحجين من الأرض، إلا أنهم عادوا للفرار مرة ثانية بعد إعادتهم لقراهم، وقد بررت تلك التصرفات بضرورة وجود موانع تحول دون استمرار الفلاحين في زراعة حقولهم المكلفين بزراعتها، وطلب من شوري المعاونة إعادة دراسة هذه الظاهرة، واستجواب هؤلاء المتسحجين؛ لمعرفة سبب تسحبهم، وإعطاء الأهالي تصريحاً بالشكوى مباشرة له للكشف عن الأسباب التي تعوقهم عن القيام بتكليفاتهم حتى يمكن القضاء على تلك الظاهرة التي فشل القانون الأول في القضاء عليها⁽¹⁹⁾.

التشريع بواسطة الخبراء:

استقدم محمد علي بعض الموظفين خصيصاً لترتيب الإدارة والأمور الإدارية، فقد استقدم مسيو روسيته الفرنسي خصيصاً لإعادة ترتيب الإدارة في مصر، وقد وضع مسيو روسيته القواعد الإدارية المختلفة⁽²⁰⁾، كالحفظ وترتيب الإدارات، كما فتح محمد علي الباب في الوقت نفسه لموظفيه لوضع اللوائح اللازمة لإدارة البلاد، وكان يفحص تلك اللوائح والقوانين بنفسه، ثم يقوم بتعميمها على باقي الإدارات للعمل بها.

كما لعبت البعثات التعليمية التي أرسلها محمد علي دوراً في تكوين جيل جديد من المتعلمين في الخارج، يمكنها نقل خبرات جديدة سواء بدراسة الإدارة في فرنسا، أو بنقل النظم التي يشاهدونها في باقي المجالات، فدراسة الطب ترتبط بالإدارة الطبية، كما يرتبط بها توقيع العقوبات على المخالفات التي تقع من قبل الأطباء أو العاملين بالمستشفيات، وهكذا كانت الخبرات الأوروبية تنتقل للبلاد من خلال هؤلاء المبعوثين. وكان محمد علي يعهد لموظفيه بوضع اللوائح اللازمة لعلاج المشكلات متضمنة المخالفات والعقوبات، وكان يعمم تلك اللوائح للعمل بها وكان يشير إلى واضح تلك اللائحة في أوامره، ومثال ذلك لائحة أعمال المعاوين التي وضعها مدير نصف أول الشرقية عام 1836م، والتي تضمنت أعمال كل معاون

(19) أمر من محمد علي باشا إلى ديوان الشورى في 17 ربيع أول سنة 1260هـ/ 5 مايو سنة 1844م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(20) يحيى محمد، الدفتر خانة، مجلة ليوا، العدد الأول، يناير 2004، أبو ظبي.

اليومية ومواعيد تقديمها للإدارة كل خمسة عشر يوماً، وإخطار نظار الأقسام بالأمور المستعجلة فوراً، وتضمنت الحوافز المشجعة لهم على القيام بمهامهم بدقة، والعقوبات التي توقع على المهمل منهم، وطرق نقلهم من مديرية لأخرى، وقد عمم محمد علي تلك اللائحة على المديرين جميعاً للعمل بها عام 1836م⁽²¹⁾.

ثانياً: أسس التشريع:

تعددت الأسس التي استندت إليها تشريعات محمد علي، فقد جاءت الشريعة الإسلامية لتشكيل الأساس الأول لهذه التشريعات، ثم التشريع من خلال الخبرة العملية، أو ما يمكن أن يسمى بتقنين الوضع القائم على العرف، ثم ترجمة القوانين الأوروبية.

1- الشريعة الإسلامية

حافظ محمد علي على المحاكم الشرعية الموجودة في البلاد؛ إذ واصلت العمل كما كانت قبيل عصره، فقد واصلت العمل بالشريعة الإسلامية في البت في أمور الأحوال الشخصية، والتسجيل والأمور العينية؛ إذ لم تتناول تشريعاته إلا المستحدثات الإدارية، أما الأحوال الشخصية والتسجيلات فبقيت بيد القضاء الشرعي كما هي؛ حيث إن محمد علي لم يكن يريد الخروج عن الشريعة الإسلامية على الإطلاق.

أما المستجدات الإدارية الجديدة والتنظيمات الجديدة فقد كانت تتم في البداية من خلال الديوان الخديوي أو ديوان الشورى، وقد كان الديوان يمثل فيه المذاهب الأربعة، وهكذا جاءت كل التشريعات من خلال هذا الديوان بناء على إجماع المذاهب وباتفاق آراء ممثليهم في الديوان، ويدل وجود فقهاء من المذاهب الأربعة على حرص محمد علي على تطبيق الشريعة الإسلامية، وهذا التطبيق لم يكن من خلال المذهب الحنفي أي المذهب الرسمي للدولة فقط، ولكن من خلال آراء المذاهب الأربعة معاً.

(21) أمر من محمد علي باشا إلى عموم المديرين في 26 شوال سنة 1251هـ/ 4 فبراير سنة 1836م، محافظ

ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

2- تقنين العرف

كان العرف بين التجار هو أهم أركان النشاط التجاري، ولذلك حين أراد محمد علي تنظيم التجارة والأمور المالية، استعان بلجنة من التجار والخبراء في الأمور التجارية لإعادة تنظيمها سنة 1820م؛ لهذا أصدر أمره لكتبخدا بك في 12 شعبان سنة 1235هـ/ 25 مايو سنة 1820م، بتشكيل لجنة لوضع الأسس لنظام التجارة فقد كون الكتبخدا اللجنة منه وعضوية كل من الخواجهات: ديروني، وبوغوص، بطروس، وجمنتو، وبجانفي، ويوجنتي، ولاراتوري، وهكذا تشكلت اللجنة من التجار الأجانب المقيمين في البلاد برئاسة نائبه، وقد عهد لهذه اللجنة بالمداولة والمذاكرة في الأمور المتعلقة بالتجارة وما يتعلق بالخزينة أيضاً⁽²²⁾، وهكذا نجد أن المهمة الرئيسة لتلك اللجنة هو تنظيم التجارة والمالية وفقاً لأوامر محمد علي، ويلاحظ أن محمد علي لم يضع لهم أسساً لتشريعات التجارة والمالية التي وضعوها.

ويلاحظ كذلك غياب العنصر المحلي تماماً من هذه اللجنة، وهو ما يبين لنا أن محمد علي إنما أراد وضع أسس النظم التجارية والمالية على غرار النظم الأوروبية بمعرفة هؤلاء، فقد جاءت لجنة التشريع من التجار الأجانب ممن لهم دراية عملية بالنظم الأوروبية، وربما يرجع ذلك إلى سيطرة الأجانب على تجارة مصر الخارجية في تلك الفترة، ولكن هذا لا يعني أن تلك اللجنة كانت مطلقة الصلاحية، فقد كان ما تقرره يخضع لمراجعة ديوان الخديوي وفيه فقهاء يتأكدون من مطابقة ما جاءت به مع الشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى أن الباشا كان يراجع ما تضعه بنفسه وبحضور مجلس الشورى؛ حيث إنه السلطة التي تصدر التشريع أو القانون، أو اللائحة، في نهاية الأمر لجهات التنفيذ لتطبيقه، بناء على أوامره المباشرة.

وقد صدرت التشريعات الجديدة عن هذه اللجان ببساطة بعد إقرار الديوان الخديوي لها، والسبب في ذلك هو عدم تعارضها مع الشريعة الإسلامية حيث يتشابه

(22) أمر من محمد علي لكتبخدا بك، 12 شعبان سنة 1235هـ/ 25 مايو سنة 1820م، منشور في: مجموعة الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي باشا ومن ولده العزيز إبراهيم، تحقيق: مجموعة من الباحثين، إشراف: د. رءوف عباس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2005.

الفقه الإسلامي مع القانون الفرنسي في مجالات المعاملات والعقود التجارية والأموال المدنية⁽²³⁾؛ حيث إن ما يقرب من 90٪ من نصوص القانون الفرنسي مشابهة لأحكام الفقه الإسلامي⁽²⁴⁾، أو مستمدة من أحكام الفقه الإسلامي⁽²⁵⁾، مثل النظر للأهلية، والتقييد بالوصية وغيرها من الأحكام الشرعية⁽²⁶⁾.

وقد ظلت تلك الطريقة متبعة في عصر محمد علي؛ حيث يتم تكوين لجنة من المختصين لتنظيم ووضع اللوائح التجارية على وجه الخصوص، مثلما حدث عند وضع لائحة ترتيب مجالس التجار عام 1845م، فقد تم تكوين لجنة بعضوية كل من أرتين بك مدير ديوان التجارة والأمور الإفرنجية، والخواجات توسيجيه، جباره، فرنك، وقرتامس، وغفاني، والحاج إبراهيم أغا باكير والسيد محمد بدر، وعلي بك لتنظيم مجلس تجار الإسكندرية، واجتمعت اللجنة بديوان الإسكندرية حيث انتخبوا من بينهم رئيساً للجنة وهو علي بك، ومعاوناً له وهو الخواجه غفاني، وأنجزت اللجنة مهمتها ووضعت قانون مجلس تجار الإسكندرية⁽²⁷⁾.

وقد أسهم الخبراء الأجانب بالمشاركة مع القناصل الأجانب بالإسكندرية في وضع بعض القوانين الضرورية مثال قانون الحجر الصحي سنة 1828م، فقد عهد محمد علي للجنرال لتليه وطبيب أجنبي آخر هو جروفي بالمشاركة مع القناصل الأجانب بوضع قانون الحجر الصحي بالإسكندرية، وقد كتب القانون أولاً بالفرنسية ثم ترجم للعربية والتركية، وقد أقره محمد علي وأصدره، كما حددت اللجنة المنشآت اللازمة لتطبيق القانون، وموقع كل منها بالقرب من الميناء، وقد طلب محمد علي من محرم بك هدم المنازل

(23) د. سيد عبد الله علي حسين، المقارنات التشريعية، ج1، ص 49.

(24) د. عادل مصطفى بسيوني، التشريع الإسلامي والنظم الوضعية القانونية، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1978، ص 85.

(25) محمد رجب المياوي، المقاربات التشريعية، تحقيق: د. محمد سراج الدين، القاهرة، 2000، ص 15.

(26) د. محمد عبد الهادي سراج، تاريخ التشريع الإسلامي ومصادره، ط1، الإمارات، 2000، ص 279.

(27) أمر من محمد علي باشا لعموم المديرين في 22 جمادى الأولى سنة 1261هـ/ 29 مايو سنة 1845م،

محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

الصغيرة القريبة من الميناء⁽²⁸⁾، وبناء منشآت الحجر الصحي في المواقع التي أشارت إليها اللجنة، وهكذا استفاد محمد علي من كل خبرة أجنبية موجودة بالبلاد بما في ذلك القناصل الأجانب بالإسكندرية، وكان الكثير منهم من التجار أو المهتمين بالتجارة، وكانوا على دراية بوسائل الحجر الصحي في جميع الموانئ الأوروبية، وهكذا جاء تنظيم الحجر الصحي علي غرار القوانين الأوروبية، مع تفادي العقبات التي قد يلحقها المتعاملون مع تلك المنشآت في أوروبا، فهو خلاصة الفكر الأوربي، فيما لا يمس الشريعة.

3- ترجمة القوانين والنظم الأوروبية

تعرف محمد علي على القوانين والنظم الأوروبية من خلال الخبراء الأجانب الذين استعان بهم مثل كلوت بك، وشامبليون، وهامون وغيرهم من الخبراء الغربيين⁽²⁹⁾ ومع مرور سنوات من التعامل معهم يبدو أن محمد علي أصبح على إلمام كامل بتلك القوانين، ويظهر ذلك في أوامره الصادرة لموظفيه⁽³⁰⁾ لذلك بدأ محمد علي عملية نقل للقوانين الأوروبية إلى العربية وتطبيقها في عام 1835م بعد ما يزيد على ربع قرن من حكمه للبلاد⁽³¹⁾، وقد تم في تلك السنة ترجمة القواعد العسكرية أولاً بواسطة قلم الترجمة؛ حيث

(28) أمر من محمد علي إلى محرم بك في 12 رمضان سنة 1243هـ / 28 مارس سنة 1828م، منشور في: مجموعة الأوامر الصادرة، مصدر سابق.

(29) Gorge Young, Egypt, The modern World, Edited by Rt. Hon . H. A. Lo Fisher, London, Ernest Benn Limited, 1927, p 67

(30) - عندما انتشرت ظاهرة تشويه الفلاحين لأجسادهم للهروب من الخدمة العسكرية نبه محمد علي المشايخ لذلك وعقب بقوله: "لأنه لما حدث مثل ذلك في أوروبا قد حكم على المأمورين والحكام بالليمان مدى حياتهم" وهو ما يبين إلمامه بما حدث في أوروبا ووسائل علاج مثل هذه الأزمة في الدول الأوروبية، انظر: أمر من محمد علي باشا إلى مأموري الأقاليم القبلية في 14 ذي الحجة سنة 1248هـ / 4 مايو سنة 1833، منشور في، الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر، مصدر سابق.

(31) ذكرت بعض المصادر أن عملية النقل من القانون الفرنسي للقانون المصري بدأت عام 1926م، ولكننا وجدنا في الوثائق ما يفيد أنه حتى عام 1935 كانت القوانين تحت الترجمة كما جاء في الوثيقة السابقة والتالية، ولهذا أشرنا إليهما، ولزيد من التفاصيل انظر: عمر السكندري وسليم حسن، تاريخ مصر قبيل الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مكتبة مدبولي، 1990، ص 142. ويبدو أنها اعتمدت على كلوت بك فيما قالاه، انظر: كلوت بك، لمحة عامة على مصر، تعريب: محمد مسعود، القاهرة، د.ت، ص 77. حيث أشار إلى التغيرات التي تمت سنة 1926م.

تمت ترجمة ثلاثة كتب تتضمن قواعد المدفعية - الطوبجية - وكانت تضم القوانين العسكرية إلى جوار القواعد الفنية العسكرية والتي ترجمها كافي بك بأوامر من محمد علي باشا⁽³²⁾.

ولم يقتصر الأمر على الترجمة فقط ولكن كان لمحمد علي فلسفته الخاصة في التعامل مع تلك القوانين، فقد كان تطبيقها يتم وفقا لما يتم ترجمته أولا بأول، ولكن مع مراعاة ظروف المجتمع وليس تطبيقا حرفيا، ويتضح هذا من أمر أصدره محمد علي إلى وكيل المجلس العالي في 15 رمضان سنة 1252هـ / 24 ديسمبر سنة 1836م، فقد أراد المجلس تطبيق القانون على التجار المفلسين بينما كان القانون تحت الترجمة، وذلك ببيع أملاكهم وخصم حقوق الحكومة من أثمان البيع بمقتضى القانون الفرنسي الذي أشار إليه محمد علي على أنه قانون أوربا، ولكن محمد علي رفض قياس المجلس ورفض قياس الأوضاع في مصر بالأوضاع في أوربا، وأشار إلى أن تلك العقوبات تم تشريعها هناك باتفاق آراء الجميع، والتي حددت أصولا لكل المعاملات وهو ما لم يتم في مصر، وأمر محمد علي بتوقيع عقوبة مخالفة للقانون الفرنسي على التجار المفلسين؛ حيث أمر بسجن المدين بأكثر من مائة كيسه وعاجز عن السداد ولا يوجد ضامن له مدى الحياة، ومعاقبة باقي المدينين بالسجن مددا تتناسب مع المبالغ المدينين بها للحكومة وإسقاط تلك المبالغ من حسابات الحكومة بعد توقيع العقوبة⁽³³⁾.

وكان محمد علي يأمر بترجمة التنظيمات الجديدة بلغة مفهومة من الجميع، ورفض ترجمة بعض القوانين بعبارات غير مفهومة من العامة - الهذيان -، كما طلب من المعلم مسيحة معلم اللغة العربية إعادة صياغتها بطريقة عربية أقرب للجميع، كما طلب ترجمتها أيضا إلى التركية لتعم الاستفادة منها⁽³⁴⁾.

(32) أمر من محمد علي باشا إلى أدهم بك في 29 رجب سنة 1251هـ / 20 نوفمبر سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(33) أمر من محمد علي إلى وكيل المجلس في 15 رمضان سنة 1252هـ / 24 ديسمبر سنة 1836، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(34) أمر من محمد علي باشا إلى وكيل المجلس في 5 ذو القعدة سنة 1251هـ / 22 فبراير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

وعلى جانب آخر تمت ترجمة القوانين المتخصصة بواسطة المختصين ومثال ذلك ترجمة القوانين الصحية بواسطة الأطباء، فقد طلب محمد علي من الأطباء ترجمة قوانين أطباء أوروبا سنة 1835م، ويلاحظ أن هذه الترجمة لم يأخذ بها الباشا مباشرة، ولكنه أعاد النظر فيها بنفسه، ورفض بعض ما فيها من قواعد، مثل المساواة بين الأطباء في الرواتب، فقد اعتبر أن ذلك شكل من أشكال الطمع، ولكن ترك لنفسه الحق في تعيين رواتب كل منهم على حدة⁽³⁵⁾، على حين أخذ بباقي القواعد التنظيمية المتعلقة بتنظيم مهنة ممارسة الطب في مصر التي جاءت على مثال القواعد الأوروبية، وتم سن تلك القواعد بواسطة الأطباء الأوروبيين العاملين بمصر، وبمشاركة الأطباء العرب ممن تعلموا في مدرسة الطب التي أنشأها وعهد بإدارتها والإشراف عليها لكلوت بك.

ثالثاً: أهم القوانين

أمر محمد علي بطبع ونشر القوانين التي تم سنّها، والعمل على تنفيذها والعمل بأحكامها، ولم يكتف محمد علي بذلك ولكنه أمر لأول مرة بتعيين مستشار قانوني بكل ديوان من الدواوين، ونبه على كل منهم بضرورة الاطلاع على القانون الملكي الجديد وتنفيذ أحكامه، كما أمر بتعيين مستشار قانوني لكل من مجالس الإسكندرية ورشيد ودمياط، وهو ما يشير إلى رغبته في تطبيق تلك القوانين⁽³⁶⁾، وقد تعددت تلك القوانين مثل لائحة الفلاح، والعديد من اللوائح، ولكن قانون السياسة يعد أهمها وهو ما سنتناوله بالدراسة.

السياسة

من الصعب الحكم على عصر محمد علي بوصفه فترة واحدة ينطبق عليها من بدايتها لنهايتها القواعد نفسها، فقد حكم محمد علي مصر في الفترة من 1805م وحتى عام 1848م

(35) أمر من محمد علي باشا إلى وكيل الجهادية في 20 رجب سنة 1251هـ/ 12 نوفمبر سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(36) أمر من محمد علي إلى مديري ومفتشي الأقاليم المصرية في 22 شوال سنة 1252هـ/ 29 يناير سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

أي إن فترة حكمه هي 43 عاما وهي فترة ليست بالقصيرة، لذلك سنجد أن هذه الفترة ستختلف من مرحلة لأخرى؛ ففي بداية حكم محمد علي وفور توليه الحكم أنشأ الديوان عام 1805م، وقد تغير اسمه عدة مرات كما رأينا، ولكنه كان المؤسسة الإدارية والرئيسة حتى تم إنشاء المجلس العالي سنة 1824م، وقد كانت التشريعات واللوائح المتتالية من إصدار أي من المجلسين.

وفي عام 1837 أصدر "قانون سياستامة"، كشكل من إعادة الترتيب والتنظيم بعد فترة حكم استمرت 32 عاما وهي ليست بالقليلة، كما ظل هناك ثابت واحد سواء قبل صدور السياستامة أو بعده وهو وجود محمد علي نفسه على رأس السلطة كحاكم وحيد له صلاحيات تشريعية وتنفيذية مطلقة، وتستمد المجالس مشروعاتها وتخصيصاتها منه، ولا يصدر تشريع أو غيره دون مراجعته وموافقته، ولكنها في النهاية تصدر بأمر منه وفقا لرؤيته، وقد لجأ محمد علي مع تقدمه في السن إلى ترك بعض من تخصصاته لنظار الدواوين أو لمجلس آخر هو جمعية الحقانية التي تم إنشاؤها عام 1842م، وذلك للبحث في الأمور القضائية، ولكن ذلك لم يكن يعني بحال تنازله عن صلاحياته القضائية.

وجاءت السياستامة بمثابة دستور مصغر وقع في ثلاثة أجزاء - فصول - بين الفصل الأول منها القواعد الأساسية للإدارة، وانقسم إلى تسعة بنود، تناولت تقسيم الإدارة إلى تسعة دواوين مختلفة، وحددت مسؤوليات مدير كل ديوان وموظفيه، كما تناولت تقسيم كل ديوان إلى ورش، وحددت أسلوب إعداد ميزانية كل ديوان، ومواعيد رفع التقارير الأسبوعية للباشا، كما حددت نظاما سنويا لتجمع المديرين في شكل مجلس للحكومة أو حين وقوع أمور تتطلب رأيهم، حيث يرفع هؤلاء المديرون تقاريرهم عن الأمور المعروضة عليهم للباشا⁽³⁷⁾.

أما الفصل الثاني وهو الذي حدد أسلوب العمل في الإدارة فقد تكون من واحد وعشرين بندا، حددت حقوق الفلاح في الحصول على أجر عن كل عمل يقوم به، وأمنته

(37) السياستامة، الفصل الأول، البنود من (1) إلى (9)، دفتر قيد المهام والوظائف، دار الوثائق القومية.

على ماشيته وأدواته، وحددت سلطات مشايخ القرى، والصيارفة وكتاب الشون وطرق بيع الحاصلات، وشراء لوازم الحكومة، وأساليب كتابة الدفاتر وإجراء الحسابات، كما حددت مهام الصيارفة والمخزنجية والقبانية والمفتشين، وأسلوب قيام كل منهم بمهام وظيفته⁽³⁸⁾.

وفيما يتعلق بالفصل الثالث فقد جاء بمثابة قانون للعقوبات، جاء في واحد وعشرين بندا، حدد عقوبات للاختلاس واستغلال النفوذ والرشوة والتزوير في السجلات واستغلال مال الحكومة، أو إتلافه، ومخالفة اللوائح وحدد لكل تلك المخالفات عقوبة الجلد من خمس وعشرين إلى خمسمائة جلدة⁽³⁹⁾.

وقد ساوى القانون بين كبار وصغار الموظفين في ضرورة احترامهم جميعا لبنوده، ولكنه فرق بينهم في وسيلة التحقيق مع كل منهم؛ حيث كان التحقيق مع كبار الموظفين يتم من خلال مجلس مركب من أرباب شورى خاصة وناظر ديوان التفتيش وبعض الذوات ممن يحددهم الباشا، أما الصغار فيتم التحقيق معهم أمام الديوان الخديوي⁽⁴⁰⁾.

وقد ألزمت السياسستامة جميع جهات التحقيق بعرض أحكامها على الباشا للتصديق عليها؛ حيث إن جميع العقوبات من اختصاصه، فهو القاضي الأول في البلاد⁽⁴¹⁾.

وقد تلا ذلك تشكيل جمعية الحقانية عام 1842م، بعد خمس سنوات من صدور السياسستامة حيث أشار البند الثالث إلى ترتيب جمعية يُمثلُ أمامها كبار المسؤولين المشار إليهم في البنود من الأول وحتى الرابع عشر للتحقيق معهم فيما نسب إليهم وإثبات ذلك أمام جمعية الحقانية⁽⁴²⁾، وهي هيئة قضائية مكونة من رئيس وستة أعضاء يمثل كل اثنين منهم سلاحا من أسلحة الجيش، الجهادية، والبحرية، وضباط الملكية، وحددت لائحة

(38) السياسستامة، الفصل الثاني، البنود من (1) إلى (21)، مصدر سابق.

(39) السياسستامة، الفصل الثالث، بنود من 1 إلى 14، مصدر سابق.

(40) السياسستامة، الفصل الثالث، بند 18. مصدر سابق.

(41) السياسستامة، الفصل الثالث، بند 21، مصدر سابق.

(42) لائحة ترتيب جمعية الحقانية، البند الثالث، دفتر ترتيب المهام والوظائف، دار الوثائق القومية.

ترتيب الجمعية وسائل التحقيق أمامها، وكان الهدف منها مساواة الجميع أمامها لا فرق بين غني وفقير أو صغير وكبير⁽⁴³⁾، وبهذا جاءت اللائحة لتضع قاعدة للمساواة بين المتهمين أمامها.

وأعقب إنشاء جمعية الحقانية إنشاء مجالس التجار سنة 1845م⁽⁴⁴⁾، لفض المنازعات بين التجار التي كان الباشا يفضها بنفسه من قبل، وربما يرجع ذلك إلى تقدم الباشا في السن، ولكن لتكتمل الهيئات القضائية في البلاد. ويلاحظ أن هذه الهيئات القضائية المستحدثة صارت جنباً إلى جنب مع المحاكم الشرعية التي كانت موجودة بالبلاد، ولكن اقتصر نشاطها على الأحوال الشخصية ومسائل الموارث والدعاوى العينية والأوقاف والتسجيل⁽⁴⁵⁾، أما المسائل المدنية والجنائية التي بدأت تنظمها القوانين الجديدة فقد أصبحت من اختصاص الباشا ومجالسه المستحدثة، ولكن محمد علي دأب طوال فترة حكمه سواء قبل صدور السياسات أم بعدها على عقاب المقصرين من موظفيه أو الأهالي، وهو الحق المعروف للحاكم باسم التعزير وهو ما ستعرض له الورقة بالتفصيل.

رابعاً: التعزير

التعزير في رأي الفقهاء هو تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود، أي هو عقوبة على جرائم لم تضع الشريعة الإسلامية لها عقوبات معينة محددة⁽⁴⁶⁾، فهو تأديب وإصلاح وزجر يختلف فيه حسب اختلاف الذنب، وهناك مجموعة متدرجة من العقوبات في التعزير وفقاً لرؤية القاضي تبدأ بالنصح وتنتهي بالجلد والقتل⁽⁴⁷⁾، ويترك للقاضي أن

(43) ختام لائحة ترتيب جمعية الحقانية، مصدر سابق.

(44) أمر من محمد علي باشا إلى الكتبخدا في 22 جمادى الأولى سنة 1261هـ / 29 مايو سنة 1845م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(45) د. لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام 1831-1841، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1990، ص 86.

(46) علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، قدم له وخرج أحاديثه أحمد مختار عثمان، بيروت، دار الكتاب العربي، 1982، ص 245.

(47) أبو إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي الشيرازي، المهذب في فقه مذهب الإمام الشافعي، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1959، ص 681.

يختار من بين هذه المجموعة من العقوبات العقوبة الملائمة للجريمة، وله أن يخفف العقوبة أو يشدها، وله أن يوقف التنفيذ، وله أن يعفو عن المَعذر كلياً أو جزئياً⁽⁴⁸⁾.

والتعزير قد يكون تعزيراً على المعاصي أو للمخالفات للحفاظ على المصلحة العامة، وقد أجمعت آراء الفقهاء على أن التعزير لمعصية الله أو لحق آدمي تمس الجماعة وأمنها أو نظامها أي لما يمس حقوق المجتمع والأفراد.

أما العقوبة فهي غير مقدرة بل ترك للقاضي اختيار نوعها من بين عقوبات متعددة وتقدير كمها، وهذه العقوبات كما حددها الفقهاء: عقوبة الوعظ وعقوبة التهديد، عقوبة التوبيخ، عقوبة الصلب، عقوبة القتل، الغرامة والتشهير والنفي⁽⁴⁹⁾.

وتنص القاعدة الشرعية أنه لا جريمة ولا عقوبة في التعزير بغير نص، لذلك جاءت لوائح وقوانين محمد علي بل وأوامره لتحدد نصوصاً للمخالفات الواجب الابتعاد عنها. لتحقيق المصلحة العامة رغم عدم وجود نصوص شرعية تعتبرها مخالفات، وبعدها كان من حق الباشا توقيع العقوبة التي يراها مناسبة للمخالفة⁽⁵⁰⁾. حيث يشترط الفقهاء في التعزير للمصلحة العامة أن ينسب إلى الجاني أحد أمرين، أولاً: أنه ارتكب فعلاً يمس المصلحة العامة أو النظام العام، ثانياً: أنه أصبح في حالة تؤذي المصلحة العامة أو النظام العام.

وقد اعتبر محمد علي الكثير من تصرفات رجال الإدارة فعلاً ضاراً بالنظام العام، كما اعتبر الكثير من تصرفات المواطنين أنفسهم ضرراً بالنظام العام ومصلحة البلاد، فقد أصبح الفلاح مكلفاً بزراعة أرضه وعند عدم زراعتها يصبح ضاراً للنظام العام، وإنتاج

(48) أحمد بن أحمد المختار الجكني الشنقيطي، مواهب الجليل من أدلة خليل، عني بمراجعته عبد الله إبراهيم الأنصاري، قطر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، ج 2، 1983، ص 887.

(49) عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، ج 1، دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت، ص 145.

(50) المرجع نفسه، ص 148.

السلع المخصصة المحتكرة من مصانع الباشا ضررا بالمصلحة العامة؛ لذلك استخدم محمد علي التعزير على نطاق واسع لتوقيع عقوبات متعددة ما بين الجلد والإعدام والسجن والنفي وغيره من العقوبات المشار إليها، وقد صدر هذا التعزير من قبل محمد علي قبل صدور السياسات وبعدها فلهذا فهو حق من حقوقه. وبدراسة مجموعة الوثائق الصادرة عن محمد علي باشا والمتضمنة لأوامره أمكن حصر مجموعة من الأوامر التي بمقتضاها تعزير البعض، وقد كانت العقوبات كما هي مبينة في الجدول التالي الذي يبين نسبة كل عقوبة مقارنة بباقي العقوبات والتي تمكنت الورقة من حصرها من خلال أوامر محمد علي، وهو ما يبين مقدار توقيعه لكل عقوبة مقارنة بإجمالي العقوبات التي وقعها على المعززين.

جدول رقم (1) يبين نسبة كل عقوبة مقارنة بإجمالي العقوبات التي وقعها محمد علي على المعززين في أوامره التي أمكن رصدها

مسلسل	العقوبة	النسبة المئوية مقارنة بإجمالي العقوبات تقريبا لأقرب رقم عشري
1	الضرب	22.2%
2	الحبس	19.4%
3	الإعدام	10.2%
4	الصلب	6.5%
5	الرمي في البحر	2.8%
6	المصادرة	0.9%
7	الغرامة	0.9%
8	النفي	0.9%
9	إنزال رتبة	0.9%
10	الإعدام رميا بالرصاص	0.9%
11	السب	5.6%
12	التهديد	14.8%

المصدر: جدول من تكوين الباحث اعتمادا على: محافظ ملخصات الأوامر الصادرة من محمد علي باشا، دار الوثائق القومية.

من الجدول السابق نجد أن محمد علي باشا قد استخدم حقه في تعزيز مستخدميه ورعاياه بالطريقة التي رآها، فاستخدم الضرب بنسبة 22.2٪ من مجموع العقوبات التي وقعها بنفسه، وهو ما يدل على تفضيله لذلك الأسلوب العقابي، ويرجع ذلك إلى أن السجن سيعيق فردا عن العمل؛ لذلك فهو يفضل عقوبة الجلد بالكرباج أو النبوت على ما عداها من عقوبات، وهي عقوبة يحق له استخدامها وفقا للمفهوم الإسلامي للتعزير، وتليها عقوبة السجن التي جاءت بنسبة 19.4٪ تقريبا من مجموع العقوبات التي وقعها بنفسه، أما الإعدام فقد جاء في المرتبة الثالثة واحتل نسبة 10.2٪ من مجموع العقوبات التي وقعها محمد علي، وهي نسبة مرتفعة أيضا مقارنة بباقي العقوبات فهي العقوبة الثالثة في الترتيب خصوصا أنها توقع لأسباب إدارية، مثل توقيع عقوبة الإعدام على المعلم غالي سنة 1822م لأنه اختلف معه في أسلوب العمل؛ حيث وصف أسلوب المعلم غالي بالخداع، وقد رأى الباشا أنه يستحق الإعدام، حتى إن إعدامه تسبب في حالة من الرعب والهلع بين العاملين في الإدارة، وكان على إبراهيم باشا أن يبذل مجهودا كبيرا لإقناع المعلم طويا بأن يحتل مكانه.

ويرجع ارتفاع نسبة عقوبة الإعدام أيضا إلى استخدامه في القصاص في الوقت نفسه وليس للتعزير وحده، فقد أمر محمد علي بإعدام قواص قتل زميله عام 1827م⁽⁵¹⁾، وهو استخدام لحق ولي الأمر في القصاص، حيث كان محمد علي يراعي قواعد القصاص، فحين جرح مواطن آخر قرر محمد علي سجنه، أما إذا توفي المصاب فيعدم الجاني⁽⁵²⁾.

أما الصلب فقد جاء في المرتبة الرابعة من حيث عقوبات محمد علي باشا، وبنسبة تساوي 6.5٪ من العقوبات التي وقعها الباشا وهي نسبة مرتفعة أيضا، تشير إلى طبيعة الباشا.

أما الرمي في البحر وهو عقوبة من عقوبات الإعدام أيضا فقد جاء في المرتبة الخامسة من عقوبات الباشا، وإذا نظرنا للإعدام والصلب والرمي في البحر معا فسنجد أن

(51) أمر منه إلى حبيب أفندي في 15 ربيع آخر سنة 1242هـ / 15 نوفمبر 1826م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(52) المصدر نفسه.

الإعدام بلغت نسبته إجمالاً 19.5٪ من جملة الأحكام وهي نسبة مرتفعة تلي السجن من حيث نسبة توقيعهما، وربما يرجع ذلك إلى أن كل إعدام كان يوقعه الباشا كانت العقوبات الأقل تصدرها المجالس القضائية المختلفة ويعتمدها الباشا فقط، لذلك ارتفعت نسب الإعدام في أوامر محمد علي.

وتأتي بعد ذلك بنسب متساوية أربع عقوبات هي المصادرة، والنفي، وإنزال رتبة لبعض الضباط، والإعدام رمياً بالرصاص، وكلها تبين شدة الباشا في التعامل مع موظفيه، بالنسبة إلى أي خلل يحدث في البلاد. وقد كان محمد علي يسب بعضاً من موظفيه من آن لآخر وهو ما تضمنته الوثائق، كما دأب على تهديد موظفيه بشكل كبير وصل إلى 14.8٪ من مجموع أحكامه، فكان يصدر تهديداً بعد الحكم بتشديد العقوبة لمن لم يرتدع، كما كان ينذر موظفيه بالتهديد في أوامره.

وستتناول الورقة تفصيلاً أنواع العقوبات التي استخدمها الباشا في أحكامه.

أولاً: الضرب

جاء الضرب بمثابة عقوبة أولى في سلسلة العقوبات التي وقعها محمد علي باشا، فقد مثل 22.2٪ من مجموع العقوبات التي أنزلها بنفسه، وقد جاءت عقوبة الضرب لأسباب عديدة ولمخالفات كثيرة ومتنوعة، وتراوحت ما بين الجلد 40 جلدة كأقل عقوبة وكانت من نصيب نظار الأقسام المتأخرين في تقديم كشوف الباقي من أرباح الحصر والأنوال سنة 1836م⁽⁵³⁾، ويلاحظ أن هذه العقوبة اقترنت بزيادة مقدارها كرباج واحد عن كل كيس متأخر، أي إن الأربعين كرباجاً كانت هي الحد الأدنى للعقوبة، وتزيد مع نسبة المتأخرات.

أما أكبر عدد من الجلدات فقد بلغ 500 كرباج، وقد وقع على عدد من موظفي الباشا، فقد كان جزاء المتكاسل من الشيوخ في أعمال الجسور والمساقى والترع⁽⁵⁴⁾ رغم

(53) أمر من محمد علي باشا إلى مفتش الأقاليم البحرية في 23 شوال سنة 1251هـ / 11 فبراير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(54) أمر من محمد علي باشا إلى ناظر كفر الشيخ في 13 شعبان سنة 1245هـ / 7 فبراير سنة 1830م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

أنهم فئة اجتماعية متميزة في مصر منذ القرن الثامن عشر⁽⁵⁵⁾، كما تم توقيعه على مدير أحد المصانع استخدم أحد الأجانب بمصنعه دون تصريح من مدير الديوان⁽⁵⁶⁾، ورغم عدم جسامته المخالفة التي ارتكبها هذا المدير إلا أنه لقي هذا العقاب العنيف، وهو ما يدل على حرص محمد علي على انتظام العمل في المصانع، وتم توقيعه أيضا على ناظر أحد الأقسام استخدم عاملين هاريين من التجنيد⁽⁵⁷⁾، ويلاحظ من الجرائم الثلاث مدى قسوة محمد علي على كل من المشايخ ونظار الأقسام ومديري المصانع؛ حيث وقع عليهم أقصى عقاب بدني وتمثل في الجلد 500 كرباج، كما تم استخدام العقوبة نفسها لمعاقبة من يذبح الحيوانات في المنازل سنة 1829م، فقد أمر بضرب من يذبح في المنزل 500 جلدة مع إرسال القصاب إلى السجن - الليمان - ودون تحديد لمدة السجن⁽⁵⁸⁾، ويرجع ذلك التشدد إلى أن الذبح في السلخانات يؤدي إلى زيادة إيرادات الدولة لتسديد الرسوم المقررة على الذبح، كما أنه يساعد على تحسين الأحوال الصحية في البلاد.

أما الجلد 200 كرباج فقد كان عقابا أنزله الباشا في مخالقات أخرى، فقد أنزله بمدير مصنع للقلوع سنة 1838م لثبوت اختلاسه 25 جوالاً من القطن، وفي الوقت نفسه أبقى عليه في عمله للاستفادة من خبرته في مجاله، ولكن بعد تهديده بإعدامه لو عاد للاختلاس مرة ثانية⁽⁵⁹⁾، كما أوقع الباشا العقوبة نفسها على فردين من الهاريين من الخدمة في المشاة -

(55) د. عبد الرحيم عبد الرحمن، فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ص 44.

(56) أمر من محمد علي باشا إلى ناظر الفابريقات 12 شوال سنة 1250هـ / 10 فبراير سنة 1835م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(57) أمر من محمد علي باشا إلى مدير الشرقية والدقهلية، 30 رجب سنة 1253هـ / 30 أكتوبر سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(58) أمر من محمد علي باشا إلى حبيب أفندي في 7 شوال سنة 1244هـ / 10 أبريل سنة 1829م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(59) أمر من محمد علي باشا إلى مفش الدواوين والمصالح في 25 ذو القعدة سنة 1235هـ / 20 فبراير سنة 1838م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

البيادة- من أهالي بلبس سنة 1837م⁽⁶⁰⁾، كما أمر محمد علي بتوقيع العقوبة نفسها على أحد مفتشي الجمارك بها سنة 1835م لأنه أخطأ في تحديد أحد أنواع القماش⁽⁶¹⁾، وعلى قواص هرب منه أحد المتهمين⁽⁶²⁾، وعلى أحد المشايخ الذين ثبت وجود أحد الأنفار المتسحين بقريته⁽⁶³⁾، كما تم استخدام العقوبة نفسها كعقاب للتلاميذ لتركهم دراستهم، فعندما هرب 12 تلميذا من كتاب دمياط أمر محمد علي بضرب كل واحد منهم 200 جلدة. أيضا أي إن العقوبة بهدف إصلاح أحوالهم⁽⁶⁴⁾.

أما الضرب 150 كرباجا فقد أنزله محمد علي بقائد أحد السفن النيلية نقل سائحين أجنب على متنها دون استئذان من الترسانة سنة 1837م⁽⁶⁵⁾، أما الجلد مائة كرباج فقد كانت العقوبة الأكثر انتشارا، فقد كانت عقوبة عامة لأي من المشايخ الذين يوجد في قراهم أحد الهاربين⁽⁶⁶⁾، واستخدمت لعقاب بعض الموظفين، فقد أمر بمعاقبة المسئول عن المواشي بأحد الجفالك بالضرب مائة جلدة سنة 1843م لانتشار أحد الحشرات في أجسام الماشية-القراد- في جفلكه⁽⁶⁷⁾، وعلى باش كاتب الغربية حيث كانت دفاتره غير

(60) أمر من محمد علي باشا إلى مدير الشرقية والدقهلية في 30 رجب سنة 1253هـ/ 30 أكتوبر سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(61) أمر من محمد علي باشا إلى برهان بك ناظر الترسانة ورئيس مجلس الإسكندرية في 23 رجب سنة 1251هـ/ 14 نوفمبر سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(62) أمر من محمد علي باشا إلى محرم أغا مدير قنا في 13 صفر سنة 1250هـ/ 21 يونيو سنة 1834م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(63) أمر محمد علي باشا إلى مأمور قسم شباسات في 17 ربيع أول سنة 1245هـ/ 16 سبتمبر سنة 1829م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(64) أمر منه إلى وكيل الجهادية في 7 رجب سنة 1251هـ/ 29 أكتوبر سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(65) أمر من محمد علي باشا إلى حبيب أفندي في 26 ذي الحجة سنة 1252هـ/ 2 أبريل سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(66) أمر محمد علي باشا إلى مأمور قسم شباسات في 17 ربيع أول سنة 1245هـ/ 16 سبتمبر سنة 1829م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(67) أمر من محمد علي باشا إلى مفتش الجرنالجية 21 ذي الحجة 1258هـ/ 10 يناير سنة 1843م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

واضحة سنة 1836م⁽⁶⁸⁾، وعلى ضابط تركي بالعقوبة نفسها سنة 1825م، لتهجمه باللفظ على النظام العسكري الجديد⁽⁶⁹⁾، والتقليل من شأن الجنود من الفلاحين، كما أمر بنفيه من البلاد، وقد أمر الباشا بضرب الضابط المذكور على إتيته أمام آلاي على قارعة الطريق، وأمر الباشا بجلد أي من أبناء البلاد يتهم على النظام العسكري الجديد ب 50 جلدة تأديبا له⁽⁷⁰⁾، وهنا نجد أن الباشا لم يكن يتردد في توقيع أقصى العقاب على من يتجاسر في مهاجمة نظامه الجديد، كما كان الجلد عقوبة لأي خطأ يقع من موظفيه كما أنه وسيلة لحماية النظام الجديد.

كما استخدم محمد علي الضرب بدون تحديد كوسيلة للإصلاح مثل ضرب مشايخ بعض القبائل التي تعاركت معا⁽⁷¹⁾ والتي كانت تقيم بالصعيد مثل قبائل العناني والجهة التي كانت تقيم شرق البحر اليوسفي⁽⁷²⁾، وقد استخدم محمد علي تلك السياسة مع بعض مشايخ القبائل الصغيرة فقط، أما رؤساء القبائل الكبرى فقد استخدم معهم سياسة أخرى، قامت على توطين البدو على حواف الدلتا، ومنحهم مساحات شاسعة من الأرض، وذلك بهدف توطين البدو، وإقامة سياج حاجز من أراضي البدو تصد كل هجوم محتمل لهم على الدلتا⁽⁷³⁾.

ويلاحظ أن محمد علي كان يصدر أوامره بتوقيع تلك العقوبات بعد أن يتم التحقيق

(68) أمر منه لمختار بك في 25 ذو القعدة سنة 1251هـ / 13 مارس سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3 دار الوثائق القومية.

(69) أمر من محمد علي باشا إلى محافظ دمياط في 12 محرم سنة 1245هـ / 14 يوليو سنة 1825م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(70) نفس المصدر.

(71) أمر من محمد علي باشا إلى مدير نصف أول قبلي في 18 رمضان سنة 1252هـ / 27 ديسمبر 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(72) د. صلاح أحمد هريدي، دور الصعيد في مصر العثمانية، 1517-1798، دار المعارف، 1984، ص 172.

(73) لمزيد من التفاصيل حول سياسة توطين البدو انظر: د. إيمان محمد عامر، العريان ودورهم في المجتمع المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

مع هؤلاء المعززين من قبل المجلس الملكي أو الديوان الخديوي ويثبت على المعزر التهمة، وبعد ذلك يصدر الحكم⁽⁷⁴⁾.

ثانياً: السجن

احتل الحكم بالسجن المكانة الثانية في عقوبات محمد علي باشا بنسبة 19.4% من العقوبات، وقد جاءت أحكام الحبس أحياناً محددة المدة وأحياناً أخرى غير محددة المدة، كما كان السجن أحياناً مدى الحياة، ومثال ذلك الحكم بالسجن مدى الحياة على المدنيين بأكثر من مائة كيسة ولا ضامن لهم ولا قدرة لديهم على السداد، وأما المدينون بمبالغ أقل فيسجن كل منهم مدة بنسبة مديونيته⁽⁷⁵⁾، كما استخدمت عقوبة السجن مدى الحياة لاثنتين من مشايخ قبائل العرب الصغيرة بالصعيد وهما شيخ الفوائد وشيخ الحرابي⁽⁷⁶⁾، لعدم طاعتها لتعليمات الباشا⁽⁷⁷⁾، كما استخدم محمد علي عقوبة السجن مدى الحياة لإيقاف تشويه الفلاحين لأجسامهم للهروب من الخدمة العسكرية، وهي جريمة دأب الفلاحون على استخدامها للهروب من الجندية، فقد نبه إلى توقيع عقوبة السجن مدى الحياة على من يتلف عينه، كما منع تداول سم الفئران في محلات العطارة لاستخدام الفلاحين له في إتلاف عيونهم⁽⁷⁸⁾، كما أمر بإرسال أصحاب الأسنان المكسرة أيضاً للسجن دون تحديد المدة⁽⁷⁹⁾.

(74) د. زين العابدين شمس الدين، إدارة الأقاليم في مصر 1805-1882، ط1، 1988م، دار الكتاب الجامعي، ص265.

(75) أمر من محمد علي باشا إلى وكيل المجلس في 15 رمضان سنة 1251هـ/ 4 يناير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة3، دار الوثائق القومية.

(76) الحربي والفوائد قبيلتان موجودتان في مصر الوسطى، انظر: د. صلاح هريدي، المرجع السابق، ص173.

(77) أمر من محمد علي باشا إلى مدير نصف أول وسطى في 25 جمادى الأولى سنة 1252/ 7 سبتمبر 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة4، دار الوثائق القومية.

(78) أمر من محمد علي باشا إلى كتخدا بك بمصر في 17 شعبان سنة 1245هـ/ 11 فبراير سنة 1830م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(79) أمر منه إلى نظيف بك مأمور جمع الأنفار العسكرية في 11 جمادى الأولى سنة 1249هـ/ 25 سبتمبر سنة 1833م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

وقد تراوحت عقوبة السجن ما بين ستة أشهر إلى خمس، وقد كانت أقصى عقوبة بالسجن لمدة خمس سنوات من نصيب المتسحين في ناحية أبو الحاروي بالمنوفية سنة 1836م⁽⁸⁰⁾، حيث كان محمد علي شديد الحرص على القضاء على تلك الظاهرة، وهي ظاهرة ترجع للقرن الثامن عشر كشكل من أشكال المقاومة السلبية للفلاح للأعباء الواقعة عليه⁽⁸¹⁾، وقد أقر محمد علي نفسه بعد ذلك بفترة بقسوة هذه العقوبة⁽⁸²⁾، كما أمر بحبس فلاح قام بتهريب الأرز خارج أشوان الحكومة لمدة ثلاث سنوات عام 1835م⁽⁸³⁾، وهو ما يؤكد حرص الباشا على المحافظة على مستوى الإنتاج، كما أمر بتوقيع عقوبة السجن لمدة ثلاث سنوات على مهربي العملة، وقد وقع عليهم تلك العقوبة مع أنهم أجنب ورفض وساطة قنصل النمسا للإفراج عنهم سنة 1835م⁽⁸⁴⁾. كذلك وقع محمد علي العقوبة نفسها بالسجن لمدة ثلاث سنوات على متسلم القدس لاستيلائه على خيول العربان سنة 1836م⁽⁸⁵⁾، وبذلك يكون استخدم السجن لحماية الأهالي من بطش الموظفين، ولحماية مصالح الحكومة الاقتصادية.

(80) أمر من محمد علي إلي مدير البحيرة في 22 محرم سنة 1252هـ/ 8 مايو سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(81) د. عبد الرحيم عبد الرحمن، الريف المصري في القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1986. ص 2.13

(82) أمر من محمد علي باشا إلى ديوان الشورى في 17 ربيع الأول سنة 1260هـ/ 5 مايو سنة 1844م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(83) أمر من محمد علي باشا إلى محافظ دمياط في 9 ربيع الأول سنة 1251هـ/ 6 يوليو سنة 1835م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(84) أمر من محمد علي باشا إلي بوغوص بك في 26 رمضان سنة 1251هـ/ 15 يناير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(85) أمر من محمد علي إلى حبيب أفندي في 28 صفر سنة 1252هـ/ 13 يونيو سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

أما الحبس لمدة سنة فقد وقع على عدة مخالفات، منها معاقبة النظار الموجود تحت إدارتهم أرض غير مزروعة⁽⁸⁶⁾، واستخدمه كعقوبة لبعض المساحين المرتشين في الجيزة سنة 1833م، ولكن اقترن بالحبس الجلد جلدة واحدة عن كل قرش رشوة تقاضوه⁽⁸⁷⁾، أما السجن لمدة 6 أشهر فكان عقوبة لتصنيع البارود خارج مصانع الحكومة سنة 1836م⁽⁸⁸⁾، كما كان عقوبة للجنود المتسلطين على الأهالي من الفلاحين في العام نفسه، ولكن كانت العقوبة السجن لمدة سنتين لو اقترن التسلط بالسرقعة أو الضرب من الجنود⁽⁸⁹⁾، وفي حالة قتل أحد الأهالي يقتل الجندي، وهكذا كانت العقوبة متزايدة مع اقتران المخالفة بمخالفة أخرى أو جريمة، وكان الجنود في العصر العثماني معتادين على مهاجمة القرى والاستيلاء على ما فيها⁽⁹⁰⁾، ولعل تغليظ العقوبة من قِبَل محمد علي كان لعدم العودة للأساليب التي كانت متبعة في مصر من قِبَل توليه الحكم.

ثالثاً: الإعدام

وقع محمد علي تلك العقوبة لمخالفات عديدة، وأشهر من أعدم لمخالفة في الرأي في العمل الإداري كان إعدام المعلم غالي عام 1822م؛ إذ إن تقرير المعلم غالي بشأن ترتيب فرقة النخيل لم يحظ بإعجاب محمد علي، ولكن استمرار المعلم غالي في العمل بالأسلوب نفسه دفع الباشا لأمر إبراهيم باشا دفتر دار مصر "بفصل عنقه"⁽⁹¹⁾، وبرر محمد علي ذلك

(86) منشور عمومي لكافة مأموري الأقاليم المصرية قبلي وبحري في 9 محرم سنة 1249هـ/ 29 مايو سنة 1833م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(87) أمر من محمد علي باشا إلي مدير الجيزة في 8 صفر سنة 1250هـ/ 26 يونيو سنة 1833م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(88) أمر من محمد علي باشا إلي مدير نصف ثاني وسطى في 12 ربيع آخر سنة 1252هـ/ الموافق 26 يوليو سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(89) أمر نشر عمومي لعموم المديرين في 13 ذو القعدة سنة 1251هـ/ 1 مارس سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(90) محمد بن أبي السرور البكري، الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، تحقيق: عبد الرازق عبد الرازق عيسى، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1997، ص. 113.

(91) أمر من محمد علي باشا إلى إبراهيم باشا في 5 شعبان سنة 1237/ 27 أبريل سنة 1822م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

بأنه من أجل وقاية البلاد من تأخير المصالح، ولعل مثل هذا الأمر هو ما صور محمد علي كرجل دموي؛ حيث إنه كان يكفيه عزله، ولكن محمد علي كان يريد دائما تقديم العبرة للجميع بالقتل أكثر من التخلص من الشخص الذي يعدمه.

وقد دأب محمد علي على إصدار الأوامر بالقتل على سبيل العبرة والإرهاب للآخرين في جبهات القتال؛ حيث أمر محافظ مكة بإعدام من يقع في يديه من الخارجين ليكونوا عبرة للآخرين عام 1828م⁽⁹²⁾، كما أمر بإعدام الأهالي التي تستر على أحد العربان⁽⁹³⁾، وذلك ليتمكن من السيطرة على شبه الجزيرة العربية، كما استخدم أيضا عقوبة الإعدام للسيطرة على دار فور؛ حيث أمر بإنزال عقوبة الإعدام على من يهرب السلاح لدار فور⁽⁹⁴⁾، وذلك لضمان عدم تسرب السلاح للمقاومة المحلية له.

وأحيانا ما كان حكم الإعدام يصدر ويترك للبعض تحديد شخصية المغدور به ليكون عبرة، ومثال ذلك ما حدث سنة 1836م حين أمر مدير الشرقية باختيار شيخ أو اثنين من مشايخ طوخ وإعدامهم، ليكون ذلك ردعا لباقي المشايخ⁽⁹⁵⁾، بل أحيانا ما كان يفوض المفتشين في توقيع عقوبة الإعدام على المشايخ في بعض المناطق البعيدة، ومثال ذلك تفويض مفتش الأقاليم البحرية في إنزال عقوبة الإعدام بمشايخ نواحي كفر نجم وأبو كبير بالشرقية في حالة تأخرهم عن أي عمل، لبعد هذه القرى وصعوبة ملاحظتها⁽⁹⁶⁾.

(92) أمر من محمد علي باشا لمحافظ مكة في 8 رجب سنة 1243هـ / 25 يناير سنة 1828م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(93) أمر من محمد علي باشا لأحد المأمورين 3 شوال سنة 1244هـ / 7 أبريل 1829م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(94) أمر من محمد علي باشا إلى رئيس ديوان خديوي في 15 ذو القعدة 1245هـ / 8 مايو 1831م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(95) أمر من محمد علي باشا إلى مدير الشرقية عبد الرحمن بك في 11 شعبان سنة 1252هـ / 20 نوفمبر سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(96) أمر من محمد علي باشا لمفتش الأقاليم البحرية في 19 جمادى الأولى سنة 1251هـ / 13 سبتمبر سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

أمر منه إلى مدير البحيرة في 29 جمادى الثانية سنة 1258هـ / 17 أغسطس سنة 1842م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

وقد استخدم محمد علي عقوبة الإعدام لردع المشايخ عن بعض التجاوزات في الأزمات، ومثال ذلك ما حدث حين ظهر الوباء في دمنهور عام 1842م وأراد الباشا القضاء على بعض العادات السيئة مثل دفن الموتى داخل المنازل، ونظرا لتستر المشايخ على أهلهم، وخطورة ذلك على البلاد، أمر محمد علي مدير البحيرة بإعدام من يخفي الوفيات من المشايخ أو من يتستر على دفن الموتى بالمنازل⁽⁹⁷⁾، وكان الحسم مهما في تلك الظروف الصعبة، كما استخدم الإعدام كقصاص من القتل⁽⁹⁸⁾، وحتى لو أعلن القاتل توبته لا تأخذه به شفقة⁽⁹⁹⁾.

ويلاحظ أن محمد علي لم يقر أيًا من موظفيه على لجوئه للقسوة دون موافقة الباشا نفسه، فاستنكر ما قام به أحد أقاربه وكان يشغل وظيفة مأمور مركز ميت غمر بجلد فلاح 1800 جلدة حتى وفاته لرفضه إعطائه فرسا طلبها، ووصف هذا الإعدام بأنه من أكبر المظالم، ونفى رضاه عن مثله، ونبه عليه بعدم جواز قيامه بذلك مرة أخرى، أو حدوث ما يماثله⁽¹⁰⁰⁾، ولكنه لم يعاقب القاتل بأي شكل من أشكال العقاب رغم قتله المشايخ عبرة للآخرين، ربما يرجع ذلك إلى قرابة صالح أفندي القولة لي منه.

ولم يستخدم محمد علي في أحكامه تلك الإعدام رميا بالرصاص سوى مرة واحدة⁽¹⁰¹⁾، ولم يستخدمها مع الجنود ولكن استخدمها مع قاتل يدعي الجنون ليكون عبرة لمن يحاول التنصل من جريمته بهذا الأسلوب.

(97) أمر منه إلى مدير البحيرة في 29 جمادى الثانية سنة 1258هـ / 17 أغسطس سنة 1842م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(98) أمر من محمد علي باشا إلى محمد بك السردار بدمنهور في 13 ربيع الأول سنة 1252هـ / 28 يوليو سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(99) أمر من محمد علي باشا إلى مدير المنوفية في 15 رجب سنة 1252هـ / 26 أكتوبر سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(100) أمر من محمد علي باشا إلى صالح أفندي القولة لي في 12 صفر سنة 1245هـ / 13 أغسطس سنة 1829م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(101) أمر من محمد علي باشا إلى مدير المنوفية في 24 جمادى الأولى سنة 1252هـ / 6 سبتمبر 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

رابعاً: الصلب

جاء الصلب كواحد من العقوبات التي استخدمها محمد علي عقاباً لبعض المخالفات، واحتل المكانة الرابعة في سلم عقوبات الباشا بنسبة 6.5% من العقوبات التي أمر بها، وتعددت الأسباب التي لجأ فيها للصلب، وكان التهرب من الجندية بتشويه الأجسام واحداً من المخالفات التي لجأ محمد علي للصلب لتخويف الناس منها، فقد أمر بصلب ثلاثة أفراد لتكسيهم أسنانهم سنة 1834 وذلك للهروب من الجهادية⁽¹⁰²⁾، كما أمر بصلب زوجة حلاق شوهدت الشباب للفرار من الجندية، وأمر ببقاء جثتها معلقة ثلاثة أيام⁽¹⁰³⁾ لتكون عبرة لمن يفعل ذلك.

أما المشايخ فكان نصيبهم من الصلب وافراً كما كان نصيبهم من باقي العقوبات، فقد أمر محمد علي بصلب شيخ خط بلقاس عام 1831م لعدم طاعته للأوامر⁽¹⁰⁴⁾، وشيخ قرية سرسنا لعجزه عن تحصيل المتأخرات عام 1836م⁽¹⁰⁵⁾، كما أمر بصلب مشايخ النواحي التي يوجد بها أحد المتسحبين أو الفارين من التجنيد سنة 1837م⁽¹⁰⁶⁾، كما أمر بصلب المتسحبين أو سجنهم سجنًا مؤبداً سنة 1844م⁽¹⁰⁷⁾، كذلك أمر محمد علي بصلب

(102) أمر من محمد علي باشا إلى محرم أغا مدير قنا في 13 صفر سنة 1250هـ / 21 يونيو سنة 1834م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(103) أمر من محمد علي إلى مأمور الفيوم في غرة رمضان سنة 1245هـ / 24 فبراير سنة 1830م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(104) أمر من محمد علي باشا إلى مأمور نبروه في 3 شعبان سنة 1246هـ / 17 يناير 1836م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق..

(105) أمر من محمد علي باشا إلى مدير نصف أول وسطى في 25 جمادى الأولى سنة 1252 / 7 سبتمبر 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(106) أمر من محمد علي إلى باقي بك في 8 محرم سنة 1253هـ / 14 أبريل سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(107) أمر من محمد علي إلى مجلس الحفانية في 23 محرم سنة 1265هـ / 12 فبراير سنة 1844م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

مدير أحد المصانع نظرا لإنتاجه أقمشة رديئة سنة 1837م⁽¹⁰⁸⁾، وهي عقوبة قاسية مقارنة بالمخالفة التي ارتكبها.

خامسا: الرمي في البحر

أوقع محمد علي هذه العقوبة كنوع من الإعدام في بعض الحالات ومن الغريب أنه استخدمه مع النساء أكثر من الرجال، فقد أمر محمد علي بإلقاء امرأة في البحر لأنها أتلفت عين ابنها سنة 1831م⁽¹⁰⁹⁾، ويرجع هذا الحكم إلى رغبة محمد علي في القضاء على التهرب من الجندية وتشويه الأجسام، ولكنه استخدم العقوبة نفسها مرة أخرى مع سيدة ثانية لتكرارها السرقة سنة 1836م⁽¹¹⁰⁾، وهنا نجد أن محمد علي يخالف القواعد الشرعية المتعلقة بحد السارق، ولكنه دليل على طبيعة محمد علي الراغب في قمع أي خلل في المجتمع.

وقد طبق محمد علي العقوبة نفسها على فلاح قام بتقليع أشجار القطن سنة 1835م⁽¹¹¹⁾، ولا نجد تبريرا لهذه العقوبة إلا إذا كانت بقصد أن يكون عبرة للغير حتى لا يجرؤ أحد على إتلاف القطن الذي أصبح المحصول النقدي الأول في البلاد.

العقوبات الأقل

أوقع محمد علي بعض العقوبات الأقل مثل النفي؛ حيث أمر بنفي ضابط تركي تهجم على العساكر المصرية من أبناء الفلاحين، وقال: "متى أصبح الفلاحون العمي جنودا"⁽¹¹²⁾، وقد جاء النفي للدفاع عن جنوده ونظامه الجديد، كما أمر بإنزال ضابط آخر

(108) أمر من محمد علي إلى ناظر الفاوريات في 27 صفر سنة 1253هـ/ 1 يونيو سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(109) أمر من محمد علي باشا إلى مأمور طنطا في 13 ذو القعدة 1245هـ/ 6 مايو سنة 1831م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(110) أمر من محمد علي باشا إلى حبيب أفندي في 25 شعبان سنة 1252هـ/ 5 ديسمبر سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(111) أمر من محمد علي باشا إلى مدير البحيرة في غرة رمضان سنة 1251هـ/ 21 ديسمبر سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(112) أمر من محمد علي إلى محافظ دمياط تاريخه 12 محرم سنة 1245هـ/ 14 يوليو سنة 1825م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

رتبة لارتكابه بعض المخالفات⁽¹¹³⁾، وقد جاء ذلك للحفاظ على النظام العسكري، وهنا نجد عقوباته أقل مقارنة بالأحكام الصادرة ضد المشايخ.

السب

دأب محمد علي باشا في أوامره للعديد من مرؤوسيه على سبهم من آن لآخر وكان كثيرا ما يستخدم وصفهم بالحمير، كما وصف المأمورين والموظفين في رسالة له إلى حبيب أفندي عام 1829م؛ حيث كان يحثه على "البعد عن سجايه من الرأفة والرحمة"، ويحثه على استخدام النبائيت مع المشايخ لأن ذلك ما ينفع مع "أولئك الحمير"⁽¹¹⁴⁾.

كذلك وجه السباب نفسه لناظر كفر الشيخ سنة 1830م حين كان يأمره بضرب المشايخ أيضا إذا ما تكاسلوا وختم أمره قائلا: "يا حمار يلزم أن تعرف قدر الحاكمية"⁽¹¹⁵⁾، كذلك خاطب المأمورين بعبارة "أيها الحمير الوحشية" في سنة 1833م⁽¹¹⁶⁾، حين كان يحثهم على إرسال كشوف الأقطان الموجودة بالمأموريات في المواعيد المحددة؛ حيث طالبهم بالاعتاظ بمن صار عزله ونفيه، ومن صار تنقيص راتبه، ومن صار إعدامه من المشايخ.

كذلك نادى محمد علي المعلم طوبيا مدير الأمور المالية والحسابات بالسب "يا خنزير"⁽¹¹⁷⁾، وجاء هذا السب في تعنيفه للمعلم طوبيا لتأخره عن الحضور للديوان مبكرا؛ حيث علم الباشا أنه لا يتوجه إلى المجلس في أغلب الأوقات، وإن حضر لا يحضر إلا قبيل العصر، ونبه عليه بالحضور قبل أي إنسان وترك التلاعب وإن لم يستقم

(113) أمر من محمد علي باشا إلي هدايت قابودان في 24 رمضان سنة 1252هـ / 2 يناير سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(114) أمر من محمد علي باشا إلى حبيب أفندي في غرة صفر سنة 1245هـ / 1 أغسطس سنة 1829م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(115) أمر من محمد علي باشا إلى ناظر كفر الشيخ في 13 شعبان سنة 1245هـ / 7 فبراير سنة 1830م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(116) أمر من محمد علي باشا إلى المأمورين في 29 شعبان سنة 1248هـ / 20 يناير سنة 1833م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(117) أمر منه إلى المعلم طوبيا في 14 ربيع الآخر سنة 1253هـ / 17 يوليو سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

فسيحضره ويفتت عظامه من الضرب، ويبدو أن حظ المعلم طوبيا كان أوفر من عمه المعلم غالي الذي فقد عنقه في موقف مشابه، ولكن يبدو أن محمد علي كان في حاجة لخدماته، كذلك استخدم محمد علي لفظ خنزير في وصفه لمدير الشرقية والدقهلية الذي عزله بسبب عدم قدرته على الوفاء بالمبالغ المطلوبة منه حيث وصفه بأنه لم ير "مثل هذا الخنزير"⁽¹¹⁸⁾. كذلك نادى بعضا من موظفيه باللفظ نفسه مثل مدير أحد الجفالك المتأخر عن إعداد الأرض للزراعة عام 1841م⁽¹¹⁹⁾.

كذلك وصف تصرفات بعض موظفيه بالغباوة، ومثال ذلك في مخاطبته لناظر جفلك الغربية سنة 1838م، فخاطبه قائلا: "إن الغباوة لا تكون في كل وقت"⁽¹²⁰⁾، وجاء ذلك عتابا له على ضرب مهندس الري المستول عن سد رياح ناحية بهوت.

التهديد:

دأب محمد علي على تهديد مرؤوسيه من وقت لآخر بمختلف أنواع التهديدات، وحظي مشايخ القرى بنصيب وافر ودائم من هذه التهديدات، ومثال ذلك إنذاره للمشايخ بضرورة إيقاف إتلاف العيون والأسنان للتهرب من الجندية، وإن لم يتمكنوا من هذا الإيقاف فإنه سيفعل بهم مثل هذه التشوهات حتى يقال إن محمد علي قد أخرج أعين مستخدميه⁽¹²¹⁾، كذلك صرح للمديرين بضرب المشايخ الذين يتكاسلون في تحصيل الأموال من خمسين إلى ستين كرابجا⁽¹²²⁾، كما أمر مفتش الأقاليم القبيلة بتأديب المشايخ

(118) أمر من محمد علي باشا إلى كتخدا باشا في 12 محرم سنة 1256هـ / 17 مارس سنة 1840م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(119) أمر من محمد علي باشا إلى عموم مديري الجفالك الميرية في 22 ذي الحجة عام 1256هـ / 14 فبراير سنة 1841م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(120) أمر من محمد علي إلى ناظر جفلك الغربية 7 ربيع أول سنة 1252هـ / 31 مايو سنة 1838م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(121) أمر من محمد علي إلى مأموري الأقاليم القبيلة في 14 ذي الحجة 1248هـ / 4 مايو سنة 1833م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(122) أمر من محمد علي باشا إلى عموم المديرين في 26 شوال سنة 1251هـ / 11 فبراير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

بالضرب وقتل واحد أو اثنين عبرة⁽¹²³⁾، وقد تعجب محمد علي من عدم اتعاظ المشايخ من كثرة ما بلغهم من عقوبات أنزلت بزملائهم⁽¹²⁴⁾؛ حيث كان يتوقع أن يستمر العمل وفقاً لتعليماته بشكل مباشر.

كما هدد محمد علي المأمورين المتأخرين في تحصيل المتأخرات بالضرب بالنبوت⁽¹²⁵⁾، كما هدد ناظر أحد المصانع بالقتل لو عاد للاختلاس⁽¹²⁶⁾، كما هدد مأمور سجن بسجنه بدلاً من المساجين الفارين من سجنه لو حدث للمساجين مرة أخرى⁽¹²⁷⁾، وقد استخدم محمد علي التهديد لتوجيه موظفيه وضمان استمرار الإدارة، فقد رفض طلباً لتفسيط المتأخرات على الفلاحين وهدد مدير المنوفية بـ "سؤال خاطره بمائة نبوت"⁽¹²⁸⁾، لأنه اعتبر أن مطالبته بتفسيط المبالغ المتأخرة بمثابة خطة غير مستقيمة.

التصديق على أحكام المجالس:

كان محمد علي يراجع العقوبات الصادرة عن المجالس المختلفة ومراجعة العقوبات الصادرة عن موظفيه بنفسه، وقد رفض محمد علي العديد من قرارات وعقوبات موظفيه، فمثلاً رفض التصديق على معاقبة الفارين من الخدمة العسكرية والمتسحبين من الأرض

(123) أمر من محمد علي باشا إلى مفتش الأقاليم القبلية في 10 صفر سنة 1254هـ / 5 مايو سنة 1838م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(124) أمر من محمد علي باشا إلى المأمورين في 29 شعبان سنة 1248هـ / 20 يناير سنة 1833م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(125) أمر من محمد علي باشا إلى مدير البحيرة والشرقية ونصف أول وسطى في 8 ذي الحجة سنة 1250هـ / 17 أبريل سنة 1835م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(126) أمر من محمد علي باشا إلى مفتش الدواوين والمصالح في 25 ذو القعدة سنة 1253هـ / 20 فبراير سنة 1838م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(127) أمر من محمد علي إلى ديوان البحيرة في 15 محرم سنة 1254هـ / 10 أبريل سنة 1838م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(128) أمر من محمد علي باشا إلى مدير قسم ثاني وسطى في 4 شوال سنة 1251هـ / 23 يناير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

بهدم منازلهم سنة 1829م⁽¹²⁹⁾، ويرجع ذلك إلى رغبته في تعمير البلاد وليس هدم المنازل خصوصاً مع زيادة أعداد الهاريين والمتسحين حتى لا يفاجأ بخراب الريف المصري.

كذلك رفض محمد علي توقيع عقوبات بتشويه أعضاء الجسد، فقد رفض قطع أذن فلاح قام بتقليع القطن، وأمر بدلاً من ذلك بإلقائه في البحر⁽¹³⁰⁾، أي إنه غلظ العقوبة بدلاً من تشويبه، وقد أصدر عدة تعليمات مشابهة بتغليظ العقوبة من تشويه إلى إعدام لمن يرتكب المخالفة نفسها⁽¹³¹⁾، ومن العقوبات التي رفضها محمد علي بعض العقوبات بالضرب، فقد رفض ضرب سبعة أنفار من العاملين في مصانع بولاق 250 كرابجا لقلّة أديهم، ولكنه طلب بدلاً من ذلك اختيار من بدأ بتلك التصرفات وتقييده بالحديد لمدة ثلاث سنوات على أن يستمر في العمل مقيداً بالحديد طوال تلك الفترة⁽¹³²⁾، ويبدو من طبيعة العقوبة حرص الباشا على استمرار العمل بالمصانع، كما رفض ضرب رؤساء الخبازين لعدم انتظام الخبز المورد للورش والمستشفيات باعتبار أن ذلك لا يحل المشكلة⁽¹³³⁾، كما رفض قيام ناظر جفالك الغربية بضرب مهندس ري نبروه⁽¹³⁴⁾، وعنفه بشدة لهذا التصرف.

(129) أمر من محمد علي باشا إلى زكي أفندي في 14 شوال سنة 1244هـ / 14 أبريل سنة 1829م، مجموعة الأوامر والمكاتبات، مصدر سابق.

(130) أمر من محمد علي لمدير البحيرة في غرة رمضان سنة 1251هـ / 21 ديسمبر سنة 1835م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(131) أمر من محمد علي باشا إلى حسن أفندي مدير البحيرة في 8 شوال سنة 1251هـ / 27 يناير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(132) أمر منه إلى مختار بك في 18 ربيع آخر سنة 1252هـ / 6 أغسطس سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(133) أمر من محمد علي باشا إلى باقي بك في 3 ذو الحجة سنة 1252هـ / 10 مارس سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(134) أمر من محمد علي باشا إلى ناظر جفالك الغربية في 7 ربيع الأول سنة 1254هـ / 31 مايو سنة 1838م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

وإذا كان محمد علي قد رفض كل تلك التصرفات فإنه قد قام بتغليظ العديد من العقوبات، فقد رفض العفو عن بعض المشايخ، بل اعتبر أن ذلك منافيا لأصول الحكومة، وطلب ضرب كل من المعفى عنهم 200 كرباج عبرة لغيرهم⁽¹³⁵⁾.

وقد كان محمد علي يتابع تنفيذ العقوبات بنفسه، وقد نبه على مدير البحيرة بضرورة عرض العقوبات عليه لأن بعض العقوبات نفذت دون تصديقه عليها سنة 1836م⁽¹³⁶⁾، كما رفض محمد علي قيام أحد المشايخ بتسمير آذان بعض الفلاحين ممن رفضوا الخروج لأشغال الترع⁽¹³⁷⁾، وطلب من المدير الالتزام بتطبيق القانون.

الاتهامات الغربية

أسرف بعض الكتاب الغربيين في وصف البلاد بأنها بلا قانون تحت حكم محمد علي⁽¹³⁸⁾، وأن سلطة الإعدام مهياة لأصغر موظف من موظفي محمد علي باشا⁽¹³⁹⁾، وأن الإعدام بالخازوق كان مطبقا في مصر سنة 1837م⁽¹⁴⁰⁾، أو وضع المتهمين على فوهة المدافع وإطلاقها، والتعليق من الأنف، أو ربط أحد المشايخ من أحد أعضائه الحساسة وزفه في القرية، إلى جوار استخدام المسامير المحماة التي أشارت الوثائق لوقوعها مرة واحدة استنكرها الباشا وأمر بعدم تكرارها، ولكن بمراجعة وثائق عصر محمد علي لم نجد دليلا على وقوع باقي العقوبات بهذا الشكل، كما لم نجد دليلا على وقوع هذه الأعمال من وراء الباشا؛ حيث كانت كل صغيرة وكبيرة يلزم بها محمد علي، ولا يجرؤ أحد على مخالفة تعليماته؛ حيث حصل وحده على حق التعزير، ولم يترك لأي من موظفيه الحق في تعذيب الأهالي.

(135) أمر من محمد علي باشا إلى مدير نصف أول وسطى في 13 ربيع أول سنة 1253هـ/ 17 يوليو سنة 1837م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(136) أمر منه لمدير البحيرة في 8 شوال سنة 1251هـ/ 27 يناير سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 3، دار الوثائق القومية.

(137) أمر من محمد علي باشا إلى عموم المديرين في غرة محرم سنة 1252هـ/ 12 مايو سنة 1836م، محافظ ملخصات الأوامر، محفظة 4، دار الوثائق القومية.

(138) Mme Olympe Audouard, op.cit, p 213

(139) Hamont, op.cit, p44

(140) Ibid, p469

ولكن يمكن تبرير هذه الاتهامات التي جاءت من معاصرين لمحمد علي أنها جاءت من موظفين طردوا من العمل مع محمد علي، فقد كان هامون Hamont مديراً للإدارة البيطرية في عهد محمد علي، فأشرف على حيوانات الباشا، كما تنقل في الريف المصري للإشراف على بيطرة مواشي الفلاحين، وطبيعي كان تنقله حين تكون هناك أمراض تمس الحيوان؛ حيث يتشدد المشايخ ورجال الإدارة مع الأهالي للقضاء على الأزيمة، وبهذا لا يرى سوى أوقات الشدة، وقد استغنى محمد علي عن خدمات هامون بعد أن قام بتدريب أطباء مصريين للعمل في الريف المصري وحظائر الباشا فبهذا كان تحامله عليه أمراً طبيعياً ومنطقياً، بالإضافة إلى كتابته للغرب الفرنسي عن مجتمع شرقي عاش فيه لسنوات، فجاءت كتابته لتكون مليئة بالإثارة والمبالغات وبهذا احتوت على هذه المبالغات، ولكن تتفق الدراسة مع هامون في تفضيل محمد علي للضرب كعقوبة عن باقي العقوبات.

الخاتمة

لم يكن محمد علي ليستطع القيام بمشروعه النهضوي دون تشريعات جديدة تقنن الأوضاع الجديدة، وتمكنه من تغيير الهيكل الاقتصادي للبلاد بما يمكنه من تحقيق مشروعه السياسي، وهكذا يعد أول حاكم مسلم في الشرق الإسلامي يلجأ للتشريع في القرن التاسع عشر لحل الإشكاليات التي واجهته معتمداً على التعدد المذهبي للمذاهب الأربعة المشهورة، بعد أن كان دور الحاكم يقتصر على الأخذ بمذهب معين، واستخدم محمد علي مجالسه التنفيذية كمجالس تشريعية في الوقت نفسه؛ حيث لعب كل من الديوان العالي والمجلس العالي الملكي دور المجالس التشريعية إلى جوار دورها التنفيذي والقضائي، فأعدت اللوائح والقوانين ورفعتها إلى محمد علي باشا، وكان محمد علي يدخل عليها ما يراه من التعديلات، أو يعيدها للمجالس لتعديلها أو يرفضها.

كان محمد علي الحاكم الأعلى والمشرع الأعلى إلى جوار كونه القاضي الأعلى للبلاد، وإلى جوار تلك المجالس فتح الباب لموظفيه للاجتهد ووضع اللوائح والقوانين، فقد سمح لهم بوضع اللوائح ورفعها إليه إلى جوار إبداء رأيهم في القوانين التي تخص كلاً منهم في مجال تخصصه، سواء كان ذلك تطوعاً منهم لعلاج بعض الخلل الإداري الذي

يرونه، أم بتشجيع منه على إبداء آرائهم في بعض المشكلات، فما أن يلمس رجاحة رؤاهم حتى يسارع بتعميم تنظيماتهم في شكل قوانين تطبق في جميع البلاد.

استندت مشروعات محمد علي القانونية إلى الشريعة الإسلامية كأساس أول لتشريعاته، فضم الديوان الخديوي أو ديوان الشورى أعضاء من كل مذهب فقهي من المذاهب الأربعة المشهورة، وليس من مذهب واحد، فصبغوا مشروعاته بصبغة إسلامية، ثم لجأ محمد علي لترجمة القوانين الأوروبية وصبغها بصبغة إسلامية، وذلك لحل بعض الإشكالات المستحدثة، ولم تكن الترجمة حرفية ولكنها كانت ترجمة من طراز خاص، تستبعد ما لا يناسب المجتمع، وتكسوا ما تختاره بأسلوب الباشا ورؤيته، كما لجأ إلى تقنين العرف خصوصاً العرف التجاري المتبع بين التجار، والقواعد المعمول بها في بعض المصالح مثل المواني، وذلك من خلال سن القوانين باستخدام لجان من الخبراء العاملين في مجالات مختلفة.

وقد جاءت السياساتمة كمثال لتشريعات محمد علي باشا بعد 32 عاماً من الحكم، وبعد أن دخل في صراع رسمي مع الدولة العثمانية، وذلك لتوهد البلاد لمرحلة جديدة يكون لها فيه شخصيتها المميزة قانونياً، ولتعد البلاد لمرحلة ما بعد المواجهة مع السلطان، ولتتكمّل أركان النظام القانوني المصري، فشكّلت ما يشبه الدستور المصغر، فقد جمعت ما بين القانون الإداري الذي ينظم الدواوين، ويرتب تنظيماتها، وبين قانون للعقوبات يحدد أشكالاً جديدة لبعض المخالفات المستحدثة، كما تحدّد فلسفة الإدارة وقواعد العمل في مؤسسات الدولة.

لم يخول محمد علي لأحد من موظفيه حق التعزير فلم يعد أي من الموظفين يمكنه تعزير أحد من الرعايا دون اعتماد ذلك منه، وأصبح التعزير حقاً له وحده بعد أن كان حقاً لأي من موظفي الدولة، وقد استخدم محمد علي التعزير وفقاً لأسلوبه الخاص، فقد كان يفضل اللجوء إلى الضرب أكثر من باقي العقوبات؛ لأن السجن كان حجباً لقوة العمل ووسيلة لتضييع الوقت، ولكن الضرب وسيلة للردع كما أنه لا يجلب قوة العمل، واستخدم الإعدام كعقوبة رادعة للحفاظ على هيبة الدولة وفرض تنظيمات على المجتمع لم يألفها من قبل.

ومن الجدير بالذكر أن بعضاً من موظفي محمد علي وجه إليه انتقادات تدور حول دمويته في تصرفاته المطبقة، ومن أشهر هؤلاء هامون الذي انتقد محمد علي لكونه يستخدم أشكالاَ منافية للرحمة الالدية في التعذيب كالخازوق والمسامير الملمية وغير ذلك مما أشير إليه قبلاً في البحث، غير أنه من وجهة نظري يمكن فهم ذلك في ضوء أن التعزيز حق للحاكم؛ حيث كانت كل الأحكام تصدر عن محمد علي، وبهذا استخدمت أحكامه كقراض لمهاجمته، ومحاولة النيل منه من خصومه، ولكن لو كانت هناك محاكم جنائية تصدر أحكام الإعدام وتقوم بالقصاص، لما ظهرت كل تلك الأحكام القاسية على محمد علي باشا، وقد جاءت الوثائق لتثبت أن ما نسب إليه من أدوات تعذيب غير حقيقية، حقيقة أنه كان قاسياً في أحكامه، ولكن ذلك يتفق مع طبيعة العصر، وطبيعة الشرق في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، كما يتناسب في وجهة نظره لتحويل مجتمع من نمط إنتاج عاش عليه قروناً طويلة، لنمط جديد من الإنتاج، ولتحويل الدولة من حكومة لا علاقة لها بالمجتمع، إلى حكومة تتدخل في أدق تفاصيل الإنتاج، وهو ما يؤهله لبناء مشروعه النهضوي.

oboiikan.com

القاضي الشرعي في المحكمة الشرعية بالقدس

مهامه وصلاحياته

1267 - 1318 هـ / 1850 - 1900 م

دراسة من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية

د . محمد ماجد صلاح الدين الخضاوي

كلية الآداب - جامعة القدس

فلسطين

oboi.kan.com

القاضي الشرعي في المحكمة الشرعية بالقدس

مهامه وصلاحياته

1267 - 1318 هـ / 1850 - 1900 م

دراسة من خلال سجلات محكمة القدس الشرعية

Abstract

This study aims at investigating the duties and authorities that were assigned to Islamic religious judge at the Islamic religious court in Jerusalem during the second half of the nineteenth century .

The judge undertook several duties especially in cases of civilian affairs such as marriage, divorce, repudiation, dowry, orphan expenses and the distribution of legacy . In addition, the judge was responsible for tackling issues of the registration of land and real estate .

The study also revealed the important position of Islamic religious judge in the community, as well as the comprehensiveness of his authorities .

الـلـخـص

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في مهام قاضي محكمة القدس الشرعية وصلاحياته خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . حيث قام بمهام عدة خاصة في قضايا الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمخالعة والإرث والتركات والوصاية والنفقات، وقام أيضًا بالبت في قضايا تسجيل الأراضي والخلافات المتعلقة بذلك ، كما بت القاضي الشرعي في بعض القضايا الجنائية كالقتل والسرقا والمشا جرات بالرغم من أنها كانت من صلاحيات محكمة الجزاء.

وبينت الدراسة مدى أهمية القاضي الشرعي والثقة التي يتمتع بها القضاء الشرعي ، فقد كانت صلاحياته شاملة لكافة أنواع القضايا في مختلف الجوانب الإدارية والاجتماعية والاقتصادية .

المقدمة :

أشرف شيخ الإسلام على النظام القضائي في الدولة العثمانية ، ويليهِ في الرتبة كل من قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول وهم بدورهم يختارون قضاة الولايات⁽¹⁾ . وارتبطت بلاد الشام من الناحية القضائية بقاضي عسكر الأناضول ، غير أن شيخ الإسلام في الأستانة كان يعين القضاة الكبار من درجة منلا (قاضي كبير) وعددهم سبعة وعشرون قاضيًا برتب متسلسلة كان منهم ستة في الولايات العربية في مدن مكة والمدينة ودمشق والقاهرة وحلب والقدس ، وكانت رتبة قاضي القدس الرابعة عشرة في سلم الرتب العثماني⁽²⁾ .

وقد أولت الدولة العثمانية القضاء الشرعي اهتمامًا كبيرًا ، ويظهر ذلك من خلال إصدار الأنظمة والقوانين التي تنظم عمل القضاء الشرعي ، فصدر في 17 رجب 1270 هـ / 5 نيسان 1855 م نظامان سلطانيان عُرف الأول باسم "نظام توجيهات مناصب القضاء" وتضمن تنظيم مواعيد انعقاد مجلس امتحان وتعيين القضاة بإشراف مقام المشيخة الإسلامية ، وقواعد اختيار القضاة ومدة تعيينهم في مناصبهم ، وتصنيفهم إلى أصناف ودرجات عدة ، وذلك حسب أهمية الوحدة الإدارية التي يتولون القضاء فيها⁽³⁾ . أما النظام الثاني فقد عُرف باسم "نظام بحق النواب" وتناول المسائل نفسها التي تناولها النظام الأول ولكن فيما يتعلق بنواب الشرع⁽⁴⁾ .

(1) الدستور ، جزآن ، ترجمة نوفل نعمة الله نوفل ، بيروت ، المطبعة الأدبية ، 1883 ، م 1 ، ص 142 .

(2) عبد الكريم غرابية ، سورية في القرن التاسع عشر 1845-1876 ، مصر ، دار الجليل ، 1962 ، ص 52 .

(3) الدستور ، م 1 ، ص 142-149 .

(4) المصدر نفسه ، م 1 ، الصفحة نفسها .

وأصدرت الدولة نظامًا في عام 1275هـ/ 1859م حددت بموجبه طريقة استيفاء رسوم المحاكم الشرعية عن المعاملات والدعاوى والحجج التي تجرى فيها⁽⁵⁾. واستمرت الدولة في إصدار الأنظمة التي من شأنها العمل على تنظيم القضاء الشرعي وتحسينه، فقد تقرر بموجب نظام الولايات الصادر عام 1281هـ/ 1864م تعيين موظف في مركز كل ولاية من ولايات الدولة يعرف باسم "مفتش الحكام الشرعيين"، ويجري تعيينه بموجب فرمان سلطاني بعد ترشيح المشيخة الإسلامية له ليكون: "مفتشًا لجميع المحاكم الشرعية ومميزًا للإعلانات وسائر الوثائق الشرعية التي يلزم تقديمها لمركز الحكومة السنية"⁽⁶⁾.

وأصدرت الدولة في 13 محرم 1290هـ/ 13 آذار 1873م نظامًا أطلق عليه "نظام الحكام الشرعيين" وتم بموجبه تحديد درجات القضاة وفئاتهم، وفصل طريقة الامتحانات التي تجرى لتحديد مستوياتهم ورواتبهم ومدة بقائهم في مناصبهم، والعقوبات التي تقع على المخالفين والمرشحين منهم. وبموجبه أصبح بإمكان القضاة ونواب الشرع البقاء في وظيفتهم ما لم يطلبوا الاستعفاء عنها بمحض إرادتهم أو ترد ضدهم شكوى، وأصبح بإمكان النواب الاستمرار في العمل حتى يحصلوا على رتبة الحرمين⁽⁷⁾، ووفقًا لهذا النظام صُنفت رواتب القضاة إلى خمسة أصناف، فقد بلغ راتب الصنف الأول (5000) قرش فيما فوق شهريًا، ويتراوح الثاني بين (4000-5000) قرش شهريًا، أما الثالث فيتراوح بين (3000-4000) قرش شهريًا، والصنف الرابع يتراوح بين (2000-3000) قرش، أما الخامس فكان أقل من (2000) قرش⁽⁸⁾.

وبالرغم من وجود قضاة معترف بهم لمختلف المذاهب الإسلامية السنية إلا أن القاضي الرسمي في الدولة هو القاضي الحنفي، وذلك لأن المذهب الحنفي كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية، وكان القاضي الحنفي يعين في مراكز الولايات الهامة والكبيرة

(5) المصدر نفسه، م 1، ص 130-141، ص 183-188.

(6) المصدر نفسه، م 1، ص 384.

(7) المصدر نفسه، م 2، ص 646.

(8) المصدر نفسه، م 1، ص 643؛ م 2، ص 642-644.

من قبل شيخ الإسلام في استانبول ، بينما يعين غير هؤلاء القضاة في الولايات من قبل قاضي العسكر المسؤول ، وكان قاضي عسكر الأناضول هو المسؤول عن الولايات الآسيوية ، وكانت الغالبية العظمى من القضاة الحنفيين في الولايات من أصل تركي ، بينما كان قضاة المذاهب الأخرى من أصل محلي⁽⁹⁾ .

وتتمتع القاضي بمكانة هامة في المجتمع وبقدر كبير من الاحترام ، ويظهر ذلك من خلال الألقاب التي أُطلقت عليه وصيغ المخاطبة التي كان يخاطب بها ، كما يظهر من خلال افتتاحيات السجلات ، منها "أعلم العلماء العظام صدر صدور الموالي الفخام خادم شريعة جده سيد الأنام مولانا وسيدنا الهمام . . ." ⁽¹⁰⁾ و "أعلم العلماء وأفضل الفضلاء ، والراجي إلى خالي الأرض والسماء المتوكل على ربه الذي يقسم الأرزاق لعباده كيف يشاء أوحد الدهر أعدل العصر أكمل الفضلاء أفضل قضاة الإسلام أولى ولاية الأنام بدر سماء المعالي الفخام صدر الموالي والحكام سيدنا ومولانا الهمام ميمز الحلال عن الحرام الحاكم بشرية جده سيد الأنام . . ." ⁽¹¹⁾ ، و "أعلم العلماء أفضل الفضلاء كشاف المشكلات الدينية حلّال المعضلات اليقينية ميمز الحلال عن الحرام أقضى قضاة الإسلام صدر أساطين الموالي العظام" ⁽¹²⁾ . و "جناب سيدنا ومولانا أقضى قضاة الإسلام أولى ولاية الأنام بدر سما المعالي الفخام الحاكم الشرعي الموقع خطه أعلاه دام فضله وزاد علاه" ⁽¹³⁾ . و "أقضى قضاة المسلمين أولى ولاية الموحدين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين" ⁽¹⁴⁾ . و "أعلم العلماء المتبحرين أفضل الفضلاء المتورعين العالم العامل الفاصل بين الحق والباطل" ⁽¹⁵⁾ .

(9) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت 1516-1798 ، دمشق ، 1968 ، ص 83 .

(10) سجل 348 ، أوائل رجب 1280 هـ / 1863 م ، ص 1 .

(11) سجل 356 ، 11 ذي القعدة 1285 هـ / 1868 م ، ص 1 .

(12) سجل 373 ، غرة رمضان 1301 هـ / 1883 م ، ص 1 .

(13) سجل 350 ، 19 صفر 1282 هـ / 1865 م ، ص 38 .

(14) سجل 448 ، أواسط رجب 1281 هـ / 1864 م ، ص 103 .

(15) سجل 343 ، غرة ربيع الأول 1276 هـ / 1859 م ، ص 1 .

وكان القضاة يتقلدون مناصبهم لفترات طويلة ، غير أن انخراط أبناء الوزراء وكبار رجال الدولة ممن يفتقرون للكفاءة في سلك القضاء أدى إلى اختلال النظام القضائي وإضعافه ، مما جعل الدولة تعمل على تحديد فترة عمل القاضي لسنة واحدة⁽¹⁶⁾ . كما أن استمرار القاضي في العمل في سلك القضاء وابتعاده عن التدريس ربما أثر عليه سلباً من الناحية العلمية ، فضلاً عن أن عمله في منطقته لمدة طويلة وتعرفه على السكان ربما أثر على حياده المطلوب في إصدار الأحكام⁽¹⁷⁾ . غير أن الدولة العثمانية لم تطبق ذلك بشكل دقيق أو مطلق إذ يتضح من السجلات الشرعية لمحكمة القدس الشرعية أن القاضي محمد خير الدين عرياني تولى منصب قاضي القدس لفترتين ، حيث استمر في إحداها لمدة خمس سنوات متواصلة ، وذلك في الفترة ما بين 1291-1295هـ / 1874-1878م ثم أعيد تعيينه عام 1299هـ / 1881م لمدة سنة واحدة . وعين القاضي محمد عزيز أفندي كتاني قاضياً عام 1274هـ / 1857م لمدة عام واحد ثم أعيد تعيينه مرة أخرى عام 1277هـ / 1860م ، كما عُيِّن القاضي حمد الله رافت قاضياً عام 1278هـ / 1861م لمدة عام ، ثم أعيد تعيينه مرة أخرى عام 1298هـ / 1880م . وعُيِّن القاضي محمد فيضي عبد الحميد عام 1303 / 1885م وأعيد تعيينه مرة أخرى عام 1305هـ / 1887م .

وتولى قاضي محكمة القدس الشرعية مهام عدة وبخاصة في قضايا الأحوال الشخصية وبعض القضايا الإدارية الأخرى ، ومن أهم المهام والصلاحيات التي كان ينظر فيها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر:

إدارة الوقف والمؤسسات الوقفية :

شكلت الأوقاف وما يتعلق بها مساحة كبيرة وحيزاً واسعاً في سجلات محكمة القدس الشرعية ، فكان القاضي الشرعي ينظر في كافة القضايا المتعلقة بالأوقاف وبخاصة

(16) عبد العزيز عوض ، الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914م ، مصر ، دار المعارف ، 1969 ، ص 111 .

(17) أكمل الدين إحسان أوغلي ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، استانبول ، جزآن ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون ، 1999 ، ج 1 ، ص 456 .

تعيين النظار والمتولين حسب شروط الواقف ، ومنح الإذن لمتولي الوقف بتعمير الوقف وإصلاحه وتأجيريه وتحكيره واستبداله ، وإقرار الوقف وتأكيد صحته ولزومه وصحة شروطه والتدقيق في حساباته السنوية .

وتولى إدارة الوقف عدد من الموظفين ، كان من أبرزهم ناظر الوقف ومتولي الوقف ، ويتم تعيينهم حسب شروط الواقف . واشترط فيمن يتولى هاتين الوظيفتين أن يكون "أميناً وصاحب دين وديانة وعفة واستقامة وله وقوف تام على إدارة أمور الوقف" (18) . وفي حالة شغور وظيفة النظر والتولي فإن القاضي هو الذي يقوم بتعيين من يتولى هاتين الوظيفتين ، فقد يتولاهما شخص واحد أو شخصان في وقت واحد .

ويتولى ناظر الوقف الإشراف العام على الوقف ووارداته ونفقاته ، بينما كانت مهمة متولي الوقف تتمثل في إعمار الوقف وإصلاحه وترميمه وتأجير العقارات التابعة له . وقبض أجرها وتوزيع عائدات الوقف على مستحقيها حسب شرط الواقف ، ويجري ذلك كله بمعرفة القاضي الشرعي والاستئذان منه ، من أمثلة ذلك أن إحدى الحجج تُشير إلى طلب محمد بن أمين الحسيني - المتولي على وقف جده عبد اللطيف الحسيني - الإذن من القاضي الشرعي بتعمير الدار التي يسكن فيها وهي تابعة للوقف ، فأرسل القاضي لجنة للكشف على الدار فوجدتها خربة وتحتاج للتعمير والإصلاح ، فعندئذ سمح القاضي لمتولي الوقف بتعميرها وإصلاحها (19) .

وتورد السجلات الشرعية الكثير من الحجج التي يطالب فيها متولو الوقف القاضي بالسماح لهم بتحكير العقار الموقوف ، وبموجب الحكر تبقى الأرض الموقوفة تحت يد المستأجر (المحتكر) على أن يأذن له المتولي بالبناء على الأرض أو زراعتها ، ويحق للمحتكر بيع البناء أو وقفه ، ويكون البيع مقتصرًا على البناء فقط وليس على الأرض ، وقد يشتمل الحكر جزءًا من العقار مثل السطح والحائط في الدور والعرضات ضمن المحلات (20) .

(18) سجل 361 ، 15 ربيع الأول 1292 هـ / 1875 م ، ص 67 .

(19) سجل 350 ، غرة صفر 1282 هـ / 1865 م ، ص 45 .

(20) زياد المدني ، الأوقاف في القدس وجوارها في القرن التاسع عشر ، مجلدان ، عمان ، 2004 ، م 1 ،

ولعل من بين مبررات الحكر أن يكون العقار الموقوف غير صالح للسكن ، أو أنه آيل للخراب ومستغرق بالديون ، ولا يوجد لدى المتولي مال لتعميره ، كما لا يوجد للوقف ريع أو غلة ولم يجد المتولي من يستدين منه لعمارته ، وإذا بقي على حاله دون تعمیر يُعَدُّ بالكلية ويُخْشَى ضياعه ويزداد غرقاً بالديون ، فعند ذلك يكلف القاضي لجنة للكشف على العقار الموقوف وذلك للوقوف على حالته ومعرفة مدى احتياجه من إصلاح وتعمير . ومن الأمثلة على ذلك ، استحكر كل من عبد الله وشقيقه حسين ولدي محمد حسن السرخي من محكرهم عبد الحي ابن الشيخ عبد الغفار الغفاري المتولي الشرعي على وقف جده الحاج مصطفى حمود "جميع الدار الخربة التي كان بعضها محتاجاً للتعمير والترميم وبعضها للنقض والتخشب والقصارة والتحديد . . . بمبلغ معجل قدره عشرون ألف قرش . . ." (21) .

وكان على متولي الوقف أن يقدم للقاضي كشفاً سنوياً بحسابات الوقف يتضمن إيراداته ومصروفاته ، وفي حال وجود عجز مالي في ميزانية الوقف يجري تغطية ذلك من إيرادات الوقف في السنة اللاحقة ، فعلى سبيل المثال أصدر الشيخ محمد عارف القسطيني المغربي شيخ المغاربة ومتولي أوقافها محاسبة شرعية بين فيها إيرادات الوقف ومصاريفه لسنة 1280هـ / 1863م ، حيث بلغت الإيرادات (367742) قرشاً في حين بلغت المصاريف (47633) قرشاً ، وبذلك يكون العجز في دخل الوقف (108580) قرشاً ، وطلب القاضي من المتولي تغطية العجز من إيرادات الوقف لسنة 1281هـ / 1864 (22) .

ويلاحظ أنه كان يتم الفصل ما بين وظيفة الناظر ووظيفة المتولي ، إذ تُسند كل منهما إلى شخص معين ، وفي أحيان أخرى يجري الجمع بين الوظيفتين ، فتذكر إحدى الحجج تعيين علي بن خليل طنطش متولياً شرعياً وناظراً مرعياً على وقف جدته عائشة بنت حسين البدوي "لكونه أرشد الموقوف عليهم وأدراهم بأمور الوقف ، وأذن له القاضي بتعاطي أمور التولية والنظارة على الوقف" (23) .

(21) سجل 357 ، غرة صفر 1287هـ / 1870م ، ص 91 .

(22) سجل 346 ، 20 صفر 1280هـ / 1863م ، ص 336 .

(23) سجل 344 ، 15 ذي القعدة 1277هـ / 1860م ، ص 111 .

وقد يأمر القاضي بتعيين أكثر من متولٍّ على الوقف في وقت واحد ، بحيث يتولى كل واحد إدارة حصة معينة من الوقف قد تكون النصف أو الثلث أو الربع وذلك حسب شرط الواقف ، وفي هذه الحالة لا يحق لأي من المتولين أن يتعاطى شيئاً من أمور الوقف إلا بمعرفة الآخر وإطلاعه على ذلك ، فقد أشارت إحدى الحجج إلى أن القاضي أمر بتعيين الشيخ عثمان بن سليمان الدنف متولياً ثانياً على وقف جد أبيه لأبيه الشيخ إبراهيم ابن عبد القادر الدنف ليتعاطى أمور التولية مع المتولي الأول ابن عمه الشيخ عبد الله بن خليل الدنف "كما تحقق ذلك بإخبار ورضا كل من الشيخ حسن أفندي ابن الشيخ عمر أفندي والشيخ مصطفى أفندي والشيخ داود أفندي أولاد الشيخ محمد أفندي الدنف المستحقين بالوقف المزبور وغيرهم من الثقات الموحدين على طريق الشهادة"⁽²⁴⁾ . وتُشير حجة أخرى إلى أن القاضي قد يعين أربعة متولين على وقف الشيخ يونس بالقدس ، وهم الشيخ موسى ابن الشيخ موسى بن الشيخ فيض الله والشيخ فيض الله بن موسى بن يونس ومحمد وشمس الدين ولدي حسن بن يونس⁽²⁵⁾ .

وإذا أراد المتولي أن يعين وكيلاً عنه في إدارة الوقف فإن ذلك لا يتم إلا بمعرفة القاضي ، فمثلاً حضرت رشيدة بنت رشيد بن خليل بن عبد الجواد المتولية على وقف جدها إسماعيل بن هبة الله النمري إلى المحكمة الشرعية ، وأقرت أمام القاضي أنها وكلت زوجها إبراهيم بن عبد الله ابن الشيخ وفا العلمي وكالة مطلقة في إيجار وقبض أجرة وقف جدها لمن يشاء ويرغب بالأجرة المثلية ، وتوزيع الأجرة المذكورة على مستحقي الوقف بعد إخراج مصاريف التعمير حسب شرط الواقف وفي الدعوى والمخاصمة ورد الجواب في كافة ما يتعلق بذلك⁽²⁶⁾ .

كذلك فإن المتولي إذا أراد توكيل شخص آخر لفترة محددة فإن ذلك يجب أن يتم بالمحكمة الشرعية وأمام القاضي ، من ذلك أن إحدى الحجج تُشير إلى أن موسى ابن

(24) سجل 368 ، 21 ذي القعدة 1294 هـ / 1877 م ، ص 83 .

(25) سجل 378 ، 9 رجب 1305 هـ / 1883 م ، ص 23 .

(26) سجل 379 ، 10 رمضان 1307 هـ / 1887 م ، ص 44 .

الحاج عطية بن محمد بن خليل القضاهي المتولي الشرعي على وقف جده الأعلى الشيخ إبراهيم السافوطي ، قد وكل سليمان بن محمد آغا وذلك بوضع يده على أماكن الوقف ، وتأجيرها وقبض أجرها ، وتوزيع غلتها على مستحقيها ، وتعمير ما يلزم تعميره من أماكن الوقف ، وذلك طوال فترة غيابه بالعسكرية⁽²⁷⁾ .

وإذا أراد المتولي التنازل عن وظيفته بالتولية فيجب أن يتم ذلك أمام القاضي الذي يقر ذلك حتى يقوم بتعيين شخص آخر ، فقد "حضر محمد بن أسعد بن حسين الجاعوني متولي وقف جده إلى المحكمة الشرعية وأقر أنه عزل نفسه عن تولية الوقف وتنازل عنها لعدم قدرته على إدارة أمور الوقف ولعجزه عن تعاطيها ومباشرتها"⁽²⁸⁾ .

وفي حال وفاة متولي الوقف ، يعين القاضي متولياً آخر مراعيًا في ذلك شروط الواقف، فقد عين الشيخ محمد بن أسعد بن عبد الغني متولياً على وقف جده الشيخ محمد الصالح "لكونه من ذرية الواقف ومن المستحقين في الوقف وأعلمهم وأدراهم بأمر الوقف وأذن المستحقين عوضاً عن الشيخ محمد صالح بسبب وفاته"⁽²⁹⁾ . وعين إبراهيم ابن محمد الخليل متولياً على وقف جده لأبيه عوضاً عن متوليه السابق بحكم وفاته⁽³⁰⁾ .

وكان القاضي يعزل متولي الوقف عن وظيفته إذا ثبتت خيانتة وإهماله لأمر الوقف ومصالحه ، ويجرى ذلك بطلب من مستحقي الوقف ، ويعين بدلاً منه متولياً آخر من الموقوف عليهم وفقاً لشروط الواقف ، فتذكر إحدى الحجج الشرعية أن القاضي عزل الحاج بكر بن سليمان بن محمد بن حسين النشاشيبي المتولي الشرعي على وقف جده والد أبيه عن أمور التولية لثبوت خيانتة وتقصيره وعين بدلاً منه يوسف بن نامق بن خير الدين النشاشيبي⁽³¹⁾ . وفي حجة أخرى قدم كل من محمود وموسى ولدي عبد الله بن موسى ابن عبد الوهاب النمري وياسين وطه ولدي يوسف بن عثمان النمري وإسماعيل بن

(27) سجل 383 ، غرة جمادى الثانية 1313 هـ / 1895 م ، ص 356 .

(28) سجل 382 ، 14 صفر 1309 هـ / 1889 م ، ص 135 .

(29) سجل 361 ، غرة جمادى الثانية 1290 هـ / 1873 م ، ص 16 .

(30) سجل 383 ، 25 ذي الحجة 1312 هـ / 1894 م ، ص 306 .

(31) سجل 383 ، 28 صفر 1303 هـ / 1883 م ، ص 331 .

خليل بن عمر النمري دعوى على محمد بن علي بن محمود النمري المتولي الشرعي على وقف جده الأعلى لأبيه إبراهيم بن هبة الله النمري طلبوا فيها من القاضي عزل المتولي عن أمور التولية بسبب خيانتة وإهماله مصالح الوقف وشؤونه⁽³²⁾.

وقد يعين القاضي امرأة لإدارة الوقف إذا كانت شروط الواقف تسمح بذلك ، فتشير إحدى الحجج إلى تعيين عالمة بنت محمد بن محمود متولية شرعية على وقف خالتها فطومة بنت خليل بن حمود لتتعاطى أمور التولية على الوقف بإيجاره وقبض أجوره وتقسيمها على مستحقه عملاً بشرط الواقفة ، وذلك لعدم وجود متولٍ على الوقف ، ولكونها أرشد الموقوف عليهم ومستحقة بالوقف ، كما أنها صاحبة ديانة وأمانة وعفة واستقامة⁽³³⁾ . وعين القاضي أسمى بنت خليل بن غنيم الجاويش متولية على وقف جدها لأبيها عوضاً عن والدها بحكم وفاته وانحلال ذلك عنه ، ولكونها أرشد الموقوف عليهم ، وأن الوقف منحصر فيها وفي شقيقتيها رقية وعائشة مثالثة انحصاراً شرعياً ، وأذن القاضي للمتولية بتعاطي أمور التولية على الوجه المستقيم بما فيه الحظ الأوفر والمصلحة التامة لجهة الوقف المذكور⁽³⁴⁾ .

الإشراف على بيع العقارات وشرائها :

أشرف القاضي على عمليات بيع العقارات وشرائها من أراضي أو دور أو دكاكين ، إذ بالرغم من وجود المحاكم النظامية ودائرة الطابو التي يفترض أن يجرى تسجيل بيع العقارات فيها ، غير أن الأهالي استمروا في تسجيلها في المحكمة الشرعية ؛ نظراً للثقة التي تحظى بها المحاكم الشرعية والقضاء الشرعي من قبل الأهالي .

وكانت عمليات بيع العقارات وشرائها تجري بالمحكمة الشرعية ، بحضور القاضي أو من ينوب عنه وحضور طرفي العلاقة أو من يوكلانه والمعرفين والشهود ، وهذا ما توضحه الحجة التالية : " اشترى أحمد بن عبد الله الملاعي الطحان بهاله لنفسه دون مال

(32) سجل 383 ، 13 محرم 1312 هـ / 1894 م ، ص 222 .

(33) سجل 361 ، 19 ربيع الثاني 1290 هـ / 1873 م ، ص 91 .

(34) سجل 342 ، 21 صفر 1276 هـ / 1859 م ، ص 168 .

غيره من بائعه الحاج عمر ابن قاسم المشعشع الوكيل الشرعي عن الحرمة زليخة بنت الحاج محمد الواسع علي آغا الثابت وكالته عنها فيما سيذكر فيه من البيع البات الآتي ذكره فيه وقبض الثمن الذي سيُعين فيه مع الإبراء بشهادة وتعريف كل واحد من زوجها الحاج جمعة شختورة بن الحاج خليل ومحمد بن إبراهيم خميس الفران والسيد أمين بن الحاج خليل بطرخه " (35).

ويظهر في حجة البيع مساحة العقار المبيع ، فإذا بيع كله يشير السجل إلى "جميع الدار" (36) ، أو "جميع قطعة الأرض" (37) ، أما إذا بيع جزء من العقار فيذكر الجزء المبيع بالقراريط وذلك باعتبار أن الكل يساوي أربعة وعشرين قيراطاً ، ويُقسم القيراط إلى أجزاء صغيرة تُقسم إلى أجزاء أصغر كما في المثال التالي : "... وذلك جميع الحصة الشائعة وقدرها قيراط وثلاثة أثمان نصف قيراط وسبعة عشر جزءاً من تسعة عشر جزءاً من ثمن نصف قيراط في جميع الأرض ... " (38) . وفي بعض الأحيان يشير السجل إلى مساحة الجزء المبيع بالذراع وما يعادله من قيراط ، فنذكر إحدى الحجج "اشتري الخواجة نقولا ابن الخواجة إبراهيم الدمشقي ... من بائعه الخواجة موسى طنوس ... وذلك جميع قطعة الأرض في جهة باب الخليل ونمرتها 367 وطول القطعة شرقاً بغرب خمسة وثلاثون ذراعاً وعرضها قبلة بشمال ثلاثة عشر ذراعاً بذراع العمل" (39) ومقدار تحريرها بحساب الطابو سبعة قيراط من دونم ... " (40) . ويجري تحديد العقار المبيع من جهاته الأربع خوفاً من التلاعب فيها بعد بمساحته سواء من قبل المشتري أو جيرانه ، ويظهر ذلك في الحجة

(35) سجل 355 ، 17 ربيع الثاني 1285هـ / 1868م ، ص 25 .

(36) سجل 347 ، 17 صفر 1286هـ / 1869م ، ص 343 .

(37) سجل 382 ، أواخر ذي القعدة 1308هـ / 1890م ، ص 86 .

(38) سجل 347 ، 15 ربيع الأول 1280هـ / 1863م ، ص 12 .

(39) و يبلغ متوسط طول ذراع العمل 5.66 سم . انظر : فالتر هنتس ، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى ، ترجمة كامل العسلي ، عمان ، منشورات الجامعة الأردنية ، 1970 ، ص 89 .

(40) سجل 347 ، 19 ذي الحجة 1280هـ / 1863م ، ص 272 .

التالية: "... المحدودة قبلة الزقاق غير النافذ وفيه الباب ودار مكية مع دار إسماعيل العمادي وشرقاً دار مكية المرقومة وشمالاً زاوية الهنود⁽⁴¹⁾ وغرباً دار بدران ..."⁽⁴²⁾.

وحرص القضاء الشرعي على توضيح كيفية انتقال العقار المبيع لصاحبه قبل البيع ، بالإرث أو الشراء أو غير ذلك ، فعلى سبيل المثال تذكر إحدى الحجج : "اشترى عبد الله أغا قرجولي بالوكالة الشرعية عن السيد خليل اشتبه بهال الموكل المذكور لنفسه دون مال غيره من بائعه السيد سعيد اشتبه ... فباع لموكله السيد خليل المذكور بيعاً باتاً ما هو له وجارٍ في ملكه وطلق تصرفه وحيازته الشرعية وآيل إليه إرثاً عن أمه السيدة أسمى بنت المرحوم الحاج عبد الله الدباغ وآيل إليها بعضه إرثاً عن والدها وبعضه شراءً بموجب حجتين شرعيتين أحدها مؤرخة في اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى 1266 هـ والثانية في أواسط شهر جمادى الثانية 1269 هـ ..."⁽⁴³⁾.

ولم يقتصر حق التملك بالعقار على الشراء أو الإرث فقط ، وإنما شمل التصرف بالعقار لمدة تزيد عن ثلاثين سنة فيصبح المتصرف بحكم المالك ، وهذا ما توضحه الحجة التالية : "اشترى محمود بن أحمد ناصر النجار الفتاوي له ولشقيقه خليل بهاله ومال شقيقه المذكور لنفسيهما دون مال غيرهما مناصفة بينهما من بائعه خلف ابن الحاج صالح الفتاوي ... ما هو له وجارٍ في ملكه وتحت طلق تصرفه وحيازته الشرعية وآيل إليه حسب تصرفه القديم مدة مديدة نحو ثلاثين سنة حسب إخبار كل واحد من محمد بن عواد وأحمد سالم كلاهما من أهالي قرية لفتا⁽⁴⁴⁾ على طريق الشهادة ويده واضعة على ذلك ثابتة مستقرة من غير معارض ولا منازع له في ذلك إلى حين صدور عقد هذا البيع البات

(41) زاوية الهنود : تقع عند باب الساهرة داخل السور ، كانت للفقراء الرفاعية في الأصل ، ثم نزلت بها طائفة الهنود في أوائل القرن التاسع الهجري فعرفت بزاوية الهنود . انظر : كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، 1981 ، ص 362 .

(42) سجل 355 ، 17 ربيع الثاني 1285 هـ / 1868 م ، ص 25 .

(43) سجل 347 ، 12 ربيع الأول 1281 هـ / 1864 م ، ص 10 .

(44) قرية لفتا : تقع على مسافة 1 كم شمال غرب مدينة القدس . الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام ، 4م ، ص 49 .

الصحيح الشرعي وذلك جميع أشجار الكروم مع حق مزارعة القطعة الصغيرة التي من ضمنه ... " (45).

ويبين السجل طريقة قبض البائع ثمن العقار المبيع من المشتري ، فإذا جرت عملية القبض أمام القاضي بالمحكمة الشرعية يُشير السجل إلى ذلك بعبارة : "ثمنًا حالاً مقبوضاً بيد البائع من المشتري بالحضرة والمعاينة في المجلس الشرعي" (46). وإذا قبض الثمن خارج المحكمة يُشار إلى ذلك بعبارة : "ثمنًا حالاً مقبوضاً بيد البائع من يد المشتري حسب اعتراف البائع المذكور بقبض ذلك من المشتري القبض والاعتراف الشرعي" (47).

وفي بعض الأحيان يُشير السجل إلى عبارة : "بثمن قدره ... مع صرة من النقود الرائجة مجهولة المقدار ومستهلكة بالمجلس الشرعي بعد قبضها بيد البائع" (48) ، أو : "ثمنًا حالاً مقبوضاً ... مع صرة من الدراهم والدنانير مجهولة المقدار ومستهلكة بالمجلس الشرعي بعد قبضها ... " (49) ، وربما يعني ذلك أن صرة من الطعام أحضرها الشاري إلى المجلس الشرعي في المحكمة الشرعية احتفالاً بعملية الشراء وتم استهلاكها من قبل الحاضرين (50).

أما نوع البيع فإما أن يكون بيعاً باتاً (51) أي بيعاً نهائياً لا رجعة عنه ، وإما أن يكون بيع وعد ووفاء حيث يعد المشتري البائع برد العقار له إذا أتى بنظير الثمن عند انتهاء الفترة المحددة التي يتفق عليها الطرفان ، فمثلاً : "اشتري مصطفى علي ابن مصطفى ... من بائعه الحاج جمعة ابن الحاج خليل الفران ... فباعه بيع وعد ووفاء ... وذلك جميع الحصة

(45) سجل 350 ، 5 صفر 1282 هـ / 1865 م ، ص 7 .

(46) سجل 347 ، 19 ذي الحجة 1280 هـ / 1863 م ، ص 272 ؛ سجل 353 ، 9 جمادى الأولى 1283 هـ / 1866 م ، ص 19 .

(47) سجل 346 ، 9 محرم 1280 هـ / 1863 م ، ص 262 ؛ سجل 347 ، 9 رجب 1280 هـ / 1863 م ، ص 116 .

(48) سجل 353 ، 17 ذي الحجة 1283 هـ / 1866 م ، ص 199 .

(49) سجل 351 ، أوائل محرم 1283 هـ / 1866 م ، ص 295 .

(50) عبد الكريم رافق ، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، دمشق ، 1985 ، ص 34 .

(51) سجل 344 ، 6 رجب 1277 هـ / 1860 م ، ص 71 .

... في جميع الدار . . . وعد المشتري المذكور البائع المرقوم إن أتى له بنظير الثمن المرقوم عند تمام سنة كاملة تمضي من تاريخه أدناه يعيد له هذا المبيع ثانيًا وعدًا شرعيًا مقبولاً شرعيًا⁽⁵²⁾ . وفي هذه الحالة يحق للمشتري استغلال العقار والانتفاع به ما دام ثمنه بذمة البائع ، فقد اشترت عائشة أحمد معالي من قرية لفتا من عقل عثمان من قرية بيت حنينا⁽⁵³⁾ بيع وعد ووفاء أربعة قراريط وثلاث أرباع القيراط في جميع أشجار الزيتون في ثلاث قطع أراضي بثمان قدره 3070 قرشًا ، وقد أباح لها حق الانتفاع بثمر وريع الحصة المذكورة ما دام الثمن باقيًا بذمته لها⁽⁵⁴⁾ .

ولإتمام عملية البيع والشراء اشترط في ذلك الإيجاب والقبول والتسليم والتسليم والآ يعترى ذلك غبن أو فساد ، ويرى البائع المشتري من دعوى الغرر والإغرار مع الغبن الفاحش بسبب المبيع براءة عامة شرعية ويقبل المشتري منه هذه البراءة ، وتُبرأ ذمة المشتري من جميع الثمن بعد دفعه للبائع براءة قبض واستيفاء⁽⁵⁵⁾ .

الوصاية وإدارة أموال الأيتام :

اهتم القضاء الشرعي برعاية الأطفال الأيتام وتنصيب ناظر أو وصي أو حاضنة لمتابعة شؤونهم المختلفة والاهتمام بها . ويُعين هؤلاء من قبل القاضي الشرعي ، ويختلف عمل كل منهم عن الآخر ، ويُعد الناظر هو الأكثر أهمية من حيث مكانته وأهميته ما يقوم به ، ويُكلف بإدارة ما يخص القاصر من عقارات ، والإشراف على الوصي والحاضنة الذين لا يمكنهم التصرف بأموال القاصرين دون العودة إليه⁽⁵⁶⁾ .

(52) سجل 354 ، 5 ربيع الأول 1284 هـ / 1867 م ، ص 16 .

(53) قرية بيت حنينا : تقع على بعد 8 كم شمال مدينة القدس . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 88 .

(54) سجل 378 ، 9 رجب 1305 هـ / 1883 م ، ص 55 .

(55) سجل 353 ، أوائل صفر 1281 هـ / 1864 م ، ص 187 ؛ سجل 355 ، 27 ربيع الثاني 1285 هـ / 1868 م ، ص 25 .

(56) زياد المدني ، مدينة القدس وجوارها خلال الفترة 1215 هـ - 1245 هـ / 1800 - 1830 م ، عمان ، منشورات بنك الأعمال ، 1996 ، ص 251 .

وقد يُكلف شخص واحد القيام بوظيفة النظارة والوصاية في آن واحد ، فقد نُصِّبَ الحاج خليل الوعري وصياً شرعياً وناظرًا مرعياً على أولاد أخيه القاصرين⁽⁵⁷⁾ . ونُصِّبت فاطمة بنت عليان اللفتاوي وصية وناظرة على ولدها القاصر أحمد⁽⁵⁸⁾ . ويظهر من خلال بعض الحجج الشرعية أنه في حالة وفاة الوصي تنتقل الوصاية إلى الناظر ، فقد نصبت حلوة بنت سليمان قريع وصية وناظرة على ولدها محمد القاصر عن درجة البلوغ بحكم وفاة الوصي السابق الشيخ يونس زلوم وانحلال ذلك عنه⁽⁵⁹⁾ .

ويُشترط فيمن يتولى أمور الوصاية الأمانة والعفة والاستقامة والقدرة على إدارة شؤون القاصر بشهادة عدد من المعرفين ، وهذا ما تبينه الحجة التالية : "لما توفي الحاج موسى المغربي وانحصر إرثه الشرعي في زوجته وولديه إدريس البالغ ومحمد الصغير . . . وأنه لم يكن للصغير المذكور وصياً شرعياً . . . ووجد أن أمه صاحبة أمانة وعفة واستقامة ولها قدرة على إدارة أمور الوصاية عليه كما أخبر بذلك كل من الرجال العاقلون وهم الحاج صالح المغربي مختار محلة المغاربة ومحمد علي مختار محلة السلسلة والحاج بشير أفندي ابن عبد السلام بن سليمان المغربي والحاج إدريس بن عبد الرحمن محمد والحاج درويش بن أحمد الأعرج والحاج منصور بن محمد بن عبد الله المغاربة والسيد شمس الدين بن أحمد مصطفى أفندي ابن الشيخ حسين الشرفا وموسى بن طه بن عبد الرحمن آغا نصب مولانا الحاكم الشرعي . . ." ⁽⁶⁰⁾ .

وفي حال المفاضلة بين أقارب القاصر لتولي الوصاية عليه أو حضائته ، يكون العم أحق من الخال والخالة باعتبار أن أولادهم أجانب ، فتذكر إحدى الحجج : "حضر يوم تاريخه أدناه لمجلس الشرع . . . حسين بن أحمد اشهيل وحضر بحضوره أحمد بن صالح كلاهما من أهالي قرية عين كارم⁽⁶¹⁾ وسلم أحمد صالح المرقوم إلى حسين اشهيل ابنة أخيه

(57) سجل 343 ، 25 جمادى الثانية 1276هـ / 1859م ، ص 44 .

(58) سجل 343 ، 5 رجب 1276هـ / 1859م ، ص 44 .

(59) سجل 347 ، 12 رمضان 1280هـ / 1863م ، ص 199 .

(60) سجل 383 ، 7 ربيع الأول 1312هـ / 1894م ، ص 187 .

(61) عين كارم : تقع على مسافة 8 كم غربي مدينة القدس مع انحراف قليل إلى الجنوب . الموسوعة الفلسطينية ، م 3 ، ص 370 .

رمضان اشهيل وهي فاطمة القاصرة عن درجة البلوغ ، فتسلمها من حيث أن ليس للقاصرة ولي عليها سوى عمها حسين فعندها أمر الحاكم الشرعي حسين اشهيل بأن يحضن ابنة أخيه . . . وهو أحق بالحضانة من خالها ووالدتها وخالتها كون والدتها متزوجة بأجنبي وخالتها لها أولاد كبار أجنب عن فاطمة ، ولكون عمها حسين أميناً عليها كما أخبر بذلك كله أحمد حمدان وأحمد عقل وخلف عودة من أهالي القرية⁽⁶²⁾ .

ويكلف القاضي من يتولى الوصاية على القاصر بالإنفاق عليه من طعام وشراب وكسوة وغير ذلك من النفقات اليومية التي يحددها القاضي ، وتكون قيمة النفقة قابلة للزيادة لسبب أو لآخر وغالباً ما يكون نتيجة لارتفاع أسعار الحاجيات اللازمة للقاصر ، فقد فرض القاضي الشرعي نفقة طعام وشراب وكسوة كل من بكر وبيهان القاصرين أيتام بكر الشعباني في كل يوم ستون فضة مصرية ، وأذن إلى عم القاصرين بإنفاق المبلغ عليهما تحت حضانة حسنة بنت مصطفى الجاعوني⁽⁶³⁾ . وبعد يومين حضر للمحكمة عبد القادر الجاعوني وكيلاً عن حسنة وطلب من القاضي الشرعي إضافة أربعين فضة مصرية أخرى على النفقة المقدرة ، حيث إن قيمتها لا تكفي لطعام القاصرين وشرائها وكسوتها ، ولما تحقق القاضي من ذلك أمر بزيادة النفقة كما طلب الوكيل⁽⁶⁴⁾ . ويُستدل من هذه الحجة على أن القاضي في بعض الأحيان قد لا يصيب في تقدير قيمة النفقة اللازمة للقاصر ، إذ إن الفترة الزمنية بين التقدير الأول للنفقة وطلب الوكيل بزيادة القيمة هي يومان فقط ، ولا يعقل أن الأسعار ارتفعت خلال هذه الفترة القصيرة بشكل كبير مما يؤدي إلى زيادة النفقة بنسبة 67% عن قيمتها السابقة . ويُستدل منها أيضاً على وجود حاضنة عهد إليها بتربية القاصرين بإشراف الوصي ويبدو أنها لم تكن والدتها مما يعني أن والددة القاصرين قد تزوجت بشخص آخر بعد وفاة والدهما ، أو أنها توفيت .

ويقوم الوصي في بعض الأحيان ببيع حصته بعد الحصول على موافقة القاضي وقناعته بمبررات البيع ، منها أن تكون حصة القاصر قليلة جداً تتكون من جزئيات صغيرة يُخشى

(62) سجل 349 ، 21 شعبان 1288 هـ / 1290 م ، ص 73 .

(63) سجل 343 ، 5 رجب 1276 هـ / 1859 م ، ص 64 .

(64) سجل 343 ، 7 رجب 1276 هـ / 1859 م ، ص 64 .

ضياعها ، ويكون الثمن المختص بها ضعف القيمة أو أكثر⁽⁶⁵⁾ . ومن الأمثلة على الحصص الجزئية الصغيرة حصص كل من القَصْر يوسف و خليل وخديجة أبناء المتوفى رشيد غنيم ، فكانت حصة كل من يوسف و خليل ستة أعشار قيراط وثلث عشر قيراط وثلثي ثلث عشر عشر قيراط وخمسي ثلث ثلث عشر عشر قيراط وأربعة أثمان خمس ثلث ثلثي عشر عشر قيراط . أما حصة شقيقتها خديجة فكانت ثلاثة أعشار عشر قيراط وثلث ثلث عشر عشر قيراط وثلاثة أخماس ثلث ثلث عشر عشر قيراط وستة أثمان خمس ثلث ثلث عشر عشر قيراط ، وبلغت قيمة حصة يوسف و خليل ثمانية وثمانين قرشاً وستة عشرة فضة مصرية ، بينما بلغت قيمة حصة خديجة أربعاً وأربعين قرشاً وثمانى فضة مصرية⁽⁶⁶⁾ .

وقد تُباع حصة القاصر للإنفاق عليه وغرقه في الديون للوصي بسبب النفقة ولا مال للقاصر يوفي ما عليه من النفقة المنكسرة ، أو لعدم انتفاع القاصر بحصته في العقار لشدة خرابه ويكون الثمن المختص به زيادة عنه بثمان مثل حصته ، فقد أشارت إحدى الحجج إلى ذلك بقولها : " اشترى إبراهيم محسن النمري . . . من بائعيه هما السيد حسن بن نور الدين النمري الأصيل عن نفسه وشقيقه عبد اللطيف نور الدين النمري الأصيل عن نفسه والوصي الشرعي على شقيقه محمد القاصر . . . والداعي لبيع حصة القاصر في الحوش الآتي ذكره وهو في واجب النفقة المنكسرة عليه لوصيه المذكور بموجب حجة الإنفاق . . . وأن لا مال له يوفي ما عليه من النفقة المنكسرة ولا ينفق عليه كما شهد به الثقة الموحدون سيما وأن في بيع حصة القاصر المرقوم بالحوش الحظ الأوفر والمصلحة له لعدم انتفاعه منه ولشدة خرابه وأن الثمن المختص بالقاصر المرقوم الآتي بيانه فهو زيادة عنه بثمان مثل حصته كما أخبرت بذلك العدول وحسب صدور الإذن الشرعي من مولانا الحاكم الشرعي للوصي المرقوم في بيع حصة القاصر في الحوش لثبوت مصوغاته الشرعية"⁽⁶⁷⁾ .

(65) سجل 351 ، أواخر محرم 1283 هـ / 1866 م ، ص 293 .

(66) سجل 349 ، أواسط محرم 1288 هـ / 1866 م ، ص 162 .

(67) سجل 347 ، 9 صفر 1281 هـ / 1864 م ، ص 329 .

وكان على الوصي أن يقدم تقريراً للقاضي كل فترة تتراوح ما بين سنة واحدة إلى ثلاث سنوات يُبين فيه واردات القاصر ومصرفاته ، ويظهر ذلك من الحجة التالية: "هذه محاسبة شرعية أصدرها من نفسه عمر بن موسى نسيبه بن خليل نسيبه الوصي الشرعي على أخويه لأبيه المذكور وهما سليم ونسيبه الصغيران بموجب حجة الوصاية الشرعية المؤرخة في السادس من شوال سنة ست وتسعين ومائتين وألف وذلك على ما هو متجمد للصغيرين المذكورين بموجب دفتر محاسبة شرعي ... وما أنفقه عليهما وما عاد لهما من أرباح وأجرة عقار وغيره كما سيأتي بيانه وذلك مدة سنتين وتسعة أشهر ابتداءً من غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ونهايتها غاية شوال سنة تاريخه" (68). وورد في حجة أخرى: "هذه محاسبة شرعية أصدرتها من نفسها المرأة البالغة العاقلة رقية بنت محمد بن إسماعيل الكيال الوصي الشرعي على ولديها محمود عطا الله وخانم الصغيرين الحاصلين لها من زوجها . . . وذلك على ما قبضته الوصي المذكورة لهما من تاريخ وفاة زوجها المتوفى في اليوم السابع من شهر رجب سنة تسع وثلاثمائة وألف لغاية ذي الحجة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف من أثمان بيع التركة وأجرة عقار ملك ووقف العائد إليهما عن والدهما المذكور في المدة المرقومة وعلى ما أصابهما من التعميرات وما أنفقته عليهما" (69).

وإذا أراد الوصي التنازل عن أمور الوصاية فعليه توضيح أسباب ذلك للقاضي، مثل عجزه وعدم قدرته على إدارة أمور الوصاية ، أو لعدم تفرغه لذلك (70). كما لا يجوز للأمم في حال زواجها من آخر أن تستمر في أمور الوصاية لكون زوجها أجنبياً، فقد استعفت بدور بنت قدورة فرام اللحم عن الاستمرار في الوصاية الشرعية على ولديها محمود ورقية القاصرين عن درجة البلوغ يتيما زوجها الحاج محمد بن محمود أبو جودة وذلك بسبب زواجها من محمد ابن الحاج حسن التوتنجي ونصب القاضي بدلاً منها سعدية بنت مصطفى جدة القاصرين لأمهما (71).

(68) سجل 373 ، غرة ذي القعدة 1301هـ / 1883 ، ص 18 .

(69) سجل 383 ، 8 ربيع الثاني 1312هـ / 1894م ، ص 247 .

(70) سجل 353 ، 21 ذي القعدة 1283هـ / 1866م ، ص 191 .

(71) سجل 360 ، 15 محرم 1289هـ / 1873م ، ص 196 .

ولم تقتصر مهمة القاضي الشرعي على تعيين الأوصياء على القاصر بل حرص أيضًا على الحفاظ على أموالهم ، فقد أصدرت الدولة العثمانية نظامًا لصندوق أموال الأيتام تضمن إدارة أموال الأيتام القاصرين أو المعتوهين أو من توفي وكان ورثته مسافرين ، حيث يجري تحرير تركة المتوفى من قبل المحكمة الشرعية ، وتجري المزايدة على الأموال غير المنقولة بمعرفة الوصي ويتم تحويلها إلى نقود ، وفي حال عدم وجود وصي له يعين له وصي من قبل مجلس الدعاوى بمعرفة القاضي أو نائب الشرع⁽⁷²⁾ . وقد نص النظام على تعيين موظف يشرف على أموال الأيتام يُعرف باسم "مدير صندوق الأيتام" وحددت فترة عمله بستتين ، وينوب عنه في حال غيابه وكيل الصندوق⁽⁷³⁾ . ويحضر المدير أو الوكيل ضبط التركات في حال وجود ورثة قاصرين أو معتوهين⁽⁷⁴⁾ .

وسمح النظام بالتصرف في أموال الأيتام بهدف استثمارها في مشاريع تعود على أصحابها بالنفع والفائدة . ويشترط في المدين أن يقدم كفالة تضمن سدادَه للقرض ، إما بإحضار كفيلين يتعهدان بتسديد الدين في حال تخلفه عن دفع المبلغ⁽⁷⁵⁾ ، أو رهن قطعة أرض بعد أن يتم تقدير قيمة المرهون بمعرفة ذوي الخبرة والاختصاص ، فقد استدان الشيخ محمد بكر أبو السعود مبلغ خمس وثلاثين ليرة عثماني ذهب من فاطمة بنت أحمد عيسى اللدي الوصية الشرعية على ابنها محمد الصغير وأخيه لأبيه عبد الفتاح الصغير من مالها وثلاث ساعات إحداها ذهب والثانية فضة والثالثة نحاس مباعات له من الوصية ومدير الأيتام بعد أن وهبها للصغيرين بمبلغ اثنتي عشرة ليرة ذهب ونصف ليرة عثماني وعشرة قروش صاغ جملة ذلك كله سبع وأربعون ليرة عثماني ونصف ليرة وعشرة قروش عنها أربعة آلاف وسبعماية وستون قرشًا بحساب الليرة العثماني مائة قرش ، وتعهّد المديون بتسديد الدين بعد مضي ثلاث سنوات ، وقد أرهن على نفسه قطعة أرض مشجرة مساحتها اثنان وعشرون دونمًا ووكل مدير الأيتام وكالة مطلقة في بيع الرهن عند حلول

(72) الدستور ، م 1 ، ص 109 .

(73) سجل 359 ، غرة ذي القعدة 1289هـ / 1873م ، ص 359 . الدستور ، م 1 ، ص 109 .

(74) سجل 374 ، 19 ذي القعدة 1303هـ / 1883م ، ص 19 .

(75) أمين مسعود أبو بكر ، قضاء الخليل 1864-1918م ، عمان ، الجامعة الأردنية ، 1990 ، ص 168 .

المدة بعد المزاودة الشرعية في حال عدم تسديده الدين⁽⁷⁶⁾ . وأرهن حسن أبو غنام على نفسه جميع الدار بقرية الطور مقابل ما استدانه من مدير الأيتام من مال تركه المتوفى الشيخ عبد الله السقا غير المعلوم له وارث والبالغ سبعمائة وخمسين قرشاً بحساب الليرة العثمانية . مائة قرش ، إضافة إلى ثمن ساعة فضة مبيعة له من مدير الأيتام بمبلغ مائتين وسبعين قرشاً⁽⁷⁷⁾ .

وفي حجة ثالثة : "رتب مولانا الحاكم الشرعي بحضور الحاج عبد الله أفندي الشهابي وكيل مدير أفندي الأيتام بذمة حسين بن علي أبو الفيلات ما هو موضوع بصندوق الأيتام إلى إسحق القاصر عن درجة البلوغ شقيق حسين المرقوم مبلغاً قدره وبيانه أربع وسبعون ذهب ليرة فرنساوي عيناً عنها سبعة آلاف قرش وثلاثون قرشاً بحساب الليرة الفرنساوي خمسة وتسعون قرشاً وثمان سبعة عشر كتاباً من فتاوى علي أفندي موهوبين من جناب الحاكم الشرعي للقاصر . . . بمبلغ قدره ألفا قرش وستماية وثلاثة وسبعون قرشاً فصار جملة الأصل مع ثمن الكتب تسعة آلاف وسبعمائة وثلاث قروش مؤجلين ... لمضي ثلاث سنين تمر من تاريخه"⁽⁷⁸⁾ .

ويُستدل من الحجج الثلاث السابقة على أن المدين كان يدفع مبلغاً إضافياً آخر على المبلغ المستدان وهو المبلغ المخصص كثمان ساعة أو كتب الفتاوى وذلك على اعتبار شرائه . لذلك علماً بأن ذلك يكون شراءً شكلياً ، وعلى الأرجح أن يكون ثمن الساعة أو الكتب فائدة على المبلغ الحقيقي وفي ذلك تحايل على الاقتراض .

ويظهر من خلال بعض الحجج أنه لم يكن هناك تمييز طائفي في الاستدانة من أموال القاصر وكفالة المدين ، فقد استدان جريس بن يوسف بن سمعان الرومي من مهدي بنت خليل الهواري الوصي الشرعي على ولدها عيسى ابن الحاج إبراهيم المغربي مبلغاً قدره

(76) سجل 374 ، 7 ربيع الأول 1304 هـ / 1884 م ، ص 88 .

(77) سجل 374 ، 25 ذي القعدة 1303 هـ / 1883 م ، ص 26 .

(78) سجل 359 ، غرة ذي القعدة 1289 هـ / 1873 م ، ص 113 .

خمس وعشرون ليرة ذهب عثماني وذلك من مال ابنها الصغير الموضوع له في صندوق الأيتام وكفله على ذلك فرنسيس بن ميخائيل⁽⁷⁹⁾.

ولم تقتصر النفقات على القاصرين فقط وإنما كان يحق للزوجة أن تطالب بالنفقة من زوجها في حال تقصيره أو غيابه، وقد يسمح لها القاضي بأن تستدين على ذمة زوجها، فتذكر إحدى الحجج أن بهتتاب بنت إبراهيم عبد السلام زعتره أقامت دعوى على زوجها أحمد بن مصطفى فزاعة من باب حطة وهو غائب لمدة سنتين عنها ولا تعلم مكان إقامته، وتركها دون نفقة، فأقر لها القاضي بالنفقة والاستدانة عند الحاجة على حساب زوجها عند عودته⁽⁸⁰⁾.

تعيين القيمين على أملاك الغائبين :

كان من مهام القاضي تعيين القيمين على أملاك الغائبين لتعاطي أمور القيامة الشرعية على أملاكهم وذلك بالإشراف عليها سواء فيما يتعلق بتأجيرها وقبض أجرتها أو حفظها لهم لحين عودتهم، واشترط في القيم الشرعي أن يكون رشيداً وأميناً ومحسناً⁽⁸¹⁾.

وتورد سجلات المحكمة الشرعية كثيراً من الحجج الشرعية التي تتضمن تعيين القاضي قيمياً شرعياً على أملاك الغائب، فقد نصب القاضي أمونة بنت محمد الغزاوي قيمة شرعية على أختها سلمى الغائبة عن القدس منذ خمسة وعشرين سنة، وأذن لها بتعاطي أمور القيامة الشرعية وإيجار حصة دارها وقبض أجرتها وحفظ ذلك لأختها وبلاستنابة عند الحاجة لحين حضور أختها⁽⁸²⁾. ونصب أحمد الدجاني قيمياً شرعياً على أخته نسب الغائبة عن القدس منذ مدة عشرين سنة وأذن له بتعاطي أمور القيامة على أخته وتناول ما يخصها من يد متولي وقف جدها قاسم بيك⁽⁸³⁾.

(79) سجل 374، 26 ذي الحجة 1304هـ/ 1884م، ص 138.

(80) سجل 347، 10 شعبان 1304هـ/ 1884م، ص 95.

(81) سجل 363، غرة محرم 1292هـ/ 1875م، ص 182.

(82) سجل 349، 5 محرم 1282هـ/ 1865م، ص 155.

(83) سجل 346، غرة محرم 1280هـ/ 1863م، ص 295.

ولتحقيق الفائدة من أموال الغائب ، كان القيم الشرعي يقوم بإدانة جزء من مال الغائب لفترة زمنية محددة يتم الاتفاق عليها بين الطرفين ، ويكون ذلك بكفالة شخص ثالث وبموافقة القاضي ، ويُضاف إلى المبلغ المدان ثمن ساعة تُباع صورياً للمدين وذلك على غرار معاملات الدين في أموال القاصرين ، ويكون ثمن الساعة بمثابة فائدة على المبلغ المستدان ، فقد استدان عبد السلام القباني من أحمد أبي الفضل العلمي المنسوب من قبل الشرع الشريف قِيماً على يحيى بن حسين القباني الغائب عن البلاد مبلغاً قدره مائة وست وسبعون قرشاً وتسع عشرة بارة ، وقد آل هذا المبلغ ليحيى إرثاً عن والده بموجب دفتر تركته والموضوع بصندوق الأيتام ، وأقر المدين أنه اشترى من القيم الشرعي ساعة فضة موهوبة من القيم لجهة الغائب بثمن قدره ثمان وأربعون قرشاً لمضي ثلاث سنوات ، وكفل المبلغ مصطفى عمر قاسم المشعشع⁽⁸⁴⁾ . ويظهر من هذه الحجة أن المجموع الكلي للمبلغ هو مائتان وأربعة وعشرون قرشاً وتسع عشرة بارة ، غير أن المبلغ الحقيقي هو مائة وستة وسبعون قرشاً وتسع عشرة بارة ، بينما كان المبلغ الإضافي والبالغ ثمانية وأربعين قرشاً فائدة على الدين ، إذ إن شراء الساعة كان تحايلاً على الفائدة .

وفي حال عجز القيم عن القيام بأمور القيامة الشرعية وإدارتها ، ينصب القاضي قِيماً آخر ، فمثلاً "عين علي القطب قِيماً شرعياً على أبيه الحاج عبد الرحيم الغائب عن القدس غيبة منقطعة ولا يُعرف مكان إقامته ، وأذن له القاضي بتعاطي أمور القيامة الشرعية على أبيه الغائب بدلاً من علي بن الحاج أحمد القطب القيم السابق الذي حضر للمحكمة الشرعية وقرر أمام القاضي بأنه عاجز عن القيامة الشرعية وغير محسن لإدارتها"⁽⁸⁵⁾ .

الإرث والتركات :

يُستدل من عدد التركات المدونة في سجلات المحكمة الشرعية ، على أنه ليست بالضرورة تسجيل كافة تركات المتوفين ومخلفاتهم في المحكمة الشرعية ، وربما اقتصرَت التركات المدونة على التركات التي يقع خلاف بشأنها بين الورثة ، وتركات المتوفين ممن ليس لديهم ورثة .

(84) سجل 374 ، 5 شعبان 1304 هـ / 1884 م ، ص 138 .

(85) سجل 363 ، 16 محرم 1292 هـ / 1875 م ، ص 182 .

وتورد السجلات الشرعية طريقة وعملية ضبط تركة المتوفين ، فتشير الحجة بداية إلى اسم المتوفى ومكاني إقامته ووفاته ثم أسماء الورثة وحصص كل منهم وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، بعد ذلك تذكر أسماء الحضور والوكلاء الشرعيين في حال وجودهم ، ثم تجرى عملية تدوين المخلفات بشئ أنواعها من حيوانات وأثاث ومفروشات ومواد تموينية وأدوات منزلية وملابس ومجوهرات ونقود وعقارات وجوار ، وبعد ذلك يسجل إجمالي مقدار التركة ، ثم يخصم من ذلك المصاريف والرسوم التي تختلف من تركة لأخرى ، وغالباً ما تشتمل على تجهيز وتكفين وبناء قبر ومؤجل صداق الزوجة ورسوم تسجيل التركة وأجرة الدلائل وأجرة عتالين وختمات قراءة على قبر المتوفى ، كما يخصم أيضاً من التركة الديون التي على المتوفى في حال وجودها .

وكان القاضي يرسل من ينوب عنه لحضور ضبط التركات والذي غالباً ما يكون أحد كتّاب المحكمة ، وأحياناً يحضر عملية الضبط من المحكمة المحضر⁽⁸⁶⁾ ، أو المحضر باشي⁽⁸⁷⁾ والجوقدار⁽⁸⁸⁾ ورئيس الدلائل⁽⁸⁹⁾ ويحضر أحياناً مختار المحلة التي يسكن فيها المتوفى⁽⁹⁰⁾ . وفي حال وجود قاصرين من بين الورثة يحضر مدير صندوق الأيتام بالقدس⁽⁹¹⁾ وإذا لم يكن للمتوفى ورثة فيحضر ضبط التركة محاسبجي مالية القدس⁽⁹²⁾ .

ويظهر من خلال ضبط عدد من التركات أنه إذا كانت زوجة المتوفى حاملاً فيعد الحمل على أساس أنه ذكر⁽⁹³⁾ وذلك انطلاقاً من حرص الشريعة الإسلامية على حفظ

(86) سجل 374 ، 17 ذي الحجة 1304هـ / 1886م ، ص 127 .

(87) سجل 374 ، 19 ذي الحجة 1304هـ / 1886م ، ص 129 .

(88) سجل 378 ، 17 ذي الحجة 1306هـ / 1888م ، ص 179 . وكلمة جوقدار تركية الأصل وتعني صاحب الجوخ وهو الأمين على بدلات القاضي الشرعي وثيابه الرسمية . إبراهيم العورة ، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ، صيدا ، مطبعة دير المخلص ، 1936 ، ص 160 .

(89) سجل 374 ، 12 شوال 1307هـ / 1887م ، ص 5 .

(90) سجل 374 ، 17 ذي الحجة 1306هـ / 1884م ، ص 127 .

(91) سجل 374 ، 12 شوال 1307هـ / 1887م ، ص 5 .

(92) سجل 374 ، 28 ذي القعدة 1304هـ / 1882م ، ص 115 .

(93) سجل 374 ، 22 رجب 1304هـ / 1882م ، ص 157 .

حقوق المولود لأن حصّة الذكر مثل حظ الأنثيين ، لذا فإنّ اعتباره أنثى من شأنه أن يؤدي إلى إرباك مالي بين الورثة⁽⁹⁴⁾ . وإذا لم يكن للمتوفى وريث سوى زوجته فتعطى الربع . ويؤخذ الباقي لبيت مال المسلمين⁽⁹⁵⁾ . وإذا كان له ورثة غائبون عن البلاد فتوضع قيمة التركة في صندوق الأيتام يرثها يعود الورثة ليجرى تقسيمها عليهم⁽⁹⁶⁾ . وفي حال ادعاء شخص ما بأن له ديناً على المتوفى دون أن يكون لديه سند يثبت ذلك ، يطلب القاضي منه أو من وكيله حلف اليمين الشرعي على ذلك ، فمثلاً حلف إبراهيم حسين الفلاح اليمين الشرعي بأن لشقيقتيه القاصرتين مبلغ ألف قرش على خالهما المتوفى أسعد حسن البدرية⁽⁹⁷⁾ .

الزواج والطلاق :

(أ) الزواج :

يظهر من خلال تتبع عقود الزواج أن القاضي كان يستقصي شروط الإيجاب والقبول في الزواج وتحديد المهر المعجل والمؤجل ، وتحديد صفة الزوجة هل هي بكر قاصر أم بكر بالغ أم ثيب ، حيث يختلف مهر البكر عن الثيب ، ويوضح ذلك الحجة التالية : "تزوج الشاب الكامل إبراهيم بن حسن ولد إبراهيم بمخطوبته صديقة بنت علي آغا ابن الحاج عبد السلام البكر البالغة على صداق قدره وبيانه خمسمائة قرش مؤجلة لها عليه بذمته لأقرب أحد الأجلين ، زوجها له على ذلك وبذلك والدها علي آغا المذكور بالوكالة الشرعية عنها بشهادة وتعريف السيد يوسف بن محمد عويضة ومحمد زعتره بن موسى زعتره ثبوتاً وتعريقاً شرعيين تزويجاً صحيحاً شرعياً مقبولاً من عبد السلام أبو الفيلات الخليلي الوكيل الشرعي عن الزوج المرقوم حسبها وكله بمجلس العقد القبول الشرعي حرر و سطر غب الطلب بعد الإذن الشرعي بتاريخ السابع والعشرين خلت من شهر ربيع الثاني سنة خمس وثمانين ومايتين وألف"⁽⁹⁸⁾ .

(94) أمين أبو بكر ، قضاء الخليل ، ص 296 .

(95) سجل 379 ، 6 رجب 1308 هـ / 1890 م ، ص 157 .

(96) سجل 374 ، 25 ذي القعدة 1303 هـ / 1881 م ، ص 26 .

(97) سجل 374 ، 25 ذي الحجة 1304 هـ / 1882 م ، ص 128 .

(98) سجل 355 ، 27 ربيع الثاني 1285 هـ / 1883 م ، ص 30 .

كما كان القاضي يشرف على تزويج المرأة التي تزوج نفسها دون وكيل عنها ، فقد حضرت فاطمة بنت محمد أبو تين إلى المحكمة وأشهدت على نفسها أمام القاضي أنها زوجت نفسها إلى إبراهيم بن الشيخ محمد أبو غصن وكلاهما من قرية عين سينيا⁽⁹⁹⁾ على صداق جملته ألف قرش⁽¹⁰⁰⁾ .

ويظهر من خلال الكثير من الدعاوى التي أقامتها الزوجات على أزواجهن أن المهر المعجل كان يدفع بالتقسيط حتى بعد الدخول ، وقد يضطر الزوج لبيع جزء من عقاره ليكمل المهر المعجل لزوجته ، فقد " اشترى الشيخ ماضي بن علي ماضي بالوكالة الشرعية عن الحرمة نفيسة بنت الحاج حسين الحمامي ... من بائعه محمد بن أحمد الكنج زوج المشتري ... وذلك جميع الحصة الشائعة وقدرها قيراطان ... في جميع الدار ... مقاصصاً به من أصل مهرها المعجل التي لها عليه بعد قبضها باقي مهرها المعجل حسب اعتراف وكيلها المشتري المذكور الثمن المعين المقاصص به من معجل المهر المذكور ... " ⁽¹⁰¹⁾ . وفي حال مماطلة الزوج بدفع ذلك تلجأ الزوجة إلى القضاء الشرعي لتقييم عليه دعوى لتطالبه بدفع ما تبقى من مهرها⁽¹⁰²⁾ . وفي حالة قبض مهر الزوجة من قبل والدها وتحلفه عن دفعه لها فإن القاضي يلزمه بدفعه لها ، فقد وكلت آمنة بنت حسن أبي نعمة حماتها الحاج محمد بن إبراهيم العكي في قبض مهرها البالغ إحدى عشرة ليرة فرنساوي من أبيها الذي كان قد تسلمه من زوجها بوكالة منها نظير معجل صداقها⁽¹⁰³⁾ . ويُستدل من هذه الحجة على أنه قد يكون هناك ضغوط مورست من قبل الزوج على زوجته لتطالب والدها بتسليمها مهرها المعجل وربما جاء ذلك نتيجة للظروف الاقتصادية التي تمر بها عائلة الزوج . كما تُفيد هذه الحجة بإعطائنا صورة عن طبيعة المجتمع المقدسي في ذلك الوقت ، إذ إن الآباء غالباً ما كانوا يأخذون المهر المعجل لبناتهم ، وهذا ما لا يتفق والشرعية الإسلامية .

(99) عين سينيا : تقع على مسافة 9 كم شمال شرق مدينة رام الله . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 64 .

(100) سجل 343 ، 15 رمضان 1276 هـ / 1859 م ، ص 110 .

(101) سجل 347 ، 17 صفر 1281 هـ / 1864 م ، ص 343 .

(102) سجل 346 ، أواخر رجب 1279 هـ / 1862 م ، ص 128 .

(103) سجل 374 ، 28 رمضان 1303 هـ / 1881 م ، ص 3 .

كما أن القاضي كان يلزم الأزواج بدفع المهر المعجل إذا ما تأخر الزوج عن دفعه لزوجته ، وفي هذه الحالة كان القاضي يستدعي الزوج لسؤاله عن ذلك ، وفي حال إقراره بذلك متذرعاً بعدم قدرته على دفع المهر المعجل عندئذ يفرض عليه القاضي دفع نفقة وكسوة لزوجته حتى يدخل بها ، فتقول إحدى الحجج إنه "حضرت لمجلس الشرع الشريف نبيهة البكر البالغ ... وادعت على زوجها إسماعيل بن حسين باكير وقالت في دعاها عليه إنه من مدة أربعة أشهر مضت عقد المدعى عليه نكاحه عليها ... وتريد الآن أن يدفع لها مهرها المؤجل ويدخل عليها إن كان قادراً على ذلك أو يرتب لها نفقة تفي بطعامها وشرابها وسائر لوازمها الشرعية إلى أن يدفع لها المهر المعين ... سُئل المدعى عليه فأجاب بأنه الآن غير قادر على دفع المهر فعند ذلك فرض لها الحاكم الشرعي على ذمة زوجها ... في كل يوم تمضي من تاريخه سبعين فضة مصرية نظير نفقتها الشرعية عليه..."⁽¹⁰⁴⁾ . وفي حجة أخرى فرض القاضي ثمانية قروش مناصفة كل يوم على كل من محمد علي وأخيه حسن ولدي محمد صادق النمري اللذين عقدا نكاحهما على كل من خديجة وعلماء ولم يدخلها بهما ولم يدفع لهما مهرهما المعجل ، وذلك نظير نفقة تفي بطعامهما وشرابهما وكسوتهما وأجرة سكنهما⁽¹⁰⁵⁾ .

وتعكس الحجتان السابقتان الظروف الاقتصادية السائدة في ذلك الوقت ، إذ لم يكن بمقدور بعض الأزواج دفع المهور مسبقاً لزوجاتهم ، وقد يكون ذلك إما نتيجة لارتفاع المهور حيث إنها كانت متفاوتة من حالة لأخرى حسب الانتواء العائلي للزوجين وحسب وضع الزوجة ، إذ يختلف مهر الزوجة البكر عن الثيب ، أو نتيجة لتردي الوضع الاقتصادي لعائلة الزوج . ولعل تقدير القاضي لنفقة الزوجة يعطينا صورة عن ظروف المعيشة وتكاليف الحياة اليومية وبالتالي متوسط دخل الفرد ومستويات المعيشة .

(104) سجل 357 ، 21 ذي الحجة 1287 هـ / 1870 م ، ص 389 .

(105) سجل 347 ، 25 محرم 1281 هـ / 1864 م ، ص 312 .

(ب) الطلاق :

كانت عمليات الطلاق تتم بإشراف القاضي الذي غالباً ما يستوضح أسباب الطلاق ودوافعه ، وقد تتم بناءً على رغبة أحد الزوجين في الطلاق من الآخر أمام القاضي ، فقد تطلب الزوجة الطلاق من زوجها لأسباب كثيرة منها عدم أهلية الزوج وعدم القدرة على الدخول بها لكونه عنيئاً ، فمثلاً حضرت محبوبية بنت ياسين بن أحمد إلى المحكمة الشرعية وطلبت من القاضي السماح لها بالطلاق من زوجها أحمد بن ناصر بن منصور مبررة ذلك بقولها : " وقع بيننا خلوات كثيرة صحيحة شرعية بلا مانع فلم يقدر الدخول عليّ وما أزال بكارتي لكونه عنيئاً"⁽¹⁰⁶⁾ . وإذا أنكر الزوج ادعاء زوجته بأن ليس له القدرة على الدخول بها ، ففي مثل هذه الحالة كان القاضي الشرعي يمهلها فترة زمنية ، وإذا أُعيدت الدعوى مرة أخرى من قبل الزوجة بعد انتهاء الفترة المحددة ، عندئذ يطلب القاضي تحليفها اليمين الشرعي على صحة دعواها ، ومن الأمثلة على ذلك الدعوى التي رفعتها عائشة بنت صلاح الدين على زوجها جابر بن بدوي بعد مرور ثماني سنوات على زواجهما والمتضمنة بأنه " لم يطأها ولم تزل بكرًا إلى الآن " ، ولدى سؤال القاضي لزوجها عن ذلك أنكر ذلك وادعى بأنها تمنعه من الدخول بها ولذلك ما زالت بكرًا حتى الآن ، عندئذ أمهلها القاضي مدة سنة وطلب من الزوجة بأن تستقيم في محل زوجها وأن لا تمنع نفسها عنه⁽¹⁰⁷⁾ . وبعد انتهاء السنة المحددة عادت الزوجة وقدمت دعوى على زوجها بالمضمون نفسه ، فطلب منها القاضي أن تحلف اليمين الشرعي على ذلك فحلفت وجرى فسخ عقد نكاحها⁽¹⁰⁸⁾ .

ويذكر السجل الشرعي أنه في بعض الحالات يحلف الزوج على زوجته بالطلاق ثلاثاً على فعل شيء معين أو عدم فعله ، فإذا فعلت عكس ما يطلب الزوج وشهد بذلك شهود

(106) سجل 379 ، 6 رمضان 1308 هـ / 1890 م ، ص 184 . والعين من يعن وهو الذي لا يأتي النساء ولا يشتهيهن . انظر : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، 9 مجلدات ، القاهرة ، دار الحديث ، 2003 ، م 6 ، ص 484 .

(107) سجل 346 ، 15 جمادى الأولى 1279 هـ / 1862 م ، ص 132 .

(108) سجل 347 ، 15 جمادى الثانية 1280 هـ / 1863 م ، ص 88 .

عندئذ يقر القاضي بوقوع الطلاق ثلاثاً ويعرف الزوجة بأنها بانئت من زوجها البينونة الكبرى⁽¹⁰⁹⁾.

وفي حال الطلاق بعد الدخول فإن القاضي يلزم الزوج أن يدفع لزوجته مهرها المؤجل ، وقد يسمح بأن يجري تقسيطه على دفعات ، وفي بعض الأحيان التي لا يتمكن فيها الزوج من دفع المؤجل نقداً فإن القاضي يسمح بدفع ذلك عيناً أو نقداً أو كليهما في آن واحد ، فمثلاً دفع سليم بن محمد بن مسلم من قرية صاطاف⁽¹¹⁰⁾ إلى زوجته آمنة بنت علي بن عبد الله بعد طلاقها مبلغ مائة وعشرة قروش من مؤجل صداقها البالغ مائتي قرش ، وقد دفع من المبلغ المدفوع البالغ مائة وعشرة قروش أربعين قرشاً نقداً وجرة زيت قيمتها سبعون قرشاً⁽¹¹¹⁾.

وإذا طلق الزوج زوجته قبل الدخول بها ، كان القاضي يفرض عليه دفع نصف مهرها المعجل والمؤجل المسمى وقت العقد ، وهذا ما يظهر من الحجة التالية : "بالمجلس الشرعي ... حضر الرجل البالغ الرشيد عبد المعطي بن عثمان الجاعوني وطلق زوجته غير الداخل بها ... من عصمة نكاحه طليقة واحدة بائنة تملك بها نفسها وعندها عرفه جناب مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي أنه يلزمه دفع نصف مهرها المعجل والمؤجل"⁽¹¹²⁾. وفي حجة أخرى طلق إسماعيل بن محمود زيتون زوجته غير الداخل بها طليقة واحدة بائنة ، وأمره القاضي بأن يدفع لها مبلغ سبعماية وخمسين قرشاً وهو نظير نصف مهرها ...⁽¹¹³⁾.

وبالإضافة إلى الطلاق كانت هناك المخالعة ، فالزوجة هي التي تطلب المخالعة من زوجها بنفسها أو بالوكالة ، ويكون ذلك أمام القاضي بعد التعريف بها من قبل شهود وبحضور زوجها أو وكيل عنه ، وبعد المخالعة لا تحل لزوجها إلا بعد عقد نكاح جديد ومهر جديد برضاها⁽¹¹⁴⁾ . وقد تبدي استعدادها للتنازل عن مؤخر صداقها ونفقة عدتها

(109) سجل 346 ، 12 ربيع الآخر ، 1279 هـ / 1862 م ، ص 37 .

(110) قرية صاطاف : تقع إلى الغرب من مدينة القدس . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 160 .

(111) سجل 379 ، 29 رجب 1307 هـ / 1887 م ، ص 36 .

(112) سجل 360 ، 11 شعبان 1288 هـ / 1871 م ، ص 136 .

(113) سجل 379 ، 25 جمادى الأولى 1308 هـ / 1890 م ، ص 145 .

(114) سجل 379 ، 18 ربيع الثاني 1308 هـ / 1890 م ، ص 121 .

وأحياناً الفراش المنزلي ، وهذا ما يظهر من الحجة التالية : " حضرت يوم تاريخه أدناه . . . عجمية بنت عبد الله المعروف بذاتها من الحاج حسين ابن بحر بن محمد والحاج محمد بن عثمان . . . وأقرت . . . أنها أبرأت ذمة زوجها الداخل بها سليمان بن صالح بن سليمان التكروري من مهرها المؤجل وقدره خمسة وعشرون قرشاً وأنها قد سلمته جنيبة بوجه يمني بحشو صوف وبستق بوجه يماني بحشو قطن وطنجرة نحاس صغيرة بعضاً ومنخل قيمتهم خمسون قرش بالمجلس الشرعي على أن يخلعها من عصمة نكاحه فاستلم منها زوجها الأشياء المذكورة وأجابها لذلك وقال مخاطباً لها : خلعتك بمقابلة ذلك من عصمة نكاحي ، ثم بعد ذلك كله أقرت عجمية أنها أبرأت ذمة مطلقها سليمان من نفقة عدتها وأجرة سكنها المقيّد لها عليه بعد الخلع ⁽¹¹⁵⁾ .

وقد يوكل أحد الزوجين من ينوب عنه في المخالعة ، فقد وكل محمد رشيد التلاوي خاله إبراهيم عبد العاطي وكالة مطلقة بأن يخلع زوجته مريم بعد أن تبرئه من معجل ومؤجل صداقها ونفقة عدتها وأجرة سكنها لحين انقضاء عدتها ⁽¹¹⁶⁾ . وكان حسين بن باكير وكيلاً لأمونة بنت إبراهيم ليخلعها من عصمة نكاح زوجها ، وقد أبدت استعدادها بنفقة ولديها القاصرين وإبراء ذمة زوجها من نفقة ولديها لمدة خمس سنوات ومن مهرها المؤجل مقابل خلعها ⁽¹¹⁷⁾ .

وتشير سجلات المحكمة الشرعية إلى أن الزوجة تبدي في بعض الأحيان استعدادها لأن تدفع مبلغاً من المال لزوجها مقابل خلعها من عصمة نكاحه ، فتذكر إحدى الحجج . أن عليّة بنت أحمد بن أبي حسين حضرت إلى المحكمة الشرعية بحضور زوجها شحادة بن عبد الهادي المصاب بداء الجدام ⁽¹¹⁸⁾ واستعدت بأن تدفع له أربع ليرات فرنساوي من مالها تبرعاً منها وأنها تبرئ ذمته من مؤجل صداقها ونفقة عدتها نظير أن يخلعها ⁽¹¹⁹⁾ .

(115) سجل 374 ، 8 محرم 1305 هـ / 1883 م ، ص 134 .

(116) سجل 374 ، 3 صفر 1305 هـ / 1883 م ، ص 140 .

(117) سجل 354 ، أواسط ربيع الأول 1284 هـ / 1867 م ، ص 12 .

(118) داء الجدام : أحد أنواع الأمراض الجلدية .

(119) سجل 378 ، 24 صفر 1307 هـ / 1887 م ، ص 205 .

تحصيل الديون :

كان القاضي ينظر أيضًا في قضايا الديون وتحصيلها ، وقد حفلت السجلات الشرعية بالكثير من الحجج التي تبين انتشار ظاهرة الدين في المجتمع المقدسي ، وتعد هذه الظاهرة أحد أنواع التعامل التجاري بين الأهالي ، ويلاحظ أن الديون كانت في أغلبها ديونًا فردية على شكل قرض حسن والذي يُحدد بموجبه موعد معين لوفاء الدين . وكان الدائن يضمن حقه في سداد دينه بوثيقة تبقى بحوزته قد تكون سندًا أو كميالة مذيلة بإمضاء المدين وعدد من الشهود ، وتتضمن المدة التي يجب على المدين تسديد المبلغ خلالها ، وفي حال تأخره عن ذلك يقوم الدائن برفع دعوى ضد المدين بالمحكمة الشرعية مطالبًا بتحصيل ديونه مبررًا السند أو الكميالة التي بحوزته ، من ذلك إحدى الحجج تُشير إلى ادعاء خليل بن إبراهيم بن يعقوب الرومي على غانم بن خليل بن نخلة اللاتيني وكلاهما من قرية رام الله بأن له بدمته مبلغًا قدره أربعمائة وعشرون قرشًا بطريق الدين الشرعي بموجب سند مؤرخ في الثالث عشر من شعبان عام 1281 هـ / 1864 م⁽¹²⁰⁾ . وتذكر حجة ثانية أن الحاج إبراهيم أبو الولاية استدان من موسى بن عمران الخالدي خمسة آلاف وخمسة وثلاثين قرشًا بطريق القرض الشرعي مؤجلًا سداد المبلغ لحين الطلب وذلك بموجب سندان أحدهما مؤرخ في اليوم التاسع عشر من شهر شوال سنة 1277 هـ / 1860 م ، والثاني مؤرخ في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة 1277 هـ / 1860 م⁽¹²¹⁾ .

وقد يضمن الدائن حقه أيضًا بموجب سندات وبوصلة في آن واحد وتكون البوصلة مذيلة بتوقيع المدين ويظهر ذلك من الحجة التالية : " ... ادعى الحاج عبد الله بن محمد سعيد الحلفاوي على أنطون بن نورس اللاتيني ... قائلًا في تقرير دعواه عليه إنه في غرة شهر ربيع الثاني سنة 1274 هـ قد تحاسب هو وأنطون على ما كان بينهما من الأخذ والعطاء لحد غاية شهر ربيع الأول من السنة المذكورة فكان صح باقي للحاج عبد الله بدمته أنطون

(120) سجل 353 ، 11 شعبان 1283 هـ / 1866 م ، ص 130 .

(121) سجل 344 ، 6 ذي القعدة 1277 هـ / 1860 م ، ص 103 .

مبلغاً قدره سبعة وثلاثون ألفاً ومائتان وسبعة وثلاثون قرشاً أسدياً أقر له مهن أنهم بذمته بطريق الدين الشرعي مؤجلين لمدة سنة كاملة من التاريخ المذكور بموجب ثلاثة سندات محررين بخط وختم أنطون على موجب تحرير الصكوك وبموجب بوصلة أيضاً بخط أنطون المذكور... " (122).

وفي حال اعتراف المدين بقيمة الدين وعجزه عن تسديده، يبلغ القاضي الوالي لإصدار الأمر بتحصيل المبلغ المدين، وهذا ما تبينه الحجة التالية:

"المعروض غب الدعا المفروض

هو أنه قد ثبت لدينا بعد الدعوى الشرعية بذمة عبد الحميد بن عبد الرحيم أبو نبهان من أهالي قرية بيتين⁽¹²³⁾ مبلغ قدره خمسمائة قرش أسدي صاغ ميري إلى عيسى أبو ظاهر ولد موسى ظاهر من أهالي القرية المزبورة... وذلك كله حسب إقرار واعتراف عبد الحميد المرقوم بذلك، اقتضى عرضه لسعادتك لكي يصدر الأمر بتحصيل مبلغ الخمسمائة قرش المرقومة من عبد الحميد المزبور حسب إقراره ودفعه إلى عيسى المرقوم إيجاباً للشرع الشريف.

الداعي قاضي قدس شريف" (124).

وفي حال رفض المدين دفع ما عليه من دين يأمر القاضي بسجنه لفترة محددة، وبعد ذلك يطرح ما لديه من ممتلكات منقولة بالمزاد العلني لوفاء دينه، وإذا لم يوجد لديه منقول يُباع، يمنحه القاضي الشرعي مهلة زمنية يقسّط خلالها المبلغ من ناتج ما لديه من عقارات غير منقولة، وإذا تعنت في ذلك يلجأ لطرح أمواله غير المنقولة بالمزاد العلني ويجري بيعها لمن يدفع سعراً أعلى، وإذا زاد شيء من ثمنها يُعاد للدائن، ووضحت إحدى الحجج ذلك حيث أصدرت محكمة التمييز بالقدس حكماً على خليل غبريل البرامكي بدفع ستة آلاف وأربعمائة وخمسة وثمانين قرشاً ونصف وربع قرش لدائنه افثيموس بن حنا فرح الرومي، ولما لم يلتزم بذلك ورفض دفع المبلغ تم سجنه "المدة الشرعية

(122) سجل 345، 17 ذي الحجة 1278هـ/ 1861م، ص 111.

(123) قرية بيتين: تقع شمال شرق مدينة رام الله على بعد نحو 3 كم. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 349-350.

(124) سجل 353، 25 ذي القعدة 1283هـ/ 1866م، ص 184.

والنظامية"، ونظرًا لعدم وجود منقول ظاهر له يُباع في وفاء دينه فقد عرض القاضي تقسيط المبلغ لمدة ثلاث سنوات على أن يدفعه من ناتج عقاره، غير أنه رفض ذلك، عندئذ أصدر القاضي الشرعي أمرًا بطرح ثلاثة قرارات ونصف من حصته بقطعة أرض "في محل الرغبات ومواطن الزيادات لأجل بيع ذلك لمن يرغب... وحيث الآن قد انتهت مدة المزاودة وتقرر ثمن كل قيراط بمعرفة دلال باشي القدس عبد الله قطينة على يوحنا هرش ولم يوجد راغب بدفع زيادة عن ذلك، حضر كل من الدائن والمدين ويوحنا الراغب بالشراء للمجلس الشرعي المعقود بمجلس تمييز الحقوق وغب تكليف المدين من بيع الحصة المزاودة عليها للراغب لأجل وفاء ما عليه من الدين فلم يقبل ببيع ذلك عنادًا فحينئذ بحضوره باع جناب سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي في واجب ما ذكر بيعًا بآثًا ناجزًا للخواجة يوحنا... وأمر مولانا المشتري المذكور بدفع الزائد من الثمن عن الدين إلى المدين...⁽¹²⁵⁾.

وتذكر حجة أخرى أن الحاج يوسف القندوس استدان أحد عشر ألفًا وأربعمائة قرش من داود ابن بخورسوسين الموسوي، وأعلن إفلاسه من قبل القومسيون التجاري، ورفض بيع ما لديه من عقار غير منقول لتسديد المبلغ، عندئذ طرح القاضي حصة المدين في الدار التي يسكن فيها للدائن داود ابن بخور حيث "اشترى من جنابه بما له لنفسه وباعه مولانا الحاكم الشرعي بيعًا بآثًا ناجزًا ما هو جارٍ في ملك الحاج يوسف القندوس وتحت طلق تصرفه وحيازته الشرعية نظرًا لتعنده وآيل إليه ذلك بطريق الشراء والإحداث والإنشاء حسب تصرفه القديم... وذلك لوجود المسوغ الشرعي الداعي لبيع الحصة المذكورة في الدار الآتي ذكرها وهو لوفاء الدين الشرعي الذي بذمه الحاج يوسف إلى المشتري داود ولعدم دفع الدين المرقوم وتعنده عن بيع ذلك بقدر الدين المرقوم وله ولاية بيعه والمقاصصة بالثمن المرقوم...⁽¹²⁶⁾.

وفي حال وفاة المدين قبل أن يسدد ما عليه من ديون، يعتمد القاضي الشرعي إلى طرح كل أو جزء من عقاره للبيع، ويعطي الدائن حق الأولوية في شراء العقار، ومن

(125) سجل 361، 15 ذي الحجة 1289 هـ / 1872 م، ص 12.

(126) سجل 360، 29 ربيع الثاني 1288 هـ / 1871 م، ص 62-63.

الأمثلة على ذلك: "باع جناب سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي إلى السيد محمد ابن السيد داود الصالحاني بيعاً باتاً ما هو مخلف له عن المرحوم السيد علي الرملاوي وذلك في واجب الدين الذي إلى المشتري محمد الصالحاني المذكور الثابت له بذمة المتوفى المرقوم بموجب دفتر تركته ... وذلك جميع الحصة الشائعة ... بضمن قدره وبيانه ... تقاصص به المشتري المرقوم من نفسه بنظر دينه المزبور ..."⁽¹²⁷⁾ . وقد تُباع حصة المتوفى لشخص آخر ، فقد "باع الحاكم الشرعي إلى السيد مصطفى قرش في واجب ما ثبت بذمة المرحوم السيد عثمان بن موسى بن عبد رب النبي من الديون لأربابها المسطرة أسماؤهم بدفتر تركته ... وذلك لعدم وجود منقول يُباع في مثل شأن ذلك ... وذلك جميع الحصة الشائعة..."⁽¹²⁸⁾ .

وتؤكد حجة أخرى "باع مولانا الحاكم الشرعي بيعاً باتاً ما هو مخلف عن المرحوم الحاج إبراهيم بن محمد حجازي الرمي من تركته لأرباب الديون المسطرة أسماؤهم في دفتر قسمته إلى جناب السيد إبراهيم أفندي الموقت بعد نزوله في سوق المزااد ... واشترى السيد إبراهيم الموقت لنفسه ... من جناب مولانا الحاكم الشرعي بعد إجراء النظامات السنوية الصادرة في هذا البيع الآتي ذكره ... ولمولانا الحاكم الشرعي ولاية بيعه وقبض ثمنه وتوزيعه لأرباب الديون فباعه بيعاً باتاً جميع الحصة الشائعة ... بضمن قدره وبيانه ... ثمناً حالاً مقبوضاً بيد مولانا الحاكم الشرعي ... وأضاف جناب الحاكم الشرعي المبلغ المذكور ثمن الحصة المرقوم على دفتر تركته المتوفى المرقوم بموجب دفتر قسمته ... لأجل توزيعه مع ثمن متروكاته ..." ⁽¹²⁹⁾ .

وتوضح الحجة التالية طريقة طرح أملاك متوفى مدين بالمزاد العلني من قبل القاضي الشرعي والفترة الزمنية للمزاد ، ومن ثم بيعها لمن يدفع سعراً أعلى بعد إعطاء حق الأولوية للورثة لشرائها ، وما يزيد من ثمن المبيع بعد تسديد الديون يقسم على الورثة :

(127) سجل 349 ، أواخر شعبان 1281 هـ / 1864 م ، ص 74 .

(128) سجل 353 ، أواخر رمضان 1283 هـ / 1866 م ، ص 166 .

(129) سجل 343 ، 3 رجب 1276 هـ / 1859 م ، ص 46 .

"بعد إجراء النظامات السنية وبعد انتهاء النداء على ثلثي الدار الآتي ذكرها المخلف ذلك عن المرحوم الحاج عثمان بن حسن غنيم وذلك في محل الرغبات ومواطن الزيادات مدة تزيد على أربعة أشهر بموجب الإعلام الشرعي المتقدم بحق المبيع الآتي ذكره فما أحد رغب بشراء ذلك سوى المشتري الآتي ذكره وغب أن عرض ذلك على ورثة المتوفى فما قبلوا بشراء ذلك فعند ذلك كله وغب ثبوت مصوغاته الشرعية فقد باع جناب سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي بيعاً باتاً ما هو مخلف عن المتوفى وذلك في واجب ما ثبت بذمته من الديون لأربابها ... ولعدم وجود منقولات تباع في مثل شأن ذلك ... وذلك جميع الحصة الشائعة ... من جميع الدار ... بضمن قدره وبيانه ... ثمناً حالاً مضافاً لركة المتوفى وتقاصص المشتري بدينه الثابت له بذمة المتوفى ... المقاصصة الشرعية والباقي وقدره ... مقبوض بيد مولانا الحاكم الشرعي من يد المشتري ومضاف لجملة الركة ... " (130).

تسجيل الأراضي :

كان تسجيل العقارات والأراضي قبل إعلان نظام الطابو عام 1278هـ / 1861م يتم في المحكمة الشرعية ، ثم نقلت صلاحية تسجيل الأراضي وبيعها إلى دائرة الطابو مع احتفاظ المحاكم الشرعية بحق إجراء بيع الغراس ، فإذا تمت عملية بيع غراس وفراغ أرض في آن واحد تجري عملية بيع الغراس في المحكمة الشرعية وتحويل عملية فراغ الأرض لدائرة الطابو (131) . وعلى الرغم من ذلك استمر الأهالي في تسجيل عقود بيع العقارات والأراضي في المحكمة الشرعية ، غير أنهم كانوا يقومون بتسجيل الأملاك في دائرة الطابو أولاً ثم يحضرون قوشان حجة من دائرة الطابو وبعد ذلك يجري كاتب المحكمة حجة استحكام للمالك تحمل رقم القوشان وتاريخه ، ويفسر بعض المؤرخين حرص الأهالي على تسجيل أملاكهم في المحكمة الشرعية بتعودهم على النظام القديم وصعوبة التأقلم مع النظم الجديدة (132) .

(130) سجل 345 ، غرة محرم 1279هـ / 1862م ، ص 116 .

(131) عوض ، الإدارة العثمانية ، ص 115 .

(132) المرجع نفسه ، ص 115 .

واشتملت الأراضي المملوكة على الحواكير والبساتين والجنائن والكروم والعرصات⁽¹³³⁾، ويحق لصاحبها أن يتصرف بها بالبيع والرهن والإيجار والقسمة والإرث، ويجري ذلك كله بإشراف القاضي الشرعي، فقد اشترى صالح الحسيني من محمود بن مصطفى سمرين "جميع قطعة الأرض الواقعة بأرض قلونية المشتملة على أربعة أشجار زيتون... ومقدار تحريرها ثمانية قراريط ونصف من دونم وجميع قطعة الأرض... المشتملة على إحدى وعشرين شجرة زيتون وشجرة تين ومقدار تحريرها خمسة عشر قيراطاً من دونم... بثمان قدره وبيانه ألف وثلثمائة قرش أسدي صاغ ميري..."⁽¹³⁴⁾.
وباع كل من محمد وأحمد ولدي أحمد بن محمد الأقرع من عرب العبيدية جميع الحصة الشائعة وقدرها الثلث ثمانية قراريط في جميع العرصه الواقعة داخل قرية ابن عبيد⁽¹³⁵⁾ وجميع الحصة الشائعة وقدرها السدس أربعة قراريط في جميع العرصه الواقعة بالجهة نفسها⁽¹³⁶⁾.

وجرت على الأراضي المملوكة معاملات الرهن مقابل مبلغ محدد من المال فترة زمنية يتم الاتفاق عليها بين الراهن والمرتهن، وتتضمن عملية رهن العقار نقل حقوق الملكية وحق التصرف بموجب قوشان الطابو للمستترهن طوال فترة الرهن، فتذكر إحدى الحجج أن خليل بن محمد خليل المالحى من باب حطة رهن جميع حصته البالغة عشرة قراريط ونصف قيراط في جميع الدار الكائنة في باب حطة بمبلغ قدره ستون ذهب ليرة فرنساوي لمضي سنة⁽¹³⁷⁾.

(133) العرصه: هي الأراضي الموجودة ضمن القرى والقصبات وما جاورها من الأراضي وتكون مخصصة للسكن، وتعد من أصناف الأراضي المملوكة، وحدد قانون الأراضي العثماني مساحتها بنصف دونم. انظر: دعبس المر، أحكام الأراضي المنفصلة عن السلطنة العثمانية، جزآن، القدس، مطبعة بيت المقدس، 1923، ج1، ص9.

(134) سجل 344، نصف رجب 1273هـ/ 1856م، ص79.

(135) قرية ابن عبيد: قرية جنوب شرق القدس، ينحدر سكانها من عرب ابن عبيد المنحدرين من قبائل الردايدة والدويرية والعساوسة. الدباغ، ج8، ق2، ص507-510.

(136) سجل 383، 20 محرم 1313هـ/ 1895م، ص39.

(137) سجل 374، 19 ربيع الثاني 1304هـ/ 1884م، ص72.

وأجازت المادة (757) من مجلة الأحكام العدلية للمستترهين بإذن من القاضي بيع المرهون في حال تخلف الراهن عن دفع المبلغ المدين عند انتهاء مدة الرهن ، فقد جاء فيها : "إذا حل أجل الدين وامتنع الراهن عن أدائه فالحاكم يأمر ببيع الرهن وأداء الدين ، فإن أبى وعاند باعه الحاكم وأدى الدين"⁽¹³⁸⁾ . ويؤكد ذلك الحجة التالية وفيها أن حسين غزالة استدان من محمد كمال مبلغ خمس وسبعين ليرة فرنساوي مقابل رهن حصته البالغة ثلاثة قراريط في دار بمحلة باب حطة وذلك لمضي سنة كاملة ، غير أن الراهن لم يسدد المبلغ عند انتهاء أجل الدين فطرح المسترهن الحصة المرهونة للبيع بالمزاد العلني لمدة شهرين ونصف ، وبلغ أعلى سعر لها سبعا وخمسين ليرة فرنساوي ، وبعد التشويق والترغيب من قبل القاضي الشرعي ارتفع سعرها إلى خمس وستين ليرة فرنساوي فباعها القاضي بالمبلغ المذكور للشيخ عبد الله الدنف ، وشهد أهل الخبرة والمعرفة أن هذا الثمن هو قيمة مثلها وقت البيع ، واستند القاضي في ذلك إلى فتويين شرعيتين إحداهما من الشيخ محمد الدجاني مفتي يافا والأخرى من الشيخ خليل التميمي مفتي الخليل ومضمونها أنه يحق للقاضي سد الدين ببيع المرهون حسب سعره في "مدة الأوقات غب المزادة وانتفاء الرغبات ولا ينظر لأصل القيمة بل العبرة بالقيمة وقت البيع لأن الأسعار تتغير ... ولو نظر لأصل القيمة لتضرر رب الدين بتأخير حقه الثابت شرعاً وهو ممنوع قطعاً"⁽¹³⁹⁾ .

ويلاحظ في بعض الحالات التي لم يسدد فيها الراهن المبلغ المستدان عند نهاية المدة المتفق عليها ، أنه يتدخل المصلحون بين الطرفين ويتم الاتفاق على استئجار المسترهن الحصة المرهونة بقيمة المبلغ المستدان لفترة زمنية متفق عليها ، فقد أरهن خليل بن إبراهيم الدقاق قيراطين من حصته البالغة أربعة قراريط ومئس قيراط في الدار المشتركة بينه وبين عمر الدقاق للحاخام يوسف ماندل اليهودي مقابل مبلغ ألفي قرش أسدي بموجب سندي أحدهما مؤرخ في 22 جمادى الآخرة 1276هـ / 1859م والثاني مؤرخ في 23 جمادى

(138) سليم رستم باز اللبناني ، شرح المجلة ، جزآن ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج 1 ، ص 409 .

(139) سجل 353 ، 19 محرم 1284هـ / 1867م ، ص 253 .

الآخرة 1277هـ/ 1860م ، وبعد وفاة الراهن طالب المسترهن ببيع الحصة المرهونة ، فتوسط المصلحون بين المسترهن وورثة الراهن وتم الاتفاق على أن يستأجر المسترهن جميع الحصة التي تخص الراهن في الدار والبالغة أربعة قراريط وخمس القيراط لمدة ست سنوات بقيمة المبلغ المستدان على أن يدفع المسترهن ثمانين قرشاً سنوياً وهي تكملة الإيجار⁽¹⁴⁰⁾ .

وفي حال اعتراف المسترهن بوجود فائدة على المبلغ المستدان فلا يجوز له المطالبة بذلك، فتذكر إحدى الحجج أن أنطوني ابن الخواجة بطرس الرومي أداّن عبد الرحمن بن عقل عثمان مبلغاً قدره ألفان ومائتان وخمسة عشر قرشاً كان منها خمس وأربعون قرشاً سلمًا على ثلاثين رطل عنب والباقي نقدًا ، وجعل له ربحاً على ذلك عشرين جرة زيت ، وأجل المبلغ على عبد الرحمن لمضي سنتين ، ومقابل ذلك أرهن عبد الرحمن لدائنه أنطون أربعة قراريط في إحدى القطع التي يمتلكها في قرية بيت حنينا ، وبعد وفاة عبد الرحمن قدم أنطوني دعوى للمحكمة الشرعية على ورثة عبد الرحمن مطالباً فيها استرجاع الدين ، فحكم القاضي الشرعي بعد استماعه لشهادة الشهود الذين أحضرهم أنطوني باسترجاعه ديونه باستثناء العشرين جرة زيت لاعترافه بأنها ربح على المبلغ المستدان⁽¹⁴¹⁾ .

ومن حق صاحب العقار تأجير عقاره ، ويتم ذلك بالمحكمة الشرعية أمام القاضي ، فمثلاً أجّر مصطفى بن سالم عثمان من قرية ارطاس⁽¹⁴²⁾ حصته البالغة سهمين من أصل ثمانية عشر سهماً في أرض الجورة خارج القرية لعبد الله بن عايش محمود بمبلغ مقداره ربع ليرة فرنساوي سنوياً⁽¹⁴³⁾ .

(140) سجل 345 ، 25 شوال 1278هـ/ 1861م ، ص 91 .

(141) سجل 362 ، 5 جمادى الأولى 1292هـ/ 1875م ، ص 77 .

(142) قرية ارطاس : تقع قرب مدينة بيت لحم من الجنوب ، وتشتهر بالعيون والينابيع التي جعلت منها جنة خضراء قبل انتهائها في برك سليمان . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 480-481 .

(143) سجل 382 ، أواخر ذي القعدة 1308هـ/ 1890م ، ص 86 .

وينبغي أن يتم تأجير العقارات وإصلاح ما فيها من أبنية قديمة وإنفاق الطرفين على ذلك في المحكمة وبإشراف القاضي ، فقد يتعهد شخص ما بإصلاح وتعمير ما في الأرض من بناء خرب مقابل استئجارها لفترة معينة ويخصم ما أنفقه في ذلك من قيمة الإيجار ، فقد ذكرت إحدى الحجج أن بطريك الروم نقولا ديوس ديمتري اتفق مع الخواجة جورجى بترو الرومى أن يقوم الأخير بإصلاح وتعمير الأبنية القائمة بالأرض الكائنة بالقرب من دير مار سابا بالقرب من باب الخليل العائدة لوقف فقراء رهبان الروم ، وبعد الانتهاء من ذلك يعهد له باستئجارها مقابل المبلغ الذي دفعه في تعمير الأبنية ، وتبين فيما بعد أن ما أنفقه الخواجة جورجى في عملية التعمير كان تسعماية ليرة فرنساوي ، عندئذ أبرم بين الطرفين عقد إيجار للأرض لمدة عشرين عامًا بأجرة مقدارها ستون ليرة فرنساوي سنويًا ، واتفق أيضًا بأن يقوم المستأجر بتعمير ما يلزم له من تعمير طوال مدة الإعمار على حسابه الخاص دون أن يخصم ذلك من أجرة الأرض وأن يغرس الأرض بأشجار مختلفة ، وبعد انتهاء مدة الإيجار يتم تسليم الأرض وما عليها من أبنية وأشجار للبطريك⁽¹⁴⁴⁾ .

وكان من مهام القاضي التأكد من توفر الشروط في عقد الإيجار ، ويشترط في الإيجار عدم الشيوع وتحديد مدة الإيجار ، وخلاف ذلك يعد عقد الإيجار فاسدًا ، فعلى سبيل المثال ادعى خليل بن محمد حامد من قرية عين كارم على محمد بن إبراهيم حامد من القرية نفسها بأن المدعى عليه استأجر منه أربعة قراريط في البد⁽¹⁴⁵⁾ الواقع بالقرية طوال مدة الزيتية مقابل أجرة مقدارها أربع جرار زيت وأن المدعى عليه "يعارضه الآن في ذلك بغير وجه حق" ، ولدى سؤال القاضي للمدعى عليه أجاب بإنكار ذلك كله ، "فعندها عرف مولانا الحاكم الشرعي المشار إليه المدعى المرقوم أن الإيجار المزبور على فرض اعتراف المؤجر له فهو فاسد شرعًا لوجهين ، الأول لجهالة مدة الإيجار والثاني للشيوع"⁽¹⁴⁶⁾ .

(144) سجل 378 ، 5 شعبان 1306 هـ / 1888 م ، ص 147 .

(145) البد : هو المكان المخصص لدرس الزيتون .

(146) سجل 349 ، 29 رجب 1281 هـ / 1864 م ، ص 69 .

كذلك كان القاضي يشرف على قسمة العقارات المشاعة المشتركة الملكية . ومن حق أحد الشركاء في العقار المطالبة بإفراز حصته⁽¹⁴⁷⁾ ، ومن الأمثلة على ذلك إجراء المقاسمة الشرعية بين ورثة الحاج أحمد بن حسين أبو قطيش من قرية العنب⁽¹⁴⁸⁾ على كل ما هو مخلف عنه بين ولديه إبراهيم ومحمد⁽¹⁴⁹⁾ ، وقسمت حاكورة عبد الفتاح حجيج بمحلة النصارى المشتركة بين وقف فقراء رهبان الروم ويخضع عشرون قيراطاً وجزء من أحد عشر جزءاً من القيراط وتعادل أربعماية واثنين وعشرين سهماً من أصل أربعماية وستين سهماً والخواجة حنا فروتكر مدير شعبة البنك العثماني بالقدس ويخضع الباقي ، وقد تمت القسمة بعد أن أرسل القاضي لجنة من أهل الخبرة والمعرفة كان من بين أعضائها الخواجة جريس بن سليمان جوهريّة والخواجة حاي بن إفرام ابن الحاخام مورينو الموسوي حيث وجدوا بأن الحاكورة قابلة للقسمة شرعاً ولا يوجد بقسمتها حيفٌ أو عذرٌ على أحد، وبناءً على توصية اللجنة قسمت الحاكورة إلى قطعتين إحداهما غربية ومساحتها عشرون قيراطاً وجزءان من أحد عشر جزءاً من القيراط والثانية شرقية ومساحتها ثلاثة قراريط وتسعة أجزاء من أحد عشر جزءاً من القيراط⁽¹⁵⁰⁾ .

(147) تعرف القسمة بأنها : "تعيين الحصص الشائعة بإفراز الحصص بعضها عن بعض بقياس ما ، وهي نوعان : قسمة جمع وتتم بجمع حصص كل شريك أو أكثر ، أو قسمة تفريق كقسمة أرض بين اثنين . وتقسم أيضاً إلى قسمة رضا وقسمة قضا ؛ فالأولى تتم باتفاق كافة الشركاء ، أما الثانية فبحكم القاضي " . انظر : دعبس المر ، أحكام الأراضي ، ج 1 ، ص 81 .

(148) قرية العنب : تقع على مسافة 13 كم غرب مدينة القدس بانحراف قليل إلى الشمال . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 113 .

(149) سجل 349 ، 25 رجب 1281هـ / 1894م ، ص 69 .

(150) سجل 378 ، 25 ذي الحجة 1306هـ / 1888م ، ص 182 .

وإذا لم يكن العقار قابلاً للقسمة والإفراز بين أصحاب العلاقة ، يجري القاضي المهايأة الشرعية⁽¹⁵¹⁾ على ذلك حتى يتمكن المشتركون في العقار من التصرف والانتفاع ، وفي مثل هذه الحالة يجري تقسيم المنفعة مع بقاء العين مشتركة . وتتم عملية المهايأة بأن يكلف القاضي بناءً على طلب أحد الشريكين لجنة تتكون من أحد كتبة المحكمة ممثلاً عن المحكمة الشرعية وأعضاء آخرين ممن لديهم الخبرة في مجال الهندسة والبناء للكشف على العقار ، ومعرفة ما إذا كان قابلاً للقسمة أم لا ، فإذا تبين أنه غير قابل للقسمة توصي اللجنة بإجراء القرعة الشرعية على حق الانتفاع بين الشريكين سواء أكان ذلك زماناً أم مكاناً ، ومن الأمثلة على ذلك الطلب الذي تقدم به الحاج عبد الله بن علي بن سعيد الكلوتة للمحكمة بإجراء المهايأة الشرعية على الدار المشتركة بينه وبين صفية بنت قاسم عويضة وابنتها زينب بنت مصطفى بن أحمد الحلوة الواقعة بمحلة باب حطة ، وكانت حصته في الدار عشرة قراريط بينما كانت حصه زينب أحد عشر قيراطاً وكانت حصه ابنتها ثلاثة قراريط ، فأرسل القاضي لجنة للكشف على الدار مكونة من محمد خورشيد الشهابي أحد كتبة المحكمة رئيساً وحامد البنا مهندس الحرم ، وبعد الكشف تبين أن الدار غير قابلة للقسمة ، عندئذ أمر القاضي بإجراء المهايأة الشرعية على الدار بين الأطراف الثلاثة كل حسب حصته⁽¹⁵²⁾ .

وأجريت القرعة الشرعية بالمهايأة عن الدار المشتركة بين محمد حسين آغا الإسلامبولي وعمه إبراهيم حيث كان يمتلك كل منهما النصف ، وذلك بعد أن أرسل القاضي لجنة للكشف على الدار بناءً على طلب محمد حسين لقسمتها وإفرازها نصفين ، ولما تبين أن الدار غير قابلة للقسمة أجرى القاضي القرعة بينهما على السكن فيها لمدة سنة لكل منهما مداورة⁽¹⁵³⁾ .

(151) تتخذ المهايأة شكلين هما : المهايأة زماناً وهي أن يتنفع أحد الشريكين بالعين مدة من الزمن ثم يتسلمها غيره فيتنفع بها المدة نفسها ثم يعيدها للآخر كأن يكون لهما حقل يتفقان على أن يزرعه الأول سنة والآخر سنة أخرى . أما الشكل الآخر من المهايأة فهو المهايأة مكاناً وهي أن يتنفع كل منهما يقسم من العين كأن يزرع الأول نصف الحقل والآخر النصف الآخر مع بقاء الحقل مشتركاً بينهما . انظر : المر ، أحكام الأراضي ، ج 1 ، ص 84-85 .

(152) سجل 379 ، 8 رجب 1308 هـ / 1890 م ، ص 157 .

(153) سجل 346 ، غرة محرم 1280 هـ / 1863 م ، ص 318 .

وقد تجرى المهايأة على قبض أجرة الدار المشتركة كل حسب حصته ، تُشير إحدى الحجج إلى وقوع خلاف بين كل من الشقيقين مصطفى ومحمد ولدي عبد القادر بن مصطفى عبد اللطيف وعمهما صالح حول تقاضي أجرة الدار المشتركة بينهم ، فقد كانت حصة الشقيقين في الدار ثمانية قراريط والحصة الباقية البالغة أربعة عشر قراريطاً لعمهما ، ولما كانت الدار غير قابلة للقسمة طلب الطرفان من القاضي إجراء المهايأة الشرعية بينهم لمدة سنتين على قدر حصصهم ، فأجريت القرعة الشرعية أمام القاضي وكانت الأجرة في الفترة الأولى إلى محمد حيث يتقاضى أجرة أربعة أشهر ، والفترة الثانية البالغة أربعة أشهر أيضاً تكون أجرة الدار لشقيقه مصطفى ، أما الفترة الثالثة ومدتها ستة عشر شهراً فتكون الأجرة فيها لعمهما صالح وهكذا في كل دور⁽¹⁵⁴⁾ .

وقد يتفق الشركاء على إجراء المهايأة الشرعية على عقار مشترك قابل للقسمة والإفراز، وفي مثل هذه الحالة يحق لأحدهما المطالبة بقسمة العقار قبل انتهاء مدة المهايأة ، فعلى سبيل المثال طالب بطريك اللاتين ميلاتيوس الذي يمتلك حصة مقدارها عشرة قراريط ونصف في دار مشتركة مع عطا الله كتن ووالدته اللذين كانا يمتلكان ثلاثة عشر قراريطاً ونصفاً بتقسيم الدار قسمة إفراز بين الشركاء الثلاث ، غير أن عطا الله ووالدته رفضا ذلك وتعللا "بأنه لا يصح قسمتها حيث صدر بينهم مقدماً مهايأة على الدار المذكورة وأن القسمة لا تصح إلا بعد انتهاء مدة المهايأة وتعلل بتعللات غير مسموعة شرعاً ، فلما تأمل مولانا الحاكم الشرعي كلام الطرفين واتضح عنده صحة القسمة مع وجود المهايأة أذن لجناب كتخدائه⁽¹⁵⁵⁾ صاحب المكرمة الحاج رجب أفندي بالتوجه إلى الدار والحكم بقسمتها ... وغب الكشف عليها ... فوجدوا أن الدار قابلة للقسمة وليس بقسمتها غدر ولا حيف على الشركاء وقسموها ثلاثة أقسام كل قسمة بمقدار قراريطها ... وشهد أهل الكشف أن هذه القسمة هي قسمة عادلة بين الشركاء"⁽¹⁵⁶⁾ .

(154) سجل 349 ، أواخر محرم 1282هـ/ 1865م ، ص 176 .

(155) الكتخدا : هي كلمة تركية محورة من الأصل الفارسي كتخدنا ، وتعني سيد البيت ، ويقصد بها هنا وكيل القاضي . انظر : يوسف جميل نعيمة ، مجتمع مدينة دمشق 1772-1840م ، جزآن ، دمشق ، طلاس للدراسات والنشر ، 1986 ، ج 1 ، ص 216 .

(156) سجل 347 ، غرة ربيع الأول 1280هـ/ 1863م ، ص 21 .

وكان من مهام القاضي النظر في القضايا التي يرفعها الفلاحون على الإقطاعيين والزعماء المحليين الذين اغتصبوا حقهم بالتصرف في الأراضي الأميرية، وقد أوردت سجلات المحكمة الشرعية العديد من القضايا التي رفعها الفلاحون على الإقطاعيين والزعماء المحليين الذين اغتصبوا حقوق التصرف لهم بالأراضي الأميرية بالقوة قبل صدور قانون الأراضي العثماني عام 1273 هـ/ 1856 م، ووفقاً لأحكام التصرف تمكن هؤلاء الفلاحون من استعادة حقوقهم بالتصرف بتلك الأراضي، ففي عام 1284 هـ/ 1867 م عرض على المحكمة الشرعية بالقدس الخلاف الواقع بين أبناء إبراهيم أبو غوش من جهة ومزارعين من سبعة قرى هي بيت سوريك⁽¹⁵⁷⁾ وبدو⁽¹⁵⁸⁾ وبيت عور الفوقا⁽¹⁵⁹⁾ والطيرة⁽¹⁶⁰⁾ والقيبية⁽¹⁶¹⁾ وبيت عنان⁽¹⁶²⁾ وبيت دقو⁽¹⁶³⁾ الواقعة في ناحية بني مالك⁽¹⁶⁴⁾ من جهة أخرى حول مزارعة خربة سليبت⁽¹⁶⁵⁾ البالغة مساحتها نحو (3060) دونماً. وبعد أن استمع القاضي لوجهة نظر الطرفين شكل لجنة تكونت من

(157) قرية بيت سوريك: تقع شمال غرب القدس حيث تشرف على الطريق التي تربط القدس مع السهل الساحلي. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 106.

(158) قرية بدو: تقع شمال غرب القدس. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 97.

(159) قرية بيت عور الفوقا: تقع غرب رام الله بانحراف قليل نحو الجنوب. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 368.

(160) قرية الطيرة: تقع غرب رام الله بانحراف قليل نحو الجنوب. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 382.

(161) قرية القيبية: تقع على مسافة 15 كم شمال غرب مدينة القدس. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 64.

(162) قرية بيت عنان: تقع شمال غرب القدس. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 81.

(163) قرية بيت دقو: تقع إلى الشمال من القدس على بعد نحو 5 أميال. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 65.

(164) ناحية بني مالك: إحدى نواحي جبل القدس وكان يتزعمها عائلة أبو غوش التي تتخذ من قرية العنب (أبو غوش) مقراً لها، وقد تضمنت 26 قرية وخربة وهي: العنب، بيت سوريك، قطن، بيت لقيا، القيبية، صوبا، بيت عنان، بيت دقو، عجنجول، بيت عور التحتا، بيت عور الفوقا، بدو، بيت سيرا، بيت اجزا، خربا بني حارث، سليبت، دير يامين، الطيرة، خربة سليبت، قلونية، ساريس، لفنا، بيت نقوبة، بيت محسير، القسطل، يالو، خربة الجردة، خربا المصباح. انظر: أمين أبو بكر، ملكية الأراضي في متصرفية القدس 1858-1918، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، 1996، ص 242.

(165) خربة سليبت: تقع إلى الجنوب الشرقي من الرملة على مسافة 4 كم. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 529.

عدد من المسؤولين أو ممثلهم الذين لهم علاقة بقضايا الأرض مثل الوالي ومأمور الطابو للكشف عن موقع الخربة والاستماع لشهود من القرى المجاورة للخربة ، وتشكلت اللجنة من كل من يوسف آغا جاويش ممثلاً عن الوالي ومحاسبجي الخزينة باعتبارهما وكيلين عن الأراضي الأميرية ، ومحمد يس الخالدي أحد كتبة المحكمة الشرعية ممثلاً عن القاضي ، ومحبي الدين الحسيني مأمور الطابو ، وبعد الكشف والاستماع لشهادة الشهود الذين أحضرهم المدعون في القرى المحيطة⁽¹⁶⁶⁾ شهد الجميع أمام اللجنة بأن أرض الخربة هي بتصرف عطا الله أحمد ومصطفى عليان ومحمد جبر الأصلاء والوكلاء وموكليهم من القرى السبعة على النحو الآتي :

الموقع	المساحة بالقراريط	اسم المتصرف
قطع الأراضي الغربية الشمالية	6	أهالي بيت سوريك
قطع الأراضي الغربية القبلية	6	أهالي بدو
جزء من القسم الشرقي	6	أهالي بيت عور الفوقا والطيرة والقييبة وعائلة ربيع في قرية بيت عنان
جزء من القسم الشرقي	4	أهالي بيت عنان
جزء من القسم الشرقي	2	أهالي بيت دقو

وشهد الشهود أن أهالي القرى السبعة كانوا يتصرفون بمزارعة الأراضي المذكورة أعلاه منذ مدة تزيد عن ثلاثين سنة بمشاهدة الجميع وعائلة إبراهيم أبو غوش دون منازع ولا معارض طوال المدة المذكورة ولم يدعِ خلالها المدعى عليهم من أبناء عائلة إبراهيم

(166) وهم أحمد بن سعيد بن محمد سعيد مختار أول قرية يالو وعبد الرحمن بن سليمان بن أحمد المصري ومحمد بن سليمان بن عوض وعبد الله عيسى عياد من مجلس اختيارية قرية يالو والشيخ محمد بن مصطفى جبر مختار قرية بئر معين وعايد بن عبد الله المنصور وحسن بن خضر بن سليمان من اختياريتها ، وإسماعيل بن خليل محمد مختار ثاني قرية قطننة وناصر بن سالم حمود وعلي بن عبيد محمد من مجلس اختياريتها وصالح بن حمودة قاسم خطيب القرية ومصطفى بن يوسف محمد البوابة وحسين بن جبران محمد البوابة وأحمد بن علي محمد من اختيارية أهاليها ومحمد بن سمرين بن أحمد سمرين من اختيارية القباب وعبد الله بن عيسى أحمد زايد مختار أول قرية بيت نوبا وعيسى بن هيكل موسى من اختيارية أهاليها ومصطفى بن يوسف عبد المهدي وإسماعيل بن حسن يوسف من مجلس الاختيارية في قرية بيت نوبا وإبراهيم بن محمد امريش عبد الله من أهاليها .

أبو غوش ولم يكن لهم مانع شرعي من إقامة الدعوى ، كما لم يسبق لعائلة إبراهيم أبو غوش تأجير أو زراعة أو حراثة أراضي الخربة ، بل كانوا يأخذون الخمس من مزروعات المزارعين ، فقبلت شهادة الشهود للشهرة والتواتر ، وأصدر القاضي حكمه بثبوت مزارعة أهالي القرى السبعة لأراضي خربة سلييت "لأن من تصرف بأرض أميرية عشر سنين بلا منازع ثبت له حق القرار بها حكماً شرعياً وأبقينا المدعين على تصرفهم بمزارعة أراضي الخربة ومنعنا أحمد يوسف وإبراهيم الحاج مصطفى الأصيلين والوكيلين المرقومين وموكليهم من التعرض للمدعين منعاً شرعياً" ، وطلب القاضي من الوالي إصدار الأمر لإعطاء المزارعين سنداً نظامياً حسب الأصول للاستمرار بالتصرف بمزارعة أراضي الخربة⁽¹⁶⁷⁾ .

وفي قضية أخرى مشابهة عرضت بمجلس ولاية القدس بحضور الوالي والقاضي والمفتي وأعضاء مجلس الولاية وأمور الطابو ، استمعوا خلالها إلى الدعوى التي رفعها كل من إبراهيم عبده ونخلة القسيس و خليل القسيس من قرية جفنة⁽¹⁶⁸⁾ على كل من صالح أبو حمدان ومحمد أبو ربيع ويوسف أبو حمدان وحسن حسين حمدان وإبراهيم عليان من قرية سردا⁽¹⁶⁹⁾ ، وتتمثل باغتصاب المدعى عليهم عام 1264 هـ / 1847 م لأرض بتصرف المدعين تقع بالقرب من قرية جفنة ، وذكر المدعون أن هذه الأرض كانت بتصرفهم "من قديم الزمان وتحولت علينا من أيام المصريين وندفع ميرياً سنوياً للخزينة مع ميري بلدنا" ومنذ اثنتي عشرة سنة اغتصبها منهم صالح أبو حمدان وجماعته بالقوة ، وطالب المدعون برفع يد المغتصبين عن الأرض ، غير أن المدعى عليهم أنكروا صحة الدعوى وذكروا أن هذه الأرض "من قديم الزمان والمنازعة حاصل عليها بيننا وبين أهالي جفنة من حين عمارة سردا من نحو خمسين سنة ، ومن مدة نحو عشرين سنة اصطلحنا عليها نحن وأهالي جفنة على أن يكون النصف لنا والنصف لهم ومن وقتها استلمنا نحن نصفنا وهم استلموا نصفهم" . وبعد المداولة أمر القاضي بتشكيل لجنة

(167) سجل 354 ، أواسط جمادى الثانية ، 1284 هـ / 1867 م ، ص 81-84 .

(168) قرية جفنة : تقع شمال مدينة رام الله على بعد 10 كم . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 324 .

(169) قرية سردا : تقع شمال رام الله على مسافة نحو 5 كم . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 334 .

للكشف على موقع الأرض والاستماع لشهود من القرى المجاورة ، وتشكلت اللجنة من محمد منيب مأمور الطابو وأسعد العلمي وشاكر وهبة مندوبين عن الوالي وموسى عمران الخالدي أحد كتّبة المحكمة الشرعية مندوباً عن القاضي الشرعي ، وتوجهت إلى موقع الأرض بحضور الخواجة أنطون نوريس باش ملة اللاتين الذي أحضر الشهود من قرى عين سينيا⁽¹⁷⁰⁾ وأبو قش⁽¹⁷¹⁾ ودورا القرع⁽¹⁷²⁾ وعندما حضر المدعون والمتغصبون والشهود ، أقر الشهود بأن الأرض المتنازع عليها كانت في تصرف أهالي جفنة ومنذ اثنتي عشرة سنة وضع صالح أبو حمدان وجماعته يدهم عليها بطريق القهر والغلبة ، وبعد أدائهم هذه الشهادة طعن صالح أبو حمدان بعدالة هؤلاء الشهود نظراً لما بينه وبينهم من عداوة ، غير أنه لم يتمكن من إثبات صحة قوله فعندئذ سألت اللجنة نظار الناحية وهم خليل السمحان وأسعد السمحان والشيخ سمحان حيث أجابوا بأن هذه الأرض كانت منذ أيام إبراهيم باشا بتصرف أهالي جفنة وأن المدعى عليهم وضعوا يدهم عليها منذ اثنتي عشرة سنة ، فقبلت شهادتهم وعادت اللجنة إلى المحكمة الشرعية وأبلغت القاضي ومجلس الولاية بذلك فعندها "عرف مولانا الحاكم الشرعي صالح أبو حمدان وجماعته حيث ثبت أن الأرض المذكورة واضع يدك عليها بطريقة القهر والغلبة منذ اثنتي عشرة سنة وأن دعواك الصلح المذكور متأخر عن دعواهم فليس لك المعارضة مع أهالي جفنة ومنع صالح أبو حمدان ... وجماعته من التعرض لذلك كله وأذن إلى أهالي جفنة بالتصرف بالأرض المحدودة سائر التصرفات الشرعية منعاً وإذناً صحيحاً شرعياً"⁽¹⁷³⁾.

(170) قرية عين سينيا : تقع شمال غرب مدينة رام الله بانحراف قليل إلى الشرق . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 321 .

(171) قرية أبو قش : تقع شمال مدينة رام الله على مسافة 6 كم . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 335 .

(172) قرية دورا القرع : تقع شمال مدينة رام الله بانحراف قليل نحو الشرق ، حيث تبعد عنها نحو 7 كم . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 335 .

(173) سجل 343 ، 27 رجب 1267 هـ / 1850 م ، ص 77-79 .

وفي قضية أخرى نظر القاضي في الخلاف الذي وقع بين أهالي قريتي صوبا⁽¹⁷⁴⁾ من ناحية بني مالك وصاطاف من ناحية بني حسن⁽¹⁷⁵⁾ حول قطعة الأرض الأميرية التي تقع بين القريتين ، فقد ادعى أهالي صاطاف على أهالي قرية صوبا وذكروا في دعواهم أنهم كانوا من قديم الزمان يتصرفون بالأرض بالمزراعة ، وفي عام 1260 هـ / 1843 م اغتصبها منهم أهالي قرية صوبا بدعم من الحاج مصطفى أبو غوش ، غير أن وكلاء أهالي صوبا أنكروا ذلك وذكروا أن أهالي القرية كانوا يتصرفون بالأرض منذ أكثر من مائة عام ، ولحسم النزاع سأل القاضي وكلاء أهالي قرية صاطاف عما إذا أقاموا دعوى على المدعى عليهم خلال الثلاث والعشرين سنة الماضية ، وعندما أجابوا بالنفي أصدر حكماً ببقاء الأرض بتصرف أهالي صوبا⁽¹⁷⁶⁾ .

ولم يقتصر دور القاضي الشرعي على النظر في القضايا المتعلقة بالخلافات حول التصرف بالأراضي المملوكة والأميرية ، بل كان ينظر في الشكاوى المرفوعة على مأموري الطابو ومسجلي الأراضي نتيجة لأخطاء ارتكبوها أثناء تسجيلهم الأراضي ، فقد ادعى أحمد بن عبد الرحمن فرسخ من قرية المزرعة الشرقية⁽¹⁷⁷⁾ على كاتب الطابو عثمان بن يعقوب البديري الذي قام بتحرير أراضي القرية من قبل دائرة الطابو ، وذكر المدعي بأنه يمتلك داراً داخل القرية وكرماً يشتمل على أشجار عنب خارجها وأن الكاتب سجلها سهواً باسم محمد بن أحمد فرسخ حيث لا وجود لهذا الاسم في العائلة والقرية ، إلا أن الكاتب أنكر ذلك وأكد أنه لم يسجل هذه الأملاك بهذا الاسم سهواً وأن القيد صحيح ، غير أن المدعي أحضر شهوداً من القرية فشهدوا بأنه لا يوجد في قريتهم شخص بهذا

(174) قرية صوبا : تقع إلى الغرب من مدينة القدس . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 296 .

(175) ناحية بني حسن وهي أيضاً إحدى نواحي جبل القدس وتوضع لزعماء آل الدرويش التي اتخذت من قرية الولجة مقراً لها ، وتضم هذه الناحية 11 قرية هي عين كارم ، المالحه ، صاطاف ، الولجة ، الجورة ، القبو ، بيت صفاف ، بتير ، بيت جالا ، خربة اللوز ، شرفات ، أمين أبو بكر . ملكية الأراضي ، ص 244 .

(176) سجل 353 ، أواسط جمادى الثانية 1283 هـ / 1866 م ، ص 95 .

(177) قرية المزرعة الشرقية : وتقع شمال شرق مدينة رام الله على مقربة من الطريق المؤدية إلى نابلس . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 296 .

الاسم ، وبعد تزكيتهم بالسر والعلانية أصدر القاضي حكمه بثبوت تلك الأملاك باسم المدعي⁽¹⁷⁸⁾ .

وفي قضية مماثلة ادعى جاد الله القطان اللاتيني من بيت لحم على محمود شمس الدين الحسيني كاتب ثاني الدفتر خاقاني وذكر في دعواه أن جميع الأرض الكائنة بأراضي قرية بيت صفافا الأميرية المشجرة بالتين والعنب جارية بملكه وتصرفه من قديم الزمان وأن المدعى عليه سجلها سهواً خلال عملية تسجيل أراضي القرية باسم قطان بن خليل ، غير أن المدعى عليه أفاد لدى سؤاله عن ذلك بأنه لم يسجلها سهواً بل سجلها بشكل صحيح ، فأحضر المدعي شهوداً شهدوا بأنه لا يوجد في بيت لحم شخص باسم قطان بن خليل ، وبعد أن جرت تزكيتهم سرّاً وعلانية أمر القاضي بتصحيح الاسم⁽¹⁷⁹⁾ .

إشهار اعتناق الإسلام :

ومن مهمات القاضي الحكم بإسلام أهل الذمة إذا دخلوا الدين الإسلامي ، فيجب عليهم الحضور إلى المحكمة الشرعية والنطق بالشهادتين أمام القاضي ليصبح إسلامهم معترفاً به ومُقرّاً شرعياً ، وقد أشارت السجلات الشرعية إلى عدد من الحالات التي يشهر فيها أهل الذمة اعتناقهم للإسلام ، وهذا ما تظهره الحجة التالية :

"المعروض غب الدعا المفروض

أن الحرمة مريم بنت طنوس الشوفاني من طائفة المارونية من أهالي قرية امريش من بلاد بشارة تابع محروسة بيروت قد هداها الله للإسلام وأسلمت بمجلس نابلس وأرسلت بنفسها لمجلس القدس الشريف واعترفت بإسلامها بوجه زوجها إبراهيم بن أيوب الشهير بأبي أيوب من طائفة المارونية من أهالي قرية امريش المزبورة فأعرض عليه الإسلام فهده الله لدين الإسلام والحق بطوعه واختياره وقد نطق بالشهادتين وتبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام ، وحكمنا بإسلامها وبإسلام ولديها حبيب وعيد القاصرين⁽¹⁸⁰⁾ .

(178) سجل 379 ، 12 جمادى الأولى 1308هـ / 1890م ، ص 131 .

(179) سجل 379 ، 26 رجب 1308هـ / 1890م ، ص 162 .

(180) سجل 344 ، 16 ربيع الثاني 1268هـ / 1851م ، ص 84 .

ويعمد أحياناً من يعتنق الإسلام إلى تغيير اسمه إلى اسم آخر ، فبعد أن اعتنق إبراهيم ولد عبد الله القبطي من سكان مدينة منف المصرية الإسلام ونطق بالشهادتين غير اسمه إلى محمد خليل⁽¹⁸¹⁾ .

وتُظهر الكثير من الحجج الشرعية المتعلقة بمن أشهروا إسلامهم من أهل الذمة أنه لا يجوز لهم المطالبة بحصصهم الإرثية ، إذ إن اختلاف الدين من موانع الإرث ، والدليل على ذلك أن إحدى الحجج تذكر : " ... ادعى محمد آغا بن كركور الإسلامبولي الأرمني على ولده جريس الأرمني قائلاً في تقرير دعواه عليه ... إن ولدي جريس المرقوم أخذ جميع أمعتي بطريق الغصب ونقلها لمحل آخر ... سُئل المدعى عليه عن ذلك فأجاب نعم إني أخذت جميع ما ذكر وإن جميع ما ذكر كله ليس لوالدي محمد آغابه حق مطلق لأن جميع ذلك مخلف عن جدتي أم والدي وعن أمي ولا حق لوالدي بذلك وانحصر جميع ما ذكر فيّه وفي شقيقتي مريم لأنه من موانع الإرث اختلاف الدين وجدتي ووالدي المذكورتين نصارى من طائفة الأرمن ولا حق لوالدي في تركتهما ، بل جميع ذلك لي ولشقيقتي مريم ... فسُئل محمد آغا المذكور عن ذلك فصدق واعترف بصحة ما ذكر ... فعند ذلك منعه مولانا المشار إليه من دعواه هذه ومن طلبه ذلك ... إذ إن اختلاف الدين من موانع الإرث..."⁽¹⁸²⁾ .

عتق الرقيق والجواري :

انتشرت ظاهرة الرقيق والجواري في مدينة القدس ، حيث عملت هذه الفئة في خدمة الأثرياء ورجال الدين والعلم وأصحاب المناصب العليا بالمدينة ، وقد أوردت السجلات الشرعية الكثير من المعلومات المتعلقة بهذه الفئة من حيث الأسماء والألوان والأصول والأسعار والعتق والتحرير .

(181) سجل 344 ، 21 جمادى الثانية 1268 هـ / 1851 م ، ص 92 .

(182) سجل 344 ، 23 جمادى الأولى 1267 هـ / 1850 م ، ص 32 .

وأشارت السجلات إلى عمليات بيع وشراء الرقيق والجواري كأى سلعة أخرى، وكان ممن عمل بتجارة الرقيق الحاج سعيد طهوب، وكانت أسعار الرقيق والجواري تتباين من جارية إلى أخرى ومن رقيق إلى آخر، ولعل العمر والوضع الصحي والشكل تلعب دوراً هاماً في اختلاف الأسعار⁽¹⁸³⁾.

وكانت عمليات عتق الرقيق والجواري تتم في المحكمة الشرعية أمام القاضي، إذ يحضر المالك إلى المحكمة ويعلن عن تحرير عبده أو جاريته، فمثلاً: "حضر إلى مجلس الشرع الشريف... الخواجة مناويل كليس اللاتيني وأحضر معه رقيقه الزنجي ربحان بن عبد الله وأقر... أنه أعتق عبده ربحان الزنجي المرقوم الآيل إليه شراءً من السيد حسن أفندي جودة بقوله أعتقت عبدي ربحان الزنجي المذكور وهو حر لوجه الله تعالى عتقاً منجزاً ليس معلقاً ولا مدبراً ولا مكاتباً إقراراً واعترافاً وإشهاداً وإعتاقاً"⁽¹⁸⁴⁾. وورد في حجة أخرى: "حضر لمجلس الشرع الشريف... السيد محمد بن حسن النعاجي وأقر... أنه أعتق رقيقته فاطمة الزنجية بنت عبد الله بقوله مخاطباً لها أنت حرة لوجه الله تعالى الكريم عتقاً منجزاً ليس معلقاً ولا مدبراً، فبموجب ذلك صارت فاطمة الزنجية المرقومة حرة كسائر الأحرار ووقع أجر العاتق على الحي القيوم..."⁽¹⁸⁵⁾.

وأشارت بعض الحجج إلى أن السيد قد يتزوج جاريته بعد إعتاقها، فقد تزوج محمود درويش قائم مقام خاصكي سلطان عتيقته جميلة خانم بنت عبد الله⁽¹⁸⁶⁾. وبينت حجة أخرى أن استخدام الجارية من قبل السيد لم يكن لأغراض العمل فقط بل كان يستخدمها لأغراض أخرى، ويظهر ذلك في الحجة التالية: "ادعى الحاج أحمد بن علي التكروري بن عبد الله من دارفور على مريم بنت عبد الكريم بن محمد التكروري... أن مريم المذكورة هي ملكه ورقيقته قد اشتراها من أربع سنين بمكة المشرفة بثمن قدره ألف قرش واستلمها وتصرف بها بالخدمة وغيره المدة المذكورة وأنها منذ مدة خمسة عشر يوماً فرت

(183) سجل 346، 15 ذي الحجة 1279هـ/ 1862م، ص 314.

(184) سجل 347، أواسط ذي القعدة 1280هـ/ 1863م، ص 251.

(185) سجل 351، 3 ربيع الثاني 1282هـ/ 1865م، ص 14.

(186) سجل 353، غرة جمادى الثانية 1283هـ/ 1866م، ص 142.

من محله بالشيخ سعد في حوران وجاءت لهذا الطرف والآن تمتنع من الانقياد لخدمتي والتوجه معي⁽¹⁸⁷⁾.

وإذا جاء أحد العبيد العتقاء واشتكى أمام القاضي بأن ورثة مالكة يحاولون استرقاقه . بعد عتقه من مالكة فكان القاضي لا يقبل ذلك إلا بموجب شهود يشنون صحة العتق . فتقول إحدى الحجج : " ادعى سرور صالح بن عبد الله بن آدم الحبشي على محمود بن خليل جودة وارث شقيقته السيدة أمونة المتوفية ... وقال في تقرير دعواه عليه إنني كنت رقاً للسيدة أمونة وفي غرة شوال سنة تاريخه حال حياتها أقرت طائعة مختارة وهي بأكمل الأوصاف المعتبرة شرعاً أنها أعتقتني بقولها لي : يا سرور أعتقتك وأنت حر لوجه الله تعالى عتقاً منجزاً ، ومن وقتها صرت حرّاً كسائر الأحرار وأن المدعى عليه الوارث المرقوم يعارضني الآن ومراده أن أكون رقاً له بغير حق فأريد منعه من المعارضة لي ، سئل المدعى عليه فأجاب بالإنكار ... فعندها طلب مولانا الحاكم الشرعي من المدعي سرور البيان الشرعي على دعواه فغاب وحضر وأحضر معه للشهادة وأدائها كل واحد من ... وعندها حكم مولانا الحاكم الشرعي بثبوت عتق سرور المرقوم ... " ⁽¹⁸⁸⁾ .

إقرار الوكالات وتسجيلها :

أشارت السجلات الشرعية إلى نوع من الموظفين عرفوا باسم "وكلاء الدعاوى" وهم أشبه بالمحامين في وقتنا الحاضر ، ففي بعض الأحيان كان أحد طرفي القضية ينصب وكيلاً للمرافعة عنه أمام المحكمة الشرعية . ويشترط في الوكالة حضور كل من الوكيل والموكل إلى المحكمة الشرعية أمام القاضي ويجري تعريف كل منهما من قبل شخصين ، ويشهد الموكل على نفسه وهو في حال صحته وسلامته وقواه العقلية بطوعه وحسن اختياره بأنه يوكل الوكيل الحاضر معه للمرافعة عنه أمام القاضي في قضية يجري تحديدها في الوكالة . وتضمن الوكالة نص التوكيل حيث يبين اسم الموكل والوكيل ومكان إقامتهما وموضوع الوكالة ، ويقوم بالتوقيع على الوكالة كل من القاضي ومعرفين والموكل أو

(187) سجل 354 ، 17 رجب 1284 هـ / 1867 م ، ص 117 .

(188) سجل 355 ، أواخر شوال 1285 هـ / 1868 م ، ص 149 .

مجموع الموكلين وكاتبين أو كاتب وباشكاتب ، كما يوقع الوكيل ويكتب بجانب توقيعهم عبارة : "قبلت هذه الوكالة لنفسى"⁽¹⁸⁹⁾ ، وإذا كان الموكل أجنبياً يكون الترجمان أحد المعرفين ، وإذا كان المعرف أو الموكل أو الوكيل يهودياً يكتب اسمه باللغتين العربية والعبرية⁽¹⁹⁰⁾ . ويلصق على كل معاملة طابعين .

وتنقسم الوكالات إلى نوعين هما :

1 - وكالة مطلقة عامة : وينوب فيها الوكيل عن الموكل إما بالتصرف بكل ما يملك الموكل أو يوكله بقضية معينة . وفي هذه الوكالة يعطي الموكل الوكيل الصلاحية المطلقة لينوب عنه "في الدعوى والمخاصمة ورد الجواب مع من يكون خصماً له في أي محكمة كانت لدى السادات الحكام وفي الاستئناف والتميز وإعادة المحاكمة إلى نهاية الدرجة الأخيرة من المحاكمة وفي رد ودفع كل دعوى تصدر عليه وكالة مطلقة عامة مفوضة لرأيه وفعله وقوله"⁽¹⁹¹⁾ . ومن الأمثلة على القضايا التي كان يجري بشأنها وكالة مطلقة : بيع قطعة أرض لمن يشاء الوكيل بالثمن الذي يراه مناسباً وبإجراء التقرير على لسانه بمحله الرسمي وإعطاء المشتري سنداً نظامياً وقبض الثمن منه وتسليمه المبيع⁽¹⁹²⁾ . وقد يوكل الوكيل بوضع يده على ما هو لموكله وجارٍ بملكه من أراضي وغيرها ، والتصرف بها كما يريد من البيع البات والفراغ القطعي والرهن والإيجار لمن يشاء بالبدل والثمن الذي يراه مناسباً وقبض الثمن من المشتري والمرتهن والمستأجر والتسليم لهم ، وبفك الرهن عند حلوله وتسليمه من المرتهن ودفع بدله وإعطائه السندات الرسمية حسب الأصول والشراء والإذن والاسترهان ودفع الثمن والبدل وأخذ السندات الرسمية والعادية في ذلك وبيع وفراغ وإيجار ورهن ما يشتريه بيعاً باتاً وفراغاً قطعياً وطلب الشفعة

(189) سجل 378 ، 22 محرم 1307هـ / 1887م ، ص 190 .

(190) سجل 383 ، 16 ربيع الأول 1312هـ / 1894م ، ص 220 .

(191) سجل 374 ، 2 جمادى الأولى 1304هـ / 1884م ، ص 72 ؛ سجل 379 ، 6 شوال

1307هـ / 1887م ، ص 54 .

(192) سجل 383 ، 18 محرم 1312هـ / 1894م ، ص 221 .

والأولوية⁽¹⁹³⁾، وقسمة حصّة الموكل قسمة إفراس مع باقي شركائه⁽¹⁹⁴⁾. فقد أشارت إحدى الحجج إلى أن الخواجة حنا بن فروتكر الألماني وكّل الخواجة فابر بن أدولف الألماني المقيم بالقدس وكالة مطلقة عامة في بيع ما يشاء الوكيل من أملاك وأراضٍ وأشجار الموكل بيعاً باتاً وقبض الثمن وفك رهن ما هو مرهون تحت يد الموكل، والرهن بموجب السندات والأوراق الرسمية الموجودة تحت يد الوكيل وفي الشراء ودفع الثمن والاسترهان مجدداً وفكه عند حلول أجله وفي الإدانة والاستدانة حسبما يرى فيه النفع والمصلحة⁽¹⁹⁵⁾. ووكل عطا الله بن حسين بن سعد من قرية مخماس⁽¹⁹⁶⁾ زوجته لطيفة بنت عبد الله بوضع يدها على كافة أملاكه داخل القرية وخارجها وكالة مطلقة صحيحة شرعية مفوضة لرأيها وقولها وفعلها⁽¹⁹⁷⁾.

وقد تكون الوكالة المطلقة العامة متعلقة بقضية يحددها الموكل، كفراغ قطعة أرض فراغاً قطعياً إلى كائن من كان بالبدل الذي يراه الوكيل مناسباً وبقبض البدل من يد المفروغ له⁽¹⁹⁸⁾. ووكل عبد الرحمن حدوته العلم الشيخ محمد سليم البوشناق في المدافعة والمخاصمة فيما يدعى عليه من الخواجة إسحاق أريا الموسوي في مبلغ ثلاثة آلاف ليرة فرنساوي، وهو بدل ما هو مرهون منه تحت يده بموجب سندات الرهن التي بيده، وذلك حتى نهاية الدرجة الأخيرة من المحاكمة واستئنافاً وتميزاً⁽¹⁹⁹⁾.

ويجوز توكيل شخص لآخر لتحصيل ما له من ديون على آخرين، فقد وكل حنا إبراهيم القندلفت مصطفى أمين العلمي في تحصيل سبعة آلاف قرش ثمن أرز وسكر

(193) سجل 378، 9 ذي القعدة 1306هـ/ 1888م، ص 221.

(194) سجل 378، 9 ذي القعدة 1306هـ/ 1888م، ص 184.

(195) سجل 383، 3 محرم 1313هـ/ 1895م، ص 307.

(196) قرية مخماس: تقع على مسافة 12 كم شمال شرق مدينة القدس. حسن عبد القادر، المواقع الجغرافية، ص 168.

(197) سجل 384، 13 ربيع الأول 1305هـ/ 1883م، ص 244.

(198) سجل 378، 22 ذي القعدة 1306هـ/ 1888م، ص 168.

(199) سجل 374، 13 جمادى الأولى 1304هـ/ 1884م، ص 77.

وسيرج وسمنة وكبريت أخذها منه داود علي قرش منذ ثلاث سنوات ولم يوصله من ذلك شيئاً⁽²⁰⁰⁾. ووكل شموئيل بن شلومو الموسوي عبد الرزاق الشيخ حامد أبو السعود الخلوتي في طلب وتحصيل مائة وأربعين ليرة فرنساوي من يوسف مصطفى القراعين التي حكم له بها بموجب إعلام صادر من المحكمة التجارية بالقدس⁽²⁰¹⁾. ووكلت حلوة بنت موسى بن حنا عبد الغني العمدة في تحصيل وقبض خمسمائة قرش ثمن غرس وخمسمائة قرش دين من جهة القرض بذمة عويس بن مسعود الخوري السلطي⁽²⁰²⁾.

ويشير السجل الشرعي إلى وكالات تتعلق بالإرث ومطالبة الوريث بما يخصه من حصة في التركة مع تحديد قيمتها، فقد وكلت عليّة بنت خليل العسلي نعمان بيك العسلي وكالة مطلقة عامة في ضبط وتحرير وبيع وقبض حصتها الإرثية الموروثة عن زوجها وقدرها نصف الربع في جميع متروكاته⁽²⁰³⁾. ووكلت رقية بنت صالح نسيبة عبد اللطيف محمد نسيبة وكالة مطلقة في ضبط وتحرير وقبض وبيع حصتها الإرثية الموروثة عن زوجها وقدرها نصف الربع في جميع متروكاته⁽²⁰⁴⁾. وقد تتضمن الوكالة المطالبة بالحصص الإرثية وتحصيل ديون المتوفى، فقد وكلت كل من مريم واستير وسارة بنات المتوفى عيزر بن يوسف السكناجي زوجة أبيهن رفقة بنت إبراهيم وكالة مطلقة عامة في كافة متعلقات والدهن وتحصيل وقبض ما هو له من الديون وإيصال كل منهن حقها بنظير حصتها الإرثية⁽²⁰⁵⁾.

(200) سجل 378، 9 ذي القعدة 1306هـ/ 1886م، ص 163.

(201) سجل 382، 23 ذي القعدة 1308هـ/ 1888م، ص 41.

(202) سجل 382، 29 شوال 1308هـ/ 1888م، ص 11.

(203) سجل 379، 6 شوال 1307هـ/ 1887م، ص 54.

(204) سجل 379، 6 شوال 1307هـ/ 1887م، ص 54.

(205) سجل 374، 7 جمادى الأولى 1304هـ/ 1887م، ص 71.

وهناك الكثير من القضايا التي يجري بشأنها وكالة مطلقة عامة ، مثل طلب الحصول على المهر المؤجل⁽²⁰⁶⁾ والمطالبة بأجرة أرض⁽²⁰⁷⁾ والمطالبة بالاستحقاق بالوقف⁽²⁰⁸⁾ وفسخ عقد النكاح⁽²⁰⁹⁾ وإقامة الدعوى على آخرين بشأن الخلاف حول بئر ماء أو أرض⁽²¹⁰⁾.

وقد تكون الوكالة المطلقة مقيدة بقيد أو مشروطة بشرط يحدده الموكل ، وفي مثل هذه الحالة لا يجوز للوكيل أن يخل بشرط موكله ، فتذكر إحدى الحجج أن كلاً من صبيحية وعلية ابنتي إبراهيم أبو رومي وكنّا شقيقتيهما حسن في بيع حصتهما في الدار المخلفة لهن عن والدهن بيعاً باتاً إلى عثمان الخالدي بثمن قدره مائة واثنان وأربعون ليرة فرنساوي ونصف⁽²¹¹⁾ . ووكل محمد بن حسن بن حسين خاله أحمد ابن محمد بن خليل في بيع وفراغ اثني عشر قيراطاً من أصل أربعة وعشرين قيراطاً في جميع أرض كرم الشعب ونظيره من الأصل المذكور بيعاً باتاً وفراغاً قطعياً إلى كل من سلامة الحلاق أبو الخير . ومحمد بن الشيخ مصطفى مناصفة بينهما ، بثمن قدره أربع ليرات فرنساوي ونصف ، من ذلك ثلاث ليرات ثمن حصة الأرض الأولى وليرة ونصف ثمن حصة الأرض الثانية⁽²¹²⁾ . وتُظهر حجة ثالثة توكيل شخص لآخر بالتصرف المقيّد بجزء من عقاره ، فقد وكل الشيخ يوسف عبد الكريم الحبية من عين كارم يوسف بن خليل عرباش بوضع يده على ما هو له وجارٍ بملكه وتحت طلق تصرفه وحيازته الشرعية في تسع قطع من الأراضي العائدة ملكيتها للموكل بعضها مزروع بالزيتون والبعض الآخر غير مزروع ، وتضمنت الوكالة السماح للوكيل بالتصرف بالأرض كما يشاء بالحرث والزرع وبيع الثمن والإيجار لمن يريد وبالبديل الذي يراه مناسباً وقبض بدل الإيجار وثمر الثمر والزرع ، ويتقاضى

(206) سجل 382 ، 23 ذي الحجة 1308 هـ / 1888 م ، ص 89 .

(207) سجل 382 ، 11 ذي القعدة 1308 هـ / 1888 م ، ص 86 .

(208) سجل 384 ، 23 ذي الحجة 1303 هـ / 1883 م ، ص 157 .

(209) سجل 379 ، 15 ربيع الأول 1308 هـ / 1888 م ، ص 106 .

(210) سجل 378 ، 24 محرم 1307 هـ / 1887 م ، ص 191 .

(211) سجل 378 ، 7 ذي القعدة 1306 هـ / 1886 م ، ص 163 .

(212) سجل 378 ، 2 محرم 1307 هـ / 1887 م ، ص 184 .

الوكيل بدل أجره وكالته وعمله نصف الغلة ويكون النصف الثاني للموكل بعد إخراج العشر والويركو من الأصل⁽²¹³⁾، ولا يحق للوكيل بيع شيء من الأراضي والأشجار أو رهنها⁽²¹⁴⁾.

2 - الوكالة الدورية: وتُعطى هذه الوكالة في حال بيع أو فراغ أحد الأشخاص عقاراً معيناً مثل أرض أو دار مقابل دين لشخص آخر لفترة زمنية محددة يتفق عليها الطرفان وغالباً ما تكون لمدة سنة، يحق للمشتري أو المفروغ له التصرف بالعقار وبيعه بالقيمة المثلية عند انتهاء المدة المحددة إذا لم يوفّ دينه ويخصم المبلغ المستحق ويرد الباقي لصاحب العقار، ويوضح ذلك إحدى الحجج التي تقول: "اشترى الشيخ مصطفى العسلي ... من بائعه عثمان بن بدر الترهني ... جميع الدار ... بثمن قدره وبيانه ... فموجب ذلك برئت ذمة المشتري المذكور من جميع الثمن المزبور ومن كل جزء منه البراءة الشرعية ... وبعد ذلك كله وعد المشتري البائع أنه عند مضي سنة وشهر تمضي من تاريخه أدناه إن أتى له بنظير الثمن المرقوم يعيد له هذا المبيع وعداً شرعياً، وغب ذلك كله أشهد البائع على نفسه أنه وكل الشيخ مصطفى العسلي المذكور وكالة مطلقة دورية شرعية في بيع الدار المرقومة البيع البات الناجز بالقيمة المثلية عند مضي المدة المذكورة إذا لم يأت له بنظير الثمن المزبور ... في بيع الدار المزبورة بيعاً باتاً بقيمتها المثلية لمن يرغب عند مضي الأجل المزبور، إذا لم يدفع له بنظير الثمن، وكلما عزله فهو وكيله وأذن للشيخ العسلي باقتصاص ثمنه. المذكور من ذلك فإن زاد شيئاً رده له وإن نقص شيئاً رجع له⁽²¹⁵⁾."

وفي حجة أخرى اشترى بكر طه الدجاني من علي غزالة وشقيقه عبد الفتاح ستة قراريط في الدار التي ورثها عن والدهم وخمسة قراريط في الخلو الشرعي المرصد رقبته

(213) الويركو: كلمة تركية تعني جزية أو خراج أو مال ميري أو رسم ومصدرها "ويرمك" وتعني الهبة أو العطاء. وفُرضت بموجب خط كوخانة عام 1839م، ويقسم الويركو إلى قسمين هما: ويركو الأملاك: فرضت على البيوت والأراضي الزراعية، وويركو التمتع: فرضت على التجار بنسبة 30 في الألف من مجموع الربح السنوي ثم رفعت إلى 40 في الألف. انظر: عوض، الإدارة العثمانية، ص 169-171.

(214) سجل 379، 9 شوال 1307هـ/ 1887م، ص 57.

(215) سجل 353، 25 صفر 1284هـ/ 1867م، ص 260.

على دكان بسوق الباشورة بثمن قدره إحدى وتسعون ليرة ذهب فرنساوي ، وقد قبض البائعان الثمن من المشتري وصدر عقد البيع البات بينهما ، وبعد ذلك وعد المشتري البائعين إذا أتيا له بنظير الثمن المرقوم عند مضي سنة كاملة من تاريخ عقد البيع بأن يعيد لهما المبيع ، ثم حضر البائعان للمجلس الشرعي وأشهدا على نفسيهما بأنهما وكلا المشتري وكالة مطلقة دورية في بيع الحصتين عند مضي السنة إذا لم يأتيا له بنظير الثمن المرقوم ، واقتصاص نظير الثمن بالقيمة المثلية وإن زاد شيئا يدفعه لهما وإن نقص شيء عند نظير ثمنه يرجع به على البائعين⁽²¹⁶⁾ .

3 - الوكيل المسخر : ويجري تعيينه من قبل القاضي ، وتعرفه المادة 1791 من مجلة الأحكام العدلية بأنه : "الوكيل الذي أقامه الحاكم للمدعى عليه الذي لم يمكن إحضاره إلى المحكمة"⁽²¹⁷⁾ . وتذكر المادة 1834 من المجلة نفسها أنه إذا امتنع المدعى عليه من الحضور وإرسال وكيل عنه إلى المحكمة بطلب المدعي وذلك بأن يرسل إليه ثلاث مرات في أيام متفاوتة ورقة المخصوصة بالمحكمة ، فإذا رفض الحضور للمحكمة يبلغه القاضي الشرعي بأنه سيُنصب له وكيلاً لسماع دعوى المدعي وبيئته ، فإن امتنع عن الحضور ولم يرسل وكيلاً عنه عندئذ ينصب القاضي له وكيلاً مسخراً يحافظ على حقوقه والاستماع للدعوى والبيئته في مواجهته ، ويعين له القاضي أجرة عن كل جلسة على حساب المدعى عليه⁽²¹⁸⁾ . فتقول إحدى الحجج أنه : "تقدم استدعاء من إمضاء الشيخ عبد القادر الحاج محمد سعيد الشريف من محلة باب حطة تتضمن بأنه يطلب له من ذمة صالح بن حسن بن أحمد طالب وإبراهيم مصطفى طالب من أهالي قرية بيت عور الفوقا مبلغاً قدره 14 جرة زيت ... وبناءً عليه قد تحرر أولاً وثانياً وثالثاً أوراق الدعوى إلى صالح بن حسن وإبراهيم بن مصطفى لمحل إقامتهما بواسطة شاعر الجاعوني محضر المحكمة الشرعية فلم يحضرا ولم يرسلوا وكيلاً مصدقاً عنهما ، ثم صار تحرير ورقة الإخطار إليهما مبيناً فيها بأنه تحرر لهما أولاً وثانياً وثالثاً بالحضور ولم تحضرا ولم ترسلوا وكيلاً عنكما فحيثئذ يصير

(216) سجل 353 ، 9 جمادى الأولى 1283 هـ / 1866 م ، ص 59 .

(217) شرح المجلة ، ج 2 ، ص 1164 .

(218) المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 1189 .

نصب وكيلاً مسخراً عنكما في هذا الخصوص وترى دعوى المدعي غياباً توفيقاً لمادة 1834 من مجلة الأحكام الجليلة ، صار تنصيب وتعيين السيد عبد الرزاق أفندي أبو السعود من وكلاء الدعاوى بالقدس وكيلاً مسخراً عنها ونبه عليه بالمحافظة على حقوق الغائبين وتعيين أجرة له كل جلسة عشرة قروش...»⁽²¹⁹⁾ .

وبعد تعيين الوكيل المسخر يقدم المدعي الدعوى مرة ثانية على الوكيل المسخر ويطلب منه إحضار شهود لإثبات صحة دعواه وتجري تركيتهم السرية ، وفي حال إقرار تركيتهم يصدر القاضي بمواجهة المدعى عليه الوكيل المسخر حكمه في الدعوى ويبلغ الحكم الصادر للمدعى عليه الأصيل الذي لم يحضر للمحكمة . ومن الأمثلة على ذلك تعيين علي بن عثمان الشعباني وكيلاً مسخراً عن حنا وسلمان ولدي عيسى صابات وكاترينا بنت حنا صابات ، في الدعوى المقامة عليهم من قبل كل من عزيزة وسلطانة ابنتي عيسى صابات وتقرر له أجرة عشرين قرشاً عن كل جلسة⁽²²⁰⁾ . وعين عبد الرزاق أبو السعود وكيلاً مسخراً عن عبد الفتاح بن صبيح فتيحة في الدعوى المقامة عليه من قبل الحاج محمد بن عمر بن القادر بعد تبليغ المدعى عليه ثلاث مرات بأوقات متفاوتة ، بوساطة كل من محمد أبو جبنة وسعيد قطينة محضري المحكمة الشرعية ولم يحضر ، ثم تم تحرير ورقة إخطار له من قبل القاضي الشرعي أرسلت له بوساطة أحد محضري المحكمة تتضمن بأنه تم إبلاغه ثلاث مرات ولم يحضر ولم يرسل وكيلاً عنه وأنه سيتم تنصيب وكيل مسخر عنه وترى دعوى المدعي غيابياً⁽²²¹⁾ .

القضايا الجزائية :

بالرغم من نزاع صلاحية النظر في القضايا الجزائية من المحكمة الشرعية وإحالتها إلى محكمة الجزاء استناداً لقانون المحاكم النظامية الصادر عام 1289هـ / 1872م ، إلا أن سجلات محكمة القدس الشرعية حفلت بالكثير من القضايا الجزائية التي بقي القاضي

(219) سجل 382 ، 23 ذي القعدة 1308هـ / 1898م ، ص 15 .

(220) سجل 382 ، 23 ربيع الأول 1309هـ / 1891م ، ص 182 .

(221) سجل 379 ، 28 جمادى الثانية 1308هـ / 1898م ، ص 159 .

الشرعي ينظر بها ويفصل فيها كقضايا السرقات والقتل والخطف والمشاجرات وهتك العرض (الاغتصاب) وغير ذلك من القضايا المخلة بالشرف والأخلاق ، ويرجع ذلك إلى الثقة التي يتمتع بها القضاء الشرعي وتعود الأهالي على إحالة هذه القضايا للمحكمة الشرعية .

أشارت السجلات إلى انتشار ظاهرة السرقة ، ولعل سرقة الحيوانات أكثرها شيوعاً ، ويُلاحظ في الكثير من الحجج الشرعية المتعلقة بسرقة الحيوانات أن القاضي الشرعي كان يطلب إحضار الحيوان المرسوق إلى المحكمة الشرعية وذلك لرؤيته والتأكد من مدى مطابقة أوصافه لما ورد في الدعوى ، فنذكر إحدى الحجج : "ادعى عبد القادر بن الشيخ مصطفى الدسوقي من أهالي قرية فريديسيا⁽²²²⁾ التابعة لقضاء بني صعب على علي بن داود ولد إبراهيم عفيش من أهالي قرية عجور⁽²²³⁾ التابعة لقضاء الخليل الحاضر معه بالمجلس الشرعي وقال في تقرير دعواه إن الثور الأسود أصبح المحضر بالمجلس الشرعي هو ثوري ملكي آل لي شراء من عبد المحسن فرسخ من أهالي قرية بيرزيت⁽²²⁴⁾ وسرق الثور من عندي والآن وجدته عند المدعى عليه..."⁽²²⁵⁾ . وتذكر حجة ثانية : "ادعى حسين بن محمد من أهالي الصالحية بمحروسة دمشق الشام المحمية على السيد حسن بن حسين الوعري الوكيل الشرعي عن مصلح بن حميدان من أهالي قرية المالحه⁽²²⁶⁾ ... قائلاً في آخر دعواه إن البغلة الصغيرة المحضرة بالمجلس الشرعي هي بغلته بنت فرسه فُقدت من مدة ثلاث سنوات والآن وجدتها تحت يد الموكل مصلح وأريد أخذها .

(222) قرية فريديسيا : تقع جنوب غرب مدينة طولكرم . الدباغ ، ج 3 ، ق 2 ، ص 218 .

(223) قرية عجور : تقع شمال غرب الخليل ، وتتوسط المسافة بين قريتي زكريا ودير الدبان وتبعد عن كل منها 3.5 كم . الموسوعة الفلسطينية ، ج 3 ، ص 191 .

(224) قرية بير زيت : تقع على مسافة 11 كم شمال مدينة رام الله ، وتشكل حلقة مواصلات هامة بين مدينتي رام الله ونابلس . الموسوعة الفلسطينية ، م 1 ، ص 469 .

(225) سجل 354 ، 5 ربيع الأول 1284 هـ / 1867 م ، ص 2 .

(226) قرية المالحه : تقع إلى الجنوب الغربي من القدس . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 166 .

منه...⁽²²⁷⁾ . وورد في حجج أخرى : "هذا الحمار الأسود الأدغم المقطوع بعض أذنه اليسرى الحاضر بهذه المحكمة الشرعية حماري نتيج عندي منذ ثماني سنوات من حماتي السودا...⁽²²⁸⁾ . و "هذا الجمل الأصفر اللون المكوي على فخذه اليمين وفي صدره كي نار والذي تحت عينه اليمين دمل الحاضر بهذه المحكمة الشرعية...⁽²²⁹⁾ . وفي حجة أخرى : "أن خمسة الحمير المحضرين بباب المجلس الشرعي التي لون أحدهم أزرق والثاني أبيض والثالث أخضر ، واثنان سود هم بهائم موكلي...⁽²³⁰⁾ .

كما كان القاضي ينظر في قضايا القتل ، ويحدد دية المقتول ويفرض على القاتل دفعها لأهل المقتول ، فقد أقر دية عبد الرحمن أبو حطب من قرية النعانة⁽²³¹⁾ قضاء الرملة بعشرة آلاف درهم⁽²³²⁾ . وأقر أيضاً دية محمد بن مصلح بن أحمد سمري من قرية القباب بعشرة آلاف درهم⁽²³³⁾ . وفرض على صالح بن أحمد بن إبراهيم من قرية لفتا بدفع عشرة آلاف درهم فضة دية لأهل عبد الله ابن طنوس الرومي مؤجلاً ثلاث سنوات يؤدي في كل سنة ثلث المبلغ⁽²³⁴⁾ . أما دية المرأة فكانت نصف دية الرجل ؛ فقد حدد القاضي دية عائشة بنت عمر بن إسماعيل بخمسة آلاف درهم⁽²³⁵⁾ . وإذا اشتركت مجموعة في عملية القتل وعرف القاتل ؛ يُفرض على القاتل دفع الدية ويحكم على الجماعة المشتركة "بالتعزير الشديد اللائق بحالهم الرادع لهم ولأمثالهم عن قبيح أفعالهم"⁽²³⁶⁾ .

(227) سجل 337 ، 7 شعبان 1270هـ / 1853م ، ص 1 .

(228) سجل 383 ، 26 ربيع الثاني 1383هـ / 1895م ، ص 346 .

(229) سجل 383 ، 4 صفر 1310هـ / 1892م ، ص 51 .

(230) سجل 378 ، 14 محرم 1307هـ / 1887م ، ص 193 .

(231) قرية النعانة : وتقع جنوب مدينة الرملة على بُعد 8 كم عنها . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 571 .

(232) سجل 354 ، 25 ربيع الثاني 1284هـ / 1867م ، ص 56 .

(233) سجل 354 ، 11 ربيع الثاني 1284هـ / 1867م ، ص 46 .

(234) سجل 346 ، غرة صفر 1280هـ / 1863م ، ص 280 .

(235) سجل 354 ، 21 ربيع الثاني 1284هـ / 1867م ، ص 61 .

(236) سجل 351 ، 15 صفر 1283هـ / 1866م ، ص 331 .

أما إذا لم يحدد القاتل من بين المجموعة المشتركة في عملية القتل فتتحمل المجموعة دية القتيل وتوابع الصلح ، فتشير إحدى الحجج إلى اعتداء خمسة وأربعين شخصاً من عرب السواحية⁽²³⁷⁾ في وادي قدوم على محمد آغا الكردي وشقيقه عثمان ، فقتلوا محمداً وجرحوا عثمان ، وقتلوا لهما حصانين وفرساً كانوا معها ، وتم الصلح "عقد الراية" بين الطرفين وذلك بأن يدفع المشتركون في القتل والاعتداء أحد عشر ألفاً وخمسمائة قرش دية محمد آغا وسبعمئة وخمسين قرشاً بدل جرح عثمان آغا وثلاثة آلاف قرش بدل فرس يوسف آغا وألفي قرش بدل حصان يوسف آغا وألف وخمسمائة قرش بدل حصان عمر الشامي⁽²³⁸⁾ .

وفي حال قتل شخص ما في أراضي قرية غير مملوكة لأحد ولم يعرف القاتل ، فإن القاضي كان يحمل أهالي القرية دية القتيل ، فقد وجد أحمد بن يوسف بن سليمان الكردي مقتولاً بالقرب من قرية العنب ، واتهم في ذلك سبع وأربعون شخصاً من القرية ، حيث جرى تحميلهم على ذلك ، ثم أرسل القاضي لجنة للكشف عن المكان الذي وجد فيه القتيل ، فتبين أنه غير مملوك لأحد لكونه طريقاً سلطانياً ، وذكرت اللجنة أن الصوت في هذا المكان يسمع في القرية حيث يبعد عنها مقدار عشر دقائق ، عندئذ حكم القاضي على جميع أهالي القرية بدفع عشرة آلاف درهم فضة لأهل القتيل مؤجلاً في ثلاث سنوات من تاريخ صدور الحكم⁽²³⁹⁾ .

أما إذا وجد شخصٌ مقتولاً في أرض مملوكة لآخر فكان القاضي يطلب من صاحب الأرض أن يحلف خمسين يميناً بأنه لم يقتله ولا يعرف من قتله ، ومع ذلك يتوجب عليه دفع دية القتيل ، فمثلاً وجد جريس بن حنا أبو سعد الرومي مقتولاً بأرض صالح العلي في خربة العمور بالقرب من بيت جالا ، فحلف صالح خمسين يميناً بأنه لم يقتله

(237) عرب السواحية : تطلق على الأراضي الواقعة بين مقام النبي موسى في الشمال وعرب ابن عبيد في الجنوب وتلال القدس من الغرب والبحر الميت من الشرق . الدباغ ، ج 8 ، ق 2 ، ص 501-502 .

(238) سجل 347 ، غرة رجب 1280 هـ / 1863 م ، ص 109 .

(239) سجل 353 ، غرة محرم 1285 هـ / 1868 م ، ص 259 .

ولا يعلم من قتله، ثم فرض عليه القاضي الشرعي بدفع عشرة آلاف درهم فضة لأهل القتل⁽²⁴⁰⁾.

وتُشير السجلات الشرعية إلى أنه في بعض الأحيان يرفض أهل القتل أخذ الدية ويطالبون بالقصاص من القاتل خاصة إذا كان القتل متعمداً، فقد قتل محمد بن يحيى البشتي على يد سالم أبو هنية الذي اعترف بأنه قتله عامداً متعمداً بناءً على طلب الشيخ عوض الله إسماعيل من عرب التعامرة، فأرسل القاضي كلاً من محمد ياسين الخالدي باشكاتب المحكمة ومحمد أبو السعود من أعضاء مجلس الدعاوى لدار والدة القتل وزوجته لطلب العفو عن القاتل وقبول أخذ الدية، غير أنها رفضت ذلك وطالبتا بالقود عيناً (القصاص) ثم تكرر الطلب مرة أخرى ولم يوافقن على ذلك، عندئذ "عرفنا القاتل أن موجب ذلك القود عيناً وهو أن يقتص منه شرعاً"⁽²⁴¹⁾.

وهناك الكثير من القضايا الجزائية التي كان القاضي الشرعي ينظر فيها، كحالات الخطف⁽²⁴²⁾ والاعتصاب⁽²⁴³⁾ وقضايا الشجار والخلاف بين الأفراد أو بين سكان قريتين متجاورتين كقضية الخلاف بين أهالي قريتي الطور⁽²⁴⁴⁾ والعيساوية⁽²⁴⁵⁾ على بئر ماء⁽²⁴⁶⁾.

وأشارت السجلات إلى وجود مهام أخرى قام بها القاضي، منها تعيين موظفين لجباية الصرة الواردة سنوياً من مصر "الصرة المصرية" والآستانة "الصرة الرومية" إلى

(240) سجل 350، 21 صفر 1282هـ/ 1865م، ص 48.

(241) سجل 353، 17 محرم 1284هـ/ 1867م، ص 228.

(242) سجل 343، 11 جمادى الثانية 1276هـ/ 1859م، ص 40.

(243) سجل 340، أواسط رجب 1273هـ/ 1856م، ص 59.

(244) قرية الطور: تقع بالقرب من مدينة القدس على جبل الزيتون إلى الشرق من القدس. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 127.

(245) قرية العيساوية: تقع على مرتفع شمال شرق القدس. الدباغ، ج 8، ق 2، ص 101.

(246) سجل 377، 7 ربيع الأول 1306هـ/ 1887م، ص 32.

الفقراء وعلماء الدين بمدينة القدس ، فتذكر مثلاً إحدى الحجج الشرعية : "قرر جناب الحاكم الشرعي حاملي هذا الكتاب الشرعي ... السيد حسن شوقي والسيد بدر أفندي الخالدي والسيد أحمد البدوي الخالدي في وظيفة الكتابة والجباية على الصرة المصرية الواردة بكل سنة إلى أهالي القدس الشريف من محروسة مصر القاهرة المرتبة من صدقات أصحاب الخيرات حسبها هي مسطرة بدفاتر الأوقاف بمصر والروزنامة ... وأذن مولانا الحاكم الشرعي إلى المقررين السيد حسن وأحمد بأداء خدمة هاتين الوظيفتين وبإلذهاب إلى محروسة مصر وقبض الصرة بتمامها وتقسيمها على مستحقيها"⁽²⁴⁷⁾ .

وقام القاضي أيضاً بتعيين الأئمة والشيخوخ في المدارس ، فقد عين كلاً من رشيد العلمي وشقيقه مصطفى وعبد الغني بوظيفتي الإمامة والشيخية بالمدرسة الحمرا⁽²⁴⁸⁾ مقابل ثلاث ليرات ذهب عثماني⁽²⁴⁹⁾ . كما كان يمنحهم الإذن بتعميرها وإصلاحها إذا كانت بحاجة إلى ذلك ويجري ذلك بعد الكشف عليها ، فتقول إحدى الحجج :

"تحية السادات الشيخ شحادة أفندي الدنف أحد مشايخ المدرسة الكيلانية⁽²⁵⁰⁾ ، والقاضي بها زيد فضله نبدي إليك أنه قد حصل الكشف من طرفنا ... على جميع المدرسة المرقومة الواقعة بخط باب السلسلة ، فوجدت خربة والآن نريد تعميرها وترميم جهات المدرسة المذكورة وتعمير سطحها المنهدم مع قصارة ومدت وتخشب وتحديد الطبقة العلوية القبلية وتبليط سطحها مع تعمير صهريج المدرسة المرقومة وقصارتها ، فبناءً على ذلك أذن لك بذلك التعمير المرقوم ومهما أصرفته في تعمير ذلك يكون بطريق الدين الشرعي"⁽²⁵¹⁾ .

(247) سجل 353 ، 13 صفر 1282 هـ / 1867 م ، ص 250 .

(248) المدرسة الحمرا : تقع بالقرب من الخانقاه الصلاحية ، وهي منسوبة للفقراء الوفاة . مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جزآن ، بيروت ، مكتبة النهضة ، 1995 ، ج 2 ، ص 47 .

(249) سجل 344 ، 12 شعبان 1277 هـ / 1860 م ، ص 73 .

(250) المدرسة الكيلانية : تقع على الجانب الشمالي من طريق باب السلسلة ، وتنسب إلى الحاج جمال الدين بهلوان ابن الأمير قراشاه الكيلاني . الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج 2 ، ص 45 . العسلي ، معاهد العلم ، ص 143 .

(251) سجل 345 ، 17 صفر 1277 هـ / 1860 م ، ص 218 .

ومن صلاحياته أيضًا تعيين أئمة وخطباء الجوامع في حال فراغ هذه الوظائف من أصحابها بحكم وفاتهم ، ويأذن لهم بممارسة عملهم ريثما يصلهم قرار التعيين الرسمي من قبل الحكومة في استانبول ، ويظهر ذلك من الحجة التالية : "عمدة الأفاضل والسادات الكرام أبو السعود أفندي زاده الشيخ محمد بكر أفندي الخلوقي، غب التحيات السنية نبدي لجنابك أننا نصبناك وعيناك خطيباً وإماماً بالجامع الشريف العمري المعمور بذكر الله تعالى الكائن بقصبة بيت لحم الجاري تحت توليتك وأخوتك وأولاد عمك ، لتتعاطى أمور الخطابة والإمامة بالجامع الشريف المومى إليه بأوقاتها حيث إن الوظائف المنيفتين هما شاغرتان والجامع المشار إليه تعطل عن الصلوات فيه بسبب ذلك سيما وأن فيك اللياقة لذلك ، وأنت أهل لها كما أخبر بذلك الجهم الغفير من الثقة الموحدين ، فبناءً على ذلك حررنا مراسلتنا هذه لجنابك بينما يحضر لك الأمر الخاقاني بذلك ... " (252) .

ويُستدل من الكثير من الحجج الشرعية على أن عمل القاضي الشرعي لم يكن مقتصرًا على النظر بقضايا الأحوال الشخصية التي تخص المسلمين فقط ، بل كان ينظر في القضايا التي تخص أبناء الطوائف الأخرى من النصارى واليهود سواء أكان ذلك يتعلق بالخلافات بين أبناء الطائفة الواحدة (253) أو بين الطائفتين (254) أو بينها وبين المسلمين (255) ، وتزخر السجلات الشرعية بتسجيل العديد من الوقفيات العائدة لهاتين الطائفتين (256) فضلاً عن الإشراف على كنائسهم وأديرتهم والسماح لهم بتعميرها .

(252) سجل 351 ، أواسط شعبان 1282هـ / 1865م ، ص 132 .

(253) سجل 347 ، غرة ربيع الثاني 1280هـ / 1863م ، ص 21 .

(254) سجل 347 ، 27 رجب 1280هـ / 1863م ، ص 42 .

(255) سجل 344 ، أوائل شعبان 1277هـ / 1860م ، ص 91 .

(256) سجل 350 ، 11 صفر 1282هـ / 1865م ، ص 11 ؛ سجل 372 ، 23 رمضان 1302هـ / 1884م ،

الخاتمة

وهكذا يتضح مدى شمولية صلاحيات القاضي ، إذ كانت سلطاته شاملة لكافة أنواع القضايا في مختلف الجوانب والمجالات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية ، كقضايا تسجيل الأراضي والعقارات وقسمتها وإفرازها ورهنها وبيعها وشرائها ، وعلى صعيد الأحوال الشخصية أوكلت للقاضي مهمة إجراء عقود الزواج والطلاق والمخالعة والمهور ونفقات الأيتام والمطلقات وتعيين الأوصياء وتوزيع التركات والإرث على الورثة ، والنظر في قضايا الأرقاء والجواري والقضايا التي تحل بالشرف والأخلاق ، وتعيين الأئمة والقراء والمدرسين وإقرار الوكالات وتسجيلها .

أما بالنسبة للأوقاف فقد كان له الولاية العامة عليها من خلال تعيين النظّار والمتولين عليها وفقاً لشروط الواقف وعزل المتولين إذا ثبت تقصيرهم وإهمالهم لشؤون الوقف ، وكان يشرف على حساباتها .

ويمكن القول بأن القاضي قد مارس السلطات التشريعية والقضائية في آن واحد باعتباره ممثلاً للشرع وكان يفصل بين الناس وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية .

ماكس هرتس باشا (1856 - 1919)
ونشاطاته في ترميم الآثار العربية الإسلامية في مصر

د. إستيفان أورموش
أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية والدراسات السامية
كلية الآداب - جامعة أوتفوش لوراند
بودابست - المجر

oboiikan.com

ماكس هرتس باشا (1856 - 1919) ونشاطاته في ترميم الآثار العربية الإسلامية في مصر

حياته

ولد ماكس هرتس باشا في قرية أوتلوكه Ottlaka الصغيرة الريفية في محافظة أَرْدُ Arad في وسط المجر سنة 1856 في عائلة فقيرة وظروف عسيرة⁽¹⁾. أما شغل والده فكانت له علاقة بالزراعة إلا أن التفاصيل ليست معروفة. وتوفيت والدته وهو صبي صغير وتزوج والده مرة أخرى من امرأة ما لبثت أن ماتت. وأنهى ماكس هرتس دراسته الابتدائية والثانوية في مدينة تمشواز Temesvár النشطة المزدهرة⁽²⁾ وبعد ذلك درس العمارة في كلية

(1) قام المؤلف بهذا البحث بمساعدة الصندوق المجري الوطني للبحث العلمي OTKA 48863. - كان هرتس يتبع عادة معظم المجرين في عصره باستعمال اسمه المجري Herz Miksa هرتس ميكسا في المجر وفي المطبوعات باللغة المجرية والاسم الألماني Max Herz في الخارج وفي المطبوعات غير المجرية وترجع هذه العادة إلى اعتقاد المجرين أن الأجانب لا يستطيعون فهم الأسماء المجرية ونطقها بسبب صعوبة لغتهم وهذا الاعتقاد صحيح إلى حد ما إلا أنه في الحقيقة لا يبرر ترجمة الأسماء الشخصية واستبدالها في رأينا المعاصر الحديث ولذلك انقطعت هذه العادة من قرابة ثلاثين عامًا ومن ناحية أخرى فليست كل الأسماء المتداولة بين المجرين من أصل مجري مثل اسم هرتس باشا Miksa الذي هو اسم ألماني أصلاً دخل اللغة المجرية.

(2) تقع قرية أوتلوكه ومدينة تمشواز في المنطقة التي اضطرت المجر إلى التخلي عنها لرومانيا سنة 1920 بمقتضى معاهدة الصلح بعد الحرب العالمية الأولى التي انهمزت الإمبراطورية النمساوية المجرية فيها ومن المعروف أن الدول المنتصرة سلخت ثلثي مساحة المجر منها بحجة إنشاء دول ذات قومية واحدة ، وصحيح أن المجر كانت دولة متعددة القوميات قبل الحرب وأصبحت دولة ذات قومية =

الهندسة في بودابست لمدة ثلاث سنوات تبعثها ثلاث أخرى في كلية هندسة فيينا. وكانت الدراسة تشكل صعوبة كبيرة بالنسبة إلى العائلة بسبب فقرها حتى إن ماكس الصبي اضطر مرة إلى التخلي عن المدرسة الثانوية ليتكسب عيشه بيعاً في أحد الدكاكين في مدينة أرذ Arad القريبة - ربما إلى آخر حياته - ولكن أسعفته المقادير عندما نجح أخوه الأكبر في تدبير مصروفات دراسته وهكذا رجع إلى مدرسته من جديد بعد انقطاعه عنها شهوياً قليلة فقط. وكانت سنوات الجامعة شظفاً وفاقة حقاً. وتخرج في يوليو سنة 1880 مهندساً معمارياً دون تسلم شهادة بذلك حسب تقاليد ذلك الزمان لأن تسلم المتخرج شهادة لم يطبق في فيينا إلا بعد الحرب العالمية العظمى الأولى. وحال تخرجه صادف أن تعرف المهندس الشاب على عائلة نمساوية كانت تتجهز للسفر من فيينا إلى القاهرة لأن رب العائلة كان مديراً لفندق النيل الرائع بالموسكي والذي عرض على هرتس الشاب السفر معهم مقابل أن يشرح لأبنائه الآثار المعمارية التي يزورونها خلال سفرهم عبر إيطاليا في طريقهم إلى مصر. وقبل هرتس العرض بدون تردد؛ ذلك أن التفرج على الآثار الإيطالية كان جزءاً أساسياً من دراسة العمارة وقتئذ وكان المنتظر من كل مهندس معماري أن يقوم بزيارة مطولة لإيطاليا أو لمناطقها الشمالية على الأقل؛ ولكن هرتس باشا كان شاباً فقيراً لم تسمح له ظروفه المادية بزيارة الأماكن المذكورة التي كانت موضوع دراسته خلال سنوات طويلة. ولقد وصلوا القاهرة بعد رحلة طويلة في خريف السنة نفسها أي سنة 1880 وهكذا أمكن لهرتس الشاب أن يطلع على مفاخر أقدم بلد في العالم ويتعرف على آثار مهد الحضارة الإنسانية أيضاً قبل أن يرجع إلى النمسا والمجر ويبحث عن عمل في الإمبراطورية الثنائية المزدهرة الغنية. إلا أنه ما لبث أن وصل خبره إلى مواطنه يوليوس

= واحدة بعدها إلا أن هذا لم يكن صحيحاً بالنسبة إلى جيرانها فلقد أصبح ثلاثة ملايين مجري من رعايا دول الجوار. إن تلك الظروف كانت من الأسباب التي أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية. ولقد مات هرتس باشا في مايو 1919 أي قبل التوقيع على معاهدة تقسيم المجر في يونيو 1920 وهكذا لم يعد يعيش ليعلم نتيجة الحرب النهائية إلا أن الروايات والوثائق الأخرى - رسائل هرتس - تثبت أن الحرب قد لعب دوراً مؤثراً في تدهور صحته وحالته النفسية؛ ويتجلى هذا في رسائله إلى صديقه المستشرق المجري إجناتس جولدتسيهر Ignaz Goldziher والمحفوظة في المجموعة الشرقية من مكتبة أكاديمية العلوم المجرية في بودابست.

فرنس باشا Julius Franz الذي كان وقتئذ باشمهندس قلم الهندسة في ديوان عموم الأوقاف فتعارفا وعرض فرنس على المهندس السائح وظيفة لم يستطع أن يرفضها وقبلها بسرور عظيم وحماس، وعُيِّن هرتس رسامًا في قلم الهندسة ثم مهندسًا تابعًا لرئيس هندسة الأوقاف في مايو سنة 1882. ولقد تفانى في عمله حتى إن فرنس باشا - الذي كان جَمَّ الرضا بإخلاص المهندس الشاب - اقترح على الحكومة المصرية أن يخلفه الشاب المجري كعضو في لجنة حفظ الآثار العربية القديمة لدى تقاعده عام 1887 كما أوصى به مشرفًا على دار الآثار العربية - متحف الفنون الإسلامية حاليًا - والتي كانت وقتذاك تعتبر مستودعًا ومخزنًا للجنة إلى جانب كونها متحفًا وطنيًا عربيًا والتي لم يتم تعيين مدير أو وكيل للإشراف على نشاطاتها بعد. طبعًا كان فرنس باشا باشمهندسًا في ديوان عموم الأوقاف أيضًا ولكن هرتس لم يخلفه في منصبه المهم هذا. وفي الوقت نفسه ابتكر منصبًا جديدًا لهرتس باشا شخصيًا لم يكن له وجود من قبل وهو منصب باشمهندس اللجنة. ومرت السنون وظل هرتس يترقى في النظام الملكي الشائع إذًا حتى حصل على رتبة الميرمران سنة 1913 والتي يقترن بها لقب الباشوية. وكانت حياة هرتس باشا سلسلة من النجاحات المتتالية والرضا المتصل حتى صيف سنة 1914 الذي سافر فيه حسب عادته إلى أوروبا مع عائلته لقضاء العطلة الصيفية فيها. وحدث خلالها كارثتان كبيرتان غيرتا حياة هرتس تغييرًا كاملاً وتسببتا في موته آخر الأمر؛ ذلك أن ابنه المحبوب أصيب بمرض التيفويد الصيفي الحاد وعمره 17 سنة وما لبث أن مات في بيت الجدين في ميلانو. زاد الطين بلة أن نشبت الحرب العالمية العظمى الأولى مما حدا بسلطات الاحتلال البريطانية في مصر وقتها إلى إحالة هرتس باشا إلى المعاش وطرده من مصر بدعوى أنه من رعايا دولة معادية لبريطانيا العظمى. ومعروف أن هرتس باشا تمسك بجنسيته المجرية إلى آخر العمر. ولحق هرتس باشا بعائلته في ميلانو في إيطاليا مسقط رأس زوجته والتي كان دائمًا يزور مع عائلته أصهاره فيها كل سنة خلال العطلة الصيفية ثم انتقل بعائلته إلى زيورخ في سويسرا المدينة التي اختارها مقامًا للمدة الباقية من الحرب بسبب اضطرابه إلى مغادرة إيطاليا سنة 1915 بعد انتقالها من حلف الدول المركزية إلى المعسكر المعادي أي حلف الاتفاق الودي وإعلانها الحرب على حليفتها الإمبراطورية النمساوية المجرية. ولكنه ما

لبث أن مرض مرضًا شديدًا لم يقدر له الشفاء منه، ذلك أنه اضطر إلى إجراء عملية جراحية مات خلالها على منضدة الجراحة في مايو سنة 1919. ودفن هرتس باشا في ميلانو بجانب ابنه المحبوب في القبر الذي صممه بنفسه لابنه الفقيد والذي دفنت فيه زوجته. أيضًا بعد 30 سنة. ولا شك أن فقدانه لابنه وعمله - وقد كانا أهم ما في حياته - قد عجلًا بنهاية رجل ظل البشر من صفاته حتى وقع فريسة للكوارثتين.

لجنة حفظ الآثار العربية القديمة

تأسست لجنة حفظ الآثار العربية القديمة سنة 1881 في إطار ديوان عموم الأوقاف بأمر عال من الخديوي توفيق. وقامت اللجنة بصيانة الآثار وإصلاحها وترميمها والحفاظ عليها وكان من مهماتها الرئيسة جرد وحصر تلك الآثار قبل كل شيء. وتوسعت سلطة اللجنة فيما بعد لتشمل الآثار القبطية سنة 1898. ويجب القول أن اللجنة كانت تعاني مشكلة انعدام وجود عمال مؤهلين للاضطلاع بالأعمال الموكولة بها وإنما كان يقوم بهذه الأعمال قلم هندسة الأوقاف. وكانت طبيعة هذه الأعمال عكس طبيعة أعماله العادية التي كان عماله معتادين عليها إضافة إلى أنه كان محملاً بالأشغال العادية وفوق طاقته على مر السنين مما أدى إلى توتر شديد وفوضى كبيرة في نشاطاته في هذا الوقت. ولهذا السبب أصبح تشكيل القسم التقني أو الهندسي الخاص باللجنة سنة 1890 بدء مرحلة جديدة في حياة اللجنة لأن مهمة هذا القسم الجديد كانت مقصورة على أشغال اللجنة فقط. وفي الوقت نفسه ابتكر منصب جديد لهرتس باشا شخصيًا وهو منصب باشمهندس اللجنة الذي لم يكن موجودًا من قبل - كما أشرنا - إلا أن باشمهندس اللجنة لم يكن رئيسها في الوقت نفسه لأن رئيس اللجنة كان دائمًا ناظر عموم الأوقاف أو وزيرها وهكذا لم يكن منصب رئيس اللجنة إلا منصبًا فخريًا فقط وأما إدارة الأعمال وتنفيذها فكانت في الحقيقة في أيدي الباشمهندس. وفي منصبه هذا كان هرتس يحدد النشاطات في مجال حفظ الآثار الإسلامية والقبطية في مصر لمدة 25 سنة. وكانت هذه الفترة مهمة جدًا لأن حالة الآثار الإسلامية والقبطية كانت تتدهور بسرعة في القرن التاسع عشر بالإضافة إلى تدفق عدد كبير متزايد من السواح الأجانب والتجار على مصر الذين قاموا بشراء التحف الأثرية

وتهريب بعضها إلى أوروبا. وأصبح منصب هرتس أهم منصب في اللجنة فيما بعد بما أن الباشمهندس كان يقرر أي الأشغال هي التي يرجى تنفيذها وأياها يمكن تأجيلها وكان أيضًا يأمر بتنفيذها ويناقش العروض مع المقاولين ويختار أحسنها ويشرف على تنفيذه إلخ. في الحقيقة كان الباشمهندس دائمًا يناقش كل هذه المواضيع مع أعضاء اللجنة في جلساتها العادية ويستشيرهم فيها إلا أن شخصية هرتس باشا الحازمة القوية أضفت أهمية خاصة على منصب الباشمهندس وكانت المحرك الحقيقي وراء نشاطات اللجنة كما كان هذا الأمر حقيقة معروفة وقتئذ. وكان هرتس باشا يُعتبر رجلاً محبوباً في مكتبه وفي اللجنة وفي كل مجالات الحياة الاجتماعية بصورة عامة لأنه كان رجلاً طيب المعشر حسن المعاملة رقيق الحاشية محباً للناس ومن ناحية أخرى كان جاداً صارماً في عمله وقام بتنفيذ مهماته بإخلاص وصدق وكان شديداً في ضبطه وربطه يلتزم دائماً بنظام دقيق في العمل.

وكانت من مشاكل هرتس الكبرى طوال مدة عمله هي أن الأموال المخصصة للجنة كانت محدودة للغاية ولم تسمح بتنفيذ كل الأعمال التي اعتبرتها اللجنة ضرورية ولا حتى بتنفيذ جزء لا بأس به منها. وفي هذه الحالة كان أمام اللجنة خياران أولهما أن توجه اللجنة الأموال الموجودة لديها إلى مشاريع محدودة وتستخدمها في الترميم الكامل لعدد قليل من الآثار والخيار الثاني أن تستعمل اللجنة الأموال المتوفرة لديها في أعمال بسيطة في عدد كبير من الآثار المهددة التي يُخشى دمارها واختفاؤها وذلك من أجل حفظها للأجيال القادمة التي سوف يكون في إمكانيتها القيام بالترميم المناسب والمطلوب. ومن حسن حظنا أن اللجنة اختارت الطريق الثاني وبهذه الطريقة نجحت في إنقاذ آثار عديدة ما كانت لتبقى حتى يومنا لو لم تكن اللجنة قد قامت بصيانتها ورعايتها. ومن ناحية أخرى لا شك أن اللجنة لو كانت قد استلمت مبالغ كبرى من الحكومة لقام هرتس طوال السنين بتنفيذ عدد أكبر من مشاريع الترميم الكامل التي يتجلى فيها فنه وخبرته بقدر أكبر.

أما طريقة العمل التي اعتمد ماكس هرتس عليها في عمله فيمكننا أن نقول إنه انتهج منهجاً حديثاً معاصراً حينئذ بما أنه فضل حفظ الآثار على ترميمها ولم يقيم بالترميم إلا إذا

اضطر إليه. فالحقيقة أن طريقة العمل المقبولة في مجال حفظ الآثار وترميمها المنتشرة في العالم في أيام هرتس باشا كانت عبارة عن إعادة الآثار إلى شكلها وهيئتها الأصليين أو شكلها وهيئتها اللذين تميزت بهما في أوج بهائها. وفي معظم الحالات كان معنى ذلك أن عددًا من الأجزاء الجديدة الدخيلة أضيفت إلى الأثر. ومن ناحية أخرى أزيل عدد من الأجزاء الموجودة - وهي أجزاء اعتبرها الجيل الجديد تافهة - وذلك من أجل توحيد طراز الأثر؛ وهكذا أصبح الأثر في حالة لم تكن فيها أبدًا في العصور السابقة. ولقد ثار جدل شديد حول صحة هذا المنهج فأصر بعض المختصين في تاريخ العمارة ونظريتها على أن الطريقة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها هي الاقتصار على المحافظة فقط. وقال علي بهجت بك أحد أعضاء اللجنة عن هرتس باشا بعد وفاته: "أما الأعمال الفنية التي تشكّلت اللجنة من أجلها أعني بذلك المحافظة على الآثار فقد أجراها هرتس باشا على الطريقة الأصولية بمعنى أنه ما كان ليحدث في الأثر الذي يتولى إصلاحه عملاً ليس له أصل فيه وكان كثير الغيرة على هذه الطريقة"⁽³⁾. والحقيقة أن هرتس درس كل المصادر الموجودة عن أثر معين بكل تفاصيلها دراسةً شاملةً عميقةً قبل أن يبدأ بعمليات المحافظة. أو الترميم ويمكننا القول بصفة عامة إن هرتس باشا كان رجلاً جاداً مدققاً في عمله وكان دائماً يضطلع بأعماله بدقة وإحكام إلا أنه قام في بعض الأحيان بإدخال عناصر لم تكن موجودة في الأثر من قبل إذا كانت الحالة تضطره إلى مثل هذه الخطوات. وذلك في إطار المنهج المعروف "بالترميم النمطي" stylistic restoration الذي يرمي إلى الترميم بالطراز الأصلي أو الرئيس للمبنى وهذا هو المنهج الذي اتبعه معظم مرمي العصر في أوروبا أيضاً رغم المناقشات حول صحتها ومقبوليتها وكان هرتس باشا متحفظاً للغاية في هذه الحالات وكان ذوقه راقياً أيضاً. ذلك أنه اشتغل في حفظ الآثار الإسلامية والقبطية التي كانت دائماً تستأنف فيها الصلوات والقدايس والطقوس الدينية من جديد بعد نهاية عمليات الترميم وكان المسلمون والأقباط بالطبع يفتقدون الأجزاء المعتادة والتراكيب

(3) توفيق إسكاروس : مكس هرتس باشا وفضله في حفظ الآثار العربية ، الهلال السنة 27 ، يوليو سنة

المألوفة التقليدية مثل دكة المبلغ أو فسقية أو سقف أو رواق. وإذا لم تتوفر المعلومات عن شكل مثل هذا العنصر وهيئته لجأ هرتس باشا إلى تصميمه على أساس من الطراز الذي تنتمي إليه مستهدياً بالوحدات الشبيهة المتبقية من العصر نفسه.

إذا أردنا أن نعدد بعض الأمثلة للصفات العامة التي تتميز بها تدخلات هرتس باشا في الآثار وجب علينا أن نقول إنه قام في بعض الأحيان بتكملة أجزاء ناقصة لم يعرف شكلها الأصلي ولكنه فعل ذلك في آثار من عصور نعرف عمارتها معرفةً مثبتةً لتوفر عدد كبير من الآثار منها. وقام هرتس بمثل هذه التكملة على طريقة القياس اعتماداً على أجزاء مماثلة مطابقة من الآثار المعروفة. وفي هذا السبيل قام بتكملة بعض المآذن في المساجد من عصر المماليك الجراكسة لأن عددها متوفر وعمارتها معروفة بهذا. ولكنه رفض أيًا من عمليات التكملة في الآثار من العصر الفاطمي مثلاً لأنه كان يرى أن مقدار المعلومات المتوفرة عن عمارة الفاطميين محدود للغاية لا يكفي للاعتماد عليه باستعمال القياس بطريقة سليمة. وهكذا امتنع عن ترميم جامع الصالح طلائع بن رزيق واقتصر على أهم أعمال الصيانة الضرورية لاعتباره أننا لا نعرف عن صورته الأصلية إلا تفاصيل قليلة جداً. والجامع المرمم الهائل الذي نشاهده الآن قد تم ترميمه في الزمان بعد طرد هرتس باشا من مصر والذي كان أقل تحفظاً وهكذا لم يمنع مرمي جيله عدم توفر التفاصيل الضرورية الكافية عن القيام بهذا المشروع الشديد الحساسية.

كما نلاحظ أن هرتس باشا قام مرات عديدة بإزالة الإضافات التي تمت في العصر العثماني في مشاريعه الترميمية في الآثار المملوكية مما أدى ببعض المختصين إلى التأكيد أن اللجنة كانت متحيزة ضد العمارة العثمانية لأسباب السياسة الدولية المعاصرة⁽⁴⁾. ولا شك أن هرتس شخصياً كان عاشقاً للعمارة المملوكية واعتبر الطراز العثماني الذي سماه "الطراز الإسطانبولي" غريباً عن العمارة المصرية دخليلاً عليها إلا أنه لم يلجأ إلى إزالة أجزاء معمارية

(4) انظر مثلاً:

- Paula Sanders: The Contest over Context: Fatimid Cairo in the Twentieth Century, in I. A. Bierman (ed.): Text & Context in Islamic Societies, Reading, 2004, p. 133-134.

تتبع إلى العصر العثماني إلا في حالات تفاهة هذه الأجزاء فقط. ومن المعروف أن العصر العثماني الذي انحطت فيه مكانة مدينة القاهرة من عاصمة غنية لدولة عظمى إلى مركز ولاية من ولايات الدولة العثمانية تميز بهبوط عام في مستوى الفنون بسبب عدم توفر الأموال المطلوبة لأن الضرائب المستخرجة من الأراضي المصرية تركت مصر لكي تستخدم في تزيين عاصمة الإمبراطورية البهية. ولهذا السبب تتميز التدخلات العثمانية في المباني السابقة بتدني القيمة المعمارية والجمالية بصورة عامة بالمقارنة بآثار العصور السابقة⁽⁵⁾. وكانت هذه هي الحال خصوصاً في المآذن المملوكية التي كانت قد انهارت أجزاءها العليا بسبب رشاقته وكملة بقمم دميعة من الطراز العثماني وقام هرتس بتعويضها من قمم بالطراز المملوكي الجميل؛ ويمكننا تقدير هذه التدخلات بالاطلاع على الصور الفوتوغرافية القديمة. وبالطبع لم يلجأ هرتس أبداً إلى مثل هذه التدخلات في آثار ذات قيمة معمارية وجمالية عالية من العصر العثماني مثل باب المزينين في الجامع الأزهر أو سبيل وكتاب الأمير عبد الرحمن كتحدا في سوق النحاسين. ومن ناحية أخرى صح أن هرتس تجنب عناصر الطراز العثماني في المباني المعاصرة معتقداً أن الطراز الوطني لمصر الحديثة يجب أن يكون الطراز المملوكي دون العناصر العثمانية تأكيداً للاستقلال النسبي في إطار الدولة العثمانية العلية.

بذل هرتس مجهوداً عظيماً من أجل إزالة الدكاكين الملاصقة لواجهات عدد كبير من المساجد المملوكية وأخذت هذه المجهودات فترة طويلة بسبب المقاومة العنيدة للملاكين هذه الدكاكين ولكون عدد منها أوقافاً ومثل نزع ملكيتها صعوبة كبيرة واحتاج إلى إجراءات قانونية معقدة. وتابع هرتس باشا في هذه العمليات المنهج المقبول في أوروبا بما أن هذا المنهج قصد صيانة المباني من ناحية لأن الدكاكين الملاصقة للواجهات تؤثر عليها تأثيراً مضرًا لأسباب عديدة منها مثلاً عرقلة تهوية الجدران مما يؤدي إلى تدهور حالتها ودمارها

(5) راجع د. حسام محمود مهدي: التدخلات العثمانية في منشآت العصور السابقة بالقاهرة - إشكاليات تواجه القائمين على الحفاظ والترميم المعماري، أبحاث المؤتمر الثالث للدراسات العثمانية في مصر. تحرير د. دانيال كريسلوس، د. محمد حسام الدين إسماعيل. القاهرة، 2004، ص 99.

التدريجي بسبب ارتفاع الرطوبة فيها؛ بالإضافة إلى استعمال البائعين للأقسام الداخلية من الآثار التي تتصل بدكاكينهم كموضع لجمع وحفظ الزبالة. ومن ناحية أخرى قصد هرتس باشا بتخلية الواجهات إعادة هذه الآثار إلى سابق رونقها لكي يستطيع المشاة والزائرون أن يستمتعوا بالرؤية الكاملة لأروع آثار العمارة العربية الإسلامية في كل العالم. أما وجهة النظر هذه فتجري مناقشات في يومنا هذا حول صحتها وإمكانية قبولها بما أن عددًا من المختصين يؤكدون أن بعض الدكاكين على الأقل وقفها الواقف نفسه على الأثر ولا يمكن اعتبارها زيادات مضرّة أدخلتها الأجيال المتأخرة على المباني الأصلية. ويؤكد البعض الآخر أن إزالة هذه الدكاكين تقطع الروابط الوثيقة التي نشأت بين الأثر ومحيطه المباشر فائقًا نسيج المدينة الطبيعي العريق؛ والمناقشة لم تنته إلى نتيجة قاطعة بعد. إلا أن بعض المرممين يفضلون اتخاذ موقع وسط وهو عبارة عن إنشاء دكاكين منفصلة عن واجهات المساجد الأثرية لأن الزائر لهذه المساجد يرى أن دكاكين جديدة تنشأ في محل الدكاكين المزالة بعد فترة قصيرة.

الآثار التي نعت بأفضل هرتس

شغل هرتس باشا منصب باشمهندس لجنة حفظ الآثار العربية القديمة من سنة 1890 إلى آخر سنة 1914 لمدة ربع قرن وربما لا يوجد أثر في القاهرة لم يقم هرتس بالعناية به. وبطبيعة الأمر يجب أن يشمل وصفٌ مفصّلٌ كاملٌ لنشاطاته معظم آثار القاهرة ولا يمكن تناول هذا الموضوع الواسع إلا في إطار تاريخ كامل للعمارة القاهرة. وبما أن هدفنا في هذا الموضوع هو إعطاء صورة عامة لأنشطة هرتس باشا سوف نقتصر هنا لذلك على ذكر ووصف موجز لأهم مشروعاته وتدخلاته على الآثار بينما نشير إلى تفاصيل مثيرة مهمة في بعض الأحيان.

- الجامع الأزهر (أثر 97؛ 970/359) - جرت أعمال ترميمية واسعة النطاق في الجامع الأزهر في زمن هرتس باشا. وقد قام ديوان عموم الأوقاف بهذه الأعمال ولكن الديوان طلب من اللجنة أن يقوم باشمهندسها بإشراف على هذه الأشغال المهمة وهكذا كان هرتس باشا يقدم تقارير مفصلة للجنة عن سير الأشغال. وقام هرتس باشا نفسه

بالإصلاح الكامل للبواكي من العصر الفاطمي حول الصحن الكبير في سنوات 1890 - 1893 تقريبًا. وهدم أعمدتها وأكتافها ثم أعاد بناءها لأنها كانت متداعية، وأزال الجدران الداعمة التي كانت العقود محشوة بها بسبب ميلها وعدم استقامتها. وأزال أيضًا الكشك الحديث من ركن من أركان الصحن ونشاهد هذه الإضافات المتأخرة في الصور الفوتوغرافية القديمة. وكانت الأعمال صعبة معقدة وظهرت مشاكل جديدة خلالها ولم يستطع المقاول إتمام الأعمال المطلوبة واضطر إلى استبداله بمقاول آخر. وهكذا أعاد هرتس الصحن إلى سابق رونقها. وربما كانت الصعوبات المذكورة هي السبب في أن الزخارف الداخلية على الأكتاف في الواجهة القبليّة الشرقية للصحن لم ينجح هرتس في المحافظة عليها بوضعها الأصلي خلال هدم الأكتاف وإعادة بنائها لأن الزخارف الهائلة التي نشاهدها حاليًا تختلف عن الزخارف الأصلية⁽⁶⁾. ونفذ ديوان عموم الأوقاف أعمالاً ضخمة لتشكيل واجهة بحرية غربية جديدة للجامع بمناسبة إنشاء الرواق العباسي في أواخر القرن التاسع عشر. وبمناسبة هذه الأشغال قام هرتس باشا بترميم باب المزينين الذي يعتبر باب الجامع الرئيس. وحاول الديوان وهرتس أن يحتفظا بالكتاب أعلي الباب ولكن اللجنة اعتبرته عديم القيمة المعمارية والتاريخية ونظرًا للصعوبات التي يشكّلها حفظها قررت هدمه وإزالته⁽⁷⁾. وفي إطار هذه الأعمال قرر الديوان هدم وإزالة مأذنة

(6) مسائل مقتضى نظرها بمجلس الأوقاف الأعلي بجلسته التي - ستنعقد - في يوم الثلاثاء 21 مايو سنة 1904 ، نمرة 20. دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، محفظة عابدين 610. كراسة لجنة حفظ الآثار العربية القديمة، مجلد 7، سنة 1890، ص 95-96 ؛ مجلد 8 ، سنة 1891 ، ص 42. تقرير هرتس باللغة الفرنسية قدمه للجلسة الثانية والأربعين للجنة بتاريخ 24 مايو سنة 1890. صورة ما قاله القومسيون الثاني للجنة حفظ الآثار القديمة العربية ضمن تقرير نمرة 90 بشأن الجامع الأزهر، طبق الأصل تاريخ 7 صفر 1308. تقرير هرتس باللغة الفرنسية قدمه لأعضاء القومسيون الثاني بتاريخ 6 يناير سنة 1892. ملف الأزهر (أثر 97). إدارة المحفوظات الإسلامية والقبطية، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة. راجع أيضًا :

- K.A.C. Creswell: The Muslim Architecture of Egypt, Oxford, 1952-1959, vol. I, p. 41-42, 42 (note 1), 44, 49-52, 254-257.

(7) تلخيص رسالة ديوان عموم الأوقاف للجنة بتاريخ 2 يناير 1896 وإجابة هرتس بتاريخ 12 يناير 1896. تلخيص إجابة ديوان عموم الأوقاف بتاريخ 24 يونيو 1897 على رسالة اللجنة بتاريخ 13 يونيو 1897. إدارة المحفوظات الإسلامية والقبطية، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة.

الأمير عبد الرحمن كتحدا جنب باب المزينين باعتباره المأذنة "ذات طراز غير عربي" لكي تكون للجامع واجهة منظمة مستقيمة موحدة نسيبًا. ومن المعروف أن الجامع لم تكن له واجهة من قبل لأنه كان مشتبكًا في نسيج المباني المحيطة به تشبكيًا تامًا. وطلب مدير عام الديوان رأي اللجنة في هذا الموضوع وفرنس باشا وهرتس باشا لم يريا مانعًا من هذه الخطوة المقترحة⁽⁸⁾. وقامت اللجنة بترميم المدرسة الجوهرية تحت إشراف هرتس باشا سنة 1896 ومن ناحية أخرى أجرى هرتس أعمال الترميم على المدرستين الأقباوية والطبرسية سنة 1897. ووضع هرتس مأذنة السلطان الغوري تحت مراقبة صارمة بإجراء تفتيش دوري عليها من سنة 1896 حتى سنة 1908 بسبب ميلها المهدد بالخطر واضطر هرتس خلال هذه الأعمال إلى الإزالة المؤقتة للقمة الكروية الشكل القبلية الشرقية من المأذنة.

- الجامع الأقمر (أثر 33؛ 519/1125) - قام هرتس بإخلاء الثلثين الشماليين للواجهة الرئيسة وأزال المحلات المشوهة والحاجة لها. وطالت هذه العمليات بسبب المصاعب القانونية لكونها أوقافًا ولأن مفتي الديار المصرية أفتى بأن الشريعة لا تسمح بإزالة محلات موقوفة بعلّة إخلاء واجهات المساجد. وأخذ حل هذه المشاكل قرابة 12 سنة في بداية القرن العشرين ولكن هذا المشروع أحدث ضجة حقيقية فور انتهائه لما ظهرت الواجهة بكل رونقها والتي لم يكن يتصور أحد جمالها وعظمتها بسبب كونها محجوبة تمامًا. وبذل هرتس باشا مجهودًا عظيمًا من أجل تخليّة الثلث الباقي من الواجهة لقيمتها الفنية والتاريخية الهائلة ولكنه فشل في مجهوداته وأخلتها أخيرًا طائفة البهرة الإسماعيلية الشيعية من الهند بين سنتي 1987 و1995 بعد أن نجحت في توفير تعويض مقبول للملكية المحلات الحاجة لباقي الواجهة. إلا أن البهرة اكتشفوا أن معظمها كانت خالية لأن أغلبية زخارفها كانت قد تلاشت بمرور السنين وقاموا لذلك بإعادة تشكيلها على مثال الثلثين الموجودين. وتوجد مراسلة جديدة بالذكر في إدارة المحفوظات

(8) رسالة مدير عام الأوقاف إلى اللجنة بتاريخ 10 أبريل 1894 وملاحظة هرتس على ظهرها. ملف الأزهر (أثر 97). إدارة المحفوظات الإسلامية والقبطية، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة.

الإسلامية والقبطية في المجلس الأعلى للآثار بالقاهرة من سنة 1903 يشير هرتس فيها إلى أن بعض الأحجار المنقوشة بكتابات تم خلطها على الواجهتين الغربية والشمالية وعاتب المهندس كليبل Klippel على خطئه عتاباً شديداً. وكتب كليبل في رده الأول أنه كان يبذل كل الجهود في هذه العملية بما قام هو شخصياً من ترقيم الأحجار ومراقبة الترتيب الصحيح ولا يستطيع أن يتصور كيف حدث مثل هذا الخطأ المنكر. وأما رده الثاني فكتب فيه أنه بحث الموضوع بحثاً دقيقاً ووجد أنه لا يمكن إرجاع الأحجار إلى الترتيب الصحيح بسبب الأحجام المختلفة للأحجار ولذلك رأى أن الخلط قد حدث في زمن من الأزمان المتقدمة وربما خلال عمليات ترميم سابقة⁽⁹⁾. وأما مأذنة الجامع فلم يقم هرتس بترميمها أو بإعادة بنائها لسبب عدم معرفتنا بالمآذن الفاطمية رغم أن الجزء الكبير من المأذنة الحالية عبارة عن قطعة بسيطة قبيحة من العصر العثماني ليست لها أية قيمة فنية أو تاريخية.

- مجموعة السلطان المنصور قلاوون (أثر 43 ؛ 683-684 / 1285-1284) - كان

الترميم الكامل لهذه المجموعة المعمارية الهائلة من مشاريع هرتس الأخيرة ولكنه لم يستطع إتمامه لأنه طُرد من مصر قبل تكميل الأعمال. وبدأ بالترميم الكامل لضريح السلطان حيث مَثوى صاحبه وتلفت النظر هنا إعادة هرتس لبناء قبة الضريح. ومن المعروف أن الأمير عبد الرحمن كَتَخدا هدم أعلى القبة الكبيرة سنة 1190 / 1776-1777 ولم يعد عمارتها بل سقف الضريح فقط، وهدم أيضاً القبة التي كانت بأعلى الفسحة من خارج الضريح ولم يُعَدَّ عمارتها بل تركها مكشوفة. ومن المحتمل أنه هدم القبتين بسبب تدهور حالتها⁽¹⁰⁾؛ ولا نعرف هل القبتان اللتان هدمهما الأمير كانتا القبتين الأصليتين أم لا.

(9) رسائل من 9 و 11 و 22 يوليو و 6 أغسطس سنة 1903. ملف الجامع الأقمر (أثر 33). إدارة المحفوظات الإسلامية والقبطية، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة. وربما يحتاج هذا الموضوع إلى مزيد من البحوث.

(10) عبد الرحمن بن حسن الجبري: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحرير عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة 1997-2003، ج 2 (3)، ص 9. د. آمال العمري: دراسة جديدة على ضريح المنصور قلاوون بالنحاسين، دراسات آثارية إسلامية، مجلد 3، سنة 1988، ص 47 - 61.

وهكذا كان الضريح عديم القبة في عصر هرثس باشا. وأعاد هرثس بناء قبة الضريح على مثال قبة تربة الأشرف خليل ابن قلاوون بجهة السيدة نفيسة في القرافة لأنه رأى أن "زي" قبة قلاوون - أي شكلها - محفوظ في قبة تربة ابنه "وأسطوانة" هذه القبة - أي طبلها أو طبلتها - تشابه كثيرًا "أسطوانة" قبة قلاوون ولذلك رأى أيضًا أنه "لا صعوبة في إعداد القبة الناقصة". وقصد هرثس إعادة بناء القبة الأخرى أيضًا كما يتبين هذا من الرسوم المحفوظة في إدارة المحفوظات الإسلامية والقبطية في المجلس الأعلى للآثار بالقاهرة ولكنه لم يفعل هذا آخر الأمر لسبب مجهول⁽¹¹⁾. وأراد هرثس إعداد قبة الضريح من "طوب مفروغ" لأنه من المعروف أن القبر عملت أصلاً من طوب محروق وبعد ذلك من حجر الجير أيضًا واعتبارًا من القرن السابع عشر من الخشب. ولقد استعمل هرثس الطوب في إعداد قبة جامع السلطان برقوق أيضًا ولكن الخواجة سيلفاني (Carlo Silvagni) Virgilio المقاتل الإيطالي الأصل الذي اشترك في العديد من مشاريع اللجنة الترميمية تقدم بعباء اقترح فيه تجديد القبة بطريقة هنيك Hennebique الحديثة لأنها "ذات متانة وخفة في الثقل" وتوفر نحو 141 جنيهًا وكسور من النفقة المقدرة لها بالمقاييس⁽¹²⁾؛ وقُبِلَ عطاؤه. وكانت طريقة هنيك المذكورة طريقة حديثة معاصرة يومئذ والتي كانت عبارة عن بناء من الخرسانة المسلحة وضع أساسه فرانسوا هنيك في التسعينات من القرن التاسع عشر رغم أننا ربما لا نوافق على استعمال الخرسانة المسلحة في مثل هذه المشاريع في يومنا هذا. ومن ناحية أخرى كانت قاعدة الجدار قد بدأت تتدهور وأخذت كسوته الرخام تتفتت وذلك لانعدام التهوية بسبب ملاصقة الدكاكين المعروفة

(11) كراسة لجنة حفظ الآثار العربية القديمة، مجلد 18، سنة 1901، ص 149. توافق كلمة "زي" كلمة "galbe" في نص الأصل الفرنسي الملحق بالكراسة ولا شك أن قصد هرثس هنا هو الشكل والمنظر للقبة ولكنه من الواضح أن "زي" قبة قلاوون لم يكن معروفًا في الحقيقة وإنما توقع هرثس تشابه القبتين. انظر رسمًا لإعادة بناء قبة الفسحة في دراسة د. آمال العمري المذكورة، ص 55 (شكل 3).

(12) مسائل مقتضى نظرها بمجلس الأوقاف الأعلى بجلسته التي ستعقد في يوم الثلاثاء 12 أبريل سنة 1904، نمرة 51. دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، محفظة عابدين 610.

لِلواجهة الرئيسة الحاجة لها. وبدأ هرتس أعمال الترميم بإزالة الدكاكين التي تطلبت مجهودات مطولة متصلة. وأنشأ هرتس خندقاً أمام واجهة الضريح لإخلائها الكامل وعزلها من أجل حمايتها من الرطوبة لأن مستوى أرضية الشارع كان قد ارتفع بطول إنسان تقريباً خلال مئات السنين. وأكمل هرتس عمله هذا أيضاً بنجاح ممتاز. أما المارستان فكان أعظم وأروع منشأة طبية في العالم كله في أيام إنشائه ولكنه تأثر بتقلبات العصور تأثراً شديداً وتدهورت حالته إلى درجة كبيرة حتى إنه لم يبق منه إلا بقايا قليلة جداً. وقام هرتس بحفريات اكتشف خلالها بعض الآثار الفاطمية من أهمها ألواح الخشب المنحوتة وحوضان من فسيفساء الرخام وشاذروانان أو سلسبيلان في الإيوانين الشرقي والغربي ولقد ضاع معظمها إلى يومنا هذا. وظهرت مشكلة كبيرة جرت بسببها مناقشات مطولة بين ديوان عموم الأوقاف واللجنة لما قرر الديوان إنشاء محل جديد لمستشفى قلاوون الرمدي الخيري في صحن المارستان القديم ضمن الإصلاحات الضرورية للمستشفى لأن اللجنة اعتبرت إنشاء مبنى حديث في وسط أهم أثر مدني في مصر جريمة كبيرة بخصوص أن عدد الآثار المدنية قليلة للغاية ورفضت هذه الفكرة رفضاً قاطعاً. وكان الديوان يبحث عن قطع أرض ومحللات مناسبة مجاورة لمجموعة قلاوون ابتداءً من أول نشوء هذه الفكرة سنة 1896 إلا أنه لم ينجح في شرائها لأن بعض المُلّاك طلبوا مبالغ جسيمة في أثمان محلاتهم. ومن ناحية أخرى رأى الديوان أيضاً أن بناء مستشفى تابع لوقف قلاوون في موضع مجاور لمجموعة السلطان ربما لا يساعده شرط الواقف لوجود مستشفى داخل مسجده وهو "المرصد للصرف عليه من إيراد وقفه". وأصر الديوان على المشروع وأتم إنشاء المستشفى الجديد سنة 1910⁽¹³⁾. أما المدرسة فكانت حالتها سيئة عند بدء الأعمال لأن بعض أجزائها كانت ناقصة بسبب تقلبات مئات السنين وبعض أجزائها الآخر قد شوّهته تدخلات الأجيال المتعاقبة. وأزال

(13) مسائل مقتضى نظرها بمجلس الأوقاف الأعلى بجلسته التي - ستعقد - في يوم الخميس 8 مايو سنة 1905، نمرة 43. دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، محفظة عابدين 611.

- Max Herz-Pascha: Die Baugruppe des Sultans Qalaun in Kairo, Hamburg, 1919, p. 45-46.

هرتس معظم آثار هذه التدخلات وفتح العقود المسدودة وأعاد الأعمدة المتداعية إلى الخط الرأسي وقواها قاصداً إعادة بناء المدرسة وترميمها الكامل إلا أنه لم يستطع إتمام هذا المشروع بسبب طرده من مصر أواخر سنة 1914 وقام خلفه في وظيفته أكيلي باتريكولو Patricolo Achille بتكميل المشروع. ويتبين في المدرسة المرممة أن تصورات باتريكولو عن المدرسة اختلفت عن تصورات هرتس باشا التي نعرفها من الرسم المطبوع في دراسته عن مجموعة قلاوون التي صدرت بعد وفاته. ويظهر هذا الرسم اعتقاد هرتس أن هذا البناء قد تأثر بالعمارة الأوربية تأثراً عميقاً كما يتبين هذا التأثير المتميز في عمارة الضريح ومنظر واجهته أيضاً. ذلك أن هرتس اعتقد أن العرب والأوربيين تبادلوا تأثيرات عديدة خلال الفترات السلمية الهادئة في عصر الحروب الصليبية⁽¹⁴⁾. وأورد هرتس معلوماته ونتائج أعماله في ترميم مجموعة قلاوون ونتائج بحوثه في هذا الموضوع في مؤلف هائل لم يعش ليشهد صدوره. وهذا الكتاب عبارة عن دراسة مفصلة عميقة عن أثر من أهم الآثار الإسلامية في مصر ولكن هرتس ألفه في ظروف سيئة في منفاه في سويسرا وهو عاجز عن مراجعة كتبه وأوراقه وصوره الفوتوغرافية وأرشفيف اللجنة ومجموعتها للصور الفوتوغرافية ومكتبتها لأن كل هذا كان في القاهرة. ومن المعروف أن هرتس اضطر إلى ترك معظم ممتلكاته في مصر عند مغادرته المفاجئة للبلاد، وهكذا إنه من دواعي الأسف الشديد ومن سوء حظ علم التاريخ وتاريخ الفنون أن هذا المؤلف العظيم لا يمثل الملكات الحقيقية لمؤلفه⁽¹⁵⁾.

- جامع السلطان حسن (أثر 133 ؛ 757-764/1356-1362) - يعد جامع السلطان حسن من أجمل الآثار العربية الإسلامية في مصر بل يعتبره بعض المتخصصين ومحبي العمارة الإسلامية أروع أثر إسلامي في كل العالم مطلقاً. وكان هذا المبنى الهائل في حالة تدعو للقلق في القرن التاسع عشر بسبب تأثيرات تقلبات القرون. ونوى هرتس

(14) انظر وصف ضريح قلاوون في تاريخ الفن الإسلامي لهرتس بك باللغة المجرية الذي صدر في تاريخ فنون العالم تحت إشراف وزارة التعليم المجرية في بودابست سنة 1907 ، ص 149 - 251.

Herz-Pascha: Die Baugruppe..., Tafel 27, Abb. 37.

(15) Herz-Pascha: Die Baugruppe.

إعادة بنائه بالكامل ولكن مثل هذه الأعمال تتطلب أموالاً كبيرة جداً لم تكن متوفرة لدى اللجنة. ومن أجل لفت الأنظار ألف هرتس ونشر كتاباً ضخماً عن هذا الأثر العظيم⁽¹⁶⁾ ونجح آخر الأمر في جمع المبالغ المطلوبة. وبدأ مشروع الترميم الكامل في بداية القرن العشرين وأتمها أيضاً قبل طرده المفاجئ من مصر بعد شوب الحرب العالمية العظمى الأولى ولم تبق إلا أعمال بسيطة جداً أكملها باتريكولو خلال الأعوام التالية. وهكذا حالف هرتس النجاح في الإبقاء على هذا الأثر الخالد ذخراً للأجيال القادمة. وكان هرتس على يقين من أن القبة الأصلية كانت قد سقطت سنة 1660 م وأعيد بناؤها في عصر الوالي العثماني إبراهيم باشا (كان والياً من سنة 1661 م إلى سنة 1664 م) بشكل يختلف عن شكلها الأصلي لأن القبة الأصلية كانت أكثر ارتفاعاً وبيضية الشكل - ربما مثل قبة مدرسة الأمير صرغتمش - وكان سطحها مزخرفاً أيضاً حسب الأخبار المعاصرة. ولكن هرتس قرر إعدادها بشكلها العثماني الذي يشابه قبة مسجد سنان باشا ببولاق (1571/979) وقبة مسجد محمد بك أبي الذهب (1774/1188) جنب الأزهر لأنه لم تتوفر لديه المعلومات الوافية لترميمها بشكلها الأصلي. واستعمل هرتس الخرسانة المسلحة في هذا المشروع أيضاً⁽¹⁷⁾. وكانت حالة بلاط الصحن سيئة جداً ولقد رأى هرتس أن ترميمه يُعد مشكلة كبرى لأنه اعتقد أول الأمر أن أرضيته اللطيفة الدقيقة الصنع لا يمكنها أن تكون هي الأرضية الأصلية بل ترجع إلى ترميم قديم مجهول التاريخ؛ لأنه رأى أن الصحن المتسعة المفتوحة تتميز بأرضيات بسيطة ذات رسومات كبيرة وذلك بسبب التأثيرات المضرة للطقس والجو. وأما الأرضية المشغولة شغلاً دقيقاً والتي بها لحامات عديدة فهي "لا تمكث" زمناً طويلاً تحت التأثيرات الجوية وتستدعي وجود السقف؛ ولذلك يقتصر استعمالها على الصحن المسقفة الموجودة في الجوامع الصغيرة الحجم فقط. إلا أن هرتس غير رأيه خلال سير الأعمال؛ لأن مقارنة الصور الفوتوغرافية

هذا Max Herz Bey: La mosquée du Sultan Hassan au Caire, Le Caire, 1899 (16) وصدر هذا

الكتاب بترجمة علي بك بهجت إلى اللغة العربية. ماكس هرتس بك: جامع السلطان حسن بمصر، القاهرة 1319 / 2190.

(17) Herz Bey: La mosquée du Sultan Hassan..., p. 17-18, 23, 26, 28.

التي عملت قبل الترميم والتي عملت بعده تثبت أنه قام بترميم الأرضية على ما كانت عليه ولم يغير صورتها وتركيبها. أما الشرفات التي لم يزل بعضها متوجًا في يومنا هذا أعلى واجهات الضريح والواجهة الشمالية الشرقية فتظهر في صور عديدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر لكنها كانت ناقصة في عصر هرتس؛ ومثل هذه الشرفات موجودة في بعض المباني المملوكية أيضًا. وشرع هرتس بإعادة وضعها إلا أن أحد أعضاء المجمع العلمي المصري أونوفريو أباتي باشا Pasha Abbate Onofrio⁽¹⁸⁾ انتقد هذه الخطوة نقدًا شديدًا ورفض إعادة وضعها رفضًا قاطعًا لاعتباره أن الشرفات عناصر غريبة دخيلة في هذه الأجزاء من الجامع. وجرت مراسلات ومناقشات حادة مطولة في اللجنة حول صحة هذه الخطوة أم بطلانها فانضم أعضاء اللجنة إلى جانب باشمهندسها مؤيدين وجهة نظره باعتبارهم أباتي باشا رجلًا محترمًا غير متخصص في هذا المجال لا يُلقَى بالٍ لرأيه فضلًا عن أنه أكد عدم كونه خبيرًا في العمارة العربية الإسلامية وتاريخها بل هاويًا عاشقًا لهما فقط باعتباره طبيبًا. والحقيقة أنه لا يوجد دليل مطلق قاطع على وجود هذه الشرفات الأصلي على كورنيش الجامع لأن الصور والرسومات التي تظهر الشرفات المذكورة فيها قد عملت بعضها عن بعض ولا شك أن معظمها يرجع إلى مؤلفات باسكال كوست Pascal Coste المعروف بعدم دقة صوره ورسوماته بالنسبة إلى كل تفاصيلها. ولم تقنع أباتي باشا المحاولات لاكتشاف آثار تثبيت الشرفات ومن الواضح أيضًا أن هرتس نفسه كان متأكدًا من وجود هذه الشرفات الأصلي. ومن ناحية أخرى ليس عندنا أي دليل يثبت أن هرتس اعتمد على صور ورسومات كوست فقط في نظره في الشرفات⁽¹⁹⁾. ولقد وضعها هرتس في آخر الأمر على كورنيش الضريح وهي لم تزال

(18) طبيب إيطالي ولد سنة 2418 في بالرمو في إيطاليا وتوفي سنة 1915 في القاهرة، كبير الأطباء في الجيش المصري ورئيس الجمعية المصرية الخديوية للجغرافيا.

(19) Herz Bey: La mosquée du Sultan Hassan..., p. 26-28, pl. IV, X. Procès-verbal du 2 Mai 1904, Bulletin de l'Institut Égyptien 4. sér., no. 5, fasc. 3, 1904, p. 94. Onofrio Abbate: Observations d'urgence sur les réparations à la mosquée du Sultan Hassan, Bulletin de l'Institut Égyptien 4. sér., no. 5, fasc. 3, 1904, p. 95-98. Id.: Lettres à S. E. Yacoub Artin Pacha, Bulletin de l'Institut Égyptien 4. sér., no. 5, fasc. 5, 1904, p. 148-153. Procès-verbal du 5 décembre, Bulletin de l'Institut Égyptien 4. sér., no. 5, fasc. 5, 1904, p. 142-143.

موجودة إلى يومنا هذا. ووضعها أيضًا على الكورنيش المتوج للواجهة العظيمة الشمالية الشرقية ولكن هذه الشرفات الأخيرة قد تلاشت وناقصة حاليًا. ورمم هرتس قبة الفسقية الكبيرة الجميلة في وسط الصحن. ومن المعروف أن فسقية أخرى صغيرة كانت موجودة أيضًا جنب الفسقية الكبيرة الأصلية قبل الترميم. واعتبر هرتس الفسقية الصغيرة منشأة متأخرة التاريخ عثمانية غربية بالنسبة إلى جامع السلطان حسن دخيلة عليه ولكنه رأى من ناحية أخرى أن الفسقية الصغيرة "هيئة" - أي تركيبة - على مستوى مقبول يمثل ذوق عصره ولذلك يجب الاحتفاظ بها. وقرر نقلها إلى جامع المارداني الذي جرى ترميمه في الوقت نفسه والذي لم تكن فيه فسقيةٌ وتم نقلها إلى الصحن المرمم. وانتقد كثيرون هذا القرار مفتقدين المنظر الرائع للفسقية الصغيرة في صحن جامع السلطان حسن وتحت تأثير هذه الانتقادات والاعتراضات قررت اللجنة إرجاع الفسقية إلى مكانها السابق. إلا أن فضيلة شيخ الأزهر اعترض على القرار الجديد اعتراضًا شديدًا باعتباره أن طلاب الأزهر الدارسين في جامع المارداني والذين بلغ عددهم قرابة 1500 احتاجوا إلى الفسقية التي نصبت هناك؛ ومن المعروف أن الجامع الأزهر كان مضطربًا في هذه السنين إلى اللجوء إلى التدريس في بعض المساجد والجوامع الأخرى إضافةً إلى الجامع الأزهر نفسه لكثرة الدارسين. وسأل هرتس اللجنة عن رأيها في الموضوع وقررت اللجنة ترك الفسقية كما هي في مكانها الجديد⁽²⁰⁾. واكتشف هرتس خلال أعمال الترميم بقايا ميضأة جامع السلطان حسن الأصلية ورممها هي أيضًا وكرس مقالة علمية عن الفسقيتين والميضأة. ذلك أنه تساءل لماذا أنشأ العثمانيون فسقية صغيرة جديدة جنب الفسقية الرائعة الكبيرة الأصلية؛ ومن ناحية أخرى اهتم هرتس بالعلاقة بين الفسقية الكبيرة والميضأة متسائلًا لماذا استعمل المصلون الفسقية الكبيرة للوضوء رغم وجود ميضأة مخصصة لهذا الغرض في الجامع ولماذا توقفوا عن استعمالها حتى إنها تدهورت واختفت تمامًا فيما بعد. وأكد هرتس أن الفسقية الكبيرة قد أنشئت للزينة فقط ولرفع رونق وجمال الصحن بينما أقيمت ميضأة مخصصة للوضوء في جناح من أجنحة المبنى

(20) Herz Bey : La mosquée ..., p. 28, note 2. Comité Bulletin vol. 20, 1903, p. 6, 37; vol. 21, 1904, p. 51; vol. 29, 1912, p. 99, 112; vol. 30, 1913, p. 80; vol. 31, 1914, p. 54-55.

ولكن العثمانيين الذين كانوا قد تعودوا في مناطقهم المركزية في الأناضول على الوضوء في صحون الجوامع حسب بنية الجوامع العثمانية المختلفة عن بنية الجوامع المصرية التزموا عاداتهم في ولايتهم الجديدة أيضًا وأنشؤوا فسقية جديدة - هي خزان ماء بسيط بصنبور مغطى بقبة خشبية - جنب الفسقية الأصلية الكبيرة في الصحن لأن مذهب الإمام أبي حنيفة الذي ينتمي معظم العثمانيين إليه يشترط استعمال الماء الجاري للوضوء خلافًا للمذهب الإمام الشافعي المنتشر في مصر الذي يعد أن الوضوء يصح في حوض الفسقية الكبيرة الأصلية واقتدي المصريون بالعثمانيين وأهملوا الميضاة التي هُجرت واختفت تمامًا. وكانت هذه المقالة مثيرة للاهتمام إلا أن هرتس أخطأ لما أكد أن الفسقية الكبيرة كانت قد أنشئت للزينة فقط لأن وقفية الجامع التي لم تكن معروفة في عصر هرتس والتي لم يكشفها الدكتور مصطفى صالح لمعي إلا في الستينات من القرن العشرين تثبت أن الفسقية الكبيرة في وسط الصحن أنشئت من أجل الوضوء أيضًا كما كان الحال مع الميضاة⁽²¹⁾. وكان هذا هو الحال في جوامع أخرى مثل مدرسة الأمير صرغتمش التي بنيت سنة تأسيس جامع السلطان حسن (1356/757). أما رأي هرتس في عدم إمكانية الوضوء في حوض الفسقية الكبيرة وسط الصحن لسبب قربها من الإيوان القبلي والمحراب للتعارض بين نجاسة مكان الوضوء وقداسة الإيوان القبلي والمحراب، فمن المحتمل أنه يرجع إلى رؤيته عن الكنائس المسيحية. إلا أننا نقرأ في المقريري محادثة ظريفة في باب الجامع الأقمر تشير إلى رأي منافر في هذا الموضوع حيث قال المقريري إن أميرًا من المماليك جدد الجامع سنة 1396/799 وجدد في صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقية وجعلها مرتفعة ينزل منها الماء إلى من يتوضأ من بزابيز نحاس وقال له المقريري إن عمل بركة الماء لم يعجبني لأن بركة الماء تضيق الصحن وقد أنشأت ميضاة بجوار أحد

(21) Max Herz: Observations critiques sur les bassins dans les sahn des mosquées, Bulletin de l'Institut Égyptien 3. sér., no. 7, 1896, p. 47-51.

مصارف وقف السلطان حسن. ملحق بتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه للحسن بن عمر بن الحسن ابن عمر بن حبيب، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة، 1976-1986، الجزء الثالث، ص 388 (انظر السطرين 1202 و 1203).

أبوابه واحتج الأمير بأن في البركة عونًا على الصلاة لقرىها من المصلين⁽²²⁾. وأما التفريق بين الحوض للشافعيين وخزان الماء البسيط بصنبور - المسمى بحنفية - للحنفيين فهو معروف في مصر: مثلاً بُنيَ مسجد الأمير محمد في مدينة أخميم في الصعيد سنة 1683/1095 في العصر العثماني واشترطت حجة وقفه تزويده بحنفية معدة لوضوء "السادة المقلدين للإمام أبي حنيفة" - ومن المحتمل أنه قصد "بالحنفية" هنا الخزان المذكور - وبفسقية معدة لوضوء الشافعية والمالكية - وقصد بالفسقية هنا الحوض الذي ذكرناه أعلاه. أما أمرُ هذا التفريق هل يرجع إلى التقاليد فقط أم له أصل في فقه العبادات فيحتاج إلى بحث خاص في المستقبل - إن شاء الله تعالى - إلا أن أمر هذا المسجد يثبت الدور المهم من عادات وتقاليد الأجيال المتقدمة في تخطيط الجوامع إلى درجة كبيرة لأن ما يخص مجرد طهورية الماء فصح استعمال خزان الحنفيين لوضوء الشافعيين والمالكيين أيضًا ولم يكن ضروريًا إنشاء حوض خاص لهم⁽²³⁾.

- مدرسة السلطان برقوق (أثر 187 ؛ 786 - 788/1384 - 1386) - قام هرتس بالترميم الكامل لهذه المدرسة الرائعة في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر أصلح خلاله إصلاحًا كاملاً السقف المحلي في الإيوان القبلي أيضًا. ويتكون هذا السقف من ثلاثة أجزاء وأما الجزء الأوسط فشكّلت حالته السيئة صعوبة كبيرة لأن ألوانه قد كَلَحَتْ إلى درجة أنه لم تكن موجودة إلا أجزاء بسيطة للغاية منها. واعتنى هرتس بترميمه

(22) عبد اللطيف إبراهيم: نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 37، سنة 1965، ص 146. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، بولاق، 1270، الجزء الثاني، ص 290. المرجع نفسه بتحقيق د. أيمن فؤاد سيد، لندن، 2002-2003، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص 154.

(23) جمال عبد الرؤوف عبد العزيز: مسجد الأمير محمد بأخميم من خلال حجة وقفه 1683 / 1095، دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية. الكتاب التقديري للأثاري عبد الرحمن محمود عبد التواب، القاهرة، 2000-2001، الجزء الأول، ص 91، 98، 101.

- Julius Franz-Pascha: Die Baukunst des Islam, 2nd ed., Darmstadt, 1896, p. 126. John Michael Rogers: Sinan, (Makers of Islamic Civilization), London, 2006, p. 17.

عناية كبيرة وبذل مجهودًا عظيمًا في المحاولات من أجل إصابة الألوان الأصلية خصوصًا بالنسبة إلى أصنافها ودرجاتها. وكانت المسألة هي: هل يستخدم ألوان زاهية طازجة كتلك التي رآها المصلون عند انتهاء البناء وقبيل افتتاح المدرسة، أم تستخدم ألوان ضعيفة يبدو عليها فعل الزمان ومنسجمة مع عقب التاريخ؟ ومن أجل حسم هذه القضية قام هرتس بإعداد نماذج بألوان متفاوتة الدرجات، وقدمها للجنة للتصويت لصالح أفضلها، وقد صوتت اللجنة، وبعد نقاش طويل اختار هرتس آخر الأمر الألوان الزاهية المضيئة. ويرى معظم المتخصصين في عصرنا هذا أن هذا الحل قد حاله التوفيق إلا أن الزخارف المتألقة أدهشت بعض المعاصرين الذين كانوا قد تعودوا على الألوان الضعيفة المخففة في الآثار القديمة ولكن أغلبية المواطنين المصريين والهواة الأجانب شاركوا وما زالوا يشاركون خبير الآثار الكبير حسن عبد الوهاب في تقديره لنتيجة هذه المجهودات والذي كتب ما يلي عن أعمال الإصلاح في البروقية بصورة عامة فيما يشتمل على سقف الإيوان القبلي أيضًا: "والحق أنه عمل جليل يعد من مفاخر هذه اللجنة وبرهانًا ساطعًا على مقدار دقتها وعنايتها بالآثار الإسلامية"⁽²⁴⁾. والحقيقة أن مشكلة درجات الألوان مشكلة كبيرة معقدة لا يمكن حلها بطريقة بسيطة سهلة والمشكلة الأساسية هي أن كل الألوان تتغير مع مرور السنين بسبب التغيرات الذاتية للمركبات الكيميائية التي تتركب الألوان منها وتحت تأثيرات البيئة مثل الحرارة والبرودة والرطوبة فضلًا عن أن هذه التغيرات ليست متعادلة بل تختلف من طلاء إلى آخر ومن مزيج إلى آخر. وليست لدينا معلومات عن درجات هذه التغيرات البتة لأن كل الألوان تخضع لمثل هذه التغيرات بلا استثناء ولا توجد عندنا عينات موثوق بها مستقلة من أي عصر سابق. ولذلك وجب علينا أن نسأل أنفسنا عن أصل وصلاحيه معلومات هرتس باشا هل هي موثوق بها أم لا وإذا كان جوابنا بالإيجاب فإلى أي حد يمكننا أن نوافق على ترميماته للألوان. وأنا شخصيًا أظن أن

(24) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، الطبعة الثانية، القاهرة، 1994، ص 197. فيما يخص

النماذج الكبيرة الحجم انظر:

- Ludwig Borchardt : Max Herz-Pascha, Zentralblatt der Bauverwaltung 39, 1919, p. 368.

خبرة هرتس الكبيرة الناجمة عن اشتغاله الكلي بالآثار وتكريس حياته لها، فضلاً عن معارفه العميقة بجوانب الفن التطبيقي في مصر والعالم الإسلامي وكذا اطلاعه الواسع على المخطوطات المصورة؛ كل هذا كفل له صواب المنحى على قدر الإمكان فيما سلك من طريق لترميم الألوان. ذلك أنه يغلب على الظن أن الإحاطة بهذه المجالات كلها علمًا تعطي صورة عامة موثوقًا بها إلى درجة كبيرة عن الألوان لأن العدد الكبير من النماذج يستبعد الأخطاء بقدر الإمكان بما أنه يساوي بين الأمثلة المتطرفة ويستبعد القيم القصوى المصادفة. وبطبيعة الحال لا يمكننا التوصل إلى نتيجة مطلقة في هذا المجال إلا أن الفكرة الأساسية وراء هذا التعليل هي أن أغلبية الألوان تحتفظ بدرجاتها الأصلية ولا تخضع للتغيرات المذكورة إلا أقلية بسيطة منها ومن الممكن تجنب الدرجات المتطرفة على هذا السبيل.

ولقد ارتأى هرتس أن الدكة والحنفية الحديثي الصنع البسيطين لم تنفقا ورونق المدرسة وقرر الاستعاضة عنهما بمنشأتين مكافئتين لأن الدكة والفسقية الأصليتين لم تتوفر عنهما أية معلومات. وكانت الحنفية التي وصفها هرتس "بالحنفية القبيحة" عبارة عن خزان ماء بسيط مزود بصنابير كائنة في وسط الصحن. وطلبت اللجنة منه اقتراحات بخصوصهما وتقدم هرتس برسمين للدكة عمل أحدهما "حسب وضع" الدكة في جامع المؤيد شيخ والآخر "حسب وضع" دكة جامع السلطان حسن. وأما الفسقية فأعد رسمًا لها "حسب وضع" الفسقية الكبيرة في صحن جامع السلطان حسن. واعتمد هرتس في رسوماته على هذين الجامعين لأنها شُيِّدا في عصر إنشاء البرقوقية تقريبًا. ولقد ناقشت اللجنة الرسومات واقترحت بعض التعديلات البسيطة بالنسبة إلى رسم الفسقية وأما الدكة فقبلت الرسم "حسب وضع" دكة جامع المؤيد شيخ. وقام هرتس بإعدادهما خلال أعمال الترميم وما زالتا تزينا إيوان المدرسة القبلي وصحنها. وبصرف النظر عن بعض الانتقادات من جانب فرانس باشا بخصوص هيئتهما الحديثة⁽²⁵⁾ فإن الأجيال التي تلت تُعجَّبُ بهما وتشير إليهما بعض المؤلفات العلمية باعتبارهما نموذجين رائعين للعمارة

(25) Julius Franz Pascha: Kairo, Leipzig, 1903, p. 85-86.

المملوكية ولا ريب أن هرتس باشا لو كان لا يزال على قيد الحياة لاعتبر هذا ثناءً لا يعلوه ثناء ولطابت نفسه وقرت عينه⁽²⁶⁾ إلا أن سكان المنطقة لم يرضوا عن الفسقية الجديدة لأنهم قد تعودوا على الموضوع في وسط الصحن وتمسكوا بعاداتهم وتقدموا بطلب بهذا الخصوص إلى ديوان عموم الأوقاف. ولكن اللجنة اقترحت رفض الطلب بإشارة هرتس باشا إلى أن ميسأة المدرسة الأصلية ما زالت في حالة ممتازة ولذلك يرجى استعمالها فيما بعد: "إنما الموضوع له دورة خصوصية تاريخها من مدة تأسيس الجامع". واعتمد هرتس في رفض هذا الطلب على رأيه عن دور وهدف الفساق في صحون الجوامع والذي يتمثل في قوله عن جامع برقوق حيث قال: "هذه الفسقية القصد منها هو زخرفة داخل الجامع فقط"⁽²⁷⁾. ورأينا أن هرتس أخطأ ذلك لأن وقفيات الجوامع لم تكن معروفة حينئذ وكان هذا هو الحال بالنسبة إلى مدرسة السلطان برقوق أيضًا التي اكتشف وقفيتها الدكتور مصطفى صالح لمعي في الستينات من القرن العشرين والتي قد خصص الواقف فيها الفسقية والميسأة أيضًا ليتنفع بها المسلمون في وضوئهم⁽²⁸⁾. وقد أخطأ هرتس في رأيه في هذا الموضوع إلا أن النظام الجديد الذي أدخله هرتس في البروقية لم يلبث أن لاقى تبعة بعد زمن قليل لما تقدم إمام جامع إلجاي اليوسفي بطلب إلى ديوان عموم الأوقاف سنة 1895 قال فيه "إن الأصوب بالنسبة للأدب هو هدم هذا الخزان واستبداله بالهيئة التي

(26) انظر مثلاً:

- Henri Stierlin, Anne Stierlin: Splendours of an Islamic World. Mamluk Art in Cairo 1250-1517, London, 1997, p. 117, 120. Mamluk Art. The Splendour and Magic of the Sultans. Museum With No Frontiers, Cairo-Vienna, 2001, p. 142. Richard Yeomans: The Art and Architecture of Islamic Cairo, Reading, 2006, p. 199.

حتى الأثري المعماري الألماني بوركهارت الذي يعد علامة عصره والذي عاش في القاهرة معظم حياته يلاحظ في تعليقه على صورة هذه الفسقية في كتابه المشهور عن معالم مصر أنها ترجع إلى سنة ١٣٩٠ م:

- Ludwig Borchardt-Herbert Ricke: Aegypten. Landschaft, Volksleben, Baukunst, Berlin, 1929, p. XIX, no. 34.

(27) كراسة لجنة حفظ الآثار العربية القديمة، مجلد 9، سنة 1892، ص 98.

(28) Saleh Lamei Mostafa: Madrasa, Hanqah und Mausoleum des Barquq in Kairo, Glueckstadt, 1982, p. 124 (lines 733-735), p. 125 (lines 758-760).

عملت لجامع برقوق بالنحاسين لأنه يعتبرها موافقة". وأما طلبه فكان سببه أن "الأهالي بحجة الوضوء يحضرون للتبول في المجاري المحيطة بالخزان" وعزم الإمام على إزالة هذه العادة المكروهة⁽²⁹⁾.

- مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية (أثر 99؛ 877-879/1472-1474) - اعتبر هرتس هذه المدرسة تحفة العمارة العربية الإسلامية⁽³⁰⁾ وأصلحها إصلاحاً كاملاً بسرور عظيم وحماس ونختار من تفاصيل أعماله المسائل المتعلقة بسقف الصحن والشخشيخة والمحراب. وكان صحن الجامع مكشوفاً قبل بدء أعمال الترميم إلا أن معلومات وصوراً متوفرة أثبتت أنه كان مغطى في بداية القرن التاسع عشر ولكن عمر شكل هذه التغطية لم يكن معروفاً. واعتقد هرتس أن التغطية المصورة في كتاب باسكال كوست المشهور الذي يحتوي على صور ترجع إلى فترة ما بين سنة 1818 وسنة 1825 ليست من عصر إنشاء المدرسة بل هي من زمن متأخر ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها في الترميم. وفكر هرتس أول الأمر في الاحتفاظ بالصحن بوضعه المكشوف بعد تزويد واجهاته بشرفات مثلما نراها في صحن جامع السلطان حسن ولكنه عدل رأيه فيما بعد وقرر تسقيفه إلا أننا لا نعرف أسباب هذا التعديل. وناقشت اللجنة هذا الموضوع مناقشة مطولة مفصلة خصوصاً بعد أن انتقد هذا الرأي الفنان الفرنسي المشهور الميسيو بودري Ambroise Baudry العضو الفخري في اللجنة انتقاداً عنيفاً قائلاً إنه من المستحيل أن تكون الصحن قد غطيت تحت "سواء القاهرة المنيرة" وألحق الميسيو بودري برسالته صوراً فوتوغرافية من رسم عمله سنة 1871 يثبت - في رأيه - عدم وجود سقف في الصحن أصلاً؛ ويظهر في الرسم المذكور سقف بدون شخشيخة. واعتبرت اللجنة أن تفاصيل الرسم أثبتت أن السقف الموجود سنة 1871 كان السقف نفسه الذي نراه في لوحات كوست ومن ناحية أخرى إن بعض تفاصيل السقف في رسم الميسيو بودري المذكور أثبتت في رأي اللجنة عدم إمكانية كون هذا السقف السقف الأصلي. ورأت اللجنة أيضاً أن صيانة أرضية الصحن المشغولة شغلاً دقيقاً والتي "لا تمكث" زمناً طويلاً تحت التأثيرات الجوية

(29) كراسة لجنة حفظ الآثار العربية القديمة، مجلد 12، سنة 1895، ص 65.

(30) تاريخ الفن الإسلامي لهرتس بك باللغة المجرية ...، ص 164 - 168.

تستدعي وجود السقف الكامل. وبحث اللجنة عوامل أخرى أيضًا ونظرت مثلاً إلى العلاقة بين سقوف صحن الجوامع الصغيرة وسقوف دور قاعات منازل الأغنياء الرفيعة واعتمدت أيضًا على التفاصيل المعمارية التي لاحظتها في بعض الصور القديمة والتي قارنتها بالتفاصيل المطابقة في الجوامع المشابهة من العصر نفسه ووافقت اللجنة على التسقيف آخر الأمر. وقد حسمت هذه المسألة باكتشاف وقفية المدرسة بعد الحرب العالمية الأولى التي تثبت أن الواقع أمر بتغطية الصحن بسقف وكشك إلا أنها لم تزد تفصيلاً عن شكل الكشك: أهو مدور أم مضلع مدبب الرأس حاد أم قُبِّي الشكل؟ أما هرتس فاختر سقفاً مسطحاً للشخشيخة لكي لا يكدر صفو المنظر العام للمبنى اللطيف. والحقيقة أن الاطلاع على الوثائق والمصادر المتعلقة بهذا الموضوع ينتهي إلى أن صحن الجوامع من عصر المماليك الجراكسة معظمها كانت مسقفة توسطتها شخاشيخ إلا أن كل هذه الشخاشيخ الرقيقة الدقيقة الصنع قد تدهورت واختفت تحت تأثيرات الجو المتقلب خلال مرور السنين ولم تكن لدى اللجنة معلومات مثبتة كافية عن تركيبها وتفاصيلها الأصلية. وإن الشخاشيخ اللطيفة البديعة الجمال التي نعجب بها في عصرنا الحديث هذا والتي نشاهدها في كتب تاريخ الفن العربي الإسلامي أعدت رسومات كلها في مكتب هرتس تحت إشرافه عن طريق الاعتماد على عناصر مختلفة مأخوذة من هيئات المباني المملوكية. وإن تفاصيل الوقفيات المكتشفة بعد عصر هرتس والتي تثبت وجود معظم الشخاشيخ المعروفة وتزودنا بمعلومات ثمينة للغاية بصورة عامة لا تكفي لمعرفة الشخاشيخ بكل تفاصيلها الضرورية لإعدادها وكذلك يصعب فهم بعض التفاصيل في وصف الوقفيات على القارئ المعاصر⁽³¹⁾.

ورأى هرتس أن تكسية المحراب البسيطة الرخيصة التي نشاهدها في الصور الفوتوغرافية من عصره لم توائم رونق المدرسة الأصلي وقرر القيام بتكسية مناسبة. ويحتفظ مركز تسجيل الآثار الإسلامية والقبطية في المجلس الأعلى للآثار في القلعة في القاهرة برسمين رائعين يوضحان هيئات الجوامع المملوكية المختلفة من عصر قايتباي. نفسه والتي يجب إعداد أجزاء التكسية الجديدة الرخامية للمحراب على مثالها. ومن

(31) كراسة لجنة حفظ الآثار العربية القديمة، مجلد 15، سنة 1898، ص 103 - 104.

الواضح أن هرتس لم ينجح في إنجاز هذه المرحلة من المشروع لأن المحراب عارٍ حتى الآن، وليس هناك من دليل على أنها قد جرت.

الختام

لقد تقصينا بعض نواحي نشاطات هرتس باشا في مجال المحافظة على الآثار العربية الإسلامية في مصر ويمكننا القول إنه قام بترميم عدد معين من الآثار طبقاً لأعلى مستوى في عصره إلا أن بعضها أصبح يحتاج إلى ترميم جديد مرة أخرى وأما البعض الآخر فلقد امتدت إليه يد العناية في السنوات الأخيرة. ولا ريب أن الأجيال القادمة ستشعر بالامتنان العظيم لرجل بعث إلى الحياة آثاراً كادت تفتن وصان أخرى، ولا يفوتنا أيضاً أنه اتبع نهجاً دقيقاً وعصرياً يرقى إلى ذرى عصره ليصبح نهجه هذا القدوة والمسار لكل من كانت الآثار له غايةً وديناً⁽³²⁾.

(32) أما تفاصيل أعماله على الآثار المختلفة ونشاطاته في مجالات أخرى مثل حفظ الآثار القبطية وإدارة دار الآثار العربية وتأسيس المتحف القبطي وإنشاء المباني الحديثة والبحث العلمي فيرجى مراجعة الدراسة المفصلة للمؤلف التي تحت الطبع حالياً في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة.

الأفراح في مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير
« صفحة من تاريخ مصر الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين »

د/عبد المنعم إبراهيم الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

oboiikan.com

الأفراح في مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير

« صفحة من تاريخ مصر الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين »

على الرغم مما اتسمت به الحياة الاجتماعية في مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين من إيقاع شرقي يتميز بالثبات والاستقرار والبطء في التغير ، ومع أن الشعب المصري يعد من أكثر شعوب العالم تمسكًا بعاداته وتقاليده وتراثه فإن ما حدث في السنوات الأخيرة من متغيرات حضارية مثل زيادة نسبة التعليم بين الإناث والذكور ، ومثل ما أدخلته وسائل المدنية الحديثة من أجهزة ووسائل اتصالات وفضائيات ، قد هز الكثير من هذه الأوضاع واستطاع النفاذ خلف ستار التقاليد السميكة ؛ مما أدى إلى ذبول بعض العادات القديمة المتوارثة ، واستبدالها بعادات جديدة وافدة ، ومن هذه العادات ما يحدث حاليًا في تقاليد الزواج والأفراح ، فبعد أن كان المصريون يزوجون أولادهم في سن مبكرة ، إذ لا يكاد الفتى يبلغ الحلم حتى تبحث له أسرته عن بنت الحلال ، فإنه بعد انتشار التعليم بين الإناث والذكور لم تعد فكرة الزواج المبكر مطروحة إلا نادرًا ، وبعد أن كان المصريون يتمسكون بضرورة زواج الأقارب فقد توقفوا عن ذلك بعد أن ثبتت أضراره طبياً خاصة إنجاب الأطفال ، وبعد أن كان الأهل يتحكمون في اختيار زوجة الابن التي كانت تختار له أحيانًا منذ الطفولة ، فقد أصبح هذا الاختيار من حق العروس والعريس معًا ، وبعد أن كان زواج أحد أبناء البلدة أو الحي أمرًا يخص أبناء الحي جميعًا لا الأسرة وحدها ، فقد اقتصر أمر عقد معظم حفلات الزفاف على الفنادق والأندية بعد أن ضاقت البيوت عن استقبال المدعوين .

وبعد أن كانت هناك ضرورة لحضور البلانة مع العروس في ليلة زفافها فقد تلاشت مثل هذه العادة التقليدية ، وبعد أن كانت الحياطة من الشخصيات التي يتردد قدومها على بيت العروس لاختيار تفصيلة فستان الزفاف ، فإن عادة شراء ثوب الزفاف جاهزًا

أصبحت معروفة ، وبعد أن كانت الصديقات والقرابات يقمن بدور تجميل العروس وتزينها أصبح الكوافير الآن يؤدي نفس هذا الدور ، وبعد أن كان توزيع علب الحلوى وأكواب الشربات الأحمر القاني وسط هرج وضجيج الأطفال من العادات المألوفة في الأفراح فقد اندثرت هذه العادة ، ولم يعد لها مكان، خاصة في الفنادق التي لا يدعى إليها الأطفال طبقاً لأنظمتها المتبعة .

وفيا يلي نعرض لعادات وتقاليد المصريين في الزواج ابتداء من الخطبة وحتى الزفاف منذ أن شاهدها المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين⁽¹⁾، وأخته صوفيا⁽²⁾، خلال عصر محمد علي حيث كان القديم الموروث لا يزال قائماً وكانت مصر لا تزال تنسب إلى مجتمعات العصور الوسطى في الكثير من مناحي حياتها . ثم ما طرأ على ذلك من مستحدثات وتغيرات في عهد خلفاء محمد علي حتى نصل إلى ما هي عليه الآن.

أولاً : مرحلة الخطوبة :

تحدث لين عن الخاطبة ودورها في مهمة البحث عن العروس ، فذكر أنها كانت تحترف مهنة الدلالة التي تبيع الحلي والملابس النسائية حتى يسهل عليها الدخول إلى قلاع

(1) زار لين مصر ثلاث مرات ، كانت الأولى في أواخر عام 1825م ، وكان وقتذاك شاباً في الرابعة والعشرين من عمره جاء ليدرس حضارة قدماء المصريين ، ولكن القاهرة التي استولت على ليه وشعبها الذي شغف بالعيش معه جعله يرى أن دراسة الأحياء أمتع له وألذ من دراسة تاريخ الأموات مما صرفه عن قدماء المصريين إلى الكتابة عن أحفادهم . واستمر لين بمصر ثلاث سنوات يدرس حياة الناس كما يدرس اللغة العربية حتى تملك ناصيتها كتابة ومحادثة ، وبعدها عاد إلى إنجلترا في أواخر عام 1828 بعد أن درس الحياة في القاهرة دراسة مستوفاة ، وجمع في مخطوطاته مسودة كتابه الذي صدر بعنوان *The Manners and Customs of the Modern Egyptians* ورغبة من لين في الاستزادة ببعض المعلومات عاد إلى مصر في عام 1833 حتى يسد بعض الثغرات في كتابه ، ولما رجع إلى إنجلترا أصدر هذا الكتاب . أما الزيارة الثالثة فكانت في عام 1842 وكان هدفها الإعداد لمعجم عربي شامل . للتفاصيل انظر : نجيب العقيقي : المستشرقون ، ج2 ، ص 480 .

(2) صحبت أخاها إدوارد خلال زيارته لمصر ، ولها دراسة عن الجوانب والأسرار الخفية من أمور الحريم في أسرة محمد علي وغيرها تفوق في غزارتها أي مصدر آخر ، ويتضح ذلك من كتابها الذي ظهرت طبعته الأولى في عام 1844 تحت عنوان *The English Woman In Egypt* قامت الدكتورة عزة كرامة بترجمته في عام 1999 ، تحت عنوان : حريم محمد علي باشا .

الحريم ، ومساعدة الرجال في اختيار العروس الملائمة نظير أجر كمعلوم ، وكانت العادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع الخاطبة لزيارة عدة بيوت ، باعتبارهن زائرات فقط ، وقد لا يلبثن طويلاً إذا لم يصادفن مرادهن ، ويفهم الطرف الآخر طبعاً القصد من الزيارة ، ولكن إذا سمعن أن من بين نساء المنزل فتاة تتحل بالصفات المطلوبة يكشفن عن قصدن ويستفهمن عن أحوال الفتاة التي يقع عليها الاختيار وعما تملكه من حال أو متاع .

ولما كان غير متبع خلال هذه الفترة رؤية أسرة الخاطب من النساء للعروس إلا بعد زفافها فقد كانت الخاطبة غالباً هي مصدرهم ، في وصف الفتيات ، التي كثيراً ما تبالغ في وصفهن ، وإلى جانب ذلك فقد كانت الخاطبة تبالغ لدى أسرة الفتاة في وصف الشاب الراغب في الزواج بما ليس فيه أحياناً فتصفه بلطف المعاشرة والأناقة والثراء وحب الترف والكرم ، والرغبة في الملاطفة والدلال حتى تتمكن من الحصول على موافقة العروس وأسرتها ، وبعد أن تستعلم الزائرات عن أحوال العروس يقدمن تقريرهن إلى الراغب في الزواج ، فإذا رضي بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ، ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته⁽³⁾ .

واستمرت هذه الأمور على حالها حتى أوائل القرن العشرين تقريباً ، حيث بدأ بعضها في التغير ، فقد اتسع دور الخاطبة ، وازدادت معرفتها بأخبار الفتيات الراغبات في الزواج حيث كانت تزور البيوت وتتصل بالأمهات وتساءل عن الشابات في سن الزواج ، وتتعرف أخبارها وتقف على رأي الأم في الزوج الذي تبتغيه لابنتها إذا ما سهل الله لها بابن الحلال ، وكانت الأم تؤكد على الخاطبة أن تكثر في التردد عليها وتوعدها بأنها ستعطيها ما تريد من المال إذا جاءت لابنتها بالعريس المنشود ، وبعد ذلك تذهب الخاطبة إلى منازل الأسر التي بها شباب يريدون الزواج ، وتكون واسطة بين أهل الزوج والزوجة في تعريف هؤلاء بأولئك ، وكانت أحياناً تبالغ في وصف حال الفتاة وأصلها فتقول مثلاً إن لها وجهاً مدوراً كالصينية ، وعيونها عيون الغزلان ، وفمها خاتم سليمان وصدرها بيض نعام ، وأنفها مثل النبق ، وأسنانها لؤلؤ ، وإنها إذا تكلمت تنثر اللؤلؤ من بين

(3) إدوارد لين : المرجع السابق ، ص 100 .

شفتيها⁽⁴⁾، وزيادة في تشجيع الشباب على التقدم لخطبتها تذكر أن الكثيرين تقدموا لها، ولم يوقفوا لأنهم لم يكونوا أكفاء لها، وهكذا كانت المفاوضات الأولية تجري مع الدلالة، ورويدا رويدا تطورت الأمور، وأصبحت أسرة العريس تبحث ببعض نساءها لتسأل وتبحث وتعاین أوصاف العروس المرتجاة بدلاً من الخاطبة، فيذكر فكري أباطة أنه كان يتم تحديد موعد الزيارة وتستعد العروس وتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدي أبداع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح⁽⁵⁾، وبعد أن تصل أسرة العريس وتشرب القهوة أو الشربات يتم استدعاء العروس فتقبل وهي تتهادى خجلاً وتجلس بأدب واحتشام، ثم يأتي دور البحث والفحص والتجريب⁽⁶⁾، فتشعر أم العريس أو إحدى قريباته في الحديث مع العروس، وخلال ذلك تحديق في أسنانها لترى إن كان بها عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون، ومن الحديث تستنتج خفة الروح أو ثقل الدم، وتعرف نوع الصوت إن كان ناعماً أو خشناً أو غليظاً⁽⁷⁾، وقد تخرج إحدى قريبات العريس سيجارتها وتطلب من العروس برفق أن تشعل عود الكبريت فتتقدم لتلمح قوامها وقدها، ثم تطلب منها الاقتراب لتشعل عوداً آخر، كي تتسع لها الفرصة لتحدث في عينيها عن قرب، وربما تطبطب على صدرها لتلمس نديها ببراعة وإحكام⁽⁸⁾، ثم يتم إبلاغ العريس بالتفاصيل بعد ذلك، فإذا اقتنع بما سمعه تقدم للزواج من غير أن ينظرها ويعرف شكلها وطباعها وأخلاقها وإنما ذلك كله بعد الزفاف⁽⁹⁾.

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات فقد كان العريس ينخدع أحياناً بالأوصاف التي تنقل له عن العروس، ومن الأمثلة على ذلك قصة زواج شاعر النيل حافظ إبراهيم، فعلى الرغم من اختيار زوجة خاله للعروس وتصديقه للأوصاف التي خلعتها على

(4) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، ص 205 .

(5) فكري أباطة : الضاحك الباكي ، ص 147 .

(6) محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين ، ص 316 .

(7) فكري أباطة : المرجع السابق ، ص 149 .

(8) نفسه ، ص 149 .

(9) عامر العقاد : أحمد أمين حياته وأدبه ، ص 40 ، 41 .

عروسه المقبلة واستسلامه لمراسم عقد الزواج ، فقد أحس حافظ بفعليته في نفسه عندما تطلع إلى عروسه ، ولم يرقه منظرها ، بل أوجد أنفها الضخم رهبة في نفسه مما جعله يخفق في تجربة الحياة الزوجية ، ولم يعد إلى تجربة الزواج طيلة حياته⁽¹⁰⁾ .

ومعنى ذلك أن الخاطبة أو الأسرة هي التي كانت تختار العروس ولم يكن لأي من الخطيبين رأي في إتمام ما يحدث ، فلا العريس رأى العروس قبل أن يخطبها ولا هي رآته أو كلمته قبل ذلك بل كانا غالباً لا يعرفان شيئاً عن بعضهما إلا ما ترويه الخاطبة أو الأسرة فقط ، خاصة وأن الانفصال الحديدي بين الجنسين كان يحيط الفتاة بالغموض فهي تحت حجابها الذي يغطي جمال وجهها أو قبحه لا يراها العريس إلى أن تصبح في حوزته ، مما أوجد في العديد من الأحيان حدوث نفور بين الزوجين عند مكاشفة بعضهما للبعض في ليلة الزفاف⁽¹¹⁾ ، خاصة عندما يصاب الرجل بخيبة أمل في رؤية الجمال المنتظر في فتاة أحلامه فيجدها عكس ذلك مما زاد من عملية تعدد الزوجات .

وعلى أي حال فقبل أن توافق أسرة العروس على خطبة ابنتهم للعريس المنتظر كانت تتم التحريات عنه ، وعن أسرته وعن سلوكه وماليته وغير ذلك ، وربما يسألون عنه في قسم الشرطة التابع له . وقد تستمر التحريات ثلاثة أشهر أو يزيد حتى يصدر القرار بالموافقة ثم يجيء دور الكلام عن المهر والشبكة ، وإذا وافق الطرفان على شروط بعضهما يسمح للخطيب بالتردد على منزل أسرة العروس ، ومقابلة رب الأسرة وزوجته ، وتقديم الدبلة والشبكة وسط إجراءات ورسميات ومراسم .

ونتيجة للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على مصر خلال السنوات الأخيرة وفي غمار الحراك الاجتماعي السريع الذي طرأ على المجتمع المصري بدأت الأمور تتغير⁽¹²⁾ ، فقد تلاشت هذه الصور تدريجياً ، فالعصر الحالي الذي نعيشه يشهد تطوراً حضارياً سريعاً في كافة مناحي الحياة ، كما بدأت النواحي الاجتماعية في

(10) محمد كامل جمعة : حافظ إبراهيم ، ص ص 51 ، 52 .

(11) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، ج 1 ، ص 73 .

(12) جلال أمين : ماذا حدث للمصريين - تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945 - 1995 ،

مختلف مضامينها وأساليبها تصاغ صياغة جديدة ، فأخذت تظهر عادات وتقاليد جديدة أدت إلى ذبول العادات والتقاليد القديمة ، وخرجت المرأة إلى الحياة العامة وبدأت الارتباطات بين الآباء والأبناء تتغير ، وأخذت البنات تطالب بمزيد من التحرر بشكل قد لا تستسيغه عقلية الأب أو الأم ، ولم يعد ثمة ما يحول بين مقابلة الفتى للفتاة قبل الزواج والاتفاق على كل شيء قبل أن يعرف الأهل أي شيء عن هذا الاتفاق ، ثم تبلغ الأسرة بعد ذلك بتفاصيل ما جرى .

والسؤال المطروح هو هل كان نظام الخطبة واحدًا عند كافة الطبقات في مصر؟

الواقع أن هذا النظام كان متبعًا لدى الكافة ، فهو عند أبناء الباشوات والذوات مثله عند الطبقة الوسطى والعامة ، وإن دور الخاطبة كان متبعًا في أفراح أبناء الباشوات والذوات مثلما كان متبعًا لدى العامة ، وإلى جانب ذلك فإن عدم السماح برؤية العريس لعروسه ولا لأحد من أفراد أسرته من السيدات إلا بعد زفافها⁽¹³⁾ كان متبعًا داخل قصور الأسرة الحاكمة ، كما كان سائدًا عند العامة ، هذا إلى جانب أن أفراد الطبقة الراقية كانوا يفضلون الزواج المبكر والزواج من الأقارب خاصة أبناء الأعمام كما كان يفعل أفراد العامة الذين كانوا يرغبون في ذلك بحجة التماسك الاجتماعي للأسر ، وكما أنه لم يكن لبنات العامة الحق في اختيار الزوج فإن ذلك كان متبعًا لدى الأميرات ، إذ لم يكن لهن الحق في اختيار أزواجهن ، كما أن الزوج كان لا يختار زوجته عن عاطفة حب متبادلة أو لتوافق في الطباع أو الأفكار⁽¹⁴⁾ ، بل كانت أحيانًا المنفعة هي التي تقود بعض الأسر لاختيار الزوجات ، يضاف إلى ذلك أن تمسك الأسر بخطبة الابنة الكبرى قبل الصغرى إذا تقدم أحد لخطبتها كان موجودًا سواء عند الأغنياء أو العامة إلى أن تغير ذلك في الوقت الحالي.

(13) يذكر أحمد شفيق باشا أن إحدى الأسر عدلت عن الموافقة على زواجه من ابنتها بمجرد أن طلبت

أمه رؤية العروس قبل خطبتها . انظر : مذكراتي في نصف قرن ، ج 1 ، ص 73 .

(14) علماء الحملة الفرنسية : موسوعة وصف مصر ، المصريون المحدثون ، ج 1 ، ترجمة زهير الشايب ،

ثانيًا : مرحلة عقد القران :

يذكر لين أنه بعد أن يتم اختيار الخاطب لعروسه يذهب بعض أقاربه لمقابلة وكيل العروس ، للاتفاق معه على مقدار المهر⁽¹⁵⁾ ، وكثيرًا ما تحدث المساومة في تحديد المهر عند العامة خاصة المؤخر منه إلى أن يتم الاتفاق ، ثم يحدد بعد ذلك عقد الزواج الذي يسمى كتب الكتاب⁽¹⁶⁾ . وبعد أن يتم اجتماع المدعويين يذهب العريس مع بعض أصدقائه إلى منزل العروس ويحضر المأذون ثم يتم عقد الزواج بشهادة شاهدين ، وأخذ موافقة العروس ، ثم يقرأ الحاضرون الفاتحة ، ويدفع العريس مقدم المهر ويعقد بعد ذلك العقد فيجلس العريس أمام وكيل العروس ، ثم يمسك كل منهما يميني الآخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثاني ويتولى أحد الفقهاء تلقين الطرفين صيغة العقد ، فيضع على اليدين المتماسكتين منديلًا⁽¹⁷⁾ ، ثم يستهل العقد عادة بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والأدعية وبعض الآيات والأحاديث التي تشير إلى فضل الزواج ومزاياه ، ثم يطلب من الوكيل أن يقول : أزوجك ابنتي أو (موكلتي) فلانة (ويسمى العروس) العذراء البالغة إذا لم تكن قد تزوجت من قبل ، أو الثيب إذا كان قد تكرر زواجها ، بمهر قدره كذا ، ثم يطلب من العريس أن يقول : أقبل زواجها وأخذها تحت رعايتي وأتكفل بحمايتها ، واشهدوا على ذلك أيها الحاضرون ، ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة فيجيبه الأخير في كل مرة بما سبق ، وحينئذ يقول كلاهما : « والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين » ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة .

وخلال ذلك تجلس العروس في أبهى زينتها ، وخلفها الصبايا بالزغاريد تنطلق ، وقد وضعت قدميها في وعاء به نعناع أخضر كما تضع في فمها قطعة من السكر ، ثم ترسل هذه

(15) اختلف مهر الثيب عن مهر الفتاة العذراء ، فهو يقدر غالبًا بربع مهر العذراء أو ثلثه أو نصفه ، كما أنها لا تزف عند الزواج ، ويكفي أن تقول المرأة لمن يتقدم لزواجها : « وهبت لك نفسي » فتصبح امرأته شرعًا متى كانت بالغة حتى من دون شهادة .

انظر لين : المصريون المحدثون ، ص 111 ، 112 .

(16) قلما كانت توجد وثيقة مكتوبة تثبت الزواج في ذلك الوقت .

(17) يحدث أحيانًا أن يخطف أحد المدعويين المنديل للاحتفاظ به وأحيانًا يتمكن المأذون من أخذه .

القطعة إلى الزوج ليرسل بدلاً منها مبلغاً من النقود هدية لعروسه دلالة على الانسجام المنتظر في حياتهما الزوجية ، كما تضع على رأسها المصحف الشريف مفتوحاً على سورة يس ، وزيادة في البهجة والفرح تضرب الدفوف والطبل البلدي والمزمار وتزغرد النساء وينثر الملح على العروس خشية الحسد ، ويظهر الجدعان والفتوات من أهل الحارة أمثال المعلم شلبي والأسطى حنفي وزعيط الفلاح وصغار الموظفين من أقارب العروسين أمام الشوارع والطرق المسدودة وهم يشعلون مصابيح من الورق ويتبارون بالنبايت والعصي (لعبة التحطيب) ويلعبون بالجريد والسيوف ويضربون البارود⁽¹⁸⁾ ، ويسير بعضهم على عكايز حديدية مرتفعة ، ويزنون رؤوسهم بالريش ويتضاربون بالعصي الطويلة ، بينما يجلس بعضهم القرفصاء أمام منازلهم المبنية بالطوب اللبن والصفيح أو على أفصاص من سعف النخيل حيث يتناولون المشروبات الشعبية مثل البوظة وعرق البلح ويتعاطى البعض منهم الحشيش والأدخنة وهم يستمعون إلى قصص أبي زيد الهلالي وعنتره وإلى الأمثال العامة ، كما يشاهد الصبية ألعاب خيال الظل والقراقوز وغيرها ، وتطل النساء من فوق أسطح المنازل لمشاهدة ما يحدث وهن فرحات مستبشرات للعريس والعروس بعقد قران سعيد ، هذا عن مراسم عقد القران عند العامة ، فماذا عند أبناء الباشوات والذوات ؟

والواقع أن بنات الذوات كن كبنات العامة لا يؤخذ رأيهن في اختيار العريس المنتظر ، فالفتاة تنشأ وتربى في انتظار اليوم الذي يسلمها فيه والدها إلى كنف زوج غريب عنها في شخصه وطريقة تفكيره⁽¹⁹⁾ ، أما عن الاختلاف بين أفراح الذوات والعامة فينحصر في لوازم الفرحة ، والأموال الفلكية التي يدفعها الذوات للمهر كرمز للمباهاة والتفاخر .

وفي حضور أمراء العائلة المالكة ونظار الحكومة وكبار العلماء والأعيان وتقديم أفخم المأكولات والمشروبات لهم واستبدال المأذون بشيخ الجامع الأزهر الذي يتهيأ لكتابة العقد

(18) حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى دار الوثائق : الداخلية عربي أوامر (1) أمر كريم بتاريخ 12 رمضان 1275 هـ (1859م) ، وانظر أيضاً دفتر أنظمة ولوائح رقم 1891 ، ص 54 وثيقة رقم (9) بشأن منع ضرب البارود واللعب بالجريد والنبوت والبنادق والسيوف والرمح في الأفراح والمواسم بالقرى .

(19) صوفيا لين : حريم محمد علي ، ص 186 .

فيوفد الشهود يتقدمهم الأغوات إلى باب حجرة العروس المسدول عليه ستار من الحرير الأزرق الموشى بالذهب حتى يحجب ما وراءه ، ويسألونها الموافقة على الزواج من الأمير فلان أو الوجهه فلان ويرددون عليها السؤال مرات إلى أن تحيب العروس بالقبول في تمتع وحياء . وفي أعقاب ذلك ينصرف الشهود لإبلاغ شيخ الأزهر صيغة الجواب فيبدأ في التصديق على العقد ، وبعدها ترتفع الزغاريد ، وتقدم أكواب الشربات في أقذاح من الذهب ، وتوزع الشيلان والحلوى والعطايا والهدايا الفاخرة على جميع الحاضرين⁽²⁰⁾ .

ومن أبرز أفراح أنجال الباشوات التي تتردد في التاريخ وما حدث فيها من بذخ وألعاب وفرق عسكرية تعزف العديد من الألحان وراقصين وراقصات وعروض وتمثيليات ، وتوزيع مرطبات ومأكولات وكساوى وهدايا ، نذكر ما حدث في أفراح إسماعيل باشا⁽²¹⁾ ، ابن محمد علي ، ومحمد بيك الدفتردار على نظلة هانم ابنة الباشا⁽²²⁾ ، وكامل باشا⁽²³⁾ على زينب هانم صغرى بنات الوالي ، وشقيقة أحمد باشا ابن عم محمد علي على مختار بك الذي أتم تعليمه في باريس⁽²⁴⁾ . وكما نذكر ما حدث خلال أفراح أنجال إسماعيل باشا الأربعة حيث عاشت مصر خلاله أيامها الأربعين في احتفالات فخمة وإسراف أسطوري لم تر مثله في عصرها الحديث ، والتي ذكرت الناس بليالي ألف ليلة وليلة ، وباحثفات قطر الندى ابنة خمارويه ، ففي حفل مهيب عقد الخديو إسماعيل قران أولاده الثلاثة وإحدى بناته في وقت واحد إذ عقد لولي عهده

(20) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، ج 1 ، ص 70 .

(21) قتل في شندي بالسودان حرقاً على أثر مؤامرة دبرها له الملك نمر الذي دعاه وبطانته إلى وليمة بقصره في شندي وكان من القش ، فأجابوا دعوته وذهبوا إلى القصر ورحب بهم الملك ترحيباً عظيماً ، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر ويشعلوا النار فيه . وقد حاصرت النيران إسماعيل باشا وحاشيته ولم يستطيعوا الإفلات من الموت .

للتفاصيل : انظر الرافي : عصر محمد علي ، ص 166 ، 167 .

(22) للتفاصيل انظر : عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج 4 ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ، 1322هـ ، تحت عنوان : ثم دخلت سنة تسع وعشرين مائتين وألف ، ص 211 .

(23) عمل ياوراً وسكرتيراً خاصاً لمحمد علي ، وأنعم عليه السلطان برتبة الباشوية بعد أن رشح ليكون زوجاً لابنة والي مصر . انظر : صوفيا لين : حريم محمد علي ، ص 280 .

(24) صوفيا لين : المرجع السابق ، ص 268 - 279 .

توفيق على الأميرة أمينة هانم بنت إلهامي باشا ، وللأمير حسين كامل على الأميرة عين الحياة بنت الأمير أحمد رفعت ، وللأمير حسن على خديجة هانم بنت الأمير محمد علي ، كما زوج ابنته الأميرة فاطمة الزهراء للأمير طوسون نجل محمد سعيد باشا⁽²⁵⁾ .

وإلى جانب ذلك فهناك فروق عديدة بين أفراح الباشوات والعامّة ففي حين كان يدعى لإحياء أفراح أبناء الباشوات كبار الموسيقيين المشهورين ، ويدفع لهم المبالغ الكاثلة مقابل إحيائهم لهذه الحفلات ، فإن أنجال العامّة كانوا لا يدفعون أجرًا للموسيقيين والمهرجين والراقصين خاصة إذا كانوا من أصدقائهم أو كانت تدفع لهم النقود من الحاضرين الذين جاءوا لدفع النقود والمساهمة في إحياء الفرح .

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بما لديهم من مال وعقار فإن أهل العروس من العامّة كانوا لا ينظرون إلى ذلك بل إلى حسن سمعة العريس وأخلاقه ودينه ، ومعاملته مع الناس ، كما أن أهل العريس ، كانوا يفضلون البنت التي يعرفون عن أمها حسن العشرة مع زوجها تمسكًا بالمثل الذي يقول اكسر البصلة وشمها تطلع البنت لامها ، و "خذ بنت الحلال ولا تأخذ بنت المال" .

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بنسبهم التركي ومصاهرة العثمانيي فإن أبناء العامّة كانوا يفضلون ابن البلد على الأجنبي حتى أن بعضهم كان يغالي في هذا فلا يزوج ابنته إلا لأحد من أبناء قريته ، كما كانوا يفضلون صاحب الصنعة الذي يعيش من عرق جبينه فيقولون : « الصنعة خاتم ذهب بيد صاحبها » .

وبينما كان العريس من أبناء الباشوات يقدم لعروسه هدية الشبكة مرصعة بالذهب والجواهر ، كما يقدم المهر الذي يتباهى به أسر الذوات ، فقد كان العريس من أبناء العامّة يقدم ما يتلاءم مع قدراته وإمكاناته فقد تكون هديته عقدًا من الخرز أو أسورة من الزجاج الملون وشيئًا من الأقمشة الرخيصة التي يتخذ منها نساء الريف ثيابهن .

(25) للتفاصيل انظر : بحثنا المعنون أفراح أنجال الباشا المنشور في مجلة الهلال ، العدد سبتمبر 2002 ، ص 56 - 65 .

وبينما كانت الهدايا المقدمة لأنجال الذوات والأمراء والكبراء تمثل صورة من الحياة الطبقيّة الصارخة التي كانت تعيش فيها مصر في ذلك الوقت ، والتي توضح التنافس الصارخ بين الثراء والترف الذي يعيشه أبناء الحكام وحالات الضنك والبؤس والحرمان التي يعيشها عامة الشعب ، فهدايا طبقة الحكام كانت عبارة عن مجوهرات وقلائد وماس ، أما هدايا الأهالي لأبناء جلدتهم من العامة فكانت لا تزيد عن السكر والشربات والأرز والشمع والسمن والدجاج والإوز⁽²⁶⁾ .

وبينما كانت تنفق المبالغ الطائلة على الأطعمة الفاخرة التي تناولها ضيوف أفراح الباشوات من صحن المحمر والكباب والكفتة فإن ضيوف أفراح العامة كانوا لا يتناولون سوى العدس أو البيسارة أو الفول بالإضافة إلى المش أو الجبن أو الفجل أو المخلل والجميز ، أما شرابهم فكان عرق البلح والبوظة ، وبينما كانت الشوك والملاعق والسكاكين تستخدم في قصور الباشوات فإن العامة كانوا لا يعرفون طريقة استخدامها ، بل يجلسون القرفصاء على الأرض ويستعملون أصابعهم حيث إنها أسهل عليهم من استعمال أشياء لا يحسنون استخدامها ، وبينما كانت الأميرات ومعظم المدعوات يرتدين الملابس الإفرنجية الفخمة التي جلبت خصيصاً من أشهر محلات الأزياء في أوروبا⁽²⁷⁾ ، ويلبسن القلائد الذهبية والمجوهرات المرتفعة الثمن ، وينثرن العملات الذهبية والفضية على الحاضرات فإن بنات العامة كن يلبسن الملابس البلدية البسيطة وينثر عليهم الحاضرات من أقاربهن الشعير والملح لدرء عين الحسود وجلب البركة ، وبينما كانت أفراح أبناء الباشوات لا تقتصر على ليلة واحدة ، بل كانت تتعدد الليلي قبل ليلة الزفاف ، اقتصرت أفراح أبناء العامة في أغلب الأحيان على ليلة واحدة أو أكثر بقليل .

وبينما كانت بنات الباشوات يحصلن على لقب الهانم (الخانم) والبرنيسية أو الأميرة فإن بنات العامة كن يحملن غالباً أسماء حفيظة وست الدار ونفيسة ونعناعة وخضرة وشلبية .

(26) إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون ، ص 104 .

(27) أحمد شفيق : مذكراتي ، ج 1 ، ص 72 .

وبينما سمح لبعض الأميرات أن تكون العصمة في أيديهن ، لتختار الطلاق من زوجها متى شاءت⁽²⁸⁾ ، فإنه كان من العيب على بنات العامة أو الطبقة الوسطى أن يتحدثن في هذا الموضوع أو يفكرن فيه أو حتى يستحسن سماعه . حقيقة أن زوجة رفاة الطهطاوي وابنة خاله كريمة الأنصاري اشترطت عليه ألا يتزوج عليها ، وقد فرض رفاة على نفسه أمام زوجته أن يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيًا كانت ، فإن تزوج بأخرى كانت زوجته طالقة بالثلاثة ، ولكن هذا لا يعني أن زوجة رفاة كان بيدها العصمة ، بل كان من شروطها على زوجها ألا يقترن بغيرها⁽²⁹⁾ .

وبينما عاشت الأميرات في قصور فخمة بنيت لهن خصيصًا فقد عاشت بنات العامة في بيوت من الطين أو بيوت أكل عليها الدهر وشرب ، وسكن بعضهن الخيام ، وكل جهازها كان عبارة عن صندوق للملابس وكرسي ومنضدة ، وطشت وصينية وإبريق وربما لحاف ووسادتين . وهكذا يتضح لنا الفروق الطبقة الصارخة في الزواج لدى أبناء الخاصة والعامة .

ثالثًا : ليلة الدخلة :

بعد الاتفاق على موعد ليلة الدخلة ينقل الأثاث والمفروشات من بيت العروس إلى بيت العريس ، كما تذهب العروس ليلة الدخلة إلى الحمام في صحبة قريباتها وصديقاتها وعن

(28) انظر على سبيل المثال إذن عقد زواج عطية الله هانم بنت عباس حلمي باشا . محافظ أبحاث : محفظة 149 ملف تراجم البراءات التركية الواردة للديوان قبل نوفمبر 1914 .

(29) نص عقد هذا الاتفاق كما يلي :

« التزم كاتب الأحرف رفاة بدوي رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلي الأنصاري أنه يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى أو جارية أيًا ما كانت ، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من النساء ، أو تمتع بجارية أخرى فإذا تزوج بزوجة أيًا ما كانت ، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة » . دار المحفوظات . ملف رفاة بدوي رافع الطهطاوي وثيقة محررة بخط يده وموقعة منه ومختومة بخاتمه في شوال 1255هـ ، ومن المعروف أنه كان يمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات بالإضافة لأي عدد من الإماء يستطيع إطعامه ، وهذا التعدد كان أكثر شيوعًا عند الطبقات الشعبية .

محجبات وسط مظاهر الفرح ، ويسمى ذلك زفة الحمام فيتقدم الزفة غالباً فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع ، وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير ، ويوجد أيضاً سقاء يروي ظمأ السائرين ، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقمًا مملوءًا بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر ، ويحمل الآخر مبخرة يحرق فيها البخور⁽³⁰⁾.

وعندما يصل الموكب في نهاية المطاف إلى الحمام فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملاً المباخر بالبخور الطيب الرائحة ، وتراق العطور بسخاء وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينقضي اليوم في مرح وبهجة ، وتقدم خادמות الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى⁽³¹⁾.

وبعد الاستحمام تعود العروس إلى منزل أهلها وتتناول مع رفيقاتها العشاء وسط جو من الطرب والأغاني ، وبعد ذلك تعجن بعض الحناء ، وتضع العروس قطعة من العجين في يدها ثم تتناول النقوط من ضيفاتها ، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة على تلك العجينة فتأخذها العروس ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها ، وتربطها بالكتان حتى الصباح فتصبغ بلون أحمر برتقالي ، وتسمى هذه الليلة «ليلة الحنة» . وفي نفس الوقت يقيم العريس حفلاً لتسليّة المدعوين⁽³²⁾.

وفي اليوم التالي تزف العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة⁽³³⁾ ، وتضاء الشوارع أو الحي الذي يسكنه العريس بالمشاعل والفوانيس والقناديل الصغيرة ، ويعلق بعضها في جبال تمتد من منزل العريس إلى المنازل المقابلة على جانبي الشارع ، وتعلق أيضاً مع القناديل رايات حريرية ذات لونين أحمر وأخضر . وتؤخذ العروس إلى بيت زوجها في العادة عند الغروب ، وكثيراً ما تحمل في هودج (تختروان) مغطى بشال كشمير ، وتحمل على جملين زينت أعناقهما بقلائد حرير وأجراس مختلفة في رقابها ، يسير أحدهما خلف

(30) لين : مرجع سابق ، ص 104 ، 105 .

(31) موسوعة وصف مصر : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 82 .

(32) لين : مرجع سابق ، ص 106 ، 107 .

(33) إدوارد لين : المرجع السابق ، ص 102 .

الآخر⁽³⁴⁾، وأحيانًا تسير العروس على قدميها وعلى جانبها امرأتان وأطفال الجيران الذين يشاركون في الهرج والمرج⁽³⁵⁾، وتصحب العروس بعض صديقاتها معها، وتطلق كثير من النساء الزغاريد وهن يسرن في ملابسهن الزرقاء⁽³⁶⁾، ويصدرن أصواتًا تعبر عن فرحهن وسط ضجيج كبير من الآلاتية الذين يدقون الطبول وينفخون المزامير⁽³⁷⁾، وتسمى هذه الزفة «زفة العروسة» وقد يتبارز أمام الزفة فلاحان بالنبوت، كما يعرض بعض الحواة حيلهم، وبعد أن تصل العروس إلى بيت الزوجية يتم غمس قدميها اليمنى ويدها اليمنى في اللبن تفاعلًا باليمن والبركة وأن يكون مقدمها منزل الزوجية مقرونا بالخير والنماء، ومن العادات الشائعة لدى البعض أيضًا أن تقوم صديقات العروس غير المتزوجات اللاتي يصطحبهن بقرصها في ركبتها اعتقادًا منهن أن ذلك سوف يؤدي إلى حصولهن على زوج في القريب العاجل، كما يقوم أصدقاء العريس غير المتزوجين بقرصه بنفس الطريقة على أمل أن تكون لهم عروس مستقبلاً.

أما عن العريس فكان غالبًا لا يفوته الذهاب إلى الحمام بصحبة بعض أصدقائه حيث يقوم بإبلاغ رغبته إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذي يرغب أن يذهب فيه إلى هناك، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة⁽³⁸⁾، وبعد ذلك كانت تقام له زفة تسمى زفة العريس حيث يلبس عادة فقطانًا به خطوط حمراء وجبة حمراء ويتوجه إلى المسجد مصحوبًا بفرقة طبالين وزمارين وبعض حاملي المشاعل، وبعد أداء الصلاة تعود الزفة من المسجد حيث يزف العريس بالدف وبالموشحات والأوراد كما يشرع المغنون في الغناء، ثم يعود العريس إلى غرفة عروسه حيث يراها لأول مرة ومعها البلانة وحدها فيمنح البلانة عند دخول الغرفة منحة فتنسحب في الحال، وتترك له العروس وهي مغطية رأسها بشال

(34) نفسه، ص 18.

(35) صوفيا لين: حريم محمد علي، ص 63.

(36) وينيفريد بلاكمان: الناس في صعيد مصر - العادات والتقاليد، ص 81.

(37) صوفيا لين: حريم محمد علي، ص 63.

(38) علماء الحملة الفرنسية: مصدر سابق، ج 1، ص 84.

لا يرفعه العريس قبل أن يهبها هبة مالية تسمى «كشف الوش»⁽³⁹⁾، ويقترب الزوج من زوجته المغطاة بنقابها ويسمي باسم الله⁽⁴⁰⁾، وقد يسعد العريس عندما يرى أن وجه زوجته كما وصف له، وقد يشعر بأنه قد حدثت له خديعة ويحس بالفجائية في نفسه إذا كان الأمر غير ذلك⁽⁴¹⁾، ويكون نتيجة ذلك القطيعة التامة وذهاب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها⁽⁴²⁾.

ومن العادات المتبعة وقتذاك تقديم الدليل على بكاراة الزوجات للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك دليلاً هاماً على عفة الزوجة⁽⁴³⁾.

والسؤال المطروح هو هل كانت هناك شروط يتم الالتزام بها من حيث حسب ونسب كل من العروسين؟

الواقع أنه من الأمور التي كانت متبعة في حالات الزواج وقتذاك ضرورة أهلية الزوج وكفائه الاجتماعية من ناحية النسب والوظيفة بالنسبة للزوجة وأسرته وقصة زواج الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد ورئيس حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية من صفية السادات بنت الحسب والنسب والتي أقامت مصر وأقعدتها في أوائل القرن العشرين، كانت صدمة عنيفة للتقاليد الموروثة الخاصة بالبيوتات العريقة في ذلك الوقت. ومرجع ذلك أن الشيخ علي يوسف ذلك الرجل العصامي أراد أن يقترن

(39) لين : المرجع السابق، ص 110.

(40) علماء الحملة الفرنسية : مصدر سابق، ج 1، ص 84.

(41) تذكر صوفيا لين أنها سمعت أن شاباً كان قد خطب لنفسه فتاة بناء على تزكية من صديق له، ثم علم بعد ذلك أنها عوراء وذات منظر كئيب ولا تصلح أن تكون زوجة له، ولما حاول التأكد من ذلك طلب من أسرة العروس إرسال والدته لرؤيتها قبل الزواج فاشترطوا عليه في نظير ذلك أن يتنازل عن أمواله وأملاكه للعروس قبل أن يسمح لوالدته برؤيتها على أن تجلس في غرفة مظلمة حتى لا يسهل على أحد معرفة إن كانت العروس تبصر بعين واحدة أو باثنتين.

انظر : حريم محمد علي، ص 143.

(42) علماء الحملة الفرنسية : موسوعة وصف مصر، ج 1، ص 81.

(43) كان يمارس هذا السلوك عامة الشعب والأقباط، أما البكوات وكبار الشخصيات والذين حصلوا على قدر من التعليم فقد هجروا هذه العادة. علماء الحملة الفرنسية، مصدر سابق، ج 1، ص 83.

بزوجة ذات حسب ونسب ، وقد هداه تفكيره إلى أن يطلب يد صفية صغرى بنات الشيخ السادات والتي رآها خلال تردده على أبيها أثناء عمله كصحفي ، وعلى الرغم من موافقة صفية على هذا الزواج فقد رفضه والدها مما دفع صفية إلى الالتجاء لخالها ، حيث تم عقد قرانها هناك ، ولما علم والدها بالأمر رفع دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً التفريق بين الزوجين لعدم أهلية الزوج حيث إنه لا ينتسب إلى نسب رفيع مثله ، كما أنه يعمل جورنالجي وهي مهنة لم تكن موضع تقدير في ذلك الوقت حيث يقوم كما ذكر الشيخ السادات في صحيفة دعواه على الجاسوسية وبث الشائعات وكشف أسرار خلق الله ، وبعد أن نظرت المحكمة القضية في 24 يوليو 1904 أصدرت حكمها بالحلولة بين الزوجين ، ولكن صفية رفضت طلب المحكمة مما أدى إلى إحداث أزمة وانقسام للرأي العام في مصر إلى قسمين : الأغلبية وعلى رأسهم الزعيم الوطني مصطفى كامل وقفت ضد هذا الزواج ، أما الفريق الآخر وعلى رأسه الخديو عباس الثاني فقد كان يساند الشيخ علي يوسف⁽⁴⁴⁾ .

هذا عن طقوس ليلة الدخلة لدى العامة فماذا كانت عليه عند أبناء الباشوات والذوات ؟ كان يندر أن تذهب بنات الباشوات إلى الحمام العمومي قبل الزواج لوجود الحمام في منازلهن⁽⁴⁵⁾ ، بل كان يسبق ليلة الدخلة نقل جهاز العروس وما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر والتحف إلى منزل العريس وسط زفة عبر الشوارع⁽⁴⁶⁾ ، تتقدمها جوقة موسيقية وألعاب بهلوانية ، وكان يتبع هؤلاء عربات المدعويين واثنًا عشر جملاً على كل منها هودج مغطى بقماش قرمزي وبه مجموعة من الأعلام الصغيرة كما في مواكب الكسوة والمحمل ، وكان هناك عدد من السقائين لتوزيع الماء على المتفرجين . وكانت الهدايا توضع في أسبنة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القטיפ المزرکشة بالذهب والماس ، هذا عدا الأواني الذهبية والفضية وفناجين القهوة

(44) لتفاصيل ذلك انظر كتابنا دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في العصر الحديث ، ص 122 - 125 .

(45) لين : المصريون المحدثون ، ص 111 .

(46) الجبرتي : عجائب الآثار ، ج 4 ، مرجع سبق ذكره ، ص 214 .

بزخرفتها الذهبية المحلاة بالجواهر وفصوص الماس والياقوت ، وكان جهاز العروس يطاف به في كل المدينة تتقدمه فرقة موسيقية⁽⁴⁷⁾ ، وخلال ذلك كانت الشوارع وشرفات المنازل التي يمر بها الموكب تزدهج بالأهالي والمارة للفرجة عليه ، وبالنسبة لحفل ليلة الدخلة فقد كانت العروس تزف في بدلتها المرصعة بالماس وعلى رأسها التاج الهرمي الذي يتألق بالفصوص البراقة ويصطف الأغوات صفين ، ويبد كل منهم شمعدانات ضخمة تضيء شموعها كل ما حولها ، وبين هذين الصفين تسير العروس في أبهى حلل العرس حيث تنضبط دقات الدفوف النحاسية والطبول على وقع خطواتها . وعندما تصل إلى غرفة العرش (الكوشة) تجلس على مقعد عال فوق مجموعة مرتفعة من الوسائد المطرزة بالساتان الوردي تشر وابلأ من العملات الذهبية والفضية على الجموع وكذلك بارات فضية مخلوط معها شعر وملح لدرء عين الحسود⁽⁴⁸⁾ ، كما تظهر بعض المغنيات والراقصات وقد ارتدين ثياباً حريرية مخططة ووضعن على رؤوسهن طرابيش ذات أقراص مذهبة ، وازدانت صفائهن بالنقود المذهبة ، وطلبت وجوههن بالمساحيق الحمراء والزرقاء ، بينما ظهر البعض الآخر وقد أسدلن على وجوههن غطاء خفيفاً ، وهن يسترسلن في الرقص والغناء الجماعي الذي يتحدث عن جمال العروس ودلالها مما جعلها فريدة العصر ، بينما كانت الدفوف النحاسية وصاجات الأيدي والطبول تصاحبهن في الأداء ، ويسير خلف هؤلاء صفان من الأغوات وهم يحملون الصناديق والسلال التي تتألق فيها الهدايا المقدمة للعروس والتي يتنافس الأمراء والأعيان وذوو الحشيات على التباهي بتقديمها⁽⁴⁹⁾ .

(47) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، ج 1 ، ص 71 .

(48) صوفيا لين : المرجع السابق ، ص 282 .

(49) يذكر الجبرتي في وصف حفل زفاف نظلة هانم ما قدم لها من الهدايا والأمتعة وأن هذه الهدايا كانت تعرض على أم العروس أولاً فإن أعجبتها تركتها وإلا أمرت بردها قائلة هذا مقام فلانة ، فتكلف صاحبة الهدية بزيادتها مع ما يلحقها من كسر الخاطر .

انظر : عجائب الآثار ، ج 4 ، (المحرم 1229هـ / ديسمبر 1812م) .

وبعد نهاية الحفل تخرج العروس من غرفة العرش وتوجه إلى غرفتها الخصوصية مثقلة بما ترتديه من ذهب ومجوهرات تساندها أربع جوارٍ .. وفي عصر اليوم التالي ينتظم موكب زفافها للذهاب إلى سراي زوجها من خلال مهرجانات ضخمة يتقدمها الفرسان والموسيقى العسكرية ، ويتم خلالها تزيين الحوانيت والطرق التي تمر عليها زفة العروس وهدم مساطب الدكاكين وغيرها لتوسعة الشوارع ثم رشها بالماء⁽⁵⁰⁾ ، كما يتنافس أصحاب الحرف في المشاركة في هذه المهرجانات بالتفنن في إعداد المواكب التي يبرزون فيها أعمالهم والتي كانت بمثابة معرض متنقل يمثل الحياة الصناعية والإنتاجية في البلاد كما تقوم الجوقات الموسيقية بعزف ألحانها وتقديم أغانيها ، بينما يقوم آخرون بحمل شجيرات مزدانة بأكاليل الزهور والتيجان ومزخرفة بالشموع المضاء والكرات الملونة البراقة ، هذا إلى جانب اللوحات العريضة من النحاس المذهب المرفوعة على أقواس ، وخلف هؤلاء يسير المدعوون من النساء المرتديات أجمل الثياب يرددن مقاطع بعض الأغاني .

وبعد أن تصل العروس إلى بيت الزوجية ، يسمح للعريس أن يرى وجه زوجته في المساء المتأخر لأول مرة⁽⁵¹⁾ .

هذا عن طقوس الزواج عند المسلمين ، أما بالنسبة للأقباط فإن الأمر لا يختلف كثيراً ، بل ينحصر الاختلاف في إقامة قداس الزواج الذي يتم مساءً في الكنيسة حيث يرتدي كلا

(50) وصف الجبرتي حفل زفاف نائلة هانم على محمد بك الدفتردار وما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر ، كما وصف موكب زفافها في وسط المدينة وما حدث له فقال : «أطبق الجو بالنعيم وأمطرت السماء مطراً غزيراً حتى تبهرت الطرق وتوحدت الأرض وابتلت الخلائق من النساء والرجال المجتمعين للفرجة .. وتكدرت طباعهم وانتفضت أوضاعهم وزادت وساوسهم وتلفت ملابسهم .. ولم تصل العروس إلى دارها إلا قبيل دنو الشمس من غروبها . انظر عجائب الآثار ، ج 4 ، ص 215 .

(51) أكدت ذلك صوفيا لين التي حضرت زفاف زينب هانم ابنة محمد علي على كامل باشا فذكرت أن العريس لم ير وجه عروسه إلا في المساء المتأخر ، وأنه بعد أن أزاح الحجاب عن وجه عروسه تقهقر إلى الوراء يمعن النظر فيها مدة دقيقة حيث كان يتهيأ لتأملها لأول مرة .

انظر : حريم محمد علي ، ص 321 .

العروسين ملابس جديدة في هذه المناسبة ، ويسير الرجال إلى الكنيسة حاملين الشموع والمصابيح بينما تطلق النساء الزغاريد ، وبعد أن يوجه القس كلامه للعروسين ويتبادلا خاتمي الخطبة يقوم أحد الحاضرين للتحدث لمجاملة العروسين فيقارن العروس مثلاً بالقمر والعريس بالشمس ، وقد يحذو آخرون حذو هذا الرجل ، وبعد انتهاء هذه المراسم، تذهب العروس في طريقها لمنزل العريس⁽⁵²⁾ .

وبالنسبة لزواج اليهود المصريين فقد جرت العادة على تزويج الفتاة في سن مبكرة ، وكانت عملية الارتباط بين الرجل والمرأة تمر بثلاث مراحل هي التعارف والخطبة ثم الزواج ، وخلال فترة التعارف كان والد العروس يعقد ولائم ضخمة ، وكان يتم في إطار ذلك التوقيع على السند الخاص بمرحلة التعارف ، وعقب ذلك الحفل كان يحق للعريس أن يلتقي مع الفتاة المتعارف عليها في أوقات متقاربة ، وبالنسبة للخطبة فكان يلزمها توافر ثلاثة شروط هي أن تتم بموافقة الأحام وفي حضور عشرة أشخاص يكون من بينهم كاتب المحكمة أو أحد الفقهاء ، وأن يتم التوقيع على وثيقة الخطبة . أما عن أهم شروط عقد الزواج فقد تضمنت عدم اقتران الزوج بامرأة أخرى إلا بموافقة زوجته الأولى⁽⁵³⁾ ، والتزام الزوج بالإنفاق على زوجته ، وألا يحق له التمتع بمكاسب زوجته ، وكان المهر الذي يدفعه العريس لعروسه يدون في عقد الزواج ، وكانت مراسم الزواج تصاحب عادة بعقد الولائم الضخمة ، وإقامة الاحتفالات الراقصة⁽⁵⁴⁾ .

إن معظم هذه العادات قد تغيرت تقريباً في غمار الحراك الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع المصري ، فأصبحت الفتاة هي التي تختار عريسها أو توافق عليه ، وأصبحت تتمرد على محاولة الأهل تزويجها بقريب منها ، وترفض بإصرار الزواج على الطريقة التقليدية ؛ لأنها بها اكتسبته من التعليم والخبرة والتفتح العلمي والثقة بالنفس أصبحت

(52) وينيفريد بلاكمان : المرجع السابق ، ص 82 ، 83 .

(53) يعقوب لاندائو وآخرون : تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية 1517 - 1914 ترجمة جمال الرفاعي وأحمد حمادة ، ص 305 .

(54) للتفاصيل انظر : رشاد رمضان عبد السلام : النشاط اليهودي في مصر 1897 - 1922 رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب أسبوط ، 2002 ، ص 258 - 376 .

لديها الجراءة على التعبير عن مشاعرها الحقيقية ، كما أصبحت مؤهلة لزواج يحقق لها الصعود في السلم الاجتماعي . يضاف إلى ذلك أن نظرة الفتاة وأسرتها في اختيار العريس قد تغيرت فبعد أن كان يفضل أن يكون موظفًا في وظيفة ميري (أي حكومية) حتى تضمن لأسرته معيشة مستقرة ومركزًا اجتماعيًا مرموقًا تطبيقًا للمثل المصري القائل : « إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه » أصبح العريس المنشود بين الفتيات حاليًا هو الذي يملك شقة وسيارة وأموالًا ويكون شخصًا «نيولوك» New Look ولا يهم إن كان يعمل في مهنة حكومية أو غير حكومية أو كان قد نال قسطًا من التعليم أم لا .

هذا عن مواصفات العروس في اختيار شريك حياتها ، أما عن العريس فبعد أن كان يفصل الفتاة التي لا تبرح بيتها ، وتكون مسئولة عن تنسيق البيت حتى يعود من عمله فيجده مرتبًا نظيفًا ، وتهتم بتربية أطفالها والعناية بهم وتهب جوًا منزليًا هادئًا يستقر فيه ، وسنين غسل يتجلى خلالها معدنها الأصيل ، أصبح همه الأكبر هو أن تكون عاملة تشاركه في نفقات المنزل وفي أعباء المعيشة وأن يكون راتبها مقبولًا ، يضاف إلى ذلك أنه بالنسبة لعادات إحياء الأفراح فبعد أن كانت الأسر الغنية تحيي أفراح أنجالها في منزلها بحفلات تحييها أم كلثوم أو عبد الوهاب ، يصير حديثو الثراء على إحياء أفراحهم في الهيلتون أو الشيراتون على أصوات «شعبولا» ورقصات «سنية شخلع» وأمثالها .

وهكذا تغير الذوق المصري في غمار الحراك الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع المصري .

ومما سبق يتضح أن أفراح الأنجال لدى المصريين عمومًا كانت تمثل سواء عند الأغنياء منهم أو الفقراء مكانة هامة تبرز فيها العديد من العادات الموروثة والمستحدثة ، خاصة وأن البحث عن بنت الحلال التي تسعد زوجها ، وتريح قلبه ، وتحفظه بحسن تدبيرها ، وتكون سترًا له في الدنيا ، من الأمور التي تهفو إليها القلوب جميعًا ، وأن العصر الحاضر الذي نعيشه شهد تطورًا حضاريًا سريعًا قلب الأمور رأسًا على عقب في كافة مناحي الحياة الاجتماعية ، وتغيرت بعض تقاليد المصريين المتوارثة وعاداتهم ، وظهرت عادات جديدة حلت مكان العادات القديمة الموروثة .

ملحق

إن حرص الإنسان على منافعه الذاتية العاجلة منها والآجلة حمله على أن يستبشر بخير أعوانه ونصرائه وينقبض إذا نالهم ضيم أو مسهم سوء ، فعلى هذا يكون سرور الإنسان عند النعمة وبؤسه عند النقمة أمراً طبيعياً لا اختيار له فيه ، فلا مجال للتنديد أو الثناء على ما يختلج في الفؤاد ويظهر على الجوارح في السراء والضراء ، إذ لا يعاب على الإنسان ولا يمدح إلا بما صدر منه عن الاختيار والإرادة ، ولأجل هذا نجعل كلامنا الآن متعلقاً باختياراته في هذين البابين ليصادف النهي والترغيب موضعاً فنقول :

ترى الناس على اختلاف مواقعهم في المديرية والأقاليم معتادين في الأفراح على أمور كثيرة بعيدة عن الآداب ومخالفة لما جاء من أحكام الشريعة ، ولنأت على بعض ما في حافظتنا الآن منها معترفين بأنه قليل من كثير في جانب مرتكباتهم التي يضيق صدر المجلة عن سردها لأننا إذا تتبعنا ما يفعل قبيل زفاف العروسين إلى ما بعد الدخول نجد أموراً كثيرة نجهل بالحقيقة مبدأ ظهورها وعلّة تداولها ك (البُصّة وحل الدكة وإزالة البكارة بالإصبع وصلاة ركعتين وقتنّ على قميص العروس وأن يكون بغير وضوء) ويأتي بيان ذلك ببعض التفصيل .

إن أبوي البعل هما اللذان يختاران في الغالب زوجة لولدهما غير ملاحظين في شروط انتقائها إلا أن تكون من عشيرة تعادلهن في الثروة والصيت أو تزيد عنهن فيهما ، فإن ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها وإن كانت خبيثة الذات قبيحة الترية ، وأكرهوا الولد على قبولها إن لم يتحد معها مقصداً ، ولا يخفى ما في ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معاً . ويدفعان من الصداق ما يرضي أبويها ولو حملها ديناً باهظاً وكلفها حملاً ثقيلاً . وإذا أتى وقت الدخول بها توجهت نسوة ورجال عديدون من أقرباء الزوجة إلى منزل الزوج وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغيره (من غير أن تأخذهم شفقة بأهل المنزل وعويلهم وصرائحهم) ليعدوه طعاماً ليلة الزفاف . وبعد ذلك إذا أراد آل الزوج أن يأتوا إليه بمخطوبته تتبعهم جموع كثيرة ، فئة تضرب بالسلاح ، وقوم يلعبون

الخطب ، وجماعة تتسابق على ظهور الخيل ، ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يخالها السامع منبعثة عن متوحشات أفريقيا الجنوبية ، وهذا مع اختلاط الذكور بالإناث والصغار بالكبار ، حتى إذا جاؤوا بيت الزوجة وأرادوا حملها على الهودج المعد لزفافها كان دون فتح القاعة التي هي فيها صعوبات أخفها تَمُتُّ أخيها أو خادمها عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود ، وكذا يرضي جميع خدم أبيها وحاشيته وهذا هو المسمى عندهم (بلصة) . وأما والدة الزوجة فإن كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر على شرط أن تكون مضارعة لكسوة عروسه وإلا ردت إليه وطولب بأثمن منها ، هذا وقبل أن نخرج بالعروس إلى هودج الزفاف نعود بالقارئ إلى ما يفعل بها صبيحة اليوم الذي تزف في مسائه إلى وقت الزفاف .

قبيل شروق الشمس من هذا اليوم تأتي الماشطة وتخصب قدمي العروس وكفيها بالحناء على شكل خطوط متقاطعة ثم تدعها واضعة قدميها على لبنتين من الطوب الأخضر مكشوفة الأطراف وليس عليها سوى قميص رقيق مخفوفة بلفيف من الفتيات يصرفن الوقت في الترنات واللعب ، فإن حان وقت العصر غسلتها الماشطة وسرحتها وألبستها ثياب الزينة والزفاف ، وفي هذا الوقت تخرج نسوة عديدات من أقاربها ويمررن بأنحاء القرية مثنى وثلاث رافعات الأصوات بألفاظ يحسبها ترنًا ، وكلما مَرَزْنَ بباب منزل وقفن قليلاً فتخرج من فيه من النساء وتقابلهن بالزغاريد ، وعند اجتيازه يخترن من النساء اللاتي في المنزل أجملهن ذاتًا ويدعونها إلى بيت العروس لتحضر العشاء فتتقاطر المدعوات أفواجًا إلى بيتها ، وكلما دخلت منهن واحدة وضعت بين يديها ما أتت به من النقود وهذا هو المسمى (نقوط) ثم ينصرفن إلى منازلهن بعد العشاء ولا يعدن إلا وقت زفاف العروس .

عود على بدء ، حيث تخرج العروس من منزل أبيها تكثر طلقات الأسلحة النارية . ويعلو صوت المغنيات ويشد رعد الطبول وتتشرب الغوغاء ويتصاعد العفير المنبعث عن حوافر أفراس السباق على وجوه المارة بالموكب وثيابهم . ويزيد صراخ الأطفال الساقطين تحت أرجل الناس من الازدحام إلى أن يقرب الموكب من بيت الزوج فيعرج سائق الجمل

المقل الزوج عن الطريق الموصل إلى البيت وتتبعه الجموع حتى يرضيه الزوج بما لا ينقص عن أجرة الجمل شهرين أو ثلاثة فيرجع عن جموحه وتدخل العروس وأثاثها إلى منزل العريس ، وبعد ذلك يأخذ في زفاف الزوج على هيئة زفاف عروسه ، خلا أنه لا يحمل على جمل بل يمشي راجلاً وأمامه المدفون والزامرون ، ولكن بعض الناس الآن (وهم وجهاء البلاد) اتخذوا الذاكرين (أبناء الطرق) بدلاً عن الزامرين والمدفونين ، فهم الذين يؤلفون موكب العروس ويخترقون كثيراً من القاذورات رافعين أصواتهم بذكر الله طائفين حول البلد على غير خشوع وأدب . هذا فضلاً عن كون كثير من النسوة والأطفال يقطعن صفوفهن لشدة الزحام حتى إذا بلغوا المنزل دخل الزوج قاعة العروس لفض بكارتها فيجد عندها والدتها واثنتين معها على الأقل غير القابلة فيفترش قميصها ويصلي عليه ركعتين والغالب أن تأديتهما تكون على غير وضوء . وإذا نهض إلى فض البكارة مانعته أم عروسه وطلبت منه مبلغاً قبل أن يحل رباط سراويل العروس ، هذا ما يدعى (حل الدكة) وإذا تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة وتصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات وترتفع أصوات القائمين على باب القاعة بكلمات قبيحة المدلول يعنون بها خطاب الزوج مع تصفيق شديد ورقص وتواثب عنيف كأنهم يحثونه على السرعة في إنجاز فض البكارة ويشرحون له كيفية الوصول إلى ذلك ، وإن تراخى ولو قليلاً أخذوا في التنديد بذلك فيفيض بكارتها بإصبعه على مرأى من النسوة الحاضرات، وقد يكون الزوج صغير السن أو مرتجفاً فتنوب القابلة عنه في ذلك (شيء قبيح لا ترتضيه الشريعة ولا يقبله الذوق) وبمجرد خروجه من القاعة تندفق النار من أفواه البنادق والقربانات ثم تدخل العديد من النساء عند الزوجة ويأخذن القميص الملوث بدم البكارة ويحملنه بين أيديهن ويمررن حول البلدة مرة أو مرتين فرحات راقصات فيعرضنه على جميع المنازل والبيوت وينشدن في طريقهن هذه العبارات متتابعة بصوت مرتفع : (بيضتي الشاش يا عروسة) ومعناها حبذا بك من عروس لم تدنسي عرض أبويك ، فإن هذا الدم الذي نحمله بين أيدينا يدل على أنك مصونة العرض طاهرة الذيل وكفى أبويك شرفاً بهذا ، وبعد ذلك يحفظن هذا القميص في منزل أبويها لا يسمحن بغسله إلا بعد شهر على الأقل ليكون حجة على طهارة عرض أبويها .

وأما الزوج فإنه عند خروجه من عند زوجته لا يباح له العودة إليها ثانية إلا قبل الفجر ، ثم مع ذلك يجب أن يبكر في القيام من النوم صبيحة تلك الليلة ليجلس مع المهنتين طول نهاره وهكذا ثلاثة أيام ، في هذه المدة تأتي إليه الأصحاب من البلدة وغيرها بالنقود كل على قدر ثروته ، أو الأولى يدفع إليه كل واحد قيمة ما أخذ منه في أفراحه السابقة ، وبعد هذا ينتهي الفرح ويذهب كل إلى عمله حتى العروس .

تلك بعض عاداتنا في الأفراح حفظناها حيث ننظرها من النواظ المظلة على شوارع المدن والبنادر وتربين أيدينا ونحن جلوس على قارعة طرق الأرياف و(مصاطبها) يقوم بشعارها الصغير والكبير ولا ينكرها الجاهل والعالم ولا ترى من يزجر النساء على الاجتماع بالرجال مع مشاهدتهم ما ينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور وكأنهم لم يعلموا أن فض البكارة بالإصبع وكشف العورة بمحضر من النسوة أمر منكرو في الشرع ومستقبح بالعقل ، وأن القابلة تستحق التعزيز والتأديب على النظر إلى عورة غيرها ، فضلاً عن أن تزيل هي غشاء البكارة بنفسها ، وكأنهم ذهلوا عما ورد في الشرع وأجمعت عليه الأئمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة ومن يعتقد حل ذلك فيحكم عليه بالكفر حتى لم ينهوا العروس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء .

وبالجملة فإن كثيراً من العادات التي شرحناها لك إن لم نقل كلها مما لا ينطبق على قاعدة شرعية أو أصل عقلي بل مصدرها أهواء فاسدة وميول سخيفة شأن كل قوم انتشر بينهم جيش الجهل وقل في ربوعهم العلم فيفعلون ما تحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبيح والضرار .

نعم إننا نعترف بأن كثيراً من عادات الأفراح السابقة قد درست مراسمها وأن النبلاء في القرى والبنادر أخذوا يقللون من تلك العادات شيئاً فشيئاً ، وأن البعض منهم قد قدر على إزالة معظمها إذا أقام فرحاً في بيته ، ولكن ذلك التقليل وهذا التهذيب لا يكفي بالنسبة لحالتنا الراهنة فإن قطرنا الآن يحسب في عدد البلاد المتقدمة لا سيما وقد ملأه الأغراب والسائحون من الأمم العريقة في التمدن ، فمن العار أن يرونا مساوين في العادات لقوم وحشيين لم تطرق آذانهم حكم شرعية ولم يشموا رائحة المعارف ولم تنر

بصائرهم أشعة العلم فيرموننا بالجهل وينظرون إلينا مستهزئين ونحن لا نقوى على رد دعواهم لكونهم ينطقون عن معاناة ، وأما تنزه أفراد قليلين عن تلك العادات فلا يعد عنواناً لإقليم يحتوي على الملايين من الناس ، على أنهم وإن خلعوا بعض هذه العادات لكنهم جددوا لهم عادات أخرى حتمت عليهم الإسراف والتبذير وصرف المصاريف الجسيمة فيما لا يعود بطائل ، مع أن تلك النقود الوافرة لو حفظت للعروسين لكانت رأس مال يضمن لهما حسن المعيشة إن أحسنا فيه التصرف ، فهذه العوائد الجديدة ليست أقل في الفساد من تلك العادات الوحشية ، أصلح الله حالتنا ، آمين .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق :

(أ) دار الوثائق القومية :

- الداخلية ، عربي ، أوامر (1) 1275 هـ .
- دفتر أنظمة ولوائح رقم 1891 .
- محافظ أبحاث ، محفظة رقم 149 ملف تراجم البراءات التركية .

(ب) دار المحفوظات العمومية :

- ملف رفاة الطهطاوي .
- وثيقة محررة بخطه وموقعة منه ومختومة بخاتمه بتاريخ شوال 1255 هـ .

ثانياً : المصادر والمراجع العربية :

- (1) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ، ج1 ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب 1994 .
- (2) إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم في القرن التاسع عشر ، ترجمة عدلي طاهر نور - القاهرة - الأنجلو المصرية 1950 م .
- (3) جلال أمين : ماذا حدث للمصريين . تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945 - 1955 ، القاهرة ، مكتبة الأسرة 1999 .
- (4) صوفيا لين بول : حريم محمد علي باشا - ترجمة عزة كرازة ، القاهرة ، سطور ، 1999 .
- (5) عامر العقاد : أحمد أمين حياته وآدابه ، بيروت ، المكتبة العصرية ، 1971 .
- (6) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج4 ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ، 1322 هـ .
- (7) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السادسة 2001 م .
- (8) عبد المنعم الجميعي : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في العصر الحديث ، القاهرة ، مكتبة الصفا والمروة 1996 م .
- (9) علماء الحملة الفرنسية : موسوعة تاريخ مصر - المصريون المحدثون ، ج1 ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، 2002 م .

- (10) فكري أباطة : الضاحك الباكي ، القاهرة ، دار الهلال ، 1933 .
- (11) محمد جبريل : مصر في قصص كتابها المعاصرين ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، 1972 .
- (12) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، 1902م .
- (13) محمد كامل جمعة : حافظ إبراهيم ، القاهرة ، 1958 .
- (14) وينيفريد بلاكمان : الناس في صعيد مصر - العادات والتقاليد - ترجمة أحمد محمود ، القاهرة ، عين للدراسات والنشر ، 2000م .
- (15) يعقوب لاندان وآخرون : تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية 1517 - 1914 ترجمة جمال الرفاعي وأحمد حماد ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000 .

ثالثاً : المصادر الأجنبية :

- Lane Edward: The Manners and Customs of Modern Egyptians, London, 1923.

رابعاً : رسائل جامعية غير منشورة :

- رشاد رمضان عبد السلام ، النشاط اليهودي في مصر 1897 - 1922 رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة أسيوط ، 2002 .

خامساً : الدوريات :

- الهلال عدد سبتمبر 2002 .

oboiikan.com

الخطة السياسية الإعلامية للقصر الملكي في الأربعينيات من القرن العشرين

نازك زكي إبراهيم

مدرس التاريخ الحديث

كلية البنات - جامعة عين شمس

oboiikan.com

الخطة السياسية الإعلامية للقصر الملكي في الأربعينيات من القرن العشرين

مقدمة :

تولت الأسرة العلوية حكم مصر منذ 1805 وحتى عام 1952 عندما قامت ثورة يوليو .
وبقيام ثورة يوليو سقطت الأسرة العلوية المالكة وبدأ عهد جديد في تاريخ مصر ،
لكن التاريخ الاجتماعي لا يعترف بسقوط دول ولا انهيار أسرات .
لذلك فإن هذه الدراسة تتعلق بالدور الاجتماعي لبيت فاروق آخر ملوك أسرة محمد
علي من خلال الخططة الإعلامية التي رسمت له .
لم تكن الأعمال الخيرية في البيت العلوي قاصرة على الفترة موضوع الدراسة فحسب ،
ولكن أعمال الخير كانت تصدر في أحوال كثيرة في عهود أجداد فاروق على مدى سنوات
حكمهم .

وخشية الإطالة فقد اخترنا فترة حكم إسماعيل (1863-1879) كنموذج لأعمال
الخير التي كان يقوم بها هذا العاهل .

ويذكر تقويم النيل لأمين باشا سامي بالعديد من الإيرادات والأوامر الصادرة عن
إسماعيل بتخصيص مبالغ مالية وأراض لأرامل وزوجات وأشخاص أنعم عليهم بها .
(إحساناً من لدنا) ⁽¹⁾ .

(1) أمين باشا سامي: تقويم النيل. ج3 الطبعة الثانية. دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة 2003م،
ص/ 1046، 1053، 1153، 1154، 1169، 1176، 1182، 1184، 1187، 1198، 1208، 1210،

وقد أبدى فؤاد الأول (1917-1936) في مظاهر حب الخير والأعمال المتعلقة به الكثير من الأعمال التي تمثلت في رعايته لمعاهد التعليم والجمعيات العلمية والمؤسسات العلاجية والإسعافية طوال فترة عهده ، فقد شارك في إدارة "الجامعة المصرية" 1908، كما رأس "جمعيات الإسعاف" 1910، و"جمعية الهلال الأحمر المصري"، كما أسس مصنعاً لتعليم الفتيات الفقيرات بمدينة الإسكندرية وأنشأ صيدلية كبرى في مركز جمعية الإسعاف لتوفير الدواء للمحتاجين من المصريين .

هذا إلى جانب إنشاء المحافل والجمعيات العلمية كالجمعية الجغرافية والمجمع العلمي المصري والجمعية الدولية للاقتصاد والتشريع ومعهد للأحياء المائية⁽²⁾.

وقد شاركت فؤاد في أعمال الخير زوجته الأولى "الأميرة شويكار" ابنة "الأمير إبراهيم باشا أحمد" فأوصت بتوزيع معظم تركتها التي كانت قد ورثتها عن شقيقها "الأمير سيف الدين" على مبرة محمد علي، واعتنت بجمعية المرأة الحديثة التي تضم مئات الفتيات المعدمات فكفلت تعليمهن وتدريبهن على بعض الحرف اليدوية وتأهيلهن للمستقبل⁽³⁾.

أنجبت نازلي "الزوجة الثانية" لفؤاد أولاده (فاروق 1920)، و(فوزية 1921)، و(فائزة 1923)، و(فائقة 1926)، و(فتحية 1930) وقد كان لتلك الأميرات أدوار اجتماعية تستحق الاهتمام.

= ومن أمثلة ذلك: "قد اقتضت إرادتنا ربط مبلغ ألف وخمسمائة غرش شهري بالرزنامة إحساناً من لدنا إلى الست سارة حرم أحمد رفعت بيك".

- "اقتضت إرادتنا صرف خمسمائة جنيه إنجليزي إلى السيد حسين الشريف اليمني الموجود الآن بمسافر خانة مصر إحساناً من لدنا".

(2) مصطفى درويش: تاريخ الملك فؤاد الأول. مدرسة الزعيم مصطفى كامل باشا (المجانية) 1843 - 1940. ص 7 - 10. د. ت.

- المصور - 29 يوليو 1937 (فؤاد الأول) بقلم (فكري أباطة).

(3) آخر ساعة (19 فبراير 1947) ؛ آخر ساعة (12 مارس 1947).

كانت عناية الملك فؤاد بتربية كريباته وتعليمهن لا تقل عن عنايته بتعليم شقيقاتهن فاروق فتعهدن بالتثقيف والتهديب، وكان للناحية القومية في ثقافتهن من عنايته أوفر نصيب، ولما تُوفي حرص فاروق على أن يجذو جذو والده فأخذ يتعهد بنفسه كل صغيرة وكبيرة في شئونهن.

وقد بدأت الأميرات دراستهن في سن مبكرة، وكان تعليمهن منزلياً (في القصر) وقد اشتملت دراستهن على معرفة اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والعلوم والرياضة والرسم والأشغال اليدوية ودروس الدين الحنيف، كما تم تدريب الأميرات على الألعاب الرياضية كالتنس والبنج بونج والألعاب السويدية الخفيفة، علاوة على تدريب الأميرتين فوزية وفائزة على قيادة السيارات وركوب الخيل بالإضافة إلى ميلهن للتصوير (بالكاميرا) التي انتقلت هوايتها إليهما من الملكة نازلي⁽⁴⁾.

حفلت فترة الأربعينات المبكرة في تاريخ مصر بحوادث جسام كان لها أثرها على القصر وسكانه، فقد زادت السيطرة البريطانية على مصر خلال سنوات الحرب العالمية الثانية (1939-1945) وتضاءل دور الملك والقصر في الحياة السياسية المصرية وجاءت حادثة (4 فبراير 1942) لتقضي على البقية الباقية من النفوذ السياسي للقصر، وكان لابد للقصر من أن يبحث عن مجال من المجالات السياسية أو الاجتماعية ليلعب فيها دوراً يستطيع معه أن يعوض ما فقدته على يد الإنجليز.

لهذا فإنه لم يكن غريباً أن يتبنى الملك فاروق إقامة العلاقات المصرية العربية مثل: "استضافته (الملك عبد العزيز آل سعود) 1945، وفتح اللجوء السياسي لمفتي فلسطين (الحاج أمين الحسيني)، واستضافة الأمير عبد الكريم الخطابي في مصر"⁽⁵⁾. ثم كان عليه أن يبحث عن مجال آخر من المجالات التي لا يناوئه فيها الإنجليز، فكان اتجاهه نحو العمل الخيري من خلال شقيقاته الجميلات.

(4) المصور: مجلد 1937 (الأميرات الشقيقات) ص 59 - 60

(5) كريم ثابت. مذكرات كريم ثابت. (عشر سنوات مع فاروق) من (1942 - 1952) ج 2، ص 46 - 50؛ الوفد / 19 فبراير 2000 م

وفيمما يتعلق بشقيقات الملك ، فقد كان من الواجب أن يوكل إليهن دورًا ما كنوع من المساهمة في تحقيق الخطة الإعلامية التي رتب لها رجال القصر أمثال "أحمد حسنين باشا" رئيس الديوان الملكي⁽⁶⁾؛ وكرم ثابت⁽⁷⁾ ، وهو صحفي ومستشار الملك فاروق.

كانت الأميرات في بداية حياتهن يلتحقن بأخيهن الملك فاروق والملكة والدتهن (نازلي) بحكم صغر أعمارهن في معظم الزيارات والرحلات والاحتفالات مثل زيارتهن لإحدى المعارض في حديقة الملاهي ، وزيارة قسم المعروضات الخاصة بمصلحة السجون ، كما اتجهن إلى قسم نماذج الآلات الحديثة الخاصة بآلات الخياطة وشغل الإبرة فقد كانت تستهوين تلك الأشياء⁽⁸⁾.

ومن أدوارهن حضور احتفالات أعياد الميلاد الخاصة بالأسرة مثل أعياد ميلاد الملك فاروق والدتهن الملكة (نازلي)⁽⁹⁾. كما كان الملك يصطحبهن معه إلى الرحلات خارج القاهرة مثل (منطقة إدفينا) لإقامة أيام في الخلاء والمزارع⁽¹⁰⁾.

(6) ابن الشيخ محمد حسنين ولد في (بولاق) وتعلم في القاهرة وأكسفورد ثم عاد إلى مصر (1924) وعمل أثناء الحرب الأولى سكرتيرًا للجنرال (سيرجون مكسويل). كما أرسل بواسطة الملك فؤاد لاستكشاف صحراء مصر الغربية واكتشف العديد من الواحات التي لم تكن معروفة. عينه الملك فؤاد (1925) مستشاره الملكي، وكانت زوجة (حسين) الأولى ابنة (سيف الله يسري) (والأميرة شويكار) الزوجة السابقة لفؤاد.

خدم في عهد فؤاد قرابة خمسة عشر عامًا رأس خلالها الديوان الملكي بعض الأوقات، وتولى مناصب دبلوماسية في واشنطن ولندن، يعتقد البعض أنه بعد وفاة الملك فؤاد تزوج حسنين أو أقام علاقة غرامية مع (الملكة نازلي) أرملة فؤاد والده فاروق الذي كان حسنين يمارس عليه نفوذًا كبيرًا في بدايات عهده.

- آرثر جولد سميت "الابن" قاموس تراجم "مصر الحديثة". ترجمة وتحقيق د/ عبد الوهاب بكر. المجلس الأعلى للثقافة 2003م ص 207 ، 208.

- وتذكر إحدى الدوريات أن (الملكة نازلي) اعترفت بزواجها عريقًا من (أحمد حسنين باشا)

- صباح الخير : 28 / 3 / 2000م بقلم رشاد كامل .

(7) سيرد ذكر كرم ثابت فيما بعد بالتفصيل في السطور القادمة.

(8) المصور/ 28 فبراير 1936

(9) المصور/ 17 يولية 1936

(10) المصور / 30 أكتوبر 1936 ، 13 نوفمبر 1936.

ومن الزيارات التي اعتدنا القيام بها رحلتهم إلى عاصمة مصر الثانية (الأقصر بصعيد مصر) للتجول بين الآثار خاصة معبد الملك رمسيس الثاني، بالإضافة إلى بعض الهوايات التي قمن بها مثل هواية صيد الأسماك مع الملك فاروق⁽¹¹⁾.

ومن رحلاتهم التي قمن بها مع الأسرة الملكية رحلتهم إلى أوروبا، التي كانت رحلة تعليمية الهدف منها البحث عن معاهد في سويسرا الالتحاق الأميرات بها، بالإضافة إلى أنها رحلة ترفيهية يتعلمن فيها كثيرًا من أنواع الرياضات مثل التزحلق على الثلوج، علاوة على زيارتهن لإحدى مصانع الشيكولاتة الشهيرة (نستله) وجهن لتلك الأنواع من الشيكولاتة⁽¹²⁾.

وعند عودة الأسرة إلى القاهرة قامت كل من الأميرة فوزية والأميرة فائزة بحضور حفلات المدارس التي شرفت بأسمائهن والاستماع إلى ما تلقينه الطالبات من مقطوعات موسيقية وأبيات شعرية ترحيبًا بهن⁽¹³⁾. كانت تلك الأدوار العادية التي قامت بها الأميرات، وكيف كن يتمتعن بأوقات فراغهن مما أفادهن في تكوين شخصيتهن وسلوكهن في التعامل مع غيرهن من الطبقات.

كانت مصر قد تعرضت خلال النصف الثاني من الأربعينات إلى ظروف وتيارات مختلفة هددت أحوال القصر الملكي والبلاد، الأمر الذي استدعى أن يكون للقصر دورًا ما سنشرحه فيما بعد.

وكانت هذه الحوادث تتمثل في: الأوضاع السياسية في مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، والتغلغل الشيوعي في المنطقة، سقوط هيبة القصر بعد حادثة 4 فبراير 1942، فضائح القصر (الملك - ووالدته) بالإضافة إلى حرمان الملك من أي دور سياسي⁽¹⁴⁾.

(11) المصور/ 15 يناير 1937

(12) المصور/ 12 مارس 1937، 19 مارس 1937، 7 مايو 1937

ومن الأمور التي شهدتها الأميرات للمرة الأولى في تلك الرحلة حضورهن مناسبة الاحتفال بتولي الملك سلطاته والتي أقسم فيها اليمين الدستوري لحصوله على سلطته الدستورية. المصور/ 6 أغسطس 1937.

(13) المصور/ 19 نوفمبر 1937.

(14) د. لطيفة محمد سالم. فاروق وسقوط الملكية في مصر (1936 - 1952) مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى 1989. ص 530 - 546.

كل هذا استدعى وجود توجه لدى القصر بهدف تحسين صورته لدى الشعب المصري. وكان هذا التوجه يستدعي استخدام شخصية إعلامية سياسية قادت إلى إحداث هذا التحقيق. كان هذا بداية ظهور شخصية (كريم ثابت) (بك - باشا) فيما بعد، وهو ينتمي إلى أسرة مصرية من أصول لبنانية، ولد 1906 في القاهرة، أوائل القرن العشرين سافر والده خليل ثابت وولده الصغير كريم إلى السودان للإشراف على إصدار صحيفتين واحدة بالعربية والثانية بالإنجليزية بعد أن ثبت الإنجليز أقدامهم بالسودان واستعان به أصحاب جريدة المقطم ليشغل منصب رئيس التحرير⁽¹⁵⁾.

تعلم كريم ثابت بالقاهرة وتخرج في كلية الآداب والعلوم بالجامعة الأمريكية بالقاهرة 1925 (كما كانت تسمى) وهو في الثالثة والعشرين من عمره وتصور أنه سوف يكون كل شيء في المقطم، فعمل مترجماً للعديد من السفارات الأجنبية، ثم ذهب إلى جريدة السياسة لكي يوهم أباه أنه كبر وعمل بها منتدباً بمرتب ثماني جنيهات في الشهر.

كان كريم ثابت يرغب في أن يدخل على المقطم أساليب عامة فلما يئس من التجديد استصدر عدة تصريحات بإصدار مجلة أسبوعية اسمها (العالم) واتبع فيها خطة لم تكن مألوفة في الصحافة العربية وهي الإفاضة في وصف الأسلوب المعيشي الخاص لرجال السياسة والمشاهير، ثم التقى بأصحاب دار الهلال الذين كانوا يخرجون جريدة (الدنيا) وكانت تعتنى بهذا اللون من الأخبار، ولذلك اندمجت المجلتان وأصبحتا تعرفان باسم (الدنيا والعالم) برئاسته، ثم تفرغ كريم ثابت لجريدة المقطم التي كان مندوبها في الدوائر العليا المحلية والأجنبية وأصبح رئيس تحريرها 1946⁽¹⁶⁾.

التقى كريم ثابت بالملك لأول مرة في أسوان منذ 1914، ثم خطت علاقته بالملك خطوات سريعة وأصبحا يلتقيان داخل القصر وخارجه، خاصة أن كريم ثابت كان من رواد القصر أثناء عهد الملك فؤاد الأول (والده) وكان يصحبه في رحلاته إلى الدول الأوروبية⁽¹⁷⁾. ازدادت تلك العلاقة بعد عام 1943 عندما عرض الملك على كريم ثابت

(15) الأهرام المسائي / 24 مارس 1993؛ مذكرات كريم ثابت. المرجع السابق، ص 90 - 95.

(16) الجمهورية / 30 سبتمبر 1968

(17) مذكرات كريم ثابت. فاروق كما عرفته ج1 دار الشروق الطبعة الثالثة 2003. ص 23 - 29.

منصب المستشار الصحفي حتى يكون له صفة رسمية في القصر. رفض كريم ثابت هذا المنصب لتمسكه بعمله في الصحافة ثم قبله بضغط من الملك 1946 بعد موت أحمد حسنين باشا ومنحه بدل تمثيل قرابة 500 جنيه سنوياً اعتباراً من مايو 1947، وكان كريم ثابت قبل تعيينه يتقاضى مرتباً من المصروفات السرية لوزارة الداخلية.

وفي أكتوبر اختاره فاروق مستشاراً للإذاعة بعقد مدته خمس سنوات وبمكافأة 1400 جنيه سنوياً ثم منحه رتبة الباشوية. وقيل إن فاروق بعد حادثة 4 فبراير قرر أن يخرج إلى الحياة العامة والسهرات الصاخبة فصاحبه كريم ثابت في تلك السهرات⁽¹⁸⁾.

وقد تدخل كريم ثابت في الحكم أحياناً مما أدى إلى هجوم بعض أعضاء مجلس الشيوخ عليه لتقاضيه خمسة آلاف جنيه من مستشفى المواساة مما جعل الملك يقوم بطرد هؤلاء الأعضاء بحيلة دستورية.

كان تعيين كريم ثابت بيا يسمونه (نطقاً سامياً) فكان أول تعيين يتم في القصر بهذه الطريقة، بل إن هذا التعيين أحدث ارتباكاً في الدوائر الحكومية مما جعل رئيس الوزراء (إسماعيل صدقي) يتدخل لمناقشة هذا الأمر (بدهاء) من الباب الخلفي فكتب يقول "للديوان الملكي إن كريم ثابت يتقاضى من المصروفات غير المنظورة مبلغاً كل شهر بوصفه ممثلاً لجريدة المقطم فهل يجوز استمرار صرف هذا المبلغ بعد أن أصبح من رجال الخاشية الملكية"⁽¹⁹⁾.

(18) مذكرات كريم ثابت، المرجع السابق مباشرة، ص 36-65؛ آخر ساعة / 24 فبراير 1944

(19) الجمهورية / 30 سبتمبر 1968

وتذكر أن الملك فاروق قد أحس في أخريات أيامه أن كريم ثابت قد أصبح يضايقه فأراد أن يتخلص منه بضربة إلى أعلى مثل الضربة التي كان كريم ثابت يرغب في ضربها (لإبراهيم عبد الهادي) فأصر فاروق على تعيينه وزيراً في إحدى الوزارات التي سبقت الثورة بأيام، (وزارة كريم ثابت في حكومة حسين سري) 2 يوليو 1952 - 22 يوليو 1952. فؤاد كرم: النظارات والوزارات المصرية، ج 1، مركز وثائق و تاريخ مصر المعاصر، هيئة الكتاب 1994، ص 512.

بل أشاع كريم أنه هو الذي سعى لدخول الوزارة لكي يتخلص من سيئات الملك عليهم. مذكرات كريم ثابت، ج 2. مرجع سابق 90-92، 444-450.

حدثت عدة أزمات برلمانية أثارها مجلس الشيوخ مع القصر 1950 ليمنعوا تدخل الحاشية الملكية خاصة (كريم ثابت) في شئون الحكم. ويعتقد على نطاق واسع أنه أثر في قرار الملك بدخول (حرب فلسطين) كوسيلة لاستعادة شعبيته.

ولم يكن لدى حكام العرب رغبة لتدخلهم في مشكلة فلسطين بالقوات النظامية ويرجع ذلك إلى أنه كان هناك ثمة اختلافات في وجهات النظر المتعلقة بالقضية، فقد عارضت مصر في الزج بالجيش بينما أيدت بحماس إرسال متطوعين إلى فلسطين.

كان برلمان مصر يرى أن مصلحة البلاد في تركيز جهودها ضد التهديد البريطاني الذي يطمع في مصر ويستنزف خيراتها، وألا يزج بالجيش خارج حدودها، على أن تكون نصره فلسطين عن طريق المال والسلاح والمتطوعين.

وكان مثيراً للعجب أن يتبدل هذا الرأي إلى النقيض في اللحظات الأخيرة قبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين بتأثير الملك فاروق وضغط الرأي العام حفاظاً على عروبة فلسطين.

وصيانة لسمعة مصر بين العرب، ولأن فاروق كان في قرارة نفسه يصبو إلى زعامة العالم العربي والإسلامي، فقد أصدر أمره يوم 13 مايو 1948 إلى رئيس وزرائه "محمود فهمي النقراشي" بالزج بالجيش في الحرب⁽²⁰⁾.

وبرر النقراشي في مجلس النواب خلال الجلسة السرية التي عقدت عقب دخول مصر الحرب "أن هناك 400 ألف عربي في القسم اليهودي من قرار التقسيم" وكنا نتوقع أن تجرى فيهم المذابح لذلك بدأنا نشهد العالم أننا لم نقف مكتوفي الأيدي واتفقنا على أن نحشد جيوشنا على الحدود".

(20) لواء حسن البدري: الحرب في أرض السلام (الجولة العربية الإسرائيلية الأولى) 1947-1948. مطابع دار الشعب القاهرة 1976، ص 34-35، يذكر الفريق محمد حيدر باشا القائد للقوات المسلحة المصرية أن محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء أصدر إليه أمراً بدخول الحرب يوم 14 مايو 1948 أي قبل المعركة بيوم واحد.
- آخر ساعة / 13 مايو 1953 (مقال عن حرب فلسطين).

وبالسؤال عن حالة الجيش المصري عرف أنها سيئة للغاية لعدم وجود تدريب أو استعداد بالإضافة إلى أنه كان موزعاً بين عديد من الهيئات والوزارات، ولكن النقراشي أكد أن موقف مصر بين الدول يحتم عليها الدخول في الحرب، بل ذكر أن المسألة سوف تسوى سياسياً وأن الأمم المتحدة سوف تتدخل وأن الاشتباكات لن تخرج في حقيقتها عن مظاهر سياسية وليست عملاً حربياً⁽²¹⁾.

وقد تطورت أحداث قضية فلسطين بعد ذلك إلى فضائح مالية مست سمعة القصر ورجال الحاشية، وقد نشرت إحدى الصحف أن قرار الاتهام في قضية الأسلحة والذخائر الفاسدة وجه إلى عشرة من المتهمين للمحاكم العادية، وثمانية ضباط وشخصية كبيرة ووكيل وزارة سابق. وقد وجهت إليهم تهم (سوء استصناع الأسلحة) والاختلاس والانتفاع بأعمال الوظيفة والشروع في الرشوة⁽²²⁾.

كما نشرت أخبار عن اتهام النبيل عباس حليم بالاشتراك في اختلاس خمسة ملايين دولار، واتهم أحمد بدر بك قائد البحرية بتسهيل اختلاس 18.669 ألف جنيه مع 13 منهم اشتركوا في إساءة صنع الذخائر التي عرّضت القوات المصرية للقتال الخطير⁽²³⁾.

يتميز كريم ثابت بأسلوب فريد وبديع لا يكاد ينازعه فيه إلا (محمد التابعي).

كتب كريم ثابت العديد من التراجم بما في ذلك ترجمة (لسعد زغلول) وتاريخ أسرة (محمد علي) ورغم أنه استقال من القصر في أكتوبر 1951 إلا أنه حوكم للفساد بواسطة (محكمة الثورة) 1953 وأدين وعوقب بالأشغال الشاقة مدى الحياة، ولكن أخلي سبيله لأسباب صحية 1960⁽²⁴⁾.

ومن مؤلفات كريم ثابت المذكرات التي قام بكتابتها على جزئين وهي خاصة بالملك فاروق وجعل عنوان الجزء الأول منها (فاروق كما عرفته) أما الجزء الثاني فعنوانه (عشر

(21) لواء حسن البدرى، المرجع السابق ص 40 - 46.

(22) المصري / 13 يناير 1951.

(23) المصري / 16 يناير 1951.

(24) آرثر جولد شميث "الابن". قاموس تراجم "مصر الحديثة"، مرجع سابق، ص 207 - 208.

سنوات مع فاروق) أي إنه جسد صورة فاروق الإنسان في الجزء الأول، أما الثاني فجعله لفاروق السياسي.

وقد نشرت هذه المذكرات مسلسل في العديد من الصحف اليومية مثل جريدة الجمهورية (يونيو/ يوليو 1955) وقد تذكر الناس دوره الذي قام به في إفساد الملك، ومن مؤلفاته أيضًا كتاب "طلاق إمبراطورة"⁽²⁵⁾؛ وقد نشرت بعد وفاته 1964 بدون إذن ابنته (ليلى ثابت).

ومن المؤكد أن كل تصرفات أعضاء الأسرة المالكة (أميرات القصر الملكي) طبقًا للخطة الإعلامية التي قام بها كريم ثابت من تبرعات خيرية، وزيارات للمستشفيات والملاجئ وتسكين رُفُوع جرحى حرب فلسطين، والدور الإنساني في مكافحة وباء الكوليرا في مصر 1947^(*)، كانت تتم من خلال الخطة الإعلامية الطموحة التي وضع أساسها "كريم ثابت" بفضل خبراته الإعلامية.

(25) وهو خاص بالإمبراطورة فوزية وطلاقها من الشاه رضا بهلوي وقد صدر عن دار الشروق وقد أدى نشره إلى سوء فهم بين ابنته (ليلى) وبين الأستاذ محمد حسين هيكمل لكتابتها مقدمة هذا الكتاب بدون اتفاق أو استئذان، وكانت أصول الكتاب 16 فصلًا بينما صدر بـ 11 فصلًا فقط. وقد رسم كريم ثابت صورة مستنكرة للملك فاروق في هذا الكتاب أي صورة رجل مجنون، كما صور الأميرة فوزية باعتبارها جادا لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، ويتساءل كريم أين كانت إرادة فوزية عند زفافها إلى محمد رضا بهلوي ثم طلاقها ثم زواجها من إسماعيل شرين، إنها لم تكن تناقش أحدًا لا في الزواج ولا في الطلاق. هل هذه هي الصورة التي أرادها لها (كريم ثابت)؟ أم أنها الحقيقة؟؟؟.

الوفد/ 12 إبريل 2001م بعنوان "لا هذه أميرة ولا هذا ملك"؛ و مما يؤخذ على شخصية هذا الرجل أنه تعتمد تشويه صورة الملك وشقيقته فوزية الأمر الذي يتضح من خلال تحليل جريدة الاتحاد بعنوان "طلاق الإمبراطورة كشف الوجه الخفي للملك فاروق"، 5/ 3/ 2001.

(*) يذكر أن وباء الكوليرا موطنه الهند في مناطق معينة فهي تعتمد على عدة عوامل منها الرطوبة والأمطار والحرارة. وقد نبه د/ سعيد عبده أحد أساتذة الصحة أن الوباء سيختفي في 15 نوفمبر من العام نفسه، بناء على البحث الطبي الذي سوف ينشر بوزارة الصحة. آخر ساعة / 15 أكتوبر 1947.

كانت شقيقات الملك من الأميرات (فوزية - فائزة - فائقة - فتحية) قد بلغن في الأربعينات مرحلة من النضج الثقافي والاجتماعي ما أهلهن للقيام بذلك الدور الذي سنشرحه في الصفحات التالية.

اجتاح وباء الكوليرا 1947 صعيد مصر الذي أجمع الفنيون على أنه تسلسل من معسكرات الجيش البريطاني في منطقة القناة⁽²⁶⁾.

ومن الملاحظ أن الإمبراطورة فوزية والأميرة فائزة هما اللتان قامتا بدور واضح وفعال في مواساة مرضى وباء الكوليرا، أما الأميرة فائقة وفتحية فقد اصطحبتن الملكة (نازلي) معها إلى نيويورك خلال الرحلة العلاجية التي سافرت من أجلها.

فقامت الإمبراطورة فوزية والأميرة فائزة بزيارة مستشفى مبرة (محمد علي الكبير) في مصر القديمة⁽²⁷⁾.

تبرعت الإمبراطورة بمناسبة هذه الزيارة بمبلغ (مائتي جنيه) كما تبرعت الأميرة بمبلغ (مائة جنيه) هذا بالإضافة إلى مبلغ الألف جنيه التي كانت قد تبرعت بها كل من الإمبراطورة والأميرة من قبل⁽²⁸⁾.

وتعددت زيارات الأميرات إلى أماكن الرعاية الاجتماعية كالمستشفيات والمبرات والملاجئ ودور التعليم وتبرعن بمبالغ مالية مناسبة ونهجت سيدات المجتمع الراقي نهجهن⁽²⁹⁾.

(26) لم تكن المرة الأولى التي اجتاحت فيها مصر هذا الوباء فقد اجتاحتها 1902 عندما أتى حاج من حجاج بيت الله الحرام بهذا الوباء على أهل قريته في صعيد مصر، وقد تم إنشاء معمل لحماية البلاد من هذا الوباء تحت إشراف الملك فؤاد. وقد تم الافتتاح الرسمي لهذا المعمل تحت إشراف الملك فاروق 1945.

- آخر ساعة / أول أكتوبر 1947.

(27) آخر ساعة / 21 مايو 1947.

(28) آخر ساعة / 30 إبريل 1947.

(29) آخر ساعة / 30 إبريل 1947 (نفس العدد).

ومن التبرعات: ما أرسلته الملكة (نازلي) لعمل الخير فقد تبرعت بمبلغ ألف جنيه للجنة سيدات الهلال الأحمر في القاهرة على أن يخصص هذا المبلغ لمساعدة المنكوبين في وباء الكوليرا، كما تبرعت بمبلغ خمسمائة جنيه لفرع اللجنة في مدينة الإسكندرية أيضًا.

- آخر ساعة / 5 نوفمبر 1947.

وقد قامت الحاضرات بزيارة (المرأة الحديثة) وهي مؤسسة أخرى من مؤسسات الأميرة شويكار^(*).

وعلى أثر الجهود الفعالة التي قامت بها مبرة (محمد علي) التي ترأسها الإمبراطورة فوزية في جميع التبرعات والخدمة العامة في كافة المديرية لمكافحة وباء الكوليرا، فقد روي أن تعطي الحكومة للمبرة ثلثي التبرعات على أن تقوم المبرة بتوزيعها في تلك المديرية حسب نسبة التبرعات التي جمعت من كل مديرية. وقد بدأت المبرة عملها على أساس إعطاء المصابين منحًا يسيرة، والمنكوبين الذين فقدوا عائلاتهم منحًا أكبر⁽³⁰⁾.

ومن المجهودات التي قامت بها الإمبراطورة والأميرة فائزة حضور الحفلة التي أقيمت في "دار الأوبرا" وقد أقيمت تلك الحفلة لمساعدة منكوبي الكوليرا وقد تطوعت سيدات وآسات من أعضاء المبرة لبيع برنامج الحفلة التي بلغ إيرادها قرابة 1500 جنيه⁽³¹⁾.

وقد قامت الإمبراطورة بنشر حديث صحفي لإحدى الصحف اليومية؛ أوضحت فيه اهتمامها بأسر العمال والطبقات الفقيرة، وما تفعله أمريكا وإنجلترا من مشروعات الإصلاح والتعمير، وإشرافها أيضًا على كل ما تبذله الجمعيات والمؤسسات المصرية للعمال وأبنائهم، وقد أفضت أن والدها (الملك فؤاد) قد حببهن في عمل الخير، لذلك أقدمت على قبول رئاسة (مبرة محمد علي) لأن بلادنا محتاجة إلى مجهود كل فرد مهما كان

(*) كانت الأميرة شويكار 1936 من أفقر أميرات البيت المال ثم ورثت ثروة عن شقيقها الأمير (سيف الدين) وتقدر بقرابة (خمسة ملايين) من الجنيهات، وقد أوصت سموها بتوزيع معظم التركة على (مبرة محمد علي) وزوجها (إلهامي حسين باشا) وولدها (وحيد الدين) وكانت الأميرة شويكار ترعى جمعية المرأة الحديثة التي تضم (350 فتاة)، وتبدأ مراحل التعليم فيها من سن السابعة فتتلقى الفتاة مبادئ القراءة والكتابة فإذا بلغت الثانية عشرة من عمرها تعلمت الخياطة وكيفية استعمال أعمال الإبرة والقص.

- آخر ساعة / 19 فبراير 1947، آخر ساعة 12 مارس 1947.

(30) آخر ساعة / 12 نوفمبر 1947

(31) آخر ساعة / 19 نوفمبر 1947

هذا العمل ضئيلاً⁽³²⁾؛ وبرز اهتمام الإمبراطورة بأعمال الخير من خلال دعوة عضوات المبرة وتشجيعهن على المزيد من العطاء والبذل الخيري والاجتماعي من أجل مصر⁽³³⁾.

وقد لعبت الأميرات دوراً مهماً ومؤثراً اجتماعياً في المحنة الفلسطينية والخاصة بالمهجرين الفلسطينيين⁽³⁴⁾.

ومن الإجراءات التي أشرفت عليها الإمبراطورة في خلال 48 ساعة إعداد معسكر كبير يتسع لألف شخص في ثكنات العباسية للاجئين من أبناء الفلسطينيين، كما أُعِدَّ مطعم كبير بجوار المعسكر وخصصت له صيدلية ومستشفى ونظمت برامج للترفيه عن اللاجئين بواسطة ميكروفون الإذاعة⁽³⁵⁾.

وتمشياً مع الحملة الإعلامية التي خطط لها (كريم ثابت) في وسائل الإعلام نشرت إحدى الصحف عدة صور لسمو الإمبراطورة فوزية رئيسة (مبرة محمد علي) وهي تضع حجر الأساس للوحدة العلاجية التابعة للمبرة فرع المعادي الجديد⁽³⁶⁾.

وقد أقيم حفل خاص بتلك المناسبة وحضره عديد من الشخصيات والوزراء وشقيقتها الأميرة فائزة⁽³⁷⁾.

واستمراراً للمجهودات التي تقوم بها الإمبراطورة فوزية فقد تطوعت كممرضة تخدم في صفوف الجيش المصري، وقد نشرت لها أجهل الصور وهي بزي الممرضات⁽³⁸⁾.

(32) آخر ساعة / 28 مايو 1947.

(33) لمزيد من التفاصيل راجع: مجلة نورا / 1993 - 7 كانون الأول (7 ديسمبر). إحدى الحلقات (رقم 19)، بعنوان / فوزية أجهل أميرات مصر على أبواب عامها الثالث والسبعين وحكايتها مع الشاه لم تُنَسَّ بعد. ص 44-47.

(34) ومن أمثلة اهتمام الأميرة بالمهجرين أنها أمرت بإقامة حفلة وخصصت إيرادها الذي بلغ خمسة آلاف جنيه للعناية بهم، راجع تفصيلاً: الاثنين والدنيا / 17 مايو 1947، 31 مايو 1947.

(35) الاثنين والدنيا / 10 مايو 1948 وقد أشارت الإمبراطورة فوزية على سيدات المبرة بزيارة مهاجرات فلسطين والترفيه عنهن بما يدخل الطمأنينة على قلوبهن.

(36) آخر ساعة / 19 مايو 1948.

(37) الاثنين والدنيا / 24 مايو 1948.

(38) آخر ساعة / 26 مايو 1948.

ونستطيع أن نلمس في كل ما أوردناه في هذه الورقة حرص كريم ثابت على ملء الصحف المصرية بأخبار أعمال الخير والتبرعات التي كانت تقوم بها أميرات القصر والملك⁽³⁹⁾.

ومن أعمال المبرة بتوجيه من رئيستها (الإمبراطورة) قيام بعض السيدات (فرع الإسكندرية) بإعداد طرود الهدايا المرسلة للترفيه عن جنود الجيش بفلسطين وهي تحتوي على العديد من علب الحلوى والمربات⁽⁴⁰⁾؛ ومن الأنشطة التي أشرفت عليها سيدات المبرة برئاسة الإمبراطورة فوزية والأميرة فائزة المعسكر الذي أقيم بجوار جمرق القنطرة لاستضافة المهجرين الفلسطينيين الذين تركوا ديارهم⁽⁴¹⁾.

ومن بين الأعمال والمجهودات التي قامت بها عضوات المبرة تحت إشراف الإمبراطورة فوزية والأميرة فائزة سفر بعض عضواتها إلى فرع المبرة في مدينة بورسعيد وزيارة المستوصفات وتفقد العمل بهم ثم السفر إلى القنطرة شرق لزيارة معسكر اللاجئين هناك أيضًا والذي وصل عددهم إلى (8192) لاجئًا. وقامت العضوات بتوزيع قطع من القماش على (600) فرد من المحتاجين من اللاجئين، ثم عادوا إلى القاهرة لإخبار رئيسة المبرة بما قامت به تلك العضوات⁽⁴²⁾.

واستكمالاً لأعمال الخير التي تقوم بها الأميرات لتحسين الشكل العام للقصر بدأت الأميرة فائزة في بداية عام 1949 حملة واسعة النطاق لإصلاح الملاجئ التي تضم الأطفال

(39) الأهرام / 2 يونيو 1948 ؛ وعلى سبيل المثال : وقد نشرت الصحف عدة صور للإمبراطورة فوزية وهي بملابس (الفريق) أثناء زيارتها للمستشفى العسكري بالخلمية وبجوارها الأميرة فائزة بملابس (لواء)، وقد لوحظ معهن في تلك الزيارة الملك فاروق وهو يطمئن على حالة الجرحى بالمستشفى. وفي تلك الزيارة أنعم الملك فاروق على سيدات المبرة برتب عسكرية مثل شقيقاته، راجع : الاثنين والدنيا / 5 يولييه 1948؛ آخر ساعة / 7 يوليو 1948 .

(40) الأهرام / 6 يونيو 1948

(41) الاثنين والدنيا / 4 أكتوبر 1948 ؛ وتوسع مساحة هذا المعسكر لتسعة آلاف لاجئ وقد أقيم فيه ثلاثة مستشفيات بالإضافة إلى الصيدلية التي توزع الدواء مجاناً على المرضى ، وقامت سكرتيرة المبرة بإشغال اللاجئين بأعمال حرفية تأتي عليهم بربح وفير : الأهرام / 15 يونيو 1948 .

(42) الأهرام / 23 يونيو 1943 .

المشردين، منذ شهر تسلمت الجمعية التي ترأسها الأميرة ملجأ في العجوزة^(*)، كما تسلمت ملجأ آخر في القبة، وقد وضعت الجمعية برنامجاً للإشراف على عدد آخر من الملاجئ وأتمت الجمعية هذا البرنامج في اجتماعها الذي عقدته تحت رئاسة الأميرة فائزة. واستمرراً لأعمال الخير تعددت إقامة الحفلات التي تعتمد المبرة على دخلها لإنفاقها على أعمال الخير⁽⁴³⁾.

هذا كله في إطار الخطة التي وصفها كريم ثابت لتجميل صورة القصر وسكانه من خلال الاتصال بالناس واتباعاً لأنشطتهم قامت الأميرتان فوزية وفائزة بمصاحبه الملك فاروق عند افتتاح المتحف الذي استغرق إعداده (6 سنوات)؛ ففي أوائل سنة 1943 أعرب الملك عن رغبته في إنشاء متحف يبين مراحل الحضارة المصرية المختلفة من عصر ما قبل التاريخ حتى يوم افتتاحه، وقامت وزارة المعارف بالاشتراك مع الجمعية الزراعية بتبني المشروع الذي تكلف (30 ألف جنيه) واشترك في إعداده كبار علماء التاريخ والجغرافيا والاقتصاد في مصر.

وأخذت الأميرات يتفقدن المتحف ويشاهدن دواليب المعروضات ثم وقعن على جدول التثريقات بالإضافة إلى اطلاعهن على النموذج المجسم الذي جسد للمتحف وسماعهن إلى شرح أحد المشرفين عليه⁽⁴⁴⁾.

واستمرراً لأعمال الخير اتجه إلى كفر الدوار ديزل ملكي خاص يقل الأميرة فوزية ومعها الأميرة فائزة وبعض عضوات اللجنة العامة لمبرة محمد علي؛ وفي كفر الدوار تفتتح الأميرة فوزية المستوصف الخيري للمبرة وتبع الديزل الملكي قطار خاص يقل المدعوين من مستشاري المبرة ووزير الصحة ووزير الشؤون ورجال القصر والصحافة⁽⁴⁵⁾.

(*) وزعت الأميرة فائزة بيدها الكريمة أكياساً من الحلوى على أطفال ملجأ العجوزة، وقد رفض أحد الأطفال أن يتذوق الحلوى قائلاً: "إنه سيحتفظ بها تذكاراً لهذه المناسبة السعيدة" الاثنين والدنيا / 27 ديسمبر 1948.

(43) آخر ساعة / 9 فبراير 1949؛ وقامت الأميرة فوزية والأميرة فائزة بافتتاح المعرض الزراعي والصناعي علاوة على زيارتهن لمدينة تحسين الصحة الواقعة على طريق "القاهرة الفيوم": آخر ساعة / 16 فبراير 1949.

(44) آخر ساعة / 16 فبراير 1949.

(45) آخر ساعة / 2 نوفمبر 1949.

ومن الاحتفالات والاستعراضات العسكرية التي حرص الملك فاروق على إقامتها وحضورها واصطحب الأميرات (بناته) معه بالإضافة إلى شقيقته الأميرة فوزية (احتفال مصر بأسبوع محمد علي) منشئ مصر الحديثة، ومنشئ الصحافة المصرية (الوقائع المصرية) وتقوم الصحف بتلك المناسبة بنشر عديد من الصور لكل من الملك فاروق وبناته وشقيقته وهي تقرأ في انهماك برنامج الاستعراض "لذكرى رائد مصر العظيم" (46).

وطبقا لحمله الدعاية التي رسمت لمن غادرت الأميرة فوزية قصر عابدين وفي صحبتها "حرم كريم ثابت" وصيفة البلاط الملكي وتوجهت إلى سراي الشرق في أرض المعرض الزراعي بالجزيرة لشهود افتتاح الاستعراض الثلجي العالمي الذي أقيم هناك، وكان في استقبالها الأميرة فائزة وعديد من الأميرات وعضوات مبرة محمد علي (47).

ورغم عدم استقرار الأوضاع الداخلية في مصر إلا أن الأميرة فوزية استمرت في مجهوداتها الخيرية فقامت بفتح المستشفى التي سميت باسمها بطنطا (48)، كما ذكرت أثناء

(46) آخر ساعة / 23 نوفمبر 1949

(47) الأهرام / 4 يناير 1950؛ استكملت الأميرتان فائزة وفائزة أعمالهن الخيرية بالذهاب إلى الجمعية الزراعية الملكية لستمعا إلى المحاضرة التي تلقيها "الكونتيسة دوفلس" القادمة من باريس للمشاركة في ميدان الخدمة الاجتماعية : الأهرام 15 يناير 1950 .

(48) بدأت شجرة (مبرة محمد علي) بمستوصف صغير في شارع البراموني بشبرا ثم نمت وكبرت وأصبحت لها فروع عديدة واحد منها في الإسكندرية ترأسه الأميرة نسل شاه، ثم فرع آخر في طنطا الذي سبق إنشاءه فرع آخر في أسيوط وهو الفرع الذي افتتحه (إلهامي حسين باشا) مندوبا عن الملك فاروق، وقص الشريط أثناء حضور صاحبات السمو عضوات المبرة وفي مقدمتهن الرئيسة الأميرة فوزية والوكيلة فائزة ترافقهن أميرة الخير نسل شاه .

إلا أن فرع طنطا جاء أكبر وأوسع وتعددت مبانيه وأقسامه، ووصفت الصحف في تلك الأيام الأميرة فوزية (زعيمة البر والخير) رئيسة المبرة التي وصلت إلى مدينة طنطا لتنشئ على أرضها قلعة جديدة من قلاع الخير. استقبلت الجماهير الأميرة فوزية بعاصفة من الهتاف ومعها وصيفتها التي اختارها لها الملك فاروق (السيدة ناهد رشاد) زوجة طبيب الملك الخاص ومعها أيضًا الأميرة فائزة والأميرتان نسل شاه وهانزادة .

أخذت الأميرة فوزية تتفقد المستشفى وجميع أجزائها وعندما أعجبت بما عليه المستشفى من انسجام في الأثاث والذوق قررت تعيين الأميرة هانزادة رئيسة لفرع المبرة في (طنطا) .

مجلة الموعد / 25 مارس 1995 / العدد 1657، حلقات يكتبها (مجدي فهمي) الحلقة (13) بعنوان الأمير محمد عبد المنعم - ملك تاجه الخيال . ص 38 - 40.

الاحتفال أن نصيب مصر من ميزانية هيئة الصحة العالمية سوف يخصص لمكافحة (مرض الدرن) على أسس علمية⁽⁴⁹⁾.

كما قامت الأميرتان فائزة وفائزة بصحبة الأميرة فوزية إلى زيارة معرض الفنون التطبيقية بسراي وزارة المعارف بالجزيرة⁽⁵⁰⁾.

ونتيجة للأعمال التي قامت بها الأميرة فائزة رأت جمعية الهلال الأحمر أن تنتخب الأميرة رئيسة لتلك الجمعية لتنسيق رسالتها الاجتماعية والإنسانية بما يتفق مع اتجاهات العهد الجديد في مصر، على أن تكون هذه الرعاية شاملة للنهوض بالواجبات نحو المواطنين وقت السلم أو الحرب أو عند مواجهة بعض الأحداث التي تلم بالمواطنين⁽⁵¹⁾.

ومن محاولات المستشار الصحفي "كريم ثابت" في هذا السياق قيام الملك بتوكيل رئيس الوزراء "مصطفى النحاس" للقيام بتأليف لجنة تحت الرعاية الملكية لجمع التبرعات اللازمة من الشعب المصري الكريم لإنقاذ أعمدة الحرم النبوي الشريف⁽⁵²⁾.

واستمراراً لرغبة الملك فاروق في تعويض فقدانه لشعبه راحته الصحافة تنشر اهتمامه بالطلبة وعطفه عليهم، فتذكر أنه دفع من جيبه الخاص المصروفات للناجحين العاجزين عن السداد، وتعددت المأدبات التي أقامها للعمال في رمضان، وزياراته لبعض المناطق الصناعية مثل المحلة الكبرى وافتتاحه لمدينة العمال فيها، ورافقه النقراشي في جولاته وشجعه عليها. وانطلاقاً من هذا الاتجاه افتتح الملك مشروع توزيع الأراضي المستصلحة على صغار الفلاحين في كفر سعد بالغربية، فوزع ثلاثة آلاف فدان على (600) عائلة تكون ثلاث قرى نموذجية بمنشأتها، بالإضافة إلى إعانة مالية لكل أسرة، وراح رئيس الوزراء يدلي بحديثه ليظهر فاروق بمظهر الراعي الصالح للفقراء والعمال على رفاهيتهم⁽⁵³⁾، ولكن هذه السياسة لم تسأ بالنتيجة المرجوة وإنما رفعت لفاروق مؤشر غروره.

(49) المصري / 16 فبراير 1951

(50) المصري / 18 فبراير 1951

(51) المصري / 9 نوفمبر 1951.

(52) المصري / 9 فبراير 1951.

(53) د/ لطيفة محمد سالم، مرجع سابق ص 565.

ورغم ما نشر في البلاد عن الملك ونتائج حرب فلسطين إلا أنه قام ببعض المآثر الملكية لإظهار عطفه مثل قيامه بمنح "السيد أحمد مدثر" من أهل مدينة (بربر) في السودان إعانة قدرها "خمسون ألف فرنك" لتمكنه من السفر إلى سويسرا لاستكمال دراسته حتى ينال إجازة الدكتوراه على نفقة الخاصة الملكية⁽⁵⁴⁾.

واستمراراً للمآثر فقد منح وزارة الأوقاف إعانة تقدر بـ 40 ألف جنيه لتعمير المساجد كمنحة أولى ثم منحة ثانية تقدر بـ 47 ألف جنيه لتنفقها في عمارة المساجد الكبرى وإحياء الشعائر الدينية في كل من الأزهر، المسجد الحسيني، المسجد الزينبي، ومسجد السيدة نفيسة، ومسجد السيدة سكيئة، والمسجد الأحدي، والمسجد الدسوقي⁽⁵⁵⁾.

ومن مآثر الملك تجاه العلم والدين إرساله كتاباً إلى الشيخ الأكبر "محمد مأمون الشناوي" شيخ الأزهر بطبع الصحيحين (البخاري ومسلم) على نفقته الخاصة طبعاً صحيحاً لتيسيرهما لعامة المسلمين في جميع بقاع الأرض⁽⁵⁶⁾.

ومع التسليم - ولو من جانبنا - بأن كل هذه التصرفات من جانب القصر وسكانه كانت جزءاً من خطة "كريم ثابت" الإعلامية فإن الثابت أنه لم ينجح في إبعاد العواصف التي أصابت القصر الملكي في بداية الخمسينيات عندما تسببت الأميرة فتحية وأمها الملكة (نازلي) فيما عرف بقضية رياض غالي⁽⁵⁷⁾.

فقد طلع الإعلام المصري على الشعب في 8 نوفمبر 1952 بقضية زواج شقيقة فاروق برياض غالي الموظف بالسلك الدبلوماسي المصري بأمريكا، وتتلخص القضية في موافقة الملكة (نازلي) على زواج فتحية بدون إذن الملك فاروق مما جعله يفقد صوابه عندما علم بذلك، فقد كان الملك يرى أن رياض غالي يريد الزواج من الأميرة فتحية لأخذ أموالها وأموال والدتها، ومما زاد من ضيق الملك عندما علم أنه مسيحي صعيدي من أسبوط .

(54) الأهرام / 12 أكتوبر 1950 .

(55) الأهرام / 8 مايو 1950 ؛ الأهرام / 16 مايو 1950

(56) الأهرام / 1 فبراير 1950

(57) المصري / 8 نوفمبر 1952

لذلك استدعى فاروق ناظر الخاصة الملكية وطلب منه أن يعد بيانًا وافيًا بإيرادات الملكة (نازلي) والأميرة فتحية وفائقة وتجميد المبالغ التي ترسل إليهن هناك على سبيل الاحتياط. وعندما فشلت محاولات فاروق لإعادة رياض إلى مصر كلف الملك فاروق رئيس وزارته مصطفى النحاس باشا بواسطة " كريم ثابت " للاتصال بالملكة (نازلي) لمنع هذا الزواج وقام النحاس بتلك المحاولة ولكنها باءت بالفشل ، مما جعل الملك يهدد رئيس الوزراء بأنه سيضطر إلى الاتصال بالحكومة الأمريكية لطلب سحب جوازات سفرها هي وشقيقاته وترحيلهم إلى مصر .

أدركت الملكة (نازلي) أن الملك يخشى على ثروتهم من أن تضيق من يديه، ولذلك حاول فاروق إعداد خطة سرية لخطف الأميرة فتحية من أمريكا بجواز سفر دبلوماسي يحمل اسم سيدة أخرى ولكن الخطة فشلت، كما بعث بإنذار إلى حكومة أمريكا عن طريق السفارة لترحيل الملكة وابنتيها إلى مصر ولكن الحكومة الأمريكية تخلت عن الحرب الدائرة بين فاروق والملكة (نازلي). وتم الزواج في إبريل سنة 1950 بعد أن أشهر إسلامه في (سان فرانسيسكو) فأمر فاروق بالحجر على الملكة (نازلي) وابنتها فتحية وحرمانها من أموالها وألقابها⁽⁵⁸⁾.

وبمجرد إعلان الزواج أسرع الحكومة المصرية بإرسال خطاب إلى القنصلية المصرية في سان فرانسيسكو لطرد رياض غالي من الخدمة⁽⁵⁹⁾. ومما سبق يتضح تفاصيل شخصية كريم ثابت الذي قال البعض عنه إنه كان شخصية مجاملة وأقرب ما تكون إلى النفاق ؛ ومن خلال ما قدمناه في هذه الدراسة من غمر الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية بأخبار القصر وسكانه من زيارات إلى المستشفيات والمستوصفات ودور الرعاية الاجتماعية والتبرع بالأموال من أجل الغذاء ، ومواساة منكوبي الأوبئة والأمراض كالكوليرا 1947 ، وجرحى حرب فلسطين 1948 ما لهجت به ألسنة الصحف

(58) مجدي كامل . غرام الأميرات . مطابع سجل العرب القاهرة 1993 ص 75 - 87 .

(59) المصري / 8 نوفمبر 1952 ؛ و من جماع ما سبق تتضح تفاصيل شخصية كريم ثابت التي قال البعض عنه إنه كان شخصية مجاملة .

وأدت إلى إعجاب الشارع المصري بالأميرات اللاتي ظهرن كملائكة الرحمة ، وهذا ما كان يقصده كريم ثابت من هذه الحملة التي ما كان لأحد أن يقوم بها مثله .

غير أن هذه الخطط الإعلامية لم تنجح النجاح الذي كان يصبو إلى تحقيقه لعدة أسباب يمكن أن نوجزها في الآتي :

أولاً: ازدياد حجم فساد الملك عن طاقة الحملة الإعلامية للتجميل التي كان يقودها كريم ثابت⁽⁶⁰⁾ ؛ بكلمات أخرى فإن جهد كريم ثابت كان يرتطم بتضخم فساد الملك الأخلاقي والمادي كتورطه في مغامرات نسائية وأعمال مالية يشوبها الفساد.

ففي أوائل سنة 1952 وجهت تهمة اغتصاب مبلغ (93 ألف جنيه) إلى الملك وهي من أموال المتبرعين من الشعب للترفيه عن جنود الجيش المصري في حرب فلسطين، وقد ذكرت أقوال ناظر الخاصة ووكيلها وكريم ثابت وبولي أن الملك هو الذي نهب هذه الأموال بوصفه القائد الأعلى للجيش أو إلى أيدي ناظر الخاصة لينفقها في ألعاب الميسر أو يهرب بها خارج البلاد.⁽⁶¹⁾

وقد تعددت التهم الموجهة للملك والمستشاره الصحفي "كريم ثابت" ومستشاره الاقتصادي "إلياس أندراوس" حول الرشوة واستغلال النفوذ وتهريب الذهب فقد علم مندوب صحيفة المصري أن التحقيق يجري مع إلياس أندراوس بسبب تصرفات مالية تمت بوسائل غير مشروعة، وقد تبين من التحقيق أن إلياس أندراوس كان الأداة المنفذة لهذه التصرفات لصالح الملك ، كما أنه كثيراً ما كان يقترحها على الملك ويدبر جميع الوسائل لتنفيذها وتحقيقها إرضاءً له وحرصاً على كسب عطف الملك.

(60) يذكر كريم ثابت في مذكراته أنه لم يجد مفراً من أن يعري العلاقة "الحقيقية" التي كانت بينه وبين الملك ويلقي بها أمام الجميع لعلهم يقتنعون، فقد طارده الكثيرون، ولم يكن أمامه إلا أن يخرج عن صمته ويتكلم ويعلن ما كان حريصاً على كتمه. مذكرات كريم ثابت . "عشر سنوات مع فاروق". مرجع سابق ص 363-368 .

- الوفد / 12 أكتوبر 2000 م تعليق (سليمان جودة) .

(61) الأهرام / 5 فبراير 1952 .

ومودته⁽⁶²⁾. وكانت هناك شخصيات تساعد إلياس في تنفيذ خطته وكان يأمرهم باسم الملك ، ووضح من التحقيق أن إلياس أندراوس جنى لنفسه أرباحًا طائلة وفوائد كبيرة⁽⁶³⁾.

(62) المصري / 8 نوفمبر 1952.

- وإلياس أندراوس "رومي كاثوليكي" ارتبط اسمه بالمال الذي يسعى إليه فاروق، وقبل أن ينال الرضا الملكي كان موظفًا صغيرًا في حكومة السودان. وضحت الصلة بين إلياس أندراوس وبين (كين بويد) الذي شغل منصب مدير الإدارة الأوربية بوزارة الداخلية، فاتخذته سكرتيرًا ثم صحبه معه عندما عين مديرًا لشركة صباغي البيض ووظفه فيه، وخلال هجوم (رومل) صفى كثير من الإنجليز أعمالهم وسلمت الشركة كأمانة لأندراوس لحين عودة أصحابها، وعندما عادوا نال المكافأة فعين بمجلس إدارة الشركة. وجرت الأموال في يد أندراوس وتعرف على فاروق في مستشفى المواساة، وأصبح عضوًا في نادي السيارات ولصيقًا بالملك.

- آخر ساعة 25 أكتوبر 1950، المصري 20 أكتوبر 1952، الأهرام 2 ديسمبر 1953.

- وعلا شأن أندراوس بفضل انضمامه إلى حاشية الملك فاستولى على عضوية مجلس إدارة ست من شركات بنك مصر وغيرها، كما دخل عضوًا في مجلس إدارة مستشفى المواساة عن بلدية الإسكندرية رغم أنه ليس عضوًا فيها لأن المستشفى تابع لجمعية خيرية إيلامية فهو ليس مسلمًا، كذلك عين مندوبًا للحكومة المصرية في شركة قناة السويس بعد اعتذار كريم ثابت عن قبول المنصب.

- لم يتقرب أندراوس للملك وحده وإنما عقد أواصر الصداقة مع كريم ثابت ليقينه من تأثيره عليه من ناحية، وحتى يبعد غيره عنه من ناحية أخرى، ودفع له المقابل ثلاث عمارات كتبت باسم زوجته. وأفرز التقارب مع الملك على حصوله على الباشوية وتعيينه عضوًا في مجلس الشيوخ ثم أنشئ منصب جديد له هو "مستشار اقتصادي" للخاصة الملكية في أكتوبر 1951. وذلك حتى يتولى مهامه بصفة رسمية والواقع أن تأثير إلياس أندراوس ونفوذه كانا ملحوظين للغاية على فاروق منذ وزارة الوفد الأخيرة، وحتى قيام حركة الضباط الأحرار، وما لا ريب فيه أن المعاملات المالية التي أعدها وسهلها للملك والحيل التي اختلقها جعلت الأخير يبارك له خطواته ويدعمها بتسليمه المزيد من السلطة حتى أصبح تسلطه يمثل ركيزة أساسية في السياسة المصرية وكما استفاد هو الآخر من وراء ذلك. (المراجع السابق / نفس الأعداد)

(63) تدل التحقيقات على أن ثروة إلياس قدرت بقرابة "خمسة ملايين جنيه" ودلت التحريات أن

إلياس كان البطل الأول في مسألة تهريب الأموال إلى الخارج وقد تبين أن جملة ما هربه إلياس إلى الخارج من الأموال لحساب الملك تقدر بقرابة مليوني جنيه ذهبيًا، راجع : المصري / 8 نوفمبر

ثانياً: إن مُحْطَطَ الحملة الإعلامية نفسه (كريم ثابت) كان فاسداً إلى درجة لا تحتل نجاح خطته فقد أُتهمَ أمام محكمة الثورة بعدد من الجرائم مثل تدخله في السياسة وأنه كان يوجهها حسب هواه (*)؛ كما وجهت إليه تهمة تخريض الملك لإعلان حرب فلسطيناً وهو الذي رسم هذه السياسة. لذلك حددت محكمته الثورة ادعائين تم توجيههما إلى كريم ثابت. الأول: خيانة الوطن، فقد وجه إليه أنه اتصل بجهات أجنبية سنة 1953 بهدف الإضرار بالنظام الحاضر ومصصلحة البلاد العليا. (64)

الثاني: ينقسم إلى عدة نقاط :

- 1- قام بأعمال ساعدت على إفساد الحكم والحياة السياسية واستغل نفوذه استغلالاً لم يهتم فيه بصالح الوطن في المدة ما بين سنة 1946 وما بعدها.
 - 2- بحكم صلته الوثيقة بالملك عمل كريم ثابت على توجيه الملك وجهات تتعارض مع مصلحة البلاد من النواحي الخلقية والمادية والأدبية مما أثر على الحياة السياسية.
 - 3- في سنة 1949 بوصفه مستشاراً صحفياً سعى من جانبه للحصول لنفسه على عمولة من إحدى الشركات الكبرى مقابل تدخله لإبرام اتفاق لصالح تلك الشركة مضراً بمصلحة البلاد.
 - 4- وفي غضون 1948 / 1949 بوصفه مستشاراً للملك استولى لنفسه بدون وجه حق على مبلغ ثلاثة آلاف جنيه ثم ألفي جنيه أخرى من أموال مؤسسة خيرية (مستشفى المواساة) بالإسكندرية (65).
- كما ذكر أن كريم ثابت كان يسعى للإفراج عن اليهود أيام حرب فلسطين متقاسماً الرشوة مع الملك (66).

(*) عقب مظاهرات القاهرة (يوم 26 يناير) وبداية الحريق أشار كريم ثابت على الملك بالتخلص من النحاس باشا والسيطرة على مصر بالجيش وإعلان الأحكام العرفية، ويقول كريم ثابت إن كل مستشاري الملك كانوا يدركون حقيقة الموقف ولكن لم تكن لدى أحد منهم الشجاعة الكافية لإبلاغ الملك. (المصري) 28/ ديسمبر 1952.

(64) المصري / 12 أكتوبر 1952.

(65) المصري / 11 أكتوبر 1953.

(66) المصري / 16 أكتوبر 1953.

لذلك حكمت المحكمة عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، ومصادرة ما زاد على أمواله وأموال زوجته عما كان يمتلكه في مايو سنة 1946 أي قبل توليه منصب مستشار الملك، وصدّق مجلس قيادة الثورة على هذا الحكم⁽⁶⁷⁾.

كان القصر الملكي قد تخرب بفعل سياسات وشخصية فاروق وانسياقه وراء نزواته ورغباته التي لم يكن يقف أمامها أحد. ومع اتباع تلك السياسة التي عبر عنها "كريم ثابت" في مذكراته بقوله إنها "دستور غير مكتوب" في مقابلات الملك مع الحكومات، فإن حجم تورطه في المشاكل والفضائح زاد على الحد الذي تصلح معه السياسة الإعلامية الدعائية في تحسين صورة القصر.

وقد ذكر ثابت في مذكراته أن خطته كانت تعتمد على القيام بنشاط دعائي اجتماعي شامل للدعاية للملك⁽⁶⁸⁾.

ويبدو - عندي - أن خطة "كريم ثابت" قد جاءت متأخرة عن موعدها، فقد سبق السيف العزل، وراح الملك يعد أيامه الباقية وذلك وفق رواية كريم ثابت .

ومن ثم فإننا نستطيع أن نختم هذه الدراسة بالقول بأنه رغم ما قام به كريم ثابت من حملات إعلامية لصالح الملك والقصر كانت كمن يحرق في البحر.

(67) المصري / 19 أكتوبر 1953 .

- قررت الجمعية العمومية للفتوى والتشريع بمجلس الدولة إعادة ممتلكات من حكمت عليهم محكمة الثورة بمصادرة أملاكهم وأموالهم وكان منهم (كريم ثابت) الأهرام / 3 يوليو 1975 .

(68) مذكرات كريم ثابت . ج2 مرجع سابق . ص 364 .

قائمة المصادر

أولاً: قائمة الكتب:

- 1- آرثر جولد شميث "الابن" قاموس تراجم "مصر الحديثة". ترجمة وتحقيق د. عبد الوهاب بكر - المجلس الأعلى للثقافة 2003 م.
- 2- أمين باشا سامي: تقويم النيل. ج3 الطبعة الثانية - دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة 2003 م
- 3- حسن البدرى (لواء): الحرب في أرض السلام (الجلوة العربية الإسرائيلية الأولى)، 1947 - 1948. مطابع دار الشعب. القاهرة 1976 م .
- 4- فؤاد كرم: النظارات والوزارات المصرية ، ج1 ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، هيئة الكتاب 1994 .
- 5- مجدي كامل: غرام الأميرات. مطابع سجل العرب. القاهرة 1993 م
- 6- مصطفى درويش: تاريخ الملك فؤاد الأول. مدرسة الزعيم مصطفى كامل باشا ، 1843 - 1940 د. ت .
- 7- لطيفة محمد سالم: فاروق وسقوط الملكية في مصر 1936 - 1952. مكتبة مدبولي ، القاهرة - الطبعة الأولى 1989 م .

ثانياً: الدوريات:

- 1- الأهرام: 24 مارس 1993 / 2 يونيو 1948 / 6 يونيو 1948 / 15 يونيو 1948 ، 23 يونيو 1948 / 4 يناير 1950 / 15 يناير 1950 / 12 أكتوبر 1950 ، 8 مايو 1950 / 16 مايو 1950 / أول فبراير 1950 / 5 فبراير 1952 ، 3 يولية 1975 .
- 2- الجمهورية: 30 سبتمبر 1968 .
- 3- المصري: 13 يناير 1951 / 16 يناير 1951 / 9 فبراير 1951 / 16 فبراير 1951 / 18 فبراير 1951 / 9 نوفمبر 1951 / 8 نوفمبر 1952 / 12 أكتوبر 1952 / 28 ديسمبر 1952 / 11 أكتوبر 1953 / 16 أكتوبر 1953 / 19 أكتوبر 1953 .

4- المصور: 28 فبراير 1936 / 17 يوليو 1936 / 30 أكتوبر 1936 / 13 نوفمبر 1936 / 15 يناير 1937 / 12 مارس 1937 / 19 مارس 1937 / 7 مايو 1937 / 29 يوليو 1937 / 6 أغسطس 1937 / 19 نوفمبر 1937 .

5- الوفاة: 12 أكتوبر 2000 / 19 أكتوبر 2000 / 12 إبريل 2001 .

ثالثاً: المجلات:

1- آخر ساعة: 24 نوفمبر 1944 / 19 فبراير 1947 / 12 مارس 1947 / أول أكتوبر 1947 ، 15 أكتوبر 1947 / 30 إبريل 1947 / 21 مايو 1947 / 5 نوفمبر 1947 ، 12 نوفمبر 1947 / 19 نوفمبر 1947 / 28 مايو 1947 / 12 مايو 1948 ، 19 مايو 1948 / 26 مايو 1948 / 7 يوليو 1948 / 9 فبراير 1949 ، 16 فبراير 1949 / 23 فبراير 1949 / 9 مارس 1949 / 23 مارس 1949 ، 13 إبريل 1949 / 2 نوفمبر 1949 / 9 نوفمبر 1949 / 23 نوفمبر 1949 ، 13 مايو 1953 .

2- الإثنين والدنيا: 17 مايو 1947 / 31 مايو 1947 / 10 مايو 1948 / 24 مايو 1948 / 5 يوليو 1948 / 4 أكتوبر 1948 / 27 ديسمبر 1948 .

3- الموعد: 25 مارس 1995 عدد 1657 .

4- صباح الخير: 28 مارس 2000 .

5- نورا: 7 ديسمبر 1993 (كانون الأول) - حلقة رقم 13 .

رابعاً: المذكرات:

1- مذكرات "كريم ثابت" جزءين:

(أ) ملك النهاية. فاروق كما عرفته. تقديم محمد حسنين هيكل. دار الشروق ، الطبعة الثالثة 2003 .

(ب) نهاية الملكية - عشر سنوات مع فاروق 1942 - 1952. دار الشروق ، الطبعة الثانية 2000.

oboiikan.com

الأهمية الاستراتيجية لنفط الخليج في النصف الأول من القرن العشرين

د . أحمد الشربيني

كلية الآداب - قسم التاريخ

بجامعتي القاهرة والكويت

oboiikan.com

الأهمية الاستراتيجية لنفط الخليج في النصف الأول من القرن العشرين

مع بداية القرن العشرين بدا أن منطقة الخليج ستتحول إلى واحدة من أسخن مناطق الصراع الإمبريالي في العالم ، ليس بسبب ازدياد المنافسة عليها لأهمية موقعها بالنسبة لطرق المواصلات العالمية ، ولأهم المستعمرات البريطانية في العالم القديم - الهند - . فحسب ، بل بسبب ازدياد المنافسة على مصادر النفط ، الذي أخذت أهميته الاستراتيجية تتصاعد مع ازدياد الاعتماد عليه كوقود بديل عن الفحم ، بظهور محركات الديزل ، واستخدامه كوقود للأسطول البريطاني .

هذا التحول نحو الاعتماد المتزايد على النفط كوقود ، دفع إنجلترا إلى العمل للانفراد بكل امتيازات التنقيب عنه في منطقة الخليج ، بعد نجاح إحدى شركاتها - شركة النفط الإنجليزية الإيرانية - في استخراجها بإيران ، وبعد أن أثبتت أعمال التنقيب وجوده بمناطق أخرى في المنطقة بكميات كبيرة ، ولعل هذا ما يفسر اندفاع الحكومة البريطانية إلى الحصول على تعهدات من أمراء الخليج بقصر منح امتيازات التنقيب عن النفط في مشيخاتهم عليها وحدها ، وذلك بعد أن تعهد حاكم الكويت بعدم استغلال النفط أو السماح لأي جهة باستغلاله دون مشورة بريطانيا ، ثم هذا حذوه حاكم البحرين في (1914) وحاكم قطر (1916) ثم سلطان مسقط (1932) . وبلغ حرص بريطانيا على الانفراد بنفط الخليج أنها لاحقت حتى الشركات النفطية البريطانية غير المعتمدة من قبلها ، حال سعيها للحصول على امتيازات للتنقيب عن النفط في الخليج⁽¹⁾ .

(1) نجاح محمد وآخرون : تاريخ الجزيرة العربية المعاصر ، بيروت 2001 ، ص 394 .

وإذا كانت ظروف الحرب العالمية الأولى قد عطلت البحث عن النفط في منطقة الخليج ، وإمكانية قيام منافسة حول مصادره فإن انتهاءها كان إيذاناً ببدء مرحلة من الصراع بين الدول الغربية على امتيازات التنقيب عنه في المنطقة ، بعد أن أكدت الحرب على أهمية النفط كمصدر للطاقة المستخدمة في الآلات الحربية والصناعية ، وأخذت الدول التي انخرطت في أثنائها تتطلع للحصول على كميات كبيرة منه ، تساعدها على إعادة بناء ما خربته الحرب ، في الوقت الذي تنبأ فيه الخبراء الأمريكيون بإمكانية نضوب احتياطياتهم النفطية⁽²⁾ .

لهذا شهدت سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ازدياد حدة التنافس على امتيازات التنقيب عن النفط بالخليج بشكل غير مسبوق ، حتى أن الولايات المتحدة أخذت تواصل ضغطها على إنجلترا وفرنسا (بعد أن بدا لها أنها قد نسقتا فيما بينهما لاحتكار المصادر النفطية الخليجية) حتى تثنيهما عن موقفيهما وتقبلا بسياسة الباب المفتوح open door policy ، ومشاركتها لها في أية مباحثات تتعلق بالامتيازات النفطية في المنطقة ، وبلغ هذا الضغط عليها أنها أخذت تندد بسياستهما في مناطق الانتداب ، والتي اعتبرتها تمثل خرقاً للمبدأ الرئيسي الذي أقر في مؤتمر باريس 1919⁽³⁾ .

وأمام هذا الضغط الأمريكي قبلت بريطانيا توقيع اتفاقيات مع الولايات المتحدة الأمريكية ، فتحت أمام الأخيرة الباب للحصول على امتيازات نفطية في الخليج ، نظير اعترافها بنظام الانتداب ، وتأييد مطالب إنجلترا بشأن تنازل تركيا عن ادعاءاتها في ولاية الموصل بالعراق⁽⁴⁾ .

(2) أحمد عبد الرحيم مصطفى : الولايات المتحدة والمشرق العربي ، عالم المعرفة «4» الكويت ، 1978 ، ص 20 .

(3) نفس المرجع ، ص ص 12 ، 13 ، 17 ، ميشيل كامل : أمريكا والمشرق العربي ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ص 32 ،

Bryson, A. Thomas: Seeds of Mideast Crisis, the United States Diplomatic Role in the Middle East During World 11, U.S.A. 198, p8.

(4) خيرية قاسمية : الولايات المتحدة والوطن العربي في فترة ما بين الحربين «في» السياسة الأمريكية والعرب ، سلسلة كتب المستقبل العربي «2» مركز دراسات الوحدة العربية ، القاهرة ، ص ص 32 - 30 ، ميشيل كامل : المرجع السابق ، ص 34 .

ومع مطلع ثلاثينيات القرن العشرين أخذ الاهتمام الأمريكي بنفط الخليج يتزايد ، بعد أن أخذت الشركات النفطية والتجارية والصناعية الأمريكية في تركيز نشاطها الاقتصادي في منطقة الخليج ، بعد أن دفعته الأزمة الاقتصادية إلى البحث عن حقول استثمار جديدة بعيداً عن الأمريكتين⁽⁵⁾ .

وزاد من اتجاه الشركات الأمريكية للعمل في الخليج ، اهتمام الحكومة الأمريكية ببحثها عن الاستفادة من سياسة الباب المفتوح ، في الحصول على أكبر قدر من امتيازات التنقيب عن النفط في المنطقة⁽⁶⁾ ، حتى أصبح لها مجموعة من شركات النفط العملاقة العاملة في العراق ، والبحرين ، والكويت ، والسعودية إلى جانب الشركات الإنجليزية ، منها شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا Standard oil Company of California ، التي حصلت على امتيازات للتنقيب عن البترول في البحرين ، والمملكة العربية السعودية 1933 ، وشركة نفط البحرين BPC بابكو 1931 ، وأرامكو Aramco في السعودية ، وشركة بترول الخليج ، التي اشتركت مع الشركة الإنجليزية الإيرانية للنفط AIOC ، في تأسيس شركة نفط الكويت عام 1934 ، والتي كانت تمثل أول توأمة بين الشركات النفطية الأمريكية والإنجليزية العاملة في الخليج⁽⁷⁾ .

وعلى الرغم من نجاح شركات النفط الأمريكية في الحصول على امتيازات بمعظم حقول النفط في الخليج إلى جانب الشركات الإنجليزية - التي كان من أهمها الشركة الأنجلو / إيرانية للبترول ، شركة بترول العراق IOC - فإن بريطانيا ظلت حتى الحرب العالمية الثانية تستأثر بمعظم بترول المنطقة ، حتى أنها احتفظت بحوالي 80% مما كان ينتج منه حتى سنة 1939 ، في حين توقفت نسبة ما كان ينتج لحساب الولايات المتحدة عند 15% . وذلك بسبب استمرار العمل بالاتفاقيات والمعاهدات التي كانت تمنع شيوخ الخليج من منح أي امتيازات نفطية لأي دولة دون موافقة الحكومة البريطانية ، في الوقت الذي استغلت فيه إنجلترا اتفاقية الخط الأحمر في إقامة العراقيل أمام توسيع شركات النفط الأمريكية لنشاطها في

(5) عبد الفتاح حسن أبو عليّة : نشأة العلاقات السعودية الأمريكية «في» دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، دار المريخ ، الرياض ، ص ص 405 - 406 .

(6) Bryson, A. Thomas: op,cit, p69.

(7) نجاح محمد : المرجع السابق ، ص ص 394 - 395 ، عبد الفتاح حسن أبو عليّة : المرجع السابق ، ص ص 406 ، 420 .

المنطقة ، بدرجة حالت بين هذه الشركات والحصول على امتيازات نفطية في إيران التي ظلت حقوقها النفطية حكراً على بريطانيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية⁽⁸⁾ .

وبازدياد الطلب على النفط مع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، لخدمة المجهود الحربي للحلفاء - بعد أن أصبح إلقاء كل طن من القنابل على برلين يحتاج إلى خمسة أطنان من البنزين - أبدت إنجلترا والولايات المتحدة اهتماماً بالغاً ببتروال الخليج .

فبريطانيا التي كانت تدرك أهمية النفط لمنطقة الاسترليني ، وتأثيره في ميزان مدفوعاتها وميزانها التجاري ، كثفت من أعمال التنقيب عن النفط في العراق ، وجنوب إيران ، وغيرهما من دول الخليج العربي ، حتى تضمن إنتاج كميات منه تغطي احتياجاتها النفطية المتوقع زيادتها في أعقاب الحرب ، في ظل توقعات بحدوث أزمة نفطية بعد الحرب ، نتيجة تزايد استهلاك النفط في روسيا وأمريكا - بدرجة قد تدفعها إلى الحد من تصدير كميات كبيرة منه إلى دول غرب أوروبا - وتدمير حقول النفط في الهند الشرقية الهولندية ، وبورما ، وجنوب روسيا إبان الحرب العالمية الثانية⁽⁹⁾ .

أما الولايات المتحدة الأمريكية - التي اضطرتها ظروف الحرب العالمية الثانية ، وإغلاق البحر المتوسط إلى المشاركة بأكثر من 70٪ من إجمالي الطاقة التي استخدمت في الحرب على الجبهة الأوربية - فقد اهتمت بزيادة امتيازاتها النفطية في الخليج لمواجهة ما كان يتردد عن عجز مواردها البترولية ، في بعض المناطق عن الوفاء باحتياجاتها المتزايدة في أعقاب الحرب ، وتوفير احتياطي نفطي يمكنها من تمويل حروب جديدة بالطاقة . ولعل هذا ما دفع الولايات المتحدة إلى مطالبة بريطانيا برد ما حصلت عليه من بترول أمريكي إبان الحرب ، في صورة كميات مماثلة من النفط الخام بعد انتهاء الحرب⁽¹⁰⁾ .

(8) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص 18 ، 22 - 23 ، ميشيل كامل : المرجع السابق ، 43 ، Bryson, A. Thomas: op,cit, p9.

(9) C.O. 732/87/19. Post-war Strategic Requirements, Middle East, from E.A. rmstrong, 13th Jan 1943, p4; F.O.141/1378, Note to the Chairman of the official Committee on Economic on Development of the Middle East, 10th Aug 1949, p2.

(10) رءوف عباس : التطلعات الأمريكية تجاه المنطقة العربية إبان الحرب العالمية الثانية ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد 27 ، 1980 ، ص 315 .

C.O.732/88/26, From Eden to Halifax, 8 Aug 1943, p2.

لذلك استغلت الولايات المتحدة الأمريكية وجودها العسكري بالمنطقة إبان الحرب ، لتكريس امتيازاتها النفطية في البحرين والكويت ، علاوة على العراق التي أخذ الأمريكان يولونها إلى جانب المملكة العربية السعودية اهتماماً متزايداً عن جاراتيهما الخليجيات بسبب احتياطياتهما البترولية الهائلة⁽¹¹⁾ .

وإذا كان بعض المسؤولين البريطانيين قد تخوفوا من تنامي المصالح النفطية الأمريكية في الخليج إبان الحرب العالمية الثانية ، فإن بعضهم الآخر رأى فيها ما لا يتعارض مع مصالح بريطانيا الأساسية في المنطقة ، بدعوى أن الأمريكان إذا كان قد أصبح لهم مصالح اقتصادية واستراتيجية في نفط السعودية ، فإن لبريطانيا مصالح نفطية تعادلها في إيران ، في الوقت الذي يتقاسمان فيه المصالح النفطية في العراق والبحرين والكويت ، باعتبارها من أغنى مناطق النفط في المنطقة⁽¹²⁾ .

ويبدو أن هذه القناعة جاءت نتيجة القراءة البريطانية العملية للأوضاع الدولية والشرق أوسطية ، والتي كانت وراء دخول إنجلترا في مفاوضات مع الولايات المتحدة الأمريكية حول مستقبل بترول الخليج ، مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتوقيعها لاتفاقية في 2 سبتمبر 1945 ، بموجبها تخلت عن اتفاقية الخط الأحمر رسمياً - التي كانت ظروف الحرب وازدياد نفوذ أمريكا في المنطقة قد جعلها في حكم المجمدة - والتي كانت قد استخدمتها لتجميد الامتيازات النفطية الأمريكية في المنطقة حتى الحرب العالمية الثانية⁽¹³⁾ .

على كل حال ، أدى الاهتمام الأمريكي المتزايد بنفط الخليج إلى ارتفاع نسبة ما أصبح يستخرج منه لحسابهم في نهاية الحرب إلى 42% في حين تراجعت نسبة بريطانيا من 80% قبل الحرب إلى 28% في نهايتها⁽¹⁴⁾ .

(11) Bryson, A. Thomas: op,cit, p33.

(12) C.O. 732/88/26, From Eden to Halifax, 8 Aug 1943, pp2-3; Ibid, 732/87/10, Extract from Conclusions of Meeting of the war Cabinet held in the Prime Ministers Rome House of Commons, 14th July 1943, p3.

(13) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص 35 ، ميشيل كامل: المرجع السابق ص ص ، 37 ، 38 ، 40 .

(14) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ص ، 43 ، 65 ، 66 .

ولعل تزايد نسبة ما أصبح ينتج لحساب أمريكا من نفط الخليج في نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان وراء مواصلتها العمل للسيطرة على معظم حقول استخراجها في المنطقة وتعزيز قدرتها للتحكم في أسعاره بالسوق العالمية ، بعد أن تصبح أكبر منتج ومستهلك له ، والحد من سيطرة بريطانيا على واحدة من المناطق التي أصبح متوقعاً أن تكون من أغنى مناطق إنتاج النفط في العالم ، بعد أن أخذت تعمل لربط دولها بكتلة الاسترليني ، لتعزيز السيطرة عليها وإنتاج نفطها وسياسة تسويقه⁽¹⁵⁾ .

لهذا أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى لزيادة حجم تجارتها مع دول منطقة الخليج بشكل خاص ودول الشرق الأوسط بشكل عام⁽¹⁶⁾ ، والحصول على امتيازات نفطية في إيران - إلى جانب اهتمامها المتزايد بنفط السعودية والعراق - التي أخذت تتطلع في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى أن تكون أحد المصادر النفطية لها في الشرق الأوسط⁽¹⁷⁾ ، في الوقت الذي كانت بريطانيا ما تزال تعتبرها إحدى أهم المناطق التي تمولها مع منطقة الاسترليني باحتياجاتها النفطية المتزايدة⁽¹⁸⁾ .

كانت الظروف في أعقاب الحرب العالمية الثانية تسمح للولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة على منطقة الخليج ونفطها ، وزحزحة بريطانيا التي كانت تعتبر منطقة الخليج ، حتى بداية الحرب العالمية الثانية إحدى أهم مناطق نفوذها في العالم ، والتي يجب أن تعمل فيها منفردة ، بعد أن أفقدتها الحرب التوازن والقدرة على الاحتفاظ بأهم مناطق نفوذها في المنطقة ، وبخاصة تلك التي أصبحت مطلوبة من أطراف عدة في ظل الحرب الباردة ، واشتداد حدة سياسة الاستقطاب .

(15) نفس المرجع ، ص ص ، 20 ، 33 ، 41 ، 42 ، رءوف عباس : المرجع السابق ، ص 215 .

(16) F.R.U.S. Vol V, Memorandum prepared in the Department of State, Washington, undated, pp552-555; F.O. 371/68041, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, Meeting of 24 October 1947, p6; Ibid, Meeting of 27 Oct 1947; Ibid, Meeting of 27 Oct 1947, p16; Ibid, Meeting of 28 Oct 1947.

(17) F.R.U.S. 1944, Draft Memorandum to President Troman, Washington, undated, Memorandum, British Police p45; F.O. 141/928, Draft in the Middle East, Aug 1943; F.O. 371/68041, Meeting of 24 Oct 1947.

(18) F.O. 141/928, Draft Memorandum, British Policy in the Middle East, Aug 1943; p6; Ibid, 141/1222, Economic Policy in the Middle East, Memorandum by the F.O, 26 Feb. 1947, p2.

ولعل هذا ما يفسر تراجع إنجلترا أمام الولايات المتحدة الأمريكية ، والقبول بشراكة معها - على الأقل - في نفط الخليج ، حتى أنها بدأت تتحدث عن ضرورة عملها معاً لتنمية موارد الخليج النفطية بدرجة كبيرة ، باعتبار أن النفط يعد المصدر الطبيعي الضخم الوحيد المتوافر في هذه المنطقة ، والتي يمكن لحكوماتها إنتاجه بضخامة للتصدير ، والمطلوب بشكل ملح وبكميات كبيرة من جانب المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية ، التي تستطيع استثمار مبالغ ضخمة في هذا المجال بدول المنطقة ، وتقديم قروض لهذه الدول ، يمكن استردادها في شكل نفط خام⁽¹⁹⁾ .

وجاءت قناعة إنجلترا بضرورة التنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية حول نفط الخليج بعد أن أدرك مسئولوها المهتمون ببحث مستقبل الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الثانية « أن المنافسة القوية بين بلادهم والولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط ، لإحراز نفوذ سياسي واقتصادي ، ستكون كارثة لبريطانيا ، لأنها لا تملك وسائل هذه المنافسة ، بعد أن أصبحت فقيرة بالنسبة لأمريكا ، التي لا يمكنها التخلي عن بترول الشرق الأوسط ، وأنها ستوارى أمام أمريكا ما لم تعترف بحقوقها في نفط المنطقة وتتعاون معها بشأنه »⁽²⁰⁾ .

وعلى هذا الأساس ذهب أحد أهم المسئولين البريطانيين في المنطقة « رونالد كامبل Campbell » السفير البريطاني في مصر « إلى أن الأمريكان « يجب ألا يشعروا بأن هناك اتجاهًا من جانب حكومة صاحبة الجلالة (الحكومة البريطانية) لتقويض مصالحهم النفطية في منطقة الخليج ، ولا سيما المملكة العربية السعودية لأن الظروف الحالية مهيأة لأن تصبح الولايات المتحدة الأمريكية الشريك الأقوى ، والأكثر قسوة ، والطرف الأساسي في المنطقة ... و ... لا أعتقد أننا يوماً سنقف ثنائية ، وأننا لا نستطيع أن نضع أيدينا على أملاكنا في وجود الولايات المتحدة الأمريكية ، كما كان في الماضي ، لهذا إذا وجدنا أنفسنا نلقب

(19) F.O. 371/41394, Telegram, from F.O. to Cairo, 29th Apr 1944; Ibid, 371/61114, Washington Talks on Middle East, 1947" Political and Strategic Question Relating to Persian Gulf, Sheikhdoms, pp43, 44; Ibid, 141/1222, By Financial Counsellor, 29th April 1947, p2.

(20) Ibid, 141/1222, Note by Financial Counselor, 29th April 1947, pp2,6.

بالشريك الأضعف في الأحداث ، سيكون ذلك بدون شك أفضل لمصالحنا عن طردنا من الشرق الأوسط⁽²¹⁾ .

وقد جاء اهتمام إنجلترا ببناء جسور شراكة أنجلو / أمريكية حول نفط الخليج بعد اقتناعها بأن الأمريكيين لن يتخلوا بسهولة عن استثماراتهم النفطية في الخليج ، رغم أنهم لم يمتلكوا الترتيبات اللازمة - التي تتوافر لها - لتأمينها وحمايتها ، واعتقادهم بأن نفطهم في تناقص Running out ، وحاجتهم المتزايدة لنفط الخليج ، والذي يجدون سهولة في التعامل مع الدول المنتجة له بالمنطقة ، كما أن رخص الأيدي العاملة في المنطقة ، ووفرة آبار النفط بها وانخفاض رسوم نقله ، وضآلة النسب التي تدفعها شركات النفط للدول المنتجة ، والتي تراوحت بين 13 - 15 سنتاً عن البرميل الواحد - بدعوى أن احتياجاتها للأرباح النفطية الضخمة محدودة ، لأنها لا تعرف كيف تنفقها - جعلت تكاليف بترول الخليج لا تتجاوز عشر تكاليف إنتاج النفط في الولايات المتحدة الأمريكية⁽²²⁾ .

لهذا أخذ الإنجليز يتحدثون عن الرغبة في «مزاملة الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط ، والعمل معاً للحفاظ على المصالح الأنجلو / سكسونية ، والاستقرار في المنطقة ، وذلك بالاتفاق التام على تقسيم الفرص الاقتصادية بالتساوي في هذا الإقليم»⁽²³⁾ .

ومما زاد من رغبة إنجلترا في العمل مع الولايات المتحدة في الخليج ، تحول منطقة الخليج إلى واحدة من أكثر ساحات الحرب الباردة تعقيداً ، بعد أن أخذ الاتحاد السوفيتي يتطلع في أعقاب الحرب العالمية الثانية للحصول على جزء من بترولها ، لسد جزء من العجز النفطي لديه ، وحرمان الغرب من الانفراد الكامل ببترول الخليج ، والتأثير عليه بدرجة أو بأخرى اقتصادياً وحربياً في الحرب الباردة⁽²⁴⁾ .

(21) Ibid, 141/1222, Dispatch from Camp ell to F.O, 25 Jun 1947, pp 6,7.

(22) ميشيل كامل : المرجع السابق، ص 27 ، هامش 1 ، F.O, 141/1222, Economic Policy in the Middle East Memorandum by the F.O, 26 Feb 1947, p2.

(23) أحمد فؤاد عبد المجيد : أمريكا في الشرق الأوسط ، ط 1 ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1954 ، ص ص 25 ، 32 ، 36 . F.O, Dispatch from Campbell to F.O, 25 June 1947, p5,6.

(24) F.R.U.S, 1947, Vol v, The Near East and Africa, Memorandum prepared in the Department of State Washington, undated, pp 529, 530, 555.

وكانت التطلعات السوفيتية لنفط الخليج قد بدأت بالضغط على إيران للحصول على امتيازات للتنقيب عن النفط ، بأجزاء كبيرة من الأقاليم الشمالية المتاخمة للاتحاد السوفيتي . وبلغت هذه الضغوط حداً دفع السفير السوفيتي في طهران إلى التصريح بأن الاتحاد السوفيتي سيعتبر إيران دولة معادية ما لم يوافق مجلس النواب الإيراني على إنشاء شركة سوفيتية إيرانية للبترول - كان رئيس الوزراء الإيراني قد وافق عليها ، ويعطي امتيازها لروسيا 55٪ من حقوق التنقيب في شمال إيران - والاتجاه لممارية أنشطة تهددها ، قد تصل إلى حد إشعال حرب عصابات ضد الحكومة الإيرانية على طول الحدود ، ستستفيد منها القبائل الساخطة على الحكومة ، والأقليات الأخرى في العمل ضد الأسرة الإيرانية الحاكمة⁽²⁵⁾ .

وبالطبع أثارت الضغوط السوفيتية على إيران مخاوف الإنجليز والأمريكان ، حتى أنها اعتبرا أن حصول السوفييت على أي امتيازات نفطية في إيران لن يعرض أمنها ووحدة أراضيها للخطر فحسب⁽²⁶⁾ ، بل سيؤثر عليها كمركز غني لإمداد الغرب بجزء كبير من احتياجاته النفطية ، وسيعرض مصالح الغرب النفطية في الخليج والشرق الأوسط بشكل عام للخطر ؛ لأن الوجود السوفيتي بالأراضي الإيرانية سيجعل الدول العربية المتاخمة لإيران تحت تهديد مباشر⁽²⁷⁾ .

ولم تتوقف مخاوف الغرب من الاتحاد السوفيتي على مصالحه النفطية في الخليج ، عند محاولات الاتحاد السوفيتي الحصول على امتيازات نفطية في إيران ، بل تعدتها إلى الخوف من أن يؤدي وجود الشركات النفطية السوفيتية في إيران إلى تمكين الاتحاد السوفيتي من اتخاذ الأراضي الإيرانية ممراً للاتصال بالخليج والمياه الدافئة ، حيث أهم مراكز إنتاج النفط على الضفة العربية ، والقيام على نشر الأفكار الشيوعية ، التي ستجد تربة خصبة بين الأعداد الهائلة من عمال الشركات النفطية الغربية العاملة في المنطقة ، بشكل قد يؤثر في علاقتهم بتلك الشركات ، التي كانت تسعى لعزلهم عن الأنشطة السياسية والأفكار الراديكالية⁽²⁸⁾ .

(25) Ibid, pp 550 - 555.

(26) Ibid, p530.

(27) F.O, 371/63109, Strategic value of the Mediterranean & Near and Middle East, Aide Memoir, 16th Oct 1947, p5.

(28) F.O, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, "Iran" pp 28-29.

ويُعزى الخوف من أن تصبح المنطقة حاضنة للفكر الشيوعي إلى أن عقود النفط التي وقعتها شركات النفط الغربية مع الدول المنتجة للنفط في الخليج، كانت مجحفة إلى أبعد الحدود، من حيث نسب العائدات وحق تحديد الإنتاج والأسعار - حتى أن الحكومة السعودية ارتفع عائدها الذي كانت تتلقاه من أرامكو من خمسة ملايين دولار سنوياً في 1945 إلى 55 مليون دولار في 1949، بعد صراع حاد مع الشركة لتعديل شروط الامتياز، كذلك كان عمال الشركات النفطية (كشركة النفط الإيرانية الإنجليزية AIC، التي كانت أضخم موظف للعمال في إيران، وشركة أرامكو التي كان يعمل لديها في أعقاب الحرب العالمية الثانية حوالي 40 ألف عامل، تجمعوا في المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية) يعملون في ظروف صعبة، ويتلقون أجوراً متواضعة، في الوقت الذي انعدمت فيه الخدمات التي كان من المفترض أن تقدمها الشركات لهؤلاء العمال، والتي ازدادت المخاوف لديها من أن يؤدي تأثرهم بالأفكار الشيوعية إلى العمل لتنظيم صفوفهم والدخول في مواجهات مع الشركات للاعتراف لهم بحق تكوين نقابات وتحسين ظروف العمل، وزيادة الرواتب بما يساعد على رفع مستويات المعيشة والارتقاء بمستوى الإسكان، والإكثار من بناء المدارس، وتحسين وسائل المواصلات⁽²⁹⁾.

لهذا أظهرت شركات النفط الغربية العاملة في المنطقة - كالشركة الإنجليزية الإيرانية AIOC، وشركة Anglo-Iranian South Western، وشركة بترول العراق Iraq Petroleum Company، والشركة العربية الأمريكية للبترول «أرامكو» Arabian Americans Oil Company - حساسيتها الشديدة لكل القوانين والحركات المثيرة لعواطف العمال⁽³⁰⁾.

ولعل الخوف من انتشار الأفكار الشيوعية بين عمال الشركات النفطية العاملة في المنطقة، هو ما حدا ببعضها - الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في المنطقة، وصل إلى حد التدخل في رسم سياسات الدول التي كانت تعمل بها، وبخاصة سياساتها النفطية، حتى

(29) نجاح محمد وآخرون: المرجع السابق، ص ص 368 - 369.

(30) F.O, 371/68041, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, Meeting of 24 Oct 1947, PP 5, 15.

أصبحت تعرف كل واحدة منها بأنها دولة داخل دولة A state within a state - إلى مراجعة سياساتها بشكل يجعلها أكثر اندماجاً في المجتمع والعمل على تحسين ظروف العمل بين عمالها ، حتى تقطع الطريق على الأفكار الشيوعية ، وإيجاد خلايا لها بين عمال تلك الشركات ، والمجتمع المحيط بهم . لهذا اتجهت بعض هذه الشركات لإقامة مشروعات للتنمية بهدف كسب ود الشعوب واحترامها ، وحكام الدول التي تعمل بها ، وتعد شركة أرامكو مثالاً حياً لهذه النوعية من الشركات ، حتى أنها قدمت دراسات لزيادة الإنتاج اليومي للنفط بالمملكة العربية السعودية من 270.000 برميل إلى 500.000 برميل ، شريطة الانتهاء من إقامة خط أنابيب لنقل النفط المستخرج من شرق المملكة إلى البحر المتوسط .

كذلك اهتمت الشركة بالعمل لتغيير نظرة السعوديين للأجانب ، حتى أنها حاولت أن تدفع بموظفي الخارجية الأمريكية لإقناع السعوديين بمواجهة الأنشطة المعادية للأجانب ، وتغيير آلية مقاضاتهم ، بعد أن أزعجها إخضاعهم لنظم التقاضي المعمول بها في السعودية على أساس ما أسموه بالتشريع القرآني Koranic Law ، في الوقت الذي قامت فيه ببناء منازل أفضل للعمال السعوديين ، والتوسع في التعليم التقني لهم ، وإقامة نموذج للمزارع التقنية بالرياض ، والتي أدى نجاحها إلى تطلع الحكومة السعودية إلى التفكير في إقامة أربع مزارع شبيهة لها بالقرب من جدة والطائف والهفوف والقطيف ، كذلك تطلعت لإتمام دراسة لمشروع شبكة لخطوط السكك الحديدية في المملكة ، والتي تحمل تكاليفها بنك التصدير والاستيراد Export import- bank ، والتي استحسنّت إنشاء خط للسكك الحديدية بين الدمام والرياض ، في الوقت الذي طالبها فيه الملك بدراسة إمكانية إنشاء خط من مكة إلى جدة فالمدينة ، وإعادة تجديد خط سكك حديد الحجاز .

وسعت الشركة لتغيير نمط اتفاق العائدات النفطية ، والتي كانت قد بلغت عشرين مليون دولار سنوياً ، والتي رأت الشركة أنها تُنفق في غير أوجهها الصحيحة ، وحملت تباير العائلة المالكة في السعودية ، وسلوك التجار غير الأخلاقي المسئولية عن ذلك ، ورأت أن التغلب على هذه المشكلة يقتضي وضع حل طويل المدى يتمثل في تعليم الأمراء

العرب ، وتوفير مستشار اقتصادي أوروبي للسعودية ، وإرسال قنصل اقتصادي مناسب إلى جدة . على أية حال بلغ نفوذ شركة أرامكو في السعودية حدًا دفع بريطانيا إلى التفكير في دراسة تجربتها ، وإمكانية نقلها للأقطار الأخرى في الشرق الأوسط⁽³¹⁾ .

كذلك كانت شركة بترول العراق تدرك أن هناك حالة من عدم الانسجام بين الموظفين الأجانب والوطنيين الذين يعملون في حقولها للتفاوت في الرواتب والامتيازات التي تقدمها الشركة لهم ، ووجود حدود لترقية الوطنيين ، بشكل دفعهم إلى العزوف عن العمل لديها ، وبشكل دفعها إلى التفكير في وضع خطط بريطانية للإسراع في تعليم الوطنيين حتى يتسنى لهم شغل مراكز قيادية بالشركة ، وتشجيعهم على العمل بالشركات الأجنبية في الشرق الأوسط⁽³²⁾ .

وأمام هذا النفوذ المتزايد لشركات النفط الغربية في المنطقة ، وتوتر العلاقة بينها وبين عمالتها ، التي كانت تعمل في ظروف عمل تجعلها مهية لتقبل الأفكار الشيوعية ، اعتبر المسؤولون الغربيون أن « وقوع إيران وجاراتها تحت تأثير الشيوعية لن يفقد إيران أهميتها الاستراتيجية كمركز لتوريد النفط للغرب على المدى الطويل ، بل سيعرض أمن الشرق الأوسط ، والمصالح الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا فيه للخطر »⁽³³⁾ .

كان من شأن الوجود السوفيتي في إيران أن يجعل القوات الروسية على الحدود العراقية ، وعلى خطوط متقدمة من بغداد ، وحقول النفط والأنابيب في كركوك ، كما يجعل تلك القوات على بعد مائتي ميل من حقول إيران النفطية في الجنوب ، كما أنه قد يشجع الحكومة السوفيتية للحصول على امتياز إنشاء خط للسكك الحديدية ، يربط روسيا عبر إيران بموانئ الخليج العربي ، وجنوب إيران حيث المصالح النفطية الغربية⁽³⁴⁾ .

(31) Ibid, 371/86041, Meeting of 28 Oct 1947, pp,15.

(32) Ibid, Meeting of 24 Oct 1947, pp,15.

(33) F.O, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, "Iran" pp 28-29.

(34) Ibid, "Iran" pp 28-29.

ومما زاد من تهديد الاتحاد السوفيتي للمصالح النفطية الغربية في الخليج ، أنه في الوقت الذي كان يسعى فيه لدى إيران للحصول على امتيازات نفطية في المنطقة الشمالية ، كان يضغط على تركيا لتغيير نظام الإشراف على المضائق بما يسمح له بالوصول إلى البحر المتوسط ، والتغلب على التجمد الشتوي الممتد لمعظم مياه سواحلها الشمالية ، والنفوذ إلى البحار الدافئة ، حيث أهم مراكز التجارة العالمية وكسر محاولات فرض الحصار عليه من الغرب⁽³⁵⁾ .

وأمام هذه المحاولات السوفيتية للوصول إلى نفط الخليج وتطويق منطقة الشرق الأدنى ، اتجهت إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية إلى العمل لتكتيل المنطقة المحيطة بالخليج فيما أصبح يعرف بالشرق الأوسط الكبير ، في محاولة لخلق إقليم يمكنها من خلال ازدياد نفوذها فيه والسيطرة عليه عزل المناطق الغنية بالنفط عن المنافسة الدولية . وحتى الإقليمية ، وإحكام الحصار على الاتحاد السوفيتي بشكل يحول بينه وبين الوصول إليها وإيجاد منافذ من خلاله للاتصال بالمياه الدافئة .

لهذا شكلت المنطقة النفطية في الخليج ، والتي كانت تمثل جزءاً من الشرق الأدنى ، مركز الشرق الأوسط الكبير ، بعد أن قرر انتظامه إلى جانبها ، كل من أفغانستان وإيران وتركيا واليونان ومنطقة شرقي المتوسط ومصر وليبيا « قوريني أو برقة وطرابلس الغرب » والسودان وإثيوبيا وإريتريا والصومال الفرنسي⁽³⁶⁾ .

والامتداد بحدود الشرق الأوسط إلى أفغانستان يعزى إلى قناعة الغرب بأهمية موقعها في تطويق إيران ، وباعتبارها ممراً عرضياً إلى الهند من الشمال الغربي ، هذا علاوة على مجاورتها للاتحاد السوفيتي ، ومن ثم يمكن أن تشكل مع إيران حاجزاً المنع من التوسع نحو جنوب آسيا والخليج العربي ، باعتبار أن إيران تتصل جغرافياً بالاتحاد السوفيتي

(35) F.O, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, "Iran" pp 25, 30, 31, 37, 53, 56, /Ibid 371/63109, Strategic value of Mediterranean, near and Middle East Aide Memoir, 16th Oct 1947, p2.

(36) Ibid, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, pp 25, 30, 31, 37, 53, 56; Ibid 371/63109, Strategic value of Mediterranean & Near and Middle East, Aide Memoir, 16th Oct 1947, p2.

والهند والعراق . ولعل اعتبار أفغانستان وإيران جزءاً مهماً من الشرق الأوسط ، هو ما دفع الغرب إلى العمل للحفاظ على وحدة أراضيها واستقلالها ، وإبعاد الهيمنة الروسية عنها ، بعد أن رأى في اختراق الاتحاد السوفيتي لها تهديداً لأمن الغرب والشرق الأوسط وشرق المتوسط⁽³⁷⁾ .

وبتقسيم شبه القارة الهندية ، والإعلان عن قيام باكستان كدولة مستقلة ، اعتبر الغرب باكستان جزءاً مهماً للشرق الأوسط ، بحكم موقعها بالنسبة إلى أفغانستان وإيران ، وكذلك الهند ، التي كان الغرب يعمل للحيلولة بين الاتحاد السوفيتي والوصول إليها . هذا في الوقت الذي بدأ الغرب يخطط فيه لاستخدام باكستان لتهدة المسلمين في العالم ، وكقائد للأقطار الإسلامية في الشرق الأوسط بدلاً من مصر⁽³⁸⁾ .

وإمعاناً في عزل الاتحاد السوفيتي عن بترول الخليج والمياه الدافئة ، وطرق المواصلات الغربية في المنطقة ، رأى الغرب اعتبار تركيا واليونان جزءاً من الشرق الأوسط ، لاستكمال الحزام الشمالي الذي يعزل الاتحاد السوفيتي عن المنطقة ، لأن موقع تركيا وامتلاكها أحد أهم مفاتيح الشرق الأوسط والعالم العربي بصفة خاصة ، يجعل منها حاجزاً طبيعياً يحول دون وصول أي قوة معادية للغرب ، وبخاصة الاتحاد السوفيتي إلى المنطقة ، وتهديد المصالح الغربية في الشرق الأوسط ، وشرقي المتوسط ، حتى أن أحد جنرالات إنجلترا الذين كانوا يعملون في الشرق الأوسط (H. Wardle) أكد على أهمية إدماج تركيا في المشروع الشرق أوسطي لأن استراتيجيته تتوقف عليها⁽³⁹⁾ .

(37) مروان خيرى : السياسة الأمريكية والشرق الأوسط من ترومان إلى كينسجر «في» السياسة الأمريكية والعرب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، سلسلة كتب المستقبل العربي (2) ص 343 ،

F.O, 371/61114, Washington Talks on the Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, Pakistan, p56

(38) F.O, 141/1444, Meeting in the Ambassador's Study, 10th March 1951, p3; Ibid 141/1442/1077/1/516, Letter to F.O, 27th Feb 1951.

(39) F.O, 371/63109, Strategic value of the Mediterranean, Near and Middle East, Aide Memoir, 16th Oct 1947, p3. Ibid, 371/61114, Washington Talks On Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, p 30; C.O, 732/87/19, Post - War Strategic Requirements Middle East, from E.A. Armstrong, 13th jan 1943, p4.

لهذا رأى الغرب أن الحفاظ على استقلال تركيا ، ووحدة أراضيها ، أمر حيوي لأمن الشرق الأوسط ، وشرقي المتوسط ، وأن تعرضها للخطر يعني إضعاف قدرة الغرب الدفاعية عن الشرق الأوسط ، في حال وقوع أي حرب ، ولهذا أبدى الغرب استعداداته لبناء تركيا عسكرياً ، واعتبر أن نجاحه في هذه المهمة سيمكنها من الحفاظ على وحدة أراضيها واستقلالها، كما أنه سيمكن الغرب من إنجاز أهدافه الاستراتيجية في المنطقة⁽⁴⁰⁾.

وإلى جانب تركيا أدخل الغرب اليونان ضمن المشروع الشرقي أوسطي ؛ لأن موقعها بالنسبة لتركيا وشرقي المتوسط يجعل الحفاظ عليها واستمالتها للغرب مهماً لإحباط محاولات روسيا للالتفاف حول تركيا ، وعرقلة الملاحة في البحر المتوسط ، وبخاصة بعد أن اتجه الاتحاد السوفيتي بعد فشل مشاريعه بإيران وتركيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى اختراق اليونان بإحداث انقلاب سياسي فيها ، ولهذا اعتبر الغرب أن الحفاظ على استقلال اليونان ووحدة أراضيها وحمايتها من الوقوع في برائن الشيوعية، يساعد على حماية مصالح الغرب الاستراتيجية في الشرق الأوسط، وشرقي المتوسط ، وضمان أمنيتها⁽⁴¹⁾.

وبالإضافة إلى مجموعة الدول غير العربية التي شكلت ما يمكن تسميته بالحزام العازل أو الحزام الشمالي للشرق الأوسط ، والتي خطط لأن تمثل جزءاً مهماً من الشرق الأوسط ، حتى تشكل حائط صد للاتحاد السوفيتي أو خط الدفاع الأول عن منطقة المصالح النفطية الغربية في الخليج ، فقد تقرر أن يمتد الشرق الأوسط ليشمل كل ما كان يعرف بالشرق الأدنى ، بداية من المنطقة العربية المطلة على شرق البحر المتوسط أو ما كانت تعرف بالشرق Levant ، والتي اعتبرت وفقاً للتصور الغربي المطروح للشرق الأوسط جزءاً لا يتجزأ منه ، باعتبار أن تأسيس قواعد عسكرية بها ، وبخاصة في فلسطين

(40) F.R.U.S, 1947, vol v, 1971 Memorandum prepared in the Department of State Washington, Undated, P491; F.O, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, Greece, PP 7,13; Ibid 371/63109, Strategic Value of the Mediterranean Near and Middle East, Aide Memoir, 16th Oct 1947, p3.

(41) F.O, 371/63109, Strategic value of the Mediterranean, Near and Middle East, Aide Memoir, 16th Oct 1947, p4. Ibid, 141/1444, Meeting in the Ambassador's Study, 10th March 1951, from. J.H. Wardle - Smith, P2.

والأردن ، أمر حيوي لحماية خط أنابيب النفط الذي يمر بتلك المنطقة إلى معامل التكرير على البحر المتوسط ، وكذلك الدفاع عن مصر ، وحماية قناة السويس ، وتأمين الملاحة فيها⁽⁴²⁾.

ويبدو أن الغرب كان يخطط لأن تمثل هذه المنطقة مع العراق خط الدفاع الثاني في الشرق الأوسط بعد أن اعتبر أن موارد العراق واحتياطياتها النفطية الهامة ، وموقعها الجغرافي ، جعلها أحد أهم مفاتيح الشرق الأوسط ، وأداة ربط في شبكة المواصلات الجوية العالمية . ولعل هذا ما جعل المسؤولين الغربيين المهتمين برسم مستقبل الشرق الأوسط ، يذهبون إلى أنه لا يمكن توفير الأمن للشرق الأوسط ، وتأمين الإمدادات البترولية الخليجية ، وطرق المواصلات في المنطقة ، إلا بوجود قواعد عسكرية في العراق أو أي إقليم عربي مجاور له . ولعل هذا ما كان وراء تأييد الأمريكيين لاحتفاظ بريطانيا بالقواعد والقوات العسكرية التي توفرها لها معاهدة 1930 في العراق ، واقتراح بناء الكويت لتكون قاعدة بديلة للعراق في حال فشل بناء جسر من الثقة بين البريطانيين والعراقيين⁽⁴³⁾ . مما يعني أن المشروع الشرق أوسطي كان يتطلع إلى تأمين حقول النفط في العراق ومنطقة الخليج ، من خلال تأمين المدخل الشمالي للمنطقة .

ولتأمين المدخل الجنوبي للخليج والجزيرة العربية امتد المشروع الشرق أوسطي ليشمل اليمن ، حتى يضمن عدم فرض الهيمنة عليها من جانب أي قوة معادية للغرب ، وتهديد مصالحه في المنطقة ؛ نظرًا لأنها تحتل موقعًا مميزًا في جنوب غرب الجزيرة العربية يجعلها تتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، والطريق المؤدية إلى الهند ، والحدود الشمالية لمحمية عدن ، وغيرها من مناطق جنوب شرق الجزيرة العربية التي خطط لأن تشكل مع مصيرة بسلطنة عمان ، إحدى أهم المناطق التي يجب أن تتوافر فيها التجهيزات

(42) Ibid; 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, Iraq as a factor in The Maintenance of Stability in The Middle East, p32; Ibid, Political and Strategic Questions Relating To The Persian Gulf Sheikdoms, P42; Ibid, 141/1444, Meeting in The Ambassador's Study, 10th March 1951, From. J.H. Wardle - Smith, P1; Ibid; 141/928, Draft Memorandum, British Policy in Middle East, August 1943, Pp 4-5.

(43) F.O; 141/928, Draft Memorandum, British Policy in the Middle East, August 1943, p6.

والمطارات ، التي تتيح للغرب فرصة للدفاع في العمق والوصول لأي مكان في الشرق الأوسط⁽⁴⁴⁾.

وإذا كانت العراق قد اعتبرت أحد المفاتيح المهمة للشرق الأوسط بحكم موقعها وإمكاناتها النفطية ، فإن مصر اعتبرت المفتاح الغربي لمنطقة الشرق الأوسط ، بعد أن وجد فيها مهندسو المشروع قاعدة طبيعية للقوات البرية والجوية العاملة في منطقة الشرق الأدنى Near East Area - حيث توجد بمنطقة القناة أهم قاعدة للقوات البريطانية في المنطقة والتي لعبت دورًا محوريًا في الحرب العالمية الثانية - كما أن موقع مصر يجعلها تتوسط طرق المواصلات في منطقة الشرق الأوسط ، هذا فضلاً عن تأثيرها في المنطقة العربية . ولعل التأكيد على أهمية مصر في المشروع الشرق أوسطي ، هو ما حدا بواضعي المشروع إلى التفكير في استخدام برقة «قوريني Cyrenaica» وطرابلس - اللذين يشكلان جزءًا من ليبيا - كقاعدة بديلة لمصر ، في حال تعثر محاولات الحصول على تسهيلات في مصر وفلسطين ، تساعد على سرعة القيام بأعمال عسكرية جوية ، ونشر قوات في المنطقة حال اندلاع حرب ، حتى يمكن الدفاع عن فلسطين ومصر وقناة السويس⁽⁴⁵⁾.

ولأهمية البحر الأحمر للشرق الأوسط الكبير ، فقد اتجه واضعو المشروع إلى اعتبار الدول المطلة على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر جنوب مصر بدءًا من السودان وحتى الصومال جزءًا من الشرق الأوسط ؛ لأن موقعها جعلها ذات أهمية استراتيجية للبحر الأحمر ، والدفاع في العمق Defense In Depth عن الشرق الأوسط والمصالح النفطية به . لهذا أكد واضعو المشروع على أن أمن الدول المطلة على البحر الأحمر جنوب مصر ضروري للحفاظ على أمن الشرق الأوسط ، والأمن والسلم الدوليين ، ومن هنا جاءت التوصية بالعمل لتجنيب الدول المطلة على البحر الأحمر من الاضطرابات الداخلية ، أو الخضوع لهيمنة أي قوة معادية للغرب ، وبخاصة بعد أن أصبح لروسيا نشاط في إثيوبيا ، وذلك من خلال احتفاظ بريطانيا بتسهيلات

(44) Ibid, 371 / 36109, strategic value of the Mediterranean & Near and Middle East, 16th Oct 1947, PP. 3-4.

(45) F.O; 371/63109, Strategic value of the Mediterranean, Near and Middle East, Aide Memoir, 16th Oct 1947, pp2-3. Ibid, 371/68041, Meeting of 24 Oct 1947, p.7.

عسكرية في السودان ، وتوفير المساعدات التي تحتاجها الحكومة الإثيوبية لتحقيق الأمن الداخلي ، وإيجاد برامج للإصلاح والتنمية ، ووضع الصومال الإيطالي تحت الوصاية البريطانية أو الأمريكية وإقناع إريتريا بالاندماج في إثيوبيا والسودان⁽⁴⁶⁾ .

هكذا كان لتنامي المصالح النفطية الغربية في منطقة الخليج ورغبة الغرب في عزلها عن مجال المنافسة الدولية - في الوقت الذي تصاعدت فيه حدة الحرب الباردة - أكبر الأثر في طرح مشروع الشرق الأوسط الكبير ، الذي تقرر أن يضم المنطقة التي كانت تعرف بالشرق الأدنى ، ومعظم المناطق التي كانت تعرف بالشرق الأوسط ، إلى جانب الدول المطلة على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر جنوب مصر حتى الصومال ، بعد أن كان الشرق الأوسط لا يطلق إلا على منطقة شبه القارة الهندية ، وأواسط آسيا التي كانت تقع بين الشرقيين الأقصى والأدنى⁽⁴⁷⁾ .

وإذا كان المشروع الشرق أوسطي قد قام لعزل مناطق المصالح النفطية الغربية في منطقة الخليج عن مجال المنافسة الدولية ، وكجزء من الحرب الباردة التي بدأت في التصاعد بين المعسكرين الشرقي والغربي ، واتجاه الغرب لإحكام الحصار على الاتحاد السوفيتي ، بعزله عن المياه الدافئة ، فإن هذا المشروع قد وظف كذلك لحل معضلة المشروع اليهودي في المنطقة ، وذلك بالعمل على هندسة إقليم يستوعب الكيان اليهودي

(46) F.O 371/63109, strategic Value of the Mediterranean & Near and Middle East, p p 2,4; Ibid, 371/6114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, British Position in the Sudan, pp 25-26; F.R.U.S, 1947, vol v, The Near East And Africa, Washington 1971, Memorandum Prepared in the Department of State, pp533-543.

(47) مصطلح الشرق الأوسط Middle East أحد المصطلحات السياسية والجغرافية التي شاع إطلاقها على جزء من الشرق ، بعد أن جرت العادة على تقسيمه حسب البعد والقرب من أوروبا إلى أقسام ، فالمناطق التي تواجه المحيط الباسفيكي Pacific Ocean من الشرق عرفت بالشرق الأقصى Far East ، في حين أن المناطق التي تحيط بشواطئ البحر المتوسط الشرقية «متضمنة شمال إفريقيا ، وجنوب غرب آسيا ، وأحياناً شبه جزيرة البلقان » والتي كانت أقرب إلى أوروبا فعرفت بالشرق الأدنى Near East ، أما الشرق الأوسط فقد أطلق على المنطقة الواقعة بين الشرقيين ، والتي كانت تضم شبه القارة الهندية ، وأواسط آسيا .

وجيرانه العرب في وحدة إقليمية شرق أوسطية ، لا سيما بعد أن وجد الغرب في هذا المشروع ضالته لضمان أمن إسرائيل وسلامتها بعد الاعتراف بها فور الإعلان عنها 1948 ، والتزامه بضرورة التوفيق بين الوقوف إلى جانبها ، لأنها "ما جاءت إلا لتبقى ، وأن التخلي عنها يعني أنها ستتوارى تمامًا"⁽⁴⁸⁾ ، والحد من تزايد كراهية العرب له ، بالشكل الذي يساعد على حماية مصالحه في المنطقة ويُصعب مهمة روسيا في التقرب إلى شعوبها واختراقها⁽⁴⁹⁾ .

وحتى لا يعرض تأييد الغرب لإسرائيل مصالحه في المنطقة العربية ، وما أسماه علاقات الصداقة مع العرب للخطر ، فقد طرح في إطار المشروع الشرق أوسطي ، إقامة علاقات صداقة وحسن جوار بين إسرائيل والعرب ، وذلك بإحلال السلام في المنطقة ، باعتباره - كما يرى الغرب - قد أصبح مطلبًا ملحقًا للحفاظ على إسرائيل والمصالح الغربية في المنطقة⁽⁵⁰⁾ ، وكخطوة لإقامة الشرق الأوسط الموحد الذي يجب أن تكون إسرائيل فيه القوة الوحيدة المهيمنة⁽⁵¹⁾ ، بعد أن تتحطم في وجوده فكرة الوحدة العربية ، لأنه «كلما زاد انقسام العرب على أنفسهم ، سهل اختراقهم والسيطرة عليهم»⁽⁵²⁾ .

هذا في الوقت الذي كان يسعى فيه الغرب لإقناع الإسرائيليين بأن دولتهم لا يجب أن تكون غربية بقدر ما يجب أن تكون شرقية ذات ميول غربية ، ومن ثم فعليهم العمل لخلق وضعهم في الشرق الأوسط باعتباره المكان الآمن الذي يجب أن تعيش وتمتد فيه دولتهم⁽⁵³⁾ .

وكان الغربيون من دعاة الشرق أوسطية ، مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، لا يكتفون بتخليق إقليم شرق أوسطي يستوعب إسرائيل فحسب ، بل يسعون لإيجاد شرق أوسط تكون الهيمنة فيه لإسرائيل ، والتي رأوا بأنها يجب أن تبدأ بالتغلغل

(48) F.O; 141/1378, Relation with Israel, From J.M Trout Bech, 25th July 1949, p1;

Ibid, 141/14444, Meeting in the Ambassador's Study, 10th March 1951, p2.

(49) F.O; 141/1378, Relation with Israel, 25th July 1949, p5.

(50) Ibid; pp 2,3,5; F.O, 141/1442/1/516, Letter to F.O, 27th Fed 1951.

(51) F.O; 141/1378, Relation With Israel, from J.M. Trout Beck, 25th July 1949, p1.

(52) Ibid; pp 2,3,5; F.O, 141/1442/1077/1/516, Letter to F.O, 27th Fed 1951.

(53) F.O; 141/1378, Relation with Israel, from J.M. Trout Beck, 25th July 1949, pp 2-5.

الاقتصادي في المنطقة ، الذي سيمهد الطريق أمامها للهيمنة السياسية عليها في نهاية الأمر ، لهذا ذهب أحد دعاة الشرق أوسطية الغربيين إلى « أن إسرائيل يجب أن تكون دولة شرقية Oriental State ، وأن نشاطها يجب أن يكون أكثر ارتباطاً بالشرق عنه بالنسبة للغرب ، الذي يجب أن يكون ارتباطها به مادياً فحسب ، وأن عليها أن تتغلغل في الشرق الأوسط سعياً للسيطرة عليه سياسياً مستخدمة في ذلك سلاح الاقتصاد » . ولعل هذا ما دفع الغرب لأن يقدم للدولة اليهودية المساعدات الاقتصادية الضخمة منذ ولادتها ، حتى أن يهود الكومنولث البريطاني أبدوا تأييدهم لكل طموحات إسرائيل الشرق أوسطية ، وتحمل أية مخاطر تنجم عنها ، في الوقت الذي واصل فيه اليهود الأمريكيان جمع الأموال لحسابها والتي بلغت 100 مليون دولار في سنة 1949⁽⁵⁴⁾ .

هذا وقد اقتضى نجاح المشروع الشرق أوسطي في عزل الاتحاد السوفيتي وإبعاد حقول النفط الخليجية عن مجال المنافسة الدولية ، واستيعاب الدولة اليهودية ، التي تأسست لتكون دولة شرقية ، تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتحقيق الاستقرار والأمن للمنطقة ، والحيلولة بين الأفكار الشيوعية واختراقها ، وذلك من خلال القيام على تنمية إقليمية للشرق الأوسط ، تستهدف زيادة نفوذ الغرب الاقتصادي في المنطقة ، ورفع المستويات الاقتصادية والاجتماعية الثقافية لشعوبها ، بعد أن اقتنع الغرب في ظل الحرب الباردة ، بأن الحفاظ على مصالحه الاستراتيجية في المنطقة لا يحتاج إلى وجود قوات عسكرية فيها بقدر ما يحتاج إلى نفوذ اقتصادي ، وسيطرة على الاستثمارات وزيادة حجم الاستثمارات النفطية فيها ، وزيادة حجم مشترياته من المواد الخام التي تنتجها المنطقة ، والتحكم في نوعية وارداتها ، ووضع خطط طويلة المدى لتنميتها اقتصادياً (بالشروع في تنفيذ مشروعات للري والتحكم في الفيضان ووسائل المواصلات) وذلك من خلال تأسيس منظمة إقليمية اقتصادية شرق أوسطية ، لتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي وإقامة وحدة اقتصادية شرق أوسطية ، لخدمة الأهداف الغربية في المنطقة⁽⁵⁵⁾ . وبخاصة

(54) C.O, 732/87/10, Middle East long term policy, undated, p2.

(55) F.O; 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, Subversive activities in the Middle East. P 60; F.R.U.S, Vol v, Introductory paper on the Middle East submitted Informally by the U.K Representatives, Washington, undated, p 575.

بعد أن رأى الغرب أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية بالشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الثانية توفر تربة خصبة لانتشار الأفكار الشيوعية والأنشطة الهدامة في المنطقة بدرجة تعرض مصالحه فيها للخطر، وأن تحصين المنطقة ضدها يحتاج إلى إجراءات مباشرة لتحسين مستويات المعيشة، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الشرق الأوسط⁽⁵⁶⁾.

وكانت المشكلة الاقتصادية والاجتماعية في الشرق الأوسط، أخطر ما تكون في المنطقة العربية، التي كانت تمثل مركز المشروع الشرق أوسطي، بسبب الزيادة الهائلة في أعداد سكانها، والتفاوت الهائل في توزيع ثرواتها بين الدول العربية وبعضها البعض، وحتى داخل الدولة الواحدة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وزاد من حدة المشكلة الاجتماعية الاقتصادية في المنطقة العربية، اتجاه الغرب لحل معضلة المشروع اليهودي في فلسطين على حساب جاراتها العربية، عندما تقرر تفريغ فلسطين من سكانها العرب، وإعادة توطينهم في مناطق أخرى بالمنطقة، وذلك قبل ظهور الدولة اليهودية بسنوات، بعد أن روج اليهود إلى أن فلسطين لا يمكن أن تتسع لشعبين، بعد أن ذهب المسئول عن الاستيطان اليهودي في فلسطين عام 1940 - جوزيف ماتيس - إلى أنه «ينبغي أن يكون واضحاً فيما بيننا أن هذا البلد «فلسطين» لا يمكن أن يتسع لكلا الشعبين (و) إننا لن نحقق هدفنا في الاستقلال إذا ما بقي العرب في هذا البلد الصغير، والحل الوحيد يتمثل في إفراغ فلسطين أو على الأقل فلسطين الغربية (غرب نهر الأردن) من العرب ... وليس ثمة وسيلة أخرى سوى نقل العرب الموجودين هنا إلى البلدان المجاورة»⁽⁵⁷⁾.

ولعل الرغبة في استيعاب الكيان اليهودي في المنطقة، وحل المشاكل التي ستترتب على تهويد فلسطين بتهجير العرب، جعلت الولايات المتحدة الأمريكية تؤكد في أواخر سني الحرب العالمية الثانية، على أن الحلول المطروحة للمسألة الفلسطينية (التقسيم

(56) عبد الملك خلف التميمي : الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي : المغرب، فلسطين، الخليج العربي، دراسة تاريخية مقارنة، عالم المعرفة (71) الكويت 1983، ص 124.

(57) F.R.U.S, 1944, Draft Memorandum to president Truman, Washington, undated, p47.

والتفريغ) ستؤدي إلى مزيد من إراقة الدماء ، والأضطرابات السياسية الداخلية وشعور بالضيق في المنطقة العربية ، ما لم يتزامن مع العمل بهذه الحلول ، دعم لعمليات التنمية في فلسطين والأقطار المجاورة⁽⁵⁸⁾ ، لأن عدم إعادة توطين اللاجئين يعني استمرار تركيزهم في تجمعات سكانية كثيفة ، تتيح فرصاً لنمو مقاومة فلسطينية ضد الكيان الصهيوني ، كما أنها ستظل تمثل ضغطاً دولياً يدعو إلى المطالبة بعودتهم إلى ديارهم⁽⁵⁹⁾ .

من هنا كان الاهتمام بإجراء تنمية اقتصادية إقليمية شرق أوسطية تساعد الدول العربية على حل مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية ، واستيعاب الأعداد الفلسطينية التي تقرر تهجيرها ، وهذا ما أعلنت عنه لجنة الشرق الأوسط Middle East Official Committee في دراسة انتهت منها في 14 مايو 1949 ، عندما ذهبت إلى أن التنمية الاقتصادية لمصر والعراق وسوريا والأردن ولبنان ، هي الحل الأفضل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين الملحة⁽⁶⁰⁾ . هذا في الوقت الذي شدد فيه السيد بيفن في سنة 1949 - إبان المفاوضات البريطانية الأمريكية حول المشاكل الاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط - على ضرورة الضغط على الحكومة السورية لتوطين ما يتراوح بين 200 و300 ألف لاجئ في شمال سوريا ، والعمل على توطين ما يتبقى منهم في شرق الأردن ، بعد أن نجحت عملية إعادة توطين حوالي أربعين ألف لاجئ في غور الأردن⁽⁶¹⁾ .

(58) عبد الملك التميمي : المرجع السابق ، ص 159 .

(59) F.O; 141/1378, Note to the Chairman of the Official Committee on Economic Development (Overseas) from the Chairman of the Middle East (Official) Committee, 10th August 1949. p1; Ibid, Middle East Development, Immediate Objectives, p1,6.

(60) F.R.U.S, 1949, Talks at Washington between Thev.s and U. k on Political and Economic subject concerning the Near East, Memorandum Conversation by the Secretary of state, Washington, 4 April, 1949, p51.

(61) F.O; 141/1378, Note to the Chairman of the official committee on Economic Development (Overseas) from the chairman of the Middle East (official) Committee, to the August 1949. p3; Ibid, 371/68041, Washington Talks on Middle East and eastern Mediterranean, Meeting of 27th Oct 1947, P13, F.O. 371/96956, Note of a Meeting held at the F.O. on April 24th - 1952, with Mr. Darsey Steven's of the International Bank, P2.

وإذا كانت التنمية الاقتصادية في سوريا والأردن قد ركزت على قطاع الزراعة ، حتى تتلقى الأردن عوائد من وراء النفط ، وتنمية شركة شرق الأردن الإنجليزية Trans Jordanian British Company لمناجم الفوسفات⁽⁶²⁾ . فقد ذهب المشروع الشرق أوسطي إلى أنه التنمية الشاملة لمصادر بترول الشرق الأوسط - والتي يتركز معظمها في الخليج - سيكون وسيلة كبيرة لتوفير فرص عمل معقولة للسكان المحليين ، ورفع مستوى معيشتهم ، وتحريك السكان العرب من المناطق ذات الكثافة العالية إلى المناطق المخلخلة سكانياً . ولعل هذا ما حدا بأحد المسؤولين الغربيين - السيد جرينهل - إلى الاعتقاد بأن زيادة حجم الاستثمارات النفطية ، واستغلال الموارد النفطية الشرق أوسطية في المستقبل ، سيساعد بدرجة كبيرة على رفع مستوى المعيشة في المنطقة بشكل عام⁽⁶³⁾ .

وحتى يحقق المشروع أهدافه لإحكام الحصار على الاتحاد السوفيتي ، والحيلولة بينه وبين خلق ممرات إلى المياه الدافئة ، ومناطق الثروات النفطية في الخليج ، فقد طرح في إطار المشروع الشرق أوسطي ، إقامة مشروع إقليمي للدفاع عن الشرق الأوسط ، يقوم في جانب منه على إقامة حائط من الدول يكون بمثابة خط دفاع أول عن المنطقة « من باكستان وأفغانستان ، وإيران وتركيا ثم اليونان » تكون مهمته التصدي للضربات التي يوجهها الاتحاد السوفيتي ، الذي كان يقود المعسكر الشرقي في الحرب الباردة ، واستنزاف قوته ، والحيلولة بينه وبين تهديد المصالح الغربية في الشرق الأوسط⁽⁶⁴⁾ .

ولما كان الغرب يرى أن الاعتماد على خط الدفاع الأول في المشروع الإقليمي للدفاع عن الشرق الأوسط ، سيجعله أضعف نقاط التحالفات الغربية في الحرب الباردة ، ما لم تكن هناك خطوط دفاع احتياطية ثانية وثالثة ، فقد خطط لاستخدام الدول العربية ، كعمق استراتيجي في هذا الحلف لمواجهة الاتحاد السوفيتي ، باعتبار أن إشراك الدول العربية في مشروع إقليمي للدفاع عن الشرق الأوسط ، سيوفر للغرب قواعد عسكرية ،

(62) F.O; 141/1222, by Financial Counselor, 29th April 1947, p6, Ibid, 371/68041, Meeting of 23Oct 1947. pp 3-4.

(63) F.O, 371/63109, Strategic Value of The Mediterranean, Near and Middle East, 16th Oct 1947, p2.

(64) أحمد عبد المجيد فؤاد : المرجع السابق ، ص 20 ، 24 ، 27 ، 67 ، 68 .

تجعل الشرق الأوسط نقطة وثوب استراتيجية لضرب قواعد الاتحاد السوفيتي العسكرية، والإغارة على مناطقه الصناعية - في منطقة البحر الأسود، وجبال الأروال - التي تزوده بالأسلحة، وحقوقه النفطية في باكو، ومزارعه الغنية بالغلل في أوكرانيا⁽⁶⁵⁾.

ولما كان الأمريكيان يجدون حساسية في تأسيس قواعد عسكرية لهم في المنطقة العربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، بسبب دعمهم لمشروع الدولة اليهودية، وتخوفهم من أن يساعد وجودهم العسكري في المنطقة على نجاح الدعاية الشيوعية فيها، فقد أبدوا رغبة في عدم تحمل أية مسؤوليات عسكرية في هذا الجزء من العالم بشكل مباشر، والاكتفاء بدعم الإبقاء على الوضع العسكري البريطاني القوي في الشرق الأوسط⁽⁶⁶⁾، حتى أنهم أكدوا على أن أمنهم والسلام العالمي يقتضيان احتفاظ إنجلترا بوضعها، وما لها من تسهيلات توفرها المعاهدات التي وقعتها مع دول المنطقة، حتى تتحمل مسؤولية الدفاع عنها؛ لأنهم رغم مصالحهم الأمنية والسياسية والاقتصادية في الشرق الأوسط، فإنهم لا يفكرون في أن يحلوا محل بريطانيا فيه، أو حتى تحويل قواعدهما العسكرية بالمنطقة في وقت السلم إلى قواعد أنجلو / أمريكية، تتركز فيها القوات الأمريكية جنباً إلى جنب مع القوات البريطانية، حتى لا تتحمل الولايات المتحدة نفقات عسكرية هائلة، ولا يؤدي وجودها العسكري في المنطقة إلى استفزاز الاتحاد السوفيتي، وإشعال الحرب الباردة في منطقة الشرق الأوسط، وإعطاء الاتحاد السوفيتي فرصة للظهور أمام العرب بمظهر الصديق الوحيد لهم وإظهار الولايات المتحدة بمظهر المساند لبرنامج معادٍ لهم⁽⁶⁷⁾.

لهذا تقرر أن يقوم المشروع الإقليمي للدفاع عن الشرق الأوسط على القواعد العسكرية البريطانية في المنطقة، والتي وفرتها المعاهدات الثنائية التي وقعتها مع بعض دول المنطقة، والتي تطلعت لإعادة النظر فيها بما يجعلها توفر التسهيلات الاستراتيجية والقواعد - في العراق، مصر، الأردن... إلخ - التي يمكن أن يبني عليها الغرب دفاعاته الإقليمية في

(65) F.O; 141/1222, From Houston To F.O., 21st Aug 1947, P2.

(66) F.O; 371/73556, From Campbell, 30th Oct 1949. Ibid, 371/6309, Telegram No., 5965, From Washington To F.O., 26th Oct 1947, PP 1-2; Ibid, 371/61114, Washington Talks On Middle East and Eastern Mediterranean 1947. p7.

(67) F.O; 141/1059, From R.G. Home to Alen, 5th Oct 1945, p1.

الحرب أو التهديد بها⁽⁶⁸⁾. والعمل - في ذات الوقت - لإيجاد قواعد أخرى تضمن حماية منطقة الخليج والبحر الأحمر، لتأمين مصادر النفط بالمنطقة، وتأمين نقل نفطها إلى الهند وأوروبا الغربية عبر البحر الأحمر؛ لهذا اقترح الاستفادة من السعودية، والمنطقة الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية، في المشروع الدفاعي الشرق أوسطي، لما لهما من أهمية استراتيجية. والقيام على استئجار قواعد جوية بطول الشاطئ الجنوبي للخليج واحتفاظ بريطانيا بقوات وقواعد عسكرية في السودان وعدن، والصومال الإيطالي، الذي اقترح وضعه تحت الوصاية البريطانية أو الأمريكية، وإقناع إريتريا بالاندماج مع السودان أو إثيوبيا⁽⁶⁹⁾.

وقد دفعت الصعوبات التي واجهت محاولات الغرب لإعادة النظر في معاهدات الدفاع المشترك الثنائية بين بريطانيا وكل من العراق ومصر، مهندسي المشروع الشرق أوسطي إلى طرح بديل للعراق وآخر لمصر، فبالنسبة للعراق اقترح الوفد الأمريكي في المفاوضات الاهتمام ببناء الكويت لتكون قاعدة بديلة للعراق بالمنطقة، في حال نجاح عملية التنمية بها، وفشل المفاوضات الأنجلو/ عراقية لتنقيح معاهدة 1930⁽⁷⁰⁾؛ لأن موقع الكويت يجعلها داخل مسافة طيران معقولة لحقول النفط في كركوك، وأقل مسافة طيران من عبادان والبصرة والبحرين⁽⁷¹⁾، هذا في الوقت الذي تقرر فيه تأسيس قاعدة عسكرية بمطار الظهران⁽⁷²⁾، وحث شركات الطيران المدني على المساهمة في تأسيس

(68) Ibid, 371/63109, Strategic Value of the Mediterranean and Near and Middle East, Aide Memoire, 16th Oct 1947, p1, 2, 4; Ibid, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, pp15, 25, 26, 43.

(69) عبد الرؤوف أحمد عمرو: تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية 1939 - 1957، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ص 146 - 147، مروان خيري: المرجع السابق، ص 57.

(70) F.O, 141/1378, Relation with Israel, from J.M. Trout Beck, 25th July 1949, p 5.

(71) Ibid, 141/1444, Telegram No. 62, From F.O to Cairo, 24th Jan 1951.

(72) Ibid, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, "Political Strategic Question Relating To The Persian Gulf Sheikdoms Mediterranean, Near and Middle East, 16th Oct 1947. P5; F.R.U.S, 1947, vol v, Memorandum of Conversation by The Chief of The Division of South Asian Affairs, Washington, 9th Oct 1947, P562.

قواعد عسكرية ، ومطارات في جنوب شرقي الجزيرة العربية ، والتي علق على الانتهاء من تجهيزها توفر فرصة للدفاع في العمق عن الشرق الأوسط ، والوصول لأي مكان فيه لحماية آباره النفطية وطرق نقلها⁽⁷³⁾ .

أما مصر ، فنظرًا لموقعها المهم بالنسبة للشرق الأوسط ، وصعوبة المفاوضات البريطانية المصرية لتعديل معاهدة 1936 ، بسبب تمسك المصريين بإلغائها قبل الدخول في مفاوضات تؤدي بهم للانخراط في أحلاف بالمنطقة ، فقد اقترح مهندسو المشروع الإقليمي للشرق الأوسط ، إعداد ليبيا لتكون بديلاً لمصر ، في حال فشل المفاوضات المصرية البريطانية في الانتهاء إلى تعديل لمعاهدة 1936 يجعل من مصر إحدى أهم قواعد المشروع الدفاعي الإقليمي للشرق الأوسط ؛ لأنه من خلال ليبيا يمكن نشر قوات سريعة في المنطقة ، والقيام بأعمال عسكرية جوية للدفاع عن فلسطين ومصر بما في ذلك قناة السويس في حال وقوع أي حرب⁽⁷⁴⁾ ، في الوقت الذي واصلت فيه بريطانيا مفاوضاتها مع الأردن حتى انتهت في 1948 إلى توقيع معاهدة بديلة لمعاهدة 1946 التي أقرت بحق بريطانيا في الاحتفاظ بقواعد عسكرية على أراضيها لفترة زمنية غير محدودة ، بعد أن حملتها مسئولية الدفاع عن المملكة⁽⁷⁵⁾ .

ولما كان الغرب يرى أن مصر تعد المركز السياسي والجغرافي لشرقي المتوسط والمنطقة العربية ، ومفتاحها معاً ، وأن قبولها الاندماج في مشروع إقليمي للدفاع عن الشرق الأوسط سيدفع الدول العربية الأخرى إلى أن تحذو حذوها ، كما أن بها إحدى أهم القواعد العسكرية البريطانية في المنطقة⁽⁷⁶⁾ ، فقد اتجه لإقناعها بمشروع القيادة المشتركة

(73) F.O., 371/63109, Strategic value of the Mediterranean Middle East, Aide Memoire, 16th Oct 1947, pp 2, 3; Ibid, 371/68041, Meeting of 24th Oct 1947, p7.

(74) Ibid, 371/61114, Washington Talks on Middle East and Eastern Mediterranean, 1947, Assurance of British Strategic Facilities in Cyrenaica, pp 18-21.

(75) F.O., 371/68041, Meeting of 24th Oct 1947, p7; Ibid, 371/63109, Strategic Value of The Mediterranean, Near and Middle East, 16th Oct 1947, p 3.

(76) محمود رياض : الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيو بوليتيكا ، مع دراسة تطبيقية على الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ، بيروت 1979 ، ص ص 26 - 28 ،

للدفاع عن الشرق الأوسط ، الذي اهتموا بالتعجيل في تنفيذه ، بعد الحرب العربية الإسرائيلية ، وتصاعد العداء في المنطقة لإسرائيل والغرب ، بسبب موقف الغرب المنحاز للدولة اليهودية ، في محاولة لاحتواء العداء المتزايد للغرب وحماية مصالحه في المنطقة ، وتجميد الصراع العربي الإسرائيلي ، والحيلولة دون نشوب حرب جديدة في المنطقة .

بيد أن العرب اتجهوا لقطع الطريق على هذا المشروع ، بإقامة نظام للدفاع العربي المشترك ، عندما وقعت معظم الدول العربية (مصر ، الأردن ، سوريا ، لبنان ، اليمن) على معاهدة الضمان الجماعي التي أقرها مجلس جامعة الدول العربية في 13 إبريل 1950 ، ثم أقدمت مصر في 8 أكتوبر 1951 على إلغاء معاهدة 1936 من طرف واحد⁽⁷⁷⁾ .

ولما كان نجاح التحرك العربي في إقامة نظام دفاعي عربي مشترك ، يعني وأد مشروع القيادة والمشروع الشرق أوسطي برمته ، فقد تحركت الدول الغربية الداعمة لكلا المشروعين لإجهاض مشروع الدفاع العربي ، والضغط على مصر حتى تراجع عن قرار إلغاء معاهدة 1936 من طرف واحد ، عندما أعلنت معارضتها لمعاهدة الضمان الجماعي العربي ، واعتبرتها عملاً موجهاً ضد إسرائيل ، وتهديداً لأمنها ومستقبلها ، وأبدت استعدادها للتدخل لوقف أي عدوان عربي لتعديل خطوط الهدنة مع إسرائيل ، في إطار الأمم المتحدة أو خارجها ، كذلك أبدت الولايات المتحدة معارضتها لإلغاء مصر لمعاهدة 1936 من طرف واحد ، في الوقت الذي حثت فيه فرنسا وكذلك تركيا - التي كانت ترى أن استراتيجية الشرق الأوسط الدفاعية تتوقف عليها - إلى الانضمام إلى مشروع القيادة المشتركة للشرق الأوسط ، والذي تقدمت أمريكا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وتركيا به إلى الحكومة المصرية في 13 أكتوبر 1951 ، باعتبارها الدولة المرشحة لأن تكون مقرراً للقيادة ، ودعت الدول العربية وإسرائيل وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا للاشتراك فيها ، ووضع قواتها المسلحة وقواعدها العسكرية وموانئها ، وطرق مواصلاتها ومنشأتها تحت تصرف قائدها العام ، وبلغ حرص الولايات المتحدة على إقناع مصر بقبول مشروع

(77) عبد الرؤوف أحمد عمرو : المرجع السابق : ص ص 84 ، 124 ، 125 ، 126 ، مروان خيري : المرجع

السابق ، ص ص 56 ، 57 ، ميشيل كامل : المرجع السابق ، ص 99 .

القيادة ، أنها لوححت لها بإمكانية الاعتراف بإلغاء معاهدة 1936 ، في حال موافقتها على المشروع وقبولها لأن تكون مقرًا لقيادته⁽⁷⁸⁾.

وإذا كانت حكومة الوفد المصرية قد رفضت مشروع القيادة الذي كان مقررًا أن تكون إسرائيل جزءًا منه ، فلا يعني هذا أن الغرب قد تخلى عن مواصلة مساعيه لتنفيذ المشروع ، حتى أن الولايات المتحدة الأمريكية أعلنت في 10 نوفمبر 1951 ، عن عزم الدول الأربع المتبينة له ، على المضي قدمًا في رعايته وتنفيذه ، وأن الباب سيظل مفتوحًا أمام دول الشرق الأوسط للانضمام إليه . ورغم هذا فقد ظل المشروع مجمدًا ، حتى حاولت الولايات المتحدة إحياءه أثناء زيارة وزير خارجيتها دالاس للمنطقة في مايو 1953⁽⁷⁹⁾. بيد أن هذه المحاولة لم يكن حظها أفضل من سابقتها ، أمام تمسك العرب برفض سياسة الأحلاف ، حتى أنهم لم يرفضوا دخول حلف بغداد ، الذي تشكل في مطلع 1955 - وضم تركيا ، وإيران ، وباكستان ، والعراق ، وإنجلترا - فحسب ، بل شرعوا في عزل العراق ، حتى انسحبت منه بعد فترة وجيزة من دخوله ، وقطع الطريق أمام الحلف وجر أي من الدول العربية للانخراط فيه ، بعد أن بدأ العرب يفقدون الثقة بالغرب ، لما أدركوا أن الخطر الحقيقي الذي يهدد بلادهم هو التهديد الصهيوني والاستعمار ، وليس الاتحاد السوفيتي ، كما يروج الغرب ، وأن مسئولية الدفاع عن المنطقة ، ضد أي خطر يهددها ، هي مسئولية عربية أولاً وأخيرًا .



هكذا أدى ظهور النفط في الخليج مع مطلع القرن العشرين ، والتحول نحو استخدامه كمصدر أساسي للطاقة ، إلى ازدياد الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج ، حتى أصبحت إحدى أهم المناطق المطلوبة في العالم . وإذا كانت إنجلترا قد نجحت في عزلها - لفترة - عن ميادين المنافسة الدولية ، فإنها اتجهت في أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى مواربة الباب أمام الولايات المتحدة الأمريكية للعمل فيها - تحت ضغط المساومات

(78) عبد الرؤوف أحمد عمرو : المرجع السابق : ص ص ، 157 - 158 .

(79) عبد الرؤوف أحمد عمرو : المرجع السابق : ص ، 149 مروان خيرى : المرجع السابق ، ص 56 .

الدولية- بشكل أدى إلى حصول شركاتها النفطية على امتيازات بالمنطقة، إلى جانب الشركات البريطانية .

ورغم نجاح الشركات الأمريكية في الحصول على مجموعة من الامتيازات النفطية في السعودية والعراق وغيرهما من دول المنطقة ، فقد ظلت بريطانيا تتحكم في معظم إنتاج نفط الخليج ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية وما ارتبط بها من تحولات غربية ودولية بل وإقليمية لتعيد ترتيب موازين القوى الساعية لتكريس هيمنتها على نفط الخليج ، بعد أن خرج الاتحاد السوفيتي من الحرب على درجة عالية من القوة والطموح للحصول على امتيازات نفطية في الخليج ، بداية من إيران ، وخلق ممرات تسعفه في الوصول إلى المياه الدافئة ، والاتصال بمناطق الثروات في العالم . في الوقت الذي خرجت فيه بريطانيا من الحرب على درجة كبيرة من الإجهاد - الاقتصادي والعسكري - الذي دفعها إلى الاعتراف بصعوبة الانفراد بالعمل في منطقة مصالحها بالشرق ، والدفاع عنها بمفردها .

لهذا اتجهت إنجلترا إلى تقديم تنازلات - لا مفر منها - للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة بما يسمح بوجود شراكة بينهما فيها ، تمكنها من الحفاظ على ما لها من مصالح في المنطقة ، وقد دفعتهما هذه الشراكة إلى التفكير في تكتيل المنطقة من خلال ما يمكن تسميته بالشرق الأوسط الكبير ، وبخاصة بعد أن أصبح هناك ضغط على الولايات المتحدة الأمريكية للتدخل في المنطقة ، لتقديم الدعم ، وتوفير الحماية لمشروع الدولة اليهودية الذي كان في مرحلة المخاض .

لهذا نستطيع أن نقول إن المشروع الشرق أوسطي الكبير الذي تقرر أن يضم ما كان يعرف بالشرق الأوسط والشرق الأدنى ، كان طرحاً غربياً ، لعزل مناطق الثروات النفطية في الخليج العربي عن مجال المنافسة الدولية المحمومة ، وسياسات الاستقطاب ، التي تزامنت مع اندلاع الحرب الباردة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وتمكين الوليد اليهودي من أن يتجاوز مرحلة المخاض والاندماج في نظام إقليمي قادر على استيعابه مع جاراته العربيات ، وذلك تمهيداً لهيمنتته السياسية عليها، إذا ما نجح في اختراقها اقتصادياً، واستحال تحقيق حلم العرب في الوحدة السياسية والاقتصادية .

وإذا كانت الدول العربية قد قبلت - مرغمة - باستمرار هيمنة الغرب وشركائه على إنتاج نفطها وتسويقه ، بل وتحديد نسب عوائدها منه ، إلا أنها رفضت الانخراط في المشروع الشرق أوسطي ، بعد أن أدركت أن الخطر الذي يهدد العرب هو الاستعمار ، والموقف الغربي المنحاز لإسرائيل ، وأن المشروع الشرق أوسطي ، وما يصاحبه من دعاية تخويف في المنطقة من الاتحاد السوفيتي ، لا يستهدف إلا عزل منطقة الثروات النفطية ، بشكل يكرس انفراد الغرب بها ، وذلك من خلال تكتيل منطقة الثروات النفطية ومحيطها العربي ، وغير العربي ، في مشروع إقليمي يساعد الغرب على إكمال خططه لعزل الاتحاد السوفيتي ، وتوفير الظروف لتثبيت إسرائيل في المنطقة ، التي بدأ الغرب يتحدث عن أنها خلقت لتكون دولة شرقية لا دولة غربية .

**الكويت والسياسة الدولية المعاصرة
(رؤية تاريخية)
2003 - 1961**

د/ ماجدة منصور

مدرس بقسم العلوم الإنسانية والثقافية
المعهد التكنولوجي العالي بالعاشر من رمضان

oboiikan.com

الكويت والسياسة الدولية المعاصرة

(رؤية تاريخية)

1961 - 2003م

بالمقارنة مع جيرانها ، قد يعتبر تاريخ الكويت الماضي بسيطاً أو مجهولاً أو غير معروف، ويبدو أنها دولة ولدت من فراغ ، وفي بداية السبعينيات من هذا القرن لخص بعض الأوروبيين المختصين هذا التناقض على الوجه الآتي : "لغة : تعني كلمة الكويت قلعة صغيرة ، وبالنسبة للأوروبيين الذين جابوا سطح الجزيرة العربية لمدة خمسمائة سنة فأكثر ، كانت الكويت صحراء رملية ساحلية تقع على شفا طرف من الخليج جنوبي البصرة ، ولم تمنح هذه الأرض هؤلاء الأوروبيين حاجة أساسية للوقوف على أثر أقدامهم، وكذلك عرفت عند الأوروبيين بالقرين ، أو القرن الصغير"⁽¹⁾ .

ولكن تعتبر الكويت في وقتنا الحاضر واحدة من أغنى دول العالم الثالث ، وتمر البلاد حالياً بمرحلة تحول وتغيير اجتماعي واقتصادي وتنمية سياسية غيرت من الإطار السياسي لنظامها السياسي ، غير أنها بالرغم من ذلك حافظت على تقاليد العربية وقيمها الإسلامية .

(1) انظر :

خلفية تاريخية :

تشير بعض الدلائل إلى أن اليونانيين اكتشفوا جزيرة فيلكا في الماضي القديم ، فقد اكتشفت صخرة في عام 1937 حفرت عليها باليونانية عبارة :

"Poseidon Atremis Sotels an Athenian and soldiers To Zeus Saviour" "Saviors"

وحسب الأساطير الرائجة فإن سفينة تعود إلى أدميرال يوناني (نيرخوس) غرقت في عام 325 قبل الميلاد ، بينما كانت تقوم برحلة استكشافية بين جيوش الإسكندر الأكبر ، ويقال إن (سوتيلوس) ورجاله قد وصلوا إلى شواطئ الكويت ليقدموا الشكر لأهلها على إنقاذهم ، كما ذكر أن فيلكا كانت مركزاً رئيسياً للتجارة مع الهند ، والجزيرة كانت مرفأً للتوقف والتزود بالثؤنة والوقود للسفن اليونانية ، وربما كانت قد استخدمت كقاعدة لهم⁽²⁾.

ويشير التاريخ أيضاً إلى أن المقاتلين المسلمين أقاموا في شمال الكويت وهم في طريقهم لنشر الإسلام في بلاد فارس ، حيث واجه خالد بن الوليد الفرس في معركة (ذات السلاسل) بالقرب من كاظمة ، عام 633 ميلادية ، ولكن كتب التاريخ تخلو من أي ذكر للكويت قبل القرن الثامن عشر ، حيث كتب (كارستن نيبور Carstein Neibuhr) الرحالة الدانماركي الذي زار الجزيرة العربية في الستينيات من القرن الثامن عشر ما يلي :

"الكويت أو القرين، كما يسميها الفرس والأوروبيون ، تعتبر ميناء وبلدة ساحلية تبعد ثلاثة أيام من الزبير أو البصرة القديمة ، كان سكانها يعيشون على تجارة صيد السمك والغوص للبحث عن اللؤلؤ ، التي كان يعمل فيها أكثر من ثمانمائة سفينة ، وفي الفصول المناسبة من العام تترك هذه البلدة مهجورة حيث يتوجه كل فرد إلى الصيد أو في مجازفة تجارية ، وكان يحكمها شيخ من قبيلة عتيبة ويعتبر تابعاً لشيخ الإحساء ، لكنه

(2) لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على :

C.A.P. Southwell, "Kuwait" Journal of the Royal Society of Arts, Vol. 102 (December 11, 1953). P2.

حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، الجزء الأول (بيروت: دار الكتاب، 1962)، ص 115-120.

كان يطمح في الاستقلال، وفي حالة مهاجمة عتية مع جنوده، يلتجئ سكان القرين مع أممتهم إلى جزيرة فيلكا القريبة، ويوجد بعض آثار حصن برتغالي بالقرب من القرين⁽³⁾.

ويعتبر تاريخ الكويت الحديثة وسياساتها متزامنين مع تاريخ الأسرة الحاكمة لها (الصباح)، والتي كانت قد هاجرت من الجزيرة العربية (نجد) إلى تلك المنطقة مع قبائل أخرى في عام 1716م، وتتفرع أسرة الصباح من قبيلة العتوب من نجد التي تعتبر بدورها فرعاً من قبيلة عنزة (ترجع خلفية العوائل الحاكمة في البحرين وال سعودية إلى القبيلة نفسها، لذا نرى أن الروابط الاجتماعية تعزز العلاقات السياسية بين الأسر الحاكمة).

وقد تكوّن حلف سياسي ثلاثي في الكويت بين الأسر الأولى المهاجرة إلى الكويت، وبموجه تولت أسرة الصباح مسئولية إدارة البلاد، بينما آلت مسئولية التجارة إلى آل خليفة، أما الجلاهمة فقد احتكروا الأمور الملاحية (الغوص والبحث عن اللؤلؤ والأسماك والتجارة). واستمر هذا التحالف حتى عام 1756، عندما تولت أسرة الصباح السلطة السياسية كاملة وأصبحت في حوزتها حتى وقتنا الحالي، ومنذ تلك الحقبة برز نظام بدائي وبسيط، لكن تجدر الإشارة إلى أن نظام الوراثة السياسية، أي انتقال الحكم من الأب إلى الابن، لم يكن نظاماً إلزامياً، فاختيار الخليفة من بين أفراد الأسرة الحاكمة يتم بطريقة تشبه اختيار رئيس القبيلة، حيث يختار لهذه المهمة عضو من الأسرة الحاكمة يكون قد "أثبت أنه يمتلك المقومات الشخصية والقيادية إضافة إلى أن يكون محظوظاً"⁽⁴⁾.

(3) لمزيد من المعلومات انظر:

Carstein Neibuhr, "Travel in Arabia," in John Pinkerton, ed., A General Collection of the Best and Most Interesting Voyages and Travels in All Parts of The World, Vol. x (London Longman, Hurst, Rees, and Brown, Paternoster, and Cadell and Davies, in the Strand, 1811), P. 121.

(4) حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، الجزء الثاني، ص 294، وللإطلاع على تاريخ وسياسة آل الصباح انظر:

Rosemarie Said Zahlan, The Making of the Modern Gulf States: Kuwait, Bahrain, Qatar, The United Arab Emirates and Oman (London: Unwin Hyman, 1989). P. 79-82.

وعلى الرغم من صغر مساحة الكويت وقساوة طقسها ، وطوبوغرافيتها الجرداء ، فإن الموقع الجغرافي لها جعلها بؤرة صراع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين القوى العظمى الألمانية والبريطانية والروسية والعثمانية ، وعلى المستوى الإقليمي تورطت الكويت في حملة التنافس السياسي بين ابن سعود وابن الرشيد⁽⁵⁾ . وحين أصبحت منطقة الخليج حلقة للمنافسة والصراع الدولي ، فإن ذلك جر الكويت (هامشيًا) إلى لعبة القوى الدولية .

وكان احتلال الفرس للبصرة (1775-1779) سببًا في خلق الفرصة الأولى للاتصال الرسمي بين الكويت وبريطانيا ، حيث تحولت التجارة والبريد البحري البريطاني من الهند والبحر المتوسط وأوروبا إلى الكويت ، ونتيجة للانعاش الاقتصادي ضمن أمور أخرى ، قام الكويتيون بمهاجمة البحرين في عام 1783⁽⁶⁾ . إضافة إلى ذلك ، ففي عام 1793-1794 ، حول المقيم البريطاني مكاتبه من البصرة إلى الكويت بسبب بعض الأحداث الطائفية في جنوب العراق ، وفي عام 1821 انتقلت المكاتب البريطانية مرة أخرى إلى فيلكا نتيجة سوء تفاهم مع الحاكم العثماني في البصرة .

وعلى المستوى الإقليمي ، واجهت الكويت العديد من التهديدات المحتملة والفعلية من القبائل العربية المجاورة ، فخلال الأعوام 1783 ، 1794 ، 1796 حاول العديد من القبائل في الجزيرة العربية الاستيلاء عليها ، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، وتجدد الإشارة إلى أن ابن سعود وعائلته طلبوا اللجوء السياسي في الكويت بين أعوام (1893-1901) ثم تمكن بمساعدة الكويتيين من إعادة سيطرته على نجد .⁽⁷⁾

(5) انظر:

Laurence Lockhart, "Outline of the History of Kuwait", Journal of the Royal Central Asian Society, Vol. 34 (1947), P. 268.

(6) أحمد حسن جودة، المصالح البريطانية في الكويت حتى 1939 ، (البصرة: مركز دراسات الخليج العربي 1979)، ص 337،

Robin Bidwell, The Affairs of Kuwait 1896-1905. Vol. 1, 1896-1901 (London: Frank Cass and Co., 1971), and Winstone and Freeth, Kuwait: Prospect and Reality, P. 62-63.

(7) انظر:

Winstone and Freeth, Kuwait: Prospect and Reality, P. 59.

لقد أثير موضوع سيطرة الإمبراطورية العثمانية على الكويت خلال القرن الثامن عشر، وأن هذه الإمبراطورية حافظت على نوع من السيادة على هذه الإمارة، ويتضح أنه في عام 1756 تفاوض حاكم الكويت الأول صباح الأول مع الحاكم العثماني في البصرة بخصوص استقلال رقعته، ولكن تحت الوصاية العثمانية، وفي فترة لاحقة، ساعد جابر الأول (1812-1859) الحاكم العثماني على استعادة أرضه بعد ما تم إبعاده عنها بواسطة القبائل العراقية. ومنذ تلك الفترة وحتى عهد مبارك الكبير (1896-1915) دفع شيوخ الكويت سنوياً "إتاوة تبلغ 40 كيساً من الأرز، و 400 فسيلة من النخل" وتسلموا بالمقابل من وصيهم السلطان "كل عام خدمة سلطانية"⁽⁸⁾.

وفي عامي 1838-1839، نصب العثمانيون مندوباً في الكويت في محاولة لتقليص تأثير الوهابيين ورفع درجات علاقات الكويت مع الإمبراطورية العثمانية⁽⁹⁾.

وقد أبدى الكويتيون تعاطفاً كبيراً مع محمد علي (والي مصر) وذلك عندما حاول في عام 1818 احتلال شواطئ الخليج لقمع الوهابيين، لذا تركت الكويت مستقلة في أمورها، وإجمالاً يمكننا القول إن سياسة الكويت تجاه الوصاية العثمانية كانت تتصف بالمرونة والواقعية، فقد كانت "تتجاهل الوصاية في معظم الأحيان وترفضه في مناسبات أخرى وتتسامح معه عندما تهددها الأخطار من جهات أخرى"⁽¹⁰⁾.

وعلى الرغم من الارتباطات السابقة مع بريطانيا فإن الفرصة الحقيقية للتقارب الكويتي-البريطاني، برزت في نهاية القرن التاسع عشر وذلك نتيجة لمستجدات داخلية وإقليمية، فداخلياً قام مبارك الكبير عام 1896 باغتيال أخويه محمد (الحاكم 1892-1896) وجراح وكان مبارك الذي أحيل إلى منصب رمزي هو الإشراف على القبائل

(8) لمزيد من المعلومات انظر:

J. C. Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf, Oman, and Central Arabia, Vol. 1, Pt. 1 (Calcutta Superintendent Government Printing, 1915), P. 1008.

(9) انظر:

Winstone and Freeth, Kuwait: Prospect and Reality. P. 64.

(10) حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، الجزء الأول، ص 138،

J. B. Kelly, Britain and the Persian Gulf, 1795-1880 (Oxford: Clarendon Press, 1968), P. 33.

البدوية خارج مدينة الكويت ، في الجوهر ، محارباً ومغامراً وذا شخصية قوية راغبة ومتعطشة للقوة⁽¹¹⁾ . واتهم مبارك أخويه بعدم القدرة على إدارة البلاد وبتحالفهما مع الدولة العثمانية ، لذا احتاج لحليف متوازن يدعم ادعاءاته خاصة بعدما هرب أبناء أخويه القتيلين ومؤيدوهم إلى البصرة حيث نشدوا المساعدة من العثمانيين والقبائل الأخرى للثأر وإعادة عرش أبويهما ، وفي سعيه للتهرب من استقطاب الدول الكبرى المجاورة للكويت ولمقاومة الضغوط العثمانية استغل الحاكم التناقضات والتنافس بين هذه الأطراف وتلمس مبارك الحماية البريطانية وحصل عليها بعد عدة محاولات فاشلة⁽¹²⁾ .

وفي 23 يناير 1897 وقّع الشيخ مبارك اتفاقية مع بريطانيا ذكرت : أن الشيخ مبارك بن صباح . . . يعطي العهد ويقيد نفسه وورثته وأخلافه إلى الأبد ، بالألا يقبل وكيلاً من جانب دولة أو حكومة في الكويت . . . بغير رخصة الدولة البهية . . . ولا يفوض ولا يبيع ولا يؤجر ولا يرهن ولا ينقل بنوع آخر ولا يسمح للسكن في قطعة من أراضيه إلى دولة أو رعية من الدول الأخرى ، بغير أن يحصل على الإجازة أولاً من الدولة البريطانية . . . لأجل هذه الإرادة⁽¹³⁾ .

ومن الواضح أن قوى متعددة أثرت على الطرفين في التوصل إلى اتفاق الحماية ، فقد حاولت روسيا في ديسمبر 1898 الحصول على موافقة الدولة العثمانية لبناء خط سكة حديد من طرابلس (لبنان) إلى الكويت ، وفي العام التالي 1899 حاولت ألمانيا بناء خط سكة حديد برلين - استانبول - بغداد ، ينتهي في الكويت ، وفي عام 1900 أرسلت الدولة العثمانية مفتشاً صحياً للكويت ، وفي يناير من ذلك العام ، أصدرت الحكومة العثمانية مرسوماً عينت بموجبه الشيخ مبارك الصباح قائم مقام على الكويت . وفي عام 1901

(11) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي (القاهرة : مطبعة الأنجلو المصرية ، 1983) ص 191-192 ، عبد العزيز الرشيد ، تاريخ الكويت (بيروت : دار مكتبة الحياة ، 1971) ، ص 189 .

(12) انظر :

Richard Coke ، The Arab's Place in the Sun (London" Thornton Butterworth Ltd. 1929). P. 184

(13) انظر :

Jacob C. Hurewitz ، The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record، Vol. 1 (New Haven، London: Yale University Press، 1975)، P. 476. .

رفض الشيخ مبارك طلباً من الدولة العثمانية بالتوجه إلى القسطنطينية (إستانبول)، حيث يمنح عضوية المجلس الاستشاري وراتباً شهرياً.

وإجمالاً منحت هذه التطورات بريطانيا الحافز والدافع لتوقيع اتفاقية الحماية مع مبارك الكبير، وفي نفس العام 1901 حاولت الحكومة العثمانية طرد الحاكم من الكويت ولكنها منعت من ذلك بسبب وجود سفينة بحرية بريطانية. ويمكننا القول إن المعاهدة هدفت من بين أمور أخرى إلى حماية الكويت من التهديدات الخارجية والمعارضة الداخلية، وفي الوقت نفسه قللت من دور القبائل في الشؤون السياسية⁽¹⁴⁾، حيث سيزيد اعتماد الحاكم على التأيد البريطاني لحكمه ولغزواته، وقد ذكرت المعاهدة أن مبارك وحلفاءه ارتبطوا ببريطانيا، ولم يسمح لهم ببيع أو استئجار أي جزء من أراضيهم بدون الموافقة البريطانية. وضمنياً ارتبطت الكويت بمنطقة النفوذ والتأثير البريطاني بينما تركت لتدبر شئونها الداخلية كإمارة مستقلة، إضافة إلى ذلك حددت الاتفاقية نظام الوراثة في ذرية الشيخ مبارك الصباح⁽¹⁵⁾، ولكن على الرغم من شروط الاتفاقية وقيودها، اعتبر الشيخ مبارك الحاكم الوحيد المستقل في منطقة الخليج⁽¹⁶⁾.

لذلك نجح الشيخ مبارك بضربة واحدة في التخلص من احتمال قيام أبناء أخويه بادعاء المشيخة، وتقليص المعارضة المحلية لحكمه، وحماية الكويت من التهديدات الخارجية. وقد ثبت أن سياسة الارتباط والتحالف مع بريطانيا كانت بعيدة النظر، للحاكم ولبلده، وبعد توقيع الاتفاقية، لم يهتم الشيخ مبارك الصباح بالشؤون الخارجية، واكتفى بتعيين وكيل في بومباي للنظر في حاجات الكويتيين المسافرين هناك⁽¹⁷⁾. وفي عام 1903، زار الكويت اللورد (كيرزون) حاكم الهند، ونتيجة لهذه الزيارة أنشأ مركز المقيم

(14) خلدون النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1987)، ص 96.

(15) عبد العزيز حسين، المجتمع العربي في الكويت، (القاهرة: معهد الدراسات العربية العليا، 1960)، ص 29-30.

(16) انظر:

Richard Coke، The Arab's Place in The Sun، P. 184

(17) حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، الجزء الثاني، ص 297.

البريطاني ، رغم اعتراضات الحكومة العثمانية ، وقد سجلت هذه الزيارة تعزيز التأثير البريطاني في الكويت⁽¹⁸⁾ ، وأصبح الخليج ما بين 1900-1906 سوقاً رائجة لبضاعة الأسلحة المهربة إلى الهند وفارس وأفغانستان ، وتمكن الإنجليز الذين كانوا يرون في تسليح القبائل في هذه الأقاليم سبيلاً إلى عصيانها ضد حكامهم ، من إقناع الحاكم لفرض حظر على تجارة السلاح في الكويت .

وتمكنت الدولة البريطانية والإمبراطورية العثمانية من حسم خلافاتها حول موضوع الكويت في معاهدة 1913 ، لكن وقوع الحرب العالمية الأولى منع من المصادقة على هذه الاتفاقية ، وقد جعلت الاتفاقية من بريطانيا مسئولة عن الدفاع والعلاقات الخارجية للكويت . ولكن على الرغم من اتفاقية 1899 ، حاولت روسيا من خلال زيارات ممثليها وسفنها البحرية إغواء الشيخ مبارك للابتعاد عن بريطانيا ، ولكن دون نتيجة ملموسة⁽¹⁹⁾ . ووضعت بريطانيا قواتها في الكويت خلال الحرب العالمية الأولى لفرض حصار على مناطق الدولة العثمانية هناك وارتبطت منذ تلك الحقبة بإطار المفهوم الشامل لمصالح بريطانيا الأمنية الخاصة⁽²⁰⁾ .

وعلى الرغم من حرية ومرونة السلطات الكويتية في إدارة شئون البلاد فإن النصائح والتأثيرات البريطانية كانت بارزة ومهمة للسلطة السياسية عندما حاولت مجموعة من التجار والوطنيين المطالبة بمشاركة آل الصباح السلطة . فخلال العشرينيات والثلاثينيات

(18) راسم رشدي، الكويت وكويتون: دراسات في ماضي الكويت وحاضرها (بيروت: مطبعة الرحمانية اللبنانية، 1955)، ص 258.

Harold R. P. Dickson, Kuwait and Her Neighbours (London: George Allen and Unwin Ltd., 1956), P. 140.

(19) للاطلاع على عملية حظر استيراد السلاح انظر : نجاة عبد القادر القناعي "حظر تجارة السلاح في الكويت والخليج العربي، 1900-1906" البيان (سبتمبر 1983)، ص 34-59، وللمحاولات الروسية انظر بدر الدين الخصوصي "النشاط الروسي في الخليج العربي 1897-1907" مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية (أبريل 1979)، ص 113-130.

(20) لمزيد من المعلومات انظر:

Richard H. Sanger, The Arabian Peninsula (Ithaca, N. Y. Cornell University Press, 1954), P. 151.

من القرن العشرين حاولت جماعة من الكويتيين المطالبة بإنشاء مجلس منتخب تحت دعوى خلق نظام حكومي "تمثيلي"، لكن الدعوى في جوهرها كانت لتقليص حجم العلاقة بين الحاكم وبريطانيا، لذا تخوف الإنجليز من التأثيرات الخارجية للحركة، وقرروا إيجاد حل مريح وعملي لجميع الأطراف، قبلما يستغل جيران الكويت الموضوع. وقد قيل إن بريطانيا طالبت الحاكم باتباع أحد المسلكين، إما تغيير علاقة الحماية إلى حكم غير مباشر كما هو الحال في البحرين، أو إلى الحكم المباشر البريطاني مثلما كان الوضع في عدن، لكن الحاكم امتنع عن الأخذ بأي من الاقتراحين، وبدلاً من ذلك أجرى انتخاب مجلس تشريعي في عام 1918، بيد أن المجلس فشل في تحقيق أهدافه وأجهضت التجربة خلال فترة قصيرة⁽²¹⁾. وأصبحت الكويت مركزاً للسياسة الإقليمية في نوفمبر 1923، إذ رتبته بريطانيا مؤتمراً بين مندوبي ابن سعود وشرفاء الحجاز والأردن والعراق لإيجاد حل دائم ومستقر للأوضاع في الجزيرة العربية عن طريق رسم حدود دائمة بين هذه الدوليات، خاصة أن نجد كانت دائمة الاعتداء على هذه الأقطار⁽²²⁾.

ولقد تذبذبت علاقات الكويت مع جيرانها بين اللامبالاة والحياد والصدقة والخصومة، فقد حاولت قبائل نجد (الوهابيون والإخوان) التأثير على الكويت، وفي عدة مناسبات قاموا باقتحام الكويت نفسها. كما أن الكويت قد عانت من الحظر التجاري الذي فرضه ابن سعود في الفترة 1928-1937 بسبب رفض الكويت طلب ابن سعود لجمع الضرائب ورسوم التراخيص على البضائع المصدرة إلى نجد. وفي العشرينيات حاولت القبائل النجدية احتلال الكويت لكنها فشلت في مسعاها إذ أثر وجود السفن الحربية البريطانية في المنطقة على المهاجمين (الدويز) فاضطروا للانسحاب من الأراضي الكويتية.

(21) خالد سليمان العدساني، نصف عام للحكم النيابي في الكويت (بيروت: مطبعة الكاشف، 1947)، ص 6، لتطورات المجلس انظر:

Jacqueline S. Ismael, Kuwait: Social Change in Historical Perspective (Syracuse: Syracuse University Press, 1982), PP. 71-77 and 83-86.

(22) انظر:

Richard Coke, The Arab's Place in the Sun, PP. 254-255.

وفي ديسمبر 1942 تم التوصل لاتفاقية العقير الحدودية بين نجد والعراق والكويت التي مثلت في المؤتمر بمندوب إنجليزي (ميجور مور). وقد جاءت نتيجة المؤتمر مخيبة لآمال الكويتيين ومصالحهم ، واحتج الشيخ أحمد الجابر على الاتفاقية ، ولكن مندوب الحكومة البريطانية في المؤتمر (السير بيرسي كوكس) ، برر تخليه عن الحقوق الكويتية بالادعاء بأن "السيف كان أقوى من القلم" فإذا لم تتنازل الكويت عن تلك الأراضي فإن ذلك سيخلف نزاعاً إقليمياً قد يؤدي إلى خسارة المزيد من الأراضي الكويتية بالقوة⁽²³⁾. ولقد اعتبرت هذه الاتفاقية رمزاً لوجود الدولة القومية في الجزيرة العربية ، ورسمت حدوداً جديدة ارتبطت بمبدأ السيادة⁽²⁴⁾.

أما العلاقات الكويتية- العراقية فقد اتصفت بالتقارب والبراجماتيكية ، وكان موقف الشيخ مبارك الصباح المؤيد لبريطانيا سبباً في تدهور سريع لها . وقد أيدت العراق الفئات الوطنية داخل البلاد التي حاولت بعد الحرب العالمية الأولى تقليص النفوذ البريطاني في الكويت ، وأيد الملك غازي ملك العراق مطالب الحركة الوطنية ، وبثت إذاعة قصر الزهور والصحافة العراقية رسائل وأخباراً وطنية دعائية داخل الكويت⁽²⁵⁾ في سعيه لإنشاء دولة الهلال الخصيب الحدودية . ولقد استمرت هذه الروح الاستفزازية للعراق ضد الكويت حتى الخمسينيات حيث اتهمت العراق الكويت بأنها مصدر تهريب السلاح

(23) للاطلاع على علاقات الكويت مع جيرانها انظر:

Harold R. P. Dickson, Kuwait and Her Neighbours, PP. 256 and 274-279.

Rosemarie Said Zahlan, The Making of Modern Gulf States, PP. 80-120.

وللاطلاع على تأثيرات الكويت على ابن سعود أثناء لجوئه إلى الكويت انظر:

Jacob Goldberg, The Foreign Policy of Saudi Arabia. The Formative Years, 1902-1918 (Cambridge and London: Harvard University Press, 1986), PP. 3-4, 31 and 35.

(24) خلدون حسن النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، ص 112.

(25) خالد سليمان العدساني، نصف عام للحكم النيابي في الكويت، ص 7.

*Majid Khadduri, Independent Iraq 1932-1958 2nd ed. (London: Oxford University Press, 1960), P. 141; and India Office and Library Records (IOR) London File R/15L5L226, a confidential Letter No. D.O.C. 250, From the Political Agent in Kuwait to the Political Resident in Bushire, on August 8, 1935, and a Confidential report no. C/104, March 13, 1939.

ومواد ممنوعة أخرى ، وفي الثلاثينيات والأربعينيات عبرت الحكومة العراقية عن رغبتها في تعيين قنصل لها في الكويت ، ولكن عندما قررت الحكومة أن عدد العراقيين لا يتجاوز 30 فردًا في الثلاثينيات ، رفضت لندن الطلب العراقي⁽²⁶⁾ .

وأما من ناحية إيران ، فإن مصالح واهتمامات الكويت كانت منصبة نحو الأقاليم الجنوبية التي كانت إما تحت الحكم البريطاني أو تحت إدارة الشيخ خزعل حاكم المحمرة ، ولقد حافظ حكام الكويت والشيخ خزعل على علاقات ودية وحارة . ولكن الحكومة الكويتية كانت لا ترغب في التورط في سياسة إيران الداخلية . لذلك عندما أُلقي القبض على الشيخ خزعل في العشرينيات من هذا القرن اقتيد إلى الكويتيين . وترجمت هذه السياسة إلى رغبة الكويت في عدم مضايقة وإثارة غضب الحكومة المركزية في إيران . وكذلك نتيجة للرغبات البريطانية⁽²⁷⁾ ففي نفس هذا القرن ، اقترحت إيران تعيين وكيل فخري "لإصدار الجوازات للمواطنين الفرس في الكويت" ولكن بريطانيا رفضت الطلب الإيراني على أساس أنه "مخالف لاتفاقية الحماية على الكويت 1899 ، وأنه سيخلق سابقة للقوى الأخرى"⁽²⁸⁾ .

ومع اكتشاف البترول في المنطقة في أواسط القرن العشرين ، أبدت الولايات المتحدة الأمريكية اهتمامًا أكبر بالكويت ، وكانت بداية الارتباطات بين الطرفين تحت مظلة القنوات الإنسانية . ففي 1918 افتتحت الإرسالية الأمريكية مستشفى لعب دورًا هامًا في

(26) انظر:

India Office and Library Records, London, File R/15/5/226, on August 8, 1935; File 15/5/228, a restricted letter from the Gulf Residency in Bahrain (149/39/49), and a Confidential Letter From the British Embassy in Baghdad (# 852/2/49), on July 18, 1949, May 16, 1949 and March 26, 1930; and File 15/5/226, a telegram From the Political Resident in Bushire to the Government of India.

(27) حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، الجزء الخامس (بيروت: دار الكتاب (1970)، ص 224-270.

Rouhollah K. Ramazani, The Foreign Policy of Iran: A Development Nation in World Affairs, 1500-1941, (Charlottesville: University Press of Virginia, 1966). PP. 197-203.

(28) انظر:

India Office Library and Records, File R/15/5/126, telegram from the Political Resident in Bushire to the Government of India, New Delhi, No. 155, on February 14, 1930.

التطور الصحي والاجتماعي في الكويت حتى الستينيات . وفي الثلاثينيات توسعت حلقة المصالح الأمريكية لتشمل قطاع النفط . وكان الشيخ مبارك قد وافق في عام 1914 على عدم منح امتيازات لأية أطراف بدون موافقة لندن . "إذا كان في رأيهم (بريطانيا) أي أمل للحصول على النفط ، فنحن لم نمح امتيازاً بهذا الخصوص إلا للأفراد المعينين من طرف الحكومة البريطانية" .⁽²⁹⁾ وفي إطار تسوية وسط بين المصالح الحكومية والبريطانية تكونت شركة مشتركة هي شركة نفط الكويت (KOC) لاستكشاف النفط في الكويت ، وفي الأربعينيات ومع تطور الوجود الأمريكي في شركة النفط والمصالح الأخرى ، طلبت واشنطن إنشاء قنصلية أمريكية في الكويت . ورفضت لندن هذا الطلب على أساس خلافات سابقة ، وبأن الشيخ "يحاول السعي للعبة ضرب المصالح الكويتية والبريطانية . ضد بعضها البعض مما قد يضعف تأثيراتنا عليه"⁽³⁰⁾ .

وأما أهمية الكويت للاقتصاد الرأسمالي الغربي فقد أصبحت تتضاعف ، وحذرت وثيقة سرية بريطانية في الخمسينيات من أن "أهمية الكويت لنا وللعالم الغربي تزيد بكثير على أية ميزة مؤقتة قد نجنيها من العراقيين أو الفرس إذا ضعفنا أو تنازلنا عن مكانتنا

(29) انظر :

Mohammad Khalil, The Arab States and the Arab League: A Documentary Record, Vol. 2. International Affairs (Beirut: Khayats, 1962), PP. 668-669.

للاطلاع على دور الإرسالية الأمريكية انظر :

K.S. Twitchell, Saudi Arabia, 3rd ed. (Princeton: Princeton University Press, 1958), P. 161, Cordell Hull, The Memories of Cordell Hull, Vol. 2 (N. Y.: The Calverly, My Arabian Days and Nights (N.Y.: Thomas W. Crowell Co., 1958), and Joseph J. Malone, "America and the Arabian Peninsula: The First Two Hundred Years" The Middle East Journal, Vol. 30, No. 3 (Summer 1976), PP. 406-424. .

(30) انظر :

Archibald H. T. Chisholm, The First Kuwait Oil Concession Agreement; A Record of the Negotiations 1911-1934 (London: Frank Cass, 1975), PP. 130-131; and Richard H. Sanger, The Arabian peninsula, PP. 164-166.

للاطلاع على المطالب الأمريكية انظر :

India Office Library and Records, File 15/5/317, a Telegram From London to Political Agent in Kuwait on March .27, 1948 (The American Community was estimated at 2000 persons); and File 15/15/317, telegram no. 258, from the Political Agent in Kuwait on March 30, 1948 (Which estimates the American Community in Kuwait of only 200).

الخاصة هنا (في الكويت)" (31). وحقيقة الأمر أن احتياجات وإنتاج النفط الكويتي أصبحت مهمة لازدهار الاقتصاد الغربي .

ومع توجه النزعة السياسية في العالم الثالث نحو الاستقلال والاعتماد على الذات مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، منحت الكويت هامشاً من الحرية في إدارة سياستها الخارجية ، وهناك العديد من الأدلة التي تبرهن على أن الكويت كانت في الحقيقة "مستقلة" قبل الإعلان الرسمي . ومن ذلك أن الكويت والسعودية وقَّعتا معاهدة دفاع مشترك في يوليو 1947 ، وقد حدث ذلك بالطبع بعد الموافقة البريطانية . وشاركت الكويت في اللقاءات الاقتصادية والاجتماعية للجامعة العربية منذ بداية 1952 (32) . وانضمت الكويت لعضوية العديد من المنظمات الدولية المتخصصة مثل منظمة العمل الدولية (ILO) واليونسكو . وفي عام 1960 أصبحت عضواً مؤسساً في منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) . وأصدرت عملتها الوطنية (الدينار) في أبريل عام 1960 . وأبرزت رسالة سرية بريطانية في عام 1957 أن على الكويت أن تتعامل بنفسها مع جيرانها بخصوص حدودها ومواضيع أخرى متداخلة مرتبطة بها . وأراد الإنجليز "جعل الكويت تتحمل مسؤوليتها في التعامل مع جيرانها" (33) . وحسب التعهد والالتزام البريطاني في عام 1914 ، أظهرت الحكومة البريطانية أنها تتقبل وتعترف بأن "مشيخة الكويت حكومة مستقلة تحت الحماية البريطانية" (34) .

(31) انظر :

Public Record Office (Kew, England) File 3/18/88, Fo.O. 371/126/905, a Confidential Letter From the Political Agency in Kuwait to the British Residency in Bahrain, On November 14, 1957 (# EA 102212).

(32) سيد نوفل ، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة . (القاهرة : دار المعرفة ، 1960) ، ص 215-220 .

(33) انظر :

Public Record Office, File 3/18/88, 33 F.O. 371/126905, a confidential letter from the British Residency in Bahrain to the Foreign Office on December 3, 1957 (EA # 1022/2).

(34) انظر :

Jacob C. Hurewitz, The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record Vol. 2, British French Supremacy, 1914-1945 (New Haven and London: Yale University Press, 1979). PP. 6-7.

وفي 19/6/1961 اتفقت الكويت وبريطانيا على إنهاء اتفاقية الحماية لعام 1899 ووضع اتفاقية صداقة بدلا منها ، ومن أجل إعداد الكويت لأية حوادث غير متوقعة وقع الطرفان اتفاقية صداقة جاء فيها : " ستقوم الحكومتان عند اللزوم بالتشاور في الأمور التي تهم الطرفين ، ولا يوجد من سبب في هذه الاتفاقية يؤثر في استعداد الحكومة البريطانية لمساعدة حكومة الكويت إذا طلبت الأخيرة مثل هذه المساعدة"⁽³⁵⁾.

وبينما كانت الكويت تحتفل بالأسبوع الأول من الاستقلال ، أعلنت العراق ، وسط دهشة جميع الأطراف ، عن نواياها لضم الكويت إليها على الأساس التاريخي (بأن الكويت كانت جزءاً من العراق تحت حكم الإمبراطورية العثمانية) . وبفضل القوات البريطانية وقوات الجامعة العربية تمكنت الكويت من إحباط هذه التهديدات .

وفي تلك الأثناء تبنت الكويت نموذجاً جديداً لهيكل الدولة الداخلي أضاف التأييد والشرعية لنظامها السياسي "المحاصر" ولأسباب عديدة من بينها التهديد العراقي وافق الشيخ عبد الله الصباح على التنازل عن بعض قوة ونفوذ وصلاحيات الأسرة الحاكمة للشعب عن طريق السماح للمواطنين بالمشاركة مع الأسرة الحاكمة في عملية صنع القرار السياسي . وانتخب مجلس تأسيسي مؤقت في 31/12/1961 وأعلن دستور دائم للبلاد يتألف من 183 مادة في 11/11/1962 ونتيجة له انتخب برلمان وطني (مجلس الأمة) مؤلف من 50 عضواً في عام 1963 لمدة 4 سنوات . ومنح المجلس التأييد وأحياناً المعارضة لسياسة الكويت الداخلية وعلى مستوى أقل لسياستها الخارجية ، وليس من عجب أن تظهر الكويت على أنها الدولة الإقليمية الوحيدة ذات النظام والقواعد القانونية الحديثة⁽³⁶⁾.

(35) انظر:

Husain M. Al-Baharna, The Legal Status of the Arabian Gulf States: A Study of Their Treaty Relations and their International Problems (Manchester University Press, 1968), P. 322.

(36) انظر:

Lawrence Zirig, The Middle East Political Dictionary (Santa Barbara, CA and Oxford: ABC-CLIO Information Services, 1984), PP. 125, 94; and Alan Rush, Al-Sabah: History and Genealogy of Kuwait's Ruling Family 1752-1987 (London and Atlantic Highlands: Ithaca Press 1987), PP. 1-10.

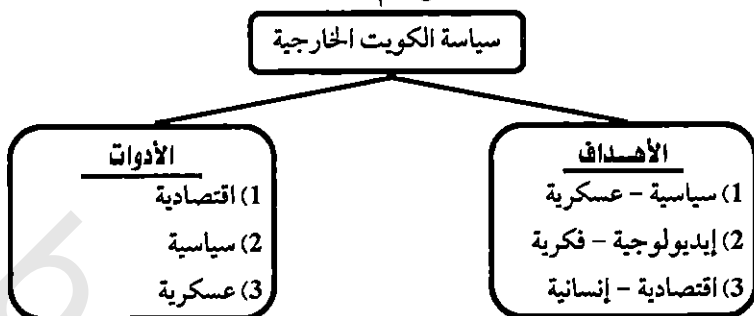
ويمكننا القول عمومًا إن الأسر الحاكمة في الجزيرة العربية كانت على استعداد للاعتراف بأن استقرارها ومستقبلها مرهون باستعدادها للتكيف مع الظروف المستجدة وكذلك الاستجابة لمطالب الشباب والجاهير الواعية سياسيًا، وإجمالاً فإن أسرة الصباح يعترف لها من قبل المراقبين "بأنها كانت أكثر الأسر الحاكمة تفتحًا في شبه الجزيرة العربية"⁽³⁷⁾.

أهداف السياسة الخارجية :

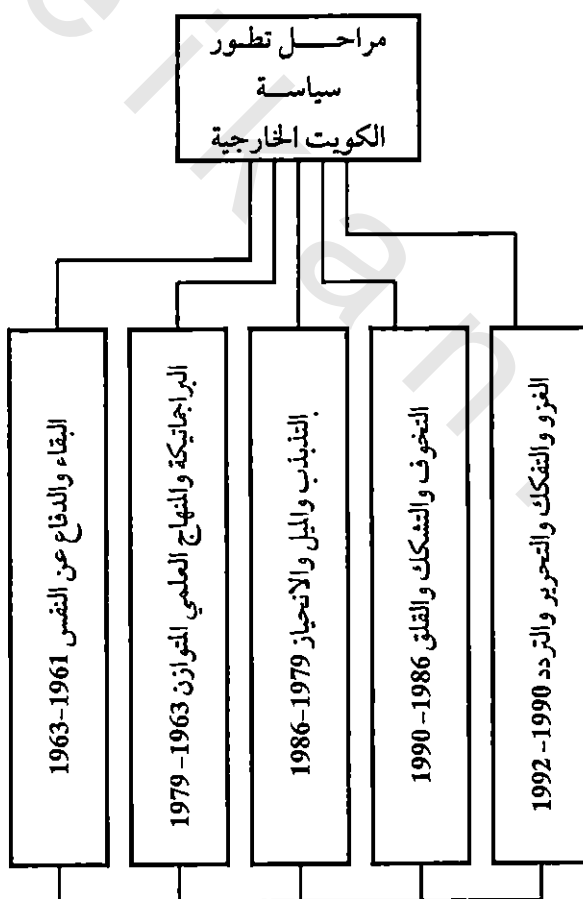
مع تنوع وتوسع منظور المصالح الوطنية ومشاركة الكويت الخارجية، تنوعت أيضًا الأهداف التي توظف كقوة دافعة للسياسة الخارجية، وبداى ذي بدء فإن أمن الكويت واستقرار نظامها الوراثي يعتبران في مقدمة اهتمامات الكويتيين منذ ولادة الدولة في منتصف القرن الثامن عشر، ويوضح الشكل (1-1) أهداف سياسة الكويت الخارجية وهي سياسة-عسكرية، وإيديولوجية-فكرية، وإنسانية-اقتصادية، وأدوات تحقيقها. بينما يقسم الشكل (1-2) الفترات الزمنية لتطور سياسة الكويت الدولية منذ استقلال الدولة في عام 1961. . وقد بلغ هذا الاهتمام قمته عندما حصل الشيخ مبارك الصباح على الحماية البريطانية لكي يحمي سلطته ضد إخوانه، ولكي يحافظ أيضًا على كيان الدولة ضد المخاوف والتهديدات الخارجية، على أن تحالف الكويت مع بريطانيا كان في الحقيقة تصرفًا عقلانيًا لأن بريطانيا كانت قوة معروفة وموثوقًا بها في الخليج. أما خلال فترة الاستقلال فقد حتم أمن الكويت على الدولة أن تكون بعيدة عن التنافس الإقليمي والعربي والاهتمام بإقامة علاقات صداقة مع العديد من دول العالم بقدر المستطاع، بغض النظر عن توجهاتها السياسية. وكانت الإستراتيجية الكويتية مبنية على أن المزيد من الأصدقاء يعني المزيد من النفوذ، والمزيد من النفوذ يوفر أفضل رادع؛ لأن هدف الدولة السياسي والعسكري هو المحافظة على الذات الكويتية والوضع القائم وضمان الاستقرار والأمن العسكري الداخلي والخارجي. من ناحية ثانية استطاعت الكويت أن تجنب بعض الشمار من توجهاتها الإيديولوجية الفكرية كدولة عربية مسلمة، لكن الميول الإسلامية في رسم السياسة الخارجية شكلت محورًا هامشيًا حتى نهاية الستينيات.

(37) انظر:

شكل رقم (1-1)



شكل رقم (2-1)



وكانت رابطة القومية العربية المتزايدة قبل الاستقلال في الكويت أكثر منها في العراق ولبنان⁽³⁸⁾. وعلاوة على ذلك، ذكر تقرير بريطاني سري في عام 1956 أن الكويتيين كانوا حازمين جدا في التنديد بموقف بريطانيا في قضية قناة السويس، وتخوفت السلطات البريطانية عام 1957 من أن زيادة الفلسطينيين في الوظائف والمواقع الحكومية في الكويت قد يؤثر على سياسات الحكومة الكويتية⁽³⁹⁾. وقد أشيع في نهاية الخمسينيات أن الكويت قد تنضم إلى الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) بعد اجتماع في دمشق بين الرئيس جمال عبد الناصر وحاكم الكويت والرئيس العراقي الجديد، وكان لهذه الشائعات تأثير كبير على سوق النفط العالمية وكذلك على سوق الأوراق المالية في لندن. وفي فترة سابقة حاول نوري السعيد، رئيس الوزراء العراقي، دون نجاح، إقناع حاكم الكويت بالانضمام إلى الاتحاد الهاشمي بين العراق والأردن، من أجل المشاركة في الأعباء المالية للكيان الجديد، من بين أمور أخرى.

ولكن بعد الزيارات التي قام بها حاكم الكويت لكل من بغداد وأنقرة وطهران، أكد الحاكم مرة أخرى قراره بعدم الانضمام إلى أي من حلف بغداد أو الاتحاد الهاشمي⁽⁴⁰⁾. وتعتبر المشاعر القومية العربية ظاهرة متأصلة راسخة في الكويتيين. ففي العشرينيات والثلاثينيات طالبت جماعة من النخبة الواعية بإنشاء مجلس منتخب، وكان الهدف

(38) انظر:

Public Record Office, File 3/18/88, F.O.371/126899, a Strictly Confidential report from the Political Agency in Kuwait on January 9, 1957 (EA # 1018/1), for a review of Nasser's influence and support in Kuwait see Michael Adams, "Is Kuwait Next on Nasser's Timetable?" The Reporter: The Magazine of Facts and Ideas. Vol. 19, no. 2 (September 4, 1958), PP. 27-28.

(39) انظر:

Public Record Office, File 3/18/88, F.O.371/126899, a Strictly Confidential Report on January 25, 1957 (EA#1081/5) and a confidential Political Agency Report May 2, 1957 (EA # 1018/9).

(40) انظر:

Coventry Evening Telegraph (July 23, 1958), P. 2; Western Mail (Cardiff), (July 23, 1958), P. 3;

الأهرام (7/7/1958) ص 5.

للاطلاع على تأثيرات نوري السعيد على الكويت انظر:

Michael Ionides, "Iraq: The End of an Era," The Reporter: The Magazine of Facts and Ideas, Vol. 19, No. 1 (August 7, 1958), PP. 14-15.

الحقيقي لتلك الحركة هو إضعاف مكانة العائلة الحاكمة والمشاركة السياسية وتوثيق أطر العلاقات مع الدول العربية وخاصة زيادة الارتباط مع العراق وتقليص العلاقات الكويتية - البريطانية⁽⁴¹⁾.

ويبرز تأثير القومية العربية والدين الإسلامي بشكل كبير في مواد دستور البلاد، إذ حددت المادة الأولى من الدستور أن "الكويت دولة عربية" وشعب الكويت "جزء من الأمة العربية". وذكرت المادة الثانية من الدستور أن "دين الدولة الإسلام . . والشرعية الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع".

ولا يتجسد تأثير القومية العربية في السكان الأصليين فحسب ، ولكنه يتجلى أيضًا في العرب غير الكويتيين وأصحاب الاتجاهات والخلفيات المتعددة . فالفئات العربية لها تأثير واضح في مجال الصحافة والتعليم والمؤسسات التوظيفية ومجلس الأمة . وتلعب التركيبة السكانية الاثنية دورًا لا يمكن للسلطة السياسية تجاهله وهو يؤثر بلا شك على تصرفاتها بشكل واضح . ويشكل الفلسطينيون حتى صيف 1990 الفئات الأكثر تأثيرًا في الكويت نظرًا لطول إقامتهم في البلاد وأعدادهم الهائلة وتغلغلهم تقريبًا في معظم مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولفهم هذه الظاهرة لابد للمرء من إدراك أن الكويتيين يشكلون حوالي 26.8٪ (تقريبًا 572.376 شخص من إجمالي 2.135.767 وفقًا لتقديرات عام 1990) وقدر عدد سكان الكويت في ديسمبر 1992 بـ (1.300.000) شخص يشكل الكويتيون ما بين 45٪ إلى 50٪ ، حيث وصلت النسبة السابقة إلى 40.1٪ في عام 1985 وكانت 47٪ في عام 1975 ، في حين أن غير الكويتيين يشكلون حوالي 73٪ من إجمالي السكان في عام 1990 وكانت نسبتهم 59.9٪ في عام

(41) انظر:

India Office and Library Records، File R 15/51/226. A Confidential Report (C. 104) on March 13، 1939، From the Political Agent in Kuwait to the Political Resident in Bushire.

للاطلاع على تأثيرات القوميين العرب على سياسة الكويت المعاصرة انظر: الطليعة في معركة الديمقراطية (الكويت: كاظمة، 1984)، ص 1-50.

And Riad E. El-Rayyes، "Arab Nationalism and the Gulf"، in B.R. Pridham، ed. The Arab Gulf and the Arab World (London: Croom Helm، 1988)، PP. 67-94.

1985 ، أما في عام 1975 فقد بلغت نسبتهم 42.2%⁽⁴²⁾ ، ويشكل الفلسطينيون حتى صيف 1990 من بين مجموع الفئات العربية أكثر من النصف (300.000 في عام 1978) وكان عددهم في عام 1975 (204.178) وفي عام 1985 أصبح 350.000 وقدرت الإحصائيات عددهم بحوالي 400.000 عند نهاية 1988⁽⁴³⁾ . لذا أصبحت فلسطين ليس فقط قضية محلية مهمة ولكنها غدت محوراً رئيسياً لسياسة الكويت الخارجية . لذلك أصبح للفلسطينيين "بطاقة جاهزة للمشاركة في السياسة المحلية والرأي العام المحلي"⁽⁴⁴⁾ . وكان الاهتمام الكويتي بخصوص القضية الفلسطينية كمحور للسياسة العربية واضحاً في البيان الرسمي الأول أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فقد صرح الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية بعد دخول الكويت في الهيئة الدولية في عام 1963 :

بأن الكويت ترفع صوتها . . . ضد العهد الحزين والظلم الجائر الذي يعيش تحته الشعب الفلسطيني . . . مجرد الفترة الزمنية لا تجرد الشعب الفلسطيني من حقوقه الشرعية في العودة المشروعة لأرض هي ملك لهم . . . الأمر الواقع لا يمكن أن يكون قاعدة ثابتة للسلام . . . العدالة والاتجاه الإنساني نحو كارثة فلسطين يشكلان العلاج الوحيد"⁽⁴⁵⁾ .

(42) وزارة التخطيط، المجموعة الإحصائية السنوية، 1988 (الكويت: الإدارة المركزية للإحصاء، 1988)، والقبس (18/10/1992)، ص 7.

(43) الطلاب المسلمين من خط الخميني، دخالتهم أمريكا دركشور هاي إسلامي كويت (طهران: وزارت إرشاد إسلامي).

Shafeeq N. Ghabra, *Palestinians in Kuwait: The Family and the Politics of Survival* (Boulder and London West View Press, 1987), P. 9.

وللاطلاع على تحديات غير المواطنين انظر:

J.C. Birks, "The Demographic Challenge in the Arab Gulf," in B. R. Pridham, ed. *The Arab Gulf and the Arab World*, PP. 131-152.

(44) انظر:

Sir Anthony Parson, "The Gulf States in the Eighties", *The Arab Gulf Journal*, Vol. 6, No. 1, (April 1986), P. 12.

(45) انظر:

United Nations, *Official Records General Assembly*, N. Y. 18th Session (September 17-October 14, 1963). P. 1

ولقد انعكس تركيز الكويت على الوحدة العربية والتآلف القومي ضد التهديدات الخارجية في تصريح وزير الخارجية بأن "التضامن العربي هو الوسيلة الوحيدة لجعل الآخرين يحترمون العرب". أما بعد الغزو العراقي للكويت في عام 1990 فقد هيمنت الجنسية المصرية على غير الكويتيين ووصلت إلى حوالي (137) ألف نسمة، أما الجالية الثانية غير العربية فكانت الهندية التي بلغ عددها حوالي (104) ألف نسمة⁽⁴⁶⁾.

أما فيما يتعلق بالجانب الديني فعلى الرغم من كون الإسلام دين الدولة الرسمي، إلا أن صناع القرار السياسي الكويتي يتبعون منهجاً علمانياً في سياستهم الخارجية. وفي الحقيقة فإن التشريع الكويتي ليس مبنياً فقط على أسس إسلامية ولكن على خليط من القوانين السماوية والتقاليد الوضعية. بعبارة أخرى يحاول المسئولون في الكويت عدم مزج السياسة بالدين في توجهاتهم الخارجية، لكل التطورات وسياستها، فالحرب العربية الباردة في الستينيات وتركيز الملك فيصل على حركة المؤتمر الإسلامي وبسبب خسارة العرب لحرب 1967 مع إسرائيل وفشل حركة القومية العربية وحرقت المسجد الأقصى في القدس والقمة الإسلامية في المغرب، كل هذه الأمور أثرت بشكل واضح في نهاية الستينيات في تحديد أطر السياسة الخارجية الكويتية⁽⁴⁷⁾. فمثل هذه التطورات كانت واضحة في جدول مساعدات الكويت الخارجية، الذي كان في البداية مقصوراً على الدول العربية، بل إن الدول الإسلامية منحت امتيازات في الاقتراض أكثر من غيرها من الدول مما يعكس الهوية الإسلامية والمصالح الثقافية في الكويت. ويخدم هذا الاتجاه في تحييد الانتقادات من داخل المجتمع أو مجلس الأمة، وتعتبر المساعدات الخارجية للدول الإسلامية بمثابة إحياء لركن من أركان العقيدة السمحاء (الزكاة) وهي صدقة إحسان واجبة بما يقارب (2.5٪) من الأرباح السنوية، لسد حاجات المسلمين الفقراء⁽⁴⁸⁾.

(46) الوطن (13/ 1/ 1988)، ص 1، (7/ 12/ 1992)، ص 27.

(47) انظر:

Walid E. Mubarak, "The Kuwait Fund in the Context of Arab and Third World Politics," The Middle East Journal, Vol. 41, No. 4 (Autumn 1987), P. 542.

(48) انظر:

Aramco World Magazine, Vol. 30, No. 6 (November - December 1979) P. 3.

ففي فترة السبعينيات والثمانينيات أخذت المساعدات الكويتية المتجهة لخدمة الأهداف السياسية الإسلامية، تتساوى حصتها، إن لم تتجاوز الحصة المخصصة لخدمة أهدافها الأخرى. وأنشأت بنكاً إسلامياً خاصاً (بيت التمويل الكويتي) وبيتاً للزكاة، ودعت لإنشاء محكمة العدل الإسلامية، كما صرفت أكثر من 400 مليون دولار لإنشاء قصر للمؤتمرات بمساحة 99 هكتاراً لاستضافة مؤتمر القمة لرؤساء الدول الإسلامية في يناير 1987، بالإضافة إلى ذلك، أنشأت الكويت الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية التي قامت حتى عام 1987 بتمويل 59 مشروعاً في 13 دولة إسلامية بمبلغ يتجاوز 8 ملايين دولار⁽⁴⁹⁾.

وأخيراً فإن التغير المفاجئ الذي طرأ على البلاد والتحول غير المتوقع من الفقر إلى الغنى لمس الكويتيين ليلعبوا دوراً جديداً بمشاركة الآخرين وتوزيع حصاد ثروتهم على الأقل حظاً (الفقراء). ومع بداية التطور المالي في الكويت في الخمسينيات أحس صناع القرار السياسي بمسؤولية إنسانية لتوزيع ثروات النفط على إخوانهم في الخليج وجنوب الجزيرة العربية على أشكال خدمات تعليمية وطبية واجتماعية وغيرها من الخدمات الضرورية، إضافة للمهمة الاقتصادية، ولقد عبر وزير الخارجية الكويتي عن هذا الشعور بأن الواجب الأخلاقي يتطلب منا: أخوة "تقاسم قطعة (كسرة) الخبز"⁽⁵⁰⁾، ولقد أوضح مدير عام الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية بأنه "إذا اطلعتم على

(49) الوطن (10/1/1988)، ص 13، للاطلاع على دور بيت الزكاة.

انظر:

Kuwait Oil Company, The Kuwaiti digest, Vol. 16, No. 4 (October/December 1988), PP. 11-13. Kuwait Finance House was Listed as the Leading Arab Islamic Banking Institution in 1988 in Terms of assets, The Banker (December, 1988), P. 87. By the end of 1988 its assets were estimated at KD. 1200 Million (Some \$ 4.13 Billion).

الشرق الأوسط (3/5/1989)، ص 7.

(50) انظر:

Ministry of Guidance and Information, Kuwait Today: A Welfare State (Nairobi, Quality Publications Ltd, n.d.), P. 9.

تقاريرنا فسوف تجدون أننا ركزنا اهتمامنا على الدول الفقيرة والصغيرة . . " (51) ، ولقد قارن أحد المسؤولين في إحدى المؤسسات المالية العربية بين الأوضاع والظروف المعيشية في معظم دول العالم الثالث والدول العربية قبل النفط ، وأضاف أن دولا عديدة مثل الكويت كسبت قدراً من الاحترام في العالم بسبب كرمها . وبشكل عام ، تعتبر المساعدات الكويتية أثراً خالداً يدل على السخاء والكرم من ناحية ، وعلى الحكمة وبعد النظر من ناحية أخرى (52) .

وإجمالاً فإن الإحساس بالرسالة استمر في منظور السياسة الكويتية ولكنه بدأ يتأثر بالسياسة وأحياناً بدأت الأهداف السياسية والإنسانية توازي وتعادل بعضها البعض أو تتفاعل فيما بينها . وبالفعل نجحت الكويت في استخدام "دبلوماسية الدينار" ونعني بذلك نجاح قدرتها على استغلال مواردها المالية الفائضة لأهداف أمنية وسياسية للدولة . بمعنى آخر لكسب الأصدقاء وإعاقه الخصوم . وتوجهت المساعدات الكويتية للتنمية للمساهمة في الأمن والاستقرار والنمو الإقليمي (53) . بعبارة أخرى كانت المساعدات الكويتية الخارجية تستخدم أساساً إما "لردع خطر واضح ومحدد أو لتطوير الظروف الأمنية للدولة المانحة" (54) . وعلى الرغم من التطورات السياسية والأمنية في الثمانينيات فإن المسؤولين الكويتيين كانوا يترددون في الجهر بالبعد السياسي للمساعدات الخارجية . ولكن بعدما امتنعت نيكاراغوا وزيمبابوي في مجلس الأمن الدولي عن استنكار الهجوم الإيراني على الناقلات النفطية في الخليج ، طلب هؤلاء المسئولون جهراً مراجعة وتقييم هذه المساعدات على ضوء التطورات الجديدة وربط هذه القروض بمواقف الدول

(51) انظر :

Aramco World Magazine (November-December 1979)، P. 3.

(52) المصدر السابق،

Fakhri Shehab، "Kuwait: A Super-Affluent Society،" Foreign Affairs، Vol. 42، no 3 (April 1964)، P. 474.

(53) انظر :

Saud N. Al-Sabah، A Kuwait View of Middle Eastern and International Affairs: Addresses and Remarks by the Ambassador of the State of Kuwait to the United States of America (Washington، D.C.، N.P.: 1983)، P. 17.

(54) انظر :

Shireen Hunter، OPEC and the Third World: The Politics of Aid (Bloomington: Indiana University Press، 1984)، P. 55.

الأخرى تجاه الكويت . وقد ذكر أحد المسئولين الكويتيين أن "جميع دول العالم عندما تقوم بمنح المعونات والمساعدات أو تأخذ مواقف حيال القضايا المختلفة ، تجعل مصالحها القومية والخاصة هدفًا"⁽⁵⁵⁾ . لذا شكلت لجنة حكومية لمراجعة جميع طلبات القروض والمساعدات الأجنبية .

وإبرازًا للبعد الإنساني في سياسة المساعدات الكويتية ، فإن نسبة هذه المساعدات تفوق 3٪ من مجموع الدخل القومي متعديًا الكثير من نسب مساهمات الدول الصناعية الذي يقارب 39٪ من دخلها القومي سنويًا ويزيد على أربعة أمثال الحد الأدنى (70٪) المقترح من الأمم المتحدة . ووصلت مساعدات الكويت التنموية بين أعوام 1983 ، 1985 إلى (3.8٪) من مجموع الناتج القومي⁽⁵⁶⁾ .

ولقد تأثرت توجهات الاستثمار والسياسات الواقعية الناتجة عنها بالعقليات والرغبة التجارية المتأصلة في عقول كل من الحاكمين والمحكومين منذ عهد الغوص والسفر في الكويت . وانتشرت الاستثمارات الكويتية سواء منها الحكومية أو المشتركة إلى أرجاء المعمورة قاطبة . وأصبح من الصعوبة بمكان وضع حد فاصل بين الاستثمار الحكومي والخاص بسبب زيادة حجم الاستثمارات الكويتية ووجود حصة للحكومة في القطاع الخاص والمشارك . بالإضافة إلى ذلك فإن الأهداف الإنسانية والاقتصادية والسياسية أصبحت ضبابية متداخلة ، وعلى الرغم من أن السلوك الاستثماري الكويتي كان مدفوعًا بمعايير سياسية واقتصادية ، فإن العوامل الاقتصادية غالبًا ما فاقت العوامل السياسية⁽⁵⁷⁾ .

(55) الأنباء (5/6/1984)، ص 15، 20، والمجتمع (8/11/1988)، ص 12-13.

(56) انظر :

Aramco World Magazine (November-December 1979)، P. 2.

والرأي العام (2/2/1989)، ص 16، والوطن (16/9/1987)، ص 2، مساعدات الكويت كنسبة من الدخل القومي الكويتي تقلبت في الأعوام الماضية 1988 (4٪)، 1987 (1.23٪)، 1986 (2.91٪)، 1985 (3.17٪)، 1984 (3.85٪).

The Middle East Economic Survey (June 26، 1989)، P. 82.

(57) انظر :

Richard P. Mattione، OPEC: Investments and the International Financial System (Washington، D. C.: The Brookings Institution، 1985). P. 120.

ودون شك فإن ما دفع الكويتيين تاريخياً للاتجاه الخارجي والمشاركة ، كان الحاجة للهروب من الظروف العدائية والعدوانية التي وجد الكويتيون أنفسهم محكومين ومحاصرين بها ، وتحت التهديدات وبأسلوب فاق طاقة أهل البلاد . وفي فترة ما قبل اكتشاف النفط كانت التجارة والتبادل الثقافي مع المناطق النائية في شرق وجنوب آسيا وشرق أفريقيا وسيلة الاستمرار والتفاعل مع المجتمعات الأخرى ، لذلك أصبحت العقلية والنظرة الكويتية متصفة "بالانفتاح والتجدد والمرونة" ، وبشكل عام يميل المجتمع الكويتي "للتأثير والتأثر بالمجتمعات الأخرى وقواعدها المختلفة"⁽⁵⁸⁾ .

ولأن ظاهرة العمل التجاري كالغوص تتطلب العمل المشترك والروح الواحدة، فقد أصبح لدى الكويتيين الرغبة "لقبول كل ما هو جديد على أن يكون مقيداً . . . وغدت الواقعية صفة بارزة في تعاملهم مع الحياة"⁽⁵⁹⁾ .

ولقد قيل إن البيئة الجديدة في الكويت والتفاعل مع المجتمعات الأخرى ، خلقا إنساناً جديداً .. غير مرتبط بجذوره الأصلية ، إنساناً ذا جنس وخلق جديدين⁽⁶⁰⁾ .

وبغض النظر عن الدوافع والأهداف ، فالسياسة الكويتية الخارجية ليست فاعلة ، أو بتعبير آخر لا تتسم بالمبادرة أو المبادرة ، ولكنها عبارة عن ردود فعل تثار من أحداث ومؤثرات ومنبهات خارج حدود الدولة . وبما أن الكويت دولة صغيرة في الحجم وقليلة في السكان ومكشوفة ومستهدفة لأي هجوم ، فالأحداث التي تقع مباشرة في إطار محيطها يمكن أن يكون لها مفعول بعيد الأثر على سياستها ، بدرجة تفوق تأثير القوى والعوامل التي سبق ذكرها . لذلك نرى أن نسق ومجال التصرفات والتحركات لصناع القرار السياسي محدودة نسبياً . والتداخل والتفاعل بين التطورات الخارجية وأهداف السياسة الخارجية نسبياً لدرجة كبيرة ؛ لأن الكويت تحتاج أولاً لتلبية طموح وأهداف جيرانها المقربين وأن تتأقلم وتكيف دوافعها على هذا المنحى . وبالرغم من صغر الدولة فإنها

(58) عبد العزيز عبد الله الصرعاوي ، دراسات في الشؤون الاجتماعية والعمالية (الكويت: مطبعة الحكومة، 1965)، ص 35.

(59) عبد العزيز حسين، المجتمع العربي في الكويت، ص 80-81.

(60) مقابلة شخصية (الكويت 31/3/1988) .

تمتلك عوامل جذب عديدة منها الموقع الجيو استراتيجي ومصادر الطاقة الطبيعية وعوائد النفط العالية والاستثمارات الخارجية .

ويعتبر المجتمع الكويتي مجتمعاً مهاجراً بالدرجة الأولى ، وترجع جذور وخلفية أهل البلاد الأصليين إلى الجيران الثلاثة (إيران والعراق والسعودية) . وبما أن ظاهرة الولاء الوطني والشعور القومي جديداً على معظم دول وشعوب العالم الثالث ، فالأحداث والتطورات في حدود المحيط الكويتي تؤثر في عواطف المواطنين والتعاطف مع مجتمع أو دولة أخرى لها القدرة على استقطاب الكويت والتأثير على استقرارها السياسي .

ويمكننا القول منطقياً إن ما يعادل ربع أو ثلث السكان الكويتيين قد يرجعون ارتباطاتهم الإثنية أو القومية إلى إحدى الدول المجاورة . ولذلك قد تخلق مفاهيم الولاء الوطني مشاكل أمنية إذا لم تستطع السلطة السياسية أن تقوم بخلق وعي وطني غير مرتبط بالولاء البدائي الأصلي أو الإحساس الطائفي المتعصب ، ولكن بالرغم من الارتباط الاجتماعي والنفسي مع إحدى الدول المجاورة ، أثبتت أحداث وتحديات الثمانينيات والتسعينيات من هذا القرن ، الولاء السياسي والارتباط العضوي لكل الكويتيين دون استثناء مع النظام الكويتي وتربة الأرض الكويتية⁽⁶¹⁾ .

(61) تعداد الشيعة غير معروف والتقديرات تتفاوت من مصدر إلى آخر ، خالد العدساني ، نصف عام للحكم النيابي في الكويت ، يضع عددهم حوالي (50.000) أو حوالي نصف سكان الكويت في منتصف الثلاثينيات .

Alan Rush، Al-Sabah.

يقدر أعدادهم بحوالي (18.000) من أصل (65.000) في منتصف الثلاثينيات .

Harold R. P. Dickson، Kuwait and Her Neighbours،

يعتقد أن عددهم (30.00) من أصل (160.000) هم سكان الكويت مع بداية الخمسينيات ، ومع منتصف الثمانينيات وصلت تقديرات أعدادهم إلى (137.000) أو حوالي (24٪) من السكان المواطنين .

انظر :

James A. Bill، "Resurgent Islam in the Persian Gulf". Foreign Affairs (Fall 1984)، P. 120.

لذلك فليس من مصلحة الكويت أن يميل البندول السياسي لأي من جيرانها ضد الطرف الآخر ، وسياسة كهذه يمكن أن تسبب ردود فعل عنيفة بين شرائح المجتمع المختلفة . وقد تكون هذه الأفعال أبعد وأكثر من قدرات النظام السياسي في السيطرة عليها ، وربما تؤدي إلى فقدان بعض التأييد الداخلي الذي يحتاجه النظام السياسي من أجل سياسة خارجية ناجحة .

الخلاصة :

في خلال قرنين ونصف ، تحولت الكويت من إمارة هامشية ومجهولة محاطة بالنسيان إلى دولة مهمة نشيطة ومزدهرة . وأكثر الفترات اللافتة للنظر هي الأربعون سنة الماضية ، التي بدأت الكويت تأخذ فيها دوراً فعالاً متعددة قدراتها وطاقاتها الحقيقية . وربما لا يمت بصلة إلى تاريخها "الواقعي" . وهناك تطوران رئيسيان كان لهما بعد في تنمية وتطور سياسة الكويت الخارجية منذ تكوين الدولة وحتى عام الاستقلال في 1961 : معاهدة الحماية الكويتية- البريطانية لعام 1899 ، والثراء النفطي الذي بدأ في الخمسينيات والذي حول الكويت من إمارة صغيرة إلى دولة متعددة الأنشطة . وكان الدافع وراء معاهدة الشيخ مبارك الصباح مع بريطانيا هو المحافظة على الوضع الراهن لضمان توالي سلالة وذرية مبارك في الحكم ، علاوة على المحافظة على أمن الإمارة ضد التهديدات الخارجية ، وساعدت القدرات والقوة البريطانية الكويت على تحقيق هذه الأهداف بالرغم من أن نتيجة مباحثات العقير الحدودية في عام 1922 ، حرمت الكويت من الكثير من أراضيها . وبشكل عام فإن تاريخ الكويت يتصف بالتحول السلمي للسلطة وذلك باستثناء التغيير السياسي في عام 1896 .

ولقد كان لاكتشاف النفط في الكويت في الثلاثينيات وتصدير البترول تجارياً في الأربعينيات دوره البارز ليس فقط في تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين والوافدين إلى البلاد ، ولكن أصبحت الظروف والأمور أكثر تعقيداً والشعب الكويتي أكثر خبرة وحنكة ، وإن كان ذلك لا ينفي كونه "قدرياً" في كثير من الأحيان .

وفي هذه الفترات ، أصبحت أهداف الدولة الخارجية متعددة ومتداخلة . وعلى الرغم من أن أمن البلاد واستمرارية الأسرة الحاكمة في السلطة هما الهدفان الساميان ، فإن الإحساس القومي العربي والميول الإسلامية والعقلية التجارية طغت على صناعات القرار

السياسي وميزت تصرفات الكويت الخارجية . وحاولت بريطانيا الوفاء بعهداها لعام 1914 ، وأصبحت حمايتها للكويت "مرنة" بالفعل . وسواء تعلق الأمر بفقد بريطانيا السيطرة على أراضيها عبر البحار بعد الحرب العالمية الثانية ، أم بسبب رغبتها في الحصول على موطئ قدم ، أم ببساطة بهدف إعداد الكويت للحكم الذاتي ، فقد سمحت بريطانيا للكويت بهامش كبير من حرية الحركة والمرونة في ممارسة شئونها الخاصة .

وعلى أية حال ، بدأت الكويت تأخذ دورًا جديدًا في شئون العالم الخارجي يتعدى مساحتها وقدراتها . وبالمقارنة مع عهد مبارك الكبير ، الذي غيرت معاهدة الحماية من اهتمامه بالشئون الخارجية لدرجة ثانوية ، فقد أدى الثراء النفطي لجعل الشئون الخارجية أسلوبًا للحفاظ على بقاء الدولة ومنحت المشاركين في تسيير العلاقات الخارجية الراحة النفسية وقدرًا من الإعلام والشهرة . بالمقارنة بين عهد مبارك الصباح وفترة ما بعد اكتشاف النفط ، فقد تميز عهد مبارك بالعلاقة مع قوى عظمى واحدة ، بينما كان عهد النفط نقطة البداية لإنهاء هذه العلاقة "غير المطلقة" .

ولكن القاسم المشترك بين العهدين هو أهمية القوى الإقليمية في أذهان وسياسات الواقع لصناع القرارات في مجال السياسة الخارجية سواء أكانت قبائل أم دويلات أم قوى إقليمية . وأصبح التعامل مع القوى المجاورة معقدًا وحقيقة فاجعة في كلتا الحالتين ، وتميل الكويت إلى التعامل بانفعال وغضب ضد الضغوط والطلبات التي تأتي من حدودها المجاورة . والخيار الأخير والأفضل للكويت هو استغلال تناقضات جيرانها للتقليل من ضغوط هذه القوى عليها مدركة أن كل طرف قد لا يسمح للطرف الآخر بأن يمنح تأثيرًا أكبر ، وما الاعتداءات القبلية على الأراضي الكويتية عبر الزمن إلا تعزيزًا لعقدة الحصار لدى الكويتيين . وباختصار مثلما كان منظور المصالح وقوة السياسة الخارجية محدودًا قبل الخمسينيات كانت أهداف الدولة أيضًا محدودة . وعندما توسعت هذه المصالح توسعت حدود وكثافة منظور وأهداف السياسة الخارجية .

ولم يمس التغير فقط منظور وتوجهات سياسة الكويت الخارجية منذ نشأتها ولكن الشخصية الكويتية العامة واجهت تغييرات عديدة في المجالات الداخلية والخارجية . فقد شهدت الكويت عملية "تنميق" في المناحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية

والسياسية . وذكر باحث مراقب في الستينيات "في خلال أقل من عقدين تغير وجه الكويت بشكل يفوق التمييز"⁽⁶²⁾، ومثل هذه التغيرات وسعت في المقابل مصالح وأنشطة الكويت المختلفة ، وتعدى ذلك ليشمل تصرفات الكويت الخارجية .

ومع تدفق النفط ، دفعت الحكومة الكويتية للتعامل مع خليط دولي وحضاري سكاني أصبح فيه السكان الأصليون أقلية بشكل تدريجي كما ذكر سابقاً ، هذا الخليط بدأ في تغيير قيم الناس وتوقعاتهم العامة . وأصبح الممثلون السياسيون لا يقتصرون على السكان الأصليين ولكن تعداهم إلى غالبية متزايدة من المهاجرين، والذين لا يعرف بعد درجة تأثيرهم بالكامل على سياسة الكويت ، لكن لا يمكن بأي حال الاستهانة بمكانتهم ودورهم في الحياة السياسية. وأصبح التنافس والتوتر فيما بين الفئتين مبنياً على أسس اجتماعية وقيم اقتصادية ، وفي الوقت نفسه ، أصبحت عائدات النفط قوة دافعة بالإضافة إلى كونها أيضاً المهدى ضد الضغوط والمتطلبات الخارجية .

وبينما نظرت البيئة المجاورة للكويت على أنها يد العون ، بدأت الكويت بأخذ المبادرة بنجاح لإعادة توزيع ثروتها على الدول المجاورة ، وأصبحت طاقات الكويت المالية هدفاً ووسيلة في آن واحد ، واستخدمت الحاجة لتوزيع فائض النفط والاستثمار العالمي في وقت واحد كأداة غير مباشرة لسياستها الخارجية . فالكويت دولة صغيرة ، لديها عدد محدود من الوسائل لتحقيق أهدافها السياسية ، وهكذا أصبحت القنوات المالية وسيلة فعالة لتحقيق أهداف الدولة الخارجية .

موقف هتلر من يهود ألمانيا
1933 - 1938

د/ محمد عبد الوهاب سيد أحمد
آداب عين شمس

oboiikan.com

موقف هتلر من يهود ألمانيا

1938 - 1933

اكتسبت قضية العلاقات الألمانية اليهودية في ثلاثينيات القرن العشرين أهمية متنامية لما أحدثته من انعكاسات لازالت في بعض أوجهها تلعب دورًا فاعلاً على مسرح الأحداث الدولية . لذا فإن تناول تلك العلاقات التي اتسمت بالتعقيد والتداخل يهدف إلى السعي للإجابة عن مجموعة من الأسئلة الرئيسة التي تحيط بتلك العلاقات الألمانية اليهودية . ومن هنا تسعى هذه الدراسة للإجابة عن عدة تساؤلات منها : هل معاداة هتلر لليهود بدأت منذ توليه السلطة في عام 1933 أم أن لها جذورًا مرتبطة بتكوينه الشخصي وآرائه في الفترات السابقة ؟ وهل كانت سياساته تجاه اليهود ردود أفعال لمواقفهم ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية في ألمانيا أم أنها كانت مؤسسة على رغبته وفلسفته في جعل الجنس الآري هو المتحكم في الحياة السياسية ، وإبعاد اليهود عن تلك الساحة التي كانوا يؤثرون على مقاليدها بشكل أو بآخر ؟ وهل كان لعقيدته الكاثوليكية دور في موقفه وسياسته تجاه اليهود ؟ وهل كان يخطط لكي تقوم سياسته على التدرج في معالجة المسألة اليهودية أم أنها قد ارتبطت بتاريخ ألمانيا في هذا الوقت ؟ وهل التزم هتلر بجعل سياسته تنتقل من التلميح إلى التصريح في التعامل مع اليهود ؟ وهل حاول اليهود أن يلتفوا على سياسات هتلر أم أنه كان مصممًا على التشدد معهم ؟ كل هذه الأسئلة سوف نحاول الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة .

المسألة اليهودية في كتاب كفاحي لأدولف هتلر :

أشار هتلر في كتابه كفاحي⁽¹⁾ إلى أن أول لقاء تم بينه وبين أحد اليهود كان في مرحلة الصبا ، وكان وأصدقائه يأخذون جانباً كبيراً من الحيلة في التعامل مع ذلك الصبي اليهودي ، الذي لفت نظرهم قيامه ببعض التصرفات الغريبة بالنسبة لهم . ويرجع أن تلك التصرفات أو الأفعال كان لها صلة مباشرة بديانة الصبي اليهودية ، إلا أن ذلك الانطباع الأولي عن اليهود سرعان ما تحول إلى رأي مناهض لهم ، خاصة في الحوارات السياسية التي كان يشارك فيها وهو في الخامسة عشرة من عمره، إذ اعتبرهم : "أوريين من حيث المظهر الخارجي" فقط . ومع انتقال هتلر من مدينة "لينز" Linz إلى فيينا بدأ إحساسه العنصري ضد اليهود في الازدياد المطرد حاملاً معه انطباعاً قوياً بأهمية مواجهة ما أطلق عليه "القضية اليهودية" . على أنه تجدر الإشارة إلى أن هتلر لم يقصد بتلك المواجهة أية عمليات تتصل بالاعتداء البدني على هؤلاء اليهود ، حتى لقد اعتبر اللهجة التي تبنتها بعض الصحف المعادية للسامية تتنافى مع القيم الثقافية الأوربية الأصيلة⁽²⁾ .

على أن تلك الأفكار الأولية عن اليهود قد طرأ عليها تغيرات مختلفة بمرور الوقت ، إذ حسم الصراع الذي ظل يدور بداخله لمدة عامين بين "العقل والعاطفة" لصالح العقل . وقد جعل هذا التغليب للعقل والمنطق حدة الملاحظة البصرية والعقلية لديه تزداد بشكل عميق أثناء جولاته في شوارع مدينة فيينا ، طارحاً سؤالاً متكرراً على ذاته فحواه : هل اليهودي يعد ألمانياً حقيقياً أم لا ؟ ولم يجد هتلر مبتغاه إلا بالعودة إلى الكتب لتجيبه عن هذا التساؤل الهام . وقد أدت تلك القراءات إلى تعميق مفهوم الاختلاف بين اليهود والألمان ، ليس فقط على صعيد الديانة بل تعدى ذلك إلى قضية أكثر عمقاً واتساعاً بل

(1) Adolf Hitler, Mein Kampf (Hurst and Blackett Ltd., London : 1939)

اعتمدت الدراسة على النسخة الإنجليزية المترجمة من الألمانية والمنشورة على موقع Solargeneral.com على شبكة الإنترنت .

جدير بالذكر أن الترقيم الوارد في الدراسة هو الوارد في النسخة الرقمية للكتاب (PDF) ، كما اعتمدت على الوثائق الألمانية المترجمة إلى الإنجليزية والمنشورة على موقع :

Yad Vashem – The Holocaust Martyrs' and Heroes' Remembrance Authority
http://www1.yadvashem.org .

(2) Adolf Hitler , Mein Kampf , P . 27.

وجدلاً إذا شئنا الدقة وهي الاختلاف العرقي. وهكذا توطدت في عقلية هذا الشاب الألماني وبعجلة متسارعة فكرة التمييز حتى أنه بدأ يلاحظ اختلافات في المظهر الخارجي بين اليهود والألمان، أضف لذلك بعض التوجهات السياسية التي كان يتبناها اليهود والتي أدت بهتلر في نهاية المطاف إلى ترسيخ هذا المفهوم لديه، ويقصد بذلك على وجه التحديد (الحركة الصهيونية) التي كان قد بدأ يشتد عودها بشكل واسع في تلك الآونة في كل أوروبا، وكانت تدعو علانية إلى تأكيد الهوية اليهودية القومية. أما إذا ابتعدنا عن تلك الحركة فإن نشاطات اليهود في مناحي الحياة المختلفة قد لفتت نظر هتلر خاصة تلك المجالات المتعلقة بتكوين الرؤية الثقافية لشعوب القارة، ويقصد بذلك الصحافة والفنون والآداب، والتي لاحظ هتلر أن اليهود يتحكمون بها بشكل أو بآخر لفرض هيمنتهم على المناخ الثقافي، حتى أنه شبههم بالكائنات الحاملة للجراثيم والتي تهدد النفس البشرية⁽³⁾.

أما المنعطف الذي كان يعد خاتمة المطاف فيما يتعلق بحسم الصراع الذي دار داخل هتلر حول المسألة اليهودية فقد تمثل في رصده لبعض الظواهر غير الأخلاقية، والتي اتضح له أن اليهود لهم اليد الطولى في إدارة تلك الأنشطة غير الشرعية مثل الدعارة وتجارة الرقيق الأبيض. وقد جعل هذا المنعطف من هتلر أكثر إصراراً على المضي قدماً في الدفع بالمسألة اليهودية لتصبح في أولوية القضايا التي يجب تسليط الضوء عليها، خاصة وأن قناعته قادتته إلى الكشف عن أن اليهود كانوا يتولون العديد من المناصب القيادية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي. وهنا ينتقل هتلر إلى الربط ليس فقط بين اليهود وتلك الحركة الناهضة، بل بين هؤلاء الذين ينتمون إلى "الشعب المختار" والماركسية، فقد أشار في كتابه إلى أنه أدرك أن معظم القادة الماركسيين ينحدرون من أصول يهودية. وهذا ما دفع بهتلر في ختام هذا الصراع التمهيدي إلى التيقن من أن "اليهودي ليس بألماني". على أن هذا الشاب اليافع لم يكتفِ فقط بالتوصل لتلك القناعة بل بدأ ينهج منهجاً أكثر فاعلية في التعبير عن وجهته الفكرية، إذ بدأ في نشر أفكاره عن اليهود في الأوساط التي يتردد عليها هادفاً إلى إمطة اللثام عن الوجه الحقيقي للأدوار السياسية والثقافية التي كان

يلعبها هؤلاء في المجتمعات الأوروبية ، محاولاً ليس فقط التأثير على الألمان بل الدخول في مجادلات واسعة مع اليهود أنفسهم في محاولة لإثباتهم عن تأييدهم للأفكار الماركسية ، إلا أن محاولاته كافة ذهبت سدى ، وأضحى أكثر اقتناعاً بأن اليهود يمتلكون استراتيجيات جدلية متقدمة وعميقة تهدف بشكل أساسي إلى تغليف الحقائق بطبقات متعددة من الأكاذيب المقنعة⁽⁴⁾ .

كما أدرك أن اليهود يستخدمون اللغة لا كوسيلة للتواصل بل لإخفاء الركائز التي يؤمنون بها ، بحيث لا يكون باستطاعة المتلقي الكشف عن المرمى الذي يهدف إليه الحديث إلا إذا تمتع ببصيرة نافذة تكفل قراءة ما بين سطور تلك الأفكار . ويصف هتلر تلك القناعة التي توصل إليها بأنها أحدثت أعمق "ثورة داخلية" لديه ، والتي ترتب عليها تحوله من شخص يؤمن بالتعددية الهادئة إلى شخص آخر معادٍ للسامية بشكل مطرد . وقد كان وراء هذا الاطراد من جهة أخرى ربطه بين اليهودية والماركسية ، منوهاً في هذا الصدد إلى أن تلك الرؤية اليهودية الماركسية تحمل في طياتها توجهاً غاية في الخطورة وهو إنكار أهمية الفرد ككائن مستقل في المجتمع والتركيز بشكل مطلق على الجوانب القومية أو العرقية . ويرى هتلر في ذلك انتهاكاً جلياً للأسس الرئيسة للوجود والحضارة الإنسانية . وحذر في هذا السياق من أنه إذا قُدرَ لتلك التعاليم أن تنتشر فإنها قد تقوض أرجاء العالم كافة ، وأنه إذا قدر لليهود إحراز سبق النصر على شعوب الأرض كافة بمساعدة تلك المبادئ الماركسية فإن نهاية الجنس البشري ستكون حتمية . وهكذا وضع هذا الشاب خلفية تبريرية غاية في الرحابة لمعاداة اليهود تتخطى حاجز الحدود القومية لتشمل كل الجنس البشري⁽⁵⁾ .

أما الخبرة التالية في حياة هتلر مع المسألة اليهودية فقد تمحورت حول دور اليهود في الحرب العالمية الأولى ، خاصة وأنه شارك في صفوف القوات الألمانية أثناء تلك الحرب ولاحظ أن الإدارات الحكومية اكتظت بالموظفين اليهود مع أن إسهاماتهم في صفوف الجيش كانت شبه معدومة . وما أزعجه أن اليهود في قطاع الأعمال أصبحوا كيانات لا يمكن

(4) Ibid . , p . 130

(5) Ibid . , p . 60

الاستغناء عنها على الصعيد الاقتصادي من خلال الشركات التي قاموا بتأسيسها زمن الحرب وتمكنوا من السيطرة على هذا القطاع ، مع أنها في رأيه كائنات طفيلية تعتمد في حياتها على دماء ضحيتها التي هي الأمة الألمانية ذاتها . هكذا وكما أشار هتلر صراحة في كتابه إلى أنه في غضون عامي 1916 و 1917 على وجه التحديد فإن معظم الإنتاج الصناعي كان تحت سيطرة النفوذ المالي لليهود⁽⁶⁾ .

وهناك قضية أخرى لا تقل في الأهمية نَوّه إليها هتلر على صعيد تشكيل رؤيته للقضية اليهودية ، وهي الأسلوب الذي كان يتبعه اليهود في التعامل مع الأقاليم الألمانية المختلفة، إذ شهد المجتمع الألماني حينذاك حالة من التهيج الإعلامي ضد منطقة بروسيا المناصرة لإقليم بافاريا . وقد رأى هتلر أن تلك الحملة الإعلامية هي إحدى الاستراتيجيات اليهودية المنظمة والمتقدمة لتشتيت الأنظار عن "المسألة اليهودية" ، وحسبما ذهب هتلر فإن الطرفين البروسي والبافاريا كانا على غير دراية أنهم بصراعهم فيما بينهم يتيحون الفرصة لليهود لاستنزاف قدراتهم الاقتصادية . وقد امتدت تلك الاستراتيجية اليهودية لتشمل الشعب الألماني ككل في الحرب العالمية الأولى ، إذ قاموا بمؤامرة لإصابة الألمان بضربة قاصمة لم تأت من خطوط القتال ، بل أتت - حسبما ذهب في كتاب كفاحي - من الداخل ليجعلوا تحقيق النصر شبه مستحيل . وقد حدث ذلك عندما تم تنظيم إضراب عام في مصانع الذخيرة⁽⁷⁾ .

برنامج الحزب النازي واليهود :

في الرابع والعشرين من فبراير عام 1920 أصدر حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني (الحزب النازي) برنامجه السياسي ، الذي ألقى الضوء على العديد من القضايا من بينها الوجود اليهودي في المجتمع الألماني⁽⁸⁾ . وقد أشار البرنامج إلى أن اليهود لا يمكن أن يتم تصنيفهم كمواطنين حيث إنهم لا ينتمون لأصول ألمانية ، وبالتالي فإن عدم الاعتراف

(6) Ibid ., p . 118

(7) Ibid ., p . 120

(8) Das Programm der NSDAP ("The Program of the National-Socialist German Workers' Party"), Berlin [1933]

بوضعية اليهود كمواطنين ينقلهم حسبما أشار البرنامج إلى فئة الأجانب الذين يخضعون لقوانين خاصة تنظم وجودهم وأنشطتهم . وفي خطوة منطقية حصر البرنامج أحقية اختيار وتولي المناصب القيادية وتشريع القوانين على المستويات السياسية المختلفة للمواطنين "الألمان" فقط . بالإضافة لذلك طالب واضعو البرنامج بوضع المواطنين الألمان في قمة الأولويات فيما يتعلق بتوفير فرص العمل ، وإذا وجدت الدولة أن الأجانب يمثلون تهديداً في اتجاه تقليص فرص العمل المتاحة ، فإنه على الحكومة أن تقوم بطردهم من البلاد . على صعيد آخر فإن البرنامج رأى أن الأشخاص الذين قاموا بالترشح من خلال استغلال الأنشطة التجارية المتصلة بشكل مباشر أو غير مباشر بالجيش الألماني ومجريات الحرب العالمية الأولى ، يجب أن يوضعوا تحت طائلة القانون ، إذ يعدون مجرمين في حق بلادهم . كما لجأ قادة الحزب إلى التأكيد على أهمية التحول إلى تأميم كافة المنشآت الاقتصادية .

الجدير بالذكر أن البرنامج ذهب إلى المطالبة بوضع قيود على الصحافة الصادرة في البلاد من خلال المطالبة بأن يكون كافة المحررين في تلك الصحف منحدرين من أصول ألمانية . أما الصحف "غير الألمانية" فيجب أن تحصل على تصريح بممارسة هذا النشاط الإعلامي وألا تصدر بلغة غير اللغة الألمانية . وفي إشارة واضحة للدور اليهودي في هذا المضمار ، طالب البرنامج بحظر تمويل أو ممارسة النفوذ على الصحف من غير الألمان ، وأن أي انتهاك لذلك من شأنه أن يعرّض صاحبه للطرده من البلاد .

إن تحليل البرنامج يشير إلى أنه عمد في بنوده الأولى إلى إعادة تعريف المواطنة الألمانية، وذلك لوضع نقطة انطلاق تأسيسية يستطيع من خلالها استبعاد العناصر غير الألمانية من دائرة صناعة القرار بل وحتى التأثير عليه . ويتضح ذلك بجلاء في تأكيد واضعي البرنامج على منع كافة العناصر غير الألمانية من تقلد أية وظائف قيادية من شأنها أن تؤثر على تشكيل الاستراتيجيات التي تتبعها البلاد على كافة الأصعدة الداخلية والخارجية . وانتقالاً من العام إلى الخاص سلط البرنامج الضوء على بعض المحاور التطبيقية التي رأى الحزب أنها في ميسر الاحتياج لثورة تصحيحية لمساراتها المتباينة ، فعلى الصعيد الاقتصادي اتخذ الحزب موقفاً مناهضاً للعمالة اليهودية التي أضحت تنافس نظيرتها

الألمانية الأصل ، بل ذهب إلى ضرورة استبعاد هؤلاء من المجتمع الألماني في ظل تلك المنافسة المهنية . أما فيما يتعلق بصناعة الرأي العام فقد ركز البرنامج على قضية اتضح فحواها خلال الحرب العالمية الأولى ، وهي سطوة الصحافة على الرأي العام ، خاصة في ظل سيطرة وسطوة النفوذ اليهودي المباشر وغير المباشر على دوائر الصحافة في العالم . ويتضح من قراءة البرنامج أن التجربة الألمانية في هذا المضمار خلال الحرب تركت وراءها سلبات عميقة دفعت بعض الألمان إلى السعي قدمًا إلى استئصال شأفة تلك السطوة اليهودية في هذا المجال عميق التأثير ونافذ المفعول في تشكيل توجهات الرأي العام ، وبالتالي المساهمة في صناعة القرار وتشكيل المناخ العام الداخلي خاصة في أوقات الأزمات . وبشكل عام فإن هذا البرنامج يعد استراتيجي تمهيدية مبكرة لتصفية الوجود اليهودي في المجتمع الألماني واستبعاده قسرًا من كافة الممارسات التي من شأنها أن تؤثر سياسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا على بلورة التوجهات الألمانية الخارجية كانت أم داخلية .

وفي مقال نشر له في نفس السنة⁽⁹⁾ ، أشار هتلر إلى أن البنية التحتية الداخلية للبلاد أضحت سامية الطابع في ظل سيطرة يهودية متغلغلة في مقابل انحسار للطابع الألماني ، حتى أنه أحال جذور كافة الصراعات والمشكلات التي كانت تواجهها البلاد حينذاك إلى الجنس اليهودي ، الذي أضحي - من وجهة نظر هتلر - مرادفًا للبلاشفة الذين وصلوا إلى سدة الحكم في روسيا . وجدير بالذكر أن تلك المقارنة بين اليهود والبلاشفة لم تأت من قبيل المصادفة بل إن هتلر رأى في التوجهين امتهانًا للإرادة الشعبية الوطنية الأصلية ، مع سيطرة متقنة على كافة منافذ صناعة القرار في البلدين ، من جهة أخرى فإن هتلر رأى في العنصر اليهودي رغبة متنامية في الهيمنة على مقاليد السياسة والاقتصاد في ألمانيا مما غذى في داخله تلك المخاوف المتعلقة بوجود خطة يهودية محكمة لتغليب الجنس اليهودي على نظيره الألماني وسعيه لتولي مقاليد السلطة مثلما فعل البلاشفة في روسيا . من جهة أخرى فإن هتلر في هذا المقال حشد كافة الجهود في سبيل تأسيس "منظمة" من شأنها توحيد جهود الألمان سعيًا إلى "الخلاص" ، وهو تعبير يجمع بين السياسة والدين في معادلة غير

(9) H . A . Jacobsen and W . Jochmann, eds ., *Ausgewählte Dokumente zur Geschichte des nationalsozialismus* ("Selected Documents in the History of National-Socialism"), 1933-1945, I . Bielfeld, 1961 .

تقليدية ، إذ إن مفهوم المنظمة يهدف إلى حشد الطاقات في سبيل تحقيق هدف محدد وهو في هذا المضمار " الخلاص " وهو تعبير يعود إلى العهد القديم وتحديدًا إلى قصة خروج شعب بني إسرائيل من أرض مصر وتخلصهم من نير العبودية ⁽¹⁰⁾ ، ويرجح أن هتلر أراد أن يربط بين وجود عمل جماعي ألماني وبين التخلص من نير العبودية السياسية والاقتصادية والإعلامية اليهودية . من هنا فإن هتلر أراد أن يستخدم الخطاب الديني لتحقيق هدف يسعى من خلاله إلى تقليص سلطات ونفوذ اليهود على كافة الأصعدة ، وبالتالي يمكنه أن يتجنب إثارة المشاعر في الشارع الألماني ، كما سعى إلى القيام بذلك مرتدًا مسوح الرهبان بما يتماشى مع العقلية الدينية الألمانية .

الحزب النازي في السلطة والانتقال من النظرية للتطبيق بالنسبة لليهود :

مع إشارة نتائج الانتخابات إلى فوز النازيين واتجاههم إلى تولي مقاليد الحكم في البلاد، أصدر الحزب القومي الاشتراكي في الثامن والعشرين من شهر مارس من عام 1933 عدة قرارات لبدء شن حملة مقاطعة شاملة ضد اليهود بدأت بتشكيل لجان عمل فرعية لتطبيق خطة منظمة لمقاطعة المحالّ والبضائع والأطباء والمحامين اليهود ، وقد أثارت إجراءات المقاطعة انتباه السفير الأمريكي في برلين الذي أ برق إلى وزير خارجيته لإبراز ملامح التغير على المجتمع الألماني خاصة بعد تولي الحزب النازي ⁽¹¹⁾ . ويلاحظ أن الحزب من جهة أخرى نبه إلى عدم التعرض للأجانب حيث إن هذا الإجراء وقائي الطابع يستهدف اليهود الألمان فقط دون غيرهم . أما المنهجية المقترحة لوضع هذا القرار موضع التنفيذ فقد ركزت على استخدام كافة الوسائل الدعائية والإعلامية لنشر تلك المقاطعة على أكبر نطاق ، مسلطين الضوء على عدم التعامل مع العناصر اليهودية اقتصاديًا في كافة أنحاء ألمانيا . ولتوطيد سيطرة الحزب على المقاطعة تم تفويض اللجان التنفيذية في مراقبة الصحف للوقوف على مدى تعاونها في الحملة الإعلامية ضد اليهود ، وإذا ما ثبت عدم التعاون الجاد لإحدى الصحف فإن مصيرها سيكون التجاهل الوطني والرفض

(10) العهد القديم ، سفر الخروج ، الإصحاح حتى الإصحاح .

(11) US FR- 1933 VOL 11 P 210 from The Ambassador in Germany (Sockett) to Sec . of State March 10 , 1933 .

الشعبي من كافة القطاعات الألمانية . أما المبرر الذي ورد فيما يتعلق بشن تلك الحملة فقد أشار الحزب إلى أن هذا الإجراء يهدف إلى حماية الأيدي العاملة الألمانية من مواجهة انتشار العناصر اليهودية في الكثير من الأنشطة الاقتصادية ، ومواجهة الدعاية السلبية ضد ألمانيا التي تقوم بها العناصر اليهودية . لذا قرر الحزب أن تكون الحملة شاملة غير تدريجية تبدأ في الأول من إبريل ، ويتم الاستعانة بقوات العاصفة SA وعناصر القمصان السوداء SS لانتخاذ مواقعها خارج المحال اليهودية لتحذير العامة من دخول تلك المتاجر . على أن قرارات الحزب لم ترفع مستوى التعامل مع العناصر اليهودية إلى درجة الاستبعاد ، إذ أشار بيان الحزب إلى أنه يجب عقد لقاءات شعبية في كافة أنحاء البلاد للتوصل إلى نسبة محددة من اليهود يتم السماح لها بالانخراط اقتصاديًا في المجتمع الألماني بما يتناسب مع نسبتهم إلى عدد سكان الدولة ⁽¹²⁾ . ولذا فإن الحزب لم يسع إلى إعلان عداوته بصورة واضحة ضد اليهود مكتفيًا بالخطوات التي تحقق أهدافه ، ولكنه سعى بهذه الإجراءات إلى كسب القاعدة الشعبية الألمانية إلى صفه والتي تأثرت بلا شك بما حققه اليهود من مكاسب اقتصادية ومكانة اجتماعية في الفترة السابقة على حساب الشعب الألماني ⁽¹³⁾ .

ولكن رغم تظاهر الحزب بالتدرج في التعامل مع المسألة إلا أن حملته قد نجحت في تحقيق أهدافها حيث تم تعبئة الرأي العام الألماني ضد اليهود بصورة واضحة وأخذ في تنفيذ خطة المقاطعة بصورة فجأة مما دفع بالقائم بالأعمال الأمريكي في برلين إلى تنبيه هتلر إلى خطورة الموقف من جراء هذه الإجراءات وكان أحسن تعبير له "أن الموقف قد خرج عن سيطرة الحزب النازي" ⁽¹⁴⁾ .

أما فيما يتعلق بمدى نجاح تلك الحملة فقد وجد مسئول الدعاية النازية جوزيف جوبيلز أثناء تجواله في شوارع برلين لتفقد الحملة أن كافة الأنشطة اليهودية قد أغلقت ، وأن قوات العاصفة كانت على أهبة الاستعداد . كما لاحظ جوبيلز أن الجماهير الألمانية أبدت تعصيدًا واضحًا لحملة المقاطعة التي شملت الصحافة بهدوء ونظام ملحوظين وأنها

(12) Voelkischer Beobachter (Sueddeutsche Ausgabe), No . 88, March 29, 1933 .

(13) Martin Needler : Hitlers anti Semitism The Public Opinion Quarterly – vol 24 No 4 winter 1960 p 668

(14) U .S .F .R . Opcit, The charge in German to Sec . of State, April 9, 1933

كانت نصرًا واسعًا "للألمان"، ويرجح أنها كانت دفعة قوية للأمام للحزب النازي في مستهل توليه الحكم في البلاد. أما من حيث النتائج الخارجية التي ترتبت على هذا الإجراء فيشير جوبيلز إلى أن العالم بدأ يستفيق من غفوته ليرى في ألمانيا دولة قادرة على إدارة شئون شعبها دون الاعتماد على عناصر غير ألمانية لتوضيح مجريات الأحداث التي تجري داخل الحدود الألمانية⁽¹⁵⁾. ويلاحظ في هذا المضمار أن تلك الحملة تضمنت العديد من الأهداف متعددة المستويات، فعلى الصعيد الداخلي هدفت الحملة إلى تنبيه اليهود بشكل مبكر إلى سطوة ونفوذ بل وهيمنة النازيين على الرأي العام الألماني، وبالتالي تحذيرهم من مغبة الاستمرار في البلاد حتى وإن لم تدعُ الحملة إلى طردهم من البلاد. كذلك كانت تلك الإجراءات بمثابة بالونة اختبار من قبل النازيين لمدى تكاتف واحتشاد الرأي العام حول استراتيجيتهم الجديدة. من جهة أخرى وعلى الصعيد الخارجي كانت حملة المقاطعة رسالة إلى كافة القوى الكبرى في العالم حينذاك فحواها أن هناك نظام حكم جديد في ألمانيا يلقى نجاحًا شعبيًا لم تشهده البلاد منذ الحرب العالمية الأولى ومؤكدًا أن ألمانيا استعادت ما كانت عليه من قبل.

لم تمر بضعة أيام على الاختبار النازي الذي عُرف بالمقاطعة اليهودية حتى أصدر هتلر في السابع من إبريل قانونًا لتنظيم العمل الحكومي، وأكثر ما يلفت الانتباه في ذلك القانون هو الإقرار بشكل مباشر بأن أي موظف حكومي لا ينحدر من أصول آرية سيحال إلى التقاعد، دون الإشارة تحديدًا إلى اليهود الألمان⁽¹⁶⁾. ولكي يضع هتلر الأمور في نصابها فقد أصدر مذكرة تنفيذية بشأن هذا القانون أشار فيها إلى أن الشخص لا يعد آريًا إذا لم يكن من أصل ينتمي لهذا العرق، "خاصة إذا كان أبواه أو جداه يهودًا". وأضاف أن ذلك يسري كذلك إذا كان أحد الأبوين أو الجددين من أصل غير آري، ثم أقر

(15) J. Goebbels, Vom Kaiserhof zur Reichskanzlei ("From the Emperors Court to the Reich Chancellery"), Munich, 1937, pp. 291-292.

(16) Law for the Restoration of the Professional Civil Service, April 7, 1933. Reichsgesetzblatt, I, 1933, p. 175. also, see Langer. w., An Enculopedia of World History, Cambridge, U S A 1948, P 1001.

لا يدع مجالاً للشك في أن العصر السابق قد ولى بلا رجعة. وقد نوه روبرت إلى أن تلك المستجدات قد تكون أليمة للكثير من اليهود، إلا أن البقاء سيكون للأكثر إدراكاً لواقع تلك المستجدات الجارفة على كافة الأصعدة الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. حتى إنه ذهب إلى حد استنفار همم العناصر اليهودية حين أشار إلى أن تلك الإجراءات يمكن أن تكون بمثابة الصحوه والميلاد الجديد لليهود الألمان، مضيفاً إلى ذلك توصية بطبع وتوزيع آلاف النسخ من كتاب تيودور هيرتزل "الدولة اليهودية" على اليهود وغير اليهود. وقد أراد روبرت من ذلك استخدام ذلك المؤلف كوسيلة دفاعية في وجه الصحف التي يسيطر عليها الحزب النازي، والتي كانت تصف اليهود "بأعداء الوطن". على أنه أذان بعض العناصر اليهودية المتسلقة التي سعت إلى التغيير الظاهري لديانتها سعياً وراء تحقيق مصالح اقتصادية. وجدير بالذكر أن كاتب المقال أنهى كلماته بالإشارة إلى أن تلك الشارة الصفراء ذات الخلفية سوداء اللون، والتي وضعتها السلطات الألمانية على المتاجر اليهودية، لدفع الألمان إلى مقاطعتها، يجب أن تتحول إلى شارات فخر واعتزاز، لا شارات امتهان وخنوع⁽²⁰⁾.

وفي نفس الاتجاه، وعلى صعيد أكثر اتساعاً وتنظيماً، تم تشكيل اللجنة المركزية لليهود الألمان للإغاثة وإعادة التعمير، وقد أشار البيان التأسيسي لها إلى أن المجتمع اليهودي الألماني عليه مسئوليات متعددة تجاه الممتنين إليه، خاصة في ظل الظروف والملايسات التي أضحت تحيط بهم. ويؤكد البيان أنه على الرغم من أن توفير الاحتياجات الأساسية لليهود يعد أحد الاهتمامات الرئيسية للجنة، إلا أن كافة المساعي الرامية إلى سد تلك الاحتياجات لن تكون فاعلة، إذ إن مهمة اللجنة تتركز على وضع أسس جديدة لتكثيف اليهود مع المجتمع الألماني في ظل تلك الأوضاع المستحدثة. ومن بين تلك الركائز التي طالب بها البيان التكاتف والإرادة الموحدة لليهود الألمان والبعد عن السعي لتحقيق المصالح الشخصية، والاستعداد لتقديم التضحيات في سبيل استمرارية المجتمع اليهودي، لذا يجب التغاضي عن كافة التوجهات التي من شأنها شق صف ذلك

(20) "Wear It With Pride, The Yellow Badge," Article by Robert Weltsch . Juedische Rundschau, No .27, April 4, 1933 .

المجتمع . وهكذا قررت المنظمات والمؤسسات الاجتماعية اليهودية الرئيسية أن تتخذ خطوات حثيثة سعيًا لتوحيد الصف والجهود ، وذلك بتأسيس اللجنة المركزية لليهود الألمان للإغاثة وإعادة التعمير ، التي وافقت المنظمات اليهودية بمشاربها المتعددة على وضع كافة إمكانياتها المالية تحت تصرف اللجنة المركزية . وانطلاقًا من تلك الخلفية ، حثت اللجنة اليهود على عدم الرحيل عن ألمانيا ، أو التخلي عن إخوانهم ، إذ إنه لا يمكن أن يتم حل مشاكل اليهود الألمان من خلال الهجرة العشوائية إلى الخارج ، التي من شأنها أن تؤدي إلى زيادة عمق المشكلات التي تواجه المجتمع اليهودي في ألمانيا⁽²¹⁾ . مما سيؤدي إلى الخلل في التركيبة السكانية اليهودية وسوف يدفع بهم إلى الانزواء أو العيش في جيوت مفروض عليهم وليس بإرادتهم .

أما ألفريد فينار ، وهو أحد قيادات الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من اليهود فقد أكد "أن الأغلبية العظمى من اليهود الألمان لا زالوا يحافظون على انتمايتهم الراسخ للدولة الألمانية" ، وذلك على الرغم من أن بعض العناصر اليهودية بدأت تجربها رياح الخوف جراء الأحداث التي مرت بها . ونوه إلى أنه رغمًا عن أن القانون يعتبر المنحدرين من أصول آرية ألمانيًا ، وبذلك فإن اليهود لا يعدون مواطنين ألمانيًا ، إلا أن أغلبية اليهود يرون أنفسهم مواطنين يتمتعون بكافة الحقوق . مضيفًا أنهم يرفضون أن يكونوا جماعة أو أقلية عرقية ، مثل الألمان في بولندا ، أو البولنديين في ألمانيا ، وذلك انطلاقًا من سعيهم وراء المواطنة الكاملة تحت مظلة الحكومة الجديدة ، لا أي كيان سياسي آخر مثل عصبة الأمم ، وذلك في إشارة إلى الالتباس الذي تم تقديمه إلى العصبة بشأن حقوق الأقلية اليهودية في سيليزيا العليا . ورغم اعتراف فينار بصعوبة الموقف الذي يواجهه اليهود الألمان ، إلا أنه شدد على أهمية التحلي بالشجاعة وممارسة كافة السبل التي من شأنها إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه من أجل تخطي هذه العقبة⁽²²⁾ .

(21) C . V .-Zeitung, No . 17, April 27, 1933 . يشير اختصار . Centralverein deutscher Staatsbürger jüdischen Glaubens أو الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان المنتمين للعقيدة اليهودية .

(22) C . V .-Zeitung, No . 22, June 1, 1933 .

أما أول خطوة تفرغية لليهود الألمان ، فقد جاءت بشكل غير مباشر حينما أصدرت وزارة الاقتصاد بعض الإجراءات التنظيمية في أغسطس من عام 1933 لتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين ، وذلك عن طريق تقديم قروض مالية تكفل للراغبين توفير النفقات الأساسية للهجرة من ألمانيا إلى فلسطين⁽²³⁾ . وعلى الرغم من أن تلك الإجراءات جاءت بناءً على سعي من قبل بعض المنظمات اليهودية داخل ألمانيا⁽²⁴⁾ ، إلا أن القضية لم تقف عند مجرد الفعل ورد الفعل ، بل تجاوزت ذلك إلى التخطيط والتنظيم المدروس من قبل النازيين لتحركات المجتمع اليهودي ، إذ إن بداية حملة المقاطعة التي جاءت في أعقاب صعودهم إلى سدة الحكم تراكبت مع العديد من التغيرات الواضحة والخفية ، المباشرة وغير المباشرة ، والمتعددة الأبعاد في ذلك الوقت ، وبذلك تكفلت تلك المستجدات بتوفير أرضية انطلاق قوية لهؤلاء اليهود للتفكير ملياً بشأن الارتحال عن ألمانيا إلى مكان آخر . ومن ناحية أخرى فقد توازى ذلك مع حملة الهجرة اليهودية المنظمة لفلسطين في ثلاثينيات القرن العشرين ، وتلك كانت فرصة مواتية للسلطات الألمانية ، إذ لن تعاني في الدفع بهم للعودة إلى "أرض الميعاد" . هكذا فإنه كان على النازيين إزالة كافة العقبات التي كان من شأنها أن تكون عائقاً أمام الرغبة الذاتية لليهود في الانتقال إلى فلسطين . لذا فإن تلك الإجراءات التنظيمية ، حتى وإن جاءت بناءً على رغبة من بعض الدوائر اليهودية ، كانت تعد إحدى الاستراتيجيات المبكرة للحكومة النازية لاستبعاد تلك العناصر اليهودية ، والتي اتسمت بشكل ما من الاتفاق الثنائي على انتهاج مثل تلك الاستراتيجية . لذا فإن سعي تلك العناصر اليهودية لإقرار هذه الإجراءات الحكومية يعد نصراً مبكراً للنازيين ، ويرجع أنه كان أحد المحفزات على اتخاذ مزيد من الخطوات تجاه هؤلاء .

على أن تلك الخطوة قابلتها خطوات عكسية من قبل بعض اليهود في سبيل عدم التخلي عن هويتهم الألمانية أو الارتحال عن بلادهم ، وبالتالي بدأوا يستجيبون لضغوط

(23) Haolam , No .28, June 22, 1933 .

(24) L .Pinner, "Vermoeegenstransfer nach Palestina 1933-1939" ("Transfer of Capital to Palestine 1933-1939"), In zwei Welten Siegfried Moses zum fuenfundsiebzigsten Geburtstag ("In Two Worlds for Siegfried Moses on His 75th Birthday"), Tel Aviv, 1962, pp .138-139 .

الحزب النازي ، مدركين أن الخروج طوعية في هذه المرحلة المبكرة أجدى لهم ، إذ أصدرت اللجنة المركزية لليهود الألمان للإغاثة وإعادة التعمير بعض التعليمات للمدارس الابتدائية اليهودية تركزت على تأصيل مفاهيم ازدواج الهوية الثقافية لدى الأطفال اليهود منذ نعومة أظفارهم من خلال تسليط الضوء على الرافدين الثقافيين الألماني واليهودي من حيث الأهمية والتأثير ودورهما في تشكيل شخصية اليهود في المجتمع الألماني⁽²⁵⁾ . وعلى صعيد يتوازي مع سابقه ، تم تأسيس الاتحاد الثقافي لليهود الألمان الذي كان بمثابة المركز الثقافي الأساسي لليهود الألمان حينذاك ، حيث دعا كافة اليهود لممارسة الأنشطة الثقافية المختلفة مثل تنظيم المحاضرات ، والعروض المسرحية ، والنحت وغيرها ، ولم تقتصر تلك الدعوة على تقديم مثل تلك الأنشطة ، بل لحضور فاعليتها أيضًا . ومن هذا المنطلق ناشد الاتحاد كافة المنظمات اليهودية الانخراط في الأنشطة المختلفة ، مع التركيز على أن كافة تلك الفاعليات من شأنها أن تسلط مزيدًا من الضوء على الموروث الحضاري اليهودي⁽²⁶⁾ . والجدير بالذكر أن السلطات الألمانية قد سمحت بتأسيس مثل هذا الاتحاد أملًا في أن تلعب المركزية الثقافية اليهودية دورًا إيجابيًا في تسهيل عملية مراقبتهم ، ووضعهم تحت دائرة الفحص المكثف المستمر وبالتالي يمكن السيطرة عليهم بسهولة ويسر في حالة الضرورة⁽²⁷⁾ .

ومن الواضح أن تلك التعليمات التي صدرت في مستهل عام 1934 من جهة ، وتأسيس الاتحاد الثقافي لليهود الألمان من جهة أخرى ، كان يعني مزيدًا من التشبث بالهوية الألمانية ، وعدم التفريط في الموروث الثقافي الألماني ، وتوثيق الصلة بجذور حضارة اليهود . ويكتسب التوجه الأول أهمية واضحة في ضوء تركيزه على أطفال المدارس الابتدائية ، إذ إن أحد أهدافه كانت تجهيز هؤلاء الأطفال للانخراط في مجتمع اختلفت ملابساته بشكل يزداد حدة بمرور الوقت . أما تأسيس الاتحاد الثقافي ، فقد جاء

(25) Arbeitsbericht des Zentrallausschusses der deutschen Juden fuer Hilfe und Aufbau 1. Januar 30 . Juni 1934, Anlage (Report of the Central Committee of German Jews for Relief and Reconstruction, January 1 June 30, 1934, Enclosure), 1934 .

(26) Frankfurter Israelitisches Gemeindeblatt, April 1934 .

(27) Hinkel Files, Wiener Library, Tel Aviv University .

في ذات العام ليرسل إلى السلطات الألمانية رسالة مفادها أن هناك قطاعاً كبيراً من اليهود الألمان لديهم الرغبة في التواصل الثقافي ، حتى في ظل تلك المتغيرات الطاردة . ويلاحظ كذلك أن اليهود لم يلجأوا لتأسيس مثل هذا الاتحاد في ظل غيبة تدخل السلطات الألمانية ، بل لقد أعطتهم الضوء الأخضر للمضي قدماً في ذلك الاتجاه . ومن جهة أخرى فإنه من الواضح أن هذين التوجهين اليهوديين كانا يتضادان مع المنحى السابق الذي ذهب إلى الارتحال عن ألمانيا إلى فلسطين . ويرجع في هذا المضمار أنه رغماً عن أن حالة التماسك اليهودي بدت وكأنها تحاول المقاومة في ظل المستجدات التي طرأت على العلاقات الألمانية اليهودية ، إلا أنها كانت في ذات الوقت تشهد انسحاباً من قبل بعض عناصرها ، وإتيانهم بحلول مختلفة للمشكلات القائمة ، خارج مظلة العمل اليهودي الجماعي .

وبعد أن استتبت الأوضاع بالنسبة للحزب النازي في الداخل بدأ يعيد تشكيل سياسته تجاه القوى المناوئة بصورة أكثر تحديداً ، فقد بدأت مرحلة التحول من الإحجام إلى الإعلان بشكل واضح وكان أقرب مثال على هذا ما اتخذته من سياسات تصعيدية في عام 1935 ، إذ صدر قانون إعادة تنظيم الجيش الألماني *Wehrmacht* ، في السادس عشر من مارس ، وأشار بوضوح إلى أن هذا الجيش الجديد سيتم تأسيسه طبقاً لقاعدة التجنيد العام ، مستبعداً في ذلك العناصر غير الألمانية ، والمعني بهم اليهود بشكل أساسي . وقد دفع ذلك بممثلي اليهود الألمان إلى إرسال رسالة إلى وزير الحربية ينوهون فيها إلى أن اليهود مواطنون ألمان ، ولديهم الرغبة في الانخراط في صفوف الجيش الألماني ، مذكّرين إياه بأنه في غضون الحرب العالمية الأولى لقي اثنا عشر ألف يهودي حتفهم دفاعاً عن بلادهم⁽²⁸⁾ . الجدير بالذكر أن هذا التصعيد لم يكن على الصعيد الحكومي فقط ، إذ بدأت تزداد وتيرة الأعمال العدائية ضد العناصر اليهودية في المجتمع الألماني ، حتى أنه في اجتماع للقيادات الحكومية في أغسطس من ذات العام أبدى د . شاخت ، رئيس البنك المركزي (بنك الرايخ) ، قلقه من التبعات الاقتصادية السلبية التي من الممكن أن تلحق بالبلاد

(28) Reichsvertretung der deutschen Juden (National Representation of German Jews), To His Excellency, The Reich Minister of War, Generaloberst von Blomberg, March 23, 1935 . The Central Archives for the History of the Jewish People, A/171.

جراء تلك الأعمال التي وصفها "بالراديكالية"، وقد أشار تحديدًا في هذا الصدد إلى بعض المنظمات التابعة للحزب النازي مثل الجبهة العمالية والاتحاد الاشتراكي الوطني للتجارة وأصحاب الحرف . ومن جانبه فإن وزير الداخلية أيد ما ذهب إليه شاخت ، منتقدًا الأداء الشرطي السلبي لمواجهة العمليات الموجهة ضد اليهود ، لافتًا الانتباه إلى أن الشرطة تقف ساكنة إذ كان من يقوم بتلك الأعمال أعضاء في منظمات تابعة للحزب النازي . على أن هذا الاجتماع لم يسفر عن إقرار سياسة موحدة بشأن اليهود ، بل إنه أوضح أنه كانت هناك حالة عدم اتفاق بين أعضاء الحكومة التي كانت ممثلة في الوزراء وممثل الحزب النازي أو مندوب الحزب ، إذ أشار الوزراء إلى السليبيات العملية المترتبة على تلك التعديلات ، بينما ذهب ممثل الحزب إلى التأكيد على أهمية تضيق الخناق على العناصر اليهودية مما يوضح الاختلاف غير المعلن بين أجهزة صناعة القرار في ألمانيا آنذاك⁽²⁹⁾ .

ومن الملاحظ أن صوت العقل الذي طرح من خلال بعض الوزراء والمسؤولين لم يجد هوى لدى ممثل الحزب النازي ، الذي كان من الواضح أن لديه سياسة معينة يريد أن يفرضها على مجلس الوزراء بغض النظر عن الدراسات والتقارير المقدمة ، والتي كانت تعكس القلق من مثل هذه الإجراءات الفجائية ، والتي اتسمت بالفجاجة تجاه العناصر اليهودية والتي سوف يترتب عليها نتائج سلبية في المقابل . وعلى الرغم من أن ذلك الاجتماع قد أوضح أن السياسة الحزبية النازية ضد اليهود كانت تواجه نقدًا بل ومعارضة من بعض القيادات الحكومية ، إلا أن هتلر بصفة شخصية قرر زيادة وتيرة التصعيد وقد وضح هذا في تمرير قانون المواطنة من خلال البرلمان الألماني (الرايخستاغ) في سبتمبر من عام 1935 . وقد نوه البند الأول من القانون إلى أن المواطن الألماني هو الذي يتمتع بحماية الرايخ ، وعليه بالتبعية التزامات لا بد من أن يوفي بها . أما البند الثاني فقد أشار إلى أن المواطن الألماني هو المنحدر من أصول ألمانية ، ويثبت سلوكيًا انتماءه وولائه واستعداده لخدمة الشعب الألماني والرايخ . كذا تعمد واضعو القانون الربط في نفس البند بين المواطنة

(29) The Reich and Prussian Minister of Economics to : The Minister-President of Bavaria, Berlin, June 5, 1935 . Yad Vashem Archives, JM/2858; Yad Vashem Archives, JM/2245 .

والحقوق السياسية⁽³⁰⁾. وفي ذات الجلسة أقر الرايخستاج قانوناً آخر تحت مسمى "قانون حماية الدماء والشرف الألماني". وقد تم التنويه في مقدمة القانون إلى أن المحرك الأساسي وراء إصداره هو الحفاظ على نقاء الدماء الألمانية، وبالتبعية ضمان استمرارية العرق الألماني. وقد أقر القانون في بنده الأول حظر زواج اليهود بالألمان، حتى وإن تم زواجهم بالخارج. وفي بنده الثاني وسع القانون دائرة ذلك الحظر لتشمل حتى العلاقات التي تقام خارج إطار الحياة الزوجية أو العلاقات غير الشرعية بين اليهود والألمان. أما البند الثالث فقد سلك مسلكاً تطبيقياً، إذ حظر على اليهود جلب أية امرأة ألمانية للعمل بالمنزل تكون أقل من 45 عاماً. وعلى صعيد آخر حظر البند الرابع على اليهود رفع العلم الوطني الألماني، وسمح لهم في المقابل باستخدام الشارات اليهودية ليصبحوا معروفين لدى السفير الألماني بحمل مثل هذه الشارات⁽³¹⁾.

وانطلاقاً من هذا فقد أشار هتلر في خطابه أمام الرايخستاج إلى أن الوقت قد حان للمواجهة العلنية للقوى اليهودية في المجتمع الألماني، مؤكداً أن الحكومة قد تلقت شكاوى عديدة ضد الممارسات الاستفزازية لهؤلاء اليهود، تلك الشكاوى التي أضفى عليها هتلر صفتي الاستمرارية والتشابه، مما مكنه من أن يضع تلك التصرفات اليهودية تحت تصنيف العمل المنظم. وبمعنى آخر أراد هتلر أن يجمع تلك الشكاوى معاً ليخلص منها إلى أن اليهود الألمان لديهم خطة محكمة للسيطرة على المقاليد السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ألمانيا. ثم انتقل هتلر إلى استراتيجية التعامل مع تلك القضية فنوه إلى أن اتخاذ إجراء قانوني تجاه هؤلاء أضحى أمراً لا فرار منه لوضع أرضية ثابتة للعلاقات التبادلية بين الألمان واليهود⁽³²⁾. وفي اجتماع له مع قادة الحزب النازي وجه هتلر شكره لقادة الحزب لتأييدهم للخطوات التشريعية التي بادر بطرحها تجاه التعامل مع القضية اليهودية. من جهة أخرى أكد هتلر مجدداً أن القانون يهدف في الأساس إلى مساعدة اليهود لا القضاء عليهم، وذلك من خلال توفير قاعدة قانونية واضحة يستطيعون من

(30) Reichsgesetzblatt, I, 1935, p. 1146.

(31) Reichsgesetzblatt, I, 1935, pp. 1146-1147.

(32) N.H. Baynes, ed., The Speeches of Adolf Hitler, I, London, 1942 | pp. 731-732, PP 731 :732.

خلالها إيجاد هوية سياسية وثقافية مميزة ، كذلك فإن هؤلاء اليهود سيكون بمقدورهم ممارسة كافة أنشطتهم الدينية وغير الدينية بشكل منظم ومقنن يجعل من تلك الممارسات نمطاً يمتاز بهامش واسع من الحرية لا يقارن بتلك الهوامش التي تمنح لهم في المجتمعات الأخرى . الجدير بالذكر أن هتلر أكد على أهمية عدم التعرض لليهود في هذه المرحلة حتى لا يفرغ الإجراءات القانونية التي تم اتخاذها من مضمونها⁽³³⁾ .

على أن شهر نوفمبر من ذات العام شهد تطوراً آخر في اتجاه الاستبعاد القانوني للعناصر اليهودية من المجتمع الألماني ، إذ صدرت أول مذكرة تنفيذية لقوانين المواطنة أو قوانين نورمبرج Nuremberg الصادرة في سبتمبر 1935 . وقد نص أحد بنودها بشكل مباشر لا يحتمل التأويل إلى أن اليهودي لا يعد مواطناً ألمانياً ، وبالتالي فإنه لا يتمتع بأية حقوق سياسية ، خاصة حق التصويت ، كما أنه لا يحق له اعتلاء أي منصب عام ، وعلى ذلك فقد أشار البند إلى أن كافة الموظفين اليهود سوف يحالون إلى التقاعد مع حلول يوم الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر من ذات العام . ووضعاً للأمور في إطارها القانوني الدقيق ، كما أشار بند آخر في تلك المذكرة إلى أن الشخص يعد يهودياً إذا كان منحدرًا من ثلاثة أجداد يهود . من جهة أخرى فإن الشخص الذي ينحدر من أعراق مختلطة يعد يهودياً إذا كان جداه يهوديين ، كذلك إذا كان ينتمي إلى الديانة اليهودية وقت صدور القانون ، أو كان متزوجاً من يهودي أو يهودية . ومن جهة أخرى مد القانون مظلة الحظر لتشمل هؤلاء الذين ولدوا لأسرة ينتمي أحد والديها إلى الديانة اليهودية ، وبطبيعة الحال شمل ذلك هؤلاء الذين ولدوا تحت نفس الظروف العائلية ، لكن خارج إطار العلاقات الزوجية الشرعية⁽³⁴⁾ .

ويشير القانون والمذكرة التفسيرية الأولى التي صدرت بشأنه لاحقاً إلى أن هتلر كان مزعماً على تطوير أسلوب الأداء في اتجاه التعامل مع القضية اليهودية . فإذا نحننا جانباً الحديث المعسول عن أن تلك الإجراءات التشريعية من شأنها أن تضع المجتمع الألماني

(33) M . Domarus, ed ., A . Hitler Reden und Proklamationen 1932-1945 ("A . Hitler Speeches and Proclamations 1932-1945"), I . Neustadt a .d . Aisch, 1962, pp . 538-539 .

(34) Reichsgesetzblatt, I, 1935, p . 1333, also US FR 1935 , Vol 11 p 406 :408 .

على أعتاب تغيير جذري إيجابي من حيث تحديد الهوية والممارسات ، فإن قوانين نورمبرج تعد أحد المنحنيات الرئيسية في استراتيجية تعامل هتلر مع اليهود ، فالقانون يخلع عنهم وبها لا يدع مجالاً للشك الصفة القانونية التي تمنحهم المواطنة الألمانية بكافة حقوقها وواجباتها . ويعد ذلك في أحد التأويلات تعرية قانونية للعناصر اليهودية داخل المجتمع الألماني ، والتي ستضحي في مهب الرياح القانونية أولاً ، والشعبية ثانياً ، إذ إن النفي التشريعي للمواطنة لا يعني بأي حال من الأحوال مزيداً من الحرية لهؤلاء ، بل على العكس سيضع اليهود بشكل مستمر ومكثف تحت دائرة الفحص القانوني من جراء الانتهاكات التي سيتم ارتكابها في هذا المضمار ، خاصة وأن تبعات تلك الإجراءات سيمتد تأثيرها الرسمي المباشر وغير المباشر إلى أصعدة متعددة . من جهة أخرى فإن الانعكاسات التي ستركها هذا القانون على الصعيد الشعبي تعد من قبيل التحفيز الرسمي على لفظ العناصر اليهودية والتخلص منها ، وليس كما أشار هتلر في اجتماعه مع قادة الحزب النازي إلى نقل العلاقات التبادلية الألمانية اليهودية إلى مستوى أفضل ، فالحكومة الألمانية أضحت تعد هؤلاء اليهود أشخاصاً غرباء من الناحية القانونية عن المجتمع الألماني ، وبالتالي فإن حالة التغريب القانوني التي وضعت أساسها قوانين نورمبرج كان من شأنها أن تعكس صفو العلاقات التبادلية بين العنصرين ، بل وتضعهم في مواجهة غير متكافئة ، وقد اعتبر السفير الأمريكي في برلين هذا التشريع القانوني بمثابة الضوء الأخضر لقيادات الحزب النازي ومنظماته للقيام "بخنق اليهود ، والقضاء على فرص وجودهم في المجتمع الألماني" .

وقد أشارت وكالة الأنباء الألمانية - لسان حال الحزب النازي - في صدد تعليقها على قوانين نورمبرج إلى أن تلك الإجراءات التي هدفت إلى إضفاء الصفة القانونية على شكل العلاقات الثنائية الألمانية اليهودية ، لا تستهدف تضيق الخناق على اليهود الألمان طالما ينتمون قولاً وفعلاً إلى المجتمع اليهودي . على أن تقرير وكالة الأنباء لم يستطع أن ينكر أن تلك القوانين أسقطت عن اليهود صفة المواطنة . وفي محاولة من واضعي التقرير لإيجاد تفسير لهذا التناقض الجوهرى بين وجهتي النظر اللتين ذهبتا في اتجاهين مختلفين أشار التقرير إلى أن المؤتمر اليهودي الذي عقد في سويسرا وضع حدّاً للحديث عن اليهودية كمجرد ديانة ، فالمتحدثون أمام هذا المؤتمر أكدوا على أن اليهود شعب قائم

بذاته، وبالتالي فإن تلك الأحاديث تطرقت بشكل جدي إلى تأسيس وطن قومي لهذا الشعب اليهودي . وعلى هذا الأساس فإن هذا التوجه القانوني الألماني يعد ، حسبما ذهب التقرير ، توافقاً إيجابياً مع المنحى الذي اتخذه المؤتمر اليهودي ويتمشى معه ، إذ وضعهم القانون في إطار الأقلية ، وبالتالي فإن هذا التأطير القانوني من شأنه أن يضع العلاقات بين الأمة الألمانية واليهود في إطارها الصحيح . والجدير بالذكر أن التقرير كان دقيقاً لدرجة لافتة في صياغته للعبارة الأخيرة ، حيث إن الإشارة إلى الأمة الألمانية بشكل منفصل تماماً عن اليهود ، بما يضعهم موضعاً انعزالياً انتظاراً لما ستسفر عنه الأوضاع على الصعيدين الداخلي والخارجي . ومن نفس المنطلق فإن التقرير يشير بصورة أو بأخرى إلى أن تلك المنهجية من شأنها توفير مناخ مناسب لليهود ليؤسسوا مدارسهم ومسارحهم وأنديتهم الرياضية ، وبالتالي وَضَعَ أسساً لمستقبل اليهود بصورة مستقلة في المجتمع الألماني ، وبالتالي فإن الحديث عن التدخلات اليهودية في الشؤون الداخلية الألمانية لن يكون له مجال أو مكان . وعلى هذا فإن التقرير يعد تلك الخطوات التشريعية محاولة من جانب الحكومة الألمانية لإبداء حسن النوايا تجاه اليهود ، "تلك الأقلية التي من شأن الحكومة أن توفر لها الحماية لتمارس حياتها المنفصلة" . وقد تمادى التقرير في هذا التوجه مشيراً إلى أن : "الحكومة ترحب بنمو المجتمع اليهودي داخل ألمانيا ، وإن الدوائر الرسمية ستفعل ما في وسعها لتطوير العلاقات الإيجابية بين الأمتين"⁽³⁵⁾ .

لقد هدف التقرير بصورة أو بأخرى إلى تجميل سياسة الحكومة في الداخل أو ربما أراد أن يخفف من موجات الاحتجاج الخارجي خاصة في الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية .

ردود الأفعال اليهودية :

على صعيد ردود الأفعال اليهودية تجاه *قوانين نورمبرج* ، أكد بيان الممثلة الوطنية لليهود في ألمانيا أن تلك الإجراءات القانونية كانت بمثابة الضربة القاضية لليهود الألمان . على أنه عاد ليؤكد على أن الهيئة ستفعل ما في وسعها لتدعيم تلك الأسس المستجدة

(35) Juedische Rundschau, No . 75, September 17, 1935 also see U S F R 1936 Vol 11 P 197 from Ambassador To Sec . of State, Berlin Jun 30 1936.

للعلاقات الثنائية الألمانية اليهودية . وقد استهل البيان توجهه المفهم بالتنويه إلى أن تلك الاستجابة المرنة ترتبط ارتباطاً شرطياً بإيجابية التعامل الرسمي والشعبي الألماني مع المصالح الاقتصادية اليهودية ، وبشكل أكثر تحديداً التوقف عن الممارسات الاقتصادية التي تلحق الأذى بالعناصر اليهودية . ثم طالب البيان الحكومة الألمانية بالاعتراف بوجود قيادة ذات حكم ذاتي لليهود ، مرشحة ذاتها كمؤسسة تحوز تأييد قاعدة عريضة من الهيئات اليهودية ، وبالتالي فهي قادرة على تمثيل المجتمع اليهودي بمشاربه المختلفة أمام السلطات الألمانية . ويلاحظ أن هذا التوجه استهدف استغلال العزلة القانونية التي خلعتها قوانين نورمبرج على اليهود بتمكينهم من قيادة وتوجيه تلك العناصر بهامش واسع من حرية التصرف . ثم انتقل البيان إلى التأكيد على أهم الأمور الملحة التي أضحت بمثابة الركائز لضمان الاستغلال الأمثل للمناخ الذي من شأن تلك التوجهات التشريعية المستحدثة أن تنشره عبر أنحاء ألمانيا . وجاء على قمة تلك المهام أو الأولويات الاهتمام بتأسيس نظام تعليمي قوي يضمن تنشئة الأطفال والشباب اليهود بما يضمن ارتباطهم الوثيق بهويتهم اليهودية ، وكذلك لتهيئتهم دراسياً للتكيف مع الوظائف التي ستتاح لهم ، في توجه أطلق عليه البيان ضمان استمرارية "البنية الثقافية المستقلة" لليهود الألمان⁽³⁶⁾ .

ومن هذا المنطلق فإن اليهود بما أبدوه من رغبة في التعايش مع التطورات الجديدة أعطوا لهتلر مساحة أكبر في ممارساته التعسفية تجاههم ، أو ربما على جانب آخر أرادوا في هذه الفترة عدم الدخول في صدام علني خاصة وأن موقف القوى الخارجية وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا لم يكن متشدداً تجاه المسألة ، فقد اقتصر على الاحتجاج من قبل ممثلي هذه الدول المعتمدين لدى ألمانيا⁽³⁷⁾ ، وربما كان الدافع إلى هذا الموقف السلبي هو رغبة هذه الدول في الحفاظ على علاقتها مع ألمانيا أو عدم التدخل في شأن داخلي . ومن جهة أخرى أكد التقرير أن تزايد أعداد المهاجرين إلى فلسطين وغيرها من الدول تطلّب وضع برنامج تأهيلي لإعدادهم بدقة ، خاصة فيما يتعلق بتدريبهم على المهن التي تتطلبها تلك البلاد ، مثل الزراعة والمهن الحرفية . على أن البيان ، ورغم اهتمامه بالأطفال

(36) Juedische Rundschau, No . 77, September 24, 1935 .

(37) ibid also U S F R Ibid, P P 1997 :1999 .

والشباب اليهود ، إلا أنه لم يغفل الاهتمام بكبار السن ، إذ أكد على رعايتهم جسدياً ونفسياً ، وبالتالي أراد البيان وضع كافة القطاعات العمرية اليهودية في دائرة اهتمامه ، ويرجح أن السبب وراء ذلك كان في ضمان زيادة تماسك العناصر اليهودية في ظل تلك الظروف التي أضحت تمثل مناخاً جديداً وجب على اليهود التكيف معه . وعلى صعيد موازٍ لفت البيان النظر إلى أهمية التعضيد الاقتصادي لكافة اليهود الألمان حتى لا يضحوا فريسة للعزلة الاقتصادية التي قد تنجم عن الإجراءات التشريعية التي تم إقرارها مؤخراً . الجدير بالذكر أن الاستعداد للهجرة إلى فلسطين احتل جانباً هاماً في هذا البيان الذي أكد على أن التطورات الإيجابية والتنامي المتسارع الخطى لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين يمثل دفعة معنوية قوية لليهود الألمان الذين عليهم ، لكي يشاركوا في هذا التوجه ، تنمية مهارات العمل اليدوي والحديث باللغة العبرية خاصة من الأجانب لدى التلاميذ اليهود ، كذلك أشار البيان إلى أن الممثلة ذاتها انضمت إلى (صندوق مؤسسة فلسطين) ، الذي كان أحد الهيئات اليهودية الرئيسية لتشجيع الهجرة إلى فلسطين . وفي ذات السياق أعلنت الممثلة أنها على استعداد لتنسيق العمل التعاوني بين المؤسسات اليهودية الألمانية للعمل على تأسيس وطن يهودي في فلسطين⁽³⁸⁾ . أما على الصعيد الديني فقد أعد الحاخام ليو بيك صلاة لتقرأ في ليلة كيور (عيد الغفران اليهودي) ، والتي أكدت على اتكال اليهود على ذراع إلههم القوية ، وإيمانهم بقدرته على تعضيدهم في أوقات المحن والشدائد ، إذ إن تاريخهم - حسبها ذهبت الصلاة - هو تاريخ الفخر والاعتزاز الروحي بإله إسرائيل . والجدير بالذكر أن الشرطة السرية الألمانية (الجستابو) حظرت تلاوة الصلاة ، بل وألقت القبض على ليو وبعض القيادات الدينية اليهودية الأخرى⁽³⁹⁾ .

وقد شهدت الفترة التالية زيادة في وطأة ووتيرة الاستبعاد الرسمي والشعبي للعناصر اليهودية في المجتمع الألماني ، مما نجم عنه تنامي أنشطة الوكالة الصهيونية في تهجير يهود ألمانيا إلى فلسطين حتى أن سفير بريطانيا لدى برلين أرسل إلى لندن تقريراً يفيد

(38) U S F R, Ibid, PP 197 . 200.

(39) The Attorney-General of the Government of Israel v . Adolf Eichmann, Minutes of Session No . 14, Jerusalem, 1961 .

بوجود خطة طويلة الأمد من قبل تلك الوكالة لتهجير أكبر عدد من اليهود الألمان إلى فلسطين ، وأبدى رغبته في أن تعمل الحكومة البريطانية على تشجيع المزيد من الهجرات في ضوء اتساع المشاعر المناهضة لليهود ألمانيا⁽⁴⁰⁾ . وفي هذا الخصوص أشارت مذكرة لمدير مكتب الجوازات في لندن في يناير عام 1938 إلى أن السفارات البريطانية في العديد من عواصم أوروبا أخذت تعاني بشكل مستمر ومكثف من التزايد المطرد في أعداد اليهود المتقدمين بطلبات اللجوء إلى بريطانيا من رعايا تلك الدول مثل المجر وتشيكوسلوفاكيا ، إلا أن اللافت للنظر أن المذكرة أوردت أنه قد تم منح 35000 تأشيرة لجوء لليهود من ألمانيا والنمسا ، بعد اتحاد الأخيرة قسراً مع الأولى⁽⁴¹⁾ . وقد تم تصنيف هؤلاء اللاجئين إلى ثلاثة توجهات : الأول يضم الذين يرغبون في اللجوء إلى بريطانيا حتى يتم السماح لهم بالرحيل إلى دولة أخرى ، والثاني يضم الذين قدموا لبريطانيا للحصول على تدريب يمكنهم من العمل في دول مختلفة ، أما التصنيف الأخير فقد ضم المسنين الذين تعدوا الستين عامًا ، وهؤلاء منحوا حق الاستقرار في بريطانيا ، مع عدم السعي للحصول على وظيفة . والجدير بالذكر أن عدد التأشيرات التي كانت تمنح لهؤلاء بلغت 200 تأشيرة يوميًا⁽⁴²⁾ .

وتشير الوثيقتان إلى أن المجموعة الأولى والثانية كان يتم إعدادهما في المقام الأول للسفر إلى فلسطين للاستيطان . كما أشارتا إلى أن الأوضاع اليهودية المعيشية بكافة أشكالها في العديد من الدول الأوروبية ، وخاصة ألمانيا ، قد دخلت منحى جديدًا آنذاك ، إذ إن إصدار 35 ألف تأشيرة في فترة وجيزة تلت الاتحاد الألماني النمساوي ، يحمل العديد من المعاني من بينها أن المقاومة اليهودية لحالة الاستبعاد الاجتماعي التي أطلق هتلر إشارة البدء فيها عام 1933 ، أضحت في مهب الريح بدرجة لافتة . وإن كان ذلك لا ينفي أن

(40) Minutes from Frank Foley, to the Chancery, HM Embassy, Berlin, 17 January 1936, sent to London on 20 January by Sir E. Phipps, HM Ambassador in Berlin .

(41) Second Regulation for the Law on the Reunification of Austria with the German Reich, March 18, 1938 . Reichsgesetzblatt, I, 1938, p. 262 .

(42) Letter from Rear Admiral Sir Hugh Sinclair, Chief of the Secret Intelligence Service, to Sir Alexander Cadogan, Permanent Under Secretary of States Foreign Affairs, 3 January 1938, enclosing a memorandum by the Director of Passport Control ; Foreign Relations of the United States, 1937, Vol. II, "The Ambassador in Germany to the Secretary of State , Berlin , April 26, 1937, pp. 319-320 .

المؤسسات اليهودية في ألمانيا حاولت أن تصمد في وجه تلك المستجدات ، إلا أنه من المرجح أن تحول تلك المستجدات من الشكل الاستبعادي إلى الشكل القمعي ، قد دفع هؤلاء دفعًا إلى التخلي عن المقاومة الإيجابية والنزوح عن تلك الدول الطاردة في خطوة كشفت عن استجابة إيجابية للخطط الاستيعادية لهذه العناصر من قبل تلك الدول . ففي مارس عام 1938 أصدرت الحكومة الألمانية قانونًا يلغي الصفة القانونية للمؤسسات الدينية اليهودية⁽⁴³⁾ ، مما يؤيد الطرح السابق من أن الاستراتيجية النازية في مواجهة اليهود انتقلت إلى مستوى مختلف ، ذلك أن إسقاط الصفة القانونية عن تلك المؤسسات يخلع عنها أية شرعية لممارسة أي دور إيجابي بشأن رعاية مصالح يهود ألمانيا ، وبالتالي كسر روابطهم الاجتماعية . ويرجح أن هذا القانون كان بمثابة خطوة تمهيدية لاتخاذ مزيد من الإجراءات الاستيعادية للعناصر اليهودية .

وفي النمسا ، أوضح أحد قيادات اليهود الذي ذهب إليها في إبريل من ذات العام في تقرير رفعه إلى الوكالة الصهيونية أن أوضاع اليهود هناك يشوبها اضطراب كبير ، حيث تسيطر عناصر الجستابو على كافة مظاهر الحياة اليومية في العديد من المدن النمساوية ، وخاصة فيينا . وأبدى ارتياحه من عدم إعلان السلطات الألمانية عن سياسة واضحة للتعامل مع اليهود ، إلا أنه أشار إلى أنها قد تكون مختلفة عن تلك التي تتبع في ألمانيا ، إذ قد تلجأ الحكومة الألمانية إلى القضاء على المجتمع اليهودي في النمسا بشكل مباشر . وذلك من خلال استبعادهم من أنشطة الحياة الاقتصادية ، وتجريدهم من كافة مصادر دخولهم المالية ، مما يضعهم أمام خيارين : إما الموت جوعًا ، أو مغادرة البلاد إلى دول أخرى . ويشير التقرير إلى أن هذا الموقف لا بد وأن يواجه بدعم من المؤسسات الصهيونية العالمية التي من واجبها أن ترسل وفودًا إلى النمسا لمساندة العناصر اليهودية هناك . والجدير بالذكر أن تلك الاستجابة اشترطت موافقة السلطات الألمانية على عمل هؤلاء تحت مظلة شرعية⁽⁴⁴⁾ . تلك المظلة الشرعية التي أضحت مسئولاً عنها أحد عناصر

(43) Reichsgesetzblatt, I, 1938, p . 338; FRUS, 1937, Vol .II, "The Ambassador in Germany to the Secretary of State, Berlin, April 26, 1937, p .323.

(44) A Report Submitted to the Executive of the Zionist Organization by Dr . Leo Lauterbach, London, 29th April, 1938 . Zionist Archives, S5/653 .

الجستابو ، وهو إينخمان Eichmann ، الذي قام بتنظيم المجتمع اليهودي في النمسا بشكل جعله تحت المجهر بشكل دائم . وما يلفت الانتباه في هذا المقام أن إينخمان بدأ منذ توليه مهام منصبه في تحفيز المؤسسات اليهودية على تهجير أكبر عدد من اليهود إلى فلسطين ، إذ طالبها بتهجير 20 ألفاً في خلال فترة لا تتجاوز العام⁽⁴⁵⁾ .

وفي تصعيد آخر ، أشار تقرير أرسلته القنصلية البريطانية في برلين إلى لندن في الثامن من يونيو من عام 1938 ، إلى أن هذا الشهر شهد موجة جديدة للاضطهاد الألماني لليهود لم تقتصر فقط على العاصمة برلين ، بل امتدت لتشمل العديد من أنحاء ألمانيا . إذ تم شن حملة مداهمة لمنازل اليهود ، أُلقي القبض خلالها على عدد كبير من العناصر اليهودية ، كما امتدت حملات المداهمة لتشمل المقاهي ودور السينما، حيث أُخليت من روادها عدا اليهود ليسهل إلقاء القبض عليهم وإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال . وقد شهدت العاصمة برلين ذروة تلك الموجة ، حيث تم وصم واجهات المتاجر ونوافذها بالعلامات الاستفزازية على يد العناصر المدربة من الحزب النازي بل لقد تم تحطيم كثير من تلك المتاجر ونهبها . على أن التقرير لفت الانتباه إلى قضية هامة ، وهي أن الشارع الألماني لم يبدِ تأييداً واضحاً لتلك الأعمال ، إذ رأى العديد أنها تتناقض مع أركان المدنية الحديثة ، خاصة وأن الهجوم كان يشن على عناصر سلبت كافة وسائل الدفاع عن نفسها ، في ظل رفض السلطات الرسمية تقديم أي شكل من أشكال الدفاع عن العناصر اليهودية ، كما أن تقاعس قوات الشرطة عن مواجهة تلك الأعمال كان مدعاة لطرع العديد من علامات الاستفهام حول ولاء تلك القوات والتوجهات السياسية لقيادتها . من جهة أخرى ذهب التقرير إلى أن هناك أشكالا أخرى من الأعمال العدائية كانت تتم ضد اليهود لكن بشكل غير علني ، والمقصود بتلك التصرفات التمييز ضد اليهود في المعاملات اليومية . وقد تجمعت هذه الأشكال المتباينة من التصرفات لتفرز مناخاً عدائياً واضحاً ضد اليهود ، حتى إن إسقاط الجنسية عنهم وسحب هويتهم أضحي يشكل عملاً روتينياً⁽⁴⁶⁾ .

(45) The Attorney-General of the Government of Israel v . Adolf Eichmann, Minutes of Session No . 18, Jerusalem, 1961 .

(46) Extract from Berlin Consular Report, 8 June 1938, sent to London by Sir G Ogilvie-Forbes, HM Minister in Berlin, on 13 July.

وعلى الرغم من دعوة الولايات المتحدة لعقد مؤتمر لدراسة موقف اللاجئين اليهود ، وموافقة فرنسا على استضافته في مدينة إفيان في الفترة من السادس حتى الثالث عشر من يوليو من عام 1938⁽⁴⁷⁾ ، وصدور العديد من التوصيات الرامية إلى تحسين أوضاع هؤلاء اللاجئين ، ومطالبة السلطات الألمانية بعدم تجريد هؤلاء اقتصادياً ، فإن المؤتمر لم يسفر عن آلية فاعلة لمواجهة الموجات الألمانية الطاردة للعناصر اليهودية ، بل إنه صدر في شهر أغسطس من ذات العام مذكرة تفسيرية للقانون الخاص بتغيير الأسماء نص على تغيير أسماء اليهود ليضحي كل الذكور باسم إسرائيل ، والإناث باسم سارة⁽⁴⁸⁾ . وفي شهر أكتوبر جرت أولى محاولات طرد اليهود من العاصمة النمساوية فيينا ، إذ اجتمع ممثلو الحزب النازي في إحدى ضواحي فيينا وتم الإعلان عن القيام بعملية منظمة ضد اليهود في العاشر من شهر أكتوبر عام 1938 ، استهدفت إجبارهم على مغادرة البلاد ، فإذا لم يكن لديهم جوازات سفر فإنه سيتم إجبارهم على التوجه عبر الحدود الألمانية التشيكوسلوفاكية إلى العاصمة براغ . والجدير بالذكر أنه تم الاتفاق في هذا اللقاء على أهمية ألا يبدو هذا العمل ذا طابع حزبي ، بل لا بد أن يتم تنظيم مظاهرات شعبية لتدعيمه⁽⁴⁹⁾ .

وفي السابع من نوفمبر من ذات الشهر أطلق شاب يهودي بولندي النار على أحد موظفي السفارة الألمانية في باريس ، وبعدها أُلقي القبض عليه ، أقر بأنه فعل ذلك انتقاماً من الألمان الذين تعاملوا بوحشية مع والديه ومع اليهود بوجه عام . وفي اليوم التالي وافت هذا الموظف المنية وكان ذلك بمثابة الشرارة التي أشعلت نار موجة اضطهاد ألمانية جديدة ضد اليهود ، فأصدرت السلطات عدة إجراءات عقابية ضد اليهود مثل تعليق إصدار الصحف اليهودية ، وحظر حملهم للأسلحة النارية . وحتى منتصف ليل يوم التاسع من نوفمبر كانت العاصمة برلين هادئة ، إلا أن صباح اليوم التالي كان يحمل بداية

(47) Proceedings of the Intergovernmental Committee, Evian, July 6th to 15th, 1938 . .
Record of the Plenary Meetings of the Committee . Resolutions and Reports,
London, July 1938 .

(48) Ibid.

(49) Regulation Requiring Jews to Change their Names, August 1938 .
Reichsgesetzblatt, I, 1938, p . 1044.

موجة غضب شعبية عامة ضد اليهود صاحبته أعمال تدميرية وموجات إرهاب متفرقة ضد هؤلاء . وسرعان ما امتدت نيران الغضب لتشمل كافة أنحاء ألمانيا حيث تم إشعال النيران في المعابد اليهودية أو تدميرها بشكل ما ، واقتحام المتاجر ومقار الأعمال ونهبها . أما في مدينة ميونخ فقد تعرض اليهود فيها لتهديدات متفاوتة وأهينوا بل وطرّدوا من منازلهم ، وتسبب ذلك في انتحار العديد منهم . ويشير المندوب البريطاني لدى برلين إلى أنه شهد بعض مظاهر تلك الأعمال التخريبية العدائية والتي استمرت حتى ليل ذات اليوم ، حيث قامت عصابات من الشباب المسلح باستكمال التدمير الذي كان قد بدأ صباحاً . والجدير بالذكر أن الشرطة الألمانية لم تظهر بشكل فاعل في غضون تلك الأحداث ، ولم تمارس فرق الإطفاء عملها إلا إذا رأت أن حريق أحد المعابد أو مقار الأعمال اليهودية بات يهدد أحد المباني التي يملكها الألمان⁽⁵⁰⁾ .

وقد كشفت الوثائق فيما بعد أن تلك الموجة كانت عملاً انتقامياً مدبراً من قبل السلطات الألمانية التي أصدرت تعليماتها لكافة القطاعات الشرطة بشأن تلك الأعمال في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة من فجر يوم العاشر من نوفمبر أوضحت فيها أهمية القيام بمظاهرات ضد اليهود في كافة أنحاء البلاد ردّاً على عملية الاغتيال التي جرت في باريس . ومن بين تلك التعليمات كان عقد اجتماع يضم رؤساء شرطة المقاطعات مع قادة الحزب النازي في تلك المناطق للاتفاق على الإجراءات التي ستتخذ في هذا المضمار ، ومن بينها عدم تعريض أرواح وممتلكات الألمان للخطر ، والسعي إلى تدمير مقار أعمال ومساكن اليهود لكن مع عدم سلبها . من جهة أخرى صدرت تعليمات لقوات الشرطة بمداهمة المعابد ومكاتب المؤسسات اليهودية والاستيلاء على أرشيفاتها بهدف عدم تعريضها للتدمير في غضون تلك المظاهرات مع الاحتفاظ بأوراقهم ربما لاستخدامها ضدهم في حالة الضرورة . أما بالنسبة لعمليات إلقاء القبض فقد صدرت تعليمات واضحة بالقبض على اليهود الأغنياء والشباب تحديداً ، والزج بهم في معسكرات الاعتقال⁽⁵¹⁾ .

(50) Yad Vashem Archives, O-5/1-2 .

(51) Dispatch No . 1224 from Sir G Ogilvie-Forbes, HM Minister in Berlin, 16 November 1938 . Documents on British Foreign policy 1919-39, Third Series, Volume III , No . 313 .

وفي غضون يومين من تلك الأعمال الانتقامية صدرت قرارات سيادية بشأن استبعاد اليهود من كافة الأنشطة الاقتصادية في ألمانيا ، من بينها حظر السماح لهم مع حلول الأول من يناير عام 1939 بفتح متاجر للتجزئة أو ممارسة التجارة ، كذلك حظر عليهم عرض أية بضائع أو الإعلان عن بيعها . من جهة أخرى حظر هذا المرسوم أن يرأس يهودي أحد مؤسسات الأعمال ، وكل يهودي يتقلد منصباً تنفيذياً عليه ترك منصبه في غضون ستة أسابيع ، وبالتالي حظر عضوية اليهود في أية مؤسسة اقتصادية . وفي الوقت نفسه صدر قرار سيادي مفاده أن الموقف العدائي لليهود في ألمانيا يتطلب اتخاذ موقف صارم وبالتالي يجب إجبار الأقلية اليهودية على دفع غرامة بلغت بليون مارك⁽⁵²⁾ .

ولقد أثارت هذه الإجراءات التعسفية التي أخذت صورة العلنية في تلك المرحلة مزيداً من التعاطف مع اليهود الألمان من قبل المجتمع الدولي⁽⁵³⁾ ، وخاصة في الولايات المتحدة التي كانت ترصد كل ما يقع على اليهود من إجراءات تعسفية تدفع بهم إلى الهجرة الخارجية ، وتفقدتهم حقوقهم القانونية ، إذ إن النظرة الأمريكية كانت تقوم على أساس أن المجتمع الأمريكي مجتمع قام على الهجرات ، وأن لكل مواطن الحق في ممارسة حقوقه سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية بغض النظر عن دينه ولونه وجنسه . هذه الفلسفة الأمريكية لا شك كانت أحد الأسباب التي جعلت ممثلي الحكومة الأمريكية في ألمانيا وغيرها من العواصم الأوروبية ، يبدون تعاطفهم مع اليهود الألمان ، وهو ما قد وضح في مراسلاتهم⁽⁵⁴⁾ .

هكذا وفي يناير من عام 1939 وبعد تصاعد الأوضاع بشكل خطر على الصعيد الدولي أصدرت وزارة الخارجية الألمانية مذكرة توضيحية بشأن سياسة الدولة ضد اليهود ، أشير فيها إلى أن أحداث عام 1938 جلبت إلى السطح بشكل متوازٍ تعميق مفهوم ألمانيا العظمى ، كذلك القضية اليهودية التي يتضح حسبها أشارت المذكرة أنها قاربت على أن تجد حلاً حاسماً . وأرجعت المذكرة السياسة الألمانية العدائية ضد اليهود إلى النفوذ السلبي لهؤلاء بالإضافة إلى عقليتهم الاستغلالية الفاسدة في المجالات السياسية

(52) Riots Of Kristallnacht* - Heydrich's Instructions, November 1938 . PS-3051 .

(53) Regulation for the Elimination of the Jews from the Economic Life of Germany, November 12, 1938 . Reichsgesetzblatt, I, 1938, p . 1580 .

(54) Reichsgesetzblatt, I, 1938, p . 1579 .

والاقتصادية ، والذي أدى إلى تعجيز "قدرة وإرادة" الشعب الألماني على النهوض مجدداً في فترات سابقة . وذهبت المذكرة إلى أن علاج هذا المرض المزمن كان أحد المتطلبات الأساسية لإرساء دعائم ألمانيا العظمى في مواجهتها للعالم أجمع . إلا أن المذكرة أضافت سبباً آخر لاتباع تلك السياسة الراديكالية الجهرية ضد اليهود ابتداءً من عام 1938 وهو أن الاتحاد بين ألمانيا والنمسا نجم عنه إضافة مزيد من اليهود إلى يهود ألمانيا أنفسهم . وهنا تجدر الإشارة إلى أن تلك المذكرة قد أوردت أن عدد اليهود النمساويين الذين أضخوا عبئاً على السياسة الألمانية بعد الوحدة كان 200 ألف ، وأن عدد اليهود الألمان كان 500 ألف . وتلك الأرقام تتناقض بشكل جلي مع الأرقام التي تطرحها بعض الدوائر اليهودية، والتي تتجاوز الستة ملايين . من جهة أخرى أوردت المذكرة أن الهدف النهائي للسياسة الألمانية ضد اليهود هو تهجيرهم عن الأراضي الألمانية . وتعود المذكرة لتضيف سبباً آخر للتحويل الذي طرأ على استراتيجية التعامل مع القضية اليهودية في عام 1938 وهو أنه على الرغم من أن اليهود قد بدأوا بإزاحتهم عن الدوائر السياسية والاقتصادية ، إلا أن نفوذهم الاقتصادي القوي ظل واضحاً حتى عام 1938 ، وأضحى جلياً تمسكهم بالبقاء في البلاد واسترجاع الأيام الخوالي . إلا أن الأحداث في العديد من الدول الأوروبية، والتي كانت تسير في عكس اتجاه بقاء العناصر اليهودية فيها ، دفعت السلطات الألمانية إلى اتخاذ سياسة أكثر فاعلية لوضع حل جذري لتلك المشكلة المؤرقة⁽⁵⁵⁾ . لم يتوقف الأمر عند عام 1938 بل استمر في فترة الحرب العالمية الثانية ، وقد وضح هذا في العديد من المواقف حيث أصبح موقف اليهود أكثر صعوبة على كافة الأصعدة ، حتى إن السلطات الألمانية لجأت في صيف عام 1941 إلى تسخير اليهود للعمل كأيدٍ عاملة لتشيد مرافق البنية التحتية المختلفة⁽⁵⁶⁾ . وفي أكتوبر من نفس العام صعدت السلطات موقفها ضد

(55) U . S . F . R . 1938, Vol . II, "Political Report of the Charge in Germany ." pp . 355-358; FRUS, 1938, Vol . II, "The Ambassador in Germany to the Secretary of State, Berlin, May 16, 1938, pp . 373-374; FRUS, 1938, Vol . II, "The ambassador in France to the Secretary of State ." , May 31, p . 523; FRUS, 1938, Vol . II, "The ambassador in Czechoslovakia to the Secretary of State , August 6 , p . 543 .

(56) Akten zur deutschen auswaertigen Politik 1918-1945 ("Documents on German Foreign Policy 1918-1945"), series D (1937-1945), Vol . V, Baden-Baden, 1953, pp . 780-785 Also U S F R opcit, The charge in Germany (Germany "Gilbert " To Sec . of state No 3852, Berlin , Jun 26 1938 P 357.

هؤلاء ، إذ أصدرت قرارًا بمنع هجرتهم خارج البلاد⁽⁵⁷⁾ في خطوة يرجح أنها هدفت إلى تركيز كافة الجهود على مواجهة الأخطار الخارجية ، والعمل على التخلص من تلك العناصر في الداخل وعدم تصدير المشكلة إلى الخارج . وربما كان يهدف من هذه الخطوة إلى التعامل مع المسألة اليهودية بوصفها شأنًا داخليًا يمكن السيطرة عليه فلا يجعل منهم مجالاً لمهاجمته خارجيًا ، خاصة وأنهم كانوا يمتلكون القدرة الدعائية التي كانت تجد آذانًا مصغية في بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة . يضاف إلى ذلك أنه قد أراد أن يجعلهم أشبه بالمحاصرين ، مما قد يمكنه من أن يجعل منهم دروعًا بشرية قد تستخدم بشكل أو بآخر ، أو ربما أراد الاحتفاظ بهم لمقايضتهم مع الدول المعادية إذا استلزم الأمر . الجدير بالذكر أنه في التاسع والعشرين من إبريل من عام 1945 كتب هتلر مندداً بتحميل العالم له مسئولية اندلاع الحرب في عام 1939 ، وألقى باللائمة في ذلك على اليهود الذين عاملوا الألمان على أنهم مجرد أسهم في البورصات ، وكان على الألمان أن يتخلصوا من براثن هؤلاء . كما دعا هتلر الألمان إلى بذل كل غالٍ ورخيص في سبيل مواصلة السعي للتخلص من العناصر اليهودية بلا رحمة ليس في ألمانيا فقط بل في كافة أرجاء العالم⁽⁵⁸⁾ .

ونخلص من هذا إلى أن الأحداث المختلفة والمتباينة التي مرت بألمانيا منذ عام 1933 كانت تشير إلى أن هتلر كانت لديه استراتيجية واضحة للتخلص من يهود ألمانيا ، بل ومحو أي أثر لتأثيراتهم الاقتصادية والسياسية على كافة الأصعدة . وقد اعتمدت تلك الاستراتيجية على التدرج في الأداء ، إذ لم تجاهر السلطات الألمانية في المرحلة الأولى بالعداء الكامل أو السعي إلى التخلص منهم ، بل على الأرجح أنها لجأت إلى احتوائهم والعمل على السيطرة على كافة الصلات الاقتصادية بين اليهود والألمان ثم تدمير تلك الصلات حتى يضحي اليهود معزولين اقتصاديًا ومن ثم سياسيًا عن دوائر صناعة القرار . والملاحظ أن اليهود استجابوا في تلك المرحلة للتحديات بشكل واعي ومتدرج ، واستخدموا في ذلك وسائل مختلفة أهمها تعبئة الرأي العام اليهودي وتوحيد صفوفه

(57) From a report dated August 18, 1941, by Robert Prochnik, Vienna Jewish Community official in charge of Emigration, in which capacity he was sent temporarily to Berlin .

(58) Yad Vashem Archives, TR-3/1209 .

بشكل قوي ، كذلك العمل على توفير المصادر المالية للتعامل مع السلبات الاقتصادية التي انعكست عليهم جراء ذلك .

ومع حلول عام 1935 بدأت مرحلة جديدة من المواجهة مع اليهود وضح فيها زيادة وتيرة حدة تعامل السلطات الألمانية معهم ، واتخذت آنذاك أسلوباً قانونياً في التخلص غير المباشر من النفوذ اليهودي من خلال سلسلة من القوانين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . على أن اليهود صعدوا كذلك من استجاباتهم القوية لتلك التحديات ، وذلك بلجوئهم إلى اليهود في الخارج سعياً للحصول على دعم سياسي واقتصادي . أما عام 1938 فقد شهد انفجار الأوضاع بشكل راديكالي ، ويرجع أن انتقال السلطات الألمانية لذلك المستوى يعود إلى شعورهم باستنفاد كافة السبل للتخلص من عبء اليهود، يضاف إلى هذا أن سبب هذه الفجاجة يرتبط بلا شك بنذر الحرب العالمية الثانية التي كانت قد بدأت تلوح في الأفق آنذاك⁽⁵⁹⁾ . ومع هذا يلاحظ أن ما أقدم عليه هتلر وجد قبولاً في أوساط الشعب الألماني الذي رأى في سياساته خاصة في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي تعويضاً عن كل ما أقدم عليه من إجراءات تجاه اليهود . فالمسألة اليهودية لم تكن تعني الشعب الألماني وهو ما أدركه هتلر منذ البداية ولذا فإنه لم يجد غضاضة فيما اتخذته من سياسات . يضاف إلى هذا أن موقف الدول الكبرى خاصة الولايات المتحدة وبريطانيا كان يسير في إطار حذر من أجل الرغبة في الحفاظ على علاقتهم بألمانيا ، معتبرين قضية اليهود إلى حد ما شأنًا داخلياً اللهم إلا إذا مست أحد رعاياهم من حاملي جنسيتهم⁽⁶⁰⁾ .

(59) Ibid, PS-3569 .

(60) يررونوفن : تاريخ القرن العشرين ، ترجمة نور الدين حاطوم ، دمشق 1959 ، ص ص 332 - 349 ،

المحتويات

- 7 نحية وعرقان
 ✻ نقوش البطاقات ومدلولاتها في عصر فجر الأسرات السومري
- 9 د. رضا محمد سيد أحمد
 ✻ العلاقات بين مدن الشمال السوري ومصر القديمة في عصر الدولة الحديثة
 (1550 - 1069 ق.م)
- 71 د. فائزة محمود صقر
 ✻ تجارة الدواب في نصوص البرديات العربية وأوراق الكاغد في القرون الأولى
 للهجرة
- 109 د. سعيد مغاوري محمد
 ✻ العلاقة بين الثقافتين العربية والهندية في عهد الخليفة المنصور (136 -
 158هـ / 754 - 775م)
- 163 د. محمد عبد الستار البنا
 ✻ أضواء على الأوقاف بإفريقيا خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة
- 201 د. حسين سيد عبد الله مراد
 ✻ انتفاضة ربيض قرطبة الجنوبي سنة 202هـ / 818م وعلاقتها بفتح جزيرة إقريطش
- 237 يحيى زكريا سرور
 ✻ بيوع ابن سهل الأندلسي « دراسة تاريخية »
- 261 د. ناريان عبد الكريم أحمد
 ✻ الحياة السياسية في بخارى في عهد الدولة الخانية (389 - 607هـ / 999 -
 1210م)
- 295 عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم
 ✻ الصلات العلمية بين الحجاز واليمن (400 - 700هـ / 1009 - 1300م)
- 369 د. يمنى رضوان
 ✻

- ❖ الحياة الاقتصادية في بلخ في العصر السلجوقي (432 - 552هـ / 1040 - 1157م)
409 د. يمى رضوان
- ❖ صفى الدين عبد الله بن على المعروف بابن شكر الوزير الأيوبي (548 - 622هـ / 1153 - 1225م)
445 د. سامية على مصيلحي
- ❖ مراسم الدفن والعزاء عند سلاطين المماليك في الفترة من (648 - 923هـ / 1250 - 1517م)
499 د. مرفت عثمان حسن
- ❖ لودولف السوكيمي ورحلته إلى مصر وبلاد الشام (1336 - 1341م)
567 د. حسن عبد الجليل البطاوي
- ❖ الأسس القانونية لتشريعات محمد علي دراسة وثائقية وتاريخية
599 د. يحيى محمد محمود
- ❖ القاضي الشرعي في المحكمة الشرعية بالقدس مهامه وصلاحياته (1268 - 1318هـ / 1850 - 1900م)
639 د. محمد ماجد الحزماوي
- ❖ ماكس هرتس باشا (1856 - 1919) ونشاطاته في ترميم الآثار العربية الإسلامية في مصر
705 د. اشتيفان أورموش
- ❖ الأفراح في مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير «صفحة من تاريخ مصر الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين»
733 د. عبد المنعم الجميبي
- ❖ الخطة السياسية الإعلامية للقصر الملكي في الأربعينيات من القرن العشرين
763 د. نازك زكي إبراهيم
- ❖ الأهمية الاستراتيجية لنفط الخليج في النصف من القرن العشرين
791 د. أحمد الشربيني
- ❖ الكويت والسياسة الدولية المعاصرة (1961 - 2003)
823 د. ماجدة منصور
- ❖ موقف هتلر من يهود ألمانيا (1933 - 1938)
853 د. محمد عبد الوهاب سيد أحمد